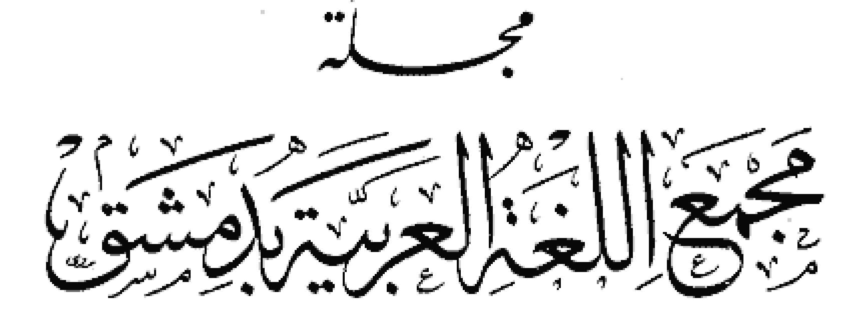
مجلة



« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

(عدد خاص)

بمناسبة انقضاء خمسين سنة على تأسيس المجمع



شوال ١٣٨٨ هـ

كانون الثاني ١٩٦٩ م

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

أنشئت سنة ١٣٣٩هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تصدر أربعة أجزاء في السنة

قيمة الاشتراك السنوي	في جميع البلاد العربية	١٠٠٠ قرش سوري
	وفي سائر الأقطار	١٢٠٠ قرش سوري
	أو ما يعادلها	جنيه وعشر شلنات
	« «	ثلاث دولارات

وإذا طُلِب إرسال المجلة بالبريد الجوي تُضاف أجرته إلى قيمة الاشتراك

(تدفع قيمة الاشتراك عند طلبه)

البحوث والمصطلحات التي ينشرها الكتّاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .

مجمعنا بعد نصف قرن من تأسيسه

يبلغ مجمعنا بحلول اليوم الثامن من حزيران سنة ١٩٦٩ خمسين عاماً من العمر ، وإذا كان هذا الحين من الدهر الذي أتى عليه لا يعد شيئاً مذكوراً في حياة المجامع الأخرى ولا سيما العريقة منها في القدم ، فقد حق له أن يزهو مفتخراً بأن إنشاءه سبق إنشاء المجمعين العربيين الآخرين (في مصر والعراق [1]) وكان تمهيداً طبيعياً للطريق أمامهما .

ولقد تميزت هذه الفترة من الزمن بأحداث جسام في الوطن العربي كله وفي القطر السوري خاصة ، ويجدر بنا لذلك أن نتساءل هل أتيح لهذا المجمع أن يقوم في هذه الظروف بالأعباء الملقاة على عاتقه حق القيام ، وهل استطاع أن يؤدي الرسالة التي اضطلع بها ؟

أرى من الفائدة قبل الخوض في صميم الموضوع ، أن أذكر الدواعي الملحة التي دعت إلى تأسيسه في ذاك الحين ، وما ذلله مؤسسوه من صعاب وما لاقوه من عقبات حتى استقر أمره وبلغ أشده .

في خريف ١٩١٨ وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وتحررت سورية مع سائر البلاد العربية من الحكم العثماني الذي ظل جاثماً أربعمئة سنة ونيفاً ، وأطل فجر السلام على العالم بعد أن ولت الأيام الحالكة من سني الحرب الضروس الأربع التي أتت على الأخضر واليابس في الكثير من أرجاء المعمورة

(١) لقد كان صدور مرسوم إنشاء مجمع فؤاد الأول (مجمع اللغة العربية في القاهرة اليوم) في ١٩٣٢/١٢/١٣ إلا أن عمله لم يبدأ إلا في ١٩٣٤/١/٣٠ .
أما المجمع العلمي العراقي فقد تأسس في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ .

والتي لم يكن نصيب سورية منها بالنذر اليسير ، فقد لاقى أهلوها المظالم وعانوا البطش والتجويع والنفي والتشريد ، واهتبل غلاة الترك الاتحاديون تلك الفرصة السانحة للتنكيل بأبناء البلاد بتنفيذ ما رسموه من خطة ترمي إلى تتريك الأصقاع العربية وصهر سكانها في بوتقة الطورانية ، فعلقوا على أعواد المشانق في دمشق وبيروت نخبة مختارة من رجال الفكر ، وساقوا شبان البلاد المجنَّدين إلى الأصقاع النائية من الامبرطورية العثمانية ، كما نفوا مئات الأسر إلى الأناضول بغية إحلال الترك محلهم .

وحين رأى المواطنون في سورية ، بعد كل هـــذه الشدائد ، إعلان الاستقلال في دمشق بعد جلاء الأتراك عنها وحين شهدوا الراية العربية المربعة الألوان تخفق في السماء ، عمت الفرحة وساد سرور لا يوصف ، وانطلقت الألسن بعد أن كمت الأفواه أعواماً عديدة ، وتبارت الأقلام للدعوة إلى إذكاء روح القومية العربية بعد أن خبت طيلة القرون الأربعة ، وتألفت حكومة عربية قوامها أبناء البلاد العربية كافة دون أي تمييز بين قطر وآخر واعتُبرت وحدة العرب هدفاً أساسياً ، وعُدّ القول بالإقليمية والعمل لها ضرباً من الدسائس الأجنبية ، الغاية منه الحُؤول دون جمع الكلمة وتحقيق الوحدة المنشودة .

وقد كانت أولى المشاكل التي واجهت هذا المجتمع الجديد الناشئ المتجه إلى اللحاق بركب الحضارة مشكلة اللغة العربية ، وقلّ من موظفي الحكومة من كان يتقن العربية أو يجيد الكتابة السليمة بها . وأنّى لموظفي العهد العثماني تعلم هذه اللغة ، وقد درسوا في المدارس التركية الرسمية وتخرجوا منها ، وهي مدارس لم تكن لتعنى بتعليم العربية العناية الكافية ، وإنما تكتفي في الغالب بتعليم مبادئ الصرف والنحو شأنها في ذلك شأن اللغة الفارسية التي تعلّم مبادؤها إجبارياً أيضاً ، وكلتا اللغتين كانتا تدرسان من أجل إغناء اللغة التركية ، لكثرة ما تحويه من مفرداتها .

وأرى من المفيد أن أتوقف هنا قليلاً لأصف حالة اللغة العربية في سورية في هذه الفترة من الزمن ، وأعني في السنين الأخيرة من الحكم العثماني وغداة إعلان الاستقلال . لقد عشت هذه الفترة شاباً يافعاً ، وعانيت معاناة واضحة ما كان من شأن اللغة فيها ، وما أظن الكثرة من أبناء هذا الجيل من قراء هذه الكلمة على معرفة بهذا الوضع اللغوي في ذلك الحين .

لقد كان تعلم اللغة العربية وقفاً على بعض الفئات من الناس وفي طليعتهم رجال الدين والمسلمون منهم خاصة ، وذلك لأنه لم تخل الأزمنة الماضية حتى في أحلك أيامها من أناس نذروا أنفسهم للتفقه في الدين وإتقان علومه إلى جانب حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، فكان لا بد لهؤلاء من الإحاطة باللغة العربية من أجل ذلك ، عرباً كانوا أو أعاجم . ولما كانت الدولة العثمانية تعفي من الجندية رجال الدين والشبان الذين ينقطعون إلى طلب علوم الدين ، بعد امتحان يؤدونه أمام لجنة من العلماء تعينها الحكومة ، فقد كان على هذه الفئة من الشباب أن تتعلم اللغة العربية لتضمن الفوز بالإعفاء ، وكم من هؤلاء من شُغف باللغة العربية إثر ذلك وتابع دراسته لها وأصبح ممَّن يشار إليهم بالبنان لسعة اطلاعه وتبحره في علومها المختلفة . ولم يكن بعض رجال الدين المسيحي أقل حظاً في تعلم لغة الضاد ، فإن منهم من عُد من المبرزين بها ، وأسهم في إرساء دعائم النهضة اللغوية في سورية ولبنان على السواء .

وكان ممن يعنى باللغة العربية أيضاً ، طلاب بعض المدارس الخاصة من أهلية وتبشيرية . فمن المدارس الأهلية المدارس الطائفية وقد كانت العربية لغة التعليم في أكثرها وكانت تعتمد في التدريس على ما طبع من الكتب في مصر ولبنان ، وإذا كان موظفو الحكومة من خريجي المدارس التركية الرسمية ، فإن التجار وأرباب الصناعات وغيرهم من طبقات الناس هم من متخرجي

تلك المدارس الخاصة . وكان بين المدارس التبشيرية التي عُنيت باللغة العربية عناية فائقة ، الجامعة الأميركية في بيروت (وكانت تعرف في بدء تأسيسها بالكلية السورية الإنجيلية ، وظلت اللغة العربية لغة التعليم في جميع فروعها بما في ذلك مدرسة الطب عدة سنوات ، وألّف الأميركان المستعربون كتباً كثيرة باللغة العربية) . ثم الكلية اليسوعية في بيروت (وتعرف بكلية القديس يوسف) إذ كان تدريس العربية فيها على مستوى رفيع أيضاً ، وعلى ذلك رأينا من خريجي هذين المعهدين ولا سيما الأول منهما من كان يحسن العربية كتابة وخطابة (١).

ولم تكن المدارس الخاصة غير الرسمية في الشام تعنى كلها بتعليم اللغة العربية ، بل إن منها ما كان تركي النزعة لا يفسح لتعلم العربية إلا أقل النصيب ، وكاتب هذه السطور ممن نشأ في إحدى هذه المدارس ، إلا أن الوعي القومي الذي استيقظ بعد إعلان الدستور العثماني ، وذاك الضغط الذي قام به حزب الاتحاد والترقي ، قد دعا إلى تطوع فئة مختارة من الشباب المثقفين إلى التسرب إلى مثل هذه المدارس والتغلغل فيها وتعليم العربية بالمجان في جانب بث الروح القومية (٢) . وقد تابعت تعلم العربية خلال تحصيلي الثانوي

---

(١) من خريجي الجامعة الأميركية القدماء المرحوم فارس الخوري والمرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر والدكتور عبد الرحمن الكيالي أمد الله بحياته .
ومن خريجي الكلية اليسوعية في بيروت المرحوم الدكتور مرشد خاطر (وقد أنهى دراسته الثانوية في مدرسة الحكمة في بيروت) ، والزميل الدكتور أسعد الحكيم أطال الله بقاءه (وأتقن العربية في مدرسة العازارية في دمشق) وكلهم من رواد النهضة الحديثة في البلاد .

(٢) كان من نصيب المدرسة الابتدائية التي كنت فيها آنذاك أن جاءنا لتعليم اللغة العربية فيها الشهيد الأمير عارف الشهابي (شقيق رئيسنا الراحل المرحوم مصطفى الشهابي) والمرحوم الدكتور صلاح الدين القاسمي ، وعلى حين انقطع المرحوم القاسمي بعد مدة قصيرة ، فقد تابع الأمير الشهابي تغمده الله برحمته دروسه عدة سنوات وكان له الفضل عليّ بأن حبّب إليّ تعلم اللغة العربية ، وزاد في تشجيعي على ذلك أن أهداني ساعة ذهبية في حفل مشهود لتفوقي ، وأهداني اشتراكاً في جريدة المفيد التي كانت تصدر في بيروت آنذاك وكان يسهم في تحريرها مع رفيقه الشهيد عبد الغني العريسي ، وكلاهما أعدم في بيروت خلال الحرب العالمية الأولى .

والعالي على أستاذ خاص ، وهكذا كنا نتعلم اللغة العربية كما نتعلم اللغات الأجنبية . ولما كان والدي رحمه الله موظفاً في دائرة التجنيد في عهد الحكومة العربية فقد اضطررت إلى تعليمه مبادئ العربية لكي يتابع عمله الرسمي ، شأنه في ذلك شأن سائر الموظفين من خريجي المدارس التركية .

وفي جانب تقصير أكثر المثقفين من المواطنين في إتقان العربية كتابة ونطقاً ، فقد تسرب بعض الألفاظ التركية إلى لغة العامة الدارجة ، منها الألفاظ التركية المحضة ومنها العربية أصلاً والتركية لفظاً . فمن الفئة الأولى : الشنطه (١) (الحقيبة) والكندره (الحذاء) والكوزلك (النظارات) والبورغي (اللولب) والسفرة (المائدة) وغيرها . ومن الفئة الثانية كلمات كثيرة أيضاً كان يستعملها بعض الخاصة في بادئ الأمر إلا أنها آخذة بالزوال ، كقولهم إمظا بدلاً من إمضاء (التوقيع) ، ومظبطة عوضاً عن مضبطة ، لأن الضاد تلفظ ظاء بالتركية ، ورأيت أحد مشاهير الأطباء في ذلك العهد يكتب على لافتة عيادته وبين الألقاب العلمية التي يحملها : الأعضا في الجمعية الفلانية لأن الأتراك يستعملون اللفظة بصيغة الجمع للدلالة على لفظة عضو المفردة ، وسمعت أحدهم أيضاً (وكان ذا مقام رفيع في الحكومة) يقول لأحد ضيوفه المصريين وهو يدعوه إلى التقدم عليه ، تفضل إنك مسافر عندنا ، لأن لفظة مسافر في التركية تعني الضيف في العربية . وتجاوزت الأغلاط الألفاظ المفردة إلى بعض التراكيب ، فقد شاهدت لافتة في شارع النصر نصبتها رياسة البلدية (أمانة العاصمة) تحمل الكلمتين (تصليحات المادية) أي التصليحات المتمادية أو المستمرة ، وما إلى ذلك من التراكيب والألفاظ التي لا يزال بعض العامة يستعملها ، وهي من رواسب الماضي القريب .

---

(١) ومنها اشتقت كلمة شنطلي أي ذو الحقيبة للدلالة على المحامي الذي يمارس المحاماة بحكم المران دون أن يكون مجازاً إجازة جامعية ولا يزال بعض الناس يستعملونها إلى يومنا هذا .

تلك لمحة عابرة عن حالة البلاد الثقافية اللغوية ، ومبلغ معرفة أهلها للغتهم غداة الانفصال عن حكم الترك ، واستلام أبنائها مقاليد الحكم ، فليس غريباً أن تكون المشكلة اللغوية أولى المشاكل التي دعت أولي الأمر وعلى رأسهم الحاكم العسكري [١] إلى السعي الحثيث لاتخاذ كل ما يمكن اتخاذه من تدابير حازمة ، وتأليفه بادئ ذي بدء دائرة خاصة في أواخر خريف ١٩١٨ سميت (الشعبة الأولى للترجمة والتأليف) ثم ديوان المعارف في شباط ١٩١٩ والذي أسندت رياسته إلى الأستاذ المرحوم محمد كرد علي ، وكان عاد حديثاً إلى دمشق بعد غياب طويل عنها ، مع أعضائه الثمانية ، ثم كانت الخطوة التالية تحويل الديوان المذكور إلى مجمع علمي [٢] بتاريخ ١٩١٩/٦/٨ ومن المفيد ذكر نص قرار التحويل [٣] ، وكان يعقد جلساته في قصر الحكومة

---

(١) وهو المرحوم الفريق علي رضا باشا الركابي الذي يعود إليه الفضل في المبادرة إلى تلافي هذه النقيصة المريعة وتنظيمه شؤون الدولة الناشئة ، ورفضه أية معاملة لا تكتب بالعربية ، وإحلاله العربية الصحيحة محل التركية بما عائل الطفرة .

(٢) بوسع القارئ الذي يود الاستزادة مما تم في هذه الفترة ، الرجوع إلى كتاب تاريخ المجمع العلمي العربي تأليف الأستاذ أحمد الفتيح (وهو من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق) وإلى ما كتبه رئيس المجمع الراحل المرحوم الأمير مصطفى الشهابي في الجزء الأول من المجلد الأربعين من هذه المجلة بعنوان المجمع العلمي العربي بدمشق .

(٣) رقم $\frac{٥٦٩٨}{٢٣٤٨}$ لحضرة رئيس ديوان المعارف المحترم

دفعاً للالتباس الذي يمكن وقوعه نسبنا أن يسمى ديوانكم بالمجمع العلمي (آقادمي) وإنا نرجو إفراز ميزانية المدارس على حدة وإرسالها إلى مدير المعارف العام والسلام عليكم .

في ١٩١٩/٦/٨ — حاكم سوريا العسكري العام

علي رضا الركابي

في ساحة المرجة ثم انتقل إلى المدرسة العادلية (المقر الحالي) وكانت الجلسة الأولى التي عقدها المجمع في مقره الجديد بتاريخ ١٩١٩/٧/٣٠ ثم والى عقد جلساته مرة أو مرتين في الأسبوع وأعلن أهدافه في ٢٠ ايلول ١٩١٩ كما يلي :

١ — النظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية ونشر آدابها وإحياء مخطوطاتها وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون عن اللغات الأوروبية وتأليف ما تحتاج إليه من الكتب المختلفة المواضيع على نمط جديد

٢ — جمع الكتب مخطوطة ومطبوعة وتأسيس دار كتب عامة .

٣ — جمع الآثار القديمة عربية وغير عربية وتأسيس متحف لها .

٤ — إصدار مجلة خاصة بالمجمع ينشر فيها أفكاره وأعماله وتكوين رابطة بينه وبين المؤسسات المماثلة .

إن دار الآثار (المتحف) التي جاء ذكرها في البند الثالث بين أهداف المجمع قد انفصلت عن المجمع في ٨ أيار ١٩٢٨ وربطت بوزارة المعارف مباشرة مع تأليف مجلس إدارة لها برياسة رئيس المجمع العلمي العربي وبقائها في المدرسة العادلية مقر المجمع إلى أن أنشئ المتحف الحديث عام ١٩٣٧ ونقلت إليه الآثار منفصلة نهائياً عن المجمع مع تكوين مديرية لها دعيت مديرية الآثار العامة وكانت ذات استقلال مالي وإداري .

وأصدر المجمع في مطلع عام ١٩٢١ مجلته التي عرفت بمجلة المجمع العلمي العربي وصدر منها ٤٠ مجلداً بهذا الاسم ثم أصبح اسمها بدءاً من مطلع سنة ١٩٦٦ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مجاراة لتسمية المجمع بهذا الاسم بعد أن توحد مجمعا القاهرة ودمشق وأصبح كلاهما فرعاً في كل من عاصمتي القطرين .

إن أول ما عُني به المجمع في بدء تكوينه الاضطلاع بأعباء كثيرة في طليعتها تقويم المعوج والركيك من الألفاظ والعبارات السائدة في هذا المجتمع الذي أهمل أمر لغته عدة قرون ، والتي درجت على الألسن وتناولتها الأقلام ، ثم إصلاح الأخطاء الشائعة وإيجاد كلمات تقوم مقام الكلمات التركية المستعملة وتشذيب لغة ما شرع بطبعه من الكتب المدرسية إلى جانب تهذيب لغة الدواوين . وأبلى في هذا الشأن بلاءً حسناً يدل على هـذا ما كان ينشره في الصحف اليومية قبل إصداره مجلته وبعد إصدارها ، وما كان يجيب به أعضاؤه عن الأسئلة الكثيرة التي كانت توجه إليهم .

ومع هذا كله ، فلم تعدم الحسناء ذاماً (على حد قول المثل العربي) ولم ينج أعضاؤه من حسد الحـاسدين وكيد الكايدين ، فصدر في أواخر تشرين الثاني سنة ١٩١٩ قرار (عُلّل باستحكام أمر الضائقة المالية) صرف بمقتضاه رئيس المجمع وأعضـاؤه الثمانية باستثناء عضوين اثنين أوكل إليهما الإشراف على داري الكتب والآثار ، فبطلت حركته وتوقف عن العمل ، إلى أن استدعي المرحوم محمد كرد علي إلى تسنم وزارة المعارف في أواخر سنة ١٩٢١ فأعاده إلى سـابق عهده ولم يكن ما لاقاه المجمع من مقاومات لتفت في عضده بل زادته نشاطاً وقوة (١) .

وأضاف بعدئذ إلى الجوانب الكثيرة التي عُني بها اهتمامه بالتراث العربي وحرصه على محاولة احيائه والحصول على أمهات الكتب العربية القديمة ما طبع منها في مصر أو أوروبا ، والتي تتعلق بتاريخ القطر الشـامي وآداب اللغة العربية فضلاً عن حرصه على تصوير واستنساخ مخطوطات كثيرة من المكتبات العامة العربية والأوروبية .

(١) من التقرير الأول عن أعمال المجمع العلمي العربي للمرحوم محمد كرد علي .

وتعرضت حياة المجمع مرة أخرى إلى الخطر في أواخر سنة ١٩٢٢ وأوائل سنة ١٩٢٣ إلى أن تم إلحاقه برياسة الإتحاد السوري ذاك الإلحاق الذي ضمن له حياته (١) وتأسست الجامعة السورية مؤلفة من المجمع العلمي العربي ومعهدي الطب والحقوق في ١٥/٦/١٩٢٣ ، ولم يدم ذلك فقد صدر في ١٥/٣/١٩٢٦ قرار المفوض السامي الفرنسي بفصل المجمع عن الجامعة السورية وربطه بوزارة المعارف التي تحولت إلى وزارة التربية ، وربط أخيراً بوزارة التعليم العالي المحدثة .

وبعد ، فهذه نظرات سريعة في حال اللغة العربية في سورية قبل تأسيس المجمع وإبان تأسيسه ، وصورة في غاية الإيجاز عن سيرة المجمع الأولى وما تعاقب عليه من أحداث كانت تتأرجح بين الفناء والبقاء .

فهل استطاع – على ذلك كله – أن يؤدي واجبه وأن ينهض بالمهمات التي اضطلع بها ؟ وماذا عليه أن ينجز وهو يواجه مع هذه الأيام نهاية نصف قرن وبداية العام الواحد والخمسين ، مرحلة جديدة من حياته المديدة إن شاء الله ، نرجو أن تكون متميزة بالكثير من الزكاء والنمو واحتمال أضخم تبعة في حياة المجتمع العربي وهي تبعة مواكبة التطور اللغوي للتطور الفكري والتطور العلمي بوجه خاص .

إن أصدق وأيسر ما يقال في هذا ، إن المجمع عمل كل ما كان في وسعه أن يعمله وفوق ما كان في وسعه في تنقية لغة المجتمع العربي في سورية من الانحراف ومحاولة صيانتها من الخطأ ، والتمكين للإيمان بقدرتها على متابعة الحياة العلمية وصياغة كتب العلوم والمصطلحات بلغة عربية سليمة ، وقد فتح عمله هذا الأمل الكبير ووضع الشاهد الحي على أن القصور ليس قصور اللغة بقدر ما هو قصور أبنائها وبعض مؤسساتها .

(١) من التقرير الثاني عن أعمال المجمع العلمي العربي للمرحوم محمد كرد علي .

وإن المجمع بعد هذا عمل عملاً ضخماً في نطاق إحياء التراث القديم فطبع مئات من الكتب الأصيلة التي هي بمثابة نصوص رئيسية لإقامة الدراسات الفكرية والأدبية على أساس علمي صحيح ، ومجموعة مطبوعاته في ذلك غنية عن أن يتحدث عنها ، لأنها قبلة الأنظار ومحط الاهتمام في أرجاء العالم العربي كله وفي دوائر المستشرقين والمستعربين .

وإن المجمع فوق هذا واصل العمل في مجلته التي جاوزت عامها الثالث والأربعين والتي تفتتح بهذا العدد عامها الرابع والأربعين ، إن هذه المجلة من أبرز مجلات الوطن العربي وأبعدها أثراً في الدائرة التي تعمل فيها ، وهي ملتقى أقلام عربية وأجنبية ، وكنز يعرفه معرفة إكبار ويحرص عليه حرص تقدير ، الباحثون العرب والأجانب على السواء ، ولا تكاد تخلو منه مكتبة في أي طرف من أطراف العالم .

إن ذلك كله ليس هو الصورة المثلى التي نتمناها للمجمع ، إن آمال المجمع وطموح المجمعيين وواقع اللغة العربية أبعد مدى وأوسع أفقاً ، ومن هنا ، فإن الذي فعله المجمع إنما كان في حدود ميزانيته الضيقة التي كانت الظروف المختلفة تدفع الحكومات المتعاقبة إلى الانتقاص منها ، فلا تكاد تترك له إلا ما يساعد على أقل الجهد .

ولا بد إذن لهذه الميزانية من أن تتسع إذا نحن أردنا أن يكون المجمع كفوءاً للمهمات التي تلقى على عاتق المجامع اللغوية ، وإنها لمهمات مضاعفة في وطننا العربي لأنها ترافق الأساس في نهضته ، أعني ترافق تكوينه الفكري وتكوينه اللغوي ، فليست ميزانية المجمع ترفاً حتى ينتابها التقشف ، ولا إسرافاً حتى ينال منها الاقتصاد ، ولكنها من أحق طرق الإنفاق بالإنفاق .

ولا بد بعد أن تتسع الميزانية من أن تستجيب الدولة إلى الإصلاحات الأساسية التي نتحدث بها إلى السلطات المسؤولة ، وأول ذلك تعديل النظام

فيما يتصل بمستوى الوظائف الرئيسية الثلاث : الرياسة ونيابة الرياسة ، وأمانة السر ، والعمل السريع على تنفيذ مبدأ التفرغ لثلاثة أو أربعة من الأعضاء ، ينصرفون عن كل شيء لينقطعوا إلى العمل المجمعي الخاص ، وإفساح المجال أمام توحيد العمل اللغوي في أجزاء الوطن العربي بين المجامع والهيئات المختلفة ، لأن وحدة اللغة هي قبل كل وحدة أخرى ، وضمان لكل وحدة سواها ناهيك بها حافزاً للبقاء العربي بجملته .

قلت إن المجمع أدى فوق ما يستطيع إذا قيست إمكاناته بإمكانات غيره من المؤسسات في البلاد العربية المختلفة ، والمجمعيون لا يفخرون بذلك لأنهم يعتقدون أنه واجب في أعناقهم وأمانة في ضميرهم لكن الظروف السيئة تجعل من العسير أن يستمر المجمع في مثل توقده وإنتاجه إذا ظلت هذه الشرائط المضنية تقيد خطاه .

والمجمعيون يدٌ واحدة على متابعة الجهد في أوسع آماده في سبيل الواجب اللغوي ، ولعلهم واجدون من اهتمام الدولة فيما يستقبلون من أيام خيراً مما وجدوا فيما استدبروا منها ، إن ذلك علامة هامة من علامات صحة المجتمع الفكرية والقومية وكلنا حراص على أن تكون هذه الصحة في أرفع مستوياتها .

الدكتور حسني سبح

خمسون عاماً

أتت على ميلاد مجمعنا المبارك خمسون عاماً وكأنها خلسة نظر ، فما هي الذكرى التي بقيت في الذهن بعد نصف قرن ، أرجع بالخاطر إلى أوائل نشأة المجمع الذي شرّفني بانتخابي عضواً فيه سنة ١٩٢٦ على ما أذكر . كانت تلقى في المجمع محاضرات عامّة كل أسبوع ، وكان الإقبال على تلك المحاضرات عظيماً ، فالناس كانوا في رغبة شديدة في المعرفة والاطّلاع ولذلك كانوا يزدحمون أيّام المحاضرات ، ولست أستطيع أن أقول أن تلك المحاضرات كانت على درجة واحدة من الجودة ، فبعضها كان شبيهاً بالمواعظ ، يرتجلها أصحابها دون استعداد ولا تخمير ، كأنّهم على منابر الوعظ ، وبعضها كان فوق مدارك الجمهور ، أذكر أني سمعت بعض الحضور يقولون بعد أن فرغ أحد المحاضرين من محاضرته وقد خاض في موضوع من موضوعات اللغة : هذا فوق مداركنا !

فاتحني مرّة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، أدخله الله في رحمته بأمر هذه المحاضرات ، وقد كثرت حتى كاد أثرها يضعف في النفوس ، فقلت للأستاذ العظيم : أرجو أن يقلّل المجمع من المحاضرات العامّة ، أو أن يلغيها لأن فائدتها بعد كثرة المدارس ونشأة الجامعة قد قلّت ، فلم تبق حاجة ماسّة إليها ، فالمجمع ينبغي أن يكون عمله غير إلقاء المحاضرات العامّة على أنّه قد خفّ إقبال الناس عليها ، وما زال هذا الإقبال يخفّ حتى أُبطلت المحاضرات .

وإذا أبطلت تلك المحاضرات في المجمع فقد قامت مقامها مظاهر ثانية ، من هذه المظاهر تأبين البلغاء من الكتّاب والشعراء ، وفي جملتهم المنفلوطي وحافظ وشوقي أو تكريم الفحول منهم في حياتهم ، أمثال شوقي وحافظ ومطران والزهاوي ، تغمّدهم الله بواسع رحمته ، ولا تكاد تحضرني عبارة للإفصاح عن استقبال شوقي يوم ألقيت قصيدته الخالدة ، وقد كان لا يلقي شعره وإنما ألقاها عنه المرحوم نجيب الريّس ، أمّا أثر هذه القصيدة فاني عاجز عن وصفه ، فقد نقلت الناس من حاضرهم الأليم إلى ماضيهم الرائع ، نقلتهم من أيّام الانتداب الفرنسي إلى أيّام بني أميّة وعزّ سلطانهم ، حتى خرج الناس من المجمع وكأنهم سكارى .

ثم تقلّب المجمع في أحوال مختلفة كان خلالها في مهبّ الريح ، مرّة كانوا يلحّون في مجلس النوّاب في إلغائه ، ومرّة كانوا يطلبون التضييق عليه حتى انبرى الأستاذ فارس الخوري ، رحمه الله تعالى ، وهو صاحب الحجّة القاطعة للدفاع عنه في مجلس النوّاب .

وما زال المجمع تهبّ عليه رياح مختلفة حتّى نعم بالاستقرار والطمأنينة فانصرف إلى جلائل أعماله دون قلق واضطراب ، وعلى رأس هذه الأعمال المحافظة على لغة العرب .

لست في حاجة إلى الكلام على شهرة المجمع ورآء البحار ، فهو في نظر المستشرقين عنوان أدب البلاد ولغتها وتاريخها ، هو عنوان المحافظة على هذا الأدب وهذه اللغة وهذا التاريخ ، ونرجو أن يبقى عنواناً لهذه الأمور الشريفة على تراخي السنين .

هذا يسير ممّا بقي في الذهن من ذكرى مجمعنا في خمسين عاماً ، وإذا أشرت في هذا المقام إلى طائفة من أفاضل أعضائه الراسخين في اللغة ، أمثال المبارك والجندي وغيرهما وإذا كنت أقتصر على هذه الإشارة فالسبب

في ذلك اني أرى أن مجمعنا خلَّده الله تعالى إنما عمله المحافظة على لغتنا ، على روحها وعبقريتها ، ولا سيما في زمن قلَّت فيه العناية باللغة ، وأصبح كل من يمسك بالقلم يعتقد أنه حرٌّ في التصرف في حرمتها ، يخترع من الألفاظ ما يريد ، ويركِّب من الجمل ما يشاء ، ويستعمل من هذه الألفاظ وهذه الجمل ما لا نفهمه نحن الذين نعيش في هذا العصر ، وما لن يفهمه الذين يأتون بعدنا في المستقبل من الأيَّام ، لقد أصبحت اللغة يومنا هذا فوضى في كثير من الأحوال ، نقرأ في بعض الصحف والمجلاَّت والكتب ما لا نهتدي إلى معناه ، وإذا قابلنا بين هذا الزمن الذي نعيش فيه وبين الزمن الذي كان يعيش فيه شيوخ اللغة وأمراء البيان أشباه اليازجي وأرسلان ومن هم في طبقتهما نجد الفرق عظيماً ، إذا قابلنا بين غيرتهم على اللغة وبين استخفاف كثير من أهل هذا الزمن بتقديسها بلغ العجب منَّا كل مبلغ ، كان أحدهم إذا زلَّ به قلمه زلَّة قامت الدنيا وقعدت ، فكثرت المناظرات في الصحف والمجلاَّت من أجل لفظة واحدة ، أمَّا اليوم فلا تقوم الدنيا ولا تقعد من أجل ألفاظ ليست من اللغة في شيء ، ومن أجل تراكيب لا يعلم معانيها إلاَّ الله عزَّ وجلَّ ، فقد يقع نظرنا على ألفاظ لا أصل لها وعلى تراكيب خارجة عن روح اللغة ، فلا نجد من ينبِّه عليها ولا نجد من يهتمّ بهذا التنبيه إذا وقع ، ولسنا نعلم عواقب هذه الأمور لما لسنا نعلم ما تصير إليه اللغة بعد حين من الدهر إذا استمرَّ كثير من الذين يمسكون بالأقلام في التصرّف في اللغة بحسب مشيئتهم وأهوائهم ونزعاتهم .

من أجل هذا كلّه أرى أن عمل مجمعنا الوحيد إنما هو المحافظة على روح اللغة وعبقريتها حتى تبقى لغة عربية ، من روح اللغـــة التي كانت شائعةً على أقلام أئمة البلاغة في عصورنا الخالية ، نظراء ابن المقفع والجاحظ

والتوحيدي وغيرهم ممَّن كان يجري على أساليبهم ، وإذا وجدنا من يقول أن الزمن قد تبدَّل ، فلماذا لا تتبدَّل اللغة ، إذا وجدنا من يقول هذا القول فإنَّا نقول له ولإخوانه : قد يتبدَّل الزمن وقد يتبدَّل التفكير وقد تتبدَّل اللغة ، ولكن تبدّل اللغة لا ينبغي له أن يخرجها عن روحها وعن عبقريتها .

أخذ الله بيد مجمعنا حتى يحافظ على هـــذه اللغة وعلى هذه الروح وعلى هذه العبقرية !

شفيق جبري

—



سابق البربري

شاعر من المغرب عاش في الشام

– ١ –

أبو سعيد بن عبد الله ، هكذا كناه ونسبه في تاج العروس وقال : روى عن مكحول وروى عنه الأوزاعي . فهو إذاً من تابعي التابعين ، وممن سكن دمشق ، إذ أن مكحول دمشقي والأوزاعي هو إمام أهل الشام . ويأتي في أخباره مع عمر بن عبد العزيز ما يؤكد ذلك .

ولما ذكر في الذخيرة السنية أن زِناتة تنتسب إلى بَرِّ بن قيْس عَيْلان قال : وفي ذلك يقول سابق المَطْماطي حين قتال البربر للرّوم بافريقية أيام سليمان بن عبد الملك .

أيا معشرَ الرُّوم ارحلوا عن بلادكم ... وخلُّوا لنا عنها بطيِّ المراحل
فقد قصدتكم بَرْبَرٌ بسيوفها ... وأحلافها أهل الرِّماح الذوابل
قبائلُ من بَرِّ بنِ قَيْس وخِنْدف ... وذي يمَن في عزّها المتطاول

ومعلوم أن مَطْماطةَ إحدى قبائل زِناتة ، وزِناتةُ من البربر . فهل أن سابق البربري هو المطماطي ؟

أما العصر فهو عصر واحد . وأما الشعر فهو ما اشتهر به صاحبنا ، وزيادة على ذلك فان نسْج هذه الأبيات يوافق المنوال الذي نُسِجت عليه جميع أشعاره التي سنرويها بعد .

ولكن الذي يُشوِّش علينا في جعلهما شخصاً واحداً ، هو أن ابن خلدون يذكر في عِدادِ قبيلة مطماطة سابقَ بنَ سليمان بن حراث كبيرَ نسّابة البربر . وينقل عنه كثيراً . وكذا يذكره الزيّاني في رحلته ، ويُفهَم منه أنه وقف على كتابه في تلمسان ، وإن كان اسمه عنده يقع فيه تخليط . وعلى كل حال فهو من مطماطة كما نسبه صاحبُ الذخيرة ، وهو عالم بالأنساب كما تقضي بذلك أبياته التي أوردناها في نسبة القبائل البربرية إلى برّ بن قيس ولا يختلف عن صاحبنا في شيء إلا أن هذا هو ابنُ عبد الله والآخر هو ابنُ سليمان . . ومع ذلك فلم نر من وصف صاحبَنا بأنه نسابةُ البربر ، أو أن له كتاباً في هذا الموضوع ، خاصةً وان زمانه كان سابقاً عن وقت تأليف الكتب في الجملة .

وقد اشتهر صاحبُنا بقول الشعر والإجادة فيه بحيث سارت بعضُ أقواله سيْرَ الأمثال ، ومنها هذان البيتان :

قد ينفع الأدبُ الأبناءَ في صغر وليس ينفعهم من بعده الأدبُ
إنّ الغصون إذا عدّلتها اعتدلت ولا يلينُ ولو ليّنته الخشَبُ

نسبها إليه غير واحد .

والمعتقَدُ أن له ديواناً شعرياً يحتوي جميعَ ما قاله في الأدب والأخلاق والحكم والمواعظ ، إذ هي المواضيع الغالبة على شعره ، ولم نقف له على شعر في غيرها باستثناء الأبيات الثلاثة السابقة ، وبيت غزلي نسبه إليه في الكشاف غلطاً وهو لجرير .

وهاك ماجاء في فهرست ابن خير دليلا على ماذكر :

« أخبار سابق البربري وأشعاره » حدثني به القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله قال أنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي قال أنا أبو اسحق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي ، قال قُرِئَ على أبي عمر محمد بن العباس

ابن زكريا بن حيوية قال قرىء على أبي الحسن أحمد بن جعفر بن محمد من كتابه هو يسمع ، وأنا أسمع فأقرّ به ، قال كان سابق البربري فذكر أخباره وقصيداً واحداً ثم قصائده بروايات مختلفة ، قال ابن العربي تقيّدتْ في مواضعها عندنا والحمد لله ،) ولا يوجد هذا الكتاب الآن أو على الأصح لانعرف عنه خبراً ، ومن المؤسف حقاً أن يضيع هذا الأثر الأدبي النفيس لشاعر ربما كان هو أول من نبغ من هذا المغرب العربي بقول الشعر في لغة الضاد والإجادة فيه ، وهـذا النبوغ المبكر ، على أثر اتصـال البربر بالعرب إن دل على شيء ، فإنما يدل على صحة انقساب هذه القبائل المغربية إلى الشّعب العربي ، وصِدْق النسّـابة الذين يُرجعون البربر إلى أصول عربية من عدنانية وقحطانية . وما أصدقَ ما ينسب إلى تُماضر بنتِ قيس عيلان تَرْثي أخاها بَرّاً . وتذكُر بُعدَه عن وطنه :

كأني وَبرّاً لم تعزّ ديارُنا بنجد ولم نقسِم نهابا ومغنَمَا
وشطَّت بِبَرّ دارُه عن بلاده وطوّح برٌّ نفسه حيث يمَّما
وأزرت بِبَرٍ لُكْنةٌ أعجمية وما كان بَرّ في الحجاز بأعجما

نعم لقد استعجم بَرّ لما غاب عن بلاده وتوحَّد في ديار الغُربة ، وهاهو لما اجتمع ببني أبيه وأخواله وأعمامه يستعرب ثانية ويتفتَّق لسانُه في أسرع ما يكون بلغة الضاد . ويُصبح سابقٌ بين عشية وضحاها من أشعر أهل زمانه ، وطارقٌ من أفصح خطبائهم . ولماذا لا يكون ذلك : وإسماعيلُ أبو العرب المستعربة يُمثّل لنا نفسَ القصة ، وإنما يعرضها عرضاً معاكساً لقصَّة بَرّ ؟

أمَا إنه قد آن لنا أن نهتم جدياً بالمسـألة ، ونعرض قضيةَ عُروبة البربر على الباحثين النفسيين ونحلل هذه اللهجـات البربرية تحليلاً فلُولوجياً فلا يمكن أن يكون هذا التعلّق الشديد بالعرب ، وهـذا البيانُ المُعرب

بلغتهم ظاهرتين عاديتين لا ترجمان إلى عناصر نفسية وأصول لغوية متحدة أو مشتركة . وإلاّ فلِمَ لا يمتزج الفارسي مثلاً إلاّ بأصله، ولم تكن إلاّ كلاّ ولا ، حتى عاد إلى فهلويته يمكّن لها في بلاده بعد أن كان بلغ في العربية شأواً لا يلحق ، على حين أن البربري ، في عنفوان مجده وإقبال دولته لا يحيد عن الانتماء إلى الأصول العربية التي يعتقد أنه منحدر منها ، وما يزال كذلك إلى الآن يُدِلُّ بعروبته ويرفع من شأن عربيته ؟..

المسألة مهمة جداً فلينظر فيها بجد . . .

ونعود فنروي بعض ماوقفنا عليه من شعر صاحبنا سابق ، في مطالعاتنا طول عدة سنين . وهو جملة من القصائد والقطع النفيسة في الأدب والأخلاق نزفّها إلى الناشئة المغربية على أنها أثر من الآثار الأدبية الرفيعة التي أنتجها أبناء هذه البلاد الخصبة ، وإنْ كان بعضهم ما يزال يتشكك في أن لبلاد المغرب أدباً .

قال سابق يزهّد في الدنيا وهي مما أنشده له الجرّاوي في كتابه صفوة الأدب المعروف بالحماسة المغربية :

النفسُ تكْلَفُ بالدنيا وقد علمت ... أن السلامة منها تركُ ما فيها
والله ما قنعت نفس بما رُزِقت ... من المعيشة إلاّ سوف يكفيها
أموالُنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورُنا لخراب الدهر نبنيها
قِسْ بالتجارب أحداثَ الزمان كما ... تقيسُ نعلا بنعل حين تحذُوها
والله ماعمّرت في الأرض عامرةٌ ... إلاّ وصرْفُ الليالي سوف يفنيها

ومما أنشده له الشّريشي في شرح المقامات ، ولعله هو والأبيات قبله من قصيدة زهدية طويلة :

نلهُو ونأمُلُ أياماً تُمدّ لنا ... سريعةَ المرّ تطوينا ونطويها
كم من عزيز سيلقَى بعد عزته ... ذلاً وضاحكةٍ يوماً ستبكيها

وللحتوف تُربّي كلُّ مرضعة ... وللحساب بَرى الأرواحَ باريها

لا تبرح النفسُ تنْعى وهي سالمة ... حتى يقوم بنادي القوم ناعيها

ولن تزال طَوال الدهر ظاعنةً ... حتى تُقيم بوادٍ غير واديها

أموالُنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال ولعلّه من هذه القصيدة أيضاً :

أين الملوك التي عن حَظّها غفَلَت ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

غُرَّت زمانا بملكٍ لا دوام له ... جهلا كما غَرَّ نفساً مَنْ يُمنّيها

وصبَّحت قومَ عادٍ في ديارهم ... بمُقطع يوم عادتهم عواديها

وتُبَّعاً وثمودُ الحِجْر غادرهم ... ريبُ المنون رميماً في مغانيها

فكيف يبقي على الأحداث غابرُنا ... كأننا قد أظلتْنا دواهيها

ومن قوله في الحكمة على طريقة المعاريض :

تَعاوَنْ على الخيرات تظْفَرْ ولا تكن ... على الإثم والعدوان ممن يُعاوِنُ

وداهِنْ إذا ماخِفتَ يوماً مُسلَّطاً ... عليك ولا يحتال من لا يُداهِنُ

ولا تكُ ذا لونَيْن يُبدي بَشاشة ... وفي صدره ضَبٌّ من الغِلّ كامِنُ

وقال في اتباع الهوى ، ولعلها من تتمة الأبيات قبلها :

وهجرُ الهوى للمرء ـ فاعلم ـ سعادةٌ ... وطولُ الهوى رَيْنٌ على القلب رائنُ

فكن دافناً للشر بالخير تسترح ... من الشر ، إن الخير للشر دافن

وقال ولعلها منها أيضاً :

فحتى متى تلهو بمنزل باطل ... كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطِنُ

وتجمع مالا تأكل الدهر دائباً ... كأنك في الدنيا لغيرك خازِنُ

وأنشد له المبرد في الكامل هذا البيت المفرد :

وإن جاء مالا تستطيعان دفعَه ... فلا تجزعا مما قضى الله واصبرَا

وأنشد له البحتري في حماسته هذه الأبيات الأربعة مفردة :

استخبر الناس عما أنت جاهلُه   إذا عميت فقد يجلو العمى الخبرُ

* * *

وفي البحث قِدْماً والسؤال لذي العمى   شفاءٌ وأشفى منهما ما تُعاينُ

* * *

إن عبتَ يوماً على قوم بعاقبة   أمراً أتوه فلا تصنع كما صنعوا

* * *

إذا عبتَ أمراً فلا تأتِه   وذو اللب مجتنبٌ ما يعيب

* * *

والأول من هذه الأبيات من قصيدة طويلة ذكرها ابن الجوزي في كتابه مناقب عمر بن عبد العزيز قال :

(ذِكرُ ما وُعِظ به عمر بن العزيز رضي الله عنه) عن أبي سليمان أحمد بن عبد الله الجواليقي قال : قال سابق البربري لعمر بن العزيز رحمه الله :

بسم الذي أنزِلت من عنده السُّوَرُ   الحمدُ لله أما بعدُ يا عُمرُ
إن كنتَ تعلم ما تأتي وما تذر   فكن على حذَر قد ينفع الحذَرُ
واصبر على القدَر المجلوب وارضَ به   وإن أتاك بما لا تشتهي القدَرُ
فما صفا لامرئ عيش يُسرُّ به   إلا سيتبع يوماً صفوَه الكدر
واستخبر الناس عما أنت جاهله   إذا عميتَ فقد يجلو العمى الخبرُ
قد يرعوي المرءُ يوماً بعد هفوته   وتحكم الجاهلَ الأيامُ والغِيَر
إن التُّقى خيرُ زاد أنت حامله   والبِرُّ أفضلُ شيء ناله البشر
من يطلب الجَوْر لا يظفر بحاجته   وطالبُ الحق قد يُهدى له الظفَر
وفي الهُدى عِبَرٌ تُسقى القلوبُ بها   كالغيث ينضر عن وَسْمِيِّه الشجَر

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهله ولا البصير كأعمى ما له بصر
والرشد نافلةٌ تُهدَى لصاحبها والغيُّ يُكره منه الوِردُ والصَّدَر
قد يُوبِق المرءَ أمرٌ وهو يحقره والشيء بالنفس ينمي وهو يُحتقَر
لا يُشبع النفسَ شيء حين تُحرزه ولا يزال لها في غيره وطر
ولا يزال وإن كانت بها سعة لها إلى الشيء لم تظفر به نظر
وكلُّ شيء له حال تُغيّره كما تُغيّر لونَ اللِّمّة الغِيَر
والذكر فيه حياةٌ للقلوب كما يُحيي البلادَ ، إذا ما ماتت ، المطر
والعلمُ يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يُجلّي سوادَ الظلمة القمر
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً وهل يلين لقلب الواعظ الحجر
والموتُ جسرٌ لمن يمشي على قدَم إلى الأمور التي تُخشَى وتُنتظر
فهم يمرّون أفواجاً وتجمعهم دارٌ إليها يصير البدوُ والحضر
من كان في معقِل للحِرْز أسلمه أو كان في خمَر لم يُنجه الخمَر
حتى متى أنا في الدنيا أخو كَلَف في الخدّ مني إلى لذّاتها صعَر
ولا أرى أثراً للذكر في خلَدي والحبْلُ في الحجر القاسي له أثر
لو كان يُسهِر عيني ذكرُ آخرتي كما يُورّقني للعاجل السهر
إذاً لداويتُ قلباً قد أضرّ به طولُ السَّقام وهَيضُ العظم ينجبر
ما يلبث الشيء أن يبلَى إذا اختلفت يوماً على نَقْصه الرَّوْحاتُ والبُكَر
والمرء يصعدُ ريعانُ الشباب به وكل مُصعِدة يوماً ستنحدر
بينا يُرى الغصن لدْناً في أرومته ريّانَ صار حُطاماً جوفُه نخِر
كم من جموع أشتّ الدهر شملَهم وكلُّ شملٍ جميعٍ سوف ينتشر
وكم من اصيدَ سامي الطرف معتصب بالتاجِ نيرانُه للحرب تستعر
يظلّ مفترش الديباج محتجبا عليه تُبنى قِبابُ الملك والحُجَر
قد غادرته المنايا وهو مُستلَب مُجدّل ترِبُ الخدَّيْن منعفِر

أبعدَ آدمَ ترجُونَ البقاء وهل ... تبقى فروع لأصل حين ينْقَعِر
لكم بيوتٌ بمُستَنّ السيُول وهل ... يبقى على الماء بيت أسُّه مَدَر
إلى الفنـاء وإن طالت سلامتُهم ... مَصيرُ كل بني أنثى ـ وإن كثُروا
إن الأمور إذا استقبلتَها اشتبهت ... وفي تَدبُّرها التّبيان والعِبَر
والمرء ما عاش في الدنيا له أمل ... إذا انقضى سفَرٌ منها أتى سفَر
لها حلاوةُ عيش غيرُ دائمـة ... وفي العواقب منها المُرُّ والصَّبِر
إذا قضت زُمَرٌ آجالَها نزلت ... على منازلهـا من بعدها زُمَر
وليس يزجُركم ما تُوعظُون به ... والبَهْمُ يزجرُها الراعي فتنزجر
أصبحتم جزَراً للموت يقبضكم ... كما البهائمُ في الدنيا لكم جزَر
لا تَبطَروا واهجُروا الدنيا فإن لها ... غِبّاً وَخيما وكُفْرُ النعمة البَطَرُ
ثم اقتَدُوا بالألى كانوا لكم غُرراً ... وليس من أمة إلاّ لها غُرَر
حتى تكونوا على منهاج أوليكم ... وتصبروا عدم الدنيا كما صبروا

فهذه قصيدة من أحسن شعر سابق وأحفلِه بالموعظة والتذكير ، ولو لم يكن له إلا هي لكانت أصدق برهان على تألُّهه وشاعريّته التي خضع لها عمر بن عبد العزيز مع ما عُرف من تأبِّيه على الشعراء وامتناعه من مقابلتهم ، ولِمَ لا يخضع له عمر وهو يفتتح شعره بسم الله والحمد لله ؟ ، وقد وقفتُ على أبيات مختلفة من هذه القصيدة في مَظانّ عديدة فلا حاجة لذكرها ، وقد أتحفنا بها كاملةً الحافظ ابنُ الجوزي جزاه الله خيراً .

وأما البيت الثاني من الأبيات الأربعة التي عند البحتري فلا شك أنه من تلك القطعة النونية التي أوردناها قبل ، وأنها جميعها تُكَوِّنُ قصيدة من أبدع قصائد سابق .

بقي البيتان الثالث والرابع ، ونحب أن نشير إلى أن معناهما هو ما تضمنه بيت مشهور من قصيدة تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي وهو :

لا تنْهَ عن خلُق وتأتيَ مثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

ونحب أن نشير كذلك إلى ان هذه القصيدة قد نُسبت لصاحبنا أيضاً ، كما نُسبت للمتوكّل الليثي ، وهذا البيت بالخصوص وُجد في قصيدة للأخطل . ونقل السيوطي عن تاريخ ابن عساكر أنه للطِرِمّاح ، وانظر شرح شواهد المغني ، وفي البداية والنهاية لابن كثير : روى ابنُ أبي الدنيا عن ميمون ابن مهران قال دخلت على عمر بن عبد العزيز ، وعنده سابق البربري وهو ينشده شعراً فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات :

فكم من صحيح بات للموت آمناً أتتــه المنايا بغتةً بعدما هجَعْ
فلم يستطع إذْ جاءَهُ الموت بغتة فراراً ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساءُ مُقنَّعــاً ولا يَسمع الداعي وإن صوتَه رفع
وقُرِّب من لحد فصار مَقيلَه وفارقَ ماقد كان بالأمس قد جمع
فلا يترك الموتُ الغنيَّ لمــاله ولا مُعدماً في المال ذا حاجة يدَع

وفي الأغاني قال أبو الفرج : أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي ، قال حدثنا أبو غسان قال : قال عمر بن العزيز يوماً لسابق البربري ودخل عليه : أنشدني ياسابق شيئاً من شعرك تذكرني به فقال : أو خيراً من شعري ؟ فقال هات . قال : قال أعشى هَمْدان :

وبينا المرءُ أمسى ناعمــاً جَذِلاً في أهله مُعجَباً بالعيش ذا أنَق
غِرا أتيح له من حَينْه عرَض فما تلبَّث حتى مــات كالصَّعِق
ثُمَّت أضحى ضحى من غِبِّ ثالثة مُقَنَّعا غير ذي روح ولا رَمَق
يُبكَى عليه وأدنَوه لمُظلمة تُعلى جوانبُهــا بالترب والقلق
فمــا تزود ممـــا كان يجمعه إلا حنوطاً وما واراه من خِرق
وغيرَ نفحــة أعواد تُشبُّ له وقلَّ ذلك مِن زادٍ لمُنطلِق

فهذه الأخبار تفيدنا أولاً أنه كان مقيماً بالشام ومن ثم كان أخــذه عن مكحول الدمشقي وأخذ الإمام الأوزاعي عنه ، وثانياً أنه كان له عند

عمر مكانة وقدر ، ولذلك كان يطلب منه أن يعظه ويُنشده من شعره الحكيم ، أو من شعر غيره ، لأنه كان متحققاً من زهده وورعه وإنه لاينظم ولا يروي إلا ما كان من قبيل ماقيل فيه (إن من الشعر لحكمة).

ومن شعر سابق أيضاً في المِراء ومُدافعة الحق :

لاتدفعنَّ لَجُوجاً حين تزجُره   إن اللَّجوج له في الدفع إغراء

وأغض في حسن عفوعن بوادره   فالحرُّ فيه عن الآفات إغضاءُ

وقال ولعلها من تتمة ماقبلها :

لا تُظهرنَّ لذي جهل معاتبةً   فربما هُيِّجت بالشيء أشيـاء

فالماء يُخمد حرَّ النار يطفئها   وليس للجهل غير الحلم إطفاء

وقال في ذهاب الأمم ، وربما كانت هذه الأبيات كلها من قصيدة همزية من روائع سابق :

وكيف يأمن ريبَ الدهر مُرتهَن   بعدوة الدهر ان الدهر عدَّاءُ

القى على الجيل من عادٍ كلاكِلَه   وقوم هود ، فهُمْ هامٌ وأصداءُ

وله في العفو والتسامح :

إذا ما كنت طالبَ كلِّ ذنب   ولم تحليلْ أخـاك عن العتاب

تباعَد مَن تباعد بعـد قرب   وصار بك الزمـان إلى اجتناب

وبعدُ فهذا شاعر فحل من أكبر الشعراء الذين يفاخر بهم هذا المغرب العربي ، ويستظهر بهم عند الحديث عن الأدب والأدباء ، وقد احتجَّ به أهلُ العربية وعلماءُ البلاغة ، وقرَّبَهُ الخليفة الصالح عمر بن العزيز ، مما يعطيك أن شعره كان مرآةَ لسلوكه وأخلاقه ، فهو قد أربى على أبي العتاهية المعروف بشعره في الزهد والمواعظ ، سواء من ناحية تخلّقه ، أو من جهة سبْقه إلى جعل شعره قاصراً على هذه المواضيع ، فلا نقول فيه أنه أبو العتاهية المغربي ، بل نقول في أبي العتاهية أنه سابق المشرقي . رحمهما الله معاً ويسَّر لنا الوقوف على كتاب أخباره وشعره .

- ٢ -

كنت نشرت منذ مدة مقالاً عن سابق البربري تعرضت فيه لشيء من التعريف بشخصيته وأدبه ، وضمنته ماتجمّع لديّ من شعره النفيس مبادرة بتسجيله في نشرة عمومية خشية أن يتفرق أباديد كما كان قبل أن أوفّق إلى جمعه ، لاسيا وهو حصيلة سنين من البحث ، وذخيرة عشرات من الكتب التي قد لايحتوي الواحد منها إلا على البيت أو البيتين مغمورَيْن في عدة أبيات ومقطعات شتى لشعراء من كل طبقة يأتي اسم سابق بينها نادراً كالكبريت الأحمر .

وعلى كثرة المراجع التي استقيت منها ما أثبته من معلومات قليلة عنه ، وما جمعته من شعره ، بقيت هناك مراجع مهمة لترجمته لم تصل إليها يدي وأهمها تاريخ دمشق لابن عساكر ، كما أني أغفلت بعض المراجع التي لديّ ، أثناء كتابة ذلك المقال ، وهي مما كان مُعَدّاً لهذا البحث ، مُعلَّماً عليه بعلامته ، ولكني أُنسيتُها ، وسبحان من لا يعتريه سهو ولا ذهول .

والآن وقد وقفت على ترجمته في تاريخ ابن عساكر ، مصور معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية (١) ، في رحلتي الأخيرة للقاهرة ، واستذكرتُ المراجع الأخرى التي فاتتني في المقال السابق ، أعود إليه ثانية فألقي بعض الضوء على معالم شخصيته المجهولة ، وأضيف إلى النبذ الشعرية التي ذكرتها له قدراً آخر من شعره ، يُكوّن مع تلك النبذ مجموعة لا بأس بها من أدبه السامي الأغراض النبيل الأهداف ، ومَن يدري فلعلي أعود إليه مرة ثالثة إذا ظفرت بمعلومات جديدة عنه ، لا سيا وتاريخ الرقة للحرّاني قد طبع فيا بلغني ، وهو مَظِنّة لأن يحتوي على شيء من أخباره وآثاره .

ولسهولة الربط بين هذا المقال وسالفه أحصر البحث في عناصره الأولى وهي ، اسم سابق ونسبه وأخباره وشعره .

---

(١) وأشكر الصديق الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب الذي أطلعني عليه .

اسمه ونسبه :

فأما اسمه فقد انفصلت فيه على أنه سابق بن عبد الله ، وان كنيته أبو سعيد من غير خلاف ولكني وجدت في ابن عساكر أثناء بعض أسانيد روايته عنه تسمية والده بسعيد ، وانه يكنى أيضاً أبا عبد الله وأبا المهاجر وأبا أمية ، ومقتضى ما عند الذهبي في الميزان وتبعه ابن حجر في اللسان أن هذه الكنى لسابق آخر غير صاحبنا وهو المعروف بالرقّي .

وقد ذكرهما ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (ج ني قسم ل ، طبع الهند) على أنهما شخصان مختلفان فقال في الأول : (سابق البربري روى عن مكحول وروى عنه الأوزاعي سمعت أبي يقول ذلك) وقال في الثاني : (سابق الرقّي روى عن العلاء بن عبد الرحمن وخصيب وأبي خلف وروى عنه موسى ابن أعْين ومعافى بن عمران الموصلي وعثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ، سمعت أبي يقول ذلك » .

على أن أبي عديّ جوز أن يكون هناك ثلاثة أشخاص يعرفون بهذا الاسم ، أعني سابق بن عبد الله ، كما في اللسان (ج ٣ طبع الهند) وذلك أنه لما وجد حديث إذا مُدِح الفاسق اهتز له العرش مَرْوياً عن سابق بن عبد الله عن أبي خلف عن أنس (ض) وأبو خلف هذا لا يُعرَف ، استبعد أن يكون الراوي عنه هو سابق الرقي ، قال لأن أحاديثه مستقيمة عن مطرف وأبي حنيفة ، وأن يكون هو سابق البربري الذى إنما له كلام في الحكمة والزهد وغيرهما ، فاحتمل أن يكون راوي هذا الحديث شخصاً ثالثاً مسمى بهذا الاسم ، وليت شعري ما المانع أن يكون سابق البربري صاحب الكلام في الحكمة والزهد راويةً للحديث بقطع النظر عن كونه ثقة أو ضعيفاً في روايته ؟

ونرجع إلى ابن عساكر فنجده يقول : (سابق بن عبد الله أبو سعيد الرقي المعروف بالبربري) فيجمع له بين الوصفين البربري والرقي ، ثم يقول : (روى عن ربيعة بن عبد الرحمن وداود بن أبي هند (ومكحول) وشعبة وعبد الله ابن سعيد بن أبي هند (ومطرف بن طريف) والعلاء بن عبد الرحمن) . . روى عنه (الأوزاعي) ومحمد بن يزيد بن سنان الرهاوي وعبيد بن يزيد القردواني ومحمد بن سليم بن أبي داود وأبو بدر شجاع بن الوليد السكوني (وموسى بن أعين) و (عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي) .. الخ » فيثبت أنَّه الرقي الذي ذكر ابن أبي حاتم أنه يروي عن العلاء ابن عبد الرحمن وذكر ابن عدي أنه يروي عن معطرف فضلاً عن اشتراكه في بقية من روى عنهم من الشيوخ أو رووا عنه بذكر الجميع كمكحول والأوزاعي .

ثم يشير ابن عساكر إلى ما جنح إليه ابن أبي حاتم من أنهما شخصان اثنان وتجويز ابن عدي أن يكونوا ثلاثة ، ولكنه ينفصل على أنهما أيْ البربري والرقي شخص واحد ، ويؤكد ذلك بالروايات التي يثبتها بسنده المتصل إليه من طريق مَن ذكرهم مِن الرواة عنه والذين روى عنهم ، ومن جملتهم خصيب وأبو خلف اللذان ذكرهما ابن أبي حاتم في شيوخ الرقي وأبو حنيفة المذكور كذلك عند ابن عدي .

فوضَح أن كُلاًّ من سابق البربري وسابق الرقي إنما هما اسم لشخص واحد ، وإن تلك الكنى المختلفة هي لهذا الشخص بالذات ، وإن كان بقي معنا خلاف فانما هو في سابق المطاطي الذي قد يتوهم أنه هو صاحبنا والأمر على مارجحناه في بحثنا السابق من أنه غيره ، وهناك سابق آخر هو ابن ناجية من الرواة ولا يشتبه بمن ذكرنا .

وأما نسبه فقد اشتهر أنه البربري ، ويضاف إليه بناءً على التحقيق المار آنفاً أنه الرقي لسكناه في الرقة كما يأتينا قريباً في أخباره .

وجاء في اللباب لابن الأثير « الصحيح أن سابقاً البربري ليس منسوباً إلى البربر وإنما هو لقب له » ولا شك أن ابن الأثير يعقب بهذا التصحيح على السمعاني الذي نسب صاحبنا إلى البربر وأغرَب الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم حيث قال فيه سابق البَلَوي المعروف بالبربري ، فجعله عربياً ونسبه إلى بَلِيّ من عرب اليمن بدون تردد ، وهو مالم نعرفه لغيره .

لكنا نجد في ابن عساكر خبراً مروياً عن أبي عبيد الله بن مروان المزرابي يقول : « سابق البربري مولى الوليد يكنى أبا عبد الله ويقال أبو أمية ، أحد الزهاد المشهورين ، وله مع عمر بن العزيز أخبار » فهو قد جعله مولى للوليد (بن عبد الملك) مما يقوي أنه غير عربي ، وأنه يمكن أن يكون من البربر لمكان فتوح الأموية في بلاد المغرب ، وهنا لا بد أن نتذكر أبيات سابق المطماطي التي رواها صاحب كتاب الذخيرة السنية في قتال البربر للروم بافريقية أيام سليمان بن عبد الملك ، وقد أوردناها في المقال الأول ، وقائلها لابد أن يكون معاصراً لذلك القتال ، وليس عندنا شاعر يسمى بسابق وقته إلاّ صاحبنا ، فان يكُن هُو قائلها فقد نزيد اطمئناناً إلى أنه بربري وأنه من مطماطة بالذات .

وليس هذا فقط ، فقد جاء في لسان الميزان تعقيباً على ماسبق عن ابن عدي من أن صاحبنا إنما له كلام في الحكمة والزهد ما نصه : « ومقتضاه أن البربري ليست له رواية ، وليس كذلك ، فقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال هذا من أهل بربر سكن الرقة » ففيه التصريح على سبيل الجزم بأنه من البربر ، وبذلك لا يبقى لنا شك في نسبه البربري أخذاً بقواعدهم من أن من حفظ حجةٌ على من لم يحفظ وأن المُثبِتَ مقدم على النافي ، إلى أن يقوم لنا دليل قاطع على خلاف ذلك .

أخباره :

وأخبار سابق كثيرة ، روى ابنُ عساكر عن أبي أحمد الحاكم قال : أبو سعيد سابق بن عبد الله البربري إمام مسجد الرقة وقاضي أهلها ، ثم ذكر مشيخته ومن روى عنه وقال ، يعد من الشاميين . وروى ابن عساكر أيضاً عن أبي بكر الخطيب أن من جملة مشيخته الإمام أبا حنيفة ، وروى عن البخاري قال سابق البربري روى عنه الأوزاعي ، مُرسل ، يُعدُّ في الشاميين ، ثم عقب على ذلك بقوله : كذا قال ويعني أنه روى عنه مشافهة لا ارسالاً كما في تهذيب تاريخ ابن عساكر ، وجاء في أحد أسانيد ابن عساكر عنه : أخبرنا سابق بن عبد الله وكان من البكائين .

أما الأحاديث التي رويت عنه حسبما ذكر ابن عساكر فهي : ١) حديث إذا مدح الفاسق غَضِب الله عز الله ، وفي رواية إذا مدح الفاسق اهتز العرش وغضب له الرب عز وجل » وهو الحديث الذي تكلم فيه ابن عدي على ما مر بسبب رواية سابق له عن أبي خلف وهو شخص غير معروف . وفي الرواية الثانية له عرّفه الراوي بأنه خادم أنس بن مالك .

٢) حديث كان النبي ﷺ يوتر من أول الليل ووسطه وآخره ثم ثبت له آخرَ الليل .

٣) حديث الحلال بيّن والحرام بيّن وبَيْنَ ذلك مشتبهات ، فمن رتع فيهن قَمِنٌ أن يأثم ومَن اجتنبهن فهو أرفَقُ بدينه كالمرتعي إلى جنْب حِمى ، ومَن ارتعى إلى جنب حِمى فيُوشك أن يقع فيه ولكل مَلِك حمى ، وحمى الله عز وجل في الأرض الحرام .

وروى ابن عساكر أيضاً عنه هذا الخبر : (كتب مكحول إلى الحسن ونحن بِدَابق يسأله عن الطالب والمطلوب قال فجاءه الكتاب ، إن كنت

طالباً فصلِّ بالأرض وإن كنت مطلوباً فصل على الأرض وعقب على ذلك بأن الصواب فصل على الدابة .

وفي ميزان الاعتدال للذهبي أن محمد بن عبد الله القردواني روى عن أبيه عن سابق الرقي نحو ثلاثين حديثاً .

شعره :

روى ابن عساكر بسنده إلى أحمد بن محمد بن يزيد الأنصاري قال كنا عند محمد بن مصعب القرقشاني فقال لنا : بيت من الشعر من أخبرني لمن هو من الشعراء ، فله ثلاثون حديثاً ، وكان معنا رجل يعرف الشعر فقال : قولوا له أي بيت هو ؟ فقال محمد بن مصعب :

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يُجلّي سوادَ الظلمة القمر

قال فقال الرجل هذا لسابق البربري ، قال صدق : فأي شيء بعده ؟ قال :

والعلم فيه حياة للقلوب كما تحيى البلاد إذا ما مسها المطر

قال صدق والله : وأي شيء بعد ؟ قال :

فأنتم جزر للموت يأخذكم كما البهائم في الدنيا لنا جزر

قال أبو علي الأنصاري فحدثنا بالثلاثين حديثاً التي وعده ، والذي يعرف قيمة الحديث عند رجاله وضنّهم به يقدر ما كان لسابق وشعره في نفس هذا الشيخ من منزلة ، حتى أنه جعل من يعرف بيتاً واحداً من شعره يستحق أن يحدث بثلاثين حديثاً .

وذكر ابن عبد البر هذا الخبر برواية أخرى جاء فيها أن أحمد بن يزيد بن مسلم الأنصاري المعروف بابن أبي الخناجر قال كنا على باب محمد بن مصعب القرقشاني جماعة من أهل الحديث وفينا رجل عراقي بصير بالشعر ونحن نتمنى أن يخرج إلينا فيحدثنا حديثاً واحداً أو حديثين ، إذْ خرج إلينا فقال قد

خطر على قلبي بيت من الشعر فمن يخبرني لمن هو حدثته ثلاثة أحاديث ..
وفي آخر الخبر : فحدثه ستة أحاديث سمعناها معه ، وهي رواية تبرز الأهمية
التي كان هذا الشيخ المحدث يعطيها لشعر سابق كسالفتها ، وتزيد بالنص
عن تشوف من كان بباب الشيخ من أهل الحديث إلى السماع منه ولو حديثاً
واحداً ، فاذا بهم يحصلون على ستة أحاديث بسبب معرفة العراقي بشعر سابق .

وتحدث الجاحظ في البيان والتبيين عن شعر صالح بن عبد القدوس وسابق
البربري فأطراهما بما اشتملا عليه من الحكمة والأمثال التي لو تفرقت في أشعار
غيرهما لأغنتها ، وهذا قوله في ذلك : (لو كان شعر صالح بن عبد القدوس
وسابق البربري مفرقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي
عليه بطبقات ، ولصار شعرهما نوادرَ سائرة في الآفاق ، ولكن القصيدة
إذا كانت كلها أمثالاً لم تسِرْ ولم تجْرِ مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع
من شيء إلى شيء لم يكن لذلك النظام عنده موقع) .

هذا بعض ما يتعلق بتقدير المتقدمين لأدب سابق وشعره ، وأذكر فيما
يتعلق بذلك من طرف المتأخرين أني تحدثت عنه ذات مرة إلى عميد الأدب
العربي الدكتور طه حسين على أنه من الطلائع الأولى للأدباء الذين ينتمون
إلى هذا المغرب الكبير وأنشدته بعض أشعاره السائرة ، وذكرت له ما كان
من احتفال الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز به في حين أنه كان لا يأبه
كثيراً بكبار شعراء العربية ، من أمثال الفرزدق وجرير ، فلم يملك الدكتور
نفسه أن قال لي بفرنسيته الحلوة مستحسناً (oh La La !) .

واستشهاد النحاة بشعره هو مما يدخل في باب تقدير المتقدمين له ،
إذ كانوا لا يستشهدون إلا بمن سلمت لغته من الشوائب ، وقد تقدم الإلماع
في بحثنا الأول إلى ما كان من نسبة بعضهم له ذلك البيت الشهير الذي
يُستشهَد به على نصب الفعل بأن مضمرة بعد الواو ، وهو :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وإن كان الصواب أنه لغيره ، كذلك استشهدوا في معاني اللام بقوله .

والموت تغذو الوالدات سخالها   كما لخراب الدهر تُبني المساكن

ولعله من قصيدة تقدمت ثلاث مقطوعات منها . وهذا البيت بالخصوص هو مما نسبه له المرزباني كما عند ابن عساكر :

ألا رُبّما صار البغيض مُصافياً   وحالَ عن العهد الصديق المثافن

فلا تَغترِرْ ماعشت من متجمل   بظاهر ودّ قد تُمطّى البطائن

وأنشد له الزجاجي في أماليه :

فلا تحفرن بيراً تريد أخاً بها   فانك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً   تُصِبْه على رَغْمٍ عواقبُ ما صنع

وهو مما يستشهد به أيضاً لجزم تُصِبْه بدون جازم بل بما في الموصول من معنى الشرط ، وأظنه من قصيدة طويلة سبق لنا رواية مقطوعة منها على نفس الوزن والقافية مما أنشده سابق لعمر بن عبد العزيز .

ومما يحسن ذكره هنا أن العلامة ابن مرزوق الحفيد قال : حضرت مجلس شيخنا ابن عَرَفَة أولَ مجلس حضرته فقرأ قوله تعالى ﴿ وَمن يعشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطاناً ﴾ الآية فتطرّق لقراءة يَعْشُو بالواو مع جزم نُقيضْ وقال وجّهها أبو حَيَّان بكلام ما فهمتُه ، ولعل فيه خللاً ، قال ابن مرزوق فاهتديت إلى فهمه وقلت إن جزم نقيض بمَن الموصولة لشبهها بمَن الشرطية ، وإذا كانوا يعاملون الموصول مطلقاً بذلك ، فمَن ، التي يشبه لفظُها لفظَ الشرط أولىَ بذلك ، فاستحسن كلامي رحمه الله لكن الحاضرين أنكروا معاملة الموصول معاملة الشرط وقالوا كيف يكون ذلك ؟ فقلت دخول الفاء في خبر الموصول في نحو الذي يأتيني فله درهم دليلٌ على ذلك ، فنازعوني في ذلك ، فقلت قال ابن مالك في التسهيل (وقد يجزمه متسبب

عن صلة الذي تشبيهاً بجواب الشرط) فطالبوني بالشاهد فأنشد قول الشاعر :

كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً   تُصبْه على عمد عواقب ما صنع

فأمسكوا . ذكرَه غيرُ واحد من مُترجميه .

ومما نسب له المرزباني برواية ابن عساكر :

يُخادع ريبَ الدهر عن نفسِه الفتى   سفاهاً وريبُ الدهر عنها يخادعه

ويطمع في سَوف ويهلكُ دونها   وكم من حريص أهلكته مطامعه

ونسب إليه أيضاً البيت الشهير :

وكائن ترى من صامت لك معجب ؟ .. الخ وهو لزُهير كما لا يخفى .

وروى ابن عساكر أيضاً قطعة من رائيته الكبرى جاء فيها هذا البيت ولم يرد في القصيدة بعد قوله وليس يزجركم ماتوعظون به الخ :

ما يشعرون بما في دينهم نقصوا   جهلاً وان نقصوا دنياهم شعروا

وروي عن عثمان بن عبد الحميد قال دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له عمر عظني يا سابق وأوْجِز قال نعم يا أمير المؤمنين وأبلغُ إن شاء الله ، فقال له هات . فأنشده :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى   ووافيتَ بعد الموت من قد تزودا

ندمتَ على أن لا تكون شريكَه   وأرْصَدْتَ قبل الموت ما كان أرْصدا

وروي له مما ثبت في وصية الحسن بن سهل لابنه إبراهيم بن الحسن منسوباً إلى سابق هذه الأبيات :

العلم والحلم خَلَّتان هما   للخلْق زيْنٌ إذا هما اجتمعا

صِنْوان لا يستتم حسنُها   الا ّ بجمْع لذا وذاك معا

كم من وضيع سما به العلم والحـ   ـلم فنال العَلاء وارتفعا

ومن رفيع البنا أضاعها   أخملَه ما أضَاعَ فاتَّضعا

وروي مما أنشده أبو الفضل الرياشي من هذه القصيدة :

إن كنت متخذاً خليلا فتوقَّ وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً في الود فابْغ ِ به بديلا
وعليك نفسَك فارعها واكسب لها عملاً جميلا
ومن استخف بنفسه زرعت له قالاً وقيلا
وأقلّ ما تجد الأثيم عليك إلا مُستطيلا
والمرء إن عرف الجميل وجدتَه يأتي الجميلا
ولربما سئل البخيل الشيء لا يسوى فتيلا
فيقول لا أجد السبيل إليه يكره أن ينيلا
ولذاك لا جعل الإلهُ له إلى خير سبيلا
يا مبتني الدار التي هو مسرع عنها الرحيلا
إن لم تُنِل خيراً أخاك فكن له عبداً ذليلا
وتجنب الشهوات واحذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزناً طويلا

وله أيضاً هذه القصيدة في الاتعاظ بالموت وأحواله رواها ابنُ عساكر :

تأوَّبني هم كثير بلابلُه طروقاً فغال النومَ عني غوائله
فويحي من الموت الذي هو واقع وللموت باب أنت لا بد داخله
أيأمنُ ريب الدهر يا نفسُ واهن تجيش له بالمفظعات مَراجلُه
فلم أر في الدنيا وذو الجهل غافل أسيراً يخاف القتلَ واللهوُ شاغله
فما باله يفدي من الموت نفسه ويأمن سيف الدهر والدهر قاتله
ولا يفتدي من موقف لو رمى الرَّدى به جبلاً أضحت سَراباً جنادله
وبعد دخول القبر يا نفس كربة وهول يشيب المُرضَعين زلاله
إذا الأرض جفت بعد نقل جبالها وخلى سبيلَ البحر يانفس ساحلُه

فلا يرتجي عوناً على حمل وزره … مسيء وأولى الناس بالوزر حامله

إذا الجسد المعمور زايَل روحه … خوىً وجمال البيت يانفس أهلُه

وقد كان فيه الروحُ حيناً يزينُه … وما الغِمد لولا نصلُه وحمائله

يُزايلني مالي إذا النفس حشْرجت … وأهلي، وكدحي لازمي لا أُزايلُه

إذا كل عند الجهد يانفس منطقي … وعاينت عند الموت ما لا أحاوله

ويغسل مابالجلد من ظاهر الأذى … ولا يغسل الذنب المخالف غاسلُه

ومن تُفلِت الأمراضُ يوماً فانه … سيوشك يوماً أن تُصاب مَقاتِله

وقد تفلت الوحش الجبال وربما … تقبضت الوحشيَّ يوماً حبائله

إذا العلم لم تعمل به صار حجة … عليك ولم تُعذر بما أنت جاهله

وقد ينعش الذكر القلوبَ وإنما … يكون حياةَ العُود في الماء وابله

أرى الغصن لا ينمى إذا جف أصله … وليس بباق من أبيحت أوائله

فان كنت قد أبصرت هذا فانما … يصدق قولَ المرء ما هو فاعلُه

ولا يستقيم الدهرَ سهم لوجهه … به مَيل حتى يقوَّم مائله

وفيك إلى الدنيا اعتراض وإنما … تُكال لدى الميزان ما أنت كائلُه

فلا تنتكثْ بعد الهُدى عن بصيرة … كما نكث الحبل المضاعَف فاتِله

وتطلب في الدنيا المنازل والعلا … وتنسى نعيماً دائماً لا تزايله

كمن غره لمع السراب بقيعة … فقصَّر عن ورد تجيش مناهله

وقد خانت الدنيا قروناً تتابعوا … كما خان أعلى البيت يوماً أسافله

وتصبح فيها آمناً ثم لم تكن … لتأمن في وادٍ به الخوف نازله

وقد ختلتنا باللَّطيف من الهوى … كما يختل الوحشيَّ بالشيء خاتلُه

رضينا بما فيها سفاهاً ولم يكن … يبيعُ سمينَ اللحم بالغث آكلُه

وعاقبةُ اللذات تُخشى وإنما … يكدّر يوماً عاجلَ الأمر آجلُه

وإن فرحت بالمرء يوماً حلائلٌ … فلا بد يوماً أن تُساء حلائله

فكم من فتى قد كان في شِرَّة الصِّبا ... فأُقصي بعد العذل عنه عواذله
إذا ما سمـــا حق إليك وباطل ... عليك فلا يذهب بحقـك باطله
وقد يأمل الراجي فيكذب ظنُّه ... أمورٌ ويلقى الشيءَ ما كان يأمُلُه

وله هذه الأبيات من الرجز في مدح رجل اسمه عون ذكرهـا في تهذيب تاريخ ابن عساكر وقال انها مما رواه الحافظ من طريق أبي بكر الجوزقي ولم يذكر قصتها :

بُورك في عون وفي أعوانه
وفي جواريه وفي غلمـانه
وبارك الله على دعـــائه
أطعمنـا عون على خِوانه
يعطي وما يقلع عن جفـانه
وعن هـــداياه وعن إيوانه

ولا توجد هذه الأبيات في مصوّر الأصل الذي اطلعنـا عليه ، ومن تفاريق الأبيات التي وقفنا عليها له في جامع بيان العلم لابن عبد البر ممـا لم يتقدم قوله :

والعلم يشفي أن استشفى الجهول به ... وبالدواء قديـــما يُحسَم الداءُ

* * *

قد قيل قَبْلي في الزمان الأقدم ... إني وجـــدتُ العلم بالتعلم

ونحفظه : إنا وجدنا .

* * *

وروي فيه أن سفيان الثوري كان ينشد متمثلاً ببيتين له من لاميته الطويلة المارة آنفاً وهما :

إذا العلم لم تعمل به كان حجةً عليك ولم تُعذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أُوتيت علماً فإنما يصدّق قول المرء ما هو فاعله

وفيها مخالفة قليلة لرواية القصيدة .

وأخيراً وليس آخراً بحول الله هذه تسعة وستون بيتاً من شعر سابق تضاف إلى ثمانية وثمانين بيتاً تضمنها البحث السابق ، فيكون المجموع سبعة وخمسين ومائة ، وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً إن شاء الله .

- ٣ -

كتبتُ عن سابق البربري قبل هذا مرتين :

وكلتا الكتابتين كانتا بحثاً تناول جانباً من حياته الشخصية ، وجلّى سبه الحِكَمِيّ الرائع الذي كان مغموراً بين أخبار الرواة ورجال الحديث وأهل الزهد في عديد من الكتب المخطوطة والمطبوعة ، المَظانّ وغيرِ المظان .

ولم تكن الكتابة الثانية إعادة لشيء مما جاء في الكتابة الأولى ولا تكراراً لخبر أو أثر أو شعر ، بل إلحاقاً واستدراكاً لما فاتني من ذلك ولم أذكره فيها لأني إنما وقفتُ عليه بعدُ ، وتنسيقاً له مع ما سبق ذكره حتى انني عددت ما زدته من شعره في الكتابة الثانية ، تسعة وستين بيــــتاً ، على ما تضمنته الكتابة الأولى وهو ثمانية وثمانون بيتاً فكان المجموع ١٥٧ بيت أو بيتاً بحسب تقديم العدد الأصغر أو تأخيره .

وقلت حينئذ ومن يدري لعلي أعود إليه مرة ثالثة إذا ظفرت بمعلومات جديدة عنه ، لاسيما وتاريخ الرقة للحراني قد طبع فيما بلغني ، وهو مَظِنة لأن يحتوي على شيء من أخباره وآثاره .

وها أنا ذا الآن أعود إليه بالفعل للمرة الثالثة ، بعد أن وقفتُ على ما ذكره صاحب تاريخ الرقة عنه ، وهو شيء قليل بالنسبة إلى ما قدمته عنه

نقلاً عن غيره ، ولا سيما تاريخ ابن عساكر ، وما ذكره عنه أيضاً صاحب خزانة الأدب مشفوعاً بخبر لابن عبد ربه في العقد الفريد .

قال في تاريخ الرقة : سابق بن عبد الله الرقي يكنى أبا سعيد ، حدثنا هلال بن العلاء حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا موسى بن الحسن حدثنا سابق أبو سعيد ـ قال عمرو وكان إمام الرقة قبل أجلح ـ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : إلا من الصدقة ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له .

سمعت إبراهيم بن أحمد بن عبد الكريم الحراني ابن أبي حميد يقول سألت محمد بن سليمان عن سابق البربري قال هذا كان قاضياً بالرقة ، حدث عنه محمد بن سليمان بن أبي داود وحدث عنه عبيد الله بن يزيد بن سنان الرهاوي عن أبي حنيفة .

وحدث عنه شجاع بن الوليد فقال : حدثنا أبو سعيد الجزري حدثنا علي بن عثمن النفيلي حدثنا أبو كامل مولى الغاز بن ربيعة قال سمعت سابق البربري ينشد مكحولاً وهو في الغزو :

يا نفس كلٌّ قابرٍ مقبورُ

ويهلك الزائر والمزُور

ويقبض العاريةَ المُعير

ليس على صَرْف الروا غمور

كم من غني مكثرٍ فقيرُ

حتى انتهى إلى قوله :

والصدق بر والتقى تطهير

والبِر معروف به المبرور
وذو الهوى يسوقه المقدور

فقال مكحول : لا .

هذا ماتضمنه تاريخ الرقة عنه ، ونجده فيما يتعلق باسمه يجمله سابق بن عبد الله ويكنى أبا سعيد على ماسبق ترجيحه ، ويزيدنا حديثاً آخر من روايته وهو حديث الصحيح : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ولم يتقدم فيما أثبتناه من حديثه ، ويؤكد روايته عن أبي حنيفة كما ذكره الخطيب في مشيخته .

ويروي لنا من شعره ثمانية أبيات من مشطور الرجز ، هي في الواقع من رجزية طويلة على ما يظهر بدليل قول الراوي عنه ، (حتى انتهى إلى قوله) :

ونلاحظ اعتراض مكحول عليه في البيت الآخر بقوله لا ، لما يُشتَم منه رائحة الجَبْر .

وجاء في خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي عند ذكر الشاهد : والموت تغذو الوالدات سخالها ، البيتَ المتقدم في الكتابة الثانية ، ما نصه : (وسابق البربري هو أبو سعيد سابق بن عبد الله ، له أشعار حسنة في الزهد وهو من موالي بني أمية سكن الرقة ، ووفد على عمر بن عبد العزيز وله معه حكايات لطيفة ، روى عنه مكحول وموسى بن أعين والمعافى بن عمران ، وغيرهم ، والبربري نسبة إلى البربر وهي بلاد كثيرة في المغرب ، قال ابن الأثير في الأنساب : ليس سابق منسوباً إلى البربر ، وإنما هو لقب له) ، ويتضافر هذا النص مع ما قبله في اسم الرجل وكنيته ، ويجزم بأنه من موالي بني أمية ، وهو ما سبق ذكره عن ابن عساكر نقلاً عن المرزباني مع تعيين صاحب ولائه وهو الوليد منهم ، وبذلك قويت حجة من يقول انه غيْر عربي

وفي هذا النص خطأ وهو قوله روى عنه مكحول والصواب أن مكحولاً من مشيخته ، وان سابقاً هو الذي روى عنه كما سبق مراراً ، ويؤيده أيضاً اعتراضه عليه في البيت الذي تقدم من رجزيته لمَّا أنشده إياها ، وأما قول ابن الأثير الذي أورده صاحب الخزانة في نفي نسبة صاحبنا إلى البربر فقد سبق لنا الكلام عليه .

وما ذكره عن ابن عبد ربه هو حكاية قيل ان سابقاً أخذ معنى قوله : والموت تغذو الوالدات سخالها من مضمونها وهي هذه :

« وفد عبد العزيز بن زُرارة سيدُ أهل الكوفة على معاوية ، فخرج مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائفة ، فهلك هناك ، فكتب يزيد إلى معاوية ، فقال معاويةُ لأبيه زرارة : أتاني اليوم نعي سيد شباب العرب . فقال زرارة يا سيدي هو ابني أو ابنُك ، فقال معاوية انه ابنك ، قال الموت ما تلد الوالدة ، أخذه سابق البربري فقال :

فللموت تغذو الوالدات سخالها ... كما لخراب الدهر تبنى المساكن

هذا وفي طبقات الشعراء لابن المعتز ذكرٌ لسابق في عبارة تشبه عبارة الجاحظ المتقدمة عنه وعن صالح بن عبد القدوس من أنهما اختصا بقول الشعر في الحكم والأمثال ، وذلك أثناء ترجمته لمحمود الوراق وهي قوله : (وشعر محمود كثير ، وأكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب ، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح ابن عبد القدوس وسابق البربري) .

ونظراً لاشتباه شعر ابن عبد القدوس بشعر سابق ، أنشد ابن عبد البر في كتاب جامع بيان العلم هذا البيت متردداً بين نسبته لسابق أو لصالح بن عبد القدوس :

وإذا حملت إلى سفيهٍ حكمةً ... فلقد حملت بضاعة لا تنفق

ومما أنشد له ابن عبد البر وفاتنا أن نذكره فيما سبق :

إذا زجرتَ لجُوجاً زدته علقاً وجدَّت النفس منه في تماديها
فمُدّ عليه إذا ما نفسُه جمحت باللّين منك فان اللين يثنيهـا

ويشبه أن يكون هذان البيتان من قصيدة واحدة سبق ذكرُ مقطّعات منها على مثل الوزن والقافية . وله أيضاً مما أنشده ابن عبد البر :

موتُ التقيِّ حياة لا انقطاع لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

نعم إن حياة العلماء العاملين لا انقطاع لها بالموت فذكرُهم باقٍ على الأيام ومنهم صاحبنا الذي مرَّ على مَوْته أكثرُ من اثني عشر قرناً وهو ما يزال يعطّر المجالس بذكره وتُحلّى الصحف بآثاره .

وبإضافة ما في هذا المقال الثالث من أبيات شعرية وعددها اثنا عشر ، إلى ما تقدم ذكره من أشعارِ سابق ، يصير الجميع مئة وتسعة وستين بيتاً ، والمنة لله .

عبد الله كنون



العربية بين الفصحى والعامية

كل قوم معجبون بلغتهم ، والعرب الصراح في مقدمة الأقوام ، إعجاباً بلغتهم وبثراتها ، وعملاً على وحدتها ومكانتها ، والاحتفاظ لها بالمنزلة السامية التي كانت لها بين سائر اللغات . وهو إعجاب عبّر عنه قديماً أبو الخطاب ابن دِحية في كلمته الجامعة الرائعة التي يقول فيها :

« اعلم أن الله تعالى لما وضع رسوله ﷺ موضع البلاغة من وحيه ، ونصبه منصبَ البيان لدينه ، اختار له من اللغات أعربها ، ومن الألسن أفصحها وأبينها ، ثم أمدّه بجوامع الكلم » .

وهذه الكلمة على ما فيها من إيجاز واقتضاب ، تغني عن كثير من الإسهاب والإطناب ، فالعربية صالحة لكل زمن ، غنية بمشتقاتها واستعاراتها بحيث تتسع لكل مستحدث وجديد .

وليس هؤلاء العرب وحدهم معجبين بهذه اللغة متعلقين بها [1] ، فلقد شاركهم في هذا الإعجاب كثير من غير أبنائها ، من المستشرقين الذين عرفوا أسرارها ، وتبينوا حقائقها ودقائقها ، بعد أن اطلعوا على ذخائرها وكنوزها . ومنهم من أُعجب بها وتعشقها عن سماع ، لا عن اطلاع .

---

(١) من تعلق العرب بلغتهم : أن أبا هاشم عبد السلام الجبائي — من أئمة المعتزلة — كان يأخذ علم النحو عن المبرد . قيل : وكان في المبرد سُخف
فقيل لأبي هاشم : كيف تتحمل سخف الرجل ؟
فقال : احتمال سخفه ، ولا الجهل بالعربية .

فلقد وقع في يدي كتاب بالفرنسية كان بعث به إلى الأمير شكيب أرسلان ـ رحمه الله ـ عالم ألماني هو الدكتور (ويدمر) أحب العربيـة واستهوته ، عن معرفة عنها ، لا عن معرفة بها ، فكتب إلى الأمير ، وعن غير معرفة شخصية به ، يقول له ما ترجمته بالحرف :

« أشكر لك فضلك على هذه المعلومات التي أفدتنيها . وإني لأعرف أنه من الصعب أن أجد في سويسرة عربياً يساعدني على القراءة ، وعلى تتبع النصوص العربية القديمة والحديثة . وهذا كتابك الثاني يؤكد ما ذهبتُ إليه . على أن هـذا وأكثر منه ، لا يثنيني عن عزمي وعمّا أجمعت أمري على المضي فيه .

إن تحمسي لهذه اللغة الرائعة ، وتعلقي بها ، ملكا علي مشـاعري ، وجعلاني أسعى السعي كله لأجد عربياً : مصرياً أو سورياً ، متضلعاً من العربية ، متحمساً لها تحمسي ، عنده ما عندي من الرغبة في هذه اللغة وفي نشرها ، أصل معه إلى ما أريده من التعمق في العربية والتمكن من آدابها .

وإني أرى رأيك : أنه يصعب على غريب عن لغة أن يتعمق فيها ، إذا لم يكن على كبير علم بها . وأكرر القول : أنني أكون شاكراً إذا أنت هديتني إلى عربي لم أهتد إليه ، يوصلني إلى ما أبغي الحصول عليه .

وإني مدين لك بما أسديته لي من نصائح ومعلومات .

ملاحظة : هل تأذن لي أن أكتب إليك بعد اليوم باللغة الألمانية ؟ »

* * *

ويقول العالم الفرنسي (مارسي) في مجلة التعليم الفرنسية ١٩٣٠ — ١٩٣١ :

« من السهل جداً تعلم أصول اللغة العربية ، فقواعدها التي تظهر معقدة لأول نظرة ، هي قياسية ومضبوطة بشكل عجيب يكاد لا يصدق . فذو الذهن المتوسط ، يستطيع تحصيلها بأشهر قليلة ، وبجهد معتدل .

إن الفعل العربي ، هو لعبة أطفال إذا ماقيس بالفعل اليوناني ، أو بالفعل الفرنسي . فليس هناك صعوبة بالاشتقاق ، أما النحو فسهل ، لا تعقيد فيه مطلقاً » .

ويقول المستشرق « جاك برك » :

« مستقبل الأدب والمسرح في العالم العربي يقوم على اللغة العربية الفصحى وحدها ، فهي لغة زاخرة بالثروة والتراث . وليست اللهجات العامية باللغات الأصيلة ، فهي تحريف عن الفصحى وتشويه لها . ولن تقوى هذه اللهجات الهزيلة على اقتحام أسوار التراث العربي المنيع الأصيل » .

أما المستشرقة الألمانية : الدكتورة في الفلسفة « آنا ماري شيمل » التي عدت منذ صغرها معجزة العلم ، والتي وضعت المقدمة الممتعة للترجمة الألمانية للقرآن الكريم ، وهي التي ينتظر عشاق العربية من الألمان ، ظهور كتابها في قواعد اللغة العربية بشوق كبير ـ فإنها تقول :

« اللغة العربية لغة موسيقية للغاية ، ولا أستطيع أن أقول فيها إلا أنها لا بد أن تكون لغة الجنة » .

ويقول المستشرق الانكليزي « نيكلسون » (Niclson) بعد أن يصف إقبال أبناء الأندلس على اللغة العربية ، وشغفهم بها وافتنانهم بآدابها ، إن كاهن قرطبة (انفارد) آلمه أن أبناء مذهبه أقبلوا على دراسة العربية ، وقراءة أشعارها ومطالعة أساطيرها إقبالاً عجيباً .

ويرفع صوته شاكياً فيقول :

وقلّ أن تجد فرداً من أبنائنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة . إن الشبان أصحاب المواهب وسائر المثقفين لا يعرفون غير العربية ، ويغالون في شراء كتبها والمفاخرة بآدابها ، وا أسفاه ! إنهم نسوا لغتهم ، حتى ليتعذر على الواحد منهم أن يكتب إلى صديق له رسالة باللاتينية صحيحة العبارة .

على حين يعبّرون عمّا يخالج نفوسهم بأسلوب عربي فصيح . ويقرضون الشعر العربي بما يفوق شعر العرب أنفسهم . »

ويقول آخرون : « إن من كهنة أسبانية من يقيمون صلواتهم ويمارسون طقوسهم الدينية باللغة العربية » .

هذا وكثير من أمثاله ، لا يمنع نفراً من العرب العاقين لغتهم ، والضالعين فيها ، عن أن يسيروا في ركاب جاهل أو مستعمر ، يقول باللغة العربية العامية ، أو كما وقع أخيراً بلغة لبنانية .

على أن تعصبنا للعربية الفصحى ، وتعلقنا بها ، ومغالاتنا في التعالي بها عن أن تهبط إلى منخفض اللغة العامية ـ وما قلناه مراراً وفي كلمة سابقة ـ لا يبلغ بنا أن نقطع ما بين الفصحى والعامية من صلة ، وأن نجعل بينهما حاجزاً منيعاً ، يحول دون أن يتسرب لفظ عامي ـ ولو صالحاً ومقبولاً وفصيحاً ، وفي حاجة إليه ـ إلى اللغة الفصحى ، فيستعمله مؤلف أو كاتب أو شاعر أو ناثر في ما يقوله أو يكتبه ، وأن ينظمه رجال اللغة في ما يضعونه من دواوين ومعجمات .

لقد أكثر الناقدون اللغويون ـ في مطلع هذه النهضة اللغوية والأدبية ـ من نقد من يستعمل كلمة لم ترد في كتب اللغة ، ومن تعبير أو استعمال لم تعرفه العربية من قبل ، فحجّروا واسعاً ، وعسّروا يسيراً .

والإنسان في حاجة إلى ألفاظ يعبر بها عن أفكاره وأغراضه ، فإذا هو أخطأ في ما استعمل ، أو ظُنَّ به ذلك ، فليس من حق الناقد أن يقول له : أخطأت ، ويقف ، بل عليه أن يقول له : لا تقل هذ ، بل قل هذا . أما إذا لم يجد الناقد اللفظ الصحيح يهدي المخطئ إليه ، فكأنه أراد أن يحبس لسانه عن الكلام . وهذا شيء غير جائز ولا مستطاع .

لقد وقفت الخاصة برهة من الزمن ، لا تجد اللفظ الصحيح تعبر به عمّا جاء به العصر الحاضر وحضارته من أغراض ومعان ، حتى اتهمت العربية بالعقم ، إلى أن كانت النهضة الأخيرة ، فانطلقت الألسن من عقالها ، والأقلام من لجامها ، فوجد رجال اللغـــة والأدب عن طريق الاشتقاق والاستعارة سبيلاً إلى ألفاظ كثيرة يعبرون بها عمّا يحتاجون إليه من أغراض ومعان ـ فوُفِّقوا توفيقاً غير قليل ، وهم ماضون في ما بدأوا به . إلى أن يبلغوا ما تقتضيه حاجات اللغة في عصرنا الحاضر .

كان ذلك ، على حين مضت العامة في لغتها مُضيّاً محموداً من قبل ، ومن بعد ، وإلى يومنا هذا ، لا يعجزها غرض أو معنى ، أن تجد له اللفظ يليق به وينطبق عليه .

وذلك بأن :

١ — استعملوا ألفاظاً صحيحة فصيحة ربما كانت اندثرت لولا استعمالهم لها .
٢ — استعاروا ألفاظاً عربية أصيلة لمعان جديدة .
٣ — أحدثوا عن طريق الاشتقاق ألفاظاً يحتاجون إليها في حياتهم العملية .
٤ — اختاروا السائغ المقبول من الألفاظ التي تعددت فيها اللغات وإن خالفوا الخاصة في اختياراتهم .

أولاً — فمن الألفاظ القاموسية التي استعملتها العامة ولعلها كانت تنوسيت ، أو تنوسي بعضها لولا استعمال أصحاب المِهَن والصناعات لها . وقد يكون في بعض الخاصة من يجهل أنها عربية النجار ، فصيحة الأصل ، من ذلك :

١ — الزفر أو الظفر ، درجة من السلم . والعامة من البنائين يلفظونه بالزاي . وهو عندهم حجر ناتئ في البناء مستطيل كالدرجة أو العتبة ، تلقى عليه العُمُد أو البلاط [1] .

---

(١) وفي (جمهرة نسب قريش وأخبارها) أن عامر بن عبد الله انهدمت أظفار من درجته فبات تلك الليلة في الدار .

٢ — الساف : والساف في كتب اللغة ، كل صف من اللَّبِن أو الآجر في الحائط ، وهو الدماك .

٣ — المدماك : الصف من البناء (١) .

فاللفظان صحيحان : والعامة تكثر من استعمالهما إلاّ أنها فرّقت بينهما تفريقاً دقيقاً ، فغلبت المدماك على الصف من الحجارة بوضع بعضه فوق بعض . وعمت الساف فجعلته الصف يوضع بعضه فوق بعض ، في البناء وفي غيره .

٤ — الفاس : آلة من حديد حادة الشفرة عريضة السن لها هراوة ملساء من الخشب . تقول كتب اللغة : يحفر بها ويعزق ، وليس الحفر والعزق من عملها . بل عملها قطع الغليظ من الشجر والحطب ، وهو ما خصتها به العامة .

٥ — المعول : أما الحفر والعزق فمن عمل المعول ، لا نقر الصخر ، وإن نصت عليه المعاجم .

٦ — القدوم : بتخفيف الدال . وتشديدها لغة فيهـــا . أجازها بعضهم وأنكرها آخرون . وجمعها « قدائم وقُدُم » وقيل قدائم جمع قدم ، مثل قلائص وقُلُص . وهي مؤنثة والعامة تذكرها . وتشدد دالها — جرياً مع من يقول بالتشديد — وتجمعها على قداديم .

وليست هي المنحت والمنحات كما جاء في كتب اللغة ، وإن كان صقل الخشب أو نحته من عملها أحياناً .

وأنشد الفراء :

فقلت أعيراني القَدوم لعلني أخط به قبراً لأبيضَ ماجد

---

(١) والعامة تقول على الحقيقة بناء (مدماك مدماك) كما قال الأصمعي على المجاز :

ألا يا ناقضَ الميثاقِ مدماكاً فمدماكا

٧ — المَرَقة : من معانيها لغة : خشبة توضع معترضة بين سافي الحائط ، يشد بها البناء ويقوّى . أطلقها البناءون على (Chainage) وهو الرباط . واللفظة الفرنسية (شاناج) يستعملها أكثر المهندسين إلى اليوم . على حين تستعمل العامة اللفظ العربي الفصيح .

٨ — المنحت والمنحات : في كتب اللغة آلة النحت كالقدوم . غير أن أصحاب الصناعة من الحجارين خصوا النحت بالحجارة . وكأنهم أخذوا ذلك من قوله تعالى في سورة الشعراء : « وتنحتون من الجبال بيوتاً » وهو النحّات وصناعته النّحاتة . والنحات من أسماء بعضهم .

٩ — المنقش والمنقاش : آلة من حديد ينقش بها . وهو النقّاش وصناعته النّقاشة . وأكثر ما يستعمل في نقش الحجر . وعليـــه قولهم : « العلم في الصغر كالنقش في الحجر » . وبالنقّاش سمي بعضهم .

١٠ — المثقب : آلة من حديد تستعمل للثقب في الخشب والحجر .

١١ — النّجاف : ما بني بارزاً فوق باب أو شباك منعاً للمطر .

١٢ — المصطبة : بناء مرتفع يجلس عليه . وأصحاب المصاطب قوم كانوا يجلسون عليها ، يستدعون للشهادة أمام القاضي ـ أشبه شيء بكتاب العدل في يومنا هذا ـ وتصغير المصطبة : المصيطبة ، وبها سمي حي من أحياء بيروت .

١٣ — الدِسار : لغة حبل من ليف تشد به ألواح السفينة . وعند العامة مسمار حادّ الطرفين (ذو رأسين) يدخل بين خشبتين فيجمعها حتى يصيرا وكأنها لوح واحد . وفي القرآن الكريم : « وحملناه على ذات ألواح ودُسُر » إلى كثير من أمثال هذه الألفاظ التي يستعملها أصحاب المهن والصناعات والأعمال « كالرزّة ، والرفش ، والمبرد ، والجرفة ، والملزمة ، والمنجل ، والمنشار ، وغيرها .

ثانيـــاً : ألفاظ استعارتها العامة للتعبير عن أشياء مستحدثة :

١ ـ البطيخة : قلب (الدولاب) تجتمع إليه ، أضلاع الدولاب في العربة أو السيارة ، أو تتفرع منه .

٢ ـ البندق : على ما جاء في بعض المعجمات الحديثة معرب « فندق » بالفارسية : وهو طين مدور يرمى به . ولم تستعمل العامة هذا اللفظ لهذا المعنى ، غير أنها نسبت إليه هذه الآلة العربية فقالت « البندقية » .

٣ ـ بيضة القبان : أطلقوها على كرة من نحاس أشبه ما تكون بالبيضة ، يعرف منها وزن الأشياء التي ترفع بالقبان . وفي الوسيط : سموها رمانة القبان . فان لم تكن العامة في مصر تستعمل « الرُّمانة » فإن « البيضة » أوفق ، وهي معروفة في الشام : داخله وساحله . وتستعمل في لبنان للدلالة على قيمة الرجل ، أو الجماعة فيقولون هو « بيضة القبان » أو هم « بيضة القبان » حيث مالوا رجَّحوا .

٤ ـ التُّفاحة : تستعمل لما يُمسك الباب أن يفتح من نفسه ، وهي دون القفل . ولا بد للباب منها . وكانت أشبه شيء بالتفاحة وعادت اليوم في شكلها إلى مثل ما كانت عليه .

٥ ـ الحية : الحيوان المعروف ، أطلقوها على الأنابيب الصغيرة التي يجري فيها الماء وجمعوها جمعه . فقالوا « حيات الماء » ومن التوافق أن العرب أطلقوا قديماً على مجاري المياه « الثُّعبان » وهي الحية الضخمة ، أو هي الحية مطلقاً .

٦ ـ الديك : أطلقوه على الجزء من السلاح . وهو شبيه برأس الديك ، إذا ضُغط عليه فضرب موضع النار ، انطلقت الرصاصة من البندقية أو القذيفة من المدفع . وأبت الخاصة ذهاباً بنفسها من أن تستعمل

ما استعملته العامة فأطلقت عليه « الطارق » وبين الاستعمالين فرق .
والديك هنا خير من الطارق وأخص .

٧ — الرديف : لغةً : الراكب خلف الراكب . استعمله البناؤون للمدماك يوضع على حفاف السطح تثقيلاً له ، ومنعاً للأمطار والثلوج أن تسيل على الحيطان .

٨ — السبلة كالسنبلة : من القمح والشمير رأسها الذي فيه الحب والحسك أطلقوها على المبرد الصغير المثلث الأضلاع لشبهها به .

٩ — السليخ : الأرض العراء ، لا شجر فيها .

١٠ — الشوكة واحدة الشوك أطلقوها على :

أ — ملعقة ذات أسنان أربع تؤكل بها الجوامد .

ب — ميموّل ذي أصابع تعزق به الأرض .

ج — آلة من حديد كالازميل إلاّ أنها أشد منه وأقوى يستعملها البناء والبلاّط والنجار .

١١ — العروس : يستعملها النجارون لعمود مستقيم توضع عليه الأخشاب التي تحمل القرميد لما يعرف عندهم بـ (التُكنة) .

١٢ — العيفريت : آلة تستعمل لرفع الأثقال ، ولا سيما السيارات ، وقد يكون العفريت أصلح من « الرافعة » التي يستعملها بعضهم .

١٣ — العَقرب : في الساعة يشير فيها إلى الساعات والدقائق .

١٤ — الفارة : سمى بها النجارون آلة صغيرة يستعملونها لنجر الخشب وصقلها وهي شبيهة بالفارة « الحيوان » شكلاً وعملاً . وهي خير من المسحج التي أطلقتها عليها بعض الخاصة .

١٥ — الفرس : ضلع قوي مستطيل يلقيه النجارون إلى جانب « العروس » التي ذكرت قبلاً مساعدة لها في حمل « التكنة » .

١٦ — القمحة : عند العامة : الهنة الصغيرة توضع على فوهة البندقية أو المدفع لتسديد الطلقة وإصابة الهدف . وضع لها العسكريون « الهادي » وكان الترك قد أبدلوا بـ « القمحة » « الشعيرة » . و « القمحة » التي استعملتها العامة خير من « الهادي » ومن « الشعيرة » وهي أشبه شيء بـ (القمحة) النباتية حجماً وشكلاً .

ثالثاً : ألفاظ أحدثوها ، منها :

١ — البندقية : وقد سبق ذكرها .

٢ — الطرّاحة : حشيّة مربعة أو مستطيلة . تطرح للزائر ليجلس عليها . ثم صارت توضع حيث تستقبل الضيوف ، قبل أن اتخذت المساور [1] (الكنبايات أو القلاطق) ولا تزال مستعملة إلى اليوم .

٣ — الجبّالة : آلة يجبل بها الطين .

٤ — الجرارة : تجر بها الأثقال .

٥ — الحفارة : لما تحفر بها الأرض .

٦ — والعجانة : لما يعجن بها الدقيق .

٧ — القطاعة : تقطع بها الحجارة .

٨ — الكسارة : لما يكسر بها صغار الحجارة أو الحصى .

٩ — النقالة : تنقل بها الأشياء . إلى عشرات من هذه الأشياء التي أحدثتها الحضارة والعمران ، فأحدثوا لها هذه الأسماء .

١٠ — الفراطة : أطلقوها على هذه القطع الصغيرة من النقد . وفرط العقد والعنقود في لغة المولدين : فرقه وبدده .

---

(١) المسوّر ، والمسورة : متكأ من جلد يجلس عليه .

١١ — الفرّاعة : الفأس الصغيرة : لقطع الغصون أو تشذيبها . وفرع الشيء لغةً ، جعله فروعاً .

١٢ — الجل - في لبنان - قطعة صغيرة من الأرض لها حائط وحدّ معلوم . يرتفع بعضها عن بعضها الآخر .

١٣ — الخنصر : فإذا ضاق جلّ عن جلّ ، وقصر عنه ، سموه خنصراً ، تشبيهاً له بخنصر اليد ، لقصره وصغره عن سائر (الجلول) : قصَر الخنصر عن سائر الأصابع .

١٤ — العائلة : أطلقوها على عيال الرجل ، وأهله الأدنين . وهي فاعلة بمعنى مفعولة . وفاعل بمعنى مفعول ، ومفعول بمعنى فاعل كثير في العربية .

١٥ — الغدّارة : أطلقوها على هذا السـلاح الناري ، يحشى بالبارود والرصاص ، ذلك لما فيه من الغدر ، إذا هو قيس بالسلاح الذي كان يشهر علانية كالرمح والسيف . وللغدّارة أنبوبان .

١٦ — الفرد : ولمّا عرف الفرد وهو ذو أنبوبة واحدة أطلقوا عليه هذا الاسم ، ثم أبدلت الخاصة بلفظ (الفرد) المسدّس . يوم بدأ بست طلقات . ثم صار بخمس وبعشر ، وظل على اسمه (المسدّس) .

١٧ — مسك الدفاتر : طريقة حسابية لا غنى عنها للتجار . أنكرها بعض المتشددين بحجة أن الفعـل مسك به ، وأمسكه ، لا مسكه . فكان يجب أن تكون : « إمساك الدفاتر » لا « مسك الدفاتر » . و « مسك الدفاتر » أخف من قولهم « إمساك الدفاتر » .

وليس هذا بالمأخذ الذي لا يتفلّت منه . فقد جاء عن العرب كثير من المصادر التي خالفت الأفعال . فقالوا : (عطاء) من (أعطى) و (مبروز) من (أبرز) و (قارب) من (أقرب) لا (مقرب) و (مسعود) من (أسعده) و (مضعوف) من (أضعفه) .

١٨ ــ الطَّلْقة : الدفعة الواحدة من البندقية أو المدفع . أنكرها بعضهم لأن ماضيها (أطلق) لا (طلق) . ويقال في « طلقة » ما قيل في مثله (طلقة) بالنسبة إلى (إطلاقة) وأكثر من هـــذا فالعرب توسعوا ــ على ما سبق فقلنا ــ فاستعملوا المفعول بمعنى الفاعل ، والفاعل بمعنى المفعول .

فقالوا : ماء (شروب) أي يشرب ، وبئر (غروف) أي يغرف ماؤه ، وفرس ركوب أي يركب .

قالوا هذا على حين فعول أكثر مجيئه بمعنى الفاعل :

رجل غيور ، وكذوب ، وكفور ، وملول ، وشكور .

١٩ ــ العروس : لفظ يطلق على كل من الرجل والمرأة : ما داما في عُرسهما . وهما العروسان . هذا هو النص اللغوي . إلاّ أن العامة استنكرت أن تقول : للرجل العروس في إعراسه ، فاستعملت العريس . وله وجه وإنْ كان بعيداً . حملت هذا على : الزوج والزوجة . والغريب أنهم فرقوا بين العروسين جمعاً ولم يفرقوا بينهما مفرداً .

فقالوا : وجمع العروس للرجل : أعراس وعُرُس . والمرأة : عرائس .

٢٠ ــ الفرس : تطلق على الذكر والأنثى . قال ابن سعيد : وأصله التأنيث . وعلى هذا جرت العامة . فالفرس عندهم الأنثى . وللذكر الحصان [1].

٢١ ــ الفطيرة : رقاق من العجين تحشى بالتوابل ويثنى بعضها على بعض .

٢٢ ــ المنقوشة : رغيف مستدير أو مستطيل ، ينقش بالأصابع وتوضع عليه التوابل ، وتوابلها تختلف عن توابل الفطائر ،

---

(١) والعرب جروا على مثل هذا التفريق . فالطرب : خفـــة تأخذ صاحبها من فرح أو حزن فخصّوها بالفرح . والمأتم : مجتمع الناس في فـــرح أو حزن فخصّ بالحزن .

٢٣ ــ الكف : استعملته العامة لما يلبس باليد من جلد أو صوف وجمعه كفوف ، وهو خير من القفاز وجمعه قفافيز الذي تستعمله الخاصة في مفرده وجمعه .

٢٤ ــ الوصفة : أطلقت على التذكرة يعطيها الطبيب يعين فيها أجزاء الدواء . سموها حيناً « الروشته » وهي لفظة فرنسية (Racette) مأخوذة عن اللاتينية (Racepta) ثم غلبوا عليها « الوصفة » فأنكرها بعض المتشددين بأن فعلها وصف فكان يجب أن يقال فيها « صفة » لا « وصفة » وفي قولهم « صفة » من اللبس ما لا يصلح معه استعمالها .

ومن المصادر عشرات تثبت فيها هذه الواو : مثل :

وعدة ، وومضة ، ووقعة ، ووحدة و . . . و . . .

ونخلص من هذه الأمثال التي ضربناها في ما استعير وفي ما أحدث إلى نتيجة من نتيجتين .

١ ــ إمّا أن يجد رجال التحقيق وجهابذة العلم والنظر في دواوين اللغة ومعاجمها ، ما يسد مسد هذه الألفاظ التي لا بد منها ولا غنى عنها .

٢ ــ وإما أن يقروا هذه العامة ، وبعض خاصتها ، على ما استعاروه وأحدثوه ، ويدخلوه في المعاجم .

رابعاً : ما خففوه أو هذبوه . من ذلك :

١ ــ الرز : نبات حولي ــ واللفظ في أصله غير عربي لعله مأخوذ من التلياني . وفي هذه اللفظة سبع لغات . بين فتح وكسر وتحريك وتسكين ، ومن هذه اللغات « الرز » اختارتها العامة دون سواها من اللغات . أما الخاصة فتأبى أن تجاري العامة في اختيارها فلا تقول إلا (الأرز) ، وإن كانت « الرز » تفضل « الأرز » أسهل لفظاً وأخف على السمع

وقماً . وفي « الأرز » التباس في الرسم بين « الأَرز » الشجر العظيم الصلب ، و « الرز » النبات الحولي الهش . ونحن نقول في بائعه « الرزّاز » وفي النسبة إليه « الرزي » وبه سمي بعضهم ، وحرفته « الرزازة » وموضعه « المرَزّة » وكله مما نصت عليه كتب اللغة وهو من « الرز » لا من « الأرز » .

٢ — الإوَز : بكسر ففتح . وهو الطير المعروف . والعامة تسقط الهمزة من أوله فتقول « الوز » وهو وارد ، والنسبة إليه « الوزي » وبه سمي بعضهم « والمَوزّة » الأرض يكثر فيها « الوز » وهي من « الوز » لا من « الإوَز » .

٤ — الدُّرّاق : الثمر أو الشجر المعروف . وقيل في اللفظة أنها رومية الأصل ، وفيها لغات : منها « الدُّرّاق » التي تستعملها العامـة . والدراقن التي تستعملها الخاصة . والدُّراق وزان : « رُمان » و « تُفاح » و « سُمّاق » و « عُنّاب » ، فلمَ لا تقول الخاصة فيها ما تقوله العامة « دُرّاق » وهي لغة من لغاتها . وواحدتها « دُرّاقة » كرمانة وتفاحة والنسبة إليها « دراقي » ويستثقل جداً إذا قيـــل « دراقني » مع بقاء النون .

٤ — الرَّغم والسَّم : وهما مثلثان . اختارت العامة فيها الفتح وهو أخف ، واحتفظت كثرة الخاصة بالضم . وفي فتح « السم » تفريق بين هذه المادّه السامّة ، وسم الخياط : أي ثقبه .

٥ — الخروب : شجر ينبت في جبال الشام وفيه لغتـان : الخرنوب ، بنون بين الراء والواو وعليه أكثر الخاصة ، إذ كتبوا ، والخروب بإسقاط النون . وعليه العامة . وفي بعض المعجمات : الخرنوب لغة

في الحروب ، ومعنى هذا أن ما عليه العامة هو الأصل . والمعروف في النسبة خروبي لا خرنوبي . ففي « خطط المقريزي » بعنوان : (المدرسة الخروبية) : هذه المدرسة بظاهر مدينة مصر أنشأها بعد ستة وخمسين وسبع مئة بدر الدين محمد الخروبي (بفتح الخاء المعجمة ، وتشديد الراء المهملة وضمها ، ثم واو ساكنة بعدها باء موحدة ، ثم ياء آخر الحروف) .

يقول المقريزي : وشرط بدر الدين في مدرسته ألاّ يلي بها أحد من العجم وظيفة من الوظائف . فقال في كل وظيفة منها : ويكون العرب دون العجم » ، وكذلك (المدرسة الخروبية) التي أنشأها عز الدين محمد الخروبي ـ ابن أخي بدر الدين .

٦ ـ الفَيروز : بفتح الفاء وكسرها . والفتح أشهر ، وفي كتب اللغة « الفيروزج » حجر من الأحجار الكريمة تعريب « بيروزه » الفارسية بالباء المفخمة (p) التي يقلبها العرب (فاء) في كل ما ينقلونه إلى لغتهم ، كما يقلبون حرف (v) باء . أسقطت العامة جيمها وقالت : « الفيروز » والنسبة إلى « الفيروزج » في كتب اللغة « فيروزي » وبذلك يكون رجال اللغة قد وافقوا العامة بعض الموافقة ، وما ضرّ لو جاروها فحذفوا الجيم حذفاً مطلقاً .

هذه كلمة أردت بها أن ألفت النظر إلى أن ليس كل ما تستعمله العامة خطأً . وانه إذا كان يراد للفصحى ـ ونقولها مرة ثانية ـ أن لا تهبط إلى منخفض العامية ، فليس من الخير للعربية أن يكون بين اللغتين ـ وهما في الأصل لغة واحدة ـ حاجز حصين يحول دون الخاصة واستعمال لفظ لا بد منه ، لا لشيء ، إلاّ لأن العامية استعملته أو استحدثته .

إن اللغة لا تعيش في أخبية ضرب عليها بالأسداد ، ولكنها كائن حي تسير مع الزمن الذي تعيش فيه ، يحدث لها فتحدث له ، وهي الكلمة المأثورة عن عمر بن عبد العزيز التي خاطب بها أمته وقد استشهدنا بها من قبل : « تحدثون فنحدث لكم » وما قيل في الشريعة يقال في اللغة .

وبعد . فإنا نريد خطة وسطاً ، لا تشدد الحريري في (درته)[1] منع فيها ما يجوز ، ولا تساهل ابن الحلبي في (بحره)[2] أجاز فيه ما لا يجوز .

عارف النكدي

---

(١) (درة الغوّاص في أوهام الخواص) .

(٢) (بحر العوّام في ما أصاب فيه العوام) .

وقد بلغ التشدد من بعضهم أن أنكر على بعض الأدباء قولهم « ليلة راقصة » معللاً لإنكاره بقوله : « إن الليلة يقع فيها الرقص وليست هي التي ترقص » وكان المنتقد وهو علم من أعلام اللغة غلبت عليه نزعة التشدد فذهب عن باله أنهم قالوا : « ليلة ساهرة » و « ليلة قاصدة » و « ليل نائم » و « يوم عاصف » وقوله تعالى : « عيشة راضية » وكلها مما يقع الشيء فيه ، لا مما يقوم هو فيه .

الألفاظ المتشابهة
في السريانية والعربية[1]

عطفاً على مقالنا « العربية وشقيقتها السريانية الوفية » المنشور في المجلد ٤٠ والجزء ١ من هذه المجلة الغراء، نقول : في الأبجدية السريانية ، اثنان وعشرون حرفاً ، ازدوج لفظ ستة منها وهي : الباء والجيم (المصرية) Gamal الدال ، الكاف ، الپاء ، (P الافرنجية) والتـاء . هذا أحد اللفظين . أما اللفظ الثاني فهو : ال ڤ (V الافرنجية) ، الغين ، الذال ، الخاء ، الفاء والثـاء ، ويتميز بنقطة صغيرة تُرسم تحت الحرف . ويعرف الأول باصطلاح اللغويين السريانيين ب « القامي » والثاني ب « اللـيّن » .

لقد نوهنا في مقالنا المشار إليه ، بلهجتي السريانية الفصحى الحالية ، المعروفتين بالشرقية والغربية . فإيضاحاً لمـا سبق نقول : إن من ميزات اللهجة الشرقية ، لفظها حرف الفـاء قاسياً على الإطلاق ، كحرف الـ P الإفرنجي ، ما خلا بضع ألفاظ لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، فتلفظها كالواو بدلاً من الفاء ، خطأ ، كما صرّح صاحب القاموس السرياني المعروف ب « دليل الراغبين في لغة الآراميين » وهو من أصحابها . بل تلفظ حرف ال V (البـاء الليّن) أيضاً كالواو . أما الغربية فتلفظ الأول ليّناً على الإطلاق أي فاء . أما الثاني فقد أهملته إلا في ما ندر . وكلا الأمرين خطأ

(١) لقد اصطلحنا على حرف Q للقاف و Aa للعين ، واستعملنا الفتحة الشرقية حفاظاً على تركيب اللفظة ، وكذلك الشدة الشرقية لاتفاقها والعربية .

لا مبرر له . وأما الألفاظ التي دخلت العربية عن طريق هذين الحرفين فقد انقلب فيها الأول إلى باء والثاني إلى فاء أو واو .

وفي ما يلي الألفاظ السريانية التي دخلت العربية عن طريق هذين الحرفين(١) .

Arzapta الأَرْزَبَّة والمِرْزَبة (عُصيّة من حديد) و Marzapta المِرزَبَّة . Hpa بالحاء ، خبأ . Hapoura بالحاء ، الغبار (الهباء) . Taptapa بالطاء الطبطابة (خشبة عريضة يُلعب بها بالكرة) . Kap اكبّ (احنى وانحنى) . Kopta القبة (القبو ، القنطرة) . Kpa كبّ (قلب ، أراق) . Stap بالطاء ، شطب . Sapouna بالسين والصاد ، الصابون . Aarepta بالعين ، الغَرَب (الصفصاف) . Paee بَهَا (جَمُل) ، ومنها Paya البهي . Pdara بالذال ، البذر (تبديد المال وتفريقه) . Patiha بالطاء والحاء ، البطيخ . Petqa بالطاء والتاء ، البطاقة (رسالة) . Paytara البيطار . Plagma البلغم(٢) Palatin بالطاء ، البلاط . Pqaata بالعين ، البقعة (السهل) . Paqqeq بقّ (هذر . هرج ، كثر كلامه على القوم) . Pargudin البرجد (كساء غليظ مخطط) . Pchat بالطاء ، بسط ومنها Pchita البسيط والمنبسط والاعتيادي . pcham بَشِم (اتخم من الطعام) Pchaa بالعين ، بشع (مسخ) . Ptaq بالثاء والقاف ، بثق (فتق ، شق) . Qnapa القنّب (نبات) . Qlap قلب (كبّ) . Qpad قبض . Qappah بالحاء ، كبح . Qupta بالطاء ، القبيّط (نوع من الحلويات) . Qpas قبض (ضد مد وبسط) وقبض (أمسك) . Qpisouta بالصاد ، انقباض (جمع) . Qapar الكَبَر (شجر الآصف) . Chtap بالطاء ، شطب (فلق ، شق ، شرّح) . أما Purchana البرشانة فتجدها في اللهجة العربية العامية . وبهذا المعنى

---

(١) لا تدخل هنا الألفاظ المذكورة في المقال السابق .

(٢) لقد دخلت الألفاظ الأعجمية اللغة العربية عن طريق السريانية .

جاءت لفظة Prista أيضا . ومن المدن Pustra بالطاء ، مدينة البصرى (اسكي شام) و Palat بالطاء ، مدينة بَلَد في العراق . Zvava الذّفاف (الماء القليل) . Zevta الزفت . Tvah بالطاء والحاء ، طفح . Nhev بالحاء ، نحف . Qav قفّ (الشّعر) . ومن المدن Kouva ، الكوفة في العراق أي شوكة أو عاقولا . Chvat بالطاء ، ساط ، ومنها Chavta السّوط . Charvala السروال [١] . وشذت Besadya الوسادة Burcha الورس .

ومن الغريب أن تأتي لفظة Qwaz بمعنى قفز أي بعكس القاعدة المتبعة .

ومن الحروف « اللينة » ، الغين ، التي تلفظها اللهجة العامية الشرقية غالباً ، همزة [٢] . فتقول مثلاً « أرنآءا » بدلاً من ارناغا Arnagha الجُرَذ ، « زاءَا » بدلاً من زاغا Zagha الزاغ (الفرخ ، الفروج الصغير) ، « راأولا » بدلاً من راغولا ، الوادي ، « وشْوْءلاَ » بدلاً من شوغلا ، الشغل . وعن طريق هذه اللهجة دخلت العربية لفظة « زأر » الأسد بدلاً من « زغر » Zghar .

ومن ميزات اللهجة الشرقية أيضاً ، استعمالها الشدة كما في العربية . وقد ولّدت هذه الشدة ، منذ العصور القديمة ، لدى بعض القبائل السريانية الشرقية في العراق ، نوناً ، نحو Ganbara بدلاً من Gabbara الجبار . Mendem بدلاً من Meddem الشيء . Manna بدلاً من منّا ، المن . Sunbara بدلاً من Subbara البشارة . Senbelta بدلاً من Sebbelta السلّم . Chenda بدلاً من Chedda الشدّة . Chanpira بدلاً من

(١) إن لفظة Keriv الكردية ، هي نفس لفظة Qariva القريب السريانية ، وقد دخلت الكردية بحسب اللهجة السريانية الغربية .

(٢) لقد جاءت لفظة Molaghma مَلْغما . مَلهَم بدلاً من مَلأم ثم تحرفت في العربية فصارت مَرْهَم (ما يُطلى به الجرح) .

Chappira الجميل . هذا ولا يزال الكاثوليك في ملبار الهند ، الذين يستعملون الطقس السرياني باللهجة الشرقية ، يلفظون Qandichat بدلاً من Qaddichat قدوس أنت ... الخ .

وعلى هذا النمط عثرنا على الألفاظ التالية التي أوسعت لها المعاجم العربية : Anba « الانبا » بدلاً من Abba الأب . ولا تزال الكنيسة القبطية في مصر تستعمل « الانبا » لأساقفتهـا وبطاركتها . Anbouba الأنبوب بدلاً من Abbouba . Endar الأندر (البيدر) بدلاً من Eddar . Anfé الأنف والوجه بدلاً من Affé . Ant أنت بدلاً من Atte . Antta الأنثى بدلاً من Atta . Ansahta بالصاد والحاء ، النسخة ، بدلاً من Assahta . Ganza الكنز بدلاً من Gazza . هذا ولا يزال الكتاب الخاص بالماندية (الصابئة) يسمى بـ « الكنزا » Ganza . Gunda الجُند (الجوقة والفرقة) بدلاً من Gudda . وما زالت هذه اللفظة مستعملة في السريانية بمعنى « الجوقة » . أما في العربية فبمعنى فرقة من العسكر . Zanbila الزنبيـل بدلاً من Zabbila . Zandouqa الزنديق بدلاً من Zaddouqa . Hanzira بالخاء ، الخنزير بدلاً من Hazzira . Henzita بالخاء ، الخزانة بدلاً من Hezzita . Henetta بالطاء ، الحنطة بدلاً من Hetta . Henka بالحاء ، الحَنَك بدلاً من Hekka . Harnouba بالخـاء ، الخرنوب بدلاً من Harrouba . Kranba الكرنب بدلاً من Krabba . Lbenta اللّبنة بدلاً من Lbetta . Mansara المنشار بدلاً من Massara . Manqara المنقار بدلاً من Maqqara . Sandana السندان بدلاً من Saddana . Sfinta السفينة بدلاً من Sfitta . Enqa بالعين ، العُنق بدلاً من Eqqa . بيد أن هذه اللفظة تعني بالسريانية اليوم قلادة العُنق . Enza بالعين ، العنزة بدلاً من Ezza . ولا تزال بنت الظبية تسمى في العربية « العَنَزَة » . Tinta التينـة بدلاً من Titta .

Chanbel سَنْبَلَ بدلاً من Chabbel ، ومنها Chenbelta السُنبلة بدلاً من Chebbelta . Chanta السَّنة بدلاً من Chatta . أما Qupta بالطاء ، القنّبيط ، فلعل أصلها Qunpta .

أشرنا في مقالنا الآنف الذكر إلى تشابه مئات من الألفاظ في اللغتين العريقتين معنى ولفظاً ، سواء أكان ذلك في أصلها أم ما اقتبسته الواحدة عن الأخرى عبر الأجيال ، وأوردنا بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر . كما جزمنا في غيرها بأنها انتقلت من السريانية إلى العربية إما عن طريق حرف ال P أو حرف الجيم المصرية Gamal الذي يُكتب كالكاف الفارسية فانقلب مع تمادي الزمان إلى حرف الكاف العربي كما هـــو اليوم ، أو إلى حرف القاف ، وبالعكس كما هي العادة عند بعض العرب . وقد مرت معنا الألفاظ التي انتقلت عن طريق حرف ال P . وفي ما يلي الألفاظ التي انتقلت عن طريق حرف الجيم المشار إليه [١] .

أ — الجيم التي انقلبت إلى حرف الكاف :

Gad كدّ [٢] . Gnaz كَنَزَ . Dargé الدَّرَكات [٣] . Sgar سَكَّر (الباب ، أرصده . سده) . Rbag رَبَكَ (تحيّر) . هذا وقد انقلبت الكاف إلى جيم في لفظة Fak فجّ .

ب — الجيم التي انقلبت إلى القاف :

Urga الأورق (الذي لونه لون الرماد) . Garegsa القيرقيس (شيء يشبه البق) . Zibag الزيبق والزئبق . Zrag زَرَقَ . Lagta اللَّقَن

(١) لا تدخل هنا الألفاظ المذكورة في المقال السابق .

(٢) الصحيح جدّ .

(٣) الصحيح ، الدرجات . وبعد أن اعتُبرت الكاف اصلية في الدركات ، أقر اللغويون العرب الدرجات للصعود والدركات للهبوط .

(شبه طست من نحاس أو صفر) . Ngal انتقل . Negaa بالعين ، النّقع (الشق) . Rhag رَبَقَ (شدّه في الربق أي الحَبل) ، ولفّق الكلام . Chrag شَرَقَ .

ج — القاف التي انقلبت إلى جيم :

Nqal نَجَلَ (الأرض : شقها) . Qubta الجُبّ . Qba جَبَا (جمع الماء في الحوض) . هذا وقد جاءت القاف في Zlaq غَيْنا ، زَلَغَ ، أي أضاء كما هي في Zlagh السريانية .

ذكرنا في مقالنا السابق ، ألفاظاً سريانية تغير تركيبها في العربية . وقلنا ان الشين السريانية هي غالباً سين في العربية ، والسين شين ، والطاء ظاء ، والحاء خاء ، والعين غين أو ضاد أو همزة . ونضيف هنا ، اننا نتيجة لدرسنا الدقيق للألفاظ السريانية والعربية ، وجدنا عدداً وافراً من الألفاظ ، انقلبت في بعضها الجيم السريانية إلى غين ، مع أنها في الغالب جيم عربية ، والطاء والصاد إلى ضاد ، والكاف إلى قاف وبالعكس . كما أننا عثرنا على كثير من الألفاظ المتشابهة بحسب اللفظ اللاين أيضاً . هذا فضلاً عن تحرّف العشرات من الألفاظ الأخرى .

وهناك مشكلة الحروف الأسلية والنطعية والحلقية [1] ، إذ اختلف لفظ كثير منها في اللغتين اختلاف لهجات الشعوب الناطقة بها ، بحيث أضحت الزاي في اللغة الواحدة سيناً أو شيناً أو صاداً في اللغة الأخرى وبالعكس .

---

(١) الحروف الأسلية في العربية هي : الزاي ، السين والصاد . أما في السريانية فتضاف اليها الشين أيضاً ، والحروف النطعية في العربية هي : التاء ، الدال والطاء . أما في السريانية فتضاف إليها اللام والنون أيضاً . والحروف الحلقية في العربية هي : الهمزة ، الخاء ، الحاء ، العين ، الغين ، القاف والهاء . أما في السريانية فهي : الهمزة ، الهاء ، الحاء ، العين والراء

والتاء دالاً أو طاء وبالعكس ، والحاء والعين أحياناً هاء أو همزة او ذابتا كليا [١] . وهناك ألفاظ أخرى متشابهة ، جاءت ذالها السريانية زايا في العربية ، وثاؤها سيناً وبالعكس . ولا بدع فان في اللغة الواحدة ألفاظاً من هـذا القبيل جاءت بمعنى واحد . ففي صدد الحروف الأسلية ، نقرأ في السريانية : Knidta بالذال و Knizta بالزاي أي قرصـة سميكة . Nuqadta بالذال و Nuqazta بالزاي أي النقطة . Zrat بالزاي والطاء و Srat بالصاد والطـاء أي شرط وخدش . Zwada بالزاي و Swada بالصاد أي الزوادة . Swada بالسين و Swada بالصاد أي سواد الكلام . Sapouna بالسين والصاد أي الصابون . أما في العربية فنقرأ : تَلَعثَم وتَلَعتَم وتَلَعتَم (بمعنى توقّف في الأمر وتأنّى) ، الرزاز والرصاص ، رقز [٢] ورقص . سَفَقَ وصَفَقَ (بمعنى صَفَعَ ولَطَم) ، سقل وصقل ، غرس وغرز ، لزق ولصق ، مَرَثَ ومَرَسَ (بمعنى نقع في الماء وليّن) ، والسَّعتَر والصَّعتَر (نبات) والطُّرموث والطُّرموس (خبز الملة) . وفي صدد الحروف النطعية نقرأ في السريانية : Htar بالحاء والطاء و Htar بالحاء والتّاء أي خَطَر وتَكبَّر Taach بالطـاء والعين و Taach بالتاء والعين أي تَعِس وذلّ ، Petqa بالطاء و Petqa بالتاء أي البطاقة . أما في العربية فنقرأ : التّمتام والطمطيم

---

(١) ولنا في لفظتي « الساف » (من البناء) و « البُرّ » أي القمح خير مثال على هذا . فانهما سريانيتان أصلهما Sahfa (سحفا) Aboura (عبورا) والأرجح أنهما دخلتا العربية عن طريق اللهجة السريانية العامية (البابلية) الدارجة في شمالي العراق والتي يذوب فيها حرف الحاء أحياناً والعين غالباً . ومن هذا القبيل قولنا زور بابل بدلاً من زعور بابل ، ودير الزور بدلاً من دير زعور .

(٢) اللفظة سريانية أصلها Rqed بالذال ، حرّفها الذين يلفظون الذال كالزاي كقولهم : « هزا وزاك » بدلاً من هذا وذاك . وما زال الكثيرون في سورية ولبنان يلفظونها هكذا

(الذي في لسانه عجمة) ، وقَتَل وقَطَل ، أما في صدد الحروف الحلقية فنقرأ في العربية مثلاً : حَجَرَ وَعجَرَ بمعنى حَجَزَ ، حَنَّ وهَنَّ .

وفي معرض كلامنا عن الحروف الأسلية ، برزت لفظة Zyana السريانية التي تعني في العربية الشَّين والرَّين ، والتي مازالت دارجة بهذا المعنى في العربية العامية في الموصل وسوادها ، فتقول : فلان عمل « زْيَان » أي شيئاً رديّاً ، على حين أنها والفصحى على طرفي نقيض ، إذ جاءت لفظة « الزين » في الأخيرة بمعنى الجيّد . والأرجح أن « الزين » هي المعنى الصحيح للفظة السريانية المشار اليها ، وإن معناها يجب أن يكون بمعنى « الشَّين » . أما لفظة « الشَّين » فهي تصحيف « الزين » وذلك بالنظر إلى اختلاف لهجات الشعوب الناطقة بالعربية كما ذكرنا في كلامنا عن الحروف الأسلية كقولنا « انكليز وانكليش » . وكذلك نرجّح أن تكون لفظة « الرين » بالذات ، إذ تصحَّفت الزاي راء بواسطة النساخ . وكم من ألفاظ صحَّفها النساخ . فاننا نقول : « صوب وحدب » بمعنى جهة ، في حين أن « صوب » تقابلها في السريانية Sawba . أما « حدب » فالأرجح أنها تحريف « صوب » . وكذلك نقول : الخطارة والحظيرة بمعنى صيرة الغنم ، خرق وخزق ، سخّن وسخّم ، فخّت الحية وفحّت ، رحم ورخم [١] ، حجر الثروة والفروة بمعنى الغنى ، الأثرم والأفرم (المتحطّم الأسنان) [٢] . ومن تصحيف النساخ الذي دخل المعاجم العربية دون تمحيص وروية ، لفظة « العدوّ ») بضم الواو وشدّها) بمعنى لفظة « الرّهط » [٣] ، في

---

(١) هذه اللفظة أيضاً سريانية أصلها Rhem أي بالحاء لا الخاء . وهي الأخرى دخلت عن طريق اللهجة العامية الآنفة الذكر والتي تلفظ حاؤها خاء غالباً .

(٢) لا يزال أهل قلّت من أعمال ماردين ، حتى النازحين منهم إلى لبنان ، يلفظون الثاء فاء .

(٣) انظر المنجد .

حين أن هذه اللفظة سريانية بحتة Rehta بالطاء ، تعني « العَدْوُ » (بضم الواو فقط) أي الركض والجريان .

وإليك الألفاظ التي تخللتها الحروف الأسلية والنطعية والحلقية :

الأسلية : Buziqa الباشق ، Bhach بالحاء ، بحث . Gezaa بالعين الجذع . Gras بالصاد جرش . Nqeb Dercha التطريز . Zvava الذّفاف (الماء القليل) Zdaq صَدُق ووجب ، ومنها Zaddeq صَدّق وصادق وتصدّق ، و Zedqa الصِّدق (البِرْ) والصَّديق (القريب) ، و Zedeqta الصَّدقَة ، و Zaddiqa الصِدّيق . Zaddouqa الصَّدُّوقي (الزنديق) . Ezdhar تحذر Zahra السُّهر (القَمَر) . Zyana الشّين . Zaaouqta بالعين ، الصاعقة Zaar بالعين صَغُر . Zrat بالطاء شَرَطَ . Zraq ذَرَقَ (نثر ، بذر) . Hlas بالحاء والصاد ، خَلَس (سَلَب) . Hsan بالحاء ، حَصُن ، ومنها Hesna الحِصنُ . Hesfa بالحاء والصاد ، الخزَف . Tarmousa بالطاء ، الطُّرمُوث والطُّرمُوس (خبز الملة) . Kecha بالكاف والسين والحاء ، القَزَح (بصلة صغيرة) . Layth بالثاء ، لَيس . Laaes بالعين والسين ، لَعَص . Mazda المَسَد (الحَبْلُ) . Mras مَرَثَ ومَرَسَ . Nda بالذال نَزا . Nzar نَذَر . Nessa بالسين النَّص . Nsah بالصاد والحاء نَسَخَ (كتب) . Sgar زَجَرَ . Sedla بالسين ، الصَّندل . Sah بالسين ، صَه . Sahem بالسين والحاء ، زَحَمَ . Sahsahna بالسين والحـــاء ، الصَّحصَحان (ما استوى من الأرض وكان أجرد) . Saybar بالسين ، صَبَرَ . Sapouna بالسين ، الصابون . Sandouqa بالسين ، الصندوق . Salta بالسين والطاء ، الصَّلت (السيف الصقيل الماضي) . Sqal بالسين ، صقل وسقل . Sra و Sri بالسين ، صَري (نَتِنَ) . Sram بالسين ، صَرَمَ (قَطَع) . Aazta بالعين والزاي ، العَذاة (أرض طيّبة) . Agas بالعين والسين ،

عَقَصَ . Aqaseqsa بالعين والسين معقَّص (مجعَّد) . Fas بالسين ، فَصٌّ Fursa بالسين ، الفُرصة ا: Afrech أفرزَ . Sva بالصاد ، شاء [1] . Sdar بالصاد ، سَدِرَ (تحيَّر) ، ومنها Sedra بالصاد ، السَّدَرُ (الحَيرة) . Swada بالصاد ، الزوادة وسواد الكلام ، ومنها Swadaya بالصاد ، السوادي (العامي) . Slafta بالصاد ، السلحفاة . San بالصاد ، شان . Sarwa بالصاد ، السَّروُ . Srah بالصاد والحاء ، سَرَحَ (انتشر . عبث) . Srat بالصاد والطاء ، شَرَطَ (خدش) . Qamista بالسين ، القميص . Qumassa بالصاد ، القمّس (الرجل الشريف) . Qusarta بالسين ، القوصرة (وعاء من قصب يُجعَل فيه التمر ونحوه) . Qpas بالسين ، قَبِضَ (ضد مد وبسط) ، وأمسك وانجرَّ . Qafsa بالسين ، القَفَص . Qarsem بالسين ، قَرصَمَ (قَطَعَ) . Rza رَذِي هزل ، سقم ، أثقله المرض) ، ومنها Razaya الرزي (الضعيف المهزول) . Rzaf ذَرَفَ . Rmas بالسين ، رَمُزَ (رصن . وقر) ، ومنها Rmisa الرميز (الرصين . الوقور) . Rustaqa بالسين والتاء ، الرُّزداق (القرى حول البلدة وما يحيط بها من الأراضي) . Chgha بالشين ، زاغ . Chna بالشين ، جنّ . Chqaqa بالشين الزقاق . Chuqafta بالشين ، الصفقة (الصفعة) .

النطعية : Bdaq بالذال ، بثق . Draz طرز (آذى) . Hda بالذال ، حثا (جمع ، كوّم) . Htar بالحاء والتاء ، خطر (تكبر) . Tabah بالطاء والحاء ، ذبح . Tha بالطاء ، تاه . Tamtem بالطاء ، تمتم . Tnach بالطاء دَنِس (توسخ) . Taash بالطاء والعين ، تمس (ذل) . Ltak بالتاء والخاء ، لطخ . Mot بالطاء ، ماد . Mtah مدّ ومنها Metha المُدّة .

---

(١) لقد جاءت اللفظة السريانية Sebyana بالصاد ، المشيئة « شبونا » في اللغة الكردية .

Nda نَدّاً . Nta بالطاء ، نَدي . Nqad نقَّط (وشم) ، ومنها Nuqadta النقطة . Nchat بالطاء ، نَتَشَ . Sedra السِتْرُ (الحجـاب) . Salta بالسين والطـــاء ، الصَّلت . Aamet بالعين والطاء ، غَمَدَ (غاص) . Aanata بالعين والتاء ، العَنيد . Fat بالطاء ، فتّ . Flat بالطاء ، أفلت . Futqa الفندق . Frad فرَّط (فرّد) . Petqa بالتاء ، البطاقة . Ftar بالتاء ، فطر . Srat بالصاد والتاء ، شرط . Qatya بالتاء ، القِثّاء . Qtal بالطاء ، قتل وقطل . Qtam بالطاء ، قتّم ، ومنها Qutma القتام . Qared شجر القَرَظ (ورق السَّلَم يُدبغ به) . Rustaqa بالتــاء ، الرزداق . Rtina بالطاء الراتينج (صمغ الصنوبر) . Chmad شَتَم . Toch بالتاء ، طاش . Tal بالتاء ، طَلّ (بَلّ . رطب) . أما Qatifta بالطاء ، القطيفة (الخمل) ، فتجدها في اللهجة العربية العامية (القديفة) . هذا وقد جاءت ضاداً كل من الذال في لفظة Qpad تقبّض ، والتاء في لفظة Taffa الضَفّة .

الحلقية : Ékaf بالهمزة ، عكَفَ . Ataaesh بالطاء والعين ، طاش . Afsa بالهمزة والصاد ، العَفص . Gaasa بالعين والصاد ، الجَصّ (الشيد) . Dora الدهر ، ومنها Dor Dorin دهر الداهرين . Hawraya بالهاء ، الحَرْ . Haymen بالهاء ، آمن . Handaqouqa بالهاء ، الحندقوق . Hfak Bzaflan بالهاء ، أفَكَ (خالف) . Ezdhar تحذّر . Hgar بالحاء عرَج . Hazba بالحاء ، الهازباء . Kukta الكعكة . Lahta بالحاء ، اللّهث . Manaa بالعين ، الميناء . Nham بالهاء ، نَحَمَ (صوت الأسد) . Nhar أثار . Nkah بالحاء نَكِهَ . Nanha بالحاء ، النعناع . Sahfa بالحاء ، السّاف من البناء . Aaboura بالعين ، البُرّ (القمح) . Aazar بالعين ، أزّر (لفّ) . Aamma بالعين ، الأُمّة . Aammaya بالعين الأُمّي .

Aaram بالعين ، أرَم . Fahem بالحاء ، فَهِم . Fuhra بالحاء ، الفُهر ، Faara و Feaara بالعين ، الحُفرة . Fqaa بالعين ، فقأ (قذّى العين) . Ferha بالحاء ، الفَرع . Slafta بالصاد ، السلحفاة . Qaraa بالهمزة ، القَرَعة (اليقطين) . Qahqah بالحاء ، قَهقَهَ (اشتد ضحكه) . Qrah بالحاء قَرِعَ (صَلِع . سقط شعر رأسه) ، ومنها Qarha أقـــرع . Qnaa بالعين ، قَنِيء (احمـــر) . Rahbouna بالهاء ، العربون . Reayana الرأيُ . Chhal بالحاء ، سال .

ومن هذا القبيل تقول : Subaa بالصاد و Sabouaé بالصاد و Sabouaa بالصاد والعين . فقد استحالت العين في اللفظتين الأوليين إلى همـزة ، كما في الصابئة والصابئين ، وذابت كلياً في الثالثة كما في الصبَّة .

أما الألفاظ السريانية التي اختلف تركيبها في العربية ، فهي[1] : Bhar بالحاء ، خَبَر. Batla بالطاء، شجر البلّوط . Blat بالطاء ، لَبَطَ (خبط). Burka[2] الركبة . Beroula البلّور . Galla اللّجّة . Ezdhar بالهاء ، تحذر . Harsa بالحاء والصاد ، الخَصر (الظهر) . Hgar بالحاء ، عرج . Hrach بالحاء ، سحر ، ومنها Haracha الساحر . Kima الـكمأة (نبات) . Nagab الجنوب (القبلة) . Nagra النورج (سكة الحراث) . Nchat بالطاء ، نتش . Nhar بالهاء ، أنار (أضاء) ، Nkat بالخاء ، أنتَخَ (نزع . قلع) . Sdar سرد . Smak مَسَكَ ، ومنها Asmek أمسَكَ . Saar بالعين ، شرع . Srat بالطاء ، سطر ، ومنها Serta بالطاء ، السطر . Aauyaba بالعين ، الغباوة . Ezaqta بالعين ، القُزَّعة (حلقة شعر) . Aammet بالعين والطاء ، عتّم

(١) لا تدخل هنا الألفاظ المذكورة في المقال السابق .

(٢) إن اللفظة السريانية أصح من العربية ، إذ يقال : « بَرَكَ البعير » لا رَكِبَ . و « ليس لفلان مَبرَك جَمَل » لا مَركَب .

(أظلم) . Fagya الفوج . Faara بالعين ، الحفرة . Fousa الفسوة . Faraqta الفقارة (إحدى خرزات الظهر) . Frach فسّر (شرح) . Fchah بالحاء ، سَخُفَ (حمق) . Masnafta التَّصيف (كل ما غطى الرأس من خمار أو عمامة ونحوهما) . Safha بالصاد والحاء ، الصَّحفة (القصعة) . Sarsara بالصادين ، الرصاص القلمي . Qatleb بالقاف والطاء ، لَبَّكَ Qalma القملة . Qarkedna الكَرْكَنْد (عقيق حجر كريم) وصمغ أحمر . Rahbouna بالهاء المربون . Ruaata بالعين ، الرغوة . Rzaf بالزاي ، ذَرَفَ Rahcha بالحاء الحَشَرة . Rthima بالثاء ، الأثرم (المتحطم الأسنان) . Rfah بالحاء ، رَخَفَ (هَشَّ . لانَ) . Ragba القربة (الوطب أي وعاء يُحمل فيه الماء واللبن) . Chaaa بالهمزة والعين ، عَشِيَ (جهر . ساء بصره) . ومنها Chiaa الأعشى . Chgah بالحاء ، سَحَجَ . Chgham غَشَمَ (ظَلَمَ) . Chahnita بالحاء ، السخينة (طعام) . Chmad شَتَمَ . Achfel افشل (أيأس) . Chqaf سفق (صَفَقَ . لَطَمَ) ، ومنها Chuqafta السفقة والصفقة (اللطمة) . Chteq سكت ؛ ومنها Chatiqa الساكت . Tahhem بالحاء ، حتّم (قضى . جزم) .

قداسة مار أغناطيوس يعقوب الثالث

بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس

❊❊❊

مجلة المجمع العلمي العربي
بمناسبة بلوغ المجمع (٥٠) عاما

(المحافظة على اللغة ، كلية الآداب العربية)

كان عزم فريق من فضلاء دمشق وأدبائها — وفي طليعتهم الرئيس الأول لمجمعنا العلمي العربي العلاّمة الأستاذ محمد كرد علي — على أن ينشئوا كلية أدبية ، يسمونها (كلية الآداب العربية) وغايتهم منها المحافظة على لغة البلاد ، وجعلها لغة علوم وفنون وآداب ، كما كانت على عهد الأجداد ، ولا يخفى أن اللغة العربية هي السلك الكهربائيّ الذي ينتظم قلوب أفراد الأمة فيوجهها نحو مطلبها الأسمى ، وهي الروح العلوي الذي يدب في جثمان الأمة العربية فيهبها الحياةَ الحرة مرة أخرى ، وهي النور السماوي الذى تسطع أشعته في بلاد العرب فتنير لأهلها سبل النجاة وتمزق حجُب المخاطر والأوهام ؛ بل هي المعراج الذي نرتقي به إلى أعالي سماء المجد والفخار ، وهي لسان مدنيتنا التي نشرنا أعلامها في أنحاء المعمور ، وأخرجنا بها الأمم المتخلفة من الظلمات إلى النور .

قال بعض الأئمة : كانت لغة أميّين وثنيّين جاهليّين ، فظهر فيها أكمل الأديان ، فكانت له أكمل مظهر ، وتجلى لها العلم فكانت له خير مجلى ، وصارت بذلك لغة الدين والشريعة ، وعلوم العقل والطبيعة ، ولكن عدت على أهلها عَوادٍ كونية ، وطرأت عليهم أمراض اجتماعية فضعف فيهم كل مقوم من مقومات الأمم الحية ، ومن تلك المقومات اللغة فقد فسدت ملكتها في

الألسنة ، والتوى طريق تعليمهـــا في المدارس ، حتى كادت تكون من اللغات الدوارس اهـ .

علم أسلافنا الكرام أن اللغة من أقوى مشخصاتهم ، بل برهان حياتهم ، فحافظوا على مفرداتها وتراكيبها بما ألفوا من المعاجم اللغوية ، وقوانين الصرف والنحو ، وعلى معانيها وأساليبها بما صنفوا من كتب المعاني والبيان ، ونقلوا العلوم والفنون إليها ، ووضعوا كتباً فيها .

ويَرَى العلامة المغربي ، من رجال مجمعنا العلمي العربي (رحمه الله تعالى وقوع التعريب بكثرة في لغتنا العربية ، ونقل في كتابه (الاشتقاق والتعريب) عن الجلال السيوطي ما أحصاه من المعرَّبات في الكتاب العزيز ، فبلغ زهاء مئة ، وذلك لا ينافي كونه عربياً فصيحا ، كما نقل عن أبي منصور ، ولا ينافي كونه وحياً معجزاً ، ثم ذكر من الحديث الشريف أكثر من خمسين كلمة معربة . ثم ساق تحت عنوان (طائفة من المعرَّبات) أكثر من ثلاثمائة كلمة معرَّبة في الحيوان والنبـــات والعقاقير والمأكول والمشروب والطيوب والملبوس والمعادن والأحجار الكريمة والآلات والأدوات والماعون ، والكلمات العلمية والفنية ، والكلمات الدينية ، فإذا نوزع في تعريب بعضها ، فلا يتيسر النزاع في كثير منها .

ورُوي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة في أحرف كثيرة أنها غير عربية ، كسجّيل ومشكاة وأباريق واستبرق ويمّ وطور ، وهم أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ، وجمع أبو منصور بين القولين بأن الألفـــاظ أعجميَّة بحسب الأصل ولكنها لمـَّا عربت صارت من اللسان العربي ، فهي أعجميَّة أصلاً عربية حالا ، فمنهم من نظر إلى الأصل ، ومنهم من نظر إلى الحال .

ونفى الإمام الشافعي ورود كلمات أعجمية في القرآن الكريم كما تجده في أول رسالته ، ونقل الشهاب الخفاجي في (شفـــاء الغليل فيما في كلام

العرب من الدخيل) مثل ذلك عن أبي عبيدة ، قال الشهاب : وذهب أبو عبيدة إلى أنه ليس فيه أعجمي ، وما وقع فيه فمن اتفاق اللغتين .

ومما يؤيد هذا المذهب أن اللغة العربية كانت على عهد حمورابي أي قبل السيد المسيح عليه السلام بخمسة وعشرين قرنا ، فهي تعدّ من أصول اللغات بعد الطوفان ، وإذا كانت كذلك فان هذه الألفاظ المستحدثة وضعت أسماء لمسميات اقتضتها سَعة الملك ، واستبحـار المدنية وبلهنية العيش ، على عهد أقيال اليمن ، وملوك حِمْيَر ، وملوك الجزيرة ، من النعامنة والمناذرة ، وملوك الشام الغسانيين وغيرهم ، فأسماء مستحدثات تلك المدنيـات العربية هي من أوضاع العرب كمسمياتها ، سواء أوجدت تلك الألفاظ بلغة أخرى أو ما يقاربها (١) .

(إنشاء المجمع العلمي العربي ومجلته منذ خمسين عاماً)

كان المجمع العلمي العربي — كما جاء في مجلته — يُعرَف في أول أمره بالشعبة الأولى للترجمة والتأليف التي أسست في عهد الحكومة العربية سنة١٩١٨ م ثم جعلت هذه الشعبة ديوان المعارف ، ثم انقلب هذا الديوان لاتساع أعماله إلى مجمع علمي ، واستقلّ في عام ١٩١٩ عن ديوان المعارف ثم أتمّ في هذه السنة ١٩٦٩ خمسين عاما ، وحُدّدت غاياته في أنظمة خاصة .

أخذ المجمع على نفسه منذ تأسيسه العمل على تحقيق الأغراض التي أسس من أجلها . وكان أول أعمـــاله إصدار (مجلة المجمع العلمي العربي) وهي تحوي دراسات لغوية وتاريخية وأدبية ، وتعرّف بنوادر المخطوطات العربية ، مع نقد أشهر المؤلفات العربية والأجنبية التي تفيد العالم العربي . وقد أسهم في

(١) في رسالة الاشتقاق والتعريب ، وفي ج ٢ من محاضرات المجمع العلمي مبحثان في المحافظة على اللغة ، وكلاهما لـكاتب هذه السطور .

تحرير المجلة أعضاء المجلة العاملون ، والمراسلون في الشام ومصر والعراق وتونس والجزائر ومراكش وأوربا وأميركا ، وغيرهم من العلماء ، وأكثر هذه الأبحاث تمتّ بصلة وثيقة إلى بعض أغراض المجامع اللغوية العلمية للدول العربية ، وإلى أبحاث جدول أعماله .

ولمّا أسس المجمع اللغوي المصري والمجمع العلمي العراقي ، كان أكثر أعضائها أعضاء في مجمعنا ، كما انضم إليهما أعضاء من مجمعنا ، وتحقق بذلك نوع من الاتصال بين المجامع ، يتبادلون الآراء والمطبوعات ، ويطلع كلّ منهم على نشاط الآخر (١) .

(عقد أول مؤتمر للمجامع اللغوية العلمية العربية في دمشق)

كان انعقاد المجامع اللغوية العلمية في دمشق (سنة ١٩٥٦) وقامت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، بدعوة المجامع الثلاثة في القاهرة ودمشق وبغداد إلى إرسال ثلاثة أعضاء من كل مجمع ، وبدعوة الدول العربية — التي لا يوجد فيها مجمع — إلى أن توفد كل دولة منها مراقباً عنها لحضور هذا المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية العربيـــة الذي يُعقد في أيلول سنة ١٩٥٦ بمدينة دمشق .

(شذرة من خطاب رئيس اللجنة الثقافية الدكتور طه حسين في سرّ اختيار مدينة دمشق مكاناً لانعقاد المؤتمر)

قال الدكتور حفظه المولى : هناك مزية خاصة ، فمجمعها العلمي الموقر هو أول المجامع العربية وجودا ، وأشدها نشاطا ، وأخصبها إنتاجا ، وأعظمها تأثيراً في حياة اللغة العربية الحبيبة ، وأقدرها على إحياء التراث العربي القديم .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي — نشاط المجامع — م ٣٢/٧٢ — ٨٦ .

تتخذه في كلّ هذه الأشياء مثلاً ونموذجا ، ونطمع في أن نسير في أثره ، ونطمع في أن نصنع صنيعه ، ونقتـــدي برجالاته من زعماء العروبة وأعلام البيان .

ومن خطـاب نائب رئيس المجمع العلمي العراقي السميّ العزيز الشيخ محمد بهجة الأثري قوله دام فضله :

وانتصرت العروبة الإيجابية البانية ثانية في مؤتمر الأدباء العرب في بلودان بما ظهر واضحاً جلياً غير متكلف ولا مصنوع ، من اتفـاق الأدباء العرب على وجوب تجنيد أقلامهم وأفكارهم في سبيل تحقيق هذا الطماح القومي إلى تكوين الدولة العربية الكبرى ، لتكون هذه الملايين التي تحيا تحت رايتها قوة ايجابية بانية ، مع القوى التي تعمل على تجديد شباب الحضارة المشتركة ما بين مطلع الشمس ومغيبها من آفاق الدنيا اه .

أقول : انعقد في دمشق مؤتمر المجامع العربية الكبرى ، ومثلوا وحدة اللغة والعلوم والفنون أفضل تمثيل ، فكان في ذلك إيذان بالوحدة العربية الكبرى ، وتجديد لمهدها الأول ، الأغر المحجّل .

ألا وإنّ من موجبات الدين ، ومن فروض الكفايات : الاشتغال بالعلوم الطبيعية والرياضية والطب ، والحقوق ، والهندسة والحيوان ، والنبات ، وطبقات الأرض ، والكيمياء ، والفلك ، وتدبير المنزل ، وغيرها ، وهل يتم اجتماع وعمران ، أو استقلال تامّ لأية أمة من الأمم بدونها ؟

ومن الواجب المحتم إيجاد ألفاظ عربية لما اشتق منها ، أو تفرّع عنها كما فعل أسلافنا من قبل .

قال رئيس مجمعنا الأمير مصطفى الشهـابي في مقاله المنشور في صدر (ج ١ م ٤٢) من مجلتنـا بعنوان : مشاكل لغتنا العربية ما نصه : تتعصب الشعوب العربية للغتهـا قومياً ودينيا ، وتسمي الدول العربية المستقلة لجعل

هذه اللغة صالحة لجميع مراحل التدريس في المدارس الحكومية . ومن المؤكد أنها اليوم تتسع لجميع العلوم التي تدرَّس في التعليم الثانوي ، وفي دور المعلمين الابتدائية ، وفي المدارس الزراعية والصناعية والتجارية المتوسطة .

أمّا العلوم التي تدرّس في الجامعات فبعضها يمكن تدريسه بالعربية دون كبير عناء ، كالعلوم الحقوقية على أنواعها ، وكالرياضيات والفلسفة وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والفلك . وبعضها يكون في تدريس مطولاتها بالعربية صعوبة يلاقيها الأساتيذ كعلوم الطب والهندسة والكيمياء وعلم الحياة وعلم الأنساج وغيرها . وقد نتج عن هذه الصعوبة كون الطب والهندسة يدرّسان الآن بالإنكليزية في جامعات القاهرة وبغداد . أمّا الجامعة السورية في دمشق فهي تدرّس العلوم بالعربية في جميع كلياتها : (طب ، صيدلة ، طب أسنان ، هندسة ، علوم ، آداب ، حقوق ، دار المعلمين العليا) . وقد خدم أساتيذها العربية بإيجاد مصطلحات علمية عديدة ، وبتأليف مؤلفات عربية مفيدة في الدروس التي يلقونها على الطلاب » .

وأمّا قول الرئيس الأمير الشهابي : تتعصب الشعوب العربية للغتها قومياً ودينيا ، وتسعى الدول العربية المستقلة لجعل هذه اللغة صالحة لجميع مراحل التدريس في المدارس الحكومية فحق وصدق ، وما دامت الجامعة السورية في دمشق تدرس العلوم بالعربية في جميع كلياتها : حصيلة ذلك أن الأمة العربية قادرة على إيجاد كل ما يعزز لغتها ، ويقوي رابطتها ، ويغنيها بلسانها الديني القومي عن كل ما عداه ، ويسرُّ هذا التعلُّمُ والتكلمُ والتقــدمُ كلَّ غيور على عروبته ودينه وأُمّته .

ألا وإن اللسان الواحد في الأمة الواحدة هو عنوان الوحدة التـامة فيما عداه ، وهذا الوحي الإلهي الذي نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام على أمين الأرض محمد عليه الصلاة والسلام ، بلسان عربيّ مبين ، قد تمَّت

به للأمة العربية وحدة بعد فرقة ، وعزة بعد ذلة ، وقوة بعد ضعف وهوان . وكان لهم بعد ذلك العداء المستمر ، والقتال المستحرّ ، وحدة عربية إسلامية لم يسبق لها نظير ، فنحن إذا دعونا إلى تلاوة الذكر الحكيم واستماعه ، وتدبره واتباعه ، دعونا إلى نهضة أدبية قيمة ، وحياة عربية طيبة ، ودعونا إلى عز تالد ، ومجد خالد ؛ ألا وإن نهضة العرب بالقرآن الكريم هي أم النهضات وأروعها ، لأنها - علاوة على كونها نهضة أدبية قومية - نهضة روحية أخلاقية ، تحرر الأرواح من ذل الشهوات واستعبادها ، وتخلّص النفوس من قلقها واضطرابها ، وهي ترمي إلى تجديد شباب العرب ، وإعادة الزعامة الكونية الأخلاقية إلى يدهم كرّة أخرى .

(نصح وتذكير)

هذا وقد قال لي مرة الناصح الأمين الأستاذ خليل مردم بك رئيس مجمعنا الأسبق رحمه الله : إن كثيراً من أبناء العروبة قد رغبوا عن لغتنا إلى اللغات الأجنبية بما وجدوا من تسهيل في قواعدها ، وتذليل لصعوباتها ، ويُسْر في التخاطب بها ، قال (وكتاب أسرار العربية) للإمام أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري (**٥١٣ — ٥٧٧**) **بيّن ما في** قواعدنا النحوية من إحكام في الوضع ، وإتقان في الترتيب والتبويب ، وحِكَم ولطائف في الأحكام ، وقد وصفه مؤلفه بقوله : « وبعد فقد ذكرت في هذا الكتاب الموسوم بأسرار العربية ، كثيراً من مذاهب النحويين المتقدمين والمتأخرين ، من البصريين والكوفيين ، وصححت فساد ما عداه بواضح التعليل ، ورجعت في ذلك كلّه إلى الدليل ، وأعفيته من الإسهاب والتطويل ، وسهّلته على المتعلم غاية التسهيل » اه .

أقول : نعم إن هذا الكتاب في أبوابه وعناوينه كسائر كتب النحو ، فيه مباحث المعرب والمبني ، والمذكر والمؤنث ، والجموع الثلاثة ، والمبتدأ والخبر وسائر المرفوعات والمنصوبات والمجرورات بالحروف وبالإضافة ، والمجزومات وإنما يمتاز من غيره بأمرين اثنين : (أولهما) : أن المؤلف رتب العلل والأسباب ، في علامات الاعراب ، على طريق السؤال والجواب ، كالرفع بالضمة والألف وثبوت النون ، وكالنصب وعلاماته ، والخفض وعلاماته ، والجزم وعلاماته ، سواء أكانت العلامات حركات أم حروفاً ، وسواء أكانت علامة الإعراب ثبوت الحركة أم الحرف ، أم الحذف .

(والثاني) قرب المأخذ وكثرة الفوائد ، مما لا تكاد تجده في كتاب واحد ، وهذا مثال من تعليله ودليـــله ، من الباب العاشر الذي هو باب الفاعل :

إن قال قائل : ما الفاعل ؟ قيل اسم ذكرته بعد فعل وأسندت ذلك الفعل إليه ، فان قيل : لم كان إعرابه الرفع ؟ قيل فرقا بينه وبين المفعول ، فان قيل : فهلاّ عكسوا وكان الفرق واقعاً ؟ قيل لخمسة أوجه (وعدّها) معلّلا مستدلا ، وهذه طريقته في كتابه من أوله إلى آخره . وقد عنينا بتفسير اللغة ، وشرح الشواهد وعزوها إلى أهلها ، وإيراد تراجمهم بالكلام الوجيز ، وبتاريخ وفياتهم ، ليرجع إليهم مَن شاء في كتب الأعلام ، أو الحوادث والأيام . وقد فاتنا سهواً ذكر بعض التراجم في مواضعها ، فجعلنا لها ملحقاً يجمعها في آخر الكتاب .

محاضرات المجمع العلمي العربي

أنشئت مجلة المجمع العلمي العربي (سنة ١٣٣٩هـ = سنة ١٩٢١ م) . ولمّا كان المستوى الثقافي ضعيفاً في ذلك العهد ، لا سيما في عالم النساء ،

رأى الأستاذ الكبير محمد كرد علي رحمه الله - أيام وزارته للمعارف ورئاسته المجمع - أن تلقى محاضرات في العلوم والفنون والآداب ، يتولى أمر إلقائها في ردهة المجمع طائفة من كبار رجال الدين والعلم والأدب ، ونفذ هذا الاقتراح في حينه ، وصارت المحاضرات أسبوعية إحداها للرجال والثانية للنساء ، واستمر المجمع على هذا الترتيب بضع سنين ، وقد اشترك في إلقاء المحاضرات بعض فضليات النساء ، وكانت مواضيعها أنواعاً منوعة (أخلاقية اجتماعية ، فقهية قانونية ، لغوية طبية ، أدبية ، تربوية تعليمية طبيعية ، اقتصادية عمرانية)[١] وكان لها الأثر الفعّال في النفوس والعقول ، فعمّت الرغبة في العلم والمعرفة جميع الطبقات ، وكانت هذه المحاضرات مبدأ نهضة عامّة زادت في معرفة قيمة العلم على اختلاف أنواعه ، ورغبات الناس فيه .

تعداد المحاضرات

يتبين من إحصاء المجمع ووثائقه أن عدد المحاضرات التي ألقاها أعضاء المجمع وغيرهم يقرب من أربعمائة ، ألقيت ما بين ١٧ نيسان سنة ١٩٢١ و ١٢ نيسان سنة ١٩٤٦ ، مع انقطاع حدث بين كانون الأول ١٩٣٢ وأيار ١٩٤١ ، ويلاحظ أنها بدئت بمحاضرة للأستاذ المغربي ، وختمت بمحاضرة له أيضاً[٢] .

وقد طبع المجمع العلمي مختارات منها في ثلاثة أجزاء ، طبع في كل جزء ما اختير منها .

(١) مجلة المجمع العلمي م ٢٢/١١ - ٣٤ .

(٢) تراجع عناوين المحاضرات وأسماء المحاضرين ، وتواريخ إلقائها بحسب التسلسل التاريخي في تاريخ المجمع العلمي للأستاذ الفتيّح ص ٤٠ - ٧٣ .

حفلات التأبين والتكريم

وتحت عنوان الحفلات والمهرجانات ذكر في تاريخ المجمع العلمي أنه أقام عدداً من حفلات التأبين والتكريم ، كما أقام مهرجانين للمتنبي ولأبي العلاء المعري ، (قال الأستاذ الفتيّح) : ونحن نذكر هنا وصفاً مجملاً لأهمها لخصناه عن وثائق المجمع ، وما كتب عنها في مجلتـــه بحسب التسلسل التاريخي ، وذكر أسماء الخطباء في هذه الحفلات ، وعناوين خطبهم التي ألقوها في تلك المجتمعات ، منقولة عن مجلدات المجمع ، مؤرخة في أوقاتها ، مبيَّنة في أرقام صفحاتها .

أما المهرجانان للمتنبي والمعري ، فقد استمرَّ كلٌّ منها أسبوعاً كاملاً وكان الخطباء فيها من أعضاء المجمع وغيرهم من البلدان العربية الشقيقة ، ومن غيرها ، وكان ذلك بمناسبة مرور ألف عام على وفاة الأول وعلى ولادة الثاني ، وحفلات الأسبوع كانت موزعـــة بين دمشق وغيرها من المدن السورية .

وأما حفلات التكريم فمنها حفلة كبرى أقيمت في دار المجمع العلمي باسم أمير شعراء العصر (أحمد شوقي بك) أقامها جمهور من أدباء الحاضرة على اختلاف الطبقات والطوائف ، ومنها حفلة تنشيط الشعراء الشباب ، ذلك أن أربعة منهم أظهروا ذكاء وتفوقاً لا سيما في الآداب العربيـــة وقرض الشعر العربي .

ثم حفلة تكريم حافظ بك إبراهيم ، اغتنم مجمعنا العلمي وجوده في بيروت ، وهو أحد أعضائه ، فدعاه إلى دمشق فلبى الدعوة وأقام له المجمع العلمي حفلة تكريم كبرى في مقره في (المدرسة العادلية) وحفلة تكريم للشاعر الكبير محمد الهراوي المصري .

وأما حفلات التأبين فأسماء بعض من أقيمت لهم تغني عن أوصافهم ، وهم أشهر من أن يعرّفوا ، وأغنى من أن نصف الحفلات التأبينية التي أقيمت لهم ، وروعاتها ، ومن حضرها من العلماء والأعيان ووجهاء البلاد السورية ، وخطباء هذه المجتمعات ، وكيف كانت تكتظ بهم ردهة المجمع وشرفته العليا ، ويبقى الكثيرون من المستمعين وقوفاً على أرجلهم في ساحة الدار . ونكتفي بذكر أسماء طائفة من المؤبَّنين ، وهم : الشيخ طاهر الجزائري ، وأحمد كمال باشا المصري ، والسيد محمود شكري الألوسي ، والأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي ، وشاعر مصر حافظ إبراهيم ، وأمير الشعر أحمد شوقي ، والسيد الإمام محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار والتفسير .

(عثرات الأقلام)

رأى المجمع العلمي العربي من أول إنشائه وانعقاده ، أن يرعى لغة الضاد ، التي هي لغة البلاد ، ولغة الأمة والملة ، بل لغة الوحي المنزل ، والرسول المرسل ، المخاطب بقوله سبحانه : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون » وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن كعثمان ابن عفّان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من الرسول ﷺ عشر آيات ، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من الأحكام والعلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

القرآن عظيم الشان ، كامل البيـان ، فيه العظات والعبر ، وسائر ما بالعباد إليه من حاجة ، ولقد أعز الله به العرب بعد ذلة ، وكثرهم بعد قلة ، وأغناهم بعد ضعف ، وألف بين قلوبهم بعد جفاء وعداء ، بل بعد تناحر مستمر ، وقتال مُسْتَحِرّ ، كادت معه القبائل يفني بعضها بعضا ،

« واذكروا إذ أنتم قليل ، مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » .

وقد وصف هذا الوحي الإلهيّ ، إمام البيان العربيّ الإسلاميّ في عصره ، مصطفى صادق الرافعي ، بأنه « ألفاظ إذا اشتدّت فأمواج البحر الزاخرة وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها ، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة تُرعَد من حمّى القلوب ، ومعان بينا هي عذوبة تُرويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نعيم الجنان ، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان ، وبينا هي ترف بندى الحياة على زهرة الضمير ، وتخلق في أوراقها من معاني العبرة معنى العبير ، وتهبّ عليها بأنفاس الرحمة فتنم بسر هذا العالم الصغير ، ثم بينا هي تتساقط من الأفواه تساقط الدموع من الأجفان ، وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة ينوح عليها اللسان ، إذا هي بعد ذلك أطباق السحاب وقد انهارت قواعده ، والتمعت ناره وقصفت في الجو رواعده ، وإذا هي السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها ، واستأذنت في صدمة الفزع ربّها ، فكانت ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وإنما هي عند ذلك زجرة واحدة ، وإذا الخلق طعام الفناء وإذا الأرض مائدة » .

وبعد فقد رأى المجمع العلمي العربي أن ينشر في مجلته وفي الصحف المحلية من وقت إلى آخر نبذة لا تتجاوز العمودين في نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتاب فيما يكتبونه ويحبرونه ، (قال) : وسنجتهد في الاقتصار على ما نظنه خطأ من القول ، مما لا يحتاج الأمر فيه الى المناقشة ، تفادياً من الخروج عن صدد ما أخذنا فيه من إصلاح الهفوات ، إلى المجادلات والمناقشات ، التي طالما كانت سبباً في خفوت الأصوات ، وموت المشروعات . وزيادةً في

تجنب أسباب الجدل والمناقشة ، ندع التصريح باسم الكاتب الذي نؤاخذه والصحيفة التي كتب فيها ، فعسى أن يقع عملنا هذا من أهل الفضل موقع الرضا والقبول ، فيتدبروا ملاحظاتنا هذه ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم ، أو دارت على أسلات أقلامهم .

فمن عثرات الأقلام قولهم : (عدم اعتياد الموظفين على كذا) صوابه : (عدم اعتيادهم كذا) . كذلك نجد في المجلد الأول (ص ٢١٩) وفي المجلد الثاني (ص ٢٩) وفي المجلد ٣ (ص ٢٧) ونجد في المجلد الرابع (ص ٣٢١) وفي المجلد ٥ (ص ١٩١) وفي المجلد السادس (ص ٣٠٩) .

(صعوبات وانتقادات)

بلغت مقالات عثرات الأقلام في مجلة المجمع ثلاثين مقالة عرضنا نتفاً منها على سبيل المثل ، وننبه هنا إلى أن تصحيحات العثرات لاقت قبولاً حسنا ، ونفعت كثيراً في التصحيح والتفصيح ، كما لاقت بعض النقد أيضا ، وقد رأينا المجمع ينبه إلى ذلك ويدعو الكتاب إلى اتباع تصحيحاته ويجادل في صحتها ويبرهن على أصالتها . ففي المجلد الثاني ص ٨٨ يورد هاتين الملاحظتين .

١) إننا عجبنا لأغلاط ننبه إليها ، ونشير إلى ما هو الصواب أو الأصوب فيها ، ثم نراها أحيانا في الصحف ، بل أعجب من ذلك أن نرى الأغلاط تعاد وتكرر في نفس الصحيفة التي تنشر (العثرات) . فنرجو من حضرات مصحّحي الصحف أن يلاحظوا ذلك ، وإلا لم يكن لنشر (العثرات) في صحفهم معنى ولا قيمة ، وصحّ أن يخاطبوا بقول الشاعر : (يا أيها الرجل المعلّم غيره) إلى آخر البيتين .

٢) إننا في انتقاداتنا نمشي على أفصح لغات العرب وأبلغ أساليب الكتّاب ، أما إذا كان هناك قول أو لغة تجيز الكلمة التي انتقدناها ، أو الأسلوب الذي عبناه فلا يضرّنا ذلك .

ثم أورد المجمع العلمي في مبحث (عثرات الأقلام) مفردات في المجلدين الثالث والرابع من مجلته ، وكان في بعضها مجال للمناقشة ، وقد اشترك في هذه المباحث اللغوية من أهلها الشيخ أحمد رضـــا والأب أنستاس ماري الكرملي ، ثم أصبح المجمع العلمي مرجعاً لغوياً لكل طالب وراغب ، وكانت ترد إليه الأسئلة والاستفتاءات ، فيجيب عنها ، لا سيما بعض الكلمات العربية والمصطلحات الفنية ، وكان ينشر الأجوبة والفتـاوي في المجلة وفي بعض الصحف ليكون الاطلاع عليها والعمل بها أعمّ وأشمل ، وفي مجلدات المجمع الأولى أمثلة كثيرة منها أشرنا إلى بعضها ، وهي تدل على نهضة عربية لغوية ، قد عني بها المجمع كل العناية ، وراجع أيضاً تاريخ المجمع العلمي (١٠٩ - ١٢١) . وفي تاريخ المجمع أيضاً للأستاذ فنيح ما نقله عن المجلد ١٨ ص ٩٧ من محاضرة للأستاذ المغربي عنوانها (عثرات الأفهام فيما لا تفرق بين صوابه وخطئه الأقلام) .

والألفاظ التي تعثر بها الأفهام (جمع فم) كثيرة ، وهي تختلف باختلاف الحركة والسكون ، والتخفيف والتشديد ، فالكلمة يكون أولها مفتوحاً في فصيح اللغة ، فيضمه الناس أو يكسرونه خطأ ، أو يكون أولها مضموماً فيفتحونه أو يكسرونه ، أو مكسوراً فيضمونه أو يفتحونه ، أو يكون وسطه متحركاً فيسكنونه ، أو ساكنا فيحركونه ، أو مشدّداً فيخففونه . كل ذلك يفعلونه على خلاف الفصيح المعروف لدى أهل اللسان . والكلمات التي نسردها ونصحح ضبطها وخطأ الأفواه بهـا إنما هي (الكلمات اليومية) المتداولة على لسان الجمهور . وهذه نماذج من بعض الأقسام) . .

القسم الأول : ما كان أوله مفتوحاً ، فتعثر به الأفهام وتضمه :

(جَوعان) بفتح أوله والناس يضمون جيمه ويقولون (جُوعان) .

(حَنجرَة) الحلقوم بفتح الحاء والجيم ، والناس يضمونها ويقولون حُنجُرة .

(الزّور) في اسم مدينة دير الزور بفتح الزاي ، وهم يقولون دير الزّور بضمها خطأ .. الخ

القسم الثاني ما كان أوله مفتوحاً فتعثر به الأفهام وتكسره :

(أهرام) يكسرون همزته على توهم أنه مصدر أهرم، كأكرم إكراما ، وصوابه فتح الهمزة لأنه جمع هرم مثل فرس وأفراس ، فالمراد بها في أصل استعمالها مجموع ما في مصر من الأهرامات .

(الرصاص) المعدن المشهور ، يكسرون راءه غلطا ، وهي مفتوحة ،

هذه العناية الكبرى للمجمع العلمي باللغة العربية ـ مفرداتها وتراكيبها وأسلوبها ـ ونشر التصحيحات في الصحف المنتشرة وفي المجلة من دون تعرّض لأسماء العاثرين ـ كل ذلك أورث المجلة تلك الثقة العظمى في عالم العلم والعمل .

(هبات الألوف المؤلفة من الكتب ووقفها على دار الكتب الظاهرية ، وخزائن المجمع العلمي العربي)

من إحصاء الكتب التي دخلت خزانات المجمع العلمي ، ودار الكتب الظاهرية هدايا وهبات ـ وهي ألوف كثيرة من المؤلفات الدينية والأدبية والتاريخية وسائر العلوم والفنون ـ الخطية منها والمطبوعة ـ يعلم مقدار الثقة التي أحرزهـا المجمع في نفوس المؤلفين والطابعين ، والأفراد والجماعات والجامعات وأصحاب الكتب الموقوفة . ومما يذكر فيشكر لأحمد تيمور باشا رحمه الله تعالى أنه جعل من قلمه وعلمه وخزانة كتبه ، وماله ، هبات كبرى لمجمعنا العلمي منذ إنشائه بدمشق ، فقد أهداه مئات من الكتب المطبوعة والمصورة بالتصوير الشمسي ، ووهبه مجموعة نفيسة جداً من النقود

القديمة . ولما عاتبه أحد المصريين على تنازله عن مجموعته من النقود القديمة لمدينة دمشق ، أجابه بلطفه المتناهي : إنني أعطيت مدينة القاهرة خزانة كتبي نحو ثلاثة عشر ألف مجلد ، ونحو نصفها من المخطوطات النادرة لمصر ، ومدينة دمشق ـ وهي مدينة عربية إسلامية ـ جديرة بأن تساعد . اه .

ونذكر أفراداً ممن وقفوا كتبهم ابتغاء رضوان الله تعالى ـ نذكرهم على سبيل القصر ، لا على سبيل الحصر :

الشيخ عبد الله الكزبري أوصى بكتبه للمجمع العلمي ، فبلغت (٤٣٣ كتاباً) .

وأوصى رفيق بك العظم بمجموعة كتب بلغت ألف كتاب .

وأهدى السيد سعيد حمزة نقيب أشراف الشام لدار الكتب الظاهرية ثلاثمائة مخطوط .

وأهدى الأستاذ الشيخ محمد جميل الشطي من المخطوطات (٢١) كتاباً .

وقدّم الوطني الكريم فخري البارودي مكتبته (إلى خزانة المجمع العلمي) .

وأهدت الآنسة فلك طرزي بقية كتب جدّها الشيخ عبد الغني النابلسي ـ المخطوطات والمطبوعات ـ إلى دار الكتب الظاهرية .

وأهدى أمين سر المجمع الأمير جعفر وأخوه الأمير إدريس الحسني كتباً مخطوطة وعددها : ثلاثة وسبعون مخطوطاً .

ثم أهدى الرئيسان الجليلان الأستاذ خليل مردم بك والأمير مصطفى الشهابي ما في خزانتيهما من نفائس الكتب اللغوية والعلمية والأدبية ، إلى خزائن المجمع العلمي العربي ، وأضاف الرئيس الشهابي إهداء المجمع متاع قاعة استقباله ، وهي مجلسه في داره ، أثاب الله المهدين جميعاً أفضل الجزاء ، وأحسن إليهم في دار كرامته .

هذه شذرات من أعمال المجمع العلمي العربي ، أوردناها بمناسبة مرور خمسين عاماً على إنشاء مجلته والمداومة على تحريرها ؛ ومَن تصفح مجلداتها ، أو أمعن النظر في كتب المجمع المهداة إليه من أولي الفضل والنبل ، أو وقف على آلاف الكتب الموقوفة على دار الكتب الظاهرية ، ممن يبتغون وجه الله والدار الآخرة ، عَرَف قيمة الأعمال الباقية ، والآثار الخالدة ، وتلا قوله سبحانه « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا » والحمد لله ربّ العالمين .

محمد بهجة البيطار

من أعضاء المجمع العلمي العربي



عهد الرئيسين
محمد كرد علي وخليل مردم
بين دولتي النثر والشعر



الأستاذ محمد كرد علي



الأستاذ خليل مردم بك

لن أتحدّث هنا عن جهود الزملاء الأكارم ، أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وما كتبوه وما حققوه ، ونشروه خلال خمسين عاماً ، انقضت على تأسيس المجمع ، فقد عرضت لهذه الدراسة وهذا الإحصاء في دراسة بالفرنسية ألفتها بالاشتراك مع الأستاذ هانري لاووست ، عضو المجمع ، ونشرناها منذ

عشرين عاماً تقريباً ، بينا فيها أثر المجمع وأعضائه في خدمة الثقافة العربية خلال ثلاثين سنة (١) .

وألفت بعد ذلك كتباً في دراسة الأمير شكيب أرسلان (٢) عضو المجمع ، ثم في ستة من أعضاء المجمع الناثرين(٣) ، ثم في ستة غيرهم من الأعضاء الشعراء(٤) ، وبهذا يكون حديثي قد شمل ثلاثة عشر عضواً في انتظار الدراسة المفصلة ، عن المجامع العربية ومجمعنا العربي بدمشق .

ولن أطمح كذلك إلى استعراض هذه الجهود التي بذلها ، هؤلاء الذين تقبلوا على رئاسة المجمع العلمي العربي ، وكلهم من الأعلام .

ولكنني سأقف عند عهدين من عهود المجمع ، ورئاستين امتدتا أربعين سنة ، فقد كانا فوق كل ذكرى تهيمن على أفكاري ، وتدفعني اليوم إلى الكتابة في الرجلين .

★ ★ ★

(١) « إنتاج المجمع العلمي العربي بدمشق من سنة ١٩٢١ ـ ١٩٥٠ » ، نشر بالفرنسية سنة ١٩٥١ على نفقة المعهد الفرنسي بدمشق .

Henri Laoust, Sami Dahan, *L'Œuvre de L'Académie Arabe de Damas,* 1951 . I . F . D . 55 pages.

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان وشعره ، القاهرة ١٩٥٨ ، ثم في كتاب مفصل : الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره ، القاهرة ١٩٦٠ دار المعارف بمصر .

(٣) قدماء ومعاصرون ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦١ ، وفيه فصول عن كل من محمد كرد عليّ ، معروف الأرناؤوط ، بدر الدين النعساني ، راغب الطباخ ، عبد القادر المغربي ، كامل الغزي وغيرهم .

(٤) الشعر الحديث في الإقليم السوري ، محاضرات بمعهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٠ ، وقد أعيد طبعه في بيروت منقحاً ومزيداً عليه سنة ١٩٦٨ بعنوان « الشعراء الأعلام في سورية » وفيه فصول عن كلّ من محمد البزم ، خليل مردم ، خير الدين الزركلي ، بشفيق جبري ، بدويّ الجبل ، عمر أبو ريشة ، مع مختارات من شعرهم .

١ ــ محمد كرد علي

مبادئ : لقيت الأستاذ محمد كرد علي أول مرة ، بعيد الحرب الثانية ، في أوتيل الناسيونال بالقاهرة ، وكان يشارك في جلسات مجمع اللغة العربية بمصر وحوله أدباء مصر وأعلامها يرحبون به . فسمعت ما لم أكن أسمع من نقد لأدوائنا ، كان الرئيس يعرض لها كما يعرض النطاسي لأمراض فتاكة ، فكان يكره التواكل والتكاسل ، ويرى أن يشق الشاب طريقه بين الشوك ، ويضرب العالم الأمثال بما وقع له في حياته ، حتى بلغ بسعيه إلى سدة الرئاسة في المجمع العلمي العربي بدمشق ، واشتهر أمره في مصر مصنع العربية ، ومتربع الكتاب وقادة الفكر العربي لعهده .

وكان الرئيس في سرعة حديثه ونشاط لسانه ،كأنه ينطلق من أشياء حفظها ، وتأثر بها ، يتقلب بين الحدة في النقد، وبين البسمات الراضية والجمل الحلوة في التشجيع ، فلا يحس سامعه بالوقت ، وينتقل معه إلى أبراجه ، ويجله .

ولقد شغفت حباً بمجالسه منذ ذلك الحين ، فاختلفتُ إليه في بيته بدمشق بين كتبه وصحبه ، ودلفتُ إليه في قريته « جسرين » بالغوطة . ولن أنسى الجلسات الصباحية في مكتبه بالمجمع ، وهو يرسل الحديث متدفقاً ، في بحث قرأه أو دراسة أعدها ، أو مخطوطة يجب أن تنشر ، فهو يتسلم بريد الصباح في المجمع ، ويكاد يلتهم ما فيه فيشرب عبارات العراقيين والمغاربة والمصريين والمستشرقين ، ويشترك في تحليل ما يكتب الكاتبون إلى المجلة ، ونقد الدراسات التي تصل إلى المجمع عن مصر ولبنان والغرب .

ولقد عرف الرئيس محمد كرد علي « مصر » فتىً يافعاً ودخلها منذ سنة ١٩٠١ ، وهو في السادسة والعشرين من سنيه [١] ، فتعرف آنذاك

(١) عاش الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ١٨٧٦ م ــ ١٩٥٣ م (٧٧ سنة) انظر الدراسة الخاصة التي أنشأناها إثر وفاته في مجلة المجمع ، ونشرت على حدة ١٩٥٥ في سبعين صفحة .

إلى الأستاذ محمد رشيد رضا، صاحب المنار، ومحمد المويلحي وابنه إبراهيم، ولقي الشيخ محمد عبده، وغشي مجلسه الخاص، في دارته بعين شمس، مرّة في كل أسبوع، تعرف إلى فضلاء الشعراء وأعيان الزمان، كالأستاذ محمد حافظ إبراهيم، وفتحي زغلول وإبراهيم اليازجي، ويعقوب صرّوف، وفارس نمر، وعبد العزيز فهمي، وجرجي زيدان، وعلي يوسف، ومصطفى كامل، وسليمان البستاني، وأحمد تيمور، وأحمد زكي، ووليّ الدين يكن وشبلي شميّل، وغيرهم[1] وذكر أن الفضل في تقديمه إلى هؤلاء الأعلام كان لصديقيه رفيق العظم، ومحمد رشيد رضا.

واتصل اللقاء بينه وبينهم، وكان محمد كرد علي نهماً لا يشبع من هؤلاء الفضلاء، يلقاهم صباحاً، ويلقاهم مساء، فيأخذ عنهم في هذه السنّ، ويطمح إلى أن يزرع في بلده بالشام، فيما بعد، ما اقتطفه من هذه الحدائق النضرة، التي كانت أزاهيرها تملأ الدنيا العربية بعطر مؤلفاتها وآثارها وآرائها.

وظلت هذه «الجامعة» الكبيرة الواسعة ملء سمعه وبصره وهمّه، وطموحه حتى خطبه صاحب «المؤيد» الشيخ عليّ يوسف للتحرير في جريدته بمصر، وكانت من الصحف الكبرى القويّة، تدخل الدوائر والبيوت، وتغشى المجالس والمجتمعات والنوادي، ومحمد كرد علي يدخل معها إلى كل قلب، ويتردّد على كل لسان، فأصبح في المشهورين، وقال في مذكراته[2]: «وأصبحتُ في مصر كأني في بلدي تهمني من وراء الغاية سياستها وسيادتها».

وكأنه لم يقنع بشهرة «المؤيد» فأصدر مجلة «المقتبس» شهرية سنة ١٩٠٥، بعد أربع سنوات من مقامه بمصر، وراح ينشر فيها البحوث العلمية، والتحقيقات التاريخية، والدراسات الأدبية. فاتجه نحو أساليب الغرب في مجلاتهم الراقية وعُني بنشر المخطوطات القديمة على صفحاتها عن خزائن الشرق

---

(١) المذكرات ١/٥٥، ٢٥١، وخطط الشام ٦/٤١٣.
(٢) المذكرات ١/٥٩.

العربي ، وبلغت مجلته تسع مجلدات فيما بعد ، أي (٦٥٠٠) صفحة ، أصدر ثلاثاً منها في مصر ، وسائرها في الشام .

وعاد إلى دمشق ، حوالي سنة ١٩٠٨ ، بعد أن أعلن القانون الأساسي ، وصاح الكتّاب أن دولة الاستبداد قد سقطت ، وأن عهد الحرية قد أشرق ، وقد بلغ الثانية والثلاثين من سنيه . فكأنه طار إلى بلده على جناح هذه الأماني والأحلام ، ليبني في سورية صرحاً للعربية ، وتراثها ، كما يبني إخوانه المصريون سواء بسواء .

ولكن أمانيه كانت سراباً ، فلم تكن أحلام الحرية إلاّ خداعاً ، لذلك ضاق ذرعاً بجواسيس الدولة العثمانية ، وخصومه في بلده ممن يكرهون النور والنبوغ فلاذ بالهرب ، وخرج من دمشق التي عشقها سنة ١٩٠٩ ، وقد جاوز الثالثة والثلاثين .

وقصد إلى زيارة الغرب ، وكانت ربوع أوربة تشوقه ، وحديث متاحفها وخزائنها الخطية ، وجامعاتها تستهوي قلبه ، فزار البلاد الغربية وفيها باريس ، وطاف ذات يوم أبهاء « المجمع العلمي الفرنسي » فكتب عن هذه الزيارة يقول فيما بعد [1] :

« وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية ، وقلت هل يكتب لنا المستقبل ، تأليف مثل هذه المجامع ، فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين ، أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين » . وهنا كانت نقطة التحوّل في حياة الرجل ، فأصبح يفكر في أن ينشىء مجمعاً علمياً ببلاده ، كالمجمع الفرنسي ، لا يعرفه بلد عربيّ قبل دمشق ، ولم يفكر فيه عالم عربيّ قبل محمد كرد علي .

وعلى الرغم من رحلته الثانية وراء كتبه ومخطوطاته ، كان يحلم بالمجمع وإنشائه ، فما كادت الحرب الأولى تحط أوزارها ، ويدخل المَلك العربي

---

(١) غرائب الغرب ١/١٠٦ .

دمشق حتى عاودته أحلامه ، ورأى في الفريق « رضا الركابي » حاكم دمشق ، موضعاً وأملاً لتحقيق هذه الأماني ، من خلال الأعياد والبسمات العريضة بالاستقلال ، ولم يخلف الفريق ظنه ، فأصدر مرسومه بإنشاء « ديوانه للمعارف » في ١٢ شباط ١٩١٩ ، برئاسته ، والديوان كان لإصلاح التعابير والكتابة الديوانية ، والمؤلفات المدرسيّة ، وخدمة العربية في المجالات العامة والخاصة .

وانقلب هذا « الديوان » بعد خمسة شهور ، فأصبح في ٨ حزيران ١٩١٩ يعرف مستقلاً باسم « المجمع العلمي العربي » ، ورئيسه محمد كرد علي ، وأعضاؤه : محمد أمين سويد ، أنيس سلوم ، سعيد الكرمي ، عبد القادر المغربي ، عيسى اسكندر معلوف ، متري قندلفت ، عز الدين علم الدين ، طاهر الجزائري ، وأما أعضاء الشرف فكان فيهم مرشد خاطر ، عبد الرحمن شهبندر ، فارس الخوري ، عبد القادر المبارك ، يستعين بهم المجمع . واتخذ مقراً له « المدرسة العادلية الكبرى » ، التي شرع في بنائها نور الدين زنكي خلال القرن السابع للهجرة . وعقد أولى جلساته في هذا المقر الجديد بتاريخ ٣٠ تموز ١٩١٩ .

ونستطيع أن نتخيل الرضى الذي كان يغمر قلب الرجل وقد تحققت أحلامه وهو في الثالثة والأربعين ، وأن نرسم الانتصار الذي كان يضحك في ضلوعه ، فقد رجعت دمشق موضع الإشعاع ، تعمل للعربية وتنشرها في الخافقين ، وعادت إليها عزّة الأمويين ، وغدت مقراً لأول مجمع علمي عربي لا تلبث القاهرة أن تقلدها فتنشىء « مجمعاً لغوياً » ، وتحذو حذوها بغداد فتنشىء « مجمعاً لغوياً » آخر ، ودمشق في هذا سباقة ، والرجل هو أول من أنشأ مجمعاً عربياً ، وأسس « مجلة عربية » هي المقتبس في دمشق .

* * *

مؤلفاته في التاريخ والأدب : وسار الأستاذ الرئيس — كما اعتاد صحبه ورصفاؤه أن يلقبوه — في طليعة الكاتبين في المجلة ، والمحاضرين في أبهاء المجمع ، والمؤلفين للكتب . فقد أخرج بعد سنوات أوسع كتاب في تاريخ بلاده سماه « خطط الشام » ، بحث فيه العمران والحضارة والثقافة ، والسياسة ، وتقلّب الدول ، جعله في ستة أجزاء[1] ، وعمل له كما قال خلال ثلاثين سنة ، وحشد له مصادر كثيرة مخطوطة ومطبوعة ، قد لا تبلغ اليد إلى بعضها اليوم .

وبذلك سدّ ثغرة كبيرة ، وتنادت لجنة من فضلاء دمشق وأعيانها لطبعه والإنفاق عليه ، لولاها لم ير الكتاب الثمين النور . ولا شك في أن الشباب آنذاك شربوا من الكتاب ، وعلّوا ونهلوا ، فكان لهم معيناً لا ينضب . وما يزال الكتاب أكبر مرجع ، وأوثق مصدر لو أتيحت للطبعة المنقحة منه بيد الرئيس أن تظهر على النور ، فهي تشير إلى الصفحات من مصادره وتكمله .

ومضى الرئيس يؤلف في بحث ممتع طريف ما يزال جذاباً مشوقاً هو « الإسلام والحضارة العربية » ، نشره في مصر سنة ١٩٣٤[2] ، وقد بلغ الثامنة والخمسين من سنيه ، جعله في الدفاع عن الإسلام ، والذود عن حياضه ، والردّ على المبشرين والمستشرقين ، فكان معلمة في نظم الحياة عند المسلمين ، وفي إدارة بلادهم ، وعيشهم ، وهو من أوسع ما كتب لعهده في الموضوع ، وأدق ما ظهر ، فدخل كلية الآداب بمصر وأروقة الأزهر ، وأحبه الكتاب والأدباء ، وذلك ليس باليسير ولا بالقليل في مصر تلك الأيام .

وبعد ثلاثة أعوام أصدر في القاهرة[3] كتاباً ، سمّاه « أمراء البيان » ترجم فيه لعشرة من كتاب النثر القدماء ، وكتب فيهم وأطال ، ولعلّه أول

---

(١) بلغ عدد صفحات الخطط ١٩٤٠ صفحة ، بدأ بنشره سنة ١٩٢٥ .
(٢) جعله في جزأين على ٩٤١ صفحة .
(٣) صدر سنة ١٩٣٧ في جزأين كذلك .

من نبه إلى كثير منهم ، فلقي ما لقي الكتاب قبله في الكايات والنوادي والمجالس بمصر ، لصناعة البيان في كتابة المؤلف ، وإشراق أسلوبه فكأنه في القرن العشرين يشرب من أساليب القرن الثالث والرابع للهجرة ، في سهولة اللفظ ، ودقة التصوير مع التجديد في التفكير والتقرير والبحث والعمق . وكثير من النقاد رأى أنه يستوي في نثره مع « أمراء البيان » ، فأقام بالشام دولة للنثر ، يجلس على أريكتها في غير تكلف ، فلا يسرف على القراء في السجع والتقفية والمزاوجة ، ولا يتجنى على آذانهم وعقولهم وقلوبهم . ومن هنا قاد — وهو على رأس المجمع — كتائب الشباب في النثر ، وخدم الأساليب الكتابية ، وأرسل في أصحابها دراسات قبل أن تنشأ كلية الآداب بدمشق ، فكتب الشباب ، وخطبوا ، وألفوا ، متأثرين بالجوّ الذي أنشأه الرجل وزملاؤه ، وتسابقوا وتنافسوا في ذلك .

وما نحب أن نذكر الشباب الذين ساروا على غراره ، فنحن لا نؤرخ للجيل المعاصر ، في الشام ، وإنما أحببنا أن نبين أثر الرئيسين في المجمع ، وفي المجتمع السوريّ حولها ، من خلال النثر والشعر ، مدّة أربعين سنة فحسب .

وفي سنة ١٩٥٠ ، وقد بلغ الرجل الرابعة والسبعين ، أبى إلاّ أن يتابع دراسته للأعلام في الأدب العربي والفكر الإسلامي ، فنشر كتاباً عنوانه : « كنوز الأجداد [1] » تحدّث فيه عمن طالت عشرته لهم ، واغترافه من معين أسفارهم ، فكتب في الأشعري ، والأصبهاني ، والبلوي ، والتنوخي والبيروني ، والماوردي ، والجرجاني ، والغزالي ، والحريري ... وغيرهم ، وهم يزيدون عدداً على الخمسين ، ترجم لكل منهم .

ولو جمعت هذه الكتب الثلاثة معاً ، لاتخذتْ عنواناً شاملاً : « تاريخ الأدب والفكر عند العرب » .

* * *

(١) صدر في ٤٣٦ صفحة .

الأدب الشخصي : وتلفتت الرجل إلى نفسه وضلوعه وحياته ورحلاته ولقاءاته وصلاته ، فسجّل كل ذلك في كتب نافعة ، فقد أصدر منذ سنة ١٩٢٣ ، كتابه « غرائب الغرب »(١) ، وصف فيه رحلاته الثلاث خلال ديار الغرب ، في طريقة طريفة ، قربتنا إلى المشاهد التي رآها ، فكأننا رحلنا برحلته ، واستمتعنا بجولته ، صوّر فيها ما رأى وما سمع ، ووازن بين عادات الغرب والشرق وتقاليد كل منها .

ثم أصدر سنة ١٩٢٥ كتاباً بعنوان « القديم والجديد »(٢) تمرّض فيه كذلك لتراثنا القديم ، وتقاليدنا وعاداتنا ، وصوّر القديم بجلاله ، والجديد بما فيه ، وكان مؤلفه يرضى عن هذا الكتاب لأنه يمثل مقالاته وآراءه في مطلع الشباب .

وظل الرجل يرسم ما حوله ومنْ حوله ، فهاله ما نحن عليه من أقوال وأفعال ، فسجّل ما كان يحسّ به في كتاب عنوانه « أقوالنا وأفعالنا » نشره سنة ١٩٤٦ (٣) وقد بلغ السبعين .

وختم هذه السلسلة الطيّبة التي رسم بها نفسه وعصره ورحلاته ، في الشرق والغرب ، والموازنة بين الحضارتين ، بكتاب سجّل فيه « المذكرات »(٤) التي تعيها ذاكرته ، نشرها بين سنة (١٩٤٨ — ١٩٥١) وأصدر منها أربعة أجزاء لم يقلد فيها أحداً من الكتاب العرب المعاصرين الذين رسموا حياتهم ، مثل طه حسين ، وأحمد أمين ، والمازني ، والعقاد ، وغيرهم ، ولكنه جعلها على فصول متقطعة ، لا تربط بينها رابطة ، فلم يكن الرجل يقوى في هذه

---

(١) جزءان في ٦٤٠ صفحة ، صدر بمصر .
(٢) جزء واحد في ٣٤٦ صفحة ، صدر بمصر .
(٣) صدر في القاهرة على ٤٣٠ صفحة .
(٤) في ١٣٢٠ صفحة ، صدرت في دمشق ولم يزل منها ما هو مخطوط .

السنّ وقد تجاوز السبعين على تنظيمها وتبويبها ، فقد كان ينقل من خواطره كل شيء مرّ في ذاكرته . ولقد كان يكتب لئلا يضيع منه شيء ، فيقول إني سأظل أكتب « ما دمتُ أتمكن من مسك القلم وأصبر على التحديق في الخطوط التي أخطّها » .

ولهذا كتب وكتب في التاريخ والأدب والفكر ، حتى جمع نواة لكتاب في الأدب ، وصوّر ورسم ووصف ، حتى كان منه كتب لو جمعت لكانت صورة للشرق وخاصة لبلاده بل للأشخاص الذين عاش بينهم ، تكاد تكون ناطقة حيّة ، فهو بذلك أديب حقاً ، وكاتب مفكر ، ورسّام متفنّن .

* * *

نشر التراث : ولم يكتف الرجل بما كان منه ، فانصرف بجهده إلى « التراث » فعُني بتحقيق الكتب ، وبدأ بذلك في سنّ الشباب ، فنشر المخطوطات في مجلته « المقتبس » بعنوان « صحف منسية » كان فيها كتاب الأشربة لابن قتيبة ، والمقامات اللزومية ، وتذكرة ابن العديم ، وغيرها ، وذلك منذ سنة ١٩٠٨ وهو في الثانية والثلاثين .

ثم راح يصف الخزائن الخطّية ونوادرها ، ويحدّث عنها الشباب ، ويغريهم بمطالعتها ، وإخراج الدفائن الثمينة ، فتكلّم عن كنوز الأستانة والمدينة المنورة والقاهرة ، ولا شك في أنه تأثر في ذلك بأستاذه الشيخ طاهر الجزائري ، منذ صباه ، فأراد أن ينشئ جيلاً بعده يحذو حذوه .

وأخرج منذ سنة ١٩٠٨ « رسائل البلغاء » وقد نشر بعضها من قبل على صفحات المقتبس ، فأقبل عليها المستشرقون والدارسون من العرب ، وما تزال في طبعاتها المتعدّدة ، المرجع الفذّ للبيان الخالد في النثر العربي ،

وهذه الرسائل للبلغاء المشهورين أمثال عبد الحميد الكاتب ، وابن القارح ، والمعرّي ، وابن شرف القيرواني ، وابن قتيبة ، والوطواط ، وابن طاهر البغدادي ، وابن المدبّر ...

وأخرج كذلك سنة ١٩٠٩ « سيرة أحمد بن طولون » للبلويّ ، و « المستجاد من فعلات الأجواد » للمحسّن التنوخي ، نشره بدمشق سنة ١٩٤٦ ، و « تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي » ، أصدره في العام نفسه .

وبعد عام نشر كتاب « الأشربة » لابن قتيبة مستقلاً ، وأما كتاب « البيزرة » لبازيار العزيز بالله الفاطمي ، فكان يصحّح تجاربه ، وينظر فيه أواخر أيامه ، حتى أطفأ الموت هذا النور الذي كان يشع من عينيه الثاقبتين ، وأغمضهما إلى الأبد ، سنة ١٩٥٣ ، فأصدره المجمع بعد وفاة الرئيس وهو في السابعة والسبعين من عمره ، إكباراً لمنشئه ، وان ظل يرعاه خلال أربع وثلاثين سنة .

وهكذا قضى الأستاذ الرئيس حياته بين عمل رائع ، وتحقيق نافع ، وعاش لتراثنا ، وأدبنا ، وتاريخنا ، فخلّف للأجيال درساً لا ينسى ، وضرب مثلاً جميلاً في الإنتاج ، على الرغم من أعماله في الوزارة أكثر من مرة ، وفي الاشتراك بالمؤتمرات العلمية في الغرب ، والمجمع اللغوي بالقاهرة .

وكان عهد رئاسته في المجمع زاهراً ، أقبل فيه الشباب على المجمع يستمعون إلى المحاضرات ، ويشاركون في تحقيق المخطوطات وصنع الدراسات والمقالات ، بفضل تشجيعه وتوجيهه ، فهو يهش لكل جديد جديّ ، ويفرح لكل عمل نافع ، حتى ما تحصى الكتب التي صدرت لأيامه(١)

(١) كم كنا نود أن نحصي الكتب المجمعية التي صدرت لعهده خلال ربع قرن ، برعاية المجمع ، فلعل الإدارة تنشر قائمة بها ، تساعد على دراستها وتحليلها ، ذلك عدا ما صدر خارج المجمع بإرشاده ، فذكر اسمه فيها أو أهديت إليه .

برعاية المجمع أو المؤسسات الأخرى بفضله . فقد كان الرجل في مصر والعراق والشام قبلة الباحثين ، وكان راية رفعها المجمع بدمشق خفاقة في البلاد العربية ، فهو مفخرة للشام ، وعزّة للدراسات ، ونبراسٌ للباحثين ، وكان رائداً ، ومصلحاً ، وكاتباً . ومع ذلك انقسمت الآراء في الحكم على ما كان من نقده المتواصل ، كما تنقسم أبداً في الحكم على كل عظيم .

★ ★ ★

٢ ــ خليل مردم

حياته وشعره : ولم يكد يقضي الراحل الكريم حتى تسلّم راية الرياسة عالم آخر من علماء المجمع ، هو الشاعر خليل مردم ، وكان نائب الرئيس في المجمع خلال سنوات ، وقبل ذلك كان عضواً عاملاً ، فقد انتخبه المجمع في ٩ كانون الثاني ١٩٢٥ ، وهو في الثلاثين من عمره[١] انظر ص ٩ ، أي بعد ستّ سنوات من تأسيس المجمع .

ولم يكن هذا الشاب غريباً على الشعر والنثر ، منذ بدء شبابه ، فقد دفعه الأسى والحزن مذ كان برعماً إلى النظم والشكوى ، في شعر يدلّ على الخامسة عشرة من سنيه ، فبكى أباه ورثى أمه ، فأبوه من فضلاء دمشق وأعيانها ، وصف جنازته بأنها « تسير كما تسير الجبال » ، وافتخر بنسب أمه إلى فهر وعدنان « وقضت قانتة صائمة » . وشكا في شعره ظلم الدهر والأقارب والعدوان على اليتيم ، وانصرف إلى الحذر والصمت والصبر

(١) خليل مردم (١٨٩٥ ــ ١٩٥٩) كان أصغر من الأستاذ الرئيس بعشرين سنة ، وتوفي بعده بستّ سنوات ، وقد رسمنا حياته في المجلة وفي صدر ديوانه .

فانطبعت في شخصيته الأناة في الحديث ، والهدوء في التفكير ، ولكنه كان يمسح عليها كلها بابتسامة عريضة وأدب في الحديث تلفه نعومة وإباء ، عرفناهما في صدر شبابنا ، وقد قادنا إلى بيته خلال الحرب الثانية ، بعد أوبتنا من الغرب ، أستاذنا الشيخ بدر الدين النعساني ، خلال إحدى الزيارات لدمشق وكانا صديقين فحملنا الرجل إلى بساتين دمشق ، في عربته ذات الخيول آنذاك ، وطفنا معه « الغوطة » التي يعشقها الشاعر ، ويتنسم أريجها كلما دهمته هموم قومه وأمته .

وكان الرجل يحمل هذه الهموم على قامته الفارعة حتى انحنت ، ووخطت فوديه بالشيب ، فقد شهد ولادة الملك العربي ، وهو في الثالثة والعشرين ، وعرف « فيصلاً » عن قرب ، وعمل له ، ومدح هذا الملك العربي ، ورأى فيه ظلاً لخلفاء بني أمية . ولعلّ دار الشاعر الواسعة على مقربة من قصر الخلفاء الأمويين ، بجانب الجامع الأمويّ الكبير ، دفعته إلى أن ينتظر أن تعود إلى العرب تلك الأيام ، بل لعله تخيّل أنه أصبح في شعراء الملك العربي الجديد يختال ببردة من أمجاد العروبة على برود من قصائده الوطنية .

ولكن ، سرعان ما انطوى هذا الحلم في صدره ، فدخل الفرنسيون دمشق ، وراح ينظر إليهم نظرة الكره ، وينصرف عنهم إلى جمال دمشق الفاتن في كل ربوة مزهرة ، ونهر متدفق ، وزهر فياح ، وكاعب حسناء ويرسل وصف ذلك في شعره ، فتردّده النوادي العربية ، ويكاتبه أعلام البيان العربي في كل صقع ، فالأمير شكيب أرسلان [1] يبادله الشعر ، وشعراء المهجر يراسلونه ، فينشيء في دمشق « رابطة أدبية » على غرار « الرابطة القلمية » في نيويورك ، ويصبح رئيساً لهذه الرابطة سنة ١٩٢١

(١) روينا بعضاً من ذلك في كتابنا عن الأمير شكيب أرسلان ، دار المعارف بمصر .

وهو في السادسة والعشرين فكان رئيساً « لمجمع أدبي » مصغّر وهو في سن الدراسة الجامعية لشبابنا اليوم ، وكانت تضم هذه الرابطة أدباء من ذلك العهد فيهم : محمد الشريقي ، ابيفانوس ، شفيق جبري ، حيدر مردم ، سليم الجندي ، حليم دموس ، أحمد شاكر الكرميّ ، قبلان الرياشي ، عبد الله النجار ، جورج ريّس ، نسيب شهاب ، ماري عجمي ، نجيب الريس ، فخري البارودي وغيرهم . ولعل هؤلاء الشباب كانوا يثورون في سبيل شعر جديد ، ويعملون كما تعمل رابطة نيويورك ، أو كما يوصي العقاد والمازني في « الديوان » بمصر .

ومهما يكن من أمر فان نشأة هذه الرابطة تشبه نشأة المجمع ، وهمته في العمل فقد ظهرت بعد سنتين من ولادته ، واتخذت شعاراته نفسها في العمل للتراث ، والحفاظ على اللغة ، وايقاظها بعد طول ركود ، خلال أربعة قرون ، فقد سئم الجيل الجديد من دفن تراثه ، وسكوت لسانه ، واقفار بلاده من الصحف الأدبية ، وضآلة الصحافة في ربوعه ، ومصر تعجّ بالصحف والأدباء والشعراء .

لذلك نهض الجيل الجديد للّغة العربية لعلّه يرفع لها مناراً من جديد ، على شفار القوافي ، وسطور النثر الجميل ، وتلك أهداف المجمع العلمي العربي سواء بسواء .

ولقد أصدرت الرابطة « مجلة » ، وحاضر فيها المحاضرون ، وكرمت الأدباء ، ونشرت شعراً رفيعاً ، واحتفلت بتكريم (مي زيادة) في دمشق سنة ١٩٢٢ ، وأنشد فيها الخليل نفسه قصيدة يرسم فيها حال دمشق ، وهي تدفع النوم عن الأجفان ، وتتثاءب قبل الوثوب .

وهي تشبه قصيدة حافظ إبراهيم في مصر ، حين رسم تقاعس قومه عن الهجوم على شعره في البؤس ، وفي اللّغة ، والوطنية ، وتفرق العرب ،

وقد غصّ ديوانه بمثلها حتى احتفلت دمشق بحافظ ، فاعترف فيها : بأن دمعه ذاق أول مرة طعم السرور فرحاً .

وشعر الخليل لا يقل عن شعر حافظ هجوماً على بعض الرجال والساسة المحترفين ، حتى عرف بأنه كان في الشعراء الذين ألهبوا الثورة السورية ، منذ شبابه ، فكان ملتزماً ، تشحذ على قوافيه أسنّة الحراب في غوطة دمشق ، وعلى كل رابية من روابي الشام فراح « يذكي الجمر ويطفىء الجمر » كما قال بنفسه .

وراح شعره على كلّ لسان ثائر ، وأكبر المجمع العلمي همة الشاب الشاعر وعمـــله في الرابطة الأدبية ، ومشاركته في طبع « معاني الشعر للأشناندانى » سنة ١٩٢٢ ، فخطبه المجمع إليه وجعله في أعضائه سنة ١٩٢٥ .

* * *

ولكن الشاعر الشاب دخل في السياسة بشعره القومي ، فترصدته السلطة للقبض عليه ، لذلك هرب إلى لبنان مع الأحرار من بني قومه ، ليكون لسانهم في الفداء خارج الأقفاص الكبيرة ، وسافر إلى الاسكندرية سنة ١٩٢٦ ، وفي مصر تعرف إلى الشعراء والأدباء ، كما تعرف قبله الأستاذ محمد كرد علي سنة ١٩٠١ ، فسبقه قرابة خمس وعشرين سنة .

وسافر خليل مردم بعدها إلى انكلترة ، ينهل من الغرب ، ويتعرف إلى آدابه وشعرائه عن كثب ، كما تعرّف الأستاذ محمد كرد علي قبله ، فأطال مكوثه بين الشعب الانكليزي ، فوقف على عيشهم ، وأعجب بكثير من عاداتهم ، وارتضى هدوءهم ، وأعجبته سكينتهم ، فأخذ عنهم كثيراً ، وطبع نفسه خلال حياته بهذه السكينة وهذا الهدوء ، حتى ظنّ بأنه بعيد عن هموم الناس خلال حياته ، ولكننا عرفناه عن قرب ، ورحلنا برحلاته إلى لبنان مرات ، في أيام الثلاثاء ، يوم عطلة المجمع ، والسفر والغربة يكشفان عن كثير ، فنعمنا بحديثه وذكرياته وأدبه .

ومهما يكن من أمر فقد عاد الشاعر إلى سورية سنة ١٩٢٩ وهو في الرابعة والثلاثين ، بعد أن اطمأن إلى سكوت السلطة عنه ؛ ورسم عودته في شعره كعاشق يلقى معشوقته ، بعد طول فراق ، فهو دمشقي حقاً ، يحب كلّ ركن من أركان الصَّخر والنَّوْر في هذه الجنة التي كان يتمنى أن يكون خالداً فيها ، فما أحب أن يبرحها في رحلة بعيدة ، ولقد دُعي أكثر من مرة ، لحضور المهرجانات والمؤتمرات ، فكان ينتدب زملاءه ، ويؤثرهم على نفسه على أن يبقى في جنته ، فلا يغادر دمشق وغوطتها .

ولقد كان بين رياض الغوطة ورياض الشعر يقضي ساعات عمره ، وكنا نهجم عليه في المجمع ساعات الصباح ، فنراه قد شمّر عن ساعديْه ، ينقل بخطه الجميل ، دواوين الشعراء القدماء الذين كان يعمل لهم ، فلا يتلفّت إلى مال يتدفق عليه ، أو إلى مناصب ترمى على كتفيه . ولكنه ما أراد أن يعمل لديوانه ، فطبعه المجمع بعد موته وأشرف عليه ابنه الشاعر .

وليس شعر « الخليل » بالهيّن القليل(١) ، فقد شارك بهذا الشعر في أحداث أمته والبلاد العربية ، كما شارك شعراء مصر الثلاثة شوقي وحافظ ومطران ، بل نهض بالشعر في خدمة العربية وابنائها كما نهض رئيسه محمد كرد علي قبله بالنثر .

ولكن قصائده تفرّقت في الصحف والمجلات ، وكانت حيناً ناراً وشواظاً على الأجنبي ، ترسم النضال الذي خاضته سورية في سبيل استقلالها ، كما كانت أحياناً بلسماً لجراح العاشقين ، وشفاء الغزاين المشوقين ، فكان شعره

---

(١) خصصنا حياة الشاعر بدراسة جعلناها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٩ ثم نقلت إلى صدر ديوانه بعد وفاته سنة ١٩٦٠ . أما شعره فقد بحثنا فيه في فصل طويل في كتابنا « الشعراء الأعلام في سورية » طبعة ثانية ، بيروت ١٩٦٨ (ص ٨٣ ـ ١٤٢) .

كذلك يعمل في ميدانين ميدان قومه وميدان شخصه ، كما يعمل نثر كرد علي في خدمة التراث ، وفي خدمة الأدب الشخصي .

أما ميدان النضال ، فقد دخله فتى ، فرسم الشهداء العرب على الجذوع ، ووصف دمشق في ثورتها كأنهـــا على طوفان من لهب ، ومشاهد النساء والأطفال ملأت ألواحه حزناً وأسى ، كما امتلأت قصيدة شوقي في وصف الثورة السورية .

وشارك شعره الوطني في المعركة ، فخاض غمارها ، مع الأحرار المناضلين ، فكأنه اشترك بجسمه ويده لا بلسانه وبيانه ، وكانت أشعاره تهدر بالحقد والموجدة ، فتنصبّ على الخونة ، كما ينصبّ الرصاص على هدف تكاثرت حوله البنادق ، وهو يدعو فيها جميعها إلى وحدة كبرى ، يسخر من الدويلات فيرى أنها لا تزيد كل واحدة على البيت الصغير ، ولا تبعد عن أختها إلاّ بمقدار الفتر أو طرف البنصر .

وأما ميدان شخصه ، فقد نظر إلى الطبيعة فرسم كلّ ما فيها ، فاستنطق الصخر والماء ، والشجر ، والزهر والحيوان ، فالفراشات تطير على قوافيه ، ويتناغى الحمام بين مصاريع أبياته ، ويفوح الطيب ، وتزيغ العيون في رسم الحركات ، حتى ما يكاد ينفض ريشته من رسم طيران الحيوان ، أو رقص الإنسان أو حديثه بالعيون والشفاه .

وما نرى من ضير في أننا انصرفنا عن رئاسة المجمع إلى شعر الشاعر ، فقد كان يتثقف بشعر الشاعر كثيرون من الشباب ، وهو تحت قبة المجمع ، كما كان كثير منهم يأخذ في النثر بأسلوب محمد كرد علي . وقد تغذى العالم دائماً بالنثر والشعر على حدّ سواء ، ولذلك أنشأ الرجلان إلى جانب عملهما الرسمي في المجمع ، مدرستين ناهضتين للنثر والشعر ، طربت لهما دمشق ، وأفادت منها البلاد العربية ، وارتفع من قبة « المجمع » لكل منها لواء عال يجتذب

الجيل الجديد إلى التراث العربي ، يقلّده ويقلّده حتى يبتكر فيه ويبتدع ، كما فعل القدماء في عصورنا الأدبية سواء بسواء .

وهذا ما قصدنا إليه حين جعلنا عنوان المقال « بين دولتي النثر والشعر » نريد أن كلاً من الرئيسين عمل للبيان في خطته ، وانتصر فيها ، على جهاد متواصل ، داخل المجمع وخارجه ، فتجاوز الحدود ، وارتفع للبلاد علم إلى جانب الأعلام العربية ، في خدمة اللغة العربية وتراثها ، وبذلك حقق الرئيسان مع إخوانهما وصحبهما هدفاً كبيراً من أهداف العلماء .

* * *

مؤلفات في الأدب : عمل الشاعر خليل مردم للنثر كما عمل للشعر ، فقد اشتغل في سنّ مبكرة ، قبل العشرين ، في جمع الأخبار الأدبية والفنية ، فألف قبل كل شيء كتابه في شعر الأعراب بعنوان « تراجم الأعرابيات »[1] فجمع فيه ما تفرق في الكتب ، وترجم لأربعين رجلاً من الأعراب ، فرسم الرواية والمناظرة وفقه اللغة وآداب العربية . ثم ألف « جمهرة المغنيّن »[2] ، جمع فيها أخبار هؤلاء المتفنّنين وعاداتهم وأخلاقهم ، ومجالسهم عند الخلفاء ، فصوّر الحضارة وسجّل تاريخ الغناء في أسلوب عذب جميل .

وخلال السنين التي كان يدرس فيها الأدب العربيّ بالكليّة العلمية (١٩٣٣ — ١٩٣٩) أخرج بحوثاً لفحول الأدباء ، بعنوان جامع : « أئمة الأدب »

(١) طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق ، سنة ١٩٦٦ ، بعناية ابنه الشاعر الأستاذ عدنان مردم والأستاذ أحمد الجندي .

(٢) طبعه كذلك المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٦٤ ، بعناية الأستاذين المذكورين نفسهما .

فنشر خمسة منها « الجاحظ ، (١) ابن المقفع ، ابن العميد ، والصاحب ، والفرزدق » وهي دراسات مبسّطة تجمع بين دفتيها حياة كل أديب إلى صفحات مختارة منه ، في عرض واضح ، لعله يفتح لطلاب المدارس الثانوية باباً ، إلى فهم الأدب واجتياز امتحان الشهادة الثانوية .

ثم أخرج كتابه « شعراء الشام في القرن الثالث الهجريّ » وتقدم به إلى المجمع العلمي العربي بدمشق كرسالة في الأدب فانتخبه المجمع عضواً فيه ، كما ذكرنا من قبل .

وانتخبه المجمع العلمي بعد ذلك سنة ١٩٣٩ ، أميناً لسرّ المجمع ، فسلك في « المدرسة العادلية » سحابة يومه جنباً إلى جنب الرئيس كرد علي لايتفارقان إلاّ في فترات قليلة ، اختير فيها الشاعر خليل مردم سنة ١٩٤٢ وزيراً للمعارف ، ثم اختير وزيراً مفوضاً في بغداد سنة ١٩٥١ ، فاضطر إلى قبول هذين المنصبين ، وهو يفضل أن لايغادر المجمع ، وأن لا يفارق الرئيس ، فقد عاشا معاً قرابة أربع عشرة سنة ، يطير فيها الشاعر الخليل من المجمع العلمي ، ثم يعود إلى عشّه ، فرحاً بالرئيس ، لأنه يرى فيه قمة عربية لاتدانيها قمة في المعرفة والثقافة ، والدؤوب على العمل ، وتشجيع الشباب ، ولم يكن الرئيس أقل فرحاً من الشاعر بلقائه ، فقد كان يرى فيه الأديب الرقيق ، مستودع الأسرار ، شديد الحرص ، جميل التواضع ، كأن الشعر الرفيع سكب عليه برداً من أجمل أبراده ، فكساه أجمل الحلى وزينه بأنقى الصفات . وكان حديثه صورة للرقّة ، ما تنقطع بشاشته عن حديثه ، ولسانه الحييّ المتردد ، لايكاد ينطلق إلاّ في خير الناس ونفع

(١) الجاحظ ٩٦ صفحة ـ ابن المقفع ٩٦ صفحة ـ ابن العميد ١٤٤ صفحة ـ الصاحب ٢٥٦ صفحة الفرزدق ١١٢ صفحة ، وكلها من القطع المتوسط .

الأدب ، وخدمة المجمع العلمي ومجد العرب . وكانت عيناه الواسعتان تشعان أبداً بنور النبل والحياء الجم ، وتضحكان للنكتة البريئة .

وما أجمل المجالس الصباحية في المجمع العلمي ، منذ اختلف فيها الشاعر إلى الرئيس سنة ١٩٣٩ ، تسمع عبارات الرئيس كنافورة « البحرة » في دارة المجمع « المدرسة العادلية » هدّارة موسيقية ، لا تكاد تنقطع ، تمسك الجملة بالجملة نكتة أو طرفة يميل لها الرئيس المتحدّث ، والأمين الذي يحسن السمع والإصغاء ، وعشرون سنة بين الرجلين تحسّ كأنها أربعون في وقار الاستماع وهدوء التأدب ، وضحك الرّصين ، فتسحر بالمجلس ، وتنسى الدنيا حولك ، وتغيب عنك أهوال الحرب الدائرة في الغرب ، آنذاك ، ومصاعب العيش السائرة في الشام ، من حرمان وتحديد واقتصاد شديد ، فالحرب كانت تغيب وتنقشع سحابتها حين تدخل مكتب الرئيس ، وحوله الأمين ، وبعض الأعضاء ، والقهوة تطوف على الزائرين ، مع حديث الأدب والمخطوطات ، فتستمع إلى محاضرات نافعة ، يودّ المرء لو سجّلها بآلات عصرنا ، واستعادها اليوم ، حين يفتقد كلّ شيء ، فلا يرى إلاّ الحديث « مع الخالدين » .

وكان جدران « المدرسة العادلية » مقرّ المجمع ، منذ ثلاثين سنة ، تستمع من جديد بعد قرون ، أحاديث العلماء ، كما كانت تستمع منذ مئات السنين إلى ابن خلدون وغيره من فطاحل المسلمين ، الذين زاروها متعلمين ومتحدّثين .

وعاش الرضى والعلم سنين بفضل الرئيس الكاتب ، والرئيس الشاعر بعده ، تحت قبة هذه المدرسة ، وقرب ضريح الملك العادل المدفون فيها .

* * *

نشر التراث : وأقبـــل الشاعر الأمين ، إلى نشر التراث ، وخدمة العربية ، كما كان يفعل الرئيس ، فانصرف من جـديد إلى تحقيق الشعر وطباعة الدواوين القديمة على مخطوطات ، فقد رأينا أنه اشترك في شبابه مع اخوانه في تحقيق « معاني الشعر الأشناندانى » ، لذلك راح يطيل النظر في هذه المخطوطات فأخرج في المجمع الدواوين الكثيرة : « ابن عنين[1] سنة ١٩٤٦ ، ثم « علي بن الجهم » سنة ١٩٤٩ ، ثم « ابن حيّوس » ، سنة ١٩٥١ ، ثم ابن خياط الدمشقي سنة ١٩٥٨ .

ولقد صدّر هذه الطبعات بمقدمات واسعة مفصَّلة ، ودراســات عميقة فيها تحليل طريف ، واستنتاج طيب ، وتخريجات لغويّة ، وبلدانيات . ولو جمعت هذه المقدمات معاً ، لكانت كتاباً في تاريخ أدب العربي ، لا تقلّ فصوله الزاهية عن أية دراسة عميقة مبنية على النصوص .

وأما تعليقاته عن الأماكن فيحسن أن تجمع وتفهرس وترتب ، لتكون معجماً أبجدياً ، لما يجهله كثير من العرب عن هذه المواضع في بلاد الشام ، فقد ملك الرجل الشاعر خطط الرحلة في مطاوي الأدب ومسالك التاريخ والبلدان ، حتى غدا في جملة الذين يعرفون أوثق معرفة رقعة بلادهم شبراً شبراً ، وهذه وطنية صادقة ، وعلم جميل .

ولقد أقبل الشباب إلى تحقيق الدواوين برعاية المجمع كما أقبل الرئيس قبله ، فتعاقبت دولة الشعر ، بعد دولة النثر في هذه الدار الخالدة .

---

(١) ابن عنين في ٢٦٦ صفحة ـ علي بن الجهم في ٢١٤ صفحة ـ ابن حيّوس في جزأين ٦٩٣ صفحة ـ ابن خياط الدمشقي في ٣٤٦ صفحة ـ ولقد صدرت دراسته في ديوان الوليد بن يزيد كمقدمة لطبعة الديوان بالمجمع العلمي ، سنة ١٩٣٧ وهي إعادة لطبعة غابريللي للديوان .

وفي سنة ١٩٥٣ ، بعد وفاة الأستاذ الرئيس اختير الأمين الشاعر ، رئيساً للمجمع ، فما تبدلت حاله ، وإنما ظل وفياً للمخطوطات ، وصديقاً للناشرين الشباب ، يشجع خطواتهم ، كما كان يشجعها الرئيس الراحل ، وغدا المجمع العلمي بفضلها دارة للشباب والناشئة ، يقبلون إليه كما يقبل المجمعيون ، في حبّ وشغف .

ولعلّ هذه الصفحات أوضحت خدمة المجمع العلمي خلال أربعين سنة على يد رئيسيه ، في دولتي النثر والشعر ، وهي الحفاظ على اللّغة العربية والعمل لتراثها . فاللّغة العربية أقدس الروابط في القومية العربية ، وهي غاية الغايات عند المجمعيّين !

رحم الله الرئيسين عداد أياديها .

الدكتور سامي الدهان
عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

❖❖

صفحة من تاريخ النقد
في الأدب العربي الحديث

---

١ — مقدمة

يشتمل هذا البحث على دراسة كتاب « منهل الورّاد في علم الانتقاد » لقسطاكي الحمصي أحد أعضاء مجمعنا الراحلين . وهو أول كتاب في النقد الحديث نشره كاتب سوري في مصر سنة ١٩٠٧ م بعد كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفي بعشرين سنة تقريباً ، وقبل كتاب الديوان للمازني والعقاد بأربع عشرة سنة .

ويعدّ كتاب « منهل الورّاد » أول كتاب عربي حاول إرساء قواعد النقد على أسس ثابتة . وهو مختلف كل الاختلاف عن كتاب « الوسيلة الأدبية » للمرصفي ، لأن هذا الكتاب يريد أن يكون أداة تعليم اللغة العربية وآدابها ووسيلة إنشاء الشعر والنثر على حين أن كتاب « منهل الوراد » يريد أن يضع قواعد علم جديد يعصم الفكر من الخطأ في الحكم على قيمة الآثار الأدبية . ولهذا العلم في نظر قسطاكي الحمصي موضوع مستقل بذاته . وله مبادي كلية وقواعد عامة تنطبق على جميع الموضوعات الحسية والعقلية . فكأنه صناعة نظرية تتضمن قواعد النقد العلمي ، والنقد الفني ، والنقد التاريخي ، والنقد الأخلاقي ، وليست قواعد النقد الأدبي إلاّ قسماً من أقسام هذه الصناعة .

٢ ـ هل النقد علم

ما هي حقيقة النقد ، هل هو علم أم فن ؟ هذا أول سؤال يخطر بالبال عند الكلام على قواعد الانتقاد التي تضمنها كتاب « منهل الوراد » . ونحن وإن كنا لا نريد الآن أن نعمق النظر في هذه المسألة الفلسفية ، إلا أننا نرى مع ذلك أن نقدم لها بكلمة عامة ، وهي أن العلم مؤلف من أحكام وجودية أو خبرية تعبر عن قوانين الأشياء كما هي في الواقع ، على حين أن النقد مؤلف من أحكام إنشائية أو تقديرية تفاضل بين قيم الأشياء بحسب قربها من الصور الفانية للحق والخير والجمال أو بعدها عنها . ومعنى ذلك أن النقد ليس علماً بالمعنى الفلسفي الدقيق وإنما هو فن غايته التقويم أي إبراز المحاسن والمساوىء والمقارنة بينها وإذا جوّزنا إطلاق اسم العلم على النقد كما نجوز إطلاقه على الأخلاق والمنطق فلنقيده بقولنا إنه علم قاعدي أو صناعة نظرية غايتها تقدير قيم الأشياء لا الاقتصار على استقراء صفاتها الواقعية . ونسبة هذه الصناعة إلى الأدب كنسبة المنطق أي الفكر ، أو النحو إلى الكلام ، أو العروض إلى الشعر . والفطرة الطبيعية لا تغني عن تعلم قواعد النقد ، اللهم إلا أن يكون صاحبها مؤيد النفس بصدق العاطفة وسعة الخيال ، وقوة الحكم ، وسلامة الذوق ، نعم إن الأدب لا يوزن بمثاقيل النظم ، ولا يتأتى له الخلود إلا إذا جمع بين جودة الصوغ وروعة الخيال . ولكن العلم بقواعد النقد الأدبي أنفع من الجهل بها ، ولا معنى لقول بعضهم إن هذه القواعد تفرض على الأديب قيوداً ، لأن الفن كما قال (اندره جيد) يعيش في القيود ويموت في الحرية .

ومهما يكن من أمر فإن قسطاكي الحمصي يزعم أن النقد علم يقوم على أساس ثابت لا يتزعزع ولا يتبدل بتبدل الزمان والمكان . وسبب ذلك اعتقاده

أن للحق والخير والجمال صوراً غائية يقاس بها جمال الآثار وكمال الأفعال ، فإذا استحسن الناقد شيئاً لم يستحسنه لأنه جميل في عينيه فقط ، بل استحسنه لأنه جميل بذاته ، وهذا الرأي كما ترون بعيد كل البعد عن آراء الذين يزعمون أن مقاييس النقد مفاهيم ذاتية . وإذا صح أن لقيم الحق والخير والجمال صوراً غائية وجب أن يكون هنالك طرق فنيّة وقواعد عملية تنقل هذه القيم من حيز التصور إلى حيز الفعل . والغرض من علم الانتقاد بيان هذه الطرق الفنية ، والقواعد العملية التي ينبغي للكاتب أو المتفنن اتباعها لبلوغ تلك الصور الغائية . وفي كتاب منهل الوراد استقصاء لقواعد هذا العلم الجديد الذي زعم قسطاكي الحمصي أنه أول من اهتدى إليه .

٣ ـ موضوع كتاب منهل الوراد وأقسامه

قال قسطاكي الحمصي في مقدمة كتابه : « كل ما كنت اطلعت عليه من كتب هذا الفن في اللغة الفرنسية لا ينطبق على ما عقدت على تأليفه النية إلاّ من وجه خفي اجمالي ، وطرف ذهني خيـالي ، فإنّ جميع ما قرأته لجهابذة هذا الفن المشهورين مثل (سنت بوف) ، و (رينان) و (تين) ، و (فردينان برونيتير) و (أميل فاجه) و (جول لومتر) ، (وآدولف بريسون) وغيرهم من المعاصرين لا يتعدّى نقد مؤلف أو مصنوعات ومؤلفين ومتفننين ، فيما أن الغرض الذي كنت أرقى إليه . والمنهل الذي كنت أحوم عليه ، هو وضع كتاب في قواعد هذا الفن الجليل يبين للطالبين استيعابها في وقت قليل » (ص : ٤ ، ٥) وقال أيضاً : « لم يوضع بالعربية كتاب لقواعد علم الانتقاد ، ولا في غيرها من اللغات الافرنجية ، إلاّ أن يكون شيء لم يصل خبره إلينا ، وكذلك قد علمت أنه لم يؤلف بالعربية كتاب في تبويب رتب الشعر

والإنشاء ، فاقتحمت هذا السدّ مستنجداً بحلم أهل العلم . فإن كنت قد أصبت في شيء فليغتفر لهذا بذاك ، وإن كنت قد أحسنت في الوضعين — وما أبعد ذلك — فلا تنكرنه ، فمع الخواطيء سهم صائب ، وإن كنت قد ضبطت في الفنين — وما أحسبني إلا كذلك — فانظر إلى صنيعي بعين الحليم ، لا المتعنّت ولا ذي الطبع اللئيم . وقل كلمة طيبة يغفر لك الله ، « إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » (ص : ١٧٧ — ١٧٨) .

فهذه الأقوال كلها تدل على أن قسطاكي الحمصي كان على تواضعه شديد الافتخار بالعلم الذي ظن أنه اهتدى إليه ، شأنه في ذلك شأن كل من يعتقد أنه كشف عن شيء جديد مستحدث الصنعة . فالموضوع في نظره مبتكر وإن كان غيره قد طرقه قبله [١] .

وسنبين في تلخيصنا لكتاب منهل الوراد ، وفي تحليلنا لموضوعه ، أنّ صاحبه لم يوفق لتطبيق قواعد علم الانتقاد تطبيقاً محكماً ، فكان كمعلم المنطق الذي يعرف أشكال القياس ولا يجيد تطبيقها .

على أنه من الحق علينا أن نعترف بما في كتاب منهل الوراد من جهد يشهد لمؤلفه بدقة البحث ، وهو وإن كان كثير التخبط في التطبيق ، كثير الاستطراد في الشرح والتعليق ، إلا أن له فضل السبق في توجيه الأنظار إلى ضرورة النقد وفائدته وقيمته وتأثيره .

---

(١) قال صاحب المقتطف في نقد كتاب منهل الوراد : « إن الموضوع مبتكر في العربية كما قال حضرة المؤلف لم نرَ لأحد كتاباً فيه ، وإن كنا قد طرقناه غير مرة في المقتطف فنشرنا فصلاً طويلاً في الانتقاد في المجلد الثاني عشر منه شغل ثماني صفحات ، وانتقدنا كتباً كثيرة كان جزاؤنا من أصحابها اللوم والتعنيف فعدلنا عن الانتقاد إلا في ما ندر » (المقتطف الجزء الثالث من المجلد الثاني والثلاثين ، مارس ١٩٠٧ ، ص ٢٤٥) .

يتألف كتاب منهل الوراد من ثلاثة أجزاء :

الأول قسمان أحدهما في تاريخ النقد وموضوعه (ويقع في ثمانية فصول) والآخر في قواعد النقـــد وفروعه ، وهو تتمة للقسم الأول (من الفصل الأول إلى الفصل الحادي عشر) .

والثاني في قواعد النقد وفروعه ، وهو تتمة للقسم الأول (من الفصل الثاني عشر إلى الفصل الرابع والعشرين) .

والثالث في موضوعات متفرقة : كتعريف الأدب عند العرب ، والنقد الأدبي ، وفن الروايات ، والتأليف ، ومراتب المؤلفين ، والتجديد والتقليد ، وتجرد الناقد ، وتحرِّ المنقود ، والموازنة بين الاعوبة الإلهية لدانتى ورسالة الغفران للمعري .

وقد قصرنا كلامنا في هذا المقال على الالمـام بما جاء في الجزء الأول والثـاني من الموضوعات أما موضوعات الجزء الثالث فستتناولها بعد ذلك في مقال خاص .

٤ ــ تاريخ النقد

لتاريخ النقد عند المؤلف قسمان : أحدهما تاريخ النقد عنـد العرب ، والآخر تاريخ النقد عند سائر الأمم .

٤/١ ــ أما تاريخ النقد عند العرب فقد خصّه المؤلف بفصل واحد تكلم فيه بإيجـاز على القدامى والمحدثين ، فذكر من القدامى ابن قتيبة ، وابن المقفع ، وأبا فراس الحمداني والخوارزمي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والآمدي ، وأبا الحسن علي بن عبد العزيز ، ومن المحدثين ناصيف اليازجي ، وبطرس البستاني ، وكرنيليوس فنديك ورفاعة الطهطاوي ، وأحمد

فارس الشدياق . وليس في هذا العرض التاريخي تحليل دقيق ولا إحاطة تامة بطرق هؤلاء النقاد وأساليبهم . وسبب ذلك أن البحث التاريخي عند المؤلف لم يكن مقصوداً بالذات ، بل كان مقصوداً بالعرض من جهة ما هو تمهيد للكلام على موضوع النقد . وربما كان خير معيـــار للحكم على قيمة هذا التحليل التاريخي موازنته بما كتبه المتأخرون عن النقد المنهجي عند العرب ، فان هذه الموازنة تكشف لنـا عن قصر باع الحمصي في كلامه على تاريخ النقد ومراحله . أضف إلى ذلك أن المؤلف كثيراً ما يطلق الحكم جزافاً ويستطرد في الكلام على الأدباء الذين نكبوا في الماضي وعوقبوا بالسجن أو بالرجم أو بالتمثيل . وغرضه من ذلك كله أن يثبت « أن العرب لم يحددوا للانتقاد رسماً ، ولا عرفوا له اسماً ، ولا اشتقوا من اسمه فناً ، وإن كان الانتقاد من الغرائز التي عرفوا بها في كل زمان ومكان ، حالهم كحال الطفل تدفعه الغريزة إلى الوقوف أولاً ثم المشي ، فلا يقف حتى يقعد ، ولا يمشي إلا ليقع ، ثم ينهض ليعود إلى عمله من السير على غير هدى ، فيسقط في حفرة قد تكون سبب هلاكه ، لأنه طلب الشيء قبل أوانه » (ص ١٠) ، وفي هذا القول كما ترى تعسف وجور ، لأنه إذا صدق على بعض النقاد القدماء فهو لا يصدق عليهم جميعاً ، وفيهم من وضع أساساً عاماً للنقد كعبد القاهر الجرجاني وغيره ، وان كان هذا الأساس لا يتضمّن جميع المقاييس التي اهتدى إليها المحدثون .

٤/٢ — وأما تاريخ النقد عند سائر الأمم فقد اختصه المؤلف بأربعة فصول ذكر فيهـا تاريخ النقد في القرون الوسطى والقرون الحديثة بكلام مقتضب تضمن بعض الأحكام الشخصية ، كإعجابه بالنقاد الفرنسيين ، وتفضيلهم على غيرهم من نقاد سائر الأمم ، واقتباسه بعض أقوالهم كقول (بوفون) : مرآة المرء انشاؤه ، وقول (سنت بوف) : ان النقد وسيلة للكشف عن

أخلاق الكاتب ومكنون فكره ، وغير ذلك كثير . ومع أن تاريخ النقد الفرنسي يمثل في نظر المؤلف تاريخ النقد العام عند سائر أمم أوربة (ص ٩٤) فانه لم يبحث في هذا التاريخ لذاته بل بحث فيه بالعرض من جهة ماهو وسيلة لاستقراء بعض قواعد النقد . مثال ذلك قوله :

« إن سر التأثير إعطاء المعاني حقها من الألفاظ وحسن التركيب والوزن والقافية والجمال الطبيعي » وقوله : « المراد بالجمال الطبيعي ... البعد عن التكلف والتعمل والتقليد ، ثم مطاوعة القريحة والجري مع الطبع » وقوله : « إن علم الأدب هو لسان حال المجتمع الإنساني ، وإن فن النقد معين لفن التاريخ » وقوله : « إن عماد النقد وأساسه الصدق » فهذه الأقوال كلها مقتبسة من أقوال النقاد الفرنسيين ليس للمؤلف فيها إلا فضل الاختيار والعرض والتفسير ، ومع أن المؤلف يحلل أمثلة من الأدب العربي للبرهان على صدق هذه الأقوال فان تحليله لايخلو من الضعف لتسرعه في الحكم والتعميم .

٥ — أركان النقد

ولعل أهم ما يتميز به كتاب « منهل الوراد » اشتماله على قواعد صورية وأحكام كلية تدل على أن علم الانتقاد ذو موضوع مستقل عن موضوعات سائر العلوم .

وحق هذا العلم أن يسمى بمنطق الانتقاد أو بفن الانتقاد ، لأن قواعده لا تعبر عما هو عليه الشيء في الواقع ، بل تعبر عما يجب أن يكون ذلك الشيء بالقياس إلى الصور الغائية المرتسمة على صفحات الذهن . ولا يمكن أن يصبح النقد علماً إلا إذا كانت هذه الصور الغائية التي يستمد منها العقل قواعد الترجيح والتقويم أشياء متحققة في الوجود ، وإلاّ إذا انقلبت قواعد

النقد إلى أحكام وجودية أو قوانين علمية تضبط علاقات الأشياء . وسواء أكان الحق والخير والجمال أشياء موجودة في الأعيان ، أم متصورة في الأذهان ، فإنّ لها في نظر المؤلف خصائص يمكن التعبير عنها بقواعد أصلية مقررة عند جميع أمم الأرض كسائر العلوم العقلية ، وموضوعاتها لا تختلف إلاّ في الفروع . ولتطبيق هذه القواعد في علم الانتقاد ركنان أساسيان ، وهما : النسبة ، وصدق الإرادة .

أما النسبة فالمقصود بها صحة نسبة الأشياء إلى الحقيقة لأن عماد النقد وأساسه الصدق ، وموضوعه قصد الحقيقة والتفتيش عن الحقيقة . وأما صدق الإرادة فالمقصود به الفهم والتفهم . وصدق الإرادة في علم الانتقاد كالجاذبية في علم الطبيعيات . قال المؤلف : إن « صدق الإرادة من المتعلم والسامع والكاتب والقارىء والمصور والناظر هي قاعدة التفاهم . فالمتعلم ينطق ليفهم ، والسامع ينصت ليفهم ، والكاتب يكتب ليبلغ مرامه ، والقارىء يقرأ ليعلم مقصوده ، والمصور يرسم ليكشف للمشاهد فكره وغايته ، والرائي يتأمل ليقرأ ما في نفس المصور . والغرض الذي يرمي إليه جميعهم هو التفاهم . فصدق الإرادة في الفهم والتفهم هو الكاشف لأسرار النفوس . وكلما عظمت إرادة المتكلم أو الكاتب في التفهيم وأوتي ذكاء اللب ، وصرفت إرادة السامع أو القاريء في قبوله كانت أقرب لنقد عواطفه وإدراك أسرار أخلاقه وآدابه » (ص : ١٢٧ — ١٢٨) .

٦ — قواعد النقد

لقواعد النقد عند المؤلف سلم ذو ثلاث درجات : وهي : الشرح ، والتبويب والحكم .

٦/١ — الشرح .

للشرح ثلاثة شروط وهي :

آ — الأول تحديد العلاقة بين المنقود وتاريخ العلوم الأدبية .

لا بدّ في الشرح من النظر في تاريخ العلوم الأدبية لمعرفة منزلة المؤلف بالنسبة إلى عصره ، هل كان مبدعاً أو مقلداً ، مجلياً أو مقصراً ، لأن لكل عصر مذاهب في العلوم والفنون . وما يعدّ عندنا مهملاً أو في عداد الخرافات قد يكون له بالنسبة إلى عصره قيمة كبيرة .

ب — والثاني تحديد علاقة التأليف بما كان من نوعه وبالزمان والمكان اللذين ظهر فيهما .

فاذا أردت أن تتكلم على التشريح فلا تملأ كتابك من المسائل المتعلقة بالتاريخ ، وكذلك إذا أردت أن تتكلم على البديع فلا تدخل فيه إلا ما تقتضيه طبيعة ذلك العلم . قال المؤلف : « لقد حشا الجاحظ كتاب البيان والتبيين بكثير من السفاسف ، كقوله : قال وقالوا ، وفلان بن فلان ، فما كان أغناه عن هذه المنعنة والاسناد ، وما الكتاب بكتاب حديث » . وقال أيضاً في كلامه على علاقة التأليف بالزمان والمكان : « كان الجاحظ والمبرد وابن قتيبة . من عصر واحد ، فلذلك كانت كتابتهم من طبقة واحدة . ومع أن أبا اسحق الصابي ، وأبا بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني كانوا من عصر واحد إلا أن اختلاف أسلوب الأول عن أسلوب الآخرين يرجع إلى تأثير المكان الذي عاش فيه » . فما على الناقد إذن إلا أن يدقق البحث في ذلك لأن الكاتب إنما يكتب ما يمليه عليه العصر من حوادثه وما تتلوه عليه العادات من تأثيراتها .

ج — والثالث تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب وإنشائه والمصنوع وصانعه . وسبب ذلك كما قلنا سابقاً أن مرآة المرء إنشاؤه . فلما يدل الإنشاء

على المنشىء كذلك تدل أحوال المنشىء على أسرار إنشائه . ولكن هذا القول لا يصدق دائماً لأن للكتاب أحوالاً متناقضة ، فأبو العتاهية كان زاهداً من جهة ، وطماعاً شديد الحرص من جهة ثانية . وبين مذهب ابن سينا المشتمل على فكرة الخير والنظام والعقل والكمال ، وحياته المفعمة بالاضطراب وحب المغامرات والتخليط في الشهوات تناقض حقيقي . لذلك وجب على الناقد أن لا يقصر نقده على كتاب واحد من كتب المنشىء ، لأن ذلك لا يدل على عواطف الكاتب وتأثير الأحداث فيه إلا عند تأليفه ذلك الكتاب . فاذا شئت أن تصل إلى الفائدة المطلوبة وجب عليك النظر في أكثر كتابات المؤلف والوقوف على جميع أحواله :

(١) كسنه عند تأليف كتابه .

(٢) وحالة دنياه من فرح أو حزن أو فقر أو غنى .

(٣) وصحته ، هل كان سليماً أو سقيماً ، ضعيفاً أو قوياً ، عصبياً أو دموياً .

(٤) وأصله ، هل كان كريماً أو لئيماً أو من أواسط الناس .

(٥) وثقافته ، هل تلقى علومه في مدرسة أم هو ابن اجتهاده .

(٦) ومسقط رأسه ، هل المدينة التي نشأ فيها شمالية أم جنوبية ، هل هي شديدة البرد والحر ، أم معتدلة الإقليم .

(٧) ووضعه العائلي ، هل كان متزوجاً أم عزباً ، وهل كان له أولاد أم لا .

(٨) وما مرّ عليه من أحداث ، هل عشق ، وهل حزن على فقد عزيز أو مال .

(٩) وأخلاقه ، هل كان ممازحاً أم وقوراً ، هل كان يعاقر الخمرة أو يقامر ، هل كان شرهاً أم عفيفاً ، هل كان حليماً ومستقيماً أم كان ماكراً ومخادعاً .

فجميع هذه الأحوال التي ذكرها المؤلف في كلامه على الشرح لا يمكننا تطبيقها في الأدب العربي القديم بسهولة لجهلنا بالكثير من أحوال رجاله وملامحهم وأخلاقهم . دع أن المؤلف لم يشر في استقصائه لهذه الأحوال

إلى ما يحيط بالكاتب من أحوال العمران كطبيعة المجتمع ، ونظام الحكم ، والعادات ، والتقاليد ، والصراع الاجتماعي ، والأحوال الاقتصادية ، فإنّ لجميع هذه الظواهر تأثيراً في حياة الكاتب وهي وإن كانت لاتكفي لتعليل ما يتميز به الكاتب من القدرة على الابداع إلا أنها تساعد على الكشف عن الظروف الخارجية المحيطة به . أن نسبة قوة الابداع إلى عمل المؤلف كنسبة الروح إلى البدن ، فكما أن تشريح أعضاء البدن لايكفي للكشف عن الروح المحركة له ، كذلك استقصاء التأثيرات المحيطة بالمؤلف لا يكفي لتعليل إبداعه .

٢/٦ — التبويب .

وأما التبويب وهو الدرجة الثانية في سلم النقد فالمقصود به تعيين باب الكتاب المنقود ، أو مؤلفه ، وتحديد مرتبته بين أمثاله . وسبيل التبويب الموازنة ، فهي الدليل الناطق والفاروق الصادق الذي يميز الفاضل والمفضول ولها عند المؤلف قسمان .

آ — الأول موازنة المنقود مع سواه من إنشاء المؤلف نفسه . والغرض منها أن نعلم هل الإنشاء إنشاء المؤلف أم هو إنشاء منتحل ادعاه لنفسه أو نسبه غيره إليه لغرض ما .

ب — والثاني موازنة المنقود مع غيره من شعر ونثر أو تصوير أو غير ذلك مما هو من نوعه لمتفنن آخر أو أكثر ليتضح الفرق للناقد .

ج — وفي سبيل تطبيق هذه الموازنة يقسم المؤلف أبواب الشعر بحسب موضوعاتها اثنى عشر باباً مبتدئاً من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المركب . وهذه الأبواب هي : (١) الحماسة (٢) والحِكَمُ (٣) والعتاب (٤) والزهريات (٥) والغزل والنسيب (٦) والرثاء والتأبين والعزاء

(٨) والمدح والشكران (٨) والهجاء (٩) والوصف (١٠) والقصص (١١) والشعر التمثيلي (١٢) والشعر التخيلي .

وهو يصرح في الفصل الخامس من الجزء الثاني من كتابه بأن تبويب الشعر على هذا النحو الذي ذكره شيء لم يسبقه إليه أحد . ثم يذكر بعد ذلك أنواع الموازنة في كل باب من هذه الأبواب ، فيوازن في باب الحماسة بين سعد بن مالك ، وأبي فراس ، والمتنبي ، ويوازن في باب الحكم بين يزيد بن الحكم الثقفي ، والمتنبي ، والشيخ ناصيف اليازجي ، وفي باب العتاب بين معن بن أوس ، وأبي فراس ، وابن خفاجه الأندلسي والمتنبي والبحتري وفي باب الزهريات بين أبي تمام ، والبحتري ، وابن هاني ، وذي الرياستين وهكذا دواليك . إلا أن موازنته في هذه الأبواب ولا سيما في باب الغزل والنسيب وباب المدح والشكران ، وباب الرثاء والعزاء ، وباب الهجو ، وباب الوصف لاتدل على سلامة ذوقه دائماً . نعم إنه يعلل تقدم المتنبي في وصف المعارك والمواقع الحربية بميله إلى السؤدد والمجد ، ويقدم معن بن أوس في العتاب والبحتري في الزهريات ، والمتنبي في الحكم ، إلا أن موازنته لاتخلو من الأحكام القاسية . كقوله في باب الهجو : « إذا جمع الشاعر في المهجو صفات ليست فيه كانت حاله كحال من أراد تصوير فرس قبيح فصوره حماراً ، وقال : انظروا ما أقبح هذا الفرس ، فيقول الناس : ما أشد حمق هذا الرجل ، ينظر الحمار فيحسبه فرساً ، فيكون بهجائه ذاك قد دعا الناس إلى هجاء نفسه » « الجزء الثاني ، ص ٤٤) .

٣/٦ — الحكم

وأما الحكم وهو الدرجة الأخيرة من سلم النقد فله خمس قواعد ، وهي (آ) فقد المقول والمصنوع (ب) نقد القائل والصانع (ج) نقد المعتدل فيه والمحكي عنه (د) نقد الزمان (ه) نقد المكان .

آ — نقد المقول والمصنوع :

لنقد المقول والمصنوع ثلاثة أقسام ، وهي : الغاية ، والفائدة ، والمحاكاة . أما الغاية فان الكشف عنها يوصل إلى معرفة أسرار النقد ، لأنه لا عمل بلا غاية فغاية المئذنة إيصال الصوت إلى مكان بعيد ، وغاية الحصن الدفاع . وأما الفائدة فهي ما يعود على المؤلف من ربح معنوي أو مادي . والفرق بينها وبين الغاية أن الغاية هي المقدمة ، والفائدة هي النتيجة .

وأما المحاكاة فهي النسج على منوال من تقدمك في الصناعة لرسم منوال جديد يحاكيك فيه غيرك . ومن الأمثلة الدالة على المحاكاة محاكاة أصوات الطبيعة في اللغة وتقليد ما أحكمت الطبيعة صنعه من الأشياء . فانشاء البيت ، وطلي البناء ، ونسج الشباك والخيام ، وزرع الأشجار ، والنقش ، والتصوير على الخشب والحجر ، والرسم ، والتطريز كلها محاكاة للطبيعة في نظامها . وهذا كله يذكرنا بقول (بوالو) : لا شي أجمل من الصدق ، وصدق الشيء مطابقته لنظام الطبيعة . إن هذا النظـام يمنعك كما يقول الحمصي من رسم السمك على الأغصان ، والبركة فوق الشجر . فليس يصح إذن أن تقول إن المحاكاة تحول دون الإبداع والابتكار لأنه إذا كان المراد بالإبداع والابتكار والخواطر العقلية أو المعاني المجازية فهذه لا محاكاة فيها ، وإذا كان المراد بالابتداع والابتكار الاتفاق والاحكام والبراعة وبلوغ غاية التمام فهذه ليس فيها سوى المحاكاة مع زيادة الاتقان والترقي في العمل . وفاته أن المعاني المجازية لا تخلو من المحاكاة ، وأن الموسيقار يجاوز محاكاة الطبيعة إلى إبداع ألحان جديدة لا ينبىء بها تغريد الطير ولا خرير الماء ، ولا حفيف الأغصان ، فإن المتفنن الحقيقي لا يمتاز على غيره بما يضيفه إلى صنعته من دقة وإتقان وبراعة في محاكاة الطبيعة فحسب ، بل يتميز بما يتصف به من روح حي متجدد يطبع الشيء الذي يبتدعه بطابع خاص .

ب — نقد القائل والصانع :

وأما نقد القائل والصانع فله أيضاً ثلاثة أقسام، وهي : معرفة ما يكرره الكاتب من القول ، ومعرفة ميوله وعواطفه ، ومعرفة غرضه .

أما التكرار فيدل على منازع القائل، مثال ذلك أن المعاني التي يكررها عمر بن أبي ربيعة أدل دليل على مباهاته بجماله وتدلله بأصله ومنزلته ، لأن ما يقوله المحبون لمشوقاتهم قد جعله هذا الشاعر في أفواه معشوقاته خطاباً له .

وأما الميول والعواطف فهي كثيراً ما تبعد الكاتب عن الحقيقة وتوقعه في التناقض ، فلا يرى الخير والكمال إلا في ما يحبه ولا يرى الشر والنقص إلا في ما يبغضه كما فعل ابن شداد في كلامه على صلاح الدين الأيوبي في كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

وأما الغرض فهو بالنسبة إلى نقد القائل والصانع كالغاية بالنسبة إلى نقد المقول والمصنوع ، إلا أن الغاية أعم والغرض أخص ، لأن الغاية هي ما تقدمها باعث أو دافع يدفعك إلى العمل بحكم الضرورة ، على حين أن الغرض شوق يحدث لك لعمل الشيء .

ج — نقد المقول فيه :

وأما نقد المقول فيه عاقلاً كان أو غير عاقل فينحصر في المقايسة . والمقايسة نوعان : لفظي ونظري . والمقصود باللفظي أن تكون الألفاظ متناسبة مع المعاني ، وأن تختلف الكتابة باختلاف المواقف والموضوعات . والمقصود بالمعنوي اجتناب التناقض في عرض الأفكار .

د — نقد الزمان :

وأما نقد الزمان فالمقصود به معرفة العصر الذي ظهر فيه التأليف ،

وله أربعة أقسام : أولها التنقيب عن تاريخ الزمن الذي صنع فيه المنقود وثانيها الوقوف على علوم عصر الشيء المنقود وصناعاته ، وثالثها البحث عن نظام الحكم في عصر الشيء المنقود ، ورابعها الاطلاع على آداب ذلك العصر وأخلاق أهله ومعتقداتهم وملابسهم وأزيائهم وسائر أحوالهم في اجتماعاتهم ومجالس سرورهم وأعراسهم ومآتمهم وغير ذلك .

هـ — نقد المكان :

وأما نقد المكان فالمقصود به الاطلاع على البيئة التي عاش فيها المؤلف . وبهذا النقد قاعدتان : (الأولى) هي البحث عن مسقط رأس المتفنن وبيئته (والثانية) هي البحث عن طبيعة هواء تلك البيئة وموقعها الجغرافي . ولتوكيد ذلك كله يشير المؤلف إلى كلام ابن خلدون على تأثير الهواء في أخلاق البشر ، ويقول إن أهل الأقاليم المعتدلة ألطف الناس نفساً ، وأشدهم ميلاً إلى العلوم والصنائع . وإذا كان أبو تمام والبحتري والمتنبي قد بزوا غيرهم من شعراء زمانهم فمرد ذلك إلى طبيعة بلاد الشام التي نشأوا فيها . ولا عجب أن يفيض صاحب « منهل الوراد » في مدح جهابذة بلاد الشام ويطنب في وصف علمائها وهو شامي المحتد ، حلبي الذوق ، اقليمي النزعة .

فأنت ترى أن المؤلف يصيب كبد الحقيقة في نقد الزمان والمكان ، إلا أنه يكرر في هذا النقد ما قاله في الشرط الثاني من درجة الشرح ، وهو بالاضافة إلى ذلك يسهب في ما لا طائل فيه من الأمور ، ويقحم المواقف المصطنعة ويبالغ في تبسيط الأمور حتى يفقدها روعتها وجمالها .

٦/٤ — بت الحكم :

ولا بدّ للناقد بعد ذلك كله من بت الحكم في المنقود ، فإن النقد لا يكون تاماً إلا إذا تضمّن حكماً على قيمة الشيء . لقد أنكر بعضهم ضرورة

بت الحكم في المنقود لاعتقاده أن دقة الفكر توجب التريّث في الحكم والاعتماد على ذكاء القارئ في الاستنتاج . وهذا خطأ لأن من شروط العلم أن يبت العالم حكمه في ما يعرض له من المسائل . وإذا قلنا للمؤلف : ان هذه الأحكام نسبية ، قال : إن نسبيتها لا تمنع كونها مستندة إلى أساس طبيعي ، ولا يمكنك أن تقول إن هذه الأحكام مستندة إلى العادة ، في الأصل مبنية على الغريزة ، وإذا قلنا له كذلك : إننا لا نستطيع التسليم بوجوب بت الحكم في هذه الفنون لأنها ذوقية ، ولا جدال في الذوق ، قال : ليست هذه المسائل من الأمور المستعصية على الناقد إذا كان سليم الذوق ، نافذ البصيرة فما بالك إذا كانت المسائل الفنية خاضعة لأحكام العقل . وإذا قلنا له أخيراً : إن الناس يختلفون في الحكم على شؤون الفن ، وإنهم لو اتفقوا عليها لأضحى الفن علماً رياضياً أو منطقاً عقلياً ، قال إن في أذهان البشر صوراً غائية بالجمال والحق والكمال تقاس بها قيمة أعمالهم وأقوالهم ، وإن اختلفت مظاهرها باختلاف الزمان والمكان . ولولا ذلك لما أمكننا أن نقدر المضمون العقلي والنفسي والاجتماعي للآثار الفنية التي ننتقدها .

ولبت الحكم في نظر المؤلف قاعدتان : (الأولى) هي الترجيح (والثانية) هي التنزيل أما الترجيح فهو التمييز بين الفاضل والمفضول والحسن والأحسن .

وأما التنزيل فهو ترتيب الشيء وتحديد درجته وتعيين طبقة المتفنن ، وهذا لا يكون إلا على وجه التقريب وصيغة التشبيه .

ومعنى ذلك كله أن قسطاكي الحمصي يعتقد أن هناك قيماً عقلية وفنية وخلقية مشتركة بين جميع الناس أو أكثرهم ، ولولا ذلك لما صحّ بت الحكم .

٧ ــ شروط الناقد

يشترط في بت الحكم أن يكون الناقد صادقاً ، مجرداً من الأنانية ، بعيداً عن الهوى . وجماع ذلك كله :

١ ــ أن يكون الناقد خبيراً بما ينقده . فالمتبحر بالرياضيات لا يستطيع أن ينقد كتاباً في التاريخ ، والمتخصص في التاريخ لا يستطيع أن ينقد كتاباً في التشريح . الخ ..

٢ ــ أن يكون الناقد منصفاً في ما يقوله ، لا يغمط إحساناً ولا يموّه إساءة ، ولا يدّعي للمنتقد أشياء ليست فيه ، ولا يبخس المحسن أشياءه .

٣ ــ أن يتجافى عن الغلو في المدح والإطراء عند إبراز الحسنة ، وعن القدح والازراء عند إيراد السيئة .

٤ ــ أن لا يخلط بين ما يرى من صنع الشخص الذي ينتقده ، وما يعلم أو يظن من حالته في خاصة نفسه .

٥ ــ أن لا ينظر إلى ما بينه وبين من ينتقد كلامه من السوابق الشخصية من مودة وموجدة .

فإذا كان الناقد مقلداً أو خاضعاً لهوى النفس ، أو غير خبير بما ينقده ، ولم يوازن بين ما ينقده وما هو من نوعه ، ولم يكن على بينة من أمره في التفريق بين الصحيح والفاسد فإنّه في هذه الأحوال كلها يعد متعسفاً في حكمه متخبطاً في نقده . ولما كان من شرط الناقد أن يكون من مرتبة المنقود كان من الواجب عليه عند نشر انتقاده في مجلة أو كتاب أن يذيله بتوقيعه لمعرفة نسبته إلى المنقود ، لأن التصريح باسمه يوجب عليه التثبت في ما ينقده ويحمله على الوقوف عند حده ، فلا يجسر على التعرض لمن هو

أعلى منه قدراً ، وأوسع علماً ، وأرفع منزلة . أضف إلى ذلك أنه ينبغي للناقد أن لايخرج في نقده عن موضوع الكلام على الشيء المنقود ، وأن لا يقدم على الانتقاد إلا بعد أن يطلب من نفسه ما يطلبه من الناس .

٨ — فوائد النقد

للنقد في نظر قسطاكي الحمصي ثلاث فوائد ، وهي :

١ — كشف أسرار الكاتب ، والوقوف على أخلاقه وميوله ، والاطلاع على المستور من أحواله .

٢ — منع الفوضى ، ولجم الألسنة عن الهذيان ، وسن شرع قويم لكل كاتب عماده احترام القاري ومكافحة المشعوذين من باعة الكلام ، والقضاء على الدعاية الكاذبة لبعض الآراء التافهة .

٣ — إدراك أوجه الجمال في الكلام .

ومع أن للنقد فوائد كثيرة غير هذه لم يصرح بها المؤلف فان علم الانتقاد في نظره علم طبيعي ذو قواعد ثابتة وفوائد عملية محققة . وإذا كان علم الطبيعيات يقوم على ملاحظة الظواهر الطبيعية لضبط الشروط والأوقات التي تجري فيها ولفصل ما كان جوهرياً منها عما كان عرضياً ، فإن علم الانتقاد يقوم على نقد الآثار الإنسانية عقلية كانت ، أو خلقية ، أو فنية لإرشاد الطالب إلى الطريق الواضح والمنهج المستقيم المؤدي إلى ترقية العلوم وتهذيب الأخلاق وتحقيق الجمال ، فنقد العلم وسيلة للكشف عن الحقيقة ، ونقد الأخلاق وسيلة لتعميم الخير ، ونقد السياسة وسيلة لنشر العدل وتأييد العمران وتشييد أركان الحضارة .

٩ ــ خاتمة

تلك هي قواعد النقد وفوائده ، ووسائله وغاياته ، وهي توجب على الناقد أن يكون ذا روح حي فلا يسلم بصحة قول دون السؤال عن قيمته من ناحية مضمونه وأصالته وصدقه ونسبته إلى غيره لإخراج الزيف منه وغايته هي التقويم أي إبراز المحاسن ، والمساويء ، والمقارنة بينها . وجماع ذلك كله تحديد العلاقة بين الكاتب وإنشائه ، وموازنة الكتاب المنقود مع غيره ، ونقد القول والقائل والمقول فيه ونقد الزمان والمكان ، وبث الحكم .

لا شك أن موضوع هذا الكتاب مبتكر في العربية وإن كان الكتّاب المعاصرون قد طرقوه ، أو طرقوا بعض أجزائه . مثال ذلك قول صاحب المقتطف : « الانتقاد هو النظر في ما يكتبه الكاتب لإظهار مليحه وقبيحه قصد تقديره حق قدره ، وتنبيه الكاتب إلى ما أحسن فيه ليزيده حسناً ويرقيه كمالاً وإلى ما أخطأ فيه ليصححه ، وما قصّر فيه ليكمله »[1] . وقال أيضاً : « الانتقاد فن مداره على الفنون الجميلة خصوصاً وسائر الفنون والعلوم عموماً ، وهو ضروري لترقية علوم البشر ، وفنونهم ، وصناعاتهم ، وعاداتهم ، ونحوها . والغرض منه بيان ما قرب من غاية الجمال والكمال ومدحه وتحسينه حتى يراه كل طالب وما بعد عن تلك الغاية وذمه وتهجينه ليجتنبه الطالب »[2] وقال أيضاً : « وإذا علمت أن للبشر صوراً غائية للجهل والكمال والجلال ليقاس بها جمال أعمالهم وكمال أقوالهم وأفعالهم ، وأن الغرض من الانتقاد حثهم على البلوغ إلى تلك الصور الغائية علمت أن الفائق في الانتقاد فائق

---

(١) راجع مجلة المقتطف ، الجزء الثالث من المجلد الثاني عشر ، سنة ١٨٨٧ ، ص ١٦٢ .
(٢) المصدر نفسه .

في أمرين : قوة التمييز والفكر ، وسمو الصورة الغائية المرتسمة على صفحات ذهنه »(١) . وقال أخيراً : « يجب أن يكون الناقد بصيراً خبيراً ، يتحرى الصدق في القول ، والإخلاص في النية ، منصفاً ، عادلاً ، باحثاً ، منقباً ، قاصراً النظر على ما قيل ، مغضياً عمن قال ، راغباً في إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل لترقية العلوم وإعلاء الآداب والفضائل »(٢) .

وليس في ما قاله صاحب « منهل الوراد » زيادة على ما قاله صاحب المقتطف في التعريف بالنقد وفائدته وبيان ما ينبغي للناقد أن يتقيد به من الشروط في بت الحكم . كلاهما موسوعي النزعة علمي الطريقة كأكثر رجال القرن التاسع عشر الذين يقررون أن صور القيم الإنسانية خاضعة لأحكام العقل . إلاّ أن الأمر الذي يتميز به صاحب كتاب منهل الوراد هو استقصاؤه لقواعد النقد وجمعها في علم واحد أطلق عليه اسم علم الانتقاد . وإذا كان النقاد كما يقول (فلوبر) نحويين في زمن (لاهارب) ومؤرخين في زمن (سنت بوف) فإن صاحب كتاب منهل الوراد يريد منهم أن يكونوا علماء يحلّلون الأثر الفني تحليلاً دقيقاً للكشف عما يستمده من التاريخ والطبيعة وينقدون مضمونه نقداً عقلياً للكشف عما ينطوي عليه من العناصر .

والدليل على ذلك أن أحسن الشعر في نظر المؤلف ما أمكنك حله وقلبه إلى نثر لا يفقده روعته وجماله فإذا فقد روعته بعد الترجمة أو التحليل فاحكم عليه بأنه شعر تافه .

إن سر التأثير رهن بسمو المعاني وجمال الألفاظ معاً ، فكأن للأدب صورة ومادة ، روحاً وجسماً . أما الروح فهي المعاني واتساقها ، وأما الجسم

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر نفسه .

فهو الألفاظ وتراكيبها ، وكما لا يمكنك فصل الروح عن الجسم في الكائنات الحية ، فكذلك لا يمكنك فصل المعنى عن اللفظ في الأدب ، لأن الألفاظ المنفصلة عن المعاني أشباح بلا أرواح . ومع أن للفظ عند قسطاكي الحمصي رمز للمعنى أو وسيلة للتعبير عن الفكرة والعاطفة ، فإنّ هـــذه الوسيلة لا تستمد بلاغتها إلا من كونهــا واضحة الدلالة . فرب وسيلة كانت أقرب إلى تحقيق الغــاية من غيرها ، بل رب وسيلة كانت جميلة وأخرى كانت قبيحة ، ومعنى ذلك كله أنه لا بد في الأدب من الجمع بين الصورة والمادة بين الروح والجسم ، وبين الجوهر والعرض ، فليس يصح إذن تقديم المعنى على اللفظ ولا اللفظ على المعنى ، وإنما يجب الجمع بينهما في وزن واحد من الاتساق . قال قسطاكي الحمصي : « فالكلام إما أن يكون صحيح المعنى فاسد التعبير ، وإما أن يكون صحيح التعبير فاسد المعنى ، وإما أن يكون فاسدهما معاً وصحيحهما معاً » وهذا النوع الأخير من الكلام هو النوع المفضل عنده وإذا كانت المعاني هي المواد الأولية التي يصوغها اللفظ فإن الألفاظ كثيراً ما تنير الرؤى وتوضحها ، وترمز إلى أكثر مما يراه المرء بعينيه ، أو يسمعه بأذنيه ، وتدعوه إلى التفكير في ما يعتقده وراءه ، حتى إذا انتهى من قراءتهــا خيل إليه أنها تعبر عن عالم أوسع من عاله الحقيقي ، وهذا كله يدل على أن وظيفة الألفاظ لا تنحصر في تثبيت المعاني ، بل تشتمل أيضاً على قوة الإيحاء بها .

وبعد فان كتاب « منهل الوراد » لم يحظ في الأدب العربي الحديث بمــا حظي به غيره من العناية ، لا لتقصيره في التعريف بجوانب النقد ، أو لتقصيره في تطبيق قواعده تطبيقاً محكماً ، بل لتسرّع مؤلفه في تشييد بناء شاهق لم تتوافر لديه جميع عناصره . ومع أنه أول كتاب حاول تقييد قواعد النقد بأحكام

العقل فان النقاد الذين جاؤا بعده لم ينهجوا نهجه لإكمال ما قصر فيه . وربما كان لتغلّب الاتجاه الذاتي على الاتجاه الموضوعي في النقد الأدبي الحديث أثر في تغطية مجهود الحمصي بأغطية التغافل ، فان كتابه لم يحظ في زمانه بناقد يبرز محاسنه . وما كتبه هو نفسه عن نفسه في كتابه « أدباء حلب ذوو الأثر » وما كتبه عنه بعد ذلك سامي الكيالي في كتاب الحركة الأدبية في حلب والدكتور محمد زغلول سلام في كتاب النقد العربي الحديث ، أصوله وقضاياه ومناهجه ، والدكتور اسحق موسى الحسيني في كتاب النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين وغيرهم ، كل ذلك لم يكشف عن ميزة هذا الرجل ، وإن أدّى توجيه الأنظار إليه . لقد قال الدكتور إسحق موسى الحسيني في تعليقه على كتاب منهل الوراد :

١ — إن فيه عيوب البداية من فوضى وسطحية واستطراد ونقل وتعميم .

٢ — وانه متأثر بالأفكار الفرنسية كثير النقل عنها .

٣ — وإنه خال من تقسيم الأدب إلى أنواعه الأولية من شعر وقصة وأقصوصة ومسرحية وترجمة ومقال ، وهو المذهب الحديث في النقد .

٤ — وانه نظر إلى النقد من زاوية كبيرة تخلط بين النقد الأدبي ، والنقد العلمي ، والنقد التاريخي ، والنقد الموضوعي .

٥ — وزعم أن للنقد قواعد وأحكاماً قامت على أساس لا يتزعزع ولا يتبدل ولا يقبل التغيير في كل زمان ومكان . وهذا غلوّ ولذا عده علماً ، وما هو بعلم بل هو فن يخضع لتطور الذوق والعصر .

٦ — وله فضل السبق في الأدب الحديث وفيه فوائد لا سيما ما يتعلق بالموازنة بين فنون الشعر .

٧ – وان خير معيار للحكم عليه موازنته بما كتبه أحمد أمين في النقد الأدبي أو بما ترجم عن اللغات الأجنبية ، فهو يبدو بداية أولية تدخل في أواخر القرن التاسع عشر حين كان النقد في أول مراحله في العالم العربي ، ولكنه مع ذلك أول كتاب في الموضوع .

وهذا كله حق ، إلا أن الحكم النهائي على قيمة هذا الكتاب يوجب التفريق بين فن النقد العام من جهة ما هو صناعة نظرية تشمل جميع جوانب النشاط الإنساني ، وبين فن النقد الأدبي من جهة ما هو جانب واحد من جوانب النقد العام . وإذا كان صاحب « منهل الوراد » قد قصّر في النقد الأدبي وأهمل الكثير من جوانبه لجهله بالمذاهب الحديثة في النقد ، فمرد ذلك إلى طموحه في الطلب ، وإلى اعتقاده أنه يستطيع أن يكون فيلسوفاً ، وما هو بفيلسوف . لقد كان النقد عند قدماء الفلاسفة قسماً من المنطق ، وهو النظر في القول أو الفعل لتقدير نسبته إلى الحق والخير والجمال . ومعنى ذلك أن التقديس حكماً فقط ، وإنما هو حكم على حكم . وليس في كتاب « منهل الوراد » ما يدل على أن المؤلف استطاع أن يستوفي قواعد فن النقد العام من جهة ما هو مذهب فلسفي ، أو تحقيق تاريخي ، أو طريقة علمية . فالنقد الفلسفي وسيلة لمعرفة قيمة المعرفة وقيمة الفعل . والنقد التاريخي وسيلة لتمحيص الأخبار ، وتعليل الوقائع ، والنقد العلمي وسيلة للكشف عن قوانين الطبيعة . ومهما يكن من أمر فاننا لا نستطيع أن نطلب من قسطاكي الحمصي ما نطلبه من أحمد أمين وشكري والمازني والعقاد ونعيمة وطه حسين ومحمد مندور وعبد المنعم خفاجي ، ومحمد خلف الله ، وشوقي ضيف وغيرهم ، فقد يغتفر في الابتداء ما لا يغتفر في الانتهاء . وقد يميز الشعر كما قال (ابن رشيق) من لا يقوله ، كالبزاز يميز من الثياب

ما لم ينسجه والصيرفي يميز من الدنانير ما لم يسكبه . ومع ذلك فان قسطاكي الحمصي الناقد شارف الابداع على طريقته ، وإذا قيل إن الناقد أقل إبداعاً من الشاعر والكاتب ، وانه لو استطاع أن يكون مبدعاً لما اختار لنفسه صفة الناقد الذي يكتفي بتحليل آثار غيره ، قلنا إن في هذا القول غمطاً لقيمة النقد ، لأن النقد لا يخلو من الإبداع . وليس كل كاتب بقادر على النقد . ولو أوتي قسطاكي الحمصي من القدرة على التحليل ما تميز به من القدرة على التركيب لشارف الإبداع الأدبي ، وعذره أنه كان أول من حاول في الأدب العربي الحديث إقامة فن النقد على قواعد ثابتة ، ولا يشترط في واضع أسس الفن أن يستوفي جميع مسائله .

جميل صليبا



النظم القرآني

تركيب الآية والجملة في القرآن الكريم

يُعنى الباحثون في الدراسات اللغوية في العصر الحديث بطرائق تركيب الكلام في كل لغة، وتطور هذه الطرائق خلال عصورها المتعاقبة، فيدرسون أساليب اللغة في ربط أجزاء الجملة، وربط الجمل بعضها ببعض، والصلة بينها وبين ما يقابلها من الدلالات والمفاهيم، وارتباط هذه المفاهيم في أذهان أهل اللغة، وهو ما يطلق عليه علماء فقه اللغة الفرنسيون لفظ Syntaxe، ويقابلها في العربية نظم الكلام. وقد استعملها أسلافنا في مثل هذا الموضع للنثر كما استعملوها للشعر. وهذه المباحث موزعة في العربية بين علم النحو والمعاني؛ فبحث تقديم الخبر على المبتدأ وبحث الجمل الشرطية والموصولة (صلة الموصول) ومواطن استعمال صيغة المضارع للماضي والماضي لمستقبل من أبحاث النحو تدخل في هذا الباب، وبحث التقديم والتأخير في علم المعاني والإطناب والإيجاز وأساليبها والقصر وضروب استعمال الاستفهام لأغراض متنوعة، ومواطن الحذف والذكر وغير هذه من الأبحاث تدخل كذلك في باب نظم الكلام. وقد عني النقاد وأهل الفن في هذا العصر كذلك بنظم الكلام وأساليب تركيبه، وكان هدفهم من هذه العناية تلمس الجمال الأدبي في تلك الأساليب وفتشوا عن التراكيب التي تحقق لهم حلاوة النغمة وجمال الجرس أو المقابلة بين أصوات الحروف والمدود في تأليفها، والموضوع الذي تدل عليه وتعبر عنه بحيث يُقابل الجرس القوي والنغمة الشديدة شدة الصورة

أو الفكرة ، والنغمة الناعمة المنسابة والجرس الهادئ ، المشهد الحلو الجميل ، والصورة المحببة ، والفكرة العذبة ، والتأمل الهادئ العميق .

ولا يزال مجال البحث في نظم الكلام وتركيبه في اللغة العربية نظرياً ، واعتباره في النصوص الأدبية خلال العصور رحباً واسعاً لقلة من مالوا إليه وانصرفوا إلى العناية به . وقد جذبني هذا الاعتبار في أثناء دراستي وتدريسي للتفسير الأدبي لكتاب الله العظيم ، وكنت ألاحظها وأقف عندها في قراءتي وتأملي لآياته . وقد ضمنت كتابي (من منهل الأدب الخالد . دراسة أدبية لنصوص من القرآن) بعض هذه الملاحظات في معرض شرح بعض السور والآيات التي شرحتها فيه ، وقد رأيت من المفيد جداً سواء في الدراسات اللغوية أم في الدراسات القرآنية ، إفراد هذا الموضوع بالبحث والانطلاق بعد ذلك للتوسع فيه توسع تعمق بالنسبة إلى القرآن الكريم ، وتوسع امتداد إلى نصوص العربية في مختلف عصورها بعد ذلك . وليسمح لي القارئ أن ألقي بين يديه بداية مختصرة ونماذج يقاس عليها ويضاف إليها .

١ ــ الجملة والآية :

الجملة هي الوحدة الأساسية للكلام عند النحاة . أما الآية فهي الوحدة التي يتألف منها النظم القرآني ولذلك فهي شيء آخر مختلف عن الجملة لأنها ليست وحدة معنوية أو نحوية وإنما هي الوحدة الفنية أو اللبنة التي يتألف من أمثالها صرح هذه المعجزة البيانية الإلهية التي هي القرآن .

ولهذا فقد تكون الآية جملة تامة وقد تكون جزءاً من جملة أي إن الجملة تتألف من عدة آيات وقد تشتمل الآية الواحدة على جمل متعددة .

الأصل أن الآية وحدة ترتيلية أي أن القارىء يقف عند فواصلها إلا في حالات قليلة محدودة لا يجوز فيها الوقف لإخلاله بالمعنى كقوله تعالى « فويل

للمصلين — الذين هم عن صلاتهم ساهون » أو لأن الوصل أحسن وأفضل ، ويقف القارئ في آخر الآية ولو كان الكلام متصلاً والمعنى متسلسلاً إذا لم ينشأ عن هذا الوقف تغيير في المعنى ، وهكذا تكون الآيات فقرات من الكلام يرتلها القارئ ويستريح بعدها قليلا ، ثم يتابع التلاوة ويتصل المعنى في ذهنه وفي ذهن السامع .

(أ) فمن أمثلة الجملة التي تتألف من آيات النماذج التالية :

« فأما من أعطى واتقى ● وصدق بالحسنى ● فسنيسره لليسرى » ثلاث آيات في جملة واحدة .

« وأما من بخل واستغنى ● وكذب بالحسنى ● فسنيسره للعسرى » ثلاث آيات في جملة واحدة .

« إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ● والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ● والذين هم بربهم لا يشركون ● والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ● أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » (المؤمنون ٥٧) وهي تتألف كما ترى من خمس آيات والمبتدأ في الآية الأولى والخبر في الخامسة .

فالآية هنا جزء من جملة ولا يتم المعنى إلا في عدة آيات ، وإن كان القارئ يقف في آخر كل آية وقفة استراحة أو وقفة ترتيل لا وقفة انتهاء المعنى .

(ب) وقد تكون الآية جملة تامة مستقلة كقوله تعالى : وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » .

وكقوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعاً شدادا ، وجعلنا سراجاً وهّاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » وإن كانت هذه الجمل أو الآيات تتتابع وتتعاطف .

(ح) وقد تتألف الآية الواحدة من عدة جمل متعاطفة أو متداخلة بحيث تؤلف تركيباً بنائياً لا تقبل أجزاؤه الانفكاك ، وستأتي نماذج من هذا النوع في خلال الكلام على الآيات الطويلة ، ومن هذا النوع قوله تعالى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (الحجرات ١٣) .

وقوله « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (آل عمران ١٠٤) وبعض الآيات طويلة جداً وقد تجاوزت عشرين جملة في آية الدين في آخر سورة البقرة عدا الجمل الفرعية التي تضمنتها .

طبيعة الآية وخصائصها :

ومما تقدم يتبين أن تقسيم الكلام القرآني إلى آيات هو غير تقسيم الكلام إلى جمل ، فالآية هي جزء من الكلام يستقل من حيث الترتيل لا من حيث المعنى فهي وحدة ترتيلية فنية . وهي تقابل الشطر أو البيت في الشعر ، مع أن القرآن ليس بشعر ، ولا يقابلها أي شيء في النثر . ولا علاقة لها بالسجع والكلام المسجوع كما سيتبين معنا في الكلام عن نغمة الكلام في القرآن وجمال الترتيل والموسيقى . ويجدر بنا لنعرف تنوع موسيقى القرآن ونغمته بتنوع الأفكار والمعاني أن ندرس تركيب الآية وأنواعها من حيث التركيب .

تركيب الآيات :

قد تكون الآية كلمة واحدة وأكثر ما تكون كذلك في أوائل بعض السور للإثارة ولفت النظر والمباغتة ، وذلك مثل قوله (الحاقة) و (القارعة) (والطور) . وقد تتألف من كلمتين كالآيات الثلاث من سورة الطور هذه (وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور) وكذلك هذه السورة الأخرى التي تبتدىء بكلمة واحدة ثم تتتابع السورة كلمتين كلمتين ثم ثلاث كلمات ثم أربعاً ثم خمساً وهي سورة الرحمن :

« الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألاّ تطغَوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

وتركيب الآية القرآنية مرتبط بتركيب الجمل ولذلك كان من الضروري دراسة الجملة القرآنية وأنواعها من حيث التركيب والتأليف وهو ما سنفعله في بحثنا هذا :

في القرآن الكريم أنواع كثيرة من التراكيب تتدرج من الجملة البسيطة القصيرة التي تقتصر على أبسط عناصرها إلى الجملة المركبة الطويلة المؤلفة من عناصر متعددة بينها ترابط وتشابك ، ونقدم نماذج من هـــذه الأنواع فيما يلي :

١ ـ الجملة البسيطة القصيرة :

ومن هذا النوع قوله تعالى في سورة النجم : « وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى . وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى . وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى » .

وكذلك قوله تعالى في سورة الشعراء :

« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدوّ لي إلا ربَّ العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ... » .

فالمتأمل لهذه الآيات يجد أنها مؤلفة من جمل قصيرة مقتصرة على عناصرها الأساسية من الفعل والفاعل والمفعول به أو المجرور من غير تعدد هذه العناصر ، مع مراعاة التناسق وجمال النغمة .

٢ ـ الجملة البسيطة الطويلة :

ويتألف هذا النوع من الجمل من جمل قصيرة بسيطة متصلة مرتبط بعضها ببعض بالعطف أو غيره ، كأن تصل بينها لام التعليل ، أو تكون الثانية نعتاً للسابقة أو لجزء منها وهذه نماذج من هذا النوع :

قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه / إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدو إلا الله / إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه / ما نراك إلا بشراً مثلنا / وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي / وما نرى لكم علينا من فضل / بل نظنكم كاذبين . » (سورة هود) هذه آيات ثلاث كل آية منها تتألف من عدة جمل قصيرة بسيطة يتصل بعضها ببعض فيتألف منها جملة طويلة ، ولكنها بسيطة التركيب غير متداخلة العناصر . ومثلها قوله تعالى في السورة نفسها :

« ويصْنَع الفلك / وكلَّما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه / قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . »

وفي سورة فصلت : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه / وفي آذاننا وقر / ومن بيننا وبينك حجاب / فاعمل إنا عاملون . »

ومثلها قوله تعالى في سورة النحل « وهو الذي سخر البحر / لتأكلوا منه لحماً طريا / وتستخرجوا منه حلية تلبسونها / وترى الفلك مواخر فيه / ولتبتغوا من فضله / ولعلكم تشكرون » .

وهذا النوع من الآيات التي تتألف كل آية منها من جملة طويلة ولكنها ذات فقرات قصيرة ، أو بتعبير آخر ينشأ طولها من اتصال جمل قصيرة بسيطة ، إن هذا النوع كثير في القرآن وله نغمته الخاصة وطابعه الخاص ، وهذه أيضاً نماذج من هذا النوع نفسه :

« أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب / تجري من تحتها الأنهار / له فيه من كل الثمرات / وأصابه الكبر / وله ذرية ضعفاء / فأصابها إعصار / فيه نار / فاحترقت / كذلك يبين الله لكم الآيات / لعلكم تتفكرون . » البقرة ٢٦٦ .

« الله نور السماوات والأرض / مثل نوره كمشكاة فيها مصباح / المصباح في زجاجة / الزجاجة كأنها كوكب دري / يوقد من شجرة مباركة / زيتونة لا شرقية ولا غربية / يكاد زيتها يضيء / ولو لم تمسسه نار / نور على نور / يهدي الله لنوره من يشاء / ويضرب الله الأمثال للناس / والله بكل شيء عليم .

٣ ــ الجملة الطويلة المسلسلة :

بعض الآيات القرآنية تتألف من جمل مترابطة مسلسلة تتصل أجزاؤها وجملها الصغيرة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً ، فلا يمكنك أن تقطعها إلى جمل منفصلة مستقلة ، والترابط بينها أشد من مجرد العطف ، وليس هو مجرد التصاق وتعاقب ، وذلك كآية الدين في آخر سورة البقرة وهي قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً ، أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه

بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء . . . . . . (سورة البقرة)

وتستمر الآية هكذا متسلسلة متصلة حتى تبلغ صفحة كاملة ، أو خمسة عشر سطرا ، ويلاحظ فيها اتصال المعاني من غير تشابك أو تداخل بين عناصر الجمل ، ومثلها قوله تعالى في سورة الحج : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

فهذه آية واحدة وفكرة واحدة متسلسلة المعاني وتنتهي بشاهد أو مثل ، وكذلك تركيبها ونظم الكلام فيها فهو يشتمل على النداء والشرط والتعليل والعطف .

٤ — الجملة الطويلة المركبة :

وهي تختلف عن النوع السابق بأنه لا يمكن تقسيمها إلى فقر منفصلة لأنها متشابكة العناصر لا ينفصل أولها عن آخرها ، ولا يفهم معناها إلا إذا قرئت كلها جملة واحدة فقد يكون المبتدأ في أولها والخبر في آخرها أو العكس مع تعدد العناصر المعطوف بعضها على بعض كقوله تعالى :

« إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابّة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . » سورة البقرة .

فقد جاء الخبر المقدم في أول الآية والمبتدأ في آخرهـا ، وبينها كلام طويل تضمن عنـاصر متعددة : خلق السموات والأرض ، اختلاف الليل والنهار ، الفلك التي تجري في البحر . . .

وهذه العناصر نفسها يتألف كل منها من مضاف ومضاف إليه ، والمضاف إليه نفسه متعدد أيضاً أو يتألف من اسم موصول مع جملة هي صلته تعطف عليها جمل أخرى .

ومن هذا النوع جمل أو آيات تتألف من شرط وجوابه وتتعدد فيها العناصر كذلك كقوله تعالى :

« قل إن كان آباؤكم و أبنـاؤكم و إخوانكم و أزواجكم وعشيرتكم ، و أموال اقترفتموها و تجارة تخشون كسادها ، و مسـاكن ترضونها ، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهـاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة) فهذه الآية تتألف من جملة طويلة مذيلة بجملة كما يلي :

١ — جملة قل مع مقول القول المذيلة في آخرها بجملة والله لا يهدي القوم الفاسقين .

٢ — مقول القول يتألف من جملة شرطية .

٣ — الجملة الشرطية يتألف فيها الشرط من جملة كان واسمها وخبرها .

٤ — اسم كان (المسند إليه) يتألف من ثمانية عناصر أو أسماء معطوف بعضها على بعض ، خمسة منها مفردة وثلاثة موصوفة بجمل .

٥ — خبر كان اسم تفضيل متبوع بثلاثة أسماء : أحب إليكم من . . . .

٦ — جواب الشرط (فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) يتألف من جملتين

٧ — وأخيراً جملة تذييلية منفصلة مناسبة لفكرة الجملة المذيَّلة .

ومن نماذج هذا النوع من الآيات ما اشتمل على اعتراض أو جملة اعتراضية قد يقصر كقوله تعالى :

« وإذا بدلنا آية مكان آية — والله أعلم بما ينزل — قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون . »

وقد يطول كثيراً حتى لا يكاد القارئ يفهم جملة المعنى إلا بعد التأمل المتمهل وقد يكون ذلك في عدة آيات تتألف منها جملة واحدة وفكرة واحدة ، تتخللها جمل اعتراضية تطول أيضا ، وإليك هذا النموذج النادر في قوله تعالى والكلام عن بني إسرائيل :

فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ● وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ● وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله — وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ● بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما ● وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا — ● فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ● وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما ● (النساء ١٥٦)

وأصل الكلام : حرمنا على الذين هادوا (اليهود) طيبات أحلت لهم بسبب نقضهم الميثاق وكفرهم ... وقتلهم الأنبياء ... وقولهم ... وكفرهم وقولهم على مريم ... وقولهم إنا قتلنا المسيح — وهنا يأتي كلا معترض طويل في ثلاث آيات « وبظلمهم وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس » .. وسنعود إلى الكلام عن هذا النوع الفريد الذي يلفت نظر الباحث اللغوي ويسترعي اهتمامه ويثير تطلعه .

ويتصل بموضوع أنواع الجمل وطرائق تركيب الكلام الذي تتألف منه الآيات القرآنية موضوع الترتيب ، أي ترتيب عناصر الكلام وأجزاء الجملة تقديماً وتأخيراً ، وموضوع طريقة صوغ الكلام وتركيبه في القرآن الكريم ، وسنتناول هذين الموضوعين بإيراد بعض الملاحظات بإيجاز .

الترتيب :

لقد بحث علماء البلاغة في علم المعاني موضوع التقديم والتأخير والأسباب الدافعة إلى ذلك سواء أكانت معنوية ، أي لاعتبارات تعود إلى المعنى كالتشويق أو العناية والإشادة ، أو القصر والحصر ، أم فنية تعود إلى جمال الصياغة وحسن الجرس وحلاوة النغم ، وإليك نماذج من الآيات التي حصل فيها تقديم وتأخير يخالف الترتيب النحوي المعهود ، ولاحظ ما يكسب ذلك الكلام من ناحية المعنى أو من ناحية جمال اللفظ :

« قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون » والأصل أن تقول : قل أيها الجاهلون أتأمروني أن أعبد غير الله .

« ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وقد تأخر الفاعل في الجملة إلى آخرها .

« ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » وقد أخر الفعل إلى آخر الجملة ، وكثيراً ما يكسب الترتيب الكلام حلاوة في النغم بالاضافة إلى ما يفيده من معان أخرى ، كالاهتمام أو المفاجأة أو التشويق ، ويظهر ذلك واضحاً في الآيات التالية :

« واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا » وهو اوقع وأقوى تأثيراً في نفس السامع من قولنا فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة ، وكذلك قوله تعالى :

« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » بدلاً من ناظرة إلى ربها .
وقوله : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » بدلاً من ثم صلوه الجحيم .
وقوله : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » .

الصياغة والتركيب :

إن المعنى الواحد يمكن أن يؤدى في اللغات الراقية في صيغ متعددة ويمكن أن يؤلف الكلام في صور شتى تختلف في تراكيبها وأساليب تأليفها وكثيراً ما يعدل عن الطريق المألوفة في التركيب المعتـــاد والتأليف المعهود لأهداف فنية ومقاصد بلاغية ، وهذه نماذج من آيات الكتاب الكريم يلاحظ فيها جمال التركيب غير المألوف : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » .

والتركيب النحوي المادي يقتضي أن تقول : وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت فجـاء في الآية (القواعد من البيت) بدلاً من قواعد البيت وفرق بين إبراهيم وإسماعيل لينتهي الكلام بلفظ إسماعيل ، وتتوازن أجزاء الكلام من حيث الجرس والنغمة .

وكذلك قوله تعالى « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فصيغ الجزء الأول من الكلام (الخوف) صياغة اسمية ، والجزء الثاني (الحزن) صياغة فعلية ، ولو صيغ كلاهما صياغة اسمية (لا حزن عليهم ولا خوف) أو صياغة فعلية (لا يخافون ولا يحزنون) لما كان للكلام هذا الوقع الجميل .

واستمع إلى قوله تعالى :

« ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » .

وقوله « كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا » .

فكلا الآيتين تفيد نفي السمع والإبصار عنهم ولكن المعنى صيغ في صياغة أجمل وأوقع من قولنا (لا يسمعون ولا يبصرون) مع تنوع الصيـاغة في

الآيتين . ومن التراكيب التي تلفت النظر في القرآن الكريم تكرار أول الآية حينما يطول الكلام ، كقوله تعالى « إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » .

ولو أنك قرأت الآية من غير هذا التكرار للفظ (رأيتهم) لشعرت بالفرق الكبير بين جمال نغمة الآية وقوة تعبيرها عن المعنى وضعف الجملة بعد الحذف .

ومثلها قوله تعالى :

« إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » وقوله « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

وقد عني علماء البلاغة في علم المعاني بالبحث عن كثير من طرائق تأليف الكلام وتركيبه فبحثوا في أساليب الإطناب وهو تفصيل الكلام ، وأساليب الإيجاز ، وفي التقديم والتأخير ، ولكننا نرى أن المجال لا يزال واسعاً أمام من يريد البحث في أساليب النظم القرآني بحثاً مستقلاً .

فوائد البحث في أنواع الجمل وأساليب التركيب في الآيات القرآنية :

إن ما قدمناه من الكلام في تصنيف الآيات والجمل القرآنية وما يتبع ذلك من البحث في الترتيب والتركيب له فوائد عديدة . (فمنها) فائدة تعليمية وذلك أنه يمكن أن يتدرج المتعلم للغة العربية وللقرآن نفسه من الجمل القصيرة البسيطة ثم يرتقي إلى الآيات المؤلفة من جمل طويلة بسيطة التركيب متوالية الفقرات ثم ينتهي بالآيات الطويلة المركبة . (ومنها) ما تقدمه هذه

الدراسة من كسب لفقه اللغة الذي تدرس فيه تراكيب الكلام واختلافها باختلاف العصور وعقليات الأمم . ولا بد ههنا أن تلفت نظر الباحث ظاهرة غريبة ذلك أن الجمل الطويلة المركبة في القرآن قد تطول حتى تبلغ أحياناً مقدار صفحة من كتاب ، وتتركب أجزاؤها في تركيب مرصوص محكم مترابط لا يقبل الفصل ولا التقسيم ولا التجزئة ، لتعبر عن فكرة متعددة الجوانب كثيرة العناصر ، بين جوانبها هذه صلات وبين عناصرها روابط . هذا النوع من الجمل لا نجد له نظيراً في نثر اللغة العربية قبل عصر القرآن بل ولا في عصر القرآن نفسه فلا نجد مثله في رسائل النبي ﷺ ولا في رسائل الخلفاء والصحابة وخطبهم ولا في عصر بني أمية ، ولا نكاد نجد أمثال هذه التراكيب إلا في عصور متأخرة من عصور العربية ، وهي العصور التي ارتقى فيها الفكر وبلغ درجة عالية من القدرة على التركيب بين المفاهيم والعناصر ، وهذه من خصائص القرآن المميزة التي تفسح المجال للتأمل والتفكير وتجعل القرآن نسيج وحده في تاريخ النثر العربي ، وتجعله خارجاً عن مراحل التطور وعوامله .

وهناك أخيراً فائدة فنية لدراسة أنواع الجمل وأساليب التركيب وألوان الصيغ فهي منبع خصب للجمال الفني سواء فيما تقدمه من ألوان معنوية أم من موسيقى توارف الفكرة وتتعاون معها بتوافق وانسجام . ونحب أن نختم بحثنا هذا بعرض موجز للجانب الموسيقي من النظم القرآني .

النغم والموسيقى :

يشعر قارىء القرآن شعوراً طبيعياً بدافع قوي يدفعه إلى ترتيله ترتيلاً صوتياً له نغماته في كل كلمة من كلماته بل في تتابع حروفه ، وحلاوة النغمة في الكتاب العزيز تتخلل الآية في جميع أجزائها وحروفها ، ولا تقتصر على

الوقوف عند الفاصلة في آخر الآية التي تقابل السجع ، وإليك بعض خصائص هذه الموسيقى القرآنية :

١ — فقد تكون ضرباً من الإثارة وأداة للتنبيه والمفاجأة ، وخاصة في العهد المكي الأول حين كان العربي سادراً في غلوائه غير مستعد للاصغاء إلى الدعوة الجديدة ، ومن أمثلة ذلك مقدمة سورة الحاقة :

الحاقّة . ما الحاقّة ؟ وما أدراك ما الحاقّة ؟

وكذلك : القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟

ثلاث موجات متعاقبة تكبر وتتسع متصاعدة في طولهـــا ومدودها . وتتصف كل واحدة منها بالشدة والمد في وسطها ويتمدد ذلك ويتكاثر في الثانية والثالثة .

ويتناسب ذلك مع هول الموضوع الذي هو (يوم القيامة) ومع هذه الاستفهامات المتوالية المشوقة لمعرفة الجواب .

٢ — وقد تكون تصويراً صوتياً موازياً ومقارناً للتصوير التعبيري وذلك في مثل مقدمة سورة العاديات ، فهي وصف للخيل التي تعدو في غارة صباحية حتى تصل إلى هدفها ، فاستمع إلى هذه الفقرات المتقطعة تقطع مسير الخيل المتساوية في أجزائها :

« والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا » .

الآيات الثلاث الأولى قصيرة سريعة متساوية في الطول وفي الوزن والنغمة وتتألف كل واحدة منها من الكلمة الأولى المشتملة على مدّين والثانية لا مد إلا في آخرها ، وفي كل منها تصوير لارتفاع الخيل ثم هبوطها واصطدامها بالأرض ، وتأتي الآيتان الأخيرتان لتصورا بانعدام المدّ فيها وتوالي الحركات سرعة جري الخيل وتتابع حركاتها حتى تصل إلى هدفها (فوسطن به جمعا) .

٣ – والمهم في النغمات القرآنية تناسبها مع الموضوع والفكرة شدة ولينا وسرعة وبطأ .

فإذا كان الموضوع حديثاً عن يوم القيامة وهولها وتعاقب أحداثها قصرت الآيات وكثرت فيها الحروف ذات الشدة والصليل وقلت المدود أو فقدت كقوله تعالى :

« فإذا بَرِق البصر . وخَسَف القمر . وجُمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » (سورة القيامة)

وإذا كان الكلام دعاء جاءت المدود التي تكسب النغمة هدوءاً وطولا وتصور التأمل العميق ونداء المستغيث كقوله تعالى :

« ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذابَ النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » (آل عمران ١٩١) .

واستمع إلى قول من استحق بعد الحساب دخول النار إذ يعبر عن حسرته ويتأوه :

« وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » .

ثم انظر كيف تتغير النغمة وتأتي حروف الواو لتصور دفعه إلى جهنم دفعا ثم كيف تطول الآية والنغمة في آخرها حين تلتف حوله سلسلة طويلة من سلاسل جهنم :

« خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلّوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » . « الحاقة »

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً .

٤ — تنوع نغمات الآيات طولاً ووزناً وفاصلة (قافية) :

فقد تتماثل وتتساوى الآيتان مثل قوله تعالى « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » .

وقد يكون التوازن مع اختلاف الفاصلة كقوله تعالى :

« آتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم » .

وكقوله : « نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة » (الغاشية)

وقد تتوالى الآيات كموجات متساوية متتابعة كقوله تعالى :

« في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود » .

وقوله : « إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا . . . » (التكوير) .

وقد تتصاعد الموجات وتتسع وتطول في تتابعها كقوله تعالى :

« والضحى . والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى » .

« الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » .

وقد تتنوع الموجات طولاً وقصـــرا وتتفق فاصلةً (قافية) وتختلف فيتألف من مجموعها قطعة رائعة فاستمع إلى قوله تعالى :

« والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين . »

٥ — والنظم القرآني بالجملة نظم يبدو فيه الجمال الموسيقي أو حلاوة النغمة وليست القضية أبداً قضية نثر مسجوع ، إذ شتان بين السجع والموسيقى ، فموسيقى القرآن داخلية تتخلل الكلام كله ، وتنتظم جميع أجزائه ، كلماته وحروفه ، مع مراعاة التناسب بين نوع النغمة وصفاتها ، والفكرة أو الموضوع أو المشهد الذي تعبر عنه الآيات . واقرأ إذا شئت لتشعر نفسك بهذه الموسيقى الداخلية أي جزء من الكتاب الكريم ، إقرأ إذا شئت هذه الآيات : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . » (الإسراء)

ولو قرأت حتى آيات التشريع والأحكام لوجدتها متصفة بهذه الخاصة الموسيقية ، ولعل جمال النغمة هو السبب في العدول في كثير من الآيات عن طرائق التركيب والتأليف المعتادة إلى صياغة خاصة في الكلام ، ولو رجعت إلى الآيات التي استشهدنا بها آنفاً في طرائق التركيب لوجدت صدق هذه الملاحظة .

ولعل الباحثين في اللغة والمشتغلين بالأدب وفنونه وأساليبه يتوسعون ويتعمقون كلٌّ في اختصاصه في دراسة النظم القرآني ليقدموا للأجيال القادمة ما يمكنهم من تذوق لغة القرآن وفنه ، وما يجعل صلتهم بالعربية أعمق وشعورهم بجمالها أدق وأرهف ، وليؤدوا لكتاب الانسانية الخالد بعض حقه .

محمد المبارك

المجمعيّون

في خمسين عاماً

عندما فجّرت عوامل النهضة الحديثة ، في مطلع هذا القرن ، ينابيع الثورة العربية الكبرى ، وقامت على إثر جلاء الترك عن سورية ، **أول حكومة عربية** فيها ، انصرفت جهود هذه الحكومة ، إلى **العناية بالعربية** ، لغة دواوين ولغة تعليم ، بعد أن أهملتها العهود السابقة ، فشاب الكتابة بها الركيك والعامي ، وأفسد مفرداتها الدخيل والأعجمي .

وأخذت الحكومة العربية تختار من موظفيها المشهود لهم بالكتابة ، والموثوق بقدرتهم على **حمل عبء النهوض بالعربية من كبوتها** ، والعمل على سلامتها مما أفسدها ، والسعي لنشر ما تحتاجه مرافق الدولة الحديثة ، التي أقامها العرب في سورية بعد ضياع طالت عصوره وخبا فيه **نور كانت دمشق** مصدر إشعاعه .

لقد كان في طليعة أعمال الحكومة العربية المؤقتة التي تألفت في دمشق ، بعد أن دخلها الجيش العربي في نهاية شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨ للميلاد ،

إقامة هيئة أطلقت عليها اسم [**الشعبة الأولى للترجمة والتأليف**] وعهدت بها إلى نخبة من موظفيها المتمكنين من العربية أو القادرين على الترجمة إليها من اللغات الأجنبية ، موكلة إليهم تحقيق الأغراض المشار إليها آنفا ، ثم قامت بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) سنة **١٩١٩** بإعادة النظر في تكوين الشعبة المذكورة واختارت **الأستاذ محمد كرد علي** رئيساً لها وأطلقت عليها اسم [**ديوان المعارف**] موكلة إلى هذا الديوان النظر في شؤون المعارف عامة ، والعمل على تأسيس دار تجمع مختلف الآثار القديمة ، وإقامة دور تضم مكتبات عامة تفتح أبوابها للجماهير ، مع بذل العناية من أجل توسيع دار الكتب الظاهرية في دمشق .

وأخذ [**ديوان المعارف**] يعمل على تحقيق الغايات التي كلف بها ، ولكن لم تمض بضعة أشهر على عمله ، إلا ووجد نفسه وسط خضم متشعب الجنبات ، فقد اتسعت أعماله سعة متناهية بإقبال الناس على طلب العلم ، وبالحافهم على الحكومة من أجل الإكثار من فتح المدارس ، إضافة إلى ازدياد حركة التأليف والترجمة والنشر بدافع الظمأ العام إلى المعرفة . مما جعل الحكومة ، رغبة منها في حصر جهود رجال [**ديوان المعارف**] بخدمة اللغة ونشر التراث العربي وتأريخ النهضة العربية الحديثة ، أغراضها الأولى من إنشائه ، تجنح بتاريخ ٨ حزيران (يونيو) سنة **١٩١٩** م إلى تجزئة [**ديوان المعارف**] إلى فرعين هما :

١ — ديوان يختص بأعمال المعارف العامة وشؤون التعليم ، على أن يظل يحمل اسم [**ديوان المعارف**] ، وقد كان هذا الديوان نواة للوزارة التي حملت فيما بعد اسمه .

٢ — ديوان يختص بشؤون اللغة وإدارة المكتبات العامة وحفظ الآثار القديمة ، على أن يحمل اسم [**المجمع العلمي « آقاده مي »**] .

وعقد أعضاء [**المجمع العلمي العربي**] المعينون برياسة الأستاذ محمد كردعلي، جلستهم الأولى في (**المدرسة العادلية الكبرى بدمشق**) مقر مجمع اللغة العربية إلى اليوم، بعد أن بذلوا جهداً كبيراً في سبيل إعادتها إلى طرزها القديم الذي بناها عليه الملك العادل شقيق الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وكانت تلك الجلسة بتاريخ ٣ ذي القعدة سنة ١٣٣٧ هـ الموافق ٣٠ **تموز (يوليو) سنة ١٩١٩ م**، وحضرها الأعضاء الثمانية التالية اسماؤهم :

١ — الأستاذ **الرئيس محمد كرد علي**
٢ — الشيخ **أمين سويد**
٣ — الأستاذ **أنيس سلوم**
٤ — الشيخ **سعيد الكرمي**
٥ — الشيخ **عبد القادر المغربي**
٦ — الأستاذ **عز الدين علم الدين**
٧ — الأستاذ **عيسى اسكندر المعلوف**
٨ — الأستاذ **متري قندلفت**

وأجمع الأعضاء الثمانية على ضم الشيخ **طاهر الجزائري** إليهم عضواً عاملاً، وضم كل من الأستاذ **رشيد بقدونس**، والأستاذ **سليم عنحوري**، والشيخ **عبد القادر المبارك**، والأستاذ **فارس الخوري**، والأستاذ **مرشد خاطر** أعضاء شرف لمؤازرة العاملين في جهودهم، إلى جانب عدد آخر من العلماء المرموقين يومئذ، ممن حالت ظروف مختلفة دون اشتراكهم الفعلي في الشؤون المجمعية، بينما شارك أولئك المؤازرون العاملين في تحقيق أغراض المجمع دون أي تعويض أو مكافأة.

وابتدأ المجمع العلمي العربي خطواته نحو تحقيق الأغراض التي أنشىء من أجلها، يشتري الكتب أو يستهديها لتزويد دار الكتب الظاهرية بها، كما

أخذ يشرف على تأليف الكتب أو ترجمتها ، ويعمل على تهذيب لغة الدواوين ، وذلك بوضع المفردات والمصطلحات الإدارية والفنية لتحل محل الألفاظ الأعجمية التي كانت شائعة بين الموظفين وفي المراسلات الحكومية ، كما أخذ يضع المصطلحات العربية في العلوم الحديثة لمساعدة المؤلفين في تأليف الكتب المدرسية أو ترجمتها ، وأخذ أعضاؤه يبذلون جهودهم في التنبيه إلى أغلاط أرباب الأقلام والعمل على تصحيحها كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

غير أن الظروف السياسية القاسية التي كانت الحكومة العربية في سورية تمر بها في أوائل عهدها ، أوقعتها في ضائقة مالية شديدة ، واضطرت معها في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ م إلى الأمر بصرف رئيس المجمع وخمسة من أعضائه من وظائفهم ، توفيراً لرواتبهم ، مكتفية بعضوين إداريين للقيام بالإشراف على داري الكتب والآثار ، ولكن لم تمض على هذا الأمر سنة ، إلا وعهد بتاريخ ٧ إيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٠ م ، إلى الأستاذ **الرئيس محمد كرد علي بوزارة المعارف** فأعاد الحياة والنشاط إلى المجمع العلمي مبتدئاً باعادة عضوين آخرين إليه والقيام برياسة جلساته ، ومن هذا التاريخ أخذت جلسات المجمع تعقد بانتظام كسابق عهدها بعد إعادة القدامى من أعضائه إليه ، وضم نخبة جديدة من العلماء العاملين .

وعاد المجمع العلمي العربي يسير بخطوات حثيثة بجهود رئيسه المظم ، الذي كان يدعمه بنفوذه الأدبي العميق وبسلطات الحكومة ، كلما انيطت به شؤون المعارف في البلاد ، يتولاها مديراً عاماً أو وزيراً ، على اختلاف التسمية التي كانت الظروف السياسية تمليها على الحكومة في سورية بعد احتلال فرنسة لها منتدبة عليها من قبل عصبة الأمم ، وكان أعضاء المجمع لا يدخرون وسعاً في السعي ، عاملين ومتآزرين ، نحو تحقيق الخطة التى

اتفقوا عليها لإعلاء شأن العربية، ودراسة أوضاعها ، ونشر آدابها ، وإحياء تراثها ، وتعريب ما يحتـــاج إليه طلاب المعرفة من كتب العلوم والصناعات والفنون المختلفة ، مع وضع المصطلحات التي تنقصها ، إلى جانب العناية بجمع المخطوطات العربية والآثار القديمة ، من تماثيل وأدوات وأوانٍ ونقود وكتابات تاريخية ، وما زالت **مجلة المجمع** هذه التي ابتدئ بنشرها في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٣٩ هـ الموافق لشهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢١ م ، خير شاهد على ما كان يبذله أعضاء المجمع الأعلام من جهود تذكر لهم بعداد الشكر والتقدير .

ولم تمض عشر سنوات على تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق ، إلا وأصبحت هذه المؤسسة ، الفريدة من نوعها في العالم العربي ، صرحاً شامخاً يتطلع إليه من الآفاق البعيدة ، ملأ اسمه أسماع الناس من عرب ومستشرقين ، وذاع صيته في أرجاء الدنيا العربية وفي ندوات أهل الفكر ومحـافلهم في مختلف بلاد العالم ، وكل ذلك بفضل جهود **الأستاذ الرئيس محمد كرد علي** وما عرف عنه من همة عالية وحيوية فائقة وبفضل الصلات التي أحكمها مع أكابر العلمـاء وأهل الفكر من مختلف الأمم والشعوب ، وبفضل أولئك الأعلام من زملائه أعضاء المجمع المؤسسين ، والطيبين الأخيار الذين اختيروا ليحلوا محل الراحلين منهم ، أو ليتبوأوا المقاعد التي أحدثها القانون ليبقى عددهم عشرين على مرّ الزمان .

وإذا كان حلول سنة ١٩٦٩ للميلاد يجعل مؤسسة المجمع العلمي العربي تجتاز **خمسين عاماً** من حياتها ، وهي دائبة في عملها في خدمة العربية أمّ اللغات ، فخير ما أقدم لها في **عيدها الذهبي** هذا ، بعد أن شرفتني بانتخابي عضواً عاملاً فيها ، هو مجموعة تراجم موجزة لأولئك الأعلام الذين

حملوا مشعل النهضة العلمية في العصر الحديث ، وأضاؤوا به طريق المجد وسبيل الحضارة والعرفان ، بانين للأمة العربية صرح مجمعها الأول ، **مجمع اللغة العربية بدمشق** .

لقد بلغ عدد الموظفين والعاملين من أعضاء المجمع العلمي ، الذين تعاقبوا على كراسيه العشرين منذ تأسيسه حتى نهاية عام ١٩٦٨ م **خمسة وأربعين عضواً** ، كما بلغ عدد أعضائه المؤازرين والمراسلين **ثلاثة وتسعين ومئة عضو** ، رحم الله من انتقل منهم إلى دار الخلود ، ومدَّ في عمر الأحياء الباقين على العهد في خدمة العربية ، وزاد الناس نفعاً بهم .

ولقد فكرت في خير السبل التي يجب انتهاجها لتحقيق فكرة جمع تراجم أولئك العلماء الأعلام ، فوجدت خير سبيل أسلكه هو في تقسيم مجموع السنوات الخمسين التي مضت على تأسيس المجمع العلمي العربي إلى **خمسة عقود** ، أترجم فيها للأعضاء العاملين عقداً عقداً ، محتفظاً بالترتيب الزمني لاحتلال كل واحد منهم كرسيّه المجمعي .

وقد يخيل للبعض أن هذا العمل سهل ميسرة أسبابه ما دام لكل عضو في المجمع ملف شخصي يحوي كل ما يتصل به وبحياته ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فأغلب ملفات القدامى من الأعضاء الراحلين ، رحمهم الله ، لا تحوي إلا على بعض الوثائق الرسمية التي لا تعني شيئاً ، ولقد كان زهد أكثر أعضاء المجمع حتى اليوم في الكتابة عن أنفسهم ، مضيعة لبعض الحقائق التي كان من حق التاريخ أن يسجلها في صفحاته . ولهذا اقتضاني هذا العمل جهوداً مضنية حتى توصلت إلى ما تمكنت من تسجيله ، وهو بالنسبة لبعض المترجمين غيض من فيض .

الأعضاء المؤسسون

- ١ -

محمد كرد علي

١٨٧٦ — ١٩٥٣ م

نشأته وصباه

في أسرة دمشقية معروفة ، انحدر جدها الأول من حوالي مائتي سنة من بلاد الأكراد في شمالي العراق إلى دمشق ، وفي أواخر شهر صفر من سنة ١٢٩٣ هـ الموافقة لسنة ١٨٧٦ م ، ولد طفل أسماه أبوه عبد الرزاق محمداً وكناه بفريد ، ولما شبّ اشتهر باسم **محمد كرد علي** .

تلقى محمد كرد علي تعليمه الأولي في إحدى مدارس دمشق الحكومية ، ثم دخل المدرسة الرشدية العسكرية ، وفيها تلقى تعليمه الإعدادي ، كما تلقى مبادىء الفرنسية على مدرس خاص ، فأصاب من الفرنسية ما مكنته عندما تخرّج من المدرسة الرشدية ، من الالتحاق بوظيفة في « **ديوان الشؤون الأجنبية** » يشتغل فيه بالترجمة من الفرنسية إلى العربية ومن هذه إلى تلك .

ظل محمد كرد علي في الوظيفة مدة ست سنوات ، كان خلالها يتردد على مدرسة الآباء اللعازاريين بدمشق ، فأتقن الفرنسية وآدابها ، كما أخذ يتصل بطائفة من شيوخ عصره الأعلام ، وكان أكثر هؤلاء الشيوخ أثراً في توجيهه نحو النهج الذي ارتضاه لنفسه ، **طاهر الجزائري** ثم **محمد المبارك فسليم البخاري** ، وعن هؤلاء الشيوخ وغيرهم من فحول العلماء ، أخذ محمد كرد علي علوم اللغة والأدب والتاريخ وغيرهما من العلوم القديمة ، حتى برع فيها ولمع بتفوقه على أقرانه ، ثم أخذ بتأثير شيخه الأول ، يتجه نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي . ويكثر من قراءة الكتب العربية والفرنسية ، حتى شبّ على **حبّ العرب** وحبّ الدفاع عنهم وعلى حبّ **الاسلام الصحيح** وحبّ المنافحين عنه .

وفي سنة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٧ م عهد إلى محمد كرد علي بتحرير أول جريدة صدرت في دمشق باسم « **الشام** » وكانت أسبوعية ، وظل يحررها ثلاث سنوات ، متصلا ببعض الجرائد والمجلات المصرية ، ثم أخذ ينشر في مجلة « **المقتطف** » القاهرية أبحاثاً منوعة في التاريخ والاجتماع والأدب ، فلمع اسم محمد كرد علي وداعت شهرته في أرجاء الوطن العربي من ذلك الوقت .

وفي سنة ١٣١٨ هـ — ١٩٠١ م عزم محمد كرد علي على السفر إلى فرنسة بقصد الدراسة ، ومرّ في طريقه إليها بمصر سائحاً ، فاذا بصاحب جريدة « **الرائد المصري** » يغريه بالبقاء في مصر للتحرير في جريدته ، فقبل العرض وبقي في القاهرة عشرة أشهر ، اتصل خلالها بالإمام الشيخ محمد عبده وحضر مجالسه وأفاد منها .



الأستاذ الرئيس محمد كرد علي

وعاد محمد كرد علي إلى دمشق صحافياً قد اشتهر اسمه بين الناس ، فخافته السلطات العثمانية وأخذت تضايقه برقابة تحركاته ، فقرر الهجرة إلى مصر ، وفيها أصدر مجلة « **المقتبس** » شهرية علمية أدبية ، وكان ذلك أول سنة ١٣٢٤ هـ الموافقة لسنة ١٩٠٦ م ، وظل مثابراً على إصدارها مدة ثلاث سنوات . وتولى خلال هذه السنوات رياسة تحرير جريدة « **الظاهر** » اليومية لفترة غير طويلة ، كما تولى أمانة سر تحرير جريدة « **المؤيد** » لفترة أخرى ، مشاركاً أثناء ذلك في تحرير مجلة « **العالم الإسلامي** » التي كانت تصدر في باريس .

وعندما حدث الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ م ١٣٢٦ هـ عاد محمد كرد علي إلى دمشق وأصدر فيها جريدة « **المقتبس** » اليومية السياسية ، إلى جانب متابعته إصدار مجلة « **المقتبس** » الشهرية . ولكن السلطات العثمانية عادت إلى التضييق عليه ، وانتهى الأمر بها إلى ملاحقته أمام القضاء بتهمة جزائية ، مما اضطره لمغادرة سورية إلى فرنسة خفية ، وفي باريس عاش محمد كرد علي يدرس وينقب عن أمهات الكتب التاريخية والاجتماعية والأدبية ، وقد كتب في وصف رحلته هذه خمساً وثلاثين مقالة أو محاضرة ، طبعت فيما بعد في كتاب أطلق عليه اسم « **غرائب الغرب** » ، وبعد بضعة أشهر من إقامته في فرنسة ، بلغه أن القضاء برّأه من الدعوى التي رفعتها السلطة عليه ، فقفل راجعاً إلى سورية ماراً بالآستانة ، ولم يلبث قليلاً حتى أقدمت السلطات على ملاحقته بتهمة جديدة ، ففر من البلاد ثانية إلى مصر ، ولكنه برئ ثانية فعاد إلى دمشق وعاد إلى إصدار « المقتبس » .

وفي سنة ١٩١٣ م — ١٣٣١ هـ ، قام محمد كرد علي بزيارة لكل من إيطالية وسويسرة وفرنسة والمجر وكتب ٣٣ مقالة في وصف حضارة كل من هذه الدول ، وحدث قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى أن أوقفت

السلطات العثمانية جريدة « **المقتبس** » عن الصدور ، غير أنها لم تلبث بعد دخول الدولة العثمانية الحرب أن طلبت منه إعادة إصدارهـا فعاود ذلك ، ولم تمض سنة على إعلان الحرب ، إلا وقامت السلطة العسكرية باصـدار جريدة يومية عربية في دمشق باسم « **الشرق** » وكلفت صاحب « **المقتبس** » رياسة تحريرها ، بعد أن طلبت إليه رفع اسمه من جريدته الخاصة . غير أن الأمور لم تجر هادئة ، فقد تعكر الجو بينه وبين بعض السلطات الحاكمة فاضطر إلى ترك دمشق وقصد الآستانة ، ولم يطل مكوثه فيها إلا وأعلن احتلال الجيش العربي لمدينة دمشق سنـة ١٩١٨ م — ١٣٣٦ هـ ، فأسرع صاحب « المقتبس » إلى دمشق ليتابع إصدار جريدته ومجلتهـا ، ولكن الحكومة العربية التي كانت تألفت في دمشق كلفته برياسة « **ديوان المعارف** » نواة « **المجمع العلمي العربي** » الذي كان محمد كرد علي يحلم به ، فتحقق حلمه وغدا مؤسسه الأول **ورئيسه مدى الحياة** .

وفي سنة ١٩٢٠ م — ١٣٣٨ هـ ، وبعد أن احتلت الجيوش الفرنسية دمشق فارضة الانتداب الفرنسي على سورية ، قبل الأستاذ الرئيس محمـد كرد علي الاشتراك في الحكومة السورية التي تألفت عقب الاحتلال **مدفوعاً برغبة جامحة في إحياء المجمع العلمي** وجعله يحتل المكانة التي كان يحلم بها لمجمع يخدم العربية ، وذلك بعد أن كانت الظروف السيـاسية التي سبقت الاحتلال قد أدت إلى وقف أعماله ، وقد تسنم منصب **وزير المعارف** بتاريخ ٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ م ، وظل يشغل منصب الوزارة حتى ١٠ آذار (مارس) ١٩٢٢ ، يوم تركها **ليتفرغ** لرياسة المجمع العلمي ، وبعد أن كان أطلق عليهـا اسم « **المديرية العامة للمعارف** » بتاريخ ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٠ م . وفي خلال فترة اشغاله منصب المديرية العامة للمعارف ، قام الأستاذ الرئيس بزيارة جديدة لأوروبة فطاف في كل من بلجيكا وهولاندة

وانكلترة واسبانية وألمانية وسويسرة ، وكتب مشاهداته في رحلته الجديدة ، في إحدى وخمسين مقالة ، أضافها إلى كتابه « **غرائب الغرب** » فلما أعيد طبعه سنة ١٩٢٣ م في مصر جاء الكتاب في مجلدين .

وبتاريخ ١٥ شباط (فبراير) ١٩٢٨ م عهد إلى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي بمنصب **وزير المعارف** ثانية ، فظل يشغله إلى تاريخ ١١ حزيران (يونيو) ١٩٣٢ م يوم قيام الجمهورية السورية الأولى .

وعندما ترك الأستاذ الرئيس منصب الوزارة اعتزل السياسة وعكف على المطالعة والتأليف ، فلما أعيد انتخابه **رئيساً للمجمع العلمي** سنة ١٩٤١ ، وكان هذا المنصب قد ظل شاغراً طوال فترة أعقبت ترك الأستاذ الرئيس منصب الوزارة ، حصر الأستاذ الرئيس كل جهوده في العمـــل على تحقيق أغراض المجمع العلمي ، وتابع إصدار ما ألفه أو حققه من الكتب التي تبقيه في طليعة الخالدين من أعلام العرب المعاصرين ، وقد ظل عاكفاً على التأليف والتحقيق والنشر حتى انتقل إلى رحمة الله يوم الخميس في الثامن عشر من شهر رجب سنة ١٣٧٢ هـ الموافق **للثاني من نيسان** (ابريل) ١٩٥٣ م .

وقامت دمشق بتشييع جثمان الأستاذ الرئيس ، وقد عمها الحزن والأسى ، بموكب حافل مشهود ، ثم ووري جثمانه الثرى في مقبرة الباب الصغير بدمشق التي أحبها وأحب ترابها ، فأحبته وقدرته بلسان مجلسها البلدي الذي قرر بتاريخ ١٣٨٢/٣/٤ و ١٩٦٢/٨/٤ تسمية أحد شوارعهـا الكبيرة **باسمه تخليداً لذكراه**[١] .

(١) شارع محمد كرد علي هو الشارع الممتد من شارع عدنان المالكي شرقاً وحتى الساحة الواقعة في نهاية شارع الرشيد غربا .

محمد كرد علي يؤسس المجمع العلمي

يقول الأستاذ الرئيس في مذكراته : « لما عدت من الآستانة بعد هدنة الحرب العالمية (١٩١٨) جاءني صديقي القديم **رضا باشا الركابي** الحاكم العسكري في دمشق يسلّم عليّ في داري ويطلب إليّ قبول **رياسة مجلس المعارف** . فقلت له : إني أنوي العودة إلى إصدار الجريدة والمجلة ، ونشر كتبي الجاهزة ، فوعدني بأن أماني تتحقق كلها مع القيام بالعمل الذي يطلب قيامي به . وقال : إقبل هذه الوظيفة التي ستكون وزارة فيما بعد ، فليس عندي غيرك للقيام بها ، فاعتذرت ، ومما قلت في الاعتذار إليه إني لم أربّ نفسي لأكون موظفاً ، ولو أحببت التوظف ، كما تعلم ، لكنت اليوم في أرقى المناصب ، وأصرّ عليّ كثيراً وقبض بيده على لحيته وقال : إكراماً لهذه . فأخجلني فقبلت على شرط أن يعاونني معاونة فعلية مدة وجوده في الحكم ، فاذا تنحى عنه استقلت معه » .

ويتابع الأستاذ الرئيس سرد الحوادث التي تلاحقت بعد تأليف **(ديوان المعارف)** من قبل الحكومة العربية في سورية ، وكيف وجد نفسه رئيساً على جماعة من الشيوخ ، منهم من درس العلوم الدينية ومنهم من شدا شيئاً من الأدب ، ثم كيف أغضبته بعض التصرفات الحكومية ، فلزم داره معلناً اعتزاله الوظيفة ، غير أن الركابي باشا ألحّ عليه كثيراً للبقاء في منصبه فما كان منه إلا أن قال : « إذا كنت تحرص على بقائي في الحكومة ، فأنا أرضى **على أن ينقلب هذا المجلس برئيسه وأعضائه مجمعاً علمياً** مرتبطاً بالحاكم العام مباشرة ، فقبل ، وصدر المرسوم بذلك »[1] .

---

(١) المذكرات ج ١ ص ٢٧٧ .

ويتابع الأستاذ الرئيس وصف الصعوبات التي قامت في وجهه في فترة تأسيس المجمع العلمي وكان منها أن صدر « الأمر بدعوى الضائقة المالية في آخر تشرين الثاني ١٩١٩ م بصرف رئيسه وأعضائه الثمانية ، إلا عضوين فقط للإشراف على داري الكتب والآثار . »[١] .

وحقيقة هذه الصعوبات التي واجهها المجمع العلمي في أول تأسيسه لم تكن **بسبب الضائقة المالية فحسب** ، بل إن الجو الذي كانت تعيش فيه الحكومة العربية يومئذ ، وكان مليئاً بالعواصف المنذرة بالاحتلال الأجنبي ، لم يسعف رجالها بالتجاوب مع الأستاذ الرئيس فيما كان يراه من فوائد دعم المجمع بالمال الكافي ليستمر بالنشاط الذي بدأ به خطواته ، ولكن ما أن تم الاحتلال الفرنسي لسورية في تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ م ، وما كاد الاستقرار النسبي يعود إلى البلاد ، حتى رأينا الأستاذ الرئيس يتسنم بتاريخ ٧ ايلول (سبتمبر) من السنة نفسها **منصب وزير المعارف** ، وهو لا يرى في تسنمه هذا المنصب **إلا حيـــاة المجمع الذي أسسه** وقام بنشر دعوته بين علماء الشرق والغرب فهللوا له وصفقوا . وهكذا **عاد المجمع إلى تنظيم جلساته** وأخذ يغذ السير نحو تحقيق أغراضه ، وكأن الأستاذ الرئيس كان يرد على خصومه ومبغضيه الذين عابوا عليه الاشتراك في حكومة ألفت عقب الاحتلال ، عندما قال في « **المذكرات** » : [... وكان من أثر حرصي عليه الابتعاد به عن السياسة ، فأصبح المعهد الوحيد في جميع أرض الانتداب يعمل حرًّا لا رقيب عليه ، ولا مستشار له يملي على من فيه إرادته ، **وكان الفرنسي في الشام سيداً** في كل مكان **إلا في المجمع**

(١) التقرير المجمعي الأول لسنة ١٩٢٢ .

العلمي العربي ، فإنه كان يزوره خاشعاً متواضعاً ، حتى لقد قال المفوض السامي المسيو بونسو ، وهو يزور المجمع مع المفوض السامي في فلسطين ، كلاماً في هذا المعنى **وأن الفرنسيين في سورية يعلمون وفي المجمع العلمي يتعلمون**] .

ويصف الأستاذ الرئيس متاعبه في سبيل المجمع قائلاً : [. . لقيت الألاقي من الحكومات السورية في سبيل هذا المجمع العلمي ، كأنه كان بعض ملكي ، وكان الأردياء الحسدة يعرفون حرصي عليه فيضربونه ليضربوني ، ويعبثون بمصلحته ليؤذوني ، وذلك لأنه قام قبل أوانه ، على ما قال أحد رصفائي ، وكان لا يصدق أن في دمشق مجمعاً علمياً يعمل ويفيد ، بالنظر لما يعرف من قلة الاستعداد له في هذه البيئة الضيقة . **على أن من قصدنا فائدتهم كانوا راضين كل الرضى . .**] .

ويؤكد الأستاذ الرئيس سهره الدائم على المجمع بقوله : [... وشهد الله أني كنت أفكر في أنجع الطرق لإنجاحه ليل نهار ، مدة توليتي رياسته وما رأيت باباً يوصلني إلى النهوض به إلا طرقته ، ولطالما بذلت ماء وجهي لأناس ما كنت أتنازل للسلام عليهم من قبل ، حتى استهديت له المخطوطات والماديات ، وكنت أقتصد من موازنته القليلة مالاً أدخره لأمور تنفعه في المستقبل ، **وأحاول إعلاء مكانته بين علماء الشرق وعلماء المشرقيات . .**] .

لقد كان الأستاذ الرئيس كرد علي حركة المجمع العلمي الدائمة ، كما كان راعيه وموجهه ، يخطب ويحاضر في ردهته في الاحتفالات والمواسم المجمعية وكلما قلّ الأساتذة والمحاضرون ، وينشر في مجلته المقالات الممتعة ، ويعرّف الكتب الجديدة ، ويعلق على المقالات التاريخية والأدبية ، حتى يمكن أن يقال **بأنه كان أكثر المجمعيين أثراً فيما حققه المجمع أو نشره** .

وظل الأمر على هذه الحال ، حتى كان منتصف عام ١٩٣٢ م ، يوم ترك الأستاذ الرئيس منصب وزارة المعارف فكتب وزير المعارف الجديد كتاباً بتاريخ ١٩٣٢/٦/٢٨ يطلب فيه من المجمع العلمي انتخاب رئيس جديد له نظراً لانتهاء مدة رياسة الأستاذ محمد كرد علي وهو في منصب وزير المعارف ، وبقاء المجمع يدار من قبل نائب الرئيس ، وقد اجتمع مجلس المجمع بتاريخ ٢٤ آب (أغسطس) ١٩٣٢ م فأجمع الأعضاء على تجديد الرياسة للأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، كما انتخب كل من الدكتور أسعد الحكيم والأمير مصطفى الشهابي ليضاف اسماهما إلى اللائحة التي أوجب القانون رفعها للوزارة لتختار منها الرئيس (١) . وبتاريخ ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٣ إيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٢ م صدر مرسوم جمهوري بتجديد تعيين الاستاذ الرئيس محمد كرد علي رئيساً **للمجمع العلمي العربي لمدة خمس سنوات** اعتباراً من ١٦ حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٢ م ، وبعد فترة من هذا التعيين ، وكان نظام الحكم في سورية قد دخل عليه بعض التعديل ، تسلم الحكم رجال ، كان بعضهم لا يبادل الأستاذ الرئيس عواطف الود أو التقدير ، **فاعتزل إدارة المجمع** ، وكانت فترة تعثرت خلالها أعماله ، وتوقفت عن الصدور مجلته لمدة تقارب أربع سنوات ؛ كل هذا بسبب اضطراب الأحوال السياسية في البلاد وفقدان الاستقرار فيها ، حتى كانت سنة ١٩٤١ م ، ويحدثنا الأستاذ الرئيس عما تم في هذه السنة قائلاً : [وتجددت همة بعض أعضاء المجمع في أول سنة ١٩٤١ لإعادته إلى سابق عهده ، ونشطوا لتحقيق غرضهم لما رأوا زيادة في وفر الدولة بضعة ملايين ليرة سورية اقتصدت بفضل حكومة مجلس المديرين وكان بعض الرصفاء كثيراً ما يعرّض في العهد

---

(١) انظر ص ٧٧٢ من المجلد ١٢ من مجلة المجمع لسنة ١٩٣٢ .

الأخير أني بالقاء الحبل على الغارب قد أهملت المجمع حتى كاد يقضي عليه أبد الدهر ، وأن نفرتي من بعض الرصفاء تبعد المجمع من الوصول إلى هدفه الاسمى ، **فنزلت على إرادتهم وأزلت الخلاف ودعوت الأعضاء كلهم** ودعوت معهم صديقي المسيو لافاستر مندوب المفوض السامي ومعاونه ومدير المعارف العام . وبعد أيام فاوض رئيس مجلس المديرين الأستاذ بهيج الخطيب صديقي الأستاذ عبد اللطيف الشطي مدير المعارف **في معنى إعادة المجمع** وتقررت مفاوضتي ، فجاء الأستاذ الشطي يزورني في داري ويعرض عليّ إذا كنت مستعداً إلى الرجوع لرياسة المجمع ، **فأجبته بالإيجاب ، فجرى الانتخاب وانتخبني رصفائي بالإجماع المطلق** ، وعدت فاستلمت الزمام يوم ١٦ آذار سنة ١٩٤١ (١)] .

لقد عاد الأستاذ الرئيس محمد كرد علي إلى رياسة المجمع من التاريخ الذي أشار إليه ، وعادت المجلة إلى الصدور بمجلدها السادس عشر بدءاً من أول سنة ١٩٤١ م نفسها بعد احتجاب دام ثلاث سنين كاملة ، واصلة ما انقطع من جهادها في خدمة العربية بفضل من الغيارى عليها ممن مهدوا لعودة الأمور إلى نصابها ، وكان من آثار هذه العودة أن احتفل المجمع بافتتاح موسم محاضراته في تلك السنة احتفالاً منقطع النظير بتاريخ ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ م حضره رئيس الجمهورية السورية الشيخ تاج الدين الحسني وأركان حكومته ، وقد ارتجل رئيس الجمهورية في مستهله كلمة شكر على ترحيب الأستاذ الرئيس به واعداً برعاية الحركة العلمية والاهتمام بالشؤون المجمعية معلناً افتتاح موسم المحاضرات المجمعية (٢) . وهكذا أخذ المجمع من

(١) انظر المذكرات ج ١ ص ٢٨٥ .
(٢) انظر المجلة مج ١٦ ص ٤٩٨

سنة ١٩٤١ م يعاود سيرته الأولى ، بهمة ونشاط فائقين ، يغذ خطواته بفضل جهود مؤسسه الأستاذ الرئيس محمد كرد علي الذي ظل يقوم بما عرف عنه من حيوية واندفاع ، على تحقيق أغراضه غير عابىء بالعقبات التي التي أخذ نفر من رجال السياسة يضعها في طريقه .

لقد ظل الأستاذ الرئيس وفياً للنبتة التي غرسها بيديه يتعهدها صباح مساء متعاوناً **مع رصفاء له** ، معترفاً بفضلهم في معاونته ، فهو يصفهم في مذكراته قائلاً : [**عملوا معي بدون أن يتوقعوا مكافأة على عملهم ، فخدموا العلم والآداب أجل خدمة**] حتى وافاه الأجل تغمده الله برحمته .

واليوم وقد كبرت هذه النبتة واستطالت وأصبحت في الخمسين من سني حياتها ، **وغدت دوحة باسقة وارفة الظلال** تفيأها كل من سلك سبيل خدمة العربية ، كما ركن إلى ظلالها كل محب لآداب العرب وتاريخهم المشرق المجيد ، نبتهل إلى العلي القدير مستمطرين شآبيب رحمته على من توفي من أولئك الأعلام الذين شاركوا الأستاذ الرئيس جهوده الجبارة في سبيل إقامة صرح هذا المجمع العظيم ، ونسأله أن يمدّ بحياة الباقين منهم على العهد .

وليس أبلغ من وفاء الأستاذ الرئيس لرصفائه أعضاء المجمع العلمي عندما **سجل في مذكراته فضلهم** فقال : [نجح مجمع دمشق لأن أعضاءه أخلصوا في خدمته منذ وضع أساسه ، وكثيراً ما كان بعضهم يقرظني ويجهر بعملي فيه ، فأقول لهم مخلصاً ، إن المجمع مدين لأعضائه مثل أخي **فارس الخوري** أنشأه معي وحماه من تمحكات السياسيين الأغبياء ، والسيد فارس لا يحتاج إلى تعريف بعد أن ثبت فى مؤتمرات الدول العالمية أنه رجل الدول العربية في السياسة ... ولجميع الأعضاء الذين عملوا معي في دمشق منذ إنشائه **كطاهر الجزائري ومسعود الكواكبي وسليم البخاري وعبد الله رعد**

وسليم عنحوري وعبد القادر المبارك من الأموات ، **وأسعد الحكيم وسليم الجندي ومرشد خاطر وجعفر الحسني وخليل مردم بك وجميل صليبا وحسني سبح وشفيق جبري وعارف النكدي ومصطفى الشهابي وعبد القادر المغربي ومحسن الأمين ومحمد** بهجة **البيطار** ، وهم في الغاية علماً وغيرة على خدمته .. [(١)] .

وعندما فكرت الحكومة المصرية بانشاء **مجمع اللغة العربية** سنة ١٩٣٢ م ، اختارت الأستاذ **الرئيس كرد علي عضواً عاملاً فيه** ، وقد شارك في أعمال المجمع مذ بدأت ، وكان عضواً في كثير من لجانه ، وألقى في المجمع ونشر في مجلته عدة بحوث وكلمات ، من ذلك رده على اقتراح الأستاذ أحمد أمين في تبسيط قواعد اللغة العربية وتسكين أواخر الكلم ، كما قدم للمجمع رداً على اقتراح تيسير الكتابة العربية للأستاذ علي الجارم (الدورة ١٠ الجلسة ١١) ، وكذلك رده على الأستاذ عبد العزيز فهمي في اتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية (**الدورة** ١٠ الجلسة ١٥) .

ولقد عرض الأستاذ الرئيس في « **المذكرات** » لذكر موقفه من الاقتراحات المذكورة ، فقال وكأنه يدافع عن قسوته في الردّ عليها : [عرضت على المؤتمر ثلاث مسائل كبرى إذا أقرها يدخل **التبلبل في اللغة العربية** .. والاقتراح الثالث وهو أعظم الاقتراحات ضرراً باللغة ، اختيار الحروف اللاتينية لكتابة الحروف العربية ، وبذلك يقضى على تراث ألف وخمسمائة سنة **ولا يأتي جيل واحد على المسلمين حتى ينسوا القرآن**] . وكان الأستاذ الرئيس قد قال في ختام ردّه على اقتراح اتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية : [نحن لا نملك بوجه من الوجوه إدخال جديد مضرّ ، يكون منه القضاء على

(١) المذكرات ج ٢ ص ٥٢٩ .

قديم مقدس . هذه الحروف هي ملك الشعوب الإسلامية كلها اختارها ثلاثمائة مليون من المسلمين ، إذا أبطلت تخسر مصر ويخسر العرب ويخسر المسلمون] .

وصدق الأستاذ الرئيس ما عاهد الله عليه من خدمة العربية أمّ اللغى ، متعهداً **مجمعها الأول في دمشق** بالرعاية والتمكين له ، مشاركاً في **مجمعها الثاني في القاهرة** ، باذلاً جهده في خدمة اللغة والدفاع عن سلامتها ، حتى اختاره الله إلى جواره سنة ١٩٥٣ م ، غفر له وأجزل ثوابه وأنزله دار الأبرار من عباده .

وقد بكى مجمع دمشق فقيده الكبير يوم مات بدمع غزير ، ورثاه باسمه بخطاب بليغ مؤثر **الدكتور منير العجلاني** . وأثبتت مجلة المجمع نعيه في الصفحة ٣١٩ من مجلدها الثامن والعشرين . وقام **الدكتور سامي الدهان** بترجمته ترجمة وافية نشرت في الصفحة ٢١١ من المجلة في مجلدها الثلاثين ، وأفردت في كتيب خاص من مطبوعات المجمع .

كما نعاه مجمع القاهرة ، وأقام له حفلة تأبين كبرى بتاريخ ٢٩ من ربيع الآخر ١٣٧٣ هـ الموافق ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ م . وألقى فيها كلمة المجمع في رثاء فقيده الغالي الأمين العام **الدكتور منصور فهمي** .

الأستاذ الرئيس بقلم زملائه المجمعيين

رسم **الدكتور سامي الدهان** بريشة الأديب المبدع صورة رائعة للأستاذ الرئيس فقال : [لقد كان ـ رحمه الله ـ **حركة لا تهدأ** في الكتابة والتأليف ، وكان لسانه لا ينقطع عن حديث عذب متصل ، ونكتة بارعة تسبق نكتة بارعة ، ضحكة يطلقها لتلحق بضحكة تسبقها ، وقهقهة لطيفة يميل لها جسمه ، وتنفرج أساريره ، فكأنّ عينيه الشهلاوين تبتسمان من وراء نظارتيه ، ووجهه الأبيض المشرق يحمرّ بالسرور والنضرة . ذلك أنه يحب الطرب والموسيقا

والجمال ، ويعشق **الحكاية والقصة والنكتة** ، ويهيم بالمجلس اللطيف والعشرة الصافية ، فيفيض بالسحر الحلال من جمل الدعابة والتحبب ، **وتنقلب نفسه الكبيرة في دقائق إلى براءة الطفل وسحر السذاجة** ، فيخيل إليك أنه أول مرة يضحك فيها بعد طول عبوس ، وتستطيع حينذاك أن تطلب فتجاب ، وأن تقول فيستمع إليك ، على أن تتلطف في الحديث ، وتبتعد عن السفاسف في القول ، فإن كنت لا تملك شيئاً من هذا فاسكت] .

وقال **الدكتور كامل عياد** ، وهو يحتل كرسيّ الأستاذ الرئيس في مجمع دمشق : [كان الأستاذ محمد كرد علي من **الأفذاذ النابغين** الذين يمثلون جيلهم أحسن تمثيل ويعبرون عن مشاعره بأفصح لسان . لقد أخذ عن الجيل الذي قبله خلاصة ثقافته وأضاف إليها الكثير من المعلومات والمفاهيم عن طريق المطالعة والدراسة الشخصية . وقد تأثر بالتيارات السياسية والاتجاهات الفكرية التي سارت في مختلف أدوار حياته فلم يتردد في أن يخوض غمارها ويلعب دوراً هاماً فيها . وبذلك كان له تأثير عميق في أبناء جيله والجيل الذي بعده . .

لم يكن الأستاذ محمد كرد علي **صلة الوصل بيننا وبين الجيل الماضي** ، جيل محمد عبده وطاهر الجزائري **فحسب** ، **بل أيضاً بين عصرنا والعصور الغابرة** من تاريخ العرب والإسلام التي أعادها إلى الحياة في كتبه وكشف لنا عن روعتها وهدانا إلى معرفة حقيقتها وجوهرها] .

وقال **الدكتور منصور فهمي** يؤبن الأستاذ الرئيس في مجمع اللغة العربية في القاهرة ، واصفاً آثاره : [إن في كتب كرد علي المدونة بأسلوب متناسق وسهل وفخم ، والمستخرجة من أمهات المراجع ، والمستقطرة من الأسانيد والأسفار التي لا تتداولها الأيدي ، **ما يدل على واسع علمه** ،

وعلى موهبته في صناعة الكتب ، وأن **رصيده في ذلك ضخم تعتز به المكتبة العربية** ، ويفيد منه المشغوفون بالقراءة والاطلاع ، ويفخر به مؤلفه وناشره] .

وقال الرئيس **الأمير مصطفى الشهابي** ، وهو يحتل كرسي الأستاذ كرد علي في مجمع القاهرة : [كان الأستاذ من كتاب العربية المبرزين في هذا العصر ، فقد **امتاز بأسلوب سهل رشيق وبيان ناصع مشرق** . وقليل هم الكتاب الذين يستطيعون أن يجولوا بمثل قلمه في الموضوعات المتنوعة التي تضمنتها مصنفاته ومحاضراته العديدة .

لقد قضى الأستاذ نصف قرن من الزمن **حاثاً شباب الشام على العلم** ، باحثاً عن تراث الأجداد الأدبي ، **مدافعاً عن المدنية العربية والاسلامية** ، داعياً إلى الجمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية] .

وقال **الأستاذ شفيق جبري** يصف أسلوب الأستاذ الرئيس كرد علي وبيانه : [لا ريب في أن بيان محمد كرد علي أبرز ناحية من نواحي عبقريته ، فكيف اهتدى إلى هذا النمط من البيان ، **لقد اختمرت في صدره أساليب بلغاء العرب وأمراء الكلام** ، فالأسلوب الذي صوّر به جملة من تاريخنا وأخلاقنا وعاداتنا وطبائعنا واجتماعنا وأدبنا ، إنما هو خلاصة أساليب عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وابن عبد ربه من أئمة الأدب ، والغزالي وابن خلدون وأضرابهما من رجال الفلسفة والاجتماع والعمران . اختمرت أساليب هذه الطبقة في ذهنه بعد ممارسة طويلة لمذاهب بيانهم وبعد إعمال الرويّة في محاسن بلاغتهم وملء الفكر من روائع فنهم ولغتهم ، فنشأ عن هذا الاختمار **أسلوب خاص بكرد علي** فيه آثار كثيرة من روح هذه الطبقة من البلغاء الذين عاشرهم وخالطهم كل حياته ، وقد تناسقت هذه الآثار تناسقاً بديعاً وانسجمت انسجاماً غريباً بحيث تكاد تضيع علينا مصادرها ، **فقد تجتمع في بعض**

الأحيان في أسلوب **كرد علي** **بلاغة الجاحظ** وطبع **ابن المقفع** **وسهولة الغزالي** **وابن خلدون** فتلتحم هذه الأمور التحاماً محكماً متقناً فلا نجد فيها إلا السهولة والبساطة ، ومثلها في ذلك كمثل الشعاع من الشمس ، فإنا إذا نظرنا إلى هذا الشعاع فلا نرى إلا لونه الأبيض ولكنا إذا رددناه إلى أصوله وفككنا أجزاءه اهتدينا إلى مختلف الألوان التي تؤلف الطيف الشمسي] .

وقال **الأستاذ محمد بهجة الأثري** ، يقدم للناس كتاب الآلوسي عن محمد كرد علي :

[الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، رحمه الله ، .. **أمة في رجل** .. أهلته مواهبه العديدة لأن يكون أحد بناة النهضة الحديثة وقادتها الكبار في بلاد العرب ، وسيرته مثال رائع لمضاء العزيمة ، وخلوص النية ، وصدق العمل ، وحب الخير ، وإرادة الإصلاح . **نافح عن العروبة والاسلام** ، ودعا إلى الحرية **وقاوم الاستبداد** ، وأجال قلمه في ميادين مختلفة مستنهضاً وباعثاً على الحركة والإحياء والتجديد ، وكتب ما كتب في الأدب والتاريخ والاجتماع والسياسة ببيان سهل ممتنع ورأي سديد ، ووفر لمؤلفاته مادة غزيرة ، وتحقيقاً جيداً ، فزخرت بالمفيد الممتع ، **وجمع فيها بين أفضل ما في القديم وأمتع ما في الحديث من المعارف الانسانية**] .

كتبه ومؤلفاته

ترك الأستاذ الرئيس ثروة ضخمة من الدراسات والبحوث والمؤلفات أغنت المكتبة العربية أي إغناء ، وفي آثاره المقالة وفيها المحاضرة وفيها الدراسة ، ومنها المترجم ومنها المحقق ومنها المؤلف ، وفي الكتب التي ترجمت للأستاذ الرئيس دراسات وافية لآثاره ، وفيما يلي ثبت بأهم المطبوع من آثاره :

١ — « **خطط الشام** » في ستة أجزاء من القطع الكبير ، طبع في دمشق سنة ١٩٢٥—١٩٢٨ م ، وملخص بعض فصوله طبع في مصر سنة ١٩٥٤م باسم « **دمشق مدينة السحر والشعر** » .

٢ — « **الإسلام والحضارة العربية** » في جزأين ، طبع في مصر سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٦ م ، وطبع ثانية في مصر سنة ١٩٥٠ .

وطبعت بعض المحاضرات مما فيه في مصر سنة ١٩٣٤ باسم « **الإدارة الإسلامية في عز العرب** » .

٣ — « **أمراء البيان** » في جزأين طبع في مصر سنة ١٩٣٧ م ، وأعيد طبعه حديثاً في جزء واحد في بيروت سنة ١٩٦٩ م .

٤ — « **كنوز الأجداد** » طبعه المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٥٠ م .

٥ — « **أقوالنا وأفعالنا** » طبع في مصر سنة ١٩٤٦ م .

٦ — « **غرائب الغرب** » طبع للمرة الأولى في جزء ، وطبع المرة الثانية في مجلدين بمصر سنة ١٩٢٣ م .

٧ — « **القديم والحديث** » طبع في مصر سنة ١٩٢٥ م .

٨ — « **المذكرات** » طبعت في أربعة أجزاء بدمشق سنة ١٩٤٨ — ١٩٥١ م .

٩ — « **غوطة دمشق** » من مطبوعات المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٩ م ، وصدرت طبعته الثانية سنة ١٩٥٢ م .

١٠— « **رسائل البلغاء** » طبع في مصر لأول مرة سنة ١٩٠٨ ، وللمرة الثانية سنة ١٩١٣ ، وللمرة الثالثة سنة ١٩٤٦ م .

١١— « **سيرة أحمد بن طولون البلوي** » طبع في دمشق سنة ١٩٣٩ م .

١٢— « **المستجاد من فعلات الأجواد للمحسن التنوخي** » من مطبوعات المجمع العلمي في دمشق سنة ١٩٤٦ م .

١٣ــ « **تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي** » من مطبوعات المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٦ م .

١٤ــ « **كتاب الأشربة لابن قتيبة** » من مطبوعات المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٧ م .

١٥ــ « **البيزرة في الصيد وآلاته** » من مطبوعات المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٧ م .

المصادر التي ترجمت له

ترجم الأستاذ الرئيس نفسه في كتابين من كتبه ، كما ترجم له كثيرون وهذا ثبت بأهم ما أطلعنا عليه من المصادر :

١ ــ « خطط الشام » **له** ج ٦ ص ٤١١ ، دمشق ١٩٢٨ م .

٢ ــ « المذكرات » **له** ج ١ ص ٥ وفي مواضع أخرى فيه ، دمشق ١٩٤٨ م .

٣ ــ « الأعلام » **لخير الدين الزركلي** ج ٧ ص ٧٣ ، القاهرة ١٩٥٦ م

٤ ــ « محمد كرد علي » **لشفيق جبري** ــ محاضرات في معهد الدراسات العربية ــ القاهرة ١٩٥٧ م .

٥ ــ « محمد كرد علي » **لسامي الدهان** من مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ١٩٥٥ م ومجلة المجمع ج ٣٠ ص ٢١١ .

٦ ــ « محمد كرد علي » **لجمال الدين الآلوسي** من مطبوعات وزارة الثقافة العراقية ، تقديم **محمد بهجة الأثري** بغداد ١٩٦٦ م .

٧ ــ « الأدب العربي المعاصر في سورية » **لسامي الكيالي** ، من مطبوعات دار المعارف في القاهرة ١٩٥٩ م .

٨ ــ « معجم المؤلفين » **لعمر رضا كحالة** ج ١٠ ص ١٦٢ ، دمشق ١٩٦٠ م .

٩ ــ « المجمعيون » مطبوعات **مجمع اللغة العربية** في القاهرة ١٩٦٦ م .

١٠ – « أعلام العرب في السياسة والأدب » **لأنائز سلامة** ج ١ ص ١٨٤ ، دمشق ١٩٣٥ م .

١١ – « أعلام الفن والأدب » **لأدهم الجندي** ج ١ ص ٢٣٦ ، دمشق ١٩٥٤ م .

١٢ – « الموسوعة العربية الميسرة » ص ١٤٥٠ من مطبوعات **مؤسسة فرانكلن** ، القاهرة ١٩٦٥ م .

١٣ – « المنجد في الأدب والعلوم » من مطبوعات **المطبعة الكاثوليكية** في بيروت ، ١٩٥٦ م .

١٤ – « من هو في سورية » **لجورج فارس** ص ٣٧٢ ، دمشق ١٩٤٩ م .

١٥ – خطاب **كامل عياد** في المجمع العلمي العربي بدمشق مجلة مج ٣٤ ص ١٦٥ .

١٦ – كلمة **منصور فهمي** في حفل التأبين ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة مج ١٠ ص ١٩١ .

١٧ – خطاب **مصطفى الشهابي** في مجمع اللغة العربية في مصر مج ١١ ص ٢٢٧ .

١٨ – « تاريخ الأدب العربي الحديث » بالألمانية **لكارل بروكلمان** ـ الذيل الثالث ص ٤٣٠ — ٤٣٣ .

١٩ – « قدماء ومعاصرون » **لسامي الدهان** ص ١٨٠ من مطبوعات دار المعارف في القاهرة ١٩٦١ م .

- ٢ -

امين سويد

١٨٥٥ — ١٩٣٦ م

نشأته وحياته

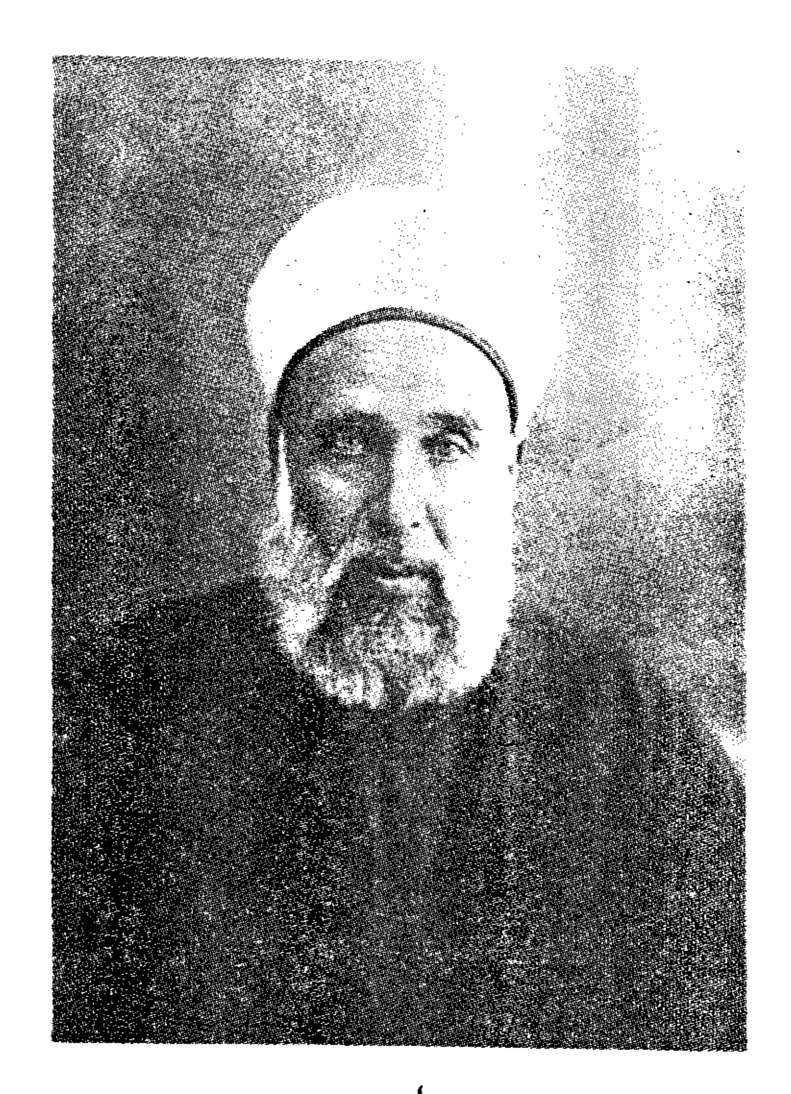
ولد محمد أمين بن محمد الدمشقي الشهير بسويد ، في دمشق سنة ١٢٧٣ ﻫ الموافقة لسنة ١٨٥٥ م ، في أسرة دمشقية كان أفرادها يتعاطون التجارة والفلاحة ، وكان أبوه تاجراً ، وقد توفي وهو في رحلة إلى الديار الحجازية ، وابنه أمين دون العاشرة من عمره فكفله عم له ، وافتتح متجراً صغيراً لبيع الأقمشة عهد بادارته لابن أخيه الصغير ، ولكن الشاب أهمل المتجر منصرفاً إلى طلب العلم ، فلم يجد العم مفرّاً من الرضوخ لرغبة ابن أخيه فوافقه على ترك التجارة ، مشجعاً إياه على طلب العلم والاستزادة منه ، فأخذ أمين سويد يتردد على علماء عصره يتلقى عنهم علوم العربية والدين حتى نبغ فيها ، ولكنه لم يكتف بما حصل عليه من علوم تلقاها عن مشاهير علماء الشام ، فرحل إلى مصر ، **وكان في ريعان شبابه** ، مدفوعاً بشغف حثيث إلى التمكن من مختلف علوم الشريعة ، وفيها دخل الجامع الأزهر وظل يتلقى العلم فيه متردداً على مشاهير علماءالقاهرة زهاء خمس سنوات عاد بعدها إلى دمشق ، وابتدأ يلقي دروساً في الفقه، وأصوله متبرعاً ، على عادة العلماء في ذلك العصر، فذاع صيته واشتهر

اسمه ، واعترف له العلماء بالتمكن من علوم الشريعة ، وبالتفوق في أصول الفقه ، مما دفع الحكومة العثمانية إلى تكليفه بتدريس الفقه الحنفي في جامع درويش باشا بدمشق ، ثم لم تلبث حتى قدرت نبوغه ومنزلته العلمية فمنحته بعض الرتب العلمية العالية ، **وغدت غرفته في دار الحديث بدمشق محج طلاب العلم** .

وكأن رحلة الشيخ أمين سويد إلى مصر في مقتبل حياته ، أورثته حب الارتحال ، استزادة للمعارف ورغبة في الاطلاع على **أحوال مختلف البلاد** الإسلامية والوقوف على نشاط علمائها في نشر علوم الشريعة ، فقام برحلات عديدة إلى تركيا والهند ، كما رحل إلى إيران وبخارى ، وإلى اليمن ومختلف أصقاع الجنوب العربي ، وإلى المغرب وغيرها من البلاد الإسلامية ، وقد اشترك مع الداعية الإسلامي محمد علي زينل علي رضا في تأسيس **مدارس الفلاح** في الهند والحجاز .

وعندما قررت الحكومة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ م فتح مدرسة في مدينة القدس لتخريج القضاة والمدرسين ، وأطلقت عليها اسم « **الكلية الصلاحية** » كان الشيخ أمين سويد في طليعة العلماء الذين اختارتهم للتدريس في هذه الكلية ، وقام الشيخ بالمهمة التي عهد إليه بها على خير وجه ، حتى تم إغلاق المدرسة باحتلال الإنكليز فلسطين قبيل انتهاء الحرب ، فقفل الشيخ راجعاً إلى مدينة دمشق .

وفي دمشق اختارته الحكومة العربية التي قامت سنة ١٩١٨ م ، **عضواً في الشعبة الأولى للترجمة والتأليف** ، وفي سنة ١٩٢٣ م عهد إلى الشيخ بتدريس أصول الفقه في معهد الحقوق العربي بدمشق ، وما أن بدأت نيران الثورة السورية الكبرى بالاندلاع سنة ١٩٢٥ م ، حتى أحس الشيخ برغبة تدفعه للرحيل عن دمشق ، فتركها مستصحباً أسرته وقصد لبنان ، وفي مدينة



الشيخ أمين سويد

صيدا أقام بضعة أشهر ، ثم ارتحل عنها إلى شرقي الأردن وأقام مدة في مدينة جرش ، ثم قصد فلسطين وأقام في مدينة الخليل مجاوراً المقام الإبراهيمي ، ثم كلف بالتدريس **بدار المعلمين في مدينة القدس** فانتقل إليها .

وبعد مدة أقام **أمين سويد** خلالها في فلسطين كلف بالتدريس في مكة المكرمة، فأقام فيها سنة ١٩٢٨ — ١٩٢٩ الدراسية ، ثم غادرها إلى الهند للاشراف على مدارس الفلاح فيها وللتدريس في مدرسة بومباي ، ماراً بدمشق لقضاء فصل صيف عام ١٩٢٩ م فيها ، ثم قضى صيفاً آخر في دمشق ليرحل إلى الهند رحلته الأخيرة ، فلما عاد مجدداً إلى دمشق أحس برغبة تدعوه للاستقرار فيها ، فعاد إلى التدريس والوعظ في مسجد زيد بن ثابت الشهير ، ولم ينقطع عن ذلك مدة تقرب من ثلاث سنوات ، إلا ثلاثة أيام ، اختاره الله إلى جواره في ثالثها وكان في العشرين من شعبان سنة ١٣٥٥ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٦ هـ فشيعته دمشق بمأتم حافل إلى مثواه الأخير **في الباب الصغير** .

أمين سويد المجمعي

كان الشيخ أمين سويد من الأوائل الذين فكرت الحكومة العربية عندما قامت في دمشق إثر جلاء الأتراك عنها ، أن تعهد إليهم بمهمة العناية **بالعربية في الدوائر الحكومية** وبنشر الثقافة العربية بين موظفي الدولة وبوضع المصطلحات العربية للكلمات التركية المتداولة بينهم ، فعينته بتاريخ ١٩١٨/١١/٢٨ م عضواً في الشعبة الأولى للترجمة والتأليف مع أربعة آخرين من العلماء الذين كانوا فيما بعد أعضاء في (**ديوان المعارف**) ومن مؤسسي المجمع العلمي العربي لمّا انقلب هذا الديوان بتاريخ ١٩١٩/٧/٨ إلى **مجمع علمي** .

وشارك الشيخ أمين سويد زملاءه أعضاء المجمع العلمي في رسم النهج الذي اختطه المجمع لنفسه لتحقيق أغراضه في خدمة العربية والنهوض بها ،

ولما غادر دمشق سنة ١٩٢٥ م تخلى عن العمل المجمعي ، واعتبر في عداد **الأعضاء المراسلين** حتى توفي رحمه الله .

منزلته العلمية وآثاره

بلغ الشيخ أمين سويد القمة بين علماء عصره في المشاركة بأنواع عديدة من العلوم الدينية ، كعلمي **التوحيد والفرائض** ، كما تفرد في علوم البحث **والمناظرة والأصول** ، إلا أن علم التصوف – وكان من المتبحرين فيه – طبعه ، كما طبع كبار علماء الشام المعاصرين له ، بطابع الزهد في التأليف والبعد عن الشهرة ، وعندما كلف بالتدريس في **معهد الحقوق العربي** ، اضطر إلى تدوين خلاصات عن ما كان يحاضر به ، ولكن لم أوفق للعثور عليها وقد عثرت في مكتبة أحد أولاده على المخطوطتين التاليتين :

١ – « **تسهيل الحصول على قواعد الأصول** » ، وهو عبارة عن رسالة موجزة تشتمل على قواعد وضوابط في علم أصول الفقه ، رتبت على مقدمة في مبادىء العلم وسبع مقالات وخاتمة في العقائد الدينية وجمل من الأخلاق المأثورة حوت على إشارات لطيفة تدل على ما كان مؤلفها رحمه الله ممتعاً به من أخلاق رضية مطبوعة بطابع **الزهد والتصوف** . والرسالة في قرابة المئة صفحة اطلعت عليها بنفسي وهي واضحة العبارة من السهل الممتنع ، وقد كتبها المؤلف بخطه وختمها بقوله : [قد تمت هذه الرسالة بعون الله في يوم الجمعة العاشر من ربيع الثاني من سنة اثنتين وعشرين بعد الألف والثلاثمائة في وادي معربة وهي قرية من قرى دمشق الشام ، ونسأله حسن الختام] .

٢ – « **علوم القرآن وأصوله** » ، وتقع في عشرين كراسة تقريباً ، وقد اطلعت على مقدمتها ، وهي في خمسين صفحة تقريباً بغير خط المؤلف ، يقول في

مستهلها : [هذه مقدمة محتوية على جملة من علوم القرآن وأصوله على سبيل الإجمال والاختصار ، مأخوذة مما جمعه **الإمام السيوطي** في كتابه **« الإتقان »** وقد أوصلها إلى ثمانين نوعاً ، مع إدماج بعضها في بعض ، مع زيادات انتخبتها من كتب المحققين] وتبين لي أن الثمانين نوعاً التي جمعها الإمام السيوطي قد اختصرها الشيخ أمين سويد إلى **سبعة وأربعين** نوعاً .

وقد أعلمني ابن الشيخ أن والده عكف عند إقامته في فلسطين ، على تدوين كتاب في تاريخ **« مدينة القدس »** من أقدم العصور ، ولكن مخطوطة هذا الكتاب فقدت خلال إحدى رحلات الشيخ المتعددة .

مصادر ترجمته

لم اعثر على ترجمة وافية للشيخ أمين سويد في مصدر مطبوع ، وقد اعتمدت في ترجمته هذه على معلومات زودني بها ابنه الأستاذ محمد ياسين سويد ، وعلى بعض الوثائق التي أطلعني عليها ، وقد وجدت إشارة مقتضبة إلى الشيخ في :

١ — **« معجم المؤلفين »** لعمر رضا كحالة ج ٣ ص ١٣ .

٢ — **« منتخبات التواريخ لدمشق »** لمحمد أديب تقي الدين الحصني ج ٢ ص ٨٨٧ دمشق ١٩٢٨ م .

- ٣ -

انيس سلوم

١٨٦٢ — ١٩٣١ م

حياته ودراسته

ولد أنيس بن ناصيف سلوم في مدينة حمص، **من أسرة حمصية غسانية الارومة،** وذلك سنة ١٨٦٢ م الموافقة لسنة ١٢٧٨ هـ ، وفيها بدأ بتلقي مبادىء التعليم الأولي ، ولما شارفت سنة ١٨٦٩ م على نهايتها فوجىء أنيس بانتقال أسرته إلى مدينة حماة ، حيث أسندت إلى أبيه مهمـــة تبشيرية تستدعي العمل على تأسيس كنيسة إنجيلية لأول مرة ، وأخذ الصغير يتابع تلقف العلوم الابتدائية في بيته وعلى أبيه واعظ الكنيسة الإنجيلية المحدثة ، ولكن رغبته في متابعة تعليمه الثانوي ، وظهور معالم النجابة فيه ، دفعت أباه إلى إرساله سنة ١٨٧٥ م إلى مدرسة (عبيه) في جبل لبنان . وفي هذه المدرسة بدأ أنيس سلوم يتلقى تعليماً مدرسياً نظامياً استطاع معه أن يتقن علوم العربية ويلم بمبادىء اللغة الإنكليزية ، ولما تخرّج من المدرسة سنة ١٨٧٧ م كانت بوادر نبوغه قد تجلت في حفظه الكتاب المقدّس .

عاد أنيس سلوم إلى حماة ليتعاطى مهنة التعليم في إحدى المدارس الابتدائية التي عمل مع والده على تأسيسهـا ، وكان إلى جانب التدريس يتابع تعلم

الإنكليزية ، استعداداً للالتحاق بالمدرسة البروتستانتية السورية في بيروت (**الجامعة الأميركية**) ليتم فيها دراسته ، ولكن المنية داهمت أباه الواعظ الإنجيلي سنة ١٨٧٩ م ، فما وُجد غيره ، وكان قد اشتهر بثقافة إنجيلية واسعة ، ليحل محله في الوعظ ، فصعد أنيس منبر الكنيسة يعظ أفراد الطائفة الإنجيلية ، **وهو فتى يافع** ، على أنه لم ينس الاستزادة من العلم ، فظل يتابع الدراسة والتحصيل ويطلع على آداب اللغة العربية وتاريخها ، ويجهد في حفظ سور من القرآن الكريم لزيادة تمكنه من العربية ، **حتى اشتهر بين الناس بالتضلع في علم اللغة ، وبامتلاك ناصيتي النظم والنثر والقدرة على الارتجال** .

وفي سنة ١٨٨٣ م انتسب أنيس سلوم إلى مدرسة في لبنان تعلم (**اللاهوت**) لزيادة حظه من هذا العلم وتمهيداً لاختياره راعياً للكنيسة الإنجيلية في حماة ، فلما عاد إليها ، بعد سنة أتم خلالها دورة أهلته للمنصب الذي كان يطمع فيه ، **عين راعياً لتلك الكنيسة** ، فقام بخدمتها على خير وجه ، حتى كانت سنة ١٨٩٥ م ففيها اضطر أنيس سلوم إلى مغادرة حماة تاركاً منصبه الديني لاجئاً إلى قرية (بشمزين) من أعمال الكورة في جبل لبنان ، **مبتعداً عن مضايقة السلطات المحلية له** بعد أن وفد على حماة متصرف جديد كان يضمر له شراً لشعر نظمه ممتدحاً به أحد خصومه يوم كان متصرفاً على مدينة عكا من أعمال فلسطين .

وفي قرية بشمزين تابع أنيس سلوم نشاطه في الحقلين **الديني والأدبي** بالقدر المستطاع ، فلما كانت سنة ١٨٩٧ م دعته الطائفة الإنجيلية في دمشق **إلى رعاية كنيستها** ، فانتقل إليها يتولى الشؤون الطائفية فيها ، ولم تمض عليه مدة حتى عرفته **دمشق كلها** خطيباً جهوري الصوت في المحافل السياسية



الاستاذ أنيس سلوم

والوطنية ، ومتكلماً يحسن الحديث في الندوات العلمية والأدبية ، فضلاً عن شهرته في الوعظ والإرشاد في الكنيسة الإنجيلية . سمعه **أمير البيان الأمير شكيب أرسلان** يخطب مرة في حفل أقيم بدمشق في حزيران سنة ١٩١١ م ، فكتب الأمير في جريدة « المقتبس » يصف الحفل وكان مما كتبه عن أنيس سلوم قوله : [.. وأما الخطيب الأنيس فهو **خطيب فطرة وواعظ طبعاً** ، لو أطال أكثر مما قال لما أملّ سامعاً ، وقد كنت ترى أحياناً من الفصاحة في إشاراته ما يباري الفصاحة في عباراته إن لم يزد عليها . ولذلك أطرب الحضور نظمه فضلاً عن مرسله ، وصفقت له الأيدي تصفيقاً ..] .

وفي سنة **١٩٠٩** م انتخب أنيس سلوم **نائباً في المجلس العمومي لولاية سورية** عن مدينة حماة ، ثم تكرر انتخابه عدة مرات ، وفي ربيع سنة ١٩١٦ م ، وكانت نيران الحرب العالمية الأولى قد اندلعت ، وخضعت سورية للحكم العسكري المباشر ، قام قائد الجيش العثماني الرابع ، بنفي كثير من رجالات البلاد الوطنيين والسياسيين إلى بلاد الأناضول ، وكان أنيس سلوم **واحداً من المنفيين** إلى مدينة (**توقات**) من أعمال ولاية سيواس ، وظل منفياً إلى منتصف سنة **١٩١٨** م يوم صدر عفو عام عن المنفيين السياسيين ، فعاد أنيس إلى دمشق ، قبيل جلاء الأتراك عنها ، ولما تألفت الحكومة العربية فيها ، عينته **مشرفاً على لغة الدواوين** ثم عضواً في الشعبة الأولى للتأليف والترجمة ، كما عاد راعياً للكنيسة الإنجيلية، **وخطيباً لَسِناً ومحاضراً حلو الحديث في مختلف المحافل والندوات** ،حتى إذا ما كانت سنة **١٩٢٦** م اعتلت صحة أنيس سلوم فخف نشاطه ، ورغب في اعتزال الوعظ في الكنيسة والتزام البيت .

وبتاريخ ١٩٣٠/١١/٧ أقامت الكنيسة **الإنجيلية** بدمشق حفلة كبرى تكريماً لراعيها السابق . وكانت حفلة مشهودة تناسبت مع مكانة الأستاذ

أنيس سلوم العلمية والأدبية ، تجلت فيها عواطف الناس نحو من كان يبذل جهده في سبيل خدمتهم ، وظل أنيس سلوم ملتزماً بيته إلى أن وافاه الأجل في العاشر من شهر كانون الأول سنة ١٩٣١ م الموافقة لسنة ١٣٥٠ هـ ، فدفن في دمشق يوم الجمعة في ١٩٣١/١٢/١١ م بمأتم حافل ضم رجال الحكومة ورجالات مختلف الطوائف ، وكثيراً من العلماء والمفكرين يتقدمهم زملاؤه أعضاء المجمع العلمي العربي .

أنيس سلوم المجمعي

عندما تألفت أول حكومة عربية في دمشق ، إثر جلاء الأتراك عنها سنة ١٩١٨ م ، كانت العناية بلغة الدواوين وتصحيح أساليب المراسلات الحكومية ، في طليعة المهام التي تطلعت إلى القيام بها ، وقد وجدت في الأستاذ أنيس سلوم خير من يكلف بالمهمة المذكورة ، فعهدت إليه **بالإشراف على لغة الدواوين ومراقبة المراسلات الرسمية** من حيث إنشاؤها ، والعمل على إرشاد الشباب من موظفي الحكومة إلى الفصيح من الأساليب والصحيح من العبارات .

وأخذ الأستاذ أنيس سلوم يجمع شباب الموظفين في غرفته بدار الحكومة ، ويملي عليهم أمالي في قواعد اللغة العربية وأصول الإنشاء ومبادئ البلاغة والبيان . ولكن الحكومة لم تلبث أن عرفت بأن المهمة التي ألقتها على عاتق الأستاذ أنيس سلوم مهمة عسيرة **تحتاج إلى جهود آخرين معه** ، فعمدت بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ م إلى تأليف الديوان الذي أطلقت عليه اسم (**الشعبة الاولى للترجمة والتأليف**) واختارت لعضويته الأستاذ أنيس سلوم مع أربعة آخرين من العلماء ، ثم عمدت بتاريخ ١٢ شباط

(فبراير) ١٩١٩ إلى تحويل الشعبة المذكورة إلى (**ديوان المعارف**) كان نواة المجمع العلمي العربي .

وقام الأستاذ أنيس سلوم مشاركاً زملاءه أعضاء المجمع العلمي المؤسسين ، يعمل على تحقيق الأغراض التي أنشىء من أجلها ، وضمن النهج الذي اختطوه لأنفسهم ، وقد شغل نيابة رياسة المجمع في دورة ١٩٢٣ م ، وأدار المجمع فترة من الزمن خلال غياب الأستاذ الرئيس ، وكان في مقدمة الأعضاء حيوية ونشاطا ، رثاه نائب رئيس المجمع الشيخ عبد القادر المغربي يوم وفاته ، فكان مما قاله :

[.. كانت معارف الأستاذ سلوم اللغوية وذوقه الصحيح في الفصيح من كلماتها وأساليبها ثروة المجمع أفادته في ما هو بسبيله من خدمة اللغة وإصلاح أغلاط الكتّاب ووضع كلمات جديدة تفي بحاجة الاصطلاحات العلمية والفنية والإدارية ..]

كما رثاه من زملائه المجمعيين الأستاذ فارس الخوري فقال :

[... وله في ناحية اللغة ، التي كان معدوداً بين علمائها الثقات ، منزلة من التدقيق والتحقيق قلما بلغها نحرير غيره من المعاصرين ، فقد كان رحمه الله مرجعاً موثوقاً به في ضبط الألفاظ وصحة التركيب وسلامة الإعراب وحفظ المفردات . مع مهارة غريبة باستحضار الكلمات ووضعها في مواضعها ببلاغة نادرة ، وسبك متين وانسجام رائق ..] .

آثار أنيس سلوم العلمية والأدبية

عندما بدأ الأستاذ أنيس سلوم حياته العلمية معلماً ، صنّف عدداً من الكتب المدرسية المختصرة في علوم الصرف والنحو والبيان والمنطق والاقتصاد

والاجتماع والفلسفة ، ولكن عندما لمع نجمه في عالم الوعظ والخطابة والشعر ، أهمل الواعظ والخطيب والشاعر ، جمع مواعظه أو خطبه لكثرة المرتجل فيها ، كما أهمل جمع شعره على وفرة الجيد فيه (١) ، على أن أحد خلفائه في رعاية الكنيسة الإنجيلية بدمشق ، تمكن من جمع طاقات ونبذ من كل ذلك ، مع ما قيل في حفلة تكريمه عند اعتزاله منصبه ، وما قيل في رثائه عندما توفي .

هذا وكان أنيس سلوم قد ألقى في ردهة المجمع العلمي عـــدداً من المحاضرات الأدبية والاجتماعية ، وقد نشرت بعض محاضراته في الجزء الأول من [محاضرات المجمع العلمي العربي] المطبوع في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م ، والمنشور من هذه المحاضرات هو :

---

(١) كان أنيس سلوم يعد في عصره من الشعراء المجيدين ، ونحن نجد اليوم فيما يروى عنه كثيراً من المقطوعات والأبيات التي تدل على نفس شاعرية رقيقة ، كما نجد له كثيراً من المساجلات الشعرية مع كثير من علماء أو شعراء عصره ، وكلها مطبوعة بطابع ذلك العصر ، على أن أهم ما امتاز به أنيس سلوم هو الشعر المصنوع ، إذ كان يحسن التشطير والتضمين والتطريز والتشجير والتأريخ وغير ذلك من الصناعات الشعرية التي كانت شائعة يُتفاخر بها ، وكان لأنيس سلوم في كل هذه الصناعات باع طويل يدل على تمكن من اللغة وسعة مفرداتها لديه ، من ذلك بيتان نظمهما يؤرخ فيهما وفاة والده قال :

لما مضى من هــذه الدنيا أبي وطفقت أبكي صارخاً يا والد
ناداني التاريخ : كفّ عن البكا فأبوك في دار السعادة خالد

سنة ١٨٧٩ م

ومنه بيت ارتجله مؤرخاً به وفاة (فضيلة) ابنة زميله المجمعي الشيخ عبد القادر المغربي قال :

علمتها التقوى فنالت أجرهـــا وتلك في تاريخها (فضيلتك)

سنة ١٣٤٠ هـ

١ — « العلم » محاضرة ألقيت في ١٩٢١/٧/٢١ م ، وجاءت في الكتاب في ١٧ صفحة من القطع الكبير .

٢ — « العمل بالعلم » محاضرة ألقيت في ١٩٢١/١١/٢٤ م ، وجاءت في الكتاب في ٢١ صفحة من القطع الكبير .

٣ — « الكتب والمطالعة » محاضرة ألقيت في ١٩٢٢/١٠/٢٧ م ، وجاءت في الكتاب في ٢١ صفحة من القطع الكبير .

كما حوت مجلة المجمع في مجلداتها الخمسة الأولى الصادرة قبل سنة ١٩٢٦ م ، نبذاً عديدة بقلم الأستاذ أنيس سلوم في تعريف ونقد بعض الكتب الحديثة .

مصادر ترجمته

توجد ترجمة للأستاذ أنيس سلوم في كل من الكتب التالية :

١ — « ذكرى أنيس سلوم » وهو كتاب جمعه شاكر الدبس وقد أشرنا إليه آنفاً ، وطبع في دمشق سنة ١٩٣٤ م ، وفي الكتاب إشارة إلى أن الترجمة منقولة بتصرف عن كتاب « مشاهير حمص » تأليف وجيه وهبة الخوري ، وأنه قيد التأليف ؟

٢ — « أعلام الأدب والفن » لأدهم الجندي ج ١ ص ٥٠ .

- ٤ -

سعيد الكرمي

١٨٥٢ — ١٩٣٥ م

نشأته وحياته

في سنة ١٢٦٧ للهجرة الموافقة لسنة ١٨٥٢ للميلاد ، ولد في مدينة (**طولكرم**) من أعمال فلسطين سعيد بن علي الكرمي ، في أسرة فلسطينية ، جدّها الأول هاجر إلى فلسطين من مصر ، وكان من أفراد قبيلة من **عرب اليمن** رافقت عمرو بن العاص إبّان الفتح الإسلامي لمصر ، ثم استوطنت إقليم « **محافظة الشرقية** » منها .

تلقى سعيد الكرمي تعليمه الأولي في طولكرم ، ثم بعثه والده إلى مصر للالتحاق **بالجامع الأزهر** ، وفي هذا الجامع تلقى علوم العربية والدين ، حتى تخرج منه بعد بضع سنوات حضر خلالها دروس الإمام الشيخ محمد عبده ، واتصل بالشيخ جمال الدين الأفغاني ، وأحكم الصلات بينه وبين كثير من علماء مصر المشهورين في ذلك العصر .

وعاد الشيخ سعيد الكرمي إلى بلده في فلسطين ، فانتسب إلى سلك التعليم ، ثم عين مفتشاً للمعارف في قضاء بني صعب ، ثم **تولى منصب الإفتاء في قضاء طولكرم** ، وكانت إذ ذاك طلائع النهضة العربية المعاصرة بدأت بالتحرك ،

فالتحق سعيد الكرمي برجالها منتسباً إلى جمعية « **حزب اللامركزية العثماني** » التي كانت تضم طائفة كبيرة من أحرار العرب ومثقفيهم ، فأخذ يعمل معهم في سبيل تحقيق أغراضها في طولكرم وفي غيرها من بلاد فلسطين .

وعشية اندلاع نار الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م ، وبعد اشتراك الدولة العثمانية فيها ، أخذت السلطات العسكرية في ديار الشام تلاحق شباب العرب ومفكريهم منكلة بهم للقضاء على فكرة « « **الثورة العربية** » التي تعتلج في نفوس العرب الخاضعين للحكم العثماني . وكان الشيخ سعيد الكرمي في عداد من سيق أمام **المجلس العرفي** في عاليه (لبنان) سنة ١٩١٥ م ، ثم كان اسمه مع من حكم عليهم بالإعدام ، غير أنه نجـــا من الموت الذي لاقاه رفاقه الأحرار ، بفضل سنه التي كانت قد تجاوزت الرابعة والستين .

وفي شهر شباط (فبراير) ١٩١٨ م ، وكانت الحرب العالمية على وشك الانتهاء ، أصدرت السلطات العثمانية عفواً عاماً خرج الشيخ سعيد الكرمي على إثره من سجنه في قلعة دمشق ، بعد أن نقل إليها وقضى قرابة سنتين وسبعة أشهر سجيناً ، وأقام الشيخ في دمشق مدة ، ثم قفل راجعاً إلى بلده في فلسطين .

ولما قامت في دمشق أول حكومة عربية فيها بعد جلاء الأتراك عنها ، اختارت هذه الحكومة الشيخ سعيداً الكرمي بين من اختارتهم أعضاء في الشعبة الأولى للترجمة والتأليف **نواة المجمع العلمي العربي** ، وقد كان من أعضائه **المؤسسين الموظفين** ، وقـد أقام في دمشق إلى أن دعته الحكومة العربية التي قامت في شرقي الأردن بعد احتلال الفرنسيين لسورية ، فلبى الدعوة وغادر دمشق في أوائل شهر أيار (مايو) سنة ١٩٢٢ م إلى عمّان ، وفيها أسندت إليه حكومتها منصب **قاضي القضاة ووكيل الأمور الشرعية** ،



الشيخ سعيد السكري

وكانت هذه الوكالة أحـــد مناصب حكومة الوكلاء التي كانت تدير إمارة الشرق العربي ، كما كان ، بحكم منصبه ، يقوم **برياسة مجلس المعارف** .

وظل الشيخ سعيد الكرمي يشغل منصب قاضي القضـاة في حكومة شرقيّ الأردن ، حتى نهاية عام ١٩٢٦ م ففيها اعتزل المناصب الحكومية ، وعاد إلى مدينة طولكرم مسقط رأسه في فلسطين ، وفيها عاش بقية حياته حتى انتقل إلى جوار ربه يوم الأحد في ٥ ذي القعدة سنة ١٣٥٥ هـ الموافق لـ ١٨ آذار (مارس) سنة ١٩٣٥ م وفي ثراها دفن .

سعيد الكرمي المجمعي

كان الشيخ سعيد الكرمي ، من الأوائل الذين اعتمدت عليهم أول حكومة عربية في سورية المعاصرة ، في حمل عبء النهوض بالعربية وإصلاح لغـــة الدواوين ، فكان من أعضاء **الشعبة الأولى للترجمة والتأليف** الذين عينوا بتاريخ ٨ آذار (مارس) ١٩١٨ م ، ثم أصبح عضواً في « **ديوان المعارف** » الذي انقلب إلى **مجمع علمي** بتاريخ ٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٩ م ، وكان من حاضري الجلسة الأولى للمجمع يوم ٣٠ ذي القعدة سنة ١٣٣٧ هـ الموافق ٣٠ تموز (يوليو) سنة ١٩١٩ م .

عمل الشيخ سعيد الكرمي مع زملائه في **إقامة بناء المجمع العلمي العربي** على أسس متينة ، ولما أسند منصب وزير المعارف إلى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، تولى الشيخ الكرمي **نيابة الرياسة** ، فأدار أعمال المجمع وداري الآثار والكتب الظاهرية لمدة سنتين على أحسن وجه ، مشرفاً على إصدار **مجلة المجمع** في مجلديها الأولين مشاركاً في تحريرها ، وكان من حسن إدارته أن رأت السلطة الفرنسية المنتدبة على سورية ، إظهار احترامها للعلماء العرب

عامة ، وتقديرها المجمع العلمي العربي بدمشق بصورة خاصة ، باختيار نائب رئيسه الشيخ سعيد الكرمي ، رمزاً لذلك الاحترام وهذا التقدير . فمنحته وسام جوقة الشرف من رتبة فارس ، وقد أقيم حفل كبير بمناسبة هذا الاختيار، بتاريخ ١ أيلول (سبتمبر) ١٩٢١ م بدار الحكومة بدمشق حضره أركان الحكومة ، وافتتحه مدير المعارف العام الأستاذ الرئيس محمد كرد علي بكلمة قال فيها : يعلق الآن وسام جوقة الشرف من رتبة (شفاليه) على صدر عالم كبير من علماء الأمة ، خدم مجتمعها لترقيته ونهوضه ، وسعى لإحياء آدابها لينير بها الأفكار الخاملة المظلمة . الأستاذ الشيخ سعيد الكرمي من الأعضاء العاملين في المجمع العلمي العربي توفر منذ نشأته على خدمة الغرض الذي أنشىء لأجله ، وهو خدمة اللغة العربية في علومها وآدابها وبث الحضارة العربية في نفوس قراء لغتنا ، ودار الآثار التي أنشأها المجمع ودار الكتب التي زاد في أسفارها ضعفا ، والمحاضرات التي يلقيها كل أسبوع أعضاؤه ورجال العلم من أهل الإخصاء ، ومجلته التي تنشر كل أعماله ، كل ذلك من الأعمال التي قام بها مجمعنا على كثرة المقاومين في مبدأ أمره ..] .

وكان مما قاله الشيخ سعيد الكرمي بعد الاحتفال بتعليق الوسام على صدره :

[لما أسعدني الحظ بوقوفي بين هؤلاء السادة الأكابر ، لأتقلد الوسام الذي لا يعطى إلا لأهل المآثر :

عطست بأنف شامخ وتناولت   يداي الثريا قاعداً غـــير قائم

.. لقد صرت الآن كاسمي سعيداً ، وسأخطو في خدمة أمتي إن شاء الله شوطاً بعيداً ، فاني حملت منةً أثقلت كاهلي ، وضاق عن شكرها لساني وقلمي ، وسأواظب على الدعاء للوطن الذي شرفني خدمته ، وبجلتني بغير استحقاق أمته ، أن يسعد في عهد الحكومة الحاضرة ...[1]] .

---

(١) انظر مجلة المجمع مج ١ ص ٢٧٧ .

ووفى الشيخ سعيد الكرمي بعهده فظل يوالي إدارة المجمع العلمي ، مشاركاً في تحرير مجلته إلى نهاية شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٢ م ، يوم قبل دعوة حكومة الشرق العربي فغادر دمشق إلى عمّان ممتزلاً وظيفته في المجمع العلمي العربي ، على أنه ظل **عضواً مراسلاً له** في كل من شرقي الأردن وفلسطين .

وكان من أعمال الشيخ سعيد الكرمي المجمعية ، في مطلع إقامته بعمّان ، محاولته مع لفيف من العلماء والأدباء المقيمين فيها ، **تأسيس مجمع علمي للشرق العربي** يكون نظيراً لمجمع دمشق ، وتم إقناع أمير البلاد بجلال هذه الفكرة وبضرورة تبنيها والعمل على تحقيقها للنهوض بالعربية وخدمة آدابها في القطر الأردني ، ومناظرة سورية في هذا المضمار ، وبتاريخ ٤ ذي الحجة سنة ١٣٤١ هـ ، الموافق ١٧ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٣ م ، تلقى رئيس الحكومة الأردنية من رئيس الديوان الأميري الكتاب ذا الرقم ٨٠٥ التالي نصه :

[جواباً عن كتابي فخامتكم المؤرخين في ٢٧ حزيران رقم ١٤٦٨ و ٨ تموز ١٩٢٣ رقم ١٥٥٤ ، ورغبة في إحياء الآثار القومية ، ورفع منار المعارف العربية ، فقد صدرت إرادة سيدي ومولاي صاحب السمو الملكي المعظم بتأسيس « **مجمع علمي** » بحماية سموه العالي ، يكون رئيساً له سماحة الأستاذ وكيل الأمور الشرعية **الشيخ سعيد الكرمي** وأعضاؤه : الفيلسوف العلامة رضا توفيق بك ، والأستاذ اللغوي المفضال الشيخ مصطفى الغلاييني ، والأستاذ الفاضل السيد رشيد بقدونس ، ومدير الجريدة الأديب السيد محمد الشريقي ، ليكونوا أعضاء عاملين ينتخبون إخوانهم من الأعضاء الفخريين في الأقاليم العربية كافة على الطريقة التي يقررونها ، ليكون ذلك **عاملاً قوياً من عوامل إحكام صلة التعارف العلمي والقومي بين الناطقين بالضاد** . كما أن الأعضاء العاملين يكونون في الوقت نفسه هيئة إدارية لمصلحة الآثار .

وقد أمر سموه أيده الله بإنشاء مجلة باسم **«مجلة المجمع العلمي في الشرق العربي»** على أن يقوم بشؤونها أعضاؤه العاملون، وأن ينفق على إنشائها من واردات الجريدة والمطبعة الرسمية .

فتفضلوا بإبلاغ من يلزم لإجراء ما يجب وفقاً لمنطوق الإرادة المطاعة . واقبلوا التحيات والاحترام] .

ورحب المجمع العلمي العربي بدمشق بالمجمع الجديد ، ونشرت مجلته في ص ٤٦ من المجلد الرابع لسنة ١٩٢٤ م خبر إنشاء المجمع العلمي في الشرق العربي ، قائلة : [.. وعلمنا أنه انتخب أعضـاء شرف له العلماء الرصفاء أحمد زكي باشا **ورئيس مجمعنا العلمي السيد محمد كرد علي** والشيخ أحمد عباس الأزهري والأب أنستاس الكرملي والسيد إسعاف النشاشيبي ، وفي تلك النشرة ان المجمع سيعنى بإحياء اللغة العربية ، ونشر المدارس والمؤلفات وإلقاء المحاضرات ، وإنشاء دار كتب وإصدار مجلة شهرية . **فنرحب بهذا الرصيف الجديد**] .

ورغم أن هذا المجمع العلمي بدأ أعماله وعقد أعضاؤه العاملون **برياسة الشيخ سعيد الكرمي** عدداً من الجلسات قرر فيها جملة من المقررات المتعلقة باللغة والمصطلحات الادارية ، إلا أن عوامل عديدة أدت بعد فترة من الزمن إلى توقف أعماله ثم إلى إلغائه .

وعندما لحق الشيخ سعيد الكرمي سنة ١٩٣٥ م بالرفيق الأعلى ، كان المجمع العلمي العربي بدمشق في أزمة داخلية ومجلته متوقفة عن الصدور ، فلما عاودت صدورهـا أشارت في ص ٣١٨ من المجلد ١٣ ، إلى وفاة الشيخ الكرمي عضو المجمع العلمي باثة حزنها عليه ، دون أن تتمكن من الوفاء بحقه عليها ، ولعلها ، **بنشر هذه الترجمة له اليوم ، تفيه بعض حقه .**

منزلة الشيخ سعيد الكرمي وآثاره العلمية:

كان الشيخ سعيد الكرمي من طلائع رجال النهضة العربية المعاصرة ، **فقيهاً بالدين وباللغة** عالماً بأسرارها ، **أديباً** يحسن الخطابة والاستشهاد ، **ناثراً** يحب السجع في كثير من الأحيان ، يقرض الشعر وله قصائد يحاكي فيها شعراء الجاهلية بالجزالة والصور البدوية ، كما له شعر من قبيل الموشحات ، ونظم على طريقة علماء اللغة ، في تسهيل النحو وبعض علوم اللغة ، كما كان يعنى بنظم **شعر التأريخ** .

أما آثار الشيخ سعيد الكرمي العلمية فهي قليلة **لا تتناسب مع منزلته العلمية** والمكانة الاجتماعية التي له ، وذلك لاشتغاله في أول أمره بالشؤون السياسية ، ولتسنمه فيما بعد المناصب الحكومية الرفيعة وانشغاله بها ، هذا إضافة إلى ما طبع عليه من زهد وحب للتصوف ، على أنه كان في صدر شبـابه قد طبع سنة ١٢٩٢ هـ — ١٨٧٥م ، رسالة في التصوف بعنوان (**واضح البرهان في الرد على أهل البهتان**) .

وعندما كان يشرف على إصدار مجلة المجمع العلمي العربي ، كان يشارك في تحريرها ، باحثاً في أهمية دور الكتب الوطنية وفائدتها في المجتمع ، **واصفاً نفائس المخطوطات والعاديات** ، معرفاً بالجديد من المطبوعات ، ومن أهم الموضوعات التي نشرها في هذه المجلة بحث طويل بعنوان (**الإعلام بمعاني الأعلام**) وهو محاولة ترتيب جديد لكتاب (**الاشتقاق**) لابن دريد ، وقد استغرق من المجلة ما يقرب من خمسين صفحة من القطع الكبير ، نشر في سبعة من أجزاء مجلدي السنتين الأولى والثانية . وله بحث آخر بعنوان (**اللغة والدخيل فيها**) استغرق نشره تسع صفحات من المجلد الأول بدءاً من ص ١٢٩ .

كما ألقى الشيخ سعيد الكرمي في ردهة محاضرات المجمع، بتاريخ ٨ تموز (يوليو) ١٩٢١ م محاضرة بعنوان (**بماذا يكون انتظام المجتمع الإنساني**) وقد نشرت في مجلة المجمع، وجاءت في أربع عشرة صفحة [1] .

مصادر ترجمته

لم أعثر على ترجمة للشيخ سعيد الكرمي بقلمه، كما لم يترجمه أحد ترجمة وافية، وقد استقيت كثيراً من المعلومات عنه من ابنه الأستاذ عبد الكريم الكرمي (**الشاعر أبو سلمى**) الذي أخبرني بأنه يعد كتاباً عن حياة أبيه وآثاره العلمية .

على أن ترجمة مقتضبة للشيخ الكرمي وردت في المصادر التالية :

١ — « **مجلة الأديب** » بقلم يعقوب عويدات، بيروت عدد حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٨ م .

٢ — « **أعلام الأدب والفن** » لأدهم الجندي ج ١ ص ٣٦٨ .

٣ — « **معجم المؤلفين** » لعمر رضا كحالة ج ٤ ص ٢٢٨ .

❖❖

(١) انظر المجلة مج ١ ص ٢٢٥ .

- ٥ -

عبد القادر المغربي

١٨٦٧ — ١٩٥٦ م

نشأته وحياته

ولد **عبد القادر بن مصطفى المغربي** في مدينة اللاذقية على الساحل السوري في الرابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٤ هـ الموافقة لسنة ١٨٦٧ م ، وكان أبوه قد سكن اللاذقية عندما انتقل إليها ليتولى فيها القضاء ، وهو من مدينة طرابلس ، إحدى مدن ساحل بلاد الشام ، ولد فيها لأسرة كان جدها ، ذو الأرومة التركية ، قد هاجر إليها من بلاد تونس الخضراء في **المغرب العربي** ، فنسب إلى هذا المغرب هو وأحفاده من بعده .

تلقى عبد القادر المغربي علوم الدين واللغة على شيوخ عصره في طرابلس بعد أن عاد أبوه إليها ، كما رحل إلى بيروت يتلقى العلم عن شيوخها ، وما شبّ إلا وقد حفظ المتون في الفقه واللغة والأدب ، فعين في إحدى وظائف القضاء الشرعي الكتابية ، وبقي في وظيفته بضع سنوات ، رحل بعدها في سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م إلى **الآستانة عاصمة الدولة العثمانية** ، طلباً للمعرفة وسعياً وراء وظيفة أعلى ، وفيها التقى بكثير من رجال الفكر وعلماء العصر ، وفي طليعتهم **الشيخ جمال الدين الأفغاني** فأحكم الصلة معه



الشيخ عبد القادر المغربي

متلقياً عنه فكرة الاصلاح الديني والاجتماعي ، مرتبطاً عن طريقها **بالإمام الشيخ محمد عبده** ، وما أن عاد الشيخ عبد القادر المغربي إلى طرابلس سنة ١٣١١ هـ — ١٨٩٣ م ، حتى عين عضواً في مجلس معارفها ، فأخذ ينشر فكرته ويدعو إلى حرية الرأي والتجديد حتى ضاق بفكرته العلماء المتزمتون ، وضاقت بآرائه السلطات الحاكمة ، فبدأت بمضايقته ومراقبة خطواته ، ثم عمدت إلى اعتقاله في مدينة بيروت لمدة أشهر ، فلما أفرجت عنه ولاحت له فرصة للهرب من مضايقاتها ، فرّ بفكرته وآرائه إلى مصر للالتحاق فيها بأعوان الإمام الشيخ محمد عبده ، وكانت هجرته هذه عام ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م ، السنة التي توفي فيها الإمام .

ظل الشيخ عبد القادر المغربي على عهده للإمام ، يتصل بأشياعه من العلماء والمفكرين ويوثق الصلات بينه وبينهم ، وأخذ يحرر في جريدة « **الظاهر** » ، ثم انتقل سنة ١٩٠٦ م إلى جريدة « **المؤيد** » ينشر فيها المقالات الجريئة والبحوث الطريفة ، **داعياً إلى تبني فكرة شيخيه الأفغاني ومحمد عبده** .

وشغل الناس بمصر بمقالات الشيخ وبحوثه ، وعليها قامت صداقات وصلات ودّ كثيرة بينه وبين كثير من المفكرين والأدباء المعجبين بما كان ينشره ، أو يحدثهم به في الندوات الخاصة .

وفي أواخر سنة ١٩٠٨ م أعلن الدستور العثماني ، وتنسمت سورية والبلاد العثمانية الأخرى روائح الحرية ، فهاج الشيخ عبد القادر المغربي الشوق إلى مرابع صباه ومهوى فؤاده ، فخف عائداً إلى طرابلس ، وقد عبّر أحد كبار شعراء مصر في ذلك العصر عن اللوعة التي تركها الشيخ المغربي في نفوس أصدقائه وعارفي فضله ، إذ كتب إليه الشيخ محمد عبد المطلب قصيدة طويلة يعتذر له عن عدم الخروج لوداعه ، قائلاً فيها :

فهل مبلغٌ أشواقَ مصرَ وأهلِها ... نسيمٌ يوافي «المغربيَّ» فيُسمِعا
أقام بها حيناً من الدهر لم يكن ... سوى البحر فياضاً، سوى الليث أروعا
سوى الشَّرع آداباً، سوى الحلم شيمةً ... سوى الفضل جلباباً، سوى الصدق مهيعا
له قلمٌ يعلو به الحقُّ إن جرى ... وكان به يحلو «المؤيَّدُ» مشرَعا
إذا استلَّه في المُعضِلات رأيتَه ... به اللهُ تبيـــانَ الحقائق أودعا
ثوى بيننـــا في سيرةٍ نبويّة ... نشمُّ بهـا رَوْحاً من المسك أسطعا
أساءت إليـــه الحادثاتُ بأرضه ... وربَّ مسيءٍ رام ضرّاً لينفعا (١)

وكان مما حدث خلال الفترة التي قضاها الشيخ عبـــد القادر المغربي في مصر، أن وجه إليه بعض علماء اللغة نقداً شديداً **لتساهله في استعمال المفردات المعرَّبة والدخيلة وبعض الكلمات المولدة**، في المقالات التي كان ينشرها في «المؤيد» بين سنتي ١٩٠٦ – ١٩٠٩ م، فما كان من الشيخ إلا أن أخذ ينشر ردوداً على منتقديه يحتج بها لنفسه، فألفت ردوده كتاباً طبعه في مصر سنة ١٩٠٨ م باسم (**الاشتقاق والتعريب**) وأعادت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعه سنة ١٩٤٧ م، بعد أن أضاف الشيخ إليه مباحث وفوائد جديدة.

وعاد الشيخ عبد القادر المغربي إلى مدينته طرابلس، **كاتباً مرموقاً يحرر في مختلف الجرائد والمجلات**، ويكاتب الصحف المصرية، داعياً إلى نهضة اجتماعية شاملة، وفي سنة ١٩١١ م أنشأ في طرابلس جريدة «**البرهان**» واستمر في اصدارها إلى سنة ١٩١٤ م، وقد توقفت بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى، فكلفته الحكومة العثمانية بالتعاون مع الأمير شكيب أرسلان في العمل على

(١) تنوف أبيات القصيدة على الستين وهي مثبتة في ديوان عبد المطلب المطبوع في القاهرة سنة ١٩٣٢ بشرح إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ص ١٣٩ .

تأسيس **مدرسة علمية عالية في المدينة المنورة** ، ولكن ظروف الحرب حالت دون تحقيق هذه المهمة ، ثم كان واحداً ممن كلفوا بالتعاون مع الشيخ عبد العزيز جاويش سنة ١٩١٥ م من أجل تأسيس « **كلية صلاح الدين الأيوبي** » في مدينة القدس ، لغرض تخريج دعاة للدين الإسلامي يجمعون بين الثقافتين الدينية والعصرية ، وقام بتدريس « **السيرة النبوية** » و « **فنون البلاغة** » في هذه الكلية .

وفي سنة ١٩١٦ م ، عندما قررت السلطات العسكرية في سورية اصدار جريدة عربية بدمشق باسم « **الشرق** » ، اختارت الشيخ عبد القادر المغربي مديراً لهيئة تحريرها ، فجاء الشيخ دمشق وأقام فيها ، ولما جلا الأتراك عنها سنة ١٩١٨ م ، اختارته الحكومة العربية التي تألفت إثر ذلك ، **للمشاركة في النهوض بلغة الدواوين** ، ثم كان عضواً في « **ديوان المعارف** » ، ثم أصبح عضواً متفرغاً في المجمع العلمي العربي ، وقد كلف سنة ١٩٢٣ م بتدريس اللغة العربية وآدابها في **معهد الحقوق العربي** بدمشق .

وفي سنة ١٩٤١ م ، انتخب الشيخ عبد القادر المغربي **نائباً لرئيس المجمع العلمي العربي** ، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن انتقل إلى دار الخلود صباح يوم السابع والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٧٥ هـ وفق السابع من حزيران (يونيو) سنة ١٩٥٦ م ، فشيعته دمشق بموكب حافل اشترك فيه أهل العلم والفكر باكين العالم المصلح ، والأديب الموهوب المتحلي ، بمكارم الأخلاق يوارى الثرى في مثواه الأخير ، بسفح **جبل قاسيون** جبل دمشق الشامخ .

عبد القادر المغربي المجمعي

عندما عزمت الحكومة العربية في سورية سنة ١٩١٨ م ، على نقل لغـة **الدواوين** من التركية إلى العربية ، واستحدثت ديواناً لهــــذه الغاية أطلقت

عليه اسم « **شعبة الترجمة والتأليف** » ، بدأ أعضاء هذا الديوان بالقاء دروس خاصة على الموظفين ، بقصد تعليمهم أصول إنشاء المراسلات واعطائهم فكرة عن قواعد اللغة ، ولم تجد الحكومة ، لقطف ثمرات هذا العمل بأقصى سرعة ممكنة ، بدّاً من الاستعانة بجميع من كان يومئذ مقيماً في دمشق من أساتذة العربية وأدبائها ، على اختلاف الأقطار العربية التي كانوا منها ، **وكان الشيخ عبد القادر المغربي** واحداً من هؤلاء الذين شاركوا أعضاء شعبة الترجمة والتأليف حمـــل العبء الذي أُلقي على كواهلهم ، فلما رأت الحكومة في الثاني عشر من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٩ م إنشاء « **ديوان المعارف** » وعهدت برياسته إلى الأستاذ محمد كرد علي ، كان الشيخ عبد القادر المغربي **أحد الأعضاء الثمانية الذين عينوا فيه** ، ثم أصبح بتاريخ الثامن من حزيران (يونيو) ١٩١٩ م ، مع زملائه السبعة من أعضاء (**المجمع العلمي العربي**) المؤسسين ، الذين حضروا الجلسة الأولى للمجمع في المدرسة العادلية الكبرى بدمشق بتاريخ ٣ ذي القعدة سنة ١٣٣٧ هـ الموافق لـ ٣٠ تموز (يوليو) سنة ١٩١٩ م .

أخذ الشيخ عبد القادر المغربي ، بما عرف عنه من **نشاط ودأب على العمل** ، يبذل جهده مع زملائه لتحقيق الأغراض التي رسموا لأنفسهم نهج الوصول إليها في الناحيتين اللغوية والأدبية ، وكان **أكثر الأعضاء ، الذين تفرغوا للعمل المجمعي ، إنتاجاً ببحوثه اللغوية ومحاضراته الأدبية والاجتماعية** ، وقد نيّفت المحاضرات التي ألقاها في ردهة مجمع دمشق فقط ، ونشرت في مجموعات محاضراته أو في مجلته على الخمسين ، وكثير منها قيّم مبتكر .

وانتخب الشيخ عبد القـــادر المغربي من قبل زملائه أعضـاء المجمع **نائباً للرئيس أكثر من مرة** ، وأشغل وكالة الرياسة في فترات غياب الرئيس

مدداً مختلفة ، وفي نهاية عام ١٩٣٤ م ، وبعد أن تعثرت خطوات المجمع ، وتوقف نشاطه وصدور مجلته كلية بدءاً من عدد أيار (مايو) ١٩٣٣ م ، عهدت الحكومة إلى الشيخ عبد القادر المغربي **بإدارة المجمع والإشراف على دار الكتب الوطنية** فقام بما عُهد إليه خير قيام ، رغم الظروف السياسية والمادية القاسية ، التي كانت سبباً أعاق المجمع عن مواصلة رسالته ، وقد تمكن من إعادة إصدار المجلة بدءاً من عدد أيار (مايو) سنة ١٩٣٥ م ، فأتم بأعدادها المجلد الثالث عشر الذي كان بدىء به سنة ١٩٣٣ م ، ولكن الأزمة المالية ، تبعاً للظروف السياسية التي كانت تمر بها البلاد السورية ، عادت ففرضت على المجمع التوقف عن إصدار مجلته بدءاً من أول سنة ١٩٣٨ م ، وظلت محتجبة حتى انقشعت الغيوم الناشئة عن الأهواء السياسية ، فنهض المجمع من كبوته سنة ١٩٤١ م ، بإجماع أعضائه على إعادة انتخاب الأستاذ الرئيس محمد كرد علي **للرياسة** والشيخ عبد القادر المغربي **لنيابة الرياسة ، فتعاون الرئيسان معاً** على الدفع بالمجمع خطوات واسعة قوية ، عوضت عليه ما كان خسره من زمن أعاقه عن مواصلة جهوده في خدمة العربية .

ولما وافى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، الأجل سنة ١٩٥٣ م وانتخب أعضاء المجمع الأستاذ خليل مردم بك خلفاً له ، استمر المجمع في خط سيره الحميد ، بفضل **تعاون الرئيس الجديد ونائبه الشيخ عبد القادر المغربي التعاون الوثيق** .

* * *

وعندما أنشىء مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٣٢ م ، كان **الشيخ عبد القادر المغربي** أحد اثنين **من سورية** ، اختيرا ليكونا عضوين عاملين في المجمع ، وقد حضر الشيخ المغربي جلسة الاحتفال بافتتاح المجمع في الرابع

عشر من شهر شوال سنة ١٣٥٢ هـ الموافق ٣٠ من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٤ م ، واستمر يحضر جلساته كل عام بانتظام حتى السنة التي وافاه الأجل بها ، فقد منعه حادث ألم به من حضور الجلسات الأخيرة .

وأسهم الشيخ عبد القادر المغربي بنصيب كبير في أعمال مجمع القاهرة ، واشترك في أكثر لجانه ، ونشر مقـالات وبحوثاً عديدة في مجلته ، ولا تكاد تخلو دورة للمجمع منذ تأسيسه من بحث له فيها أو أكثر ، كما سجل المجمع ذلك في الكتاب الذي أصدره سنة ١٩٦٦ م بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على تأسيسه باسم « **المجمعيّون** » . ومن أهم مواقفه في الدفاع عن لغة الضاد ورسم حروفها ثورته العارمة ، رغم حلو شمائله وكريم أخلاقه ، في جلسة المجمع رداً على اقتراح الأستاذ عبد العزيز فهمي **بإبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية** ، وليس أبلغ من وصف الأستاذ عباس محمود العقاد لغضبة الشيخ يومئذ ، فقال وهو يرثيه : [.. كان رحمه الله لايثور حتى يهدأ بعد قليل .. وفي إحدى الثورات بينه وبين الأستاذ عبد العزيز فهمي رحمه الله ، كان الأستاذ عبد العزيز **أسرع إلى الرضى من صاحبه** فصالحه وألح عليه في قبول دعوته إلى الغداء بنادي محمد علي . . وكنت من العارضين للكتابة **بالحروف اللاتينية** ، فقلت لعبد العزيز « باشا » إنك بهذه الطريقة يا باشا تغري الناس بمعارضتك . . فقبض على يدي وهو يقول : وأنت أيضاً تحضر الصلح . . ولم يدع يدي إلا في السيارة إلى طريق المائدة ، ولم نبرح المائدة يومئذ ، حتى كنا قد استوعبنا **من تاريخ الحركة الوطنية وتاريخ السيد جمال الدين** ، ما تمتلىء به « **موائد** » الصفحات [1] ..] .

(١) جريدة الأهرام عدد ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٥٦ .

وعندما انتقل الشيخ عبد القادر المغربي سنة ١٩٥٦ م إلى الرفيق الأعلى ، بكى زملاؤه في المجمعين شمائله العالية ومعارفه الواسعة ، ونعته مجلة مجمع دمشق في عددها الصادر في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٥٦ م ، مشيدة بنشاطه الجم في رحاب المجمع من أجل نشر رسالاته مدة تزيد على خمس وثلاثين سنة ، وكان لمجلته نصيب كبير من نشاطه ، فقد ظل يمدها بمقالاته وأبحاثه اللغوية والأدبية منذ صدورها حتى وفاته رحمه الله ، كما أنها استمرت إلى ما بعد وفاته بأشهر عديدة تنشر ما كان زودها به من بحوث .

وفي سنة ١٩٦٠ م ، عندما انتخب المجمع العلمي العربي الدكتور عدنان الخطيب عضواً عاملاً فيه ، ودعاه ليحل محل الشيخ عبد القادر المغربي في كرسيّه المجمعي ، ألقى في جلسة استقباله يوم الخميس في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠ هـ وفق ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٠ م خطاباً ترجم فيه لسلفه مشيداً بمناقبه ومنزلته العلمية .

أما مجمع اللغة العربية في القاهرة ، فما كاد يتصل به خبر وفاة الشيخ عبد القادر المغربي ، حتى نعاه للناطقين بالضاد قائلاً : [تلقى مجمع اللغة العربية في غمرة من الأسى ، نعي ركن من أركانه ، صحبه منذ نشأته ، وكان في مؤتمراته جهير الصوت ، واضح الأثر ، ذلك هو العلامة الكبير الشيخ عبد القادر المغربي ، بعد أن قضى حقبة مديدة في خدمة اللغة بما كتب وألف من بحوث ودراسات . والفقيد الكريم من الرعيل الأول خلال نصف القرن الماضي ، أولئك الذين نذروا جهودهم لإنهاض العربية وعلاج مشكلاتها وتطويعها لمقتضيات الحياة العصرية في ميادين العلوم والفنون والآداب . وإن مصر لتذكر له أنه كان في صدر نهضتها الحديثة بين رجال الصحافة والأدب الذين خدموا الأساليب الكتابية ، وأمدوها بأسباب النمو والازدهار . وقد

لبث الفقيد إلى آخر عهد من شيخوخته العامرة دائب الجهد ، موصول الدرس ، يملأ المجامع العلمية والأندية الأدبية والصحف السيارة بثمرات كفايته وسعة اطلاعه لنصرة اللغة وعون الباحثين والدارسين . وتلك **آثاره باقية تعلي ذكره في الخالدين** .. [١]]

ثم عقد المجمع مساء الثالث من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٧ م . جلسة علنية **لتأبين الشيخ عبد القادر المغربي** فألقى **كلمة** المجمع أمينه العام **الدكتور منصور فهمي** ، وعندما انتخب **الأستاذ محمد الفامي** سنة **١٩٥٨ م** عضواً عاملاً في مجمع **اللغة** العربية في القاهرة ، دعاه المجمع ليحل محل الشيخ عبد القادر المغربي في كرسيّه المجمعيّ ، ألقى في جلسة استقباله يوم الخامس عشر من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٩ م خطاباً ، عدد مآثر سلفه الحميدة ومزاياه العالية .

دمشق تؤبن المغربي فقيد العربية والإسلام

بعد وفاة الشيخ عبد القادر المغربي ، تداعت نخبة من **زملائه المجمعيين وأهل الفكر في دمشق** [٢] لإقامة حفل تأبيني له ، وقد أقيم الحفل على مدرج جامعة دمشق مساء ٢٦ صفر سنة ١٣٧٦ هـ الموافق ٢ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٥٦ م ، تحت رعاية **السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية** ، حضرته جمهرة كبيرة من العلماء والمفكرين في دمشق ووفود كثيرة من مختلف الأقطار العربية ، كما حضره أعضاء **مؤتمر** المجامع العلمية **العربية من مصر والعراق** .

---

(١) جريدة الأهرام عدد ٩ حزيران (يونيو) ١٩٥٦ م .

(٢) تألفت لجنة تنفيذية لتحقيق هذا الغرض برياسة الدكتور عبد الوهاب حومد وزير المعارف يومئذ في سورية ، وكان أعضاؤها السادة : منير العجلاني ، ومحمد المبارك وبدوي الجبل ، وجعفر الحسني ، وسامي الدهان ، وعدنان الخطيب ، وتولى أمانة سرها الدكتور محمد أسعد طلس .

وقد افتتح الحفل بعشر من آي الذكر الحكيم ، ثم ألقى **الدكتور عدنان الخطيب** كلمة الافتتاح استهلها بقوله :

[في صباح اليوم السابع والعشرين من شوال عام خمسة وسبعين وثلاثمائة وألف ، السابع من حزيران عام ستة وخمسين وتسعمائة وألف ، حمل الأثير على أمواجه ، صوت مذيع دمشق ينعى للعالم الشيخ عبد القادر المغربي ، **فكان رجع الصوت موجات من الأسى شملت البلاد العربية كافة** ، وموجات من الحزن عمت بلاد الإسلام ، تعبر كلها عما تكنه هذه البلاد للفقيد الراحل من تجلة وتقدير ، ومن حب واعتراف بالجميل] .

ثم تكلم عن منزلة الفقيد العلمية ومكانته في مختلف البلاد العربية ، وكيف دعت نخبة من أهل الفكر والوفاء ، لإحياء ذكراه بهذه الحفلة ، فكان رجع ندائها :

١ — رسالة من مصر بعث بها **الرئيس جمال عبد الناصر** يقول فيها :

[**إن مصر وشبابها** الذي تتلمذ على الفقيد الراحل الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ، لتشارك سورية الشقيقة في إحياء ذكرى ابن بار من أبناء العروبة ، وأديب من أدباء لغة الضاد ، جند قلمه وأوقف قلبه لرفع شأن اللغة العربية ودعم دراستها الحديثة ، فكان **عضواً بارزاً في مجمعنا اللغوي** ، وكان يزود صحافتنا بين حين وآخر بأبحاثه القيمة المبتكرة وآرائه الحية الفذة .

وإن كاتباً كبيراً هذا شأنه **لن يموت أبداً** بل ستظل ذكراه قائمة في نفوسنا ، ماثلة في خواطرنا جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن] .

٢ — ورسالة من مراكش بعث بها **السلطان محمد بن يوسف** جاء فيها :

[إن للشيخ عبد القادر المغربي فضلاً على الثقافة العربية وتقاليدها ، بما قام به طيلة حياته المليئة بجليل الأعمال من الأبحاث القيمة في مختلف المواضيع .

ولقد كان من **أحسن الممثلين للجالية المغربية** ، في الشرق العربي الذي آوى إليه كغيره فراراً من جبروت المستبدين ، وكل من قصد الشرق العربي من المغاربة سواء في القديم أو الحديث ، وجد فيه من الفضل وأهله ما يجعله في أهله وعشيرته كأنه لم يغادر وطنه ومسقط رأسه . وذلك هو شرف العروبة منذ كانت ولن تزال . **فهي وطن كل عربي** في كل زمن وتحت كل سماء .

وما نسينا ولن ننسى موقف الشيخ عبد القادر المغربي **من القضية المغربية في عهد الأزمات الأخيرة** ، إذ كان في الصف الأول من المناضلين عن حق المغرب الأقصى في الحرية والكرامة] .

٣ — ورسالة من تونس بعث بها **الرئيس الحبيب بورقيبة** يقول فيها :

[مما يسرني ، كما يسر كل مواطن عربي في وطن **العروبة جمعاء** ، هو أن نذكر في هذه الفترة من تاريخنا ، ما أسداه رجل الفضل والعلم **والتواضع والصدق** ، المرحوم الشيخ عبدالقادر المغربي من أياد كريمة لنهضة العربية والإسلام .

وأن نذكر بالخصوص كيف استطاع هذا العربي الصادق ، **أن يكون من الرواد الأولين الذين استعادوا الصلة بين المشرق العربي والمغرب العربي** ، في وقت كانت فيه الصلة مقطوعة والقطيعة مستفحلة .

أما اليوم فإننا بفضل **الشيخ** عبد القادر المغربي وأمثاله ، وبفضل هذه النهضة المباركة التي سارت فيها أجيال العروبة في المشرق والمغرب ، خطوات مباركة نستطيع أن ننظر من جديد إلى مستقبلنا في كامل الوطن العربي ، نظرة المتفائل الواثق بالمستقبل والمؤمن **بإعادة المجد المشترك والوحدة الشاملة في ظل الحرية والرخاء**] .

٤ — ورسالة من الرئيس **ناظم القدسي** عدد فيها مزايا الفقيد وحلو شمائله ، وانتهى إلى القول : [وإني لأفخر إذ كان لي **شرف التتلمذ عليـــه**

سنتين في معهد الحقوق ، فعرفته أستاذاً يتقدم القادة المخلصين الذين أخذوا على عاتقهم إصلاح الأمة العربية وإنقاذ العالم الإسلامي من براثن الاستعمار . فقد كان رحمه الله عالماً ضليعاً ولغوياً فذاً ، ورائداً صالحاً ومرشداً ناصحاً ، **شديد التأثر بالحركة الإصلاحية** التي بعثها المصلح الكبير جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده ، والتي كان المرحوم في الطليعة من روادها ، والعاملين لها والداعين إليها] .

٥ — ورسالة من السيد **عبد الخالق حسونة** الأمين العام لجامعة الدول العربية ، أشار فيها إلى مزايا الفقيد ومما جاء فيها : [ولم يقتصر نشاطه على رحاب سوريا العظيمة ، وجنباتها الفسيحة ، وإنما جال وصال وترك الآثار الباقية في **أرجاء وطننا الكبير**] (١) .

---

(١) كانت الرسائل التي تلقتها لجنة التأبين من عظماء مفكري العالمين العربي والإسلامي ، أكثر من أن يتلى ، في حفل واحد مهما طال زمنه ، المهم منها فضلاً عن تلاوتها كلها ، على أني تلوت قطوفاً من بعضها ، وكان في طليعة أصحاب الكلمات : الرئيس هاشم الأتاسي ، والرئيس عبد الله اليافي ، والرئيس ابراهيم هاشم ، والرئيس أحمد حلمي عبد الباقي ، والسادة : ظفر الله خان وزين العابدين الهندي ويوسف شاخت وجون بارو ، والأساتذة : أحمد لطفي السيد ورضا الشبيبي ومنير القاضي ومحمد عبد الغني حسن والبير أديب وعيسى الناعوري وعبد الله القلقيلي وعجاج نويهض وأنيس المقدسي ونظير زيتون وتوفيق قربان وشفيق المعلوف ، ومنهم : سامي الصلح وفيضي الأتاسي وأمين سعيد ومحمد الشريقي وواصف البارودي وخليل كنة وعمر بهاء الأميري وجواد المرابط وراغب العثماني وسابا زريق وعبد الستار السيد وسعيد حمزة وسليمان الظاهر وأحمد الشقيري ونديم الملاح ورشاد دارغوث ونقولا فياض وفؤاد الخطيب وعبد المسيح حداد وشفيق غربال وأغناطيوس حريكة وبشر فارس ومحمد بهجة البيطار وعلي دارغوث وفائز المغربي .

ثم ألقى **كلمة سورية وزير معارفها الدكتور عبدالوهاب حومد**، فتحدث عن حياة الشيخ عبد القادر المغربي وعن أفكاره الإصلاحية، وانتهى إلى القول:

[إذا كانت حياة المرء تقاس بما يترك من أثر في وسطه وأمته، فإن حياة الفقيد **كانت** أمة **من العلماء**، وجيلاً من المجتهدين، يتحدث عنها طلابه الكثر وقراؤه الذين لا يحصون، بأحلى ما يكون حديث عن تمكّن عجيب من اللغة، وتذوق رفيع للأدب، وجرأة نادرة في الدعوة إلى الإصلاح والحق.

وإن هذه الحفلة التأبينية التي تفضل فخامة رئيس البلاد **الأعلى** فشملها برعايته، **لواجب تؤديه** الشام **نحو رجل وهب حياته لعلوم اللغة والفقه**، وتثقيف بنيها جيلاً بعد جيل، ولذلك **كان فقده خسارة لا تعوّض**..].

ثم وقف **الدكتور طه حسين**، وأخذ يفصل الكلام عن معرفته بالشيخ المغربي يوم كان تلميذاً بالجامع الأزهر، وكان الفقيد محرراً في احدى كبريات الصحف المصرية، يكتب فيها المقالات الدالة على توقد الذهن الشديد والحرص على نشر الدين الصحيح **والقوة في الدفاع عن الأفكار الإصلاحية** التي نادى بها الإمام الشيخ محمد عبده، قائلاً عنه: [**كان الفقيد أقوى من القوة في الحق، وأصلب من الصلب في الدفاع عن العرب والإسلام**] ثم تكلم عن دور الفقيد في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعن إعجاب زملائه به وحبهم له وكيف كان [حضور الشيخ المغربي إلى مصر يعتبر **عيداً من أعياد المجمع اللغوي**] وكيف كان [مع السن التي وصل إليها **أدنى إلى الشباب من كثير من الشباب**] ثم ختم كلمته قائلاً: [**باسم المجمع اللغوي المصري وباسم مصر**، أرسل إليه أصدق التحية سائلاً الله أن يشمله برحمته وينزله منازل الأخيار].

ثم ارتجل **الدكتور منير العجلاني** ، خطاباً قويا في تمداد مناقب الشيخ عبد القادر المغربي ، وفي وصف الأثر الذي تركه الفقيد في **طلابه الجامعيين** عندما كان يدرسهم بعض علوم العربية . وتلاه **الأستاذ شاكر الحنبلي** ، فألقى قصيدة وصف فيها جهاد الفقيد في سبيل خدمة اللغة والدين وإصلاح حال **المرأة المسلمة** .

ثم القيت خطبة بليغة أعدها **الشيخ محمد بهجة الأثري** ، بيّن فيها جهود الفقيد في خدمة اللغة وحرصه على النهوض بالأمة العربية عن طريق الدين واللغة . وألقى بعده **شاعر العاصي بدر الدين الحامد** قصيدة في رثاء الشيخ المغربي ، استهلها بقوله :

أدب مشرق ودنيا ودين ومقام في النابهين مكين

وكانت منها الأبيات التالية :

كم سطور دبجتها بيراع هو بالمجد والخلود قمين

في الذرا أنت ، سمعة تملأ الدنيا ومجد في الخالدين مصون

كل مجد إلا البيان هباء هو في الكون روحه المكنون

نم قريراً فالمرء حياً وميتاً بالذي تكسب اليدان رهين

لك مجد في المصطفين عليه يتجلى البيان والتبيين

وانتهى الحفل بكلمة ألقاها **الدكتور محمد أسعد طلس** ، عدد فيها آثار الفقيد وأهم مؤلفاته ، وأنهاها **بإزجاء الشكر باسم لجنة التأبين وأسرة الفقيد** ، إلى السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية ، وإلى الملوك والرؤساء وكل الذين أسهموا وشاركوا في تأبين الفقيد العظيم .

بعض أقوال المجمعيين في زميلهم الشيخ المغربي

كتب الأستاذ **محمد بهجة الأثري** كلمة في رثاء الشيخ عبد القادر المغربي ، ومما قاله فيها :

[.. وقد تجلت آية « المغربي » **في عبقريته اللغوية** ، في نزوعه باللغة العربية إلى أغراض الحياة المثلى ، وربط الفكر بها وربطها به . وقد كان يحاول دائماً الإبانة عن طبيعة هذه الوظيفة للغة ، وكيفية الإفادة منها في توسيع نطاقها وتذليل صعابها ، والدلالة على مرونتها وطواعيتها وقدرتها على الاستجابة لنداء حاجات العلوم والفنون والصناعات وشؤون الحضارة ومرافق العمران إلى المصطلحات والألفاظ ، ونداء مطالب الحياة المتطورة المتجددة في جوانب الروح والمادة . **وقد عنّى نفسه من أجل هذا ، مطالب جسيمة من الإبداع والابتكار ، والهدم والبناء** . وقد هدم غير مضارّ ولا متعسّف ، قواعد من قواعد النحاة ـ كقاعدة اشتقاق الآلة مثلاً ـ حجرت واسعاً في اللغة ، وحالت دون نموّ مفرداتها في مرافق الصناعة ونحوها بطريقة حرة من طريق الاشتقاق القياسية ، وبنى مكانها قواعد رصينة تستجيب لمطالب هذا العصر الحديث من غير خروج على مقاييس اللغة المعتبرة ، استخرجها بذكائه الحادّ ، واستنبطها بالاستقراء ، وهو **مطلب انقطع العهد بمثله منذ ألف عام** ..] .

وعندما رثى **الدكتور منصور فهمي** ، الشيخ عبد القادر المغربي ، أشار إلى كتاباته في الصحف المصرية وقال : [.. ولعلنا حين كنا نستمتع بما يكتب المغربي في ذلك **الماضي البعيد** ، لم نكن من الإدراك والعلم في منزلة تهيئ لنا تقدير الآراء ووزن الفكر وتقييمها ، ولم نكن من المعرفة بفنون النقد لأساليب الكتابة وثمرات القلم لكي نعين المكانة الأدبية التي تختار لأسلوب

الشيخ في منازل الكاتبين . على أن شيئاً كان يجذبنا إلى قلمه جذباً ويدفعنا إلى تلمس قراءته دفعاً . ولعل ذلك الشيء كان فيما يفيض به قلم المغربي من إنتاج **كان بالنسبة إلى مدار كنا الغضة سهلاً ومهضوماً ومفهوماً** ، وكان بالنسبة إلى عواطفنا المطاوعة **محركاً وحافزاً**، فكانت كتابته الخالية من التعقيد والصرامة والعسر ، تبدو كأنها باسمة ومتهللة **تغري بالإقبال عليها** ، **لما فيها من وضوح التفكير وطلاوة التعبير** .] .

وكتب **الأستاذ عارف النكدي** يؤبن زميله الشيخ عبد القادر المغربي ، كلمة قوية معبرة عن عظيم تقديره للزميل الراحل ، جاء فيها : [.. وأستاذنا المغربي – رحمه الله – عرفته الصحافة كاتباً قديراً ، ومرشداً نحريراً ، **متخيّر اللفظ مهذّبه** ، **منتخل الأسلوب منسجمه** . وعرفته المنابر خطيباً ملسانا ، ومحاضراً فياضاً ، بيّن اللهجة حاضر البديهة ، ظريف النكتة ، حلو المفاكهة . وعرفه المجمع العلمي ، صدراً من صدوره ، واسع الاطلاع ، يستصبح برأيه ، ويهتدى بعلمه ، ويرجع إليه في تفهّم ما استبهم من الألفاظ ، واستغلق من المعاني ، وفي العويص من دقائق اللغة ومشتبهاتها . وعرفته مجلة المجمع وقراؤها ، بمقالاته القيّمة ، وبحوثه الدقيقة ، ونظراته الصحيحة ، ونقداته الصائبة ، وتتبعاته وتعليقاته ، فعرفت فيه : الكاتب الأديب ، والمؤرخ الدقيق ، والعالم اللوذعي . . .

وأستاذنا المغربيّ **يتميز بصلابة وثبات في سهولة ويسر** ، صلابة في معتقده ، وثبات على رأيه . كان صلباً في دينه ، **في غير تعصب** وكان غيوراً على لغته **في غير تزمّت** ..] .

ومما قاله **الأستاذ عباس محمود العقاد** ، في رثاء الشيخ عبد القادر المغربي : [.. إن الأستاذ المغربيّ ليذكر ببحوث كثيرة في اللغة ، ولكنه لا يذكر في هذه الأيام خاصة ببحث من بحوثه الكثيرة ، كما يذكر ببحثه عن **الاشتقاق**] .

وأنهى **الدكتور عدنان الخطيب**، خطابه عن الشيخ عبد القادر المغربي وهو يحتل مقعده **المجمعي**، قائلاً :

[لقد اتعبني الشيخ عبد القـادر المغربي ، أول يوم عرفته ، **يوم وليمة** جمرايا ، حين كنت أجهد لألحق به ، أما اليوم ، وقد شئتم أن أتبوّأ مقعده في صفوفكم ، **فقد** كلفت أمراً إدّاً ، لأن مكان الشيخ بيننا **سيظل شاغراً ولن يسد مسده أحد** ، فقد جاد الدهر به يوم ولد ، والدهر كأم الصقر مقلات نزور .

لقد جاد الدهر بالشيخ عبد القادر المغربي ، فكان **ملء السمع ، ملء البصر** ، فسلام عليه يوم ولد ، وسلام عليه يوم نزل دمشق فأحبها وأحبته ، وسلام عليه **يوم حنت دمشق على رفاته مخلدة ذكره ومآثره**] .

آثار الشيخ عبد القادر المغربي العلمية :

ترك الشيخ عبد القادر المغربي للمكتبة العربية ، ثروة طائلة من **المؤلفات** والأبحاث والمحاضرات القيمة **في اللغة والاجتماع والدين والأخلاق** ؛ وإذا كان الكثير من هذه الأبحاث والمحاضرات سبق أن نشر في **المجلات** والصحف دون أن تضمه دفتا كتاب مستقل ، **فإن** بعضها ما يزال **مخطوطاً لم ينشر** ، كبعض مؤلفاته القيمـة .

وفيما يلي ثبت **بأهم آثار الشيخ العلمية** ، المطبوع منها وغير المطبوع :

أولاً : الآثار المطبوعة :

١ ـ كتاب « **الاشتقاق والتعريب** » طبع في القاهرة سنة ١٩٠٨ م ، وأعيد طبعه فيها سنة ١٩٤٧ م (١٣٦٦ هـ) .

٢ — « **السفور والحجاب** » آراء نشرت سنة ١٩١٠ و ١٩١١ م ، وطبعت مجموعة بدمشق سنة ١٩٥٥ م (١٣٧٤ هـ) .

٣ — كتاب « **البينات** » في جزأين ، طبع في القاهرة سنة ١٩٢٥ م (١٣٤٣هـ) .

٤ — كتاب « **الأخلاق والواجبات** » طبع في القاهرة سنة ١٩٢٦ م (١٣٤٤هـ) .

٥ — محاضرات عن « **محمد** ﷺ **والمرأة** » مع محاضرات في موضوعات أخرى ، طبعت سنة ١٩٢٩ م (١٣٤٧ هـ) .

٦ — كتاب « **جمال الدين الأفغاني** ـ ذكريات وأحاديث » طبع في القاهرة في سلسلة اقرأ سنة ١٩٤٨ م (١٣٦٧ هـ) .

٧ — « **مناظرة أدبية لغوية** بين المغربي والبستاني والكرملي » طبعت في القاهرة سنة ١٩٣٥ م (١٣٥٥ هـ) .

٨ — شرح وتحقيق « **تائية عامر بن عامر البصري** » طبع في بيروت سنة ١٩٤٨ م (١٣٦٧ هـ) .

٩ — تفسير « **جزء تبارك** » طبع للمرة الأولى في القاهرة سنة ١٩٤٩م(١٣٦٨هـ).

١٠ — « **على هامش التفسير** » طبع في القاهرة سنة ١٩٤٩ م (١٣٦٨هـ) .

١١ — « **عثرات اللسان** » من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٤٩ م (١٣٦٩ هـ) .

١٢ — تحقيق رسالة « **التنبيه على غلط الجاهل والنبيه** » لابن كمال باشا ، نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٦ م (١٣٤٤ هـ) في المجلد ٦ ج ١ وما بعده .

ثانياً : الآثار المخطوطة

١ – « **المعجم اللغوي للألفاظ المصرية** » وقد وصل المؤلف فيه حتى حرف الذال .

٢ – مجموعة « **مقالات وأبحاث** » وهي في عدة أجزاء وسبق أن نشرت في الصحف والمجلات .

٣ – مجموعة « **محاضرات** » وهي في مجلد كبير ، ولم يسبق أن نشرت .

٤ – كتاب « **أحسن القصص في التاريخ النبوي المقدس** » .

٥ – كتاب « **العقائد الإسلامية** » .

٦ – كتاب « **أقرب الطرائق إلى كنز الدقائق** » في الفقه الحنفي .

٧ – كتاب « **فنون البلاغة** » .

٨ – كتاب « **تاريخ آداب اللغة العربية** » .

٩ – شرح « **مقصورة ابن دريد** » .

١٠ – كتاب « **طائفة من الأشعار في وصف الصحارى والقفار** » .

١١ – كتاب « **المنتخب أو نوادر العلوم وفرائد الأدب** » .

١٢ – كتاب « **الأسرة المغربية** – أصلها وفروعها » .

مصادر ترجمة الشيخ المغربي

ترجمت للشيخ عبد القادر المغربي مصادر كثيرة ، وأهم ما وقفنا عليه من المصادر هي التالية :

١ – « **الشيخ عبد القادر المغربي** » محاضرات الدكتور **محمد أسعد طلس** في معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٥٨ م .

٢ – « **الأدب العربي المعاصر في سورية** » تأليف سامي **الكيالي** ص ١٣٧ القاهرة ١٩٥٩ م .

٣ — «الجمعيون» كتاب مجمع اللغة العربية في القاهرة ص١٠٧ القاهرة ١٩٦٦م.
٤ — «عالمنا العربي» كتاب نعمة زيدان ص ٥٨٢ بيروت ١٩٥٦ م .
٥ — «الموسوعة العربية الميسرة» كتاب مؤسسة فرانكلن ص ١٧٢٤ القاهرة ١٩٦٥ م .
٦ — «أعلام الفن والأدب» كتاب أدهم الجندي ج ٢ص ١٢٠ دمشق ١٩٥٨م.
٧ — «تاريخ الأدب العربي الحديث» بالألمانية كتاب كارل بروكلمان الجزء الثالث سنة ١٩٤٢ م ص ٤٣٥ — ٤٣٦ .
٨ — «المنجد» في الأدب والعلوم معجم فرديناند توتل ، المطبعة الكاثوليكية بيروت.
٩ — «قدماء ومعاصرون» تأليف سامي الدهان ، طبع دار المعارف القاهرة ١٩٦١ ص ٢٧٣ .
١٠ — «الشيخ عبد القادر المغربي» مجلة المجمع العلمي العربي مج ٣١ ص ٤٩٨ دمشق ١٩٥٦ م .
١١ — «عبد القادر المغربي» رثاء الدكتور منصور فهمي . مجلة مجمع اللغة العربية مج ١٣ ص ١٧٧ القاهرة ١٩٦١ م .
١٢ — «عبد القادر المغربي» خطاب الدكتور عدنان الخطيب . مجلة المجمع العلمي العربي مج ٣٦ ص ٣٣٢ دمشق ١٩٦١ م .
١٣ — «الشيخ المغربي» خطاب الأستاذ محمد الفاسي . مجلة مجمع اللغة العربية مج ١٤ ص ٢٦٣ القاهرة سنة ١٩٦٢ .
١٤ — «الشيخ عبد القادر المغربي» خطاب الأستاذ محمد عبد الغني حسن في احتفال المجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة — مجلة الأديب نيسان (ابريل) بيروت ١٩٦٧ م .

- ٦ -

عز الدين التنوخي

١٨٨٩ — ١٩٦٦ م

نشأته وحياته

ولد **عز الدين** بن أمين شيخ السروجية بدمشق سنة ١٣٠٧ هـ الموافق لسنة ١٨٨٩ م . وبهذا الاسم عرف الوليد في أول أمره ، ولكن بآخرته عرف واشتهر باسم **عز الدين علم الدين التنوخي** ، بعد أن عرف أن نسبه يتصل بقبيلة تنوخ العربية فأشاعه .

بدأ عز الدين التنوخي يتلقى علومه الأولية في المدرسة الرشدية الابتدائية بدمشق ، بعد أن كان قد **ختم القرآن** في المدرسة السباهية ، وقبل أن يتم تحصيله هاجر أبوه إلى فلسطين ، وفي مدينة يافا أقامت أسرة شيخ السروجية إلى جانب ربها الذي كان يتعاطى التجارة طلباً للمعاش ، وفيها أتم عز الدين **تحصيله الإعدادي** ، بعد أن انتسب إلى (مدرسة الفرير الفرنسية) ولما وجد أبوه رغبة منه في الاستزادة من العلم بعث به إلى مصر للالتحاق **بالجامع الأزهر** .

مكث عز الدين التنوخي في مصر نحواً من خمس سنين ، ثم عاد إلى دمشق بعد أن مر بأسرته في فلسطين ، وأخذ يجلس في **مسجد دمشق الجامع** ويتكلم فيتحلق الناس حوله ، حتى تحدث الناس عن ابن شيخ السروجية الأزهري الذي يدرّس في المسجد دروساً فيها دعوة **إلى الاصلاح الاجتماعي تدل على أزهريته وعلى ثقافة تبين عن حداثة وتجديد .**

وفي سنة ١٩١٠ م ، اختارته **جمعية أهلية** ، ألفها بعض أهل الفكر في دمشق ، واحداً من ثلاثة قررت ايفادهم بعثة إلى فرنسة لمتابعة **تحصيلهم العالي** في إحدى مدارسها ، فسافر ومكث فيها ثلاث سنوات حصل في نهايتها على شهادة **المدرسة الزراعية** في مدينة أوريزون وعلى شهادة **في تطعيم الأشجار ،**

وعاد عز الدين التنوخي سنة ١٩١٣ م من فرنسة ، معرجاً على الآستانة عاصمة الدولة ، يعادل فيها شهادته الفرنسية **بالشهادات العثمانية سبيل الوظائف الحكومية** إذ ذاك ، وأقام في الآستانة مدة انتهت بتعيينه **معلماً للزراعة** في مركز بيروت الزراعي ، وكان خلال هذه المدة يتصل بالشباب العربي المتطلع إلى نهضة عربية شاملة ، موثقاً علاقاته بالرواد منهم ، منتسباً إلى إحدى منظماتهم المسماة بـ (**المنتدى الأدبي**) .

وصل عز الدين التنوخي إلى بيروت معلماً للزراعة ولم تمض عليه في وظيفته سنة ، إلا وكانت نيران الحرب العالمية الأولى قد اشتعلت سنة ١٩١٤ م ، فدعى إلى الخدمة العسكرية ، ودخل مدرسة **ضباط الاحتياط في دمشق** وقبل أن يتم ورفاقه من الشباب العربي المتحمس الدراسة المقررة لهم ، ألحقوا بالجيش العامل تشتيتاً لهم ، وفوجىء عز الدين التنوخي ، وكان مركز اللواء الذي ألحق به في حلب ، بالسلطات العسكرية تلقى القبض على بعض رفاقه ففر مع رفاق آخرين من الخدمة العسكرية وسار هو في **طريق العراق**



الأستاذ عز الدين التنوخي

شرقاً فوصل سالماً ، وسار غيره في طريق الحجاز جنوباً فألقي القبض عليهم وسيقوا أمام الديوان العرفي في عاليه ثم أعدموا قافلة من قوافل **شهداء العرب** في العهد العثماني .

وغادر عز الدين التنوخي العراق بعد مدة من وصوله إليه إلى الحجاز للالتحاق **بالثورة العربية الكبرى** التي كان الملك حسين قد أضرمها في حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦ م ، وفي مكة عينه الملك **مديراً للزراعة في حكومته** ، ولكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى ترك منصبه القائم في وادٍ غير ذي زرع ، والتحق بجيش الأمير فيصل بن الحسين المتجه يومئذ نحو **دمشق** .

وفي ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ م ، دخل عز الدين التنوخي دمشق مع الجيش العربي ، إثر جلاء الأتراك عنها ، ثم اختارته الحكومة العربية ، لما عرف عنه من تضلع بالعربية ومعرفة للفرنسية عضواً في **لجنة الترجمة والتأليف** ثم عضواً في ديوان المعارف نواة المجمع العلمي العربي فكان من **أعضائه المؤسسين** ، وظل في هذه الوظيفة إلى أن أوقفت أعمال المجمع العلمي في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ م تخفيفاً لنفقات الحكومة ، وبتاريخ ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ عين مجدداً **في ديوان المعارف** ، ثم نقل في أول تشرين الأول (أكتوبر) من السنة نفسها ، **مميزاً الرسائل في المجمع العلمي العربي** ، بعد أن عاد المجمع إلى نشاطه ، ولم يلبث أن استقال بعد شهر ونصف ، فعين مميزاً للرسائل في **مديرية الصحة** بدمشق ، ولكنه استقال أيضاً في نهاية آذار (مارس) ١٩٢١ م ، وفي شهر آذار (مارس) من عام ١٩٢٢ م ، عين مترجماً **في مديرية البرق والبريد** ، ولم يحل شهر تشرين الأول (نوفمبر) سنة ١٩٢٣ م حتى أجمع أمره

على الهجرة إلى العراق ، بعد أن أتعبه التنقل في مختلف الوظائف الحكومية وكان العراق قد أصبح ، بعـــد احتلال الجيش الفرنسي سورية في تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ م ، **أمل العرب الجديد** .

استقال عز الدين التنوخي من وظيفته في ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٣ م ، وسافر إلى بغداد عاصمة الدولة العربية **الجديدة** ، وقد استقر فيصل الأول الملك النازح عن سورية ملكاً عليها ، وأصبح ساطع الحصري وزير معارف سورية **مديراً عاماً للمعارف** فيها .

تولى عز الدين التنوخي بادي ذي بدء **التدريس في مدارس بغداد الثانوية** ، ثم نقل سنة ١٩٢٤ أستاذاً إلى **دار المعلمين الأولية** ، ثم أستاذاً إلى **دار المعلمين العالية** ، وعندما نقل إليها أيضاً ساطع الحصري سنة **١٩٢٧ م** أستاذاً ، ساعده في إصدار (**مجلة التربية والتعليم** [١]) وأخذ يحرر فيهـــا ، وكان مما نشره عدد من فصول كتاب (**قلب الطفل**) مترجماً عن الفرنسية .

ودعي عز الدين التنوخي وهو في بغداد ، إلى **تأليف بعض الكتب المدرسية** ، وكان من عمله ترجمة كتاب عن الفرنسية لمؤلفه فرنان ماير أطلق عليه اسم (**مبادىء الفيزياء**) تعريباً لكلمـة Phisique الفرنسية ، فكان تعريباً موفقاً **شاع واشتهر** في أكثر الأقطار العربية بعدئذٍ .

وفي نهاية سنة ١٩٣١ م حدث ما كره التنوخي بعمله . وهيج الحنين في صدره إلى مرابع صباه ، فاستقال من وظيفته ، وعاد إلى دمشق ، وفيها أشغل

---

(١) صدرت هذه المجلة في أول عام ١٩٢٨ م واستمرت حتى آخر عام ١٩٣١ م ، انظر مذكرات ساطع الحصري في العراق ج ٢ ص ٤٥ بيروت ١٩٦٨ م .

بدءاً من ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤ م حتى غاية إيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٦م، **أمانة سر المجمع العلمي العربي**، وبتاريخ ١٨ كانون الأول (سبتمبر)سنة ١٩٣٧م، عين **أستاذاً للعربية وآدابها** في المدارس الثانوية في حمص ثم في دمشق، ثم أسند إليه بتاريخ ١ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٤٢ م، منصب **مدير معارف محافظة السويداء**، ثم عين في أول سنة ١٩٤٧ م، **مفتشاً للمعارف بدمشق** وعضواً في لجنة التربية والتعليم، وفي مطلع سنة ١٩٤٨ م عين **أستاذاً في كلية الآداب** المحدثة بجامعة دمشق، وقد درّس فيها علوم البلاغة، وفي نهاية سنة ١٩٥٣ م، أحيل إلى **التقاعد**، لبلوغه السن القانونية بحسب القيود الرسمية.

ومنذ سنة ١٩٥٣ م، تفرغ عز الدين التنوخي **للعمل المجمعي**، وقد انتخب بآخرة **نائباً لرئيس المجمع العلمي العربي**، فاشغل هذا المنصب العلمي الكبير بما عرف عنه من تضلع ودأب وتدقيق، حتى وافته المنية صباح يوم الجمعة في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ١٣٨٦ للهجرة الموافق الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٦ للميلاد، فنعاه المجمع ونعته وزارة التربية وبكاه أهل العلم والفضل، في مختلف البلاد، وقد وري الثرى في مقبرة الباب الصغير بدمشق.

عز الدين التنوخي المجمعي

كان الأستاذ عز الدين التنوخي في نهاية سنة ١٩١٨ م، في عداد المختارين ليكونوا أعضاء (**الشعبة الأولى للترجمة والتأليف**)، ثم كان في عداد أعضاء (**ديوان المعارف**)، ولما تحول هذا الديوان إلى مجمع علمي كان الأستاذ التنوخي واحداً من **أعضائه الثمانية المؤسسين**، وحضر الجلسة الأولى التي

عقدت في ١٩١٩/٧/٣٠ في المدرسة العادلية الكبرى مقر **المجمع** العلمي العربي بدمشق إلى اليوم .

ومنذ أن **هاجر** الأستاذ التنوخي إلى بغداد ، أصبح في عداد **الأعضاء المراسلين للمجمع العلمي العربي** ، وعندما فكر بعض علماء بغداد وأهل الفكر فيها سنة ١٩٢٥ م ، في إنشاء **مجمع علمي عراقي** على غرار مجمع دمشق ، **كان** في عداد من انتخبوا ليكونوا من الأعضاء المؤسسين ، غير أن الحياة لم تكتب لهذا المجمع ، على أن **المجمع العلمي العراقي** الذي أنشىء سنة ١٩٤٧ م ، انتخب الأستاذ عز الدين التنوخي سنة ١٩٦١ م **عضواً مراسلاً له** في دمشق .

ومنذ سنة ١٩٣٢ م ، عاد الأستاذ عز الدين التنوخي **عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي** ، يكتب في مجلته ويحقق النفائس من المخطوطات ، وقد ألقى باسم **المجمع** في حفل تأبين أمير الشعراء أحمد شوقي في ١٩٣٢/١١/١٣ م ، خطاباً عن **شوقي واللغة** . ولما تقررت إعادة المجمع إلى نشاطه بعد أزمة سنة ١٩٣٤ ، كلف الأستاذ عز الدين التنوخي بأمانة سر المجمع **فأشرف** على جهازه **الإداري** وعلى مجلته بدءاً من مطلع تشرين الثاني ١٩٣٤ م ، حتى نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٧ م .

وبتاريخ ١٩٥٧/١٢/١٩ م انتخب التنوخي **عضواً في لجنة المطبوعات ومجلة المجمع** وبتاريخ ١٩٦٢/١١/١ ، انتخب **نائبـــاً للرئيس** ، فكان من المنقطعين للعمل المجمعي ، يحقق الكتب ويشرف على المجلة حتى وافته منيته رحمه الله .وقد نعته هذه المجلة في الصفحة ٥٣٨ من المجلد ٤١ لسنة ١٩٦٦ م .

وبتاريخ ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧ م ، أقامت **وزارة الثقافة والإرشاد القومي حفلة تأبين للأستاذ التنوخي** على مدرج جامعة دمشق ، تكلم فيها عن حياته ومنزلته العلمية واللغوية وأدبه وشعره ، كل من الأستاذ سليمان الخش

وزير التربية ، والأستاذ عارف النكدي والأستاذ عبد الهادي هاشم والدكتور شكري فيصل .

وعندما انتخب **الأستاذ عبد الهادي هاشم** في مطلع سنة ١٩٦٧ م ، عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق ، دعاه المجمع لاحتلال المقعد المجمعي الذي خلا بوفاة **فقيد المجمع** الأستاذ **التنوخي** ، ولكنه لم يستقبل حتى كتابة هذه الأسطر .

عز الدين التنوخي في رأي زملائه المجمعيين

أبّن **الدكتور مصطفى جواد** باسم المجمع العلمي العراقي عز الدين التنوخي ، برسالة وصف بها الخسران الذي لا يعوض بفقده ، وكان مما قاله :

[.. كان الأستاذ عز الدين **علم من أعلام علماء العرب** ومن المتبحرين في مفردات العربية ، ومن التراجمة المتقنين من اللغة الفرنسية إلى العربية ، ألف كتاب « **صناعة الإنشاء** » وجمع بين القواعد الغربية والأساليب العربية ، وترجم كتباً في الطبيعيات والفيزياء ، وهو أول من سماها بـ « **الفيزياء** » قياساً على الكيمياء ، وعني كثيراً بترجمة مصطلحات التشريح التي كانت تدرس في العراق ، وبدأ بتدريسها وتدريس العلوم العربية بالشام والعراق . . . وكان تعليمه وتدريسه **خير قدوة للمعلمين والمدرسين والأساتذة** ، وكان يعتز بنسبه التنوخي ويفخر بالعروبة ، ونشر من كتب الأدب واللغة ما هو معروف بين العلماء والأدباء بالتحقيق الدقيق والاتقان والتحري ..] .

وكان مما قاله **الأستاذ عارف النكدي** باسم المجمع العلمي العربي في دمشق ، في تأبين عز الدين التنوخي :

[.. علمٌ راسخ ، واطلاع واسع ، وتحقيق وتدقيق ، وقوة ذاكرة ، وبديهة حاضرة ، ودأب وجهد ، كل ذلك مكّنه من **إنتاج النافع المفيد** ،

واخراج الطريف والتليد ، من كتب المتقدمين والمتأخرين ، **نشراً وشرحاً ، ونقلاً ووضعاً** ، فأضاف إلى دور الكتب ، وإلى ثرواتها السابقة ، ثروة قيّمة جديدة ..] .

وكتب الأستاذ **محمد بهجة الأثري** يعزي بالتنوخي واصفاً حزنه بفقده وأنه كان : [صديقاً حميماً ، حمدت صحبته في السنين الطوال ، وعالماً محققاً ذا يد باسطة وفضل غزير ، وعربياً مؤمناً صاحب حفاظ على العرب والعربية والإسلام ، **وركناً ركيناً في بنية المجمع منذ ساعة تأسيسه قبل نصف قرن** ..] .

وكتب **الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي** يؤبن التنوخي ويذكر الصداقة التي كانت تربط بينهما ، وكان مما كتبه :

[لقد كان ـ رحمه الله ـ **مغرماً بالآداب والمعارف سمحاً كريماً في تقديره لجهود المعنيين بها** ، إذن ليس ببدع أن تمشق الأذن قبل العين من كلا الطرفين ، حتى إذا التقينا راعني مخبره ومنظره ، واستهوتني شمائله ، وسأذكر دائماً تلك المجالس التي كان المرحوم يهتم بعقدها على ضفاف بردى وفي وسط داريا أثناء زياراتي لبلاد الشام ، والتي كنا نتجاذب فيها الأحاديث عن الشعر والأدب ، ونتفكه بروح أخوية صافية ، ومن آيات **أدبه وظرفه وودّه وإخلاصه** ، تلك الأبيات التي كان يرتجلها ارتجالاً ويوجّهها إليّ في مناسبات شتى ، منها :

الله يعلم يا عبد العزيز بما ... لكم بقلبي من ودّ وإجلال

أحس بالفضل في غيري فأعرفه ... ما ينكر الفضل إلاّ كل ختّال

إن السنابل حين الحبّ يملؤها ... تحني الرؤوس ويعلو الفارغ الخالي] .

ومما ذكره **الدكتور شكري فيصل** ، في حديثه الطويل عن أدب التنوخي قوله : [إني حدثتكم عن التنوخي الأديب **الذي يحسن الشعر ، ويجيد النثر ، ويتقن المحاضرة ، ويزين البحث** . ولكني أغفلت الأدب الآخر ، أدب النفس .. الذي هو تتويج لأدب الدرس ، فقد كان نبضة حية في صدر الأستاذ التنوخي وكان نوراً نيراً في وجهه وسلوكاً واضحاً في سلوكه .. كان من **أطيب الناس معشراً وأصفاهم خلقاً** ، وأبعدهم عن كثير من تعقيدات الحياة المعاصرة ..] .

آثار عز الدين التنوخي المطبوعة

قام الأستاذ عز الدين التنوخي بتأليف وترجمة عدد من الكتب المدرسية والجامعية ، كما أنه حقق ونشر بعض ذخائر المخطوطات العربية الهامة ، وفيما يلي ثبت بما نشر له :

١ — « **الفتح المبين في شرح عينية الرئيس ابن سينا** » وقد طبعت هذه الرسالة بمصر أيام الدراسة في الجامع الأزهر .

٢ — « **دروس في صناعة الإنشاء** » لطلاب المدارس الثانوية في العراق ، وقد طبعت في بغداد أيام كان التنوخي مدرساً فيها .

٣ — « **مبادىء الفيزياء** » ترجمة عن الفرنسية لطلاب المدارس الثانوية في العراق ، وهو في جزءين طبعا في بغداد .

٤ — « **قلب الطفل** » ترجمة عن الفرنسية نشر بعضه في مجلة التربية والتعليم في بغداد ، ثم طبع في دمشق بجزأين .

٥ — « **المنتقى من أخبار الأصمعي** » تحقيق كتاب الإمام الربعي ، وقد ظهر في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٣٥ م .

٦ — « **تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة** » تحقيق كتاب الإمام الجواليقي ، وقد ظهر في مطبوعات المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٣٦ م .

٧ — « **بحر العوّام فيما أصاب فيه العوام** » تحقيق كتاب الإمام ابن الحنبلي ، وقد ظهر في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٧ م .

٨ — « **الإيضاح** » شرح كتاب الإمام القزويني في علوم البلاغة ، وقد طبع في مطبعة جامعة دمشق في ثلاثة أجزاء .

٩ — « **إحياء العروض** » لطلاب كلية الآداب ، وقد طبع في دمشق .

١٠ — « **الإبدال** » تحقيق وشرح كتاب أبي الطيب اللغوي ، وقد ظهر في جزأين في مطبوعات مجمع دمشق سنة ١٩٦٠ - ١٩٦١ م .

١١ — « **المثنى** » تحقيق وشرح كتاب أبي الطيب اللغوي ، وقد ظهر في مطبوعات مجمع دمشق سنة ١٩٦٠ م

١٢ — « **الإتباع** » تحقيق وشرح كتاب أبي الطيب اللغوي ، وقد ظهر في مطبوعات مجمع دمشق سنة ١٩٦١ م .

١٣ — « **الإبدال والمعاقبة والنظائر** » تحقيق وشرح كتاب الإمام الزجاجي ، وقد ظهر في مطبوعات مجمع دمشق سنة ١٩٦٢ م .

١٤ — « **مقدمة في النحو** » تحقيق وشرح كتاب خلف الأحمر ، وقد نشرته وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٩٦١ م .

١٥ — « **وصف المطر والسحاب** » تحقيق وشرح كتاب ابن دريد ، وقد ظهر في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٦٣ م .

١٦– تحقيق ديوان « **السلطان سليمان بن سليمان النبهاني** » ، وقد طبع في دمشق سنة ١٩٦٥ م .

١٧– وشارك الأستاذ التنوخي في نقل « **المعجم الكندي العسكري** » إلى العربية ، وكان من أعضاء اللجنة المكلفة بذلك ، وقد صدر المعجم بقسميه الفرنسي والانكليزي بدمشق سنة ١٩٦١ م .

١٨– وشارك أيضاً في اللجنة التي ألفها المجمع للنظر في « **معجم المصطلحات الأثرية** » الذي وضعه يحيى الشهابي ، وظهر في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٦٧ م .

١٩– وكان التنوخي قد بدأ ، بتكليف من المجمع العلمي بتحقيق كتاب « **الدلائل في غريب الحديث** » لقاسم بن ثابت السرقسطي ، وعاجلته المنية قبل إنجازه .

مصادر ترجمته

كتب الأستاذ عز الدين التنوخي في أول شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٦١ م ، **ترجمة لنفسه** محفوظة في ملفه المجمعي ، وهي ترجمة موجزة لا تتضمن تواريخ الحوادث الواردة فيها **بصورة دقيقة** .

وقد نعته مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في ص ٥٣٨ من مجلدها ٤١ لسنة ١٩٦٦ م وذكرت خلاصة الترجمة التي كتبها بنفسه مع تعديل طفيف ، وقد رجعت في تدوين هذه الترجمة إلى الوثائق الرسمية ومجموعة مجلة المجمع ، وإلى ذاكرة بعض أصدقاء التنوخي .

وفي كتاب « **معالم وأعلام** » لأحمد قدامة ج ١ ص ٢٠٥ المطبوع في دمشق سنة ١٩٦٥ م ، ترجمة موجزة للتنوخي .

وتفكر وزارة الثقافة في سورية ، في إصدار كتاب ، في سلسلة « **العروبة تكرم** » عن الأستاذ التنوخي تترجم له فيه ، وتجمع ما قيل في حفلة تأبينه .

- ٧ -

عيسى اسكندر المعلوف

١٨٦٩ — ١٩٥٦ م

نشأته وحياته

ولد **عيسى بن اسكندر المعلوف ، وهو من أسرة غسانية حورانية ،** في ١١ نيسان (ابريل) سنة ١٨٦٩ م (أوائل سنة ١٢٨٦ ﻫ) في قرية (**كفر عقاب**) من قرى قضاء المتن في جبل لبنان ، وفي مدرسة هذه القرية تلقى علومه الابتدائية .

ثم انتسب إلى (مدرسة الشوير) للمرسلين الانكليز ، يتلقى فيها **معارفه الإعدادية ومبادىء الإنكليزية** ، ولكن لم يلبث قليلاً حتى تركهـا منصرفاً إلى الدراسة والمطالعة لوحده . يحضر مجالس علماء عصره أمثال **الشيخ إبراهيم اليازجي** ويأخذ عنهم ، ويقتني الكتب ملتهماً ما فيها من معارف ، وما كاد يبلغ الخامسة عشرة من عمره إلا وظهرت عليه **علائم النبوغ واشتهر بالثقافة والاطلاع الواسع** ، فكلف بالتدريس في المدارس الخاصة ، فقبل التكليف غير منقطع عن طلب العلم والاستزادة من المعرفة ، فقرأ علوم العربية وآدابها حتى تبحر فيها ، وطالع كتب الانكليزية وآدابها حتى أتقنها .

وفي سنة ١٨٩٠ م ، انتقل عيسى اسكندر المعلوف إلى مدينة (بعبدا) **مركز متصرفية جبل لبنان** ، وأخذ يحرر في **جريدة لبنان** ، وهو يكتب المقالات والأبحاث الأدبية والاجتماعية ويبعث بها إلى مختلف الجرائد والمجلات والتي كانت تصدر في مدينة بيروت ، وفي سنة ١٨٩٣ م ، وكان في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، عين **مدرساً في المدرسة الأرثوذكسية** في قرية (**كفتين**) من أعمال طرابس الشام ، فقضى فيها أربع سنوات عاد بعدها إلى تحرير جريدة لبنان في بعبدا .

وفي سنة ١٩٠٠ م ، **كلف** عيسى اسكندر المعلوف بتدريس **علوم العربية** في المدرسة البطريركية الأرثوذكسية في دمشق ، فانتقل اليها غير منقطع عن الكتابة في الصحف والمجلات ولا سيما مجلة النعمة التي كانت البطريركية المذكورة تصدرها في دمشق .

وانتقل عيسى اسكندر المعلوف بعد سنة ، إلى **مدينة زحلة** يدرس في (الكلية الشرقية) لمدة قاربت العشر سنوات ، أنشأ خلالها لطلابه مجلة أطلق عليها اسم (**المهذب**) .

وفي سنة ١٩١١ م ، بدأ باصدار مجلة خاصة به أسماها (**مجلة الآثار**) ، وقد صدرت منها ثلاثة مجلدات قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م ، كما صدر بآخرة مجلدان منها خصهما بتاريخ **الأمير فخر الدين المعني الثاني** .

وظل عيسى اسكندر المعلوف يشتغل بالتدريس في زحلة وفي سوق الغرب ، دون أن ينقطع عن البحث والكتابة والتأليف ، حتى انتهت الحرب العالمية بجلاء الأتراك عن سورية ، فجاء دمشق أواخر سنة ١٩١٨ م ، **فعينته**



الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف

الحكومة العربية سنة ١٩١٩ م ، عضواً في (ديوان المعارف) نواة (**المجمع العلمي العربي**) ، ثم أصبح عضواً متفرغاً في المجمع ، فلما بدأت نيران الثورة السورية الكبرى ضد الفرنسيين بالإندلاع ، ترك **عيسى اسكندر المعلوف دمشق** وعاد إلى مدينة زحلة يقيم فيها منقطعاً إلى التأليف والنشر ، وكان حريصاً على **اقتناء نفائس الكتب** وعلى جمع النادر من المخطوطات التي دونها مؤلفوها بأيديهم أو قرئت عليهم ، وكانت خزانته تضم حوالي ألفي مخطوطة وعدداً كبيراً من الكتب المطبوعة والدوريات المنوعة .

فلما كانت سنة **١٩٥٢** م ، اعتلت صحة المعلوف وضعف بصره ، فانقطع عن العمل المجهد وعن السفر وعن الكتابة والمطالعة ، حتى **وافته المنية** يوم الاثنين الثاني من تموز (يوليو) سنة ١٩٥٦ م ، فبكاه العلماء والمفكرون وشيعته مدينة زحلة في اليوم التالي ، بموكب حافل إلى حيث دفن في ثرى واديها الجميل ملهم العباقرة الشعر الرائع .

عيسى اسكندر المعلوف المجمعي

لما جلا الأتراك عن دمشق في نهاية الحرب العالمية الأولى ، وقامت في سورية أول حكومة عربية مستقلة ، **تطلعت إليها أنظار المفكرين والعلماء في مختلف أصقاع العالم العربي** ، وكان ممن وردها ، معتزاً بالدولة العربية تتحقق وتقوم حقيقة واقعة ، بعد أن كانت تداعب مخيلاتهم زمناً طويلاً ، عيسى اسكندر المعلوف ، وكان معروفاً فيها مشتهراً بالعلم والفضل وحسن المحاضرة ، **ففتحت دمشق للقادم قلبها ، كعادتها بالنسبة لكل عربي وزائر** ، وتهادته النوادي الأدبية ضيفاً كريماً ومحاضراً ذا ثقافة متينة وشاعراً فحلاً يجيد النظم والإلقاء .

وعندما أرادت الحكومة في دمشق، تعريب الدواوين والنهوض بالعربية من كبوتها، كان عيسى اسكندر المعلوف، في عداد من عينتهم بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ م، أعضاء **في الشعبة الأولى للترجمة والتأليف** ثم كان بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) ١٩١٩ م **عضواً في ديوان المعارف**، ثم أصبح بتاريخ ٨ حزيران (يونيو) ١٩١٩ م **عضواً في المجمع العلمي العربي**، وقد حضر مع زملائه السبعة مؤسسي المجمع الجلسة الأولى التي عقدت في المدرسة العادلية بتاريخ ٣٠ تموز (يوليو) ١٩١٩ م، **وكان** من أعضاء **القسم اللغوي الأدبي** في المجمع.

وعندما عاد المجمع العلمي العربي، إلى نشاطه، بعد زوال الظروف التي دعت إلى توقفه عند الاحتلال الفرنسي لسورية، عين عيسى اسكندر المعلوف بتاريخ ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٢١ م، **عضواً متفرغاً في المجمع**، فأخذ يكتب ويحاضر وينشر في مجلته المقالات التاريخية والاجتماعية والأدبية اللغوية والتعريفات الدقيقة لنفائس الآثار والمخطوطات والكتب الجديدة، بما عرف عنه من علم غزير ودأب على المراجعة والتحقيق، وقد حوى الجزء الأول من كتاب (**محاضرات المجمع العلمي العربي**) المطبوع سنة ١٩٢٥ م، على بعض محاضرات المعلوف التي ألقاها في ردهة المجمع وهي التالية :

١ — « **حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها** » وقد ألقيت مساء ٢٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٠ م، وجاءت في ٢٧ صفحة من القطع الكبير.

٢ — « **كيف تحقق الآثار التاريخ** » وقد ألقيت مساء ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٢ م، وجاءت في ٢٢ صفحة من القطع الكبير.

٣ — « **صناعات دمشق القديمة** » وقد ألقيت مساء ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢ م، وجاءت في ٣٣ صفحة من القطع الكبير.

وعندما ترك عيسى اسكندر المعلوف الاقامة في دمشق سنة **١٩٢٥** م ، غدا **عضواً مراسلاً المجمع العلمي العربي في لبنان** ، وما انقطع أبداً عن مراسلته والتحرير في مجلته بعد ذلك خلال سنوات عديدة .

وكان عيسى اسكندر المعلوف من أبرز علماء لبنان الذين فكروا في تأسيس **مجمع علمي لبناني** سنة ١٩٢٥ م ، غير أنه لم يكتب لهذه الفكرة أن تتحقق .

وعندما أنشىء **مجمع اللغة العربية في مصر** سنة ١٩٣٣ م ، كان عيسى اسكندر المعلوف **من الأعضاء الرواد** الذين وضعوا الأساس المتين الذي قام عليه صرح مجمع القاهرة ، وقد اشترك في عدد من لجانه ونشر في مجلته بعض البحوث اللغوية ، وظل مثابراً على حضور جلسات المجمع كل سنة ، إلى أن اعتلت صحته سنة ١٩٥٢ م ، فقدم استقالته فانتخب **عضواً فخرياً في المجمع** .

ويوم وافاه الأجل نعاه مجمع اللغة العربية في القاهرة قائلاً :

[يعرب مجمع اللغة العربية عن بالغ أسفه لوفاة الأستاذ الكبير عيسى اسكندر المعلوف ، الذي كان من طليعـــة أعضائه العاملين يوم أسس ، **وقد أسهم في أعمال المجمع بما عرف به من دأب على البحث ووفرة في الجهد ومشاركة في شتى الدراسات اللغوية** مدى عمره المبارك . والمجمع إذ يفقد هذا العالم الجليل يبعث بأصدق التعزيات إلى أسرته ، وإلى المجمعيين في سائر البلاد العربية وكل أديب ومشتغل بالدرس والبحث ، عرف قدر الفقيد وأفضاله على **الحركة الفكرية العربية** (١)] .

ونعت **مجلة المجمع العلمي العربي** بدمشق الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف ووصفت رزيئة المجمع به قائلة بأنه : [أحد أعضائه الأوائل ، **الذين**

---

(١) جريدة الأهرام عدد ٥ تموز (يوليو) ١٩٥٦ م .

شادوا صرحه وأثلوا مجده وحببوا العربية إلى أبنائها ، يوم كان القوم بين عازف عنها منكر لها ، وجاهل بها جاحد فضلها ...

كان الفقيد **كريم الخلق** ، هادىء الطبع ، واسع الصدر ، عميق الفكر ، جم التواضع ، عالي الهمة ، **جواداً بعلمه** ..] .

عيسى اسكندر المعلوف في أقوال المجمعيين

قال **الأستاذ حامد عبد القادر** ، وهو يحتل مقعد الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف في مجمع اللغة العربية في القاهرة : [.. نشأ المعلوف منذ صباه محباً للعلم ، مجداً في طلبه ، مكباً على البحث والدرس ، مولعاً بنشر المعارف ، **حريصاً على أن ينفع مواطنيه بعلمه** بتعليم النشء ، وتربيتهم على أسس قوية سليمة ، ونشر المقالات الصافية في أمهات الصحف والمجلات ، وتأليف الكتب القيمة في الأدب والتاريخ واللغة وسائر العلوم والفنون ...

ومما يدل على قيمة هذه المقالات أن كثيراً منها **ترجم إلى التركية ، والروسية ، والفرنسية ، والانكليزية ، والألمانية ، والرومانية ، والإيطالية**] .

وقال **الدكتور منصور فهمي** وهو يرثي زميله المعلوف : [.. **تتمثل** الصفات الضرورية لسقيا المعارف البشرية ونمائها في الدأب ، والصبر ، والاجتهاد الموصول ، والتحصيل النهم ، والجمع المتلاحق ، وكذلك كان المرحوم عيسى اسكندر المعلوف **دؤوباً صبوراً موصول الجد نهماً في طلب العلم جماعاً** ، فكان مثلاً عالياً لهذا الصنف من المحصلين ممن فيهم لغيرهم مدد ، وعندهم للدارسين ذخيرة صالحة لمن ينتفع بها من المفكرين والمبتكرين] .

وقال **الدكتور فؤاد صروف** في حفل تكريم ذكرى عيسى اسكندر المعلوف : [إن رجلاً يقضي **ستين** سنة **أو تزيد ، يبحث ويحقق ويؤلف ويحاضر** وينشر ويخزن مالا يتاح نشره ، ثم يبيحه للباحثين الذين يطلبونه ، كما فعل بالمئات الخمس من مجموعة مخطوطاته التي اقتنتهـا مكتبة الجامعة الأميركية ، ويشترك اشتراكاً فاعلاً حصيناً **في ثلاثة مجامع علمية في دمشق وبيروت والقاهرة** ، فيشهد دوراتها ويسهم في مناقشاتها ومنشوراتها ، ويصدر مجلة الآثار ويكتب لمجلة ـ المقتطف ـ وغيرها **لهو حقاً رجل من الأقيال**] .

ومما قاله الأستاذ **عارف النكدي** في المعلوف : [العلامة عيسى أسكندر المعلوف زميل كريم وأستاذ جليل **خدم وطنه وتاريخه ولغته أجل الخدمات**] .

ومما قاله المستشرق الفرنسي **الأستاذ لويس ماسينيون** في زميله المعلوف : [**قد** اجتمعنا للمرة الأولى ، يوم صرنا عضوين منتخبين بدمشق في المجمع العلمي العربي ، الذي كان قد أسسه صديقنـا **الأستاذ محمد كرد علي ..** ثم حظيت بلقاء الأستاذ عيسى المعلوف مباشرة في القاهرة سنة **١٩٣٤ م ،** **يوم** كنا عضوين دائمين في مجمع اللغة العربية والمؤتمر السنوي للمعجم الكبير ، ثم زاد ما بيننا التعارف في الجلسات المجمعية ، **وبتقارب آرائنا في المسائل اللغوية الهامة** والاجتماعات لتكوين نخب مختارة في المدن والقرى لتعليم الصنائع والحرف المفيدة لصالح الأمة والتي لها تأثيرها على اللهجات اللغوية . وإنني **أنوه ببحوث الأستاذ عيسى في اللغة الصناعية الدمشقية المفيدة** ، وهي أيضاً موضوع اهتمامي وبحوثي ..]

ومما قاله **الأستاذ فيليب طرازي** في عيسى اسكندر المعلوف : [إنه جاد المزاج والذهن ، **كثير الجلد على الكتابة والمطالعة** ، لا يكاد يمل ،

وقد صرف نحو ثلاثين سنة في العمل العقلي الدائم ، **طيب القلب لا** تنحني ضلوعه على ضغينة ، ولا يدخل قلبه حب الانتقام ، **متساهل في آرائه على غير تردد** ..] .

ورثى **الأستاذ أمين نخلة** الأستاذ المعلوف برائعة قال فيها :

قمد العلم بعيسى مأتما والبراع العف والصدر النقاء
شهد العلم المزكى أنه من هوى خلو ومن لغو براء
برّ بالنقل على النقد له ونفى عنه تهاويل الرياء
ظفر العلم بمعلوفية من يراع كالرياض وضاء
علمت ما الجهد والدأب ولم تدر ما الدعوى ولا ما الخيلاء
رب سطر لامع في طرسه بسواد الليل والعين أضاء
لا تبال اللون من أسوده فالدم الأحمر والحبر سواء !

* * *

يا أبي التاريخ بلغت ذرى لم تتح علياؤها للنظراء
هات من أنبائه وانظر لنا هل ليالي الغد من أمس ملاء
وهل الناس ـ على أطوارهم في توالي جدد أو قدماء
ألهوا القوة في الأمس وهل سجدوا اليوم لغير الأقوياء
وهل الفرد تولى عصره واستذلته ألوف الجبناء
كان بالميلاد والتاج ، فهل عاد فيهم برعاع وغثاء
وهل العلم تجلى بأسه في اجتذاب الخير أو سوق الرخاء
أم تولته يد طاغية سخر العلم لشر وشقاء

آثار عيسى اسكندر المعلوف العلمية

ترك الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، المكتبة العربية **ثروة ضخمة من المؤلفات والأبحاث والدراسات التاريخية واللغوية والأدبية** ، وهي تقدر بنحو سبعين مجلداً ، ولكن من المؤسف أن تكون أكثر آثاره العلمية مخطوطة لم تطبع ، يتنادى محبوه وعارفو فضله بين الفينة والفينة للتعاون على نشرها ، وفيما يلي أهم الآثار التي تركها :

أولاً : الآثار المطبوعة :

١ — « **دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف** » ، وقد طبع سنة ١٩٠٨ م في ٧٥٠ صفحة .

٢ — « **تاريخ مدينة زحلة** » وقد طبع سنة ١٩١١ م ، في ٢٩٨ صفحة .

٣ — « **مجلة الآثار** » وقد صدر منها ثلاثة مجلدات قبل الحرب العالمية الأولى .

٤ — « **تاريخ فخر الدين المعني الثاني** » الذي حكم لبنان في أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، وقد طبع سنة ١٩٣٤ م في ٤٤٨ صفحة .

ثانياً : الآثار المخطوطة .

١ — « **تاريخ الأسر الشرقية** » ويقع في ١٤ مجلداً تتضمن أنساب أهم الأسر المعروفة في العالم العربي .

٢ — « **معجم الألفاظ العامية والدخيلة** » .

٣ — « **نوابغ النساء في الشرق والغرب** » .

٤ — « **تاريخ خزائن الكتب العربية** » .

٥ — « **تاريخ سورية المجوفة** » ويبحث في تاريخ بلاد البقاع وبعلبك .

٦ — « **تاريخ حضارة دمشق وآثارها** » .

٧ — « **تاريخ بلاد حوران** » .

٨ — « **الأمثال العامية** » معجم مرتب على حروف الهجاء .

٩ — « **التذكرة الملوفية** » وتقع في عشرة أجزاء ، تتضمن مجموعة أبحاث ودراسات في العلوم والفنون والآداب والآثار .

١٠— « **حياتي** » وهو كتاب يتضمن أعمال مؤلفه وشيئاً من مذكراته .

مصادر ترجمة المعلوف

لم يوف الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف حتى اليوم ، حقه من الدراسة والتنويه بفضله وخدماته للغة والتاريخ ، رغم المحاولات التي قام بها نفر من العلماء والأدباء والأوفياء ، وقد ترجمت للمعلوف باختصار كل من المصادر التالية :

١ — « **الموسوعة العربية الميسرة** » ص ١٧٢١ .

٢ — « **أعلام الفن والأدب** » لأدهم الجندي ج ٢ ص ٢٩١ .

٣ — « **مجلة المجمع العلمي العربي** » مج ٣١ ص ٦٨٢ .

٤ — « **مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة** » مج ١٠ ص ١٦٨ .

٥ — « **مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة** » مج ١٣ ص ٢٧٧ .

٦ — « **المجمعيون** » القاهرة ص ١٤١ .

٧ — « **العلامة عيسى اسكندر المعلوف** » بقلم ولده رياض . المجلة الخلصية ١٩٦٢ م .

٨ — « **مجلة البيدر** » عدد خاص برقم ٥١٣ بيروت حزيران (يونيو) ١٩٦٧ م .

هذا وكنت قرأت أن الأستاذ يعقوب عودات (**البدوي الملثم**) ألف كتاباً عن المعلوف ، ولست أدري إن كان طبع أم هو في طريقه إلى الطبع .

❋❋❋

- ٨ -

متري قندلفت

١٨٥٩ — ١٩٣٣ م

نشأته وحياته

ولد **متري**[١] **بن ابراهيم قندلفت** ، في دمشق سنة ١٢٧٦ ه الموافقة لسنة ١٨٥٩م، في أسرة دمشقية **أرثوذكسية المذهب** ، وكان أبوه صاحب معمل لصناعة الحرير ، ويرغب في أن يرى ابنه إلى جانبه في مصنعه الصغير ، ولكن الولد لم يكد ينهي تحصيله الأولي ، حتى بدا متعطشاً للعلم والمعرفة ، يصادق الكتب ليل نهار مفتشاً عن مصادر يتلقى العلم منها ، فاستسلم أبوه لرغباته وساعده على الالتحاق ببعض **المدارس** الأهلية ، كما سمح له بحضور مجالس بعض شيوخ عصره من العلماء ، فشبَّ الولد وهو يتقن **العربية والتركية** ، وقد تعرَّف وهو غض الشباب على سيدة أميركية تنتسب إلى **بعثة تبشيرية** هي (مسز **كروفرد**) فأخذ يتردد عليها بقصد تلقي الانكليزية عنها ،

---

(١) **كان** المترجم يرسم اسمه بهذه الصيغة في أول حياته وفي الأجزاء الأولى من مجلة المجمع بدمشق ، ولكن كتابه المطبوع في مصر سنة ١٩٢٨ م حمل اسم مترجمه (ديمتري قندلفت) وهذا الرسم للاسم هو الأصل فيه عند تعريبه عن اللاتينية ، وهو فيها (ديمتريوس) والصيغة الأولى هي التعريب الدارج على ألسنة الناس .



الأستاذ متري قدرلفت

فإذا بها تغمره بعطفها ، لما توسمته فيه من أمائر الذكاء واستعداد فطري لإتقان الانكليزية ، وكان أن فتنته عن مذهبه الأرثوذكسي إلى مذهبها الإنجيلي ، فأخذ يساعدها في نقل المواعظ والخطب الدينية إلى العربية ، ثم دفعت إليه كتاب الدكتور بويد أحد كبار الوعاظ الإنجيليين ، ليعمل على ترجمته إلى العربية ، فقام بالمهمة التي عهدت بها إليه بترجمة الكتاب جاعلاً عنوانه (طرق الأمان لمحْدَث الإيمان) ، وقدمه إليها في شهر إيلول (سبتمبر) سنة ١٨٨١ م مع كلمة إهداء قال فيها : [لقد طوّقتني سيدتي من نعم علمك وإرشاداتك ، وغمرتني من بحر فضلك وإفادتك ، مذ كنت في روض الصّبا غضّاً نديّاً ، تلاعبه نسمات الصبا بكرة وعشيّا ، بما يوقرني حمله كلما ذكرته ، وينعشني شكره كلما نشرته . وإنما هي باكورة من ثمار غرسك ، لعلها تنسيك في تهذيبي بعض العناء ..] .

وقامت السيدة كروفرد بعرض الكتاب على الواعظ الإنجيلي المعروف (مستر مودي) ، فشهد للكتاب بأنه خير ما يحتاج إليه حديثو الإيمان ، وعندئذ قامت (مطبعة الأميركان) في بيروت بطبعه وتوزيعه على مختلف البعثات الإنجيلية التبشيرية في أرجاء البلاد العربية .

وانصرف متري قندلفت بعد هذه البداءة الناجحة ، إلى المطالعة والاستزادة من مختلف أنواع المعرفة ، حتى لمع اسمه في ظلام ذلك العصر الحالك ، وأخذت المدارس الخاصة ، تكلفه بتدريس طلابها اللغة الانكليزية والعلوم الاجتماعية ، وكان يقبل التكليف عاكفاً في أوقات فراغه ، على ترجمة كثير من الكتب الاجتماعية إلى العربية .

---

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب بدار الكتب الوطنية ـ الظاهرية ـ بدمشق مسجلة برقم (٣٢٥٦) .

وعندما حمي وطيس المعارك خلال الحرب العالمية الأولى التي اندلعت نيرانها سنة ١٩١٤ م، كان متري قندلفت في جملة المفكرين العرب الذين أمر قائد الجيش العثماني في سورية، بنفيهم مع أسرهم إلى بلاد الأناضول بحجة الحفاظ على أمن الجيش، ونجم عن هذا النفي المفاجئ ضياع المكتبة القيمة التي كان متري قندلفت قد اقتناها، وفقدان جميع أوراقه الخاصة والكتب التي كان قد أفنى زهرة شبابه في نقلها إلى العربية.

وأقام متري قندلفت طوال المدة الباقية من أيام الحرب، في مدينة طوقان من أعمال سيواس في تركية منفياً، فلما خمدت نيران الحرب عاد إلى دمشق، وقد قامت فيها أول حكومة عربية مستقلة، فعين أستاذاً في مدرستها التجهيزية وفي دار المعلمين، يدرس علم النفس والتربية والإنكليزية، وعندما قررت الحكومة إنشاء (ديوان المعارف) كان متري قندلفت في عداد اعضائه لما عرف عنه من تضلع بالعربية وإتقان للترجمة إليهـــا عن الإنكليزية، ثم كان عضواً متفرغاً في المجمع العلمي العربي، فلما كانت سنة ١٩٢١ م نقل مميزاً إلى معهد الحقوق العربي بدمشق، وبقي فيه سنوات قليلة أحيل بعدها إلى التقاعد، فغادر دمشق سنة ١٩٢٤ م إلى بيروت حيث أقام فيها عاكفاً على الترجمة والتأليف وتدوين مذكراته، متنقلاً بين لبنان ومصر في سبيل ذلك، حتى وافته المنية في مدينة بيروت سنة ١٩٣٣ م وفيهـا دفن.

متري قندلفت المجمعي

عندما أطلقت الحكومة العربيـــة، بتاريخ ٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٩ م، على (ديوان المعارف) اسم المجمع العلمي، كان متري قندلفت

الموظف في معارف دمشق وأحد أساتذة المدرسة التجهيزية ودار المعلمين ، **واحداً من أعضائه الثمانية المؤسسين** ، الذين حضروا جلسته الأولى التي عقدت في المدرسة العادلية بتاريخ ٣ ذي القعدة سنة ١٣٣٧ م الموافق ٣٠ تموز (يوليو) سنة ١٩١٩ م ، وقد اختير في هذه الجلسة عضواً في **القسم اللغوي الأدبي** .

وفي نهاية سنة ١٩٢٠ م ، وعندما ابتدأ المجمع العلمي العربي بنشاطه الفعلي ، تفرغ الأستاذ متري قندلفت للعمل المجمعي ، وكلف بالإشراف على **طبع مجلة المجمع والتحرير فيها** وقد تقرر إصدارها بدءاً من عام ١٩٢١ م ، فقام بهذه المهمة ، وصدرت الأعداد الأولى من المجلة وقد حرر فيها باب « **آثار وأخبار** » واصفاً فيه بعض العاديات التي أدخلها المجمع في دار الآثار العربية ، **وكانت ادارتها جزءاً من عمله** ، مسجلاً بعض الأخبار الهامة مثل الاحتفال بذكرى **فقيد المجمع الشيخ طاهر الجزائري** كما عرّف الأستاذ **قندلفت** بعض الكتب المهداة إلى مكتبة المجمع مثل كتاب « **الأخلاق والواجبات** » تأليف الشيخ عبد القادر المغربي ، وكان يوقع ما يحرره **باسمه الصريح** تارة ، وبالحرفين الأولين من اسمه **(م . ق)** تارة أخرى .

وألقى الأستاذ متري قندلفت ، في ردهة المجمع بتاريخ الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٢١ م ، محاضرة عامة بعنوان « **إحياء اللغة العربية** » ، وبتاريخ ١ آب (اغسطس) سنة ١٩٢١ م ، صدر قرار من وزير **المعارف** يقضي باعفاء الأستاذ متري قندلفت من تفرغه للأعمال المجمعية وتعيينه بوظيفة **مميز في معهد الحقوق العربي** ، حيث قام بمهمة الاشراف الإداري وبأعباء الترجمة إلى العربية . ومن التاريخ المذكور اعتبر **من أعضاء المجمع العلمي العربي المراسلين** حتى وافاه الأجل سنة ١٩٣٣ م .

آثار متري قندلفت العلمية:

كان من جنايات الحرب العالمية الأولى ، أن فقدت مكتبة الأستاذ متري قندلفت وفيها كل ما ترجمه أو كتبه وكان مخطوطاً ، ولما أقام في بيروت سنة ١٩٢٥ م عكف ، على ترجمة كتاب الفيلسوف الأميركي **جون ديوى** John Dewy المعنون « **المدرسة والاجتماع** The School and Society ، وهو كتاب شهير في أصول التربية والتعليم وقد ترجم إلى لغات عديدة ، وطبعت ترجمته إلى العربية **دار المعارف** في مصر سنة ١٩٢٨ م ، بناءً على توصية من الأستاذ بولس الخولي أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت ، وقام **الأستاذ أمير بقطر** أمين الجامعة الأميركية في القاهرة بالتعريف بالكتاب في عدد حزيران (يونيو) من « **مقتطف** » سنة ١٩٢٧ م ، ثم كتب مقدمة لترجمته قال فيها : [لقد أتيح لي أن أتصفح الكتاب فصلاً فصلاً ، مع مقابلته بالأصل ، والحق انني وجدت معربه الفاضل ، شديد الحرص على آراء المؤلف ، **أميناً في نقلها إلى العربية** فقرة فقرة ؛ إن لم أقل عبارة عبارة ، مع مراعاة المعاني وسبكها في **قالب عربي قشيب** ، والمبالغة في التدقيق والتمحيص انتقاءً للمفردات المناسبة للمكان المناسب .

أما معرب هذا السفر الجليل ، فقد توخى **الدقة وأمانة الترجمة** ، وأحسن اختيار الألفاظ لتأدية المعنى بأسلوب لا تعوزه السلاسة ولا تنقصه البلاغة ، خال من التعقيد والحشو والاطناب .

وليس جون ديوى ، **بالمؤلف السهل الذي يبسط آراءه** فيدرك مغزاها لأول وهلة الصغير والكبير ، وليس من السهل على علماء الانكليزية من أهلها قراءة مؤلفاته وفهم ألغازها وسبر غورها ، فكأن صاحبها أراد أن يصوغها في قالب من الألفاظ يناسب ما احتوت عليه من فلسفة المعاني وعمق الأفكار .

غير أن المعرب ، لم يترك شاردة أو واردة في الكتاب إلا وحل رموزها وأجلى غامضها ، وأخرج السّفر للقراء **درة في تاج الأدب عامة والتربية والتعليم خاصة**] .

وفي المقدمة القيمة التي قدم بها الأستاذ كتابه بها إلى القراء أشار إلى مذهب مؤلفه في أصول تربية الطفل قائلاً انه : [اعتمد في بيان تلك الأصول ما أجمع عليه كبار المصلحين المربين ، من إطلاق حرية الطفل في حركاته ومجلسه واتباع ملاهيه في غرفة الدرس على وجه لا يعترض فيه هيبة المعلم ولا رهبة العقاب عند المراقبة والضبط والاشراف ، اقتناصاً لميوله ورغباته الفطرية وتطبيقاً على ما يلائمه من طرق التعليم الحكيم في ذلك الطور الغض من النماء البشري ، إلى آخر ما أوضحته **ماري منتسوري كبرى المربيات العالمات العاملات** ، وتابعها فيه عظام المربين وجرى عليـه المؤلف في كتاب (**مدرسة الغد**) الذي غني النفس باخراجه إلى عالم التعليم الشرقي بعد عهد غير بعيد إن شاء الله] .

ويظهر أن المعرب بعد نشر هذا الكتاب ، أخذ يعمل في ترجمة كتاب جون ديوى (**مدرسة الغد**) وكتاب المربية الإيطالية الشهيرة السيدة منتسورى عن (**تربية الأطفال ومدارسهم**) ولكن لم ترَ ترجمته لهذين الكتابين النور نظراً لوفاة المعرب سنة ١٩٣٣ م[١] .

---

(١) كتبت إلى المربية الفاضلة السيدة أليس قندلفت الابنة الوحيدة للأستاذ متري قندلفت ، أسألها عن بقية آثار والدها العلمية فأفادتني بأن جميع كتب أبيها وأوراقه فقدت للمرة الثانية عند وفاته وحيداً في بيروت خلال وجودها في الولايات المتحدة الاميركية تتابع دراستها في جامعة كولومبيا ، وبعد رجوعها للوطن لم تعثر سوى على مخطوطة ترجمة كتاب السيدة منتسوري المشار إليه ، وأنها تقوم ببذل جهود لنشر الترجمة في القاهرة .

مصادر ترجمة متري قندلفت

لم أعثر على ترجمة الأستاذ متري قندلفت ، في أي مصدر من المصادر المطبوعة أو المخطوطة ، حتى أن **ملفه المجمعي لم يتضمن أي معلومات تفيد شيئاً عن نشأته وحياته وآثاره العلمية** ، وذلك لقصر المدة التي قضاها في المجمع زمن تأسيسه من جهة ، ولهجرته بعدئذ من سورية من جهة ثانية ، وقد جمعت المعلومات التي اوردتها في هذه الترجمة ، مما عثرت عليه ، أو مما اتصل بي من آثاره أو وجدته في بعض الوثائق الرسمية ، ومما روته لي **السيدة أليس متري قندلفت** ، ومما سمعته من بعض من يعرفه من الأحياء .

كما أني لم أجد عند أحد من أقرباء أو أصدقاء الأستاذ قندلفت ، أي رسم شمسي منفرد له ، غير أني عثرت أخيراً على الرسم المطلوب عند الأستاذ **برهان الكيلاني الدمشقي** ، أحد هواة اقتناء رسوم الحكام والمشهورين من الرجال .

(يتبع) عدنان الخطيب

❋❋❋

امارة مجهولة

المكان ، الزمان ، السّند ، الامارة

مكان الامارة

مكان الإمارة : هو بلدة « بادِس » ، وقد عنّاني طول البحث عنها منذ أواخر سنة ١٩٥٥ أيام ظفرت بنص معـــــاهدة بين البندقية وبادس موقّع بإمضاء أميرها .

واقتربت من بادس في رحلة كنت بها مع الملك محمد الخامس ملك المغرب السابق عليه رحمات الله ، وبلغنا « الحُسَيْمَة » في ريف المغرب الأقصى ، ولم أكن أدري أن بادس التي أبحث عنها كانت على مقربة من الحسيمة ، وعدت من تلك الرحلة ولم يتح لي أن أراها أو أرى موضعها .

وجاءني من أعلمني بعد ذلك أن على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، بين « سبتة » و « مليّلة » جزيرة صغيرة اتصلت مؤخراً بالبر المغربي ، فأصبحت شبه جزيرة ، وأنها كانت تسمى « حَجَرة بادس » أو « حَجَر بادس » أو « حصن بادس » لقربها من بلدة بادس المغربية ، التي هي موضوع بحثي .

وقرأت في كتاب « المغرب »[1] ، أن بادس مدينة تاريخية من المدن المؤسسة في القرن الأول للفتح الإسلامي لعبت دوراً خطيراً في تاريخ المغرب ،

---

(١) للصدّيق بن العربي ص ٦٥ .

وقد اندثرت الآن ولم يبق منها شيء غير الاسم ، قال : وموقعها على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، أمام الجزيرة المعروفة بنفس الاسم ، وفي الطريق بين سبتة ومليلة .

وفي تاريخ تطوان [١] : بادس ، جزيرة أو شبه جزيرة على البحر الأبيض المتوسط ، هي الآن في يد الاسبان .

وفي الدليل الأزرق المغرب[٢] ما ترجمته :

على الشاطىء المغربي بين مدينتي سبتة ومليلة الاسبانيتين أمام قرية « القُمَيرة » المسماة بالاسبانية بنيون دوفيليز دولا قميرة Penion de velez de la gomera » تقع بلدة بادس وهي قرية صغيرة على نهر يدعى باسمها ، كان الرومان يسمونها باريانتينا Parientina وكان لمينائها شأن في القرون الوسطى ، في مواصلات « فاس » الخارجية ، وأهمل الميناء بعد استقرار الاسبان في القميرة . هـ

وتكرر ورود ذكرها في تاريخ المغرب القديم :

١ — أمر عبد المؤمن سنة ٥٥٧ هـ ، بإنشاء الأساطيل ، فكان منها بطنجة وسبتة وبادس ومراسي الريف مائة قطعة [٣] .

٢ — وفي سنة ٦٠١ هـ بنى عامل الريف ، من قِبَل الناصر ، واسمه « يعيش » سورَ بادس ولمدية ومليلة ، حياطة من فجأة العدو[٤] .

٣ — وأمر السلطان يعقوب ببناء السور على بادس مرفأ السفن ومحل العبور من بلاد غمارة سنة ٦٧٤ هـ[٥] .

---

(١) للأستاذ محمد داود ١ : ٤٤٥ .
(٢) Guide Bleu Maroc الطبعة الثامنة ١٩٤٥ ص ٤٩٦ .
(٣) الاستقصا ، الطبعة الثانية ٢ : ١٢٨ .
(٤) المصدر نفسه ٢ : ١٩٥ .
(٥) أيضاً ٣ : ٤٢ .

٤ - وفي سنة ٦٧٨ هـ ، قدم من بادس وسلا وآنفي خمسة عشر أسطولاً انضمت إلى بقية الأسطول في مرفأ سبتة [١] .

٥ - وفي سنة ٧٦٠ هـ ، ظهر السلطان أبو سالم بجبال غمارة وفر منصور ابن سليمان إلى بادس ، فقبض عليه ، وجيء به إلى السلطان أبي سالم فقتله [٢] .

٦ - وبادس (في القرن السادس للهجرة) مدينة متحضرة ، فيها أسواق وصناعات قلائل ، وغمارة يلجأون إليها في حوائجهم . وهي آخر بلاد غمارة [٣] .

٧ - وأخرجت علماء ، منهم عبد الحق بن اسماعيل البادسي ، مصنف « المقصد الشريف ، في صلحاء الريف » رأيت مخطوطة منه في خزانة الرباط (المجموع ١٤١٩ د) فرغ من تأليفه سنة ٧١١ هـ . وانظر مجلة المجمع العلمي العربي ١٢ : ٦٠

الزمـــان

زمن البحث في الامارة المجهولة هو ، القرن العاشر للهجرة ، والخامس عشر الى أوائل السادس عشر للميلاد .

السَّنَد

وسند البحث : معاهدة عُقدت يوم ١٩ رمضان سنة ٩١٣ هـ الموافق ٢١ يناير ١٥٠٨ بين الأمير منصور بن يوسف ، والقبطان لورِزْ بِزَمَانْ البندقيّ ، في بلدة بادس .

(١) الاستقصا ، الطبعة الثانية ٣ : ٥٢ .
(٢) أيضاً ٤ : ٧ .
(٣) الشريف الادريسي ، في نزهة المشتاق كما في الحلل السندسية ١ : ٦٨

وكان قد اتفق لي الاطلاع على الأصل الفريد لهذه المعاهدة ، بينما كنت أقلّب أضابير « الأركيفيو » الأربع عشرة ، في البندقية ، وما فيها من رسائل ووثائق واردة عليها من بعض ملوك الغرب وسلاطين مصر ، والدولة العثمانية .

نص المعاهدة

الحمد لله وحده ، هذه معاهدة وشروط عقدها القبطان الكبير في قومه ، العزيز بين أبناء جنسه الحسيب الأصيل لورز بزمان هداه الله ، بينه وبين الأمير المعظم الأسعد الأنجد أبي علي منصور بن يوسف كان الله له ، وأصلح قوله وعمله ، وكانت المعاهدة بينهم في حين وصول القبطان إلى مرسى مدينة بادس أمنها الله .

الأول — اول المعاهدة والشروط أن الصلح منعقد بين المسلمين من أهل بادس وعملها ، وبين النصارى من البنادقة وعملها ، من يوم تاريخ هذه المعاهدة ، طول ما يبقوا يمشوا ويجوا لبادس من الآن لقدّام إن شاء الله .

الثاني - العقد الثاني ان كل جفن يجيء من تحت علام الشنيوريّة من أرض البنادقة فإنه ينزل في مدينة بادس أمنها الله ، مؤمّناً في نفسه وماله على هذه المعاهدة التي عقدها القبطان مع الأمير أيّده الله ، من غير زيادة ولا نقصان إن شاء الله .

الثالث — العقد الثالث ألا يأسر أحد من البنادقة أحداً من أهل بادس وعملها ، ولا يأسر أحد من أهل بادس أحداً من البنادقة وعملها ،

من بعد هذه المعاهدة . ومهما ظهر أسير عند كلي الفريقين فانه
يحرر من الأسر في الساعة التي يرى فيها إن شاء الله .

الرابع — الرابع لايؤخذ أحد بذنب أحد . مثل أن يكون لمسلم دَيْنٌ
على نصراني بندقي مما مضى من سالف الأعوام ، ويريد المسلم أن
يحبس فيه أحداً من البنادقة ، فان ذلك لايكون إن شاء الله .

الخامس — العقد الخامس إذا جاء تاجر نصراني بندقي في جفن من أجفان
النصارى غير أجفان البنادقة فان مَأمَنَهُ ومَغْرَمَهُ يكون على
ما في هذه المعاهدة من غير زيادة ولا نقصان بعون الله .

السادس — العقد السادس إذا هال البحر على الطرائد في مرسى بادس ، أو
دهمهم عدوٌّ أو تنكسر لهم سفينة واحتاجوا إلى النزول في البر
فإنهم مُؤَمَّنين (كذا) في أنفسهم وفي أموالهم بعون الله .

العقد السابع إن تجار البنادقة ينزلوا بسلعهم في مدينة بادس
أمنها الله يبيعون ويشترون على أنهم إذا باعوا شيئاً لمسلم بماية دينر
(دينار) ذهباً فانهم لايفارقون المسلم المشتري حتى يحملونه ، لأن
المشتري يغْرَم على مشتراه عُشْراً غير ربع وذالك سبعة ذهب
ونصف من كل ماية ، فان فرّط النصرانيّ البائع في المشترى ،
فانه يَغرَمُ بدلاً منه سبعة ونصفاً من كل ماية إن شاء الله .

السابع — العقد السابع إن جميع ما يشترونه من القمح والدقيق والخبز
وغيرِ ذالك من الفواكه والخُضَر فانهم يرفعون ذالك للطرائد
بغير مغرم يلزمهم على ما ذكر بعون الله .

الثامن — العقد الثامن أن الوَرقي (؟) الذي في طريدة القبطان إذا يبيع سلعة بمايتي ذهب التي تجب عليه فيها خمسة عشر دينَراً ذهباً فانه يُحرَّر ولا يَغرمُ منها قليلاً ولا كثيراً إن شاء الله . وكذالك رئيس كل طريدة وهو رئيسٌ في كل طريدة فانه يحرَّر له من مغرمه الذي يبيع به سلعته سبعة دنانير ونصف دينَرٍ ، ولا يُزاد عليها ولا يُنقص بعون الله .

العقد التاسع ، إذا هرب إلى الطرائد أسير نصراني من بادس وعملها فانهم يُنَزّلونه لصاحبه ، وإن حملوه معهم ويُخرجوه في أرض النصارى ويطلقوه فانهم إذا جاءوا لعام آخر يُحبس فيه واحد منهم إن شاء الله .

على جميع ما ذُكر من المعاهدة والشروط توافق الأمير أبو علي منصور أعز الله أيامه مع القبطان الحسيب لِوِزْبِزَمَانُ البندقيّ أكرمه الله ، وكتب جميع ما ذكر بينهما محمد بن أحمد الرزيني وفقه الله يوم السبت التاسع عشر من شهر رمضان المعظم عام ثلاثة عشر وتسمماية وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر يَنَيِّرْ العَجَمي الذي من عام الف وخمسماية وثمانية أعوام . ه

صورة فوتوغرافية عن المخطوطة التي فيها نص المعاهدة

العقد التاسع إذا جرى [illegible]
و[illegible] لصاحبه ولا [illegible]
و[illegible] من أحد الطرفين [illegible]
[illegible] إن شاء الله.
على جميع ما ذكر من المعاهدة والشروط [illegible]
[illegible] الله [illegible]
[illegible] رحمه الله [illegible]
[illegible] وعبد الله [illegible]
[illegible] عام [illegible]
[illegible]
[illegible]

صورة فوتوغرافية عن تتمة نص المعاهدة

الامارة

ليس فيما وقفت عليه من تواريخ المغرب أي ذكر لامارة في بادس ، تولاها أو قام بها أمير يدعى « منصور بن يوسف » ولعله كان مستقلاً غير تابع لإحدى دولتي عصره : الوطّاسية المَرينيّة ، ودولة بني الأحمر ، وإلا لمَا فاته أن يشير في بدء المعاهدة ، أو ختامها إلى الدولة التي هو من عمالها .

ويُلاحظ في السطر الرابع من الصفحة الأولى من نص المعاهدة ، فراغ كان قد تركه الكاتب لاسم الأمير منصور ، وملأه هو بخطه على طريقة سلاطين المغرب في تحلية رسائلهم بتوقيعاتهم في أعلى الرسائل ، وانفرد هذا بادخال اسمه في صلب الفقرة الأولى من المعاهدة .

ثم ، هل هناك أكثر من التشابه في الأسماء ، عندما نجد في تاريخ المغرب كبيراً من الوطّاسيين اسمه ، يوسف بن منصور (بن زيّان الوطّاسي) قد تولى خلع سلطان فاس أبي عبد الله الحفيد سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م ؟ أم يذهب بنا الحدس إلى أن منصور بن يوسف صاحب معاهدة بادس ، سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٨ م ، هو ابن ليوسف بن منصور بن زيّان ؟ فتكون الإمارة « وطّاسيّة » يلحق ما يمكن أن يُعرف عنها بتاريخ الوطّاسيين . هذا خاطر يسنح عند محاولة التعرف إلى نسب منصور وأوّليّته ، لا يدخل في صميم موضوع « الإمارة » .

أما مادة التاريخ لبلدة بادس ، بعد زمن المعاهدة ، فتوفرة ، وأهم ما يتعلق ببحثنا منها ، أن الإسبان احتلوا جزيرة بادس في ٢٣ يوليو ١٥٠٨ م

٢٣ صفر ٩١٤ ه أي بعد زهاء سبعة أشهر من توقيع المعاهدة ، وأورد صديقنا محمد بن تاويت التطواني[1] نصوصاً مفيدة لأحداث وقعت في بادس وما حولها في بعض أعوام ١٥٢٢ — ١٥٦٤ م (٩٢٢ — ٩٧١ ه) لم أجد فيها ما يسعفني في كشف حقيقة « الإمارة المجهولة » التي يمكن أن يكون اسمها منذ الآن في تاريخ بادس « إمارة منصور بن يوسف » ، إلى أن يظهر عنها من نشوئها ومدتها ، وعلاقاتها بجاراتها ، مالا يزال فيما أحسب ، في عالم الغيب .

نزيل بيروت : خير الدين الزركلي

❋❋

(١) في مجلة تطوان : العدد ٥ الصفحة ١١٦ .

العقل بين النظريتين المادية والروحية

المقدّمة

في العقل وحقيقة الوعي

يقول أحد الفلاسفة [إن الإنسان كلما أمعن في دراسة العلوم من ناحيتها المعنوية ، والمادية ، ازداد اعتقاداً بأنه ليس في العلم ما يمنع اتفاقه مع أبعد الفلسفات ، لأننا لا نعلم إلا الظواهر والقشور ، وأما الحقيقة والعلة فتأبيان أن تنكشفا لنا .

نعم ! العلة ، والحقيقة هما ما يسعى العقل دائماً لاكتشافها وفهم حقيقتها فهل يوفق إلى ذلك ؟ يجيب العلم بأننا لا نزال نسعى . ولكن المجردات لاتدخل نطاق التجربة ، ولذا ولحينما يتمكن العلم من إيجاد الوسائل التجريبية لفهم حقيقة العقل الذي هو وسيلة المعرفة ، فستبقى المجردات في نطاق الفلسفة التي تبحث عن الحقيقة ، ويبقى العلم يفرض نظرياته لحل المبهات ، والغوامض ومنها مانسميه المجردات [كالعقل والروح ، والقوة ، والعلة ، والنهاية ، والأزلية ، والجمال] الخ .

وما دام العقل هو الوسيلة للمعرفة والإدراك ، فمن الضروري الإحاطة به من حيث وجوده ، وماهيته ، وفعله ، وكيفية حصول الوعي ، والإدراك وماذا تكون نهايته بعد مفارقته الحياة وفناء الجسم ؟

إن الأسئلة التي تثيرها ذاتنا التي نعبر عنها « بالأنا » وهي شغوفة دائماً بالبحث والتحري عن المعميات والمجردات إذ هي من خاصيته الطبيعية الإنسانية العاقلة ، لا بد من الإجابة عليها حتى لا تبقى شاغلة الفكر وموجبة الشعر والحيرة لما نحس بوجوده ونشعر بفعله .

إن البحث عن ماهية العقل وأفعاله وكيفية حصول الإدراك والوعي يتناوله علم النفس ، وعلم الحياة ، وعلم الفيسيولوجيا ، وعلم التربية والسلوك وعلم الأمراض العقلية ، وعلم الفلسفة ، وعلم اللاهوت . وكلها تتناوله بحسب علاقته بها منفرداً وعلاقتها به مجموعاً .

ونحن حباً بالعلم وإجابة لرغبات النفس ، وإزالة للشك ، والإبهام ، نبحث عن العقل كمظهر من مظاهر الحياة ، ونرى من الفائدة أن نشرح ما نريد حسب ما ترويه العقيدة المادية ، والعقيدة الروحية ، ولا تدخل بالتفصيلات الفلسفية ولا بالآراء البيقولوجية ، ولا بالنظريات المادية لتعقدها وسعتها . (إن العقيدة الأولى هي ما يُرويها السير « ارثوركيت » وهو من علماء المادة . و (العقيدة الثانية هي ما يرويها السير اوليفر لودج) وهو من علماء الطبيعة .

وحيث إن الدكتور « هالبرتون » أحد علماء الفيسيولوجيا له عقيدة واضحة خاصة به يرويها ، وهي حد وسط بين العقيدتين فسنعرضها إتماماً للبحث ، وللسامعين الباحثين أن يحكموا بالأرجحية لأحدها حسب المبدأ القائل [أقرب المبادىء إلى الحقيقة ما وافق الاختبار وما طابق الواقع] .

١ ــ نظرية [ارثوركيت في العقل وماهيته :

يقول السيد « أرثوركيت » إن الإنسان مازال منذ القديم يبحث عن الحياة وأسرارها ، وما يظهر من فعاليتها في محيطه الخارجي وفي محيطه

الداخلي . وفي رأس المسائل التي كانت تشغله أيضاً بمظاهرها البارزة ، مسألة العقل وطبيعته وأفعاله ، وكيفية عمله ، ومسألة العقل والعلاقة بينه وبين المادة ، والجسم ، وبينه وبين الروح والنفس ، والوعي والإدراك ، وبينه وبين الضمير ، والإلهام والوحي والرؤيا ، والأحلام ، وكان يتساءل هل العقل غير « الأنا » ، والذات ، أم هو العقل الفيسيولوجي للجهاز العصبي الذي تتوقف أفعاله ومظاهره ، على عمل الخلايا الدماغية وعلى المواد الحياتية والكيميائية ، والقوى الميكانيكية والفيزيكية ؟

وهل هو كسائر وظائف أعضاء الجسم المتعددة خاضع لسنن الطبيعة من نشوء ونمو وغذاء وإفراز ، وامتصاص ، وتوالد ، وتوقف ثم ضعف وانحلال وزوال .

٢ ـ عجائب الحياة لا تعد ولا تحصى :

إن عجائب الحياة ولا شك لا تعد ولا تحصى ، ومنها أننا لا نجد اثنين من ملايين المواليد يقطعان رحلة الحياة في طريق واحدة . فقد تحدث لاثنين أو أكثر مغامرات فذة تختلف عن مغامرات الآخرين . ولذا تختلف العقائد باختلاف الطريق التي يقطعها كل منا في حداثتنا ، فعقائد الناس عن الغوامض من الظواهر والقوانين والأفعال الروحية ، والأفعال العقلية ، والآثار الأدبية والمادية تختلف اختلافاً بيّناً كثيراً ، أو قليلاً ، بحيث لا تتماثل بهذا الخصوص عقيدتان كل التماثل .

٣ ـ أسباب الاختلاف والتباين في العقائد :

أما أسباب الاختلاف فلأن الإنسان كما قلنا مطبوع بطابع البحث والسؤال عن المبهم . ومن المتعذر عليه أن يصيب اتفاقاً تاماً في العقائد ، والتفكير ،

والعواطف ، والمشاعر . وعليه بقدر ما تختلف سبلنا في الحيـــاة تختلف عقائدنا كذلك .

ومعظم الناس مقضي عليه أن يسير في السبيل الممهدة أمامه ، وهم في الغالب لا يملكون من الفراغ أو الرغبة ، ما يمكّنهم من دراسة ما يعرض لهم من ضروب الاختبار ، وتمثيلها ، وقليل من الناس من يتاح له أن يختار طريقة ويخططها ، وكما أننا لا نجد اثنين من الملايين من الناس يقطعان رحلة الحياة بطريق واحدة ، كذلك لا نجد اثنين يستهلان الحياة بزاد واحد من قوى الجسد والعقل ، فعلى كل وجه وسمة شخصية تدفعه عند انبثاقه من الرحم ، وكل طفل يهل على الأرض يهل ببصمة على أنامله خاصة به دون غيره ، وفقاً لقانون [التباين والتشابه] . وما يصدق على وجوه المواليد وبصمات أناملهم يصدق على أدمغتهم ففي الدماغ توجد [١٨٠٠٠] مليون خلية عصبية دقيقة لا ترى إلا بالميكروسقوب أي (المجهر) . وهي مقسمة الوظائف والطوائف ، كل طائفة منها متصلة بالطوائف الأخرى ، وخطوط الاتصال بينها تزرى بأكبر لوحة تليفون وأكثرها تعقيداً .

ومن غرائبها أنك لا تجد بين هذه الخلايا خلية واحدة منفردة عن الأخرى ، وجميعها يشترك في تناول الرسائل التي تنهال على الدماغ عن طريق العيون ، والأذن ، والأصابع وغيرها من حواس الجسم وأعضائه . هذا السيل المتدفق من الرسائل يبدأ عند الولادة ولا يقف حتى الموت . وهو أساس اختباراتنا فإذا تفهمنا هذه الصورة لبنــاء الدماغ وصلته بخبرة الإنسان ، وتجاريبه ، سهل علينا أن نفهم كيف أن هذه الصورة الجديدة تؤثر في تغيير معتقداتنا ، أو في بعضها على الأقل .

٤ ــ رأي السير «ارثوركيث» بمادية العقل :

يتساءل السير «ارثوركيث» هل الدماغ مزدوج التركيب ؟ ثم يقول : عني المشتغلون بالمباحث الطبية عناية خاصة بدماغ الإنسان ، فوجدوا تركيبه معقداً كل التعقيد ، وطرق تأدية عمله مبهمة ، يصعب الكشف عنها ، ومع ذلك ثبت لهم ان تعقيد الدماغ ومقدرته على تأدية عمله يسيران جنباً إلى جنب ، فالعقل له أساس مادي دليله أن دماغ الطفل من ولادته إلى سن المراهقة يزداد وزناً ، ويكبر حجماً ، ويزداد تركيبه تعقيداً ، وكلما اتسع نطاق عمله نما . فإذا أصيب الدماغ في دور من أدوار النمو بآفة أو علة أوقفته عن نموه وظلّت مقدرة صاحبه العقلية ناقصة . وبقيت حيث هي لا ترتقي ولا تنمو . كذلك لو أن مرضاً من الأمراض أصاب هذا الجانب من الدماغ ، أو ذاك الجانب عطّل الملكة العقلية التي مركزها في ذلك الجانب المريض . فالتهاب الدماغ السحائي [١] إذا أصاب دماغ طالب في المدرسة أوقف نموه العقلي وترك في خلقه أثراً سيئاً دائماً .

والأطباء في إمكانهم أن يخدّروا الدماغ فيضعفوا بعض أجزائه ، ويضعفوا بذلك الملكات المتصلة بها ، وبامكانهم أن يحقنوا بعض الأجزاء الأخرى بمواد مختلفة ، فيغيروا بذلك تصرف العقل ، وشعوره ، وبعبارة أخرى إن الدماغ آلة حية تحرق الوقود ، وتحول القوة إلى شعور ، وفكر ، وذاكرة ، وعاطفة ، من ارادة وغيرها من الملكات العقلية والنفسية . فاذا قطعنا مصادر الوقود التي يحرقها الأوكسجين عن الدماغ وقفت خلايا الدماغ عن العمل وخمدت فعاليتها كما تخمد النار إذا حبس عنها الهواء ، أو نفذ الوقود .

---

(١) نسبة إلى سحايا الدماغ . وهي الأوعية الدموية الشعرية الدقيقة المنتشرة في الأغشية الموصلة التي تغذي النخاع وتلافيفه .

ولذلك يرى بعض العلماء بأن الدماغ عضو مزدوج التركيب مؤلف من مادة وروح . والذي جمعهم عليه أن كل حقيقة تمكنوا من امتحانها واثباتها تحتم عليهم القول بأن العقل والروح مظهران من مظاهر فعالية الدماغ الحي كما أن اللهب مظهر من مظاهر الشمعة المحترقة .

٥ ـ الرأي الثاني القائل باستقلال العقل وعدم ماديته :

وهو رأي (اوليفر لودج) أحد علماء الطبيعة ويرى البعض الآخر وفي مقدمتهم السير « اوليفر لودج » أن الدماغ قائم على الاعتقاد بأنه آلة مادية لوحدة غير مادية ، هي « الروح » .

والروح في رأي السير اوليفر كما سنرى متميزة عن الدماغ تميز الموسيقى عن القيثار الذي يعزف عليه الفنان . وهو وزملاؤه مسوقون إلى هذا الاعتقاد لأنهم يستطيعون أن يفسروا به الكثير من المظاهر الروحانية .

ويقولون بأن « بروتو بلازما » الدماغ ليس إلا آلة لالتقاط ما يأتي من الخارج من العالم المطلق فتجعل منه جسداً حياً يستخدمه لأداة مظاهره ، ثم لا يلبث أن يتجرد عن هيكله المادي ويرجع إلى حيث أتى . والفرق بين الرأيين أن عالم الحياة يقدم الجسم والشمعة ، على الروح واللهب والعالم الروحاني يعكس الأمر ويقدم الروح على الجسد واللهب على الشمعة .

٦ ـ خلود الحياة في نظر الماديين والروحانيين :

ولذا في نظر الأول أن الحياة خالدة مادامت الأرض صالحة ، وعنده أن كل إنسان يولد وفي جسمه عناصر الخلود . وفي نظر الثاني أن الشخصية خالدة ومستقلة ولها عالمها وحياتها .

٧ ـ رأي السير اوليفر لودج في الجسم والعقل :

يقول السير اوليفر لودج وهو عالم من علماء الطبيعة [إن العلماء ينقسمون إلى قسمين فريق يشتغل بالمادة ، دون النظر إلى ما وراءها من عامل روحي قد يكون موجوداً وذي علاقة بها ، وفريق يشتغل علماؤه بالمادة ولكنهم ينظرون إلى ما وراءها من عامل روحي (قد يكون موجوداً) وذي علاقة بها .

الأولون نسميهم علماء المـــادة لأنهم لا يعلمون للمادة مظهراً آخر غير ما وجدوه في مشاهداتهم وتجاربهم . والآخرون يسمون علماء ما وراء الطبيعة لأنهم يعلمون أن في الطبيعة مظاهر أخرى عديدة لا يمكن تعليلها وتفسيرها بالأسباب المادية البحته . بل يقرون بوجود القوة المطلقة [واجبة الوجود] يسندون إليها خاصية المظاهر المتعددة في الوجود ويطلقون عليها قوة « ما وراء الطبيعة » ويعدون الحياة ، والعقل والروح والفن والجمال والإبداع ، والخلق والنظام من مظاهرها .

ويقول هؤلاء العلماء أيضاً إن في الوجود ثلاثة أشياء يستطيع الإنسان الوصول إلى قسم منها ، ويعجز عن الوصول إلى ما تبقى منها .

وهذه الأشياء الثلاثة هي [الحقيقة ، والجمال ، والخير] التي إذا تكاملت في موجود سمي قدسياً وإذا نقصت فلا وجود للكمال لأنها مجردات ضرورية لإتمام الوجود الكامل .

إن البشر إذا لم يصلوا تماماً إلى إدراك هذه الأسس العاملة ، فيستطيعون أن يسعوا وراءها والعمـــل على إدراك واحدة على الأقل منهـا ، ضمن قابليتهم ومحدوديتهم .

ولكن باتساع مدارك العقل واستنارته بالمعرفة قد يتسنى لهم مع تضافر الجهود الصادقة أن يحصلوا على جزء من العناصر الباقية .

٨ ـ الغاية من العلم :

ولما كانت الغاية من العلم كشف المجهول ، وإدراك الحقيقة . فإن العلماء يخطئون كثيراً إذا حصروا بحثهم ودراستهم في نقطة واحدة من الدائرة ، وحجبوا بصيرتهم عن رؤية مافي الوجود من نقاط أخرى تفيد المعنى وتدل على القيم التي يملكها الواقع الواضح . نعم ! إن المعرفة لديهم قد تكون كثيرة ، ولكن يجب أن لا ينقصهم الشيء الأكثر بالنسبة لمجموع الأشياء حتى لا يضلّوا الهدف ويفوتهم البحث عن كل شيء .

٩ ـ ما تراه الفلسفة الحقيقية :

إن الفلسفة الحقيقية لا تنظر إلى الشيء بعين واحدة ومن جهة واحدة ، بل يجب أن تنظر إليه من نواحيه العديدة وجهاته المختلفة ، وتراه بكل العيون والوسائل . وتدرس قضاياه واحتمالاتها من جميع نقاطه ، وتترجم عن الحقيقة والأمر الواقع ، فتنقذ صاحبها من هفوات العقول الضيقة ، والمدارك المحدودة في الذين يظنون التكامل في أنفسهم وصحة العلم والإحاطة لديهم .

ومادام من خواص الوجود ، دوام تبدله وتنوعه وتحوله ، فالعالم مهما أبدى من قوة المعرفة والبصيرة لا يستطيع وحده تمييز جميع الموجودات ودرسها بأجمعها ، ولذا تحتم على أهل العلم أن ينقسموا فرقاً فرقاً كل يشتغل في دائرة اختصاصه ، وبذلك توسعت دائرة العلم واستحال الانفراد بها ، وصعب على الواحد ادعاء الإحاطة بما لا يعلم لأن ما يمكن للواحد معرفته لا يخرج عن نقطة واحدة من خضم اللانهاية .

١٠ — اتساع عين العلم :

ومما لا شك فيه أن عين العلم قد اتسعت فأصبحت ترعى في الكون فضاء لا حدّ له ، تسبح فيه عوالم من الأجرام منها مشتعل وحادّ ، ومنها مظلم بارد ، تفرقت بدون قصد لكنها اتبعت النظام والترتيب في حركاتها وعلاقاتها ، وهي وحركاتها قابلة القياس والتحديد ، يعرفها العلم ويخبر عن أماكنها ويعينها .

والمادة إذا فحصناها عن كثب بما لدينا من كواشف ومقاييس وضوابط ومعايير وآلات دقيقة صحيحة نجدها من مركبات وجواهر Moleules & Atoms ذات حجم وبناء وطور معلوم ، ونجد الجواهر — والعلم يدرك وجودها — ليست منتهى ما تتركب منه المادة بل هي ذاتها مركبة من الكترونات وبروتونات سلبية وإيجابية ، تظهر أنها أيضاً مركبة من أشياء أخرى بالكتل الكبيرة ، ولها حركة ممتادة ذات منطقة وقوانين جميلة تتحرك بموجبها ، وترتيبات محفوظة ضمن الجواهر تسير على غرارها .

وعندما نقترب من المنطقة الداخلية لدراستها تتراءى لنا كأنها خالية ، وهي في الواقع مملوءة بشيء يصهر جميع أجزاء المادة ويذيبها إلى « كلّ » عام يحمل القوة والاهتزازات من واحد إلى آخر .

ومن أوضاع الذرات المعقدة يتجلى لنا انبعاث شيء جديد للحقيقة ، قادر على تكوين الأساسات الطبيعية للعضويات الحية التي لا يشابه درسها درس الأعمال الكيميائية ، لأن مقدرة العقل على ذلك لا تزال محدودة .

على أننا وإن تمكنا من البحث عن هذه العضويات فتدقيقاتنا لا تستقيم إلاّ بالدساتير الفيزيكية والكيميائية التي عرفناها ولكن الواسطة تبقى وحدها عاجزة عن إيقافنا على الحقيقة فنضطر للتعليل والفهم أن نرجع إلى ما نسميه

فعل الحياة . ونكوّن منه علماً يسمى (علم الحياة) يدرس التركيب الذري والأخلاط الناشئة عنه في الأحياء ، وتطور النشوء والارتقاء ، وحصول النمو وقوانينه .

١١ ــ الحياة ومصدرها وفعلها :

والحياة مهما تكن هي التي تسيّر قوة الوجود ، وهي آتية من الشمس تتحول منها لإيجاد بنية لا يمكن للكيمياء ولا الفيزياء إيجادها بدون فعل الحياة ومساعدتها . فالقوقعات البحرية ، وخلايا النحل ، وأعشاش الطيور ، والأشجار ، وكل ما في الطبيعة من المظاهر الحية شاهد على تلك القوة الخاصة بأعمالها وأفعالها في نواميس المادة والأثير ، تساعدها ولكن ليست المسببة لوجودها .

١٢ ــ ماذا ينتج عن الحياة ؟

وبفعل الحياة واختباراتنا الذاتية نعلم بأن الفرح والسرور واللذة والألم والحب والبغض والكدر والحبور والقصد والإرادة والرغبة والنفرة ، والشعور، والإحساس ، والأمل ، والإلهام ، والوحي والإيمان هي حقائق موجودة لا مجرد وهم ، وينفيها الشك والجحود الأعمى . إنها حادثة ومن جملة الأشياء الكونية مهما يكن اعتبارها .

وقد وجد « علم النفس » وغيره من فروع العلم للبحث عنها وعن الروح البشرية التي تمارسها . وإذا كان علم الدين قد تناولها من ناحيتها العلمية فإن علم اللاهوت نظر إليها من جهتها الفلسفية . وكلاهما من العلوم الكلية يبحثان الكليات كما تبحث بقية العلوم عن جزئيات الوجود ، كعلم التاريخ ، وعلم الجغرافيا وعلم طبقات الأرض ، وعلم الاجتماع ، وعلم الطب وعلم الحيوان

والنبات وعلم الرياضيات ، وعلم الزراعة والفلاحة ، وعلم المعادن والكيمياء وعلم الميكانيك وعلم الآلات والصناعة وما يتفرع عنها ؛ وكلها تتعلق بالأرض وما عليها ولكن هل يستطيع الإنسان أن يلم بكل شيء ؟

إن العلم مهما بلغ من السعة والعمق والشمول لا يستطيع أن يلم بكل شيء يتعلق بالوجود . فدائرة الأدب والفن والشعر والموسيقا ومملكة الخير والجمال لا تزال خارجة عن حدوده ، ولكن لا بد من الولوج إليها والبحث في حرمها وفهم أسرارها ، واكتشاف ما فيها .

أجل ! يجب البحث حباً بالحقيقة ، لأننا إذا أنكرنا وجودها جعلنا علوم المادة وفلسفة الطبيعة لا تزيد قيمتها عن قيمة العظام المجردة من اللحم إلا شيئاً قليلاً ، مع أننا نستطيع أن نكسوها لحماً ونبعث فيها دماً وحياة وروحاً .

١٣ ــ الروح البشرية تحب الأدب والشعر والفن :

والحقيقة التي يسلم بها كل صحيح العقل أن الروح البشرية تحب الأدب والشعر والفن وتحب التعمق فيها أكثر مما تحب تحريات العلم وتخبطاته .

ولماذا ؟ لأن الروح تحب أن تلهو وتهيم في فضاء الخيال المطلق . ومن حقها ذلك مادام لهوها وهيامها يسببان وجود الجمال في الموسيقا ، والشعر والغناء ، والبناء والهندسة والرسم والنحت والتصوير .

وهل بغير ذلك نجد في رسالة الغفران للمعري ورسالة الجحيم لدانتي ، وفي روايات شكسبير وفي السونوتار ، والپانتيون ، وفي معابد بعلبك وفي تاج محل بالهند ، وفي قصور الزهراء في قرطبة والحمراء في غرناطة ، وفي جامع الصخرة في القدس ، وفي الرسوم والصور وأشعار الشعراء الخالدين ما نجده ونتذوقه من جمال وروعة وإبداع ، وتناسق وعبقرية وإلهام .

ولكن هل الاكتشاف في هذه المنطقة هو المقصود ؟ أم المقصود الإيجاد الحقيقي له ؟ إذ لولاه لما كان للفن وجود بعظمة العلماء والأدباء وتعبده النفوس ، وتخضع له الرؤوس ويهيم به (دانتي ، وانجيللو ، وشيللر وبتهوفن وواغنر ، وزرياب ، وإبراهيم الموصلي ، ورباب ، وعلية المهدي ، ورابعة العدوية ، وابن الفارض وابن عربي) ، ولما عشق الأنبياء والعلماء والصوفيون والفنانون والأدباء والشعراء مبادىء الحق والحقيقة والجمال والخير والمحبة ، وتمالت نفوسهم في عملها حيث شاهد كل منهم بقدر بصيرته واستمداده لمحات من الحقيقة لا تتغير فهاموا وسعدوا ! إن طرق البحث مها تعددت فهي واحدة وسواء أكانت في الدين أم في العلم ، أم في الفن ، فهي تتجه لنقطة واحدة [الحقيقة] لأنها هدف الجميع وغاية الغايات .

١٤ — الحقيقة والمادة :

وما دام لنا شعور حي يوجهنا نحو الحقيقة ، ويدفعنا وراءها . فأفهامنا لا بد واصلة إلى المحيط القدسي محيط الخير والمحبة والجمال ، وبسمينا للوصول إليه ، وهي أمنية تسيطر على كل نفوس البشر نصل إلى معرفة الحق كما قال كيت : [إن الحقيقة لا يقدر على حصرها أحد ، ولا على احتكارها أحد أو جماعة ، لأنها جزء من القدسية . ومع أنها حقيقة والوصول إليها يندر فهي تحير العقول بعظمتها ، وعنها تظهر صحف الجمال وصورها بأبدع مما نتصور ، وبأبهى مما يمكن للعقل إدراكه] . ولما كانت الأشياء على ما ذكر من الصورة فكيف نقول بمادية العلم ونرضى من رجل العلم في أي طور من أطواره أن يحول بصره عن رؤية آيات الوجود ويتجاهل معاني الموجودات وصورها التي لاتعد . وكيف يجوز حصر الفكر في نطاق قوانين المادة وحركة الذرات والجواهر ، وهل هذا هو طريق الصواب ؟ وهل كل

شيء في الطبيعة خاضع لقوانين المادة الأساسية ، مع أنها قد تكون بذاتها خاضعة لقوانين أخرى نجهلها !

لقد قال « لاپلاك » عندما سأله ناپوليون أين الله ؟ في عالم الرياضيات ! أجابه [إنني لم أحتج لحل هـذه القضية] . إذ كان يستخرج نظرياته بحسب قوانين المادة والقوة فقط ، ولذا كان جوابه ناقصاً من جهة فلسفة الوجود كما كان جواب زميله « نيوتون » الذي عندما استكمل علمه في تدقيق مسائل الطبيعة شعر بالنقص الذي يعتريه في التعليل فرجع عن رأيه وقال بالحقيقة . ولكي يتضح اختلاف الهدف لبيان الفرق بين من ينشـد الحقيقة المطلقة ، وبين من ينشد الحقيقة المقيدة بالمادة نقول : إن « نيوتون » اختصر علم السماء بقوانين وأنظمة أساسها الفرضيات الرياضية ثم آمن بالحق فأوحى إلى العالم بصحيح المبادئ التي جعلت كل مافي المـادة من جواهر فردية وحركات ذرية . والكترونات ، وكهارب ، وايونات ، قابلة الحل ببراهين تستمد أساساتها من الفرضيات الرياضية والمبادىء الميكانيكية ؛ وأما « لاپلاك » فقد ابتدع فرضيته المشهورة التي تخـالف الفلسفة الإلهية . فقال [أعطني مقدمات وأعطني ذكاء بشرياً رياضياً يفوق الحدّة لأعين لك طريق كل جوهر فردي ، وأعين محركه الذي سـار عليه ، والذي سيسير فيه بكل ما في الطبيعة من ماض وحاضر ومستقبل يمكن حسابه بدون صعوبة] .

١٥ — ليس من السهل قبول دعوى المادية :

ولو صح قول (لاپلاك) فهل من السهل الجزم بمسألة مبدأ الآنية أي آنية الحياة في سلم الأطباء ؟ كلا ! لأنها لاتزال تحت البحث .

إن طريق الذبابة وهي تلعب حول الشيء المعلق ليصعب تعيينه ، واستنتاجه من المقدمات الفيزيكية والمبادي الميكانيكية ، فكيف كل ما في الحيـاة وفي

سلم الحيوانات ، والنباتات ، والإنسان من مظاهر الحياة ؟ ولذا فالقول برأي حاكمية المبادىء المادية في تلك العوالم لايزال مشكوكاً فيه وفي صحتها ولا يمكن حل مسائل الحياة بقوانين مادية .

١٦ — الحياة وماهيتها :

وهي الحياة ؟ إنها ظاهرة لانعرف غير أعراضها ، وهي تستخدم المادة وتستكملها وتحول الجهد الفيزيكي Physical Inergy إلى طرق جديدة فتقطع لسان البر لتوصل بين بحرين ، وتقيم الجسورة والقناطر لتوصل البرين ، تخرج من الأرض شجراً ، وزهراً ، وثمراً ، ورطباً ، وفاكهة مختلفة أزواجاً إنها تمطر السماء فتسيل فيها الجداول والأنهار وتبدل حالة الاقليم ، وتشق مفارش المياه ، وتخر من الجبال ، وتفتّت الصخور ، وتنشىء ما صنعته المدنية من بناء وعمران ، ولا يقتصر عملها في الأحياء العليا بل تعمل في الأحياء الدنيا كخلايا النحل ، وتستهلك حبة القمح لتخرج من البويضة ريشاً بديع اللون والشكل ، ومن البذرة زهوراً زاهية لا عدّ لها . وتطعم دود القز ورق التوت لتوجد أجنحة الفراشة الجميلة ، وخيطان الحرير للكسوة والزينة وإذا ما ارتقت علت بروح الإنسان فوق جميع الموانع الماديّة والمعنويّة والجسمانية ، وسكنت مناطق الذهن لتلهو بالخيال والفن والشعر والألحان ، وتتخذ الأشياء الخارجة عن نطاق الحس واللمس مادة مغذية لذاتها تلتذ بها نفوسنا وتشعر بأنها قريبة من ذلك الوجود الكامل القدسي .

إذاً ما نعرفه عن هذا المؤسس العامل الذي أسميناه الحياة قليل جداً . وقليل بالنسبة لما ستوجده الحياة . ألا نتذكر بأن كثيراً من الأفعال التي نسميها كيميائية قد برهن باستور أن سببها كائن حي ، وأن هذا الكائن

الضئيل المجهري يدبر ما ظهر من تفاعلاتها ، ونتائجها الكيميائية بطريقة عجيبة شبيهة بالتفاعلات الكيميائية التي يجريها الكيميائي في مخابره ؟ أليس التخمر ، والهضم ، من أعمال الأحياء المجهرية خلايا كانت أم فيروس ، أو جراثيم ، لها خدمة زراعية ، ووظيفة في نشر الأمراض والأوبئة ومحاربتها ؟

كيف يتعامى البصير عن رؤية الحق أمام هذه المظاهر الحية ! وكيف يجحدها المنطق السليم ! ألا يكون الجحود تقليداً ومكابرة ؟

١٧ — ما يقبله العقل ويدركه المنطق ؟

إن ما يقبله العقل ويدركه المنطق ، هو أن الحياة شيء حقيق ، وموجود ثابت . يفيدنا القول به بقاء باب التحقيق والبحث مفتوحاً ويمكننا من طرق أبواب عالم المجهولات واكتشافها ، ولعل يوماً يأتي فنهتدي إلى ثمرة الموضوع الذي له ما بعده . ولا بد من القول أن غاية ما وصل إليه علمنا عن الحياة أنها (فرضية) تلازم المادة وخواصها ولكن قد يكون للحياة وجهة أخرى .

إننا نجدها تشرق وتغيب وتظهر في المادة الجامدة مدة ثم تفارقها ، ولها نظير في عالم الطبيعة كقطرات الندى ، تظهر فوق الأشياء اليابسة ثم تختفي ، ولكن إن كانت قطرات الندى لا توجد إلاّ فوق جسم يابس تقف عليه ، ويتراءى للجاهل أنها تظهر وتختفي وهي مرتشحة عن الجماد ، وإذا كنا نعرف عنها غير ما عرفه ذلك المخلوق ، إذ نعلم سبب حصولها ، وأن لها وجوداً دائماً ثابتاً ، وإنما تكونت بشكل غير مرئي وغير ملموس وهو البخار وما وجوده إلاّ حادث موقت لا يلبث أن يزول ، أفلا يتضح لنا من هذا التشابه الظاهري كيف تتجلى الحياة عند حلولها في المادة كما تشير إليه الآية [وجعلنا من الماء كل شيء حياً] وندرك مظاهرها السامية

خاصة عندما ندقق في الدرجات العليا من الأحياء كالإنسان حيث يوجد فيه العقل والإرادة وهما ليسا جهداً إنما يستخدمان الطاقة ويسوقانها للطريق المؤدية إلى الغاية ، كأنما يقصدان شيئاً لا نعرفه ثم يبلغانه ومن خاصيتها التمييز بين الحق والباطل ، بين النبيل والحقير ، بين الصدق والكذب بين النافع والضار ، بين القبيح والجميل ، وبين الناقص والكامل ، ويعملان فيما هو خارج عن نطاق قوى المادة ، ولهما دوافع أخرى ، ويتأثران من المستقبل ويستكشفان المجهول والماضي ، ويتنبأان عن المستقبل . ان الدليل واضح مع الملاحظة أن قوة الانفجار عمياء تنطلق من مكمنها فلا تزيد ولا تنقص . ولا ضابط يصلح أن يكون عاملاً لها يدير نفسه ، ولهذا تعتبر الطاقة كالقوة تحفظ وتبقى تحت تأثير المدبر لها ، بواسطة القوى المادية ومساعدتها أيضاً .

ومن هذا يتضح أن تغيير مجرى الحركة أي حركة المادة يحتاج لقوة تعمل عليها لخلوها بذاتها من الآنية Spontanity أي العفوية ، ولكونها عطلة من بذاتها أيضا = Inert .

وحيث إن المادة غير لية ، فالضغط يدفعها إلى الأمام ، وتسير في حركتها عمياء لا يؤثر فيها المستقبل ولا لها طريق تلقائي معين ولا غاية محدودة .

١٨ ــ العقل ومزاياه :

أما المخلوق الحي ذو العقل السليم فوضعه خلاف ما تقدم . إنه يندفع إلى الأمام شاعراً بحاله وترحاله ، ومدركاً لما يأمر أو يؤمر به ، وينقاد أو ينفر منه ، وله صفات وخواص تميزه منها الجوع والعطش والرضى والغضب . وإدراك الأشياء على ما هي عليه ، وإطلاعه على المستقبل وسيره في الطريق المعين . أما عقله فمن مظاهره الإرادة والرغبة والنية والغاية ، وإن أنكر

بعض العلماء وجود القصد والغـاية في الوجود وقالوا بنظرية « التصادف » ولكن جحودهم لا يسلم به مادام الوجود يملك الإبداع والنظام ، والإيجاد ، ومادامت الإنسانية تملك الغاية والإرادة والأمل فعلينـا أن نتمسك بالعقل لشعورنا بوجوده فينا ، وشعورنا بقوة التدبير في العالم الحي والجامد ، ويؤيد مدعانا ما نشعر به ونشاهده ، ونقول عن المادة مهما تكن إنها [حمولة العقل] .

وان حلوله فيها وسيلة للظهور والعمل المتبادل في صور الأشياء وأشكالها . وهو ينطوي ضمن تركيبات المادة المعقولة ، سواء أكانت عاطلة أم جامدة . هذا طريق الجبل أليس هو رمزاً صحيحاً لشيء إنساني ؟ نعم ! إنه رمز العقل ليهدي الساري إلى جهة معينة ، ويوصله إلى غاية مقصودة . مع أن الطريق بذاته عطل والجهد لم يكن جهد الطبيعة إنمـــا من عمل العقل ، كالصوت الموسيقي تخرجه آلة نافخة يحركها محرك ميكانيكي ولكن العقل يدير العامل . وهو الموجد للنغم ، وخالق الإيقاع والتناسق . ولولا دماغ الموسيقار لما وجدت النوطة ولما كان للصوت وظيفة . فإيجاد اللحن والأنغام وتنفيذها يحتاج الآلة ، وهي تحتاج في وضعهـا وترتيبها لفاعل يترجم النغم عن عقله وهو بعيد عنها بعد المشرقين .

١٩ – ماهية العقل ومظاهره :

وبعد فالدماغ آلة العقل وبه تظهر مظاهر الحياة بأكمل ما يمكن وتبقى محفوظة في المادة . وقد يقال بأن الموسيقى يمكن تجسيمهـا بالنوطة فتبقى محفوظة مهما طال الزمن ، ولكن فاته أن المحفوظ ليس رسم الصوت ولا صور الحوادث والوقائع كما هو في الشريط السينمائي أو الشريط المسجل ، وإنما عقل الفنان وعقل الممثل ، وعقل المتكلم . وعمل الإنســان أبدعه ذهنه

فأنتج الموضوع ومثل الرواية ، وأنشأ الآلات والمصانع ، وخلق من الجماد والحجر ، والحديد ، والخشب ، والذهب أشكالاً وصوراً وأشياء وبقي خالداً فيما صنعه ووضعه . ولو فرضنا أن يد الحدثان امتدت إلى النوطة أو غيرها فخربتها ومحتها . فهل باستطاعة المادة أن تعيدها ؟ إنها لا تعود من ذاتهـــا ولكن لو بقي الصانع أو الواضع حياً لأعاد العمل بقوة عقله سواء أكان الأثر قطعة موسيقية أو بنـاءً ، أو رسماً ، أو مصنعاً أو آلة أو لعبة أو شعراً أو رواية . وبكلمة أخرى إن العقل لم يمت وفي استطاعته أن يعيد ما أنشأه وجسّمه مرة ثانية . ومن هذا يتبين ان إدراك الشكل الجميل بذات المعنى ينبه الفكر إلى إبداع شيء آخر ، أبدع من الشكل الأول ويدل على بقاء العقل وفعاليته .

٢٠ ــ حقيقة مذهب المادة :

لهذا كان مذهب المادة حقيقة ناقصة لم تتكامل معداتها للتصوير والتحديد . فما يظهر في المادة هو تلونها بالحياة . والذي يبقي لها الحياة هو حمولتهـا انطبـاعات العقل ، ذكريات الراسم الذي أوجد ما أوجد ورسم ما رسم ، وألبس الصور المعنى والروح والنغم ، فذهب عمره [وهو مدة بقاء الدماغ في فعاليته] وبقي عمله حافظاً لشخصيته ، وأليفاً لمعانيهـا ، ومدلولاتها . وهذا ما جعل في ألوان العَلَم رمزاً خالداً يحفظ ذكرى البسالة ، والبطولة ، والشجاعة ، والوطنية ، والتضحية ، وشهادة أرواح الألوف من أبناء الوطن رفعت الراية لأجلهم ، تذكّر من ينظر إليها من الجنود الأحياء بإخوانهم فيمجدونها ويعبدونها لمعانيها وذكرياتها .

وإني لأعتقد بأن لبعض الآثار الشخصية التي تتعلق بأشياء أرضية معاني ربما تكون مبهمة ، لكنها لبعض العقول النيّرة سيفْر واضح المعنى ندرك

ماهيتها ومراميها . ومن هذا القبيل ماذا توحي إليه العبادات والطقوس الدينية ، والترتيلات الروحية والعادات العقائدية ، فإن المؤمنين بها ، وإن أيدوا المذاهب المادية ، ولكن سبب وجودها هو المبالغة بالشيء أو نكرانه بتاتاً أي نكران المادية .

إن المادة موجودة في كل شيء بنسب مختلفة كوجود الراديوم والأثير ، وهي تتجسد لإظهار العقل . ولكن للتجسد درجات ، أكملها أجسامنا المادية لما نحن عليه ، ومع هذا فتجسدها بهذه الصورة هو منتهى الكمال ، وقد يحتمل أن شخصيتنا لا تظهر في العالم الأرضي بل في عالم آخر ، إذا قلنا بوجود « النفس السامية المطلقة » .

ويجب أن نتذكر بأن تجسد العقل في البشرية درجات أعظمها ما ظهر في المصلحين أصحاب الرسالة وفي العلماء أصحاب العقول النيرة ، وفي المبدعين والفنانين والمخترعين .

والحقيقة أننا لو نسبنا دوران الأفلاك ، وتموجات النور ، وحركات الأثير ، وغروب الشمس وشروقها ، وهذا الكون اللامتناهي ، الى العقل الفيزيكي والكيميائي ، وإلى الصدفة العمياء ، وأنكرنا النظام العام ، والتنوع ، والإبداع والجمال الظاهر في الأشياء والمعاني ، وأنكرنا الحياة ومعانيها ومظاهرها ؛ لقضينا على العلم والعلماء الذين هدتهم معرفتهم وهدتهم بصيرتهم إلى الاعتقاد بأنهم يمثلون عقلاً فوق العقول ، وقوة مدبرة فوق كل قوة هي « الله » . الذي قال عنه (غاندي) بَطلَ الإلـه أن يكون إلـهاً إذا قام الدليل المادي على وجوده . وقال القرآن الحكيم [وفي أنفسكم أفلا تبصرون] .

٢١ ـ الرأي الثالث رأي البروفسور هالبرتون أحد علماء الفيسيولوجيا :

يقول المومإ إليه [لا يشك أحد بأن فينا شيئاً نعلم به ، وندرك الأشياء على ما هي عليه . ونميل بواسطته نحو الشيء ، وننقبض ، وننشرح ونتألم ونتلذذ بحسب ما يؤثر فينا ونتعظ مما سبق اختباره وتجربته في ذهننا ونسميه « العقل »] .

ويختلف العلماء في تعيين ماهية العقل ، ومركزه ، وكيفية عمله ، وعلاقته بالجهـــاز العصبي ، فالأوائل يقولون بأنه قوة روحانية حبست في الجسم ، ونور يشع من القلب ويسمونه « النفس » ويدعون أنه « الروح » التي تتصل بالذات الإلهية ويطلقون عليه أسماء أخرى تفيد وجود شيء فينا لولاه ما عرفنا الموجودات . والمتأخرون ينظرون إليه كأنه وظيفة من وظائف الدماغ ، ولكن تختلف ماهية هذه الوظيفة وكيفية حدوثها . ثم يقولون بأن العقل شيء غير مستقل ، ويبنون نظريتهم على أساس أن الوعي هو محصول فعالية خلايا الدماغ كالصفراء تفرزها خلايا الكبد ، وكالانقباض المشاهد في عضلات الرجل أو اليد عند الحركة ، وكلاهما نتيجة لفعالية الخلايا العضلية في العضوين المذكورين ، وبحسب نظريتهم ان إدراك الموجودات ومعرفة الأشياء هي نتيجة فعالية الدماغ ولا شيء سواه .

ثم يقول الأستاذ « هالبرتون » إن أساس المشابهة والقيـاس في المثال الأخير ليس فيه صحة البرهان ولا دقة الاكتشاف ، وما ادعوه لا يقربهم من الحقيقة .

أما نظريتهم في ذلك فخلاصتها :

أولاً : إن بعض الإحساسات المختلفة التي نشعر بها يتوقف مظهرها على سلامة وصحة البقع الموضعية المعلوم مكانها في القشرة الدماغية Cerebral cortex

ثانياً : إن المخدرات والمنبهات كالكلورفورم والكحول ، والأفيون ، والقوقائين ، والقهوة ، والمورفين ، والحشيش تؤثر في مجرى الإدراك .

ثالثاً : إن بعض التشوهات والآفات العصبية ، وبعض الأمراض الدماغية يعقبها نقص أو اختلال في القوى العقلية .

وهي حقائق لا شك فيها يدعونها ، ومفهومها واضح . ولكن الرد عليها يثبت استقلال العقل وبين الحقيقة . ثم يردّ عليهم الأستاذ ويقول إن مادة الأعصاب الدماغية وإن كانت أساساً لمظاهر الوعي والإدراك لكنها لا تدل على عدم الاستقلال ، ولا على صحة الادعاء بأن هذا الفعل يصدر عن تلك المادة . إن أكثر الفلاسفة يختلفون في المدعي الأول ، ويعتقدون أن جميع المادة حية كانت أو جامدة تنتج عن فعالية العقل (١) ويقولون لولا العقل لما كان وجود ولا إدراك لخواص الصوت ، واللون ، والثقل والصلابة إلى آخر الخواص التي يتألف منها عالمنا « غير العقلي » .

نعم ! إن الصفراء إفراز ناتج عن فعالية الكبد لكن المحصول في هذه الحالة [فيزيكي] مكون من فعل فيسيولوجي أي وظيفي ، تركب من فعلين كيميائي وميكانيكي . وأما في حالة الوعي فإن قلنا الدماغ هو الذي يفرز نكون قد خلطنا بين فعلين في آن واحد [مظهر العقل الذهني] و [مظهر الفعل الفيسيولوجي] مع أننا لا ندرك أمر العلاقة بينهما . وعليه بدلاً من القول [إن الفعالية الفيسيولوجية هي المسببة للفعالية العقلية ، نقول إن الفعاليتين المذكورتين تعملان في خطين متوازيين بعضهما لبعض ، وان العلاقة بينهما مجهولة لدينا] وبهذه الفرضية وهي (توازي القوى الفيسيولوجية والقوى العقلية) يسهل علينا حل معمايات المسائل العقليّة ولكن يبقى لدينا سؤال واحد عظيم

(١) فذهب (ديكارت) يقول لماذا أنا موجود ؟ لأني أفتكر ، فلولا العقل لما عرف الوجود .

وغير قابل الحل ، وذلك معرفة أيهما يفعل بالآخر ، العقل يفعل بالدماغ ، أم الدماغ يفعل بالعقل ؟

والجواب : ان كل فعل عقلي يعقبه أو يرافقه تبدل دماغي ، لكن رسم هذا التبدل صعب ودراسته أصعب ، ولو أمكن تحقيقه يوماً ما ، لما اقترب العلم من العلاقة بين الدماغ والعقل ولا بقدر ذرة واحدة . ومثله جهل الشمعة بأن جسمها يضيء ، أو جهل الجسم المشع بالنور أنه يضيء على غيره . ولهذا علينا أن لا نخلط في الفهم بين هذا التوازي . لأن الفعل العقلي شيء ، والفعل الفيسيولوجي شيء آخر ثم يقول : ومن الحق أن نبحث عن الشعور ونمني به الدافع فان فعلنا خلطنا بين علمين متباينين . والنسبة بينهما نسبة الشيء إلى ظله أو إلى صورته .

وعلماء العقل يعزون فعاليته بثلاثة مظاهر . (الأول الاطلاعية = Cognative) وهو مظهر يجعلنا واعين لمداركنا ، أو مدركين للأشياء التي نفتر بها . والثاني العاطفية (Affective) وهو مظهر يجعلنا نتلذذ ونتألم من حالتنا الإدراكية . (والثالث الإرادية = Conative) ، وهو مظهر آخر يجعلنا نميل نحو الشيء ونطلبه ونسعى لنيله .

ومن الملاحظ : أن في كل حالة عقلية تظهر هذه المظاهر . ولكن بنسب مختلفة من حيث البروز والشدة ؛ ففي الإدراك ، والحفظ ، والتخيل ، والتصور ، والمحاكمة ، تكون الاطلاعية أقوى وأشد بروزاً .

وفي حالة الحب والبغض والحزن ، والفرح ، والأمل والخوف تكون العاطفية أشد تقدماً وأقوى بروزاً وفي حالة الرغبه والحرص ، والتملك ، والطلب ، تكون الإرادية أقوي وأشد بروزا ،

والوعي له حالات تفيدنا ما هو الفرق بين الموجود الخارج عن أنفسنا أي الظاهر ، والموجود الداخل ضمن شعورنا أي الباطن . ومن وجود هذه العلاقه بين الظاهر والباطن نستدل على فعالية الذات ، التي تختبر حالات الواعية فتتطلع وتحس وتريد .

وفي الحقيقة لا يمكن تصور وجود حالة نفسية مالم تكن الذات مختبرة لها . فاذا ظهرت الحالة النفسية فانها تمتزج مع اختبارات الذات أي النفس ، الموجودة سابقاً وتعمل لتغير بها ، أو لتصلحها . وعلى هذه الكيفية تقوم فعاليتها متكيفة بحسب الحالات الواعية واختباراتها ومكيفة لها .

وفي النتيجة يجب أن نعلم أن حالات الوعي ليست وحدات [مستقلة] بل جهاز العقل مثل جهاز العصب المركزى يشتغل كموجود واحد مستقل بالرغم عن ميزاته المركبة .

هذه هي خلاصة رأي الدكتور « هالبرتون » تأخذ شكلها الوسط بين العقيدتين ، ولم أشأ الدخول في بيان تفصيلي لكيفية وقوع فعل الوعي من الجهة الفيسيولوجية لأن الكتب الخاصة بهذا العلم تتناول بحثة بمزيد من الإسهاب والشرح . وإنما أوردته لأثير انتباه القارىء إلى ضرورة التعمق بأبحاث [العقل] حتى نزداد يقيناً بأن هذه المنحة التي منحتنا إياها الحياة وموجد الحياة ، لأثمن شيء في الوجود . فمعرفة أنفسنا بقدر ما وصل إليه العلم يجعلنا ندرك مسؤولياتنا في تنمية قوانا العقلية والمحافظة على سلامتها وعلى فعاليتها . إذ لا شيء أثمن من العقل ، ولا شيء أكمل منه في الخليقة ، وإذا اختل أو اعتل نقصت قيمة الإنسان وقل اعتباره وفسدت حياته ، ولا حياة لمن لا عقل له . ولا عقل لمن لا يدرك نفسه ، ولا علم لمن لا معرفة له بالحياة .

عبد الرحمن الكيالي

العوامل الخفية في التطور اللغوي

من المعلوم أن الإنسان قد اهتدى منذ عهد عريق في القدم إلى استنباط الكتابة واستعمالها في شتى حاجاته . وكانت كتابته في أول عهدها عبارة عن رسوم بدائية ساذجة يستعين بها على التعبير عن ضروريات حياته البسيطة . لكنّ الإنسان لم يبق في طوره البدائي طوال العصور التي مرت عليه . بل أخذ مع كرور الزمن يرتقي ويتقدم في الاختبار والمعرفة . وبتقدّمه وارتقائه ارتقت لغته الكتابية أيضا . وما زالت تسير في طريق الارتقاء حتى أصبحت ذات قوالب لفظية معيّنة وتراكيب تقوم على قواعد منظّمة .

على أن تلك القوالب والتراكيب لم تتوقف عبر التاريخ عن التطور ، ذلك لأن الجماعة الإنسانية نفسها قد طرأ عليها منذ عهدها الأول تغيرات وتحولات كثيرة كان نتائجها أنها توزّعت إلى كتل عديدة مختلفة البيئات والاختبارات . وبالتالي متباينة اللهجات واللغات .

ولقد عُني فقهاء اللغات قديماً وحديثاً بدراسة تاريخها وأسباب نموّها وتقدمها وقطعوا شوطاً بعيداً في الكشف عن الوشائج التي تربط بعضها ببعض . فأوصلهم ذلك إلى الجزم بأن اللغة لم تأت الإنسان رأساً عن طريق التوقف كما زعم بعض القدماء بل نشأت ونمت ككلٍ حيٍ تبعاً لناموس التطور الطبيعي العام . وانها لا تزال حتى الآن خاضعة لهذا النظام . والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى وأبينُ من أن تحتاج إلى تبيان . ونظرةٌ واحدة

على ما دخل ولا يزال يدخل كل لغة من أوضاع جديدة كافية لأن ترينا أثر التطور المستمرّ في لغات الأمم جمعاء ، وإن كان هذا الأثر يتفاوت فيها بالنسبة إلى أحوالها ودرجة تقدمها . خذ مثلاً لغتنا العربية إبّان نهضتها الأخيرة فقط وتأمل ما استجدّ فيها وتولد من كلمات واصطلاحات في شتى حقول العلم والحضارة ، سواء أكان ذلك عن طريق الوضع أو عن طريق الترجمة . فهي دون مغالاة تتجاوز الألوف بين ما كان من قبيل الماديات ، أو ما كان من قبيل المعنويات .

* * *

والتوليد وضعاً « أو ترجمة » قديم في العربية . على أنه قد اتّسع كثيراً في هذا القرن الأخير ومعظمه جار على ألسنة الكتاب وأقلامهم . وكثيرٌ منه قد دخل حرَمَ المعاجم فأصبح متأصّلاً في اللغة .

وما يصدق على التوليد في اللغة العربية يصدق عليه في شتى اللغات العالمية الحية إلا أن أساليبه قد تختلف بين لغة وأخرى . فالتوليد في العربية عملية داخلية تتمّ عادة بواسطة الاشتقاق الصرفي طبقاً لأصول هذه اللغة . فيستعان عليه باستعمال الصيغ الصرفية المعروفة من مصدر أو اسم فاعل أو اسم مفعول أو اسم مكان أو اسم آلة أو مبالغة وما إلى ذلك . ممّا يَسِمهُ بسمة الاشتقاق الداخلي لا بزيادات خارجيّة عليه كما هي الحال في اللغات الإفرنجية حيث يحدث التوليد بواسطة سوابق أو كواسع تضاف إلى الألفاظ الأصلية . كما ترى في الأمثلة التالية :

Operation — أي (عمل أو عملية) فاذا سبقتها (Co) تصبح Cooperation أي (التعاون) .

Like — أي (يودّ) أو يستحسن أما Dislike (فتعني يكره) .

Teach — أي (يعلّم) أمّا مع الكاسعة (Able) فتعني (قابل للتعلّم) .

Ordinary — أو Ordinaire — معناها الشيء العادي فإذا تقدمتها Extra أصبحت تعني (ما فوق العادي) .

Poison — أي (السمّ) أضف إليها ous تصير Poisonous أي الشيء (السامّ) .

Coherent — أي (المتماسك) — incoherent غير متماسك أو متفكك

Stand — أي (يقف أو ينتصب) — Under stand (أي يقف على معنى الشيء) .

وقس على هذه الأمثلة ما لا يمكن حصره في مثل هذا المقام .

وقد أخذ بعض هذا النوع من التوليد الأجنبي يتسرّب إلى العربية فصرنا نقول مثلاً : برقية لاسلكية — ولون فوق البنفسجي — الفلسفة اللاّأدريّة — تعاليم لادينية ، وخام كبريتيد (Blend sulphide) وحامض بروخليك (Brono acetic acid) وأمثالها مما اضطرّ إليه ناقلو الأوضاع والاصطلاحات الكيماوية والأحيائية والطبية وسواها من العلوم الطبيعية إلى اللغة العربية .

وكما دخل اللغات أوضاع جديدة عن طريق التوليد والترجمة دخلها كذلك أوضاع جديدة عن طريق الاقتباس بعضها من بعض . فاللغة الواحدة كثيراً ما تتبنى لفظاً أجنبياً لا فائدة من تكلف ترجمته . وهو أمر يكاد يكون شائعاً على درجات متفاوتة في جميع اللغات . ويطلق العرب على هذه الألفاظ المقتبسة اسم الألفاظ الدخيلة أو المعرّبة .

ولقد حاولتْ بعض الدول الحديثة بدافع من عصبيتها القومية أن تستغني عما انتشر في لغتها من ألفاظ دخيلة وأن تستعيض عنها بوضع ألفاظ أصيلة

فوجدت في ذلك من المشقة والإسراف في الوقت والجهد ما صدّهـا عن التمادي في مثل هذه المحاولة . فكيف يمكن للتركية أو الفارسية مثلاً أن تجرّد نفسها مما تأصل فيها من الألفاظ العربية ، وهو شيء كثير جداً يكاد يطغو على الألفاظ الأصليّة وكذلك كيف تستطيع اللغات الأوروبية أن تجرد نفسها من أصولها اليونانية أو اللاتينية . وهذا شأننا في ما دخل العربية من أوضاع أجنبية وشاع على الألسنة والأقلام في الأوساط الأدبية والعلمية . وقد شعر بذلك العاملون في حقل اللغة وأدركوا استحـالة التخلص منه . حتى إن مجمع اللغة بمصر وهو من أشدّ المحافظين على أصالة اللغة وعلى الأخذ بأسباب رقيّها ونموّها لم يسعه إلا أن يعترف بفائدة التعريب . ولكنه احتاط لضرر التمادي فيه فأجاز ، كما ورد في مقرراته « استعمال بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم » [١] .

فالتوليد وضعاً وترجمة ، والتعريب ، وسائر ما طرأ على ألفاظ اللغة من تجديد وتغيير ومن نموّ واندثار إنما هو حَدَث تطوّري كان ولا يزال يحدث في مختلف الألسنة البشرية على أشكال ودرجات شتى ، ووراءه عوامل طبيعية تعمل باستمرار دون أن نراها أو نحسّ بها . وفي الغالب قلّما ننتبه إلاّ إلى نتائجها . وها نحن أولاء نثبت أهم هذه العوامل .

العامل الزمني — ويراد به تأثير الزمن في تحويل بعض الألفاظ من معنى إلى معنى آخر . ولنمثل عليه أولاً ببعض ألفاظ أجنبية :

Meat — كلمة إنكليزية معناها اللحم الذي نستعمله للطعام . على أنها لم تكن قديماً على ما يظهر محصورة في هذا المعنى . بل كان

(١) راجع مجلة المجمع ١ ـ ٣ .

يقصد بها الغذاء عامة . وعلى ذلك وردت في التوراة المترجمة
إلى الانكليزية في عهد الملك جايمس قبل نحو ٢٥٠ سنة ،
إذ قال الله لآدم مشـــيراً إلى ما خلق من أنواع النبات
To you they shall be for meat أي لك تكون طعاماً .
وبكرور الزمن تحولت عن معناها العام واستقرت على معناها
الخاص المعروف الآن .

Virtus — كلمة لاتينية معناها الأصلي « الرجولة » أو قوة الرجل .
أما الآن فقد تجاوزت هذا المعنى في بعض اللغات . فهي في
الإنكليزية (Virtue) وفي الفرنسية (Vertu) أي الفضيلة
والخلق الحميد أو المروءة في الإنسان رجلاً كان أو امرأة .

Plume — كلمة فرنسية تعني قلم الحبر . وهي في معناها الأصلي ريشة
من جناح طائر . ولمّا كانوا قديماً يستعملون للكتابة ريشة
الطائر فقد علق بها مع الزمن هذا الاستعمال فاكتسبت
معنى القلم .

Board — كلمة انكليزية . يراد بها في الأصل قطعة من الخشب مستطيلة
مسطّحة الشكل يوضع عليها الطعام . ومع الزمن تحولت
إلى أن صارت تعني الطعام نفسه كما في قولنا للنزول في فندق ما
(With bodging and board) أي مع المنام والطعام ،
وتحولت أيضاً إلى معنى ظهر السفينة — في مثل قولهم
Fell over board أي سقوط من على ظهـــر السفينة .

Étoner — كلمة فرنسية تعني بوغت بعنف أو دهش دهشاً شديداً .
وهي من أصل قديم Extonare أي ضربته الصاعقـــه .
وينطبق عليها تماماً قولنا في العربية صعق للخبر .

Tawdry — كلمة انكليزية يراد بها ما كان من السلع رخيصاً أو تافهاً وقد زخرف ظاهره زخرفة مبتذلة . وأصلها مما كان يعرض قديماً للبيع من مثل هذه السلع الرخيصة في عيد القديس Taudrey فلصق به هذا الاسم .

Fee — ويراد بها ما يترتب من مال لقاء خدمة أو عمل ينتفع به . كقولهم مثلاً (School fees) أي رسوم التعليم في المدرسة . وهذه الكلمة من أصل جرماني قديم (Feoh) وكانت تعني الماشية من بقر وسواها ، مما يرجّح أنهم كانوا قديماً يستعملون المواشي بدل النقود في معاملات البيع والشراء أو تسديد الديون والحسابات[١] .

Trampire — كلمة من أصل لاتيني معناها يُخرج النَّفَس — يرشح وقد اكتسبت في اللغة الانكليزية مع الزمن معنى إضافياً هو تسرّب الشيء الخفي إلى الخارج كقولهم :

It transpired to the press that woill not the cabinet stay on more than a weak .

أي تسرّب إلى الصحافة أن الوزارة لن تبقى أكثر من أسبوع .

Bureau — (فرنسية) أي مكتب أو طاولة للكتابة . وأصل معناها قماش كانت تغطى به المكاتب في الدوائر الرسمية فتحول معناها إلى المكتب نفسه أو الدائرة .

---

(١) Bloomfield - Lang. Hist. 1933 P. 426

وقد يكون عمل الزمن في اللغة عن طريق المجاز . كالأمثلة التالية :

Chair - Chaise — أي الكرسي . وقد اكتسبت مع الزمن معنى جديداً فلم تعد تقتصر على أداة للجلوس بل صار يكنى بها عن مركز رئيسي في الجامعات أو دوائر الحكومة وسواها فيقال مثلاً كرسي الأدب — كرسي الرئاسة — كرسي القضاء .

Bar — تعني أصلاً دكة خشبية تحجز القضاة عن أصحاب الدعاوى ، أو تستعمل لتقدم عليها زجاجات الشراب ، فأصبحت يكنى بها عن مجلس القضاء نفسه أو عن محل المشروبات الروحية .

وهناك عدد وافر من أمثال هذه الكلمات في اللغات الأجنبية ؛ كما أن منها عدداً غير قليل في لغتنا العربية . قديماً وحديثاً — ومن أمثلة ذلك ما يلي :

الكفر — هذه اللفظة تعني في الأصل التغطية من فعل كفر أي غطى وستر فتحولت إلى معنى الإلحاد .

الصفر — وهي في الأصل الخلاء مطلقاً . ثم استعملت في العلوم الرياضية للرتبة الخالية من الكم .

النحو — وهي كما يقولون من نحا ينحو أي قصد يقصد ثم أصبحت تعني العلم المعروف (في اللغة العربية) .

المقامة — وهي أصلاً المجلس أو المقام تلقى فيه القصص أو العظات فتحولت إلى هذا النوع من القصص المسجع الذي عرف به الهمذاني والحريري ومن جرى مجراهما قديماً وحديثاً .

القطار — أصل معنى هذه اللفظة صف من الجمال يقطر بعضه إلى بعض . وهو الآن يكنى به عن عربات سكة الحديد .

اللواء — أي الراية أو العلم . ويكنى بها الآن عن صاحب رتبة رفيعة في الجيش .

فنّان — في كتب اللغة القديمة اسم يطلق على الحمار الوحشي لتفننه في العدو . وهو الآن لقب لصاحب الموهبة الفنية أو لمحترف الفن .

اللُّغـز — في الأصل جُحر الضب أو اليربوع . وهو حفرة كثيرة التعاريج والتعمية ومنها جاء المعنى الحاضر للكلام المعمّى .

الجيب — في الأصل طوق القميص أو الثوب . وهو الآن أشبه بكيس صغير يخاط بالثوب من الداخل لحفظ الأشياء .

السفرة — معناها في الأصل طعام المسافر وهي الآن ما يوضع عليه الطعام .

وقس على هذه الأمثلة القليلة كثيراً من الألفاظ التي كان للزمن فعل ظاهر في تحويل معانيها . أما كيف أو متى حدث هذا التحول فذلك مما يصعب تحديده . فطرق التحويل تختلف باختلاف الظروف والأسباب . ولا سبيل لنا إلا أن نقول إنه أمر قد حدث في زمن ما . .

العامل الاجتماعي : ويراد به ما كان سبباً في توليد ألفاظ في لغة ما نتيجة لاحتكاك أهل تلك اللغة بسواهم من الشعوب ، إمّا عن طريق الاتصال التجاري أو الفكري أو السياسي . وهذا باب واسع جداً أكتفي منه بقليل من الأمثلة :

Marble — كلمة انكليزية معناها البلاط الذي يستعمل في الأبنية — وقد أخذت عن الفرنسية Marbre أما أصلها القديم فجرماني Marmaros أي حجر أو صخر .

Mayor انكليزية } أي محافظ المدينة أو المقاطعة . وأصلها لاتيني (Major)
Maire فرنسية } أي الأكبر أو الأعلى .

Conscience — (الضمير) أو شعور داخلي في النفس بما هو خير وما هو شر ، واللفظة واحدة في اللغة الفرنسية وهي من أصل لاتيني (Conscuntia) .

Befteek — لفظة فرنسية مأخوذة عن الإنكليزية لنوع من لحم الطعام (Beefstiak)

Magnanimous انكليزية } صفة للرجل الشهم أو ذي المروءة . مأخوذة عن كلمة
Magnanim فرنسية } لاتينية مزدوجة Magnus أي كبير و Animus أي روح أو نفس . (أي ذو الروح الكبيرة) .

Philosopohy — الفلسفة — في كل اللغات مأخوذة عن كلمة يونانية مزدوجة معناها حب الحكمة وهي Philosofia – (Philis حب و Sophia حكمة)

Coffee—Café — وهذه كلمة عالية مأخوذه عن العربية (القهوة) وأصل معناها الخمرة ثم تحولت إلى مَقليّ البنّ المعروف .

Saffron—Safron — أيضاً كلمة عالية مأخوذة عن كلمة زعفران العربية .

Admiral—Amiral — وهذه أيضاً من أصل عربي هو أمير البحر . ومثلها القلي والجبر (Alkali—Algebra) وكثير غيرها من الألفاظ الأجنبية التي أخذت عن العربية عن طريق العلم والتجارة أو السياسة أو الدين ، وخصوصاً في الفارسية وفي التركية .

كما أن هناك أيضاً كثيراً جدًّا من الألفاظ الأجنبية التي دخلت العربية قديماً وحديثاً عن هذا الطريق كقولنا ، وهو قلّ من كثر ، أو نقطة من بحر :

ديوان ـ قبطان ـ آجر ـ سكر ـ أفيون ـ ازميل ـ كيلو ـ قنطار ـ فستان ـ قيراط ـ طابور ـ اكسوجين ـ

ريال ـ توابل ـ منبر ـ تلفون ـ فيلم ـ بورصة ـ بنك ـ سراي . الخ الخ .

ويدخل في هذا الباب ألفاظ صيغت من أسماء أعلام اشتهروا باختراع شيء أو إجادته . ومن ذلك في الإفرنجية —

Pasteurize — أي عقّم الحليب أو سواه على طريقة Pasteur العلامة الفرنسي المشهور .

Galvanize — أي لبّس الحديد بالزنك — نسبة إلى العالم الإيطالي Galvani .

Algorism — اصطلاح حسابي مستمد من اسم الرياضي العربي الكبير الخوارزمي

أما في العربية فنجد أمثال :

الرُّدينيات — (الرماح) نسبة إلى إمرأة اسمها ردينة كانت تصلح الرماح .

تبرمك — أي جاد بالعطاء نسبة إلى البرامكة وزراء الدولة العباسية الذين عرفوا بكثرة العطاء .

تنمرد — أي طغى وتجبّر نسبة إلى نمرود الجبار الأسطوري . ومثلها

تفرعن — نسبة إلى فرعون .

وغير ذلك .

(العامل الجغرافي) : نظرة عامة إلى عدد من اللغات الراقية في العالم ترينا ما للموقع الجغرافي من أثر في تطورها . فكل بلد تربط أبناءه لغة واحدة كان في أول أمره مؤلفاً من أقاليم مختلفة اللغات أو اللهجات ثم قضت الأحوال أن تتغلب إحدى هذه اللغات على سواها فتصبح اللغة القومية العامة مع احتفاظها ببقايا من اللغات أو اللهجات الأخرى .

هكذا أصبحت لغة لندن مثلاً هي لغة الإنكليز الرئيسية أو الجامعة . ذلك لأن لندن هي العاصمة والمركز الأكبر للحياة العلمية والسياسية والاجتماعية

والتجارية . وباطراد تقدمها العلمي وارتفاع مستواها الحضاري استطاعت لهجتها أو لغتها تدريجاً أن تتغلب بل تقضي على شتى اللهجات واللغات الإقليمية .

وكذلك قل في اللغة الفرنسية اليوم فهي في الواقع لغة باريس العاصمة وموطن الطبقة الراقية وأهل العلم والأدب وأرباب القيادة السياسية فكان من الطبيعي أن تطغى على سائر اللغات واللهجات الإقليمية في فرنسا .

والألمانية هي لغة برلين التي ترجمت إليها التوراة على يد لوثر المشهور وقد جرى مثل ذلك في كثير من البلدان .

وإذا التفتنا إلى لغتنا العربية السائدة اليوم في الأوساط الأدبية الراقية بين كل الشعوب التي تنطق أو تكتب بها وجدناها بالأكثر وريثة لغة قريش ، بل لغة مكة عاصمة العرب الدينية والعمرانية . قال ابن فارس في فقه اللغة : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومجالسهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنةً وأصفاهم لغة . وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمداً (ﷺ) فجعل قريشاً قطّان حرمه وولاة بيته . فكانت وفود العرب من حجّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش في دارهم . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم . فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها . فصاروا أفصح العرب » وهذا ما ذهب إليه الفارابي في كتابه المسمّى بالألفاظ والحروف كما ذكر السيوطي في المزهر [١] وعليه أكثر فقهاء اللغة العربية قديماً .

(١) ج ١ ـ ٢١٠ .

وللعامل الجغرافي أثر في ما تكتسبه اللغة من هجرة أهلها واستيطانهم بلاداً جديدة كما حدث للغة الإنكليزية مثلاً بعد أن استقرت في أميركا الشمالية وأصبحت اللغة السائدة فيها . فقد دخلها ألفاظ وأوضاع إقليمية جعلتهـــا ذات صيغة خاصة حتى صار بعضهم يطلقون عليهـــا اسم اللغة « الإنكليزية الأميركية » أو الأميركية فحسب . وهذا يصدق على كل لغة هاجرت من موطنها الأصلي واختلط أهلها بسواهم من الشعوب .

ومن الأثر الجغرافي في اللغة نشوء ألفاظ فيها ترجع إلى أسماء بعض المدن والأقاليم كالألفاظ التالية المستعملة في اللغات الأوروبية :

Dmask — تطلق بين الافرنج على نسيج كانوا يستوردونه من دمشق ثم أطلق عليه اسم دمشق محرّفاً .

Mousline — نسيج حريري رقيق مأخوذ من اسم موطنه الأصلي الموصل في العراق .

Calico — نسيج قطني يرجع اسمه الإفرنجي إلى مدينـة Calient الهندية التي كان يستورد منهـــا .

Balas—Balais — وهي البلخش حجر كريم موطنه بلخشان .

Benjoin—Benzoin — صمغ من جاوى سماه العرب لبان جاوي وعنـه نقل إلى الافرنجية .

Tabby — Atabis — نوع من القماش ينسب إلى محلة في بغداد قديماً كانت تسمى العتابية ذكرها ابن جبير في رحلته . قال :
وبها تصنع الثياب العتّابية .

ومن الإفرنجية أيضاً :

لفظة البورجوازية Bourgeoisie ومعناها الطبقة المترفهة أو المترفة وأصل الكلمة من bourg أي المدينة وكان يدعى ساكن المدينة بورجوازي ثم صارت تعني هذه الطبقة الخاصّة من الشعب .

ونقول في العربية المهنّد والهندواني أي السيف المصنوع في الهند — والصيني نوع من الآنية الخزفية ينسب إلى الصين والكشمير نوع من الأنسجة نسبة إلى مقاطعة الكشمير في الهند ، والكوفية غطاء الرأس ينسب إلى الكوفة في العراق — وعبقريّ نسبة إلى عبقر ، وهي في أساطير العرب موطن الجن وينسبون إليها كل رائع أو متفوق .

والتبغدد أي الزهو بالنفس تشبهاً بأهل بغداد قديماً . ومثلها عدد من الألفاظ المنسوبة إلى أسماء بلاد أو أماكن كتأمْرك وتفرنس وأتهم وأنجد رغرّب وأشام وأيمن وأصحر (من الصحراء) وغيرها .

وهناك عوامل أخرى أثرت في اللغة فأحيت بعض ألفاظها وقضت على سواها أو أضافت إليها صوراً معنوية لم تكن من قبل . ومنها :

العامل الاقتصادي : ويراد به الميل الفطري إلى تغليب لفظ على لفظ توفيراً على الذهن ما قد يتكبده من مجهود لا داعي له ، كتفضيل اللفظ السهل الواضح المألوف على الشاق أو غير المألوف . وهكذا تدور الألسنة والأقلام على استعمال ألفاظ دون مرادفاتها كقولنا مثلاً :

المرآة بدلاً من السَّجنجل	والرقص بدلاً من الزفن
الخادم » » النادل أو الماهن	و أمين السر » » الناموس
السائق » » الحوذي	و الشرطي » » الجلوز

الفنّان المحترف بدلاً من المتكسّب	و المحامي بدلاً من المدره
ومنديل السفرة 〃 〃 المشوش	و الجبة 〃 〃 الدلق
والرصاص 〃 〃 الصرفان	و الخمــــر 〃 〃 الخندريس
واللوبيــاء 〃 〃 الدّجــــر	و الباذنجان 〃 〃 المغد
وربان السفينة 〃 〃 الناخوداه	و الواش 〃 〃 الحشيّة
والبسكويت 〃 〃 الجبـــائز	وغيرها كثير . . .	

ومن باب الاقتصاد الذهني في اللغة الخروج أحياناً عن قاعدة الاشتقاق الأصولي فنستبدل حرفاً بحرف آخر أدلّ منه على المعنى المراد . وهكذا نستعمل الآن (دعاية) (Propaganda) بدلاً من (دعاوة) لأن هذه وإن كان الفعل واوياً لا تعطينا المعنى المقصود .

ونقول (قيّم) السلعة بدلاً من قوّم لأن (التقييم) مأخوذة من القيمة لا من الفعل قوّم . وتقول هو (أحيل) منه أي أكثر حيلة لا (أحول) . وليس ذلك بدعةً في العربية ، فالقدماء قالوا مسنيّة بدل مسنوة ؛ والملياء بدل الملواء ، ومرضيّ بدل مرضوّ ، والقُصوى بدل القصيــا ، وأليط بالقلب بدل ألوط وأمثالها (راجع أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٦١٥ – ٧١٧) .

العامل اللغوي ، والمعنوي :

ومما أدّى إلى توسع اللغة ونمو مفرداتها استعمال حروف المعاني مع الأفعال لدلالات خاصة — كاستعمالنا الأفعال التالية في غير معناها الأصلي :

أتى (جــــاء) نقول أتى عليه أي أنفقه أو أهلكه

ضمّ (جمــــع) 〃 ضم جناحه إلى النّاس أي ألان لهم جانبه

عثر (زل وكبا) 〃 عثر عليه وجده

عهد (عرف) نقول عهد إليه بالأمر أوصاه به أو أوكله إليه

قعد (جلس) = قعد للأمر . اهتم به وقعد عنه انقطع

مثل (حضر) = مثل به نكّل به

بسط (نشر) = بسط فلاناً على فلان سلطه عليه ، وبسط من فلان أزال احتشامه

دعا (طلب الحضور) = دعا على فلان طلب له الشرّ ودعا له طلب الخير

سكن (هدأ) = سكن إلى فلان استأنس به واستراح إليه

فزع (خاف) = فزع إليه التجأ ، فزع من نومه انتبه

وقف (قام) = وقف على الشيء اطلع عليه ، وقفه عن الشيء منعه .

ومثل هذا التوسع نجده في غير العربية من اللغات الأجنبية . ففي الإنكليزية خذ مثلاً الفعل (give) ومعناه الأصلي (يعطي) ولكن هذا المعنى يتغير بحسب الحرف الداخل عليه فاذا قلنا (give up) صار المعنى (يترك) أو give in (يستسلم) . وخذ فعل get (حصل على) نقول get up (ينهض) أو get in (يدخل) . ومثل هذه التعبيرات شائعة في عـــدد غير قليل من أفعالهم .

ويدخل في هذا الباب عندنا التضمين اللغوي وهو استعمال فعل مع أحد الحروف بمعنى فعل آخر وقد أقره مجمع اللغة بمصر وسواها وجعله قياسيّاً بشروط هي (١) تحقيق المناسبة بين الفعلين (٢) وجود قرينة تدل على المعنى (٣) ملائمة للذوق العربي .

ومن باب العوامل اللغوية ما سماه الأقدمون بالقلب والإبدال وهو واسع جداً وقد أسهبوا في شرحه ووضعوا الكتب فيه :

والمعقول أن هذا التوسع في معاني الأفعال بواسطة الحروف لم يوضع في الأصل وضعاً على يد علماء اللغة بل جاء سليقة وإنما أقره العلماء بعد أن جرى على الألسنة والأقلام ثم مكّنه الاستعمال العام .

ولنستطرد هنا إلى القول أن أكثر هذه التحولات التي طرأت على اللغة لم ترق أولاً المحافظين المتشددين فكانوا يهاجمونها ، وقد حدثت في كل عصر مشادّات بينهم وبين المجارين لناموس التطور الذين يرون فيه متسعاً لتنمية اللغة وصقلها . وكان الزمن غالباً في جانب هؤلاء .

ومن المحافظة المتشدّدة عند بعضهم مثلاً كتاب درّة الغواص للحريري صاحب المقامات المشهورة . فقد تتبع ما رآه أو توهمه من أغلاط الكتّاب في زمانه فجاء بالغث والسمين مما حمل بعضهم ومنهم الخفاجي شارح كتابه على تفنيد كثير من انتقاداته . وقام بعد الحريري في أعصر مختلفة من حذا حذوه وتابعوه في مثل قوله — إن كلمة التشويش خطأ وصوابها التهويش ، وإن الطرب يستعمل للحزن والفرح على السواء . وان أراضي جمع أرض خطأ وصوابها أرضون ، وإن النسبة إلى مثل فاكهة وباقلّى فاكهي وباقلّي لا فاكهاني وباقلاني ، وإن القافلة هي الرفقة الراجعة من السير لا غير .

إلى غير ذلك مما لم يثبت مع الزمن . وقد حاول إبراهيم اليازجي وهو من هو في علم اللغة انتقاد أغلاط الكتاب فأجاد ، ولكنه غالى في التشدد فأصابه ما أصاب الحريري وسواه من المتشددين . وتبعه حتى وقتنا الحاضر عدد من أهل الغيرة على اللغة فضلّوا السبيل في كثير مما زعموه ، ذلك لأنهم لم يعيروا أي اهتمام لغير ما نقل في كتب اللغة ، ولم يكترثوا لما أثبته الاستعمال العامّ مما لم ينقل في كتب القدماء .

ولم يكتف بعض من أهل عصرنا الحاضر بتقليد المتزمّتين السابقين في تخطئة ما توهموه مخالفاً للأصول بل تجاوزوا ذلك كثيراً حتى تركوا أوضاعاً صحيحة متعارفة داعين إلى مرادفات لها . هي وإن تكن صحيحة ، لم تجر في الاستعمال مجرى الأولى .

فغلّبوا مثلاً صيغة أسهم على صيغة ساهم بمعنى المشاركة .

وتبعهم في ذلك كثيرون الآن . ولا غبار على أيٍّ منهما . إلا أن صيغة فاعل أدل على المشاركة من صيغة أفعل . ولذا شاعت قبلاً في الأوساط الأدبية وهي الأولى بالاستعمال .

وغلّبوا أيضاً صيغة أسمى على صيغة سمّى في مثل قولهم (أسمى ابنه كذا) وصار الكثيرون يتحاشون استعمال سمّى ، مع أن هذه هي الفضلى وهي التي يتصرف اللسان والقلم بمشتقاتها فنقول (تسمية الأشياء) (لا إسماؤها) . وتقول (إلى أجل مسمّى) بالتشديد لا غير .

وتوهّموا أن قولهم (أفاد من الشيء) أصحّ وأفصح من القول (استفاد منه) وهو وهم غريب يتمسكون به ويخشون أن يقال عنهم غير فصحاء إذا استعملوا سواه .

وانقلبوا مؤخراً على الإصلاح الشائع بين الكتاب وهو (بصفته كذا) بدلاً من (بوصفه كذا) في مثل قولهم (بصفته رئيساً أو مسؤولاً) والواقع أن استعمالهم (بوصفه كذا) ضعيف . لأن معنى (بصفته كذا) لكونه كذا أو لثبوت هذه الصفة فيه . لا لأننا نصفه بها كما يزعمون .

وانبرى بعضهم لمحاربة النسبة إلى الجمع المكسّر زاعماً أنه يجب ردّه إلى المفرد . مع أن النسبة إلى هذا الجمع هو مذهب صحيح من مذاهب

النحاة الكوفيين . وهو أولى في أكثر الأحيان من النسبة إلى مفرده . وإذا كان بعضهم لا يزال يرى أن النسبة إلى الدول دَولي هي الصحيحة فما قوله في النسبة إلى — أُمم ـ عقائد ـ عمّال ـ صُحف ـ أخبار ـ حُقوق ـ مُلوك ـ كتائب — شُعوب ، وكثير غيرها .

وينادي بعضهم بالويل والثبور إذا جمع أهل القلم اليوم بأس على بؤساء زاعمين أن الصحيح في جمعها هو بُؤُس . كما أنهم مثلاً يرفضون لفظة مآكل ويقولون الصحيح أُكل . وهكذا نراهم يفضلون التضييق على أنفسهم وسواهم ورفض القياس والاشتقاق الذي تستسيغه السليقة اللغوية والاستعمال بحجة أنهم يصلحون اللغة ويغارون على ما رواه الأقدمون منها . كأنه لا يجوز للغة أن تتطور مع الزمان نحو الأسهل والأفضل والأدلّ على المراد مع المحافظة على القياس العربي الفصيح .

* * *

قلنا إن لناموس التطور أثراً فعالاً ، بل الأثر الأكبر في تجديد اللغة واختيار الأنسب من ألفاظها . وهنا فلنقف قليلاً متسائلين — ما هو ناموس التطور ومن الذي ينفذه في أقوال الناس وكتاباتهم . وما هي خصائص البلاغة اللفظية المُجمع عليها عند الأمم على اختلاف لغاتهم ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من أن نوضح ما نقصده باللفظة هنا فنحن لا نقصد بها اللفظة التي عناها الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، أي تلك التي تتوقف بلاغتها على حسن نظمها في الجملة أي على ما لها من دلالات بالنسبة إلى موقعها في الكلام . فهذي هي اللفظة الأدبية التي يُعنَى بها البلغاء في الإنشاء الأدبي العالي . وإنما نقصد اللفظة

من حيث هي وحدة كلامية ذات معنى خاص . وهي التي توضع أو تختار لتدلّ بنفسها على شيء معيّن أو لتحدّد معنى من المعاني . ومثل هذه اللفظة هي ضالة أرباب العلوم والأساتذة ، العاملين في حقول المعرفة بحثاً عن المعلومات الراهنة وإثباتاً للحقائق .

فإذا كان لبلاغة اللفظة الأدبية العالية مقاييس أوضحها علماء البلاغة وأرباب البيان ، فإن للفظة العلمية المحددة المعنى مقاييس يجب مراعاتها إذا أردنا لها الحياة . والمُجمَع عليه قديماً وحديثاً أن فصاحة أو بلاغة اللفظ تقوم على الأسس التالية :

(١) تفضيل الأسهل على الأشق (٢) تفضيل الأوضح على الأقل وضوحاً (٣) المألوف على الحوشي (٤) المتناسق الحروف على المتنافر (٥) اللطيف الجرس على الخشن . وإذا تحرينا هذه الأسس وجدنا أنها ترجع إلى ناموس عقلي ويقتضي وجوب الاقتصاد على انتباه السامع أو القارئ ، وعلى المجهود الذي يبذله لإدراك المعنى المقصود . وهذا هو هدف التطوّر اللغوي .

بقي أن نقول إن التطور اللغوي لا يتم عمله خارج العقل البشري أو بالأحرى دون وجود سليقة جمالية في النفس البشرية هي أساس الذوق الأدبي العام الذي يختار الأفضل والأصلح ويوطده مع كرور الأيام .

وإذا اعتُرض أن الذوق العام لا يُعتمد عليه إذ هو يختلف باختلاف البيئة ودرجة التقدم الفكري والخبرة العلمية . وإنما الاعتماد في هذا الشأن على أهل الاختصاص ممن مارسوا اللغة وحذقوا قواعدها وأدركوا أسرارها ، قلنا ذلك صحيح فالذوق العام لا شأن له عادة في وضع الألفاظ اللغوية ولكنه في الواقع ذو قدرة فعّالة على قبول أو رفض ما يضعه أهل الاختصاص

وغيرهم . وهو الحَكَم الأخير في إبقـــاء الأصلح والقضاء على سواه مما يُعرض عليه . وتاريخ اللغات شاهد على هذه القوة الخفية التي تعمل باستمرار على تنمية اللغة . نعم إن الذين يبحثون ويصُوغون الألفاظ الجديدة للأشياء الجديدة والمعاني المستحدثة هم فئة مختارة . على أن السليقة اللغوية العامة والتي نسمّيها الذوق المثقف العام هي عند التحقيق القوة التي تعمل في الخفاء وفي كل أمة لترقية لسانها والمحافظة على عناصر الحياة فيه ، ولا بد لنـا من مراعاتها في الوضع والترجمة والعمل على تهذيب اللغة وتوسيعها وإلاّ صح فينا قول الشاعر :

ومكلف الأيام ضدّ طباعهـا   متطلّب في المـاء جذوة نار

أنيس المقدسي



الجهاد ومسوّغاته الشرعية

في التاريخ صفحات سوداء ، سطرتها أيدي الطغاة والبغاة عداد الظلم والعدوان . فجاءت سجلاً قاتماً حافلاً بصور التقتيل والتعذيب ، والتشريد والتخريب .

ومن أبشع هذه الصفحات ما ارتكبه ، ويكرر ارتكابه اليوم ، الصهاينة وأعوانهم من المستعمرين في فلسطين . من ذلك ذبح الأطفـــال والنساء والأهلين العزّل من السلاح ، وقتل الأسرى وتعذيبهم وتسخيرهم بأقسى الأعمال ، وغصب البيوت والأموال ، والتمثيل بالجرحى والعجزة ، وقصف المستشفيات ، وتدمير المعابد ، وانتهاك حرمات سائر الأماكن المقدسة ، التي هي من أعز تراث المسيحية والإسلام .

ومعلوم أن هذه الأعمال الوحشية قد حرمتها مبادىء القـانون الدولي المسلم بها ، والمدونة في الاتفاقيات الدولية الصريحة ، أمثال اتفاقيات لاهاي لسنة ١٨٩٩ المعدلة في سنة ١٩٠٧ ، وبروتوكول جنيف لسنة ١٩٢٥ ، واتفاقيات جنيف لسنة ١٩٤٩ .

وقد تجاهل الصهاينة وأعوانهم هذا كله ، لا سيما اليوم في الذكرى العشرين للإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، وذلك على الرغم من مقررات مؤتمر الأمم المتحدة لهذه الحقوق المنعقد في طهران منذ عدة شهور ، ذلك المؤتمر الذي سجل انتهاك إسرائيل لتلك المبادىء والاتفاقيات ، ودعاها إلى احترامها والتقيد بها . غير أن ذلك كله بقي من دون جدوى ، وكأنه صرخة في واد .

لا بل زاد في تغطرس إسرائيل ومن وراءهـا ، وفي إصرارهم على تصرفهم الغاشم .

ففي هذه الأيام العصيبة ، إبّان أمثال هذه الأعمال الرهيبة ، كثر الكلام عن فرض الجهاد لدفع العدوان وإزالة آثاره الغاشمة . فكانت هذه فرصة مفيدة لبحث هذا الموضوع الخطير ، ولبيان أحكامه الشرعية ، بوجه وجيز ، وفق ما يسمح به هذا المقام .

ولا بد من الإشـارة ، بادئ بدء ، إلى أن السلم مبدأ جوهري في العلاقات الدولية الإسلامية ، وأن السلم والمسالمة من صفات الإسلام ومشتقاته . فواجب السعي له فرض لازم ، لا سيما متى جنح له العدو وامتنع عن القتال . وهذا ما حث عليه القرآن الكريم بقوله :

« يا أيهـا الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة ... فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقَوا اليكم السَّلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ... وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم »[1] .

وهكذا جعل الإسلام السلم ، لا الحرب ، هدف الحيـاة الاجتماعية ، والمثل الأعلى للتعايش بين الأمم المحبة للسلام والعدالة . وقد نشأ الجهاد في الأصل لداعي الضرورة ، كوسيلة لحماية المسلمين من اضطهاد المشركين ومضايقتهم . ثم تنظم كحرب مشروعة لحماية الدين والديار ولمنع الظلم والعدوان . ولقد حافظ دائماً على صفته هذه كحرب وقائية ودفاعية وزجرية ، ولم يسوّغ أبداً كتدبير عدواني .

والجهاد لغة معناه بذل الجهد والطاقة . وشرعاً هو « بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله عز وجل بالنفس والمال واللسان أو غير ذلك أو

(١) سور البقرة (٢) ٢٠٨ ، والنساء (٤) ٩٠ ، والأنفال (٨) ٦١ .

المبالغة في ذلك »(١) . وبعبارة أخرى ، الجهاد قتال مشروع يستوجب التضحية بالأنفس والنفائس ، في سبيل غاياته الشرعية ، ووفق شروطه المفروضة .

والجهاد فرض ثابت بالأدلة الشرعية المعروفة . وأهمها نص القرآن الكريم ، حيث ورد فيه آيات صريحة عديدة (٢) . منها :

« وقاتلوا في سبيل الله ... وجاهدوا في الله حق جهاده ... انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »(٣) .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم »(٤) .

نعم القتال كره للناس ، لما فيه من مشقة وعذاب وتضحية وأخطار وويلات . لكن على الرغم من ذلك ، كتب عليهم فرض الجهاد ، لأنه ضروري للمصلحة العامة . ومن المعلوم ، في القواعد الكلية الشرعية ، أنه « يختار أهون الشرين » ، كما « يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام »(٥) .

(١) تعريف علاء الدين الكاساني ، في بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (القاهرة ، ١٣٢٧ — ١٣٢٨ هـ ، سبعة أجزاء) ج ٧ ص ٩٧ .

(٢) راجع كتاب الأم للشافعي (بولاق ، ١٣٢٥ هـ ، سبعة أجزاء) ج ٤ ص ٨٤ — ٨٥ .

(٣) سور البقرة (٢) ٢٤٤ ، والحج (٢٢) ٧٨ ، والتوبة (٩) ٤١ .

(٤) البقرة (٢) ٢١٦ .

(٥) وردت القاعدتان في مجلة الأحكام العدلية العثمانية (بالمادتين ٢٦ و ٢٩) ، نقلاً عن كتاب الأشباه والنظائر لابن نجيم (المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٢ هـ) ص ٣٥ ، وكتاب المجامع للخادمي وشرحه المنافع للكوزلحصاري (الاستانة ، ١٣٠٨ هـ) ص ٣١١ .

فكره القتال وما ينتج عنه من شر ومن ضرر خاص على الأفراد أولى بالاختيار والتحمل من الضرر العام الناتج عن ظلم المعتدي وما يستتبعه من شرور الذل والاستعباد والتدمير والإفناء وعموم البلوى .

والجهاد فرض كفاية فقط ، في قول الجمهور في المذاهب الفقهية السنية ، لا سيما المذهب الحنفي ، خلافاً لما ذهب إليه الخوارج ، الذين قالوا بأن الجهاد ركن سادس من أركان الإسلام . وكذلك هو فرض كفاية في المذهب الجعفري[1] .

وهذا معناه أن الجهاد مفروض على جميع من هو من أهل الجهاد ، إنما إذا قام به بعضهم وحصلت الكفاية بذلك سقط التكليف عن الباقين .

وتأييداً لهذا القول ، يستند الفقهاء ، علاوة على السنة النبوية الفعلية ، إلى نص القرآن الكريم ، الذي حذّر من إرسال جميع المؤمنين للقتال ، وأوصى بإبقاء فريق منهم يتخصصون في فقه الدين ، ويعلمونه أبناء قومهم . وقد جاء ذلك واضحاً في الآية الكريمة :

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة . فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »[2] .

أما إذا لم تحصل الكفاية بما قام به بعض المؤمنين من الجهاد بأن هجم العدو على بلد ، فعندئذ يصبح النفير عاما ، ويصير الجهاد فرض عين ، أي فرضاً واجباً على كل واحد من المسلمين . وهذا ثابت بالآية الكريمة ، التي مرت سابقاً ، وهي « انفروا خفافاً وثقالاً ، كما هو ثابت أيضاً بالآية :

---

(١) انظر شرائع الإسلام للمحقق الحلّي (طبع بيروت ، جزءان) ج ١ ص ١٤٦ .
(٢) سورة التوبة (٩) ١٢٢ .

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه »[١] .

ويعتبر من المكلفين بواجب الجهاد ، بوجه الاجمال ، كل رجل ، بالغ ، قادر على الجهاد ، صحياً ومالياً . ذلك لأن القتال يستوجب توافر هذه الصفات والمؤهلات . فهو إجهاد وعناء وبلاء ، لا يقدر عليه إلا من اتصف بالرجولة ، والبلوغ ، والصحة ، واليسار . ومعلوم في قواعد الشرع الكلية أن شرط التكليف هو القدرة على المكلف به ، مع التيسير المشقة والحرج[٢] .

لذا ، يعفى من واجب الجهاد ، بسبب العجز الصحي أو المالي عن القتال ، كل من المريض ، والأعمى ، والأعرج ، والزمين ، والمُقعَد ، والشيخ الهرم ، والفقير الذي لا يجد ما ينفق[٣] . وقد ورد هذا الإعفاء في أكثر من آية قرآنية كريمة ، منها :

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ... ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ... »[٤]

---

(١) التوبة أيضاً ١٢٠ .

(٢) الموافقات للشاطبي (المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، أربعة أجزاء) ج ٢ ص ١٠٧ ، وفلسفة التشريع في الإسلام لصاحب هذا المقال (الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٦١) ص ٢٦٩ – ٢٧١ .

(٣) البدائع ج ٧ ص ٩٨ .

(٤) سور التوبة (٩) ٩١ ، والنور (٢٤) ٦١ ، والفتح (٤٨) ١٧ .

ويعفى من الجهاد أيضاً الأولاد الصغار ، لأنهم يدخلون في فئة الضعفاء المنوه بهم . إنما يجوز للأب أن يأذن المراهق بالقتال . أما الولد البالغ الذي له أبوان أو أحدهما ، فلا يجوز جهاده إلا بإذنهما ، لأن طاعتهما فرض عين . وهو ألزم مما هو فرض كفاية كالجهاد[1] .

وكذلك تعفى النساء من الخدمة العسكرية ، لضعف بنيتهن . وقد استبدل بها لجهتين الحج إلى مكة المكرمة ، بالاستناد إلى الحديث الشريف : « جهادكن الحج »[2] . فلذا ، لا يجب الجهاد على المرأة غير المزوجة ، ولا يجوز جهاد المزوجة إلا بإذن زوجها .

أما في حال النفير العام ، يوم يصبح الجهاد فرض عين على كل مكلف ، فيباح للنساء أن يخرجن للجهاد حتى من دون إذن أزواجهن ، كما يباح للصغار أن يخرجوا من دون إذن والديهم .

وقد زاد بعض الفقهاء إلى لائحة الأفراد الذين يصيبهم الإعفاء من الغزو العلماء الذين ليس في بلدهم أفقه منهم أو من يساويهم ، وذلك خوف ضياعهم في المعارك[3] . وهذا ، بلا مراء ، من أحسن الاجتهاد ، لما فيه من تعزيز للعلم وتقدير للعلماء ، وحرص على المصلحة العامة .

ثم ان الفقهاء توسعوا في تفصيل تصنيف المكلفين ، وشروط التكليف . وما ذلك إلا دليل عنايتهم بهذه القضية الحيوية المصيرية ، وتدقيقهم في ترجيح المصالح المتعارضة فيها . وهذا كله واضح في كتب الفقه المعتبرة . ولا مجال لتفصيله في هذا البحث الوجيز .

---

(١) رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين (دار السعادة ، ١٣٢٤ هـ ، خمسة أجزاء) ج ٣ ص ٣٠٤ .

(٢) البخاري بشرح العيني (القاهرة ١٣٤٨ هـ ، ٢٥ جزءاً) ج ١٤ ص ١٦٤ .

(٣) رد المحتار ج ٣ ص ٣٠٥ . والأم ج ٤ ص ٨٥ ، والبدائع في الموضع المذكور .

أما مسوغات الحرب ، فكانت أيضاً موضع عناية الفقهاء والمؤلفين . وهي ترجع جميعاً إلى الدوافع التي تسبب الحرب وتبررها من الناحية الشرعية والواقعية .

فابن خلدون يعتبر أن أصل جميع الحروب إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، وإن سبب هذا الانتقام في الأكثر يعود إلى أربعة دوافع ، تندرج الحروب وفاقاً لها في أربعة أصناف . فالدافع الأول هو الغيرة والمنافسة ، كما يجري في الحروب بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة ، والثاني هو العدوان ، ويكون في الأكثر من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر ، لأنهم علقوا أرزاقهم بسلاحهم ، وجعلوا هممهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم . والدافع الثالث هو الغضب لله ولدينه ، وهو المسمى في الشريعة بالجهاد . أما الدافع الرابع ، فهو العناية بالملك والسعي في تمهيده ، كما يكون ذلك في حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها . فهذه ، بعبارة ابن خلدون ، « أربعة أصناف من الحروب . الأولان منها حروب بغي وفتنة . والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل »

وبكلمة أخرى ، لم يعتبر ابن خلدون الحرب مشروعة إلا إذا كان الدافع لها الجهاد في سبيل الله والدين ، أو تأديب البغاة والعصاة [١] . أما التي يكون الدافع لها الغيرة والمنافسة والعدوان ، فانها لا تسوغ بحال .

وكذلك اتفق الفقهاء على أن الحرب عمل مكروه بغيض . فلا تباح إلا في أحوال استثنائية ، تبررها ضرورة قطعية ، ولا تسوغ إلا إذا استوفت شروطها المفروضة . وعلى هذا الاعتبار ، قسمت مسوغات الحرب

(١) مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية ، القاهرة) ص ٢٣٥ .

إلى الأقسام الآتية : وهي حماية النظام الاجتماعي ، وحماية الدين وأماكن العبادة ، ودفع العدوان عن الديار ، ومنع الظلم .

فالقسم الأول ، وهو حماية النظام الاجتماعي ، تندرج فيه تدابير العنف الشبيهة بالحرب ، التي تلجأ إليها الدولة أحياناً ، بغية توطيد السلطة وحماية النظام العام في داخل أراضيهـا . فهي تشمل محاربة البغاة الخارجين عن طاعة الدولة ، وتأديب قطاع الطرق ، وأهل الردّة . ففعل هؤلاء جميعاً هو من نوع الجرائم التي تمس الدين وأمن الدولة ، وتخضع من ثم لأحكام قانون العقوبات الداخلي ، وبهذا الوصف تخرج عن موضوعنا المتعلق بالجهاد . فنكتفي لذلك بشرح مسوغات الحرب الشرعية الأخرى :

أولاً — حماية الدين وأماكن العبادة :

لا مراء في أن حرية العقيدة من الحقوق الأساسية ، التي أقرتها الدساتير الحديثة الراقية ، والإعلان الدولي لحقوق الإنسان . وقد أقرتها أيضاً الشريعة الإسلامية ، وأكدت حرمتها وحمايتها . فالآية الكريمة « لا إكراه في الدين »(٢) دليل قاطع على هذه الحرية ، علاوة على الأدلة الأخرى العديدة الواردة في الكتاب والسنة ، والتي لا مجال لتفصيلها في هذا المعرض .

فمن هذه القاعدة الذهبية استدل الفقهاء على أنه يبـــاح للمسلمين أن يقاتلوا دفاعاً عن دينهم هم ، كما يباح لهم ذلك لتأمين حرية الدين والعبادة لغيرهم .

ونحن نذكر بعض الآيات الكريمة تأييداً لذلك :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »(١) .

---

(١) سورة البقرة (٢) ٢٥٦ .

(٢) البقرة (٢) ١٩٣ .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون »[١] .

« ... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز »[٢] .

فأماكن العبادة لغير المسلمين وردت في الآية المذكورة قبل مساجد المسلمين . وهي كهذه تتمتع بالمنعة والحماية . فأماكن العبادة جميعاً تباح الحرب للدفاع عنها ، لمنع هدمها وتخريبها ، لأنها حرب في سبيل الله ، ودفاع عن حرية العقيدة ، وعن أماكن يعبد فيها الله عز وجل ، ويشاد فيها بذكر اسمه الخالد أبداً . وإنما اسم الله ذي العلى والجلال والإكرام لهو أكبر شفيع بمنعة كل مكان يذكر فيه . وان هذا ، بلا ريب ، من الأمثلة المثالية على النظرة الإسلامية الواسعة للتسامح الديني ، ومن المؤيدات الفعالة لحريّة العقيدة . ولا تقدّر قيمة هذه الأحكام الحقيقية إلا إذا قورنت بما يجريه الصهاينة اليوم ، بعد أربعة عشر قرناً ، من تخريب وتدمير وانتهاك لحرمات الأماكن المقدسة والمعابد والآثار الشريفة المباركة ، في نفس بيت المقدس ومدينة الخليل وغيرهما من مدن فلسطين العزيزة .

فاذن ، لا تكون الحرب عادلة ومشروعة في هذه الحالة ، أي حماية الدين وأماكن العبادة ، ما لم تكن ضرورية لمنعة الإسلام ، ولحماية الأديان السماوية جميعاً ، ولحماية المعابد حيث يذكر فيها كثيراً اسم الله تبارك وتعالى .

---

(١) سورة الممتحنة (٦٠) ٨ ـ ٩ .
(٢) الحج (٢٢) ٤٠ .

ثانياً – دفع العدوان عن الديار :

الدفاع عن النفس حق ثابت ، سواء في القانون الداخلي أم في القانون الدولي .

وهذا الحق بالذات أساس الحرب الدفاعية ، الواردة في ميثاق الأمم المتحدة ، والتي أقرها الشرع الإسلامي ، وأعلنها في كثير من الآيات القرآنية الصريحة ، وبوجه خاص في الآيات الكريمة الآتية وهي :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . . . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين »[(١)] .

أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . . . »[(٢)] .

فالقتال ، إذن ، يجوز للدفاع عن النفس ولدفع العدوان ، وذلك ممن اعتدي عليهم ، أو ظلموا افتراء ، أو أخرجوا من بيوتهم وشردوا من ديارهم وطردوا من أوطانهم بغير حق ، كما حصل لأهل فلسطين في هذا القرن العشرين . فالجهاد في هذه الحالة ليس جائزاً ومشروعاً فحسب ، بل هو من أولى الواجبات الدينية والوطنية والاجتماعية ، ومن مقومات حياة الدول ، ودعائم كرامة الأوطان والمواطنين جميعاً .

غير أن القتال ، إذا جاز ووجب في سبيل دفع العدوان ، فإنه لا يجوز ابتداء ولا اعتداء ، كما لا يجوز قتال من ألقى السَّلَم ورد الغصب وكف عن الحرب ، ولا قتال غير المحاربين من النساء والشيوخ والمرضى . فالآيات القرآنية صريحة بتحريم الحرب العدوانية . وكلها محكمة ، ليس فيهما ناسخ

---

(١) سورة البقرة (٢) ١٩٠ و ١٩٤ .
(٢) الحج (٢٢) ٣٩ - ٤٠ .

ولا منسوخ . ولا تحتمل أي تأويل أو تفسير آخر ، في قول أهل العلم من الأقدمين والمحدثين[١] .

ثالثاً — منع الظلم :

علاقات الحياة الاجتماعية ، سواء أكانت بين الأفراد أم القبائل أم الدول ، إنما تبنى على العدل والتعاون في إنجاز هذا الهدف ، وعلى منع الظلم والإثم . وان القرآن الكريم قد حضّ الناس على تأدية هذا الواجب في آية عامة صريحة ، حوت الأمر والنهي الآتيين :

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »[٢] .

وهنالك أمثلة أخرى من القرآن الكريم ، توضح هذا التعاون في محاربة الظلم ، وذلك في آيات بينات هي :

« ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها . . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين »[٣] .

وواجب التعاون هذا ، في مكافحة الظلم والفساد في الأرض ، إنما هو نتيجة للأخوة الإنسانية ، وللتضامن الاجتماعي المفروض بين البشر . فكل اعتداء على أحدهم يعتبر موجهاً إليهم جميعاً ، ويوجب على الجميع التناصر لدفعه وإزالته . ويدل على هذا التضامن ما أوضحه القرآن الكريم في المثل الآتي :

---

(١) انظر بهذا المعنى قول فضيلة الشيخ محمد بهجة البيطار ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٩٦٦ ، ص ٥١٦ .

(٢) سورة المائدة (٥) ٢ .

(٣) سورة النساء (٤) ٧٥ ، والبقرة (٢) ٢٥١ .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . . . » (١) .

فظلم إسرائيل وأعوانها لأهالي فلسطين ، وجرائمهم الوحشية التي ارتكبوها ويرتكبونها كل يوم على مرأى من العالم أجمع ، وتحدياً للأمم المتحدة ولقراراتها ، لا تصيب الفلسطينيين وحدهم ، ولا العرب وحدهم ، ولا المسلمين والمسيحيين وحدهم . بل تصيب أبناء البشر جميعاً ، لأنها انتهاك للمبادىء الأساسية التي بني عليها العمران والشرائع جميعا . وعلى هؤلاء أن يتضامنوا لإزالته بالجهاد الإنساني الفعال ، لا بالحماسة الكلامية تلقى من على المنابر الدولية ، ولا بالنصوص المجرّدة تحبَّر في أوراق المواثيق الزائفة .

ولا بد من الإشارة إلى أن الحرب ، الدفاعية عن العدل والاحترازية من الظلم ، ليست مباحة عندما يقع العدوان أو الظلم على الدولة الإسلامية فحسب . بل هي تباع شرعاً أيضاً عندما تكون هذه الحرب مطلوبة لمساعدة دولة مظلومة أخرى حتى وإن كانت غير إسلامية . وتصبح هذه المساعدة واجبة إذا كانت مستندة إلى معاهدة للمساعدة المتبادلة ، عملاً بحرمة المعاهدات في الشرع ، المبنية على نص القرآن الكريم في آياته البينات . ومنها :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ... وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا » (٢) .

« إلاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » (٣) .

---

(١) سورة المائدة (٥) ٣٢ .
(٢) سورة النحل (١٦) ٩١ ، والإسراء (١٧) ٣٤ .
(٣) سورة التوبة (٩) ٤ .

« وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير »[(١)] .

وهكذا ، نحن نرى أن التضامن لرفع الظلم واجب شرعاً ، لا سيما إذا كان مؤكداً بميثاق . فعندئذ يقدم الوفاء بالعهد حتى على التناصر بسبب الدين . فالحق يعلو ولا يعلى عليه ، ورفع الظلم واجب ، والجهاد في سبيل ذلك مفروض ومقدس .

وعلى الجملة ، ينبغي للجهاد أن يستوفي شروطه المفروضة ، وأن يتوافر فيه أحد مسوغاته الشرعية وغاياته النبيلة ، التي نوهنا بها ، وهي حماية الدين وأماكن العبادة ، ودفع العدوان عن الديار ، ومنع الظلم عن الناس . فهذا النوع من الجهاد ، المبني على مسوغه ومقتضياته الشرعية ، مقدس بكل معنى الكلمة . والقيام به أكبر الثواب في الدنيا والآخرة . فالتاريخ العربي خصص صفحاته المذهبة لسيرة النبي (ﷺ) ولأبطال العرب الميامين ، كما حفظ التاريخ الإنساني العام أنصع صفحاته لسير الأبطال من جميع الأمم .

ثم إن القرآن الكريم كرم المجاهدين بتنويه خاص ، وجعل جزاء الشهداء في سبيل الله الإقامة الخالدة في الجنة ، وفاقاً للآيتين :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون . . . ولا تحسبنّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون »[(٢)] .

---

(١) الأنفال (٨) ٧٢ .

(٢) سورة التوبة (٩) ١١١ ، وآل عمران (٣) ١٦٩ .

وكذلك أنزلت السنة النبوية الشريفة واجب الجهاد في سبيل الله بين أوائل الفروض المرغوب بها ، وذكرته مع أحب الأعمال إليه تعالى ، بعد الصلاة على وقتها ، ثم برّ الوالدين [١] . وقد جاء في الحديث الشريف : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » [٢] .

وهذا ، بلا مراء ، توكيد سام لبطولة من يضحي في سبيل المبادئ الروحية الخالدة ، والمثل الوطنية العليا ، وتقدير جدير لنضال من يذود عن عز الديار ، ومجد الوطن ، وكرامة المواطنين .

صبحي المحمصاني

---

(١) البخاري بشرح العيني ج ٥ ص ١٣ .
(٢) نفس المرجع ج ١٤ ص ١١٤ .

تطور النهضة الثقافية في بلاد الشام

والمجمع العلمي اللبناني

تمهيد

كثيراً ما لاحظت أن الباحثين في موضوع تاريخ الثقافة العربية يغفلون عن ذكر المجمع العلمي اللبناني . ويعود ذلك إلى قلة السنين التي قضاها هذا المجمع وإلى تقصيرنا ، نحن اللبنانيين في تدوين أعماله . وهي أعمال غير قليلة بالنسبة لعمره .

وقد رأيت أن أتلافى هذا التقصير على أن أتخذ هـذه المناسبة فرصة لعرض ناحية مهمة في تاريخنا ، وأعني بها ناحية تطور نهضتنا الثقافية في بلاد الشام على مرّ العصور حتى الآن وذلك بصورة موجزة تتناول الخطوط الكبرى فحسب رابطةً الأسباب بالمسببات .

العالم العربي خلال ثلاثة قرون

لما وضعت كتابي « العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب » الذي صدر سنة ١٩٥٧ جعلت هذا العنوان عنواناً للفصل الثالث منه . حيث بيّنت بالأدلة أن القرون الثلاثة التي تبدأ بمطلع القرن الثامن الميلادي وتنتهي بختام القرن العاشر منه كانت قروناً ذات طابع عربي في العالم سواء أكان ذلك في النواحي السياسية والتجارية والصناعية ، أم في النواحي الصناعية

والزراعية والثقافية ، وأنها كانت كلها تقتبس من معين الحضارة العربية . ثم جعلت عنوان الفصل الرابع « أين من سادوا وشادوا وبنوا ؟ » يتناول انهيار العرب ، وتغلب الأعاجم عليهم إلى أن استأثر بالحكم آل عثمان . وليس المجال فسيحاً في هذا المقال للتبسط في جميع أطراف هذا الموضوع ، وإنما أكتفي بالناحية الثقافية منه ، وبالخطوط البارزة من هـذه الناحية ، فقط ، وذلك نتيجة للأحداث السياسية .

الحملات الصليبية على سورية وما حولها

لقد دعا كل من البابا سيلفستر الثاني في سنة ٣٩٣ هـ = ١٠٠٢ م والبابا غريغوار السابع في عام ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م ، ملوك أوروبا وأصحاب الاقطاعات لتخليص بيت المقدس . ولكن دعوتيهما ذهبتا أدراج الرياح . حتى إذا ما شب الخصام بين الأسرة السلجوقية بعد موت السلطان ملكشاه ونشبت الحروب بينها وبعد نحو عشرين سنة من هاتين الدعوتين كانت صرخة ناسك فقير هناك كافية لجمع كلمة الاوروبيين من أجل انقاذ قبر المسيح . وقد حملوا على بلاد الشام ثماني حملات كانت أولاها في سنة ٤٠٩ هـ = ١٠٩٦ م ، والأخيرة منها في سنة ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م .

وبين هذه وتلك استقر الصليبيون في بلاد الشام مدة طويلة ، وتسلطوا على بيت المقدس إلى أن تصدى لهم ، عقب الحملة الصليبية الثالثة ، صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر والشام (٥٣٢ — ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ — ١١٩٣ م) وأخرجهم من فلسطين وما حولها ، ثم كان للمماليك البحرية خلفاء الأيوبيين بمصر شرف صد الحملات الصليبية الأخرى عن مصر ، وإخراجها من كافة بلاد الشام .

غير أن هذه البلاد وأعني بها سورية ظلت نحو جيلين دار حرب فكسد فيها سوق العلم والأدب ، ولولا الحاجة الماسة إلى العلوم الدينية لانصرف الناس عنها أيضاً . هذا فضلاً عن أن أكثر بيوت العلم قد أقفلت في تلك الحقبة ، وأن المكتبات قد احرقت بفعل تلك الحرب . وحسبنا أن نذكر أن مكتبة طرابلس التي أحرقت في عهد الصليبيين ، أو أحرقوها ، كانت على ما قيل تحفل بثلاثة ملايين مخطوطة . وكل ذلك كان من أسباب ذبول الحضارة العربية في المشرق .

الحملات المغولية على بلاد الإسلام

وجاءت النكبة الثانية على الحضارة العربية من المشرق فأودت بها . ففي غضون الحروب الصليبية خف المغول إلى اكتساح بلاد الشام . وهم قوم غزاة كانوا ينزلون في منشوريا بين نهري سنكاري والأيرتس ولطالما هددوا الصين ، وتعرضوا لها حتى اضطر أحد أباطرتها شي هنغ تي لتشييد السور الكبير ، ابتداء من سنة ٢٤٠ إلى سنة ٢١٠ ق م ليكون سداً بين بلاده وبين هؤلاء المنشوريين . وهو على ما أثبت بكتابي « الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية كأنك تراهما » ، وذلك بعد زيارتي له نفس سد ذي القرنين الوارد ذكره في القرآن الكريم . غير أن هذا السور لم يقوَ فيما بعد على دفع غارات المغول ، بل إن ملكهم جنكيز خان الذي أنشأ امبراطورية كانت تمتد من بحر اليابان إلى بحر قزوين تمداه إلى الصين وفرض على حكومتها الشرقية جعلا لقاء حراسة الحدود ، كما أن ولده كوبيلاي نقل عاصمة بلاده من قره كروم إلى بكين .

وكان جنكيز خان يرنو بعين الطمع إلى بلاد الإسلام لما بلغه عن خيراتها وعمرانها ثم لما علمه من تنازع ملوك الترك في أطرافها ، وبالإضافة إلى

ضعف الخلفاء العباسيين الذين لم يترك لهم هؤلاء الأعاجم إلا السلطة الروحية فتقدم إليها حتى استولى على تركستان . ولكن الأجل عاجله قبل أن يدرك أمنيته من البلاد العربية . ولما بويع الخان منكو بن طولي ، سنة ١٢٤٦ م ، عهد إلى قائده هولاكو فتح بغداد ، كما عهد إلى قادة آخرين اكتساح أقاليم أخرى .

وقد أرسل هذا الخان وفداً إلى لويس التاسع ملك فرنسا في قبرص ، وهو قائد الحملة الصليبية السابعة يدعوه فيها للاتفاق بينهما على المسلمين ، كما أن عطف هولاكو على النصارى إذ كانت أمه وزوجته مسيحيتين أغرى البابا اسكندر الرابع بدعوته إلى اعتناق دين المسيح لقاء وعد منه بمساعدته على المسلمين ، ولكن هولاكو استنكر هذه الدعوة ، وبقي على دين بوذا وعلى الرغم من وحدة الهدف بينهما فلم يصلا إلى توحيد العمل وانما اقتصرت العلاقات بينهما على التواد والتعاطف .

ولما دخل هولاكو بغداد ، سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م ، قتل المغول ما يزيد على مليون رجل فيها ، وألقوا في دجلة كتبها وكانت ، على قول مجلة الهلال (م ١٩ ص ٣٩٢) : « شيئاً لا يعبر عنه » ثم لما استتب له الأمر فيها سيَّر جنوده إلى فتح الشام ، وقد تمكنوا من الاستيلاء عليها حتى بلغوا غزة ، غير أنهم لم يتعرضوا للثغور التي كانت لا تزال في حوزة الصليبيين ، وأهمها أنطاكية ويافا وعكا . أما فظائعهم فيها ولا سيما في حلب فعلى قول ابن العبري تجاوزت الحد الذي ارتكبوه في العراق . وكان أشدها تعرضهم للمكتبات التي كانت زينة الحضارة العربية وقوامها .

نتائج الحملات الصليبية والحروب المغولية فى الناحية الثقافية

« إن الملوك إذا دخلوا قرية جعلوا عاليها سافلها » . فيكفي القول ان بلاد الشام كانت دار حرب تتناوشها من الشرق والغرب طوال ثلاثة قرون ونصف القرن ، أي من مطلع القرن الحادي عشر للميلاد إلى أواسط القرن الثالث عشر ، يكفي هذا القول لتقدير سوء أحوالها المادية والمعنوية فضلاً عن الثقافية . ولا سيما إذا أضفنا إلى ذلك الحروب الداخلية بين الأسرة السلجوقية ، ثم بين آل زنكي وآل أيوب ، ناهيك بالفتن الطائفية بين السنة والشيعة . فكان من حصيلة كل ذلك اندراس المكتبات ، وإقفال المدارس ، وضياع الأوقاف المحبوسة على تلك المدارس والأعمال الخيرية ، وتحطيم الأقلام ، ومحل القرائح . على أن هذه الكوارث لم تنته بانتهاء القرن الثالث عشر ، وإنما استمرت وبرزت على أشدها في مطلع القرن الخامس عشر بحملة تيمورلنك التركي على آل عثمان وعلى بلاد الشام فقضت على البقية الباقية من معالمها الثقافية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العلم كان قد التجأ بعد سقوط بغداد إلى مصر وسورية . وقد رعاه الأيوبيون بمصر والمماليك بعدهم فازدهر بمصر ، وانتعش ببلاد الشام التابعة لهم إلا أنهم طاردوا الفلسفة ولاحقوا ذويها . وفي ذلك الحين تناولت حلب علم الزعامة الثقافية من دمشق حتى قام فيها على رواية محمد كرد علي في خطط الشام « ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة » ، ولكن هذه المدارس وغيرها قضت عليها حملة تيمورلنك فأضاعت الشهباء ازدهارها .

وعلى كل حال فلولا تلك النهضة العلمية التي برزت بمصر خلال حكم بني أيوب وخلفائهم المماليك وشخوص الطلبة السوريين لتلقي العلم ولا سيما في أزهرها لاندرست الثقافة في بلاد الشام ، ولما بقي فيها عالم أو أديب في المعنى الصحيح . وعلى الرغم من أن كثرة العلماء أمسوا فيها من الحشويين الذين يختارون في التأويل الغريب المدسوس على الصريح المعقول ، ومن أن أكثر الأدباء أمسوا يعنون بالألفاظ الرنانة والعبارات المنمقة دون المعاني ، ودون توجيه الشعب للبناء والانطلاق فان البلاد لم يدركها القحط الكلي. بل ظهر فيها من العلماء والأدباء نفر أتيح لهم أن يتمتعوا بالشهرة كابن عساكر المتوفى سنة ٦١٦ هـ ، وابن الفارض ٦٣٥ ، وابن الأثير ٦٣٧ ، وابن تيمية المولود سنة ٦٦١ هـ .

عهد السلطنة العثمانية

كان من المفروض في بني عثمان الذين أتيح لهم أن يقيموا امبراطورية عظيمة على أنقاض الممالك العربية وعلى أنقـاض الامبراطورية البيزنطية التي كانت في ذلك العصر منارة العلم في الغرب ، كان من المفروض فيهم أن يستغلوا مخلفات هاتين الأمتين وأن يعطوا العالم حضارة جديدة أو أن يسيروا على الأقل في مواكب التمدن الحديث . ولكنهم باستثناء سلاطينهم الأولين ، الذين قلدوا الخلفـاء العباسيين برعاية العلم والأدب ، وتحلوا بها ، انصرفوا عن كل ذلك إلى حروب كانت غايتها في البداية التوسع في أوروبا ، وكان هدفها في النهاية الحفاظ على مكاسبهم الحربية ، ثم الدفاع عنها تجاه الاتحاد الأوروبي المقدس الذي أبرم ضدهم . وبهذا وذاك ظلوا بعيدين عن العلم والأدب ، فما حافظوا على ما ورثوه من العرب ، وما اقتبسوا التمدن الحديث من

الغرب إلا بعد أن أشرفت دولتهم على الانهيار . على أنهم ما إن فكروا في وجوب الخروج من نطاق الجمود ومباشرة الإصلاح حتى كان هدفهم ينحصر في الشؤون العسكرية فحسب . فأنشأ السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ م — ١٧٧٤) مدرسة الفنون الحربية . ولكن السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ م — ١٨٣٩) ما إن أتيح له القضاء على الانكشارية ، هذه الطغمة التي كانت تقف في وجه التجدد ، حتى أراد الانطلاق في سبيل الاقتباس من أوروبا . وفضلاً عن بنائه المعهد الطبي باستامبول فقد أوفد بعثة من الطلبة للتخصص في معاهد أوروبا . كما أن خلفاءه شرعوا يعنون بالولايات . ولكن عنايتهم هذه كانت لا تتجاوز إنشاء مدارس إعدادية وعسكرية كانت الغاية منها إعداد الموظفين للحكومة ، وإعداد الضباط للجيش .

وأما الشعب فلم يكن أحد منهم يهتم به . وهو ، وفي مقدمته العرب ، كان قد استيقظ من سباته بالتماس مع العالم الغربي بالمدارس والتجارة والهجرة ، وأصبح توافاً للمعرفة ومجاراة الركب العالمي فلم يسعه إلا الإقبال على المدارس التبشيرية المختلفة التي انتشرت في كل مكان علاوة على المدارس الخاصة التي أنشأتها الطوائف . فكانت العاقبة أن رعايا السلطنة العثمانية ، الذين هم في الأصل لا يشكلون وحدة قومية ، أمسوا كتلاً متباينة الأهداف في السياسة ومتباعدة في النطاق العلمي . وكل ذلك أفضى في النهاية إلى متاعب واجهتها السلطنة عجلت في زوالها :

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة   وغاب عنها تولى رعيها الأسد

النهضة الثقافية الحديثة في الشام :

أثر اختلاط الغرب بالمسلمين في بلاد الشام ، والأندلس وصقليه ، وفي أعقاب هجرة علماء بيزنطة إلى بلاده بعد فتح العثمانيين عاصمتهم القسطنطينية

سنة ٨٥٧ هـ = ١٤٥٧ م انتفض الغرب انتفاضة جبارة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر انتفاضة كانت منطلقاً لحياة جديدة في الأجيال اللاحقة. ولم تقتصر نهضته على الناحية الثقافية، وإنما تناولت الشؤون الاقتصادية، وتركزت على القوة العسكرية.

ولكن الغرب على الرغم من انصرافه إلى بناء مطرد لم ينس أبداً بيت المقدس. وآية ذلك أن ملك اسبانيا فيليب الثاني اكتسب فرصة وجود الأمير فخر الدين المعني الثاني في ضيافته بصقلية، وذلك في مطلع القرن السابع عشر، ليعرض عليه التعاون معه على طرد العثمانيين من البلاد المقدسة ولكن الأمير أبى واستنكر وفضل العودة إلى بلاده على التواطؤ مع الأجانب على دولته، وعلى مقدساته.

ثم لمّا جاء عهد الاستعمار وانتقلت المبادرة إلى الدول الأوروبية ظلت فلسطين ماثلة أمام أعين هذه الدول. ولا سيما منذ تداعت السلطنة العثمانية. وأصبحت كل واحدة منها تسعى لأن تؤمّن نصيبها من إرث الرجل المريض.

وقد وضعت اعتمادها على الإرساليات التبشيرية التي كانت بمثابة طلائع جيش الفتح لأن هـــذه الارساليات لم يكن يعهد إليها التبشير بواسطة المدارس فقط، وإنما كانت تعمل كدائرة استخبارات لتسهيل الفتح، والاعداد له بشتى الوسائل. ومهما يكن من أمر هذه الارساليات التي ترجع أولاها إلى عهد الأمير فخر الدين المعني المشار إليه فإنهـا ولا شك عملت لبعث نهضة ثقافية في سورية، ولا سيما بلبنان، رافقتها نهضة تجارية واجتماعية.

ثم كان لاحتلال نابليون بونابرت لمصر سنة ١٢١٣ هـ = ١٧٩٨ م أثر كبير في نهضة الشرق العربي، ذلك لأن هذا الفاتح الكبير استصحب معه لوادي النيل بعثة علمية فنية كانت حافلة بأشهر علماء فرنســـا. فوضعت التصاميم الاصلاحية وقامت ببعض المشاريع العمرانية التي كانت فيما بعد منطلقاً لنهضة

هذا المشرق الحديثة في عهد الأسرة العلوية ، وخيدويها ولا سيما في لبنان الذي ساهم أبناؤه في النهضة المصرية باكراً .

النهضة الثقافية في لبنان :

مذ عني الأوروبيون بطباعة الكتب العربية وترجمتها في مطلع القرن الخامس عشر بادروا إلى الاستعانة ببعض المثقفين من اللبنانيين ، ولا سيما رجال الاكليروس . فانتقل هؤلاء إلى روما ، وإلى أكثر العواصم الغربية والجنوبية ، وساهموا فيها بأعمال الترجمة والطبع والتدريس وقد تولى نفر منهم الوظائف . وسرعان ما كان ذلك حافزاً لهم وللمتخلفين منهم للالتفات إلى وطنهم ، فأنشأوا في عام ١٠٤٢ هـ = ١٦٣٢ م المدرسة الأولى في قرية حوقة ، والثانية في حلب عام ١٠٧٣ هـ = ١٦٦٢ م وكانت أولى المطابع تلك التي استجلبها البطريرك أثناسيوس دباس إلى حلب في مطلع القرن الثامن عشر . والثانية مطبعة الراهب الحلبي عبد الله زاخر في دير مار يوحنا الطبشة في الخنشارة بلبنان ، هذا وفي غضون تسابق الدول الأجنبية إلى فتح المدارس التبشيرية في المدن والقرى في كل من ولاية بيروت ومتصرفية لبنان وغيرهما أدرك البيروتيون ، وعلى رأسهم رجال الدين ، مغبة ترك تربية أولادهم لسواهم فخفت كل طائفة منهم لإنشاء المدارس الوطنية فاتحة أبوابها لجميع الطوائف .

وكان من نتيجة انتشار العلم في الساحل السوري على وجه عام ذلك الاقبال الشديد الذي برز من قبل مثقفي الشعب ، على المزيد من فتح المدارس وإصدار الصحف ، وإنشاء المطابع ، وقراءة الكتب وتأليفها . وقد رافق هذا الإقبال ميل من الشعب لتأليف الجمعيات ولا سيما الأدبية والخيرية منها ، ولكن الوضع العثماني لم يكن يشجعهم ولذلك اضطروا في البداية إلى اللجوء

للتعاون مع الأجانب ، الذين كانت تحميهم الامتيازات من أجل تأليف الجمعيات المنشودة . وقد ألف بعض علماء بيروت وأدبائها سنة ١٨٥٨ بالتعاون مع بعض المرسلين الأميركان « الجمعية العلمية السورية » التي كانت غايتها الاهتمام بنشر المعرفة . وخدمة الأدب فعاشت نحو سبع سنين . ثم لم تلبث أن عادت للحياة في عام ١٨٦٧ ، وأصدرت مجلة باسم مجلة مجموع العلوم . ولكن هذه الجمعية لم تعش طويلاً .

وفي أعقاب ذلك تبدل الوضع في سورية حينما نصب مدحت باشا الملقب بأبي الدستور والياً عليها سنة ١٨٧٩ م . فهو إذ كان يطمع بالاستقلال في بلاد الشام على غرار خيديوية مصر وذلك بتشجيع فرنسا ، فشرع يتحبب إلى أهلها فأطلق لهم شيئاً كثيراً من الحرية . وكان الجو الذي بدا في أيام ولايته وما بعدها مشجعاً لبعض أهل العلم والأدب من البيروتيين لأن يؤلفوا المجمع العلمي الشرقي سنة ١٨٨١ م بالاستقلال عن الأجانب . ولعلهم اختاروا هذا الاسم لجمعيتهم من قبيل التمثل بالأوروبيين ومجامعهم العلمية . ولكن هذا المجمع لم يكمل العامين من العمر . فانبرى بعيد ذلك المطران يوسف الدبس لإنشاء الدائرة العلمية المارونية برياسته . ولم تكن أطول عمراً من سابقاتها . ذلك بأن السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ — ١٩٠٩ م) لم يكن يرتاح للتكتلات الشعبية الأمر الذي أدى إلى انحلال الجمعيات الخيرية أيضاً ، وفي مقدمتها جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية . ولولا أن جمعية شمس البر الأدبية كانت تستند إلى رعاية الأميركان وحمايتهم لما عاشت حتى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨ م) . ولا بدع فلقد كان عهد هذا السلطان شديد الحذر من مؤامرات الدول الأجنبية التي كانت تحاك حوله . ولذلك فلم يكن يطمئن لشعبه الذي تخرج في المدارس الأجنبية .

وهذا الخوف من الداخل والخارج حمله على التشديد في المراقبة والمعاقبة على الشبهات أحياناً . من ذلك أن شاعراً بيروتياً ، وأظنه مصباح البربير نظم قصيدة غزلية كان مطلعها :

ان حبي كل يوم في ازدياد والهوى يأتي على غير المراد

فقامت قيامـة الولاية في بيروت ، وانتصب الميزان . لماذا ؟ — لأن للسلطان أخاً اسمه مراد كان قد اتهم بالخبل فخلع وبويع السلطان عبد الحميد مكانه . ومن هنا اتهم الشاعر بأنه يعرّض بالعاهل المخلوع ، وسيق للمحاكمة .

وفي عهد كهذا ليس من المنتظر أن تتألف الجمعيـات ، وإذا تألفت لم يكن من المقدر لها أن تعيش .

* * *

المجمع العلمي اللبناني

حفل لبنان في صدر القرن العشرين بحملة الشهادات العليا من خريجي المعاهد والمدارس الموفورة فيه ، ومن خريجي جامعات الغرب ، ولما أصبح له شبه كيان سياسي في عهد الانتداب الفرنسي بالقانون الأساسي والحكم الدستوري اتجهت أنظار الطبقة المثقفة فيه إلى أن تكون لها هيئة تمثل وجه وطنهـا الثقافي ، وذلك بإنشاء مجمع علمي أسوة بسورية منذ عام ١٩١٩ ، فرفعت أصواتها مطالبة بهذا المجمع . وكان الشيخ ابراهيم المنذر الأديب الكبير عضواً في المجلس النيابي اللبناني فأثار هذا الموضوع ، ثم كانت له وقفات حوله قوية خلال عام ١٩٢٧ سرعان ما أثمرت . فقرر المجلس إنشاء المجمع المنشود على الرغم من أن الانتداب ، الذي كان يشجع اللغة العامية بلبنان ضمن نطاق تبعيده عن شقيقاته ، لم يكن راضياً عن هذا العمل . واستناداً إلى قرار المجلس المذكور أصدر رئيس الجمهورية الأستاذ شارل دباس قانوناً بإنشاء

مجمع علمي لبناني وذلك في ٢٠ شباط ١٩٢٨ غايته المحافظة على اللغة العربية ، ورفع شأنها ، والعناية بالمباحث والأعمال المتعلقة بأصولها وآدابها ، والحفاظ على الآثار ، ودراسة تاريخ لبنان وجغرافيته ، وغير ذلك مما يتعلق بإدارة الشؤون العلمية وتنظيمها ، وأصدر مرسوماً آخر بتعيين السادة الآتية أسماؤهم أعضاء لهذا المجمع : الشيخ ابراهيم المنذر ، والشيخ عبد الله البستاني ، والشيخ أمين تقي الدين [1] ، والشيخ منير عسيران ، والشيخ محمد الحسيني ، والأستاذ بولس خولي ، والبطريرك أغناطيوس أفرام الرحماني ، والشيخ عبد الرحمن سلام ، والخوري بولس عبود ، والأستاذ وديع عقل ، والأستاذ الياس فياض ، والشيخ أحمد عمر المحمصاني ، والأستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، والأب لويس المعلوف ، والشيخ حسين مغنية .

وفي التاسع من شهر آذار ١٩٢٨ افتتح المجلس أعماله بحضور الشيخ بشارة خليل الخوري رئيس الوزراء الذي كان وزيراً للتربية الوطنية ، وانتخب مكتبه التنفيذي على الوجه التالي : الشيخ عبد الله البستاني رئيساً ، والشيخ أحمد عمر المحمصاني ، والأستاذ وديع عقل ، معاونين للرئيس . وقد اتخذ المجمع في أول الأمر وزارة المعارف والتربية الوطنية مقراً له ، ثم انتقل إلى دار الكتب الوطنية ، ووالى اجتماعاته فيها إلى أن استقل في دار له خاصة .

وقد حالت بعض الأسباب دون اشتراك السادة عبد الله البستاني والأب لويس معلوف ، والأستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، والشيخ محمد الحسيني ، والشيخ حسين مغنية في جلسات المجمع الأولى فقرر هذا اعتبارهم أعضاء مراسلين وانتخب بدلاً عنهم السادة : الشيخ علي زين ، والخوري جرجي

---

(١) وهم من المشايخ المدنيين الذين تحمل أسرهم هذا اللقب .

ستيتي « الذي أصبح من بعد مطران السريان بدمشق » ، وجرجي صفا ، وأسد رستم ، ومحمد جميل بيهم . ونتيجة لهذا التبديل اجتمع المجمع في ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٨ وانتخب الاستاذ وديع عقل رئيساً له ، والياس بك فياض والشيخ ابراهيم المنذر معاونين وذلك لمدة عام . وقد وضع المجمع خلاله نظامه الداخلي .

ولما أزف موعد الانتخاب في السنة التالية ، وشعرت السلطة بأن نية أكثر أعضاء المجمع منصرفة لانتخابي للرياسة تحركت فوراً لأني كنت من أشد المعارضين بلبنان للانتداب ، والمنادين بالوحدة العربية . وقد عهدت إلى الشيخ بشير الخوري المندوب من وزارة المعارف للإشراف على الانتخابات للسعي لتوجيه الأعضاء إلى تجديد الرياسة للأستاذ وديع عقل ، وذلك في جلسة الانتخاب المحددة في ١٨ تشرين الأول ١٩٢٩ ولما باءت مساعيه بالفشل تحول بكليته إليّ ، وشرع يقنعني بالتخلي عن الرياسة للأستاذ عقل لسنة أخرى على أن أعلن ذلك لزملائي . فكان جوابي له : « أني لم أكلف أحداً منهم أن ينتخبني ، كما أني لا أعلم من هو المرشح عند كل منهم ، فكيف يسوغ لي من بعد أن أطلب منهم أن لا ينتخبوني لمنصب الرياسة فأعرّض نفسي لقول قائل : من أخبرك أني مزمع أن أصوت لك ؟ . » ولما استولى عليه اليأس أجل الانتخاب ريثما يقابل نسيبه الرئيس الشيخ بشارة الخوري . ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى عاد حاملاً إليّ بشرى الوعد بتعييني وزيراً للمعارف والتربية الوطنية إذا تخليت عن رياسة المجمع . فقلت له مبتسماً « أنت تعلم يا شيخي أني لست من طلاب الوظائف ، كما تعلم أيضاً ، مما نشرته الصحف في حينه ، أني كلفت بإشغال مناصب عالية من قبل فرفضت التعاون مع العهد ، فكيف تريدني التحول الآن عن مبدأي ؟ فما وسع البشير إلا السكوت على مضض . ولما جرى الانتخاب يومئذ أسفر عن إحرازي معظم الأصوات

الرئاسة ، وعن انتخاب الشيخ إبراهيم المنذر والأستاذ سعيد عقل معاونين لها . وهنا مجال للتنويه بالأستاذ عقل هذا الرجل الوطني الموهوب ، ذلك لأنه تعاون معي في نطاق خدمة المجمع ، وكأن شيئاً لم يقع من قبل ، وكرس جريدته الراصد للتكلم بلسانه .

وكان أول عمل باشره المجمع بعد ذلك تطبيق نظامه الداخلي الموضوع في العام الفائت بتوزيع أعضائه على أربع لجان عهد إلى كل منها أن تعمل بجد ونشاط ضمن نطاق المهمة الموكولة إليها وهي :

اللجنة الأولى « الإدارية » : ومهمتها القيام بالأعمال الإدارية ، وتحضير الموازنة المالية كل عام . وكانت تتألف من السادة : محمد جميل بيهم ووديع عقل وإبراهيم المنذر .

اللجنة الثانية « اللغوية » : ومهمتها التدقيق في وضع الكلمات والمصطلحات للمعاني العلمية الجديدة والمسميات الحديثة . والتعاون مع المجامع العلمية العربية الأخرى توصلاً لوضع معجم يوفي حاجة العصر . وكانت تتألف من الشيخ منير عسيران ، والشيخ ابراهيم المنذر ، والياس بك فياض ، والشيخ أمين تقي الدين .

اللجنة الثالثة « لجنة التاريخ والجغرافيا » : التي عهد إليها بالإضافة إلى التحقيقات التاريخية وضع معجم جغرافي للبنان على أسلوب علمي حديث . وكانت تتألف من الأساتذة أسد رستم ، وبولس الخولي ، والخوري جرجس ستيتي ، والسيد علي زين ، ومحمد جميل بيهم .

اللجنة الرابعة « لجنة المخطوطات » : التي عهد إليها وضع إحصاء عام للمخطوطات العربية في الجمهورية اللبنانية ، وترتيب تدوينها على طريقة علمية تسهيلاً لمراجعتها . وكان قوامها الشيخ أحمد عمر المحمصاني ، والشيخ عبد الرحمن سلام ، وجرجس بك صفا .

وقد قامت هذه اللجان بما عهد إليها على خير وجه في جو من التعاون والوئام ورفعت إلى المجمع تقاريرهـــا لتكون أساساً للبحث والإقرار ، ومن ثم للتنفيذ .

١ — تقرير اللجنة الإدارية :

تناول التقرير الأوضاع العلمية والأدبية في البلاد العربية ولا سيما لبنان كما تناول إنشاء المجمع العلمي اللبناني وأعماله منذ نشأته حتى ذلك التاريخ ، وأشار إلى ما عقد العزم على تحقيقه في تلك السنة وما بعدها . ولا سيما في حقل توثيق العلاقات بينه وبين المجامع العربية الأخرى . كما أنه أشار إلى بعض الدعوات الخـارجية التي وردت له ، وعلى رأسها دعوة المجمع الأدبي العام في باريس .

٢ — تقرير اللجنـة اللغوية :

بعد أن أكد التقرير ضرورة التعاون مع سائر المجامع العلمية العربية ، وبعد أن أشار إلى آراء طائفة من أكابر كتاب العرب بشأن إصلاح اللغة توصلت اللجنة إلى الاستنتاج بأن هؤلاء على خلاف في وجهة السير . فبينما أن بعضهم يقبل بما يقرره الأفراد المعنيون باللغة فان البعض الآخر كان يرى أن للمجامع وحدها الحق في وضع الكلمات الجديدة . وقال التقرير في التعليق على ذلك بناء على ما تقدم رأى المجمع العلمي اللبناني قبل أن يجزم في هذا الشأن أن ينتدب رئيسه الحالي الأستاذ جميل بيهم فيقصد مصر ، ومصر اليوم قلب العالم العربي النابض ، ويسعى لإيجـاد صلة بين الهيئات اللغوية والمجامع العلمية في الأقطار العربية تمهيداً لعقد مؤتمر عام يجتمع في كل سنة لأجل التعاون والتفاهم على الطرق السوية لترقية اللغة العربية .

« ولقد سافر الأستاذ الرئيس إلى مصر فقابل وزير المعارف ، وصاحب الدولة مصطفى النحاس باشا وبسط لهما مهمته فلقي منهما الارتياح التـام . ثم أخذ يبث الدعوة بين جمهور المفكرين العاملين . وساعده على ذلك بعض أهل الفضل والوجاهة بما عقدوا من حفلات لهذه الغـاية . وقبل مغادرته مصر تألفت لجنة في القاهرة من كبار مفكريها وعلمائها جعلت همها السعي لتحقيق هذه الغاية . ولم يطل العهد حتى نقلت إلينا الصحف البشرى بإنشاء المجمع المصري للثقافة العلمية وترقية اللغة العربية » .

وبعد أن أشار التقرير إلى البيان الوافي الذي وضعه سنة ١٩٢٨ م الشيخان عبد الرحمن سلام ، وأحمد عمر المحمصاني في كيفية المحافظة على اللغة العربية ، وأوجزاه ، قالا في الختام : « لذلك نرى أن باب الاشتقاق في اللغة العربية يجب أن يفتح على مصراعيه توصلاً إلى استخدام الأفعال والأسماء والصفات المتعلقة بها حسب مقتضيات العصر ، فيتسع بذلك مجال الإنشاء ، ولا يعاني طلاب العلم والكتـاب ما يعانون من المشـــاق والمصاعب . » ومضى يقول « وسننظر فوق ما تقدم في أصول اللغة ، أي قواعدها الأساسية المتخذة حجة لصحة الكتابة والإنشـاء . وهي في كل فرع من فروع الصرف والنحو والعروض والبيان وغيرها لا تزال على حالها منذ وضعها الأئمة لم يطرح منها باب ، ولا عدلت قاعدة لذلك شق تحصيلها على طلابها لأنهم رزحوا تحت أعبائها ، وضاعوا بين المؤلفات الضخمة ، والآراء المتباينة ، والقواعد المعقدة التي يجب أن تطرح من كتب اللغة تسهيلاً لتناولها . ولا يخفى ما في تحقيق هذه الأمنية من الصعوبة تجاه المتفننين . ونحن نتوخى في كل حال المحافظة على عظمتها وتعابيرها الشائقة مستعينين بأقطابها المدققين العاملين الضاربين في مشارق الأرض ومغاربها . »

٣ — تقرير لجنة التاريخ والجغرافيا :

أشار التقرير إلى اهتمام اللجنة بتاريخ لبنان وجغرافيته ليقف المواطن على أحوال بلاده وقوفاً صحيحاً ويلم بكل ما فيها من المعالم والآثار بالإضافة إلى تراجم كبار اللبنانيين الذين تركوا خير ذكر في العلم والأدب أو الوجاهة مع العمل البناء . ثم مضى يقول :

« لما كان العالم العربي في الشرق والغرب في حاجة إلى المجامع الكاملة عن بلاده ترى اللجنة أن يعنى المجمع في بدء أعماله ، عناية خاصة بوضع معجم جغرافي لجميع البلدان والقرى والمزارع والأنهار والجبال في الجمهورية اللبنانية ، وأن يكون لهذا المعجم الجغرافي مقدمات عامة في جغرافية لبنان السياسية والاقتصادية والتاريخية مصحوبة ببعض مباحث في جيولوجية لبنان ومناخه ونباته وحيوانه وذلك بالاستعانة بفريق من أساتذة الجامعتين الأميركية والفرنسية في بيروت . فطلبنا إلى حضرة الأب هنري لامنس اليسوعي أن يتولى كتابة المقدمة التي تتعلق بجغرافية لبنان التاريخية ، وإلى الأب جبرائيل لوفتك أن يكتب مقالة في جغرافية الجبل الاقتصادية كما أنا رغبنا إلى بعض أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت ، وهم الفريد داي ، ويوليوى برون ، والدكتور ويليم ڤانديك الكتابة في جيولوجية لبنان ومناخه وحيواناته ونباته ومياهه . وأما القسم الأكبر من العمل في هذا المعجم ، وهو جمع حقائق عامة في الجغرافيا والتاريخ عن البلدان والقرى والمزارع اللبنانية ، وترتيب هذه المباحث وتنسيقها وضبطها فقد شرعت به هذه اللجنة وطبعت جداول تمهيدية لوضع القاموس العام . وفي كل منها حقول متنوعة تتناول المدن والقرى وعدد النفوس فيها ، والمذاهب ، والأنهار والينابيع والجبال والمناجم .

والمعابد والمقامات والمعامل والمعاهد العلمية ، ومواطن الآثار ، وأهم الحاصلات الزراعية والمنتوجات الوطنية إلى غير ذلك من الشؤون عدا أماكن الاصطياف . ورفعنا هذه الجداول إلى وزارة الداخلية الجليلة لتأمر بتوزيعها على المحافظين والمديرين والمختارين في الجمهورية اللبنانية . وقد أعيدت الجداول المذكورة ، معبئة ، وعهد بها إلى هذه اللجنة لتصحيح ما يحتاج التصحيح . ولتنسيقها . »

٤ — تقرير لجنة المخطوطات العربية القديمة :

أشار التقرير إلى الصعوبات التي تعترض من ينقب عن هذه المخطوطات ، ولا سيما لأن أكثرها موزع على مكتبات خاصة لم تعمل بعد أيدي الباحثين إلى التحري عنها . وأكثرها غير معروف ثم بينت اللجنة أنها بدأت بإحصاء ما في مدينة بيروت ، وأنها ستشرع من بعد في البحث عما يوجد في غيرها من المخطوطات حتى إذا اكتمل العمل تنظم منه معجم محيط ليسهل الرجوع إليه على أن يشمل هذا المعجم إشارة إلى موضوع كل كتاب ، وإلى الزمن الذي وضع فيه ، وإذا كانت له مزية أخرى . وختمتْ اللجنة التقرير بذكر ما أحصته في مكاتب بيروت الكبرى من المخطوطات فكان كما يلي :

مكتبة الجامعة الأميركية	١٨٣	مجلدا	و	١٣٤	رسالة
مكتبة الآباء اليسوعيين	٢٤٥	مجلدا	و	٠٤٤	رسالة
دار الكتب الوطنية	٠٤٨	مجلدا	و	٠٢٠	رسالة
	٤٧٦			١٩٨	

وفي هذه المناسبة يطيب لي أن أذكر أن مكتبة المخطوطات في داري تحتوي على ٤١ مخطوطة بعضها ليس له نسخة ثانية في المكتبات الأخرى .

إلى الأمام في خدمة العرب والعربية :

وقد استمع المجمع إلى تقارير لجانه وناقشها ، وحث أعضاءها على المزيد من النشاط حباً بالقيام بالتبعة الملقاة عليهم على خير وجه . وقرر في الجلسة التي عقدها يوم ٢٩ آذار ١٩٢٩ تكليفي بأن أفاوض المجمع العلمي العربي بدمشق من أجل التعاون على تحقيق فكرة المؤتمر اللغوي العام الذي كنت دعوت إليه في مصر فأنجزت ما تقرر .

هذا وكانت جريدة البرق نشرت مقالاً لصاحبها (الأخطل الصغير) الأستاذ بشارة الخوري اقترح به على المجمع إكمال دائرة المعارف التي أصدر بعض أجزائها الأستاذ بطرس البستاني قبل حين ، فرحب المجمع بهذا الاقتراح وفوض إلى اثنين من أعضائه : الشيخ عبد الرحمن سلام والأستاذ جرجس صفا ، لدرس هذا الموضوع وليقدم كل منهما تقريراً في الوسائل التي يمكن بها تحقيق هذا الاقتراح . وفضلاً عن ذلك فقد قرر إنشاء نادٍ يشتمل على مكتبة عامة ، ومجلة عربية على أن يجعل من هذا النادي داراً للمحاضرات . ومحجاً لطلاب المعرفة .

إلغاء المجمع العلمي اللبناني :

كان بين الأستاذين المحاميين أميل اده والشيخ بشارة الخوري تنافس على الرياسات في عهد الانتداب وبعده . فلما خلف الأستاذ اده الشيخ بشارة على رياسة الوزارة ، وهو رائد من رواد عزلة لبنان واعتماده على فرنسا لم ترق له اتصالات المجمع العلمي اللبناني بالمجامع العلمية واللغوية العربية . لذلك فوجئ المجمع في عهده بمرسوم صادر عن رياسة الجمهورية مؤرخ في

٣ شباط ١٩٣٠ يقضي بإلغائه تحت ستار التوفير على الخزينة . فكان لهذا المرسوم أثر سيء ، ولا سيما على أعضائه الذين كانوا يوفون الخدمة حقها ، لا يريدون جزاءً ولا شكوراً ، فقدموا استدعاءً إلى وزارة الداخلية بطلب الترخيص لهم لمتابعة العمل باسم المجمع المذكور دون الاعتماد المالي . ولكن المجمع اضطر فيما بعد إلى التوقف لأن موسسة كهذه عليها ما عليها من النفقات لا يطول عمرها إذا لم تمدّها الحكومات بالمساعدة . ثم ما برح أعضاء المجمع ، الذين كانوا يشعرون بالفراغ ، يطالبون بإعادته ، وقد استجاب لهم المجلس النيابي عام ١٩٤٤ . وقرر تخصيص مبلغ من المال لإعادة المجمع . ولكن الحكومات المتتابعة ضربت صفحاً عنه فقضى نحبه هكذا قبل القطاف .

(بيروت) محمد جميل بيهم

العلم القديم

بين الشرق والغرب

نَعْني بالعلم القديم — أو بالفلسفة القديمة ، إذا شئت — ذلك العلمَ الذي كان قبل الإسلام . لا شكّ في أن العلم قديم قِدَمَ الإنسان ، غير أن تاريخ العلم متأخّر عن نشأة العلم لأن جانباً كبيراً جدًّا من ذلك العلم القديم قد ضاع ، كما ضاع جانب كبير من الشعر الجاهليّ وغير الجاهليّ عند العرب وعند غيرهم .

وحينما يأتي الدارسون اليوم إلى دراسة العلم والفلسفة فانّهم يبدأون بالدراسة المنظّمة الشاملة للعلم والفلسفة عند اليونان ، وربّما بدأ نفر منهم بنتف من العلم القديم قبل اليونان . فما سبب ذلك ؟ وإلى أيّ حدّ كان العلم القديم يونانيّاً غَرْبياً ؟ وإلى أي حدّ كان ذلك العلم شرقيّاً غير يوناني ؟

أقدم الذين وصلت إلينا أخبارهم من فلاسفة اليونان ثاليس الملطي . ولا ريب في أنه قد كان قبل ثاليس هذا فلاسفة وعلماء يونانيون لم تصل إلينا أخبار علمهم موثوقةً أو كثيرةً . فثاليس بالإضافة إلى الشعر العربي . كان ثاليس المَلَطيّ من مَلَطيَةَ ، على الجانب الغربي من آسية الصغرى وليس من بلاد اليونان القائمة في أوروبّة ، ولكنّه كان على كل حال يونانيّ النسب يونانيّ اللغة .

ويخبرنا ثاليس عن نفسه أنه زار بلاد مصر متعلّماً ، تعلّم هنالك الهندسة في الأكثر ، كما قيل إنه زار بلاد ما بين النهرين متعلماً أيضاً فتعلم هنالك

الفلك على الأكثر . ولو لم يقل لنا ثاليس ذلك كله عن نفسه لوجدناه مدوّناً في فلسفته وعلمه لا حجاب دونه .

أ — يرى ثاليس أن الماء أصل الوجود ، وأن الأرض لوح سابح على الماء . وهذا رأي مصري قديم جدّاً ، فالنون عند قدماء المصريين (النون هو الماء) مصدر الوجود حتى ان الله عندهم خرج من النون . والشمس في كل يوم تطلُع من الشرق ثمّ تغيب في الغرب في النون ، مارّةً فيه تحت الأرض ، حتى تستعيد نشاطها لتطلع في اليوم التالي نشيطة قوية .

ب — ويُنْسَبُ إلى ثاليس الملطيّ نظريّات في الهندسة منها أن مجموع الزوايا الثلاث في المثلث تساوي زاويتين قائمتين (مائة وثمانين درجة) ؛ ومن هذه النظريات أنّ قطر الدائرة يُنَصِّفُ الدائرة ، وأن الزاويتين المتقابلتين في المثلّث المتساوي الساقين متساويتان ؛ إذا تقاطع خطّان مستقيمان فكلّ زاويتين متقابلتين تتشكّل من تقاطعهما متساويتان . . .

لا ريب في أن ثاليس الملطيّ كان مهندساً (أو رياضيّاً ، كما يقال الآن) عبقرياً ، وأنه أول من أدرك الحاجة إلى تنظيم علم الهندسة (في نطاق التاريخ الذي وصلت إلينا أخباره) ، ولكن المعارف الهندسية التي تنكشف عنها هذه النظريات المنسوبة إلى ثاليس كانت معروفة عند قدماء المصريين من الناحية العلمية في بناء الأهرام والهياكل قبل أن تشرق شمس الحضارة على بلاد اليونان .

ج — ويبدو في تاريخ العلم أن ثاليس الملطي قد عرف المِزْولة (الساعة الشمسية ، وقيل إن الذي عرفها — أولَ ما عرفت في اليونان — كان أناكسمندروس تلميذ ثاليس) . على أن الراجح أن ثاليس (أو أناكسمندروس) قد أدخل المزولة إلى اليونان آتياً بها من بابل أو من مصر . ويجوز عندنا في تاريخ العلم أن يكون ثاليس أو تلميذه أناكسمندروس قد اخترع المزولة

ابتداء من عند نفسه ، فالمزولة أداة فطرية بسيطة لمعرفة أقسام الزمن بوساطة الشمس . ولكنّ الذي نعرفه من التاريخ القديم الثابت أن بابل ومصر والصين قد عرفت المزولة منذ العهد الأقدم .

ومن مشاهير المهندسين (علماء الرياضيّات والهندسة) في تاريخ اليونان فيثاغورس (ت ٥٠٣ ق . م) . يبدو أن فيثاغورس كان تلميذاً لثاليس . والذي نعلمه من حياته أنه غادر جزيرة ساموس مسقط رأسه وجاء إلى مصر وتعلم فيها على الكهّان في الهياكل . ثمّ إنه جاء إلى فينيقية (سورية الساحلية) ومكث فيها مدّة طويلة وعرف المذاهب الباطنية واعتنق بعضها . وكذلك يبدو أن ذلك قد حمله على أن يذهب (أو أن يذهب ثانية) إلى مصر لأن مصر كانت مصدر المذهب الباطني في ذلك الزمن فمكث في مصر مدّة لا تقلّ عن اثني وعشرين عاماً يدرس الهندسة والفلك والمذهب الباطني . ولما فتح قمبيز الفارسي مصر عاد فيثاغورس في ركابه إلى بابل حيث مكث اثني عشر عاماً يَدْرُس الحساب والموسيقى وعلوماً أخرى من علوم المجوس . ولمّا عاد فيثاغوس إلى ساموس كان قد أصبح في السادسة والخمسين من عمره . غير أن فيثاغورس وجد أن الأحوال السياسية في جزيرة ساموس لا تزال سيّئة فتابع طريقه إلى جنوبيّ ايطالية .

واشتهر فيثاغورس بانشاء جمعية سرّية في ايطالية ، كما نسب إليه وضع النظرية الهندسية المقرونة باسمه والتي تسمّى أيضاً نظرية السُلم (لأنّ السُلم الملقي أعلاه على الجدار يشكل مع الجدار والأرض التي بين أسفله وأسفل الجدار مثلثاً قائم الزاوية) . هذه النظرية تقول بأن المربع المنصوب على وتر المثلّث القائم الزاوية يساوي مجموع المربّعين المنصوبين على ضلعي ذلك المثلّث . واشتهر عن فيثاغورس قوله بالتناسخ (تقلّب النفس في أجسام أحياء كثيرة من النبات والحيوان والإنسان) . أمّا الجمعية السريّة وأمّا

التناسخ فأثر الشرق ظاهر فيها بلا شبهة . وأما النظريات الهندسية فالغالب أن له عدداً منها وأن العدد الأكبر منها من عمل آله (تلاميذه وأتباعه) . ومعظم هذه النظريات أقدم في الشرق (في مصر وبابل) من عهد فيثاغورس .

وتعلّق الفلاسفة اليونانيّون زماناً طويلاً ، بنظرية العناصر الأربعة (بأن الوجود مؤلّف من أربعِ عناصرَ هي الماء والهواء والتراب والنار) وأورثوا العالم الوسيط هذه النظرية الخاطئة . وهذه النظرية في الأصل نظرية هندية .

ونطوي أحقـــاب العلم والفلسفة في اليونان حتى نصل إلى أفلاطون (٤٢٩ — ٣٤٧ ق . م .) ولد أفلاطون في أثينة وطوّف كثيراً في الأرض وزار مصر . وفي مصر تنقّل أفلاطون بين الآثار والهياكل وأدرك فضل تلك الحضارة العريقة . وقد ترك لنا أفلاطون في كتاب تيماوس حواراً بين صولون الحكيم (اليونانيّ) وبين كاهن مصري جعل فيه الكاهن المصري كأنّه يتهكّم بحضارة اليونان الطفلة . من هذا الحوار :

الكاهن المصري : يا صولون ، يا صولون ، أنتم اليونانيّين أطفال أبدا . ليس ثمّة شيء يصح أن يسمّى « اليونان العتيقة » .

صولون : وما تعني بهذا القول ؟

الكاهن المصري : أنتم ذوو نفوس طفلة ، كلّ واحد منكم كذلك . انكم في اليونان كلّها لا تملكون مذهباً واحداً قديماً أو مستمدّاً من تُراث جلّله الكِبَرُ بالهيبة .

ليس من المعقول أن يكون هذا الكلام هزؤاً بالحضارة اليونانية ، ولكنّه احترام بالغ للحضارة المصرية القديمة . ثمّ إنّه معرفة بالحضارة المصرية القديمة . وهذا — بطبيعة الحال — تأثّر بالغ بالعلم الشرقيّ . وفي كثير من كتب أفلاطون — في كتاب **السياسة** (الذي يسميه كتّابنا الحديثون « **الجمهورية** »

تسمية خاطئة) ـ وفي كتاب النواميس شيء من العلم الشرقي ومن الأثر البارز للعلم الشرقيّ (من فارس وبابل) .

والأثر الشرقي في أرسطوطاليس (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م .) فيلسوف اليونان والفيلسوف المطلق ، قليل البروز ، ذلك لأنّ العمل الأساسي لأرسطو كان في تدوين الفلسفة التي وقعت إليه وتنسيقها ونقدها . غير أنّنا نجد عند أرسطو (أرسطوطاليس) عنصراً مهمّاً من هذا الأثر .

كان علماء اليونان الطبيعيّون قد أخذوا عن الهنود القول بالعناصر الأربعة ـ كما أشرنا آنفاً ـ ثمّ جاء لويكوبوس فردّ القول بالعناصر الأربعة وقال بأنّ الأجسام مؤلّفة من الذرّات . وخلف لويكوبوس تلميذه ديمقريطس (الذي مرّ ذكره) فوسّع القول بالذرّة . ومع أن قول لويكوبوس وتلميذه في الذرّة كان مزيجاً من العلم والخرافة فإنه كان أقرب إلى المعقول وإلى الواقع : إن الأجسام كلها مؤلفة من ذرّات ذات طبيعة واحدة . ولكنّ بعض الأجسام يختلف عن بعض لاختلاف الذرّات فيه بالحجم والعدد والترتيب (لا في النوع) . وجاء أرسطوطاليس فردّ القول اليوناني بالذرّة ورجع إلى القول الهندي (الشرقي) بالعناصر الأربعة . وكان ذلك خطأً من الأخطاء المشرين التي وقعت في فلسفة أرسطو أو التي وقع فيها أرسطو في فلسفته .

أمّا بعد أرسطو ـ وبعد حملة الاسكندر المقدوني (تلميذ أرسطو) على الشرق (في سورية ومصر والعراق وفارس والسند ـ غربيّ الهند) فانّ الحضارتين اليونانية والشرقية تمازجتا وأثّر بعضها في بعض تأثيراً كبيرا . وكان فعل الفكر الشرقيّ في الفكر اليوناني أكبر حتى استحال أن نسمّي العلم والفلسفة اللتين تلتا حملة الاسكندر علماً وفلسفة يونانيّين .

لا أستطيع الآن أن أستعرض تاريخ العلم والفلسفة هنا استعراضاً وافياً ، ولكن يكفي أن أشير إلى أنّ أقليدس صاحب الهندسة المشهور كان اسكندرانياً . وأنّ نيقوماخس صاحب كتاب المدخل إلى علم الحساب شرقيّ من عنجر في سهل البقاع من الشام (في الجمهورية اللبنانية اليوم) . وأفلوطين صاحب مذهب الفيض والإشراق مصري من أسيوط . ثم انّ بَطْلَيْموس صاحب كتاب المَجسطي في الفلك إسكندراني من مصر . غير أنّ هؤلاء جميعاً كتبوا باللغة اليونانية .

* * *

لعلّ نفراً من القرّاء قد عَجِلوا وظنوا أنني إنما أردت بهذا المقال أن أسلب اليونانيّين فضلهم على العلم والفلسفة أو أن أرفع شأن الشرقيّين تعصّباً وعصبية .

إنّ هذا شيء لم يخطر لي في بال ـ إلاّ استدراكاً وظناً أن يفعل أحد ما أريد من نفسي ألاّ أفعله . إنّ العلم إنساني لا يُحَدّ بتخوم على سطح الأرض ولا بسدود في مجرى التاريخ ، ولا تستأثر به قوميّةٌ ولا يستقلّ به مذهب . ثم إنّ الحضاراتِ كلّها تطوّر نشأ بعضها من بعض ، فأخْذُ المتأخرين أسبابَ الحضارة عن الذين تقدّموهم والزيادةُ فيها بقدر ما يحتاجون إليه وبقدر ما يطيقون أمر طبيعيّ . ومن ظنّ أن حضارة نشأت بين ليلة وضحاها مقطوعة من كلّ شيء قبلها فقد ظنّ عجزاً .

وإذا كان اليونانيّون قد أخذوا كثيراً من علمهم وفلسفتهم عن الشرقيّين ، فلماذا عُرف هـــذا العلم وتلك الفلسفة باسم الذين أخَذوهما عن غيرهم ولم تعرف باسم الذين ابتكروهما ثمّ أخِذا عنهم ؟ هذا هو الأمر الذي دفعني

في الواقع إلى اختيار هذا الموضوع الذي جعلت له هذه المقدّمة الطويلة التي سبقت .

إنّ ترديد النظر في معالم الحضارة الشرقية من شرقيّ الصين إلى غربيّ مصر يجعلنا نقف أمام حضارة باهرة ـ من الناحية العملية ومن الناحية النظرية أيضاً ـ . انّ معالم الحضارات الشرقية ماثلة أمامنا ، ولا يمكن أن يكون الذين أقاموا الأهرم مثلاً ـ وقد كشفوا في دقّة البناء ما تعيا عن مثله الآلات الحديثة ـ جاهلين للقواعد المتّصلة بعلم الهندسة من الناحية النظرية أيضاً . وكذلك إذا نحن نظرنا في التقاويم التي عرّفها الشرقيّون عموماً ـ في الصين والهند ثمّ في بابل ومصر خاصّة ـ أدركنا وشيكاً أن البابليّين والمصريين القدماء كانوا على جانب كبير من العلم العملي والنظري في الحساب والفلك . ثمّ إذا نظرنا إلى التحنيط وإلى عدد من الصناعات كالنسيج والصباغ والصياغة وصنع السيوف رأينا فيها براعة في الكيمياء والفيزياء عظيمة جدّاً . فلماذا إذن ، ننسب العلم القديم إذا درسناه في نطاق التاريخ المعروف إلى اليونان ولا ننسب منه إلى أمم الشرق القديم سوى نتف متفرّقة .

لقد كان لذلك سببان في الشرقيّين القدماء وسببان في اليونانيّين الغربيين .

كان العلم في الشرق القديم من الدين، وكان الكهّان الذين يستقلّون به يضنّون به على الناس لأنه كان مقدّساً لا يجوز أن يتّصل به عامّة الناس . من أجل ذلك ظلّ نتاج الفكر الإنساني في الشرق القديم سرّاً يتلقّاه الصالحون من الخلف عن سلفهم بالرواية . فلمّا انقرض أولئك الذين كانوا يظنّون في أنفسهم ذلك ذهب نتاج الفكر معهم ونشأ الخلف الجديد في أمّيّة . بذلك خسر الذين كشفوا عن قواعد العلم والمعرفة حقّهم في نسبة الفضل في ذلك إليهم .

ومع أنّ معظم ما بقي لنا من العلم الشرقي القديم قضايا تدلّ على عبقريّة بالغة ، فانها في الأكثر قضايا عملية مفردة ، لعلّ أصحابها لم يجعلوها عامّة حتى تنطبق على كلّ ما يشابهها من القضايا — ولعلّ أصحابها عرفوا ذلك وفعلوه ولكن لما ضنّوا به وكتموه ثمّ ضاع ظننا نحن انهم لم يفعلوا ذلك — .

من أجل ذلك نستطيع أن نقول ، مثلاً ، إن المصريين بلغوا ذروة البراعة في الهندسة والحِيَل (الميكانيك) — ممّا يدل عليه بناء الأهرام ، ولكنّا لا نستطيع أن نقول إنهم وضعوا علم الهندسة أو دوّنوا علم الهندسة .

أما اليونانيون فتناولوا علماً كثيراً من الشرق — لا شكّ في ذلك — ثمّ أضافوا إلى ما تناولوه من الشرق أشياءَ من عندهم ، مما لا شكّ فيه أيضاً ، ولكنهم زادوا على الشرقيين في أمرين :

١ — لقد جمعوا ما ابتكروه إلى ما كانوا قد تناولوه من الشرق ثمّ نظّموا ذلك كله — في وقت متأخر طبعاً — واستخرجوا منه علوماً محدودة بقواعد . ومع العلم بأن كثيراً من حقائق الهندسة لم يكن يونانياً ، بل كان شرقياً من قبل اليونان بألوف السنين ، فاننا نسمي الهندسة علماً يونانياً (مع أن الذي دوّن الهندسة نفسَه شرقي من الاسكندرية في مصر . وسأرجع إلى أقليدس مدوّن الهندسة مرّة أخرى حين أتكلم على الصلة بين اللغة وبين العبقرية) . فقضايا الهندسة إذن لم تكن كلها من عمل اليونان ، ولكن علم الهندسة علم يونانيّ .

الهندسة علم يونانيّ بعامل التنظيم والتدوين لا بعامل المادّة التي جمع منها . **إنّ العلم — في هذا الشأن — لم يكن المادّة التي جُمِعَت ، بل كان التنظيم الذي خلق من هذه المادّة مجموعاً .**

٢ — إن علماء اليونان بذلوا العلم للناس من جميع الأجناس والطبقات ، فلما ذهبوا هم لم يذهب علمهم معهم ، بل بقي في غيرهم ، ولكن ظلّ يحمل اسمهم .

* * *

وهنا أعود إلى صلة اللغة بالعبقرية ونسبة العبقرية إلى اللغة أو إلى القومية .

نحن لا نعلم أن اقليدس صاحب الهندسة كان شرقياً من الاسكندرية وأن أفلوطين صاحب المذهب الاسكندراني على المشهور كان من أسيوط في صعيد مصر ، وأن نيقوماخس صاحب الحساب كان من عنجر في بقاع العزيز من بلاد سورية (الجمهورية اللبنانية اليوم) ، وانّ فرفوريوس صاحب المدخل إلى علم المنطق كان من صور الواقعة على الشاطئ الشرقيّ من البحر الأبيض المتوسّط ، إلا إذا اطلعنا على ذلك في كتب التاريخ . ولكنّنا حينما نقرأ نتاج هؤلاء في اللغة اليونانية نقول عادة إنّ هذا النتاج كان يونانياً . حتى إنّنا نقول إنّ المذهب الاسكندراني الذي رأى النور في مدينة الاسكندرية (ومن هنا جاء اسمه) فوُلِدَ ونشأ على أيدي ثلاثة من الشرقيين من أهل الاسكندرية هم فيلون اليهودي وأمّونيوس سكّاس (أمون الحمّال) وأفلوطين هو مذهب يونانيّ ، مع أن الغاية الأساسية من نشأة هذا المذهب (الدفاع عن العقائد الدينية اليهودية والنصرانية) لا صلة لها باليونان . ولكنّ اللغة التي عُرِض هذا المذهب فيها كانت يونانية والاتجاه الذي سلكه هذا المذهب في الجدل والتخريج كان يونانياً . وهكذا سمّي هذا المذهب بلغته واتجاهه لا بقومية مُنْشِئِيه .

* * *

وفي العصر العبّاسيّ نُقِلَ العلم للعرب عن الأمم السابقة ، نُقل عن الهند والفرس واليونان ، ولا ريب في أن الأساس الذي قام عليه التفكير الفلسفي عند العرب كان العلم الأجنبي الذي أُخِذَ عن العلم في الهند وفارس والصين واليونان . ولا شكّ في أن عدداً من أوجه هذا العلم قد تبدّل على أيدي العرب تبدّلاً أخرجه عمّا كان عند أصحابه بل جعله خلاف ما كان عند أصحابه كالجبر والكيمياء . ثم كان ثمّةَ علومٌ أخذها العرب عن غيرهم فزادوا فيها زيادات كبيرة كالطبّ والفلك . أمّا الهندسة فقد نُقِلَتْ للعرب عن اليونان ولم يزيدوا هم فيها شيئاً ـ ذلك لأن اليونان لم يتركوا في الهندسة إمكانَ زيادةٍ لمستزيد ـ ولا زاد أحدٌ غير العرب في الهندسة الاقليدية شيئاً . ومع ذلك فإنّ مجموع هذا العلم الذي أخذناه عن غيرنا لا يزال يسمّى عندنا وعند مؤرّخي العلم من أبناء الأمم المختلفة **العلم العربي** . وفي هذا العلم أمر واحد ظاهر هو الأعداد . أخذنا نحن الأعداد عن الهنود فسمّيناها الأرقام الهندية . ثمّ أخذها الغرب عنّا نحن فَسَمَّوْها الأرقام العربية ، ولو أنهم أخذوها عن الهنود مباشرة ، كما فعلنا نحن ، لسَمَّوْها كما سمّيناها نحن « الأرقام الهندية » .

وعَمِل في العلم والفلسفة اللذين أخذناهما عن غيرنا — أو أخذنا أصولَهما عن غيرنا على الأصح — نفرٌ من المسلمين من أبناء أقوام مختلفة : كان في علمائنا وفلاسفتنا الفارابي التركي والغزّالي الفارسي وابن باجّه الفرنجي . ولكنّ هؤلاء كتبوا باللغة العربية كما فعل الكندي وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون ـ وهؤلاء الأربعة عرب — فسمّينا نحن هذا النتاج كلّه ـ كما سمّاه غيرنا أيضاً — العلم العربي ولقد كان بالإمكان أن نسميه العلم الإسلاميّ لأن الغاية الأولى التي اقتبسنا ذلك العلم من أجلها كان الإسلام : أخذنا أصول الرياضيّات والفلك لمعرفة المواقيت وعروض البلدان لضبط

مواعيد الصلوات والصيام ، وأخذنا المنطق وما وراء الطبيعة حتى نستفيد منها أدلةً وبراهين على صحة العقائد الإيمانية . ولكننا لو سمّينا هذه العلوم وهذه الفلسفة العلومَ والفلسفةَ **الإسلامية** لمَثَلَ أمامنا اعتراض هو أنّ هذه تسمية قاصرة ، فانّ نفراً كثيرين من المسلمين كتبوا في العلم والفلسفة بلغات غير اللغة العربية ، ونحن لا نعالج في العادة أوجه العلوم والفلسفة التي عالجوها . تلك هي المشكلة التي اعترضت مؤرّخي الفلسفة الأوّلين ثمّ خرجوا من مأزقها بأن سمَّوا النتاج الذي ظهر في اللغة اليونانية **العلم اليونانيّ** ، مع أن نفراً كثيرين من أولئك الذين خلقوا هذا « العلم اليوناني » لم يكونوا يونانيين .

* * *

بين يديّ العددُ السابع من نشرةٍ دوريةٍ (بلا تاريخ) تُسمّى « المجال » (يُصْدرها قسم الصحافة والنشر بوكالة الإعلام الأميركية ، بيروت ؟) فيها مقال اسمه **المستعربون في أميركا** يتكلّم على ثلاثة من هؤلاء هم هاملتون جيبْ الانكليزي وغوستاف فون غرونيباوْمْ اليهودي النمساوي وفيليب حتّي العربي (من لبنان) . إنّ النشرة الأميركية الرسميّة تعدّ هؤلاء الثلاثة مستعربين (يهتمّون بالشؤون العربية) لأنهم يكتبون باللغة الانكليزية ، مع أنّ فيليب حتي عربيّ أصيل ولكن معظم كتب الدكتور حتي باللغة الانكليزية ، فهو إذن مؤلّف انكليزي . وبما أن اللغة التي يتكلّم بها الإنسان ويكتب بها ويحملها حاملة آرائه تكسب اتجاهاً عقلياً معيّناً مخالفاً لرأي الذين يتكلّمون لغاتٍ غيرَ لغته ، عدّته النشرة الاميركيّة أميركيّاً (وهو أيضاً أميركيّ الجنسية منذ عام ١٩٢٤) ثم جعلته مستعرباً يهتمّ بالأمور العربية ، لا عربياً لأنّ اتجاهه الفكري هو اتجاه اللغة التي يكتب عادة بها .

* * *

بهذا المعنى قيل عن الفلسفة اليونانية **إنها يونانية** لأنّ المفكّرين الذين كتبوا بها خضعت آراؤهم للاتجاه الفكري اليونانيّ ، مع أن عدداً كبيراً منهم لم يكن يونانيّاً .

ومعَ هذا كلّه فانّ الصلة بين اللغة وبين الثقافة معدودة عند بعض الناس مشكلة : آللغةُ وسيلة للتفاهم فقط ، أم هي حاملة لخصائص ذاتية تجعل المتكلّم بها منتسباً إلى اتجاه فكري دون اتجاه فكري ؟

أنا أرى الرأي الثاني ، ولكنّ هذا لا يمنع من طرح القضية للبحث ؛ لا لأنّ الرأي الأوّل صحيح بل لأنّ جماعات منّا قد ذهبوا إلى ذلك فنحبّ أن نعرف آراءهم مقرونة بالمبادىء وبالأمثلة .

الدكتور عمر فروخ



بعض الكلمات

عن الأدب العربي الحديث

في المغرب الأقصى

لا أزال أتذكر أقوال صديقي المغربي الأستاذ محمد الصادق عفيفي حينما أهدى إليّ كتابه عن الأدب المغربي فقال إن النثر في المغرب لا يزال ينمو في براعمه كما لم تتقدم شخصيته وطابعه بشكل مكتمل — فقد اشار الأستاذ عبد اللطيف السحرتي الناقد المصري العبقري إلى أنّ جبال الأطلسي بالرغم من عديد من الحقائق الطبيعية والأفكار الأساسية والتجارب الناضجة التي تقدم نفسها لمؤلفي المغرب ، إلى جانب شجاعتهم الفائقة لاسترداد حقوقهم الاستقلالية ، بقي معظم الإنتاج للمغاربة في الغموض ، وأكثره ذهب مع الريح ! » وهذا قول قاسٍ لا ينتسب إلا إلى الماضي الغابر ، لأنه يوجد الأمل بأن المغرب الإسلامي سوف يشيد من جديـــد المؤلفين الذين سيتغنّون بأغاني الشابي ، أو يقص ويروي مثل ابن طفيل ، أو ينشر المطور مثل نفح الطيب للمقري وإذا ماكان الأدب النثري في المغرب لا يزال جنيناً مستغرقاً في نومه في رحم الانتعاش الثقافي ، فإنه سوف يندفع قوياً في الغد مثل الصبي الشديد وينمو ويكتمل .

إن الأستاذ صادق العفيفي حاول أن ينعش ويقوي بتحليله النقدي المؤلفين الشباب ، حاثاً إياهم على مباراة أندادهم في مصر ، غير أنه يخشى

بأنهم سوف لا يستطيعون الوصول إلى السمو الذي بلغه طه حسين أو Maupassant ، Chehow وتيمور لأن الخبرات الشخصية تختلف من عصرٍ إلى عصرٍ وبعض المؤلفين يتوقف عند وصف بعض الأحداث والآخرون يشكلّونها أو يفسرونها ، والبعض الآخر يتأثر بها فقط .

ويقوّي العفيفي تأكيداته عن كيفية الذوق التي تتغير مع الزمن ، مورداً مثالاً : كيف أن عباس العقاد لام يوماً ما أحمد شوقي قائلاً بأنّه ـ أي شوقي ـ رغم ارتجاله يفتقر إلى الانسجام والاقتباس ، ويستعمل تعبيرات سوقية ، غير أنه الآن حوّل بشدّة موقفه عن أمير الشعراء ، ونظر باستصغار لأشعار جيلنا لأنها تفتقر إلى الوزن والقافية ! ومن منّا يمكن أن يعرف ماذا تكون وجهة نظر العقاد عن ذلك بعد ثلاثين عاماً — لو كان حياً ؟

ويجب علينا الحذر عند استعراض أدب هو في دور التنقيح والنضوج حتى إن واحداً من الكتاب يتقدم من درجة لدرجة . وبقي البناني وزياده وطويس وصفيين ، بينما نجد أن الفامي وبنجلون يعرضون الأفكار الجديدة ، وبعض الشبان من الكتاب يميلون إلى استجابةٍ ، للقصص الملهمة والرمزية ، وإلى نقد الحياة الاجتماعية ـ ويظهر بذلك أن ثمار المحصول الأدبي متنوع ـ وهو غنيٌ بانتعاشه وهو تراث الإبداع العربي التقليدي يعني المعتبر وانعكاساً للكتابة الشرقية العربية الحديثة ، وأنفاس من الغرب الأوروبي أيضاً وهذه طلعة لا تقلّ ولا تزيد عما هو معروف في نواحي البحر المتوسّط ـ وقد روّى كتاب المغرب تعطشهم للإلهام ، خصوصاً من مصر وفرنسا ، وقد حمّسهم وادي النيل بثقافته المتصاعدة بالعروبة ـ أما فرنسا فانها خلال

احتلالها العسكري والمدني لقنتهم بروح النبوغ - فمن التأثير المصري برز **العقاد والزيات وطه حسين وتوفيق الحكيم**،بينما كانت روائع فرنسا القديمة Corneille, Racine, Molière, Lafontaine وأخيراً Dumas, Hugo, Balzac, Moupassant, Flaubez. كانوا أعمـــدة الإلهام منذ بدء التعليم الثانوي فصاعداً . بينما ترسَّل العهد الجديد إلى الأمام بأفكاره المجنَّحة ، والتي فتحت أعين الكتَّـــاب المغاربة على روائع المؤلفين الروسيين أمثـــال Gorkiy , Dostoyewesky , Tolstoy , Gogol , Chehow وعبرَ المحيط الأطلسي Shakespeare , Dickens , Carlyle وآخرين غيرهم . وقد برز موكب من الكُتَّاب والمفكرين الذين لم يكتمل بعد كيانهم ، ويفتقرون إلى اختبار ناقدٍ غربي لكن لانستطيع أن ننسى أن أسلاف هؤلاء المؤلفين لم يفهموا كلمةً من العربية قط ، وكانت هذه الحال نتيجة إهمال سياسة الأجانب أثناء الاحتلال الفرنسي ، وإلى جانب التأثير الآنف الذكر نجد مسّة رقيقة من الأدب **الاسباني** الحديث قد هبّت على سواحل المغرب .

وكنتيجة لجميع الروايات التي جمعها المفيفي من أصولها المختلفة فانها تختلف باتساع عن نظرتها العامة ، غير أن اعتباراً واحداً لا يزال يربطها ، وهذا هو محاولة خلق عملٍ فنيٍ بالرغم من جميع الصعوبات اليومية المادية الواقعية والإدارية فيما يختص بالإدارة ، فالمغرب قاسى كثيراً من الشرور الاجتماعية والاستغلال الاقتصادي ، غير أن على الأدب أن يكسر القيود الاصطناعية ويجب أن يُظهر نفسه في فن ناصع الثوب .

فقد دافع **يوسف نجم** عن كلمة الشعار ! « الفن للفن » وكذلك استشهد **بمحمود تيمور** الذي صرح في فن القصص بأن الكاتب يجب أن يشبع جميع استهلالات محيطه الاجتماعية ، غير أنه يجب عليه أن يعبّر عن أفكاره بإخلاص ،

وبكل قدرة مواهبه ، غير مكبّلٍ بالقيود ، وبلا إدغام أو انحراف ، أو مع صبغة التقاليد .

ويمكن تقسيم قصة النثر المغربي إلى ثلاث مراحل ، وتمتدّ المرحلة الأولى من عام ١٩٠٥ إلى ١٩٢٩ وخلالها ظهرت مؤلفات متعددة غير متكاملة ، وموضوعاتها وطابعها تختلف عن المقامة والقصة والأقصوصة أو التراجم والروايات التمثيلية ـ وقد عضد النوع الأخير وصول فرقة تمثيلية مصرية عام ١٩٢٣ بقيادة الشيخ **سلامة حجازي**(١) وبعده فرقة **فاطمة رشدي** ويمكن أن نعتبر **محمد القاري** أوّل من أعدّ تمثيلية مسرحية من أربعة فصول وهي : اليتيم المهمَل .

وقد أعلنت أعضاء جمعية طلاب المدارس الثانوية في مدينة فاس عن مسابقة لإنتاج قصة اجتماعية أخلاقية للمسرح ـ ومما يستحق الاعتبار ، فانّ الدافع قد تولد في مدرسة القرويين الدينية المحترمة في فاس ـ وكانت نتيجة المسابقة قصة مسرحية في ثلاثة فصول وأربعة مناظر واسمها : « الفضيلة » وكاتبها هو **عبد الله الجراري** ويمتد مضمون القصة خلال حديث دائر بين صديقين اضطر أحدهما لإيقاف دراسته في مبدأ حياته ، بينما يوجه صديقه المسعود الأسئلة إليه فاننا نجده يعدد الظروف التي أعاقته عن دراسته ، ويدور الحوار حول التعليم والتشجيع عليه وعن الظروف الصحية ، وكل ذلك لكي يكون لمساعدة مواطنيه في رفع مستواهم وخلق الحياة الملائمة للتعليم . وقد شرح الكاتب أهدافه بهذه القصة ، ولكن يبرر التأخر الذي سببه الاستعمار الهادف إلى إفقار الشعب وحفظهم في أغلال الجهل . ورغم أن القصة ساذجة فقد نتج عنها إنشاء العمال للمدارس الابتدائية في فاس والرباط والدار البيضاء ، والتي كان يدرس فيها اللغة العربية وأسس الدين الإسلامي . فقد كانت

(١) المعروف أن الشيخ سلامة توفي عام ١٩١٧ م . (لجنة المجلة)

معيناً للوجدان الوطني الذي أهملته السلطات الغربية . ولم يجرؤ العمال على إطلاق لقب مدرسة عليها حتى لا يجد الفرنسيون الحجج لإغلاقها .

وعلى كل حال فان تعليم الحساب والجغرافية والتأريخ في هذه المدارس الدينية قد حرمت ودُرّست في السر فقط .

وفي شمالي البلدان إلى تطوان قام **عبد الخالق الطوبس** إلى عام **١٩٢٢** بتجربة مماثلة في شكل مسرحي وقصته : « انتصار الحق بالباطل » ذات ثلاثة فصول هي نوع من المواعظ الخلقية والتربوية .

ولم تكن التجربة الثالثة من هذا النوع ، من المسرحيات بل ساعدها ظهور بعض الدوريات مثل مجلة المغرب ، والثقافة المغربية ، والمغرب الجديد ، التي قدّمت القصص الوصفية . وكان الجديد من هذه التجارب أن بعض الكاتبات تعرضن لأهدافها مثل **ملكة الفامي** التي طبعت لها قصة بعنوان : « الضحية » .

وبدأت المرحلة الثانية مع مستهل عام ١٩٣٠ وأبرزت أحد المحاصيل الأدبية المثمرة . وكتب خلال هذه المرحلة **علال الفامي ومختار السوسي وعبد القادر حسن** القصص الشعرية . وقد استعادت الروح الوطنية حقوقها كاملة ، وأوجدت الاصطلاحات في الفكر واللغة التي نمّت عن بقايا المعرفة الأوربية التي عظّمها البهاء الشرقي . وإن من أكبر ممثلي هذا الاتجاه هو **عبد المجيد بنجلون** وقد قادته وطنيته المتحمسة وطلب العلم في مصر إلى التبصر في انطباعاته حول ضفاف النيل ، وتجربته للغرب التي صوّرها في العدد غير المتناهي من القصص التي سُطرت بسرعة على الورق ، ولكن مع ذلك فإنّ لها الذوق الفني . وقد ترجم عشرات الأقاصيص الغربية من الانجليزية والفرنسية والروسية بقصد توجيه مواطنيه ـ غير أن الحظ حرمه

نهائياً مثل العديد من معاصريه ـ حرمه من الاستمرار في حماسه الأدبي إذ أن الالتزامات الرسمية والتوظيفات الإدارية قد استنفدت جميع قدراتهم.

وقد ألقت تلك المرحلة الضوء على اتجاهين : اتجـاه يقوده **بنجلون وعبد الرحمن الفامي** و**عبد الكريم ثابت** وآخرون ، الذين اعتبروا بأن واجبات الكاتب في خلق الأقصوصة هي لأجل الفن . وقد تطورت موضوعات قصص هذه المدرسة في فترة زمنية قصيرة وحافظت على الوحدة الزمنية والمكانية مصوّرة جوها الذي عزم الكاتب على نقله للقارئ مع زرع الخوف أو المرح والبسمة والأمل أو الحسرة في نفسه . فالقصّاص الحقيقي في رأيهم هو ذلك الشخص الذي يدمجك في جو القصّة كما لو أنك تعيش وتتنفس مع أبطالها . وإن أسلوب هذه القصص يكشف عن الإلهام بها وتشرب مؤلفيها للبيئة النفسية ، الواقعية ، وفي بعض الأحيان الرمزية . وإن الخبرات الذهنية هي عماد منظرهم العام ، وترفع وجهة النظر هذه من قيمة اللون الفني لأعمالهم الأدبية . ويؤكد **عبد اللطيف السحرتي** في كتابه أهمية الأصول النفسانية لكتابة القصة ، التي استمر في قوله ، بأنها غير موجودة في معظم القصص العربية الحديثة .

أما الاتجاه الآخر لكتّاب النثر المغاربة فهو القصص التمثيلي الوصفي . وإن ممثليها المبرزين هم **أحمد بناني وعبد الله إبراهيم وعبد الله طويس وأحمد زيادة** وآخرون . وطابع هذه المدرسة هو قصة مماثلة للصورة ، التي تؤثر على كل من الكاتب والقارئ . وقد فتح كتّاب هذا النوع من القصص عيون الجماهير على الخراب والاستعمار في المغرب وعلى وجه الخصوص لفت انتباههم إليه ، وهم قد فضّلوا موضوعات الظروف الاجتماعية . ولو انتظرنا أن وضعهم تجاه الحكم الأجنبي كان من النوع الإبداعي والرمزي كنا خائبين

في الرجاء ، لأن الواقع هو أن كُتَّاب هذه المدرسة قد بدأوا اتجاهاً واقعياً جريئاً قد يكون تقريباً قريباً من قص الحكايات أو الأخبار .

إن الكاتب الموهوب **أحمد بنّاني** وُظف في البلاط الملكي ومع الأسف هجر دراسته التاريخية وكتابة القصص ، لكنه قد قدّم لنا في إحدى قصصه المنونة بـ « صاحبنا » شخصية تكاد تكون مألوفةً في كثير من البلدان رغم أنها غير شعبية ، فإنها ناجحة جداً ، لأنه ظل لرؤسائه في العمل ، فإن جميع المصادفات يمكنها أن تستمر عبر مجراه الخاص ، وحتى الشؤون الخاصة لرئيسه وأمور تدبير منزله فإنها تعتمد على إدارة صديقنا الطيبة . إن أسلوب **البناني** يذكرنا بسهولة وبحرية **بديع الزمان الهمذاني** بينما تتشابه أبطاله مع أمثالها عند Dostoyewsky . وقد صور **البناني** بطله كأحد فقرات المجتمع المغربي المحافظ جداً ، بينما الأمر والحل في أيدي الأجانب الذين يكافح ضدهم بكل قواه .

وإن أبطال **عبد الله إبراهيم** مأخوذه من التاريخ ومن وقائع الحياة اليومية في البلاد . وقد استعمل المؤلف المحيط التاريخي للتهرب من انتباه الرقابة . ويبدو على أسلوبه الطابع الفلسفي الواقعي ويذكر فيه أشخاصاً وهميين .

أما صور **طوبس** فإنها تشبه السيّر إذا قيست مع إنتـــاج **البناني** أو **عبد الله إبراهيم** .

ومنذ عام ١٩٥٦ م فقد بزغ الاستقلال في المغرب ودخلت كتابة القصص في مرحلة جديدة . وللأسف ، فان الحصيلة الكبيرة للقصص لم تضمن بعد الإتمام الفني ، ورغم أن هذا يجب أن يسيطر على الانفعال الناجم عن الفكر ، ومع ذلك تبرز نخبة مختارة من الكتاب المغربيين أمثـال **الحبابي** **والريسوني والسميحي والبقّالي وبراده وبو علوّ ولمتوني والمرابشي**

والهواري والخطابي وعبد الله جلال . وعلى كل حال فإننا يجب أن نشير إلى نوع من الخوف من النقد عند الشبان المؤلفين . لذلك نجدهم يخشون حتى عرض إنتاجهم على الأصدقاء .

محمد صادق العفيفي في كتابه : القصة المغربية الحديثة لخّص عدداً كبيراً من القصص وعلّق عليها مشيراً إلى مزايا الأدباء ويقدم لنا تاريخ المغرب وحياته الاجتماعية وتقلب الحياة اليومية في موضوعات لا حصر لها للتعبير الأدبي ، وإن الكتاب المغربيين سوف يجدون الطريق الذي يقودهم نحو أهداف مشابهة مع التي تحكم في بلاد الناطقين بالضاد الأخرى ويكونون مشيرين للفجر الجديد في الأدب العربي الحديث (١) .

المستشرق

(بودابست) **الدكتور عبد الكريم جرمانوس**

❋❋❋

لمحة عن التاريخ الليبي

منذ أقدم العصور الإسلامية تأسست في القطر الليبي مدارس كثيرة لبث العلوم الدينية واللغوية والأدبية في ذلك البلد العربي الصميم ، ولقد قام بانشاء تلك المدارس رجال من حكامه الأسبقين ومن لفيف من أعيانه وسراته ، ولا تزال تلك المدارس قائمة إلى الآن في تلك الربوع ، وكل من يتصفح مراجع التاريخ الليبي يجد فيه تراجم أعلام من العلماء ، من الذين كرسوا حياتهم لنشر العلم وبث الثقافة الإسلامية في تلك المعاهد ، وهذه لمحة تاريخية تتعلق بذكر ما تركه رجال النهضة العلمية والأدبية من تراث علمي وأدبي ولغوي في ليبيا ، وذلك من أواسط القرون الإسلامية إلى اليوم ، ولا يخفى على المطلعين على التاريخ ، أن ليبيا انتابتها كوارث ومحن وحروب طاحنة ذهبت بالطارف والتالد مما خطه علماؤها من مؤلفات في شتى العلوم ، وما نظمه شعراؤها من شعر رائق يمتزج بالنفوس رقة ، ولكن الحمد لله الذي أزال ذلك الكابوس الاستعماري عن ليبيا ، وأصبحت قائمة على قدميها تجاري الأمم الراقية ، وتبحث عما تركه أسلافنا من تراث علمي ، إن النهضة العلمية اليوم في ليبيا أصبحت في تقدم مستمر ، فقد أنشأت فيها كثيراً من المدارس الابتدائية والثانوية في جميع أرجاء المملكة ، كما أنشأت فيها جامعة عصرية تحتوي على كليات الحقوق والآداب والعلوم والهندسة والتجارة والمعلمين والزراعة ، وان عدد الطلاب والطالبات في تلك المدارس والجامعة حوالي ٥٠٠ ألف طالب وطالبة ، وهذه النهضة قامت بعد استقلال ليبيا أي منذ ستة عشر

عاماً فقط ، وفضلاً عن ذلك فان البعثات الجامعية تُرسل كل عام إلى الجامعات في القاهرة وبيروت ولندن وباريس وبروكسل وأنقرة وغيرها ، وبذلك أصبح الوعي العلمي منتشراً بين طبقات الشعب الليبي ، الذي كان محروماً من جميع وسائل العلم والتعلم إبان الحكم الإيطالي الغاشم ، وآثار العلماء والأدباء والشعراء الليبيين كانت مغمورة في زوايا الإهمال بسبب الكبت الفاشستي ومن قبله أيام حكم الأتراك الذي كان لا يقيم وزناً لعلماء العرب وآثارهم ، كل هذه الأسباب كادت تقضي على تراثنا الذي خلفه أسلافنا رحمهم الله ، وفي هذه اللمحة أقدم عرضاً موجزاً عن رجال العلم والأدب والتاريخ في ليبيا من المتقدمين والمتأخرين أيضاً ، وعلى سبيل الانموذج أذكر لفيفاً منهم :

علماء اللغة

١ — من علماء اللغة أبو اسحق ابراهيم بن الأجدابي من أعلام القرن السادس ، اشتهر بعلم اللغة وله كتاب قيم أسماه كفاية التحفظ ونهاية التلفظ وهو مطبوع في بيروت منذ ثمانين سنة ، وقد مدح هذا الكتاب بعض الأدباء المتأخرين بهذين البيتين :

من كان يطلب في الغريب وسيلة   من شاعر أو كاتب متلفظ
أو كان يبغي في الكلام بلاغة   فليحفظنّ كفاية المتحفظ

ومن مؤلفاته أيضاً كتاب الأزمنة والأنواء وهو مفيد جداً في فنه ، وقد طبع حديثاً في دمشق .

٢ — ومن كبار علماء اللغة الذين أحرزوا قصبات السبق في هذا الميدان ، العلامة جمال الدين محمد ابن منظور صاحب لسان العرب أحد أعلام القرن الثامن ، وهو أشهر من أن يُعَرَّف ، حيث إن تأليفه المذكور جمع فيه ما لم يجمعه غيره من مشاهير اللغويين في معاجمهم ، وهو يحتوي على ثمانين

ألف مادة من كلام العرب حسبما قرره العلماء في هذا الصدد ، وفضلاً عن ذلك فهو كتاب تفسير وشرح لغريب الحديث ، وفيه بحوث مستفيضة في علوم النحو والصرف والاشتقاق واللغة ، كما أنه يشتمل على مجموعة كبيرة من أمثال العرب وغير ذلك من الفوائد ، وابن منظور ليبي صميم حيث رفع نسبه في مادة ج ر ب من اللسان إلى الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري دفين مدينة البيضاء بليبيا ، وفضلاً عن ذلك فالمؤلف نفسه تولى قضاء طرابلس ، ولابن منظور مؤلفات أخرى ، منها مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ومختصر الأغاني ، ونثار الأزهار في الليل والنهار وهو صغير ومطبوع قديماً في مطبعة الجوائب بمدينة « فروق » اسطنبول .

العلماء والفقهاء

من علماء الشريعة العلامة أبو الحسن المنمر من رجال القرن الخامس صاحب التأليف المسمى بالكافي في الفرائض ، وقد أثنى عليه ابن خلدون في المقدمة ثناءً عطراً ، ومن الفقهاء الكبار أيضاً عمر بن عبد العزيز الطرابلسي من رجال القرن السادس ، ذكره ياقوت في معجم البلدان ، وهو القائل في كتب الغزالي :

هذب المذهب حبر أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصة

ومن الفقهاء المتضلعين في المذهب المالكي أبو عبد الله محمد الحطاب من أعلام القرن العاشر صاحب مواهب الجليل لشرح مختصر أبي الضياء خليل ، وهو شرح مستوفى في ستة مجلدات ضخمة طبع على نفقة سلطان المغرب الأسبق المرحوم عبد الحفيظ ، ومنهم العلامة أحمد زروق صاحب المؤلفات

العديدة ومن ضمنها شروحه على حكم ابن عطاء الله التي بلغت سبعة وعشرين شرحاً حسبما ذكره في نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ومن كبار علماء الشريعة على مذهب أبي حنيفة النعمان العلامة محمد كامل بن مصطفى مفتي طرابلس الأسبق ، ومن مؤلفـــاته الفتاوي الكاملية في الحوادث الطرابلسية ، وهي مطبوعة ومتداولة بين العلماء ، وله حاشية على تفسير البيضاوي لا تزال مخطوطة في مكتبة الأوقاف بطرابلس ، ومن علماء الشريعة أيضاً العلامة عبد الرحمن البوصيري قاضي طرابلس الأسبق ، وله عدة مؤلفات منها المحاكمة بين ابن حجر والعيني وحاشية على الجوهر المكنون .

المؤرخون

من المؤرخين القدماء أبو الحسن علي بن مخلوف الطرابلسي كان له اهتمام بالتواريخ وصنف تاريخاً لطرابلس ، وكان فاضلاً في فنون شتى ، أخذ عنه السلفي وهو من أعلام القرن السادس ، ذكره ياقوت في معجم البلدان عندما تكلم على طرابلس ، ومنهم ابن غلبون المؤرخ وهو صاحب التاريخ المسمى بالتذكار في من ملك طرابلس ومَن كان بها من الأخيار ، والمؤلف من علماء القرن الثاني عشر ، ومنهم أحمد بك النائب الأنصاري صاحب التاريخ المسمى بالمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب في جزأين ، وهو مطبوع ومتداول بين طلاب التاريخ والأدب في ليبيا ، ومن المعاصرين الذين ألفوا في التاريخ الليبي محمد بن مسعود خريج دار العلوم بالقاهرة ، ألف تاريخ ليبيا العام في جزأين ، وله غير ذلك في التاريخ والجغرافيـا والاجتماع ، ومنهم أيضاً مصطفى بعيو خريج كلية الآداب بالقاهرة ، فانه ألف المجمل في تاريخ ليبيا ، ومن الليبيين الذين تخرجوا من الأزهر وألفوا في التاريخ الليبي طاهر الزاوي فانه ألف : أبطال الجهاد ، وأعلام ليبيا ، وليبيا بعد الفتح العربي .

الصحافة الليبية

إن أول جريدة صدرت في طرابلس كانت بتاريخ ١٨٦٦ ، وكان اسمها طرابلس الغرب ، وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية ، وهي الجريدة الوحيدة في ذلك الوقت ، ولقد استمرت على الصدور أسبوعياً إلى أن احتلت إيطاليا البلاد الليبية في سنة ١٩١١ ، وهي نظيرة أمثالها من الجرائد الرسمية التي كانت تصدر حينئذ في بلاد الامبراطورية العثمانية ، وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين صدرت صحف متعددة في طرابلس قام باصدارها صفوة من رجال العلم والأدب والسياسة ، نذكر منها : مجلة الفنون وهي نصف شهرية ، جريدة الترقي ، العصر الجديد ، الكشاف ، تعميم حريت « وهي جريدة أسبوعية كان يصدرها المحامي محمد قدري باللغة التركية » ثم المرصاد ، اللواء الطرابلسي وهي لسان حال حزب الإصلاح الوطني ، الرقيب ، الوطن ، البلاغ ، بريد طرابلس ، الوقت ، الذكرى ، الإصلاح ، العدل ، بريد برقة ، ليبيا المصورة وهي مجلة شهرية ، ثم في عهد الاستقلال صدرت عدة صحف ومجلات ، منها طرابلس الغرب وهي يومية وبرقة الجديدة ، والرائد يومية أيضاً ، والطليعة ، والحرية ، والميدان ، هذا ولا يخفى على المطلع على ما تنشره تلك الصحف الليبية في العهود السالفة وفي عصر الاستقلال أيضاً ، ان أكثرها يتمشى وسياسة الحكومة شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وأن القليل منها جداً يقوم بنشر مقالات وطنية تهدف لخدمة الوطن والصالح العام ، وينتقد في دائرة ضيقة اجراءات الحكومة التعسفية ، ولقد أصدرت الكتلة الوطنية بطرابلس زمن الإدارة البريطانية جريدة باسم صوت الأحرار ، ولكن تلك الإدارة ومن جرى على غرارها قضى عليها في مهدها بدون مبرر قانوني .

الشعراء في ليبيا

في هذا البلد العربي الصميم كثير من الشعراء الذين نبغوا في القرن العشرين ، وأكثر هؤلاء الشعراء ترسموا خطى المولدين من الشعراء كأبي الطيب المتنبي والبحتري وأبي تمام وأضرابهم من فحول الشعر والأدب ، والقليل من شعراء ليبيا من يسير على غرار الشعر العصري الذي لا يتقيد بأوزان الخليل والقافية ، وهؤلاء الشبان الذين ينادون بتحرير الشعر من الأوزان والقافية هم قلة لايؤبه لها ، وكل من له أدنى ذوق أدبي عندما يقرأ ما ينشره هؤلاء الذين يدعون تجديد الشعر العربي من قيود العروض والقوافي ، يتبين له بوضوح تام أن شعرهم ليس بعربي ، ولا يمت للشعر العربي بصلة ما ، وقائل هذا الشعر المختل الأوزان والقوافي والمعاني أيضاً ، هو رابع الشعراء الذي قيل فيه « وشاعر من حقه أن تصفعه » إن بث هذه السخافات الشعرية بين الناشئة وطلاب الأدب العربي مما يفسد ملكات الناشئين الذين يتتبعون ما ينشر على المجلات والصحف اليومية في الشرق العربي كله ، وأرجو أن يقوم أنصار الأدب وحماة لغة العرب ، بحملة أدبية تردع أولئك الشبان عن غيهم فيما ينشرونه الفينة بعد الفينة من الشعر المسمى عندهم بالشعر الجديد ، وبذلك تتقوم ملكات رواد الأدب ، وتنشأ الناشئة العربية على أسس قوية من اللغة وأساليب فصحاء العرب ، والشعراء الليبيون أكثرهم يترسم خطى شعراء الصدر الأول في الإسلام ، ومن هؤلاء أحمد الشارف وأحمد رفيق المهدوي رحمهما الله وأحمد الفقيه حسن أطال الله في عمره ، ودواوين هؤلاء الشعراء الثلاثة مطبوعة ومتداولة بين رجال الأدب العربي ، وهؤلاء الثلاثة هم البارزون من شعراء ليبيا ، وإلى القراء الكرام مقتطفات

من شعر المرحوم أحمد الشارف الذي كان رئيساً لمحكمة الاستئناف الشرعية بطرابلس ، وهذه إحدى قصائده قالها في حرب الكماليين مع اليونان بعنوان :

«حياة على الضيم بئس الحياة»

لقد آن للعزم أن يصدقا   وحملته اليوم لن تكذبا
وأسيافنا أخذت موثقـــاً   بأن يبلغ السيل منها الزبى

* * *

رعى الله جيشاً غدا قائماً   بدق الطبول وخفق البنود
فجرد من عزمه صارماً   ليعرف مركزه في الوجود
سيبقى الزمان له خادمـــاً   كما كان يخدم تلك الجدود

* * *

قد اخترقت خيله مأزقاً   حذاراً على المجد أن يذهبا
وحتم على السيف أن يسبقا   إذا لم يجد في العلا مطلبا

* * *

ولا يعجب القوم من عنصر   غدت منه نار الوغى تستعر
كذا المجد يقضي على معشر   حياتهم آذنت بالخطر
جزاءً لما كان في «سيفر»   وما جاء في ذلك المؤتمر

* * *

بحيث اليراع غدا مطلقاً   فيكتب ما شاء أن يكتبا
ولسنا على الضيم نرضى البقا   ولا ننصر الدين والمذهبا

* * *

ولما تعـذر فصل القضا وزاد اللجاج وطال الخصام
أتى السيف بالرغم لا بالرضا لحسم القضيـة بين الأنام
فإن الحسام إذا ما مضى يُنزه عن شبهة الاتهام

* * *

فلا غرو إن جد يوم اللقـا وسالت نفوس بحد الظبـا
فما الشرق أوجب أن تهرقا ولكنما الغرب قد أوجبـا

* * *

حياة على الضيم بئس الحياة ونعم الممات إذا لم نفـز
لقد قام فينا « كمال » الصفات بأوفر حظ وأكمـل عز
فتى أدرك الأمر قبل الفوات ومهما بدت فرصة ينتهـز

* * *

حريص على الشرف المنتقى بإدراك ما كان مستصعبا
وقد أوشك الضيم أن يحدقا ولكـن أباه بكل الإبا

هذه القصيدة طويلة اخترنا منها هذه الأبيات كانموذج لشعره في الحماس والوطنيات ، وقد طرق الشارف أبواب الشعر ، فنظم في الفخر والمديح والرثاء والغزل وفي غير ذلك ، فمن قصائده في الرثاء هذه القصيدة التي رثى بها ملك العراق الأسبق المرحوم فيصل بن الحسين ، وهي :

سهاد على أجفاننا قد تحكما وحزن بأعماق القلوب تجسما
وأعظم خطب في الورى فقد سيد أقام له الشعب العراقي مأتمـا
يشق على سمعي مقالة نعيـــه وأكره أن ألقى بها متكلما
فلو مدت الأمداد من نحوه يداً على أمة الإسلام كان المقدما
ولم تبك أقطار العروبة وحدها عليه ولكن كل من كان مسلما

إمام سـري أريحي سميذع بصير إذا ما دبر الأمر أحكما
ولا عجب أن قام بالأمر وحده على جده جبريل صلى وسلما
مكارم في دار السلام تأيت ومجد لأبناء الرسول تيتما
ومدت سراة القوم أعظم حادث ولكنه في فيصل كان أعظما
هو الدهر لا تغررك منه ابتسامة إذا غضب الضرغام يوماً تبسما

★ ★ ★

ومن الشعراء المجيدين في ليبيا أحمد رفيق المهدوي أحد هؤلاء الشعراء الثلاثة المذكورين آنفاً ، وهو شاعر مطبوع يجيد في كل باب من أبواب الشعر ، فمن قصائده في رثاء المركيز ماركوني هذه القصيدة وهي بعنوان :

« نظيرك نادر في الكائنات »

نظيرك نادر في الكائنـات « لحق أنت إحدى المعجزات »
رسول الفن أنت ظهرت تهدي بآي الكهرباء البينات
نقلت الصوت فهو بغير سلك يحلق في قوى متموجات
وأرسلت الصدى في البرق يسري أميناً حافظاً للمرسلات
طوى الآفاق بين فم وإذن فزال بذاك تحريف الرواة
وأصبحت الإذاعة من مكان تعم بسرعة كل الجهات
فأغنت في الدعاية عن كثير من الصحف العديدة والدعاة
وتلك يد لنشر العلم جاءت بمعجزة تفوق المعجزات

* * *

أمركوني رثيتك لاحترامي وحبي للعباقرة الدهـــاة
وأنت أجلهم عندي لأني رأيتك فوق هاتيك الصفات
نفعت النـاس أجمع باختراع خلا من كل أنواع الأذاة
فكم لاك من يد كانت شفاءً لآلام البرية في الحيـــاة
وكم أشفت على عطب سفين دعتك فكنت أسباب النجاة
ولم تك مثل من يسعى ليأتي بما يقضي على باقي الحيـاة
يفكر في اختراع الموت قتلاً بغـاز خانق ومفرقعـات
ولكن كنت تسعى لاكتشاف مخفف شـــر تلك المهلكات
فليتك طال عمرك كي ترينا غرائب مايزلن مكتمات

* * *

علوم العصر ان بسقت وأثت فأنت لهـــا بمنزلة النواة
كشفت بفضل نور العلم سراً سيكفل حل عقم المشكلات
فهذي رؤية الصور استطعنا على بعد نراهـــا واضحات
رأينـا من تكلم من بعيد كما يبدو على سطح المراة
وسوف نرى بفضلك عن قريب طريقاً لاكتشاف النيرات
مسائل لا يزال العلم يسعى ليجعلهـــا لرأيك طائعات
وكان يعد رأيك مستحيلاً فأصبح في عداد الممكنات
وصار الفخر في كل اختراع يعود إليك في ماض وآت
فما اسوي علاك يقـال حقاً «علو في الحياة وفي المات»

ونكتفي بهذه القصيدة للدلالة على مكانة الشاعر الذي أجاد في رثائه للمركيز ماركوني العالم الإيطالي الشهير الذي يعد بحق أستاذاً للمخترعين المعاصرين ، ونختم هذه اللمحة التاريخية ببعض ما جادت به قريحة السيد أحمد الفقيه حسن رئيس مجلس الأوقاف بطرابلس ، وهو من الشعراء الذين فازوا بقصبات السبق في مضمار الشعر والشعراء ، وديوانه ضخم وقد طبع حديثاً ، وهذه إحدى قصائده وهي بعنوان :

« ليبيا المستقلة »

عزم أهاب بليبيا متقدما … ودعا إلى استقلالها وتكلما
وطن يؤيد حقه أبناؤه … وطن إلى صُيَّابة العرب انتمى
ضحى بأبطال وبرهن أنهم … كانوا له يوماً حماة للحمى
فالفخر ما ضحى به أبناؤه … والمجد ما كتبت صحيفته الدما
هبوا إلى استقلاله بين الورى … ولنيله طرقوا السبيل الأقدما
عقدوا الخناصر للجهاد وقد رأوا … أن يستقل وأن يصان ويكرما
قوم أبت أخلاقهم أن يخضعوا … للغاصب العاتي وأن يتحكما
طبعوا على كرم فكان جهادهم … للنصر والمجد المؤثل سلما
وطن يقدسه بنوه وما رأوا … من صالح يوماً بأن يتقسما
جمعت طرابُلُساً وبرقة وحدةٌ … تبقى على طول المدى لن تفصما
هذي لتلك يد وتلك لهذه … سند إذا ما الخطب أصبح مضرما
هي وحدة الوطن الذي أضحى بها … عما يحاول في الحياة مترجما
نادى بها أبناؤه فتوحدت … كل الجهود لكي يعيش مكرما

فاليوم تظفر ليبيا إذ أبرمت	للمقصد الأسمى اتحاداً محكما
رفعت عقيرتها لنيل حقوقها	بين الشعوب وقد أبت أن تهضما
فالشرق أجمع لا يزال مؤيداً	لرجالها ولسعيهم مترسما
لا غرو إن نجحت قضية ليبيا	فالشرق فاه بحقها مترنما
والحق ما استندت دعائمه على	حجج مؤيدة فكان مدعما

هذه إحدى قصائد أحمد الفقيه حسن في الميدان السياسي ، وقد طرق موضوعات كثيرة في شعره ، ولولا خوف الإطالة لذكرت من قصائده ومن قصائد الشاعرين أحمد الشّارف وأحمد رفيق ما يبرهن على أن هؤلاء الثلاثة هم في طليعة شعراء العرب في هذا العصر ، وما ذكرته من شعرهم يؤيد ما قلته فيهم ، والخلاصة إن النهضة العلمية والأدبية سائرة قدماً إلى الأمام في ليبيا ، وذلك بسبب الموارد الطبيعية في البلاد ، ورغبة الشعب في طلب العلم في جميع مراحله .

(طرابلس) علي الفقيه حسن



المتحف الوطني بدمشق

(نواة المديرية العامة للآثار والمتاحف)

في عبده الحمصي

لمحة تاريخية عن مولد المتحف ونموه :

إن بلادنا الحبيبة بموقعها الهام المتوسط في العالم القديم ، وبشعبها الذكي الطموح الفعال ، لعبت دوراً كبيراً في إنشاء الحضارة الإنسانية وازدهارها على مرّ العصور . وإن تربتنا الطيبة خبأت لنا آثار الماضي ، وحفظت لنا الشواهد الصادقة على إسهام الإنسان العربي في خدمة الإنسانية .

في عصر الجمود والانحطاط في العهد العثماني تفشى الجهل وساد التواكل والكسل وعدم المبالاة . في ذلك الوقت بالذات كان الغرب قد تفتّح ، وأخذ يبحث عن أصول الحضارات ، فأخذ يفتش بلادنا باحثاً ومنقباً ، ولما كانت السلطات غافلة ، وهي تجهل أصلاً قيمة التراث الحضاري ، فإن آثارنا المكتشفة عفواً وقصداً أخذت طريقها إلى الغرب ، وراجت تجارة الآثار رواجاً عظيماً ، وذهب جزء كبير من تراثنا في هذا السبيل .

تنبهت الدولة العثمانية في آخر القرن التاسع عشر ، فأسست متحف استانبول حفظت فيه أيضاً بعض الآثار المكتشفة في بلادنا . ولما أراد السلطان عبد الحميد الثاني أن يكرم الامبراطور الألماني ولهلم الثاني ، سأله هذا أن يهديه المخطوطات

السريانية المودعة في قبة الخزنة من جامع بني أميه ، فقدّمها إليه دون أن يعلم قيمة هذه الهدية .

ظهر في دمشق في آخر القرن التاسع عشر بوادر من اليقظة والتفتح من الطبقة المثقفة النابهة كان على رأسها المرحوم الشيخ طـاهر الجزائري ، كان من آثارها أن أنشئت المكتبة الظاهرية ، وجمعت فيها المخطوطات القديمة .

جمع القنصل الألماني مجموعات أثرية هامة طوال مقامه في دمشق في أول هذا القرن العشرين ، ولما انسحب الألمان من بلاد الشـام بعد هزيمتهم في الحرب العـالمية الأولى وضعت مديرية المعـــارف آنذاك يدهـا على هذه المخلّفات وخزنتها .

كانت أول بادرة تدل على وعي الشعب العربي في بلاد الشـام في فجر الاستقلال سنة ١٩١٩ أن سارعت الطبقة المثقفة النـابهة إلى تأسيس المجمع العلمي العربي ومتحف دمشق . وأقرت المؤسستان في بناء المدرسة العادلية الكائنة في باب البريد .

كانت المجموعات الأثرية المخزونة في مستودع مديرية المعارف هي النواة الأولى في المتحف ، ثم أخذت تنمو شيئاً فشيئاً بضمّ اللقى والمكتشفـات الطارئة ، والاكتشافات التي تمّتْ عن طريق التنقيب العلمي ، واقتناء القطع الهامة من السوق الأثرية . . . هذا وقد قدّم بعض المواطنين أيضاً التحف التي كانوا يملكونها . . .

صُنّفت الآثار في المتحف القديم تبعاً للموضوع والمادة (١) ، وكان من بين المعروضات بعض التحف الفولوكلورية كالمحمل وشعائر الطرق الدينية ، كما كان بينها بعض الطُرَف الحديثة . هذه التحف والطُرَف أصبحت فيما

(١) راجع دليل مختصر للأستاذ الأمير جعفر الحسني ـ دمشق ١٩٣٠ .

بعد نواة لمتحف التقاليـــد الشعبية الذي أقرّ في قصر العظم بدمشق ، وافتتح سنة ١٩٥٤ .

أخذت المجموعات تتكاثر حتى ضاق بناء المدرسة العادلية عن استيعاب هذه المجموعات ؛ ففكرت الدولة السورية في بناء متحف جديد يليق بمحفظ التراث القومي ، فاختيرت الأرض المجاورة للجامعة وتكية السلطان سليمان ، وكانت أرضاً واطئة مرزغية مزروعة بأشجار الكينا (الأوكاليبتوس) . استصلحت الأرض ، وعهد إلى المهندس السيد ايكوشار وضع تصميم لمتحف دمشق يكون قابلاً لتنفيذه على مراحل .

انتهى بناء القسم الأول سنة ١٩٣٦ في أثناء تسلّم الوطنيين الحكم . وكان هذا القسم مؤلفاً من ردهة بعد المدخل ورواقين وأربع قاعات في الطبقة الأرضية ، وردهة وثلاث قاعات في الطبقة العلوية ؛ أعيد في قسم من القبو إنشاء مدفن للأسرة التدمرية (يرحاي) ، كما أعيد في الجهة الشرقية للمتحف إنشاء كنيس (١) دورا أوروبوس ، وكان الجناح الجنوبي مخصصاً لمكاتب الإدارة والعمل الفني .

في ذلك الوقت كان متحف حلب قد تأسس منذ سنة ١٩٢٩ ، فارتأت السلطات الأثرية حينذاك أن يختصّ متحف حلب بالآثار السورية القديمة التي تعود إلى ما قبل الغزو اليوناني ، وأن يختصّ متحف دمشق بالعهود الكلاسيكية (٢)

(١) من الجدير بالذكر أن القطع الفنية التي تؤلف الكنيس وهي حصة سورية كانت قد نقلت إلى الولايات المتحدة الأميركية مقابل تعويض ، إلا أن الأستاذ الأمير جعفر الحسني محافظ متحف دمشق إذ ذاك ، أصرّ على الاحتفاظ بها فأعيدت إلى دمشق ، وأعيد إنشاء الكنيس .

(٢) اليونانية والرومانية والبيزنطية .

والإسلامية . وعلى هذا الأساس حصل تبادل بالقطع الأثرية بين المتحفين ، وشغلت آثار العهود الكلاسيكية متحف دمشق ما خلا قاعتين خصّصتا لآثار الفن العربي الإسلامي ، إحداهما في الطبقة الأرضية والأخرى في الطبقة العلوية .

★ ★ ★

في سنة ١٩٣٦ جرى التنقيب في قصر الحير الغربي الواقع على بُعد ٨٠ كم إلى جنوبي غربي تدمر برئاسة الأستاذ دانييل شلومبرجه ، فارتأى المسؤولون الأثريون إذ ذاك أن تنقل العناصر الزخرفية إلى متحف دمشق ، ويعاد فيه إنشاء قسم من القصر إلى جوار القسم الأول من بناء المتحف ، فأعيد إنشاء القسم الأوسط من الجهة الشرقية ، وهو يتضمن الواجهة الرئيسية والباب والدهليز وجزء من رواق الباحة والدارين الملاصقتين الدهليز . ما كان من الممكن أن يحافظ على اتجاه القصر كما كان بالأصل ، فأتت الواجهة الرئيسية متجهة إلى الشمال عوضاً عن الشرق .

استمرت أعمال نقل الزخارف وتصنيفها ورسمها وترميمها وجمع أجزائها ووضعها في مكانها من البناء زمناً طويلاً ، ذلك لأن البلاد وقعت منذ سنة ١٩٣٩ في حالة حرب ، ولأن هذه الأعمال تتطلب الدقة والتروّي . وأخيراً تمّ هذا العمل الهام في سنة ١٩٥٠ ودُشّن القصر في السنة نفسها في عهد المدير العام الدكتور سليم عادل عبد الحق . وكانت هذه أول خطوة توسعية للمتحف الوطني بدمشق .

★ ★ ★

كان الجناح الجنوبي من القسم القديم من المتحف مشغولاً بمكاتب الإدارة والمعمل الفني على نحو ما ذكرنا آنفاً ـ فنقلت المكاتب إلى البناء الإداري الجديد في الجهة الجنوبية الغربية من المتحف ، والمعمل الفني إلى قبو هذا

البناء ، وأعيد تنظيم هذا الجناح من جديد ليكون لائقاً بالمعارض الأثرية والفنية ، وخاصة لأنه يتميز بوجود باب خاص له . في سنة ١٩٥٢ نُظّم أول معرض أثري في هذا الجناح ، وقد عرضت فيه نتائج تنقيبات فنية أجريت في ماري ورأس الشمرة (اوغاريت) والرقة والرصافة . . . . كانت المكتشفات القديمة منها نواة لفرع الآثار السورية القديمة الذي أحدث بعد قليل .

صدر في سنة ١٩٥٣ تشريع جديد أصبح فيه المتحف الوطني بدمشق مؤلفاً من الفروع الآتية :

١ — فرع الآثار السورية القديمة ، حفظت فيه الآثار التي تعود إلى ما قبل العهد اليوناني (من الألف الثالث حتى القرن الرابع ق . م) .

٢ — فرع الآثار السورية من العهود اليونانية الرومانية والبيزنطية .

٣ — فرع الآثار العربية الإسلامية .

٤ — فرع الفن الحديث ، وقد تكوّن هذا الفرع بنتيجة إقامة عدّة معارض فنية دورية منذ سنة ١٩٥٠ ، اقتني من كل منها عدد هام من اللوحات الجيدة ، فكانت المقتنيات نواة هذا الفرع .

★ ★ ★

في سنة ١٩٥٣ أنشئ الجناح الجديد من المتحف إلى غربي قصر الحير الغربي ، وهو مؤلف من ثلاث طبقات ومستودعات تحت مستوى الأرض . وقد خصصت الطبقة الأرضية لفرع الآثار العربية الإسلامية ، والطبقة الأولى للفرع الحديث ، والطبقة الثانية لتكون مقرّاً للمعارض الأثرية والفنية المؤقتة . في سنة ١٩٥٤ دشنت الفروع الثلاثة الجديدة : فرع الآثار السورية القديمة ، فرع الآثار العربية الإسلامية ، فرع الفن الحديث .

★ ★ ★

في سنة ١٩٥٥ أعيد تنظيم الجناح الجنوبي (الطبقة العلوية) من القسم القديم ، وأقيم فيه معرض المكتشفات الأثرية الثاني ، فكان المعرض تظاهرة علمية موفقة ، أثارت انتباه الاختصاصيين إلى سورية وأهميتها في الميدانين الأثري والمتحفي .

★ ★ ★

في سنة ١٩٥٦ وضع الحجر الأساسي لامتداد الجناح الغربي للمتحف الوطني بدمشق ، وكان المشروع يتضمن إضافة رواق وست قاعات للفرع الإسلامي وقاعة محاضرات ومكتبة ، وإضافة ثلاث قاعات للطبقة الأولى حيث مقرّ الفرع الحديث .

★ ★ ★

في سنة ١٩٥٨ أهدى المرحوم جميل مردم بك رئيس الوزراء الأسبق العناصر الفنية لقاعة داره الشامية المؤرخة من سنة ١١٥٠ هـ = ١٧٣٧ م ، فرأى المسؤولون إحلال هذه العناصر في قاعة المحاضرات وإكمال الزخرفة على النسق نفسه ، بحيث يُمثّل فيها الفن الشامي في القرن ١٢ هـ = ١٨ م . عهد بالعمل إلى الفنان الدمشقي الأصيل المرحوم السيد محمد علي (أبو سليمان) الخياط وأولاده وصنّاعه ، فأتت أعمال التركيب والإكمال جيدة .

ضُمّ إلى الجناح الغربي سنة ١٩٦٠ رواق كان يطلّ على الملعب المجاور نقل إليه فرع الآثار السورية القديمة ، وعندئذ وصل المتحف في توسعه إلى غايتـــه .

انتهت الأعمال العمرانية وأعمال تنظيم المتحف من جديد في سنة ١٩٦٢ ودشّنت الأعمال الجديدة باحتفال رسمي . وإلى هنا نستطيع أن نقول إن المتحف الوطني بدمشق استكمل لوازمه الأساسية ؛ لكننا في الواقع لا نقبل

أن يتجمَّد المتحف على هذا الشكل إلى مدى طويل ، فإن الآثار تتدفق من عدة مصادر على المتحف ، ومن الطبيعي أن نظلّ مرنين نساير سنة التطور والنموّ . لهذا يبدو لنا أنه من الضروري أن نضع في مشاريعنا المقبلة بناء متحف خاص بالآثار السورية القديمة ومتحف خاص بالفرع الحديث ، ومن ثَمَّ يستطيع الفرعان الباقيان أن يتوسعا في المساحات التي ستشغر .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن مكتشفات ما قبل التاريخ في سورية غدت كثيرة ، وهي تبشر بأن في سورية من هذا التراث المغرق في القدم شيئاً هامّاً وعظيماً . ومن الطبيعي في هذه الحال أن ينشأ متحف خاص بما قبل التاريخ تسهم فيه كلية العلوم في جامعة دمشق ، أو يخصص جناح هام في المتحف المزمع إنشاؤه للآثار السورية القديمة ريثما تتهيأ الإمكانات لإنشاء متحف خاص .

★ ★ ★

هذه لمحة عن تطوّر متحف دمشق منذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٦٩ ، لكن ما ذكرناه يتعلق بمتحف دمشق بالذات فقط ، وهو ليس بكاف لأن محافظ متحف دمشق القديم ما كانت أعماله مقتصرة على تنظيم المتحف وعرض الآثار واستقبال الزوار ؛ وإنما كان يشرف على قضايا تهريب الآثار ومراقبة تجار الآثار ومصادرة الآثار التي يتاجَر بها بصورة غير قانونية ، كما كان يُعنَى أيضاً بترميم الأبنيــة الأثرية . إذاً كان متحف دمشق القديم نواة المديرية العامة للآثار والمتاحف الحالية . ومن حقنا أن نلقي نظرة على هذه المديرية وفروعها وتنظيماتها وتتبّع تطورها لتكون الصورة التي نرسمُها كاملة .

★ ★ ★

تطور متحف دمشق من الناحية الإدارية حتى أصبح مديرية عامة:

كان متحف دمشق واسمه قديماً « دار الآثار الوطنية السورية » من الناحية الإدارية تابعاً لرئاسة المجمع العلمي العربي، وادارة المؤسستين مرتبطة بالحكومة الوطنية في ظل الانتداب الفرنسي . وكان في هيئة المفوضية العليا إدارة الآثار القديمة تولاها الأستاذ ڤيرولّو ثم الأستاذ سيريغ . وكانت هذه الإدارة هي التي تشرف على جميع آثار سورية ولبنان وتمنح رخص التنقيب، وقد سنَّت قانوناً الآثار، ووضعت تنظيمات لم تكن جميعها في مصلحة البلد، ولكننا يمكن أن نذكر للحقيقة والواقع أن المشرفين من الفرنسيين على مصلحة الآثار كانوا مخلصين لها، ولم يتهاونوا في حمايتها، ما خلا عدداً ضئيلاً اشتغلوا لمصالحهم الشخصية . أما الذين أدّوا خدمات عظيمة لسورية فهم الأستاذ فيرولّو، الأستاذ سيريغ، الأستاذ سوفاجه، الأستاذ دونان، الأستاذ شلومبرجه، الأب ستاركي، المهندس ايكوشار، المهندس آمي ... وهؤلاء كانوا مقيمين في سورية يعملون في الإدارة والتنقيب وترميم الأبنية الأثرية، ودراسة الآثار ونشرها، ويشرف بعضهم على بعثات التنقيب الأجنبية لئلا يساء الاستعمال .

أما علاقات متحف دمشق بالإدارة الأثرية الفرنسية، فقد كانت علاقة ودّ وتفاهم بصورة عامة، وقد تشكلت لجنة إدارية مشتركة برئاسة رئيس المجمع العلمي العربي، أمين سرها محافظ متحف دمشق الأستاذ الأمير جعفر الحسني، وأعضاؤهـــا الأستاذ فيرولّو عن المفوضية العليا، السيد راجي مستشار وزارة المعارف، الأستاذ أوستاش دولوري مدير المعهد الفرنسي في دمشق ومستشار الفنون الجميلة، وعضوان من المجمع العلمي العربي، كانت هذه اللجنة تدعى إلى الاجتماع بناء على اقتراح أمين السر وموافقة الرئيس. لم تجتمع هذه اللجنة إلا مرة واحدة .

لا يمكن أن نغفل دور المعهد الأثري الفرنسي في بيروت والمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق (الذي كان في الوقت نفسه مركز الفنون الجميلة) في إيواء العلماء الفرنسيين والمهندسين والعاملين في الحقل الأثري وفي تشجيع الفنون الجميلة وخاصة الصناعات اليدوية الدقيقة (الأرتيزانا) وحفظ بعض التقاليد الشعبية . . . ومن الجدير بالذكر أن قصر العظم بدمشق كان مقرّ المعهد الفرنسي ، وفيه أحييت هذه الفنون .

★ ★ ★

بعد انتهاء عهد الانتداب وجلاء القوات الفرنسية سنة ١٩٤٦ وحصول سورية على الاستقلال التام ، كان لا بدّ من وضع تشريع وتنظيم جديدين للآثار ، عندئذ أحدثت مديرية للآثار العامة جعل مقرها أولاً في قصر العظم بدمشق ، ثم نقلت إلى البناء الجديد المجاور لمتحف دمشق .

وضع قانون جديد للآثار سنة ١٩٤٦ كان أول ما يلفت النظر فيه حماية الآثار القومية ، وقد حُرّم على بعثات التنقيب أن تقاسم البلد آثارها بالتساوي ، وإنما سمح لها بأن تأخذ القطع المتكررة ؛ ولما كان لا يوجد في الآثار القديمة قطعتان متكررتان ، لأنها جميعاً من صناعة يدوية ؛ لذا فإن البعثات اكتفت بحقها في السبق بالنشر وأخذ النسخ الجصية عن القطع الأثرية التي تهمّها ، وسمح لها في حالات خاصة استعارة الآثار بقصد دراستها كالرُقُم الفخارية وإعادتها.

عُدّل قانون الآثار سنة ١٩٦٣ مسايرة لسنة التطور ، وقد سمح القانون الجديد بمنح البعثات الأثرية بعض الآثار المتماثلة .

★ ★ ★

كان جهاز مديرية الآثار العامة ضعيفاً في سنة ١٩٤٦ ، وقد توسع ملاكها على مراحل : سنة ١٩٤٧ ، سنة ١٩٥٠ ، سنة ١٩٥٣ ، سنة ١٩٥٩

وقد غدا اسمها في الإصلاح الأخير « المديرية العامة للآثار والمتاحف » وأصبحت منذ سنة ١٩٥٣ ثم ١٩٥٩ مكونة من المديريات الآتية : مديرية الشؤون الإدارية ، مديرية المتاحف ، مديرية التفتيش ، مديرية التنقيب (الحفريات والدراسات) ، مديرية الهندسة ، مديرية الوثائق التاريخية ، مديرية المعمل الفني ، شعبة التوجيه ، شعبة التصوير ، أمانة المكتبة (ملحقة بمديرية الشؤون الإدارية) .

صار للمديرية العامة فروع في المحافظات على درجات متفاوتة أهمها : مديرية آثار ومتاحف المنطقة الشمالية (وهي تضم متحف حلب والأجهزة الإدارية والفنية المماثلة لدمشق للإشراف على حماية الآثار وترميمها وحفظها ...)

أحدث **متحف حماة** منذ سنة ١٩٥٦ ، ونظم سنة ١٩٦٠ في قصر العظم بحماة ، وجعل أيضاً مقرّ مفتش المنطقة الوسطى . في الوقت نفسه أحدث **متحف طرطوس** وأقر في معبد طرطوس الأثري ، وأنيط بمحافظ المتحف الإشراف على الأعمال الأثرية في الساحل . أنشىء أيضاً **متحف تدمر** في بناء جديد وعُيّنَ له محافظ متحف ، أنيط به الإشراف على المنطقة الأثرية . وكان **متحف السويداء** قد أنشىء منذ سنة ١٩٢٥ ، فنما المتحف وبات من الضروري جداً إنشاء متحف جديد ، ومحافظ متحف السويداء يشرف أيضاً على الأعمال الأثرية في الجبل . أنشىء في **بصرى متحف** في سنة ١٩٦٧ في أحد أبراج القلعة ، وسمّي له محافظ يشرف في الوقت نفسه على جميع الأعمال الأثرية في حوران .

لدى المديرية العامة للآثار والمتاحف مشاريع جديدة لإنشاء عدة متاحف في حمص ودير الزور واللاذقية ، وقد بات من الضروري جداً أن يعاد النظر في ملاك المديرية العامة فيوسع لتلبية الحاجة الملحّة ، حتى تستطيع هذه المديرية أن تنهض بالأعباء المنوطة بها .

منجزات المديرية العامة للآثار والمتاحف :

يحسن بنا أن نختم هذه الكلمة بخلاصة سريعة عن المنجزات التي أعطاها متحف دمشق منذ أن كان نواة حتى أصبح مديرية عامة في مدى نصف قرن .

١ — أشرنا إلى المتاحف المحدثة في المحافظات لكننا لم ننوّه بإنشاء متحف التقاليد الشعبية والصناعات الدقيقة منذ سنة ١٩٥٣ وإقراره في قصر العظم بدمشق . إن هذا المتحف يعتبر من أجود المتاحف العالمية لموقعه في المدينة القديمة ، ولإطاره الجميل في أحسن دور دمشق ، ولعناية القائم عليه التي تبدو في جمال العرض وحسن التنسيق وكمال الذوق .

بعد أن وضعت المديرية العامة يدها على المدرسة الجقمقية التي خربتها الغارة الفرنسية سنة ١٩٤٢ ورممتها ، فقد أحدثت فيها متحفاً تُمثّل فيه المدرسة العربية القديمة وتطور الخط العربي . هذا المتحف في طريق الإعداد الآن .

ويجدر بنا أيضاً أن نشير إلى بناء متحف حلب الجديد الذي سيكون بعد الانتهاء من إعداده من أحسن متاحف الشرق الأوسط . فهو يضمّ ثروة هامة من الآثار السورية القديمة وعدداً لا بأس به من الآثار الكلاسيكية والعربية الإسلامية .

★ ★ ★

٢ — عنيت المديرية العامة بترميم الأبنية الأثرية في جميع أرجاء القطر العربي السوري حسب إمكاناتها المادية ، وكانت طبعاً تفضل الأهمّ على المهم ، واستطاعت في هذه المدة أن تنقذ مواقع أثرية وأبنية من الانهيار ، ولا بدّ من أن نشير إلى بعض الأعمال الضخمة التي حققتها في تدمر وبصرى والرقة وحاليـاً في أفامية والرصـافة وقلعة حلب وقلعة الحصن وقلعة المرقب وقلعة صلاح الدين والمدرسة الجقمقية بدمشق والمطبخ العجمي بحلب ... بالإضافة

إلى المؤازرة الهامة التي تقدمها إلى وزارة الأوقاف في إنقاذ المباني الدينية ، وبخاصة جامع بني أمية في دمشق .

★ ★ ★

٣ — **الاهتمام بالتنقيب** (١) عن الآثار وتشجيع البعثات الأجنبية المخلصة على العمل في بلادنا لإلقاء الضوء على تراثنا العظيم . سنذكر فيما يلي ثبتاً بالبعثات الأجنبية وآخر بالبعثات الوطنية :

البعثات الأجنبية : بعض هذه البعثات لا يزال مستمراً ، وبعضها انقطع منذ زمن : البعثة الفرنسية برئاسة الأستاذ الدكتور **كلود شيفر** العاملة في رأس الشمرة (أوغاريت) .

البعثة الفرنسية برئاسة الأستاذ **أندره بارو** العاملة في تل حريري (ماري) .

البعثة الفرنسية برئاسة الأستاذ **سيريغ** التي عملت في تدمر .

البعثة الفرنسية التي عملت في حمص برئاسة الأستاذ **سيريغ** .

البعثة الفرنسية برئاسة **فويزول** وإشراف الأستاذ **سيريغ في** سيرهوس .

البعثة الفرنسية التي عملت في المدن الميتة في الشمال برئاسة الأستاذ **تشالنكو** .

(وقد كان عملها يستهدف أخذ المخططات والدراسة أكثر من التنقيب) .

البعثة الفرنسية برئاسة الأستاذ **شلومبرجه** في قصر الحير الغربي .

البعثة الفرنسية برئاسة الأستاذ **دومينيل دوبويسون** في قَطْنة (المشرفة) وخان شيخون وتدمر .

البعثة الفرنسية برئاسة الأستاذين **جورج سال وأوستاش دولوري** في مسكنة على الفرات .

(١) عرضت هذه الفقرة من البحث على السيد نسيب صليبي (من مديرية الحفريات والدراسات).

البعثات الفرنسية برئاسة الأستاذ **تورو دانجان** والأستاذ **دونان** في أرسلان طاش وتل أحمر وتل حاجب والعشارة .

البعثة الفرنسية برئاسة الأستاذ **بول بيزار** في تل النبي مند (قادش) .

البعثة الدانماركية برئاسة الأستاذ **هارولد إنهولت** في حماة .

البعثة الدانماركية برئاسة الدكتور **ريس** في تل سوكاس (قرب جبلة) .

البعثة البلجيكية برئاسة الأستاذ **مايانس** في أفامية .

البعثة البلجيكية برئاسة الأستاذ **بالتي** في أفاميه .

البعثة البلجيكية برئاسة الأستاذ **فينيه** في تل قنّاص (حوض الفرات) .

البعثة الأمريكية الفرنسية المشتركة برئاسة الأستاذ **كيمون** بالاشتراك مع أساتذة جامعة ييل في دورا أوروبوس منهم الأستاذ **كوبلنغ** والأستاذ **براون** والمهندس **پيرسون** .

البعثة الأمريكيه برئاسة الأستاذ الدكتور **أوليغ غرابار** في قصر الحير الشرقي.

البعثة الأمريكية برئاسة الأستاذ **رالف سوليكي** في يبرود .

البعثة الأمريكية برئاسة الأستاذ **كون** في جرف العجلة (قرب تدمر) .

البعثة الأمريكية برئاسة الأستاذ **فان لون** في المريبط وسلنكحية (حوض الفرات)

البعثة الإنكليزية برئاسة الأستاذة **سيتون ولياموز** في تل رفعة .

البعثة الإنكليزية برئاسة الأستاذ **مالوان** في الميناء (قرب انطاكية) **وتل براك وشاكر بازار** .

البعثة الألمانية[1] برئاسة الأستاذ **فون أوبنهايم** في تل حلف .

البعثة الألمانية برئاسة الأستاذ **شنيدر** ثم الأستاذة **أوتودورن** في الرصافة .

---

(١) يجدر بنا الإشارة إلى أن هذه البعثة الأثرية الألمانية برئاسة الأستاذ فون أوبنهايم قامت بالتنقيب في الموقع نفسه قبل الحرب العالمية الأولى بين سنتي ١٩١١ ـ ١٩١٣ .

البعثة الألمانية برئاسة الأستاذ **كولوتيز** في الرصافة .

البعثة الألمانية برئاسة الأستاذ الدكتور **مورتغارت** في تل الفخيرية ثم في تل الخويرة .

البعثة الألمانية برئاسة الدكتور **كلاوس بريش** في جبل أسيس (البادية) .

البعثة البولونية برئاسة الأستاذ **ميخائيلوفسكي** في تدمر .

البعثة الإيطالية برئاسة الأستاذ **ماتي** في تل مرديخ .

البعثة السويسرية برئاسة الأستاذ **پول كولار** في تدمر .

البعثة اليابانية برئاسة الأستاذين **سوزوكي** و **كوبوري** التي قامت بتحريات في مواقع إنسان ما قبل التاريخ .

البعثة الكندية برئاسة الأستاذ **بيير كانيفيه** في الغاب (شمالي قلعة المضيق) .

البعثة السويدية برئاسة الأستاذ **ألفريد هالدر** في تل الصالحية (غوطة دمشق).

البعثات الوطنية :

قامت هـــذه البعثات بمواسم متعددة في المواقع المذكورة فيما يلي ، ولا يزال أكثرها مستمراً :

بعثة التنقيب في الرقة برئاسة الدكتور **سليم عادل عبد الحق** وبمؤازرة الأستاذ **دونان** وتنفيذ السيد **نسيب صليبي** .

بعثة التنقيب في الرقة برئاسة السيد **نسيب صليبي** .

بعثة التنقيب في الرقة برئاسة الأستاذ **قاسم طوير** .

بعثة التنقيب في أم حوران برئاسة الأستاذ **عدنان البني** بالاشتراك مع السيد نسيب صليبي والسيد نظمي خير .

بعثة التنقيب في عمريت برئاسة السيد **نسيب صليبي** ومؤازرة الأستاذ **دونان** .

بعثة التنقيب في تل الكزل برئاسة الأستاذ **عدنان البني** ومؤازرة الأستاذ **دونان** والسيد **نسيب صليبي** .

بعثة التنقيب في تدمر برئاسة الأستاذ **عدنان البني** وعضوية الأستاذ **خالد الأسعد** والسيد **نسيب صليبي** .

بعثة التنقيب في تدمر (مدفن طاعي والمقبرة الشرقية والجنوبية) برئاسة الدكتور **سليم عادل عبد الحق** وتنفيذ السيد **نظمي خير** و **عبيد الطه** .

بعثة التنقيب في تدمر (المدافن الشرقية الجنوبية) برئاسة السيد **نسيب صليبي** بالاشتراك مع السادة : **عبيد الطه** ، **نظمي خير** ، **سليان المقداد** .

بعثة التنقيب في مينة البيضا برئاسة الدكتور **هشام الصفدي** بالاشتراك مع السيد **نسيب صليبي** والمرحوم **أكوب كيريشيان** .

بعثة التنقيب في عين دارا برئاسة الأستاذ **فيصل الصيرفي** .

بعثة التنقيب في دمشق (الحريقة) برئاسة الأستاذ **عدنان البني** وتنفيذ السيد **نسيب صليبي** .

بعثة التنقيب في دمشق (الخراب) برئاسة الأستاذ **عدنان البني** وتنفيذ السيد **نسيب صليبي** .

بعثة التنقيب في دمشق (الجامع الأموي) برئاسة الأستاذ **عبد القادر الريحاوي**.

بعثة التنقيب في دمشق (فاخورة الصالحية) اشترك بها السيد **رئيف الحافظ** والسيد **نظمي خير** .

بعثة التنقيب في تل الرماد قرب (قَطَنَـا) بمؤازرة الأستـاذ **هنري دوكونتانسون** (تكليفاً) .

بعثة التنقيب في تل الخويرة وتل أبو الشويحات بمؤازرة السيد **لوفوى** (تكليفاً) والأستاذ **عبد القادر الريحاوي** في موسم ، والسيد **نسيب صليبي** في موسم آخر .

بعثة التنقيب في تل عشترة (حوران) برئاسة الأستاذ **علي أبو عساف** .

بعثة التنقيب في تل الخزامى (مطار دمشق الدولي) برئاسة الأستاذ **هنري دو كونتانسون** تكليفاً بمؤازرة السيد **مصطفى الملوك** وثلاثة خبراء من الأجانب .

بعثات التنقيب برئاسة السيد **رئيف الحافظ** في دير العدس وأم نير وطيبة الإمام وقحانة وصوران وأم جلال (اكتشاف قطع هامة من الفسيفساء) .

بعثة التنقيب في بصرى برئاسة السيد **سليمان المقداد** .

بعثة التنقيب في قنوات وشهبا برئاسة السيد **غالب عامر** .

بعثة التنقيب في اللطامنة بمؤازرة الأستاذ **مودرمان** ثم الأستاذ **ديزمون كلارك**.

★ ★ ★

٤ — أولت المديرية العامة عنايتها بحماية **الممتلكات الأثرية** ومنع سوء الاستعمال في التنقيب عن الآثار بصورة غير مشروعة وتهريب الآثار ، وكانت الدائرة المختصة في معالجة هذه الأمور هي **مديرية التفتيش** . ومن الحق أن نذكر أن هذه المديرية قدّمت خدمات كبيرة سواء أكان في تقديم الدراسات والاقتراحات في ترميم الأبنية الأثرية ، أم في منع التنقيب السري وتهريب الآثار وإساءة الاستعمال أياً كان شكله .

★ ★ ★

٥ — **المنشورات** : أهم منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف هي « مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية » وقد صدرت بانتظام منذ سنة ١٩٥١ . أصدرت المديرية العامة باللغات العربية والأجنبية أدلة وكتب عن المتاحف العربية

السورية والمواقع الأثرية ، ونشرت بعض الكتب التاريخية والأثرية والفنية النافعة وبعض النشرات المبسطة . وأصدرت أخيراً مجموعات من الصور الملونة عن روائع التحف المحفوظة في متاحفها .

★ ★ ★

وأخيراً نحب أن نقول : إن ما ذكرناه هنا ليس إحصاءً تاماً مبنياً على استقصاء دقيق ، وإنما هو رصيد مجمل عن نشاط وأعمال هذه المؤسسة في مدى نصف قرن . وإذا قيس هذا الرصيد بالإمكانات الفنية والمالية والبشرية لهذه المؤسسة الصغيرة ، فإنا نجد أن منجزاتها شيء يذكر في حياة هذه البلاد . وإنا لنرجو أن تهتم الدولة في رعاية هذه المؤسسة وتشجيعها ومدّها بالأموال اللازمة حتى تستطيع أن تلعب دورها وتقوم بالأعباء المترتبة عليها بشكل أكمل .

محمد أبو الفرج العش
المحافظ الرئيسي للمتحف الوطني بدمشق

ذكريات ... المجمع العلمي العربي

والأستاذ محمـــد كرد علي

في أعقاب الفتح العربي لبلاد الشام أواخر عام ١٩١٨ وجلاء الجيش العثماني عن ربوعها قامت في المنطقة الشرقية من بلاد الشام تحت إمرة القائد العام لجيش الثورة العربية الشمالي (الشريف فيصل بك) — الملك فيصل فيما بعد — حكومة عربية عسكرية موقتة تمثل أماني الثورة وحركة التحرير العربي في تلك الأيام وتنادي بدولة عربية متحـــدة تضم الأراضي العربية المحررة وتبوىء الأمة العربية في المشرق مكانها تحت الشمس . وانطلاقاً من تلك الأماني شرع روادها وحملة لوائها يوفرون أسباب قيام تلك الدولة بجميع مشخصاتها ، وكان من أهدافهم بالإضافة إلى بناء الجيش العربي النظـامي (القوات المسلحة) أن ينقلوا سلطان الدولة إلى الشعب عن طريق المنظمات الشعبية والانتخابات النيابية العامة ، وأن يرفعوا صرح التعليم الجامعي بنقل علومه وفنونه من اللغـات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وأن يجعلوا من لغة الضاد لغة التعليم والتدريس في جميع الكليات بما في ذلك (الكلية الحربية) مع تعريب جميع المصطلحات العلمية والفنية بما في ذلك مصطلحات التدريب العسكري وفنون الحرب والرتب والألقـاب العسكرية والمدنية ، وكنتيجة حتمية لهذا المنهاج أُنشئت منذ قيام الحـكم العسكري (لجنة التأليف والترجمة) أواخر عام ١٩١٨ .

* * *

هذه اللجنة تحولت في فترة وجيزة وبصلاحيات أوسع إلى (ديوان المعارف) ، وهذا الديوان لم يلبث حتى ألغته الحكومة القائمة وأحلت محله (المجمع العلمي العربي) ليكون أوفى بحاجات النهضة القومية الحديثة ، وعهدت برئاسته إلى المغفور له الأستاذ محمد كرد علي لكفاءته العلميـة والأدبية وشهرته الواسعة فكان أول رئيس لهذا الصرح الشامخ كما أسمتني مميزاً للمجمع ، وإنْ أبقتني في منصب (أمين السر الخاص لحاكم سورية العسكري العام) على سبيل الاستعارة ، ومن غير أن تقطع صلتي الوثقى بالأستاذ الرئيس .

وتابع الأستـاذ كرد علي سيره الموفق في إدارة المجمع وفي التخطيط لمنهاجه وحمل سراجه ، فاتسع مجاله وأصبح أكثر من ندوة لغة أو مصطلحات ، بل أصبح مركزاً ثقافياً هاماً يتطلع إلى إحياء التراث العربي والإسلامي ، وذلك بالقاء المحاضرات الممتعة ـ يلقيهـا الزملاء وعلمـاء وأدباء مختصون ـ ووضع البحوث القيمة ونشر المخطوطات المطوية النادرة وعقدِ الصِلات وتبادل المعلومات مع كبار المستشرقين ورواد العلم في المغرب والمشرق . وقد أنشأت المجمع مجلته الخاصة فحفلت بمقرراته وبحوثه وظلت منـاراً لآثاره وبستاناً لأزهاره وثماره . ولم يكن كرد علي في مسلكه ومنهاجه وما وجّه إليه المجمع مع زملائه إلا مرآة لمذهب أستاذه أو مدرسة أستاذه (الشيخ طاهر الجزائري) رحمه الله . تلك المدرسة التي فتحت عينيها على أضواء الدستور العثماني الأول (دستور مدحت باشا أبي الأحرار العثمانيين) وعلى حركة اليقظة العربية الأولى والإصلاح الإسلامي منسجمة إلى حـد كبير مع دعوة السيد جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده .

وكان الشيخ طاهر الجزائري من الذين استهواهم العلم فعشقوا المعرفة للمعرفة ، وتبحروا في المعقول والمنقول ، وعاشوا عيشة زهد وتقشف واستغراق في الهوايات الروحية والحياة الفكرية ، وله في العلوم العربية والإسلاميه

مؤلفات قيمة منها (توجيه النظر إلى أصول الأثر) و (التقريب إلى أصول التعريب) و (التبيان في معاني القرآن) ومن أمتع كتبه المخطوطة وأنفعها (الكناشات) وقد علمت أنها فقدت بعد وفاته لسوء حظ المكتبة العربية[١] .

والشيخ طاهر هو الذي أسس مكتبة الملك الظاهر وحشد فيها نفائس المخطوطات والمطبوعات ، وهي المكتبة التي آلت إلى المجمع العلمي العربي وكان الأولى أن تُسمى (المكتبة الطاهرية) لا (الظاهرية) نسبةً إلى مؤسسها وتخليداً لذكره الطيب وعمله المبرور .

★ ★ ★

أعود بعد ذلك لمتابعة كرد علي أتأثر خطاه ، وأتحدث عن مغداه وممساه ، مشيراً إلى أني عرفت الأستاذ أول ما عرفته سنة ١٩١٢ عندما غادرت بيروت إلى دمشق لتوثيق الصلات وشد الأواصر بين طلاب البلدين ، وكانت الحركة الطلابية العربية في أوج نشاطها وعنفوان شبابها ، وللكرد علي يومئذ صحيفتان صحيفة (المقتبس) اليومية ومجلة (المقتبس) الشهرية ، أولاهما تدعو إلى التحرير السياسي والثانية إلى التحرير الفكري . كانت الصحيفتان مركزاً من مراكز القوة الأدبية في بلاد العرب ، ولهما أثر محمود في توجيه الشباب العربي ، والدعوة إلى رفع الكمائم وشد العزائم ، وقد كان الكرد علي يومئذ ثالث ثلاثة في دمشق : (شكري العسلي) نائب دمشق وخطيبها الشجاع في البرلمان العثماني ، و (عبد الوهاب الانكليزي) مفتش الملكية أو المفتش الإداري والداعية الأنيس الرصين إلى الاصلاحات الادارية في بلاد العرب ، و (الأستاذ كرد علي) نفسُه وهو صاحب القلم الحر والنقد اللاذع المر ، وشدّما كنت مغتبطاً بلقاء الأستاذ المناضل في مكتب (المقتبس) لما تميز به رحمه الله من لطف المقابلة وحسن المجاملة ووضوح المداولة ، ورأيت عنده الدكتور (صلاح الدين القاسمي) شقيق العلامة (الشيخ جمال الدن القاسمي) صاحب

(١) لم تفقد وهي محفوظة الآن بدار الكتب الظاهرية . (المجلة)

(مصطلح الحديث) وناشر (لقطة العجلان) للإمام الزركشي . أما الدكتور القاسمي فقد كان طبيباً وأديباً ومن النقاد الموهوبين المنصفين ، تصدى لمن أسرفوا في نقد الكاتب المجدد (مصطفى لطفي المنفلوطي) فنشر في مجلة المقتبس مقالاته المتسلسلة (نظرات في النظرات) فأبدع وأنصف وأفاد ، وقد تعارفنا في هذا اللقاء لأول مرة وتبادلنا الأحاديث القومية والأدبية ، وحدد الأستاذان بحماسة وكياسة معالم الطريق ، وانتهى بنا المجلس على خير ما أردنا . وقد كان الأستاذ كرد علي يومئذ غير مأمون الجانب لدى غلاة الطورانيين حتى إذا تشبثوا باضطهاده ، في فترة من فترات تنمرهم فرَّ إلى الغرب وتنقل في أرجائه ، واتصل بدور كتبه ومتاحفه ومعاهده ومعابده ، واضطلع عن كثب على مسالك الحياة الغربية والتقدم المادي والأدبي في أوروبا ، وكتب كتابه (غرائب الغرب) فازداد بذلك شهرة ومكانة ، ودار الفلك دورته فلم ألق الكرد علي إلا في صيف عام ١٩١٤ قبيل الحرب العالمية الأولى ، وكنت في طريق عودتي إلى ديار الشام من القاهرة ، فمررت بدمشق وعلمت أنه قد عاد إلى الوطن ولم يستأنف إصدار صحيفته ، بل لزم بيته مكباً على دراساته التاريخية الخاصة ، فزرته في منزله مشوقاً إلى لقائه ، ووجدت عنده زائراً آخر هو (الشيخ محمد الخضر حسين) التونسي من كبار علماء تونس وأحرارها ، وهو الذي تولى بعد زمن طويل ولمدة من الوقت مشيخة الجامع الأزهر في عهد الثورة المصرية الحاضرة . وقد أنِستُ بلقاء الأستاذين الكبيرين معاً ، وتبادلنا الأحاديث عن المغرب والمشرق ، وكان الكرد علي في سبيله إلى إنجاز كتابه الكبير (خطط الشام) الذي سلخ في تأليفه وجمع مواده أربعة عشر عاماً ، وأعلمنا في ذلك المجلس أن رحلته إلى الغرب وما اطلع عليه في دُور كتبه من مخطوطات عربية وإسلامية نادرة ولا سيما في (روما) قد أعانه كثيراً على إنجاز مخطط كتابه (خطط الشام) .

ودّعنا الأستاذ مغتبطين بلقائه المؤنس وحديثه النافع ، ولم ألقه بعد ذلك حتى عام ١٩١٥ وكانت الحرب العالمية الأولى قد عمَّ خَطْبُها واستفحل كربهـــا وأخذت تهب رياح الاضطهادات المشهورة في بلاد العرب ، وقائد (عربستان) أو قائد الجيش الرابع (جمال باشا) قد بدأ يسوق أحرار الأمة إلى (الديوان العرفي) في عاليه بحقد وعنف ، وجاء دور صاحبي الكرد علي (شكري العسلي) و (عبد الوهاب الانكليزى) فكان نصيبها كجُملةِ الشهداء الأبرار وجهٌ أغبر وموت أحمر . ولمس الكرد علي على رأسه فآثر (التقية) ، ولبس ثوباً غير ثوبه كما حمل قلماً غير قلمه ، ودخل فيما أسماه بعد ذلك (أدب الحرب) وهو ما سمته ينعت به كتابيه (النهضة العلمية) و (الرحلة الأنورية) وعندما وضعت الحرب أوزارها وجلا العثمانيون عن الوطن ظل ملتصقاً بوطنه ، وهو يعلم أن له من الماضي الحافل ومحصولِ قمحه المِعْطاء ما يُغطي على الزوّان ورحب به العهد العربي الجديد ولم يتخل عنه إخوانه القدماء ، بل التقوا معه على درب العلم فولوه رئاسته ، فكان أول رئيس للمجمع العلمي العربي على ما أسلفنا .

وكان البقاء كل البقاء والذكرى أنفعُ الذكرى لهذا المجمع العلمي ورائِدِه الأول ، وقد مر على تأسيسه نصف قرن ، وما زال راسخ البنيان مشرق الإيمان والبيان ، ومسيرتُه هي المسيرة تلوح على الدوام شعلةً في قمة ، وعلماً في أمة .

محمد الشريقي

✲✲✲

نظـــرة في

مجمع اللغة العربية في دمشق

إدارات التربية (المعارف) عندنا عبارة عن إدارة المدارس الابتدائية والثانوية لا غير ، ثم دخلتها مؤخراً ، إدارة الكليات ثم الجامعة ، وكلها إدارة مدرسية لا غير .

وإن ما يرفع العلوم والآداب إلى مستوى مقبول ومرتكز على ثقافة راقية المؤسسات العلمية والأدبية والفنية ، وهذه هي جماع الثقافة المقبولة .

وإن جهودنا التفتت إليها من وقت قريب . وكانت المدارس العلمية تقوم بها ، فانصرفت عنها الأذهان لما لحقها من خمول نوعاً من عدم العناية بها ، وإهمال رعايتها .

وعندنا في الشام أول مؤسسة عربية علمية أدبية تكونت على يد أفاضل كانوا حريصين على ثقافة الأمة وأن ترتفع عن مستواها هذه المؤسسة .

كان الأستاذ محمد كرد علي المغفور له زاول الصحافة مدة وأظهر جريدة المقتبس ، ومجلة المقتبس وعلم قيمة التعاون العلمي ، ولحظ أن من أجله ما ينفع ثقافة الأمة وإعلاء شأنها .

اجتمع مع أفاضل من أهل الشام ، وأكابر رجالهم لهذا الغرض . فقرروا تأليف (مجمع علمي بدمشق) ، فلم تمانع الدولة في تشكيله بل رحبت بالمشروع وتم رسمياً . ودعي للمشاركة فيه جماعة من أفاضل أهليه . ومن سائر الأقطار

العربية والإسلامية والأجنبية . وكان تأسيسه في سنة ١٩١٩ م . ولم تمض مدة حتى تأسست له :

١ — (مجلة المجمع العلمي بدمشق) ، وصدر أول عدد منها في سنة ١٩٢١ م ثم سميت أخيراً بـ (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق) . والآن بهذا الاسم ودامت من حين صدور أول عدد منها إلى اليوم مستمرة النشر . وهذه المجلة أكبر ظاهرة لأعمال المجمع المهمة . في خلال عمرها المديد . ونأمل لها الحياة السعيدة الطويلة .

وفي بحوثها أفادت الثقافة والدراسات العربية كثيراً ، وصارت من جلّ المصادر . اشترك في تحريرها علماء وأدباء كثيرون . وتراكمت بحوثهم فصارت لا يستهان بها للمتتبعين . ومصدراً مهماً من مصادر الدراسات العلمية . وقد نرى فيها ما نراه في غيرها .

٢ — ولم تقف أعمال المجمع عند هذا ، وإنما نشر بعض المحاضرات على حدة .

٣ — أحيت بعض التراث النافع من آثار الأمة .

٤ — نشرت بعض آثار كتابها وغيرهم .

٥ — أسست خزانة كتب يحتاجها التتبع كثيراً ، ولا يستغني عنها بوجه ، ومن جملة ما فيها مجلة المجمع . وصارت مجموعة كبيرة .

وبذلك زادت في الثقافة والثروة العلمية . وفي هذا العمل الجليل ما يشكر عليه المجمع . وبمثله تزداد الحركة العلمية والأدبية وتنتعش وتتوالى البحوث ، وترسخ في نمو وازدياد وتكامل ونشاط .

عاش المجمع عيشة طيبة نافعة ، نرجو له الدوام ما دامت الحياة خالدة سعيدة في تكامل وتزايد . ومجلته روضة مختلفة الألوان . وفيها ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين . فيها من المعرفة ضروب . ومن الثقافة أنواع شتى .

لا تقابل بجهود شخص، بل هي بجموعة جهود . وبذلك علت قيمتها، وارتفع قدرها . وزاد ثمنها ...

ونحن الآن في زمن تقاربت أقطاره الشاسعة ، وحصل إمكان تعاون ثقافي أكبر في أقطار عديدة . فمن الضروري التعارف ، وتبادل هذه الثقافة ليعلو المستوى العلمي والأدبي ، استفادة من كل تجدد ، اتصلت مجامعه ، وزاد تبادل الثقافة . وجل ما نتمناه أن تؤكد الصلات ، وأكثر ما يهمنا إحياء التراث العربي . ليزيد في ثقافة الأمة ، من جنس ما تتطلب فقد كشف عنها الغطاء ، وفيها نشاط العلوم والآداب التي هي أولى بنا ، ونحن أحق بها ، وأهلها ، واليوم خزائن الكتب مفتوحة ، ومعدة للراغبين . وفيها ما يطمئن الحاجة العلمية والأدبية مما تدعو للمعرفة المكينة ، وتعين الماضي الجليل للأمة وعلاقة كل قطر به وربما شارك أقطار عديدة . وتقديم خدمة من الواحد خدمة للكل . وهذا المجموع ثروة متراكمة ومهملة من مدة تحتاج إلى إشارة وإحياء .

وفق الله العاملين لخير الأمة

عباس العزاوي

❋❋

آراء وأنباء

أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق

في سنة ١٣٨٨ / ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩ م

الأعضاء العاملون

١ — الرئيس : الدكتور حسني سبح

٢ الدكتور أسعد الحكيم

٣ 〃 أمجد الطرابلسي

٤ الأستاذ جعفر الحسني (الأمين العام للمجمع)

٥ الدكتور جميل صليبا

٦ 〃 حكمة هاشم

٧ 〃 سامي الدهان

٨ الأستاذ شفيق جبري

٩ الدكتور شكري فيصل

١٠ الأستاذ عارف النكدي

١١ 〃 عبد الهادي هاشم

١٢ الدكتور عدنان الخطيب

١٣ الشيخ محمد بهجة البيطار

١٤ الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي

١٥ 〃 محمد كامل عياد

١٦ الأستاذ محمد المبارك

١٧ 〃 وجيه السمان

الأعضاء المراسلون

الجمهورية العربية السورية

١ الدكتور عبد الرحمن الكيالي

٢ الأستاذ عمر أبو ريشة

٣ 〃 محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل)

٤ الدكتور قسطنطين زريق

الجمهورية العربية المتحدة

٥ الدكتور أحمد زكي

٦ 〃 طه حسين

لبنان

٧ الأستاذ أمين نخلة

٨ 〃 أنيس المقدسي

٩ الدكتور صبحي المحمصاني

١٠ 〃 عمر فروخ

١١ الأستاذ محمد جميل بيهم

فلسطين

١٢ الأستاذ قدري حافظ طوقان

المملكة الاردنية الهاشمية

١٣ الأستاذ محمد الشريقي

١٤ الدكتور ناصر الدين الأسد

الجمهورية العراقية

١٥ الأستاذ أحمد حامد الصراف

١٦ البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث

١٧ الأستاذ عباس العزاوي

١٨ الشيخ كاظم الدجيلي

١٩ الأستاذ كوركيس عواد

٢٠ الشيخ محمد بهجة الأثري

٢١ الدكتور مصطفى جواد

٢٢ 〃 فيصل دبدوب

٢٣ الأستاذ ناجي معروف

٢٤ 〃 محمود شيت خطاب

السودان

٢٥ الشيخ محمد نور الحسن

المملكة العربية السعودية

٢٦ الأستاذ حمد الجاسر

٢٧ 〃 خير الدين الزركلي

المملكة الليبية

٢٨ الأستاذ علي الفقيه حسن

الجمهورية التونسية

٢٩ الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور

٣٠ 〃 محمد الفاضل ابن عاشور

٣١ 〃 عثمان الكعاك

المملكة المغربية

٣٢ الأستاذ عبد الله كنون

٣٣ 〃 علال الفاسي

ايران

٣٤ الدكتور علي أصغر حكمت

الهند

٣٥ الأستاذ آصف علي أصغر فيضي

٣٦ 〃 أبو الحسن علي الحسني الندوي

باكستان

٣٧ الأستاذ عبد العزيز الميمني

٣٨ الأستاذ محمد صغير حسن معصومي
٣٩ 〃 يوسف البنوري

فرنسة

٤٠ الدكتور بلاشير (رجيس)
٤١ الأستاذ كولان (جورج)
٤٢ 〃 لاوست (هنري)
٤٣ 〃 ماسه (هنري)

بريطانية

٤٤ الأستاذ أربري (أ . ج .)
٤٥ 〃 جيب (ه . ا . ر .)

المانية

٤٦ الأستاذ ريتر (هلموت)

السويد

٤٧ الأستاذ ديدرنغ (س.)

الولايات المتحدة الاميركية

٤٨ الدكتور ضودج (بيارد)
٤٩ 〃 فيليب حتي

اسبانية

٥٠ الأستاذ غومز (اميليو غارسيا)

النمسة

٥١ الدكتور اشتولز (كارل)
٥٢ الأستاذ موجيك (هانز)

ايطاليا

٥٣ الأستاذ جبريلي (فرانشيسكو)

هولاندة

٥٤ الدكتور شخت (يوسف)

الدانيمرك

٥٥ الأستاذ بدرسن (جون)

فنلاندة

٥٦ الأستاذ كرميكو (يوحنا اهتنن)

البرازيل

٥٧ الأستاذ رشيد سليم الخوري

المجر

٥٨ الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق الراحلون

الجمهورية العربية السورية

١ الشيخ طاهر الجزائري
٢ 〃 سليم البخاري
٣ 〃 مسعود الكواكبي
٤ الأستاذ إلياس قدسي
٥ 〃 أنيس سلوم
٦ 〃 جميل العظم
٧ 〃 سليم عنحوري
٨ 〃 عبد الله رعد
٩ 〃 رشيد بقدونس
١٠ 〃 أديب التقي
١١ الشيخ عبد القادر المبارك
١٢ الأستاذ معروف الأرناءوط
١٣ السيد محسن الأمين
١٤ الأستاذ الرئيس محمد كرد علي
١٥ 〃 محمد البزم
١٦ 〃 سليم الجندي
١٧ الشيخ عبد القادر المغربي (نائب الرئيس)
١٨ الأستاذ الرئيس خليل مردم بك
١٩ الدكتور مرشد خاطر
٢٠ الأستاذ فارس الخوري
٢١ الأب جرجس شلحت
٢٢ الأب جرجس منش
٢٣ الأستاذ قسطاكي الحمصي
٢٤ الشيخ كامل الغزي
٢٥ الأستاذ ميخائيل الصقال
٢٦ الشيخ بدر الدين النعساني
٢٧ 〃 راغب الطباخ
٢٨ 〃 عبد الحميد الجابري
٢٩ 〃 عبد الحميد الكيالي
٣٠ 〃 محمد زين العابدين
٣١ الدكتور صالح قنباز
٣٢ الشيخ سليمان الأحمد
٣٣ الأستاذ ادوار مرقص
٣٤ الشيخ سعيد العرفي
٣٥ البطريرك ماراغناطيوس افرام
٣٦ الشيخ أمين سويد
٣٧ الدكتور جميل الخاني
٣٨ الأستاذ متري قندلفت
٣٩ 〃 عز الدين التنوخي (نائب الرئيس)
٤٠ 〃 نظير زيتون
٤١ 〃 الرئيس الأمير مصطفى الشهابي

الجمهورية العربية المتحدة

٤٢ الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي
٤٣ 〃 رفيق العظم

٤٤ الأستاذ أحمد كمال
٤٥ « أحمد تيمور
٤٦ « أحمد زكي باشا
٤٧ الدكتور يعقوب صروف
٤٨ السيد محمد رشيد رضا
٤٩ الأستاذ حافظ إبراهيم
٥٠ « أحمد شوقي
٥١ الشيخ أحمد الاسكندري
٥٢ الأستاذ أسعد خليل داغر
٥٣ « داود بركات
٥٤ الدكتور أمين المعلوف
٥٥ الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
٥٦ الشيخ عبد العزيز البشري
٥٧ الدكتور أحمد عيسى
٥٨ الأمير عمر طوسون
٥٩ الشيخ مصطفى عبد الرازق
٦٠ الأستاذ أنطون الجميل
٦١ « خليل مطران
٦٢ « إبراهيم عبد القادر المازني
٦٣ « محمد لطفي جمعة
٦٤ الدكتور أحمد أمين
٦٥ الأستاذ عبد الحميد العبادي
٦٦ الشيخ محمد الخضر حسين
٦٧ الدكتور عبد الوهاب عزام
٦٨ « منصور فهمي
٦٩ الأستاذ أحمد لطفي السيد
٧٠ « عباس محمود العقاد
٧١ « خليل ثابت
٧٢ الأمير يوسف كمال
٧٣ الأستاذ أحمد حسن الزيات

لبنان

٧٤ الأستاذ حسن بيهم
٧٥ الأب لويس شيخو
٧٦ الشيخ عبد الله البستاني
٧٧ الأستاذ جبر ضومط
٧٨ « عبد الباسط فتح الله
٧٩ الشيخ عبد الرحمن سلام
٨٠ « مصطفى الغلاييني
٨١ الأستاذ عمر الفاخوري
٨٢ « بولص الخولي
٨٣ « أمين الريحاني
٨٤ الأمير شكيب أرسلان
٨٥ الشيخ إبراهيم المنذر
٨٦ الأستاذ جرجي يني
٨٧ الشيخ أحمد رضا
٨٧ الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف
٨٩ « فيليب طرازي
٩٠ الشيخ فؤاد الخطيب

٩١ الدكتور نقولا فياض
٩٢ الشيخ سليمان ظاهر
٩٣ الأستاذ مارون عبود
٩٤ 〃 بشارة الخوري (الأخطل الصغير)

فلسطين

٩٥ الشيخ سعيد الكرمي
٩٦ الأستاذ نخلة زريق
٩٧ الشيخ خليل الخالدي
٩٨ الأستاذ عبد الله مخلص
٩٩ 〃 محمد إسعاف النشاشيبي
١٠٠ 〃 عادل زعيتر
١٠١ الأب ا. س. مرمرجي الدومنكي

الجمهورية العراقية

١٠٢ الأستاذ محمود شكري الآلوسي
١٠٣ 〃 جميل صدقي الزهاوي
١٠٤ 〃 معروف الرصافي
١٠٥ 〃 طـه الراوي
١٠٦ الأب أنستاس ماري الكرملي
١٠٧ الدكتور داود الچلبي
١٠٨ الأستاذ طـه الهاشمي
١٠٩ 〃 محمد رضا الشبيبي
١١٠ 〃 ساطع الحصري
١١١ 〃 منير القاضي

الجمهورية التونسية

١١٢ الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب

الجمهورية الجزائرية

١١٣ الشيخ محمد بن أبي شنب
١١٤ الأستاذ محمد البشير الابراهيمي

المملكة المغربية

١١٥ الأستاذ محمد الحجوي
١١٦ 〃 عبد الحي الكتاني

تركية

١١٧ الأستاذ زكي مغامز
١١٨ 〃 أحمد أتش

ايران

١١٩ الشيخ أبو عبد الله الزنجاني
١٢٠ الأستاذ عباس إقبال

الهند

١٢١ الحكيم محمد أجمل خان

فرنسة

١٢٢ الأستاذ فران (جبرئيل)
١٢٣ 〃 هوار (كليمان)
١٢٤ 〃 بوفا (لوسيان)
١٢٥ 〃 مالنجو

١٢٦ الأستاذ كي (ارتور)
١٢٧ 〃 باسه (رينه)
١٢٨ 〃 ميشو بلّيّر
١٢٩ 〃 مارسيه (وليم)
١٣٠ 〃 دوسو (رينه)
١٣١ 〃 ماسينيون (لويس)

بريطانية

١٣٢ الأستاذ مرجليوث (د. س.)
١٣٣ 〃 بفن
١٣٤ 〃 براون (ادوارد)
١٣٥ 〃 كرينكو (فريتز)
١٣٦ 〃 غليوم (الفرد)

المانية

١٣٧ الأستاذ هومل
١٣٨ 〃 ساخاو (ادوارد)
١٣٩ 〃 هوروفيتز (يوسف)
١٤٠ 〃 هارتمان (مارتين)
١٤١ 〃 ميتفوخ (أوجين)
١٤٢ 〃 بروكلمن (كارل)
١٤٣ 〃 هارتمان (ريشارد)

المجر

١٤٤ الأستاذ غولد صيهر (اغناطيوس)
١٤٥ الأستاذ ماهلر (ادوارد)

الولايات المتحدة الأميركية

١٤٦ الأستاذ ماكدونالد (د. ب.)
١٤٧ 〃 هرزفلد (ارنست)
١٤٨ 〃 سارطون (جورج)

الاتحاد السوفياتي

١٤٩ الأستاذ كراتشكوفسكي (أ)
١٥٠ 〃 برتلز (ايفيكين)

اسبانية

١٥١ الأستاذ آسين بلاسيوس (ميكل)

البرتغال

١٥٢ الأستاذ لوپس (دافيد)

ايطالية

١٥٣ الأستاذ جويدي (اغنازيو)
١٥٤ 〃 نالينو (كارلو)
١٥٥ 〃 غريفيني (اوجينيو)

سويسرة

١٥٦ الأستاذ مونته (ادوارد)
١٥٧ 〃 هس (ج. ج.)

بولونية

١٥٨ الأستاذ كوفالسكي (ت.)

تشكوسلوفاكية

١٥٩ الأستاذ موزل (الوا)

هولاندة

١٦٠ الأستاذ هورغرنيه (سنوك)

١٦١ 〃 اوراندوك (ك .)

١٦٢ 〃 هوتسما (م . ت .)

الدانيارك

١٦٣ الأستاذ بوهل (ف . م . ب .)

١٦٤ 〃 استروب (ج .)

السويد

١٦٥ الأستاذ سترستين (ك . ف .)

البرازيل

١٦٦ الأستاذ سعيد أبو جمرة



بيان أعمال مجمع اللغة العربية بدمشق لدورة سنة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ [1]

نستهل هذه الدورة لعام ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ برئاسة رئيسنا الجديد الأستاذ الدكتور الفاضل حسني سبح الذي أجمع السادة الأعضاء على انتخابه في آخر جلسة من الدورة السابقة المنعقدة بتاريخ الثلاثين من شهر أيار ١٩٦٨ لهذا المنصب العلمي الخطير فجاء خير خلف لخير سلف وأنتهز هذه المناسبة لأقدم لسيادته باسمكم جميعاً أطيب الترحيب متمنين في عهده للمجمع دوام الازدهار والمزيد من التوفيق في خدمة أغراضه العلمية رحم الله السلف ومد بعمر الخلف وأيده بعنايته .

يطيب لي يا سادتي أن أعرض لكم بياناً موجزاً عن مجمعكم في دورته السابقة وما حققه خلالها من المشروعات وما ينوي القيام به في دورته الحالية .

المطبوعات :

قرر مجلسكم الموقر في دورته السابقة طبع عدد من المخطوطات أوكل إلى أمانة المجمع العمل على تنفيذها إلا أنه حالت بعض الصعوبات دون تحقيق أكثرها مع الأسف منها صعوبات مالية ، ومنها إدارية وهي التي عرقلت سير أعمال المجمع وأضرت بها ، وهنالك سبب آخر لا يقل خطورة عما ذكرت وهو عجز مطابع دمشق عن تلبية حاجة المجمع وإنجاز مطبوعاته في مواعيدها وعذرها هو أزمة العمال التي تشكو منها أكثر المطابع ، وعلى الرغم من كل ذلك فقد تمكنا من إنجاز طبع الكتب الآتية :

---

(١) تلي هذا البيان في الجلسة الافتتاحية لمجلس المجمع المنعقدة بتاريخ ٣ تشرين الأول ١٩٦٨ .

١ — ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري .
٢ — رسالة آداب العشرة وذكر الأخوة للغزي .
٣ — الأمير مصطفى الشهابي — حياته .

وقاربت الكتب التالية على النهاية وستصدر خلال الأسابيع القريبة القادمة وهي:
١ — فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية الوطنية (قسم الحديث) .
٢ — 〃 〃 〃 〃 〃 〃 (قسم الطب) .
٣ — خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني (ملحق شعراء الشام) .
٤ — التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفاني .

المجلــة :

صدر منها المجلد (٤٣) لعام ١٩٦٨ ، ويمتـاز هذا المجلد بوفرة بحوثه التي وضعها نخبة من الباحثين السوريين وغيرهم من أعلام العرب ، مما حملنا على مضاعفة حجم المجلة وزيادة صفحاتها وهذا الإقبال المتزايد على الكتابة بالمجلة هو دليل على مكانتها وتقدير العلماء والأدباء والباحثين لها .

مطبوعات جديدة :

علينا في هذه الدورة السابعة إنهاء ما تبقى من الكتب التي قرر مجلسكم طبعها وعددها / ١١ / كتاباً في دورته السابقة وحالت الظروف دون انجازها مع إضافة الكتب الجديدة التالية :
١ — ديوان الخالديين جمع وتحقيق الزميل الدكتور سامي الدهان .
٢ — قطب السرور لأبي إسحق القيرواني : تحقيق الأستاذ أحمد الجندي .
٣ — كتاب اللامات للزجاجي : تحقيق الدكتور مازن المبارك .
٤ — ديوان ابن هرمة جمع وتحقيق السيد محمد نفاع .

الوفيـــات :

فجع المجمع خلال الدورة السابقة بوفاة رئيسه المرحوم الأمير مصطفى الشهابي بعد تسع سنوات من توليه رياسة المجمع ، وهو ثالث رؤسائه بعد المغفور لهما محمد كرد علي وخليل مردم بك وقد فقد المجمع بوفاته علماً من أعلام اللغة العربية وعضواً من أبرز أعضائه العاملين على تحقيق أغراضه ، ومن الوفاء لذكرى الفقيد تسجيل هذه الحقيقة وهي أن مدة رياسته كانت من أزهى ما عرفه مجمعنا خصباً منذ تأسيسه حتى يومنا هذا . وقد كتب في مجلة المجمع الزميل الدكتور عدنان الخطيب سيرة وافية عن حياة الفقيد ومنزلته العلمية وهي تغنينا على التكرار تغمده الله برحمته وأجزل ثوابه .

وتوفي من الأعضاء المراسلين المرحومان :

١ — الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) من لبنان .

٢ — الأديب الكبير أحمد حسن الزيات من الجمهورية العربية المتحدة .

رحمهما الله رحمة واسعة .

انتخابات :

١ — انتخب الأستاذ الدكتور حسني سبح رئيساً للمجمع خلفاً للرئيس الراحل المرحوم الأمير مصطفى الشهابي .

٢ — الأستاذ وجيه السمان عضواً عاملاً خلفاً للمرحوم فارس الخوري .

٣ — الأستاذ عبد الهادي هاشم عضواً عاملاً خلفاً للمرحوم عزالدين التنوخي ،

ملء الشواغر :

على مجلس المجمع في هذه الدورة ملء الشواغر التالية :

١ — نائب الرئيس .

٢ — الأمين العام .

٣ — عضوان عاملان خلفاً للمرحومين الدكتور مرشد خاطر والأمير مصطفى الشهابي .

٤ — أعضاء مراسلون من البلاد العربية والأجنبية .

٥ — وظائف إدارية في المجمع ودار الكتب الظاهرية .

إنشاءات :

أنهى المجمع هيكل الجناح الجديد الملحق بدار الكتب الوطنية الظاهرية ونأمل أن يتم البناء نهائياً خلال الدورة الحالية . وقد عهد استكمال نواقص البناء إلى متعهد .على أن ينجزها خلال ستة أشهر من تاريخ المباشرة ، سيتسع البناء الجديد لنحو (٣٠٠) قارىء أي أضعاف ما تستوعبه غرف القراءة الحالية ، ونأمل أن نحصل في ميزانية العام القادم على الاعتمادات الكافية لننهي المرحلة الثانية والأخيرة من برنامج توسيع دار الكتب المذكورة لتتمكن من استيعاب نحو (٥٠٠) قارئ في قاعات مجهزة بجميع وسائل الراحة الحديثة . لم يطرأ على دار الكتب الوطنية ما يجب بيانه فهي تسير سيرها المعتاد ، وقد اتخذت الاحتياطات اللازمة لوقاية المخطوطات من أخطار الطوارئ فجمعت نفائسها ضمن صناديق معدنية .

شعبة التصوير :

أنجزت خلال هذه الدورة الأعمال التالية :

١ — تصوير وتحميض (٢٤٠) فلماً (ميكرو فلماً) .

٢ — تصوير (٨٠٤) مخطوطات من مختلف المقاييس والحجوم .

٣ — الصور المسحوبة (١٨٠٠٠٠) صورة ميكروفلم .

وبذلك يصبح مجموع ما صور من مخطوطات دار الكتب حتى الآن (٧٥٠٠) مخطوط أي نحو ثلثي الموجود فيها .

الخاتمة :

هذا أيها الزملاء مجمل ما حققه المجمع في الدورة السابقة ونرجو أن نوفق في السنين المقبلة إلى مضاعفة الجهد في سبيل خدمة الأغراض التي نعمل من أجلها جميعاً والله الموفق وبه نستعين .

الأمين العام

جعفر الحسني

***

تقـــرير

إلى الزملاء أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق
عن الاشتراك في الحفل التأبيني الذي أقامه مجمع اللغة العربية في القاهرة
للرئيس الراحل الأمير مصطفى الشهابي

مقدم من الزميلين : رئيس المجمع الدكتور حسني سبح والعضو الدكتور شكري فيصل .

الزملاء الأفاضل :

تحية طيبة . وبعد فقد كان مجمعكم الموقر تلقى رسالة من زميله مجمع اللغة العربية في القاهرة يطلب منه الإسهام في الحفل التأبيني الذي قرر إقامته للرئيس السابق المرحوم الأمير مصطفى الشهابي في القاهرة في ٢٩/١٠/١٩٦٨

وقد عرض الموضوع على اللجنة الإدارية في جلستها المنعقدة يوم الخميس الواقع في ٢٤/١٠/١٩٦٨ فشكرت لمجمع القـــاهرة صنيعه ورأت ضرورة الاشتراك في الحفل للمكانة البارزة التي كانت للفقيد الكبير الذي شغل رياسة مجمعنا تسع سنوات وكان عضواً عاملاً فعالاً في مجمع القاهرة منذ انتخابه فيه سنة ١٩٥٤ وأدى واجبه نحو اللغة العربية والفكر العربي في تصميم ومتابعة وإخلاص قل أن يكون له مثيل .

وبعد سلسلة من الاتصالات والمخابرات الرسمية وافقت المراجع المسؤولة

في الدولة على المشاركة بالزميلين مقدمي هذا التقرير الموجز واللذين يسعدهما أنهما قاما بهذه المهمة التي أنيطت بهما نيابة عنكم وتمثيلاً لمجمعكم الموقر :

١ — غادرنا دمشق مساء يوم الأحد الواقع في ٢٧/١٠/١٩٦٨ وكانت اجراءات السفر قد انتهت آخر الدوام الرسمي فوصلنا القاهرة ليلاً .

٢ — وبادرنا في صبيحة يوم الاثنين ٢٨/ ١٠ / ١٩٦٨ للاتصال بالأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور ثم التقينا به عقب ذلك في دار المجمع ودار حديث أولي كان هدفنا الرئيسي منه الحرص على تأكيد الروابط القوية التي تصل بين المجمعين ، والأهداف التي تجمعهما والطريق المشتركة التي لا بد من تعاون القوى على قطعها في هذه المرحلة الخطيرة من مراحل التطور العلمي والفكري في الوطن العربي .

وكان يجمعنا في هذا الحديث وفي الأحاديث الأخرى التالية الإيمان المشترك بأن اللغة العربية يجب أن تكون هي أداة البيان في هذا التطور ، لأن كل تطور علمي يتم بعيداً عن اللغة العربية سيكون بعيداً عن روح الأمة ونقطة انفصام خطير بين عقلها المتجدد وروحها الأصيلة .

وقد جهدنا أن نؤكد على وحدة المجمعين وتماثلهما الكامل في الأهداف والنظام والإدارة وأن كل منهما لا يخرج عن أن يكون فرعاً في عاصمة من القطرين ، وأنه لا شيء يشغل أعضاء مجمعكم الموقر مثل متابعة المسيرة المشتركة في هذا السبيل .

٣ — ولقد كانت النقطة الأولى التي أكدنا عليها في طريق الهدف هذا التواصل الذي يجب أن يبلغ أبعد آماده بين المجمعين فقد غبرت سنوات أوشك

فيها هذا الاتصال أن يؤول إلى شيء من جمود أو ما يشبه ما يكون جموداً ، لا في نطاق المؤتمرات والدورات فحسب بل حتى في نطاق تبادل المطبوعات الذي هو أدنى حدود التواصل في الطريق المشتركة لذلك أثرنا موضوع مطبوعات مجمع اللغة وتشتمل على ما يلي :

أولاً : مجموع البحوث والمحاضرات وقد صدر منه ٣ أجزاء .

ثانيـاً : مجموعة المصطلحات التي أقرها المجمع وقد صدر منها عشرة أجزاء .

ثالثـاً : مجلة المجمع وقد صدر منها حتى الآن ٢٣ مجلداً .

رابعاً : معجم ألفاظ القرآن الكريم وقد صدر منه أربعة أجزاء الأول منهـا مفقود .

وعلمنا بعد أن الجزئين الخامس والسادس وهما خاتمة الأجزاء قدما للطبع وإنها سيصدران قريباً وسيتبع ذلك أن تعاد الطبعة (لفقد بعض الأجزاء) على ورق أفضل وبعناية أكمل .

٤ — ونجد من الحق علينـا أن نقول أن السيد الأمين العـام لمجمع القاهرة كان يشاركنا هذا الاهتمام ويندفع قبلنا إليه ، ذلك لأن أحدنا الدكتور سبح كان بدأ في رحلة سـابقة إلى القاهرة في الجولة الأولى في هذا الموضوع وانتهينـــا إلى إقرار التواصل الكامل في هذا الشـأن : شأن المطبوعات .

٥ — غير أن المشكلة التي حدثنا الأمين العام أنها واجهته هي ضخامة العدد المرسل من المطبوعات بعدد أعضاء مجمعكم الموقر . وضمانة وصوله واختيار أفضل السبل إلى ذلك إما عن طريق الجو وهو متعذر لضخامة النفقة ، أو عن طريق البحر وتواجهه فكرة ضمان الوصول . ولكنه لم يقعد عن

مواجهة المشكلة فقد اتصل بالسيد سفير الجمهورية العربية السورية الأستاذ سامي الدروبي وتحدث معه في هذا الشأن بغية الوصول إلى سبيل مضمونة في ذلك ووعده سيادة السفير بكل عون .

٦ — وقد استمر هذا الحديث الأول نحواً من ساعة ثم حان موعد جلسة المجمع العامة التي تعقد الساعة الحادية عشرة من كل يوم اثنين خلال انعقاد دورة المجمع ويحضرها جميع الأعضاء فدعينا إلى حضورها والتقينا بدء الجلسة بأكثر الأعضاء في أحاديث قصيرة كان قوامها دائماً التقدير لمجمكم والحرص على تتبع نشاطه وحين أقبل الدكتور طه حسين رئيس المجمع متكئاً على ساعد زوجته من طرف ، وأحد الزملاء من طرف آخر ، افتتحت الجلسة بكلمة مؤثرة صادقة انطوت على التحية والتعزية : التعزية بالفقيد الراحل على أنه فقيد اللغة العربية التي طالما جهد في سبيلها وعمل على خدمتها وكان له في جلسات هذا المجمع نصيب بيّن ، والتحية للوفد الذي جاء من دمشق ليشارك في تأبين الفقيد الكبير ولمجمعكم الذي أنابه .

ورد الدكتور حسني سبح مذكراً بأن الأمير الراحل لم يكن فقيد المجمعين فحسب وإنمـــا كانت له جولات في إعلاء شأن الأمة العربية فهو فقيدها كذلك .

ثم أخذ الأعضاء في مناقشة بعض المصطلحـات التي وردت على مجلس المجمع من لجانه المختصة وكانت في قسمين مصطلحـات في السينما والمسرح ومصطلحات في علم الخلية ، وانتهت المناقشة باقرار أكثرها وإعادة أقلها إلى اللجان المختصة لإعادة النظر فيها في ضوء ما كان من اعتراض . واختتمت الجلسة في الساعة الواحدة .

وبادر الوفد إلى زيارة السفارة السورية لمتابعة الحديث الذي كان مع سيادة الأمين العام مع سيادة السفير بغية إرسال المطبوعات التي ينوي مجمع القاهرة إرسالها .

٧ — وقد شهدنا في اليوم التالي حفل التأبين الذي أقيم في الساعة السادسة بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع (١٦ شارع رمسيس) وشهده أكثر المجمعيين وصفوة من العلماء ومن السوريين المقيمين في القاهرة واعتذر عن الحضور الدكتور طه حسين وأناب عنه نائب الرئيس الأستاذ أحمد زكي المهندس كما اعتذر سيادة السفير السوري لوعكة صحية أصابته وشهدت حرمه المصون الحفل مشاركة فيه وممتذرة عنه .

وافتتح نائب الرئيس الأستاذ أحمد زكي المهندس بكلمة رصينة رثى فيها الفقيد الراحل واقفاً عند أبرز ملامح حياته .

ثم ألقى الدكتور عبد الحليم منتصر كلمة مجمع القاهرة فتحدث عن حياة الفقيد وعن أعماله العلمية حديثاً شاملاً تابع فيه مراحل هذه الحياة وأنواع هذه الأعمال وكان خطابه مليئاً بالتقدير لمكانة الفقيد والإكبار للأثر الذي خلفه والجهد الذي بذله في سبيل إغناء العربية بالكثير من المصطلحات العلمية وقواعد التعريب ، وتوحيد المصطلح العربي بين المتكلمين بالعربية جميعاً .

وتحدث بعده الدكتور حسني سبح فشكر لمجمع القاهرة صنيعه وللأستاذ المهندس وللدكتور المنتصر كلمتيهما وأنهما أوفيا الحديث عن سيرة الفقيد حقه وأن مجمع دمشق أصدر كتاباً للزميل الدكتور عدنان الخطيب استوفى فيه حياة الراحل وترجم له ترجمة حافلة وأنه لذلك لن يكرر ما كان من حديث وإنما سيتناول في كلمته الفقيد ذاكراً ما عرفه منه وما رآه فيه منذ كان

بينهما أول لقاء إلى أن اختاره الله لجواره وان زياراته الأسبوعية خلال مرضه أتاحت له إدراك جوانب من شخصيته ، لعل من أبرز ما فيها من نحو فكري الاعتزاز بالعربية لغة وبالعربية قومية وبالعربية وطناً ولعل أبرز ما فيها من نحو سلوكي الدؤوب على العمل في نطاق اللغة العربية حتى الأيام الأخيرة من حياته وكانت الكلمة بعد ذلك للأستاذ الشاعر عزيز أباظة عضو مجمع اللغة فالقى قصيدة رائعة بث فيهـــا شجونه وآلامه ، وطوف في ميدان التســاؤل القلق عن الوجود والمصير ، وخص واقع اللغة العربية والحيــاة العربية بوقفة متأملة وكانت القصيدة صورة عن البيان العربي المشرق والشعر القوي الرصين .

ثم تحدثت السيدة ثريا الحافظ باسم آل الفقيد وكان مرتكز حديثها هذه الصلة الروحية التي كانت تربط بين الفقيد وبين مصر العربية من عهد بعيد صلة أنطقته بعض الشعر ، أوردت في كلمتها طرفاً منه .

وقد ألقى أحد السادة الإداريين من المجمع برقية كريمتي الفقيد في شكر المجمع وانتهى الحفل في الساعة السابعة والنصف .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن من تقاليد مجمع اللغة في القــاهرة أن يعتبر مثل هذه الاحتفالات جلسة من جلساته التي يشارك فيها الجمهور .

٨ — وفي اليوم التالي أعاد الوفد اتصاله بالإخوان من زملاء مجمع القاهرة لاستكمال الحوار في الأمور المجمعية المشتركة ودار الحديث حول مائدة غداء دعانا إليها الأمين العــام وحضرهــا نائب رئيس المجمع أحمد زكي المهندس وأحد السادة الإداريين .

وكان هدفنا في هذه المرة تعميق موضوع الصلات والتعرض إلى ألوان النشاط حول تبادل الأقلام في المجلتين ودورات المجمع ومؤتمرات المجامع وشؤون مجمعية أخرى نوجزها فيما يلي :

آ — في موضوع الصلات : كان هنالك اقتراح أن يقوم مجمعنا كذلك بتزويد أعضاء مجمع القاهرة بالمجلة والمطبوعات ولا أشك في أنكم أيها السادة الزملاء توافقون على هذه الخطوة نقوم بها بدءاً من العام الجديد ١٩٦٩ شداً للأواصر وتمكيناً للمجمع من أداء رسالته .

ب — في موضوع النشاط المشترك تحدثنا عن تبادل الأقلام في المجلتين فيشارك الأعضاء هنا في مجلة القاهرة ويشارك أعضاء مجمع القاهرة في مجلة مجمعكم الموقر .

ج — واقترحنا أن نكون كذلك على صلة قريبة وسريعة ومستمدة بأعمال اللجان عندهم ، أو على الأقل بالمصطلحات التي يؤدونها بغية الاجتماع على مصطلح واحد .

د — دار حديث حول مشاركة مجمع دمشق في دورة مجمع القاهرة ، وبدا لنا أن ذلك إذا كان متعذراً من نحو مادي في هذا العام فسيكون موضع اهتمام إخواننا هناك وإصرارهم في العام القادم .

هـ — كذلك حول دورة جديدة لمؤتمر المجامع اللغوية وسنتحدث إلى الزملاء الأكارم خلال مدارسة هذا التقرير عن بعض التفاصيل في تحديد هذه النقاط .

٩ — وقد حرص الإخوان المجمعيون في القاهرة خلال هذه اللقاءات المتصلة على أن يقدموا لإخوانهم هنا في دمشق أطيب تحياتهم ويسعدنا أننا ذودنا بها وأننا ننقلها إليكم مشفوعة بأعظم الأمل في أن نظفر بالتعاون الكامل على استعادة صلات المجمعين وتوحيد خطاهما لتتضاعف جهودهما .

١٠ — وقد عدنا في اليوم التالي مباشرة إلى دمشق .

إننا إذ نقدم هذا التقرير يسرنا أن نتحدث إليكم فيه لعلنا نخلص إلى بعض الاقتراحات العلمية في النواحي المختلفة التي تعرضنا لها أو أية ناحية أخرى ترون من الخير الحديث فيها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الرئيس

الدكتور شكري فيصل الدكتور حسني سبح

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

(المجمع العلمي العربي سابقاً)

خلال خمسين عاماً (منذ إنشائه إلى سنة ١٩٦٨ م)

السنة	الرقم	
١٩٢١	١	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد الأول) عدد صفحاته ٤٠٠ صفحة
١٩٢٢	٢	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد الثاني) عدد صفحاته ٣٩٢ صفحة
١٩٢٣	٣	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد الثالث) عدد صفحاته ٣٩٨ صفحة
١٩٢٤	٤	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد الرابع) عدد صفحاته ٥٨٦ صفحة
١٩٢٥	٥	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد الخامس) عدد صفحاته ٦٩٢ صفحة
	٦	محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الأول) عدد صفحاته ٣٧٢ صفحة
١٩٢٦	٧	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد السادس) عدد صفحاته ٥٧٦ صفحة
١٩٢٧	٨	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد السابع) عدد صفحاته ٥٨٤ صفحة
١٩٢٨	٩	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد الثامن) عدد صفحاته ٥٧٦ صفحة
١٩٢٩	١٠	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد التاسع) عدد صفحاته ٧٨٤ صفحة
١٩٣٠	١١	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد العاشر) عدد صفحاته ٧٨٤ صفحة
	١٢	نشوار المحاضرة لأبي علي المحسّن التنوخي (الجزء الثامن) بتحقيق المستشرق مرجليوث . عدد صفحاته ١٨٨ صفحة .
١٩٣١	١٣	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ١١) عدد صفحاته ٥١٤ صفحة
١٩٣٢	١٤	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ١٢) عدد صفحاته ٤٧٩ صفحة

السنة	الرقم	
١٩٣٢	١٥	رسالة التبصر بالتجارة للجاحظ : بتحقيق حسن حسني عبد الوهاب. عدد صفحاتها ٣٦ صفحة .
	١٦	نشوار المحاضرة لأبي علي المحسّن التنوخي (الجزء الثاني) بتحقيق المستشرق مرجليوث . عدد صفحاته ١٩٦ صفحة .
١٩٣٣-١٩٣٥	١٧	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ١٣) عدد صفحاته ٤٧٩ صفحة
١٩٣٦	١٨	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ١٤) عدد صفحاته ٤٩٦ صفحة
	١٩	رسالة تكملة إصلاح ما تغلط به العامة للجواليقي بتحقيق عز الدين التنوخي . عدد صفحاتها ٧٨ صفحة .
١٩٣٧	٢٠	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ١٥) عدد صفحاته ٥٧٦ صفحة
	٢١	بحر العوّام في ما أصاب فيه العوام لابن الحنبلي الحلبي : بتحقيق عز الدين التنوخي عدد صفحاته ١٢٠ صفحة .
	٢٢	ديوان الوليد بن يزيد : جمع وترتيب المستشرق ف . جبريالي . قدم له خليل مردم بك . عدد صفحاته ٥٨ صفحة .
١٩٣٩	٢٣	رسالة المنتقى من أخبار الأصمعي : بتحقيق عز الدين التنوخي . عدد صفحاتها ٩٠ صفحة .
١٩٤١	٢٤	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ١٦) عدد صفحاته ٥٧٧ صفحة
١٩٤٢	٢٥	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ١٧) عدد صفحاته ٥٧٦ صفحة
١٩٤٣	٢٦	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ١٨) عدد صفحاته ٥٧٧ صفحة
١٩٤٤	٢٧	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ١٩) عدد صفحاته ٥٧٦ صفحة
	٢٨	رسالة الملائكة لأبي العلاء المعرّي بتحقيق محمد سليم الجندي ، عدد صفحاتها ٣٣٠ صفحة ،

السنة	الرقم	
١٩٤٥	٢٩	المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري : قدم له خليل مردم بك . عدد صفحاته ٤٠٠ صفحة .
	٣٠	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢٠) عدد صفحاته ٥٧٦ صفحة
١٩٤٦	٣١	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢١) عدد صفحاته ٥٧٦ صفحة
	٣٢	تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي : بتحقيق محمد كرد علي
	٣٣	المستجاد من فعلات الأجواد لأبي علي المحسّن التنوخي : بتحقيق محمد كرد علي . عدد صفحاته ٢٨٦ .
	٣٤	ديوان ابن عنين : بتحقيق خليل مردم بك عدد صفحاته ٢١٨ صفحة
١٩٤٧	٣٥	كتاب الأشربة لابن قتيبة : بتحقيق محمد كرد علي . عدد صفحاته ١٢٨ صفحة .
	٣٦	فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم التاريخ) وضعه الدكتور يوسف العش . عدد صفحاته ٤٦٨ صفحة .
	٣٧	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢٢) عدد صفحاته ٥٧٦ صفحة
١٩٤٨	٣٨	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢٣) عدد صفحاته ٦٤٠ صفحة
	٣٩	الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (تنبيه الطالب وإرشاد الدارس لأحوال مواضع الفائدة بدمشق كدور القرآن والحديث والمدارس (الجزء الأول) : بتحقيق الأستاذ جعفر الحسني . عدد صفحاته ٦٧٤ صفحة .
١٩٤٩	٤٠	ديوان علي بن الجهم : حققه وجمع تكملته خليل مردم بك . عدد صفحاته ٢٧٤ صفحة .
	٤١	غوطة دمشق : تأليف محمد كرد علي عدد صفحاته ٢٩٢ صفحة

السنة	الرقم	
١٩٤٩	٤٢	الرسالة الجامعة المنسوبة للمجريطي (الجزء الأول) بتحقيق الدكتور جميل صليبا . عدد صفحاتها ٧٥٠ صفحة .
	٤٣	طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول : بتحقيق المستشرق الأستاذ ك . ر . سترستين . عدد صفحاته ٢٩٢ صفحة .
	٤٤	عثرات اللسان للشيخ عبد القادر المغربي عدد صفحاته ١٥٢ صفحة
	٤٥	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢٤) عدد صفحاته ٦٤٠ صفحة
١٩٥٠	٤٦	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢٥) عدد صفحاته ٦٤٠ صفحة
	٤٧	كنوز الأجداد تأليف محمد كرد علي . عدد صفحاته ٤٤٠ صفحة
	٤٨	ديوان الوأواء الدمشقي : بتحقيق الدكتور سامي الدهان . عدد صفحاته ٤٣٤ .
	٤٩	فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن علي بن محمد الربعي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ١٨٢ صفحه .
	٥٠	تاريخ داريا للقاضي عبد الجبار الخولاني : بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني . عدد صفحاته ١٥٢ صفحة .
	٥١	الموفي في النحو الكوفي لصدر الدين الكنغراوي الاستانبولي شرحه وعلق عليه الأستاذ محمد بهجة البيطار . عدد صفحاته ١٩٤ صفحة
١٩٥١	٥٢	ديوان ابن حيّوس (الجزء الأول) : بتحقيق خليل مردم بك عدد صفحاته ٣٦٨ صفحة .
	٥٣	ديوان ابن حيّوس (الجزء الثاني) : بتحقيق خليل مردم بك عدد صفحاته ٣٩٤ صفحة .

السنة	الرقم	
١٩٥١	٥٤	الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (الجزء الثاني) : بتحقيق الأستاذ جعفر الحسني . عدد صفحاته ٨٣٢ صفحة .
	٥٥	الرسالة الجامعة المنسوبة للمجريطى (الجزء الثاني) : بتحقيق الدكتور جميل صليبا . عدد صفحاتها ٤٣٤ صفحة .
	٥٦	تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر (المجلدة الأولى) : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٩٤٨ صفحة .
	٥٧	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢٦) عدد صفحاته ٦٤٠ صفحة
١٩٥٢	٥٨	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢٧) عدد صفحاته ٦٤٠ صفحة
	٥٩	البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي : بتحقيق محمد كرد علي عدد صفحاته ٢١٤ صفحة .
١٩٥٣	٦٠	أسماء مؤلفات ابن تيمية لشمس الدين ابن قيم الجوزية : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاتها ٣٢ صفحة .
	٦١	صحيفة همام بن منبه أقدم تدوين في الحديث النبوي : بتحقيق الدكتور محمد حميد الله . عدد صفحاتها ٦٤ صفحة .
	٦٢	سفر خالد بن الوليد من العراق إلى الشام : لطه الهاشمي . عدد صفحاته ٦٢ صفحة .
	٦٣	تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقاته بالأقطار الإسلامية في العهود التالية لأيام العباسيين للأستاذ عباس العزاوي عدد صفحاته ٥٤ صفحة
	٦٤	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢٨) عدد صفحاته ٦٩٠ صفحة
١٩٥٤	٦٥	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٢٩) عدد صفحاته ٦٤٠ صفحة
	٦٦	محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الثاني) عدد صفحاته ٥٩٨ صفحة

السنة	الرقم	
١٩٥٤	٦٧	محاضرات المجمع العلمي العربي (الجزء الثالث) عدد صفحاته ٥٩٨ صفحة
	٦٨	تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر (المجلدة الثانية — القسم الأول) : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٣٧٤ صفحة .
	٦٩	تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقاته بالأقطار الإسلامية والعربية في العهد العثماني للأستاذ عباس العزاوي . عدد صفحاته ٥٤ صفحة
١٩٥٥	٧٠	أمراء دمشق في الإسلام لصلاح الدين الصفدي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٢٤٨ صفحة .
	٧١	خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفاني الكاتب (قسم شعراء الشام — الجزء الأول) بتحقيق الدكتور شكري فيصل . عدد صفحاته ٧٢٤ صفحة .
	٧٢	محمد كرد علي « حياته وآثاره » : للدكتور سامي الدهان . عدد صفحاته ٧٠ صفحة .
	٧٣	رسالة حي بن يقظان مع شرحها لابن سينا : بتحقيق محمد صغير حسن المعصومي . عدد صفحاتها ٦٠ صفحة .
	٧٤	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٠) عدد صفحاته ٧٠٢ صفحة
١٩٥٦	٧٥	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣١) عدد صفحاته ٧٠٢ صفحة
	٧٦	قضاة دمشق لشمس الدين ابن طولون : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٤٥٢ صفحة .
	٧٧	الزيارات بدمشق للقاضي محمود العدوي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد عدد صفحاته ١٣٤ صفحة .

السنة الرقم

١٩٥٦ ٧٨ فهرس مجلة المجمع العلمي العربي (الجزء الأول يتضمن فهرس المجلدات العشر الأولى) : وضعه الأستاذ عمر رضا كحالة . عدد صفحاته ٧٩٠ صفحة .

٧٩ ديوان أبي حصينة السلمي المعري (الجزء الأول) : بتحقيق محمد أسعد طلس . عدد صفحاته ٤٩٢ صفحة .

٨٠ تاريخ المجمع العلمي العربي : تأليف الأستاذ أحمد الفتيح . عدد صفحاته ٣٢٦ صفحة .

١٩٥٧ ٨١ أسرار العربية لأبي البركات الأنباري : بتحقيق الأستاذ محمد بهجة البيطار . عدد صفحاته ٥٢٤ صفحة .

٨٢ ديوان ابن أبي حصينة السلمي المعري . (الجزء الثاني) بتحقيق محمد أسعد طلس . عدد صفحاته ٣١٦ صفحة .

٨٣ مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٢) عدد صفحاته ٧٠٤ صفحة

١٩٥٨ ٨٤ مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٣) عدد صفحاته ٧٠٤ صفحة

٨٥ ديوان ابن الخياط : بتحقيق خليل مردم بك . عدد صفحاته ٤٢٠ صفحة

٨٦ الثقافة الإسلامية في الهند (معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف) لعبد الحي الحسني الندوي . عدد صفحاته ٣٥٨ صفحة

٨٧ أخبار البحتري لأبي بكر الصولي : بتحقيق الدكتور صالح الأشتر . عدد صفحاته ٢٥٨ صفحة .

٨٨ فتيا فقيه العرب لأبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي : بتحقيق الدكتور حسين علي محفوظ عدد صفحاته ٥٢ صفحة .

السنة	الرقم	
١٩٥٩	٨٩	تراجم الأعيان من أبناء الزمان للبوريني (الجزء الأول) : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٣٩٠ صفحة .
	٩٠	جريدة القصر وخريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب (قسم شعراء الشام — الجزء الثاني) : بتحقيق الدكتور شكري فيصل . عدد صفحاته ٧٢٨ صفحة .
	٩١	رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة : بتحقيق الدكتور سامي الدهان عدد صفحاتها ٢٠٨ صفحة
	٩٢	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٤) عدد صفحاته ٧٠٤ صفحة
١٩٦٠	٩٣	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٥) عدد صفحاته ٧٠٤ صفحة
	٩٤	نسخة تاسعة من ديوان ابن عنين : بتحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني عدد صفحاتها ٣٨ صفحة .
	٩٥	كتاب النفس لابن باجه الأندلسي : بتحقيق الدكتور محمد حسن عدد صفحاته ١٥٤ صفحة .
	٩٦	المثنى لأبي الطيب اللغوي : بتحقيق عز الدين التنوخي عدد صفحاته ١٤٠ صفحة .
	٩٧	ديوان خليل مردم بك . عدد صفحاته ٤٨٢ صفحة .
	٩٨	الإبدال لأبي الطيب اللغوي (الجزء الأول) : بتحقيق عز الدين التنوخي عدد صفحاته ٤٨٤ صفحة .

السنة	الرقم	
١٩٦١	٩٩	الإبدال لأبي الطيب اللغوي (الجزء الثاني) : بتحقيق عز الدين التنوخي . عدد صفحاته ٧٢٤ صفحة .
	١٠٠	النوادر لأبي مسحل عبد الوهاب بن حريش الأعرابي (الجزء الأول) : بتحقيق الدكتور عزة حسن . عدد صفحاته ٤٢٤ صفحة
	١٠١	النوادر لأبي مسحل عبد الوهاب بن حريش الأعرابي (الجزء الثاني) : بتحقيق الدكتور عزة حسن . عدد صفحاته ٣٣٨ صفحة
	١٠٢	الإتباع لأبي الطيب اللغوي : بتحقيق عز الدين التوخي . عدد صفحاته ١٥٦ صفحة .
	١٠٣	اعتاب الكتاب لابن الأبار : تحقيق الدكتور صالح الأشتر . عدد صفحاته ٣٢٨ صفحة .
	١٠٤	حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار (الجزء الأول) : بتحقيق الأستاذ محمد بهجة البيطار . عدد صفحاته ٦٦٢ صفحة .
	١٠٥	مجلة مجمع اللغة العربية « مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً » (المجلد ٣٦) عدد صفحاته ٧٠٨ .
١٩٦٢	١٠٦	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٧) عدد صفحاته ٧٠٨ صفحة
	١٠٧	فهرس مجلة المجمع العلمي العربي (الجزء الثاني — القسم الأول) : يتضمن فهرس المجلدات (١١ — ٢٠) وضعه الأستاذ عمر رضا كحالة . عدد صفحاته ٤٦١ صفحة .

السنة	الرقم	
١٩٦٢	١٠٨	فهرس مجلة المجمع العلمي العربي للسنوات العشر الثانية (الجزء الثاني — القسم الثاني) وضعه الأستاذ عمر رضا كحالة . عدد صفحاته ٣٤٠ صفحة .
	١٠٩	الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره لسليم الجندي (الجزء الأول) بتعليق وإشراف الأستاذ عبد الهادي هاشم . عدد صفحاته ٥٨٥ صفحة .
	١١٠	فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم علوم القرآن) : للدكتور عزة حسن . عدد صفحاته ٤٧٤ صفحة .
	١١١	معجم المصطلحات الجراحية بالإنكليزية والفرنسية والعربية ويشتمل على ألف مصطلح ونيف . بقلم الأمير مصطفى الشهابي . عدد صفحاته ٣٤٥ صفحة .
	١١٢	الإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجي : بتحقيق عز الدين التنوخي . عدد صفحاته ١٥٢ صفحة .
	١١٣	شعر الراعي النميري وأخباره : جمعه ناصر الحاني وراجعه وجمع شواهده عز الدين التنوخي . عدد صفحاته ٢١٥ صفحة .
	١١٤	مختصر الكلام في الفرق بين من اسم أبيه سلاّم وسلام : لابن معمر الحسيني الجواني . بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٢٤ صفحة .
	١١٥	رسالة شرح خطبة عائشة أم المؤمنين في أبيها لمحمد بن القاسم الأنباري : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد عدد صفحاتها ١٦ صفحة .

السنة	الرقم	
١٩٦٢	١١٦	الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره (الجزء الثاني) لسليم الجندي بتعليق وإشراف الأستاذ عبد الهادي هاشم عدد صفحاته ٦٦٢ .
١٩٦٣	١١٧	تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر (المجلدة العاشرة) : بتحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان . عدد صفحاته ٥٢٤ صفحة .
	١١٨	فهرس مجلة المجمع العلمي العربي للسنوات العشر الثالثة (الجزء الثالث ــ القسم الأول) وضعه الأستاذ عمر رضا كحالة . عدد صفحاته ٤٨٩ صفحة .
	١١٩	فهرس مجلة المجمع العلمي العربي للسنوات العشر الثالثة (الجزء الثالث ــ القسم الثاني) وضعه الأستاذ عمر رضا كحالة . عدد صفحاته ٢٦٥ صفحة .
	١٢٠	حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (الجزء الثاني) لعبد الرزاق البيطار : بتحقيق الأستاذ محمد بهجة البيطار . عدد صفحاته ٥٠٦ صفحة .
	١٢١	حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (الجزء الثالث) لعبد الرزاق البيطار : بتحقيق الأستاذ محمد بهجة البيطار . عدد صفحاته ٥١٠ صفحة .
	١٢٢	فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (الفقه الشافعي) : وضعه الأستاذ عبد الغني الدقر . عدد صفحاته ٣٦٢ صفحة .

السنة	الرقم	
١٩٦٣	١٢٣	خريدة القصر وجريدة العصر (الجزء الثالث) في ذكر محاسن فضلاء الحجاز واليمن للعماد الأصفهاني الكاتب : بتحقيق الدكتور شكري فيصل . عدد صفحاته ٤٢٨ صفحة .
	١٢٤	وصف المطر والسحاب لابن دريد : بتحقيق عز الدين التنوخي . عدد صفحاته ١٥٢ صفحة
	١٢٥	كتاب الأضداد لأبي الطيب اللغوي (الجزء الأول) : بتحقيق الدكتور عزة حسن . عدد صفحاتها ٥١٨ صفحة .
	١٢٦	كتاب الأضداد لأبي الطيب اللغوي (الجزء الثاني) : بتحقيق الدكتور عزة حسن . عدد صفحاته ٤٣٢ صفحة .
	١٢٧	الألفاظ المعربة والموضوعة الواردة في السنوات العشر الثالثة في مجلة المجمع العلمي العربي : جمع وترتيب الأستاذ عمر رضا كحالة . عدد صفحاته ١٧٠ صفحة .
	١٢٨	المقدمة من كتاب المسائل والأجوبة لابن السيد البطليوسي : بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي عدد صفحاته ٢٦ صفحة .
	١٢٩	أخطاء شائعة في ألفاظ العلوم الزراعية والنباتية للأمير مصطفى الشهابي . عدد صفحاته ٢٤ صفحة .
	١٣٠	مجلة المجمع العلمي العربي(المجلد ٣٨) عدد صفحاته ٧٠٨ صفحة
١٩٦٤	١٣١	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٩) عدد صفحاته ٧٠٨ صفحة

السنة	الرقم	
١٩٦٤	١٣٢	فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (الشعر) وضعه الدكتور عزة حسن . عدد صفحاته ٤٤٠ صفحة .
	١٣٣	الحيدة لعبد العزيز الكناني : بتحقيق الدكتور جميل صليبا . عدد صفحاته ٣٠٤ صفحة .
	١٣٤	جمهرة المغنين لخليل مردم بك : بتعليق وإشراف الأستاذين عدنان مرم بك وأحمد الجندي . عدد صفحاته ٣٢٠ صفحة .
	١٣٥	شعر دعبل الخزاعي ، صنعة الدكتور عبد الكريم الأشتر . عدد صفحاته ٥٥٨ صفحة .
	١٣٦	سؤال في يزيد بن معاوية لابن تيمية : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٢٣ صفحة .
	١٣٧	قرة العيون في أخبار باب جيرون لابن طولون الصالحي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٢٤ صفحة .
١٩٦٥	١٣٨	الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق لمحمد بن محرز الوهراني: تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٣٢٠ صفحة .
	١٣٩	ما بنته العرب على فعال للصغاني : بتحقيق الدكتور عزة حسن . عدد صفحاته ٢٠٠ صفحة .
	١٤٠	زجر النابح « مقتطفات » لأبي العلاء المعري: تحقيق الدكتور أمجد الطرابلسي.عدد صفحاته ٢٥٣ صفحة مع المقدمة والاستدراكات .

السنة	الرقم	
١٩٦٥	١٤١	أخلاق الوزيرين (أو مثالب الوزيرين) لأبي حيان التوحيدي : تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي . عدد صفحاته ٧٠٠ صفحة .
	١٤٢	ديوان ابن النقيب عبد الرحمن كمال بن محمد الحسيني : تحقيق الأستاذ عبد الله الجبوري ومراجعة الأستاذ أحمد الجندي . عدد صفحاته ٣٤٣ صفحة .
	١٤٣	مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس بترجمة مهران بن منصور بن مهران : تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٣٩ صفحة .
	١٤٤	المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة) : بقلم الأمير مصطفى الشهابي . عدد صفحاته ٢١٩ صفحة .
	١٤٥	مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٤٠) . عدد صفحاته ٨٩٦ صفحة .
١٩٦٦	١٤٦	مجلة مجمع اللغة العربية (مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً) (المجلد ٤١) . عدد صفحاته ٨٩٦ صفحة .
	١٤٧	تراجم الأعيان من أبناء الزمان للبوريني (الجزء الثاني) : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . عدد صفحاته ٣٨٠ صفحة .

الجزء الثالث	المجلد الرابع والأربعون

مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق
« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

تموز « يوليو » سنة ١٩٦٩ م	ربيع الآخر سنة ١٣٨٩ هـ

بقايا الفصاح

تصرّف العامّة في طوائف من الألفاظ الفصيحة تصرفاً عجيباً ، فإمّا أن تنقل معانيها من الحقيقة إلى المجاز وإمّا أن تحوّل هذه المعاني عن وجهها الشريف إلى وجهٍ دنيء ، ثم نراها في كثيرٍ من الأحيان تحافظ على معاني بعض التراكيب فلا تختلف هذه المعاني عمّا كانت عليه قبل ألف سنةٍ ، وقد نجدها تطلق أسماءً فصيحة على بعض المسمّيات إلاّ أن هذه المسمّيات لا تلبث أن تذهب فتموت الأسماء بذهابها أو تكاد .

فمن الألفاظ التي حوّلت العامّة معانيها عن وجهٍ إلى وجهٍ لفظة : الشبرقة ، لقد عاشت هذه اللفظة في لغتنا العامّة في دمشق حتى يومنا هذا ، ولكنّها لم تمش على أصل معناها فقد تصرّفت العامّة في هذا المعنى بعض التصرف ، فمن معاني الشبرقة في اللغة الفصيحة : نهش البازي الصيدَ

وتمزيقه وقطع الثوب ... أمّا الشبرقة في لغتنا العامّة فلها معنى آخر ، فالشبرقة أن يشتري الولد من ههنا وههنا على سبيل التسلية ، فالأهل يدفعون إلى ولدهم يسيراً من المال ويقولون له اذهب إلى السوق وتشبرق ، أي اذهب واشتر ما يروقك من مأكول أو مشروب ، اذهب وأنفق ما أعطيناك ، فأيّ صلة بين معنى هذه اللفظة الفصيح وبين معناها العامي ، أيّ صلة بين نهش البازي صيده وتمزيقه وبين شراء الولد ما يَبرُّ به في السوق ، لا نجد في الظاهر شيئاً من هذه الصلة ، ولكن إذا اجتهدنا في الأمر بعض الاجتهاد اهتدينا إلى ظِلّ من الصلة على سبيل المجاز ، فكما ينهش البازي صيده ويمزّقه حتّى لا يبقى من هذا الصيد أثر فكذلك ينفق الولد ما دفعه إليه أهله من المال في شراء كذا وكذا حتى لا يبقى من هذا المال شيء ، فكما أن البازي نهش صيده فكذلك الولد نهش ماله أي صرفه كلّه. هذا تعليل قد نصيب فيه أو نخطئ ولكنّا نقبله على ظاهره حتى نهتدي إلى تعليل أقوى .

ومن هذا القبيل لفظة : النشّال الشائعة على ألسن أهل مصر ومعناها : السارق ، فالنشّال في اللغة الفصيحة كشدّاد من يأخذ حرف الجردقة ، وهي الرغيف ، فيغمسه في القدر فيأكله دون أصحابه ومن معاني : نشل الشيء أسرع نزعه ، من هذا يتبيّن لنا أنّ النّشّال العامية أصلها فصيح ولكنّ العامّة تصرّفت في معناها فنقلت هذا المعنى من وجه إلى وجهٍ على سبيل المجاز ، فكما أنّ من ينشل الشيء يسرع نزعه ، فكذلك من ينشل الشيء من الثياب يسرع نزعه بحيث لا تقع عليه عين صاحبه ، وكما أنّ النشّال الفصيحة من يأخذ حرف الرغيف فيغمسه في القدر فيأكله دون أصحابه فكذلك النشّال العامية من يأخذ الشيء من ثياب صاحبه فيغمسه في جيبه ويستأثر به ، فالمعنيان الفصيح والعامي متقاربان ولكن هذا التقارب على سبيل المجاز .

ومن هذا النمط ، وإن كان الأمر يختلف بعض الاختلاف لفظة : الشموذة ، فقد اتسعت العامّة في معنى هذه المادّة وفسحت لآفاقها ، فالشموذة في اللغة خفّة في اليد وأخذ كالسحر يُري الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين وهو : مشموِذ ومشموَذ ، (بكسر الواو وفتحها) ، إلاّ أنّ العامّة اختارت كسر الواو ولم تكتف بأصل معنى هذه المادّة فقد وسّعت آفاقه ونقلته من معنى ضيق إلى معنى أرحب ، فلجأت إلى المجاز وأطلقت الشموذة على كل نوعٍ من أنواع الخفّة والسحر في السياسة أو العلم أو الدين ونظائر هذه الأمور ، فلم تبق الشموذة في لغة العامّة والخاصّة خفّة في اليد أو أخذاً كالسحر ولكنّها أصبحت خفّة في كثير من الأمور ، فهي خفّة في ستر حقائق الأشياء ، فالمشموذ يرينا السياسة بغير ما عليه أصلها في رأي العقل وكذلك يرينا العلم أو الدين أو ما شابه ذلك ، وإذا كان المشموذ قد يطول أمر شموذته في خفّة يده أو سحره فإن المشموذ في أمور السياسة أو الدين أو العلم قد يفتضح أمره في هذه الخفة وفي هذا السحر فينكشف باطنه وتعرف شموذته ، وما أظن أن لفظاً من الألفاظ أقوى من لفظ الشموذة في الدلالة على هذه الطبقة من الناس .

بقيت لفظة لا تحتاج إلى كثير من التعليل ، فهي عامية ولكن أصلها فصيح ، نقول في لغتنا العامة : فلان ذلق ... أو فلان ذلق لسانه ... ونحن نريد بقولنا هذا أن فلاناً كان يكتم عنّا أشياء ولا يريد أن يبوح بها إلاّ أنه في خلال حديثه قد تخونه الذاكرة فيبوح بما كان يكتمه فنقول : فلان ذلق فقال كذا وكذا ... وقد تعدّي العامّة هذه المادّة وتستعمل الفعل المشدّد فتقول : ذلّقه حتى قال كذا وكذا ... ماذا نجد في اللغة، إنّا نجد : ذلق اللسان كفرح ذرب فهو ذلق وأذلق ... وذلق اللسان كنصر وكرم فهو ذليق وذلق بالفتح إلى آخر ما جاء من مشتقات هذا الفعل ،

فاللسان الذليق هو اللسان الحديد ، البليغ ، ثم نجد معنى أذلقه : أقلقه وأضعفه ، ولا نريد التوسع أكثر من ذلك في معاني هذه المادّة ، فالقول العامي : ذلق فلان فقال كذا وكذا .. لا يطابق القول الفصيح : ذلق اللسان فهو ذليق بمعنى بليغ ولكن قول العامّة : ذلّقه فقال كذا وكذا . . . لا يبعد كثيراً عن أذلقه بمعنى : أقلقه وأضعفه ، فقد يأتي بعد هذا الإقلاق أو هذا الإضعاف حمل الإنسان على البوح بما يكتم ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب الأغاني في الكلام على وقعة بدر ، فقد قبض على غلامين اعترفا بأنهما سقاة لقريش ولكن القوم رجوا أن يكون الغلامان لأبي سفيان فضربوهما ، فلمّا أذلقوهما قالا : نحن لأبي سفيان إلى آخر ما جاء في هذا الخبر ، فالذي يهمنا منه إنما هو فعل : أذلقوهما وما أدّى إليه هذا الإذلاق ، أي هذا الإقلاق والإضعاف ، فقد أدّى إلى الاعتراف بما يرضي الذين ضربوا الغلامين ، وإن كانت بقية الخبر تدلّ على أن الغلامين كانا صادقين فهما لقريش وليسا لأبي سفيان .

فإذا رجعنا إلى قول العامة : ذلّقه فقال كذا وكذا . . . وجدنا شيئاً من التقارب بين القول العامي والقول الفصيح ، والفرق بينهما أن العامّة تستعمل : ذلّقه بالتشديد ، واللغة الفصيحة تستعمل : أذلقه ، ومهما يكن من الأمر فإن الإذلاق أو التذليق إنما نتيجته البوح بما هو مكتوم سواء أوقع الإقلاق والإضعاف أو لم يقع .

وإذا انتقلنا من هذه الطبقة من الألفاظ إلى طبقة ثانية وجدنا أن العامّة قد تتصرف في بعض المعاني أقبح تصرّف ، فمن الألفاظ الفصيحة لفظة : العِلْق ، (بكسر العين وتسكين اللام) ، ومعناها في اللغة : النفيس من كل شيء ، والجمع : أعلاق وعلوق ، إلاّ أن هذه اللفظة لم يبق لها في لغة العامّة معناها الفصيح ، فقد تصرفت فيها أسوأ تصرّف فأطلقت العلق

على كل مخنّث أو متغنّـج من الناس ، وهي تريد به أقبح الذم ، ولا يسرّ أحداً أن يقال فيه أنه علق ، واختارت العامة من صيغة الجمع : العلوق وطرحت الأعلاق في لغتها ، فإذا قالت في جماعة من القوم أنهم علوق فقد بلغت من قبح تصويرهم في المجتمع كلّ مبلغ ، وهكذا نجد أن بعض الألفاظ الفصيحة قد تنحدر في لغة العامّة من أفقها الأعلى إلى الأفق الأدنى .

وإذا كانت العامّة قد تتصرّف في بعض الأوقات في معاني فئةٍ من الألفاظ فإنها قد تحافظ في كثيرٍ من الأحيان على معاني تراكيب فصيحة استعملت في قديم أدبنا ، من هذه التراكيب : فلان يدي ورجلي ... الكلام معك ضائع ... يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى والمساكين .

نجد في الأغاني في أخبار منصور النمري هذه العبارة : استقبلت منصوراً النمري يوماً من الأيّام فرأيته مغموماً ، واجماً ، كئباً فقلت له : ما خبرك ، فقال : تركت امرأتي تطلق وقد عسر عليها ولادها ، وهي يدي ورجلي والقيّمة بأمري وأمر منزلي .... فهذه العبارة : فلان يدي ورجلي لا تزال مستفيضة في لغة العامّة ، وقوّتها ظاهرة ومعناها جزل ، فالذي يكون يدك ورجلك في أمورك إنما هو المعوّل عليه في هذه الأمور ، لا تستطيع أن تعمل عملاً دونه ، وهل يستطيع أن يتحرّك من لا يدَ له ولا رجل ، وهكذا نجد أن التراكيب السهلة ذات المعنى الخصب قد تعيش دهراً طويلاً في لغة العامّة فضلاً عن لغة الخاصة .

ومثل هذا التركيب في القوة قولنا : الكلام معك ضائع ... في أخبار حمّاد الراوية في الأغاني أن الطرمّاحَ أنشده قصيدة في مسجد الكوفة ، فلمّا سمعها حمّاد ادّعاها ونفاها عن الطرمّاح ، فطال الكلام بينهما في هذا الشأن حتى قال الطرمّاح لحمّاد : أنت رجل ماجن ، والكلام معك ضائع .

قد يشتدّ النزاع بين رجلين وقد يكون أحدهما على حقٍ فيحاول أن يقنع الآخر بالحجة ، أو أن يوبّخه إن كان يستلزم التوبيخ أو أن يدخل على ذهنه فكراً من الأفكار فيجده كأنه حائط ، لا يقنع ولا يلين ولا يأخذ بالصواب ، فتنفد حيلته معه فلا يهتدي إلى سبيل من السبل في ردّه إلى الصواب ، فلا يجد في مثل هذه الحال أبلغ من قوله : الكلام معك ضائع ... فلا الحجة تنفع ولا التوبيخ يفيد ولا المنطق ينجح ، فكل أمرٍ من هذه الأمور ونظرائها لا طائل فيه ، فالكلام مع هذا الرجل ضائع ، فهذه العبارة تغني عن كل حجة وعن كل توبيخ وعن كل منطق فضلاً عن أنها تجنّبنا كل عاقبة غير محمودة ، فما أحسن شيوعها على ألسن العامّة والخاصة حتى يومنا هذا .

أمّا التركيب الأخير : فلان يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى والمساكين فلا تقلّ قوّته عن أخويه ، نقرأ في الأغاني في نسب أبي العتاهية وأخباره أن أبا العتاهية لمّا تنسك جلس يحجم اليتامي والفقراء ليضع من نفسه وليكتسب الثواب وهو لا يعرف ما يحتاج إليه كل واحدٍ من الناس إلى أن يخرجه من الدم على قدر طبعه ممّا إذا زاد فيه أو نقص منه ضرّ المحجوم ، فقال بشر لأبي العتاهية : ما أراك إلاّ أردت أن تتعلّم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين !

هذه العبارة شائعة على ألسن الناس ، عامّتهم وخاصّتهم ، إلاّ أنهم يستعملون الرؤوس بدلاً من الأقفاء ، فقد يتطاول أحدنا لأمرٍ من الأمور ولم يأخذ لهذا الأمر عدّته ولا هيّأ له أسبابه ولا عرف مصادره وموارده ، ومع هذا فهو يدّعي العلم بهذا الأمر فيمارسه على جهله به والله أعلم بما يتمّ فيه على يده من الأذى ، ولكنّه يريد أن يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى .

ولا أريد أن أختم هذا المقال دون الإشارة إلى لفظة قد تدلّنا على موت الألفاظ ، فإن الألفاظ حياة ، إن لها ميلاداً وموتاً ، من الألفاظ الشائعة في بنياننا لفظة : المشرقة ، فالمشرقة ، مثلثة الراء ، موضع القعود في الشمس بالشتاء ، وقد حافظت العامّة على هذا المعنى في لغتها ، فلم تنحرف هذه اللفظة عن معناها الفصيح ، وإذا كانت المشرقة مثلثة الراء فإن العامّة اختارت فتح الراء في كلامها ، إلاّ أن هذه اللفظة التي عاشت في دمشق زمناً طويلاً قد أوشكت أن تموت ، والسبب في ذلك عمراننا الحديث ، فالدور القديمة لها مشرقات ، وكان أهل هذه الدور يقعدون فيها بالشتاء للدفء أو ينشرون فيها غسيلهم ، فهي من أصل الدور وهي غير سطوح الدور ، ولكن عمراننا الحديث قد خلا من هذه المشرقات فأكثر الأبنية أصبحت ذات طيقان وكلّ طاقٍ خالٍ من المشرقة ما خلا الطاق الأعلى فإن له سطحاً فأهله يقولون : السطح ولا يقولون : المشرقة ، وعلى هذا نجد أن هذه اللفظة التي لا تزال تعيش في حارات دمشق القديمة قد ماتت في الحارات التي استفحل فيها العمران الحديث .

شفيق جبري



فقيد العروبة

الأستاذ الكبير ساطع الحصري

مجمعي افتقدناه

فقيد العروبة

الأستاذ ساطع الحصري

في صبيحة يوم الثلاثاء الواقــــع في الخامس من شوال سنة ١٣٨٨ هـ الموافق لـ ٢٤ كانون الأول سنة ١٩٦٨ م ، روّع العالمَ العربي صوت من بغداد ينعى إليه **الأستاذ الكبير ساطعاً الحصري** ، وكان لهذا الصوت صدى حزن وألم عمّ أرجاء الوطن العربي كافة ، فقد خسر العرب بوفاته واحداً من أكبر علماء التربية والتعليم لديهم ، وفقدوا رائداً من **أقدم رواد النهضة العربية الحديثة** ، وداعية من أشد الدعاة إخلاصاً للفكرة العربية البنّاءة ، ومناضلاً من أشد المناضلين حماسة في الدفاع عن « **القومية العربية المعاصرة** » أفنى سمعه وبدد ضياء عينيه في تأريخ « **الثورة العربية** » ، وتحديد معنى « **القومية العربية** » وفي الدفاع عنها بالتصدي لكل من خطّ حرفاً ليس في صالحها ، أو فاه بكلمة ليست في جانبها ، أو صدرت عنه حركة قد تسيء إليها ، كان صلباً في عقيدته ، لا تخلو ردوده أحياناً من قسوة ، كما كان ثابتاً على رأيه ، يندر أن يتزعزع في مواقف الدفاع ، ولو تحالف عليه كل الأقوياء سواء بمراكزهم أو بحبهم له أو بتقديره إياهم ، وقد حلا للكثيرين من الكتاب ورجال الصحافة إطلاق لقب « **أبو العروبة** » عليه ، فقد عاش مؤمناً بالعروبة ، منافحاً عن الأصالة العربية ، ومات عن ثروة ضخمة من المؤلفات حاول فيها ترسيخ مفهومه للقومية العربية ، وإفحام خصومها من شعوبيين أو من عرب تائهين .

ولقد خسر **مجمع اللغة العربية بدمشق** بموت الأستاذ ساطع الحصري ، **عضواً من أبرز أعضائه العاملين** ، فقد انتخبه المجمع في الجلسة التي عقدها في ١٧ من شباط (فبراير) سنة ١٩٥٥م عضواً تقديراً لمكانته العلمية ، واعترافاً بما أداه للعربية من خدمات بآرائه الصائبة ومقترحاته المفيدة ، وقد صدر مرسوم جمهوري بتاريخ ٢٤ نيسان (أبريل) ١٩٥٥م .

رحم الله فقيدنا الكبير رحمة واسعة ، فقد كان **علماً من أعلام الفكر العربي المعاصر** ، وفيما يلي نبذة عن نشأته وحياته وآثاره .

★ ★ ★

نشأته وحياته

كان محمد هلال الحصري ، من أهالي مدينة **حلب في شمالي سورية** ، قد قضى شطراً من شبابه في مصر يدرس في الجامع الأزهر علوم الشريعة والعربية ، فلما أجيز ، عين قاضياً في مدينة دير الزور ثم نقل إلى مدينة حماة السوريتين ، ثم عين **رئيساً لمحكمة استئناف ولاية اليمن** ، وفي مدينة **صنعاء** أقام القاضي الجديد سنة أو تزيد ، فلما كان الخامس من شهر آب (أغسطس) عام ١٨٨٠ ميلادية الموافق لسنة **١٢٩٧** للهجرة ، ولد له فيها غلام أسماه « **ساطعاً** » .

لم يقم محمد هلال الحصري الحلبي في صنعاء ، أكثر من سنتين نقل بعدها إلى أضنة ثم إلى أنقرة **من بلاد الأناضول** ، فإلى طرابلس الغرب **في ليبيا** ، ثم أعيد ثانية إلى **اليمن** ، فإلى قونية **في تركية** ، فثانية إلى **طرابلس الغرب** ، وهكذا كان الموظفون في الدولة العثمانية لا يستقر أحدهم في وظيفة عين فيها أكثر من **سنتين** على الأعم الأغلب ، وكثيراً ما كان أطفال هؤلاء الموظفين يتنقلون مع آبائهم كما وقع **لساطع وليد الحصري الحلبي** .

وعندما انتقلت وظيفة القاضي الحصري إلى طرابلس الغرب للمرة الثانية سنة ١٨٩٣ م ، كان ساطع ، **الذي فاتته الدراسة الابتدائية النظامية** ، قد استطاع بجهده الشخصي واجتهاده الشديد ، دخول القسم الإعدادي من **« المدرسة الملكية الشاهانية »** في استانبول . فتركته الأسرة المسافرة إلى ليبيا تلميذاً داخلياً في هذه المدرسة ، على أن يلحق بها في العطلة الصيفية ، وقد لحق بها في عطلة أول سنة ، ولما كانت عطلة السنة الثانية ، لحق بأسرته وهي في بني غازي حيث كان أخوه الأكبر يتولى وظيفة النيابة العامة فيها ، ولم تأت عطلة السنة الثالثة، إلا وكانت وظيفة ربّ الأسرة قد انتقلت إلى استانبول، **فاستراحت واستراح الشاب الساطع** ، واستطاع أن يكمل دراسته العالية في المدرسة الملكية سنة ١٩٠٠ م **بتفوق ملحوظ** .

عين ساطع الحصري ، بعد تخرجه مباشرة ، **مدرساً للعلوم الطبيعية** في إعدادية (يانيا) **عاصمة مقاطعة أبيروس** وهي اليوم جزء من دولة اليونان ، فظل في هذه المدرسة إلى سنة ١٩٠٥ م . وخلال مدة السنوات الثلاث الأخيرة من إقامته في يانيا عين **« مأمور معية »** إذ كان أمثاله يعينون كذلك تمهيداً لتعيينهم في **الوظائف الإدارية** ، مع السماح له بتدريس بعض ما كان يتولى تدريسه .

وفي سنة ١٩٠٥ م عين ساطع الحصري **قائمقاماً** لقضاء **(رادو ويشته)** في ولاية قوصوة ، ذي الأكثرية البلغارية ، وكان القضاء سياسياً في المنطقة النمساوية من **المراقبة الدولية** التي كانت قد فرضت على ولايات ماكدونيا الثلاث ، ثم نقل ساطع قائمقاماً لقضاء (**فلورينه**) في ولاية **مناستر** ، وكان هذا القضاء في المنطقة الإيطالية من المراقبة الدولية .

بقي ساطع الحصري قائمقاماً في (فلورينه) حتى الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ م ، **ولما كان هواه مع الانقلابيين** ، عهدوا إليه يوم إعلان الدستور بمهمة شرح

أهدافهم في عاصمة الولاية « مناستر » فقام يخطب في الجماهير يحمسهم **لتأييد الانقلاب** ، وفي وفود المهنئين به **يشكرهم على تهانيهم** .

ولم يمض على إعلان الدستور شهران ، إلا وأحب ساطع الحصري العودة إلى العاصمة ، فترك الوظائف الإدارية ، **راغباً في العودة إلى تولي التعليم في المعاهد العالية** ، فكان بدءاً من نهاية عام ١٩٠٨ م : أستاذاً للتربية في جامعة استانبول (**دار الفنون**) وأستاذاً لعلم الأقوام في المدرسة الملكية الشاهانية ، وقد أطلق عليها فيما بعد اسم « **مدرسة العلوم الإدارية والسياسية** » ، وأستاذاً لعلمي التربية والاجتماع في مدرسة (**دار الخلافة العلية**) وفي (**دار المعلمين العالية**).

وقبل أن ينقضي عام ١٩٠٩ م ، عين ساطع الحصري **مديراً لدار المعلمين** ، فأحدث تعيينه هزة كبيرة في الدار ، إذ أعقبه حدوث انقلاب جذري في نظامها وأصول التدريس فيها ، وإقامة نظام جديد مبني على أحدث أساليب التعليم ، مما كان له أثر كبير في تبديل **اتجاهات التعليم في جميع ممالك الدولة العثمانية** .

وقام ساطع الحصري أثناء توليه مديرية (**دار المعلمين**) بتأسيس مدرسة أطلق عليها اسم (**المدرسة الحديثة**) متبعاً في أنظمتها **أحدث أساليب التربية والتعليم** التي عرفتها البلاد الأوروبية .

احتل ساطع الحصري ، بما قام به من تبديل في نظم التربية والتعليم وبما نشره من مؤلفات ومقالات ، **مكانة عالية في الدولة العثمانية** وتمتع بمركز علمي مرموق ، وأخذ اسمه مقروناً بالتقدير يتردد في كل المحافل العلمية والتربوية ، وقد انتخب عضواً في « **جمعية المطبوعات العثمانية** » منذ يوم تأسيسها ، وكان من آخر المراكز التي تبوأها في العهد العثماني رياسة « **مؤتمر المطبوعات** » .

ظل ساطع الحصري يعمل ويدأب في إصلاح نظم التربية والتعليم في الدولة العثمانية ، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م ، ولكنه ماكاد يسمع أنباء جلاء الأتراك عن دمشق ودخول الجيش العربي إليها ، **إلا وتطلع إلى هذه الدولة الفتية تقوم في دمشق بعد زمن طويل من سقوط الدولة العربية الكبرى** ، فما أن تلقى إشارة تدعوه الحكومة العربية بها إلى سورية ، حتى غادر استانبول ، رغم ماعرضه عليه الأتراك للبقاء في منصبه ، **ووصل دمشق** في مطلع عام ١٩١٩ م ، فبادرت الحكومة العربية فيها إلى تكليفه بالإشراف على معارف الدولة فكان على التوالي :

١ — **مفتشاً عاماً للمعارف** في سورية ، من تاريخ ١٩١٩/٤/١٦ حتى ١٩١٩/٤/٣٠ م .

٢ — **مديراً عاماً للمعارف** في سورية ، من تاريخ ١٩١٩/٥/١ حتى ١٩٢٠/٣/٩ م .

ويوم أعلن المؤتمر السوري **استقلال سورية ووضع دستورها الأول الملكي** بتاريخ ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠م ، قامت في دمشق أول حكومة عربية دستورية ، واختير ساطع الحصري **وزيراً للمعارف** فيها ، فمارس مهام الوزارة من تاريخ ١٩٢٠/٣/١٠ حتى تاريخ ١٩٢٠/٧/٢٧ م ، يوم احتل الجيش الفرنسي دمشق ليفرض على الشعب السوري ماأسمته عصبة الأمم بـ « **الانتداب** » .

غادر ساطع الحصري سورية مع ملكها المبعد عن العرش **فيصل الأول** ، مرافقاً مليكه في رحلاته التي انتهت به **ملكاً على العراق** ، وفي بغداد تولى الحصري المناصب التالية :

١ — معاون وزير المعارف من تاريخ ١٩٢٢/٣/٥ إلى ١٩٢٣/١/١٧ م .

٢ — مدير المعارف العام من تاريخ ١٩٢٣/١/١٧ إلى ١٩٢٧/٨/٣١ م .

٣ — أستاذ علم التربية في دار المعلمين العالية من تاريخ ١/٩/١٩٢٧ حتى ١/١٠/١٩٣١ م .

٤ — مراقب التعليم العام من تاريخ ١/١٠/١٩٣١ حتى ٢٢/١٢/١٩٣١ م .

٥ — عميد كلية الحقوق من تاريخ ٢٣/١٢/١٩٣١ حتى ١١/١٠/١٩٣٤ م .

٦ — عميد كلية الحقوق ومدير الآثار القديمة من تاريخ ١٢/١٠/١٩٣٤ حتى ١٦/٩/١٩٣٥ م .

٧ — مدير الآثار القديمة ومراقب التربية والتدريس العام، من تاريخ ١٦/٩/١٩٣٥ حتى ١٢/٩/١٩٣٦ م .

٨ — مدير الآثار القديمة من تاريخ ١٣/٩/١٩٣٦ ، وظل يتولى هذا المنصب حتى الحادي عشر من حزيران (يونيو) سنة ١٩٤١ م ، يوم أبلغت الحكومة العراقية ، التي أُلفت عقب فشل الثورة ضد الانكليز ، ساطعاً الحصري مدير الآثار القديمة ، **قراراً بنزع الجنسية العراقية عنه بوصفه سوري الأصل** ، وبضرورة مغادرته الأراضي العراقية ، فغادرها باليوم نفسه ووصل مدينة بيروت وفيها أقام أربع سنوات .

وفي أعقاب جلاء الجيوش الفرنسية عن سورية سنة ١٩٤٥ م ، قامت الحكومة السورية بتكليف ساطع الحصري بمهمة الإشراف على **إعادة تنظيم المعارف** ، وعينته **مشاوراً فنياً لها** لشؤون التربية والتعليم ، وظل يقوم بهذه المهمة ثلاث سنوات .

وفي ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٤٧ م ، دعته وزارة المعارف المصرية لإلقاء محاضرات في **اجتماعيات التربية** في معهد التربية في القاهرة ، فاستمر يلقي المحاضرات في هذا المعهد مدة ثلاث سنوات أيضاً ، قامت خلالها جامعة الدول العربية بترشيحه لمنصب **المشاور الفني للادارة الثقافية** ، فشغل هذا المنصب من أول سنة ١٩٤٧ م ، بما عرف فيه من دأب على العمل وإخلاص فيه ،

حتى نهاية عام ١٩٥٠ م ، إذ بدا له أن يستقيل منه فاستقال . على أنه قبل عرض الإدارة الثقافية بأن **يدير معهد الدراسات العربية العالية** ، الذي قررت جامعة الدول العربية بمساعيه افتتاحه في القاهرة ، واستلم إدارة المعهد اعتباراً من أول نيسان (أبريل) سنة ١٩٥٣ م ، متولياً فيه كرسي « **القومية العربية** » . وفي سنة ١٩٥٦ استقال من إدارة المعهد ، ولم تمض سنة دراسية واحدة بعد ذلك حتى قرر ترك المعهد نهائياً ، **لأنه لم يستطع تطبيق جميع ما يدين به من آراء** ، فاستقال من التدريس أيضاً .

هذا وكانت الحكومة العربية السعودية قد كلفته خلال سنة ١٩٥٤ م ، **بدراسة أحوال المعارف في المملكة ، وتقديم تقرير عن وسائل إصلاحها** ، فقام بهذا الواجب خير قيام ضمن الحدود المرسومة وبحسب ما رآه مفيداً .

الدراسات التي استهوت الفقيد ونبغ فيها

عندما كان ساطع الحصري في « المدرسة الملكية الشاهانية » في استانبول ، لم يكن يرضى لنفسه الاكتفاء بالمحاضرات النظامية تلقى عليه ، وبالكتب المحددة المطلوبة منه ، فقد **خُلق شديد الرغبة بالمعرفة والتقصي** ، محباً للدراسة والتحصيل ، **مولعاً بالعلوم الرياضية** ، مندفعاً وراء كشف دقائقها ، فأخذ يلتهم كل ما تقع عليه يده من كتب ومجلات تبحث فيها ، مستعيراً من أصدقائه طلاب مدرستي الهندسة والأركان الكتب المقررة عليهم ، وبدأ يُعرف بقدرته على حل **العويص من مسائل الرياضيات العالية** ، فأطلق عليه رفاقه اسم « **آرشميد** » وبه اشتهر مدة طويلة من الزمن .

وكما أولع ساطع الحصري بالعلوم الرياضية ، أولع **بالعلوم الطبيعية** ، واستهواه تشريح الحيوانات وتحنيطها ، فأتقن ذلك ، حتى كان في طليعة ما يفعله في المدارس التي تولى إدارتها ، إنشاء **متاحف للتاريخ الطبيعي** فيها .

ومن العلوم التي استهوت فقيدنا أيضاً ، **علوم النفس والتربية والاجتماع** ، فأخذ يتبحر فيها ويغوص وراء مشاكلها ، حتى غدا **أستاذها الذي يشار إليه بالبنان** في استانبول يوم كان فيها ، **وعميد أساتيذها** في أرجاء العالم العربي فيما بعد .

ومما ساعد ساطعاً ، في إتقان هواياته وإتقان أبحاثها ودقائقها ، **الرحلات الدراسية التي قام بها إلى البلاد الأوروبية** خلال أعوام ١٩١٠ — ١٩١٧ م ، فقد زار كلاً من إيطالية وسويسرة وفرنسة وانكلترة وبلجيكا وهولندة وألمانية ورومانية وبلغارية ، دارساً في كل منها **نظم التربية والتعليم** المطبقة والعيوب التي يُشكى منها ، والاتجاهات الحديثة التي يفكر فيها المصلحون في مختلف البلاد المذكورة .

اشترك ساطع الحصري في **المؤتمر الدولي الثاني للتربية الأخلاقية** في لاهاي سنة ١٩١٢ م ، وكان من أعضاء **عمدة معهد جان جاك روسو** الذي أسس في صيف السنة نفسها ، كما اشترك في **المؤتمر الدولي لعلم الاجتماع** في استانبول سنة ١٩٣٢ م ، ممثلاً لدولة العراق ، كما مثله في **المؤتمر الدولي للحفريات الأثرية** في القاهرة سنة ١٩٣٧ م . وقد جرى انتخابه سنة ١٩٣٨ م عضواً في **لجنة المتاحف الدائمة** المنبثقة عن اللجنة الدولية للتعاون الفكري .

★ ★ ★

مؤلفات الفقيد وآثاره

كان الفقيد من أكثر المفكرين العرب تدويناً لدراساته وبحوثه وآرائه والحوادث التي وقعت معه ، وقد نشر أكثرها كتباً يتداولها الناس ، إلى جانب العديد من مؤلفاته في مختلف العلوم والفنون .

كانت آثار فقيدنا المطبوعة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م ، مكتوبة **بالتركية اللغة الرسمية للدولة العثمانية** ، وهي تنقسم إلى قسمين بحسب زمن كتابتها :

القسم الأول : آثاره قبـــل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م

وهي عبارة عن سلسلة من الكتب المدرسية في عديد من العلوم الطبيعية ، وكانت وزارة المعارف العثمانية قررت تدريسها في جميع أنحاء الدولة ، وتبين موضوعاتها من العناوين التالية :

١ ــ معلومات زراعية ؛ ٢ ــ دروس الأشياء (**المدارس الابتدائية**) .

٣ ــ علم الحيوان ؛ ٤ ــ علم النبات ؛ ٥ ــ تطبيقات زراعية (**للمدارس الثانوية**) .

وللفقيد **مقالات كثيرة** في مسائل عملية ، وفي وصف مخترعات حديثة ، نشرت له في المجلات العلمية والأدبية ، وعناوين بعضها كالتالي :

نحو القطب ـ التلغراف اللاسلكي ـ الأشعة المجهولة ـ الحياة في المناجم ـ مناظر الغروب : في الأرض ، وفي الكواكب .

القسم الثاني : آثاره بعد إعلان الدستور

أ ــ الكتب التي ألفها الفقيد :

١ ــ كتاب « **فن التربية** » ويشتمل على مجموعة دروسه في دار المعلمين ، وهو في مجلدين .

٢ ــ « **انتوغرافيا** » [علم الأقوام] ، وهو كتاب يشتمل على مجموعة دروسه في المدرسة الملكية .

٣ - « **تقاريري** » [لايحه لرم] ، وهي عبارة عن كتاب يتضمن مجموعة التقارير التي قدمها إلى وزارة المعارف ، بعد عودته من رحلته الدراسية الأولى سنة ١٩١٠ م .

٤ ــ « **الوطن** » وهو كتاب يتضمن مجموعة محاضرات في الوطنية والتربية الوطنية .

٥ ــ « **الأمل والعزم** » وهو كتاب يتضمن مجموعة محاضرات .

٦ ــ « **اليابان واليابانيون** » عنوان محاضرة عن نهضة اليابان وعواملها .

ب — المجلات التي عمل الفقيد على إصدارها :

١ — « **أنوار العلوم** » ، وهي مجلة في العلوم والكشوف العلمية ، وقد صدر منها مجلد واحد .

٢ — « **التدريسات الابتدائية** » ، مجلة تعليمية صدر منها ثلاثة مجلدات .

٣ — « **مجلة التربية** » ، صدر منها عشرة أعداد فقط ، وكانت الأربعة الأولى مصورة .

ج — المقالات التي دبجها الفقيد :

اشتهر الفقيد بالمقالات الكثيرة التي كان ينشرها في مختلف الصحف والمجلات ، منتهزاً أي مناسبة يستطيع فيها أن يدلي برأيه ، أو يدافع عن مبادئه أو يشرح فيها أفكاره وعقيدته .

وليس من السهل على المرء تقصي كل ما كتبه الفقيد ونشره ، على أن معظم مقالاته كانت تربوية واجتماعية ، وكان قسم كبير منها نقداً أو دراسة للقضايا الإصلاحية الكبرى ، وبعضها كان سياسياً ؛ وكان من أهم المقالات التي نشرها في العهد العثماني ، وكان لها صداها في الرأي العام المقالات التالية :

١ — **آثار الاستبداد وبذوره الباقية** (أربع مقالات متتابعة) .

٢ — **في سبيل إصلاح المعارف** .

٣ — **نظرية شجرة الطوبى والتفكير العلمي** .

٤ — **دور كهايم ونظرياته الاجتماعية** (نقد) .

٥ — **دفاع عن مدحت باشا** .

٦ — **قضايا التنظيمات** .

٧ — **معرض تورينو وطرابلس الغرب** .

٨ — **خطاب إلى طلعت بك** .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن الفقيد نشر مقالات عديدة خلال سنتي ١٩٠٨ و ١٩٠٩ م في مجلة « نيّو حقيقت » ، التي كانت تصدر في مناستر ، بصورة سرية قبل إعلان الدستور ، وبصورة علنية بعد إعلانه ، وظل الفقيد يراسلها ويكتب فيها إلى ما بعد انتقاله إلى استانبول .

★ ★ ★

أما آثار الفقيد التي تؤلف ثروة ضخمة للمكتبة العربية ، فهي على نوعين أيضاً :

النوع الأول : ١ — مقالات منشورة في مختلف صحف ومجلات البلاد العربية ، ضمن الفترات الزمنية التالية :

أ — خلال وجود الفقيد في سورية (١٩١٩ — ١٩٢٠ م) ، وقد عمل على إصدار مجلة باسم « التربية والتعليم » نشر فيها عدة مقالات تربوية ووطنية .

ب — خلال وجود الفقيد في العراق (١٩٢٢ — ١٩٤١ م) وقد عمل على إصدار مجلة باسم « التربية والتعليم » أيضاً ، وصدر منها خمسة مجلدات بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣١ م ، وفيها كثير من المقالات والبحوث القيمة التي كتبها الفقيد .

جـ — بعد إخراج الفقيد من العراق ، وقبل إقامته في مصر ، نشر كثيراً من المقالات والمحاضرات والأبحاث وقد جُمع أكثرها في كتب مستقلة ، وكانت صحف بيروت ودمشق والقاهرة ومجلاتها ، ومجلة « الرسالة » في طليعتها ، هي الميدان الذي كان فقيدنا يناضل على صفحاتها .

د — بعد استقرار الفقيد في القاهرة ، أخذ ينشر آراءه ودراساته نشراً منظماً ، كوّن أهم مؤلفاته القيمة .

النوع الثاني : — الكتب ، وفيما يلي ثبت بما عرفناه منها :

١ — « **القراءة الخلدونية** » (الألفباء) .

٢ — « **مرشد القراءة الخلدونية** » (طريقة تعليم الألفباء) .

٣ — « **مساعد القراءة الخلدونية** » .

٤ — « **دروس الأشياء** » ، في أربعة أجزاء .

٥ — « **أصول التدريس** » و « **أصول تدريس اللغة العربية** » ؛ كل بحث في جزء .

٦ — «**رسائل إلى بول مونرو**»، نظرات نقد لتقرير مونرو عن معارف العراق.

٧ — « **الإحصاء** » ، **مجموعة محاضرات في كلية حقوق بغداد** .

٨ — «**آراء وأحاديث في التربية والتعليم**» .

٩ — «**آراء وأحاديث في الوطنية والقومية**» ، وهذا الكتاب والذي قبله تضمنا مجموعة مختارة من المقالات والمحاضرات التي نشرها الفقيد في مختلف الصحف والمجلات ، وقد طبعا في القاهرة سنة ١٩٤٤ م .

١٠ — « **دراسات عن مقدمة ابن خلدون** » نشرت أولاً في بيروت سنة ١٩٤٤، ثم أعيد طبعها منقحة مزيدة في القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

١١ — « **يوم ميسلون** » مذكرات الفقيد عن الأيام الأخيرة للدولة العربية السورية سنة ١٩٢٠ م . وقد طبع في بيروت أكثر من مرة .

١٢ — « **تقارير** » ، وتتضمن دراسة مستفيضة حول المعارف في سورية ، صدرت في جزأين طبعا في دمشق، الأول سنة ١٩٤٤ والثاني ١٩٤٥م.

١٣ — « **صفحات من الماضي القريب** » وقد طبع في بيروت سنة ١٩٤٨ م .

١٤ — «**آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة**» طبع في القاهرة سنة ١٩٥١ م .

١٥ — « **آراء وأحاديث في التربية والاجتماع** » ، طبع في القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

١٦ — « **آراء وأحاديث في القومية العربية** » ، طبع في القاهرة سنة ١٩٥١ م وأعيد طبعه في بيروت للمرة الرابعة .

١٧ — « **العروبة بين دعاتها ومعارضيها** » ، طبع المرة الأولى في بيروت سنة ١٩٥٢ م .

١٨ — « **محاضرات في نشوء الفكرة القومية** » ، طبع لأول مرة في القاهرة سنة ١٩٥١ م ، وأعيد طبعه في بيروت للمرة الخامسة .

١٩ — « **العروبة أولاً** » ، طبع المرة الأولى في بيروت سنة ١٩٥٥ م . ثم أعيد طبعه فيها أيضاً للمرة الخامسة .

٢٠ — « **دفاع عن العروبة** » ، طبع للمرة الأولى في بيروت سنة ١٩٥٦ م . وقد أعيد طبعه فيها للمرة الثالثة سنة ١٩٦٨ م .

٢١ — « **آراء وأحاديث في اللغة والأدب** » طبع في بيروت سنة ١٩٥٨ م .

٢٢ — « **المحاضرة الافتتاحية** » في معهد الدراسات العربية العالية ، طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

٢٣ — « **البلاد العربية والدولة العثمانية** » ، طبع للمرة الأولى في القاهرة سنة ١٩٥٧ م ، وأعيد طبعه للمرة الثالثة في بيروت طبعة مزيدة ومنقحة .

٢٤ — « **حوليات الثقافة العربية** » ، وهي مجموعة دراسات وإحصائيات عن الثقافة العربية في أرجاء الوطن العربي ، صدرت منها الأجزاء التالية :

١ — السنة الأولى : عن السنوات التي سبقت ١٩٤٩ — ١٩٥٠ وطبعت في القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

٢ — السنة الثانيـــة : عن سنة ١٩٥٠ — ١٩٥١ ، وقد طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

٣ — السنة الثالثة : عن سنة ١٩٥١ — ١٩٥٢ ، وقـــد طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

٤ — السنة الرابعة : عن سنة ١٩٥٢ — ١٩٥٣ ، وقـــد طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

٥ — السنة الخامسة : فيها صلة ما انقطع حتى سنة ١٩٥٧ ، وقد طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

٢٥ — « **البلاد العربية منذ ظهور الإسلام** » ، خريطة زمنية طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

٢٦ — « **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية** » ، وقد طبعته دار العلم للملايين في بيروت للمرة الخامسة سنة ١٩٦٦ م .

٢٧ — « **حول الوحدة الثقافية العربية** » ، وقد طبع في بيروت .

٢٨ — « **ماهي القومية** » ، وقد طبعته دار العلم للملايين في بيروت للمرة الثانية.

٢٩ — « **الاقليمية . . جذورها وبذورها** » ، وقد طبعته دار العلم للملايين في بيروت للمرة الثانية سنة ١٩٦٥ م .

٣٠ — « **حول القومية العربية** » ، وقد طبعته دار العلم للملايين في بيروت سنة ١٩٦٧ م .

٣١ — « **ثقافتنا في جامعة الدول العربية** » ، وقد طبع في بيروت .

٣٢ — « **مذكراتي في العراق** » الجزء الأول وفيه حوادث سنة ١٩٢١ حتى ١٩٢٧ م ، وقد طبعته دار الطليعة في بيروت سنة ١٩٦٧ م .

٣٣ — « **مذكراتي في العراق** » الجزء الثاني وفيه حوادث سنة ١٩٢٧ حتى سنة ١٩٤١ م ، وقد طبعته دار الطليعة في بيروت سنة ١٩٦٨ م .

★ ★ ★

بين الفقيد وبيني

تربطني بالفقيد الكبير **صلة ودّ وتقدير عظيمة**، تمتد جذورها إلى سنة ١٩٣٩م يوم كنت في بغداد أزوره مع إخوان لي من شباب العرب المتحمسين لعروبتهم . كان الفقيد وهو شيخ يمشي نحو الستين من عمره ، يستحوذ على كل تقديرنا واحترامنا، لاندفاعه وحماسه في الدفاع عن القومية العربية، حماسة **لا تعدلها حماسة الشباب ولا اندفاعه** . وتوثقت صلاتي بالفقيد عندما أقام في دمشق سنة ١٩٤٥م ، ثم اشتدت بعد أن أقام في القاهرة وكثر ترددي عليها ، أزوره أو يزورني فأقضي معه ساعات **أفيد فيها من علمه وخبرته وقوته في الدفاع عن آرائه** .

وعندما أخرجت مطابع دار العلم للملايين في بيروت، كتاب «**حول القومية العربية**» لفقيدنا الكبير سنة ١٩٦١م ، قمت بتعريف الكتاب بكلمة نشرتها **مجلة المجمع العلمي العربي** في الجزء الأول من المجلد السابع والثلاثين لسنة ١٩٦٢م، وقلت مستهلاً تعريفي بالكتاب : [هذا كتاب جديد تصدره المطبعة العربية للعلامة ساطع الحصري، إنه الحلقة الثامنة من السلسلة القومية، سلسلة الكتب التي نشرها الأستاذ الحصري على الناس ، يحدثهم فيها حديث المعلم الواثق بعلمه ، وحديث المؤمن القوي الإيمان بما يعتقده ، يحدثهم فيها عن القومية بمفهومها العام ، وعن القومية العربية بصورة خاصة] .

وكان من نقدي للكتاب نقد التعريف الذي أورده الأستاذ الحصري بأن : «**العربي من تكلم بالعربية**» ، وقد قلت في ذلك : [.. لا بد لنا إذن من إضافة عنصر الإرادة إلى هذا التعريف الناقص حتى يتم بقولنا :

« العربي من تكلم بالعربية وأراد أن يكون عربياً [1] » ومن المعلوم أن الشعور والإرادة هما العامل المثالي الأساسي في قيام جميع القوميات] .

وأدّى نقدي هذا إلى ردّ وتوضيح كتبه الأستاذ الحصري ، ثم إلى تعقيب مني على ردّه ، وقد نشرا في الجزء الثاني من المجلد المذكور من مجلة مجمع دمشق .

على أن ما دار بيني وبين الفقيد الكبير من جدال حول تعريف العربي ، وما كان يدور بيننا أحياناً من مناقشات حول القومية عامة **ومدى علاقتها بالإسلام خاصة** ، ما كان ليفسد ما بيننا من ودّ صاف وتقدير عظيم ، صورته في كلمتي التي أشرت إليها آنفاً قائلاً فيها : [إن الأستاذ الحصري يضفي على كل ما يكتبه فيضاً **من إيمانه بالقومية العربية واعتزازه بها** ، فيزيد المؤمن إيماناً والمعتز اعتزازاً ، وهو يفرض على قارئه الاحترام ، **ولو كان له رأي يخالف رأيه** ، أو كان يحتفظ لنفسه بقيودٍ على بعض نظرياته ، وذلك لأن من يكتب عن **عقيدة راسخة وإيمان لم يعتوره شك** ، يوم كان المؤمنون قلة ، وظلام المستقبل يكتنفهم ، جدير بالاحترام] .

* * *

من أصداء موت الحصري

مات ساطع الحصري ، بعد حياة مديدة قاربت **التسعين من السنين عدداً** ، وكانت حافلة بالحركة الدائبة والنشاط الجم والأفكار القيمة العميقة ، وأحدث موته صدى أليماً في أرجاء الوطن العربي ، وحزناً لدى المفكرين عامة ، ولدى **دعاة القومية العربية** منهم بصورة خاصة ، وكان من أهم الأصداء الدالة على مكانة الفقيد في العالم العربي إعلان (**اتحاد الصحفيين العرب**) عن إقامة جائزة

(١) واضع هذا التعريف هو الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي الراحل . انظر كتابه عن « الاستعمار » ج ١ ص ١٣ القاهرة ١٩٦٥ م .

دروية يطلق عليها اسم (**جائزة ساطع الحصري السنوية**) ، وقد أعلن عن تخصيص ثلاث جوائز لسنة ١٩٦٩ م ، ذات قيمة مالية كبيرة تدفع لأحسن ثلاثة بحوث تقدم في أحد الموضوعات التالية :

١ — أثر القضية الفلسطينية في حركة الوحدة العربية .

٢ — التكامل الاقتصادي العربي .

٣ — موقف ساطع الحصري من النظم التربوية الحديثة .

★ ★ ★

رحم الله ساطعاً رحمة واسعة وغفر له وأنزله منازل الأبرار من عباده المؤمنين .

عدنان الخطيب



نظرة عيان وتبيان

في مقالة

(أسماء أعضاء الإنسان)

أضاف إليها ما يقابل الأسماء بالفرنسية والانكليزية مع شرح موجز

الدكتور صلاح الدين الكواكبي

- ٧ -

---

٢٠٥) الجَنْب

ف Plèvre (f.)

ز Pleura

في الأصل . — الجنب ، مجتمع الأضلاع وأسفل الضلوع .

في (ق) . — الجنب والجانب والجنبة شِقّ الإنسان وغيره والجَنْب مُعظم الشيء وأكثره .

قلت : في الطب يغلب استعماله مع الغشاء .

في (ل) ولاروس ذي المجلدين . — الجنب ، كيسٌ لا فتحة له من غشاء مصلي ، يُغطّي الزّور ويُغلّف الرئتين اليمنى واليسرى .

ما أضفته :

١ً — غشاء جنب رقبي

ف Plèvre cervicale

ز Cervical pleura

٢ً — غشاء جنب ضلعي

ف Plèvre costale

ز Costal pleura

٣ً — غشاء جنب حجابي

ف Plèvre diaphragmatique

ز Diaphragmatic pleura

٤ً — غشاء جنب مَنْصَفي

ف Plèvre mediastinale

ز Mediastinal pleura

٥ً — جنبي

ف ، ز Pleural

٦ً — ذات الجنب

ف Pleurésie

ز Pleurisy

٧ً — ذات الجنب (= بِرْسام)

ف Pleurite

ز Pleuritis

٨ً — جُناب

ف Pleurodynie

ز Pleurodynia ; pleuralgia

★ ★ ★

٢٠٦) الخَلْف = القُصَيْرى

ف Côte flottante

ز Floating rib

في الأصل . — ومما يلي البطن يقال له الخلف وهي أيضاً القصوى . (الخلف ما قصر من أضلاع الجنب ودقّ . شرح المحقق) .

في (ق) . — الخَلْف نقيض القُدّام ؛ وأقصر أضلاع الجنب . ج خُلُوف ؛ والظهر وما ولي البطن من صغار الأضلاع ؛ وحلمة ضرع الناقة ... الخ .

والقُصْوى ، والقُصْيا في (ق) أيضاً : الغاية البعيدة .

ملاحظتي . — على اعتبار (القصوى) الغاية البعيدة ؛ فالمذكورة في الأصل مرادفةٌ للخَلْف تكون صفة لمحذوف هو (الضلع) (أي الضلع القصوى) . وفي رأيي انها ـ وإن صحّت مرادفةً ـ مصحّفةٌ عن (القُصَيْرى : وهي أسفل الأضلاع وآخر ضلع في الجنب) . فيصح تخصيص (القصيرى) للضلع الثانية عشرة من أضلاع الهيكل البشري : لأقصى الأضلاع وهي أقصرها أيضاً . ولذا وضعتها مصححةً في (الرقم ٢٠٦) .

★ ★ ★

٢٠٧) الخاصرة

ف Flanc (m.); côté

ز Flank ; side

في الأصل . — والخاصرة عند ذلك (قلت : أي عند أسفل الضلوع كما يتبين من سياق الجملة التي قبلها) .

في (ق) . — الخَصْر ، وسَط الإنسان ، وأخمص القدَم ؛ والخاصرة ، الشاكلة وما بين الحرقفة والقُصَيْرى .

قلت : أما الشاكلة فهي من الفرَس الجلد بين عُرض الخاصرة والثَّفِنة (هي من البعير الركبة ؛ ومن الإنسان مجتمع الساق والفخذ ؛ ومن الخيل موصل الفخذين في الساقين من باطن) .

وأما القصيرى فهي أسفل الأضلاع وآخر ضلع في الجنب .

في (ل) . — الخاصرة قسم البدن ، من الأضلاع حتى الوركين ؛ وعلى التوسع جانب الجسم .

★ ★ ★

٢٠٨) الصِّفاق

ف Péritoine (m.)
ز Peritoneum

في الأصل . — جليدة البطن التي تلي الجلدة الظاهرة (= ما بين الجلد والمصران) .

في (ق) . — الصفاق ككتاب ، الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر ، أو ما بين الجلد والمصران ، أو جلد البطن كله .

في (ل) ولاروس ذي الجلدين . — غشاء مصلي كاسٍ أعضاء البطن داخلاً ، مغلفٌ وحافظٌ جميع الأعضاء الموجودة في هذا الجوف .

ما أضفته :

١ً — صفاق جداري

ف Péritoine pariétal
ز Parietal peritoneum

٢ً — صفاق حَشَوِى

ف Péritoine viscéral
ز Visceral peritoneum

٣ً — صفاقي

ف ، ز Péritonéal

٤ً — التهاب الصفاق

ف Péritonite
ز Peritonitis

★ ★ ★

٢٠٩) الحَشْوة = الحَشَى والحشَا (*)

ف Viscère (m.) ; entraille (f.)
ز Viscera ; entrail ; bowels

(*) واوي ويائي .

في الأصل . — في البطن ، مما ضمت عليه الضلوع .

في (ق) . - الحَشَا ما في البطن ج أحشاء . والحَشَى ما دون الحجاب مما في البطن من كبد وطحال وكرش وما تبعه ؛ أو ما بين ضلع الخَلْف التي في آخر الجنب إلى الورك ، أو ظاهر البطن والحِضْن ؛ وحشوة الأرض بالضم والكسر حشوها ودغَلُها .

في متن اللغة . — الحشوة بالضم والفتح ، من الشاة : جوفها وأمعاؤها ، أو جميع ما في بطنها عدا الشحم ؛ وفي الأرض حشوها ودغَلُها (على المجاز) .

في (ل) . — الكلمة الأولى (Viscère) تطلق على كل من الأعضاء التي توجد في أجواف الجسم كالدماغ والرئتين ، والقلب الخ .

والكلمة الثانية (Entrailles) تُطلق على الأمعاء وهي الرَّبَض .

قلت : الكلمتان مترادفتان في الطب ، يراد بهما الأحشاء عامةً .

ما أضفته :

١ً — ألم الأحشاء

ف Viscéralgie
ز Visceralgia ; neuralgia of visceral nerves

٢ً — مبحث الأحشاء

ف Splanchnologie
ز Splanchnology

٣ً — هبوط الأحشاء

ف Viscéroptose ; splanchnoptose
ز Visceroptosis

٤ً — حشوي

ف Viscéral ; splanchnique
ز Visceral ; splanchnic

★ ★ ★

٢١٠) الحِجَاب

ف Diaphragme (m.)

ز Diaphragm ; midriff ; phren ; diaphragma

قلت : و (الحاجز) كذلك . وقد يقال الحجاب الحاجزُ صفةً للأولى .

في الأصل • — الحجاب من الحشا ، جُلَيْدةُ لحمٍ يحجز بين الصدر والبطن.

في (ق) • — حجبَه حَجْبًا وحِجابًا ستره كحجَّبه . والحاجب البواب. والحجاب ما احتُجِب به . ج حُجُب ، ولحمة رقيقة مستبطنة بين الجنبين تحول بين السَّحر (أي الرئة) والقَصَب .

في (ل) • — عضلة عريضة جداً ورقيقة تفصل الصدر عن البطن . بتقبضها يزداد حجم القفص الصدري وبالتالي الشهيق .

ما أضفته (أقسامه) :

١ — حُزَم ضلعية

ف Faisceaux costaux

ز Pars costalis

٢ — حُزَم قَصّية

ف Faisceaux stérnaux

ز Pars sternalis

٣ — حُزَم قطنية

ف Faisceaux lombaires

ز Pars lumbaris

٤ — فُوَّهة المريء

ف Orifice œsophagien

ز Foramen œsophagicum

٥ — فوهة الوتين

ف Orifice aortique

ز Aortic opening

٦ — فوّهة الوريد الأجوف السفلي

ف Orifice de la veine cave inferieure

ز Foramen venae cave

٧ — مركز حجابي

ف Centre phrénique

ز Central tendon

★ ★ ★

٢١١) الفؤاد = القلب

ف Cœur (m.)

ز Heart

في الأصل . — الفؤاد ، القلب .

في (ق) . — الفؤاد القلب أو أخص منه .

في متن اللغة . — القلب الفؤاد أو المضغة منه المعلّقة بالنياط ، أو العلقة السوداء في جوفه . ج قلوب .

والفؤاد : القلب لتفؤّده وتوقده أو لحركته ونبضه (مذكر) أو هو وسط القلب أو غشاؤه أو وعاؤه أو داخله أو ما يتعلق بالمريء من كبد ورئة وقلب فيكون أعم من القلب ج أفئدة .

في (ل) . — القلب عضو زَوْري محفور [١] وعضلي بيضوي الشكل وهو عضو رأس للدورة الدموية . يغلّف هذا العضو ، التأمور [٢] . ويتألف أساساً من عضلة هي عضله القلب [٣] . أما باطنه فمؤلف من الشغاف

أي بطانة القلب (٤) . في هذا العضو أربعة أجواف : أُذَيْنة (٥) وبُطين أيمن (= القلب الأيمن) ، وأذينة وبطين أيسر (= القلب الأيسر) . الأذينة والبطين الأيمن يتصلان بصُفَيق (٧) - أي مصراع [ثلاثي الشُرَف (٨) من الأيمن ، وإكليلي (٩) من الأيسر] لا يسمح بمرور الدم إلا من الأذينة نحو البطين الأيمن . والدم يصل بالأوردة الجوفاء إلى الأذينة اليمنى ، ويمر إلى البطين الأيمن الذي يدفعه إلى الرئة حيث يتخلص من غاز حمض الفحم وحيث ينشحن بالاكسجين ، ثم يعود بعد ذلك إلى الأُذينة اليسرى ويمر إلى البطين الأيسر وأخيراً يوزّع على أعضاء البدن كافةً ماراً بالوتين (١٠) . أما عضلة القلب نفسها فتروّى من الدم بالشرايين والأوردة التاجية (١١) التي تأتي إلى العضلة القلبية بالدم اللازم لعملها (للقيام بوظيفتها) . وهنالك جملة عصبية مستقلة (١٢) تعمل على تنظيم تقلصات القلب . والجملة العصبية المستقلة هذه هي نفسها تراقبها ضفيرة (١٣) قلبية مؤلفة من تشعبات (١٤) الودي (١٥) ونظير الودي (رئوي معدي) اللذين ينقلان إليها التنبيهات الواردة من الناظم القلبي (١٦) الموجود في البصلة السيسائية (١٧) اهـ .

وإليك ما يقابل الأرقام ، باللغتين الفرنسية والانكليزية :

١) Creux [hole , hollow , pit]
٢) Péricarde [pericardium]
٣) Myocarde [heart muscle]
٤) Endocarde [endocardium]
٥) Oreillette [oricle of the heart]
٦) Ventricule du cœur [ventricle of the heart]
٧) Valvule [valve]
٨) Tricuspide [tricuspide]
٩) Mitral [mitral]
١٠) Aorte [aorta]
١١) Coronaire [coronary , coronal]

١٢) Autonome [autononous]
١٣) Plexus [plexus ; network]
١٤) Ramifications [ramifications]
١٥) Sympathique , parasympathique [Sympathetic , parasympathetic]
١٦) Cardiorégulateur [cardioregulator]
١٧) Buble rachidien [spinal or rachidian bulb]

أهم ما أضفته عن القلب :

١ — قلب جَنيني

ف Cœur fœtal
ز Primitive heart ; fœtal heart

ملاحظة . — أقسام هذا القلب الجنيني نسيجياً سبعة ، ذكرتها في الاستدراك ـ الجنين) فليرجع إليها المستزيد .

٢ — قلب متحرِّك

ف Cœur mobile
ز Wandering heart

٣ — قلب متشحّم (أو شَحيم)

ف Cœur gras
ز Fatty heart

٤ — قلب مسترخٍ

ف Cœur en goutte
ز Pendulous heart ; drop - herat

٥ — قلبي ، مقوي القلب

ف ، ز Cordial

٦ — قلبي عِرْقي

ف Cardio - vasculaire
ز Cardiovascular

٧ — قلبيات

ف Cordiaux
ز Tonics ; cordials ; restoratives

٨ — قُلاب (مرض قلبي)

ف Cardiopathie
ز Cardiopathy

٩ — قلوبي (متخصص بأمراض القلب)

ف Cardiologiste ; cardiologue
ز Cardiologist

١٠ — مبحث أمراض القلب

ف Cardiologie
ز Cardiology

١١ — مقلوب (مصاب بقلبه)

ف Cardiaque
ز Cardiac

١٢ — تخطيط القلب الكهرباوي

ف Électrocardiographie
ز Electrocardiography

١٣ — مخطَّط القلب ، الكهرباوي

ف Électrocardiogramme ; E C G
ز Electrocardiogram

أقسامه :

آ — صفحة ابتدائية للمشترك البُطيني

ف Phase initiale (Q R S) du complexe ventriculaire (E C G)
ز Initial deflection of the ventricular complex (Q R S) ; Q R S - group of ecg

ب — صفحة انتهائية للمشترَك البُطيني

ف Phase terminale (T) du complexe ventriculaire (E C G)

ز Terminal deflection of the ventricular complex (T) (ecg); Q R S T - group of ecg

ج) مشترَك أذيني ؛ قفزة ـ ب

ف Complexe auriculaire ; ressaut P (E C G)

ز Auriculər comlex ; deflection P (ecg)

د ـ مشترَك بُطَيْني

ف Comlexe ventriculaire (E C G) ; Complex Q R S T

ز Ventricular complex ecg ; Q R S T — group of ecg

(يرادفه : مخطّط بطيني

(Ventriculogramme [ventriculogarm]

هـ — القسم البدائي للمشترَك البطيني

ف Partie initiale du complexe ventriculaire ; Complexe Q R S (E C G)

ز First position wave of the ventricular complex; Q R S — group of ecg

(يرادفه : مشترك بدائي

(Complexe initiale [initial complex (ecg)]

١٤ — مقوٍ للقلب

ف Cardio - tonique ; tonicardiaque

ز Cardiac Stimulant ; cardiotonic ; cardiac tonic

★ ★ ★

٢١٢) الخِلْب

. . . .

ف ، ز

في الأصل . — الخِلْب ، غشاء القلب .

في (ق) . — الخِلب ، الظُّفْر . . . و لُحَيمة رقيقة تصل بين الأضلاع والكبد ، أو زيادتها ، أو حجابها ، أو شيء أبيض رقيق لازق بها ... الخ .

في معجم المتن . — الخلب ، الظُفر عامةً ؛ حجاب القلب والكبد ، أو لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع ، أو الكبد ، أو زيادتها ، أو شيء أبيض رقيق لازق بها ، أو عُظَيم مثل ظفر الإنسان لاصق بالحجاب مما يلي الكبد ، أو حجاب القلب ، أو حجاب ما بين القلب وسواد البطن . . . . والخِلْب ، الفُجْل ، وورق الكرم العريض .

قلت : وفق التعريف في أصل المقالة ، هل هو التأمور (Péricarde) ؟ ؛ ووفق التعريف في (ق) و (المتن) هل هو ما كان يطلق عليه (Péritoine ؟) ؛ أم هل هو الوَرْب (Intercostal) أي الفضاء ما بين ضلعين ؟ ولولا ذكر المؤلف للخلب في مقالته لأسماء أعضاء الإنسان ، لزدتُ أم هل هو الفِجْل (Radis) أم ورق الكرم (Feuilles de vigne) ؟ !

★ ★ ★

٢١٣) النِّياط

ف Aorte (f.)

ز Aorta

في الأصل . — نياط القلب عرقه الذي يعلق به (= العرق المعلق به القلب ، حسب شرح المحقق) .

في (ق) . — ناطه نَوْطاً علَّقه . والأنواط المعاليق . والنياط ككتاب الفؤاد ، ومعلَّق كل شيء ، أو عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين ج أنوِطة

وأنواط ونُوط بالضم . وعرقٌ مستبطنُ الصلب تحت المتن كالنائط ، أو النائط ممتد في الصلب .

في متن اللغة . — النياط ، الفؤاد . وعرق متصل بالقلب من الوتين إذا قُطع مات صاحبه . أو عرقٌ مستبطن الصلب تحت المتن ، وهو العرق النائط . والنّيِّط العرق المعلّق به القلب ج نياط .

ملاحظتي . — لم أتبين على التأكيد ما يُقصد من عرق القلب الذي يعلق به (والمعلّق به القلب حسب شرح المحقق) . ثم إن النياط في (الرقم ٢١٣) جمعٌ والشرح مفرد . وفي (ق) مفرد والجمع أنْوِطة وأنواط ونوط . وإن ما يعلق به القلب من العروق عديدة فلأي منهنّ يُخصَّص النيــاط ؟ فبحسب التشريح الوصفي للقلب في اليوم الحاضر أرى أن هذا العرق الغليظ الذي نيط به القلب – كما في (ق) وفي متن اللغة – (هو الوَتين) وشُعَبه .

وهذا ما جملني أضع مقابلاً له الكلمتين الافرنجيتين في (الرقم ٢١٣) .

أهم ما أضفته عن أقسام الوتين :

١ — وتين صاعد

ف Aorte ascendante

ز Ascending aorta

٢ — وتين نازل

ف Aorte descendante

ز Descending aorta

٣ — قَوْس الوتين

ف Crosse de l'aorte

ز Arch of the aorta

وأهم ما أضفته عن شعب الوتين :

آ) السباتي الأيسر

ف Carotide gauche
ز Left carotid

ب) شريان تحت الترقوة

ف Artère sous - clavière
ز Subclavian artery

ج) شريان رئوي

ف Artère pulmonaire
ز Pulmonary artery

د) جِذْع عَضُدي رأسي

ف Tronc brachio - cephalique
ز Brachiocephalic artery ; innominate artery

وعلى وجه عام أضفت :

١ — التهاب الوتين

ف Aortite
ز Aortitis

٢ — رسم الوتين الشعاعي

ف Aortographie
ز Aortography

٣ — وتيني

ف Aortique
ز Aortic

★ ★ ★

٢١٤) حبّة القلب

ف ، ز .....

في الأصل · — سويداه وهي عَلَقة في جوفه (!) . ويقال للكبد والرئة والفؤاد ، وسواد البطن .

في (ق) · — ... وحبة القلب ، سويداؤه أو مهجته أو ثمرته أو هنة سوداء فيه . والعَلَق ، الدم عامةً أو الشديد الحمرة أو الغليظ أو الجامد ؛ والقطعة منه عَلَقة .

في معجم المتن · — حبة القلب ، وسطه ، سويداؤه ، وهي هنة سوداء فيه ، أو العلقة السوداء داخله ؛ ثمرته ومهجته .

ملاحظتي · — أيّة علقةٍ هي في جوف القلب ؟ هل هي قطعة لحمية ثابتة في تكوينه ، أم خثارةُ دمٍ جامد فيه (كما في ق) ؟ أم ان الحبّة محض وصف عاطفي (؟) لثمرته أو مهجته (؟) . وفي ظني أن أكثر هذه الأوصاف يذكرها من شاهد قلباً نُزع من حيوان مذبوح أو ميتٍ فرأى فيه (علقة سوداء ، أو هنة سوداء) . ولا شك أنها خثارة دم من عروق القلب الخاصة أو مما تخثر من الدم في جوف القلب إثر الذبح أو الموت . أو — وهو الأغلب في الاحتمال — لعل هذه الهنة (لا العلقة) هي مصاريع القلب إذا نُظر إلى القلب مقطوعاً أو مشرّحاً .

ومن الثابت اليوم أن أية علقة دموية أو خثارة مهما دقّت قد تسبب انسداداً لأحد الأوعية ، خطراً على الحياة سمي (حُشاء أو سُداد Infarctus) .

لهذا لا يصح بوجه من الوجوه أن يُقبل وجود علقة في القلب بمعنى الخثارة الدموية ، في حال الحياة ، فيجب أن يطوى ذكرها في معجم عربي حديث .

★ ★ ★

(يتبع) الدكتور صلاح الدين الكواكبي

صفحات من تاريخ الاستشراق

- ٥ -

النظرة الجديدة إلى الاسلام في القرن الثامن عشر :

إن النزعة العقلية التي تميزت بها « حركة النور » في القرن الثامن عشر كان لها تأثير كبير في تغيير نظرة الأوربيين إلى الشرق عامة . فقد كانت هذه الحركة تسعى ، قبل كل شيء ، إلى التحرر من سيطرة الكنيسة ومن القيود التي فرضتها على الحياة الفكرية . وكانت الجماهير قد عرفت الشيء الكثير عن البلاد الشرقية بفضل كتب الرحلات الحقيقية أو الخيالية التي شاعت في هذا العصر . وكان الإعجاب عظيماً بحضارة الصين خاصة . فأخذ الكتاب ينوهون بديانة (كونفوشيوس) وما امتازت به من حكمة وتسامح ويستندون إلى ذلك في مهاجمة تعصب رجال الدين المسيحي . ثم اتسع نطاق الاهتمام فشمل الهند وفارس والشرق الإسلامي كله .

وقـــد تبدلت النظرة إلى الرسول ﷺ ، فنرى الفيلسوف (لايبنيز Leibniz) يعتبره مبشراً بالديانة الفطرية . ولعل أبرز ممثل للاتجاه الجديد هو الكونت (هنري دوبولنفيه Henry de Boulainvilliers) (١٦٥٨ — ١٧٢٢) الذي مات قبل أن يتم كتابه عن (حياة محمد) (١) فنشر بعده في لندن سنة ١٧٣٠ وأعيد طبعه في آمستردام سنة ١٩٣١ .

(١) Le Comte Henry de Boulainvilliers : La vie de Mohamet, avec des réflections sur la religion Mahometane et les coutumes de Musulmans. London 1730; 2ed. Amsterdam 1931.

يصرح (بولنفيه) بأنه يريد إثبات تفوق الإسلام على المسيحية . وهو قد وصف الرسول ﷺ بأنه مشرع حكيم ، متنور ، قاد شعبه إلى الحضارة وجاء بديانة « عقلية » لتحل مكان العقائد اليهودية والمسيحية المشبوهة . ثم إنه يهاجم الذين يشكّون في صدق الرسول ﷺ ويبين أن كل ما قاله محمد ﷺ عن تعاليم الدين الأساسية صحيح ولو أنه لم يكشف عن كل الحقائق .

لكن لا بد من الملاحظة أن (بولنفيه) لم يكن يعرف العربية وأن كتابه لم يأت بمعلومات جديدة . فهو قد جمع مادته من المؤلفات الأوروبية وأراد أن يستخدم الموضوع لمكافحة سيطرة الكنيسة .

ولقد لخص ناشر الكتاب رأي المعاصرين فيه بالعبارة التالية ضمن رسالة بعث بها إلى المستشرق الفرنسي (جان غانيه Jean Gagnier) ، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة (اوكسفورد) ، قال : « إن (بولنفيه) يمزج تاريخه بكثير من التأملات السياسية التي تعجب القراء لما فيها من طرافة وجرأة » .

جان غانيه :

على أن المستشرق (غانيه) رأى في هذه التأملات الطريفة والجريئة خطراً كبيراً وشعر بأن من واجبه التحذير من كل تطرف والدعوة إلى اتباع الطريق الوسط بين ضلال المتعصبين وحماسة المتهوسين . وكان قد سبق لغانيه أن نشر القسم المتعلق بسيرة الرسول من تاريخ (أبي الفداء) باللغة العربية مع الترجمة اللاتينية في سنة (١٧٢٣) فقام بعد صدور كتاب (بولنفيه) وألف في سنة (١٧٣٢) كتابه عن « حياة محمد » باللغة الفرنسية .

يتبين من مقدمة هذا الكتاب أن (غانيه) ليس صادقاً في ادعائه الحياد . فهو لا يقتصر على مهاجمة كتاب (بولنفيه) ، الذي يزعم بأنه يستحق الحرق بل يطعن في الرسول أيضاً . وعلى الرغم من أن (غانيه) قد استند إلى القرآن والحديث وروايات المؤلفين المسلمين في وصف حياة الرسول ﷺ وشخصيته وأعماله وحاول أن ينقل النصوص بأمانة فان التحزب واضح في اختيار الشواهد وفي طريقة عرضها .

(سيل) و (سافاري) :

إننا نلمس الرغبة في الإنصاف وحب الحقيقة عند مستشرقين آخرين برزا في ذلك العهد وقاما بترجمة القرآن من جديد :

الأول هو المستشرق الانكليزي (جورج سيل George Sale) (١٦٩٧ — ١٧٣٦) الذي مهد لترجمة القرآن [١] بمقدمة ضافية بحث فيها عن العرب قبل الإسلام وعن حالة اليهودية والمسيحية في الشرق عند ظهور الرسول ﷺ وعن القرآن وتعاليمه ثم نفى عن الرسول المطاعن التي اعتاد الكتاب المسيحيون تكرارها وقارن بين محمد ﷺ والمشرعين اليونانيين .

أما المستشرق الثاني الفرنسي (قلود أتيان سافاري Claude Etienne Savary) فقد كتب في مقدمة ترجمته للقرآن [١] يصف الرسول ﷺ بأنه أحد أولئك الرجال العظام الذين يظهرون من وقت إلى آخر فيقلبون أوضاع العالم ويقودون البشر في طريق التقدم والنصر . ثم يقول : « ونحن إذا أمعنا النظر في سيرة محمد ﷺ لا بد أن نشعر بالاعجاب تجاه المعجزات التي تستطيع العبقرية البشرية تحقيقها إذا ما ساعدتها الظروف . فالرسول محمد ، على الرغم من

---

(١) George Sale, The Koran, London 1734 .

(٢) Claude Etienne Savary, Le Coran : Paris 1752 (2.ed. 1783).

أنه ولد بين عبدة الأصنام ، قد استطاع أن يسمو إلى عبادة الإلـٰه الواحد . وهو قد لاحظ في رحلاته كيف كان المسيحيون يتنازعون وتلعن كل طائفة منهم الأخرى وكيف أن اليهود الذين هم حثالة الشعوب لا يتزحزحون عن تقاليدهم البالية . وعلى العكس من المسيحيين واليهود أسس محمد ديانة عالية تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمن إلا ما يقره العقل من إيمان بالإلـٰه الواحد الذي يكافىء الفضيلة ويعاقب الرذيلة . . . »

وبعد أن ينوه (سافاري) بعبقرية الرسول السياسية والعسكرية وبقدرته في السيطرة على البشر يصرح بأن الغربي المتنور ، وإن لم يعترف بنبوءته ، لا يستطيع إلا أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا في التاريخ .

إن المباحث العديدة عن حياة الرسول ﷺ وشخصيته التي ظهرت في القرن الثامن عشر كانت خاضعة للنزعات السياسية والاتجاهات الفكرية ، إنها كانت تهدف إلى الدفاع عن مبدأ معين أو فكرة سابقة ، لذلك كان الاختلاف شديداً والتناقض ظاهراً بينها . وهي بالإجمال كان محكوماً عليها بأن تبقى عقيمة لا تؤدي إلى كشف حقائق جديدة أو إلى تقدم المعرفة . هكذا نرى (فولتير) يمثل لنا هذا الاضطراب إذ اختار شخصية الرسول موضوعاً لرواية تمثيلية [١] هاجمه فيها على أنه رمز للتعصب الديني ثم عاد في كتابه عن « الأخلاق والعادات » [٢] يلتزم الاعتدال في الكلام على الرسول ويعترف بنبوغه وعظمته .

(قارلايل) :

وقد ظل الرأي السائد بين الأوروبيين عن الرسول ﷺ غامضاً وأقرب إلى المعارضة والمداوة ، وقبل كل شيء ، بعيداً عن التحقيق التاريخي حتى

---

(١) Voltaire : Le Fanatisme ou Mahomet, le Prophète, Paris 1741.

(٢) Voltaire. Essai sur les moeurs. Paris 1756.

منتصف القرن التاسع عشر إذ قام ، من جهة (قارلايل) يدعو إلى الإنصاف ومن جهة ثانية ، بدأ غيره من المستشرقين يرجعون إلى المصادر العربية القديمة ويتبعون طرائق النقد التاريخي في دراستها .

في يوم الجمعة ، الثامن من آذار سنة ١٨٤٠ ألقى المستشرق الانكليزي (توماس قارلايل Thomas Garlyle) (١٧٩٥ — ١٨٨١) المحاضرة الثانية من سلسلة محاضراته التي جمعها من بعد في كتابه المشهور «الأبطال وعبادة الأبطال»[١] وكان موضوعها : (الرسول محمد) . قال (قارلايل) :

«لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خداع مزور . وقد آن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة ، المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا . أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً . فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول فما الناس إذن إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها أن لا تخلق .» [تعريب : محمد السباعي]

ثم حلل (قارلايل) شخصية الرسول وكشف عن نواحي عبقريته التي تتجلى فيها أسمى معاني الوحي وانتهى إلى أن محمداً ﷺ كان مخلصاً في دعوته ، صادقاً في عقيدته مثل غيره من العظماء المؤمنين .

(١) Thomas Carlyle : On Heroes, Hero - Worship and the Heroic in History, London 1849

وكان (قارلايل) من الكتاب الانكليز البارزين يمتاز بأسلوب رائع ، فاستطاع أن يترك أثراً عميقاً في الرأي العام الاوروبي . إلا أن محاضرته عن الرسول لم تكن بطبيعة الحال ، تتضمن شيئاً من البحث في المصادر التاريخية ومناقشة الروايات . . .

(وايل) والبحث التاريخي الانتقادي :

لذلك كان المستشرق الألماني (كوسـتاف وايل Gustav Weil) (١٨٠٨ — ١٨٨٩) ، حينما نشر كتاب « محمد الرسول ، حياته وتعاليمه »[١] على حق في قوله بأن كتابه هذا هو أول دراسة ذاتية مستقاة من المصادر العربية منذ كتاب (غانيه) الذي انقضى عليه أكثر من قرن ، عدا أن (غانيه) قد اقتصر على نقل بعض الأخبار عن (ابن العبري) و (أبي الفداء) دون أي نقد تاريخي . وهذان المؤلفان من الكتاب المتأخرين الذين لا يمكن الوثوق بهم .

إن (وايل) أيضاً يريد الاعتماد على المصادر العربية ، ولكنه يعتقد ، من جهة بضرورة الرجوع إلى جميع المصادر الممكن الحصول عليها ولا سيما المصادر القديمة ، ثم يطالب من جهة ثانية ، باخضاع هذه المصادر إلى النقد التاريخي ومقارنتها وتمييز الروايات الصحيحة من المدسوسة أو المزورة أو المحرفة . ويمكن القول بأن (وايل) قد افتتح مرحلة جديدة في دراسة سيرة الرسول ﷺ . فهو أول مستشرق بحث بطريقة انتقادية في الروايات المتناقلة عن الرسول وحاول أن يميز الأخبار القديمة التي تستحق التصديق من الأساطير المتأخرة التي ليس هناك من دليل على صحتها . وهو لم يكتف

(١) Gustav Weil, Mohammed der Prophet, sein Leben und seine Lehre, 1843.

بالمصادر المعروفة قبله ، بل بحث في المكتبات عن مختلف المخطوطات المتعلقة بالسيرة واختار منها كتاب « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » المعروفة « بالسيرة الحلبية » تأليف (برهان الدين علي بن ابراهيم الحلبي) ، ثم تاريخ « الخميس » (الحسين بن محمد بن الحسن الدياربكري) . والمؤلفان من رجال القرن السادس عشر ، ولكنهما قد نقلا حرفياً كل ما عثرا عليه في الكتب القديمة منذ القرن الثاني للهجرة حتى عصرهما . وبعد ذلك أرسل إليه الأستاذ (أيوالد Ewald) ، المستشرق الألماني ، مخطوطة هامة جداً هي (سيرة ابن هشام) التي قام (وايل) في سنة ١٨٦٤ بترجمتها إلى الألمانية بعد أن تولى (وستنفلد Wuestenfeld) تحقيق النص العـــربي ونشره . ثم أقدم (وايل) على دراسة القرآن بمساعدة تفسير الجلالين وحاول ترتيب الآيات حسب تعاقبها الزمني ليستعين بها في متابعة حياة الرسول . وبعد ذلك سعى إلى دراسة شخصية محمد الإنسان والنبي والمشرع بصورة موضوعية دون أي تحزب ديني .

وكان طبيعياً أن يراجع (وايل) كل المؤلفات الأوروبية عن حياة الرسول . وقد درس أيضاً بحوث (جايجر Geiger) و (جيروك Gerock) عن علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية .

والنتيجة التي انتهى إليهـــا (وايل) من دراسته تتلخص في قوله : « بالنظر إلى ما قام به محمد من نشر أسمى التعاليم الواردة في الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) بين شعب لم يصل إليه أي شعاع من نور الإيمان ، يجب على غير المسلمين أيضاً أن يعتبروه رسول الله . »

منذ نشر كتاب (وايل) تقدمت دراسات المستشرقين خطوات عظيمة وكشفت عن كثير من الحقائق الجديدة . ولكن لا ينكر أن لهـذا العالم

فضل السبق إلى البحث العلمي الدقيق . والأحكام التي وصل إليها العلماء بعده لا تختلف بالإجمال كثيراً عن رأيه ...

(دو برسفال) :

هكذا نرى المستشرق الفرنسي (قوسان دوبرسفال Coussin de Perceval) يصدر ، بعد بضع سنوات ، حكماً مماثلاً في كتابه عن « تاريخ العرب »[١] ، الذي خصص الجزء الثالث منه لوصف حياة الرسول . ويتلخص رأيه في « أن محمداً (ﷺ) كان صادقاً ، مخلصاً ، مؤمناً بأنه مرسل لإنقاذ أمته من الضلال وبعثها إلى الحياة .. » وهو قد اقتصر على استعراض ما ورد في المصادر العربية دون تحليل ونقد . ولكنه كان يمتاز على المستشرقين السابقين بمعرفته العميقة للغة العربية وباطلاعه الواسع على أخبار العرب ، كما إنه استخدم مصادر جديدة لم تكن معروفة قبله . بذلك أصبح كتابه مرجعاً هاماً يستقي منه الباحثون . وإليه خاصة استند (رينان Renan) في دراساته عن الإسلام ومقارناته بين مختلف الأديان . وهو يصف الإسلام بأنه « ديانة طبيعية ، فطرية ، جدية ، متسامحة ، معقولة ... »

تطور الطريقة التاريخية ـــ الانتقادية :

لم يكن (وايل) و (دوبرسفال) يجهلان ما لحق أخبار الرواة المسلمين من تحريف وتزوير بسبب المنازعات الطائفية والاختلافات المذهبية . ولا شك في أنهما يمتازان على من سبقهما من المستشرقين بالسعي إلى التمييز بين الروايات الصحيحة والكاذبة . ولكن طريقتهما في النقد كانت تعتمد كلياً على مجرد

(١) Coussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes ... Paris 1847—1848.

الذوق السليم ولم تستند إلى نتائج البحث التاريخي نفسه . فهما لم يلاحظا كما ينبغي أن كتب السيرة قد تطورت في طريقة تأليفها وأسلوب كتابتهـا تبعاً لما حدث من تطور في العقيدة الإسلامية ذاتها . وقد غفلا عن أن الكثير من التعاليم والتقاليد التي شاعت بين المسلمين في العصور المتعاقبة وأصبحت تعتبر من صميم الإسلام لم يكن لها أي صلة بالعقيدة الإسلامية الأصلية . وقد بدأ المستشرقون ينتبهون إلى هذه الناحية حوالي سنة ١٨٦٠ كما يستدل من مؤلفات عديدة عن حياة الرسول ظهرت في ذلك العهد ، أهمهـا هي مؤلفات (موير) و (شبرنجر) و (نولدكه) .

(للبحث صلة) الدكتور محمد كامل عياد

فوات الوفيات في طبعته الجديدة

(الجزء الثاني)[1]

— ٤ —

١٦ — ووردت في الصفحة ١٦٢ ترجمة أبي فراس علي بن محمد بن غالب العامري المعروف بمجد العرب وقد جاء فيها « شاعر جال ما بين العراق والشام ومدح الملوك والأكابر ولبس أخيراً لبس الأتراك وتوفي بالموصل سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة » . ولم يعلّق الشيخ الفاضل محقق الكتاب عليه شيئاً ، لأنه لم يعرف من سيرته ومراجع ترجمته ما يعلّقه ، ولذلك بقي الخطأ لابدأ في سنة وفاته التي جعلته من أهل القرن الثامن للهجرة ، مع أنه من أهل القرن السادس ، ترجم له العماد الأصفهاني المتوفى في أواخر المائة السادسة للهجرة وهل يترجم أديب من المائة السادسة لأديب من المائة الثامنة [2] ؟ ! قال العماد الأصفهاني : « الأمير مجد العرب مظفر الدولة أبو فراس علي بن محمد بن غالب العامري ـ رحمه الله ـ هو الداهية الدهياء وأعجوبة الدنيا ، يصب الشعر في قالب السحر ويُباهي الفضلاء بالنظم والنثر . . . وقصائده بالشام أجزل وأحسن مما أنشأهُ بالعراق » [3] .

---

(١) نشر أول هذا البحث في الصفحات ٢٧٢ و ٥٠٣ و ٧٤٩ من المجلد (٤٣) .

(٢) أزل هذا الوهم قدم التحقيق في خريدة القصر « قسم الشام ج ١ ص ٧٩ » فقد نقل هذا الوهم إلى الحاشية الأولى من الصفحة المذكورة وجاء فيها « توفي بالموصل سنة ٧٥٣ » .

(٣) خريدة القصر « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس » مختار الخريدة ٣٣٢٦ و ٢٧ » .

وقال العماد أيضاً : «وآخر عهدي به بالموصل سنة ٥٧٠ لابساً زي الأتراك ، جليساً للأملاك» . وقال محب الدين ابن النجار : «علي بن محمد بن غالب أبو فراس العامري المعروف بمجد العرب ، شاعر مجيد جال ما بين العراق والشام ومدح الملوك والأكابر ونشر فضله وأظهر نبله» ثم نقل باسناده من تاريخ دمشق مشافهة من مؤلفه ابن عساكر ما هذا نصّه «علي بن محمد ابن غالب أبو فراس العامري المعروف بمجد العرب ، شاعر بغدادي قدم دمشق وأنا ببغداد وسمع منه بها شيئاً من شعره صديقنا أبو الندى يغمر بن ألب شاور المقرئ وكان يذكره ويثني عليه ويصفه بالبلاغة والكرم» ثم قال : «كتب إليّ أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب» وذكر موجز ما ذكر في الخريدة من سيرته ثم قال ابن النجار أو العماد : «توفي بالموصل سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (١)» .

وذكره ابن الفوطي في الملقّبين بالمظفر قال : «المظفر مجد العرب أبو فراس علي بن محمد بن غالب العامري الأديب الشاعر ، كان من أعيان الأدباء وأماثل الشعراء (٢)» . وذكر له بيتين من الشعر ولم يذكر وفاته ، وهو أمر عجيب الوقوع من ابن الفوطيّ وهو مؤرخ بغداديّ وابن النجار مؤرخ بغداد وتاريخ وفاته مثبت في تاريخه (٣) .

١٧ — وكرّر في الصفحة ١٧٧ التصحيف الذي ذكرته في تعقيبي على الجزء الأول وهو جعل «النيربين» مثنى النيرب الموضع النزه المشهور قرب دمشق «النيّرين» وذلك في قول ابن وداعة الكندي :

ويوم لنا بالنيربين رقيقـــة حواشيه خال من رقيب يشينه

(١) التاريخ المجدد لمدينة السلام «نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢١٣١ و ١٢،١١» .
(٢) تلخيص مجمع الآداب «ج ٥ الترجمة ١٢٣٥ من باب الميم من طبعة الهند» .
(٣) وممن ذكر وفاته الصفدي قال : «وتوفي بالموصل سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة» . «الوافي بالوفيات نسخة المجمع اللغوي العربي بدمشق ، الورقة ١٨٢» .

١٨ — ووردت في الصفحة ١٨٨ ترجمة « علي بن يحي القاضي الوجيه المعروف بابن الذروي ، شاعر مجيد وكانت وفاته بالديار المصرية سنة » . ولم تُذكر السنة ، وقال الشيخ الفاضل في تعليقه : « لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من كتب الرجال » . مع أنّ له ترجمة في خريدة القصر(١) ، وقال محققو الكتاب : « نقلنا هذه الترجمة من المغرب لابن سعيد . . . ولم ننقلها من مختصر الخريدة لأنه أشد اختصاراً ويبدو من المغرب أنّ هذا كل ما قاله العماد في الخريدة . . . وقد توفي ابن الذروي سنة ٥٧٧ ، انظر ترجمته في المغرب وفي كتاب الروضتين ٢ : ٢٧ . . . وحسن المحاضرة ١ :٢٦ » .

١٩ — وردت في الصفحة ١٩٣ ترجمة « علي بن يوسف بن شيبان جلال الدين الماردين المعروف بابن الصفار » ولم يُحل محقق الكتاب على مرجع آخر لترجمته ، وقد جاء في الترجمة « وتولّى كتابة أشراف دبيس ثماني عشرة سنة » . فمن هؤلاء أشراف دبيس ؟ تركهم المحقق على حالهم من التصحيف ، والصواب « تولى كتابة إشراف دنيسر ثماني عشرة سنة » . وهو ما ذكره اليونيني ، وجاء في الحاشية القديمة من كتاب اليونيني « دنيسر بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينها فرسخان » .

٢٠ — وورد في الصفحة ٢٤٣ « حكي أن أبا الهيجاء بن عمر بن شاهين صاحب النطيحة قال : كنت أساير معتمد الدولة أبا المنيع قرواش بن المقلد . . . » . ولم يبحث الشيخ الفاضل عن « النطيحة » هذه ما هي ؟ والقصّة في فوات الوفيات تدور حول « قصر العباس بن عمرو الغنوي ، قال ياقوت الحموي في معجم البلدان في « قصر العباس بن عمرو الغنوي » ما هذا نصه « وقرأت في كتاب ألفه عميد الدولة أبو سعد محمد بن الحسين بن عبد الرحيم الوزير : حدثني أبو الهيجاء بن عمران بن شاهين أمير البطيحة . . . » . وذكر القصّة ،

(١) خريدة القصر ، قسم مصر ج ١ ص ١٨٧ » .

في البطيحة لا النطيحة ، ثم إن الشيخ الفاضل أعاد نشر وفيات الأعيان وقد وردت هذه القصة بعينها في ترجمة أبي حسان المقلد بن المسيب العقيلي » .

والبطيحة وجمعها البطائح كما في معجم البلدان لياقوت : « أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة ، فاتفق في أيام كسرى أبرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات بخلاف العادة فعُجز عن سدها فتبطح الماء في تلك الديار والعمارات والمزارع ، فطرد أهلها عنها ... » . والتتمة والتفصيل في المعجم .

٢١ — وجاء في ترجمة القاسم بن القاسم أبي محمد الواسطي الأديب الشاعر — ص ٢٥٩ — « وقرأ اللغة على سيد الرؤساء هبة الله بن أيوب » . وجاء في الصفحة ٣١٤ « اشتغل بالحلة على عميد الرؤساء أيوب » . وأشار الشيخ في الحاشية إلى أن ترجمة القاسم واردة في معجم الأدباء لياقوت الحموي وبغية الوعاة للسيوطي ، ولكن من فوائد الإحالة الاستفادة من المقابلة ، ففي معجم الأدباء « قرأ النحو بواسط وبغداد على الشيخ مصدق بن شبيب ، واللغة على عميد الرؤساء هبة الله بن أيوب » . وفي بغية الوعاة « عميد الرؤساء هبة الله بن أيوب » . والصواب هو ما ورد في معجم الأدباء والبغية وغيرهما لا ما ورد في فوات الوفيات ، قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء : « هبة الله ابن حامد بن أحمد بن أيوب بن علي بن أيوب أبو منصور ، يعرف بعميد الرؤساء ، أديب فاضل نحوي لغوي شاعر ، شيخ وقته ومتصدر بلده [1] ... » . وقال السيوطي : « هبة الله بن حامد بن أحمد بن أيوب بن علي بن أيوب أبو منصور ، يعرف بعميد الرؤساء [2] ... » ونقل قول ياقوت . وقال

(١) مختصر الجزء السابع من معجم الأدباء « ص ٢٣٤ طبعة مرغوليوث » .

(٢) البغية « ص ٤٠٧ » .

كمال الدين ابن الفوطي : « عميد الرؤساء أبو منصور هبة الله بن حامد بن أحمد ابن أيوب الحلي اللغوي [١] ... » .

٢٢ — وورد في الصفحة ٢٦٥ في ترجمة قرواش بن مقلد العقيلي « فقام بعده أبو المعالي قريش بن بدر بن مقلد ابن أخيه » . وكنت نقلت هذه الجملة في الكلام على وفاة قرواش في النقدة الثالثة عشرة ، والصواب « قريش ابن بدران » بالألف والنون قال العماد الأصفهاني الكاتب : « وفي سنة ٤٥٣ توفي قريش بن بدران وتولّى ولده مسلم إمارة بني عقيل [٢] » . وقال عز الدين ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٣ من الكامل : « ذكر وفاة قريش صاحب الموصل وإمارة ابنه شرف الدولة : في هذه السنة توفي قريش بن بدران صاحب الموصل ونصيبين ... » . وقد ذكره على هذه الصورة في كامله غير مرّة ، وذكر أبو المظفّر سبط ابن الجوزي وفاته في سنة ٤٥١ قال في وفياتها : « قريش بن بدران أبو المعالي ويلقب بعلم الدين أمير بني عقيل ، كان داهية بخيلاً سفاكاً للدماء بعيد الغور غداراً [٣] ... » .

٢٣ — وجاء في الصفحة ٢٨٨ في ترجمة لوط بن يحيى أبي مخنف الأزدي أن من كتبه « حديث روشنقياذ » فقال الشيخ الفاضل محقق الكتاب معلقاً : « في ب روشنعياد وفي الفهرست روستقبـان » . قلت : إن الشيخ أحال بترجمته على معجم الأدباء فكان حرياً أن يقابل بين الاسمين في الكتابين أولاً ، ففي معجم الأدباء « روستقباد » على ما جاء في طبعـــة مرغوليوث الأولى

(١) تلخيص مجمع الآداب « ج ٤ القسم ١ ص ٩٦٦ نشرة وزارة الارشاد السورية بتحقيقي » .

(٢) زبدة النصرة في دولة آل سلجوق « ص ٢٢ طبعة مطبعة الموسوعات بالقاهرة » .

(٣) مرآة الزمان « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٠٦ الورقة ٦٧ » . وورد في ترجمة الأمير ابن أبي حصينة من معجم الأدباء ٤ : ٦٩ قريش بن بدران بن المقلّد بن المسيب .

« ٤ : ٢٢١ » وهذا هو أقرب إلى الصحة من غيره ، والصحيح « روستقباذ » بالذال المعجمـــة ، فقد جاء في كتاب المسالك لابن خُرداذبه ـ ص ٦ ـ « طسّوج روستقباذ » قال : « وترجمة الطسوج : الناحية » ثم قال في الصفحة ١٣ : « طسّوج روستقباذ ، الحنطة ألف كرّ ، الشعير والدخن ألف وأربعمائة كر ، الوَرِق مائة ألف وسبعون ألفاً » . وتكرر الاسم في الصفحة ٢٣٥ والصفحة ٢٣٨ .

٢٤ ــ وجاء في الصفحة ٢٩٦ في ترجمة مالك بن نويرة ما نصه « فقتل ضِرار بن الأزور مالكاً وسمع خالد الداعية ، فخرج وقد فرغُوا منهم » . فقال الشيخ الفاضل محقق الكتاب وضابطه ومعلق حواشيه معلقاً على الداعية : « في ب الداهية وما أثبتناه مُوافق لما في ث » ، قلت : « وليكن مُوافقاً لما في تلك النسخة فما الفائدة ؟ القارىء المبتدىء يحتـــاج إلى الصحيح فما معنى الداعية هُنا ؟ الداعية هي الدعوة كالكاذبة بمعنى الكذب ، ولا حادي على استعمالها هنا ، فالصحيح السليقة يُدرك أنها « الواعية » أي الصُّراخ على الميت ونحوه ، ولكن الشيخ الفاضل رضي بالموجود ، ثم إن المؤلف ـ أعني ابن شاكر الكتبي ـ صرَّح في أول الخبر بأنه نقله من كتاب الأغاني ، فلم يرجع الشيخ إلى كتاب الأغاني ، على حين كان ذلك من السهولة بمكان ، قال أبو الفرج : « فقتل ضِرارُ بن الأزور مالكاً ، فسمع خالد الواعية ، فخرج وقد فرغوا منه [1] » . وقال محقق ذلكم الجزء من الأغاني : « الواعية الجَلَبة والصُراخ على الميت ونعيه . حـ الراعية ، وفي سائر النسخ ما عداها ومب الداعية ، صوابها من النسختين والطبري » . قلت : صوابها قبل كل شيء من السليقة العربية والذوق اللغوي العربي وعليها اعتمدت .

---

(١) الأغاني « ج ١٥ ص ٣٠١ طبعة دار الكتب المصرية » .

٢٥ — وورد في الصفحة ٣١٠ في ترجمة نصير الدين الطوسيّ وذكر تآليفه « ورسالة أبي نجم الدين الكاشي » فمن أبو نجم الدين الكاشي ؟ الصحيح أن « أبي » تصحيف « إلى » فهي رسالة علمية أرسل بها النصير الطوسي إلى نجم الدين ، ومَن نجم الدين هذا ؟ مرَّ به الشيخ وهو المترجم في هذا الجزء نفسه ـ ص ١٣٤ ـ باسم «علي بن عمر بن علي العلامة نجم الدين الكاشي (كذا) دبيران بفتح الدال المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء وبعدها راء وألف ونون القزويني المنطقي الحكيم » . وقال الشيخ معلقاً على الكاشي : « في ب الكاتبي » . ووقف عند هذا القول ، لأنه لم يجد مرجعاً تاريخياً آخر لهذا العلامة . والذي علمناه وحفظناه هو « الكاتبي » بالتاء والباء وكذلك ورد في ترجمة الصفدي له ، قال : « علي بن عمر بن علي العلامة نجم الدين الكاتبي دبيران (بفتح الدال . . .) القزويني المنطقي الحكيم [1] . . . » وكأن ابن شاكر نقل ما ذكر الصفدي بنصّه ونسي ذكر سنة مولده . وقال حاجي خليفة في « الملخص » من كشف الظنون : « الملخص في الحكمة والمنطق للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ست وستمائة وشرحه أبو الحسن علي بن عمر القزويني الكاتبي [2] . . . » . وقد كان قال في « الشمسيّة » من كتابه المذكور : « الشمسية من مختصر في المنطق لنجم الدين عمر بن علي القزويني المعروف بالكاتبي » . وقال الصفدي في ترجمة ابن واصل الحمويّ : « وحضر حلقته نجم الدين الكاتبي المعروف بدبيران المنطقي [3] » . وكرّر الصفدي هذه الجملة ولم ينقص منها حرفاً في تاريخه للعميان [4] . وفذلكة القول أن

(١) الوافي بالوفيات « نسخة مجمع اللغة العربية بدمشق المصورة « و ١٣١ » .
(٢) كشف الظنون « طبعة وكالة المعارف التركية ، العمود ١٨١٩ » ومنه أي من شرح الملخص نسخة في دار كتب ليدن واسمه فيه « الكاتبي » .
(٣) الوافي بالوفيات « ٣ : ٨٥ » .
(٤) نكت الهميان « ص ٢٤١ » .

التواريخ والفهارس والاجازات أجمعت على أنه « الكاتبي » حتى جرجي زيدان وإن كان متأخراً لا يتخذ وحده حجة فقد قال تحت عنوان « العلوم الدخيلة في العصر المغولي : .. في الفلسفة ١ – نجم الدين الكاتبي القزويني ويعرف بدبيران توفي سنة ٦٥٧ له الرسالة الشمسيَّة في القواعد المنطقية [١] ... » . وورد كذلك في كتاب الاجازات من بحار الأنوار للعلامة محمد باقر الإيراني المجلسي ، وروضات الجنات للخونساري .

٢٦ – وجاء في الصفحة ٣١١ من الترجمة المذكورة « قال شمس الدين الحريري قال حسن بن أحمد الحكيم ... » . فالمؤلف نقل قول مؤرخ من المؤرخين ، والذي علمناه وحفظناه أنه « شمس الدين الجزري » لا الحريري ، وإذ كان ابن شاكر الكتبي قد اقتبس أكثر تراجم كتابه من الوافي بالوفيات فلننظر ماذا يقول في ترجمة النصير الطوسي خاصاً بهـــذه المسألة ، قال : « قال شمس الدين الجزري قال حسن بن أحمد الحكيم [٢] » . وشمس الدين الجزري من مشهوري المؤرخين وإن لم يطبع تاريخه .

٢٧ – وورد في الصفحة عينها « والرصد البيساني في حدود الشام » . فعلق الشيخ عليه ما نصه « في ث البنياني » . ولم يعلم القارئ الشادي أيّها الصواب . وجاء في كتاب الصفدي المذكور « والرصد البناني في حدود الشام [٣] » . والكتاب مطبوع باعتناء المستشرق ه . ريتر ، ولم يعلّق ريتر عليه شيئاً ، والصواب « الرصد البتّاني » نسبةً إلى عبد الله محمد بن جابر الحراني البتّاني ، قال القفطي : « وكان بعض أرصاده التي ضمّنها زيجه في سنة تسع وستين ومائتين من الهجرة ، ومن ذلك في سنة سبع وثمانين [ومائتين]

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية « ٣ : ٢٥٠ » .
(٢) الوافي بالوفيات « ١ : ١٨٢ طبعة استانبول سنة ١٩٣١ » .
(٣) الوافي بالوفيات « ١ : ١٨٣ » .

ولا يعلم أحد في الإسلام ، بلغ مبلغــــه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها »(١) .

وقال ابن خلكان : « أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني الأصل ، البتّاني الحاسب المنجم المشهور صاحب الزيج الصابي ، له الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة ، وأول ما ابتدأ بالرصد في سنة أربع وستين ومائتين إلى سنة ست وثلاثمائة ، وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة تسع وتسعين ومائتين ، وكان أوحد عصره في فنه ، وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه ، وتوفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة عند رجوعه من بغداد بموضع يقال له قصر الحضر ولم أعلم أنه أسلم لكن اسمه يدل على إسلامه ، وله من التصانيف الزيج وهي نسختان أولى وثانية ، والثانية أجود . . . والبَتّاني بفتح الباء الموحدة وقال أبو محمد هبة الله بن الأكفاني : بكسرها ، وبتشديد التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون . هذه النسبة إلى بتّان وهي ناحية من أعمال حرّان (٢) . . . » . وفي هذا كفاية للاثبات .

٢٨ — وورد في الصفحة ٣١٤ « اشتغل بالحلة على عميد الرؤساء أيوب » وقال في الحاشية معلقاً : « في ب حميد الرؤساء » . وقد أشرنا إلى ذلك في النقدة الحادية والعشرين وبرهنا على أن عميد الرؤساء هبـــة الله بن أيوب لا هبة الله أيوب ولا حميد الرؤساء ولا سيد الرؤساء فأغنى ذلك عن الإعادة .

٢٩ — وورد في الصفحة ٣١٩ ترجمة من اسمه في هذه الطبعة من هذا الكتاب « محمد بن محمد بن بنان أبو طاهر بن أبي الفضل الكاتب ، من أهل

(١) أخبار الحكماء « ص ٢٨٠ طبعة ليبزيك » .

(٢) وفيات الأعيان « ٢ : ١٩٦ طبعة إيران وهي أصح الطبعات إلى الآن » . وقال الذهبي في المشتبه : « وبكسر ذلك وقيل بالفتح والتشديد (البتّاني) محمد بن جابر ابن سنان الحراني البتاني الصابي صاحب الزيج ، هلك بعد الثلاثمائة » .

مصر وأصله من الأنبار » . فعلّق عليه المحقق ما هذا نصه « له ترجمة في شذرات الذهب ٤ : ٣٢٨ وسماه محمد بن محمد بن أبي طاهر بن محمد بن بيان الأنباري ، وقال : توفي في ربيع الآخر من سنة ٥٩٦ وله تسع وثمانون سنة ، وذكره الذهبي في وفيات ٥٩٦ محمد بن محمد بن بيان الأنباري ، وفي حسن المحاضرة للسيوطي محمد بن محمد بن أبي الطاهر محمد بن بيان الأغاري » .
قلنا : إذا لم ينص المؤلف على الحروف المشتبهة فليس لنا حق في أن نلقي العهدة عليه ، ثم إن تعليق الشيخ لم يقفنا على الوجه الصحيح في تسمية هذا العين من الأعيان ، فالصحيح الرجوع إلى الكتب الضابطة . قال الزكي المنذري في وفيات سنة ٥٩٦ : « وفي ليلة الثالث من شهر ربيع الآخر توفي القاضي الأثير ذو الرئاستين أبو الطاهر محمد ابن القاضي الأجل ذي الرئاستين أبي الفضل محمد ابن القاضي الأجل ذي الرياستين أبي الطاهر محمد بن بُنان الأنباري الأصل المصري المولد والدار الكاتب ، بالقاهرة ودفن من الغد . ومولده بالقاهرة سنة سبع وخمسمائة ... وبُنان بضمّ الباء الموحدة وفتح النون وبعد الألف نون أخرى [1] » . وقد نقلنا هذا الضبط إلى حاشية ترجمته في مختصر تاريخ ابن الدبيثي [2] .

٣٠ ــ وجاء في الصفحة ٣٢١ ترجمة أبي الحسن محمد بن محمد بن أحمد البُصروي وجاء فيها « وبُصرى قرية بدجيل دون عكبرة » ، كذا وردت عكبرة بالهاء ، وأشار المحقق إلى أن للرجل ترجمة في النجوم الزاهرة ومعجم البلدان – يعني في بُصري – على حين أن له ترجمة في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي « ٣ : ٣٣٦ » والمنتظم لأبي الفرج ابن الجوزي « ٨ : ١٥٢ »

(١) التكملة لوفيات النقلة « نسخة المجمع العلمي العراقي المصورة ، الورقة ٣ » .
(٢) المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الدبيثي « ١ : ١٢٢ طبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥١ بتحقيقي » .

والوافي بالوفيات للصفدي « ١ : ١٢٠ » . قال الخطيب البغدادي : « محمد بن محمد بن أحمد بن خلف أبو الحسن الشاعر البصروي ، من أهل بُصرى وهي قرية دون عكبرا » . فهي إذن إما « عكبرا » وإما عكبراء لا « عكبرة » كما جاء في فوات الوفيات بتحقيق الشيخ ، وكأن الصفدي نقل قول الخطيب فقد قال : « وبصرى قرية بدجيل دون عكبرا » . وقال ياقوت : « عكبرا بضم أوله وسكون ثانيه وفتح الباء الموحدة وقد يمد ويقصر والظاهر أنه ليس بعربي » ،

٣١ وورد في الصفحة ٣٤٣ « محمد بن أحمد بن الحسين بن محمود الفدوخي أبو نصر الكاتب الأوّابي » . هكذا ورد « الفدوخي » و « الأوّابي » بتشديد الشيخ للواو ، من غير أن يحيل على كتاب أو يذكر الأسباب ، لأنه لم يجد لترجمته مظنّة غير هذا الكتاب ، فلماذا شدّد الواو وأكد صحّة الباء ؛ والصواب « محمد بن أحمد بن الحسين بن محمود بن أبي عبد الله ابن علي بن محمود الفروخي أبو نصر الكاتب الأَواني [1] » . فالفروخي وهو من الأنساب المشهورة تصحف عليه إلى « الفدوخي » . والأَواني تصحف عليه إلى « الأوابي » فشدّد الواو ، وقال العماد الأصفهاني الكاتب : « السديد أبو نصر محمد بن أحمد بن محمود الفروخي الكاتب الأَواني ، من قرية يقال لها أُوانا بدجيل وهي ذات سوق كالبلدة كبيرة [2] » .

وقال ابن العماد في وفيات سنة ٥٥٧ : « وفيها أبو نصر محمد الفروخي الكاتب ، كان أديباً فاضلاً ، من شعره ... » [3] . وأورد له بيتين ،

---

(١) الوافي بالوفيات « ١ : ١٠٩ ، ١١٠ » .
(٢) خريدة القصر « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٣٣٢٧ الورقة ٨٢ » .
(٣) شذرات الذهب « ٤ : ١٨٠ » .

ولا أرى حاجة إلى ذكر الكتب الخطية كذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي وتاريخ الإسلام للذهبي وإنما أجتزئ باختصار الذهبي لتاريخ ابن الدبيثي فإنه مطبوع وقد جاء فيه « محمد بن أحمد بن محمود بن الحسين الكاتب أبو نصر ، من أهل أوانا (١) ـ يعني الأواني ـ والد شيخنا محمود وكان كاتباً شاعراً توفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة (٢) » . ومما ذكره ياقوت في معجم البلدان قال : « أوانا بالفتح والنون ، بليدة كثيرة البساتين والشجر ، نزهة من نواحي دجيل ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت وكثيراً ما يذكرها الشعراء الخلعاء في أشعارهم . . . وينسب إلى أوانا قوم من أهل العلم . . . وأبو نصر محمد بن أحمد بن الحسين بن محمود الأواني ، كاتب سديد وشاعر مجيد وله رسائل مدونة وأشعار حسان منها رسالة في حسن الربيع أجاد فيها وله غير ذلك ومات بأوانا سنة « ٥٥٧ » .

٣٢ ــ وورد في الصفحة ٣٤٥ في ترجمة ابن سيد الناس أبي الفتح محمد ابن محمد اليعمري « فكاد يدرك القمر ابن السخاوي فماقه بليلتين » . وفي مصدر آخر « الفخر بن النجاري » ذكرها محقق الكتاب في الحاشية وهي الصواب عندي ، وبقي تصحيف في « فماقه » والصواب « ففاته » أي توفي قبل وصول المترجم له إليه بليلتين ، ولو جاءه قبلها لوجده حياً وسمع منه أو قرأ عليه .

٣٣ ــ وجاء في الصفحة ٣٥٦ في ترجمة أبي العبر الهاشمي « وعلى رأسه قطمة رقة حبك مشدود بالشوظة » . وهذه الجملة العربية أحالها التصحيف

(١) قلت في الحاشية : « قال ابن عبد الحق في المراصد : بليدة من دجيل كثيرة البساتين والشجر بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من فوقها ، تحاذي عكبرا ، كانت بينهما الدجلة واستحالت عنهما » .

(٢) المختصر المحتاج إليه « ١ : ٥ طبعة المجمع العلمي العراقي بتحقيقي » .

إلى النبطيَّة والسليقة العربية تحكم بأنها في الأصل « وعلى رأسه قطعة رثّة من حبل مشدود بأنشوطة » . أو أنها « وعلى رأسه رُمَّة حبل مشدود بأنشوطة » . فشرح بعضهم الرُمَّة بالقطعة فأدخلها الناسخ في الأصل ، على ما أحسب .

٣٤ — وجاء في الصفحة المذكورة « وفي كتاب بثّر الدر باقي نوادره » . ولم يبحث المحقق عن كتاب بثر الدر ولا عن مؤلفه ، والصواب « نثر الدر » أو « نثر الدرر » بالنون ، جاء في كشف الظنون « نثر الدرر في المحاضرات لأبي سعيد منصور بن الحسين الآبي المتوفى سنة [٤٢٢] في سبع مجلدات كلها بخطب بليغة على عدة أبواب لم يجمع مثله ... » . وهو كتاب معروف مشهور منه أجزاء في دور كتب العالمين وخزائنها .

٣٥ — وورد في الصفحة ٣٥٦ في ترجمة ابن الظهير الإربلي محمد بن أحمد الأديب « وكانت وفاته سنة سبع وتسعين وستمائة » . وإذا كان الشيخ الفاضل أحال بترجمته على الوافي بالوفيات والجواهر المضيئة لزمته الاستفادة من الإحالة ، ففي الوافي بالوفيات ١ : ١٢٣ « ولما توفي سنة سبع وسبعين وستمائة دفن بمقابر الصوفية » . والفرق عشرون سنة ، وما في الوافي هو الصواب ، أما إحالته على الجواهر المضيئة فأخذها من حاشية ترجمته في الوافي بالوفيات وهي لمحقق ذلك الكتاب ، أعني الوافي ، وهي إحالة ناقصة ومغلوط في أرقامها ، أما نقصانها فان ترجمة هذا الأديب مُوردة في الكتاب على حسب ترتيب اسمه « ٢ : ١٩ » فلم يقف عليها محقق الوافي بالوفيات بل أحال على ترجمة ثانية له في الجواهر المضيئة في باب « ابن فلان » وفيها سنة الوفاة قد سقط رقمها الأوسط فجاءت « ٦٠٧ » وأما سنة وفاته في ترجمته الأصلية فهي سنة « ٦٧٧ » كما في الوافي بالوفيات ، وقال المقريزي في وفيات سنة ٦٧٧ : « وتوفي مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أبي شاكر ابن الظهير الاربلي

الحنفي عن خمس وسبعين سنة بدمشق[١] » ، ووهم ابن العماد فقد لقبه « الظهير » مع أنه لقب أبيه قال في وفيات سنة ٦٧٧ : « وفيها الظهير العلامة مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الاربلي الحنفي الأديب . ولد سنة اثنتين وستمائة باربل . . .[٢] » . ثم إن عمره معلوم وهو « ٧٥ » سنة .

ووردت في الصفحة ٣٧٧ ترجمة « بهاء الدين كافي الكفاة أبي المعالي محمد ابن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون البغدادي الكاتب المؤلف صاحب التذكرة المشهورة التي هي من أمّهات كتب الأدب أو أمّاتها على قول بعضهم ، فعلّق الشيخ الفاضل على اسمه ما هذا نصه : « له ترجمة في الوافي ٢ : ٣٥٧ وفي بغية الملتمس ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان (الترجمة ٦٢٦ بتحقيقنا) . وفي شذرات الذهب ٥ : ٣٢ وسماه الحسن بن محمد بن الحسن وذكر وفاته في سنة ٦٠٨ » .

قلت : الذي ذكره مؤلف الشذرات وأشار إلى اسمه الشيخ الفاضل هو ابنه « الحسن » الأديب المتصرّف المشهور عند المختصين بالتاريخ ، لا هو ، وإنما تابع ابن العماد شمس الدين الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ في وهمه بإسناده تأليف التذكرة إلى الابن[٣] لا إلى الأب مؤلفها باجماع المؤرخين ، وإجماع نُسخ الكتاب الخطيّة ، وقد ناقض ابن العماد نفسَه بعَزْوِه التذكرة إلى الحسن ابن حمدون ، فإنه قد ذكر الوالد مؤلفها في وفيات سنة ٥٦٢ وفات الشيخ وجدان ترجمته بسبب من أسباب الغفلة التي تعرض لكل إنسان ،

(١) السلوك « ج ١ ص ٦٥١ » .
(٢) الشذرات « ٥ : ٣٥٩ »
(٣) وذلك في كتابيه « العبر في خبر مَن غَبَر » ج ٥ ص ٢٧ وتاريخ الإسلام .

قال ابن العماد في وفيات تلك السنة : « وفيها محمد بن الحسن ابن حمدون صاحب التذكرة الحمدونية ، ولاّه المستنجد ديوان الزمام ، ووقف المستنجد على كتابه فوجد فيه حكايات توهم غضاضة من الدولة ، فأخذ من دست منصبه وحُبس إلى أن رُمس [١] » .

أمّا ابنه الحسن بن محمد ابن حمدون الذي ظنّه الشيخ إياه فأشهر من أن يذكر ، ترجم له ياقوت الحموي ترجمة مفصلة [٢] ، قال : « الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون أبو سعد بن أبي المعالي بن أبي سعد الكاتب ، قد تقدم ذكر أبيه صاحب الديوان بهاء الدين أبي المعالي وذكر عمه أبي نصر محمد بن الحسن كاتب الإنشاء . . . » . هكذا قال ياقوت مع أن ترتيب كتابه معجم الأدباء ليس على ترتيب كتب التاريخ التي تقدم أسماء المحمدين لشرف هذا الاسم ، فياقوت نقل هذه التقدمة من تاريخ آخر [٣] وما عقلها ولا فكر في دلالتها ، فكيف تقدم اسماها وترتيبه يوجب إيرادها في جزء المحمدين المتأخر عن هذا الجزء ؟

هذا وقد وردت ترجمة أبي سعد الحسن ابن محمد بن حمدون في مختصر تاريخ ابن الدبيثي الذي اختصره الذهبيّ [٤] ، وذكره عز الدين ابن الأثير

---

(١) الشذرات « ٤ : ٢٠٦ » .

(٢) معجم الأدباء « ٣ : ٢٠٩ طبعة مرغوليوث الأولى » .

(٣) الظاهر لي أنه نقلها من ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثيّ والتاريخ المجدد لمدينة السلام فابن الدبيثي قال في ترجمة الحسن : وقد تقدم ذكر أبيه وجدّه » وعنى بجده الحسن بن محمد بن علي ابن حمدون وقد ترجم له .

(٤) المختصر المحتاج إليه « ٢ : ٢٣ طبعة المجمع العلمي العراقي بتحقيقي » .

في وفيات سنة ٦٠٨ قال : « وتوفي أيضاً أبو سعد الحسن بن محمد بن الحسن ابن حمدون التغلبي المدوي وهو ولد مصنف التذكرة وكان عالماً » . وقد كان ذكر أباه في حوادث سنة ٥٦٢ ووفاته مسجوناً .

٣٧ — وجاءت في الصفحة ٣٨٣ ترجمة « شمس الدين محمد بن دانيال ابن يوسف الموصلي الأديب المُفتَنّ المشهور ، الذي اختلط شعره بترجمة إبراهيم بن سليمان بن حمزة ابن النجار الدمشقي المجود المتوفى سنة ٦٥١ بعد توليه نقابة الأشراف [١] ، مع أنه كان في هجاء أحمد بن المَقَّقيّ المتهم بالزندقة المقتول عليها سنة « ٧٠١ » بين القصرين [٢] ، وجاء في ترجمة ابن دانيال ما هذا نصه « وكانت وفاته بالديار المصرية في شهور سنة ثمان وستمائة » . فكيف يهجو المتوفى سنة ٦٠٨ رجلاً قُتل سنة ٧٠١ ؟ ثم إن ابن شاكر قال في ترجمة ابن دانيال هذا : « قال الشيخ صلاح الدين الصفدي : هو ابن حجاج عصره وابن سكرة مصره ... » . ولم يراجع الشيخ الفاضل ترجمة ابن دانيال في تاريخ الصفدي للرجال وهو الوافي بالوفيات « ٣ : ٥١ » لأنه لم يُحل عليه في الحاشية ، وترجمته واردة في تاريخ رجال القرن الثامن لابن حجر ، قال ابن حجر : « مات في ١٢ جمادى الآخرة سنة ٧١٠ [٣] » . وفي تاريخ ابن تغري بردى في حكام مصر قال ابن تغري بردي في وفيات سنة « ٧١٠ » من تاريخه الموصوف : « وتوفي الحكيم الأديب البارع شمس الدين محمد بن دانيال الموصلي صاحب النكت الغريبة والنوادر العجيبة وهو مصنف

---

(١) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب « ص ٨ — ١٠ » .

(٢) راجع الجزء الأول أيضاً « ص ١٣٤ » .

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣ : ٤٣٦ » .

طيف الخيال [١] ... » . وفي تاريخ المقريزي الكبير فقد قال في وفيات سنة « ٧١٠ » منه : « ومات الأديب البارع شمس الدين محمد بن دانيال ابن يوسف ابن معتوق الخزاعي الموصلي في ثامن عشري [٢] جمادى الآخرة ، ومولده بالموصل سنة سبع وأربعين وستمائة وكان كثير المجون [٣] . . . » . وفي تاريخ ابن العماد الحنبلي فقد ترجم له في وفيات سنة ٧١١ قال : « وفيها الأديب الخليع الحكيم شمس الدين محمد بن دانيال مؤلف كتاب طيف الخيال [٤] ... » .

يتبع : (بغداد) مصطفى جواد

* * *

(١) النجوم الزاهرة « ٩ : ٢١٥ » .
(٢) أي الثامن والعشرين .
(٣) السلوك « ج ٢ ص ٩٥ » .
(٤) الشذرات « ٦ : ٢٧ » .

شعر

الوقوف على الأطلال

من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

— ٤ — (١)

٣ — تخريب الديار

من المعاني العامة الأساسية في شعر الوقوف على الأطلال ذكر خراب الديار واندثار بقاياها بعد رحيل أهلها . وقد ألح الشعراء على هذا المعنى ، فذكروه كثيراً في أشعارهم ، حتى لا تكاد تخلو منه قصيدة في الوقوف على الأطلال . والصفة العامة التي تشترك فيها الديار وبقاياها جميعاً في هذا الشعر هي صفة القِدم والبِلى . كما أن الصفة العامة التي تشترك فيها جميع التشبيهات والتصاوير التي أتى بها الشعراء في معرض وصف الديار وبقاياها هي صفة القدم والبلى أيضاً .

وقد ذكر الشعراء في عرضهم هذا المعنى الأسباب في خراب الديار واندثارها . فحاولنا استقراء هذه الأسباب ، فانتهى بنا الاستقراء إلى أن الشعراء يرجعون خراب الديار إلى عاملين اثنين . أحدهما تقادم العهد ومرور الزمن ، وثانيهما حوادث الطبيعة .

أما تقادم العهد ومرور الزمن فقد جعله الشعراء سبباً لخراب الديار في شعر الوقوف على الأطلال ، ولكنهم لم يهتموا به كثيراً ، ولم يقفوا عليه

---

(١) نشر القسم الأول في الصفحات ٣٥١ و ٦٣٥ و ٨٤٩ من المجلد (٤٣)

طويلاً ، فما كان يرد في أشعارهم إلا الفينة بعد الفينة . وما كان ذكرهم له مع ذلك إلا سريعاً خاطفاً ، لا يعتمد على تصوير أو تشبيه ، ولا يعدو الإشارة العابرة . قال عَبِيدُ بن الأبرص (١) :

تغيَّرت الديارُ بذي الدفينِ فأودِيةِ اللِّوى ، فرمالِ لينِ
فخَرْجَيْ ذِرْوةٍ ، فقَفا ذَيالٍ يُعَفِّي آيَه سلفُ السنينِ (٢)

فقد تغيرت آيات الديار وتعفت ، لأن مرّ السنين قد بعدت بها عن أيام غناها بأهلها وساكنيها .

وأما حوادث الطبيعة فقد جعلها الشعراء سبباً لخراب الديار أيضاً ، وذكروها كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال ، وتداولوها وأفرطوا في ذلك ، ولا سيما شعراء العصر الأموي . وحوادث الطبيعة التي اعتاد الشعراء أن يذكروها منذ الجاهلية ، ولم يكادوا يخرجون عن ذكرها في العصور التالية ، هي الرياح وما تذريه من التراب والرمال ، والسحاب وما ينشأ عنه من الأمطار والسيول . قال النابغة الذبياني (٣) :

أمِن ظُلامةَ الدِّمَنُ البوالي بمُرْفَضِّ الحَبِيِّ إلى وِعالِ
تعاوَرَها السواري والغوادي وما تُذْري الرياحُ من الرمالِ (٤)

* * *

ذكر الشعراء فيما يتعلق بالرياح أنها تعفي الديار ، وتمحوها بما تسفي عليها من الحصى والتراب والرمال ، فتدفنها وتخفيها عن العيون . وقد عدّدوا في

(١) ديوانه ١٣٢ .
(٢) الخرج بمعنى الوادي ها هنا . وآيه : أي علاماته وآثاره ، واحدها آية .
(٣) ديوانه ٦٤ .
(٤) السواري : السحاب التي تنشأ في الليل ، من سرى يسري ، إذا سار ليلاً . والغوادي : السحاب التي تنشأ في الغداة ، أي الصباح ، من غدا يغدو ، إذا سار في الغداة .

معرض ذلك أكثر أنواع الرياح المعروفة عند العرب ، ومنها الرياح اللينة اللطيفة مثل ريح الصَّبا ، ومنها الرياح الشديدة العنيفة مثل ريح الشمال . وذكروا منها أيضاً الرياح التي تهب في فصول السنة المختلفة ، كالصايف وهي الرياح التي تهب في الصيف ، والمرابع وهي الرياح التي تهب في الربيع .

وقد عمد الشعراء في ذكر الرياح إلى شيء من الوصف والتصوير . فشبهوا أنينها بحنين النوق وهي تحِنُّ إلى أولادها التي سُلِبَتْ منها حنيناً حزيناً موجعاً . قال إياس بن عامر أعشى طرود (١) :

وعَرْصةُ الدار تستَنُّ الرياحُ بها تحِنُّ فيها حنينَ الوُلَّه السُّلُبِ (٢)

والتشبيه واقع بين حنين النوق الحزين الرتيب وبين دوي الريح الكئيب الرتيب حين هبوبها ومرورها بالديار . ولم يكثر الشعراء من تشبيه صوت الرياح بحنين النوق ، فلم ترد هذه الصورة في شعر الوقوف على الأطلال إلا نادراً . وربما كان السبب في ذلك دقة هذه الصورة ، وحاجتها إلى حس رهيف دقيق ، يخترق حجاب الواقع المنظور إلى ما لا تراه العينان .

على أن هؤلاء الشعراء قد أكثروا في وصف تخريب الديار من تشبيه الرياح بالعروس وبأذيال ثوبها التي تجرهـا وراءها . قال الأسود بن يعفر في ذلك (٣) :

جَرَّتْ بها الريحُ أذيالاً مُظاهَرَةً كما تجرُّ ثيابَ الفُوَّةِ العُرُسُ (٤)

---

(١) ملحقات ديوان الأعشى ٢٨٤ .

(٢) تستن الرياح بها : أي تسرع فيها

(٣) ملحقات ديوان الأعشى ٣٠٠ ، واللسان (فو) .

(٤) الفوة : عروق نبات يستخرج من الأرض ويصبغ بها الثياب . والعرس : جمع عروس .

وقال عبيد بن الأبرص (١) :

جرَّتْ عليها رياحُ الصيف، فاطردتْ   والريحُ فيهـــا تعفيها بأذيالِ (٢)

فالريح تمر بالديار وقد جرت وراءها سحباً من التراب والرمال ، تطمس بها آثار الديار ، كما تجر العروس أذيال ثوبها خلفها ، وتطمس بهـا آثار أقدامها على الأرض .

وقد لاحظ الشعراء حركة الرياح الدورية في دفن آثار الديار بما تحمله من التراب والرمال ، ثم الكشف عنها بنسف التراب والرمال . فكلما دفنته هذه بالرمل سفرت عنه الأخرى الرمل وأظهرته . لاحظوا هذه الحركة الدائمة ، وشبهوها بعمل النسج ، نسج الثياب .

قال امرؤ القيس في مطلع معلقته (٣) :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ   بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحوملِ
فتوضحَ فالمِقْراة لم يعْفُ رسمُها   لِما نَسَجتْها من جنوب وشمْأَلِ (٤)

فشبَّه حركة الرياح الدورية من جنوب مرة وشمال مرة بعمل نسج الثياب ، لأن الحائك يداول في حركته أثناء النسج يمنة مرة ، ويسرة أخرى .

وقال ذو الرمة في ذلك أيضاً (٥) :

خليليَّ ، عوجا عوجةً ناقتيكما   على طلل بين القِلاتِ وشارعِ
به ملعبٌ من مُعْصِفات نَسَجْنَه   كنسج اليماني بُرْدَه بالوشائعِ (٦)

---

(١) ديوانه ١٠١ .

(٢) جرت عليها : أي جرت الريح التراب عليها كما تجر العروس أذيال ثوبها .

(٣) ديوانه ٨ .

(٤) نسجتها : تعاقبت عليها مرة هذه ومرة هذه . والجنوب : ريح الجنوب . والشمأل : ريح الشمال .

(٥) ديوانه ٣٥٥ .

(٦) المعصفات . الرياح الشديدة والوشائع : لفائف الغزل ، واحدتها وشيعة .

فالرياح العاصفة تلعب بالديار ، وتنسج آثارها بألوان وأشكال مختلفة كما ينسج الصانع اليماني الثوب ، ويزينه بالوشائع . والصورة هنا تختلف عن الصورة الأولى ، لأن امرأ القيس اهتم بالحركة ، وعُني برسم حركة المداولة في هبوب الرياح على آثار الديار ، وفي عمل الحائك في نسج الثوب ، بينما اهتم ذو الرمة بالألوان والأشكال الحادثة من عصف الريح بآثار الديار ، ومن تزيين الصانع ثوبه بالوشائع حين نسجه .

* * *

وأما فيما يتعلق بالسحاب وتخريبها الديار فقد جعل الشعراء السحاب تعفي الديار بما ينشأ عنها من أمطار وسيول تمحو الرسوم ، وتجرف الدمن ، وتهدم النُّئيّ . وقد أكثروا من وصف السحاب والأمطار والسيول في معرض وصف تخريب الديار . وأكثروا من ذكر أنواعها وأشكالها وألوانها ، دون أن يعمدوا كثيراً إلى التصوير والتشبيه . ولكنهم وصفوا خلال ذلك العواصف وثورات الطبيعة وزحف السحاب وهطول الأمطـار ، فأتوا من ذلك بصور جميلة شيقة ، ولا سيما شعراء العصر الأموي . ولقد فاق الأخطل أصحابه في ذلك كله . وهذا وصف له لعاصفة هبت على آثار ديار أحبته [1] :

دِمَنٌ تذعذعها الرياحُ ، وتارةً تُسْقَى بمرتجز السحاب ثِقالِ [2]

باتتْ يمانيةُ الرياح تقـــوده حتى استقاد لها بغير حِبالِ [3]

---

(١) ديوانه ١٥٦ ــ ١٥٧ .

(٢) الدمن : الآثار التي يتركها الناس في الديار ، واحدتها دِمْنة . وتذعذعها : تفرقها .

(٣) تقوده : أي تقود الرياح السحابَ .

في مظلم غَدِق الرَّباب ، كأنما يَسْقي الأشقَّ وعالجاً بدوالي (١)

فهو يصور هنا عاصفة ثائرة ، نرى فيها الرعد مرتجزاً مدوياً ، والسحاب متراكماً ثقيلاً ، تدفعه الرياح الهائجة ، فيتدافع ويقبل بالمطر غزيراً كثيفاً ، وقد أظلم الجو ، واسودت جوانب السماء . وكل ذلك في لفظ يسير ، وجمل قليلة قصيرة ، تمضي سريعة كسرعة العاصفة الهائجة .

٤ — الحيوان الذي يألف الديار

كان العرب في الصحراء يتوخَّوْن في الأرض التي ينزلونها الخصب والإنبات وملاءمة شروط الحياة . ولذا كانوا يختارون أخصب الأماكن ، وأغناها بالماء والكلأ لنزولهم . ويبدو لنا أن وحوش الصحراء كانت تألف هذه الأراضي أيضاً ، وتُوطن بها ، بعد أن يخليها أهلها ، ويرحلوا عنها . كأن لها غريزة تشبه غريزة الإنسان في البحث عن المكان الملائم لشروط حياتها .

وكان العرب يمرون في أسفارهم ورحلاتهم بالديار التي هجروها ، فيرون الحيوانات تسرح وترتع في الأماكن التي عمروها هم في الأيام الماضية ، وقضوا فيها شطراً من حياتهم ، يرونه عزيزاً غالياً ، فكان ذلك يؤلمهم ويثير في نفوسهم ذكريات حلوة جميلة . ولذا كان الشعراء يذكرون هذه الحيوانات التي أوطنت بديارهم في شعر الوقوف على الأطلال ، كأن نفوسهم تأسى لذلك ، وكأن لسان حالهم يقول : ما أقسى صروفَ الأيام ! لقد عمرنا هذه الديار حيناً من الدهر ، ثم اضطررنا لهجرها ، فسكنتها بعدنا الوحوش . وكأننا

---

(١) في مظلم : أي في سحاب مظلم ، والسحاب المظلم يكون مليئاً بالماء . والغدق : السحاب الغزيرُ المطر . والرباب : السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب . والأشق وعالج : موضعان . والدوالي : جمع دالية ، وهي الدولاب يديرها الثور ، أو الناعورة لسقي الأرض .

بهؤلاء الشعراء يضنون بهذه الديار على الوحوش ، لأن فيها بقية من ذكريات حياتهم الماضية ، ما زالت أطيافها تتردد جائية ذاهبة في ساحاتها وجنباتها .

ومهما يكن من أمر فقد ذكر الشعـراء الحيوانات التي تألف الديار في شعر الوقوف على الأطلال ، وأكثروا من ذكرها ، حتى جعلوا ذلك معنى من المعـاني اللازمة التي وردت في هـذا الشعر على مدى العصور .

وحيوانات الصحراء قليلة ليست بالكثيرة . ومن استقراء شعر الوقوف على الأطلال نجد أن الشعراء لم يذكروا فيه سوى البقر الوحشي والظباء والنعام ، وصغار هذه الحيوانات أحياناً ، ثم الطيور ، ولا سيما الحمـام . وقد أكثر الغزلون البداة من ذكر الحمام ، وتغنوا بصوته خاصة دون غيرهم من الذين سبقوهم أو الذين جاءوا بعدهم .

ويمكننا أن نقول إن الشعراء قد ذكروا هذه الحيوانات في معرض وصف الديار بالخلو والإقفار . فمرة يقولون إن الديار خالية مقفرة ، ليس بها أحد سوى قطيع من البقر ، أو سرب من الظباء ، أو إجل من النعام ، كما قال المرقش الأكبر (١) :

أمستْ خـلاءً بعد سكانها مقفرةً ما إن بهـا من إرَمْ (٢)
إلا من العِين ترَعّى بهـا كالفارسيّين مشَوْا في الكُمَمْ (٣)
بعـد جميع قد أراهم بهـا لهم قبابٌ ، وعليهم نَعَمْ (٤)

ومرة يقولون إن الديار قد أقفرت من ساكنيها ، وتبدلت بهم الحيوانات ،

---

(١) المفضليات ٢٢٩ .
(٢) من إرم : أي من أحد .
(٣) العين : بقرات الوحش ، واحدتها عيناء . والكمم : القلانس .
(٤) الجميع : القوم المجتمعون النازلون في موضع واحد . وعليهم نعم : أي لهم أنعام تروح عليهم ، وهي الإبل .

كما قال النابغة الذبياني [١] :

عهدتُ بها حياً كراماً فبُدِّلَتْ خناطلَ آجالِ النعام الجوافلِ [٢]
ترى كلَّ ذيَّالٍ يعارضُ رَبْرَباً على كل رَجَّافٍ من الرمل هائلِ [٣]
يثرن الحصى حتى يباشرنَ برده ، إذا الشمسُ مدَّتْ ريقها،بالكلاكلِ [٤]

وقد وصف الشعراء هذه الحيوانات بصفات كثيرة ، وشبهوها في أثناء ذلك تشبيهات مختلفة ، حسب أنواعها كما رأينا في المثالين اللذين ذكرناهما . ولكنهم لم يقفوا على صور معينة يتداولونها ، ولا يخرجون عنها ، كما كان الأمر في وصف الديار وتصويرها مثلاً . ونحن نذكر ، إلى المثالين السابقين ، طرفاً من هذه التشبيهات على سبيل المثال .

شبَّهَ طرفة النعامَ بالإماء ، وهن يحملن حزمَ الحطب على رؤوسهن في قوله [٥] :

حابسي رسمٌ وقفتُ به لو أطيع النفسَ لم أرِمُهْ
لا أرى إلا النعامَ به كالإماء أشرفتْ حُزَمُهْ

والصورة طريفة جداً ، فالنعام قوائمه طويلة ، تبدو دقيقة بالقياس إلى جسمه الثقيل المشرف ، ويزيده إشرافاً ريشه المتدلي على جانبيه . وهو

(١) ديوانه ٦٣ .
(٢) الخناطل : الجماعات ، واحدتها خنطلة وخنطل . والآجال : قطعان النعام ، واحدها إجل .
(٣) الذيال : ثور الوحش الطويل الذيل والربرب : قطيع بقر الوحش . والرجاف من الرمل : الذي يتحرك وينهار حين وطئه من لينه . والهائل : الذي ينهال .
(٤) ريق الشمس : لعابها وهو يبدو في الهاجرة كأنه يسيل من شدة الحر . بالكلاكل : أي يثرن الحصى بالكلاكل ، وهي الصدور ، واحدها كلكل .
(٥) ديوانه ١٥٠ .

يُشْبه بهذه الحالة الإماءَ اللواتي يحملن حزمَ الحطب على رؤوسهن ، فتبدو أجسامُهن دقيقةً رقيقةً تحت هذه الحزم العريضة المشرفة .

وشبَّهَ عبيد بن الأبرص الظباءَ بأباريق الفضة في قوله (١) :

بُدِّلتْ منهـــم الديارُ نعـاماً خاضباتٍ يُزْجين خيْطَ الرئالِ (٢)
وظبـــاءً كأنهن أباريقُ لُجَيْنٍ ، تحنو على الأطفـالِ

والصورة هنا طريفة جداً أيضاً . والظباء تشبه أباريقَ الفضة حقاً بطول أعناقها وحسنها في دقتها ورقتها ورشاقتها وبياضها .

وقد أكثر الشعراء من وصف بقر الوحش بالعَيَن وطول الذيل والخَنَس . قال النابغة الذبياني (٣) :

أهاجكَ من سُعْداكَ مغنى المعاهدِ بروضة نُعْميٍّ فذات الأساودِ
تعاوَرَها الأرواحُ يَنْسِفْنَ تربَها وكلُّ مُلِثٍّ ذي أهاضيبَ راعدِ (٤)
بها كلُّ ذيَّالٍ وخنساءَ ترعوي إلى كل رَجَّافٍ من الرمل فاردِ (٥)

وهم قد أكثروا أيضاً من وصف هذه الوحوش بأنها مَوْشيَّة الأكارع ، ولا سيما الشعراء الأمويون ، حتى صار ذلك شبه قاعـــدة عامة عندهم .

---

(١) ديوانه ١٠٦ .

(٢) نعام خاضبات : خضب الكلأ سيقانها في الربيع . والخيط : جماعة النعـــام . والرئال : فراخها ، واحدها رأل .

(٣) ديوانه ٣٣ .

(٤) تعاورها : تداولها هذه مرة ، وهذه مرة . والملث : السحاب يكون مطره دائماً . والأهاضيب : دفعات المطر .

(٥) الخنساء : بقرة الوحش التي في أنفها خَنَس . وترعوي : تعطف وترجع . والرجاف من الرمل : الذي يتحرك وينهار لميه .

قال الأخطل (١) :

فما به غيرُ مَوْشيّ أكارعُه إذا أحسَّ بشخص نابئٍ مَثَلا (٢)
يرعى بخينفَ أحياناً، وتُضْمِره أرضٌ خلاءٌ وماء سائلٌ غَلَلا (٣)

والشعراء منذ الجاهلية قد اعتادوا كذلك عند ذكر هذه الحيوانات أن يذكروا معها صغارَها أحياناً ، وهي تتبع أُمّاتها ، أو تمشي أمامها .
قال زهير (٤) :

هاج الفؤادَ معارفُ الرسمِ قفر بذي الهضبات كالوشمِ (٥)
تعتاده عينٌ ملمعةٌ تزجي جآذرَها مع الأُدْمِ (٦)

(يتبع) الدكتور عزة حسن

---

(١) ديوانه ١٣٨ ـ ١٣٩ .
(٢) موشي أكارعه : أي ثور في قوائمه سواد وبياض . ومثل : أي إذا أحس بشخص آتٍ زال عن موضعه .
(٣) خينف : وادٍ بالجزيرة . وسائل غللاً : أي يسيل متغلغلاً من مكان إلى مكان .
(٤) ديوانه ٣٨٢ .
(٥) معارف الرسم : علاماته المعروفة .
(٦) العين : بقرات الوحش ، واحدتها عيناء ، سميت بذلك لسعة أحداقها . والملمعة : التي بها لمع تخالف سائر لونها . والجآذر : أولادها ، واحدها جؤذر . والأدم : الظباء البيض .

أبو علي القالي وكتابه الأمالي

هو أبو علي القالي البغدادي . واسمه اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان . وجده سلمان هذا مولى عبد الملك ابن مروان الأموي[1] . ولد سنة ٢٢٨ هـ ، ٩٠١ م . وقيل سنة ٢٨٠ هـ في بلدة « منازجرد » أو « منازكرد » في إرمينية من أعمال ديار بكر بالقرب من بحيرة « وان » التي تقع شرقي الفرات . ومنازجرد — كما يقول ياقوت — بلد مشهور بين خلاّط وبلاد الروم[2] ، وأهلها أرمن وروم ، وفيها قلعة عرفت بهذا الاسم . غير أننا لا نجنح إلى رأي ياقوت الذي ينعت منازجرد بأنه مشهور ، بدليل أن أبا علي نفسه عدل عن الانتساب اليه وآثر بلداً آخر أكثر شهرة وهو « قالي قلا » الذي كان مركزاً للمجاهدين والغزاة المسلمين . وإلى مناز جرد ينسب الشاعر أبو نصر المنازي صاحب الأبيات المشهورة في وصف الطبيعة ، ومنها قوله :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وحين بلغ أبو علي الخامسة عشرة من عمره شعر أن منازجرد القصية لا تتسع لمطامحه فشد الرحال إلى بغداد طلباً للعلم ، وكانت منتجع الأدباء

---

(١) انظر وفيات الأعيان ١ : ٢٠٤ . وفي إنباه الرواة ١ : ٢٠٧ لا يرد ذكر لسلمان بل سليمان عوضاً عنه ، كما يذكر الحميدي في جذوة المقتبس أن جده سليمان كان مولى محمد بن عبد الملك .

(٢) معجم البلدان ٥ : ٢٠٢ . وخلاّط كما يذكر ياقوت عاصمة ارمينية .

وقبلة الطلاب والمريدين ، وفي ابهاء مساجدها كان يتربع شيوخ اللغة والأدب والنحو .. ومن حولهم حلقات حاشدة من طلاب المعرفة أمثال القالي . وقد روى أبو علي نفسه قصة رحلته ولقبه لتلميذه أبي بكر الزبيدي صاحب « مختصر العين » ، فقال :

« رحلت إلى بغداد سنة ثلاث وثلاثمئة ، فأقمت بالموصل ، وكتبت عن أبي يعلى الموصلي وغيره . ثم دخلت بغداد سنة خمس وثلاثمئة ، فأقمت بها إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة . . . » قال الزبيدي : « وسألت أبا علي لم قيل له القالي ؟ فقال :

« لما انحدرنا إلى بغداد كنا في رُفقة ، فيها أهل قاليقلا ، فكانوا يحافظون لمكانهم من الثغر ، ورأيت الناس يعظمونهم . فلما دخلت بغداد انتسبت إلى قاليقلا وهي قرية في منازجرد ورجوت أن انتفع بذلك عند العلماء فلم انتفع بذلك ، وعرفت بالقالي »

وفي هذا النص ما ينم على عصامية القالي ، وأنه وهو الغريب في بلد كبير مثل بغداد كان عليه أن يبدأ الطريق من أوله وأن يجد له مكاناً بين الزحام ، حتى قيض له أن يبلغ أقصى درجات الشهرة في المشرق والمغرب .

ونحن لا نعرف الكثير عن هذه المرحلة من حياة أبي علي مرحلة إقامته بالعراق . وبوسعنا القول إنه استطاع أن يعقد صلات علمية وثيقة مع شيوخ العلم في الموصل وبغداد ، وأن نباهته لفتتهم إليه وجعلته مقرباً اليهم . وأغلب الظن أن شهرته أخذت تستفيض بعد وفاة اكثر شيوخه وبخاصة ابن دريد صاحب كتاب « الجمهرة في اللغة » . وإذا ذاك استقل ابو علي بشخصيته وتم له النضج ، وغدا بذكائه واقتداره في الرواية وتمكنه في اللغة ذا شأن في بغداد . يؤيد ذلك ما تذكره كتب الأدب

والتراجم من أمر إرسال خليفة قرطبة الأموي اليه يستدعيه وهـذا يعني استفاضة شهرته حتى بلغت الأندلس . وقد يكون من أسباب إيثاره دون سائر العلماء بهذه الدعوة السامية أن جده البعيـد سلمان أو سليمان في بعض الآراء كان مولى لعبد الملك بن مروان الأموي . غير أن بروكلمان يجنح إلى خلاف هذا الرأي ، فيرى أنه لم ينبه للقالي ذكر في بغداد وأنه « لما لم ير بعد دأب خمس وعشرين سنة أن دراساته قد أينع ثمرها وآنت أكلها عوّل على الرحيل إلى بلاد المغرب »[1] . ويبدو أن بروكلمان يفترض أن أبا علي رحل عن العراق مهاجراً يائساً ، ويغفل أمر دعوة الخليفـة الأندلسي له ، وفرق كبير بين هذا الحافز وذاك .

ومهما يكن من أمر فقد كان خروج أبي علي من بغـداد قاصداً إلى المغرب سنة ٣٢٨ هـ وكانت سنه يومئـذ تناهز الأربعين . وقد مر أبو علي بأرض مصر حيث علم بوفاة احمد بن عبد ربه[2] صاحب كتاب « العقد الفريد » . ثم بلغ المغرب ووصل الأندلس سنة ٣٣٠ هـ بعد نحو ثلاث سنوات ، فاستقبل استقبالاً عظيماً وكان في مقدمـة مستقبليه الأمير الحكم ولي العهد ولفيف من وزراء والده الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ولاة الأندلس من الأمويين في قرطبة ، وكان أول من تلقب بألقاب الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين وأقوى من حكم الأندلس . وكان النـاصر قد استدعاه بعد أن بلغته شهرته وعلم فضله ، فوكل إليه أمر تعليم ابنه ، وعهد إليه بتربيته وتهذيبه ، « فتلقاه الحكم بالجميل ، وحظي عنده ، وقرب منه ، وبالغ في إكرامه . ويقال إنه هو كان قد كتب اليه ، ورغّبه في الوفود عليه . وكان قبل ولايته الأمور وبعد أن صارت اليه ، يبعثه على

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧٨ .
(٢) تراث الإنسانية ، العدد الأول من المجلد الخامس . بقلم الدكتور أحمد كمال زكي .

التأليف وينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط والإكرام »[1] ويعد الحكم بن عبد الرحمن من أشدّ ملوك الأندلس شغفاً بالعلم وأكثرهم اشتغالاً به وحرصاً عليه . وبعضهم يعزو إلى القالي هذا الفضل وأنه غرس في نفس تلميذه الحكم حب المعرفة [2] ، ولكننا لا نذهب إلى هذا المدى في تأثير أبي علي في الحكم ، لأن الحكم كان في الثامنة والعشرين من عمره سنة وصول أبي علي إلى الأندلس [3] .

استوطن أبو علي قرطبة ونشر علمه بها وألف فيها أكثر كتبه ، وفي طليعتها كتاب الأمالي والنوادر وكتاب البارع في اللغة ، وكان يملي معارفه أيام الأخمسة بقرطبة وفي المسجد الجامع بالزهراء ، « فاستفاد الناس منه وعوّلوا عليه واتخذوه حجة فيما نقله » .

وكما عرف أبو علي في العراق وسائر المشرق بالقالي عرف أيضاً بالبغدادي بين أهل المغرب والأندلس بعد رحيله اليهم . وقد يرى بعض الباحثين في إطلاق المغاربة الأندلسيين لقب البغدادي على أبي علي ما يشير إلى مذهبه في اللغة والنحو والتصريف الذي اتّسم به نتيجة إقامته في بغداد وأخذه عن عدد من الشيوخ البغداديين في العراق . فكأنه الناقل لهذا المذهب البغدادي والمبشر به في المغرب والأندلس . غير أننا لانجنح إلى هذا الرأي لأسباب ؛ منها أن مدرسة بغداد لم تكن مدرسة متميزة بالمعنى الدقيق وذات ملامح بارزة كما كان شأن مدرستي الكوفة والبصرة المتنافستين ، ولكنها

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ١٥٥ .
(٢) يجنح الأستاذ أحمد أمين إلى هذا الرأي في كتاب « ظهر الإسلام » ٣ : ٨٢ ـ ٨٣ .
(٣) تولى الحكم خلافة الأندلس من ٣٥٠ ـ ٣٦٦ سنة وفاته ، وكان مولده سنة ٣٠٢ .
(٤) معجم الأدباء ٧ : ٣١ .

حصيلة مشتركة للتفاعل العلمي بين البصريين والكوفيين ، وإن كان الميل إلى البصريين غالباً عليها . يؤيد ذلك ما نجده في العديد من كتب السلف من تجاوز لمذهب بغداد ، مثل كتاب « طبقات النحويين واللغويين » لأبي بكر الزبيدي ، فقد ميز البصريين من الكوفيين ثم أتبعهم المصريين والأفريقيين والأندلسيين بل ان كتاب الزبيدي نفسه يصنف أبا علي القالي في الطبقة السابعة من اللغويين البصريين ويعده من أصحاب ابن دريد ، كما يجعله في موضع آخر من كتابه في الطبقة العاشرة من النحويين البصريين ويذكر أنه من أصحاب ابن درستويه (١) . يضاف إلى ذلك أن أكثر من ترجموا لأبي علي في القديم أشاروا إلى أنه كان أعلم الناس بنحو البصريين . على أن أبا علي نفسه لم يكن في مصنفاته البارزة نحوياً بقدر ما كان لغوياً يعتني بنوادر العربية وغريبها ، ولغات العرب وأشعارهم ، ينم على ذلك كتاباه الكبيران : الأمالي والبارع . وقد ذكر الحميدي أن « أكثر من يحدث عن القالي بالمغرب أو يحكي عنه يقول أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي ، نسبوه إليها لطول مقامه بها ووصوله إليهم منها » أما أبو علي نفسه فقد آثر أن يجمع بين النسبتين حين استهل كتابه « الأمالي » بقوله : « قال الشيخ أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي رحمه الله .. » .

شيوخ القالي :

أتيح لأبي علي ان يتتلمذ على نخبة من العلماء الأجلاء ، فأخذ الحديث النبوي في بغداد عن أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي محدث العراق في عصره (— ٣١٧ هـ) وأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني من فقهاء

(١) طبقات النحويين واللغويين ١٣٢ ، ٢٠٥ .

العراق (— ٣١٦ هـ) وأبي سعيد الحسن بن زكريا العدوي البصري (— ٣١٩ هـ) ، ويوسف بن يعقوب القاضي (— ٢٩٧ هـ) وابن صاعد يحيى ابن محمد (— ٣١٧ هـ) ، وأبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المقرىء (— ٣٢٤ هـ) ، وحسين بن اسماعيل المحاملي ... وكلهم من علماء الحديث الذين تضبط عليهم الرواية بدقة وتشدد . وحين قصد أبو علي إلى الموصل في أول مقامه بالعراق لازم فقيهها وعالمها أبا يعلى الموصلي .

وما من شك في أن هؤلاء الشيوخ المحدثين تركوا أثراً منهم عند أبي علي القالي من حيث اعتماده الكبير على الرواية والحفظ وتوخيه الدقة والاتقان وحرصه على التمسك بالأسانيد ، على غرار كتب الفقه والحديث ، مما نلمسه بوضوح في كتب القالي وبخاصة في الأمالي والبارع .

وأخذ أبو علي علوم العربية عن أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي ويعد أبرز تلاميذ المبرد (— ٢٨٨ هـ) ، وأبي اسحق ابراهيم بن السرى الزجاج من تلاميذ المبرد أيضاً (— ٣١١ هـ) ، وأبي الحسن علي بن سليمان المعروف بالأخفش الصغير (— ٣١٥ هـ) ، وأبي عبد الله ابراهيم بن محمد المعروف بنفطويه (— ٣٢٣ هـ) ، وأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي صاحب الجمهرة (— ٣٢١ هـ) ، وأبي بكر بن محمد بن السراج النحوي (— ٣١٦ هـ) ، وأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري من أبرز علماء الكوفة (— ٣٢٨ هـ) ، ومحمد بن مزيد بن أبي الأزهر ومن شيوخ أبي الفرج الأصبهاني (— ٣٢٥ هـ) ... وسوى هؤلاء من اللغويين والنحويين . وكان أكثرهم من تلاميذ المبرد اللامعين وعرفوا مثله بكثرة المحفوظ ودقة الرواية وبغلبة الطابع العربي في ذلك كله بعيداً عن المؤثرات الثقافية التي كانت ترفد الفكر العربي من الفرس واليونان وتتجلى في نتاج فئة أخرى من الأعلام كالجاحظ وابن قتيبة وأبي الفرج الأصفهاني وقدامة بن جعفر وسواهم .. على

تفاوت في مدى هذا التأثر . وثمة شيوخ آخرون أخذ عنهم أبو علي ومنهم ابن شقير والمطرز وجحظة وابن قتيبة الابن ... غير أن أبرز من أخذ عنهم أبو علي أبو بكر بن دريد ، فقد كان شديد الملازمة له والأخذ عنه ، كما ملأ كتبه بأخباره وأقواله ومجالسه ، « وقد روى عنه كتابه الجمهرة رواية واعية متقنة وبخطه » . وعندما توفي حزن حزناً شديداً وقال : « لا أرجو أن أقيم بعده في بغـــداد . وهذا ما حدث بعد حين من الزمان ، فلم يلبث أبو علي في العراق سوى بضع سنين رحل بعدها إلى الأندلس . وقد كان آخر ما أورده أبو علي في كتابه « النوادر » قصيدة طويلة في رثاء ابن دريد ، وكأنه أراد بها أن تكون خاتمة لكتابه الجليل ودليلاً على ما يكنه لشيخه من محبة ووفاء .

تلاميذ القالي :

رحل أبو علي عن بغداد وهو يناهز الأربعين ، ولم يتح له أن يترك أثراً كبيراً في تلاميذه هنـــاك . على أن الحال كان على خلاف ذلك في الأندلس حيث ذاع فضله وكثر قاصدوه ولعل الحكم بن عبد الرحمن الناصر الأموي كان في طليعة الذين أفادوا من علمه . وأبرز من تتلمذوا على أبي علي إطلاقاً أبو بكر الزبيدي الأشبيلي ، وهو لغوي كبير اشتهر بكتابيه « مختصر العين » و « طبقات اللغويين والنحويين » ، « وكان إماما في الأدب ولكن عرف فضل أبي علي فمال اليه واختص به واستفاد منـــه وأقر له » . (٢) وتذكرنا ملازمة الزبيدي لأبي علي في قرطبة بملازمة أبي علي لابن دريد في بغداد . وفي مؤلفات الزبيدي جانب كبير مما أخذه عن

---

(١) مقدمة الجمهرة في اللغة ١٧ .

(٢) انظر معجم الأدباء لياقوت ٧ : ٣٠ ، وجذوة المقتبس للحميدي ١٥٤ .

شيخه وكان يجله إجلال أبي علي لابن دريد ، وفيه يقول[1] : « ولا نعلم أحداً من المتقدمين ألف مثله »

ومن النابهين الذين أخذوا عن أبي علي أحمد بن أبان اللغوي[2] ويذكر السيوطي أنه صنف كتاباً اسمه « العالم » في اللغة ويقع في مئة مجلد ، وقد رتبه على الأجناس ، وبدأ فيه بالفلك وختم بالذرة . وأغلب الظن أن هذا الكتاب حصيلة تأثر ابن أبان بالقالي في نزعته اللغوية ، ولعل صاحب « العالم في اللغة » كان يضع نصب عينيه كتاب « البارع في اللغة » لأبي علي ويحرص على مباراته في مادته وحجمه .

ثقافة القالي :

إن معرفتنا بشيوخ القالي تتيح لنا أن نقف على طبيعة ثقافتـــه ولون معارفه ، كما تلقي في الوقت نفسه ضوءاً على مذهبه في اللغة ومنهجـــه في التأليف . وقد رأينا أن معظم شيوخه في الموصل وبغداد كانوا نحاة مشهورين ومحدثين بارزين اتسموا بالطابع العربي الخالص وعرفوا بالضبط والإتقان .

وأكثر من ترجموا لأبي علي يشيرون إلى اقتداره في النحو ، فيصفـــه ياقوت بأنه أعلم الناس بنحو البصريين[3] ، ويجعله القفطي في عداد أنبـاه النحاة ويقول عنه : « إنه قرأ على ابن درستويه كتاب سيبويه أجمـــع ، واستفسره جميعه وناظره فيه ، ودقق النظر وكتب عنه تفسيره وعلل العلة ،

(١) معجم الأدباء ٧ : ٣١ .

(٢) هو أحمد بن أبان بن سعيد اللغوي الأندلسي ، ترجم له السيوطي وقال إنه كان عالماً إماماً في العربية حاذقاً أديباً سريع الكتابة . توفي سنة ٣٨٢ هـ .

(٣) معجم الأدباء ٧ : ٣١ .

وأقام عليها الحجة ، وأظهر فضل البصريين على الكوفيين .. »[١] وعلى الرغم مما توحي به هذه العبارات فإن النحو لم يستأثر باهتمام أبي علي إلى هذا المدى . ومع أن أبا علي ألف في النحو كتباً مثل كتـــاب « المقصور والممدود » وكتـاب « فعلت وأفعلت » ومشاكلها فإن هذه البحوث تعد أدخل في علم الصرف منها في النحو ، وطابعها لغوي أكثر منه نحوياً . كما أن مثل هـذه الكتب يقل في منزلته وأهميته عن سائر كتب أبي علي اللغوية وفي مقدمتها كتابه « الأمالي » ومعجمه « البارع » فنزعة أبي علي اللغوية بارزة في هذين الكتابين وغالبة على ما عداها . وعلى ذلك لا نعد أبا علي في عداد النحاة على علو كعبه في النحو على حين يتبوأ منزلة رفيعة بين اللغويين وأصحاب المعاجم في تراثنا العلمي . ولعل أبا علي في هذا الشأن أشبه ما يكون بالخليل بن أحمد الذي جعله بعض الذين ترجموا له في عداد النحويين البصريين دون اللغويين ، ومنهم أبو بكر الزبيدي في طبقاته ، على حين عرف الخليل باللغة وكان له فيه معجم العين كما كان لأبي علي معجم البارع . على أن أبا عليّ عرف لدى بعض القدماء بهذا الفضل وأنه « كان إماماً في علم اللغة متقدماً فيها متقناً لها »[٢] . وهكذا تكونت شخصية القالي على أنه إمام ثبت وحجة ثقة ، وأنه راوية للغة والأخبار في غاية التقييد والضبط . وقد عرف فضلاً عن ذلك بسعة العلم وقوة الحفظ وأنه كان يملي معارفه عن ظهر قلبه [٣] .

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١ : ٢٠٥ .
(٢) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ٢١٧ .
(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١ : ٢٠٥ .

كتب القالي :

ألف أبو علي كتباً عديدة مازال بعضها بعيداً عن متناول الأيدي بعد أن عبثت به الأيام . « وكانت كتبه في غاية التقييد والضبط والإتقان . وقد ألف في علمه الذي اختص به تآليف مشهورة تدل على سعة علمه وروايته »(١) ومن هذه المؤلفات التي نوردها كتب التراجم والفنون :

كتاب المقصور والممدود والمهموز : وقد بناه على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق . وقد وصفه القفطي في إنباه الرواة بأنه « مستقصى في بابه ، لايشذ عنه شيء في معناه ، لم يوضع له نظير » . ونعته الحميدي بأنه لم يؤلف في بابه مثله (٢) ، ويقع في عشرة أجزاء (٣) .

كتاب الإبل ونتاجها وما تصرف معها ، ويذكر أيضاً باسم كتاب الإبل ونتاجها وجميع أحوالها ، وهو في خمسة أجزاء .

كتاب حلى الإنسان والخيل وشياتها .

كتاب فعلت وأفعلت : وقد جعله ثلاثة أمثال ما كان للزجاج (٤) .

كتاب أفعل من كذا (٥)

كتاب مقاتل الفرسان

---

(١) بغية الملتمس ٢١٨ .

(٢) يرد اسم الكتاب في جذوة المقتبس بأنه كتاب المقصور والممدود والمهموز ، ١٥٦ . على حين توروده كتب التراجم الأخرى باسم كتاب المقصور والممدود .

(٣) فهرست ابن خير ٣٥٣ ـ ٣٥٥ .

(٤) فهرست ابن خير ٣٥٣ .

(٥) انفرد بذكره ابن خير وأسنده إلى شيوخه في رواية متسلسلة .

كتاب تفسير القصائد والمعلقات : ولعله هو نفسه كتاب : تفسير السبع الطوال الذي ذكره ياقوت .

كتاب الأمالي ، وذيل الأمالي والنوادر : وهو أجل كتبه وأشهرها .

كتاب البارع : وهو معجم مسهب في ألفاظ العربية .

وينسب إلى القالي أيضاً أنه شرح ديوان ذي الرمة . ولكن أكثر المصادر لا تشير إلى ذلك .

ويحسن بي أن أقف وقفة طويلة بعض الشيء عند كتابين بارزين من هذه الكتب وهما : البارع ، والأمالي .

كتاب البارع كتاب في اللغة [1] ، بناه أبو علي على حروف المعجم . وتذكر كتب التراجم أنه جمع فيه كتب اللغة ، وعزا كل كلمة من الغريب إلى ناقلها من العلماء وأنه اختصر الاسناد عنهم . ومما يؤسف له أن هذا الكتاب الجليل لم يصل إلينا كاملاً . وقد نشر الأستاذ (فلتون A. S. Fulton) الجزء المخطوط لديه في المتحف البريطاني مصوراً عام ١٩٣٣ ، ويقع في ١٤٨ صفحة وقدم له بالانكليزية . غير أن أحمل الكتاب أضعاف هذا الجزء . وقد ذكر ياقوت أنه يشتمل على ثلاثة آلاف ورقة وأنه يحتوي مائة مجلد وفي وفيات الأعيان وإنباه الرواة ان كتاب البارع يشتمل على خمسة آلاف ورقة . وأغلب الظن أن الذين تكلموا على البارع من المشارقة لم يصفوه من كثب ، ولذلك يبقى ابن خير وهو أندلسي عرف بتدقيقه أفضل من يحدثنا عن هذا المعجم الكبير . فهو يحدد حجمه بقوله : « إنه في مائة وأربعة وستين جزءاً ، عدد ورقها أربعة آلاف ورقة وأربعمئة ورقة وست

(١) انفرد حاجي خليفة في كشف الظنون بأنه ذكر للقالي كتاباً اسمه « البارع في غريب الحديث » ولم يذكر له البارع في اللغة ، ونظن أن هذا وهمٌ منه ، انظر ١ : ٢١٦ .

وأربعون ورقة » ويورد ابن خير مزيداً من التفصيل عن هـذا الكتاب فينقل عن الزبيدي تلميذ أبي علي قوله . « وهو في اللغات كلها ، زاد على كتاب الخليل نيفاً وأربعمئة ورقة مما وقع في (العين) مهملاً فأملاه مستعملاً ومما قلل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة ، ومما جاء دون شاهد فأملى الشواهد فيه » (١) .

ويكاد المصنفون يجمعون على إجلال هذا الكتاب ، فيقول فيه الحميدي إنه « كاد يحتوي على لغة العرب » (٢) . ويقول فيه ياقوت إنه « يحتوي على مائة مجلد لم يصنف مثله في الإحاطة والاستيعـاب » ، ثم ينقل عن الزبيدي قوله : « ولا نعلم أحـداً من المتقدمين ألف مثله » (٣) . وبرغم اشتهار هـذا المعجم لم يمل الناس إليه منذ زمن قديم ، يقول السيوطي : « ولم يعرجوا أيضاً على بارع أبي علي البغدادي » (٤) ولعل ذلك هو السبب في أننا لم تصل إلينا نسخة كاملة من المعجم (٥) ومهما يكن من أمر فإن الأندلس تبقى حتى القرن الرابع ليأتيها القالي من المشرق ويؤلف فيها كتاب البارع أول معجم عربي في تاريخها (٦) .

ونفهم مما قاله ابن خير وسائر من ترجموا للقالي ومن بعض أقوال أبي علي نفسـه ان مصنفات أبي علي في معظمهـا قد ألفها في الأندلس وأنهـا

---

(١) الفهرست ٣٥٤ .
(٢) جذوة المقتبس ١٥٦ .
(٣) معجم الأدباء ٧ : ٢٩ .
(٤) المزهر ١ : ٤٥ ، والمعجم العربي : حسين نصار ٢٨٧ .
(٥) المعجم العربي : حسين نصار ٢٨٧ .
(٦) ذكر ابن خير أن الزبيدي ألف كتاباً اسمه « المستدرك » من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي ، على كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، ٣٥٠ .

أهديت من صاحبها إلى الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وبخاصة كتاب الأمالي وكتاب البارع وكتاب فعلت وأفعلت . وقد ذكر ابن خلكان أن أبا علي اتخذ قرطبة مقاماً له وأن « أكثر كتبه بها وضعها ولم يزل بها »[1] .

كتاب الأمالي

كتب الأمالي :

الأمالي جمع إملاء على غير قياس . أو أنها جمع أملية كأغنية وأحجية وأثفية وأمسية . وقد ذكر السيوطي ان طريقة الإملاء أعلى وظائف حفاظ الحديث[2] . وقال حاجي خليفة يصف التأليف في هـذا الفن « هو أن يقعد عالم وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس ، فيتكلم بما فتح الله سبحـانه وتعالى عليه ، ويكتبه التلاميذ فيصير كتاباً ، ويسمـونه الإملاء والأمالي . وكذلك كان السلف من الفقهـاء والمحدثين وأهل العربية »[3] . فالأمالي كل ما يمليه شيخ على طلابه في العلوم والمعارف المختلفة من فقـه وتفسير وحديث نبوي ولغة ونحو وأدب . وهي في رأينا تطابق في مدلولهـا كلمة المحاضرة في العصر الحديث ، بل ان المحاضرة بهذا المعنى اصطلاح قديم إلا أنه لم يشتهر اشتهار الإملاء ؛ فقد ذكر أبو منصور الأزهري ان الأصمعي كان أملى ببغداد كتاباً في النوادر ، فزيد عليه ما ليس من كلامه ، فأنكر ذلك وقال : « خير العلم ما حاضرت به »[4] . وإذا كان ثمـة فارق بين

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٢٠٥ .

(٢) المزهر ٢ : ٣١٣ .

(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١ : ١٦١ .

(٤) انظر تهذيب اللغة ، المقدمة للأزهري .

الأمالي وبين المحاضرات فهو أن الأمالي تُملى في الغالب من الذاكرة وتلقى إلقاء مرتجلاً عن ظهر قلب ، على حين تتلى المحاضرة من أوراق أعـدت من قبل . وبتعبير آخر أن المحاضرة صورة جديدة ومتطورة للإملاء تتسم بالتركيز ووحدة الموضوع . وكثيراً ماكان يستعاض عن كلمة أملية أو إملاء بكلمة مجلس . وثمة كتب عديدة تحمل هذا الاسم أشهرها « مجالس ثعلب » وتعرف أيضاً بأمالي ثعلب ، والتداخل بين هذين الاصطلاحين أيضاً شائع . ففي أمالي القالي مثلاً نجد مادة الكتاب مقسمة إلى مجـالس ، وواضح أن المراد بكلمة المجلس مايلقى في جلسة واحدة ولعله يشبه الفصل أو الباب .

ومن هنا وتبعاً للمدلول الواسع لكلمة الأمالي كثرت الكتب التي تحمل هذا الاسم كثرة بالغة في تراثنا العربي على صعيد اللغة والنحو والأدب والفقه والتفسير ... الخ . وفي كتب التراجم والفنـون مثل فهرست ابن النديم وفهرست ابن خير وكشف الظنون وسواها مصنفات لا تكاد تحصى وتحمل جميعاً كلمة الأمالي عنواناً لها . ولا يعنينا من هذه الكتب إلاّ ماكان في اللغة والأدب وهو أيضاً كثير نعدد منه ولا نعده :

أمالي ثعلب (— ٢٩١ هـ) .

أمالي اليزيدي (— ٣١٠ هـ) .

أمالي الزجاج (— ٣١٦ هـ) .

أمالي ابن دريد (— ٣٢١ هـ) .

أمالي أبي بكر الأنباري (— ٣٢٨ هـ) .

أمالي الزجاجي (— ٣٤٠ هـ) .

أمالي القالي (— ٣٥٦ هـ) .

أمالي بديع الزمان الهمذاني (— ٣٩٨ هـ) .

أمالي المرزوقي (— ٤٣١ هـ) .

أمالي المرتضى (— ٤٤٦ هـ) .

أمالي أبي العلاء (— ٤٤٩ هـ) .
أمالي ابن الشجري (— ٥٤٢ هـ) .
أمالي الزمخشري (— ٥٣٨ هـ) .
أمالي ابن الحاجب (٦٧٢ هـ) .

ولسنا ندري على وجه الدقة متى عرفت تسمية الكتب بالأمالي واختيرت لمصنفات بعينها ، ولكننا نرجح أن كتب الفقه والحديث كانت أسبق من سواها في هذا الصدد . ونحن نرى مثلاً كتاباً في الفقه يحمل اسم الأمالي لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٧ هـ ، وهو صاحب أبي حنيفة [١] . وهذا يدل على أن التسمية عرفت منذ القرن الثاني ، ثم شاعت خلال القرنين الثالث والرابع . ولعل أول كتاب بارز في اللغة والنحو والأدب من هذه الزمرة كتاب « مجالس ثعلب » من رجال القرن الثالث ويبقى كتاب ثعلب هـذا إلى جانب أمالي القالي وأمالي ابن الشجري أشهر كتب الأمالي في هذا الموضوع .

منزلة أمالي القالي :

أما كتاب الأمالي لأبي علي القالي البغدادي فهو أشهر كتبه ، وبه عرف في مضمار التأليف . ولعله أشهر كتب الأمالي قاطبة . وكثيراً ما يطلق على أمالي القالي اسم (النوادر) . ولعل هذه التسمية من قبيل إطلاق الجزء على الكل . فالمعروف أن جزءاً من الكتاب يلي الأمالي كان مؤلفه قد ألحقه به وأسماه : « النوادر » كما أن الكتاب نفسه يعرف أيضاً باسم آخر هو « النوادر والأمالي » [٢] .

(١) طبع الكتاب في حيدر اباد سنة ١٣٦٠ هـ ويقع في نيف وسبعين صفحة .
(٢) انظر إنباه الرواة ١ : ٢٠٥ .

ولكتاب الأمالي منزلة رفيعة في تراثنا العربي، وقد عرف القدماء فضله وقدموه. يقول ابن خلدون في مقدمته: « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم: أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين، وهي كتاب الكامل للمبرد وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها ».

وفي تقديرنا أن كتاب الأمالي حظي بشهرة واسعة في الأندلس، وكان له صدى بعيد في محافلها الأدبية، لأنه أول كتاب من نوعه ألف في تلك الربوع [1] وغدا عمدة في موضوعه ونموذجاً يحتذى في غزارة المادة وغنى النصوص وإتقان الرواية ودقة الضبط. يضاف إلى ذلك ماأصاب أبا عليّ نفسه مؤلف الكتاب من حفاوة بالغة في إثر وصوله إلى الأندلس وخروج جمع حاشد من العلماء وجلة القوم لاستقباله، على رأسهم الأمير الحكم نيابة عن أبيه الخليفة الناصر وما من ريب في أن نباهة شأن أبي علي على هذا النحو قد انعكست على ما كان عليه في قرطبة وبالتالي على كتابه « الآمالي ».

وكان من أصداء هذه الشهرة أن أبا عبيد البكري الأندلسي [2] نشط

---

(١) ذهب الأستاذ أحمد أمين في مجلة « الثقافة » ١٥ اكتوبر ١٩٤٠ إلى أن أمالي أبي علي النواة الأولى التي بذرها القالي في الأندلس من علوم المشرق. وفي هذا غلو ولا يتفق والحقيقة. وهذا الرأي قاده إلى الوهم حين قال إن مشهوري الأدباء في الأندلس ومنهم ابن عبد ربه قد تخرجوا في مدرسة ابي علي. وهذا يعني أن القالي أسبق وجوداً وتأليفاً وان ابن عبد ربه بمثابة تلميذه، على حين توفي ابن عبد ربه قبل بلوغ أبي علي الأندلس، وقد ناقش هذا الرأي بدقة محمد سعيد العريان في تقديمه للعقد الفريد.

(٢) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري عالم في اللغة والأنساب والشعر والأخبار سكن قرطبة وتوفي سنة ٤٨٧ هـ.

لشرح الأمالي وتفسير نوادره في كتابين يحمل أحدهما اسم « اللآلي في شرح أمالي القالي »[١] ، والثاني « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه »[٢] . وعلى الرغم مما يوحي به عنوان الكتاب الثاني من تحامل ومن حرص لدى البكري على تسقط هفوات أبي علي فإن هذه التعليقات زادت شهرة الكتاب استفاضة . وإن تصدي البكري الأمالي ينطوي في الوقت نفسه على إقرار بأهمية الكتاب وجلال شأنه .

كما أن أحمد بن عبد المؤمن الشريشي المتوفى سنة ٥١٩ هـ عمد إلى اختصار أمالي القالي . ومن جهة أخرى حرص بعضهم على احتذاء كتاب الأمالي والنسج على منواله ، كما فعل اللغوي الوافد على الأندلس أبو العلاء صاعد بن الحسن الذي ألف للخليفة الأموي المنصور كتاب « الفصوص » على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي [٣] . وكان أبو علي قد أملى كتابه من حفظه في الأخمسة بقرطبة وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة ، ثم أهدى أماليه إلى الخليفة الحكم وأشاد بفضله في خطبة كتابه .

نشر الأمالي :

نشر كتاب الأمالي أول مرة في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٣٢٤ هـ[٤] .

---

(١) طبع في القاهرة سنة ١٩٣٦م بتحقيق جيد من قبل العلامة الهندي عبد العزيز الميمني . والكتاب يزيد في حجمه على كتاب الأمالي نفسه .

(٢) عمل على نشره الأب أنطون صالحاني وظهر في أربعة أجزاء بدار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ ، وطبع مع كتاب الأمالي نفسه ملحقاً بكتاب النوادر . انظر بروكلمان ٢ : ٢٧٩ .

(٣) انظر جذوة المقتبس للحميدي ٢٢٣ .

(٤) ذكر محمد عبد الجواد الأصمعي في خلال تصديره طبعة دار الكتب المصرية لكتاب الأمالي أن تاريخ نشره كان سنة ١٣٢٢ هـ ، على حين يذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧٩ أن نشره الأول كان سنة ١٣٢٤ هـ ، ويظاهره في ذلك عبد السلام هارون وهو في صدد تقديمه لأمالي الزجاجي . ونحن لم نوفق في الوقوف على الطبعة الأولى .

وقد صنع المستشرقان كرنكو وبيفان فهارس الأشعار التي وردت في كتاب الأمالي وأصدراها في كتاب عام ١٩١٣ بمطبعة ليدن . ثم طبع الأمالي ثانية في دار الكتب المصرية عام ١٩٢٦ . وبعد ذلك أعيدت طباعته مرات في القاهرة ودمشق وبيروت ، وأكثرها كان بطريقة التصوير عن طبعة بولاق أو طبعة دار الكتب . وطبعة دار الكتب تشير إلى أن كتاب الأمالي مؤلف من جزءين يليهما جزء ثالث هو « ذيل الأمالي والنوادر » ثم جزء رابع صغير هو كتاب « النوادر » .

ويبدو أن تقسيم كتاب الأمالي لم يكن على هذه الصورة لأن كتب التراجم تفيد أن صاحبه جعله ستة عشر جزءاً للعامة ، ثم زاد فيه فبلّغه عشرين جزءاً[١] . أما السيوطي فيقول في مقدمة (بغية الدعاة) انه اعتمد عليه في كتابه وأنه في خمسة مجلدات ، وقد كرر هذا القول في كتاب « المزهر » .

محتوى الأمالي :

قال أبو محمد بن حزم « كتاب نوادر أبي علي مبارٍ لكتاب (الكامل) الذي جمعه المبرّد ، ولئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعراً » [٢] . وقد وصف القفطي الكتاب أيضاً فقال[٣] : « وهذا الكتاب غاية في معناه وهو أنفع الكتب ، لأن فيه

---

(١) انظر تراث الإنسانية ، المجلد الخامس : العدد الأول ، بقلم الدكتور أحمد كمال زكي .
(٢) معجم الأدباء ٧ : ٢٨ .
(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١ : ٢٠٥ .

الخبر الحسن والمثل المتصرف والشعر المنتقى في كل معنى . وفيه أبواب من اللغة مستقصاة وليست توجد في شيء من كتب اللغة مستقصاة مثل ماهي في هذا الكتاب . وفيه القلب والإبدال مستقصى ، وفيه تفسير الإتباع وهو مما لم يستيقظ إليه أحد ، إلى فوائد كثيرة » .

على أن القالي نفسه يتكلم في خطبة كتابه على محتوى أماليه فيقول « وأودعته فنوناً من الأخبار ، وضروباً من الأشعار ، وأنواعاً من الأمثال ، وغرائب اللغات . على أني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته ، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته ، ولا فناً من الخبر إلا انتخلته ، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته .

ثم لم أخله من غريب القرآن وحديث الرسول ﷺ . على أنني أوردت فيه من الإبدال مالم يورده أحد وفسرت فيه من الإتباع ما لم يفسره بشر » .

فمادة الأمالي كما أرادها أبو علي أمشاج من الأخبار والأشعار والأمثال ، يتخللها شيء من تفسير القرآن وحديث الرسول . ويغلب على ذلك كله الطابع اللغوي الذي يميز الكتاب ، على حين أننا قلما وجدنا المؤلف يتعرض لقضايا في النحو ، وهو في ذلك يسير في « أماليه » وفي « بارعه » أيضاً على هدي أستاذه ابن دريد . ومن خلال سطور المقدمة هذه أيضاً يتجلى أبو علي مؤلفاً شديد الثقة بنفسه معتداً بعلمه وبخاصة في مجال التصريف . وليس هذا تبجحاً منه ، فما بين دفتي كتابه من نصوص قيمة أمر لاينازع فيه ويدل على أن صاحبه حوى خطير علوم العربية في عصره .

منهج الأمالي :

إن غزارة المادة في كتاب الأمالي سمة بارزة فيه ؛ فهو غني بنصوص الشعر والنثر مما يعز وجوده في كثير من كتب الأدب . وإذا تساءلنا

عن المنهاج الذي آثره القالي في كتابه القيم هـذا خاب أملنا . إنه أشبه بمنجم من المعادن الثمينة تناثرت كنوزه وتوعرت إليه الدروب . وهذه السنة في التأليف التي تضيق بالتزام الوضـوع وتحديد إطاره ابتدعها الجاحـــظ ووطد أسسها في كتبه وقلما استطاع المؤلفون بعده أن يتحرروا منها . وكان جديراً بالقالي وقد عاش في القرن الرابع أي بعد المرحلة الجاحظية الرائدة بأكثر من قرن أن يعمد إلى شيء من تنسيق الأشباه والنظائر في كتابه . فقد رأينا عدداً ممن عاصروه بل سبقوه كابن قتيبه وابن عبـد ربه يجنحون إلى نوع من التبويب في مصنفاتهم الكبيرة ، برغم بقـاء ظاهرة الاستطراد فيها . ويمكن القول إن أبا علي مازال في عصره — القرن الرابع الهجري — يمثل الاتجاه العربي الخالص ، وينطوي على سمات المحافظـة دون أن يسمح بمقدار كافٍ للمؤثرات الدخيلة لتؤثر في منهجه ، على حين نجد بين معاصريه علماء كانوا في الطرف المقابل كقدامة بن جعفر الذي اصطنـــع في كتابه « نقد الشعر » تقسيمات شديدة التحديد .

لقد كان القالي حريصاً على التمسك بتقاليد العرب العلمية الـتي كانت ترتكز لديه على شعور الوفاء لشيوخه العلماء وتتجلى في الرواية عنهم وإسناد المنقول إليهم . وهذه الظاهرة تبرز أمامنا في كتاب أبي علي وتشيع في سائر كتبه ؛ حتى إننا قلما نقع خلال الأمالي على فقرة لاتبـــدأ بإحدى العبارات التقليدية المألوفة : (حدثنـا ، أو ، أنشدنا ، أو ، قرأت على فلان . . .) . حتى إن الرواية عن الآخرين تكاد تطغى على ما عداها من أقوال المؤلف وآرائه . إن أبا علي في أماليه باهت الشخصية ، يصطنع مذهب رجال الحديث في الرواية والإسناد ، ثم يدلي أحياناً بدلوه بين الدلاء في تواضع جم .

إن طابع الإملاء واضح في كتاب الأمالي ، وكأني بأبي علي في مسجد قرطبة وحوله جمع غفير من المريدين والطلاب والمتأدبين ، وقد أخذ يسترسل في إيراد الأخبار ويتدفق في إنشاد الأشعار ، ثم يجلو عويصها ويفسر غريبها ويشرح غامضها . وقد تدعو فكرةٌ فكرةً أخرى خطرت بباله ، أو قصيدة تذكره بما يشبهها في عبارة وردت فيها أو معنى عرض خلالها ، فإذا الرجل آخر الأمر قد ابتعد عن موضوعه الأول أشواطاً . ولم يكن هذا الاستطراد في ذلك العصر عيباً ، بل كان مزية يراد منها أن تذهب عن الطلاب السأم وتتنقل بهم أو بقراء الكتاب في جواء مختلفة الألوان والطعوم .

ولعل من أسباب ضعف التبويب وقلة التنظيم في كتاب الأمالي أن مؤلفه كان يعتمد على طريقة الإلقاء والإملاء من محفوظه وعن ظهر قلبه . ولا ريب أن في هذا اقتداراً ينتزع الإعجاب . وقد قال القفطي في كتاب أبي علي [١] : « وأملاه ظاهراً من قلبه ... وارتجل تفسير ما فيه » . وأبو علي نفسه يعتد بغزارة محفوظه فيقول في خطبة كتابه : « فأمللت [٢] هذا الكتاب من حفظي » . ويؤثر عن القدماء أنهم كانوا يرون أن الحفظ أعلى منازل العلم ، وأن الحفّاظ في أسمى منزلة بين الفقهاء والمحدثين . لقد كان أبو علي من هذا القبيل ، وهو يباهي بأنه حوى علوم السلف ، غير أنه لم يكن يحرص على تجاوز هذا النطاق . ويبدو هذا الاعتداد أيضاً في خطبة كتابه حيث يقول .

« لما رأيت العلم أنفس بضاعة أعملت نفسي في جمعه ، وشغلت ذهني بحفظه ، حتى حويت خطيره ، وأحرزت رفيعه ، ورويت جليله ، وعرفت دقيقه ، وعقلت شارده ، ورويت نادره » . وهذا النص واضح الدلالة

(١) إنباه الرواة ١ : ٢٠٥ .

(٢) أمللت الكتاب على الكاتب إملالاً وأمليته عليه إملاءً أي قلته له فكتب عني ، والأولى لغة الحجاز وبني أسد والثانية لغة بني تميم وقيس . (المجلة)

على حرص أبي علي على الجمع والاستيعاب ، شأنه في ذلك شأن أكثر المؤلفين القدامى . وقد ذكر ابن بسام [١] أن أبا علي كان يقول لأهل الأندلس : « إن علمي علم رواية وليس بعلم دراية ، فخذوا عني مانقلت » وفي هذا القول ما يكشف عن طابع كتاب أبي علي فضلاً عن أنه ينم على تواضعه ، وهو ماهو بين العلماء في عصره .

وأغلب الظن أن أبا علي كان يأنس من أهل الأندلس وجمهور قرطبة شغفاً بأخبار المشارقة وإقبالاً على علمهم وأدبهم ، فيعمد من جهته إلى إرضاء هذا التطلع في نفوسهم ، ويحرص على أن يبهرهم بسعة محفوظه وغزارة علمه وكأنه يضع بين يديهم حصيلة ما حواه شيوخه وما آل إليه منهم . ومما يؤيد هذه الرغبة في نفسه أنه وهو المعدود على مذهب البصريين كان لا يتردد في النقل عن الكوفيين وأحياناً عن بعض الكوفيين غير الموثقين .

وينبغي أن نقر في الوقت نفسه أن أبا علي لغوي كبير وعالم جليل ، انفتح ذهنه على المعارف كلها دون تمييز بين مذاهب أهلها . وفي فهرست ابن خير ثبت طويل بأسماء الكتب التي حملها أبو علي معه إلى الأندلس ، من بينها كتب لعدد من علماء الكوفة كما أن أبا علي يكثر في أماليه من الرواية عن أبي بكر بن الأنباري وينقل أيضاً عن الكسائي وعن الفراء وعن ثعلب وسواهم من الكوفيين ، وينقل في الوقت نفسه عن سائر اللغويين والنحاة البصريين كالمبرّد والأخفش وابن درستويه وابن دريد والزجاج .

وفي رأي المستشرق بروكلمان أن أبا علي القالي كان أول من نقل علم الأدب إلى الأندلس [٢] وهذه منزلة رفيعة لم يبلغها أحد من المشارقة قبل

---

(١) انظر مقدمة كتاب الأمالي نقلاً عن جزء مخطوط من الذخيرة .
(٢) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧٧ .

أبي علي وبعده في مضمار اللغة والأدب ، ولا يضارعه فيها إلا زرياب في الموسيقي والغناء .

على أننا قد نظلم القالي إذا عددناه في كتابه جامعاً حافظاً للنصوص فحسب فالحق أنه فقيه لغوي قل نظيره ، مقتدر على شرح العويص من الألفاظ ، غير أنه بالإضافة إلى ذلك بل فوق ذلك ذواقة للنصوص ، بصير بجميل الشعر والنثر . ولعل قيمة كتابه الحقيقية إنما تكمن في هذه الناحية ، لأنه حوى زبدة فنون القول وآداب العرب . إن كتاب الأمالي في جملته مختارات أدبية رفيعة تتسم في الغالب بالأصالة والندرة ، وتنطوي في الوقت نفسه على الفائدة والمتعة .

الدكتور عمر الدقاق

ملاحظات

على الموسوعة العربية الميسرة [1]

- ٥ -

(حرف العين)

٢٨٤ — ص ١١٧٣ « عارف حكمت ... أسس مكتبة باستانبول ... » .

من الملاحظات : إن الموسوعة لم تذكر أنه نقل مكتبته إلى المدينة ، وما تزال فيها ، ولها شهرة بمخطوطاتها .

٢٨٥ — ص ١١٧٤ « عائشة بنت أبي بكر ... كانت أديبة شاعرة . »

من الملاحظات : أنها لم تكن شاعرة . . .

٢٧٦ — ص ١١٧٥ « عائشة بنت طلحة . . . أديبة عالمة ، عرفت بجمالها . . . » .

في الحديث عن عائشة بنت طلحة تقدم مسألة الجمال على غيرها ، وقد تكون عائشة أديبة بمعنى ما ، ولكن لا داعي إلى « عالمة » في موسوعة ميسرة ولا سيما إذا وردت الصفة من غير تخصيص .

٢٨٧ — ص ١١٧٥ « عائشة التيمورية ... لها ديوان اسمه حلية الطراز ولها كتاب نتائج الأحوال « أما ديوان شعرها التركي فاسمه كشوفة . . . وللآنسة مي دراسة مشهورة عنها حيث أطلقت عليها اسم شاعرة الطليعة » .

---

(١) نشر أول هذه الملاحظات في الصفحات التالية : ٢٨٥ و ٤٧٧ من المجلد (٤٢) و ١٠٤ و ٣٤١ و ٦٢٧ من المجلد (٤٣) .

أ ــ حلية الطراز ــ ط . نتائج الأحوال ــ ط . ب ــ كشوفه : شكوفه ــ ط . ج ــ ليست دراسة مي من الذيوع بحيث يمكن وصفها بأنها مشهورة . د ــ شاعرة الطبيعة : شاعرة الطليعة .

الكتيب في الأصل « محاضرة » ألقتها مي في جمعية « فتاة مصر الفتاة » ونشرت فصولاً منها في المقتطف . . . وأعادت دار الهلال نشر هذه الفصول وزادت عليها مابقي مخطوطاً منها ؛ وصدرت باسم « شاعرة الطليعة » . . . ويبدو أن التسمية من إطلاق دار الهلال مشتقة إياهـا من العوامل التي قدمتها مي لدراستها الشاعرة : « إن عائشة تيمور طليعة اليقظة النسوية في هـذه البلاد . . . » صدر الكتيّب في سلسلة كتاب الهلال . العدد ٦٨ .

٢٨٨ ــ ١١٧٥ « العباس : عم النبي ... وإليه يصعد العباسيون ... »

من اللاحظات : خير من « يصعد » : ينتسب (أو ينتمي) .

٢٨٩ ــ ص ١١٧٦ « العباس بن مرداس . . . شـاعر فارسي » :

. . . فارس .

٢٩٠ ــ ص ١١٧٦ « العباسيون . . . قسّم [الرشيد] دولته قبل وفاته بين أولاده : الأمين والمأمون والقاسم ... »

أصح من هذا أن يقال بين أولاده : محمد وعبد الله والقاسم ... » (أو الأمين والمأمون والمؤتمن ــ إذا كان لابد من ذكر الألقاب) .

٢٩١ ــ ص ١١٧٨ « عبد الله بن رواحة ... شاعر فارسي ... » : فارس .

٢٩٢ ــ ١١٧٩ « عبد الباقي العمري ... له ديوان الترياق الفاروقي ، وديوان أهلة الأفكار في معاني الابتكار و « نزهـــة الدهر في تراجم فضلاء العصر » .

أ ــ الترياق ــ ط . ولا نعرف عن الكتابين الآخرين شيئاً يذكر .

ب — تكررت ترجمة عبد الباقي في ثلاثة أماكن من الموسوعة مرة تحت « عبد الباقي » ومرة « العمري » وثالثة « الفاروقي ». وأقل مايمكن عمله في هذه الحالة أن يترجم له في مكان ، ويحال على هذه الترجمة في الأماكن الاخرى .

٢٩٣ — ص ١١٨٣ « عبد العزيز بن سعود ١٨٨٠ — ١٩٥٣ ... أسس أسرته بنجد محمد بن عبد الوهاب واضع المذهب الوهابي » .

لم يؤسس أسرته بنجد محمد بن عبد الوهاب ، فقد كانت قائمة قبل ذلك ، وكان أميرها محمد بن سعود في الدرعية . ومحمد بن سعود هو مؤسس دولة آل سعود وليس محمد بن عبد الوهاب . وأهم مايذكر من الأمر أن محمد بن عبد الوهاب لما ضاق ذرعاً ببلدته العيينة لجأ إلى الدرعية وفيها تم الاتفاق بينه ومحمد بن سعود ...

٢٩٤ — ص ١١٨٦ « عبدان : مدينة ج . غ إيران ... » : عبّادان .

٢٩٥ — ص ١٢١١ « العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله ... خلف ديوان شعر ، ألف عدة كتب في اللغة مثل : « التلخيص » وجمهرة الأمثال وشرح الحماسة .... وفي الأدب مثل « معاني الأدب » والمصون » ... الخ .

أ — لم يصل إلينا ديوانه . ب — لم تميز الموسوعة ما وصل من كتبه وما لم يصل ، وما طبع وما بقي مخطوطاً . جـ — المصون ، ليس للعسكري أبي هلال وإنما هو للعسكري أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد . وهو مطبوع . (الكويت . تح . عبد السلام محمد هارون ١٩٦٠) .

٢٩٦ — ص ١٢٢٠ « العقاد ... عني بابن الرومي ، وكتب عنه كتاباً كبيراً » : كتابا .

٢٩٧ — ص ١٢٣٦ « عمر أبو ريشة ... له عدة قصائد » : له ديوانان وعدة قصائد ...

٢٩٨ — ص ١٢٣٧ « عمران بن حطان ... كان ثقة صادقا ... » : ... صدوقا .

٢٩٩ — ص ١٢٣٨ « عمرو بن قميئة ... خرج مع امرئ القيس إلى قيصر ، ومات في الطريق ... ذكره امرؤ القيس في معلقته » .

لم يذكره امرؤ القيس في معلقته . وذكرت الرواية أن عمرو بن قميئة هو المقصود بقول امرئ القيس : بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه .... »

٣٠٠ — ص ١٢٣٨ « عمرو بن كلثوم ... له ديوان أشهره معلقته ... التي رددتها تغلب ... وأخذ شعراؤها يضيفون إليها ، فبلغت قريباً من ألف بيت ، وصل إلينا جزء منها » .

لا قيمـــة للخبر الأخير ، ولا داعي إلى ذكره ـ على أي حال ـ في موسوعة ميسرة .

٣٠١ — ص ١٢٣٨ « عمرو بن معدي كرب ... شاعر فارسي » : عمرو ابن معديكرب (وهذا الحظ أسير) شاعر فارس .

٣٠٢ — ص ١٢٣٨ « العمري ، عبد الباقي ... تزعم الأدب في أيامه ... » .

أ — مرت ترجمته على ص ١١٧٩ من الموسوعة وستمر تحت الفاء (الفاروقي).

ب — لم يتزعم الأدب في أيامه .

٣٠٣ — ص ١٢٤١ « عنترة ... شاعر فارسي » : فارس .

(حرف الغين)

٣٠٤ — ص ١٢٤٩ « غ (غين) ... قيمته في حساب الجمل ١٠٠ » : ١٠٠٠ .

٣٠٥ — ص ١٢٥٤ « الغزالي ... درس علوم الفقهاء » : الفقـــه .

٣٠٦ — ص ١٢٥٧ « الغلاييني ، مصطفى ... » لم تذكر له الموسوعة « الدروس العربية » وجامع الدروس العربية » .

(حرف الفاء)

٣٠٧ — ص ١٢٦١ « ڤاجنر ، ريتشارد . . . كما يعد من عباقرة الموسيقى فهو أيضاً في الصدارة من كتاب القصص » .

مسألة الشطر الثاني من الحكم فيها نظر .

٣٠٨ — ص ١٢٦٢ « فاجيه ، أميل . . . » : الصحيح فاگـ[ـه] أو فاجـ[ـه] لأنه Faguer .

٣٠٩ — ص ١٢٦٣ « فارس أو فارستان ... » لا داعي لـ « فارستان » ولعلها غير موجودة .

٣١٠ — ص ١٢٦٤ « الفاروقي ، عبد الباقي بن سليمان العمري . . . شغف بالشعر الصوفي ومدائح الرسول ... له ديوان مطبوع باسم « الترياق الفاروقي من منشآت الفاروقي ... » .

أ — تكررت الترجمة للمرة الثالثة . ب — من منشآت : في منشآت .

٣١١ — ص ١٢٦٧ « . . . وفيما يلي ثبت بأسماء سلاطين الفواطم . . . »

أ — سلاطين : الخلفاء . ب — الفواطم : الفاطميين .

٣١٢ — ص ١٢٧٥ « الفتوة نظام أخذت به بعض البلدان العربية ، يستهدف إعداد تلاميذ المدارس الثانوية للحياة العسكرية » .

لم تشر الموسوعة إلى « الفتوة » في التاريخ العربي وهو أمر جدير أن يرعى ، ولا إلى الفتوة في المعنى الاصطلاحي لدى المتصوفة والشطار ، ولا إلى دلالتها في عهد الخليفة الناصر العباسي (تنظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد على كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادي الحنبلي ـ بغداد ١٩٦٠) .

٣١٢ — ص ١٢٨٠ « فرانس ، أناتول ... » لم تذكر الموسوعة بين ما ترجم له إلى العربية « الآلهة عطاش » (القاهرة ، ١٩٥٢) .

٣١٣ — ص ١٢٨٣ « فرح أنطون ... ترجم « أنالا » لشاتوبريان » انالا : أتالا Atala .

٣١٤ — ص ١٢٨٧ — ٨ « الفرزدق ... هو أحد الشعراء الثلاثة الذين عدّهم النقاد أمراء الشعر الأموي . تفوق على زميله في الفخر ... » .

أ — من عدّهم أمراء ؟ أي من أطلق هذه اللفظة ؟ إنها ليست مما يطلقه القدماء . إنما هم فحول ...

ب — الشعراء الثلاثة . من هم ؟ كان المناسب أن تنص الموسوعة على أسمائهم : جرير والفرزدق والأخطل .

٣١٥ — ص ١٣٣٢ « فورستر ... روائي انجليزي ... اشتهر بالنقد الأدبي وبخاصة في كتابه أوجه الرواية .

ترجمت له مجموعة من القصص ، وترجم كتابه النقدي بعنوان « أركان القصة » .

٣١٦ — ص ١٣٣٤ « فوق الواقعية أو سيريالية ، حركة أدبية وفنية ... أسسها ... أندريه بريتون ... » .

أ — سيريالية : سريالية Surréalisme . ب — كان المفروض أن يعرف بها في حرف السين (سريالية) لأنها هكذا عرفت وشاعت . فاذا وصلنا إلى حرف الفاء ، قلنا — إذا كان لا بد من القول — : فوق الواقعية ينظر سريالية . ج — اندريه بريتون : أندرَ[ه] برتون André Bréton .

٣١٧ — ص ١٣١٣ « فلوبير ... أصيب بمرض عصبي جعله يمكث طويلاً في كرواسيه ... » .

كرواسيه : كرواسِ[ه] Croisset .

٣١٨ — ص ١٣٢٦ « فنون تشكيلية ... في العراق ... حافظ الدروبي ، وطارق مظلوم وجواد سليم وفاضل عباس واسماعيل الشيخلي ومحمود صبري » .

أ — كان الأولى أن يدل تسلسل الأسمـــاء على أمر نسبي من المهم والأهم ، ويكون المناسب في هذه الحالة البدء بجواد سليم .

ب — بين الأسماء التي ذكرتها الموسوعة من لم يبلغ درجة الذكر ووصفه بالقطب .

حـ — أغفلت الموسوعة أسماء لامعة مبدعة مثل فائق حسن ، خالد الجادر ، جميل حمودي ، كاظم حيدر ، محمد غني حكمت ، ضياء العزاوي ...

٣١٩ — ص ١٣٠٢ « فضولي ... اتصل بسليمان القانوني ... فهنـــأه بقصيدة كوفىء عليها بماهية شهرية ... » .

كلمة « ماهية » لاتليق بموسوعة وكان من الممكن استعمال : رسم أو مرتب أو راتب أو مشاهرة ...

٣٢٠ — ص ١٣١٢ « فلنسيا ... » : بلنسية .

٣٢١ — ص ١٣٥١ « فيلبي ، ... عين ... وزيراً للداخلية في العراق (١٩٢٠ — ١٩٢١) ولكنه استاء من سياسة الحكومة البريطانيـة إزاء ذلك القطر فاستقال ١٩٢٥ .

أ — لم يعين فلبي — ولا أي انجليزي آخر — وزيراً للداخليـة (أو غيرها) في العراق .

ب — إنما كان مستشاراً الداخليـة (١٩٢٠ — ١٩٢١) ثم خرج من العراق لدى مجيء فيصل . حـ — مسألة « استيـــاء » فيها نظر .

د — لم يبق في العراق بعد ١٩٢١ أي أنه لم يكن فيه حتى ١٩٢٥ .

٣٢٢ — ص ١٩٥٧ فيـني . . . فرنسي . . . من أشهر قصصه . . . شاترتون ... » شاترتون مسرحية وليست قصة .

٣٢٣ — ص ١٣٥٨ « ڤيت ... مستشرق فرنسي ... حقق الجزء الأول من كتاب « الخطط » للمقريزي .

لقد حقق ڤيت أكثر من جزء .

حرف القاف

٣٢٤ — ص ١٣٦٣ « القالي . . . ولد في منز اجرد بأرمينية » مناز جرد (أو مناز كرد . قال ياقوت « مناز جرد بعد الألف زاي ثم جيم مكسورة وراء ساكنة ودال ، وأهله يقولون بالكاف ... » .

٣٢٥ — ص ١٣٧٢ « قذر البواليع » : « تتركب الأنظمة الحديثة لنقل مياه القاذورات بالمدن إلى مجار من الحديد أو الخرسانة . . . ينطلق فيها قذر البواليع من التركيبات الصحية إلى مجاري المنازل ومنها إلى مجاري الشارع » .

أ — هل يكون قذر البواليع مصطلحاً ؟ ب — لم التخصيص بالبواليع ؟ حـ — البواليع : البلاليع .

٣٢٦ — ص ١٣٧٣ « قرامطة . . . حمدان ولقبه قرميطي أي أحمر العينين . . . » .

أ — قرميطي : القرمطي . ب — جاء لدى الطبري ، حوادث سنة ٢٧٨ « ... وكان في القرية رجل ... أحمر العينين شديد حمرتها ، وكان أهل القرية يسمونه : كرميته لحمرة عينيه وهو بالنبطية أحمر العينين » .

٣٢٧ — ص ١٣٧٤ « قرائيون » : قرّاءون .

٣٢٨ — ص ١٣٧٥ « قرطاچة » : قرطاجة .

٣٢٩ — ص ١٣٧٦ « قرطاچنة » : قرطاجنة .

٣٣٠ – ص ١٣٧٩ « القزويني ، زكريا . . . كتاب عجائب البلدان أو « آثار وأخبار العباد » وفي رواية ... آثار البلاد وأخبار العباد .

٣٣١ — ص ١٣٨٣ « قصة قصيرة ... ادجار آلن پو » : ألن Alan .

٣٣٢ — ص ١٣٩٣ «قممدينة...وسط إيران ... يحج إليها الشيعة » :يزورها.

٣٣٣ — ص ١٤٠٨ « قولي خان ، محمد هادي رضا خان » : رضا قليخان هدايت ...

(حرف الكاف)

٣٣٤ – ص ١٤٢٨ « الكاظمي ... له ... ديوان شعر في جزءين ... » : له ديوان صدرت منه مجموعتان (جزءان) وأعلن عن الثالثة .

٣٣٥ — ص ١٤٤٧ « كربلا . . . يحج إلى كربلا الآلاف من الزوار المسلمين » : يزورها .

٣٣٦ — ص ١٤٦٤ « الكعبة . . . ترسل كسوة الكعبة من مصر كل عام منذ عهد الملك الصالح نجم الدين إلى اليوم » : توقف الإرسال منذ حوالي عشر سنوات وأقامت المملكة العربية السعودية مصنعاً خاصاً بكسوة الكعبة .

٣٣٧ – ص ١٤٧٦ « كليلة ودمنة ... ترجمها عبد الله بن المقفع إلى العربية وابتغى في ترجمتها إرشاد الخليفة المنصور إلى ما يجب أن يتمسك به من خُلُق » .

الرأي شخصي وخاص وليس مقرراً ، فهو لا يصلح أن يعرض في موسوعة ميسرة ، وإذا كان لا بد من ذكره ، وجب الإشارة إلى ذلك وسبقه بكلمة مثل : ربما ، ويُظن ، ويمكن القول . . . الخ .

٣٣٨ — ص ١٤٩٦ « كوپيه . . . من أهم مسرحياته « في سبيل التاج » . . . التي ترجمها المنفلوطي إلى العربية » .

أ ـــ كوبيه : كوپَ[ه] Coppée . ب ـــ المنفلوطي لا يترجـــم ، ولا يعرف الفرنسية ، إنما يترجم له ، ويُلخص ويتصرف . ج ـــ جاءت في اللغة العربية على شكل قصة .

٣٣٩ ـــ ص ١٥٠٧ « كوكتو ... من أشهر مسرحياته « الأبناء المتعبون » ...

أ ـــ مسرحياته : قصصه . ب ـ الأبناء المتعِبون (بكسر العين ، إذا كان لا بد من الاحتفاظ بالترجمة) لأنها Les Enfants Terribles .

٣٤٠ ـــ ص ١٥٠٩ « كولت أديبة فرنسية ، أهم رواياتها « عزيزتي » .

عزيزتي : عزيزي (إذا كان لا بد من الاحتفاظ بترجمة الموسوعة . وإلا فهي حبيبي إذا أريد معناها ، وهي شيري Chéri إذا طلبت الدقة والصحة فلقد استعملت اللفظة علماً للفتى الذي أحبته بطلة القصة الكهلة Léa . وبهذا الاسم أي (شيري) نقل القصة إلى العربية محمد بدر الدين خليل (القاهرة . سلسلة الروايات العالمية ـ الدار القومية ـ) .

٣٤١ ـــ ص ١٩١٩ « كونديه أسرة أمراء فرنسية » : كوندَ [ه] Condé .

٣٤٢ ـــ ص ١٥٣١ « كيمياء قديمة (الخيمياء) » ، لا معنى لـ (الخيمياء) هنا ، ولا سبب .

(حرف اللام)

٣٤٣ ـــ ص ١٥٣٨ « لاروشفوكو ... شهرته الأدبية تعزى إلى الحكم والأمثال التي برع في نظمها .

أ ـــ إنها خطرات وأقوالٌ أكثر منها (حكماً وأمثالاً) ... Réflexions .

ب ـــ في نظمها : في كتابتها ، لأنها نثر وليست شعراً .

٣٤٤ ـــ ص ١٥٥٩ « لغة العرب ... الأب أنستاس ماري الكرملي ـ أصدر جريدة العرب ..... » .

لم يصدر « العرب » الكرملي ، وإنما أصدرتها السلطة الإنكليزية المحتلة ، واختارته محرراً لها ...

٣٤٥ — ص ١٥٧٧ « لوساج ، الن رينيه ... كتب قصة « مغامرات جيل بالاس ... » .

أ — .... رنَ[ـه] René . ب — «قصة جل بلاس Histoire de Gil Blas .

(حرف الميم)

٣٤٦ — ص ١٦٣١ « المأمون .... ولم ينتقل المأمون من مرو إلى بغداد قبل ست سنوات » . العبارة غير مستقيمة قد يكون أفضل منها : لم ينتقل المأمون من مرو إلى بغداد إلا بعد مضي ست سنوات على بدء خلافته ...

٣٤٧ — ص ١٦٤١ « متحف الآثار المصرية ... » .

كان المناسب في موسوعة عربية أن تعرف ـ إلى جوار تعريف متحف الآثار المصرية ـ بمتاحف الآثار الأخرى ، كالعراقية والسورية ... الخ .

٣٤٨ — ص ١٦٧٠ « مدحت باشا ... » .

ليس من المعقول أن تتحدث موسوعة عربية عن مدحت باشا دون الإشارة إلى تاريخه في العراق .

٣٤٩ — ص ١٦٧١ « مدرسة : ليس أدل على حب المصريين للعلم من أنهم أطلقوا على دور العلم والمعرفة : بيوت الحياة . وبيت الحياة علم عند الفراعنة على كل دار لها صلة بالكتابة والقراءة والثقافة ... وكلها تابعة للمعبد ...

... ولا نظن أن المدرسة في مصر القديمة اختلفت كثيراً عن مثيلتها أيام العصور الوسطى . فقد كانت كذلك في معابد اليهود ، ثم في كنائس النصارى ، وأخيراً في المساجد عند المسلمين » .

أ — المفروض في كلام على مادة « مدرسة » أن يبدأ ـ أو أن يتضمن

في الأول - تعريفاً لها وتحديداً لنشوء اللفظة تاريخياً عند العرب - ولكن شيئاً من هذا لم يقع . ب — بل إن الموسوعة لم تتعرض - كما يجب - إلى المدرسة عند العرب والمسلمين ، ويكفي أنها لم تقترب من اسم « النظامية » و « المستنصرية » . . . جـ — وليس المهم الاقتصار على الزمن الفرعوني وإهمال العهد العربي الإسلامي . . . د — مسألة « بيوت الحياة » فيها نظر . . .

٣٥٠ — ص ١٦٨٠ « مرجليوث . . . مستشرق انجليزي . . . حقق ونشر « ديوان الحماسة » . . .

كلام به حاجة إلى التحديد .

٣٥١ — ص ١٦٨٨ « مرميه ، پرسپر ... تعزى شهرته إلى القصص القصيرة التي كتبها ، ومنها كولومبا . . . وكارمن . . . »

أ — مرميه ، پرسپر : مَرِمَـ[ه] (أو مريـ[ه] ، پروسپر . Mérimée , Prosper

ب — كولومبا وكارمن منقولتان إلى اللغة العربية .

٣٥٢ — ص ١٧٣٠ « المقتدر بالله . . . وأسس الفواطم دولتهم » : الفاطميون .

٣٥٣ — ص ١٧٥٥ « منصور فهمي ، فيلسوف وباحث عربي ... » .

ليس منصور فهمي فيلسوفا وإن درّس الفلسفة والأخلاق بالجامعة المصرية.

٣٥٤ — ص ١٧٨٠ « موسوعة ... وكان تطور التأليف الموسوعي الذي يعتمد على الترتيب الأبجدي بطيئاً ... أبجدياً ... أبجدياً ... ثم ظهرت بين عامي ١٩١٣ — ١٩٣١ دائرة المعارف الإسلامية ... وبدأت سنة ١٩٥٤ لجنة من المستشرقين المحدثين بإشراف كرامرز وجيب وبرنارد لويس في إخراج طبعة جديدة ... أبجدياً ... »

أ — كل « أبجدي » : هجائي ب — درست الموسوعة الميسرة مانشر بعنوان « دائرة معارف » تحت حرف الميم (موسوعة) كأن الأصل هي

لفظة موسوعة وكأنها اللفظة التي لاتوجد سواها ، وهذا غير صحيح ، لأن لفظة « دائرة معارف أشهر وأقدم » ولذا حسن — في أقل تقدير — أن تكتب تحت حرف الدال : دائرة معارف تنظر موسوعة . ج — كرامرز : Kramers .

٣٥٥ ص ١٧٨٥ « الموطأ : « كتاب لابن مالك ... انظر ابن مالك ، أنس ص ٢٦ ... »

ابن مالك ، أنس : ابن أنس ، مالك (لأنه مالك بن أنس) .

٣٥٦ — ص ١٧٩٠ « مونتسكيو ... مؤلفه « الرسائل الفارسية » ... وروح القوانين ... »

أ — الرسائل الفارسية : رسائل فارسية Lettres Persannes مترجم إلى العربية ب - روح القوانين — ت

٣٥٧ — ص ١٨٠٠ « مئذنة ... وكانت تسمى منارة ... » : منارة (كانت ومازالت ...)

٣٥٨ — ص ١٨١١ « النابغة الجعدي ... هاجى ... أوس بن مغراد » : مغراء .

٣٥٩ — ص ١٨١٤ « ناجي ، إبراهيم ... أصدر ديوانين « وراء الغمام » ١٩٣٤ ، و « ليالي القاهرة » ١٩٤٤ ... »

نشر ابراهيم ناجي في حياته ديوانين من شعره ، هما : « وراء الغمام » .. وليالي القاهرة ... ونشرت له دار المعارف بعد وفاته ديواناً ثالثاً هو « الطائر الجريح » ثم تألفت لجنة لجمع شعره في « ديوان ناجي » فصدر عن دار المعارف سنة ١٩٦١ ولكن لهذا الديوان مشكلة فقد ضمنه الجامعون شعراً لغير ناجي ... »

٣٦٠ — ص ١٨١٦ « الناصر لدين الله : لقب عدة أمراء زيديين في اليمن ... »

أهملت الموسوعة « ناصراً » مهماً جداً هو الخليفة العباسي أبو العباس أحمد بن المستضيء المتوفى سنة ٦٢٢ من الخلفاء العظام — ولا يمكن أن يهمل .

(حرف النون)

٣٦١ — ص ١٨٢٩ « نرفال ، جيراردي كاتب فرنسي ترجم عن الألمانية كثيراً من المقطوعات الأدبية ، منها مسرحية « فاوست » ١٨٢٨ وبعض الأقاصيص مثل « بنات النار » ١٨٥٤ و « رحلة إلى الشرق » ١٨٥١ ، وأخيراً « أورليا ١٨٥٤ » .

أ — المقطوعات الأدبية ، منها مسرحية فاوست . . . : الآثار الأدبية ، ولعلها في الأصل : المسرحيات . ب — يفهم من نص الموسوعة أن كل هذه الآثار المذكورة ترجمات وهذا غير صحيح لأن بنات النار . . . الخ من تأليف نرفال . ج — إذا كان تاريخ كتابة « رحلة إلى الشرق » سنة ١٨٥١ — وهو صحيح فلم نؤخره عن « بنات النار » ١٨٥٤ !

٣٦٢ — ص ١٨٣٨ النظامية . . . وقام نظام الملك بالتعليم بالمدرسة . . . وأساتذتها جميعاً من أهل السنة . . . » .

أ — لم يكن نظام الملك معلماً . . . ب - السنّة : الشافعية .

٣٦٣ — ص ١٨٥٦ « نوح باني سفينة نوح . . . » .

لم تشر الموسوعة إلى أنه « نبي » .

٣٦٤ — ص ١٨٦٨ « نيكلسون . . . مستشرق انجليزي . . . ألّف « التاريخ الأدبي للعرب » : تاريخ الأدب العربي Aliterary his. of The Arabes .

(حرف الهاء)

٣٦٥ — ص ١٨٩٦ « هرون الرشيد ... ثار عليه الخوارج بقيادة الوليد ابن طريف الشاربي » : الشاري .

٣٦٦ — ص ١٩٠١ « همدان : مدينة ... بغربي إيران : همذان .

٣٦٧ — ص ١٩١٤ « هورثون نثانيل .. روائي وكاتب قصصي أمريكي » هوثورن Hawthorne .

٣٦٨ — ص ١٦١٤ « هوجو . فكتور ... من أشهر مسرحياته هرناني ، الترجمة الإنجليزية ١٨٣٠ ... ومن أعظم رواياته : البؤساء ١٨٦٢ « عربها الشاعر حافظ إبراهيم » .. دفن في البانثيون .. »

أ — Hernani مهمة في تاريخ المسرحية الفرنسية (الرومنطيقية) ، وعام ١٨٣٠ تاريخها بالفرنسية وهو أولى أن يذكر من تاريخ الترجمة ...

ب — حافظ إبراهيم لايعرف اللغة الفرنسية ولم يعرب البؤساء وإنما ظهر باسمه تعريب لجزء يسير من هذه الرواية الضخمة . إن الذي عربها هو منير بعلبكي وجاءت مترجمة في خمسة مجلدات (بيروت . دار العلم للملايين

ج — البانثيون : البانتيون Panthéon .

٣٦٩ — ص ١٩٢٩ « هيكل ، محمد حسين ... ولد في قرية هيكل بمركز السنبلاوين بمصر ... »

جاء في كتاب « الدكتور محمد حسين هيكل » الذي أشرف عليه أحمد لطفي السيد (القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٥٨ وكتب فيه حياة محمد حسين هيكل الدكتور حسين فوزي النجار : « ولد .. لأبوين من صميم الريف المصري بقرية كفر غنّام إحدى قرى مديرية الدقهلية . وكان أبوه حسين أفندي سالم هيكل سيد قومه وعشيرته ... »

(حرف الياء)

٣٧٠ — ص ١٩٩٧ يونس بن حبيب لغـوي ولد ببلدة (جبل) بالعراق ٠٠٠٠ ٠

جبل : جَبُّل ، قال ياقوت : جَبُّل (بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها ولام) بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي ٠٠٠ » — وينظر نور القبس المختصر من المقتبس ص ٤٨ : « قيل إنه من أهل جَبُّل » ؛ أنساب السمعاني (الجَبُّلي) ، ابن خلكان (يونس) ٦ : ٢٤٥ ٠

الدكتور علي جواد الطاهر

كتاب «الجوهرتين»

Al Hamdani: Kitab al Gauhratain Al 'Atiqatain Al - Ma'iatain von Christopher Toll, Uppsala 1968 P. 389.

الهمداني أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب لسان اليمن ، كما اختار أن يلقب نفسه ، طود من أطواد الثقافة العربية ، ومع شهرته لدى المستشرقين فانه يكاد يكون مغموراً بين بني قومه من العرب ، إلا منذ عهد قريب حيث تصدى لنشر بعض مؤلفاته أحد أبناء اليمن وعلمائها : الأستاذ المحقق محمد ابن علي الأكوع الحَوالي الحميري ، فنشر الجزأين الأولين من « الإكليل » وقام بتحقيق « صفة جزيرة العرب » ، فأعَدَّهُ للنشر ، ومن قَبْلُ طُبع هذا الكتاب طبعتين ، وطبع الجزآن : الثامن والعاشر من كتاب الإكليل.

والهمداني كما قلنا في كلمة سابقة ، واسع جوانب المعرفة ، وهو مع ما قاساه في حياته من ضيق وحبس وتعذيب ، لم يترك مجالا من مجالات العلم المعروفة في عهده إلاّ ألّفَ فيه ، فقد ألف في الفلسفة « سرائر الحكمة » ، وصل إلينا منه الباب العاشر في التنجيم ، ويصف صاعد الأندلسي وابن القفطي الهمدانيّ بأنه فيلسوف ، ويقول صاعد في « طبقات الأمم » ما معناه : إنه لم ينبغ في الفلسفة من العرب سوى اثنين : أبو اسحاق الكندي ، وأبو محمد الهمداني ، وقد عرفه علماء الأندلس قبل أن يعرفه المشارقة ، فوصلت إليهم كتبه ، واستفادوا منها ــ كما هو الحال مع أبي علي الهجري ــ قبل أن تصل إلى المشارقة .

ومن مؤلفات الهمداني غير « الإكليل » كتاب « الحرث والحيلة » وكتاب « الإبل » وكتاب « القسي والنبال » وكتاب « القنوى » وكنت ظننت أن هذه الكلمة محرفة عن القوس ، غير أني رأيته يذكر هذا الكتاب في مؤلفاته .

ومن أهم كتبه : كتاب « الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء » ، ولعل هذا الاسم المسجوع الطويل مما نفر الباحثين عن العناية به ، وقد سبق أن تحدثت عنه في هذه المجلة [1] ، وتحدثت عنه في مجلات أخرى ، وقمت بنسخه ، وهيأته للنشر ، غير أن ذلك لم يتهيأ لي ، بل تهيأ لأستاذ غربي جليل هو (كريستوفر تُول) .

وقد قام بترجمة الكتاب إلى الألمانية ونشر الترجمة مع النص العربي ، في منشورات (جامعة ابسالة سنة ١٩٦٨) بعد أن وضع للكتاب مقدمة باللغة الألمانية ، تحوي موجزاً عن تحصيل الناشر ثم ترجمة موجزة للهمداني فوصفاً المخطوطات الثلاث المعروفة من الكتاب ، مخطوطة جامعة ابسالة ومخطوطة مكتبة المستشرق الألماني (جلازر) في مكتبة ميونخ ومخطوطة مكتبة امبروزيانا في ميلانو في إيطاليا والأولى أوفى النسخ ، ثم دراسة مفصلة عن موضوع الكتاب.

وقد بذل المحقق الناشر جهداً كبيراً في إبراز الكتاب بأوضح صورة استطاعها .

ولا يدرك ذلك الجهد إلا من اطلع على النسخ المخطوطة ، فرأى رداءتها ، وكثرة التحريف فيها وإيراد كثير من الكلمات غير معجمة ، ومنها كلمات لأسماء آلاتٍ في التعدين ، لا تحوي كتب اللغة التي وصلت إلينا وصْفها ، وأخرى كلمات أعجمية كان الهمداني يتلقاها مشافهة من المعَدّنِينَ في اليمن ، وكانوا من الفرس ، وكلمات عربية فصيحة يوردها الهمداني ، ولكنها مما تَضَنُّ معجمات اللغة بإيضاحه ، والهمداني لغوي كبير مترجَم في كتب اللغويين ، وشاعر تصدّى العالم النحوي ابن خالَوَيْه ، لجمع ديوانه في ثلاثة أجزاء وشرحه .

(١) المجلد السادس والعشرون ص ٥٣٥ — وما بعدها — .

ولقد بلغ من حرص الناشر الكريم أنه عمد إلى الكتاب ، فنسخه بخط يده ، ثم صور ما نسخ ، لكي يسلم من هفوات الطبع ، وأشار في ذيل الصفحات إلى اختلاف النسخ ، وخرّج بعض الأشعار ، ورجع إلى مصادر كثيرة عربية وعجمية ، فاستحق بعمله التقدير ، كلّ التقدير ، من كل ذي غيرة على التراث العربي . ولعل من مظاهر التقدير لعمل هذا الأستاذ الكريم أن نشير إلى بعض ملاحظات قد تفيده أو يستفيد بها من يقتني مطبوعته ، مؤازرة في إخراج هذا الكتاب بأقرب صورة إلى الأصل ، وندع الحديث عن موضوعه ، فقد أوضحناه في كلتنا المنشورة قديماً في هذه المجلة .

آ — لقد استعصى على الناشر الفاضل فهم كلمات كثيرة من هذا المخطوط فاكتفى بأن وَضَعَ في أمكنتها نقطاً ، وأشار إلى صورها في الهوامش ، وكنا نرى إبقاء الصورة بوضعها من الكتاب ليكون أسهل للقارئ ، خاصة وان الناشر الكريم صور ما كتب تصويرا ، ولهذا لا يستعصي عليه أن يصور الكلمة الغامضة نفسها .

ب — ظهر لي عند مطالعة الكتاب أن الناشر الفاضل أورد كلمات على غير وجهها الصحيح ، فرأيت ذِكرَ بعضها مما أميلُ إلى صحته ، أما الكلمات التي أخالف الناشر الفاضل في كيفية نطقها ، مما عول فيه على إحدى النسخ ، فإنني أترك ذكرها لوقت آخر . وسأشير إلى صفحات النص العربي حسب ترقيم الناشر الكريم .

١ — ص ١ : (فلم يغل) : (فلم يعل) . بالعين المهملة .

٢ — ص ١ : (يأكلون التراث . . . يحبون المال) : (وتأكلون التراث . . . وتحبون المال) آية قرآنية معروفة .

٣ - ص ٢ : (فصحاء مسكين العرب) : (فصحاء مساكين العرب) .

٤ — ص ٢ : (يقول العرب بينهم) : (تقول العرب بينهم) .

٥ — ص ٢ : (آتيته) : (أَتَيْتُهُ) .

٦ — ص ٢ : (يرضىً عيوَضاً) : (يُرْضَى عِوَضاً) .

٧ — ص ٢ : (وكانَ أساورة ... الفرَسِ) : (وكأنَّ أساورة ... الفُرْسِ) .

٨ — ص ٢ : (وجعله من أعظم ما في هذه الدنيا دينار) : أرى حذف كلمة (دينار) إذ لا محل لها .

٩ — ص ٣ : (وان كل لــــا) : (وإنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا) . وهي آية قرآنية .

١٠ — ص ٣ : (ويقول العرب) : (وتقول العرب) ، والهمداني يكرر هذا التعبير كثيراً .

١١ — ص ٣ : (ولا ان بكلمة التقوى) : (ولا أنَّ لَنَا بكلمة التقوى) كما في نسخة ابسالة وبها يستقيم المعنى .

١٢ — ص ٣ : (إن الذين يكنزون) : (والذين يكنزون) كما في القرآن الكريم .

١٣ — ص ٣ : (ثم ما يُشَدِّد الله ... ما يشدد) : (ثم ما تَشَدَّدَ الله .. ما تَشَدَّدَ) .

١٤ — ص ٣ : (وما اوتيتم .. لتربوا ... يربوا) : (وما آتيتم .. ليربو .. يَرْبُو ..) آية قرآنية .

١٥ — ص ٤ : (عدى بن زيد) : (عدى بن بَدَّا) . وانظر ضبط هذا الاسم في كتاب « الإكمال » لابن ماكولا ١ : ١٢٣ .

١٦ — ص ٤ : (من بركة ابن مارية) : (من تركة ابن مارية) . والقصة معروفة .

١٧ — ص ٤ : (ابن الرقيات) : (ابن قيس الرقيات) . الشاعر المعروف .

١٨ — ص ٤ : (وشروه وباعوه) : الصواب حذف الواو : (باعوه) .

١٩ — ص ٤ : (يَكْمُهُ المُنْتقدُ) : (بِكَفِّ المُنْتَقِدْ) .

٢٠ — ص ٥ : (كانت بَشَّارَةً وَنَهَّارَةً) : (كانت تُشَارُهُ وتُهَارُهُ). والحديث معروف ، وانظره في « تاج العروس » ٣ : ٢٩٥ و ٥٣٨ و ٦١٩ .

٢١ — ص ٥ : (فزوجتُها حَوْرانيا) : (فزوَّجَها حُورانيا) .

٢٢ — ص ٥ : (من زالها) : (من بزالها) . انظر « التاج » ٧/٢٢٦ .

٢٣ — ص ٥ : (تُنْشِقُ) : (تَنْشَقْهُ) .

٢٤ — ص ٦ : (كل أيَّانٍ) : (كل إبَّانٍ) .

٢٥ — ص ٦ : (يُراجِع ماء الدر) : (تَرَاجُعُ ماءِ الدُّرِّ) .

٢٦ — ص ٦ : (لا يشرف) : (لا يشرب) .

٢٧ — ص ٦ : (رَقْمُ وَجْهِهِ) : (رُقِيِّمَ وَجْهُهُ) .

٢٨ — ص ٦ : (وما قرب منها) : (وما غزر منها) .

٢٩ — ص ٦ : (والجبيل والعراق) : (والجَبَلُ والعراق) .

٣٠ — ص ٧ : (ما كان أعلاه) : (ما كان أغلاه) .

٣١ — ص ٧ : (مجذوف) : (محذوف) أي مقصوص الذنب .

٣٢ — ص ٧ : (في مولد) : (في مولود) .

٣٣ — ص ٨ : (وقيل : إبل المسجد) : (وقيل : بَلِ المَسْجِدُ) .

٣٤ — ص ٨ : (وثاني عسجد) : (وَبَابَيْ عسجد) . من أرجوزة الرداعي التي وصف بها طريق الحج .

٣٥ — ص ٨ : (فيا له بيتاً) : (فيا له بيت) .

٣٦ — ص ٨ : (وجه العروس) : (وَجْنَةُ العَرُوس) .

٣٧ ـ ص ٨ : (وهي الذاهب) : (وهي الذاهيب والمذاهب) .

٣٨ ـ ص ٨ : (تَضُمُّ اللام) : (يضَمّ اللام) .

٣٩ ـ ص ١٠ : (الأحلول مدرها وهي النزاعة) : (الأُمْلول ميدْرَهاً ، وهي البراعة) .

٤٠ ـ ص ١٠ : (وسمي الرجال) : (وسمي الرجل) .

٤١ ـ ص ١٠ : (ومثل قول (...) وغيره : ما نبأ مصمئل) : (ومثل قول التأبط : خَبَرٌ ما نَابَنَا مُصْمَئِلُّ) وهذا شطر بيت من قصيدة تأبط شراً ، التي أولها :

إنَّ بالشِّعْبِ الذي دُون سَلْع لقتيلاً دمه ما يُطَــــلُّ

والهمداني يعبر عن تأبط شراً ، بقوله التأبط كما في شرحه لقصيدته الدامغة ، الورقة ٤٠ النسخة الخطية .

٤٢ ـ ص ١٠ : (أو دقت علَيْها) : (أو دَقَّتْ عِلَّتُهَا) . وقد فسر الهمداني العلة في الكتاب .

٤٣ ـ ص ١١ : (واني شاري البعير) : (وأَيْنَ شاري البعير ؟) .

٤٤ ـ ص ١١ : (فحسنه ما قلتُ) : (فَحَسَنَةٌ ما قَلَّت) .

٤٥ ـ ص ١١ : (في ما) : (في من) .

٤٦ ـ ص ١١ : (اسماء من اسماء) : اسْماً من أَسْماء) .

٤٧ ـ ص ١٢ : (الفلال) : (القلال) .

٤٨ ـ ص ١٣ : (وكل ناقٍ من الجواهر) : (وكل ناهي من الجواهر) وكلمة ناهي يستعملها الهمداني .

٤٩ ـ ص ١٤ : (دائمة مستديمة) : (دائمة مستحيلة مستديمة) .

٥٠ ـ ص ١٤ : (جلجلت الأرض) : (خلخلت الأرض) .

٥١ ـ ص ١٥ : (وناسبه انصالاً طبيعيا) : (ومَاسَّهُ اتِّصَالاً طبيعياً) .

٥٢ – ص ١٦ : (من اوجه بين) : (مزاوجة بين) .

٥٣ – ص ١٦ : (تسمة درجات) : (تسع درجات) .

٥٤ – ص ١٦ : (فكذلك) : (فذلك) .

٥٥ – ص ١٦ : (فصارت رأس الحمل) : (فصارت من رأس الحمل) .

٥٦ – ص ١٦ : (الحلاوة فيه) : (الحرارة فيه) .

٥٧ – ص ١٧ : (حَرّان) : (حارّانِ) .

٥٨ – ص ١٨ : (يسر اجزاء الحجر) : (يشدّ أجزاء الحَجَر) .

٥٩ – ص ١٨ : (القَهر من هذه الحجارة) : (الفِهْر من هذه الحجارة) .

٦٠ – ص ١٨ : (قبول صدقه) : (قبول صُدْفَةٍ) .

٦١ – ص ١٨ : (كالحجر التي) : (كالحجرة التي) .

٦٢ – ص ٢٠ : (على الذات والدوام) : (على الدأب والدوام) .

٦٣ – ص ٢٠ : (ما لا انقض له) : (ما لا انقضاء له) .

٦٤ – ص ٢٠ : (وفسادها) : (وفساده) .

٦٥ – ص ٢٠ : (النيازك والذوائب) : (النيازك والذوانب) .

٦٦ – ص ٢٢ : (بقي الحرارة) : (نفى الحرارة) .

٦٧ – ص ٢٢ : (حرارة الاج) : (حرارة الأجسام) .

٦٨ – ص ٢٢ : (البخارات المتجدد) : (البخارات المتجددة) .

٦٩ – ص ٢٣ : (في اجزاء نفسه) : (في أجزاء اليبس) ،

٧٠ – ص ٢٣ : (يعلان مكة) : (بِعِعْلاةِ مكة) .

٧١ – ص ٢٤ : (الأعْوج) : (الأعْرَج) .

٧٢ – ص ٣٤ : (افيقمة) : (أُفَيْعِيَة) وهو منهل معروف . ويسمى (أفاعية) أيضاً .

٧٣ – ص ٢٤ : (وابناء شمام) : (وابنا شمام) وهما اثنانِ .

٧٤ ـ ص ٢٥ : (يعلمونه) : (يعملونه) .

٧٥ ـ ص ٢٥ : (بخار) : (بخارى) .

٧٦ ـ ص ٢٦ : (مدحج) : (مذحج) .

٧٧ ـ ص ٢٧ : (حجرته) : (حجزته) .

٧٨ ـ ص ٢٧ : (معروفا) : (معروقا) ـ بالقاف ـ .

٧٩ ـ ص ٢٧ : (وتعصد) : (وتفصد) .

٨٠ ـ ص ٢٨ : (لا تتفرق) : (لا تتعرق) .

٨١ ـ ص ٢٨ : (خلة التيسر) : (حلة التبر) .

٨٢ ـ ص ٢٨ : (على العرقين) : (على العراقين) .

٨٣ ـ ص ٢٩ : (وتبرأ منه الذهب) : (وتتبين منه أسنة الذهب المتشزر) .

٨٤ ـ ص ٢٩ : (أوْ أنّ) : (أوَّانُ) .

٨٥ ـ ص ٣١ : (فنفع اللهب) : (فيقع اللهب) .

٨٦ ـ ص ٣١ : (يحذو اللسان) : (يحوذ اللسان) .

٨٧ ـ ص ٣١ : (حتى ينفياها) : (حتى ينقياها) .

٨٨ ـ ص ٣٢ : (النار اذا انسفرت) : (النار إذا استعرت) .

٨٩ ـ ص ٣٢ : (يسبك) : (مسبك) .

٩٠ ـ ص ٣٢ : (ثم (...) : (ثُمَّ أُحيرَّ الماء والهواء) :

٩١ ـ ص ٣٢ : (ولم ... الماء والهواء) : (ولم ينقص احرارا شديدا يطير الماء والهواء) .

٩٢ ـ ص ٣٢ : (نصفي بيضة كينمتين) : (نصفا بيضة كثيفتين) .

٩٣ ـ ص ٣٢ : (المتضمدة ... يضمد) : (المتصمدة ... يصمد) .

٩٤ ـ ص ٣٢ : (فاذا عم الصف الدواء) : (فاذا تَمَّمَ ألْصَقَ الدواء) .

٩٥ ـ ص ٣٣ : (تضايع لقوم) : (بضائع لقوم)

٩٦ — ص ٣٣ : (الاذهاب والتنور) : (الأذْهَابُ والتّبُّورُ) .
٩٧ — ص ٣٣ : (حتى يصل البرودة ويرتقي) : (حتى تصل البرودة وترتقي) .
٩٨ — ص ٣٣ : (خلة الزاج ودقته) : (جلة الزاج ودقته) .
٩٩ — ص ٣٣ : (بمائيه ذلك) : (بمائيهِ ذلك) .
١٠٠ — ص ٣٤ : (حدة الزاج على قدر حدته) : (حدة الزاج على قدر جِدّتِه) .
١٠١ — ص ٣٤ : (كيلا تزل ... شيء) : (كيلا يَزِلَّ ... شيء) .
١٠٢ — ص ٣٤ : (وان استحسن أحدهما) : (وإن استخشن أحدهما) .
١٠٣ — ص ٣٥ : (الجرش) : (الجَرْس) .
١٠٤ — ص ٣٥ : (ما ينقس (..) واحدة ما (..) : (ما ينقص في المعاد ، وأخذ ما يزيد) .
١٠٥ — ص ٣٥ : (بما صف ... المطرقة) : (بما صف الا بما رَمَى بأثر المطرقة) .
١٠٦ — ص ٣٥ : (من جهات فيها) : (من جهاتٍ : منها) .
١٠٧ — ص ٣٦ : (قدر مُرَازَةٍ) : (قدر مُرادِهِ) .
١٠٨ — ص ٣٦ : (بما انفق) : (بما اتَّفَقَ) .
١٠٩ — ص ٣٦ : (الشعث والكلام) : (الشغب والكلام) .
١١٠ — ص ٣٧ : (حبة واكثر) : (حبة ، حبة ، واكثر) .
١١١ — ص ٣٧ : (لنا ان نطير) : (لها أن تطير) .
١١٢ — ص ٣٧ : (ذلك يستوي) : (ذلك لأن يستوي) وانظر ص ٣٨ .
١١٣ — ص ٣٧ : (وآمن السباك أن يسوط) : (ومن السباك من يسوط).
١١٤ — ص ٣٨ : (اثنان مستعملان ورأيته) : (اثنان : مُسْتَعْمَلٌ ، ورأيته) .

١١٥ — ص ٣٨ : (تبلغ قدرهن) : (يبلغ قدرهن) .

١١٦ — ص ٣٩ : (حذو القِيدَّة بالقِيدَّة) : (حذو القُذَّة بالقُذَّة) .

١١٧ — ص ٤٠ : (وايها حذاءها) : (وانها حَذَّاهُمَا) .

١١٨ — ص ٤٠ : (كما يتهيأ) : (كما نَبَّهْنا) .

١١٩ — ص ٤٠ : (وايها جذرها) . (وأنها جذرها) .

١٢٠ — ص ٤٠ : (الارادة) : (الإدارة) .

١٢١ — ص ٤٣ : (جادت النار) : (جارت النار) .

١٢٢ — ص ٤٣ : (فقد فيه) : (فقد أصبح فيه) .

١٢٣ — ص ٤٣ : (سوى فذلك) : (سواء ، فذلك) .

١٢٤ — ص ٤٤ : (خمسة في نسق سوى : (خمسة ، في نسق ، سوى
محمد بن ابراهيم بن محمد محمد بن ابراهيم بن محمد بن
ابن عبد الرحمن،من محمد عبد الرحمن بن محمد ،
إلى محمد) . من محمد إلى محمد) .

١٢٥ — ص ٤٤ : (وان ما ذهبوا له) : (وان ما ذهبوا إليه) .

١٢٥ — ص ٤٤ : (لا يسقط عن خطَّائين): (لا يسقط عَنْ خَطَأٍ بَيِّنٍ).

١٢٦ — ص ٤٤ : (ولا يبين ضعفه) : (ولا يميز ضعفه) .

١٢٧ — ص ٤٥ : (فاذا استوت على انها) : (فاذا استوت ، علم أنها) .

١٢٨ — ص ٤٥ : (من الكفةالأخرى) : (في الكفة الأخرى) .

١٢٩ — ص ٤٦ : (كل ما يفرغ من هذه) : (وكل ما تفرع من هذه) .

١٣٠ — ص ٤٧ : (أو رجحانات) : (أو رجحان) .

١٣١ — ص ٤٨ : (أو حزن كثيرة الوعث) : (أو طرق كثيرة الوعث) .

١٣٢ — ص ٤٨ : (ينادى الى هذا) : (يَتَأَدَّى إلى هذا) .

١٣٣ — ص ٤٨ : (من المياه إلى الريق) : (من المياه إلى الرنق) .

١٣٤ — ص ٤٨ : (ما يستوى بين الناس) : (ما يسوي بين الناس) .

١٣٥ — ص ٤٨ : (اجز الساق البتراء وقدر بما) : (أخَّر الساق والسر ، وقدر له بما) .

١٣٦ — ص ٤٨ : (على ما (...) اليه) : (على ما يغلب إليه) .

١٣٧ — ص ٥٠ : (ثمَّ : باب حكومة) : (تمَّ باب حكومة) .

١٣٨ — ص ٥٠ : (فينتقي أن يعرف ذلك ، فأما) : (فينبغي أن يُعرف ذلك تماماً ، فأما) .

١٣٩ — ص ٥٠ : (فإن تصور) : (بِأَنْ تَصَوَّر) .

١٤٠ — ص ٥١ : (فحينئذ تجنَّى) : (فحينئذ يَجيء) .

١٤١ — ص ٥١ : (تقابض من جنوبها) : (تفايض من جنوبها) . من فاضَ .

١٤٢ — ص ٥١ : (بصرف بئس) : (بصرف نفيس) .

١٤٣ — ص ٥١ : (فاذا استوت هَنْدمة) : (فاذا استوت هندَمَتْ) .

١٤٤ — ص ٥١ : (ولا تغدو به الجفنة) : (ولا يعدونه الجفنة) .

١٤٥ — ص ٥١ : (فنشع ما كان) : (فتتبع ما كان) .

١٤٦ — ص ٥١ : (حَيَّ به) : (حَيِيَ به) .

١٤٧ — ص ٥١ : (يخل من القلة) : (نَخَلَ من القلة) .

١٤٨ — ص ٥١ : (ثخينا ، لأن) : (ثخيناً ، ليِّناً) .

١٤٩ — ص ٥٣ : (لما في أول) : (كما في أول) .

١٥٠ — ص ٥٣ : (ثم يعتمد) : (ثم يَعْمَدُ) .

١٥١ — ص ٥٣ : (ثم عره عليه وعمد) ، (ثم عره عليه عَرْعَرَةً غَليظةً ، وعمد) .

١٥٢ — ص ٥٤ : (إذا يصح) : (إذا نضج) .

١٥٣ — ص ٥٤ : (فورت) : (فُوِّرَتْ) .

١٥٤ — ص ٥٤ : (امرأته قد احب) : (امرأته فقال : أُحِبُّ) .

١٥٥ — ص ٥٤ : (ففرغ) : (ففزع) .

١٥٦ — ص ٥٥ : (ليست بعده) : (ليست نقده) .

١٥٧ — ص ٥٥ : (عن بعض المفسدين) : (عن بعض المفسرين) .

١٥٨ — ص ٥٥ : (وجففت ...) : (وجففت بتبن) .

١٥٩ — ص ٥٦ : (الثخان) : (التجاب) . والتجاب — ككتاب — ما أذيب مرة من حجارة الفضة ، أو الخط من الفضة يكون في حجر المعدن (اللسان) ، وهو المقصود هنا - كما يفهم من الكلام .

١٦٠ — ص ٥٧ : (النفيس الغزير) : (النفيس العزيز) .

١٦١ — ص ٥٧ : (الرداة) : (الرداءة) .

١٦٢ — ص ٥٧ : (المشاش) : (الأمشاش) .

١٦٣ — ص ٥٧ : (ولا يشاءه) : (ولاشاه) . من اللاشاة

١٦٤ — ص ٥٧ : (فعلى عصر ذلك) : (فعلى عكس ذلك) .

١٦٥ — ص ٦٠ : (المرتضاة الحروف) :(المرتضاة لأن أصلها الحروف) .

١٦٦ — ص ٦٠ : (فهي باهية) : (فهي ناهية) أي جيدة .

١٦٧ — ص ٦١ : (الجب وهو الجرة) : (الحُبُّ وهو الجَرَّة) .

١٦٨ — ص ٦١ : (في الارطال) : (من الأرطال) .

١٦٩ — ص ٦١ : (لأنها تهوى) : (كأنما تهوى) .

١٧٠ — ص ٦١ : (وقد تهرج) : (وقد يهرج) .

١٧١ — ص ٦٢ : (فعزل جله) : (فعزل ما به) .

١٧٢ — ص ٦٢ : (الاخلاص) : (الخلاص) .

١٧٣ — ص ٦٢ : (على حَدَّهِ) : (على حِدَّةٍ) .

١٧٤ — ص ٦٢ : (بلا ماءٍ) : (تَلاءَمَا) . من الملاءمة .

١٧٥ — ص ٦٣ : (وبه نفس ، وأما الذي لا نفيس فيه) : (وبه نقش ، وأما الذي لا نقش فيه) .

١٧٦ — ص ٦٣ : (تعمد الطبخ) : (بعد الطبخ) .

١٧٧ — ص ٦٣ : (النطائق) : (التطابق) .

١٧٨ — ص ٦٤ : (الخوذ والاوز) : (الجوز واللوز) .

١٧٩ — ص ٦٤ : (مدلق بمرار البقر) : (مُدَيَّف بمرار البقر) .

١٨٠ — ص ٦٤ : (استفرع) : (استفزع) .

١٨١ — ص ٦٤ : (كيّه الحديدُ) ، (كَيَّةُ الحَديد) .

١٨٢ — ص ٦٤ : (ويسمر البائنة من الفلوق ... فيصرف فلقها) : (وتسمر البالية العلوق ... فيصرف علقها) .

١٨٣ — ص ٦٤ : (النفرى) : (النضرة) .

١٨٤ — ص ٦٤ : (متصعد من بخاره) : (فتصعد من بخاره) .

١٨٥ — ص ٦٥ : (عند الناس منه) : (عند اليأس منه) .

١٨٦ — ص ٦٦ : (فتطلى ما شبب) : (فتطلي ما شئت) .

١٨٧ — ص ٦٧ : (تحوذ .. وتنقي) : (يُجَوِّدُ .. ويُنَقّى) .

١٨٨ — ص ٦٧ : (ولُوِّنَ فثاب) : (ولُوِّنَ ، فبان) .

١٨٩ — ص ٦٧ : (كانت أقل اخذها) : (كانت أقل لأخذها) .

١٩٠ — ص ٦٧ : (شيء ما كان) : (شيء مما كان) .

١٩١ — ص ٦٧ : (سحائب زَبَد) : (سحائب رُبْدٌ) .

١٩٢ — ص ٦٨ : (قد فني عنه) : (قد فثأ عنه) .

١٩٣ — ص ٦٨ : (لين اللوز) : (لِأَنَّ اللوز) .

١٩٤ — ص ٦٨ : (تكسر من .. ميمانه) : (تكسر من جيدتيه ميمانه).
١٩٥ — ص ٧٠ : (تحسر وترفع) : (تُحَسَّنُ وتُرْفع) .
١٩٦ — ص ٧٠ : (تبين عتق الذهب) : (يبين عتق الذهب) .
١٩٧ — ص ٧٠ : (وكما ما هو أخف) : (وكل ما هو أخف) .
١٩٨ — ص ٧١ : (اول الكواكب ضررا) : (أقل الكواكب ضررا).
١٩٩ — ص ٧١ : (قصب المُصَّان) : (قصب المُضَّار) . وقد ذكره في « صفة الجزيرة » ص ١٩٣ .
٢٠٠ — ص ٧١ : (قوم يعصونه) : (قوم يُعَضِّرونه) .
٢٠١ — ص ٧٢ : (اللوابي تحججن) : (اللواتي يحججن) .
٢٠٢ — ص ٧٢ : (وجعلوا ما في ارجل) : (رجعوا الى ما في أرجل).
٢٠٣ — ص ٧٢ : (بحال اليبس) : (لحال اليبس) .
٢٠٤ — ص ٧٣ : (الحدة .. خلق) : (الجدة .. خلق) .
٢٠٥ — ص ٧٣ : (في البقاء) : (في النقاء) .
٢٠٦ — ص ٧٤ : (اعظم يدينون به) ، (أعظم ما يدينون به) .
٢٠٧ — ص ٧٥ : (صدى المطرقة) : (صدأ المطرقة) .
٢٠٨ — ص ٧٤ : (من بمديومئذ) : (من بعد ، ويومئذ) آية قرآنية .
٢٠٩ — ص ٧٦ : (واما علة لأنّ) : (واما علة لين) .
٢١٠ — ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ : (التفييت) : (التفتيت) .
٢١١ — ص ٧٧ : (لينبت الدينار) : (ليثبت الدينار) .
٢١٢ — ص ٧٧ : (فإنّ فيه الميل) : (بانَ فيه الميلُ) .
٢١٣ — ص ٧٧ : (وان جل طوقه) : (وان كان جل طوقه) .
٢١٤ — ص ١٧ : (وسيرهُ الوضعات) : (وشَرهُ الوضعات) .
٢١٥ — ص ٧٨ : (فمن صدر السكة وحفظها) : (فمن حدر السكة وخفضها) .

٢١٦ — ص ٧٨ : (ومن يضرب السكة ورفعها) : (ومن نصب السكة ورفعها) .

٢١٧ — ص ٧٨ : (يلقاها الراحة) : (تلقاها الراحة) .

٢١٨ — ص ٧٨ : (وما كان هشافي ..) : (وما كان هشاً من وجه) .

٢١٩ — ص ٧٨ : (وحِدة الاكرع مع بناتها) : (وحيدَّةُ الاكرع مع ثباتها) .

٢٢٠ — ص ٧٨ : (تحينا) : (ثخينا) .

٢٢١ — ص ٧٨ : (يصلدم ما تحته) : (يصادم ما تحته) .

٢٢٢ — ص ٧٨ : (فيخرج الأسفل على...) : (فيخرج الأسفل على الثبات) .

٢٢٣ — ص ٧٩ : (فقد يصدأ ولكنه) : (فقد يُضيء ولكنه) .

٢٢٤ — ص ٧٩ : (بنقوش) : (يَتَقَوَّسُ) .

٢٢٥ — ص ٧٩ : (وقد يعرف الحديد) : (وقد يعرق الحديد) .

٢٢٦ — ص ٧٩ : (لأن البقار) : (لأن النعال) .

٢٢٧ — ص ٧٩ : (ثم ريزج وصقل) : (ثم رُنْدِجَ وصُقِلَ) .

٢٢٨ — ص ٨١ : (النحلي) : (التخلي) اسم موضع في صفة جزيرة العرب ص ١٩٠/٢٤٠ .

حمد الجاسر

وصف الطبيعة في شعر الصنوبري

— ٢ — (١)

ويمكننا أن نعتبر الحقل الرابع من شعر الصنوبري والذي سنقف عنده وصف المياه وما يجري هذا المجرى . ويستوقفنا هنا وصف الثلج ووصف البركة ووصف نهر حلب المسمّى بقويق .

على سبيل العموم ، نلاحظ قلّة احتفال الصنوبري بوصف المياه من خلال المقطّعات التي في الذيل . ولعل نهر قويق استنزف منه قريحته في هذا الموضوع فما خرج إلينا في سواه بغير العاديّ . والمياه توصف عنده عادة بالصفاء والرقة ، وتشبّه بالفضّة والبلّور ، وسطوحُ مجاميعها تتغضّن إذ ما لمستها يدُ الريح كأنها الدروع الزرديّة .

ونحفل بوصف الثلج لقلّة ورود هذا المعنى في الشعر العربيّ ، ولا حرج . فقلة الثلج في العالم العربي أدّت إلى ذلك ولا غرو . في مقطوعة يردُ بها ذكر الثلج لم يأتِ الصنوبري على شيء سوى ذكر الثلج وتسميته وتشبيهه بالورد الأبيض :

وردُ الربيع مورّد والورد في تشرين أبيض

وله قصيـــدة أخرى في وصف سقوط الثلج ، يتّصلُ الوضع الطبيعيّ فيها بالوضع الإنساني . فندفُ الثلج يحدو الصنوبري لأن يُهيبَ بصحبه إلى اللهو والقصف . على أن ما يستوقف الناظر حال النهار الضاحك المتقنّع بغلالة من فضة . وهو ولا شك معنىً مطروق من كلا شقّيه ليس لشاعرنا فضل سوى الجمع تحت عنوان جديد . وخلاف هاتين القطعتين « الثلجيتين » لا نعثر له على شيء في الموضوع .

(١) نشر أول المقال في الصفحة ٨١٠ من المجلد (٤٣) .

أمّا احتفالنا بوصف البركة فلورود معنىً رائع فيه . وقد جاء خلال وصف الشاعر لرياض حلب الشهباء حيث يذكر أن وسط ساحات هـــذه الرياض بركاً ماؤها زجاج مُذاب ، ولُجَين مسبوك ، ولصفــاء ماء هذه البرك تغدو :

هي الجوّ من رقّـةٍ غير أنّ مكان الطيور يطير السمكْ

لقد حاول البحتري أن يقول قبل الصنوبري مثل هذا المعنى في قصيدته بوصف بركة المتوكّل :

يَعمْنَ فيهـا بأوساط مجنّحة كالطير تنقضُّ في جوٍّ خوافيها

ولكنّه قصّر عن معنى شاعرنا .

وأما الصنوبري ونهر حلب فبينهما غرام وعشق . فهو لا يرى من هذا النهر إلاّ المحاسن والفضائل . رياض قويق نضرة مزهرة عَبِقَة ، تحرّض على حثّ الكؤوس ، وماؤه نقيّ كالبلّور يلمع كلَمْعِ اللؤلؤ ، وهو يأبى أن يحمل على ظهره السفائن ، وله من العلاجيم (١) ما يسبّح بحمد الله له . ولكنّ الذي أقضّ مضجع شاعرنا أن هذا النهر « إذا جدّ جِدّ الصيف » غادر الماءُ جِسْمَهُ فبدا شحيحاً . فيحاول الصنوبري أن ينتحل له العِلَل ، فيقول أوّلاً بمرضه :

قويق على الصفراء ركّبَ جِسْمُهُ رُباه بهـــذا شُهَّدٌ وحدائقُهْ

إذا جدّ جِدّ الصيف غادر جِسْمَهُ ضئيلاً ، ولكنّ الشتاء يوافِقُهْ

ولكنّ المرض من العيوب ، وأيُّ حُسْنٍ يكمنُ في جسدٍ رُكّب على الصفراء ! فيذهب يلتَمِسُ له العذر من العاطفة السامية ، الحب :

(١) العُلْجوم جمعها : علاجيم ، وهو الضفدع الذكر ، وله معان أخرى . (المجلة)

وقد عابه قومٌ وكلُّهمو له على ما تعاطوه من العيبِ، عشّاقُ

يهابُ قويقٌ أن يُملّ فإنّما يقيم زماناً ثم يمضي فنشتاقُ ...

كأنّ هذا النهر محبٌّ خفيف الظلّ يزور غبّاً كي يزداد حبّاً :

فلو دام في الحبّ الوصالُ ولم يكُنْ فراقٌ ولا هجرٌ لما اشتاق مشتاقُ..

ولكنّ قويقاً قويٌّ في الشتاء ، فما بالُ حسّادِه يعذلونه :

تذهبُ أمواجُه كخيـلٍ شقرٍ لها وسطها ذهابُ

وهل موجه كالخيل وحسب ، إنّه إن شمّ ريح الشتاء تاه وتكبّر :

وناسبَ دجلة والنيل والـ ـفرات بهاءً وحسناً وطيبا

ولكنّ ماءهُ شحيح في الصيف . ما باله هكذا ؟ إن هذا ليؤلم شاعرنا ويُحزنه . لا بُدّ وأن يعتذر لهذا . وما له من حيلة أو مخرج سوى الخفوتِ في الاعتذار . فيرثي له ويعتذر عنه ويثير الشفقـة فيك علّك تصفح وتعفو :

وإن أقبلَ الصيف أبصرته ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا

إذا ما الضفادع ناديـنه قويقُ، قويق، أبى أن يجيبا

وهنا تكمن الشاعرية .

اسم هذا النهر لا يوحي بالموسيقى اللفظية مطلقاً . ومن جهة أخرى ، يُعتبر نقيق الضفادع مزعجاً ممقوتاً . ولكن شاعرنا استعار الواحد للآخر ، ومزجهما ، فأعطاك أبدع صورة وأدقّ تعبير تنقّ الضفادع له ... وهكذا تقول : قويق قويق ... ولكنه لا يجيب ! فهل هنالك من عاتب عليه بعد الآن ؟ ولا حاجة لنا بعد هذا كلّه أن نشير إلى بلاغة التجريد والتشخيص والوجدانية فيما مضى .

أما الحقل الخامس من شعر الصنوبري فهو وصف المدن والأماكن . وهو ضربٌ من الوصف لايهمنا كثيراً إلا بالقدر الذي تناول فيه وصف رياضِ هذه الأماكن والمدن . وقد ألمحنا لذلك في مكانه حيث تحدّثنا عن شعره في الرياض ، صناعيّةً وطبيعية .

والحقل الأخير الذي سنشير اليه هو ذلك النوع من القصائد التي تحدّث بها على سجيّتهِ فصوّر شعوره النفسيّ تجاه الطبيعة وأظهر ذلك واضحاً جليّاً . وهذا نهجٌ وجدانيّ صرف .

الشعور العام الذي يرافق هذا الحقل في تلك القصائد واحدٌ في التسلسل ، واضحٌ لا لبس فيه ولا غموض . ولنتمثّل على ذلك ببعض المقاطع لنخلُصَ إلى حكم عامٍ بشأن هذا الحقل الأخير . يقول الصنوبري في إحدى قصائده بعد مطلعِ غزلٍ :

لا تلمني بالرّقتين ودعني إنّ قلبي بالرقتين رهينُ

يا نديمي ألا تحنّ إلى القصف فهذا أوانُ يبدو الحنينُ

إلى أن يقول :

كم غدا نحو دير زكّى [1] من قلبٍ صحيحٍ فَراحَ وهو حزينُ

ويُتبِعُه بستّة أبيات في الغزل .

ومن قصيدة أخرى يفتتحها بالوصف حتى يقول :

أيا متنزّهي في دير زكّى ألم تكُ نزهتي بك نزهتينِ

إلى أنْ يصل بقوله :

(١) ضبط المؤرخون كلمة : (زكّى) بالزاي المفتوحة مع الكاف المفتوحة المشددة ، ثم ألف مقصورة أو ألف ممدودة وكلاهما صحيح (الديارات للشابشتي ص ١٣٩ كوركيس عوّاد) . والبيت مضطرب الوزن (المجلة)

ترانا واصليك كما عهدنا وِصالاً لا ننغصه بِبَيْن

ألا ياصاحبيّ خُذا عِناني هواي ، سَلمتما من صاحبين

لقد غصبتنيَ الخمسونَ فتكي وقامت بين لذّاتي وبيني

وكان اللهو عندي كابنِ أُمّي فصرنا بعد ذاك كعلتين

وبين الحينِ والحين يطلع علينا ببيتٍ كهذا :

حُثّ الكؤوس فإنّ هذا وَقْتُها وَصِل الرياضَ فإنّ ذا إبّانُها

أو كهذا :

ذَهّبْ كؤوسك يا غلامْ فإن ذا يومٌ مُفَضَّضْ

أو كهذا :

فاشربْ على ذا الشقيق كاساً تشرب عقيقاً على عقيقِ ...

اللاحَظُ أنه لو حصرنا كلّ شعره الذي في هذا الموضوع فإنا نرى قصائده الوجدانية المتصلة بالرياض ، تبدأ بالحنين إلى الطبيعة ثم إلى وَصْلِها من أجل اللهو والقصف . فالأمر إذاً أمرُ لذّاتٍ وشهوات ، وما الطبيعة عنده الاّ مُنْتَجَعٌ للشربِ وحثّ الكؤوس . فهل نَغْلُو إذا قلنا إن نزعته نواسيّة الجذور . ولكنه يشدّد على الروض بدل التشديد على الخمر ومفعولها كما هي الحال عند زعيم هذه المدرسة ؟ هذا غلوّ ولا شك ، ولكن لا بدّ أن يكون تحته شيء من الصحّة والصواب .

* * *

(١) في الديارات ص ١٤٠ : لعلتين ، وربما كان الصحيح : فصرنا بعد ذلك علتين . (المجلة)

ونختم هذا البحث بعد أن تدرّج بنا إلى هذا الحد. وقد كان بالإمكان أن يطول ويتشعّب . نختتمه بكلمــــة موجزة قصيرة حول أسلوب الصنوبري الشعريّ .

أوّل ما يلفت الانتباه سرعة العطاء الشعري ، وازدحام الصور الوصفيّة في مخيّلة الشاعر حتّى تطغى عليه ، فإذا به يذكر الأشيـاء ذكراً دون وصفها . والسرعة تورثه أحياناً التدفق في العطاء ، وهذا غير ما سبق ، لأنه يتأنّى على الصورة ويتفنّن في إخراجها والتعبير عنها فهو إن قال :

أقحوان وسوسنٌ وشقيق وبهارٌ يُجْنَى وآذريونُ

نلمس السرعة في العطاء الشعريّ حيث ازدحام الصور . وهو إن قال :

وكأنّ محمرّ الشقيق إذا تصوّب أو تصعّــدْ

أعلام ياقوتٍ نشرن على رماحٍ من زبرجَــدْ

نلمس تدفّق التعبير لصورةٍ واحدة .

وممّا يسترعي الانتباه أيضاً الجزالة وشدّة الأسر في شعره مما يُنتج فكرة سرعة العطاء لديه وتدفّق التعبير .

أمّا ألفاظه فسَلِسَةٌ على العموم ، وقلّما تقع له على اللفظة النافرة أو الحوشيّة المَخْرَج . فكأنما الكلمات لسلاستها « يأخذ بعضُها برقاب بعض » . انظر مثلاً هذا البيت :

وبدا النرجس البديعُ كأمــــثال عيون ترنو إليها عيونُ

حتّى إن الوقفة القصيرة ما بين صدر البيت وعجزه قد اختفت في العديد من أبياته فيغدو البيتان أو الثلاثة أو الخمسة أحياناً لا يفصل بينها من ناحية تدافع الألفاظ إلاّ هذه القافية الميرنان . وإذا أنت أمام مقطوعـة تسلبُ

النَفَس وتأسرُ الأعصاب . وأمّا تناسق اللفظ والمعنى من جهةٍ وتوافق اللفظ والمعنى والموسيقى الشعرية من ناحية أخرى فقد رأينا مثالاً رائعاً على ذلك في نداء الضفادع لقويق .

وهنالك ظاهرة بارزة بجلاء وهي إغراقه في استعارة ألوان الجواهر والأحجار الكريمة ، وتشبيه ألوان الزهر والنبتِ بها . وهـذا ضرب من التشبيه الخيالي . فلو أخذنا وصفه للنرجس حين يقول :

أقداح ياقوت تعاطيكهـــا أناملٌ من لؤلؤ رطبِ

نرى أنه جمع ما بين الأقداح والياقوت والأنامل واللؤلؤ الرطب . والأربعة تُدرك بالحسّ المادي منفصلةً ، ولكن متى جُمِعت تعذّر ذلك وأصبح يقع ضمن إطار الخيال . وأغلب خيالاته من هذا النوع ، قريبة المنال بعيدة عن الغموض والتكلّف . وقلّما يقع شاعرنا في الغلوّ .

أما الصفة الغالبة على شعر الصنوبري من حيث منطقية الوصف فنحن لا نرى ذلك عنده كما يُرى عند البحتري مثلاً من حيث أخذ الأخير المعنى العام الموصوف ثم الدنوّ شيئاً فشيئاً إلى الجزئيّات الدقيقة ، ولم يكن الصنوبري ممن يأخذ المعنى ويشتطّ في تقليبه على وجوه ، كما كان يفعل أبو تمّام ، وإنما نرى معاني الصنوبريّ وصورَه تستقلّ الواحدة عن الأخرى وتتقدّم أو تتأخّر دون إخلالٍ بالاطـار العام . على أن همّه الأول كان دائماً نقل الصورة مستطرفةً إذا أراد التصوير الموضوعيّ ، وإذا أراد بث شعور التعاطف مع الطبيعة أغرق في الوصف الوجدانيّ .

* * *

قبل أن ننتقل إلى القصائد المختارة في الذيل أودّ أن أسطّر بعض الحقائق عن حياة الصنوبري .

هو أبو بكر أحمد بن محمد الضبّي (وليس الصيني) الصنوبري . كان في بلاط سيف الدولة الحمداني بالموصل متسلّماً خزانة كتب الأمير . وقد مدح كبار عصره ووجهاء دولته بالمديد من المطوّلات ، ناهيك عن مدائح آل البيت الشريف . ثم لمّا استولى سيف الدولة على حلب انتقل الصنوبري معه ، ومات فيها سنة ٣٣٤ للهجرة .

يُقال ، والله أعلم ، إن المتنبي كان من بعض تلامذته أو الناشئة الذين طلبوا رأي الصنوبري بشعرهم واستقوا آراءه في ذلك . ويقال كذلك إن سيف الدولة كان يزوره في جنّةٍ كبيرة ابتناها وحشد فيها صنوفاً من الطير والزهر والمياه مما يفوق الوصف .

على أنّ حياة هذا الشاعر مجهولة الغاية ، وهو كابن الرومي ، ينتظر من يبعثه من رقاد الأجيال وينفض عنه غبار السنين .

فؤاد أحمد طوقان

محكمة المياه في بلنسية

قال المقرئ نقلا عن الجغرافي البكري «تشابه اسبانيا بلاد الشام بسحر مناخها وصفاء هوائها ، واليمن بمناخها المعتدل صيفاً وشتاء ، والهند بعطورها الزكية الرائحة ، وبلاد فارس بأهمية مكوسها وعدن بمنتوجات سواحلها» .

وعلى ذكر منتوجات سواحلها أقول بأن العرب في أقطارهم لا يعرفون أسبانيا معرفة تامة ، فقد رحلت إلى هذا الفردوس المفقود وشاهدت بأم عيني أرض الأندلس وسواحلها ، وكورها ومزارعها ، ومدنها وقصباتها ، وأهلها في حواضرهم وأريافهم ، وعاينت سحنهم وأشكالهم وعاداتهم وأخلاقهم . وقد تبين لي : بعد أن زرت هذا القطر بأن اسبانيا في حاضرها مدينة للعرب بتراثها الحضاري وطابعها الأحيائي (البايولوجي) المتجسم في خلقة أبنائها ، وبوفرة إنتاجها الزراعي وجودته ، وكمثال على أثر الحضارة العربية على أسبانيا أذكر أعمال الري في منطقة بلنسية فإنها شاهد صدق على ما أقول .

لقد حوّل العرب بلنسية إلى بستان حقيقي رغم أن تربتها ليست فائقة الجودة ، كما أن ميزات مناخها ليست أفضل الميزات الزراعية إذ أن نسبة هطول الأمطار منخفضة جداً (٤٨٠ مليمتراً في السنة) . ولكن عرف العرب طرق الاستفادة من مياه نهرها الغزير (نهر توريا) منذ الف سنة أو أكثر فانشأوا السواقي العديدة تروي الأراضي القاحلة بمياه النهر فأحالتها إلى جنات تجري من تحتها الأنهار .

إن السواقي التي أوجدها العرب مازالت باقية حتى أيامنا هذه ، وهي تشكل عملاً هندسياً رائعاً بشهادة أبرز الشخصيات الفنية الحديثة ، فلا عجب ان أصبحت منطقة بلنسية اليوم عبارة عن بستان كبير كثير الخصب وافر المنتوجات ، تلك المنتوجات الزراعية التي حازت اليوم تقدير المستهلك وإعجابه داخل اسبانيا وخارجها .

إن هذه الجنة التي يرجع عهدها الى أكثر من ألف سنة ، تجري فيها سبع سواق تشير أسماؤها إلى مصدرها العربي وهي : ساقية قوارت ، وابن عشار ، ومسلطة ، وفهارة على الضفة اليمنى وساقية الترمس ، ومستليـــا وراسكانيا على الضفة اليسرى للنهر ، ويتفرع منهـــا قنوات وافرة تنقسم بدورها إلى فروع عديدة تشمل مساحة واسعة من أراضي الري .

هذا وقد أشاد الدكتور (روزيه) رئيس جامعـــة لوزان في سويسرا بهندسة الري العربية في بلنسية إذ قال (لقد طوفت بلاد الأندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب فأعجبت بها كل الإعجاب ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم في ولاية بلنسية فان أهل هذه الولاية من الأسبان اليوم يعيشون بفضل هندسة مهندسي العرب لهذه السدود ، ولم يتيسر لمدنيـــة القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأ أبناء جنسكم (ويعني العرب) في القرون الوسطى ، ولحسن الحظ لم يقو التعصب الديني الذي دكّ كثيراً من المعـــالم في أرض الأندلس ، على نسف هذه السكور على وادي الأحمر وغيرها وإلا لهلكت ولا من يبكيها فقبح من قضوا عليها (راجع مجلة المجمع العلمي العربي ، الجزء السابع من المجلد الثاني تموز سنة ١٩٢٢) .

مهما يكن من أمر فان العرب لم يقتصروا على القيام ببناء القنوات على هذه الطريقة العجيبة بل نظموا أيضاً توزيعها بين المزارعين بشكل قانوني ليستفيدوا جميعهم منها فأنشأوا هيئة تحكيمية تسمى « محكمة المياه » ، قام بخلقها

الخليفة الأموي الحكم الثاني خليفة قرطبة ، وكان قاضيه في بلنسية آنذاك عبد الرحمن بن حبال ، وقد تأسست هذه المحكمة في أواخر عام (٩٦٠ م) وما زالت تقوم بدورها في الوقت الحاضر . وعندما فتح الملك خيمي الأول بلنسية احترم هذه الهيئة الشرعية وحافظ عليها كما احترمها جميع الحكام الذين استلموا زمام الأمور في اسبانيا حتى يومنا هذا . واعترف التشريع الاسباني بشرعية وقوانين المحكمة المذكورة اعترافاً صريحاً .

لقد كان عام (١٩٦٠م) عام الذكرى الألفية لتأسيس « محكمة المياه » وحضر الاحتفالات بهذه الذكرى وزير العدل الاسباني وبصحبته وزراء الزراعة والأشغال العامة ، وقد أشاد الخطباء في تلك الاحتفالات الباهرة بالحضارة العربية وبمآثر العرب الرائعة في الأندلس ، ومما يلاحظ بأن تكفير الاسبان عن خطاياهم التي ارتكبوها ضد العرب قد جاء متأخراً جداً .

أما محكمة المياه هذه الطارفة التليدة فتقام في العراء كل خميس في مدينة بلنسية منذ تأسيسها من قبل العرب حتى اليوم ، وانتخب يوم الخميس من بين أيام الأسبوع لتجري فيه محاكمات المياه لأنه اليوم السابق للعطلة الإسلامية (الجمعة) ويتم اجتماع المحكمة عند مدخل كاتدرائية بلنسية التي كانت المسجد الجامع للمسلمين زمن العرب .

تتألف المحكمة من سبع قضاة ينتخبهم الشعب من بين المزارعين المنتجين ، قاض عن كل ساقية . واختصاص هذه المحكمة هو الفصل في الدعاوى الناتجة عن توزيع المياه . ويقوم عادة الحارس الأكبر لكل ساقية بتقديم الدعوى بناء على طلب المدعي الذي يعتبر نفسه مغبونا ، فيقدم الاستدعاء ويحضر المدعي والمدعى عليه أمام المحكمة ، ويدافع المدعى عليه عن نفسه ، ويجوز إحضار الشهود والكشف عن الحوادث في المكان عينه ، ولكن يكتفي غالباً بسرد الواقع لتعرف المحكمة تفاصيل القضية ، وبعد تداول يجري بصوت منخفض بين أعضاء المحكمة يعلن الرئيس الحكم وهو غير قابل للاستئناف .

لمحكمة المياه ميزات نادرة ، تجري المحاكمة في العراء كما قلنا ، ويتكلم الجميع اللغة البلنسية ، وعلى القضاة أن يرتدوا اللباس الرسمي — وهو عبارة عن قميص أسود — (وهذا الزي تقليـــد عربي) وذلك قبل الجلوس على مقاعدهم ، وتفرض العقوبة المالية بالنقد المتداول ، ولكنــــه يجب الإشارة الى قيمتها بالليرات القديمة . ويتقاضى الرئيس عادة نصف ليرة من الحلوى عن كل جلسة ، وهــــذه الحلوى تصنع في معمل خاص مشهور ببلنسية يكلف بإعدادها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن القوانين التي تطبقها المحكمة مقتبسة باكثرها عن قوانين الري التي كانت سارية ببعلبك في القرن الثامن الميلادي ، وبعضها مقتبس من مجموعة قوانين (حمورابي) التي ترجع إلى ما قبل أربعة آلاف سنة ، وهذا يعني أن أقدم الشرائع في العالم تطبق في القرن العشرين كل يوم خميس عند مدخل كاتدرائية — مسجد — بلنسية .

إن قوانين بعلبك وشرائع حمورابي دخلت إلى أسبانيا عن طريق الجيش العربي الذي جاء لنصرة طارق بن زياد ، وشارك في فتـــح بلنسية التي استوطن فيها .

في خلال الحرب العالمية الثانية كان أحد سفراء الدول العظمى بمدريد ذا ثقافة عالية وميل شديد إلى الدرس والتنقيب في البحوث التاريخيـة ، حضر محكمة المياه ودرس تاريخ نشأتها وبعد أن اطلع على تاريخها الطويل المستفيض قال : يظهر أن هذه المحكمة خالدة إلى الأبد ، ويظهر أن العرب لم يتركوا الأندلس نهائياً بعد .

اقول أجل ان هـــذه المحكمة خالدة خلود التراث العربي في الأندلس وباقية بقاء السمرة العربية الظاهرة على ملامح الأسبان في الفردوس المفقود .

الدكتور فيصل دبدوب

مجتمع الهمذاني

من خلال مقاماته

بحث يحلل المقامات ويستشف من ورائها صورة المجتمع الذي أنشئت فيه

— ٤ — (١)

٣ — في الدور والأسواق

(الدور — المساجد — البيمارستانات — الحمّامات — المطاعم — الحوانيت — الخانات — الأسواق ..)

الدور في التاريخ : لسنا في حاجة إلى ذكر ما كان القوم عليه من عناية بالعمران وتفنن في هندسة الأبنية وزخرفتها ، فهذا أمر معروف عن حضارة القرن الرابع ، والحق أن كتب الحضارة وصفت لنا كثيراً من الأبنية والقصور ، وإن كانت قد اقتصرت على قصور الخلفاء والمساجد حيث كثر الإنفاق أو ظهرت آثار الفن وروعته ، وأما دور الشعب ومساكن الطبقة العامة فقد لا نعرف عنها الكثير من خلال تلك الكتب . ولعل أكثر مانعرفه عنها مقتبس من بعض الكتب الأدبية التي تعرّضت في مناسبات مختلفة ، لوصفها ككتاب « الأغاني » و « المقامات » .

الدور في المقامات : لسنا نكتم أن الهمذاني لم يوفّ الدور حقّها من الوصف ، وأن حديثه عنها كان موجزاً وسريعاً ؛ إنه يذكر ما كلّفت من

(١) نشر أول البحث في الصفحات ١٢٤ و ٦٠٥ و ٨٢٦ من المجلد (٤٣) .

أموال ، وقد كانوا يتفاخرون بكثرة الإنفاق ، وبذكر أحياناً ما يتصل بدقة الصنعة وجمال الشكل .. وهو إذا فصّل في وصف باب أو حلقة ، وليس في وصف البيت وتخطيطه ، ومن الحق أن نشير إلى أن حديث الهمذاني عن الدور ووصفها لايقارب ما نقله « آدم متز » مثلاً في الموضوع نفسه (١) قال الهمذاني على لسان أبي الفتح : « وانتهينا إلى باب داره ، فقال : هـذه داري ، كم تقدر يا مولاي أنفقت على هـذه الطـاقة ؟ أنفقت عليها والله فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلها ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنمـا خطّ بالبركار ، وانظر الى حذق النجار في صنعة هذا الباب ، اتخذه من كم ؟ قل : ومن أين أعلم ؟ هو ساج من قطعة واحدة لامأروض ولا عفن » (٢) .

وواضح من هذا أنهم يصنعون أبواب بيوتهم من الخشب ويتخذون على الباب حلقة تدور بلولب يُطرق بها البـاب ، وبالجملة كان الخشب يستعمل كثيراً وكان أحب أصنافه عند السراة خشب الساج الهندي (٣) .

ويتابع الهمذاني حديثه عن الدار فيقول « وهذه الحلقة تراهـا ؟ ... فيها من الشَّبَه ستة أرطال ، وهي تدور بلولب في البـاب ... ثم قرع الباب ودخلت الدهليز فقال : عمـرك الله يا دار ، ولا خربك يا جدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ، تأمل بالله معارجها ، وتبيّن دواخلها وخوارجها .. (٤) » وقال : « فقمت ، فقـال : أين تريد ؟ فقلت : حاجة أقضيها . فقال : يامولاي تريد كنيفاً يُزري بربيعي الأمير

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٥١ وما بعدها .
(٢) المقامة المضيرية : ١١٣ .
(٣) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٦٠ .
(٤) المقامة المضيرية : ١١٤ .

وخريفي الوزير ؛ قد جُصِّص أعلاه وصُهرج أسفله ، وسطح سقفه ، وفُرشت بالمرمر أرضه ، يزلّ عن حائطه الذرّ فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غير أنه من خليطي ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج » (١) .

وقد كانت الدور موضعاً للاجتماع والسمر ؛ ففيها يجتمعون للسمر والطرب ، قال « وجعلت للدار حاشيتي النهار (٢) » وقال « بت ذات ليلة في كتيبة فضل من رفقائي فتذاكرنا الفصاحة ، وما ودعنا الحديث حتى طرق علينا الباب (٣) . . »

المساجد في التاريخ : غير خاف أن المساجد من الموضوعات التي عنيت بها كتب الحضارة الإسلامية ؛ فوصفت بناءها وفنّها وزخرفتها ، وذكرت عدد العاملين في بنائها ومدى ما أنفق عليها . . . وزاد بعض المؤرخين فتناول أحوال القوم فيها ؛ قال المقريزي . . إنهم كانوا يجتمعون في المساجد ، وقد يولون فيها وينامون . . وروى لنا قصّة حدّث بها الأمير عليّ تاج الملك جوهر المعروف بالشمس الجيوشي ذكر أنهم اجتمعوا ليلة في مسجد فعملوا أسماطاً وأكلوا ثم تحدثوا وناموا . . وكانت ليلة باردة فناموا عند المنبر . » (٤) وكذلك نقل آدم متز كثيراً من أخبار المساجد واجتماع القوم فيها ليلاً ونهاراً (٥) .

المساجد في المقامات : لا يقف الهمذاني بنا خارج المسجد ليصفه لنا وإنما يأخذ بأيدينا الى داخله ليطلعنا على ما يحدث فيه ويسمعنا الأحاديث

(١) المقامة المضيرية : ١٢٢ .
(٢) المقامة القريضية : ٩ .
(٣) المقامة الناجمة : ١٩٩ .
(٤) الخطط والآثار ٢ : ٣١٩ .
(٥) الحضارة الإسلامية ٢ : ٨٥ وما بعدها .

التي تدور في حلقات القوم ؛ فقد كانوا يجتمعون في أفنية المساجد وتدور بينهم الأحاديث المختلفة ويمرّ بهم المكدّون . . .

لقد حدثنا الهمذاني عن إقبال القوم على الصلاة في المساجد وإجابتهم داعيها ، وعن عادة بعض الأئمة في إطالة الصلاة ، وعما يحدث بعد انقضائها من مفاجآت المكدّين ، وقد حدث مرة أن « نودي للصلاة نداء سمعته وتعيّن فرض الإجابة ، فانسللت من بين الصحابة أغتنم الجماعة أدركها »[1] وكانت صلاتهم طويلة « تقدّم الإمام إلى المحراب فقرأ فاتحة الكتاب ، بقراءة حمزة مدّة وهمزة . . . وأتبع الفاتحة الواقعة »[2] وانتهت الركعة الأولى « .. وقام الإمام إلى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة والقارعة ، قراءة استوفى بها عمر الساعة ، واستنزف أرواح الجماعة ، فلما فرغ من ركعتيه ، وأقبل على التشهّد بلَحيَيْه ، ومال إلى التحية بأخدعيه ، وقلت : قد سهّل الله المخرج وقرّب الفرج ، قام رجل وقال : من كان منكم يحبّ الصحابة والجماعة ، فليعرني سمعه ساعة . قال عيسى بن هشام : فلزمت أرضي صيانة لعرضي . فقال : حقيق عليّ ألاّ أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق . . . »[3] ويتابع حديثه حتى يصل إلى مطلوبه فيذكر حاجته إلى المال . . !

وكذلك يذكر الهمذاني تلبية الدعوة إلى الصلاة في المقامة الخمرية حين « ثوّب منادي الصبح . . . فبادرنا إلى الدعوة وقمنا وراء الإمام قيام البررة الكرام . »[4]

(١ و ٢) المقامة الأصفهانية ٥٦ و ٥٧ .

(٣) المقامة الأصفهانية : ٥٨ .

(٤) المقامة الخمرية : ٢٤٥ .

وأما دخول المكدّين إلى المساجد فقد مرّ ذكره في المقامة النجارية حيث يقول « حدثنا عيسى بن هشام قال أحلّني جامع بخاري معهم وقد انتظمت مع رفقة في سلك الثريا وحين احتفل الجامع بأهله طلع إلينا ذو طمرين قد أرسل صوانا واستتلى طفلاً عُريانا . . . »(١)

ويشير الهمذاني إلى أنهم كثيراً ما كانوا يعرّجون على المساجد تخفيفاً لمشقة أو فراراً من حرّ فيقول في المقامة الرصافية : « خرجت من الرصافة أريد دار الخلافة ، وحمّارة القيظ تغلي بصدر الغيظ ، فلما نصفت الطريق اشتدّ الحرّ وأعوزني الصبر ، فملت إلى مسجد قد أخذ من كل حسن سرّه . . »(٢)

البيمارستانات : إن اتخاذ الناس للبيمارستانات أمر قديم ، وقد ذكروا أن هذه الأماكن كانت منتشرة في القرن الرابع(٣) ، بل هي معروفة قبل ذلك التاريخ إذ قيل إن أول من بنى المارستان هو أحمد بن طولون بناه في مصر سنة ٢٥٩ هـ . وكانت أمور المارستانات بيد ذوي المناصب الرفيعة ، حكى ابن الأثير أنه توفي سنة ٢٩٦ عبد الرحيم المرزباني الأصبهاني قاضي خراسان وقال « وإليه كان أمر البيمارستانات »(٤)

وأما الهمذاني فيأخذ بأيدينا إلى مارستان البصرة ويسمعنا كلام بعض المجانين من نزلائه ، وقد سمعناه في بحث الردّ على المعتزله(٥) ، وذلك حين

(١) المقامة النجارية : ٨٧ .
(٢) المقامة الرصافية : ١٦٥ .
(٣) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٤٧ وما بعدها .
(٤) الكامل ٩ : ٦٦ .
(٥) انظر ما سبق في ص : ٨٤٦ من المجلد ٤٣ .

دخل المارستان مع أبي داود المتكلم[١] ، ورأينا أن الخطرين منهم كانوا يقيّدون خوف أذاهم إذ أن أحدهم ما هو « إلا شيطان في أشطان »[٢]

الحمّامات : كانت الحمامات معروفة منذ القديم ، ولكن عناية الناس بها زادت بعد الإسلام ، وذكر الطبري أنه لم يكن للفرس عهد بالحمامات قبل الإسلام . أما عند المسلمين فقد شاعت وانتشرت وتنافست البلاد في كثرتها ، على أن ذوي الورع لم يمدحوها ، ونقل عن عليّ أنه قال : « بئس البيت الحمّام ، تكشف فيه العورات وترفع فيه الأصوات ، ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله » . وقد بلغ عدد الحمامات في النصف الأول من القرن الرابع في جانبي بغداد عشرة آلاف حمام »[٣] ولم يغفل الهمذاني ذكر الحمامات في مقاماته وإنما تحدث عنها وذكر عناية القائمين عليها بزائريها من المستحمّين . لقد طلب ابن هشام أن يرشدوه إلى حمام « واسع الرقعة نظيف البقعة ، طيب الهواء معتدل الماء »[٤] فأشار إلى ما كان الناس يتوخونه في الحمام ، ثم دخل ابن هشام الحمام وقال « وأتيناه فلم نر قوامه ، لكني دخلته ودخل على أثري رجل وعمد إلى قطعة طين فلطّخ بها جبيني ووضعها على رأسي . . »[٥] ثم يتابع حديثه عما جرى له وكيف تشاجر عليه اثنان من المستخدمين كلّ يدّعي أنه له و« ما لبث أن دخل الأول فحيّا أخدع الثاني بمضمومة فقمت أنيابه ، وقال : يالكع مالك ولهذا

(١) المقامة المارستانية : ١٢٧ .
(٢) المقامة المارستانية : ١٣٢ .
(٣) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٦٢ .
(٤) المقامة الحلوانية : ١٨٠ .
(٥) المقامة الحلوانية : ١٨١ .

الراس وهو لي ، وعطف الثاني على الأول بمجموعة هتكت حجابه ، وقال : بل هذا الراس حقّي ، وملكي في يدي ، ثم تلاكما حتى عييا . . »(١)

وكان الهمذاني قد أدخلنا حماماً وأطلعنا على ما يحدث فيه ، وكيف نستقبل لو ذهبنا إليه ، وأشار إلى أخلاق أصحاب هذه الحرفة . . . ولسنا ندري سبب الخصام بين المستخدمين في الحمّام ولكن لعلّه أراد أن يشير إلى أن كلاًّ من المستخدمين كان يشتغل لحسابه الخاص ، أو أن صاحب الحمام كان يحاسبهم على « الراس » !

المطاعم والحوانيت والمآكل : تحدث كتاب « الوزراء » عن بعض ولائم القوم وعاداتهم فيها ، ووصف لنا مثلاً وليمة دعا إليها الوزير ابن الفرات جماعة من أصحابه ، وجاء في الحديث ذكر لبعض أنواع الطعام والعادات ، إلا أنه وغيره من أخبار التاريخ غير كاف لعرض صورة عن أسواق القوم ومطاعمهم الشعبية وما فيها من المآكل ؛ نعم نحن نجد فيها أخبار ولائم العظماء ونسمع أسماء أطعمة عربية وغير عربية ولكننا لا نستطيع تصوّر تلك الأطعمة لأنها سردت لنا أسماؤها دون أن توصف لنا .

وأما بديع الزمان فقد استطاع بوصفه للجزئيات أن يضع أمامنا صورة للسوق وما فيها من حوانيت ومناظر ، والمطاعم وما فيها من مآكل . . . ولنترك للهمذاني أن يأخذنا إلى تلك الأماكن كما أخذنا إلى الحمام ، وأن يمرّ بنا عبر الطرقات ويقدّم لنا بعض المآكل :

يصل الغريب الى البلدة فيشعر — كما شعر السوادي في بغداد — بالجوع يستولي عليه ، فيتقدّمه الهمذاني أو ابن هشام إلى مطعم شعبي

(١) المقامة الحلوانية : ١٨١ .
(٢) الوزراء : ٢٤٠ .

انتشرت منه روائح الشواء ... وفي هذا المطعم نجد اللحم والخبز والحلوى وكأننا في مطعم من مطاعم احيائنا الشعبية في حي السيدة زينب بالقاهرة أو باب الجابية أو الدرويشية بدمشق .

ويصف الهمذاني لنا مافي هذا المطعم الشعبي من أطعمة فيفصّل ويجيد إجادة تجعلنا أمام ذلك الطعام أو تجعله أمامنا ، بل يقدّمه لنا حتى نكاد نذوقه ونعرف أنه يذوب كالصمغ قبل المضغ . . يقول الهمذاني « ثم أتينا شوّاء يتقاطر شواؤه عرقاً وتتسايل جوذاباته مرقا . فقلت : افرز لأبي زيد من هذا الشواء ثم زن له من تلك الحلواء . واختر له من تلك الأطباق وانضد عليها أوراق الرقاق ورشّ عليها شيئاً من ماء السمّاق . . . ، فانحنى الشوّاء بساطوره على زبدة تنوّره فجعلها كالكحل سحقاً وكالطحن دقاً ... وقلت لصاحب الحلوى : زن من اللوزينج رطلين ، فهو أجرى في الحلوق وأمضى في العروق [(١)] » وإن كنا لاندري مااللوزينج فالهمـــذاني لايتركنا كما يتركنا كتاب التاريخ أمام اسم مبهم الدلالة ولكنه يصفه ويوضحه فيقول « وليكن ليليّ العمر يومي النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤي الدهن ، كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ... [(٢)] » .

ويذكر الهمذاني الماء المثلّج فيقول : ... « ماأحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارّة ويفثأ هذه اللقم الحارّة ... [(٣)] » والماء المشعشع بالثلج ألذّ ما يتناوله الناس في الصيف ، ويحكى أنه يوم تولى ابن الفرات الوزارة ، وكان يوماً شديد الحر ، سقي في داره أربعون ألف رطل من الثلج في يوم وليلة [(٤)] .

---

(١) المقامة البغدادية : ٦٥

(٢ و ٣) المقامة البغدادية : ٦٦ .

(٤) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٨٤ .

ويذكر الهمذاني في مقامات أخرى كثيراً من أنواع الأطعمة ؛ ففي المقامة الساسانية مثلاً يقول زعيم المكدّين :

أريد منك رغيفاً	يعلو خواناً نظيفا
أريد ملحاً جريشاً	أريد بقلاً قطيفا
أريد لحماً غريضاً	أريد خلاًّ ثقيفا
أريد جدياً رضيعاً	أريد سخلاً خروفا
أريد ماءً بثلجٍ	يغشى إناءً طريفا
أريد دنّ مُدامٍ	أقوم عنه نزيفا (١)

وفي المقامة المضيرية يحدّثنا عن المضيرة ويعدّد المواد التي طبخت بها (٢) ويذكر أن الخبز عندهم كانت أرغفته رقيقة واسعة ينضجونها في التنور فهي « أوراق الرقاق » (٣) أو هي « صلائق كأنها القباطيّ المنشّر أو الفوهي المصّر » (٤) تطلع من « تنّور مسجور » (٥) ويذكر من مآكلهم البقل والسمك والباذنجان والتفاح والأنقال ... يقول في المقامة الجاعية « فما قولك في رغيف وبقل قطيف الى خل ثقيف وخردل حرّيف وشواء صفيف ، وأوساط محشوّة وأكواب مملوءة وأنقال معدّدة ... ولحم طريّ وسمك نهري وباذنجان مقليّ وراح قطربّلي وتفاح جنيّ ... » (٦) كما يذكر

(١) المقامة الساسانية : ٩٧ .
(٢) المقامة المضيرية : ١٢٢ .
(٣) المقامة البغدادية : ٦٥ .
(٤) المقامة النهدية : ١٨٩ .
(٥) المقامة البغدادية : والأرمنية : ١٩٦ .
(٦) المقامة الجاعية : ١٣٣ .

التمر مع الزبدة التي هي « نهيدة فرق كهامة الأصلع »(١) وربما شربوا معها الحليب في « أقعب قد احتلبن من الجلاد الهرمية ....(٢) . ومنها نوع يصنع من الدقيق الذي يعجن بالحليب ويشوى ويصنع على أشكال مختلفة كالكعك ، ثم يصبّ عليه العسل ويشرب معه الحليب ، وهو يبيّن لنا طريقة صنعه ويصفها خطوة خطوة (٣) ، ومن ذبائحهم العتاق النجدية تقدّم مع الخبز وبعض مايقوّي الشهيّة كالخردل والأصباغ (٤) .

ومن طعام فقرائهم الخبز اليابس والتمر الرديء وهو ماقدّم لابن هشام إذ يقول « فأتتنا ابنته بطبق عليه جلفة وحثالة ولويّة . (٥)

وأما الأغنياء وأهل اليسار فقد ذكر ابن هشام بعض مانالة عندهم من لذيذ المآكل والمشرب فقال « فلم نزل في صبوح وغبوق نتغذّى بالجدايا الرضّع ، والطباهجات الفارسية ، والمدقّقات الابراهيمية ، والقلايا المحرّفة ، والكباب الرشيدي ، والحُملان ، وشرابنا نبيذ العسل . . . ونقلنا اللوز المقشّر ، والسكر والطبرزد ... »(٦) « وكانت لنا طبّاخة حاذقة فاتخذت عشرين لوناً من قلايا محرّقات .. »(٧) .

وهكذا دخلنا مطاعم القوم وشهدنا بعض ولائمهم وعرفنا بعض مآكلهم ، وما زال الهمذاني يتقدّمنا في الأسواق حتى وقف بنا أمام بائع للفواكه حسن الذوق جيد الترتيب فهو قد « أخذ أصناف الفواكه وصنّفها ، وجمع

(١ ــ ٤) المقامة النهدية ١٨٥ وما بعدها .
(٥) المقامة النهدية : ١٨٩ . والجلفة : قطعة الخبز اليابسة . واللويّة : ما خبأ .
(٦) المقامة الصيمرية : ٢١٦ .
(٧) « « : ٢٢١

أنواع الرطب وصفّفها ... (١) ثم وقف أمام بائع الألبان الذي صفّف الأواني النظيفة وفيها أنواع الألبان ... (٢) .

وأما صاحب الخبز فهو يُعنى بنظافة رغفانه ويرمي ما شك في نظافته حتى استغلّ ذلك ابو الفتح على نحو ماجاء في المقامة الأرمنية حين قال « وسرنا في طلب أبي جابر فوجدناه يطلع من ذات بطن تُسجر بالغضا ، فعمد الاسكندري إلى رجل فاستماحه كفّ ملح وقال للخباز : أعرني رأس التنور فإني مقرور ، ولما فرّع سنامه وجعل يحدث القوم بحاله ويخبرهم باختلاله وينثر الملح في التنّور من تحت أذياله يوهمهم أن أذّى بثيابه . فقال الخباز : مالك لا أبا لك ؟ اجمع أذيالك فقد أفسدت الخبز علينا . وقام إلى الرغفان فرماها وجعل الاسكندري يلقطها ويتأبطها .. » (٣) .

الحانات : وما نزال نسير مع الهمذاني حتى يقبل الليل وتبدأ الحانات بفتح أبوابها واستقبال زبائنها ، ولكل حانة باب وكلاب ومستخدمون يتكفّلون بدوابّ الزبائن ، وصبايا حسان ، ومطربون ... في المقامة الخمرية أنه « لمّا حشرج النهار أو كاد نظرنا فإذا برايات الحانات أمثال النجوم في الليل البهيم ، فتهادينا بها السرّاء وتناشرنا بليلة غراء ووصلنا إلى أفخمها بابا وأضخمها كلابا .... فدُفعنا إلى ذات شكل ودلّ وشاح منحلّ ، إذا قتلت ألحاظها أحيت ألفاظها ، فأحسنت تلقّينا ... وأسرع من معها من العلوج إلى حطّ الرحال والسروج .... قلنا « هذه الضالة وأبيك

(١) المقامة الأزاذية : ١٤ .
(٢) المقامة الأرمنية : ١٩٧ .
(٣) » » : ١٩٦ .

فمن المطرب في ناديك ؟ قالت : إن لي شيخاً ظريف الطبع طريف المجون . . . »[١]

في الطرقات : ولا يكتفي الهمذاني بأن يرينا ما على جوانب الطريق من مطاعم وحوانيت وحمامات وحانات وحلاقين . . . وإنما يرينا أيضاً ما يعترض سبيل المارّة في عرض الطريق ، فمن قوم تحلّقوا حول قرّاد ، إلى صبية يستهزئون بالمارّة . . . ففي المقامة القردية يقول « بينا أنا في مدينة السلام أميس ميس الرجلة على شاطىء الدجلة . . . إذ انتهيت إلى حلقة رجال مزدحمين ، يلوي الطرب أعناقهم ، ويشق الضحك أشداقهم ، فساقني الحرص إلى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون رؤية وجهه لشدة الهجمة وفرط الزحمة فإذا هو قرّاد يُرقص قرده . »[٢] وفي المقامة المضيرية أن أبا الفتح حين فرّ من وليمة صاحبه وجعل يعدو أخذ صاحبه يعدو خلفه ويصيح « يا أبا الفتح المضيرة . . . فظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه »[٣] وأخيراً ينبغي لنا أن نذكر أن هناك جزئيات تافهة ومع ذلك لم يغفل الهمذاني عن ذكرها ، وتلك ميزة أدبية تساعد على التوضيح ، ولا يقوى عليها من الأدباء إلا من كان شديد الملاحظة حادّ الذكاء لا تفوته ملاحظة الأشياء الصغيرة كما لا يفوته الحديث عنها ؛ فالهمذاني مثلاً يذكر أن بعض الناس كان يحمل ما يشتريه من السوق في منديل واسع كما يفعل بعض الناس اليوم ، وأن بعضهم كان يضع ما يشتريه

---

(١) المقامة الخمرية : ٢٤٧ .

(٢) المقامة القردية : ١٠١ .

(٣) المقامة : ١٢٣ .

في طرف إزاره كما في المقامة الأزاذية حين قبض من كل شيء أحسنه وقرض من كل نوع أجوده ، فجمع حواشي الإزار على تلك الأوزار ... » [١]

أدواتهم : مازالت الحضارة تقدم للإنسان اليوم الكثير من الأدوات والوسائل التي تملأ حياته راحة ورفاها ، وتيسّر عليه العمل الشاق وتوفّر له الكثير من وقته ... وألف الإنسان ما يستعمل حتى نسي ما كان يتخذه سلفه الأول من أداة ومتاع ؛ لقد ألف الكهرباء حتى نسي شكل السراج ، وألف السيارة حتى نسي شكل جدّه وهو على دابّته ... ولقد ذكّرنا بديع الزمان بالكثير من أدوات القوم وأثاثهم ؛ أما الأغنياء فإن عندهم « حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وخيلاً مسوّمة ، وقناطير مقنطرة ، وعُدّة وعديدا ومراكب وعبيدا .. » [٢] وذكر أحدهم ما كان معه فقال « ومعي جراب دنانير ومن الخرثيّ والآلة وغير ذلك ما لا أحتاج معه إلى أحد » وعند بعضهم « صنان ، كل صنّ بأربعة آذان . » [٣] وقصاع كبيرة يذلّ عنها الطّرف ... [٤] ومن أدواتهم الخوان والإبريق والطست والمناديل المطرّزة ، وقد ذكرت في المقامة المضيرية ، وكانوا يستنيرون بضوء السراج وهو « حوت مصرور في بعض البحور مختطف الخصور يلدغ كالدنبور ويمتّ بالنور ، أبوه حجر وأمه ذكر ، ورأسه ذهب واسمه لهب وباقيه ذنب ، له في الملبوس عمل السوس ، وهو في البيت آلة الزيت

---

(١) المقامة الأزاذية : ١٤ .

(٢) المقامة القزوينية : ٩٤ .

(٣) المقامة الصيمرية : ٢١٥ ـ ٢٢٢ والصن وعاء كبير يشبه السلة .

(٤) المقامة المضيرية : ١٠٩ .

شرّيب لا ينقع ، أكول لا يشبع ، بذول لا يمنع . ينمي إلى الصمود ، ولا ينقص ماله من جود ، يسوءك ما يسرّه وينفعك ما يضرّه . . . » (١)

أما المطبخ فلك أن تتخيّل ما لم يذكره من أدواته حين تدخله مع أبي الفتح لترى المرأة فيه وهي تدور من التنور إلى القدور ، تنفث بفيها النار وتدق بيديها الأبزار . . . » (٢)

ومما كان معروفاً عندهم المغزل ، وقد عرفناه في بعض دورنا القديمة ، والأمشاط ، وقد ألغز فيها الهمذاني في المقامة المغزلية وأورد لكل من المغزل والمشط كثيراً من الأوصاف (٣)

وكذلك ذكر في المقامة الساسانية بعض أدواتهم في مثل قوله :

أريد مشطاً وموســـى أريد سطلاً وليفـــا (٤)

الشطرنج : وهو من وسائل التسلية عندهم ، وقد كان معروفاً من قبل ، وعُدّ الصولي والخليفة المأمون من المهرة فيه (٥) . أما الهمذاني فقد ذكره حين أراد أن يصف يد أبي الفتح وجولانها بين الصحون فقال

---

(١) المقامة الابليسية : ١٩٣ .

(٢) المقامة المضيرية : ١١١ .

(٣) المقامة المغزلية ١٧٤ .

(٤) المقامة الساسانية : ٩٨ .

(٥) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٨٧ .

إنها « تسافر على الخوان وتسفر بين الألوان وتأخذ وجوه الرغفان وتفقأ عيون الجفان » فهي « تجول في القصعة كالرخّ في الرقعة » [1] والرخّ من قطع الشطرنج ذو جولة وصولة وقوة ومنعة حتى سمّاه بعضهم بالقلعة .
وورد اسم الشطرنج أيضاً في وصية الاسكندري لابنه حين كان يلقنه أصول التجارة فقال له « كن مع الناس كلاعب الشطرنج ؛ خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك [2] » .

(يتبع) الدكتور مازن المبارك

---

(١) المقامة الجاحظية : ٧٩ .
(٢) المقامة الوصيّة : ٢١٤ .

نافذة تطل على تاريخ اليزيدية

منذ أمد طويل وأنا أتتبع ما يكتب ويقال عن اليزيدية ، ولم تكن نفسي تطمئن إلى شيء من ذلك .

ومنذ أمد اطلعت على نص نفيس يكشف القناع عن هذه الفرقة ويوضح تاريخها الذي اختلفت فيه الآراء ، وكنت أحاول نشره في مجلة المجمع العلمي العربي حينما اطلعت على ما كتبه الأستاذ محمود الملاح في المجلد الثامن والثلاثين ص (٣٣٤) وكانت العوائق تحول دون ذلك ، والآن وقد كتب لي بعض الفراغ من الوقت فاني اكتب هذه اللمحة لتضاف إلى ما كتب عن هذه الطائفة الغامضة مقدماً عليها كلمة تمهيدية .

سياسة بني أمية ومعاوية وابنه يزيد :

كانت سياسة بني أمية تقوم على تقديس رجالاتهم والطعن في خصومهم خصوصاً الطالبيين ، وهذا بديهي لا يحتاج إلى سرد نصوص تؤيد ذلك .

فمعاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والحجاج ابن يوسف الثقفي وأضرابهم كان لهم من القدسية والاحترام في العصر الأموي والى منتصف العصر العباسي مثل ما لآل البيت النبوي في عصرنا .

يذكر المقدسي[1] أنه دخل مدينة أصبهان فوصف له رجل معروف بالزهد والتعبد ، قال : فقصدته وتركت القافلة خلفي وبت عنده تلك الليلة ،

(١) أحسن التقاسيم ص (٣٩٩) والمقدسي هذا كان حياً سنة (٣٧٦ هـ) .

وجعلت أسائله إلى أن قلت : ماقولك في الصاحب [١] ؟ فجعل يلعنه ، ثم قال : أنه أتانا بمذهب لانعرفه .

قلت : وما هو :

قال يقول : معاوية لم يكن مرسلا .

قلت : وما تقول أنت ؟

قال : أقول كما قال الله تعالى (لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِن رُسُلِهِ ، (٢ : ٢٨٦) أبو بكر كان مرسلا ، وعمر كان مرسلا ، حتى ذكر الأربعة ثم قال : ومعاوية كان مرسلا قلت : لا تفعل ، أما الأربعة فكانوا خلفاء ، ومعاوية كان ملكا ، وقال النبي ﷺ : الخلافة بعدي إلى ثلاثين سنة ، ثم تكون ملكا ، فجعل يشنع علي وأصبح يقول للناس : هذا رجل رافضي ، فلو لم أتدارك القافلة لبطشوا بي ، ولهم [أي لأهل أصفهان] في هذا الباب حكايات كثيرة .

ويقول المقدسي أيضاً [٢] : وببغداد غالية يفرطون في حب معاوية .

وهناك نص يفيد بأن أهل الكرخ كانوا من جماعة معاوية وأنصاره ، فقد سب إبراهيم بن رستم معاوية ، فقال له رجل : لم لاتقول هذا بالكرخ ؟ فقال [إبراهيم بن رستم] ولم لا تصلي أنت على محمد — صلى الله عليه وعلى آله — بالقسطنطينية [٣] .

ويقول المقدسي في أحسن التقاسيم [٤] : كنت يوماً بجامع واسط وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس ، فدنوت منه فاذا هو يقول :

---

(١) أي الصاحب ابن عبّاد .

(٢) أحسن التقاسيم ص ١٢٦ .

(٣) البصائر لأبي حيان التوحيدي ج ٢ ص ٢٠٤ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني ،

(٤) ص ١٢٦ .

حدثنا فلان عن فلان عن النبي ﷺ : أن الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جنبه ويغلفه بيده ، ثم يجلوه على الخلق كالعروس ، فقلت له : بماذا ؟ بمحاربته عليا ؟ رضي الله عن معاوية وكذبت أنت ياضال . فقال خذوا هذا الرافضي فأقبل الناس عليّ ، فعرفني بعض الكتبة فكركروهم عني .

مثل هذا الاحترام والتقديس عند بعض الناس لمعاوية انتقل إلى ابنه يزيد فكان فيهم من يعتقد مثل هذا أو قريباً منه في يزيد ، وتفيد فتوى الشيخ الإمام أحمد بن تيمية (١) التي نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي أن بعضاً من الناس في عصره يعتقد أنه كان صحابياً وبعضاً آخر يعتقد أنه كان نبياً وقد ردّ الشيخ ابن تيمية على هذين القولين وذكر اعتقاد أهل السنة في يزيد راجع (المجلد ٣٨ ص ٤٥٢) من هذه المجلة .

وبعد هذه المقدمة نعود إلى النص الذي أشرنا اليه في أول المقال وهو من طرائف النصوص النادرة .

التعريف بصاحب هذا النص :

هو أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي ، ولد بمدينة ميافارقين في شهر شوال وعاش ما بين سني (٥١٠ — ٥٩٠) رحل خلالها إلى مدن الجزيرة والعراق والشام والعجم قابل فيها الخلفاء وأبناء الخلفاء والملوك والسلاطين والعلماء وكبار رجال الحكم ، وألف تاريخاً لمدينة ميافارقين نقل عنه ياقوت الرومي وابن خلكان وابن شداد في الأعلاق الخطيرة .

(١) سؤال في يزيد بن معاوية لشيخ الإسلام ابن تيمية نشره مع جوابه الدكتور صلاح الدين المنجد في المجلد المذكور .

طبع جزء من هذا التاريخ بالقاهرة سنة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م ، وقام بتحقيقه ووضع مقدمة له دوكتور بدوي عبد اللطيف عوض ، وهـذا النص ممـا أثبته الدكتور في هذه المقدمة ص ٤٢ لطرافته وهو :

في سنة ثمان وأربعين وخمس مئة هجرية كان مؤرخنا في تفليس وأقام بها مدة ، ...... وهناك اتصل بملك الابخاز وصاحب تفليس الملك ديمتري ابن داود ، ثم التحق بخدمته وبقي عنده مدة ، وسار في ولايته ورأى بلاداً وأماكن كثيرة لم تتح لغيره من المؤرخين والكتاب .

ويسجل لنا ابن الأزرق في تاريخه بعض الحوادث الهامة التي وقعت له مع الملك فيقول ما ملخصه :

بينما كان يسير ذات يوم مع ملك الابخاز إذ وصلا إلى مرج واسع تحت جبل قلمة شامخة ، فنزلا هناك ، وعرفه الملك بأن في هذه القلعـة رجلاً غريباً أسيراً من ولاية حلب ، ثم طلب منه أن يصعد إليه في باكورة الغد ممتزماً أن يرجو الملك في إطلاق سراحه ، وبينما هو يتأهب للقاء الرجل وقت السحر وصل الخبر إلى الملك أن بعض الولاة قد ثاروا وتمردوا عليه فذعر الملك وارتحل لوقته وارتحل معـه ابن الأزرق ولم يقدر له الاجتماع بهذا الرجل .

كما يسجل لنا حكاية طريفة وقعت له مع الملك أيضاً في مدينة الدربند [١] :

في سنة تسع وأربعين وخمس مئة رحل ابن الأزرق إلى مدينة الدربند ، وفي ذات يوم خرج الملك ديمتري في عسكره وأخذوا يطوفون من جهة إلى

(١) ويسميها العرب أيضاً : الباب والأبواب ـ أو ـ باب الأبواب وهي بلدة على الشاطئ الغربي لبحر الخزر وهي الساحل الوحيد لبلاد الداغستان . انظر معجم ياقوت مادة : باب الأبواب ، دربند ، خنليق ، وترجمة دائرة المعارف الاسلاميـة مادة : دربند داغستان .

أخرى ويتنقلون من موضع إلى آخر في الولاية ، ولما نزلوا في ولاية الدربند ، وهو الدربند خيزران الذي بناه كسرى ، ترك الملك العسكر في مرج[١] تحت الجبل وأتى اليه الأمير أبو المظفر ملك الدربند ، وكان صهره على ابنته ، واستقبله استقبالاً كريماً وحمل اليه من الخدم والضيافة والإقامة .

وبينما الملك وعسكره نازلين في هذا المرج ومعهم ابن الأزرق ، إذا بجماعة يأتون إليهم من ضياعهم ، فعبر أحدهم إلى ابن الأزرق وتحدث معه بالعربية فعجب لذلك ودار بينهما الحديث التالي .

من أين أنت يافتى ؟ ، إني ما رأيت بهذه الأرض مستعربا .

من تلك القرية وأشار إلى قرية على قمة في وسط الجبل .

ومن أين هذا الكلام العربي ؟

إن جميع من في القرية عرب ، ونحن جميعاً نتكلم العربية .

ومتى حللتم في هذا المكان ؟

منذ خمس مئة سنة .

ومن أي العرب أنتم .

نحن من بني أمية ومن كندة ومن قبائل أخرى

وما الذي جاء بكم إلى هذا المكان ؟

لا أعلمك .

ولماذا ؟ — إني أرى أنكم من قتلة الحسين الذين انهزموا من وجه المختار الثقفي وهربوا إلى هذه الجهات .

وكيف تعلم ذلك ؟

من المعلوم والثابت في الكتب أن جماعة من قتلة الحسين انهزموا أمام المختار إلى الدربند .

ثم انصرف الفتى .

---

(١) في الأصل : برج في الجميع ، وما أثبتناه هو ما رجحناه .

ولما مضت تلك الليلة وكان الغد حضر الفتى ومعه جماعة عند ابن الأزرق وتحدثوا ساعة ، وكان فيهم شيخ كبير يسمى محمد بن عمران أخذ ابن الأزرق يسأله عن مقامهم في تلك البلاد ، وكيف استقروا فيها ولم يعودوا إلى بلادهم الأولى ، وكيف احتفظوا بلغتهم العربية إلى هذا الوقت .

فقال هذا الشيخ : إن هذه البلاد أصبحت لنا وطناً ، ويوصي بعضنا بعضاً أن لا نترك العربية مطلقاً .

ونساؤنا لا تكلم الأطفال إلاّ بالعربية لكي ينشأوا على اللسان العربي الفصيح .

فقال ابن الأزرق : وكيف أحوالكم هنا ؟

فقال له : في خير ، ما بيننا وبين أحد معاملة ، ولنا هذه الأرض التي مساحتها خمسة فراسخ في مثلها نحرث ونزرع ما نحتاج إليه وما يعارضنا أحد ، وهذا الأمير صاحب الدربند يحسن إلينا ويوفر علينا مصالحنا وكل من ولي أمر هذه البلاد يحسن إلينا ونكون عنده في أحسن منزلة .

وبعد تلك المحادثة الطريفة أخبر محمد بن عمران الفارقيّ : أنهم حقاً انهزموا أمام المختار ، ولكنهم لا يعلمون أين صارت تلك الطائفة الأخرى وما هي أخبارهم الآن .

فقال له ابن الأزرق : إن العصبة الأخرى التي تقصدها انهزمت إلى الموصل ، وجبل الجزيرة (١) فأنفذ إليها إبراهيم بن الأشتر النخعي وحاربهم فانهزموا أمامه ، وهربوا إلى ولاية ميافارقين فأرسل إلى محاربتهم عبد الله ابن مساور ، فانهزموا أمامه إلى جبل السناسنة (٢) فوق ميافارقين ، وأقاموا

---

(١) الظاهر أنه يريد بهذا الجبل جبل سنجار .

(٢) السناسنة قبيلة من الأرمن لها حصون منيعة تجاور خلاط (تاريخ ميافارقين ص ٧٥) .

عند ملك سنحاريب ملك السناسنة وهم طائفة من الأمويين .

فقال محمد بن عمران : صدقت ، ثم قال له : وهل بقي إلى اليوم من نسلهم أحد ؟

فقال له ابن الأزرق : نعم .

وحينئذ انصرف هؤلاء الجماعة من العرب بعد أن قضوا مع ابن الأزرق يوماً كاملاً .

وبعد فان هذا النص لا يدع شكـّاً لمستريب في أصل اليزيدية ، ويجب أن يعاد النظر في تاريخ اليزيدية على ضوء هذا النص النادر الطريف .

دمشق : محمد أحمد دهمان

التعريف والنقد

كتاب (الأثيقون)

أو فلسفة الآداب الخلقيـــة

تأليف : ابن العبري

ترجمه عن السريانية الملفان مار غريغوريوس بولس بهنام

عدد الصفحات (٤٤٠) من القطع المتوسط

مطبعـــة الشباب ـ القامشلي (سورية)

ما زالت الكنيسة السريانية تبدي نشاطاً كبيراً في إرشاد أبناء الطائفة والمساهمة في الأعمال الوطنية والمحافظة على التراث السرياني .

ومن المعروف أن آثار العلامـة (مارغريغوريوس أبي الفـرج ابن العبري) [سنة ١٢٢٦ — ١٢٨٦ ميلادية] تؤلف جزءاً هاماً من هذا التراث الثقافي . فهو قد ألف ستة وثلاثين كتاباً في الديانة والفلسفة والطب واللغة والتاريخ أكثرها بالسريانية وبعضها بالعربية كما ترجم إلى اللغـــة السريانية كتاب الإشارات والتنبيهات في الفلسفة ، وقسماً من كتاب القانون في الطب للشيخ الرئيس ابن سينا . وقد سبق أن ذكرنا في مجلة مجمع اللغة العربيـــة [1] كيف أن المستشرق الانكليزي (بوكوك) نشر النص العربي لكتابه « تاريخ مختصر الدول » وترجمته إلى اللغـة اللاتينية وأشرنا

(١) راجع الجزء الثالث من المجلد (٤٣) صفحة (٥٧٣) .

إلى القول الشائع في أن تسميته بابن العبري يرجع سببها إلى أن أباه كان يهودياً اعتنق المسيحية .

على أن نيافة الملفان (بهنام) ، مطران بغداد والبصرة ، الذي ترجم كتاب (الأثيقون) أو (فلسفة الآداب الخلقيـــة) تأليف ابن العبري إلى العربية ينفي في مقدمة الكتاب هذه النسبة ويقول إن سبب التسمية هو أن أباه (أوجدّه) كان قد نزح من قرية (عبري) ، التي كانت قائمة يوماً على نهر الفرات بقرب مدينة (ملطيـة) . وفي الوقت نفسه تكرم قداسة بطريرك انطاكية وسائر المشرق فلفت نظرنا إلى هذا الأمر ، وأرشدنا إلى ما كتبه قداسته في العدد ١٦/ السنة الثانية من « المجلة البطريركية » ينقـد الأخطاء التي ارتكبها الأب (بولس موترد) اليسوعي في ترجمة حياة العلاّمة ابن العبري في دائرة معارف (فؤاد افرام البستاني) ويرد بالأخص على ترداده القول الشائع بين المستشرقين بأن ابن العبري من أصل يهودي . فرأينا من الضروري الإشارة إلى ذلك ...

يبحث كتاب (الأثيقون) ، كما يدل عنوانه اليوناني ، في الأخلاق وآداب السلوك وقد قسمه المؤلف إلى أربع مقـالات كبرى تحوي كل منها أبواباً وفصولاً شتى . وموضوع المقالة الأولى هو ترويض الجسد وتنظيم حركات تمرينه فيستعرض المؤلف هنا الصلاة وفضيلتها وآثارها ثم أعمـــال النسك والسهر وقوانين النوم وترتيل المزامير وتأثير الألحان وفوائد الصوم والعزلة والغربة وزيارة الأماكن المقدسة . وتبحث المقالة الثانية في أعمال الحيـاة الجسدية من طعام وشراب . وزواج شرعي وتربية أطفال وإعطاء الصدقات . وفي المقالة الثالثة يتكلم المؤلف على تنقيـــة النفس من الأهواء الشريرة فيشرح معنى النفس ويبين قواها وخصائصها ثم يتعرض إلى ترويض النفس وإصلاح العادات وعلاج الشراهة واجتناب عثرات اللسان ، والابتعاد عن

الحسد والحقد والغضب وعن الشهوات وحب المال والرياء والكبرياء والخيلاء . وأخيراً فهو يكرس المقالة الرابعة لموضوع تجميل النفس بالفضائل من علم وإيمان وتوبة وصبر وشكر وتقوى وزهد وتوكل وصداقة وذكر الله ومحبته والتفكير في الموت ...

إن طريقة ابن العبري في بحث الموضوعات الأخلاقية تشبه طريقة الإمام الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين . فهو يستشهد في كل موضوع بأقوال آباء الكنيسة والقديسين ثم يلجأ إلى التحليل النفسي والبراهين العقلية . كذلك نلاحظ التشابه مع الإمام الغزالي في تطوره الفكري الذي انتهى به إلى التصوف (١) فقد تحدث ابن العبري أيضاً في كتابه (الحمامة) عن اجتيازه مرحلة قاسية من الاضطراب النفسي والتشكيك الى أن أشرقت عليه أنوار الحقيقة وسار في طريق الصوفية وكيف أنه تأثر في ذلك بآراء ابن سينا وأمثلة المتصوفين اليونانيين والمسيحيين . وتتجلى نزعة ابن العبري الصوفية في كتاب (الحمامة) وفي عدد من القصائد ثم في أكثر فصول كتاب (الأثيقون) وعلى الأخص عند البحث في معرفة الله ومحبته والشوق إليه ، وعند الكلام على مبادىء الزهد والنسك وأساليب الرياضة الروحية لتطهير القلب . . .

وفي الختام لابد من التنويه بالجهود الصادقة التي بذلها نيافة المطران (بهنام) في ترجمة كتاب (ابن العبري) النفيس بلغة عربية مشرقة ، واضحة وسلسة ، كما أنه لا يسعنا إلا ابداء الإعجاب بالمقدمة الشيقة التي صدر بها الكتاب وتكلم فيها بإسهاب على تصوف ابن العبري .

الدكتور كامل عياد

---

(١) كما وصف ذلك في كتابه « المنقذ من الضلال » .

المعلّم رفيق قيريش

حياته — آثاره

عنوان كتاب أهدت إلى مجمعنا نسخةً منه ـ مشكورةً ـ سفارة الجمهورية التركية بدمشق .

أعدّ الكتاب — بمناسبة مرور مائة عام على مولد المعلم المشار إليه — أحد أبناء قيريش (فؤاد آرون) أصغر أنجال المرحوم ، وطبع في آنقرة (١٩٦٨) طبعاً متقناً . والعنوان على الغلاف الأسود (بحروف سود بارزة) بالحروف التركية الجديدة على رقعة مستطيلة صفراء ذهبية اللون . عدد صفحاته ٢٤٤ . في أولى صفحاته صورة المربي القدير المرحوم حسين رفيق قيريش أُخذت له في استانبول بعد إحالته على التقاعد ، وقد تجاوزت خدمته في التعليم أكثر من نصف قرن تخرّج على يديه إلى الوطن الألوف من النشء المتعلم بالإضافة إلى كثير من الأصدقاء .

كتب (المقدمة) السيد فؤاد نفسه ، برّاً بوالده وتخليداً لذكرى أبيه الذي قارب الثمانين من العمر يوم غادر هذا العالم الفاني الى دار البقاء ، تاركاً بعده — إلى الذكر الحسن — مؤلفاته ، وما ترجمه من آثار ، وما نشره وما لم ينشره في عالم المطبوعات ، من المقالات والأشعار أو ماكتبه كمذكرات متناثرة بين أوراقه .

ولا عجب في عمل هذا النجل النبيل وهو الذي أخذ عن أبيه المعلم الحافلة حياته بالتعليم والإرشاد والوعظ ـ بله حرصه على تعليم أولاده وتهذيبهم وإرشادهم ـ الرعايةَ لحقوق الوالدين برّاً بهما ، وهو نوع من اتصال عمل المتوفى ،

في الدنيا الوارد ذكره في الحديث الشريف : (... وولدٌ صالح يدعو له . أو كما قال عليه السلام) .

فجمع ما تيسر له من المعلومات المتوفرة في المعاهد والمؤسسات العلمية والمكتبات الخاصة والعامة من الأصدقاء المخلصين والطلاب الأوفياء ، عدا عما لديه هو ، من الأوراق كما حصل على صور تذكارية للمرحوم كان أهدى في حال حياته إلى أصحابه وأصدقائه عدداً منها ؛ واخرج إلى عالم المطبوعات كتاباً عن حياة هذا المربي الجليل تبقى ذكرى بين أصدقائه ، ونموذجاً ينسج على منواله المأمون الشباب الجدد . وهو في خمسة فصول جميـــل الطبع حسن التبويب :

في الفصل الأول . — ترجمة حياة رفيق ڤيريش وأسرته .

في الثاني . — ما أدّاه للوطن من الخدمات الرسمية وغير الرسمية والفخرية .

في الثالث . — آثاره ، المطبوع منها وغير المطبوع من المؤلفات والترجمات مع مقالات له في موضوع الدين والأخلاق (اتحاد المسلمين – فضائل الصوم – يوم الخضر . الخ) وجوابه على عشرة أسئلة وجّهتها وزارة المعارف إلى العلماء والمفتين (بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢٢) وفيها ظهرت مقدرته ، إنشاءً وبياناً وقوةَ حجة ، وحسنَ جواب ، وكانت فصل الخطاب .

في الرابع . — أشعاره : في الولادات ، في الوفيات ؛ في حرب الاستقلال ، وذكريات شتى .

في الخامس — سنواته الأخيرة ، وفاته وما بعد ذلك .

ملحق وجيز — في تفسيره باللغة التركية للآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة ، والأدعية المأثورة .

ثبتٌ . — لبعض المصطلحات القديمة وما يقابلها بالتركية الحديثة .

الكتاب ، قصةُ حياةٍ واقعية ، مثيرة فيها عظة ؛ حقيق أن تكون مثالاً يحتذيه جيل صاعد راغب في سلك التعليم .

القصة : تسرد بصدقٍ وبساطة حياةَ معلم جليل القدر ، واسع الصدر ، تلقّى صدمات الدهر وعقباته بثبات ورضى ، واجتاز مراحلها بعزم وحزم ، وهو يتنقل في أرجاء الوطن من وظيفة إلى أخرى في التعليم . ولقد أفنى من عمره نصف قرنٍ في التعليم ، فإدارة معاهد علمية من الولايات العثمانية سابقاً منذ سنة (١٨٨٨) [في الشام ، في اللاذقية ، في بغداد ، في كربلاء] فالولايات التركية [سيواس ، وان ، قونية ، استانبول] . قام بوظيفته التعليمية أحسن قيام وخرج منها يوم أحيل على التقاعد ، ناصع الجبين مرتاح الضمير ، فخوراً بما قدّم للوطن من هذا العدد المديد من الشباب المتعلم ، إلى يوم لفظ أنفاسه الأخيرة مودّعاً هذه الدار الخلابة المظاهر ، بين لفيف من أفراد أسرته وأقاربه الأدنين .

وأروع ما في الكتاب وأدعى للتأثر والاعتبار : ما كتبه في آخر أيامه وهو في سرير المرض بعنوان (في فراش المرض) (ص ١٨٣) يخاطب نفسه ، شعراً ونثراً استلهمه عن إيمانه العميق ، وبخطه وتوقيعه (١٥ شباط ١٩٤٥) . وهي قطعة بليغة حقاً ، فيها تتجلى : التقوى والعقيدة المتينة ، والإيمان الصادق الراسخ في قلب مؤمن مخلص لله تعالى . وبها عظة وعبرة لابن آدم هذا المخلوق المعدّ للفناء ، المغرور المتكبر ، على عجزه ، من غير تعقل وتفكر ، الذي تصرعه حُمَةُ جرثومٍ تلقيه في دمه (بَرْغَشَةٌ) ضئيلة !

أثارت مطالعة الكتاب فيَّ الذكرى ـ والذكرى تشوِّق ـ إلى ربوع العاصمة التركية القديمة الجميلة ، المليئة بالأحداث التاريخية الهامّة التي لقّبها شاعرهم المبدع (توفيق فكرت) بـ (العجوز الفتّانة الأرملة البكر) في قصيدته العصماء الرائعة بما اشتملت عليه من حسن الوصف ، والتي رفعته

إلى قمة الشاعرية وعنوانها (الضباب (*)) في يوم غشّى الضبابُ الكثيف العاصمة ، أقول أثارت في نفسي الذكرى والحنين إلى العاصمة استانبول ، القديمة وأكثر ماورد ذكره في الكتاب من أحيائها هو مما تفتحت عيناي منذ طفولتي ، على أرجائها وعشت فيها أعواماً طوالاً .

فمرّت أمام عيني مرور الصور على الشاشة السينمائية ، كما مرت المدارس التي تلقيتُ دروسي الأولى فيها ، والأسواق والطرق التي نجتازها إلى المدرسة (المكتب) ، والحدائق التي كنا ورفاق المدرسة نلعب فيها ، فرحين دون أن ندري ما يخبؤه المستقبل .

وشخصت أمام بصري أشباح المعلمين الأتراك الذين أخذتُ عنهم بلغتهم ، منذ الطفولة ، من (الابتدائي) و (الرشدي) و (السلطاني) وهم لا يزالون من نفسي في محل الإجلال والإكبار .

ومما يلفت النظر – زيادةً عن كل ما ورد عن حياة المعلم المرحوم من جلائل الأعمال تعليماً وإدارةً – ما كان يتحلى به من التقـوى والصلاح والحرص على أداء الفرائض الدينية ، والنصح والإرشاد .

دخل المعلم رفيق ، سلك التعليم في الدولة العثمانية (سنة ١٨٨٨) بالشام (مركز ولاية سورية آنذاك) معلماً للإملاء ، في مدرسة (الرشدية العسكرية) بعد نجاحه في المسابقة التي أجريت لذلك ، وكان في الشام عمه (حسين أفندي) منفياً ، نفاه عبد الحميد الثاني ، الذي لم يَرُق له أن يبقى في استانبول أحدٌ ممن كانت لهم صلة بسراي السلطان مراد الخامس . ووالي ولاية الشام إذ ذاك هو أحمد مدحت باشا .

(*) (سيس) بالتركية : ألهمه إياها ضبابُ يوم ، كثيف ، غطّى العاصمة ، وهو مطلٌ من شرفة بيته العليا في (بيك) ، الذي أسماه (آشيان) ومعناه (عش الطير) تشبيهاً منه ، نفسه – وهو الشاعر الصداح – بالطير المغرّد من عشه . ويعدّه الأدباء الأتراك مؤسس مدرسة الشعر الحديث في الأدب العثماني السابق .

وعلى الرغم مما عُرض عليه من الوظائف الملكية الأخرى آثر البقاء في سلك التعليم ، فعلّم في الشام ثم في اللاذقية التابعة لولاية بيروت في ذلك العهد ، ثم في مدارس بغداد ، ثم في (سيواس ، وان ، قونية ، استانبول) . ففي بعض منها قام بالتعليم ومعاوناً للمدير ؛ وفي بعض منها كان مديراً . ثم عُيّن مديراً للمعارف ، فمديراً لشعبة الحقوق من دار الفنون .

ولطول إقامته في البلاد العربية معلّماً ، أتقن اللغة العربية تكلماً وكتابة . كما تعلم اللغتين الفرنسية والفارسية فبلغ فيهما درجةً تمكّنه من التكلم والكتابة بهما .

في الكتاب صور شتى خارج المتن ، عدا الصورة الأولى للمرحوم ، صور تذكارية في أعوام مختلفة . وخريطة لولاية سينوب فيها اسم القرية التي ولد فيها المرحوم (*) .

منها بين الصفحتين (١٦ — ١٧) صورة له حين كان بالشام معاون مدير للإعدادية الملكية سنة (١٨٩٢) ، وصورة أخرى له في المدرسة نفسها مع طلبته وهو يلقي عليهم درساً في الهندسة وتطبيقات المسح (١٨٩٣) .

وبين الصفحتين (٤٨ — ٤٩) صورة له وهو ملتح ، بعد أن عُين مديراً لإعدادية اللاذقية وعاد مأذوناً لدمشق (١٨٩٧) .

وبين الصفحتين (٦٤ — ٦٥) صورة له حينما كان مديراً للمعارف ببغداد ، وصورة أخرى بجانبها وهو بالزي البغدادي بالعباءة والعقال (١٩٠٦) .

وصور شتى له في مدارس الولايات التركية واستانبول أخيراً .

(*) ولد عام (١٨٦٨) في قرية (گوللي كوي) في ناحية (گرزة) في ولاية سينوب الواقعة على البحر الأسود . وتوفي باستانبول (حي بشكطاش) حزيران ١٩٤٠ ودفن في مقبرة (يحي أفندي) ، في حظيرة الأسرة .

وفي الصفحتين (١٤٦ — ١٤٧) روسمٌ لدعاء خطبة الجمعة بالنص العربي وبخط رقمي مشكول ، جميل (يجيد المرحوم الخطين الرقعي والديواني) .

وفي الصفحتين (١٥٦ — ١٥٧) روسمٌ قصيدةٍ لمعروف الرصافي بعنوان (سعادة رفيق بك) يوم كان المرحوم مديراً للمعارف في بغداد وكان الرصافي معلماً للعربية (١٩٠٦) بخط رقمي جميل بالحروف العربية [بعد ذلك ترجمةُ القصيدة إلى التركية بالحروف التركية الجديدة] .

يُشكر نجله الفاضل (فؤاد آرون (*)) امهله المجيد هذا في تخليد ذكرى والده المربي المناضل تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه .

وتُشكر سفارة الجمهورية التركية بدمشق ، لهديتها لمجمعنا نسخةً من هذا الأثر التاريخي المتعلق بالعلم والتعليم ، لعله يكون مثالاً جميلاً عن حياةٍ طويلة تقضَّت بشرف وأمانة ، لمن يطالعه من الجيل الصاعد فيقتدي به إذا انخرط في سلك التعليم .

الكواكبي

ملاحظة . — لم يرد ذكر قصيدة الرصافي المتعلقة بالمرحوم في ديوان الرصافي المطبوع سنة ١٩٣١ فرأيت من المفيد إثبات نصها هنا خدمة للتاريخ والذكرى .

(ص ١٥٦ — ١٥٧)

(*) ولد السيد فؤاد آرون (سنة ١٩٠٩) في يوم تنصيب السلطان رشاد ملكاً على عرش السلطنة ، بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن عرشه (ص ٥) . وهو حالياً مقيم في (يكيشهر — أنقرة) أمدّ الله في عمره وأكثر من أمثاله من الأولاد النجباء البررة الأوفياء .

سعادة رفيق بك

معارفنا منك استنارت بدورها ... على حينَ قد كانت سراراً شهورها
وقد أصبحت أفلاكها مستديرةً ... بحسن انتظام حيث أنت مديرها
وكان بنوها يشتكون انحرافها ... فما جئت إلا واستقامت أمورها
سعيت إلى تقويمها سعي قادرٍ ... بسَوْرة عزمٍ يستحيل فتورها
محباً لآباءٍ حوت حجراتها ... رفيقاً بأبناءٍ تضم حجورها
فكنت لها كالغيث باكر روضةً ... ذوت لانقطاع الغيث عنها زهورها
فأضحت بها الأزهار ريّا نديّةً ... تغنّى على الأغصان فيها طيورها
تسنّى عسيرٌ من طريق رُقيّها ... ولولا رفيق ما تسنّى عسيرها
أشار إلى غاياتها بدلالةٍ ... فياحبذا الغايات وهو مشيرها
له ذلّ من أرض السياسة صعبها ... فلو شاء لانت في يديه صخورها
تأمّل في أحكامها بفراسةٍ ... فبانت له أعجازها وصدورها
فألقت إليه بالأمور وانّه ... جدير بأن تُلقى إليه أمورها
وصارت مقاليد الرياسة رُجّماً ... إليه ألا نعم المصير مصيرها
إذا ما طريق للنجاح توعّرت ... وسار بها عادت سهولاً وعورها
وأقلامه في الطرس إن هي أعملت ... يروع قلوب المنشئين صريرها
تلوح بها الأفكار بيضاً وجوهها ... إذا انتظمت في الصُحْف سوداً سطورها
رأت سعةً في الفضل منك وفي النُهى ... أمانيّنا حتى استطال قصيرها
وماجت بنا في بُعْدِ فضلك مثلما ... يموج بأبعاد الفضاء أثيرها
وكم لك آراءٌ حكين كواكباً ... يشق عمى الأبصار بالحق نورها
أعيذك بالصدق الذي أنت أهله ... من القوم إن القوم يخدع زورها

فديتك إن القوم صالية الحشا بنيران حقد لا يبوخ سعيرهـا
فكم سلكوا بي في مفاوز للقلى عليّ تلظّى بالعداء هجيرها
فلله أشكو ثم لله معشراً يُضام بتضييع الحقوق عشيرها
ولستُ بأحداث الليالي مبالياً أهبّت صباها رخوةً أم دبورها
أدامك ربّ الناس للناس ناصراً إذا عزّ في دار الهوان نصيرها

بغداد في ٣ مارت سنة ٣٢٢ الداعي

معروف الرصافي

[٣ مارت سنة ٣٢٢ توافق سنة ١٩٠٦ م]

نظرة في معجم

(الطحانة والخبازة والفرانة)

أعدّه المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي
بالتعاون مع مصلحة التعريب التابعة لمكتب التسويق والتصدير
بالدار البيضاء — المغرب

في علم الآليات والحركات (المكانيك) مبدأ يقول (الحركة الدائمة في الطبيعة شيء مستحيل) . . . على أن ما يبدو في (المكتب الدائم لتنسيق التعريب) في العالم العربي ، في الرباط ـ المغرب ، يكاد يجعلني أقول (إن الحركة الدائمة) ليست بشيء مستحيل . وها هو ذا المكتب يحقق هذه الحركة المباركة المستمرة بما يقوم به من جليل الأعمال بنشاط نادر المثال ، واتصال دائم مع سائر الأقطار العربية العلمية ليُخرج للناس أحسن ما عمل من ثمرات جهود جبارة تذكر فتشكر . أليس كل هذا (حركة دائمة) دون انقطاع ؟ !

إن ما أخذه على عاتقه هذا المكتب الفذ من عمل ضخم وشاقّ وما بذله ويبذله في هذه السبيل من تضحيات مادةً ومعنى لجديرٌ بالإعجاب والإكبار .

لقد أخرج (المكتب) أخيراً (معجم الطحانة والخبازة والفرانة) وصلت إليّ منه نسخة مطبوعة على الطابعة ، إعداداً للطبعة النهائية بالمطبعة ، وهي حاوية من المصطلحات الجديدة الجديرة بكل تقدير لمن عمل على وضعها وانتقائها من بين ما وُضع لها ، ورتبها فأحسن ترتيبها ، ونسّقها فأجاد تنسيقها الملائم للغرض (وعددها ٤٨٩ كلمة) بعـــد المشاهدة رأيَ العين لأجزاء مختلف الآلات والأجهزة في أكبر مطحنة في المغرب وأرقاها وأكملها تجهيزاتٍ ، في زيارةٍ دراسية لمطاحنها ، تحقيقاً وتدقيقاً وتفهماً للغرض الذي ابتكرت له ، لتأتي مصطلحات هذه المهنة متوافقة مع مدلولها ، وهي المهنة التي تتوقف عليها أسباب الحياة وأعني الأغذية وعلى رأسها الحنطة فالدقيق ، من طحنٍ ونخل ونخب وعَجْن وخَبْز . وهذا حقاً عمل منطقي طريف منطبق على الواقع المشاهد عياناً ، تهنَّأ عليه اللجنة .

هذا وقبلاً ، أخرج هذا المكتب (الديناميكي) معاجم في مختلف الشؤون والعلم والفن . فالشكر والتقدير لنشاط أركانه ولمن يتولون إدارته ويسهمون في أعماله بغيرةٍ وحماس عجيبين .

وإذْ قد رغبت لجنة المكتب إلى الطالع إبداء رأيه وملاحظته حول ما ورد في المعجم من المصطلحات رأيتُ ـ تلبيةً لهذه الرغبة ـ أن أذكر على صفحات مجلة المجمع العلمي العربي مما وجدت فيه ما يلاحظ عليه من المصطلحات ، خدمةً للمعجم نفسه ، فعسى أن تنظر إليها اللجنة بعين الرضى . وفقنا الله جميعاً لما فيه مصلحة لغتنا الحبيبة إلى قلوبنا ، من ناحيتي العلم والفن ، وهدانا للصواب .

وإليكم الآن الملاحظات :

الصفحة	الرقم	
٢	٧	Granulation يقابله : التَّحثير ، بالحاء .
٢	٨	يحسن أن تذكر كلمة (طحن) أسوةً بأخواتها السابقات فيقال (الطحن بالمنحاز) بدلاً من (النحز) فقط . وفي التعريف يقال : النحز الدق بالمنحاز أي بالهاون .
٣	١٣	وُضع لكلمة Rendement : مَرْدُود . واختلف على هذه الكلمة . قلتُ : الأصلح (المَرْجُوع) الفصحى من (جاءني رُجعى رسالتي أي مرجوعها وهو جوابها) كما في القاموس ، وكأن الفرنسية ترجمة العربية .
٤	١٧	الجشب ، كالجرش : Concassage .
٤	٢١	الكركرة ، بحسب شرحها يقابلها : Remoudre .
٤	٢٣	الهرس : Broiement .
٥	٢٥	يكتفى بكلمة (الهاون) لشهرتها .
٥	٢٦	〃 〃 (الدق) 〃
		وما عدا الهاون ، والدق ، يترك لما يجدّ من آلات السحن .
٦	٣٣	Meuleuse أليست هي (المِطْحنة ، بكسر الميم) ؟
٧	٣٩	الناعورة بالمَهْز à impulsion ..... ، باضافة (المهز) وهو الدفع .
٩	٥١	المنفة النبّاذة (على التفعيل) والفعل هو النَّبَذان .
٩	٥٢	〃 الجبّاذة (〃) 〃 〃 الجبذان .
		لما في الفعلين من معنى الحركة [فَعَلان : الاضطراب والحركة].
١٠	٥٤	Vanne . و (الحبْس) بمعنى Ecluse .
١١	٥٥	لعلّها : Moulin à bras .

الصفحة	الرقم	
١٣	٧٥	الجعجعة : Bruit de Moulin كما وردت في معجم كليرفيل الفرنسي (انظر النسخة الفرنسية العربية) .
١٣	٧٦	المِدْوَك Pilon d'agate تخصيصاً .
١٥	٨٤	الفَصّالة لما يقابل Séparateur أصلح .
١٩	١٠٥	المُفَرْجِنة Brosse à blé الآلة التي تعمل عمل الفرجون .
٢٣	١٢٢	الدَّمُوك ، صفةٌ . فالأصلح أن يقال (رحىً دموك) كما وردت في القاموس .
٢٤	١٣١	المِسْحَلَة أو المِسلخة ، بالخاء . فيجب تصحيح الخطأ المطبعي .
٢٥	١٣٢	المِخْلَطَة (اتّباعاً لوزن مِفْعلة) التي جرت عليها مصلحة التعريب .
٢٥	١٣٣	أليس الأصلح : (مَبْلَغ الاستخلاص) فقد ورد في الرقم ١٤٩ : استخلاص مقابل Extraction .
٢٥	١٣٣ مكرر	و (الجاروشة Moulin à bras) .
٢٨	١٤٤	Bluterie : مَنْخَلَة وزان مَفْعلة للمكان ، والمعاجم الفرنسية لم تذكر استعمال bluterie اسماً لما يُنخل به !
٢٩	١٥٢	مَبْلَغُ (السفسفةِ) مقابل taux مثلما ورد في الرقم ١٣٣ .
٣٢	١٦٢	Silo : هو الكُنْدُوج تخصيصاً . أما (الهُرْيّ) فهو (بيت يجمع فيه طعام السلطان) كما في القاموس .
٣٣	١٦٨	المِكْيَسَة (اتباعاً لوزنِ مِفْعَلة) ؛ أو (مُكَيِّسة ، على التفعيل ، كما ورد الفعل نفسه في الرقم ١٦٩ .
٣٤	١٧٤	Treuil هو المَنْجَنون ، والمَنْجَنين .

الصفحة	الرقم	
٣٥	١٧٨	Etiquette : يَفْتَج (عرّبتُها عن التركية يَافْتَه) كما (وردت في مصطلحاتي العلمية ـ طبعة ثامنة ١٩٥٩) والاشتقاق منها سهل . أليست هذه أصلح من (البطاقة) التي هي (الرُقعة الصغيرة المنوطة بالثوب التي فيها رقم ثمنه ، سميت كذلك لأنها تُشَدّ بِطاقةٍ من هُدْب الثوب ؟ ! ـ القاموس) .
٣٥	١٧٩	Etiquetage : يَفْتَجة . [يَفْتَج étiqueter ؛ مُيَفْتَج étiqueté الخ] .
٣٥	١٨٠	المُقْط (وهو الخيط الذي يُصطاد به الطيور) أصلح من المِقاط ، بكسر الميم ، فهو الحبل يُشدّ به .
٣٦	١٨٦	الباضعة الرِدْف أو الرَّديفة (بدلاً من : المدبورة) . وفي الشرح : باضعة تَرْدَفها ، كنصر ، أو تُردفها من أردفَ). كل هذا من (الرِدْف كالرديف وهو الراكب خلف الراكب ، كما في القاموس) .
٣٧	١٨٧	الباضعة المردوفة أو المُرْدَفة تمييزاً لها من الرقم ١٨٦ .
٣٧	١٩٠	لعل الأصلح (المِدْرَعة ، وهي الثوب يُتمدرع أي يلبس) ، بدلاً من (الميدعة كالمِيدَع ، المكان الذي يُصان فيه الثياب وهو الصُوان Garde - robe) .
٣٩	٢٠١	فوق اكسيد الآزوت (بدلاً من بيروكسيد الآزوت) .
٤١	٢٠٦	Issues : نُفايات (ومثلها Déchets) كذلك .
٤٢	٢١١	ومثلها (الخُشالة ، بالشين) كذلك .
٤٦	٢٥٥	Moisissures هو : (العَفَن ، العفنات) كما ورد في معجم كليرفيل (انظر النسخة الفرنسية العربية) .

الصفحة	الرقم	
٤٨	٢٣٦	Ergot هو (أرْغُوت ، تعريباً) [وميْهاز الجَوْدار : ergot de Seigle كما وضعته لجنة المصطلحات الطبيــة ، انظر النسخة الفرنسية العربية ـ معجم كابرفيل] .
٥٠	٢٥٠	وكذا (ناشطة) بمعنى .
٥٠	٢٥١	وكذا (نشوط) بالمعنى نفسه وهو نبات الشيء من أرومته أول ما يبدو حين يصدع الأرض .
٦٨	٣٤٣	يكتفى بكلمة (الميرْقاق) . و (الشَّوْبق ، معرَّب مشهور) وتترك الباقيات لما يجدّ من آلات الترقيق .
٧٥	٣٧٥	المَخْمر ، على اسم المكان ، من الثلاثي وهو ترك العجين حتى يجود .
٨١	٤١٢	الفَغْمة [بدلاً من (الملاط) الذي له معان شتى] من الفَغْم والتفاغم .
٨٢	٤١٤	(التحميم بحمام ماري) باضافة حمام ماري ، تخصيصاً باسم مبتكرة الطريقة والجهاز المسمَّى باسمها .
٨٣	٤١٦	خُبْز فَطير هو بالفرنسية : Pain azyme .
٨٤	٤٢٨	المِرْتَنة تقابل Tartine .
٨٤	٤٢٩	الخبز المُقَمَّر (والكلمة مشهورة) وأحسبها من (القُمْرَة) وهي البياض فيه كُدْرة . فهي أصلح من (المشوي) . فالخبز لا يُشوى بل يجعل على النار لتعلوه كدرة ، وهو نوع من التحميص .
٨٥	٤٣٤	Biscottes هو البَقْسَماط أو الخُشْكَنان (من الفارسية) على ما أذكر .

الصفحة	الرقم	
٩١	٤٧٢	الأصلح (صَمَغَ ، بالميم) بدلاً من (صَبَغَ ، بالباء) إذ ليس هنا صَبْغ بصباغٍ ما . إنما هو (تلميع) والصمغ لمّاع ملمّع .
٩٢	٤٧٧	مُهلَّمة Gelée ، من الهُلامة gel [وهذه من الهُلام . والاشتقاق منها وفير : gélification تَهليم ، se gélifier تَهلَّمَ] بدلاً من (مُجَمَّدة) .
٩٢	٤٧٨	مُراتة ، بدلاً من (خبيصة : empoi) .

الكواكبي

مدينـــة دمشق

عند الجغرافيين والرحالين المسلمين

وضعه الدكتور صلاح الدين المنجد

استشهد المؤلف في تضاعيف كلامه بقول البحتري :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى مُطريها بما وعـــدا

يمشي السّحاب على أجبالها فِرقاً ... ويصبح النبت في صحرائها بَدَدا

فلست تبصر إلاّ وادياً خضراً ... أو يانعاً خضِلاً أو طائراً غردا

نعم ! هذه دمشق الفناء ، وهذا كتاب ابنها البار الصلاح المنجد فيها ، نأى عنها غير مختار ، فما خفف البعاد شيئاً من تعلقه بها ، وصبوته إليها .

كان من بعض هذا الهيام بها ، والحنين إليها ، أن بلغ ما أخرجه من كتب تتعلق بها ، وتتصل بتاريخها وأحداثها ، ثلاثين كتاباً ، كان آخرهـا هذا الكتاب الذي نتحدث عنه : « مدينة دمشق » ضم بين دفتيه (طائفـة

كبيرة من النصوص التي وردت في تواريخ الجغرافيين الرحّالين والعلماء الذين وردوا إلى دمشق وكانوا غرباء عنها : من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر الهجري) جمعها من عشرات الكتب من مطبوع ومخطوط .

بلغ من نقل عنهم أربعين شيخاً : من عالم ومؤرخ وأديب . يبدأ بخلاصة عن حياة كل منهم : مولده ، ونشأته ، وسائر ما يعرف عنه مما وصل من خبره إليه . ثم يعقّب على ذلك بما كتبه هذا الشيخ عن دمشق من نثر وشعر .

ومن يبدأ بهذا الكتاب لا يملك نفسه أن يتركه قبل أن ينتهي إلى آخر صفحة منه .

تقرأ في هذا الكتاب الممتع المفيد من طرائف ولطائف تبدي لك عن محاسن هذه المدينة ، وعمّا فيها من عادات وأعراف ، وعمّا لاقته في حياتها الطويلة — وهي من أقدم مدن العالم إن لم نقل أقدمهن على على الإطلاق — من رفعة وعزة ، وضعة وذلة ، واستقلال واستعباد ، وما فيها من معاهد ومدارس ، ومن جوامع وكنائس ، ومن ضياع ورباع ، ومن متاجر ومصانع ، ومن أسواق وحمّامات ومن وقوفات ورباطات ، وما هم عليه أهلها من لطف ولين .

وهذه المحاسن والمحامد على شهرتها وشهرة أهلها بها ، لا تمنعه أن ينشر إلى جانب هذا المدح والثناء الحق ، ما قاله بعضهم في ذمها وتفضيل غيرها عليها .

فمن العادات المستحبة التي يذكرها « عن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة . فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء ، فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده . ومن كان من التجار وكبار السوقة فعل مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية

فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم وفي مسجد ، ويأتي كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً »[١]

أدركنا ذلك في عهدنا يوم كان الرئيس محمد علي العابد رئيس الجمهورية السورية يدعو إلى مائدته في رمضان الوزارات على التعاقب : وزارة وزارة : وزيرها ورؤساءها وأركانها ثم المتقاعدين والمحامين والوجوه والأعيان ثم أرباب المتاجر والمصانع بحيث لا تخلو مائدته في ليالي رمضان من عشرين إلى ثلاثين مدعواً .

جرى في هذا على سنة دمشقَ وعلى طريقة وزراء الدولة في الآستانة ، ـ وكان منهم ـ ثم هو يودع أضيافه على باب داره بكل ما أوتيه من لطف وتواضع .

وتتبيّن هذه الأخلاق الدمشقية في ناحية ثانية من نواحي الآداب الاجتماعية . فأنت قلّ أن تعرف صديقاً رفعته الأقدار إلى منصب لم يكن ليحلم به إلاّ شمخ بأنفه ، وتعالى عمّن كان يعرفهم ، ونجد الدمشقي وقد بلغ أسمى المراكز ـ رئاسة الجمهورية مثلاً ـ لا يزال على كثير من الوضع الذي كان عليه من قبل ، ويظل في كثير من مجالسه على ما كان عليه من ظرف ولطف ونكتة .

---

(١) وحافظت دمشق على عاداتها هذه فكان وجوهها وأعيانها يدعون في جملة من يدعونهم إلى إفطار رمضان كبار الحكومة . وما كنت أحب هذه الدعوة لرجال القضاء . وكان يزعجني أن أراهم جاعة جاعة في سوق الأروام ننتظر بعضهم بعضاً حتى إذا تكامل عددهم ذهبوا إلى حيث هم مدعوون . فطلبت إليهم أن يمتنعوا عن قبول هذه الدعوات فقد تجر إلى الخروج ، أو الاتهام بالخروج عما يتطلبه القضاء من تجرد وحياد . ففعلوا . فارتاحوا وأراحوا . . . . (ع)

هذه خطرات رأيت أن أشير اليها ونحن في الحديث عن مدينة كتب لي أن أعيش فيها قرابة أربعين سنة فلا عجب أن يولع بها أبناؤها والمقيمون فيها ، وأن يمثلهم الأستاذ الصلاح في هذه الكتب الممتعة .

واذا كان كتاب « مدينة دمشق » قد جمع ما قيل في دمشق من قبل ، فلا بد أن يضاف إلى ذلك ما كان في هذه المدينة الجبارة من وطنية صادقة ، حمل السلطات الأجنبية في كثير من الأحيان أن تحنو أمامها رأسها . بدأت الحركة العربية في بيروت : أدباً وسياسة وحديثاً . والأدب فيها غالب على السياسة والعمل . فانتقلت إلى دمشق سياسة وأدباً وعملاً . والسياسة والعمل غالبان فيها على الأدب . كان يقع لهذه المدينة أن تضرب عن الأعمال إضراباً عاماً شاملاً ، يبلغ في بعض الحالات أربعين أو اثنين وأربعين يوماً ، لا يخيفها تهديد ولا وعيد . وقضت في جهادها ربع قرن حتى جلا المستعمر عنها كما جلا عنها غيرهم من المستعمرين من قبل .

وبعد ، فان لدمشق أن تفخر بصلاح الدين المنجد كما له أن يفخر بها ، مقيماً بها أو نازحاً عنها ، أحسن الله إليه قدر ما أحسن في كتابه هذا إلى وطنه وإلى العلم والأدب .

و (مدينة دمشق) طبع طبعاً متقناً على ورق صقيل ، مبوب أحسن تبويب ، وله فهارس قيّمة تعين على الرجوع إلى بحوثه وموضوعاته .

وقد وقع بعض أخطاء مطبعيـــة كان الحق أن يستدركها المؤلف كما استدرك غيرها ، من ذلك ما جاء في الصفحة ٢٩٧ في بيتين لابن نباته :

دمشق في أرجائهـا مواضـع يصبو إليهـا ناظر وسامـــع

ربوعهـا وقصرها والجامع فهي ثلاثـــة ما لهن رابع

والصواب : ثلاث ليستقيم الوزن .

وفي الصفحة ٣٠٨

باكر إلى قهوة مسكية فضحت ذكرى المدام وشنّف لي الفناجينا
تدعو إلى نحو ما فيه البقاء ولو دعت إلى نحو ما فيـــه الفنا جينا
ولو أن ألف امرئ طافوا بحاناتها قصد النجـــاة رأيت الألف ناجينا

وهـذه الواو في البيت الأخير من خطـــأ الطبع لا يستقيم الوزن إلاّ بحذفها .

الكرمي

***

الملكة زنوبيـا

مسرحية شعرية للأستاذ عدنان مردم بك

يُخرج الأستاذ عدنان ، مسرحيـات شعرية يُوَفق في موضوعهـا وفي أسلوبها .

وآخر هذه المسرحيات « الملكة زنوبيا » جعلها أربعة فصول ، وأهداها إلى موطن البطولات ، ومهد الحضارات ، المدينة الخالدة : « دمشق » .

وقدم لها بتوطئة موجزة في تاريخ « زنوبيا » وذكر أن السبب الذي حمله على وضع هذه المسرحية ، زيارة سبقت له إلى تدمر برفقـة والده العلامة الفقيد خليل مردم : رئيس المجمع العلمي الأسبق رحمه الله .

والمسرحيات الشعرية العربية قليلة . وقليل من وفق فيها ، حاشى شوقي . وقد يكون الشيخ خليل اليازجي أول من فتح هـذا الباب بروايته : « المروءة والوفاء » . ثم جرى على خطاه ابن اختـــه السيد نجيب الحداد في روايته : « صلاح الدين » .

والصعُوبة في المسرحيات الشعرية : أن الشاعر في موضوعه وفي أسلوبه

مقيد غير طليق ، على حين أنّ الشاعر في غير المسرحية طليق غير مقيد ، يذهب في قوله كل مذهب .

وفي رواية زنوبيا من المواقف الشعرية الموفقة ما يسيل رقة وعذوبة : لفظ فصيح في معنى صحيح ، من ذلك قوله :

الغرب في كل عصر للشرق مصدر شر
شرق وغرب لعمري الضدان في كل أمر

ولعله لو قال « ضدان في كل أمر » لكان القول أكثر انسجاماً .

ومن مستجاد قوله :

الناس في كل العصور هم الضواري الكاسرة (١)
خضبوا الأكف بما أسالوا من دماء طاهرة
ومضوا يعيثون الفساد قياصراً وأكاسرة

ومن الأبيات السائغة :

إن بؤس النفس لو أنصفـــت من سوء السريرة
والعمى في الناس أصناف وألوان كثيرة
وأشد الداء خطباً حينما تعمى البصيرة
خطأ أن تصف النور إلى عين ضريرة

وأمثال هذه الأبيات الموفقة كثيرة .

وفي الرواية بعض مآخذ لا بد للمؤلف أن يتداركها في طبعة جديدة إن شاء الله .

والشكر للأستاذ عدنان على هذه الروائع التي يخرجها لقومه ، وهم بحاجة اليها وإلى أمثالها أسلوباً وموضوعاً .

ع . ه .

(١) ولسنا نرى رأي من يخطئ نعت الضواري بالكاسرة . ويحصر « الكواسر » بجوارح الطيور .

كتاب الهفوات النادرة

تأليف

غرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال الصابئ المتوفى سنة ٤٨٠

حققه وعلق عليه وقدّم له

الدكتور صالح الأشتر

هذا سفر نادر من أسفار الثقافة العربية ، ذو موضوع طريف في الأدب والتاريخ . اضطلع بتحقيقه أخي الدكتور صالح الأشتر ، وطبعه في سلسلة مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٧ . وقد قدّم له بمقدمة طويلة جيدة ، عرّف فيها بالمؤلف ، ودرس الكتاب في موضوعه وأسلوبه وقيمته ، ووصف أصوله المخطوطة ، وشرح طريقته التي اتبعها في التحقيق .

خرج الكتاب من بين يدي الدكتور صالح مصححاً منقحاً، يغري الناس بقراءته ، ويجتذب الباحثين إلى النظر فيه ، والإفادة منه في الأدب والتاريخ واللغة ، ولا سيما اللغة الحضارية واللغة الدارجة في بغداد إبان العصور العباسية إلى زمن المؤلف .

أضاف الدكتور صالح إلى الكتاب حواشي وتعليقات جيدة مفيدة في شرح الكتاب وضبطه ، وردّ نصوصه إلى أصولها ، والإشارة إلى وجودها في مصادر أخرى ، والتعريف بالأعلام والشعراء والرواة الذين وردت أسماؤهم في متن الكتاب . وكل هذا ينير الكتاب ، ويوضحه . على أن من هذه الحواشي ما لا فائدة كبيرة ترجى منه ، مثل الإشارة إلى بحور أبيات الشعر الواردة في الكتاب . وهي كثيرة نكاد نجدها في كل صفحة . وهذا مع أن المحقق الكريم قد ذكر بحور هذه الأبيات في فهرس القوافي . فكان له في ذلك مندى ومعدل عن ذكرها في حواشي الكتاب .

وألحق بالكتاب فهارس عديدة مفيدة أيضاً . والفهارس مفاتيح ذهبية يصوغها المحقق ، ويضعها في أيدي الباحثين والدارسين ، ليصلوا بها إلى المعلومات والأفكار المكنوزة في طيات الكتاب . على أن الدكتور صالح كلف نفسه فوق ما يلزم ، حين صنع (فهرس محتويات الكتاب) . فقد أجاز لنفسه أن يضع لكل خبر في الكتاب عنواناً يدل عليه ، وحشر هذه العنوانات في فهرس طويل شغل ما يقرب من ثلاثين صفحة . وهذا لا يفيد أحداً من القراء ، بله الباحثين والدارسين . وفي الفهرس الأخرى ، ولا سيما فهرس الأعلام ، غنى عنه .

* * *

جوّد الدكتور صالح تحقيق الكتاب وضَبْطه كما ذكرنا آنفاً . ولكن شاب عمله الجيد هنات معدودة ، و « لا تعدم الحسناء ذاماً » ، كما يقول المثل العربي القديم . وسوف نورد هاهنا أمثلة من هذه الهنات طمعاً بالزيادة في نقاء الكتاب وصحته .

قال الدكتور صالح في الصفحة ٥١ من مقدمته : « وقد ترجمنا لعدد كبير من الأعلام الواردة في الأخبار ، وعدد ضخم من الرواة الذين وردت أسماؤهم في أسانيد الأخبار . وأتبعنا كل ترجمة بذكر المصادر التي تترجم لصاحبها » . ولكنه في الواقع ترجم لبعض الأعلام ، وأهمل بعضهم . ولم نعرف خطته في ذلك ، ولم يذكر سبباً نعرفه .

ففي الصفحة ٩ من الكتاب ورد ذكر المدائني المؤرخ الراوية المشهور ، وعيسى بن موسى العباسي . فترجم المحقق للثاني منهما ، وأهمل الأول ، فلم يترجم له مع أنه أحال على كتاب الأعلام للزركلي في ترجمته لعلي بن عيسى . والمدائني مترجم له في الأعلام أيضاً (٥/١٤٠) .

وفي الصفحة ١٠ من الكتاب ورد ذكر إبراهيم بن المهدي وطاهر بن الحسين . فترجم المحقق للثاني منهما ، وأحال على كتاب الأعلام . وترك الأول ولم يترجم له ، وهو مذكور في الأعلام كذلك (١/٥٥ — ٥٦) . ومثل هذا كثيراً جداً في الكتاب .

وقد أحال الدكتور صالح في معظم التراجم التي أوردها إلى كتاب الأعلام . وهو لعمري كتاب جيد في بابه . ولكنه ليس من المصادر الأولى ، لأنه كتاب حديث ، يأخذ عن المصادر القديمة في تراجم الأعلام القدامى . والأولى الرجوع إلى المصادر القديمة في الأول ، ثم الكتب الحديثة . فهذا أجدى وأقوم .

* * *

إن معظم الهفوات في الكتاب واضحة ، بينة المعنى والنكتة . إلا أن عدداً منها لا يستبين معناه ، ولا يدرك موضع الهفوة والنكتة فيه إلا بالشرح والبيان ، بسبب اختلاف البيئة ، وتغير الظروف الاجتماعية والتاريخية ، وتطور مدلول الكلمات وغير ذلك من الأمور . ومن الأجدى شرح مثل هذه الهفوات ، وبيان مواضع النكتة فيها .

مثال ذلك الهفوة ٤٣ في الصفحة ٤٧ من الكتاب . فقد سأل أبو إسحق أبا سعد : « هذا الصبيُّ ولدُه ؟ » أي ولد الخادم . فأجاب أبو سعد : « يا سيدنا ، خادم لا يكون له ولد ! » . وهذا السؤال هو موضع الهفوة ، والجواب موضع النكتة . وينقضي الخبر من غير إيضاح من المؤلف ، أو شرح وتعليق من المحقق . ويتساءل القارىء العادي ، وربما خاصّة القراء : ولماذا لا يكون للخادم ولد ! ولا يعرف السر في ذلك . والسر أن كلمة الخادم صارت تطلق في العصور العباسية ، ولا سيما في بغداد ، على

الخَصِيّ من الخدم دون غيرهم . بل خُصَّت بهذا المعنى ، وصارت مرادفة لكلمة الخصي . ولا نجد هذا في معجمات اللغة ، وإنما نعرفه من كتب الأدب والتاريخ بالاستقراء .

ومثل هذا ما جاء في الهفوة ٣١٠ ، في الصفحة ٣١٢ من الكتاب :

« كان علي بن خلف النيرماني ينشد دائماً :

فعيناكِ عيناها ، وجيدك جيدها ولكن أخلاق الرجال تضيق » .

وقال المحقق الكريم في الحاشية (٢) تعليقاً على هذا : « شطران من الطويل » . وقوله هذا صحيح ، ولكنه لا يغني ، ولا يعني شيئاً .

والشطر الأول من هذين الشطرين صدر بيت معروف لمجنون بني عامر قيس بن معاذ العامري ، من شعر له ، وكان وقع في شراكه ظبية ، فأطلقها وقال :

أيا شِبْهَ ليلى ، لا تُراعي ، فإنني لكِ اليومَ من وحشيّةٍ لصديقُ

ويا شِبْهَ ليلى ، لا تزالي بروضة عليكِ سحابٌ دائمٌ وبروقُ

أقول ، وقد أطلقتها من وَثاقها : لأنتِ لليلى ، ما حَيِيت ، طليقُ

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها سوى أن عظم الساق منكِ دقيقُ

(انظر لسان العرب : روع) .

والشطر الثاني من الشطرين عجز بيت لعمرو بن الأهتم المنقري ، من قصيدة له مفضلية مشهورة (انظر المفضليات ١٢٥ — ١٢٧ ، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤) . وتمام البيت مع البيت الذي قبله :

وكل كريم يتقي الذم بالقرى وللخير بين الصالحين طريقُ

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيقُ

* * *

في الصفحة ٥٨ السطر ١١ — ١٢ :

« ونقلني من الرئاسة والعمالة . وهي المنزلة الزرية والرتبة الدنيـــة » . ولا يستقيم معنى الكلام بهذه الصورة . لأن منزلة الرئاسة والعمالة ليست بزرية ، ولا رتبتها برتبة دنية . إنما المنزلة الزرية ذات الرتبة الدنية هي منزلة اللعب بالشطرنج . فبين الجملتين سقط لم يشر إليه المحقق ، كما ترى . وفي بقية الخبر دليل على ذلك .

في الحاشية (٤) في الصفحة ٦٥ :

قال المحقق تعليقاً على جملة « و يزهزه ألفاظه » : « ولم نجد في المعاجم (زهزه ألفاظه) بمعنى أن يقول . زِهْ زِهْ ، استحساناً عند سماع كل لفظة ، لكن ذلك هو ما يتطلبه المعنى هنا » . ونقول : جاء في كتاب (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيـل) لشهاب الدين الخفاجي ص ١٠٠ : « زهزهة : بمعنى تحسين ، مولدة من قول الفرس : زهي زهي » .

في الصفحة ٧٤ السطر ٧ — ٨ :

« وقيل : خرج عبد الملك بن مروان يوماً قاراً ، وعليه جباب خز متظاهرة ، على عليّ بن عبد الله بن العباس » .

قوله « قاراً » ها هنا تصحيف . والصواب : « ماراً . . . على علي بن عبد الله بن العباس » . وقد خيل إليّ في بادىء الأمر أن هذا من الغلط المطبعي . ثم نظرت فاذا المحقق الكريم يثبت « قاراً » عن اختيار . ويعتبر « فاراً » الواردة في نسختي (أ) و (ع) تصحيفاً ، كما في الحاشية (٤) .

في الصفحة ٩٤ السطر ٨ :

« واتفق لي ، وهي تحدثني بذلك ، أن موسى وراء الباب » . في هذا القول غلط لم يصححه المحقق . والصواب : واتفق لي وهو يحدثني بذلك ... » لأن الحديث كان بين جـد القنائي وبين داود بن الجراح في منزل موسى ابن عبد الملك . وفي أول الخبر وبقيته دليل على ذلك .

في الصفحة ١٣٢ السطر ١١ :

« وجعلت اليمانية تعض على شفاههـا ، تظن أن قد هربت » . وفي الحاشية (٣) في ذيل الصفحة : « ب : هويت » . وما في نسخة (ب) هو الصحيح . و (هربت) لا معنى لها هاهنا . و (هويت) معناها : هلكت ، وهو المقصود هاهنا .

في الصفحة ١٧٧ السطر ١٣ :

« ويحقق الأمر عنده كون الرجل وحده ... » . وفي الحاشية (٥) في ذيل الصفحة ما يشعر أن (يحقق) زيادة من نسخة (ب) ، وأنه كان فيها : « وتحقق الأمرُ عنده لكون ... » . وما جاء في نسخة (ب) صحيح لا بأس به ، ولا نرى وجهاً لتغييره كما صنع المحقق .

في الصفحة ١٧٨ السطر ٨ — ٩ :

« قصم الله أجله وتبر عمره » . وفي الحاشية (٣) في ذيل الصفحة : « تبره : أهلكه . وفي ب : بتر » . و (بتر) الواردة في نسخة (ب) ، وهي بمعنى قطع ، أصح وأجود هاهنا من (تبر) التي اختارها المحقق ، وأكثر انسجاماً مع (قصم) .

في الصفحة ٢١٥ السطر ٥ :

« وحدث عن ابن الزنفيلفي ... » . وفي الحاشية (٥) : « ع : الزنقليفي » . وفيها تصحيف تصحيحه : الزنفليقي ، أو الزنفيلقي نسبة إلى الزَّنْفَلِيقَة أو الزنفيلقة ، وهي فارسية معربة أصلها "زنْبِيله ، أي الزنبيل كما تقول العامة . (انظر نوادر أبي مسحل ٣٢٧ ، والمعرب ١٧٠) .

في الصفحة ٢٧٩ السطر ٢ :

« كان إسماعيل بن بلبل الوزير يفـاوض المعتمد بالله في أمر ... » . الصواب : « المعتمد على الله » . وقد كانت في الأصل « المعتضد بالله » .

فصوب المحقق كلمة (المعتضد) كما ذكر في الحاشية (٢) في ذيل الصفحة ، ونسي تصويب كلة (بالله) .

في الصفحة ٢٨٧ السطر ١٤ — ١٥ :

« وإنما يبقى لرب الضيعة صبابة كصبابة الإناء ، ومجة كمجة العرقوب » . وقال المحقق في الحاشية (٦) في ذيل الصفحة تعليقاً على كلة (كمجة) : « في الأصول : مخة ، ولعلها مجة ، ويقال : لم يبق في الإناء إلا مجة » . وما جاء في الأصول هو الصحيح . وأصل هذا القول مثل من أمثال العرب معروف . جاء في لسان العرب (عرقب) : « وفي المثل : الشر ألجأه إلى مخ العرقوب . وقالوا : شرٌّ ما أجاءك إلى مخة عرقوب . يضرب هذا عند طلبك إلى اللئيم ، أعطاك أم منعك » . وانظر أيضاً مجمع الأمثال ١/٣٥٨ ، وفيه : « والمعنى : ما ألجأك إليها إلا شر ، أي فقر وفاقة . وذلك أن العرقوب لامخ له ، وإنما يُحْوِجُ إليه من لا يقدر على شيء » .

في الصفحة ٢٩١ السطر ١ - ٢ :

« ولا أزال على حالي حتى تأخذه بيعاً صحيحاً ، لا شرط فيه ولا خيار ولا مثنوية » . وقال المحقق في الحاشية (٢) في ذيل الصفحة تعليقاً على كلة (مثنوية) : « كذا في الأصول » . وقوله هذا ينبئ بشكه في صحة هذه الكلمة . ولا داعي إلى هذا الشك ، لأن سياق الكلام صحيح ، والمعنى مستقيم . ومعنى قوله « ولا مثنوية » : أي لا رد في هذا البيع (لسان العرب : ثنى) . ومنه بيت النابغة الذبياني في قصيدته البائية في مدح عمرو بن الحارث الغساني المعروف بالأعرج :

حلفتُ يميناً غيرَ ذي مثنوية ولا عِلمَ إلا حسنُ ظنٍّ بصاحبِ

* * *

هذا وهناك أشياء أخر في الكتاب أقل شأناً مما ذكرنا آنفاً ، أعرضنا عن الإشارة إليها ، لأنها هنات صغيرة تدرك بأقل نظر .

الدكتور عزة حسن

آراء وأنباء

تأبين المرحوم الأمير مصطفى الشهابي [1]

كانت الساعة السادسة من مساء يوم الثلاثاء ٧ من شعبان سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٢٩ من اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٦٨ م موعداً لجلسة مجلس المجمع العلنية التي دعا اليها الدكتور طه حسين رئيس المجمع لتأبين المغفور له الأستاذ الأمير مصطفى الشهابي رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ، وقد توفي في ١٤ من مايو (أيار) سنة ١٩٦٨ م .

وقبيل الموعد المحدد أقبل على دار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع ، وهي المكان الذي تقرر عقد الجلسة فيه ، جملة من أساتذة الجامعات والعلماء والأدباء وأبناء الجمهورية السورية والبلاد العربية ، وعدد من فضليات السيدات وبعض أفراد أسرة الفقيد .

وكان في طليعة الحاضرين الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق والدكتور شكري فيصل عضو المجمع ، وقد حضرا من دمشق إلى القاهرة خاصة للمشاركة في حفل التأبين .

ورأس الجلسة الأستاذ زكي المهندس نائب رئيس المجمع نيابة عن الدكتور طه حسين رئيس المجمع المعتذر من التخلف لحالته الصحية ، وحضر الجلسة الدكتور ابراهيم مدكور الأمين العام ولفيف من الاعضاء .

---

(١) الكلمات التي ألقيت في الجلسة الخامسة للدروة الخامسة والثلاثين لمجمع اللغة العربية في القاهرة في تأبين المرحوم الأمير مصطفى الشهابي .

وفي الموعد المحدد أعلن الأستاذ زكي المهندس نائب رئيس المجمع افتتاح الجلسة وألقى كلمته في رثاء الفقيد ، ودعا بعدها الدكتور عبد الحليم منتصر عضو المجمع لالقاء كلمته ، ثم تلاه الدكتور حسني سبح رئيس مجمع دمشق فألقى كلمته ، ثم تلاه الأستاذ عزيز أباظة عضو المجمع فألقى قصيدة رثاء ، ثم أعقبته السيدة ثريا حافظ فالقت كلمة الأسرة .

ثم قرأ الأستاذ شوقي أمين رئيس التحرير بالمجمع البرقية المرسلة من كريمتي الفقيد بدمشق .

ثم أعلن الأستاذ زكي المهندس انتهاء الجلسة ، وكانت الساعة قد قاربت الثامنة مساء والكلمات والبرقية جميعها مرافقة لهذا المحضر .

★ ★ ★

كلمة الأستاذ زكي المهندس

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان السيد رئيس المجمع الدكتور طه حسين يود أن يشاركنا في تأبين الفقيد العظيم والعالم الجليل الأمير مصطفى الشهابي ، ولكن حالته الصحية اضطرته إلى الاعتكاف والاعتذار ، فباسمه وباسم المجمع أحييكم وأشكر لحضراتكم كريم مواساتكم لنا في تأبين هذا الرجل العظيم ، وأخص بالتحية والشكر السيد رئيس مجمع دمشق ومن معه من الزملاء والأصدقاء الذين وفدوا إلينا لكي يمزجوا أحزانهم بأحزاننا ودموعهم بدموعنا في تأبين الزميل الراحل ، على أن الفجيعة في الشهابي ليست فجيعة مجمع القاهرة وحده ولا مجمع دمشق وحده ولكنها فجيعة الأمة العربية بأسرها ، وفجيعة العلم والعلماء في كل قطر عربي .

نحن إذ نبكيه الليلة لا نبكي فيه رئيساً لمجمع أو زميلاً سابقاً في مجمع القاهرة وحسب ، وإنما نبكي فيه رجلاً عظيماً وعالماً جليلاً ، وعربياً أصيلاً من رجال الرعيل الأول الذين يفخر الوطن العربي ويعتز بأسمائهم وتاريخهم .

حقاً أيها السادة لقد فقد العالم العربي في الشهابي ثروة علمية ضخمة ليس من السهل أن تعوض ، أما خسارة المجمعين فيه فخسارة فادحة ، فقد كان رحمه الله قوة علمية يوثق بها ويعتمد عليها ، وكم من مسألة علمية أو لغوية عرض لها المجمع في مؤتمراته فكان للفقيد فيها جولة تنم عن غزارة علم وسعة اطلاع وإحاطة تامة بأصول اللغة ، حتى في الشهور التي يغيب عنا فيها كان دائماً حاضراً معنا بمذكراته التي كان يرسلها الى المجمع حافلة بالتعليقات والمقترحات والتوجيهات النافعة المفيدة .

ولعل الشهابي يعد من طليعة هؤلاء العلماء القلائل الذين استطاعوا أن يوائموا بين القديم والجديد ، وأن يطوعوا اللغة للتعبير عن المصطلح العلمي الحديث ، وعهدنا بكثير من العلماء الطبيعيين أن يضعوا المصطلحات من غير أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث في اللغة ، أو العناية بدراسة تراثنا العلمي العربي القديم للاستفادة منه ، ولكن الشهابي كان على خلاف ذلك ، كان كثير البحث في اللغة العربية قواعدها وأصولها وطرق الاشتقاق فيها ، كما كان معنياً كل العناية بدراسة ما وضعه العلماء القدامى من أسماء ومصطلحات ، يفيد من هذا كله في وضع المصطلحات العلمية حتى كتب عنه (أمين المعلوف) فقال : لم يكتب في الزراعة منذ صدر الإسلام بلغة أنقى وأصلح من لغة الشهابي .

وكان الفقيد إلى جانب علمه وكفايته مثلاً للأخلاق العالية ، كانت له شخصية جذابة ساحرة ، تؤثر فيمن حوله وتحملهم على إجلالها واحترامها . كان هادىء الطبع كريم النفس عف اللسان . عامراً قلبه بالمطامح الإنسانية الكريمة ، كان يدلي بآرائه في تواضع العلماء ويحترم آراء غيره وإن كانت مخالفة لآرائه .

لقد زاملناه في المجمع أكثر من خمسة عشر عاماً . ولم أذكر أني رأيته يوماً غاضباً من أحد ، أو ساخطاً على أحد ، بل كان محباً للجميع محبوباً من الجميع .

رحم الله الشهابي رحمة واسعة وجزاه عما قدم للعلم واللغة بخير مايجزي به عباده المخلصين العاملين .

أما الآن أيتها السيدات والسادة فسيتولى تأبين الفقيد نيابة عن المجمع الزميل الدكتور عبد الحليم منتصر عضو المجمع ، ويليه السيد رئيس مجمع دمشق الأستاذ الدكتور حسني سبح ويليهما الزميل الشاعر الأستاذ محمد عزيز أباظة عضو المجمع فيلقي قصيدة في رثاء الزميل الراحل وبعد هذا كله تلقي السيدة ثريا الحافظ كلمة الأسرة ثم تتلى برقية كريمتي الفقيد إلى المجمع من دمشق .

كلمة الدكتور عبد الحليم منتصر

أم اللغات قضيت العمر أخدمها فهي الشفيعة في غفران زلاتي

أيها السادة الكرام أيها الزملاء الخالدون :

كأني بفقيدنا العظيم الخالد ، قد لخص حياته وجهاده في خدمة اللغة العربية في هذا البيت الرقيق من الشعر ، الذي نظمه ، وأوصى أن يكتب على قبره ، وحقاً لقد كانت حياته متميزة بطابع الجهد المضني ، الذي يبذله راضياً ، في خدمة اللغة العربية وتطويعها للعلوم العصرية ، تقدم صفوف حماة الفصحى ، الذابين عن حياضها ، المنافحين عن حوزتها ، الداعين إلى جعلها لغة العلم الحديث في مختلف فروعه وفنونه .

عرفت الأمير مصطفى الشهابي ، في أروقة مجمعنا الموقر ، منذ نحو ربع قرن من الزمان ومنذ ذلك التاريخ ، وقد اتصلت بنا الأسباب ، وكانت آصرة الحماس للغة العربية ، والغيرة الشديدة عليها ، والحفاظ على سلامتها وبذل الجهد لجعلها لغة العلم ، بترجمة المصطلحات العلمية . أمضى آصرة وأقواها . ومنذئذ وقد اتخذت منه في هذا المجال معلماً وإماماً . ولعل الكثيرين منكم يذكرون ، ما كان يدور بيننا من نقاش حول هذا المصطلح أو ذاك ، وأشهد أني كثيراً ما كنت أسلم بنصاعة حجته ، وقوة عارضته ، وسعة اطلاعه فأنقاد للحق الذي يدافع عنه ويقتنع به ، ويكون أغلب الأمر في جانبه ، فلم يكن يرضيه أن نلتزم باصطلاح استعمله أصحاب الصنعة خمسين عاماً ما دام غير مطابق أو غير سليم ، فنأخذ بالتصحيح الذي يرضي اللغة ويرضيه ، ونترك ما شاع على ألسنة الدارسين ، وندعو إلى التزامهم به ، وكان في حرصه على ذلك يدعو إلى استعمال السلطان في نشر ما يقره

المجمعيون من مصطلحات وكنت أرجوه أحياناً أن نترك إلى سلطان الذوق والاستعمال والقدوة الحسنة ، وأنه لامجال في موضوع المصطلحات العلمية ، إلى تطبيق القول بأن « مايزع الله بالسلطان أشد مما يزع بالقرآن » .

وكان يقول ان توحيد هذه المصطلحات ، لايتم ، كما يفهم الكثيرون ، بعقد المؤتمرات والندوات أو صنع معجمات من لدن هيئة أو مؤتمر ، وإن أفاد ذلك جزئياً ، ولكن الرسالة أسمى من ذلك وأجل من أن يتطلع إليها فرد أو طائفة ، إذ يجب أن ينظر إلى هذا التوحيد على أنه عمل قومي كبير ، يهم البلاد العربية كلها ، ويستوعب الكثير من الجهد والوقت والمال وقد قدر لهذا العمل منذ ثلاث عشرة سنة ، مبلغ مائة ألف جنيه ، وحسب الزمن الذي يستغرقه بستين شهراً . غير أنه عاد أخيراً ، فضاعف المبلغ إلى مائتي ألف وأما الوقت فقد قال انه يستطيل بالحساب على الستين شهراً الذي سبق له تقديرها . ويرى في معنى توحيد المصطلحات أن يكون في كل الأقطار العربية « معجم فرنسي عربي » و « معجم انجليزي عربي على الأقل » لتلك المصطلحات ، تعرف فيه الألفاظ بالعربية تعريفاً علمياً مختصراً دقيقاً ، يناسب حجم المعجم ، على أن يشتمل المعجم على أصح الألفاظ العربية أو أرجحها ، على أن تأخذ الحكومات العربية نفسها باستعمال الفاظه دون غيرها في وزاراتها ، ودوائرها وجامعاتها ومدارسها . وأن تصنيف المعجم يحتاج قبل كل شيء إلى أداة تميز المصطلحات بعضها من بعض ، وترجح بعضها على بعض وتستقر على الأصح والأصلح ، وتمضي على طريق واحدة ، ومن رأيه أن مجمعنا الموقر ، هو الأولى والأقدر على وضع هذا المعجم ومع ذلك فإنه لا يستطيع أن ينهض بهذا العبء دون تآزر ومساندة من جامعة الدول العربية والعلماء والأدباء العرب ، الذين عرفوا بوضع المصطلحات العربية وتحقيقها ، كل في دائرة اختصاصه وحدود ثقافته ، ورسم منهاج العمل ،

بأن تؤلف في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة تسمى لجنة معجم المصطلحات العلمية ، يكون لها شخصيتها الاعتبارية واستقلالها المالي والإداري ، وأن يخصص مجلس جامعة الدول العربية المال الذي يقدر لتصنيف المعجم ، ويأذن للجنة المذكورة أن تتصرف في انفاقه بمراقبة أمين الجامعة ورئيس المجمع ، وتتصل اللجنة بالمختصين بالمصطلحات في الأقطار العربيـــة ، وتتطلب منهم ، وضع قوائم مصطلحات أعجمية عربية ، ضمن اختصاصهم لقاء مكافآت مجزية ، وتضع اللجنة من هذه المصطلحات والقوائم « معجم المصطلحات العلميـة » وتعرضه على مجلس مجمع اللغة العربية ، فيقر ألفاظه ويناقشها في حضرة واضعيها من متخصصي الأقطارالعربية ، لقاء مكافآت مجزية ، ثم يطبع مجمع القاهرة المعجم ، ويوزع نسخه على دول الأقطار العربية . وتبقى لجنة المعجم قائمة على عملها في مجمع القاهرة ، لإضافة ما يجد من المصطلحات ، وإعادة طبع المعجم وتوزيعه ... ثم يردد رحمات الله عليه قول الشاعر :

مُنىً إن تكن حقاً تكن أحسن المُنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رَغْدا

ثم يردد قول شاعر آخر :

إكذبِ النفسَ اذا حدّثتهـا إن صدق النفس يُزري بالأمل

وفي الواقع لقد كانت الخطوات العملية ، هي نفسها التي رسمها فقيدنا الراحل ، فيما عدا رصد المال اللازم ، عندما أخذت وزارة البحث العلمي على عاتقها وضع المعجم العلمي العربي الموحد مستفيدة من خبرات المختصين مما وضعتـه المجامع والهيئات والأفراد من قوائم ومعاجم إلا أنها لم تجد بنـداً تخفض فيه من نفقاتها إلا البند الخاص بهذا المعجم ، فأوقفت العمل فيه ، بعد سنتين من الجهد المتصل من الخبراء والمختصين لم تزد النفقات على بضعة آلاف ، ونيفت المصطلحات التي روجعت ونسقت ووضعت لها الجذاذات على الثلاثين ألفاً وقد كان رحمـه الله متفائلاً بهذه اللجان التي ضمت ثلاثة وثلاثين عالماً

نحو نصفهم من أعضاء المجمع وخبرائه المختصين . وكانت تعمل جاهدة لتنفيذ قرار المؤتمر العلمي العربي الخامس الذي عقد في بغداد سنة ست وستين وتسعمائة وألف .

ولم تكن حماسة فقيدنا للغة العربية ، واستعمالها لغة للتدريس في الجامعات ، والنهوض بها لتكون لغة العلم الحديث في مختلف فروعه ، لم يكن حماسه الفائق المتقد لينسيه أهمية التعمق في دراسة اللغات الأجنبية ، لمتابعة المسائل العلمية بلغاتها الأصلية ووضع لذلك أربع وسائل لا بد من اتباعها ، للنهوض باللغة العربية ، وجعلها مسايرة لكل تقدم علمي ، وهذه الوسائل الأربع هي :

أولاً — إتقان تدريس لغة أجنبية حيـة كالفرنسية أو الانجليزية في المدارس الثانوية .

ثانياً — تدرس تلك اللغة في الكليات الجامعية .

ثالثاً — جلب أساتذة أجانب ، يلقون دروساً ومحاضرات باللغة الأجنبية .

رابعاً — ذكر الألفاظ العلمية في أثناء التدريس بالعربيـة ، لأن هذه الألفاظ مشتركة بين اللغات الحية .

ويقول انه يعتقد أن بهذه الوسائل الأربع أو هذه التكافلات — على حد تعبيره — يستطيع الطالب الذي يدرس بالعربية في كليات الجـامعة ، أن يوسع بعدئذ معلوماته ويختص في معاهد الاختصاص في البلاد العربية ، ويتابع البحوث العلمية في المجالات الأجنبية المتخصصة .

ويقول اننا نحن العرب ، لانستطيع التخلي عن لغتنا ، ولا عن تراثنا العلمي والأدبي الكبير ، ونحن جادون اليوم لجعل لغتنا صـالحة لاستيعاب العلوم الحديثة ، فنتمكن بذلك من التوفيق بين ثقافتنا العربية والثقافة الغربية وهو موقن بأننا سنبلغ بإذن الله ما نريد .

لقد كان الأمير الشهابي محجة أولي العلم ، ينهلون من مورده العذب ، ويجدون لديه ماطاب من حديث في دقائق العلم ، ممزوجاً بالفكاهة الحلوة ، والسمر العذب ، وكان حفياً باللغة العربية حفيظاً عليهـا ، وكانت عصبيته للغة العربية ، عصبية كريمة قادرة ، لأنه ذو دراية واسعـة بأسرار اللغة العربية ، ويقول أمين المعلوف عن لغة الشهـــابي في مؤلفاته الزراعية ، « ماكتبت الزراعة بأصلح منها منذ صدر الإسلام » .

ولا ينسى له المجمعيون عامة ، والمشتغلون بعلوم الحيـاة خاصة ، تلك القواعد التي وضعها الفقيد لترجمة أسماء الأجناس والأنواع المواليد والأعيان والتي أقرها المجمع منذ سنين وشاعت وذاعت بين المشتغلين بالصناعة ، وغدوا يترسمونها في أعمالهم العلمية ومؤلفاتهم ودراساتهم المختلفة ، بالاضافة إلى ماوضعه من أسماء لحلقات التصنيف العليا والدنيا من نحو العالم والأمة والطائفة والرتبة والقبيلة والفصيلة والجنس والنوع والصنف أو الضرب والسلالة وما اتخـذه من قاعدة للتصغير في الحلقـات الوسطى ، بين كل حلقة وأخرى . ومن تعريب لاسم الجنس ، وترجمة لاسم النوع إن دل على صفة معينة ، أو تعريبه إن دل على اسم علم . ولا مراء في أن الأمير مصطفى الشهـابي من أعاظم علماء الزراعة في العصر الحاضر ، ولا يختلف اثنان في أن الأمير هو علامة العربية الأوحد في المصطلحات الزراعية وأنه فيها نسيج وحده ، كان الباحث المدقق ، يتحـرى أصلح الألفاظ في المعـاجم العربية ، وفي كتب النبات والحيوان القديمة ، قام بهذا العمل المضني خير قيام ، وحقق فيه عدداً كبيراً من المصطلحات العربية وضعها أمام المصطلحات الأجنبية ووضع لأسماء النباتات الأجنبية أسماء عربية أو معربة بطريقته الخاصة . وهي الرجوع إلى أصول الأسماء العلمية الدالة على هذه النباتات . وترجمة تلك الأسماء بمعانيها الأصلية أو تعريبها إذا كانت تدل على أعلام . وغدا الشهابي معروفاً في البلاد العربية

كافة بأنه أحد العلماء الذين أغنوا العربية بالمصطلحات العلمية ، وأنه من أوسعهم اطلاعاً على طرائق وضع المصطلحات ، واعترف له كثير من أعضاء المجامع العلمية واللغوية وأساتذة الجامعات بأن كتابه المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، هو أنصع دليل وأوفى مرجع يرشد العلماء العرب إلى أصلح السبل التي تتبع في وضع المصطلحات العلمية بلغتنا العربية .

نسبه ونشأته وما تولى من وظائف وتقلد من أعمال :

وهو الأمير مصطفى بن الأمير محمد سعيد ، بن الأمير جهجاه بن الأمير حسين الشهابي ، من أمراء بني شهاب القرشيين المخزوميين الذين دخلوا الشام في الفتح الإسلامي بقيادة أبي عبيدة ابن الجراح ، وحكموا في حوران سنة ٥٦٨ هـ ، أيام الملك العادل نور الدين محمود زنكي ، ثم حكموا وادي التيم بلبنان حتى سنة ١٨٧٠ م وقد ولد في أول نوفمبر سنة ١٨٩٣ في حاصبيا مقر بني شهاب في وادي التيم ، ودرس في المدارس السورية ثم في الآستانة ، ثم في فرنسا حيث تخرج سنة ١٩١٤ حاصلاً على درجة عالية في العلوم الزراعية ، وكان يتقن العربية والفرنسية والتركية ويلم بالانجليزية ويعده عارفوه من أكثر الناس جلداً على المطالعة والتأليف والمحاضرة .

وقد تقلد عدة مناصب عالية في الدولة ، كما تقلد الوزارة أربع مرات على النحو الآتي :

١ — مدير الزراعة والخراج سنة ١٩١٨ — سنة ١٩٢٣ .

٢ — مدير الأملاك ١٩٢٣ — ١٩٣٤ .

٣ — مدير الاقتصاد الوطني ١٩٣٥ .

٤ — وزير المعارف ١٩٣٦ .

٥ — محافظ حلب ١٩٣٧ — ١٩٣٩ .

٦ – وزير المالية ووزير دولة ١٩٤٢ .
٧ – محافظ اللاذقية ١٩٤٢ – ١٩٤٥ .
٨ – أمين رئاسة الوزراء ١٩٤٥ .
٩ – محافظ حلب مرة أخرى ١٩٤٦ – ١٩٤٧ .
١٠– محافظ اللاذقية ١٩٤٨ – ١٩٤٩ .
١١– وزير العدل ١٩٤٩ .
١٢– وزير مفوض ثم سفير سورية في مصر ١٩٥١ – ١٩٥٤ .

وله في مناصب الدولة أعمال عمرانية كثيرة ، منها توزيع أملاك الدولة على الفلاحين لايجاد ملكيات صغيرة ، وتشييد دار الكتب الوطنية في حلب ، ودار الكتب الوطنية في اللاذقية، وهو من الرعيل الأول من العاملين في القضية العربية، وكان عضواً في جمعية العربية الفتاة وجمعية العهد ، وكان أحد أعضاء وفد المعاهدة بين سورية وفرنسا سنة ١٩٣٦ ، وكان عندئذ وزيراً للمعارف .

وقد انتخب سنة ١٩٢٦ عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وفي سنة ١٩٤٨ انتخب عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية في مصر ، ثم انتخب سنة ١٩٥٤ عضواً عاملاً فيه ، وفي سنة ١٩٦١ انتخبـــه المجمع العلمي العراقي عضواً مراسلاً ، وانتخب عدة مرات عضواً في مجلس المعارف الأعلى في سورية ، وفي مجلس إدارة المتاحف والآثار ، وفي جمعيـات علمية وأدبيـة مختلفـــة ، وعين عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة وفي دمشق ، ومثّل جامعة الدول العربية ثلاث مرات في حلقة الدراسات الاجتماعية .

وفي سنة ١٩٥٣ انتخبه مجلس جامعة الدول العربية رئيساً للجنـــة المواصلات الدائمة وفي سنة ١٩٥٦ انتخبـه المجمع العلمي العربي بدمشق بالإجماع نائباً لرئيس المجمع لمـدة أربـع سنوات ، وفي سنة ١٩٥٩ انتخب

بالإجماع رئيساً المجمع العلمي العربي بدمشق خلفاً المرحوم خليل مردم بك ، فكان الرئيس الثالث لذلك المجمع وجدد انتخابه لرئاسة مجمع دمشق سنة ١٩٦٣ ، ومنح جائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٦٥ وهي أول جائزة تقديرية تمنحها الدولة السورية .

وفي سنة ١٩٦٤ انتخبته اللجنة التنفيذية لدائرة المعارف الإسلامية بلندن عضواً مشاركاً لمجلس هذه الدائرة .

وقد منحته الدولة السورية وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى ، كما منحته الحكومة المصرية الوشاح الأكبر من وسام النيل ، عندما كان سفير الحكومة السورية في مصر .

وقد عكف الأمير الشهابي على دراسة قواعد اللغة العربية ، وكتب اللغة وآدابها وأخذ يكتب في أهم الجرائد والمجلات العربية مقالات وبحوثاً ، يعدها العارفون من خالص الأدب الرفيع ، على أن الناحية العلمية واللغوية طغت فيه على الناحية الأدبية ، ولذلك فإنه يعد بحق في عداد العلماء وكبار المفكرين وقد أمضى سنين عديدة في دراسة نباتات سورية وحشراتها واقتصادياتها واستطاع أن يطبق العلوم الزراعية الحديثة في أعماله الحكومية أو في مؤلفاته الزراعية ، وقد اشتهر بتحريه لأصلح الألفاظ في المعاجم العربية ونشر كثيراً من إنتاجه في مجلة المجمع العلمي العربي ، ومجلة المجمع اللغوي بالقاهرة وفي مجلات المقتطف والهلال وغيرها .

مؤلفاته :

ليس من اليسير التعريف بما كتب الأمير الشهابي من مؤلفات ومقالات ووسائل ، فذلك في الواقع يحتاج إلى دراسة خاصة ، وكم أود بهذه المناسبة أن أعرض على المجمعيين أن يعملوا على دراسة أعمال الأعضاء والتعريف

بها . وإني لأشير هنا إلى أهم تآليف فقيدنا ، تاركاً الدراسة المتخصصة إلى فرصة أوسع ووقت أرحب .

كتاب الزراعة العلمية الحديثة ويبحث في الأتربة والأعمال الزراعية والري والصرف والأسمدة والدورة الزراعية وزراعة الحبوب والقطاني وبعض البقول ونباتات الكلأ والنباتات الليفية والدهنية والصبغية .

وكتاب الأشجار والأنجم المثمرة ، يتناول دراسة ثلاثين نوعاً من أشجار الفواكه وجنباتها وأنجمها كالزيتون والكرم والبرتقال .

وكتاب البقول ، ويبحث زراعة أهم الخضروات وعددها خمسون .

وله كتاب في الدواجن وكتاب الدفاتر الزراعية .

ويعتبر معجم الألفاظ الزراعية ، وهو معجم فرنسي عربي لألفاظ العلوم الزراعية الحديثة كالزراعة العامة وزراعة البساتين وعلم الحراج وتربية الخيل والماشية والنحل والسمك والطير الأهلية وماله صلة بالزراعة من نبات وحيوان وحشرات وآلات وصناعات واقتصاديات . ويعتبر هذا المعجم من أعظم مؤلفاته يضم نحو عشرة آلاف مصطلح ، وضع المؤلف أمام المصطلح الأجنبي أصلح الكلم العربية وعرف كثيراً منها تعريفاً علمياً موجزاً ، ثم كتاب المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ومعجم المصطلحات الحراجية بالانجليزية والفرنسية والعربية وكتاب أخطاء شائعة في ألفاظ العلوم الزراعية يشتمل على تصويب نحو مائتي خطأ من الأخطاء الشائعة ، في هذا المجال ، وكتاب الشذرات ويشتمل على جانب مختار من بحوثه ومحاضراته ومقالاته العلمية والأدبية والفلسفية والقومية .

كما شارك الأمير الشهابي في وضع وتحقيق ألفاظ المعجم العسكري الذي أصدره الجيش بدمشق وكان رئيس اللجنة التي نقلت ألفاظ المعجم إلى العربية

كما أشرف على ترجمة كتاب تطور الزراعة في الشرق الأوسط لمؤلفه الدكتور « كين » إلى اللغة العربية .

أما بحوثه ودراساته ومقالاته فهي أكثر من أن يشار إليها ؛ منها نظرة في كتاب البلاغة الأندلسية لابن العوام ، وأسماء نباتات مشجرة ومصطلحات جيولوجية وأسماء الفصائل النباتية ، وجملة المصطلحات النباتية ومدى التعريب في ألفاظ تصنيف المواليد ، وتأثير العرب والعربية في الفلاحة الأوربية . وقد نشر الكثير من هذه البحوث في مجلة المقتطف ، وأعمال المجمع العلمي العربي بدمشق ، والهلال والرسالة والثقافة وغيرها .

حياته وآراؤه العامة :

وقد عاش الأمير الشهابي حياته عيشة هادئة منتظمة ، وكانت أعماله الحكومية مرهقة أغلب الأمر ومع ذلك فقد كان يجد متسعاً من الوقت للمطالعة والتأليف وإلقاء المحاضرات ومتابعة الحركة القومية والاستقلالية في سورية والبلاد العربية ، وكان يقول إنه إذا عاش المرء عيشة منتظمة ، استطاع أن يطالع أو يؤلف بمعدل ساعة أو ساعتين في كل يوم على الأقل ، وذلك مهما تكن مهنته المعاشية شاقة : وكذلك استطاع الأمير الشهابي أن يشارك مشاركة فعالة في أعمال المجمع العلمي العربي بدمشق وأن ينشر في مجلته بحوثاً علمية وأدبية ، وأن يضيف إلى لغة الضاد مئات من المصطلحات العلمية ، وأن يؤلف كتباً زراعية فيها دراسات خاصة كثيرة ، ومعجماً فرنسياً عربياً هو نسيج وحده في مصطلحات العلوم الزراعية والاحيائية والمواليد الثلاثة واستطاع كذلك أن يشارك مشاركة فعالة خصبة في أعمال مجمع اللغة العربية في القاهرة . وقد جاء إلى القاهرة عدة مرات ، وفي كل سفرة تكون محاضراته في النوادي ومقالاته في المجلات والجرائد زينة لهذه

وتلك وكان في مقالاته العامة متابعاً الحركات العلمية والأدبية وداعيـة إلى القومية العربية وتضامن الدول العربية واتحادها وقـد نال بذلك شهرة في مصر تعدل شهرته في سورية . كذلك رحل إلى بغداد عدة مرات بدعوة من وزارة المعارف العراقية حيث ألقى عدداً من المحاضرات العامة فيما هو بسبيله من نشر للمعرفة في أرفع صورها ثم عرفته أبهاء القـــاهرة مرة أخرى منذ انتخب عضواً مراسلاً ثم عضواً عاملاً في مجمعنا . وإذا بصوته الجهوري يجلجل في ردهاته ومجالسه مدافعاً لا يلين عن قضية يرى فيهـــا الحق أو الصواب فلا يجانبه أبداً ويعتبر الأمير الشهـابي من أقدم الدعاة إلى إنشاء جامعة الدول العربية . وأن تسير الدول العربية تدريجياً نحو الاتحاد فالوحدة وقد كتب في ذلك قبل إنشاء الجامعة العربية ببضع عشرة سنة .

وكان يقول ان نهضتنا الحديثة يجب أن تؤسس على القومية العربيـة ، وان تشمل العرب والمستعربين ، وأن العربي في رأيه من تكلم العربيـة وأراد أن يكون عربياً .

وكان من رأيه أن الحكم البرلماني مظهر من مظاهر الاستقلال وعنوان لسيادة الأمة ومن الخير أن نقبل الحكم الديمقراطي والحياة النيابية ، بشرط أن نضمن انتخاب شيوخ ونواب مثقفين عارفين بواجباتهم يقدمون المصلحة العامة على المصلحة الفردية . وكان عدواً للاستعمار والمستعمرين ، ويرى أن معظم الحروب الحديثة من جناياتهم ، وألف كتـــاب الاستعمار ، لدحض نظرياتهم ، وبيان أضرارهم في المجتمع البشري .

وكذلك كان الأمير الشهابي من الداعين إلى القومية الوثيقة ، ووجوب حصر جهودنا في نطاقنا العربي خدمة للانسانية كلها ، وليس من رأيه تفكيك عرى القومية عندنا بفكرة الدعوة إلى الإنسانية الشاملة مادام الغربيون الأقوياء يربون أبناءهم ويسيرون في معاملتهم للشعوب الناميـــة على مبادىء

القومية المتطرفة ، بل والعنصرية أحياناً ، وعلى قواعد الاثرة والاستعمار وعلى ذلك فمن رأيه أن مثالية النظرة الإنسانية لا تناسب شعوبنا التي قصاراها الدفاع عن كيانها واستقلالها . وقد لخص رأيه في كتابة القومية العربية بقوله « ليست القومية العربية فلسفة قومية ضيقة ، ولا مذهباً محدوداً ، قوامه الأثرة والتعصب أو البغضاء ، بل هي فلسفة اجتماعية مثالية بناءة تقدمية ، تدعو كل عربي إلى محبة أمته العربية ووطنه العربي، وإلى الاعتزاز بماضي هذه الأمة ، وإلى العمل التقدمي لحاضرها ومستقبلها كما تدعو إلى محبة الإنسانية وخير البشرية ، وحق كل شعب في تقرير مصيره .

وقد دعا الأمير الشهابي وعمل جاهداً على نشر التعليم العام والتعليم الفني خاصة ، وتعليم المرأة ، ورفع الحجاب ، مع الاحتفاظ بعاداتنا العربية والتعصب للغتنا وعاداتنا وثقافتنا ، واقتباس العلوم والمخترعات الحديثة والسير في جميع أعمالنا على الأسلوب العلمي القويم ، وكان يسفه في مقالاته ومحاضراته الذين لا يأخذون من المدينة الأوربية إلا قشورها دون لبابها .

ولا مراء في أن الأمير الشهابي من أعاظم المثقفين العرب في هذا العصر ، ومن أغزرهم اطلاعاً على العلوم قديمها وحديثها ومن أكثر رجالات العصر الحاضر تجارب في الحكم والوزارة والسياسة وتدل كتاباته على أنه مطبوع على الأدب ، قرأ أمهات الكتب الأدبية قراءة دراسة وتدبر ، كما قرأ في إمعان كتب أكبر الأدباء الفرنسيين ، ولذلك فانه يعد مثال المثقف بالثقافتين العربية والاوربية وقد اتسمت كتاباته بالأدب الرفيع ، وعد من الكتاب المبرزين كما اشتهر بأنه من أفصح الكتاب وأقدرهم على معالجة الموضوعات العلمية بالأسلوب العلمي السهل الواضح فهو بلا شك أحد علمائنا الأدباء أو أدبائنا العلماء فقد جمع بين العلم والأدب ، ولذلك سماه شاعر القطرين العالم الأديب ، وقالت عنه الآنسة « مي » إنها ما استمعت مرة إلى بحوثه

ودراساته العلمية والأدبية والفلسفية إلا وتمثلت لها « وحـــدة الوجود »
ولا شك أن الذي يطلع على كتابـــه الشذرات يعجب لبراعته في تناول
موضوعات فلسفية علمية دقيقة وقال فيه خليل مطران بمناسبة إصدار الأمير
معجمه :

يا أميراً أهدى إلى لغة الضـاد كنوزاً من علمه وبيـــانه
ذلك المعجم الزراعي قد كان رجاء حققته في أوانه
عمل لا يكاد يقضيه إلا مجمع بالكثير من أعوانه
دمت ذخراً له مآثره في نفع هذا الحمى وفي رفع شأنه

ويقول عنه شكيب ارسلان « انه لأمير العلماء حقـاً ، وعالم الأمراء فعلاً ، واني مع شيخوختي هذه لراض أن أنضوي تحت لوائه ، كما انضوى شيوخ الصحابة تحت لواء أسامة .

أما جلسات مجمعنا ومؤتمراته . فانها حافلة بعبارات التقدير والثناء والشكر الأمير الشهابي على ما يقدمه من بحوث ودراسات ، وفي ذلك يقول السيد رئيس المجمع في إحدى الجلسات « إني لأعترف بأن كل ما قدمـه الأمير للمجمع وشارك فيه كان خصباً دائماً ونافعاً دائماً ، واني لأكرر له الشكر مع أني أعلم ان السيد الأمير لا يحب الشكر والثناء .

وأجمل القول إن فقيدنا العظيم عالم زراعي ألف في العلوم الزراعية كتباً ثمينة قيمة تعد من أصلح الكتب من نوعها وباحث أضاف إلى لغة الضاد عدداً كبيراً من المصطلحات العلمية وكاتب مفكر له أثره العظيم في النهضة العلمية والأدبية ، ورجل دولة ، خدم سورية ، خـدمات عظيمة في الوزارات والمناصب الكبرى التي وليها ، ووطني عظيم في القضية العربيـــة ، ونشر فكرة القومية العربية ومن الرواد الذين عملوا للاستقلال والوحدة ، ومن

الذين أثروا اللغة العربية بالمصطلحات العلمية ، وعملوا على نموها والحفاظ على سلامتها وجعلها للغة العلم . ظل يعمل في هذا المجال زهاء نصف قرن من الزمان ، يزيد في إثرائها لتواكب ركب الحضارة ، حتى قضى وهو يحمل لواء العلم في الرابع عشر من مايو ١٩٦٨ بعد أيام من كتابة مقال لمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، وآخر لمجلة مجمعنا عن رأيه في النسبة للكيمياء ، ومن رياسة آخر جلسة المجمع العلمي العربي بدمشق ، فقدنا فيه عالماً غزير المعرفة ، مترفعاً عن الدنايا ، وسفساف الأمور ، فيه تواضع العظماء ، وعظمة العلماء ومع وداعتـــه قوي الشكيمة لايعرف هوادة إزاء من يزيف الحق أو يجافي الاستقامة .

أيها السادة الكرام ــ أيها الزملاء الخالدون :

لست في حاجة إلى أن أحدثكم عن خلود العلماء في أعمالهم ، وفقيدنا العظيم مثال فريد في الخالدين ، الذين عبروا جسر الحياة في ثقة وإخلاص ، في جد وأدب ، وصبر ومصابرة ، مما يعد مثالاً يحتذى وكأنما أراد لشدة إيمانه ، بحقيقة الموت ، أن يضيء طريق الخلود لخلفائه حتى لا يضلوا من بعده أبداً . فكانت هذه الحياة الجادة الخصبة النافعة ، وكذلك هم العلماء يشترون خلودهم ، بما يقدمون من أعمال ، وما يتركون من نتاج قرائحهم وثمرات أفكارهم ... وهم أشد الناس إيماناً بأن الموت غاية كل حي ، وان كل نفس ذائقـــة الموت ، وانه « فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ولكأني بفقيدنا العظيم ، يعيد سيرة نفر كريم من العلماء العرب القدامى من أمثال ابن الهيثم والبيروني والبغدادي الذين كانوا يستعلون بعلمهم ، ويزهدون

في الترف والسلطان ، ويعزفون عن الدنايا والصغائر ... فقال ابن الهيثم قولته المشهورة عندما رد لأحد الأمراء ما كان قد دفعه أجراً لتعليمه ، قائلاً : « خذ أموالك بأسرها فلا حاجة بي إليها ، ولعلك أحوج إليها مني عندما تعود إلى ملكك ومسقط رأسك ، يكفيني قوت يوم » ورد البيروني للسلطان ما أرسله من جمال تنوء بأحمالها من نقود الفضة قائلاً : إنه إنما يخدم العلم للعلم ، كذلك فعل البغدادي أيام صلاح الدين الأيوبي حين قال إن العالم الحق يُسمى إليه وإذا اشتهر المرء بعلمه وخلقه سُعي إليه ، وأتته الدنيا صاغرة وعرضه ودينه مصون .

ذلك هو فقيدنا العظيم واحد من هذه العصبة الكريمة الخالدة من العلماء أعترف بعجزي عن إيفائه حقه من التأبين الكريم ، وإن هذه الدراسة العجلى قاصرة عن الإحاطة بأعماله والتعريف بانتاجه الفكري والعلمي والأدبي وإني لأستشعر ضآلة ما قدمت بالنسبة لما كان مقرراً أن يقدمه أستاذنا الزميل الكبير المرحوم الأستاذ الزيات ، الذي كان قد اختاره المجمع لإلقاء كلمة التأبين ، ولكن يد القدر كانت أسرع إليه ففقد مجمعنا عالمين من أعلامه في أقل من شهر من الزمان . فواهاً للمجمعيين مما يرزأهم به القدر حيناً بعد آخر ، وإذا كانت قلوب الأصدقاء قبوراً حية لأصدقائهم الذين يختارهم الله فوالهفي على قلوب المجمعيين من احتمال فقد هذه العصبة الكريمة من أولي العزم من الأصدقاء العلماء الخالدين .

نسأل الله أن يلهمنا جميعاً الصبر ، وأن يعوض أمة العرب خيراً .
والسلام عليكم ورحمة الله

الدكتور عبد الحليم منتصر

فقيد المجمعين : الأمير مصطفى الشهابي

كلمة الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية

إني باسم مجمع اللغة العربية بدمشق أتقدم بالشكر الجزيل إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة لإقامة هذا الحفل التأبيني ، إحياء لذكرى فقيد العروبة ولغة الضاد المرحوم الأمير مصطفى الشهابي تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته وأحسن عزاءنا به جميعاً .

وبعد ، فانه لما يحز في النفس ويدعو إلى بالغ الأسى ، أن يقف المرء هذا الموقف الحزين ليرثي صديقاً وفياً له وزميلاً كريماً عليه ، أبلى أحسن البلاء في إعلاء شأن أمته وتوطيد دعائم وحدتها . وبذل أقصى الجهد في خدمة لغة القرآن الكريم وإغنائها ، وأنفق العمر كله يعمل على إمدادها بالكثير من المصطلحات العلمية حتى تكون هذه اللغة مواكبة للعصر الحضاري الذي نعيش فيه ، غير مقصرة عنه ومتهيأة لتواكب العصور الحضارية التي يستقبلها العالم .

لقد ربطتني بهذا الصديق الوفي والزميل الكريم أوثق الروابط منذ عهد بعيد ، فكان لزاماً عليّ أن أقوم هذا المقام في أداء الواجب نحوه وإيفاء ذكراه حقها من التمجيد والتقدير فأتحدث إليكم عن أطراف من معرفتي به طيلة هذه السنين المتصلات التي زاملته فيها وآخيته بحكم ما كان من عملي في الجامعة والمجمع وما كان من عمله في الوزارات التي وليها والمجمع الذي آلت رياسته إليه .

ويعذرني الزملاء المجمعيون والاخوان المستمعون شهود هذا الحفل إذا أنا تجاوزت المآثر الكثيرة لفقيد المجمعين ، فقد كفاني هذه المؤونة زميلي

الدكتور عدنان الخطيب بالكتاب الذي أصدره باسم مجمع اللغة العربية في دمشق إحياء لذكرى رئيسه المرحوم . فقد ترجم له ترجمة حافلة معدداً ماقام به من جلائل الأعمال وما تركه من خالد الآثار ، وما دبجه من بارع المقالات والمؤلفات وما ألقاه من محاضرات وما أوسد إليه من مناصب رفيعـــة في الدولة ، فأوفى بذلك الرئيس الراحل حقه ولم يترك زيادة لمستزيد .

لقد كانت أولى معرفتي بفقيدنا الراحل عن طريق ما كان يكتبه من مقالات علمية ولغوية وأدبية في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وفي مجلة المقتطف في القاهره ، وكانت كلها تشهد له بالمكان الرفيع الذي ارتقى إليه علماً ولغة وأدباً ، ولم يتح لي أن ألتقي به وجهاً لوجه إلا سنة ١٩٣٦ عندما كان وزيراً لمعارف الدولة السورية ، فقـــد استدعاني إلى مكتبه في قصر الحكومة مستفسراً عن بعض أمور الجامعة وكلية الطب خاصة ، فأكبرت فيه حسن اطلاعه مع حداثة عهد، الكثير من الأمور الفنية الجامعية وسير التدريس فيها ، ثم كان لقائي الثاني سنة ١٩٤٣ عندما كان وزيراً للماليـة وكنت رئيساً للجامعة السورية (جامعـة دمشق الآن) وذلك للبحث في موازنة الجامعة ، فسرني أن رأيت فيه طرازاً جديداً من القيمين على بيت المال غير الذين وصفهم المرحوم فارس الخوري في كتابه (علم المالية) نقلاً عن أحد علماء الغرب بقوله : على رب المال أن يكون فظاً غليظ القلب صدّاعاً . إذ أبدى تفهماً عميقاً لحاجات الجامعة وما ينبغي أن تزود به من مال كي تؤدي رسالتها على أحسن وجه . وتمدد اللقاء بعدئذ وتوثقت الصلات إلى أن كان أحد المزكين لترشيحي وانتخابي عضواً في المجمـــع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٦ وسرعان ما أتبع ذلك باقتراح انتخابي في مجمعكم الموقر عضواً مراسلاً سنة ١٩٦٥ .

ورافقته مرة في السفر من دمشق إلى بيروت لشهود أحد المهرجانات الأدبية فيها فلم أشعر بطول الطريق بما أمتعني به من عذب الحديث كان ينتقل فيه في فنون الأدب والشعر والعلم . . وحين أطل علينا جبـــل حرمون الذي يعرف بجبل الشيخ راودته ذكريات صباه لأن بلدة حاصبيا ، وهي مسقط رأسه ، تقع في السفح الغربي من الجبل المذكور فانطلق يردد كثيراً من الشعر الفصيح والعامي الذي يصف هذه المنطقة وما حباها الله من جمال وما جبل عليه أهلها من كرم ومزايا .

وعندما أحيل إلى المعاش استقر به المقام في دمشق بعد أن تكاثرت أسفاره في الأعمال المختلفة التي وكلت إليه محافظاً في اللاذقية وسفيراً في القاهرة ، وتسلم نيابة رئيس المجمع ثم رئاسة المجمع في دمشق ، كثر ترددي عليه في منزله فكانت زياراتي له أسبوعية تقريباً لأشرف على صحته الغالية وأواسيه فيما أصابه وأخفف عنه بعض مايعانيه . وما كان لطبيب عصرنا هذا أن يقتصر في طبه على تشخيص المرض ومضاعفاته بالاستناد إلى خبرته وإلى ما أتحفه به العلم من وسائل تتكامل وتتطور يوماً بعد يوم ، ولا في علاجه على العقّارات من قديمة وحديثة تكاد تتجدد شهراً بعد شهر ، بل عليه أن يستقصي نفس عليله ويسبر غورها وينفذ إلى أعماقها حتى يكون طبه ناجعاً ، إذ لابد من دعم الطب المادي بطب نفساني لا ندحة له من الركون اليه .

ولا أذيع سراً مهنياً إذا قلت ان ما أصاب رئيسنا الراحل من داء حلو مر ، حلو اسماً ومر قولاً وفعلاً ، قد تغلغل في صميم بدنه لم يوفر عضواً من أعضائه ولا نسيجاً من نسجه ، اللهم إلا تلك النفس الكبيرة والمنيعة التي لم يجد المرض إليها سبيلاً فنجت من ويلاته وظلت سليمة مصانة كأن البدن الذي يحويها ما يزال في ريعان الشباب . فلم يمنعه وقد اشتدت وطأة الداء

عليه في الأشهر الأخيرة ، من ممارسة عمله اليومي في المطالعة والمراجعة والكتابة والتأليف ، إلى جانب اهتمامه البالغ بواقع البلاد العربية وتألمه أشد الألم لما آلت إليه حالة الوطن الكبير من انفصام عرى الوحدة ، ثم من نكبة العدوان . وكان لا يفتأ يفكر ويتحدث عن السبيل إلى كشف الغمة ، والطريق إلى جمع كلمة الأمة ، هذا إلى سوانح لغوية كان يقيدها وشوارد يسجلها وملاحظات على حركة المصطلحات العلمية يناقش فيها .

ولم يكن ذلك كله يفت في عضده ، وإنما كنت أسمعه في زياراتي المتواصلة يردد القول الفرنسي : Il faut prendre la vie telle qu'elle est علينا أن نتقبل الحياة على علاتها ، وكأنه غير متزعزع ولا متذمر ولا متململ من كل ما ألم به .

وما زرته مرة إلا وألفيته منكباً على مكتبه وأكداس الكتب عن يمينه وشماله ، وإذا ما ألح عليه طارىء جديد وألزمه الفراش رأيت بعض كتبه ملازمة له فلا تفوته سانحة دون أن يركن فيها إلى المطالعة التي كانت سلواه المفضلة .

قلت ان نفسه العظيمة لم تطاوع بدنه في التنواء تحت وطأة الداء بل تمردت عليه وتمنعت فسلمت مما أصابه ونجت من ويلات الداء فلم يتطرق اليها الخور ولا الإعياء ، لذا لم يتوقف عن إنتاجه الفكري بل ظل مستمراً ، مستمداً من ذاك المعين الذي لا ينضب من المعرفة ، حتى النَّفَس الأخير ، ووالى الإشراف على شؤون المجمع العلمية والادارية ، وكان اذا ما تعذر عليه ترؤس الاجتماعات الأسبوعية للجنة الادارية في المجمع دعاها إلى الانعقاد في داره فلا يترك شاردة ولا واردة دون أن يناقشها .

ذلك هو الانسان الكامل وذلك هو العالم العامل ، وذاك ما عرفته فيه ورأيته منه . رحم الله فقيد المجمعين زميلنا الراحل وأسكنه فسيح جناته وعوض العربية من ينهض بها مثل نهوضه . وألهمنا وآله جميل الصبر والعزاء .

قصيدة للأستاذ عزيز أباظة

نبا عنا العزاء أبا «لميس» غداة نعتك للشرق النواعي
ومثلك ـ أين مثلك ـ يوم يودي يحس الخلق بالكنز المضاع
وبات الفاقدون كأن ليلا تردوا في دجاه بلا شعاع
وصحبك ـ يا الصحاب ـ روعتهم نوائب . وكل وصل لانقطاع
هو الموت الذي لا تتقيه سرى فينا أذاه مع الرضاع
إذا ما كر أعجز كل فر وخف من البطاء إلى السراع
فليس تقيك شامخة الرواسي ولا تحميك باذخة القلاع
ومن لم تطوه اليوم المنايا فإن اليه في غده سواع
وبين اثنين نحن فذو مضي إلى السفر البعيد وذو زماع
ولم يرجع فينبأنا منبء أذو ضيق تراه أم اتساع
وهل لقيت لذيذ الروح روح دعاها من طوايا الغيب داع
وهل وقمت على ألم مضيض بما نهلته من رنق المتاع
وهل تتلو وهل وتسوق أخرى يقدن زمام أسئلة تباع
سيمحيا العلم عن علم ويبقى على زحف الدهور قصير باع
وحسب الخلق أن الله لاق ذنوبهم برحمات وساع

★ ★ ★

مضى شيخ الثقات وفي يديه بقايا للطروس وللـيراع
سمي للضاد محتشد المساعي فما أسماها . مسمى وساع
وقارع كل ذي ضغن عليها بماضي المتن مرهوب القراع

وزاد بمنطقِ العلماء عنها كنورِ الصبحِ مؤتلقِ الشعاع
وطوَّعها لحاجات المعاني فأبدع ثَمَّ في غير ابتداع
وقرَّبها إلى العلماء روْضاً سخيَّ النَّبْتِ منضورَ المراعي
وورْدأدافقَ الدُّفَّاعِ ذلَّت مصادرُه لهم بعد امتناع
معاجمُ صاغها فرداً فأغنى عن غَنَاءَ جمْعٍ واجتماع
جلاها خيرَ ماتُجلى عروسٌ عميقُ دراسةٍ وطويلُ باع
ووصَّلها بماضيها وكانت إلى أنْ راضها ذاتَ انقطاع
عجبتُ لحاقدين عدوْا عليها ومِلءُ نفوسهم أشَرُ الضِّباع
رموْها غير مدَّخرين وُسْعاً لقد نزلوا على أمرٍ مطاع
وكانوا أمسِ يُخفون الطوايا على وَغَرٍ بوشْيِيّ الخِداع
فصالوا اليومَ بالرأي المُشاعِ وبالخبرِ المُذاع بلا قناع
إذا استقووْا فإن الحقَّ أقوى وأبقى والسرابُ إلى انقشاع
تعالى اللهُ كالئُها وواقٍ محارمَها وراعٍ أيُّ راع

★ ★ ★

أيا ابنَ الـكابرينَ بنوا فأعلوْا صروحَ المجدِ باذخة اليفاع
قُريشيِّين يقصُر عن مداهم وباعهم المُرجَّبِ كلُّ باع
علت بكم من العِرْقِ المُصفَّى مساعٍ لاتُطاولها مساع
وأورثَكم مفاخِرَهُ عتيقٌ من الأبيات مقصودُ الرِّباع
فنشَّأكم على خلُقٍ ودينٍ وإسداءِ الجميلِ والاصْطناع
ومن ورِثَ السموقَ وكان أهلاً له ضمَّ ارتفاعاً لارتفاع
وجرَّ لقومه رسَّ المعالي وزاد فنال غيرَ المستطاع
نهضتم بالعروبة مذ صباكم ببدريِّ التدافعِ والدفاع
وبين السابقين الصِّيدِ كنتم رجالَ السيف منهم واليراع
ألم يُقتل أخوك شهيدَ رأيٍ فأعلت روحُه روحَ الصراع

فهبت أمةٌ . وصحت ثغورٌ وطار لطى البقاع إلى التلاع
وكنت لعارفٍ و(١) هارونَ تغشى مَخاطرَه شجاعاً عن شجاع
فأينَ اليومَ نحن ؟ لقد نزلنا على حكم اتّضاعٍ واتّداع
قطعنا العمرَ بين هوى ولهوٍ وتثمير النزاعِ من النزاع
نبيتُ إذا النوازلُ داهمتنا نُراعيها . ونُصبح لا نراعي
وتُلهينا الحياةُ عن الأفاعي أعادينا . فتلدغنا الأفاعي
يُداجي بعضُنا بعضاً كأن لم نكن غرَضاً لأنيابٍ جياع
ويَغشانا عــدوُّ اللهِ صفا وبين صفوفنا عشُّ الصراع
يوائينا بعلمٍ عن عيانٍ وندفعه بجهلٍ عن سَماع
ويطرُقنا بأفئدةٍ جِياعٍ فنلقاه بأفئدةٍ شعاع
إذا الهونُ الذي ذقناه أفضى إلى بعثٍ فعزمٍ فانتفاع
نسيناه وقلنا ربَّ شرٍ لخيرٍ وانقطاعٍ لاندفاعٍ
متى نُجمعْ على صفوٍ ورُشدٍ متى ؟! والحقُّ يؤذن بالضياع

★ ★ ★

بني سوريةَ اعتصموا بصبرٍ فما رَدُّ القضاء بمُستطاع
مصابُكم بصاحبكم مُلِمٌّ بكلّ مثقفٍ في العُربِ واع
لئن عاف الحفاوةَ وهو حيٌّ فقد صَعَدت إليه مع الوَداع

★ ★ ★

نبا عنا العزاءُ أبا « لميس » غداةَ نعتك للشرْق النواعي
حباك الله من حُلْو الدّماع(٢) بجنّته ومن طيبِ المتاع

---

(١) هو الأمير عارف الشهابي شقيق الفقيد الذي أعدم سنة ١٩١٦ في سبيل القضية العربية .
(٢) الدماع : « عصير الشجر » .

كلمة السيدة ثريا الحافظ

عن أسرة الفقيد الأمير مصطفى الشهابي

حضرات السادة الأكارم :

باسم كريمتيْ الفقيد لميس ونهلة الشهابي وباسم آل الشهابي عامة أحييكم وأتوجه بخالص آيات الشكر إلى رئيس مجمع اللغة العربية الدكتور طه حسين وإلى أعضاء المجمع الأفاضل وخاصة الدكتور عبد الحليم منتصر الذي أبّن الفقيد فوفاه حقه ، وإلى الشاعر الكبير الأستاذ عزيز باشا أباظة الذي رثاه بسحر بيانه ورقيق أشعاره وإلى كل من شارك وأسهم في هذا الحفل الكريم بحضوره ومواساته : سائلة المولى ليمنحكم الصحة والعافية وطول العمر والبقاء وليسبغ على روح الفقيد الغالي الرحمة والخلود . . . . ولعمري فالخلود غدا ضوءاً لمآثره القومية ومآتيه العلمية ، فقد وهب حياته كلها للعلم والبحث والتأليف حتى استدارت من حوله خصائص العظمة والمفاخر وشملته فأكرمت مثواه وخلدت ذكراه .

ايه : ياروح عمي الحبيب يامن تركت في قلوبنا لوعة لن تجف ، وفي عيوننا دمعة لن تجف ، ان مصر التي أحببتها بكل جوارحك ، مصر التي ناجيتها بأعذب شعر وأصدق عاطفة وأسمى بيان ، لن أنسى صوتك الدافىء بنبراته القوية وكلماته البليغة الفصحى وأنت تلقي علي بعضاً من شعرك في مصر وشدة حبك ووفائك لها ، كنت تقرئني الأبيات وتستعيدها حتى حفظتها . نعم مازالت نبرات ذلك الصوت الجهوري تتجاوب في أصداء سمعي وأعماق نفسي وأنت تقول :

ياساكني مصر لاتنسوا مودتنا　　إن الوفاء لكم أضحى لنا دينا
أنتم بنو عمنا فاجفوا بساحكم　　حمراء بالشر تفريكم وتفرينا
ياساكني حمى الأهرام ان لكم　　في القلب ذكرى نناجيها فتحيينا
لله نيلكم المخضل شاطئه　　حاكت سوائله أخلاقكم لينا
هلاّ أجبتم أخا ود يبثكم　　من قاسيون تحيات المشوقينا

يا روح فقيدنا الغالي اطمئن في مثواك وانعم في جنان الخلد ، لأن مصر الوفية أكرمت اليوم ذكراك ، لا لأنك عضو من أعضاء مجمع اللغة العربية فحسب ، بل لأنك علم من أعلام الأمة العربية جمعاء ـ أمة العرب التي تفخر وتتيه بك وبأمثالك من علمائها وأدبائها العظام والسلام .

❋❋

برقية كريمتي الفقيد الأمير مصطفى الشهابي

مجمع اللغة العربية

اللفتة الكريمة التي سجلها مجمع اللغة العربية الموقر باحياء ذكرى فقيدنا المرحوم الأمير مصطفي الشهابي وطدت في نفوسنا الاعتزاز والوفاء وتلك مأثرة من آثر العلماء نتقدم بأوفر الشكر ونأسف لعدم تمكننا من حضور الاحتفال أدامكم الله وأبقاكم ذخراً لأبناء أمتنا .

كريمات الفقيد

لميس ونهلة الشهابي

❋❋

كلمة الدكتور حسني سبح[1]

حضرات الزملاء الأفاضل والسادة الكرام

يطيب لي أن أقدم في حفل الاستقبال هذا وجهاً علمياً كريماً من وجوه سورية العربية ، وأستاذاً من أساتذة العلم الحديث الذين يسمدنا أن يكون أمثالهم من الأساتذة بين ظهرانينا . نحن الذين نعيش في عصر الذرة وغزو الفضاء .

إن لغتنا الضادية التي نذرنا النفس لخدمتها والارتقاء بها لتواكب حضارة هذا العصر ، ولتكون في مستوى حضارة العصر المقبل ، بأشد الحاجة إلى عالم مختص في هذا الفرع الجديد من علوم الطبيعة ليتحمل معنا عبء هذا الواجب الكبير ، ولنفيد من معرفته الواسعة في اختصاصه ومشاركته الطيبة في الاختصاصات الأخرى ، وليسهم معنا إسهاماً فعالاً في إغناء لغة القرآن الكريم بما استجد ويستجد من مصطلحات ، وما أكثرها ؟

افلا يكون حرياً بنا أن نحتفل إذن هذا المساء باستقبال هذا العامل العالم ؟

ولد السيد وجيه السمان في دمشق سنة ١٩١٣ وتابع دراسته الثانوية فيها ، وكان واحداً من أظهر شبابنا ، لم يتميز باتجاهه العلمي فحسب ، وإنما امتاز كذلك بمشاركته في فروع المعرفة الأخرى الأدبية والاجتماعية .

وقد أتم دراسته العالية في فرنسا ، وكان أول سوري استطاع الالتحاق بالمدرسة المركزية Ecole Centrale وتخرج منها سنة ١٩٣٧ مختصاً بالميكانيكا

(١) الكلمة التي ألقاها الدكتور حسني سبح رئيس المجمع في الجلسة التي عقدت مساء الخميس في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦٩ لاستقبال العضو العامل الجديد الأستاذ وجيه السمان .

والكهرباء ، وحينما عاد إلى وطنه لم تجد له سلطات الانتـداب عملاً يتكافأ واختصاصه ويلتقي مع مؤهلاته فكلف بالتعليم في المـــدارس الثانوية ، وقبل ذلك مضطراً ودرّس مادة الفيزياء في حلب ثم في دمشق تسعة أعوام ، ألف خلالها ثلاثة كتب في هذه المادة ظل أحدها معتمداً لطلاب الشهـادة الثانوية (البكالوريا) مـدة اثني عشر عاماً حتى كانت البرامج الجديدة سنة ١٩٥٨

ولما تأسست كلية الهندسة في حلب سنة ١٩٤٦ عين أستاذاً مساعـداً فيها ، ثم أصبح عميداً لها حتى سنة ١٩٥٩ ، ولا أزال أذكر زيارتي له مرة في حلب ، عندما كنت رئيساً للجامعة السورية وكلية الهندسة في حلب جزء منها ، الأثر الطيب الذي خلفه في نفسي كعـامل عالم وإداري منظم وإنسان يحرص على مثاليته أشد الحرص ، وتتبدى لك غيرته على القيام بعمله بأحسن قيام ، فقد أبلى بلاء طيباً في تأسيس الكلية مع الصعاب الشديدة التي لقيها سواء في إيجاد المدرسين أو في تكوين المخابر واستيفاء تجهيزاتهـا بالأدوات اللازمة .

ولم يقتصر عمله في تلك السنوات على الاضطلاع بأعباء التدريس والإدارة وانما أسهم في الأعمال الفنية لمشروعين كبيرين : مشروع مرفأ اللاذقية ومشروع جر مياه الفرات إلى حلب .

ودعي إلى الإشراف على شركة الجر والتنوير في دمشق والتي أممت سنة ١٩٥١ وآلت مؤسسة مستقلة فعيّن مديراً لها ، ونهض بأعبائها وأحالها من مؤسسة انتدابية لحماً ودماً إلى مؤسسة عربية الوجه واليد واللسان .

وعين في أواخر عام ١٩٥٧ عضواً في مؤسسة الانمـاء ، ثم نائباً لرئيسها (وهي مؤسسة تعنى بتصميم مشاريع التنمية وتنفيذها) ثم أسندت

إليه وزارة الصناعة المحدثة عام ١٩٥٨ فقام بتأسيس هذه الوزارة أحسن قيام ، واستمر وزيراً لها ثلاث سنوات حتى أواخر ١٩٦١

وأحيل بعد ذلك إلى التقاعد ، وحرصت كلية الهندسة في جامعة دمشق على الاستفادة من عمله فعهدت اليه بالتدريس بصفة أستاذ محاضر وهو اليوم يتابع جهوده العلمية العربية في المؤسسات المختلفة التي يشرف عليها أو يشارك فيها : فهو عضو في المجلس الأعلى للعلوم منذ تأسيسه عام ١٩٥٩ ، ومقرر لجنة النشر العلمي فيه ، وسبق له أن كلف بالإشراف على إدارتـه خلال السنوات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ويرأس جمعية الفيزيائيين السورية والاتحاد العلمي السوري ويدير مجلة العلوم التي تصدر في دمشق .

وإذا تجاوزنا إلى مؤلفاته التي أشرت اليها للمدارس الثانوية ، فإننا نجد السلسلة من الكتب العلمية القيمة التي انطوت على لغة طيعة سليمة ، وأداء عربي صحيح ، ومصطلحات علمية جديدة في مثل :

كتاب الصواريخ والأقمار الصناعية وقد طبع عام ١٩٦٢ .

وقصة الذرة وقد طبع ١٩٦٤ .

وكتاب الطاقة الذي ترجمه عن الانكليزية .

وكتاب في مجلدين كبيرين في الكهرباء ترجمه بالاشتراك مع زملائه من جامعة دمشق عام ١٩٦٣ .

هذا عدا عن عديد من البحوث والمقالات العلمية التي نشرت في مجلة المعرفة والعلوم ، وأماليه التي تضم محاضراته في كلية الهندسة والتي لمّا تطبع بعد .

هذا هو تعريف موجز بالمهندس الأستاذ وجيه السمان الذي نستقبله في هذا الحفل ، وندرك أن انضمامه إلى حلقتنا يسد ثغرة اشتد شعورنا بها ، تتمثل في العناية باللغة العلمية بعلوم هذا العصر ، آملين أن يشتد به أزرنا ، ومقتنعين أنه سيخصص لهذا المجمع الذي يحتضنه بفخر بعضاً من وقته ليسهم معنا في تحقيق غاياته في اقتراح المصطلح العلمي .

إنني باسم مجمع اللغة العربية بدمشق أرحب بك أيها الأستاذ الكبير عضواً جديداً وزميلاً كريماً في مجمعنا تتويجاً لجهودك في التعريب واستكمالاً لهذه الجهود ومتابعة لها .

وفقنا الله إلى ما فيه خير العرب والعربية في ثقافتها ولغتها وعلومها .

الدكتور حسني سبح

كلمة المهندس الأستاذ وجيه السمان

عن سلفه المرحوم فارس الخوري[1]

سيدي الرئيس ، سادتي

سلام الله عليكم ورحمته ، وتحية عاطرة إلى مجمعكم الكريم معقل اللغة العربية وملاذها ، وقد شارف الخمسين من عمره الحافل بخدمة هذه اللغة ، لغة القرآن الكريم ، لغة المدنية العربية ذات التاريخ المجيد الطويل والحكمة الواسعة والمجد التليد ، ذات الأدب الرفيع في نثره وشعره ، لغة حضارة لمعت دهراً بأسطع بريق ، وسادت وسيطرت وانفردت بمكانتها السامية أمداً مديداً .

لقد وكل إليكم ياسادتي أمر الذود عن تراث هذه اللغة وتقاليدها وقواعدها وإحياء علومها وجمع ماتفرق منها في بطون المكتبات في مختلف أنحاء العالم ونشر كنوزها الدفينة واستيلادها بكل جديد تحتاجه على مر الأيام وتجدد العصور ، وإعادة نضارتها وبهائها كلما اغبر ثوبها أو ضاق عن استيعاب مولدات الحضارة الحديثة . فيالها من مهمة كبرى ورسالة عظيمة تقومون بها على قلة في العَدد والعُدد .

إن أبناء الأمة ينظرون إليكم بنظر الإكبار والإجلال والتقدير . فخليق بمن أوليتموه مثلي شرف الضم إلى ناديكم والانتساب إلى مجمعكم أن يكبر لكم هذه اليد وأن يعمل جاهداً بقسطه من الواجب لتحقيق ماوُضع في هذا المجمع من أمان وآمال . فاسمحوا لي أن أثبت لكم هنا شكري الخالص الذي لا أجد برهاناً عليه سوى صدق العزيمة في خدمة هذا المجمع ، والعمل على تحقيق أهدافه السامية بما أستطيع من قوة وعزم .

---

(١) الكلمة التي ألقاها المهندس الأستاذ وجيه السمان مساء الخميس في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦٩ في حفلة استقباله في مجمع اللغة العربية بدمشق .

ويقضي واجب الإخلاص أن أرسل من موقفي هذا تحية الخلف المعترف بالفضل إلى أعضاء المجمع الراحلين الذين سبقوا باداء الرسالة ، وكان لهم شرف وضع أسس هذه المؤسسة والنهوض بها ، وأخص منهم الرئيس الراحل الأمير مصطفى الشهابي صاحب الأيدي البيضاء ، تغمده الله وإخوانه برحمته وأحسن لهم الجزاء على ما أسدَوه من خير وحسن صنيع ، وجعل لنا في خلفهم الرئيس الحالي وإخوانه الأعضاء أفضل العيوض .

مهمتي اليوم أيها السادة جد شاقة . يدعوني الواجب إلى الكلام عن العلامة المرحوم فارس الخوري ، العضو الراحل الذي تفضلتم بدعوتي لشغل المقعد الذي خلا بوفاته . وفارسنا من النوابغ الذين لا يجود الدهر بأمثالهم على أمة من الأمم إلا في الندر . وان من يتأمل في حياته الحافلة الطويلة العريضة وفي أعماله ومآثره العديدة الكبيرة ، يدهش من غناها وازدخارها .

كان رحمه الله متعدد الشخصيات ، كأنما تجمعت في شخصه عدة رجال نابهين عبقريين . متنوع النشاط رفيعه ، زاخر المعرفة جيدها ، كأنما يغرف من بحر ، موهوباً موفقاً . فهو الطالب النجيب العصامي الذي لايعول إلا على نفسه في كسب القوت وتدبير وسائله ، ثم هو الأستاذ المجيد والخطيب الفصيح البليغ والكاتب والشاعر المطبوع والسياسي الحاذق ورجل المجالس النيابية ورجل الدولة ، ثم هو فارس منتديات السياسة ، المدافع عن حقوق أمته وبلاده أمام جهابذة القانون الدولي ونوابغ الساسة . وهو أستاذ القانون القدير المعجب والمستشار الحقوقي الماهر والاقتصادي الناجح والمفاوض البارع ورجل الأزمات يلجأ إليه عند كل ملمة وخطب ، ثم السياسي العالمي تفتحت أمامه ميادين الامم المتحدة ومجلس الأمن واللجنة القانونية

فبرز وجلى ، وكان في كل ذلك موضع الإعجاب والإكبار والتقدير من كل من عرفوه أو سمعوه .

إن حياة كحياته مديدة في الزمن ، حافلة بالأعمال المجيدة ، ودعت في ثلثها الأول القرن الماضي وعاصرت بل عايشت في ثلثيها الأخيرين هذا القرن ، وشهدت كثيراً من الأحداث الجسام ، فلم تقف منها موقف المتفرج ، بل كان لها دورها الجلل في خدمة بلادها وخدمة العروبة ، وكان لها القدح المعلّى في مَيدان السياسة العالمية . . . إن هذه الحياة الطافحة بجسيم الأعمال لأعظم من أن توفى حقها في مثل هذا الموقف وفي أمد محدود حدود هذه الأمسيَّة . لقد ألفت في سيرة فارسنا الكتب وحبرت المقالات ، وأعتقد أنه لايزال ثمة مايكتب عنه .

كان رحمه الله موهوباً في اللغات ، يتعلم اللغات الأجنبية بلا معلم فيتقنها ويصبح فيها خطيباً . تعلم اللغة التركية في شبابه ليتسلح بها في نضاله السياسي أيام الحكم العثماني . فانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي ، ثم رشح نفسه للنيابة في مجلس المبعوثان ولما فاز بالنيابة وأقام في القسطنطينية انكب على تحسين لغته التركية حتى صار يخطب بها بذلاقة لسان وفصاحة بيان وثبت جنان . وكانت له مواقف جرأة مشرفة مع زعماء الأتراك دافع فيها عن القضايا العربية خير دفاع ، ولا سيما عن جماعة الأحرار الذين سجنوا أيام الحرب العالمية الأولى بتهمة الثورة على الحكم التركي والعمل على التخلص منه ثم سيقوا إلى المشانق .

وفي إبان تعلمه التركية أخذ يهتم بالفرنسية لتكون له لغة المجتمعات الراقية ، ثم استفاد من إتقانه لها في عهد الانتداب الفرنسي فصار يخاطب الحكام الفرنسيين ويناقشهم ويخطبهم بالفرنسية في المناسبات السياسية ، في سورية أو في فرنسا مدافعاً عن حقوق بلاده .

وتعلم الإنكليزية في صباه وفي شبابه في مدارس الإرساليات وفي الجامعة الأميريكية ، وظل طول حياته يزيد ما تعلمه منها عمقاً وإتقاناً . فمكنه هذا الإتقان ، مع ما فيه من صفات الخطيب الكبير ، من البروز في محافل السياسة العالمية . وأعانته طلاقة لسانه بالإنكليزية ، مع حضور بديهته وتوقد ذهنه وعلمه الغزير وحفظه الكثير ، فارتقى إلى مراتب كبار الساسة والخطباء العالميين . فكان له في قاعات الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن والمؤتمرات السياسية مواقف بيان مشهورة أكسبته تقدير أكبر الساسة في العالم ولفتت إليه الأنظار فأدّى أجل الخدمات لسورية ولُبنان ومصر وفلسطين . وقد كان بيانه القوي قميناً بأن يجعله يفوز في ترجيح جانب الحق في جميع القضايا التي دافع عنها ، لو أن حسن البيان وقوة الحجة واللباقة ، كانت تكفي وحدها لإحقاق الحق دون أن تدعمها قوة السلاح الغاشمة . ولكن قوى الشر كانت أحياناً أكبر من أن يغلبها جلاء الحق وسحر البيان .

إزاء إتقانه لهذه اللغات الثلاث ، كان نصيب اللغة العربية ، لغة آبائه وأجداده ، لغة قومه وإخوانه ، من العناية والتهذيب والمطالعة والمراجعة والحفظ النصيب الأسمى وحظها الحظ الأوفر . فأتقنها أيما إتقان ، وظل طول حياته يتعهدها بالمراجعة والحفظ . فبدأ بالقرآن الكريم ودرسه بتفاسيره حتى صار حجة في التفسير ، ودرس الحديث النبوي الشريف في أمهات كتب الحديث ، وحفظ منها الشيء الكثير ، فكان يستشهد به في أحاديثه ودروسه وخطبه ، ودرس التاريخ العربي والأدب العربي والشعر العربي ونوادر العرب ودواوينهم ومآثرهم ، حتى قال عنه الأستاذ محمد علي الطاهر أنه « الأصمعي وابن الأثير وابن خلدون في آن واحد ... وأنه سحبان زمانه ولقمان دهره . فاذا دار البحث حول اللغة العربية فهو إمامها والذائد عن حرمها وحياضها . وإذا كان الكلام على الشعر فهو الشاعر والحافظ والراوية ... ؟

راض فارسنا الشعر كما راض الخطابة والكتابة والتأليف ، وكما راض في حياته كثيراً من الأمور بمقدرته الفائقة على معالجة الأشياء باتقان وروية وعلم وحسن بصيرة . فسلست له قيادته وانقاد له طوعاً . وأسعفته في النظم قريحة فياضة غزيرة الدر ، فجاء بقصائد مطولة من أحسن ما يمكن أن يصدر عن شاعر موهوب تجيش نفسه بالشعر ولا يتعاطى شيئاً سوى قرضه . ولو أنه أراد لأصبح من كبار الشعراء فما كانت تعوزه صفة ولا وسيلة ليكون كذلك ولكن عبقريته المتحفزة الطامحة لا تقنع بلون واحد من ألوان النشاط والفعالية مهما علت مكانته فيها ، ولا تكتفي بقطف ثمرة أو ثمرتين من نتاج حقلها الخصب المزدحم بمختلف أنواع الثمار . فلم يشأ أن يكون الشعر وسيلته الوحيدة في التعبير عما يعتلج في صدره ويزدحم في خاطره ، بل تركه للإفصاح عن مشاعره وأحاسيسه الوجدانية أمام المناسبات الكبيرة والحوادث الجسام كما يليق بالشعر أن يكون وبقدره ليكرم . فنظم في مناسبات الأحداث القومية والدولية والاحتفالات السياسية والأدبية قصائد مطولات ... في حرب الروس واليابان وإعدام شهداء أيار ١٩١٦ وللسلام على الجموع التي خرجت لاستقباله وإخوانه عند عودتهم من المنفى عام ١٩٢٨ . وألقى قصائد بديعة في مناسبات التكريم والتأبين ، وأذكر له في قصيدته التي قالها في مهرجان تكريم شاعر النيل المرحوم حافظ ابراهيم عام ١٩٢٩ ، وأقيم في هذه الدار العامرة وصفه لنفسه :

وإني إذا قارعت خصماً قرعته	وخصمي من أسد البيان هصورها
فلي من جناني جرأة لا تخونني	ولي من بياني حجة لا أعيرها
أطاعن حسادي بسن يراعة	يبز صليل المرهفات صريرها

ومن محاسنه الشعرية مرثيته لشهداء أيار . قال فيها :

كان التجلد في البلوى يؤاتيني فما له حين أدعو لا يلبيني
ضاق الفؤاد بآلام تبرحني وفاجعات بنار الوجد تكويني
وطارد الهمّ عن عيني الرقاد وهل تنام مقلة موتور ومغبون

. . . .

أبكي على أمة لج الشقاء بها تجري إلى طالع بالبؤس مقرون
ولى الزمان عليها كل معتسف من طينة البغي والطغيان معجون
من معشر جعلوا جلّى مفاخرهم منهاج جنكيز أو أنماط نيرون
لاحت لهم فرصة في العرب سانحة فنكلوا واستباحوا كل قانون
دسوا لنا كل مفتر يميت بنـا نهباً ويرجع في أموال قارون

ومما أضاف إليها في حفلة ذكرى الشهداء عام ١٩٢٥ ، وذكر حاله في السجن إبّان محاكمة الشهداء وإعدامهم :

بكيتهم وجدار السجن يحدق بي وعين حافظه بالشزر ترميني
وصاحب الحكم يمليه لكاتبـه وناصب الحبل في الميدان يدعوني
الحظ قدمهم عني وأخرني حتى أرى دول التاميز والسين
تسدي الوعود بتحقيق العهود لنا عن كل حق بالاستقلال مضمون

حفظ فارسنـا كثيراً من شعر العرب ، ولا سيما شعر المتنبي . وكان لا يرضيه من الشعر إلاّ ما هو عالي الطبقة رفيعها . والشعر ابن المرانة والمثابرة . وقد حالت الحياة بينه وبين أن يثابر على ما أحب منه .

كان ميدان الخطابة من أهم الميادين التي برز فيها فارسنا وجلى . بل يكاد يكون أهمها جميعاً . لم تقتصر عبقريته على الخطابة باللغة العربية وحدها ،

بل أجاد في كل لغة خطب بها من تركية أو فرنسية أو انكليزية ... وقد أدرك ذروة الإجادة في خطبه باللغة الانكليزية حينما انفسحت أمامه منصات الخطابة في قاعات الأمم المتحدة ومجلس الأمن . إن النجاح الذي لقيته كلماته البليغة التي ألقاها هنالك في المناسبات الكبرى كالدفاع عن مطالب سورية ولبنان في جلاء الجيشين الانكليزي والفرنسي عنها ، والدفاع عن مطالب مصر في جلاء الانكليز عن وادي النيل ، ثم دفاعه الطويل عن عروبة فلسطين ، كان منقطع النظير وأثار في حينه عطف العالم أجمع ما خلا الأعداء ، وكان له أطيب الأثر في نفوس السامعين من ممثلي مختلف الدول . وأعجب المصريون أيما إعجاب ببيانه الساحر وحججه الدامغة التي أوردها في دفاعه عن قضيتهم ، فقدموا له شكرهم بمختلف الوسائل من تصريحات رسمية وكتب شكر وإهداء أوسمة تقديرية . وامتلأت الصحف العربية بذكر فارسنا وفارسهم وامتداح عبقريته البيانية ، فقال عنه الكاتب العربي الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد :

« إنه من أصحاب عبقرية البيان في أرفع طراز عرف به خطيب من خطباء هذا الزمان . فاقتياد أعنة الكلام ، ولو في لسان غير لسانه العربي ، سليقة فيه منذ صباه إلى أيام كهولته وشيخوخته . »

لعبقرية البيان هذه عند فارسنا عناصر عديدة يجدر بنا أن نقف عندها قليلاً : لم يكن يُعِدّ خطباً مكتوبة ليتلوها تلاوة كما يفعل الكثير ، بل كان يهيئ موضوعه ويتمثله ويكتب له خلاصة بسيطة يضعها بين يديه . وكان عند الإلقاء يوسع هذه الخلاصة بما حفظ وهيأ من الموضوع ، ويطورها ويكسوها الكساء المناسب الذي يتفق مع ظرف الساعة وجو السامعين والروح المرفرف على القاعة . وربما بدل ما كان ينوي أن يقول واستبدل به قولاً آخر . لذلك فإن عبقريته البيانية تستمد كثيراً من روحها من نفوس

سامعيها في عالم العيان . فهو يستنبط ما يريد أن يقول حين تتلاقى الحياة بالحياة ولا يولد بيانه للاتصال به في عالم الفكر المجرد أو من وراء حجاب .

أعانه على قوته الخطابية ذاكرة قوية وبديهة حاضرة وهـــدوء وحلم يمكنانه من رباطة الجأش عند حاجتـــه إلى التفكير ، فلا يطيش سهمه ولا ينال العي منه عند الأزمات . ولا ريب في أن خبرته الطويلة في تدريس الحقوق وفي إدارة جلسات المجلس النيابي قد ساعدت على تقوية هذه الصفات في نفسه .

وإذا ذكرنا محاضراته في معهد الحقوق ، ذكرنا ذلك العدد الكبير من الحقوقيين الذين كانوا تلامذته فنبغ منهم كبار القضاة ورجال السياسة والإدارة والأعمال . وكلهم مجمع على أنه الأستاذ القوي المثالي في إتقـان الموضوع الذي يدرسه وفي جودة إلقائه له وحسن أدائه . وقد رافق معهد الحقوق منذ نشأته حتى أقصته السلطة المنتدبة عنه عام ١٩٣٦ عقاباً له على نزعته الوطنية .

شغلت السياسة حياة فارسنا من شبابه إلى كهولته وشيخوخته ، فدام نشاطه السياسي قرابة أربعين عاماً : انتخب للنيابة خمس مرات خلال المدة التي عرفت فيها سورية الحياة النيابية ، ولولا التضييق عليه وإغلاق السلطة المنتدبة الباب في وجه نيابته لظل فيها ما دامت هنالك نيابة . وشغل كرسي رئاسة المجلس النيابي أربع مرات . وصار وزيراً ثلاث مرات ورأس الوزارة ثلاث مرات وكان نضاله عنيفاً مع السلطات التركية أولاً ثم مع السلطـات الفرنسية ثانياً . وقاسى في نضاله هذا أشد أنواع العسف والاضطهاد وهددت حياته بالخطر . نفاه الأتراك من سورية إبان الحرب ثم نفاه الفرنسيون مع إخوانه في الجهاد إلى سجن أرواد وبعثوا به إلى الجيرزة ثم إلى لبنان وفرضوا عليه الاقامة الاجبارية فلم يثن ذلك من عزمه ولا من جهاده .

كان عضواً مبرزاً في أهم الوفود السياسية التي بعثت بها سورية إلى فرنسا عام ١٩٣٦ للمفاوضة على معاهدة الاستقلال ، وإلى المؤتمر البرلماني بالقاهره عام ١٩٣٨ وإلى مفاوضات تأسيس الجامعة العربية . ثم رأس الوفود السورية التي ذهبت إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٢ .

كان له الدور الفعال المثمر في النضال المرير الذي خاضته بلادنا في عهد الانتداب الفرنسي ، كما وفي نضال الدول العربية الأخرى . وكان لأخلاقه الشخصية من هدوء واتزان ورصانة وفطنة ولمواهبه من ذكاء وبديهة وتوقد ذهن ، ومن علمه وأدبه وحفظه الكثير وذاكرته العجيبة أثرها البالغ في نجاحه في مجال السياسة . كان ينتخب للنيابة بالتزكية ويكلف رئاسة الوزارة عندما تشتد الأزمات ، فلا يجد السياسيون سواه كهفاً وملاذاً ، فلا يكاد يتسلم الزمام حتى تنفرج بشخصه الأزمة وتزول المشكلات .

لمعت شخصيته لمعانها الباهر لما ظهر في المحافل الدولية فبز كثيراً من أقرانه الذين جاءوا من مختلف الأمم ، وكان إذ ذاك بين السبعين والسابعة والسبعين من عمره ، أي في السن التي يضؤل فيها عادة نشاط الإنسان وتتهالك قواه العقلية وتضعف ذاكرته ويفقد حيويته (١) . أما هو ، فانه ما كادت تفتح له أبواب الأمم المتحدة ولجانها حتى وجد نفسه في الجو الذي خلق له حقاً ، ليقوم بالمهمة التي هدفت حياته كلها إليها . فما كان منه إلا أن شمر عن ساعد الجد وأعمل الدرس والمطالعة والتفكير وسهر الليالي في إعداد كلماته وخطبه ودفاعه وهجومه . فأبلى أحسن بلاء وظهر للملأ تفوقه وعبقريته واعتز العرب به أيما اعتزاز .

---

(١) وكيف يضعف فارسنا في السبعين وهو القائل عن نفسه :

يشد إلى السبعين وهو مزيرها

كانت أول خطبة ألقاها في المحافل الدولية تلك التي خطبها في الثاني من أيار ١٩٤٥ في مؤتمر سان فرنسيسكو بحضور ممثلي ٥١ دولة . تكلم في آخرها عن خطورة المهمة الموكلة إلى المؤتمر ثم أبدى تفاؤله في إمكان تحقيق الفكرة السامية التي تهدف إليها المنظمة العالمية بالاعتماد على العقل الذي يخلق النظام ويعدل الطمع ، وبمعالجة القضايا والمشاكل بروح العقل ، ولولا ذلك لبقيت شوكة في جانب الجسم الدولي .

ثم اقترح أن تقوم محكمة العدل الدولية بمهمة حل المشكلات الناجمة والتي ستنجم ، وأن تعمل بالتعاون مع المنظمة العالمية وهيئاتها . وأعلن في نهاية خطبته نبأ تشكيل جامعة الدول العربية التي اتفقت ولادتها مع ولادة هذه المنظمة العالمية ، والتي ستساعد في إقرار العدل والسلم . وختم خطبته ببعض حكم عربية حول الحق والعدل ، واستشهد بقول أبي بكر رضي الله عنه فرجى أن تعتبر المنظمة القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه الحق والضعيف قوياً حتى يرد حقه إليه .

كان لخطابه هذا أحسن الأثر في نفوس السامعين من مختلف الدول ، وبرهن على ذلك ما انهال عليه من المديح والثناء من قبل رؤساء الوفود . وذاع صيته في المحافل السياسية . ودعته جامعة جنوب كاليفورنيا بعد انتهاء المؤتمر فمنحته دكتوراه الشرف في الشؤون الخارجية في ٢٩ حزيران ١٩٤٥ وذلك « بالاستناد إلى توصية لجنة مشتركة من أمناء الجامعة وأساتذتها اعترافاً بأعماله الممتازة في حقل العلاقات الدولية » .

ونراه يقوم في مجلس الأمن في يومي الخامس عشر والسادس عشر من شباط ١٩٤٦ مرات عديدة ليدافع دفاعاً مطولاً عن حرية بلاده ويطالب بانسحاب الجيشين الانكليزي والفرنسي من سورية ولبنان . يستمد دفاعه

من عدالة القضية ومن علمه الغزير بالحقوق ومن ذكائه ولباقته وبديهته ، ولا يحجم عن إيراد الشواهد والأمثلة التي تصور وضع بلاده في أذهان الحاضرين بصور بسيطة بليغة . حتى فاز هو وزميله اللبناني باكساب القضية عطف مندوبي الدول ، واستجابت فرنسا وانكلترة إلى الرغبة العامة في الجلاء .

في أواخر عام ١٩٤٦ انتخبت سورية عضواً في مجلس الأمن . فكلفت الحكومة فارسنا بأن يمثلها في هذا المجلس . وكان إذ ذاك في الرابعة والسبعين من عمره ، فظل يقوم بأعباء هذه المهمة الخطيرة طوال عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ورأس مجلس الأمن مرتين أولاهما في آب ١٩٤٧ وثانيتها في حزيران ١٩٤٨ . كانت تلك الفترة من الزمن من الفترات الحاسمة في تاريخ الشرق العربي ، إذ عرضت على المجلس ، في جملة قضايا الأمن الدولي ومشكلات الدول ومنازعاتها ، قضية جلاء الانكليز عن مصر وقضية تقسيم فلسطين . هذا بالإضافة إلى انعقاد جلسات منظمة الأمم المتحدة ولجانها . وكان فارسنا يتكلم فيها جميعاً . فدافع عن قضية مصر وجلاء الجيوش الأجنبية عنها في صيف عام ١٩٤٧ حتى في أثناء رئاسته لمجلس الأمن . ولم يقتصر دفاعه على البلاد العربية وحدها بل تناول جميع القضايا التي لها علاقة بالسلم . وشمل دفاعه جميع الشعوب التي كانت على حق في مطالبها .

استمر النقاش في مجلس الأمن حول قضية مصر أياماً طوالاً تضافرت فيها جهود فارسنا مع جهود مندوب مصر . وألقى في ٢٦ آب ١٩٤٧ خطاباً باسم الوفد السوري ، لابصفته رئيساً لمجلس الأمن ، ناقش فيه حجج الخصم الانكليزي وفند مزاعمه تفنيداً قانونياً . وانتهت رئاسته للمجلس بانتهاء آب ولكن الجدل في قضية مصر ظل قائماً يشغل جلسات عديدة

استمرت حتى العاشر من أيلول فتكلم فارسنا مرة ثانية في هذا اليوم مفنداً ماجاء به المندوب الانكليزي من حجج جديدة . ولكن النقاش في المسألة المصرية أجل بدون أن يبت فيه .

أعقب دفاع فارس الخوري آثاراً بليغة في مصر وسورية . وأوردت الصحف ووكالات الأنباء عنه كثيراً من التفاصيل ، وكلها ثناء وشكر واعتراف بالجميل . مثال ذلك ماقالته جريدة الزمان المصرية :

« لن ينسى المصريون أبداً ذلك الصوت الرصين العميق الذي امتزج ذكره إلى الأبد بتاريخ جهادنا في سبيل السيادة والاستقلال . كان صوت كادوجان المندوب البريطاني الجاف يرتفع في مجلس الأمن الدولي وتتبعه أصوات أخرى توجه ضرباتها مباشرة أو مداورة إلى حقوق مصر المقدسة ، ويشعر المصريون وهم يسمعون تلك الأصوات النكراء بانقباض في الصدر يدوم لحظات طويلة أو قصيرة . ثم يختلج الأمل في الصدر ويحل محل الانقباض عندما يدوي في ذلك المكان الصوت الذي نقشت نبراته على صفحات الأذهان : وهو صوت فارس الخوري مندوب سورية ورئيس مجلس الأمن الدولي في ليك سكسيس في هذه الدورة التاريخية . فكان يلقي في ذلك الجو الرهيب بضع كلمات نيرة واضحة تعبر عن آراءٍ واضحة نيرة مثلها ، فيهدم حجة الخصم من الأساس . ولكن القضاة في ذلك المجلس كانت تنقصهم النزاهة . ولذلك لم يكتب الفوز للمحامي فارس الخوري في مرافعته المتينة الرائعة . »

وتعاقبت الأحداث سراعاً فظهرت على بساط البحث قضية فلسطين ، تلك المأساة التي يندى لها جبين التاريخ ، ليمثل منها فصل محزن جديد هو من أشد فصولها أسى ألا وهو التقسيم . شهد فارس الخوري المؤتمر الذي عقد في لندن في مطلع عام ١٩٤٧ لدراسة هذه القضية وألقى هنالك رد الوفود

على بيان وزير الخارجية الانكليزي وحذر من التقسيم وعواقبه ، ثم عاد إلى نيويورك ليمضي قدماً في تمثيل بلاده في الأمم المتحـــدة وفي مجلس الأمن فعرضت قضية فلسطين على الجمعية العـامة لهيئة الأمم وطال بحثها في اللجنة السياسية وما تفرع عنها ، ثم في الجمعية العامة من أيار إلى تشرين الثاني من عام ١٩٤٧ ، حتى انتهى بقرار التقسيم المشؤوم ، بالرغم من جميع الجهود التي بذلها مندوبو الدول العربية ومن بينهم فارسنا خاصة . إذ ألقى عدة خطب من أبلغ خطبه مملوءة بالحجج والبراهين الساطعـــة التي كانت تكفي لإحقاق الحق لو كانت الدول الكبرى تريد إحقاق الحق . وبعـد نجاح التصويت على قرار التقسيم ، أبان فارسنـا أن ثلثي سكان العالم أبوا الموافقة عليه إما برفضه صراحة أو بالاستنكاف عنه ، وأن الذين وافقوا عليه لا يمثلون إلا الثلث فقط من سكان العـالم ، وينتمي معظمهم إلى دول نائية ليس لها صلة بفلسطين أو بالشرق الأدنى ولا بشؤون القـارة الأسيوية .

لم يثن الفشل من عزيمته ولم يدخل اليأس على قلبه : بل ظل يناضل ويكافح فجهد في منع تنفيذ قرار التقسيم أو في عرقلته . ولكن إرادات تفوقه قوة أضعاف أضعـاف ، أبت أن تستمع للحجج والأدلة بل كانت تريد أن تخلق دولة اسرائيل مهما كلف الأمر .

سادتي : لفقيدنا الخالد مزايا جمة نمت كلها وازدهرت ولم يغمط بعضهـا حق بعض . فكأنمـا هو من نفسه في نفوس ومن عقله في عقول ومن فهمه في أفهام . تتسع ذاكرته للأمور المتباينة وللثقافات المتضاربة ولا يعسر على إدراكه شيء . ومن المدهش أن تكون شخصيته وثقافته عصاميتين . فهو لم ينل في الجامعة الأمريكية سوى شهادة البكالوريوس في الثقافة العامة . ولكنه درس الحقوق بلا أستـاذ ولا مدرسة ، فنبغ فيها حتى غدا في

معهد الحقوق أستاذاً ممتازاً له مؤلفات قيمة وطلاب كثيرون معجبون به أيما إعجاب . درس العلوم المالية وأصول المحاكمات وصار نقيب المحامين وأصبح مرجعاً من مراجع القانون والتشريع . ولم تقتصر معرفته بالقوانين على نطاق بلاده بل تعدتها إلى الصعيد الدولي . فبرهن في الميادين الدولية على معرفته الواسعة المتينة إذ ابتلتها الأيام وامتحنتها الظروف القاسية التي مرت بها البلاد العربية ، فكانت قوية صامدة راسخة الأسس . تمكن من أن يقارع هنالك ألد الخصوم وأقواهم وهم من زهرة رجال الدول الكبيرة في السياسة والقانون . إن انتخابه عام ١٩٤٧ لرئاسة اللجنة القانونية ، وهي إحدى اللجان الست في الأمم المتحدة ، دليل ساطع على التقدير الذي كان له في نفوس كبار رجالات الأمم ، ونظير ذلك انتخابه عضواً في لجنة القانون الدولي ، وقد غدا في محيط الأمم المتحدة شخصية خيالية ولقب ببطل العالم الثالث .

لخص الأستاذ محمد علي الطاهر شخصيته ، وكان جيد المعرفة به فقال :

« مناقش مداور مناور مجادل من طراز عال رفيع ، لا يقاطعك إن حدثته ولا يصادمك ولا يصول عليك في جوابه ، لأنه لقوته وتواضعه وسمو أدبه وثقته بنفسه يعتمد في مجادلتك على الحجة والنص والشاهد بدون أن يحاول إفهامك أنه أقوى منك أو أعلم أو أحكم أو أوسع إحاطة . ذلك أنه قد دفع ثمن ما وصل إليه من مقام جليل غالياً ونفيساً : دفعه سهراً ودرساً ومتاعب مدة سبعين عاماً من الأعوام التي عاشها وطواها بعزيمة ... وكم نام لداته وأنداده وهو ساهر لاينام . »

هذا هو فارس الخوري ، الذي فقد به المجمع عضواً ممتازاً ، وخسرت سورية والبلاد العربية ، بل خسرت بموته الإنسانية جمعاء شخصية فذة قلما يخلفها الدهر .

سادتي : أستئذنكم الآن في الانتقال إلى موضوع آخر ذي صلة هامة بأهداف المجمع ، تهتم به جميع البلاد العربية وهو من موضوعات الساعة ألا وهو موضوع المصطلحات العلمية ، وجعل اللغة العربية من جديد لغة علمية قادرة على التعبير عن جميع فروع العلم وتطبيقاته بمثل السهولة واليسر اللذين تعبر بهما اللغة الانكليزية أو الفرنسية مثلاً .

تتطور المدنية في أيامنا هذه تطوراً سريعاً ، ويزداد هذا التطور سرعة في كل يوم . ذلك لأن العلم والصناعة اللذين هما عماد هذه المدنية يتقدمان بخطى حثيثة يسوقان فيها ركب الحضارة في سير مغذ ، هو في كل يوم أعجل منه بالأمس . تتسع العلوم ويبعد غورها بفضل البحث والاستكشاف اللذين تنفق عليهما ألوف الملايين ، وتتضخم ويكثر شمولها وتتعدد فروعها ، فينقسم الواحد منها إلى عدد من العلوم الجديدة يصبح كل منها علماً قائماً بذاته له أتباعه ومريدوه ، فيأخذ بدوره بالاتساع والتعمق ثم بالانقسام من جديد وتظهر له فروع تطبيقية . وعندما يعمد الإنسان إلى الاستفادة من هـــذه العلوم في حاجاته اليومية تولد ألوان جديدة من التكنولوجيا والهندسة . وليس لهذا التكاثر من حد .

نسوق على هذا أمثلة ثلاثة : لقد ولدت حاجات الحرب العالمية الثانية ، في جملة ما ولدت : **الطاقة الذرية والصواريخ والالكترونيات** . وأخذت هذه المواليد تنمو وتتضخم ويعظم شمولها . إذا نحن حققنا قليلاً في أصل هـــذه المواليد رأينا أن اكتشاف تفكك الذرة ، الذي هو سبب انتشـــار الطاقة الذرية قد وقع قبل ختام القرن الماضي بأربعة أعوام فقط ، وظلت بحوث الذرة في دور الاستكشاف حبيسة المختبرات حتى اندلعت نار الحرب الأخيرة فأريد لهذا المارد أن يخرج من قمقمه الذي هو نواة الذرة . جندوا لذلك جيوشاً من العلماء والمهندسين ورجال الصناعة وبذلوا لهم الأموال بسخاء ، فما كاد عام ١٩٤٥ ينتصف حتى كان كل شيء قد تم ، فالنظائر المشعة صارت تستعمل في الطب ، واستخدمت الطاقة الذرية للأغراض الحربية والسلمية .

وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى عمت التطبيقات وتنوعت واتسعت . فانتشرت اليوم المحطات الكهربائية الذرية في سائر أنحاء العالم واستخدمت الطاقة الذرية في تحريك السفن والغواصات وفي تحويل ماء البحر الملح إلى ماء عذب ، واستخدمت النظائر المشعة في الطب للكشف والمعالجة وفي الزراعة لتعين على دراسة التربة والنبات وتحسين نموه وعلى إبادة الحشرات الضارة وفي الجيولوجيا والآثار لأغراض شتى ، وفي الصناعة لكثير من التطبيقات كما استخدمت القنابل الذرية والحرارية النووية للحرب والسلم ، فتستعمل الآن لحفر الكهوف والأنفاق والترع . ويطلع علينا كل يوم شيء جديد في هذا الباب .

أما الصواريخ ، فهي وإن عرفت قدماً في الصين وعند العرب وفي الغرب ، فإن إنتاجها الضخم بشكلها الحديث قد حصل في السنوات الأخيرة للحرب العالمية الثانية على يد الألمان . وسرعان ما تسلمت الدول الكبيرة المنتصرة تركة ألمانيا النازية فوضعت اليد على العلماء والمهندسين وعلى مااستطاعت أن تظفر به من مصانع وصواريخ وقطع في الأرض المفتوحة . وفي خريف ١٩٥٧ قذف الروس بأول قمر صنعي إلى الفضاء ليدور حول الأرض. وما زالت الأموال الضخمة تنفق في هذا الباب بالمليارات العديدة كل عام ، وأصبح عدد العاملين في مملكة الفضاء يقدر بمئات الألوف . حتى دار الإنسان حول القمر وأرسل رسله الآلية لتجوس أرجاء الزُّهَرَة والمريخ وأصبح دوران مركبات الفضاء حول الأرض وسباحة الإنسان في الفضاء من الأمور العادية التي نسمع بها كل يوم فلا نجد فيها غرابة . واستعملت الأقمار الصنعية لدراسة الأرض والفضاء والكواكب ولدراسة الأحوال الجوية والأنواء وتسهيل سبل المواصلات اللاسلكية والملاحة البحرية والهوائية ونقل برامج التلفزة ، كما صارت تستعمل للمراقبة والتجسس .

وأما الألكترونيات فوُلدت مع الحرب العالمية الأولى وانتشرت تطبيقاتها فيما بين الحربين في مصابيح الراديو والخلية الكهربائية الضوئية وبَدء تجارب التلفزة . ثم جاءت الحرب الثانية فدفعتها إلى الأمام دفعاً قوياً أظهر أجهزة الرادار والتوجيه اللاسلكي . وظهرت لها بعد الحرب تطبيقات واسعة عديدة منها الانتشار المدهش للتلفزة والترانزستور واستعمال الأمواج الهرتزية المتناهية القصر في الاتصالات اللاسلكية . وأهم تطبيق للالكترونيات هو بحق في **الآلات الحاسبة الالكترونية** .

ظهرت هذه الآلات في نشأتها الأولى قبيل الحرب الثانية وتحسنت في أثنائها ، ثم أخذت بعد الحرب تتطور وتتحسن حتى غدت اليوم على درجة عالية من الكمال لايفوقها إلا ما يرتقب لها في الغد من تحسين وتطوير جديدين كانت تستعمل في الأصل في المختبرات العلمية الكبيرة لتقوم بالعمليات الحسابية المعقدة الطويلة التي يحتاج إنجازها إلى جهود عدد كبير من العلماء والحاسبين وإلى زمن طويل جداً يقضونه في حسابات مضنية . صارت الحاسبات الألكترونية تنجز هذه الأعمال في دقائق . ثم أخذ نطاق استعمالها يتسع وأدخل عليها التعديل والتحسين لكي تتمكن من القيام بأعباء مهمات متنوعة وظهرت منها زمر وأصناف كل زمرة لها وظيفة وتخصص ، واستمر التحسين والتطوير إلى اليوم . وكلما تقدم علم الالكترونيات استفيد من مكتشفاته الجديدة في استيلاد جيل جديد من الآلات الحاسبة .

تستعمل هذه الآلات الآن في شتى الميادين ، وذلك حسب أنواعها . لقد أصبحت ، بالاضافة إلى قدرتها الفائقة على الحساب آلات مفكرةً ذات ذاكرة واسعة جداً يرجع إليها عند كل عقبة . تلقى عليها الأسئلة العويصة فتجيب عنها بمنتهى الضبط والإحاطة .

تستعمل في تسيير المعامل الكبيرة التي طبق فيها نظام العمل الآلي ، وتستعمل في إدارة المؤسسات وتوجيهها في الطريق الصحيح من حيث العمل وحسن التصرف بالأموال ، وفي تنظيم سير القطارات على شبكات السكك الحديدية الكبرى ، وفي تنظيم السير في المدن المزدحمة . وتقوم في دور البيع الكبيرة بتدوين الحسابات وفرزها وإعداد الفواتير وبيانات الأرباح والخسائر ، وتستعمل في أعمال التصميم الهندسي للمشروعات الكبيرة والصعبة وتعتمد عليها مراكز إطلاق الصواريخ وتسيير مراكب الفضاء ومحطات توليد الطاقة . وتعتمد عليها الدوائر العسكرية في إعداد خطط الدفاع والهجوم وتحريك أسراب الطائرات وإعداد عمليات السوق . ويتسع نطاق تطبيقها في كل يوم . وقد بلغ من اتساع ذاكرتها الصنعية أنها غدت قادرة على استيعاب وحفظ علم كامل كالفيزياء أو الكيمياء ، فلا يلقى عليها سؤال في أحدها إلا أجابت عنه بدقة ، بقدر ماتتسع له المعلومات التي أودعت ذاكرتها . وأصبحت تقوم مقام مكتبة كاملة بكتبها ومجلاتها وجزازاتها . وبهذه المناسبة أذكر أنه قد ولد بفضلها علم جديد يسمى Informatique وهو في الواقع فن معالجة المعلومات والمعرفة بواسطة العقول الالكترونية . كما ولد علم آخر يسمى Cybernétique ويعالج وسائط الاتصال والإفصاح والسيطرة والتحكم لدى الانسان وفي الآلات ، كما يبحث في أوجه الشبه بين العقل البشري والعقل الالكتروني .

من أمثلة الاستعمالات القريبة للدماغ الالكتروني ، ما يراه الأطباء من الفائدة في إقامة مركز الكتروني تودع لديه الاستمارات الصحية والطبية لجميع المواطنين في القطر ، ويكون لكل مواطن رقم خاص به ، فاذا قصد هذا المواطن طبيباً لمرض ألم به ، يتصل معاون الطبيب فوراً بهذا المركز بواسطة جهاز اتصال خاص كالهاتف ، فيحصل في مدة دقيقة على

صورة كاملة للاستمارة الصحية لهذا المريض ، فيقدمها المريض إلى الطبيب عندما يستقبله .

تجري تجارب كثيرة للاستعانة بالعقول الالكترونية في التعليم . ونذكر أن بعض أنواع هذه الآلات قد صنع لترجمة النصوص من لغة إلى أخرى ، ويشترط أن يكون النص الذي يترجم قد كتب بأسلوب لا تعقيد فيه ، واختيرت كلماته ومصطلحاته بدون أن يكون لها تعداد في المعاني .

يقدر الآن أن العقول الألكترونيـة ستحل في المستقبل القريب محل العديد من الجماعات المفكرة . وتتبارى الشركات التي تصنعها ، وهي من كبار الشركات في العالم ، في تحسينها . واستنباط أصناف جديدة منها تكون فتحاً جديداً في عالم التطبيق . مثال ذلك أن شركة I. B. M. قد وظفت مؤخراً مبلغ خمسة مليارات دولار لإنتاج صنف جديد من الآلات الحاسبة تعد صنعه الآن ليكون النموذج التقدمي لهذه الآلات في المستقبل القريب .

اقتصرت أيها السادة على التنويه بهذه الأصناف الثلاثة من المكتشفات الحديثة لأعطي فكرة تقريبية عن مدى التقدم العلمي والصناعي . وإن وسائل الإعلام تنبئنا كل يوم عن مكتشفات ومخترعات جديدة .

سادتي : إن لغتنا العربية التي حوت أوسع كنوز الأدب واتسعت للفلسفة والعلوم فقامت بأدائها خير قيام أصبحت بحق لغة المدنية والحضارة خلال قرون طويلة . ثم اعتراها ركود ، واتفق لسوء الحظ أن وقع هذا الركود في إبان النهضة الأوربية وما تبعها من رقي إلى الآن . فبعثت الآداب والفنون ونشأت العلوم الحديثة وارتقت الصناعة وازدهرت المدنية . ونشأت اللغات الأوربية الحية فسايرت هذا الرقي واستطاعت أن تضع الكلمات والمصطلحات لجميع ما أبدعه الرقي من محدثات جديدة . فبلغ عدد المصطلحات العلمية عشرات الألوف . وهنالك معجمات مستقلة لكل علم أو فن بمفرده .

لا تستقيم لأمة حضارة ولا قوة إلا إذا كانت لغتهــا على المستوى الرفيع الذي يمكنها من البحث والتدريس والتعبير والتأليف في جميع مقومات هذه الحضارة .

ونحن نشعر جميعاً باستحكام أزمة المصطلحات العلمية وتزايد خطورتهـا كل يوم . وأن أخطر ما فيها هو هذه الفوضى النازلة بها . فلكل قطر عربي مصطلحاته الخاصة ، وتتبع في القطر الواحد مصطلحات تختلف من مؤسسة إلى مؤسسة ومن جامعة إلى جامعة ، بل من كلية إلى كلية وأستاذ إلى استاذ . وقد بذلت جهود حميدة تقصد إدخال شيء من النظام على هذه الفوضى القائمة . فقامت المجامع اللغوية بقسط من هذا العمل وظهرت بعض المعجمات في مصطلحات الطب والعلوم الحيوية والطبيعية ، وألفت الجامعة العربية مكتب التعريب في الرباط ليقوم بجمع المصطحات من مختلف الأقطار العربيـــة ودفعها إلى مؤتمرات تعقد بين الفينة والفينة لتنظر فيها وتقرها ، ولا نزال نرتقب انعقاد هذه المؤتمرات لنستفيد من ثمراتها .

إن الواجب المفروض علينا في هذا النطاق جد كبير ، ولا مندوحـة لنا عن النهوض ولو بقسم من أعبائه . فلنشمر عن ساعد الجد مستعينين بالله وهو ولي العون والتوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله .

وجيه السمان

❋❋❋

الغلطات المطبعية

الواردة في مقالة «فوات الوفيات في طبعته الجديدة»

في القسم الأول من نقد الجزء الثاني

«مجلة المجمع : المجلد ٤٣ ج ٤ ص ٧٤٩ رجب سنة ١٣٨٨»

الصفحة	السطر	الوارد	الصواب
٧٥٠	٦	الطبقة الأولى	الطبعة الأولى
٧٥٢	١	بجّاية	بجاية
٧٥٣	٢	حواشية	حواشيه
٧٦٤	٧	هو أنها	هو أنه

***

تصحيح بعض الأخطاء

الواردة في الجزء الأول والثاني من المجلد الرابع والأربعين

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٤	٧	قسيم	قيم
١١٤	٨	الفانية	الغائية
١١٤	١٣	أي الفكر	الى الفكر
١١٦	٤	ضبطت	خبطت
١١٩	١٩	الغائبة	الغائية
١٢٠	١٠	المتعلم	المتكلم
١٢٠	١١	فالمتعلم	فالمتكلم
١٢٠	١٥	التفهم	التفهيم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٠	١٦	وصرفت	وصدقت
١٢١	٢٣	قلما يدل	فكما يدل
١٢٤	٢٣	المتدل	المقول
١٢٧	٨	وبهذا	ولهذا
١٢٨	٥	في الأصل مبنية	لأن العادة في الأصل مبنية
١٢٨	١٢	بالجمال	للجمال
١٣١	١٨	ليقاس	يقاس
١٣٣	٣	للفظ	اللفظ
١٣٣	٨	الغرض	العرض
١٣٣	٩	الجمع بينها	الجمع بينهما
١٣٤	١	جاؤا	جاؤوا
١٣٤	٩	أدّى توجيه	أدّى إلى توجيه
١٣٥	١٣	التقديس	النقد ليس

الدكتور جميل صليبا

غلط وصوابه

ورد في الصفحة ٢٤٥ من الجزء الأول والثاني من المجلد الرابع والأربعين

وجدتُ في ما ذكر الأُستاذ الكبير السيّد عدنان الخطيب من ترجمة المرحوم عيسى اسكندر المعلوف ، وذلك في العدد الأخير من مجلة المجمع قطعة من قصيدة لي في رثـاء المعلوف . وقد جاء في القطعة من غلط الطّبع .

ظفر العــــلم بمعلوفيّةٍ من براعٍ (كالرياض) وضّاءْ

وصوابه : من يراعٍ كالرّياحين .

وجاء في القطعة أيضاً :

يا (أبي) التاريخ بلّغت ذرىً لم تتحْ علياؤها للنظراءْ

وصوابه : يا أبا التاريخ .

وجاء أيضاً :

أم تولّته (يد) طاغية سخّر العلم لشرٍّ وشقاء

وصوابه : أم تولّته يدا طاغيةٍ .

ثمّ انّي وجدت الألف الممدودة ، في كلّ مواضعها من القطعة ، لم يجعل عليها مرتّب الحروف المدّة . في حين أنّ المدّة تُرسم على الألف الممدودة لأنّها تُمدّ باللّفظ أيضاً . بمعنى أن ألف « السمآء » تكون أطول من ألف « السّماع » ، مثلاً . وقد اختلفوا في تقديرها بين ألفين إلى ستّ ألفات (انظر [البيان] للإمام اليازجي ، و [الإتقان] للإمام السّيوطي) .

ذلك ، وإن قيل في الرّدّ على ما هنا ، إن علامة المدّ من فوق الألف في مثل كلمة السّماء ، تُحذف في الرّسم ، لأنّ المدّ على الألف تعويض عن همزة مفتوحة قد حُذفت ، وأصل كتابتها هكذا « أا » ، مثل مآرب ، فلا يجوز وضعها على مثل « الرّجاء » و « السّماء » ، لأنّها لا تلفظان « الرّجأا » و « السّمأا » .

ولقد أخذ الإمام اليازجي في هذه الكتابة بالرّأي الأوّل ، وجرى عليه في « الجنان » و « الطبيب » و « البيان » و « الضّياء » ، وفي كلّ كتاب وضعه ، أو وقف على طبعه . وأنا من الّذين يحبّون أن يأخذوا إخذه في كلّ نكتة لغويّة .

(بيروت) أمين نخلة

الجزء الرابع		المجلد الرابع والأربعون

مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق
« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

تشرين الأول « اكتوبر » سنة ١٩٦٩ م		رجب سنة ١٣٨٩ هـ

تطوّر اللغة في العصر العباسي (١)

أرى قبل الشروع في الكلام على تطوّر اللغة في عصر بني العبّاس أن نتّفق على معنى التطور وهذه اللفظة من الألفاظ التي أحدثها عصرنا ، ومعناها على ما أعتقد تتابع الصيغ أو الأشكال التي انتقلت الألفاظ بموجبها من وجهٍ إلى وجه ، فإذا كان هذا هو معنى تطور اللغة فاللغة قد انتقلت على ترادف السنين من شكل إلى شكل ، ولا يزال هذا الانتقال يستمرّ في عصرنا ، وإذا كنّا نعجب من الوقوف على مظاهر تطورها فقد يكون عجبنا أشدّ من دلالة هذه المظاهر على نموّ اللغة ، على استمدادها للحياة

(١) ألقى الأستاذ شفيق جبري عضو مجمع اللغة العربية بدمشق خمس محاضرات في جامعة الكويت في شهر آذار الماضي ، وهذا هو القسم الأول من المحاضرة الأولى : تطوّر اللغة في العصر العباسي .

مهما بلغتها من الأمور ، لقد جاءت ببراهين قاطعة على أنها أهل للحياة ، فلم تمنعها الموانع من تتبع مجرى هذه الحياة في كل عصرٍ من عصورها ، في الجاهلية والإسلام ، في زمن بني أميّة وبني العبّاس ، حتى في عصرنا هذا الذي نعيش فيه ، وهذا موطن من مواطن افتخارنا بلغة العرب .

وإني لأرجو أن لا تكون دراستنا لتطوّر اللغة في زمن بني العبّاس أو في أيّ زمنٍ مجرّد دراسة لانتقال الألفاظ من وجهٍ إلى وجـــه ، أو لإحياء ألفاظ وموت ألفاظ ، أو لغير ذلك من الأساليب التي تدلّ على تطور اللغة ، فما الذي يمنعنا من أن نرى وراء هذا التطور تطوّر أمةٍ بأجمعها ، إني لا أستطيع أن أقرأ مثلاً فصول الموسيقى في كتاب مفاتيح العلوم الذي سأشير إليه ، ولا أن أطلع على ما احتوته هذه الفصول من آلات الموسيقى عند العرب كالصَّنْج والطنبور والرَّباب والمِعْزفة والعود وغير ذلك من الآلات ، ولا أستطيع أن أقف على ما عرّفه العرب من ألفاظ النغمات والألحان والإيقاعات والنقرات ، إني لا أستطيع أن أقف على هذا كله وعلى أمثاله من الأمور الداخلة في الموسيقى إلاّ تصورت الأمة التي مالت إلى هذا الفن وتصوّرت بعدها قصور الخلفاء الذين شغفوا بهذا الفن شغفاً لا تحضرني عبارة لوصفه أو لوصف ما أدّى إليه هذا الشغف من الإفراط في إكرام المغنين والقيان مما جاء ذكره في كتاب الأغاني ، إني لا أستطيع أن أقف على هذا كلّه إلاّ تصوّرت حضارة العصر الذي استفاضت فيه الموسيقى وغيرها من الفنون والعلوم ، فلست أدرس تطوّر اللغة للاطلاع على تغيّرات صيغها وأشكالها وأكتفي بهذا الاطلاع ، وإنما أدرس هذا التطوّر لأن وراءه حضارة أفصحت عنها اللغة وتطوّرها .

فلنشرع بعد هذه المقدمة في موضوعنا .

في رأي « دوزي » صاحب المعجم المشهور أن لغة العرب ، وهو يعني بذلك لغة الشعر القديم والقرآن والسنّة لم يطل عهدها أكثر من قرنين على التقريب ، ثم ماذا حدث بعد ذلك ، لقد طرأ على اللغة من آخر القرن الأول الهجري تغيير عظيم ، إلى أي شيء أدّى هذا التغيير ، لقد أدّى إلى غناها وغوّها ، وهذه نتيجة لا مندوحة عنها ، إنها نتيجة الانتصارات السريعة الخارقة التي انتصرها العرب بعد الرسول ﷺ ، لقد خالط العرب بعد تلك الانتصارات شعوباً شتّى غلبوا عليها ، فتفوهت تلك الشعوب بلسان الفاتحين وإن كانت تلحَن في كلامها ، لقد كان لتلك المخالطة أثر في العرب أنفسهم فاختلّ النحو على ألسنتهم واستعملوا ألفاظاً قلبوا وجوه معانيها واقتبسوا كثيراً من التعابير من لغات الأمم المغلوبة ، أهل الشام والفرس والقبط والبربر والإسبان والترك .

على أن مخالطة الأعاجم لم تكن السبب الأوحد ولا كانت السبب الأعظم في فساد اللغة ، فقد وجد الفاتحون أنفسَهم في حالةٍ حديثةٍ لا عهد لهم بمثلها ، فسواء أكانوا أهل بدوٍ أم كانوا أهل حضر يقيمون بمدن صغيرة ويعيشون عيشة بسيطة ، إنهم نُقلوا فجأة من عالم إلى عالم ، نقلوا إلى عالمٍ كل شيء فيه كان جديداً بالنسبة إليهم ، نقلوا إلى مدن كبيرة يشيع فيها البذَخ والترف وتستفيض فيها حضارات قديمة ، حضارات الرومان والفرس ، وممّا زاد في شرفهم أنهم نشطوا لدراسة الفنون والعلوم التي لم يكن لهم عهد بها ، فحدث بعد هذا أن انقلبت أفكارهم وأخلاقهم كلّ منقلب ، فأصاب اللغة ما أصابهم ، فقد انتقلت من بيئة البداوة إلى بيئة الحضارة المصقولة ، فافتقرت من جهة وغنيت من جهة ثانيةٍ ، كيف افتقرت ، لقد سقط كثير من فيض الألفاظ التي كانت تضايق لغة الأدب ، سقط ما يقرب من ثلث اللغة ، سقطت الألفاظ التي كانت تعبّر عن حالات بدوية ، ولم يكن كثير

منها يستعمل استعمالاً عاماً في أي عصرٍ من العصور ، ولئن سقطت تلك الألفاظ لقد اعتاضت عنها اللغة ألفاظاً جديدة تعبّر عن أشياء وعن أفكار كانت مجهولة ، فقلب العرب بفضل عبقرية لغتهم معاني ألفاظٍ من وجه إلى وجه .

لقد حدث هذا الانقلاب في كل الأقاليم التي غلب عليها العرب ، ولكن الانقلاب كان على درجات متفاوتة ، وممّا أعان على التعجيل في خلق اللغات المختلفة ترامي أطراف الدولة ، فكل ناحية من هذه الأطراف كان لها لغة خاصة .

ولم يسع المحافظين من رجال اللغة أن يشهدوا مثل هذا الأمر دون الاعتراض ، لم يسع المحافظين على صفاء اللغة من رجال النحو والشرع والفقه أن يُغْضوا على مثل هذا الأمر ، فكأنهم لم يحيطوا بطبيعة الأشياء ، ولا أدركوا أن كل شيء في هذا العالم عرضة للتغيير ، ولا سيَّما اللغات التي تتغيَّر بتغيّر الأفكار ، إنها مرتبطة بالجماعات التي تنطق بها وبالكتّاب الذين يستخدمونها ، وفي رأي « دوزي » ان أولئك الرجال ، رجال اللغة كانوا يريدون أن يجعلوا لغتهم جامدة لا تتحرك ، فهم أعداء كل توليد ، على أن « دوزي » قد اعترف بأن مجهودات علماء اللغة لم تكن باطلة ، فبفضلهم وبفضل دراسة القرآن لم تتشعب العربية ، فلم تتولد عنها لغات ثانية كما تولّد عن اللغة اللاتينية ، إلا ّ أنهم مع هذا كله لم يستطيعوا أن يسدّوا طبيعة مجرى الأمور ، فقد كان من الكتّاب من يستعمل اللغة العامّة ، وقد ضرب « دوزي » مثلاً لذلك الرحّالة المقدسي الذي عاش في القرن العاشر الميلادي ، فقد اضطر من أجل المحافظة على ما يسمّونه : اللون المحلّي إلى أن يستخدم في وصف كل إقليم من الأقاليم التى زارها لغة ذلك الإقليم .

فالذي يهمنا من كل ما جاء في هذه المقدمة الصادقة في أكثر محتوياتها إنما هو قول صاحبها : كل شيء في هذا العالم عرضة للتغيير ، ولا سيمّا اللغات التي تتغير بتغير الأفكار .

فانظر في هذه التغيرات ، فظاهر تطوّر لغتنا مختلفة ، فإمّا أن تتغير معاني ألفاظها القديمة ، فتنتقل هذه المعاني من أفق إلى أفق وإمّا أن تحدث ألفاظ جديدة بأسلوب من الأساليب ، بالتعريب والتوليد مثلاً ، وإمّا أن تموت ألفاظ لم تبق حاجة إليها .

نبدأ بالمظهر الأول ، بالتغير الخطير ، وأعني به مجيء الإسلام وما أفضى إليه هذا المجيء من تطور اللغة ، فلنستعن بإمام من أئمة اللغة ، فلنسمع ما قاله ابن فارس في فقه اللغة :

« كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت ، فعفّى الآخر الأوّل ، فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق ، وإن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمّي للمؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الإسلام والمسلم إنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء الشرع من أوصافه ما جاء ، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلاّ الغطاء والستر ، فأمّا المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروا ، وكان الأصل من نافقاء اليَرْبوع ، ولم يعرفوا في الفسق إلاّ قولهم : فسَقت الرُطَبة إذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بأن الفسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى ،

ومِمّا جاء في الشرع الصلاة وأصله في لغتهم الدعاء ، وكذلك الصيام وأصله عندهم الإمساك ، ثم زادت الشريعة النيَّة وحظرت الأكل والمباشرة وغيرهما من شرائع الصوم ، وكذلك الحج لم يكن فيه عندهم غير القصد ، ثم زادت الشريعة ما زادت من شرائط الحج وشعائره ، وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها إلاّ من ناحية النَّماء ، وزاد الشرع فيها ما زاد ، وعلى هذا سائر أبواب الفقه ، فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول فيه اسمان : لغوي وشرعي ، ويذكر ما كانت العرب تعرفه ثم ما جاء به الإسلام وكذلك سائر العلوم كالنحو والعروض والشعر ، كل ذلك له اسمان : لغوي وصناعي . »

ما الذي نستنتجه من كلام ابن فارس ، إننا نستنتج من هذا الكلام أن الإسلام لمَّا جاء جاء بأفكار جديدة لا عهد للعرب بها ، ولا بدَّ لهذه الأفكار من ألفاظ تعرب عنها ، فإذا لم تكن الألفاظ بقيت الأفكار مطويَّة في ذهن صاحبها ، إلاّ أن هذه الأفكار لم تكن مطوية في الذهن ، فقد وجدت لها ألفاظاً تفصح عنها وتثبتها في الأذهان ، كيف وجدت هذه الألفاظ ، إنها لم تخترع اختراعاً ، فلم تعرَّب ولم تولَّد ، وإنما نقلت معاني ألفاظ قديمة من وجه قديم إلى وجه حديث ، فعبَّرت عن الدين الجديد هذه الألفاظ المنقولة ، عبَّرت عن كل ما يشتمل عليه هذا الدين من صلاةٍ وصوم وزكاة وحجّ وغير ذلك من الأفكار الإسلامية .

ولم تتغير معاني الألفاظ الإسلامية وحدها وإنما تغيَّرت أيضاً معاني أسماء الأيام ، فالسبت في الجاهلية : شيار ، والأحد : أول ، والاثنين : أهون وأوهد ، والثلاثاء : جُبار ، والأربعاء : دُبار ، والخميس : مؤنس ، والجمعة : عَروبة .

وكما تغيَّرت معاني أسماء الأيّام فقد تغيَّرت معاني أسماء الشهور ، فالمحرّم في الجاهلية : المؤتمر ، وصفر : ناجر ، وربيع الأول : خَوّان ، وربيع

الآخر : وَبْصان ، وجُمادى الأولى : الحَنين ، وجُمادى الآخرة : رُبَّى ، ورجب : الأصم ، وشعبان : العاذل ، ورمضان : ناتق ، وشوّال : وعْل ، وذو القعدة : وَرْنَة ، وذو الحِجة : بُرَك .

وهذا باب طويل لم ندخل منه إلاّ للدلالة على تطوّر اللغة ، فالمهمّ أن نعرف أن اللغة لا تثبت على حال من الأحوال ، فاذا عرضت أفكار جديدة تستلزم أسماءً جديدة وجب على اللغة أن تضع لما يستحدث من المسمّيات أسماء مستحدثة ، على نحو ما هو معروف في الألفاظ الإسلامية ، وإذا عجزت اللغة عن إحداث أسماء لمسمَّيات بقيت المسمَّيات في أذهان أصحابها ميّتة لا يجدون سبيلاً إلى التعبير عنها ، وتعرف مرونة اللغة بهذا التصرف الذي يتصرفه علماؤها في الاهتداء إلى التعبير عن الأفكار الحديثة .

وإذا كنَّا نشير إلى تطور اللغة بنقل معاني ألفاظ عن مواضع إلى مواضع ، فلا بأس بأن نذكر في هذا المقام أن من الألفاظ ما وضع في الأصل خاصاً ثم استعمل عاماً ، أي من الألفاظ ما ينقل من معناه الخاص إلى معنى عام من ذلك مثلاً : الوِرْد إتيان الماء ثم صار إتيان كل شيء وِرْداً ، والقَرَب : طلب الماء ثم صار يقال قَرَب لكل طلب والنُّجْعة أصلها : طلب الغيث ثم صار كل طلب انتجاعاً ، والأمثلة كثيرة .

وعلى خلاف الأمر فقد يوضع اللفظ عاماً ويستعمل خاصاً ، فالبغض عام والفِرْك فيما بين الزوجين خاص والتشهي عام والوَحَم للحُبْلى خاص .

غير أن هذا الباب يدخل في أبواب اللغة وقد مررنا به مروراً ، فلنستمر في موضوعنا .

ولم يكن تطور اللغة في الألفاظ الإسلامية وحدها ، وإنما كان هذا شأنها في العلوم التي حدثت بعد الإسلام كالنحو والعروض والشعر ، فاذا رجعنا إلى النحو مثلاً وجدنا فيه ألفاظاً نقلت معانيها من مواضع إلى مواضع ، لنرجع مرّة ثانية إلى ابن فارس ، قال : وزعم قوم أن العرب العاربة لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً ، والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب ، قيل له : أتهمز إسرائيل ، فقال : إني إذن لرجل سَوْء : وإنما قال ذلك لأنه لم يعرف من الهمز إلاّ الضغط والعصر ، وقيل لآخر : أتجرّ فلسطين ، فقال : إني إذن لقوي !

على أي شيء يدلّنا كلام ابن فارس ، انه يدلّنا على أنّ بعض الألفاظ كانت لها معانٍ محدّدة فلما استحدث العرب علم النحو اضطروا إلى استحداث ألفاظ لكل باب من أبوابه كالهمز والجرّ والرفع والنصب وغيرها ، فنقلوا معاني ألفاظٍ من مواضع إلى مواضع ، واصطلحوا على المعاني المنقولة ، والخلاصة ان كثيراً من الألفاظ نقلت من أصلها اللغوي إلى أصل جديد طبقاً للتطور ، مثل الألفاظ الإسلامية أو ألفاظ النحو والعروض كالمديد والطويل وغيرها .

وقد نجد مثل هذا التصرف في فنون الحضارة وعلومها التي حدثت بعد الإسلام ، وما أظن أننّا نستطيع أنْ ندرك ما عملته اللغة بعد ظهور الإسلام ولا سيّما في عصر بني العبّاس إلاّ إذا أطلعنا على الألفاظ التي وضعها العلماء لعلومهم ، فإذا تعدّينا صدر الإسلام ووصلنا إلى عصر بني العبّاس وقفنا على ألفاظ في الفنون والعلوم لايحصيها الإحصاء ، وإذا دلّتنا هذه

الألفاظ على شيء فإنها تدلّنا قبل كل شيء على مرونة اللغة كما قلت فضلاً عن استعدادها للإفصاح عمّا يفاجئها من الأفكار والمذاهب ، إلاّ أنّ الكلام المجرّد لا يوضح الفكرة التي نعنيها، فلا بدّ من الاستشهاد حتى نرى بأعيننا قوة لغتنا ، وإني أعتقد أنّ كتاب : مفاتيح العلوم للخوارزمي يوضّح لنا أكمل توضيح ما نريد ، وأرى أن الإشارة إلى فقرة مما ورد في مقدمة الكتاب تعلمنا بمحتويات هذا الكتاب الجامع لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات ، المتضمن ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات التي خلت منها أو من جلّها الكتب الحاصرة لعلم اللغة .

فهذه الإشارة تبيّن لنا الأفق المديد الذي اشتمل عليه كتاب مفاتيح العلوم ، وأريد بهذا الأفق الألفاظ التي اصطلح عليها العلماء في علومهم .

وقد أحب المؤلف أن يستشهد في مقدمته بثلاثة ألفاظ من باب ضرب المثل فقال :

ومثال هذه المواضعات لفظة الرَّجْعة فانها عند أصحاب اللغة المرّة الواحدة من الرجوع لا يكادون يعرفون غيرها ، وهي عند الفقهاء الرجوع في الطلاق الذي ليس ببائن ، وعند المتكلمين ما يزعمه بعض الشيعة من رجوع الإمام بعد موته أو غيبته ، إلى غير معاني هذه اللفظة عند الكتاب والمنجّمين .

ولفظة الفك فإنها عند أصحاب اللغة والفقهاء مصدر فك الأسير أو الرهن أو الرَّقبة ، وأحد الفكين وهما اللّحْيان ، وعند أصحاب العروض إخراج جنس من الشعر من جنس آخر تجمعها دائرة ، وعند الكتّاب تصحيح اسم المرتزق في الجريدة بعد أن كان وضع عنها .

ولفظة الوتد عند اللغويين والمفسّرين أحد أوتاد البيت أو الجبل من قوله تعالى : « والجبالَ أوتادا » ، وعند أصحاب العَروض ثلاثة أحرف اثنان متحركان وثالث ساكن ، وعند المنجّمين أحد الأوتاد الأربعة التي هي الطالع والغارب ووسط السماء ووتد الأرض .

إلاّ أن هذا الاستشهاد المختصر لايشفي الغليل ، فهو لا شيء إذا قيس بالألفاظ المستحدثه التي تضمَّنها كتاب مفاتيح العلوم ، على أنه لا سبيل إلى الإتيان على ذكر كل هذه الألفاظ ، وحسبنا أن نعرف أن المؤلف جعل كتابه مقالتين : إحداهما لعلوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية ، والثانية لعلوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم .

وإذا رجعنا إلى فهرست أبواب الكتاب وفصوله وجدناه طويلاً ، ولذلك فإننا نكتفي بذكر بعض العلوم التي أشار إليها المؤلف وذكر ألفاظها المستحدثة التي لكل واحدٍ منها معنيان : معنى لغوي في الأصل ، ومعنى اصطلح عليه علماء كل علم .

لقد أشار الخوارزمي في كتابه إلى أبواب كثيرة ، إلى الفقه ، وعلم الأصول ، وعلم الكلام ، كما أشار إلى النحو والعروض والفلسفة والمنطق والايضاح والخطابة والشعر والطب والتشريح والحساب والهندسة والجبر والمقابلة والفلك والموسيقى وجرّ الأثقال والكيمياء ، وإلى أبواب كثيرة غير التي ذكرتها .

فكيف تكون حالة العلوم في زمن بني العبّاس لولا اجتهاد العلماء في التصرف في اللغة ومفرداتها ، كيف تكون حالة هذه العلوم لو عجزت اللغة عن

وضع ألفاظ لها تدرك بها أسرارها ، كيف تستفيض هذه العلوم في عصر ظهورها وكيف نصل إلينا بعد ظهورها لولا هذه الألفاظ المستحدثة التي وضّحتها وفصّلتها ، ولماذا لا أقول صوّرتها للعقول تصويراً .

إني لا أرى سبيلاً إلى ذكر ألفاظ كل علمٍ على حدة ، فهذا أمر لا يستوعبه إلاّ معجم ، لقد ألفنا ألفاظ النحو والعَروض والشرع والفقه فلا حاجة بنا إلى تكرارها ، ولكن ما عسانا أن نقول في ألفاظ الجبر والهندسة مثلاً ، فالهندسة كلمة فارسية وأصلها : اندازه ، أي المقادير ، قال الخليل : المهندس الذي يقدّر مجاري القُنِيّ ومواضعها حيث تحتفر ، وهو مشتق من الهندزة وهي فارسية ، فصُيّرت الزاي سيناً في الإعراب ، لأنه ليس بعد الدال زاي في كلام العرب ، فلما دخلت الهندسة في علوم العرب وأصلها باليونانية : جومطريا ، لم تألف أذواق العرب هذه اللفظة فوضعوا لها اسماً وسمّوها : هندسة ، فلم يقفوا عند عقبة تعترضهم ، ثم دخلوا في تفاصيل هذا العلم فوضعوا ألفاظ الخطوط والبسائط والمجسّمات ، وقسموا كل خط أقساماً فقالوا : مستقيم ومقوّس ومنحنٍ وقالوا : خطوط متوازية وخطوط متلاقية ثم قالوا : زوايا مسطّحة ومجسّمة ، ثم قالوا : زاوية قائمة ومنفرجة وحادّة ، ثم قالوا : المحيط والقوس والأضلاع ثم قالوا : القاعدة والقطر والعمود والقوس والسهم .

وهذا باب لا نهاية له إذا تبسّطنا فيه ، ولكنّا لم نجد لنا مندوحة عن ذكر بعض الألفاظ المستحدثة حتى نعرف تطور اللغة في زمن بني العبّاس ، وإذا قابلنا بين هذا العصر الذي ظهرت فيه العلوم ووضعت لهذه العلوم الألفاظ التي تحتاج إليها وبين عصر الجاهلية أو عصر صدر الإسلام استطعنا

أن ندرك تطور اللغة الإدراك كلّه ، واستطعنا أن نحيط بعظمة هذه اللغة ، فاللغة الغنيّة ، اللغة العظيمة هي التي لا تعجز عن استيعاب ما يدخلها من العلوم والمذاهب والأفكار ، هي التي تستطيع أن تضع لهذه العلوم ولهذه المذاهب ولهذه الأفكار ما يلزمها من الألفاظ وهذا ما فعلته اللغة في زمن بني العباس ، وهذا الدليل الواضح على تطوّرها .

واذا كنّا نُعنى بتطور اللغة على أيّام بني العبّاس فاننا لا نستغني عن الرجوع إلى كتاب الأغاني الذي وردت فيه ألفاظ كثيرة تدلّ على المراكب والملابس والمآكل وغير ذلك مما أحدثته حضارة العصر ، فقد استفادوا من ألفاظ موضوعةٍ وتصرفوا فيها بعض التصرف فأطلقوها على مسمّيات مما اقتضته الحاجة ، وإني لا أتوسّع في الاستشهاد ، وإنما أقتصر على أمثلة بسيطة ، من هذا القبيل مثلاً لفظة الرطلية ، ولا شك في أن معناها الإناء الذي يسع رطلاً من النبيذ ونحوه ، وهكذا نجد أنهم اشتقوا من لفظة الرطل لفظة الرطلية التى تسع هذا الرطل وهي أدق من الإناء أو الوعاء ، فالإناء عام والرطلية خاصة ، والتخصيص من شروط الدقة في مفردات اللغة .

ومن هذا الشكل لفظة العرسيات ، وهم يريدون بذلك الطعام الذي يصنع في الأعراس ، فكلما استفحلت عندهم مذاهب الحضارة واتسعت الحياة الاجتماعية استطاعوا أن يخلقوا لهذه الحياة ما يناسبها من الألفاظ الدالة عليها .

وقد استشهد المرحوم الأستاذ أحمد أمين بلفظة : ندّر الرجل وتندّر إذا جاء بالنادرة وندّر بفلان وتنادر عليه إذا جعله موضع نادرته . وهذه المادّة من مستحدثات اللغة في العصر العبّاسي ، وردت في كتاب الأغاني .

وقد ذهبوا مذاهب أبعد فاشتقوا من الأسماء صيغاً تدلّ على التشبه بأصحاب هذه الأسماء ، سواء أكانت أعلاماً أم كانت أسماء مدنٍ أو حيوان ، من قبائل العرب قبيلة اسمها اللهازم وردت في شعر الفرزدق ، فقالوا : تلهزم فلان إذا دخل في هذه القبيلة أو تشبّه بأهلها وكذلك اشتقوا من اسم معبد المغني فعلاً فقالوا : هذا صوت تمعبد فيه ابن سريج ، أي تشبه بمعبد في الغناء ، ووضعوا لفظة البرمكة المشتقة من بَرْمك جدّ يحيى بن خالد البرمكي .

أمّا البلدان فقالوا : تبغدد فلان إذا انتسب إلى بغداد أو تشبه بأهلها . وأمّا الحيوان فقد نجد في الأغاني فعل : تقنفذ ، إذا تشبه بالقنفذ في مشيته .

(للبحث تتمة) شفيق جبري

الاصطلاحات الفلسفية

- ٣٣ -

العرف

في الفرنسية Coutume

في الانكليزية Custom

العرف العادة ، وهو قسمان : العرف العام ، والعرف الخاص .

أما العرف العام فهو مجموع العوائد والتقاليد العامة المنتشرة في المجتمع ، وأما العرف الخاص فهو مجموع ما يتعوده الفرد من أنماط السلوك .

والفرق بين العرف والعادة عند القدماء أن استعمال العادة في الأفعال ، والعرف في الأقوال . الا أن المحدثين يفرقون بينهما بطريق آخر فيقولون : العرف خارجي والعادة داخلية وخارجية معاً . لذلك قال بعضهم : العرف لا يثبت الا بالتكرار ، على حين أن العادة قد تثبت بمرة .

العرفان

في الفرنسية Gnose

في الانكليزية Gnosis

في اللاتينية Gnosis

العرفان هو العلم بأسرار الحقائق الدينية ، وهو أرقى من العلم الذي يحصل لعامة المؤمنين ، أو لأهل الظاهر من رجال الدين .

والعارف (Gnostique) هو الذي لا يقنع بظاهر الحقيقة الدينية بل يغوص على معناها لمعرفة سرها . كالعارفين من اليهود والأفلوطينيين والمسيحيين وغيرهم وهم خمس فرق : (١) الفلسطينيون (٢) والسريانيون (٣) والمصريون (٤) والاسيويون (٥) وأنصار الأفلاطونيه الحديثة الذين أخذوا بنظرية التوفيق بين العقائد المختلفة .

ويطلق اسم العرفانية او الغنوصية (Gnosticisme) على المذهب الذي انتشر في القرنين الثاني والثالث الميلاد وامتد بطريق الافلاطونية الحديثة إلى فلاسفة الإسلام ، وخلاصته أن العقل البشري قادر على معرفة الحقائق الإلهية وان الحقيقة واحدة وإن اختلف تعليمها ، وإن الموجودات فاضت عن الواحد ولها مراتب مختلفة أعلاها مرتبة العقول المفارقة ، وأدناها مرتبة المادة ، وهي مقر الشر و العدم . أما النفس التي هبطت إلى هـذا العالم فانه لا خلاص لها إلا بالمعرفة ، بل الخلاص بالمعرفة أفضل من الخلاص بالإيمان والأعمال الصالحة . ومع أن بعض العرفانيين يقولون بالاثنينية ويمزجون تعليمهم بشيء من الوهم والخيال ، فان العرفانية المسيحية تقول إن الخلاص لا يتم إلا بطريق الحكمة . وللناس في نظرها ثلاث مراتب : أولاها مرتبة العارفين وخلاصهم بالحكمة ، وثانيتها مرتبة المؤمنين وخلاصهم بالإيمان ، وثالثتها مرتبة الجهال وهم هالكون لا محالة . وكل مذهب يزعم أنه يمكن تفسير حقائق الوجود تفسيراً عقلانياً ، فهو مذهب عرفاني وضده المذهب اللاعرفاني (Agnosticisme) وهو القول بأن العقل البشري عاجز عن إدراك الحقائق الإلهية .

ويطلق اصطلاح علم العرفان (Gnoséologie) على نظرية المعرفة (Théorie de la connaissance) ويرادفه لفظ الابستمولوجيا (Epistémologie) ومعناه فلسفة العلوم . والفرق بين اللفظين أن الأول يبحث في منشأ المعرفة

وطبيعتها وقيمتها وحدودها بحثاً نظرياً محضاً ، على حين أن الثاني يبحث في موضوعات العلوم وطرقها وقوانينها ومبادئها بحثاً انتقادياً وتحليلياً مبنياً على الواقع والتجربة .

العشق

(راجع لفظ الحب)

العشق إفراط المحبة ، وله في اصطلاح الحكماء معنيان .

الأول هو العشق الغريزي أو الجذب الطبيعي المحرك لجميع الموجودات ، فان في كل واحد منها عشقاً غريزياً لكماله كعشق الأجسام الكيماوية بعضها لبعض ، أو عشق الحيوان للغذاء ، أو عشق الفتيان للوجوه الحسان . قال ابن سينا : « من أدرك خيراً فانه بطباعه يعشقه ، وكل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقاً غريزياً » (رساله العشق) .

والثاني هو العشق الإلهي أو المحبة الخالصة التي يدعو اليها الصوفية ويصفونها بقولهم : ان الجوهر الإلهي في الإنسان إذا صفا من كدورة المادة اشتاق إلى شبيهه ، ورأى بعين عقله الخير الأول المحض فأسرع إليه ، وحينئذ يفيض عليه نور ذلك الخير فيتحد به ويشعر بلذة لاتشبهها لذة ، وهذه المرتبة أعلى مراتب الوصول وهي لاتقبل الزيادة والنقصان ، فيها ينكر العارف معروفه والعاشق معشوقه ، فلا يبقى هنالك عارف ولا معروف ولا عاشق ولا معشوق ، بل عشق واحد مطلق هو الذات الحق الذي لايدخل تحت رسم ولا اسم ولا نعت ولا وصف .

وعشق الذات هو الإفراط في حب الذات ويسمى في اصطلاحنا بالنرجسية (Narcissisme) . راجع هذا اللفظ .

العُصاب

في الفرنسية Névrose

في الانكليزية Neurosis

يطلق لفظ العُصاب على الخلل العقلي الناشيء عن اضطراب الوظائف النفسية كالفكرة المتسلطة (Idée fixe) ، ومرض الشك ، وفقدان الذاكرة والخوف ، والتحذير ، واضطراب الكلام ، أو اضطراب الغريزة . وليس لهذا العصاب سبب عضوي معروف وان كان متصلاً بحياة المريض النفسية والاجتماعية ، وهو مصحوب بألم شديد وبخلل في التوازن العقلي ، إلاّ أنه لايغير شخصية صاحبه ولا يفقده هويته ووحدته .

وقد بين بعض العلماء أن هذا العصاب ينشأ عن صراع داخلي بين القوى النفسية ، وبين بعضهم الآخر أنه ينشأ عن اضطراب أو توقف في تطور الوظائف (راجع كتاب بيير جانه Les névroses : Pierre Janet) ويطلق اصطلاح عصاب القلق (Névrose d'angoisse) عند (فرويد) على شعور المرء بالضيق النفساني المحض الذي ليس له سبب واضح . وقد سمي هذا العصاب بالحصر النفساني أو الجزع أو الكرب ، وهو وإن كان مصحوباً بالخوف من الوقوع في المكاره إلا أنه ليس نتيجة هذا الخوف .

العضلي (الحس)

في الفرنسية Sens musculaire

في الانكليزية Muscle sens, Muscular sens

الحس العضلي هو الحاسة التي تدرك الاحساسات الناشئة عن تقلص

العضلات أو ارتخائها . وهو مختلف عن الحس المفصلي (Sens articulaire) الذي ينشأ عن أطراف الأعصاب المتصلة بحركات المفاصل .

(راجع الحس الحركي Sens Kinésthèsique) .

العضو

في الفرنسية	Organe
في الانكليزية	Organ
في اللاتينية	Organun

العضو جزء من الجسم الحي كالقلب والدماغ والمعدة والكبد . . الخ . ولكل عضو من أعضاء الجسم وظيفة معينة يقوم بها ، تقول : أعضاء الحس وأعضاء الحركة ، ويرادفه لفظ الجهاز ، وهو قسم من جسم الإنسان يعمل لغاية معلومة كجهاز التنفس ، وجهاز الهضم ، وكل جهاز يؤدي عملاً يسمى آلة .

ويطلق لفظ العضو أيضاً على الرجل المشترك في هيئة أو شركة أو جماعة ونحو ذلك ، تقول : عضو المجمع العلمي ، وعضو المجلس البلدي الخ ..

العضوي

في الفرنسية	Organique
في الانكليزية	Organic

العضوي هو المنسوب إلى العضو ، ويطلق على كل جسم مركب من أجزاء ذات وظائف متميزة ومتناسقة تقول : الكل العضوي ، أي الكل المفتّي وتقول أيضاً : الوظائف العضوية والكيمياء العضوية .

والعضوي ضد الميكانيكي أو الآلي ويطلق على كل نمو ناشيء عن تأثير قوة مركزية داخلية تعمل لغاية معينة فإذا كان نمو الجسم ناشئاً عن اجتماع الأسباب الداخلية والخارجية الفاعلة ولم تكن هذه الأسباب خاضعة لقـوة مركزية توجهها إلى غاية معينة لم يكن ذلك النمو عضوياً .

والكائن العضوي (Organisme) هو الكائن الحي .

والمذهب العضوي (Organicisme) ضد المذهب الحيوي (Vitalisme) وهو القول أن الحياة تنشأ عن التنظيم والتعضية ، أي عن تكون الأعضاء واتصافها ببعض الصفات الحيوية الخاصة . ذلك هو المعنى الذي أخـذ به (سيسه - Saisset) في قـــوله إن لبعض الأجسام خواص زائدة على الخواص الفيزيائية والكيماوية وهي اتصافها بالتقلص والتهيج والإحساس ، وإن الحياة تنشأ عن تكون الأعضاء المتصفة بهذه الصفات ، والمذهب العضوي في علم الاجتماع هو القول إن المجتمع كائن حي وإن علم الاجتماع قسم من علم الحياة .

العِظَم والعَظَمَة

في الفرنسية	Grandeur
في الانكليزية	Greatness
وهو مشتق من اللفظ اللاتيني	Grandis

العظمة صفة العظيم وهي مادية أو معنوية . أما المـادية فهي من الجسم ما ضخم منه ويرادفها العظم ، تقول : عظم الجبل ، وعظم البحر ، وأما المعنوية فهي الكبرياء والجبروت والنخـوة والزهو ، تقول : عظمـة الملك ، وعظمة الفكر وحب العظمة .

والعظم في الرياضيات يسمى مقداراً وهو كل مايزيد وينقص ، ويرادفه الكم وهو متصل أو منفصل .

والفرق بين العظمة والجلال أن العظمة تستعمل في الأجسام وغيرها على حين أن الجلال لا يستعمل إلا في غير الأجسام .

وعظمة الله وجوبه الذاتي أي استقلاله واستغناؤه عن غيره ، أما كبرياؤه فهي ألوهيته أي استغناؤه عما سواه واحتياج ماسواه إليه .

والعظيم نقيض الحقير كما أن الكبير نقيض الصغير . فقد يكون الشيء كبيراً ولا يكون عظيماً ، أو يكون صغيراً ولا يكون حقيراً ، لأن العظيم هو العظيم بصفاته المعنوية لا بصفاته المادية .

والفرق بين العظيم والكثير أن العظيم يستعمل في الأجزاء المتصلة والأجزاء المنفصلة ، على حين الكثير لايستعمل إلا في الأجزاء المنفصلة . والدليل على ذلك أن الجبل وهو متصل الأجزاء ينعت بالعظيم ولا ينعت بالكثير ، وان المال وهو منفصل الأجزاء ينعت بالعظيم والكثير معاً .

وقد يستعمل العظيم في الخير والشر نقول إن الله ذو فضل عظيم وإن الشرك لظلم عظيم .

والأعظام عند الرياضيين أقسام الكم المتصل كالخط والسطح والجسم والمكان والزمان ، وإذا نسبت بعضها إلى بعض يقال لها مقادير .

وجنون العظمة (Folie des grandeurs , Mégalomanie) حالة نفسية شاذة مصحوبة بفقدان الجهد المادي والمعنوي تدفع صاحبها إلى المبالغة في طموحه ومطامعه ، حتى يتوهم أنه ملك أو نبي أو إله ، أو أنه أعظم الناس ثروة أو قوة أو مرتبة .

(راجع لفظ المقدار) .

العفّـــة

في الفرنسية	Tempérance
في الانكليزية	Temperance
في اللاتينية	Temperantia

العفة هيئة للقوة الشهوانية متوسطة بين الشره الذي هو إفراط هـذه القوة والخمود الذي هو تفريطها . قال مسكويه : « وأعني بالشره الانهماك في اللذات والخروج فيها عما ينبغي ، وأعني بخمـود الشهوة السكون عن الحركة نحو اللذة الجميلة التي يحتاج إليها البدن في ضروراته ، وهي ما ترخص فيه الشريعة والعقل » (تهذيب الأخلاق ، ص : ٢٧ من طبعة بـيروت ١٩٦٦ ، تحقيق قسطنطين زريق) والعفة إحدى الفضائل الأربع الرئيسية التي ذكرها أفلاطون ، وهي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة .

والفضائل التي تحت العفة كثيرة ، منها الحياء ، والدعة والصـــبر ، والسخاء ، والحرية ، والقناعة ، والدماثة ، والانتظام ، والمسالمة ، والوقار ، والورع . وكل فضيلة من هذه الفضائل فهي وسط بين رزيلتين ، فالحيـاء وسط بين الوقاحة والخرق ، والسخاء وسط بين التبذير والبخل والقناعة هي الاعتدال في الأكل والشرب والزينة الخ . . وكل من جاوز حـد الاعتدال في مأكله ومشربه أو في فعله وسلوكه ، أو في إرضاء رغبـاته وشهواته لم يكن عفيفاً .

العقاب

في الفرنسية	Peine , chatiment
في الانكليزية	Pain
في اللاتينية	Pœna

العقاب مايلحق الإنسان بعد الذنب من المحنة في الآخرة ، فاذا خرج المؤمن من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب ، وإذا خرج من غير توبة عن ذنب ارتكبه استحق العقاب .

والعقوبة مايلحق الإنسان من المحنة بعد الذنب في الدنيا ، ولها في قانون العقوبات درجات متفاوتة أشدها عقوبة الإعدام وأخفها عقوبة الحبس أو الغرامة .

والفرق بين العقاب والعذاب أن العقاب جزاء الشر ، على حين أن العذاب هو الألم الشديد جزاءً كان أو لا . تقول : السفر قطعة من العذاب وكل ما شق على النفس فهو عذاب أي شعور بالألم . وهو مادي أو معنوي .

(راجع لفظ الألم) .

العقد

في الفرنسية	Contrat
في الانكليزية	Contract
في اللاتينية	Contractus

العقد العهد ، إلا أن العهد إلزام مطلق والعقد إلزام على سبيل الاحكام . وهو اتفاق بين طرفين أو أكثر يلتزم كل منهم بمقتضاه تنفيذ ما اتفقوا عليه .

وعقد العمل (Contrat du travail) عقد يلتزم شخص بموجبه أن يعمل في خدمة شخص آخر لقاء أجر .

والعقد الاجتماعي (Contrat social) اتفاق افتراضي بين أفراد المجتمع يوجب على كل منهم وهو في الحالة الطبيعية أن يعهد إلى حكم « الإدارة العامة » في جميع ما لديه من قدرات خاصة تنتظم بها حياة الكل . قال روسو : « إن الإنسان يربح بالعقد الاجتماعي حريته المدنية، وإن خسر به حريته الطبيعية » . (J. J. Rousseau , Contrat social , I . VIII) .

العقـدة

في الفرنسية	Complexe
في الانكليزية	Complex
في اللاتينية	Complexus

العقدة مشكلة تعترض حياة الشخص فينشأ عنها اضطراب في النفس . وهي جملة من التصورات المشحونة بالانفعال الشديد تنمو على هامش الشعور الواضح حتى تبلغ درجة السيطرة عليه .

والعقد في علم التحليل النفسي كثيرة منها عقدة النقص أو الصفة ، وتسمّى مركب النقص (Conplexe d'enfériorité) وعقدة اوديب (Conplexe d'Oedipe) وعقدة الكترا (Conplexe d'Electre) . وغيرها .

أما عقدة النقص فهي موقف عاطفي يسيطر على المرء من جراء شعوره بضعفه العضوي أو الجنسي ، فيحمله ذلك في كثير من الأحيان على كبت عواطفه ، ويولد فيه حالة عصبية تختلف شدتها باختلاف الظروف المحيطة به والوسائل المتوافرة لديه .

وأما عقدة (اوديب) فهي ميل جنسي مظهره عشق الولد لأمه ، وقد أطلق عليها هـذا الاسم نسبة إلى (اوديب) الملك الذي قتل أباه وتزوج أمه . وتتألف هذه العقدة من جملة من التصورات والعواطف المتضاربة شعورية كانت أو غـــير شعورية تتجلّى في ميل الولد إلى أمه وغيرته عليها من والده .

وأما عقدة (الكترا) فهي ضد عقدة (اوديب) وتتميز بميل جنسي مظهره عشق الفتاة لأبيها . وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى (الكترا) التي أرادت أن تنتقم من أمها لتهيئتها أسباب قتل أبيها (آغا ممنون) ومن صفات هـذه العقدة انها مصحوبة بتعلق الفتاة عن وعي أو غير وعي بوالدها ، وبكرهها لأمها ، وباضطراب تصوراتها وعواطفها من جراء شعورها بالإثم .

وعقدة (الكترا) عند البنات نظير عقدة (اوديب) عـــند البنين (راجع فرويد S. Freud , über Psychoanalye , 7 - 30) ويونغ Yung . L'homme à la découverte .

العقل

في الفرنسية Raison , intelligence , intellect

في الانكليزية Reason, understanding intelligence intellectual powers

في اللاتينية Ratio, intelligentia intellectus

العقل في اللغة هو الحجر والنهي ، وقد سمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة ، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل كما يمنع العقال الناقة من الشرود . والجمهور يطلق العقل على ثلاثة أوجه (راجع معيار العلم للغزالي ص ١٦٢ .)

الأول يرجع إلى وقار الإنسان وهيئته ويكون حده أنه هيئة محمودة للانسان في كلامه واختياره وحركاته وسكناته .

والثاني يراد به ما يكتسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية فيكون حده أنه معان مجتمعة في الذهن تكون مقدمات تستنبط بها الأغراض من المصالح .

والثالث يراد به صحة الفطرة الأولى في الإنسان فيكون حده أنه قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها .

أما الكندي (رسالة في ماهية العقل والإبانة عنه ، ورسالة في حدود الأشياء ورسومها) والفارابي (مقالة في معاني العقل) وابن سينا (رسالة الحدود) وغيرهم من الفلاسفة فانهم يطلقون العقل على المعاني التالية ، وهي :

١ ـــ أول هذه المعاني هو القول إن العقل « جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها » (الكندي ، رسالة في حدود الأشياء ورسومها) وهذا الجوهر « ليس مركباً من قوة قابلة للفساد » (ابن سينا ، الإشارات ص ١٧٨) وإنما هو « مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله » (تعريفات الجرجاني) وهذا القول بجوهرية العقل مع نفي العرضية عنه موجود في أكثر كتب الفلاسفة ، فالفارابي عندما يتحدث عن القوة التي تدرك المعقولات يقول إنها « جوهر بسيط مقارن للمادة ، يبقى بعد موت البدن ، وهو جوهر أحدي ، وهو الإنسان على الحقيقة » (عيون المسائل ، ص ٦٤) . وابن سينا لايتحدث عن القوة العاقلة إلا ليطلق عليها اسم الجوهر ، وهو يسمي الجوهر المتبرئ من المواد من كل جهة عقلاً ، وهو النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله : أنا .

٢ ـــ والمعنى الثاني للعقل هو القول إنه قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني وتأليف القضايا والأقيسة . والفرق بينه وبين الحس أن

الحس لايستطيع أن يجرد الصورة من المادة على حين أن العقل يستطيع أن يأخذ الصورة مجردة عن المادة ولواحقها من كل وجه . وله عند فلاسفة الإسلام عدة مراتب : أولاها مرتبة العقل الهيولاني (Intelligence matérielle) وهو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات ، وثانيتها العقل بالملكة (Intelligence Habitude) وهو العلم بالضروريات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات ، وثالثتها العقل بالفعل (Intelligence en acte) وهو القدرة على استنباط النظريات من الضروريات ورابعتها العقل المستفاد (Intelligence acquise) ، وهو أن تكون النظريات حاضرة عند العقل لاتغيب عنه ، وفوق العقل الإنساني عقل مفارق وهو العقل الفعال (Intelligence active) الذي تفيض منه الصور على عالم الكون والفساد ، فتكون موجودة فيه من حيث هي فاعلة ، أما في عالم الكون والفساد فهي لاتوجد إلا من جهة الانفعال . وهذا الفرق بين الفعل والانفعال يذكرنا بقول (أرسطو) ان العقل الفاعل (Intellect agent) هو العقل الذي يجرد المعاني أو الصور الكلية من لواحقها الحسية الجزئية على حين العقل المنفعل (Intellect passif) هو الذي ترتسم فيه هذه الصور المجردة .

٣ — والمعنى الثالث للعقل هو القول إنه « قوة الإصابة في الحكم » أي تمييز الحق من الباطل والخير من الشر والحسن من القبيح (ديكارت ، مقالة الطريقة القسم الأول ص ١ من ترجمتنا) وهذا التمييز لايحصل عن قياس وفكر بل يحصل مباشرة بالفطرة والطبع . فكأن العقل كما قال (الرازي) غريزة يلزمها العلم بالأمور الكلية والبديهية . وقد أشار (ديكارت) إلى هذا المعنى بقوله : ان القاعدة الأولى لطريقته هي أن لايتلقى على الإطلاق شيئاً على أنه حق ما لم يتبين ببداهة العقل أنه كذلك .

فالعقل بهذا المعنى مضاد للحمق ، لأن الحمق قلة العقل وفساده ووضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقبحه وهو مضاد أيضاً للهوى لأن الهوى يمنع المرء من الإصابة في الحكم على حين أن العقل يمنع النفس من العدول عن سواء السبيل وينهاها عن اتباع هواها .

٤ — والمعنى الرابع للعقل هو القول إنه قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية ، وهذه المعرفة مختلفة عن المعرفة الدينية المستندة إلى الوحي والإيمان .

قال ابن خلدون : « ان العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين : صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره ، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه . والأول هو العلوم الحكمية والفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر ، والثاني هو العلوم النقلية الوضعية ، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ، ولا مجال فيها للعقل إلا في الحاق الفروع من مسائلها بالأصول » (المقدمة ، ص ٤٣٥) ومعنى ذلك أن موضوع الدين معرفة الحقائق التي أوحى بها الله ، أما موضوع العلم فهو معرفة الحقائق التي يستطيع الإنسان أن يحصلها بعقله الطبيعي دون معونة خارجية . ولهذا العقل الطبيعي في نظر ابن خلدون ثلاث درجات أولاها درجة العقل التمييزي وثانيتها درجة العقل التجريبي ، وثالثتها درجة العقل النظري .

٥ — والمعنى الخامس للعقل هو القول إنه مجموع المبادي القبلية (A priori) المنظمة للمعرفة كمبدأ عدم التناقض ، ومبدأ السببية ومبدأ الغائية . وتتميز هذه المبادىء بضرورتها وكليتها وبعدم تعلقها بالتجربة . قال ليبنز : « يتميز الإنسان عن الحيوان بادراكه للحقائق الضرورية والأبدية ،

فهي التي تولد فيه العقل والعلم وتسمو به إلى معرفة ذاته ومعرفة الله » (Monodologie - 29) . وقد انتشر هذا المعنى في الفلسفة الحديثة بتأثير (كانت) حتى أصبح الفلاسفة يقولون إن إدراك العقل للعالم لايتم بما يحصل له من مدركات تجريبية فحسب ، بل يتم بما لديه من معاني فطرية. فاذا قال الفلاسفة التجريبيون : لايوجد في العقل شيء لم يوجد قبل في الحس والتجربة صحح الفلاسفة العقليون هذا القول باضافة قيد واحد عليه وهو قولهم : إلا العقل نفسه . ومعنى ذلك أن جملة المبادىء والمعاني الأولية التي يكشف عنها الفكر موجودة في العقل قبل الحس ، وأن العقل الغريزي ليس صفحة بيضاء لم تنتقش بنقش ، وإنما هو ذو رسوم فطرية تنظم معطيات التجربة . وبعض المعاني الكلية كمعنى الكامل والمطلق واللانهائي ملازمة للعقل لاتفارقه ، وبعضها الآخر كمعنى الزمان والمكان والعلة والغاية والوحدة حاصلة للعقل بواسطة الفكر . والفرق بين العقل والفكر أن العقل هو مجموع المبادىء الضرورية والمعاني الكلية التي تنظم المعرفة على حين أن الفكر هو حركة النفس في المعقولات من المطالب إلى المباديء تارة ، ومن المباديء إلى المطالب أخرى . أما الفرق بين العقل والاستدلال فهو أن العقل نور يدرك المباديء الضرورية بذاته إدراكاً حدسياً مباشراً على حين أن الاستدلال هو النظر في شروط انطباق هذه المباديء على موضوعات الفكر لاستخراج النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة .

٦ — والمعنى السادس للعقل هو القول انه الملكة التي يحصل بها للنفس علم مباشر بالحقائق المطلقة . وإذا قلنا بوحدة العقل وموضوعه دل العقل حينئذ على المطلق نفسه . فكأن هذا العقل شيء مستقل عنا ، ونحن نتلقاه من الخارج كما نستنشق الهواء المحيط بنا ، وكل واحد منا كما يقول

(بوسويه) يشعر بأن في داخله عقلاً محدوداً ، لا يصحح أحكامه إلا باستلهام عقل كلي ثابت لايتغير ، فأين يوجد هذا العقل الكلي ، انه الله الذي أتطلّع إليه ، إنه الموجود ، اللانهائي الكامل الذي يتجلّى لنفسي مباشرة . فكأن هذا العقل الذي أشار إليه (بوسويه) شبيه بالعقل الفعال الذي تكلم عليه الفارابي وابن سينا ، فالله عقل ، وليس عقل الإنسان سوى عقل مستفاد تفيض عليه المعقولات من العقل الإلهي . ومع أن (كانت) قد أعلن أن معرفة هذا العقل المطلق ممتنعة فأن خلفاءه ولا سيا (شيلينغ) يقولون بامكان معرفته ، وهكذا يتدرجون إلى القول بعقل مستقل عن الفكر أي بحدس شبيه بالهام الشاعر ، يكافح الشك أو الباطل أو الضلال الذي يظهر على مسرح الفكر كأن هنالك فوق الفكر منطقة نورانية أو منطقة سلام دائم يقبض فيها العقل على الحقائق المطلقة دون الاستعانة بالفكر . وقد خلق الله هذا العقل لإدراك هذه الحقائق ، كما خلق العين لإدراك الألوان والأشكال والأذن لإدراك الأصوات . (راجع كتاب فكتور كوزان (Victor Cousin Du vrai, du beau, et du bien, 3e leçon, 161.

٧ — ويطلق لفظ العقل أيضاً على مجموع الوظائف النفسية المتعلقة بتحصيل المعرفة كالإدراك الحسي ، والتداعي ، والذاكرة والتخيل ، والحكم والشعور والاستدراك ويقابله في اللغة الفرنسية لفظ (Intelligence) وهو ملكة الفهم وضده الحدس والغريزة . أما ملكة الفهم السريع فتسمى ذكاء .

٨ — العقل المحض والعقل العملي (Raison pure et raison pratique)

يطلق (كانت) هذين الاصطلاحين على كل ماهو قبلي في الفكر أي على اللغة المتعالية التي تتضمّن مبادىء المعرفة القبلية المستقلة عن التجربة . فاذا نظرت إلى العقل من جهة اشتماله على المبادىء القبلية للمدركات العلمية كان

نظرياً أو تأملياً » واذا نظرت اليه من جهة اشتماله على المبادىء القبليـــة لقواعد الأخلاق كان عملياً . وإذا كان العقل النظري محضاً تارة ومبنيـاً على التجربة أخرى فان العقل العلمي لايمكن أن يكون إلا محضاً . وللعقل عند (كانت) معنى أخص وهو إطلاقه على ملكة الفكر المتعالية التي بهـا تدرك المعاني المثالية كمعاني النفس والله والعالم ، وهو بهذا المعنى ليس مضاداً للتجربة وإنما هو مضاد لملكة الفهم ، وله ناحية عملية خاصة وهي أن موضوعات الأخلاق (Postulats de la morale) . كالقول بالحرية وخلود النفس ووجود الله متعلقه به .

٩ – العقل المؤلِّف والعقل المؤلَّف (Raison constituante et raison constituée)

العقل المؤلِّف عند (لالاند) هو الملكة التي يستطيع بها كل إنسان أن يؤلف من إدراك العلاقات مبادىء كلية وضرورية ، وهي واحدة عنـد جميع الناس . أما العقل المؤلَّف عنده فهو مجموع المبادىء والقواعد التي يُعتمد عليها في الاستدلال ، وهي تتغير بتغير الزمان والأفراد ، إلاّ انهـا تتجه مع ذلك إلى الوحدة ، فكأن العقل المؤلِّف هو العـاقل ، وكأن العقل المؤلَّف هو المعقول .

١٠ – والعقلي (Rationnel) هو المنسوب إلى العقل ، تقول : المبادىء العقلية والعلوم العقلية . قال (هيجل) كل عقلي فهو موجود بالفعل ، وكل موجود بالفعل فهو عقلي .

والعقلي أيضاً هو المنطقي ، تقول : يجب أن يصبح العلم الرياضي نقطة الابتداء في كل تربية عقلية (أي منطقية) ، وتقول علم الميكانيك العقلي أي

النظري ، وهو العلم الذي يستنبط جميع مسائله من معاني القوة والكتلة والقصور الذاتي وغيرها .

والحياة العقلية (Vie intellectuelle) في علم النفس مقابلة للحياة الانفعالية (Vie affective) والحياة الفاعلة (Vie active) والقيم العقلية مقابلة للقيم الأخلاقية أو الفنية .

١١ — والعاقل (Raisonnable) هو الناطق أي المتصف بالعقل وكل من قال في الانسان انه عاقل عنى بذلك أن عقله يميزه من الحيوان .

والعاقل أيضاً هو الذي يفكر تفكيراً صحيحاً ويحكم على الأشياء حكماً صادقاً ويعمل عملاً صالحاً ، فلا يسمَّى عاقلاً حتى يكون خيراً ، بخلاف الجاهل الذي يستعمل فكره في فعل الشر ، فلا يسمى عاقلاً وإنما يسمى داهياً أو ماكراً .

والعاقل أيضاً هو الذي يعرف كيف يكبح جماح نفسه ويعرض عن كل ما يجاوز نطاق قدرته ويوقعه في المهالك ، ولذلك قيل : دولة الجاهل من الممكنات ، ودولة العاقل من الواجبات .

والعاقل أخيراً هو الذي يتقيد بالذوق والعرف العام ، أو بأحكام القيم المقبولة في زمانه ، ويرادفه المعتدل والمتزن .

١٢ — والمعقول (Intelligible) ضد المحسوس ، وهو المعنى الكلي ، والمعقولية (Rationalité ou intelligibilité) صفة المعقول كمعقولية بعض المبادئ التي نستخرجها من الارتباط الضروري بين التطورات . ولما كانت المحسوسات منبع الكثير من الخطأ والضلال وكان حاكم العقل يكذب حاكم الحس كانت المعرفة اليقينية مؤلفة من المعقولات لا من المحسوسات ، والمعقول في بعض المذاهب الفلسفية مرادف الوجود الحقيقي ، تقول : عالم المعقولات وعالم المثل ، وتقول أيضاً : معقول الحيوانية ، ومعقول الانسانية ومعقول الحرية ، وهي معان

كلية لها في نظر بعض الفلاسفة ثلاثة أنماط من الوجود : وجودها متكثرة في المحسوسات ، ووجودها في العقل البشري بعد الكثرة ، ووجودها في عالم المعقولات قبل الكثرة .

١٣ — ومبدأ المعقولية الكلية (Principe de l'universelle intelligibilité) اصطلاح أطلقه (فوييه) في كتابه « فلسفه افلاطون » على الايمان بمعقولية الأشياء وهو القول إن كل موجود فهو مؤلف من قوانين العقل الأساسية . فاذا شك المرء في شيء لم يشك فيه لذاته بل شك في قدرته هو على معرفة ذلك الشيء . وإذا قلت إن كل شيء معقول أردت بهذه المعقولية ان لكل شيء صورة عقلية تفسره .

١٤ — العقلانية أو المذهب العقلي (Rationalisme) .

المذهب العقلي هو القول بأولية العقل ويطلق على عدة معان :

آ — الأول هو القول إن كل موجود فله علة في وجوده بحيث لايحدث في العالم شيء إلا وله مرجح معقول .

ب — والثاني هو القول إن المعرفة تنشأ عن المباديء العقلية القبلية والضرورية لا عن التجارب الحسية ، لأن هذه التجارب لاتفيد علماً كلياً والمذهب العقلي بهذا المعنى ضد المذهب التجريبي (Empirisme) الذي يزعم أن كل ما في العقل فهو متولد من الإحساس والتجربة .

ج — والثالث هو القول إن وجود العقل شرط في إمكان التجربة فلا تكون التجربة ممكنة إلا إذا كان هنالك مباديء عقلية تنظم معطيات الحس . مثال ذلك ان المثل عند (افلاطون) والمعاني النظرية عند (ديكارت) والصور القبلية (Formes a priori) عند (كانت) متقدمة على التجربة . فاذا عددت هذه المثل وتلك المعاني والصور شرطاً ضرورياً وكافياً لحصول

المعرفة كانت العقلانية مطلقة ، واذا عددتها شرطاً ضرورياً فقط كانت العقلانية نسبية .

د — والرابع هو الإيمان بالعقل وبقدرته على إدراك الحقيقة وسبب ذلك في نظر العقليين أن قوانين العقل مطابقة لقوانين الأشياء الخارجية وأن كل موجود معقول ، وكل معقول موجود . فاذا صح عندهم أن العقل قادر على الاحاطة بكل شيء دون عون خارجي يأتيه من القلب أو الغريزة أو الدين كان مذهبهم مضاداً لمذهب الايمانيين (Fidéistes) ومذهب المتصوفين .

هـ — والعقلانية عند بعض علماء الدين هي القول ان العقائد الايمانية مطابقة لأحكام العقل . ولهذه العقلانية ثلاثة أوجه : الأول هو القول ان العقل شرط ضروري كاف لمعرفة الحقائق الدينية ، والثاني هو الإعراض عن جميع العقائد التي لا يمكن إثباتها بالمبادىء العقلية ، والثالث هو الدفاع « عن العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية » (مقدمة ابن خلدون ص : ٤٦٦)

العقيدة

في الفرنسية Dogme

في الانكليزية Dogma

في اللاتينية Dogma

العقيدة هي الحكم الذي لا يُقبل الشك فيه لدى معتقده ، ويرادفها الاعتقاد والمعتقد . وتطلق في الفلسفة على الرأي المعترف به بين أفراد مذهب واحد كالعقيدة الرواقية والعقيدة الركسية . وتطلق في الدين على

ما يؤمن به الانسان ويعتقده كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل والعقاب والثواب وغيرها .

والاعتقادية أو الوثوقية أو التوكيدية (Dogmatisme) مذهب الذين يؤمنون بقدرة العقل على الوصول إلى اليقين وهي ضد الريبية (Scepticisme) وضد الانتقادية (Criticisme) .

وقد يطلق لفظ الوثوقي أو التوكيدي تهكماً على من يتعصب لرأي يسلم به دون تمحيص ، ويحاول فرضه على غيره دون برهان .

العكس

في الفرنسية	Conversion
في الانكليزية	Conversion
في اللاتينية	Conversio

العكس استدلال مباشر يقوم على تصيير الموضوع محمولاً والمحمول موضوعاً مع بقاء السلب والإيجاب بحاله ، والصدق والكذب بحاله ، وله قسمان :

الأول هو العكس المستوي أو التام كما في الكلية السالبة والجزئية الموجبة فإن كل واحدة منها تنعكس مثل نفسها . فإذا قلت : لا شيء من (آ) (ب) صدق : لا شيء من (ب) (آ) ، وكذلك إذا قلت بعض (آ) (ب) صدق بعض (ب) (آ) .

والثاني هو العكس الجزئي أو العكس بالعرض كما في الكلية الموجبة التي تنعكس جزئية موجبة . فاذا قلت كل (آ) (ب) صدق بعض (ب) (آ) .

أما الجزئية السالبة فلا تنعكس ، فليس إذا صدق قولنا ليس كل إنسان كاتباً يجب أن يصدق ليس بعض الكاتب بانسان .

وللفظ (Conversion) في الفرنسية والانكليزية معنيان آخران الأول هو الرجعة وهي الحركة المضادة لحركة الصدور في الفلسفة الافلاطونية الحديثة ، لأن الصدور هو فيض العقل والنفس والعالم تتالياً ، ثم فيض الموجودات الفردية عن الواحد أو الخير أما الرجعة فهي عودة هذه الأشياء إلى مبدئها الأصلي . والثاني هو تحول الانسان من مبدأ سياسي أو خلقي إلى آخر أو اعتناقه ديانة غير ديانته .

العلاقة

في الفرنسية	Rapport . relation
في الانكليزية	Relation
في اللاتينية	Relatio

العلاقة بالفتح الارتباط ، وبالكسر ما يعلق به السيف ونحوه . فالمفتوح يستعمل في الأمور الذهنية ، والمكسور في الأمور الخارجية المحسوسة .

وتطلق العلاقة في اصطلاح المنطقيين على ما بسببه يستصحب شيء شيئاً آخر . كعلاقة المقدم بالتالي في القضايا الشرطية المتصلة ، مثل قولنا في اللزوميات إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود .

وللعلاقة في الفلسفة الحديثة معنيان ، أحدهما عام ، والآخر خاص .

فالعلاقة بالمعنى العام تطلق على كل ارتباط بين موضوعين أو أكثر من موضوعات الفكر بحيث يدرك العقل علاقة أحدهما بالآخر بفعل واحد

لا يتقسم ، كعلاقة التشابه أو التباين أو المعية أو التعاقب أو العلية أو الغائية أو التضايف .

والعلاقة بالمعنى الخاص هي التناسب بين كميتين أو أكثر . مثال ذلك أن علاقة (ب : ج) أو $\frac{ب}{ج}$ هي قياس كمية (ب) بنسبتها إلى كمية (ج) أو هي خارج قسمة (ب) على (ج) ، ولذلك قيل إن العلاقة هي التناسب بين الأشياء أو القياس المشترك بينها .

والعلاقة في علم البيان المناسبة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد في المجاز والكناية

والعلائق ما يتعلق به الإنسان من أسباب الدنيا وشواغلها . قال الغزالي : « وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وإن ذلك لا يتم إلا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق . ثم لاحظت نفسي فاذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة » (المنقذ من الضلال ص ١٠٣ من طبعتنا ، الطبعة السابعة بيروت ١٩٦٧) .

وقد تكون علاقة الإنسان بالإنسان علاقة صداقة أو عداوة أو علاقة اشتراك في مسكن أو مهنة أو طائفة أو ديانة أو وطن الخ .. وأعلى هذه العلائق كلها العلائق الانسانية المجردة .

(راجع : النسبة ، والإضافة)

العلّة

في الفرنسية	Cause
في الانكليزية	Cause
في اللاتينية	Causa

العلة في اللغة معنى يحل بالمحل فيتغير به حال ذلك المحل بلا اختيار . ومنه سمي المرض علة لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة إلى الضعف . وكل وصف حل بمحل وتغير به حاله معاً فهو علة ، وصار المحل معلولاً له كالجرح مع المجروح وغير ذلك ، وبعبارة أخرى كل أمر يصدر عنه أمر آخر بالاستقلال أو بانضمام الغير إليه فهو علة لذلك الأمر ، والأمر معلول له ، فيتعقل كل واحد منهما بالقياس إلى تعقل الآخر » (كليات أبي البقاء) .

والعلة عند الأصوليين ما يجب به الحكم .

والعلة عند الحكماء ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً مؤثراً فيه (تعريفات الجرجاني) فعلة الشيء ما يتوقف عليه ذلك الشيء إما في ماهيته كالمادة والصورة أو في وجوده كالغاية والفاعل .

والعلة ترادف السبب إلا أنها قد تغايره فيراد بالعلة المؤثر وبالسبب مايفضي إلى الشيء في الجملة أو ما يكون باعثاً عليه . وقد قال بعضهم : السبب ما يتوصل به إلى الحكم من غير أن يثبت به ، أما العلة فهي ما يثبت به الحكم . ومعظم الفلاسفة الإسلاميين كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد يفضلون استعمال لفظ العلة على لفظ السبب إلا الغزالي وعلماء الكلام فانهم يستعملون لفظ السبب للدلالة على العلة .

والعلل عند (أرسطو) أربعة أقسام : (١) العلة المادية (Cause materielle) وهي ما لا يلزم عن وجودها بالفعل حصول الشيء بالفعل ، بل ربما كان بالقوة كالخشب والحديد بالنسبة إلى السرير ، (٢) والعلة الصورية (Cause formelle) وهي مايجب عن وجودها بالفعل وجود الشيء بالفعل كالشكل والتأليف للسرير . (٣) والعلة الفاعلة (Cause efficiente) وهي ما تكون مؤثرة في المعلول موجدة له كالنجار الذي يصنع السرير . (٤) والعلة الغائية (Cause finale) وهي ما يكون الشيء لأجلها كالجلوس على السرير ، فهو الغاية التي من أجلها وجد .

وقد أخذ فلاسفة الاسلام وفلاسفة القرون الوسطى في أوربة بهذه النظرية الأرسطية وقدموا العلة الغائية على سائر العلل . مثال ذلك قول ابن سينا : والغاية تتأخر في حصول الوجود عن المعلول إلاّ أنها تتقدم سائر العلل في الشيئية ، « ومن البين أن الشيئية غير الوجود في الأعيان، فان المعنى له وجود في الأعيان ووجود في النفس وأمر مشترك ، فذلك المشترك هو الشيئية ، والغاية بما هي شيء ، فانها تتقدم سائر العلل ، وهي علة العلل في أنها علل . . وبما هي موجودة في الأعيان قد تتأخر . . وذلك لأن العلل إنما تصير عللاً بالفعل لأجل الغاية ، وليست هي لأجل شيء آخر ، وهي توجد أولاً نوعاً من الوجود فتصير العلل عللاً بالفعل ، ويشبه أن يكون الحاصل عن الخير هو أن الفاعل الأول والمحرك الأول في كل شيء هو الغاية » (النجاة ص ٣٤٥) .

والعلة الأولى (Prima causa) هي العلة التي لا علة لها ، او علة العلل ، أو العلة النهائية ، وتطلق عند الحكماء على الله وحده .

والعلة الثانية (Cause seconde) هي العلة التي لا فعل لها إلاّ بتأثير العلة الأولى وهي قريبة (Prochaine) أو بعيدة (Eloignée) .

وفرقوا بين العلة الأساسية (Cause principale) والعلة الاداتيـــة (Cause instrumentale) والعلة المباشـــرة (Cause directe) والعلة غير المباشرة (Cause indirecte) ، والعلة التامة والعلة الناقصة والعلة المعدة . أما العلة الأساسية فهي العلة التي تنفرد بالتأثير في الشيء ، وأما العـــلة الأداتية فهي الآلة التي سيتم بها وجود الشيء ، وأما العلة المباشرة فهي التي تحدث الشيء بلا وسط ، وأما العلة غير المباشرة فهي الـتي تحدث الشيء بوسط ، وأما العلة التامة وتسمى بالمستقلة فهي تمام ما يتوقف عليه الشيء في ماهيته ووجوده أو في وجوده فقط ، وأما العلة الناقصة فهي بخلاف ذلك . وأما العلة المعدّة فهي التي يتوقف عليها وجود المعلول من غـير أن يجب وجودها مع وجوده .

وقد وسع (ديـــكارت) معنى العلة الآرسطي فأطلقه على العلاقات الطبيعية والعلاقات المنطقية معاً . وهـذا متفق مع روح مذهبه الذي يعد العلاقات المنطقية أساساً للعلاقات الطبيعية . فاذا قلت إن (آ) علة (ب) أردت بذلك أن وجود (آ) يستلزم وجود (ب) اضطراراً . ومعنى ذلك أن العلاقات السببية شبيهة بالقياسات الاقترانية التي يكون فيها وجود المقدم شرطاً لوجود التالي .

أما مالبرانش فانه يطلق معنى العلة التامة على الشيء الذي يؤثر في غيره من دون أن يفقد شيئاً من طبيعته أو من قدرته على التأثير ، وهذه العلة التامة مختلفة عن العلة الظرفية (Cause occasionnelle) التي لا تفرض بين الأشياء أي ارتباط ضروري بل تقول بالحصول عنده لا بالحصول به ، على النحو الذي ذهب إليه (الغزالي) .

وأما (كانت) فان العلة عنده تدل على تركيب خاص قوامه أن شيئاً مثل (آ) يوجب أن يصدر عنه وفقاً لقاعدة معينة شيء آخر ، مثل (ب) مختلف عنه تماماً ، ومعنى ذلك أن علاقة العلة بالمعلول ليست تركيباً تجريبياً ، وإنما هي تركيب عقلي ، وهي لا تكتفي بملاحظة حدوث المعلول بعد العلة ، بل تتضمن وجوب هذا الحدوث وضرورته .

وأما (استوارت ميل) فانه يطلق لفظ العلة على الظاهرة أو الظواهر المتقدمة التي تكون الظاهرة المسماة بالمعلول تالية لها دائمـــاً . وهذا المعنى وإن كان حالة خاصة من مفهوم العلـة عنـد (كانت) إلا أنه يختلف عنه بإهمال ما في تعاقب الظواهر من ارتباط منطقي أو ضروري . وهو بهذا المعنى قريب بعض الشيء من مفهوم العلـة الظرفيـــة المتضمن معنى الحدوث عنده .

والعلة مطلقاً متقدمة على المعلول تقدماً ذاتياً . إلا أنها من جهة ما هي موجودة بالفعل مقارنة للمعلول في الزمان .

العلم

في الفرنسية	Science
في الانكليزية	Science
في اللاتينيـة	Scientia

العلم هو الإدراك مطلقاً تصوراً كان أو تصديقاً ، يقينيّاً كان أو غير يقيني وقد يطلق على التعقل ، أو على المعرفة إطلاقاً ، أو على إدراك الكلي مفهوماً كان أو حكماً ، أو على الاعتقاد الجازم المطابق للواقـع ، أو على إدراك الشيء على ما هو به ، أو على إدراك حقائق الأشياء وعللها ، أو على إدراك المسائل عن دليل ، أو على الملكة الحاصلة من إدراك تلك المسائل .

والفرق بين العلم والمعرفة أن العلم يقال على إدراك الكلي والمركب على حين أن المعرفة تقال على إدراك الجزئي أو البسيط . وقد يقال إن مفهوم العلم أخص من مفهوم المعرفة لأن المعرفة قسمان معرفة عامية (Connaissance vulgaire) مشتملة على آراء وأحكام عفوية تكسبنا إياها التجربة ، ومعرفة علميـــة (Connaissance scientifique) تبحث عن علل الأشيـاء وتكشف عن قوانينها الطبيعية الثابتة وإذا علمنا أنه لا علم إلا بالكليات أدركنا أن غاية العلم هي الكشف عن العلاقات الضرورية بين ظواهر الأشياء ، وهي غاية نظرية ، بخلاف المعرفة العامية التي تتقيد بالنتائج العملية ولا يبلغ العلم نهايته إلا بتأليف المعاني وتنسيقها ونظمها وتنضيدها في قوانين جامعة .

ومعنى ذلك كله أن من شرط العلم أن يتضمن درجة كافية من الوحدة والتعميم ، وأن يكون بحيث يستطيع الناس أن يتفقوا في الحكم على مسائله لا بالاستناد إلى أذواقهم ومصالحهم الضرورية ، بل بالاستناد إلى ما بين هذه المسائل من علاقات موضوعية يكشفون عنها بالتدريج ويحققونها ويثبتونهـا بطرق محدودة .

ولكل علم موضوع ومنهج يميزانه من غيره ، إلا أن الفلاسفة يصنفون العلوم المختلفة ويرتبونها صنفاً صنفاً ، ليبينوا ما بين موضوعاتها ومناهجها من تشابه ووحدة .

ولنذكر الآن بعض هذه التصنيفات على سبيل المثال .

١ — من تصنيفات العلوم في الفلسفة القديمة تصنيف آرسطو الذي زعم أن عقولنا تطلب العلم الاطلاع أو الإبداع أو الانتفاع ، وأن العلوم تنقسم بحسب هذه الغايات الثلاث إلى علوم نظرية (كالرياضيات والطبيعيـات) وعلوم شعرية (كالبلاغة والشعر والجدل) وعلوم عملية [كالأخـلاق والاقتصاد والسياسة] . ومنهـا تصنيف ابن سينا الذي زعم أن العلوم

نظرية وعملية ، وكل قسم من هذين القسمين ينقسم عنده إلى ثلاثة أقسام ، فأقسام العلوم النظرية هي العلم الطبيعي والعلم الرياضي والعلم الإلهي ، وأقسام العلوم العملية هي علم الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وتدبير المدينة . ومنها تصنيف ابن خلدون الذي زعم أن العلوم صنفان الأول هو العلوم العقلية وهي طبيعية للانسان من حيث هو ذو فكر ، وتسمى بالعلوم الحكمية وتشتمل على أربعة علوم المنطق ، والعلم الرياضي ، والعلم الطبيعي ، والعلم الإلهي ، والثاني هو العلوم النقلية المستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ، وتشمل التفسير والقراآت والحديث وعلم الفقه وعلم الفرائض وعلم أصول الفقه وعلم الكلام وغيرها .

٣ — ومن تصنيفات العلوم في الفلسفة الحديثة تصنيف (بيكون) وتصنيف (آمبر) وتصنيف (أوغوست كومت) .

الأول مبني على الملكات العقلية الضرورية لتحصيل العلم ، وهي ثلاث ملكات : العقل وهو أساس العلوم الفلسفية ، والخيال وهو أساس العلوم الشعرية ، والذاكرة وهي أساس العلوم التاريخية .

والثاني تصنيف العلوم بحسب موضوعاتها وهي قسمان ، العلوم الكونية وموضوعها المادة ، والعلوم المعنوية وموضوعها الفكر ، ولكل من هذين القسمين الكبيرين فروع مختلفة .

والثالث تصنيف العلوم بحسب موضوعاتها ، وهي ستة علوم أساسية : علم الرياضيات ، وعلم الفلك ، وعلم الفيزياء ، وعلم الكيمياء ، وعلم الحياة ، وعلم الاجتماع ، وقد رتبت العلوم على هذا النحو عملاً بالمبادىء التالية : وهي مبدأ ازدياد التعقيد وتناقص التعميم ، ومبدأ التعلق والاستقلال النسبيين ، ومبدأ النشوء التاريخي ، ومبدأ التعليم . (راجع كتابنا في المنطق ص ١٣٦ — ١٤٠) .

<u>العلوم التطبيقية</u> (Sciences appliquées) — هي العلوم التي تطبق قوانين العلم النظري لبلوغ غايات معينـة كعلم الطب وعلم الكهرباء الصناعية وعلم الاقتصاد الزراعي فهي علوم تطبيقية تستمد مبادئها من العلوم النظرية المقابلة لها ، فعلم الطب فرع من علم الحياة ، وعلم الكهرباء الصناعية فرع من علم الفيزياء .

<u>العلوم الإنسانية</u> (Sciences humaines) اصطلاح حديث يطلق على العلوم المسماة بالعلوم المعنوية أو الأخلاقية ، وهي تبحث في أحوال النـاس وسلوكهم أفراداً وجماعات . وليس كل علم يمت إلى حياة الإنسان بسبب ، علماً إنسانياً ، لأن علم تشريح بدن الإنسـان مثلاً ليس قسماً من العلوم الإنسانية وإنما هو قسم من العلوم الحيوية أو الطبيعية .

<u>العلم الأوسط</u> (Science moyenne) — للعلم الإلهي في نظر مولينـا (Molina) ثلاثة أقسام وهي العلم بالممكنات ، والعلم بالحوادث الحاضرة ، والعلم بالحوادث الشرطية . أما العلم بالممكنات فهو علم المعقولات ، وأما العلم بالحوادث الحاضرة فهو العلم بالمحسوسات ، وبين هذين العلمين علم شرطي يبحث فيما يمكن أن يحدث من الأشياء عند تحقق بعض الشروط ، ويسمى هذا العلم الشرطي بالعلم الأوسط .

والعلوم <u>القاعدية</u> (Sciences normatives) هي العلوم المؤلفـة من أحكام انشائية أي أحكام قيم خاضعة للنقد كعلم الجمال ، وعلم الأخلاق ، وعلم المنطق وغيرها .

والعلوم <u>الخفية</u> (Sciences occultes) هي علم السحر ، والطلسمات ، والنجوم والكيمياء والسيمياء ، وعلم أسرار الحروف ، وعلم استحضـار الأرواح وغيرها .

والعلمي (Scientifique) هو المنسوب إلى العلم تقول المعرفة العلمية والروح العلمية (Esprit scientifique) ويطلق هذا الاصطلاح الأخير على العقل المنظم الواضح الذي لا يقبل بصدق حكم إلا بعد تحقيقه ، والتدقيق فيه ، وإقامة البرهان عليه .

وفي وسعك إطلاق اسم العلم على علم بعينه أو على مجموع العلوم ، فاذا قلت إن تقدم المجتمع الإنساني رهن بتقدم العلم عنيت بذلك مجموع العلوم ، وإذا قلت إن العلم قد برهن على أن كل نجم ثابت فهو شمس دل لفظ العلم هنا على علم معين وهو علم الفلك .

والعلم في الاصطلاح الحديث ضد الأدب ويطلق على العلوم الصحيحة (Sciences exactes) كالرياضيات والفلك وعلى العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، وهذا الاصطلاح الذي ثبتته أنظمة الجامعات بانقسامها إلى كليات علمية وكليات أدبية لا يخلو من الاضطراب ، لأن بعض الدراسات الإنسانية التي تتم في كليات الآداب كعلم النفس وعلم الاجتماع تريد أن تتصف بصفات العلم الصحيح . وإذا كانت لم تبلغ هذه الغاية حتى الآن ، فمرد ذلك إلى حداثة نشأتها . . وقد فرق حكماؤنا في الماضي بين العلم الحصولي والعلم الحضوري . فالحصولي هو حصول صورة الشيء عند المدرك ويسمى انطباعياً والحضوري هو حضور الأشياء أنفسها عند العالم كعلمنا بذواتنا وبالأمور القائمة بها . ومن هذا القبيل علمه تعالى بذاته وبسائر الموجودات .

وفرقوا أيضاً بين العلم الفعلي الذي لا يؤخذ عن الغير ، والعلم الانفعالي الذي يؤخذ عن الغير .

وفرقوا أخيراً بين العلم الضروري وهو ما يحصل من غير فكر وكسب ، والعلم الاكتسابي وهو عقلي وعملي ، فالعقلي هو مايحصل بالتأمل والنظر ويسمى بالعلم النظري ، والعملي هو ما يحصل بالعمل والتجربة .

العمل

في الفرنسية	Action
في الانكليزية	Action
في اللاتينية	Actio

العمل هو الفعل والمهنة والصنعة تقول عمل عملاً فعل فعلاً عن قصد. والفرق بين العمل والفعل (Acte) أن العمل أخص والفعل أعم، لأن الفعل قد ينسب إلى الجمادات كما في قولنا فعل الطبيعة أو فعل الحرارة، أما العمل فلا يطلق إلاّ على الفعل الذي يكون من العاقل بفكر وروية وقصد. وهو يحتاج إلى امتداد الزمان أما الفعل فقد يتم دفعة من غير بطء. ولهذا قرن العمل بالعلم حتى قال بعضهم إنه مقلوب عنه تنبيهاً إلى أنه من مقتضاه.

وقد يطلق العمل على كل فعل حادث على الفاعل نفسه دون تأثير خارجي فيعم بهذا المعنى أفعال القلوب والجوارح، أو يطلق على التأثير الذي يحدثه الفاعل في غيره، فاذا نسب العمل إلى الفاعل كان فعلاً، وإذا نسب إلى القابل كان انفعالاً. ومعنى ذلك أن الفعل والانفعال اسمان لعلاقة واحدة وان اختلف معناهما باختلاف نسبتها.

وقد يراد بالعمل الفعل المهني أو الصناعي كقول ابن خلدون: «الأعمال أصل المكاسب» (المقدمة ص ١٥٠) وقوله: «والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب» (المقدمة ص ٢٨٧)، وقوله: «المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فاذا كثرت الأعمال كثرت قيمها» (المقدمة ص ٣٦٠) وقوله: «فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه» (المقدمة ص ٣٨١).

وإذا أطلق العمل على النشاط الإنساني دل على الجهد المنوي أو الأدبي الذي يبذله الفاعل للتغلب على أنانيته .

والفرق بين العمل والفكر أن العمل يدل على النشاط العفوي من جهة ما هو مجموعة من الملكات ، أو على كل ما يحيط بالفكر من عناصر فاعلة تتقدمه أو تهيئه أو تصحبه أو تجاوزه ، إلاّ أن العمل متصل بالفكر وان اختلف عنه . قال ابن خلدون : « أول العمل آخر الفكرة ، وأول الفكرة آخر العمل ، فلا يتم فعل للانسان في الخارج إلا بالفكر في هذه المرتبات لتوقف بعضها على بعض ثم يشرع في فعلها ، وأول هذا الفكر هو المسبب الآخر ، وهو آخرها في العمل ، وأولها في العمل هو المسبب الأول ، وهو آخرها في الفكر ، ولأجل العثور على هذا الترتيب يحصل الانتظام في الأفعال البشرية » (المقدمة ، ص ٨٣٩ من طبعة بيروت) ويطلق العمل في علم الميكانيك على حاصل ضرب الطاقة في الزمان ، وفي علم النفس على كل نشاط تلقائي أو مكتسب ذهني أو جسمي ، وفي علم الأخلاق على كل فعل يهدف إلى غاية ويصدر عن إرادة ، وفي علم الاقتصاد على كل مجهود يبذله الانسان لتحصيل منفعة ، وفي الفن المسرحي على الحادثة التي تدور عليها القصة . والأعمال الأربعة في علم الحساب هي الجمع والطرح والضرب والقسمة .

ومن المبادىء المتعارفة بين العلماء مبدأ الاقتصاد في العمل وهو أن الطبيعة لاتتبع في أفعالها إلاّ أقصر الطرق وأقربها ، وهي لاتفعل شيئاً عبثاً بل تريد أن تحصل على أكبر النتائج بأقل جهد . قال ابن خلدون : « ان الطبيعة لاتترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد » (المقدمة ص ٥٢٩) .

والعملي هو المنسوب إلى العمل وهو ضد النظري . مثال ذلك قول ابن سينا : إن العلم قسمان نظري وعملي ، وقد سمي النظري نظرياً لأن غايته القصوى هي النظر وسمي العملي عملياً لأن غايته هي العمل (ابن سينا) .

وجملة القول إن معنى العمل قريب من معنى الفعل والتأثير والشغل والجهد ، وله ناحيتان إحداهما نسبته إلى الفاعل من جهة شعوره الداخلي بالجهد ، والثانية نسبته إلى الحركات الخارجية من جهة ما هي مظاهر لذلك الجهد . وإذا نسبته مجازاً إلى أفعال الطبيعة كعمل الماء في النار أو عمل الحرارة في الأجسام ، تخيلت أنه أشبه شيء بجهد يبذله الشيء للتأثير في غيره . ذلك معنى قولهم : إن لكل شيء في الطبيعة عملاً ، وإن ما لا يعمل لا بقاء له . وذلك أيضاً معنى قول (فاوست) في البدء كان العمل . وفي هذا القول الأخير إشارة إلى أزلية الصيرورة من جهة ما هي حالة للأشياء ناشئة عن أسباب كامنة فيها ، كما أن فيه تنبيهاً إلى تقدم اللاعقلي على العقلي وإلى اتصاف جميع الكائنات بأحوال تتضمن بذل جهد شبيه بالجهد الذي نشعر به في داخلنا .

وفلسفة العمل (Philosophie de l'action) مقابلة لفلسفة النظر . والمقصود بالعمل في هذه الفلسفة ، كل نشاط انساني مشتمل على الفكر والإرادة والتحقيق الفعلي وكل فلسفة تقدم العمل على النظر ، أو تربط أحدهما بالآخر كالبرغماتية والاداتية أو الذرائعية فهي فلسفة عملية .

وتطلق فلسفة العمل أيضاً على فلسفة (موريس بلوندل) المشتملة على توضيح علاقتين إحداهما علاقة النظر بالعمل ، والأخرى علاقة العلم بالإيمان والفلسفة بالدين .

(راجع كتاب موريس بلوندل « Maurice Blondel » : L'action 1893) .

العموم

في الفرنسية Généralité

في الانكليزية Generality

العموم ضد الخصوص ، وهو صفة المعنى العام من حيث شموله لجميع الأفراد . قال ابن سينا : « لو كانت الحيوانيه توجب أن لا يقال عليها عموم أو خصوص لم يكن حيوان خاص أو حيوان عام » (الشفاء ، ص ٤٨٧ — ٤٨٨) .

وللعموم عندنا معنيان أحدهما مجرد والآخر مشخص .

فالعموم بالمعنى المجرد صفة العام من حيث شموله لجميع الأفراد المستغرقة فيه ، وهو مساوق لمعنى الضرورة ، لأن ضرورة المفهوم ملازمة لعمومه ، كما أن عمومه ملازم لضرورته . ولا يختلفان إلا في أن معنى الضرورة يتضمن معنى العموم على حين أن معنى العموم يقتضي وجود الضرورة ولا يتضمنها .

والعموم بالمعنى المشخص أو العيني يشمل جميع الأفراد في صف معين أو أكبر عدد منهم كقولنا عموم التلاميذ أو عموم السكان .

العمى

في الفرنسية Cécité

في الانكليزية Blindness

العمى في اللغة عدم البصر عما من شأنه أن يكون بصيراً ، فالحجر مثلاً لا يتصف بالعمى لأنه ليس من شأنه أن يبصر . وقد يطلق العمى على غير المبصرات فيقال عمى العقل وعمى القلب .

فالمصاب بعمى العقل (Cécité mentale) لا يفقد بصره بل يفقد معرفة الأشياء المدركة بالحس ، وإن كانت مألوفة لديه .

والمصاب بالعمى اللفظي (Cécité verbale) يرى الكلمات المكتوبة ويقرؤها ولكنه لايفهم معانيها .

والمصاب بالعمى الخلقي (Cécité morale) لا يفرق بين الخير والشر .

وعمى الألوان (Achromatopsie) قسمان كلي وجزئي . فالكلي (Cécité chromatique) هو العجز عن إدراك لون بعينه أو عن تمييز ذلك اللون من غيره .

ويطلق على العجز عن إدراك الفرق بين الأحمر والأخضر اسم الدلتونية (Daltonisme) نسبة إلى ج . دلتون (J. Dalton) الذي كان أول من أشار إلى هذه الظاهرة .

العناية

في الفرنسية	Providence
في الانكليزية	Providence
في اللاتينية	Providentia

العناية هي علم الله بما ينبغي أن يكون عليه الوجود حتى يكون على أحسن النظام وأكمله . وهي عند الحكماء مبدأ لفيضان الموجودات من حيث جملتها على أحسن الوجوه وأكملها . قال ابن سينا : « العناية هي كون الأول عالماً لذاته بما عليه الوجود من نظام الخير . وعلة لذاته للخير والكمال بحسب الإمكان وراضياً به على النحو المذكور فيعقل نظام الخير على

الوجه الأبلغ في الامكان فيفيض ما يعقله نظاماً ما وخيراً على الوجه الأبلغ الذي يعقله فيضاناً على أتم تأدية إلى النظام بحسب الامكان » (النجاة ، ص ٤٦٦) .

والفرق بين العناية والقضاء والقدر أن القضاء هو وجود جميع الموجودات في العالم العقلي مجتمعة ومجملة على سبيل الإبداع ، على حين أن القدر هو وجودها الخارجي في الأعيان مفصلة واحداً بعد واحد ، أما العناية فهي علم الله بالموجودات على أحسن النظام والترتيب ، وعلى كل ما يجب أن يكون لكل موجود من الآلات بحيث تترتب عليها جميع الكمالات المطلوبة منه . ومعنى ذلك أن في مفهوم العناية تفصيلاً ، إذ هي تعلق العلم بالوجه الأصح والنظام الأكمل بخلاف القضاء فانه العلم بالموجودات جملة .

والخلاصة أن العناية هي إحاطة علم الله بالكل ، وبالواجب أن يكون عليه الكل حتى يكون كل شيء على أحسن نظام يحقق به غايته . فاذا كان العالم خاضعاً لنظام ثابت ، وكان لهذا النظام قوانين أرادها الله لخيرية نتائجها كانت العناية عامة . وإذا كان الله يتدخل في شؤون العالم تدخلاً شبيهاً بتدخل الإنسان في مجرى الحوادث كانت العناية خاصة . قال مالبرانش : إن عناية الله قسمان ، أحدهما ان الله لما خلق العالم وبدأ بتحريك المادة أجرى إرادته بأن لا يكون في الطبيعة وفي تعلقها بنعمته أقل خلل ممكن . والآخر أنه كلما شاهد في نظام الطبيعة خللاً أصلحه بمعجزاته شريطة أن يؤدي ذلك إلى تحقيق النظام المطلوب . لأن النظام عند الله قانون كلي لا يتخلى عنه أبداً .

العنصر

في الفرنسية Elément

في الانكليزية Element

في اللاتينية Elementum

العنصر في اللغة الأصل والجنس ، يقال فلان كريم العنصر ، وفلان من الآري والسامي . وجمعه عناصر ، وتسمى أيضاً بالأمهات والمواد والأركان والاسطقسات . قال ابن سينا : « العنصر اسم للأصل الأول في الموضوعات فيقال عنصر للحمل الأول الذي باستحالته يقبل صوراً تتنوع به الكائنات » (رسالة الحدود) ، وعنصرا الجسم عنده هما المادة والصورة . وقال الخوارزمي : « الأسطقس هو الشيء البسيط الذي منه يتركب المركب كالحجارة والقراميد والجذوع التي يتركب منها القصر ، وكالحروف التي يتركب منها الكلام ، وكالواحد الذي يتركب منه العدد » (مفاتيح العلوم ص ٨٢) .

ومعنى ذلك كله أن عناصر الأشياء أجزاؤها البسيطة ، وعناصر اللغة ألفاظها ، وعناصر المعرفة مبادئها ، وعناصر المثلث خطوطه وزواياه ، وعناصر المجتمع أفراده .

ويطلق العنصر في الكيمياء على المادة الأولية التي لا يمكن تحليلها إلى ما هو أبسط منها ، إما نسبياً وإما مطلقاً . فالذرة في الكيمياء عنصر بسيط ولكنها في الفيزياء الذرية شيء مركب ، وكل ما يدخل في تركيب الشيء فهو عنصر له كالهيدروجين والأوكسيجين في تكوين الماء ، والأفكار في إنشاء المقال ، والأجزاء في تركيب الآلة ، والكتائب في تأليف الجيش .

والعناصر عند القدماء أربعة وهي النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

وعنصر القضية عند المنطقيين هو الكيفية الثابتة للنسبة بين طرفيها وتسمى مادة القضية .

العين والعيني

في الفرنسية	Concret
في الانكليزية	Concrete
في اللاتينية	Concretus

العين ما يدرك باحدى الحواس الظاهرة أو بالخيال ويسمى بالصورة أيضاً ، ويطلق على ماقام بنفسه جوهراً كان أو جسماً ، ويقابله المعنى وهو ما قام بالغير كالأعراض والوجود العيني هو الوجود الخارجي المقابل للوجود الذهني ، والأعيان الثابتة هي صور العالم .

واسم العين هو الاسم الدال على معنى يقوم بنفسه كزيد ، واسم المعنى هو الاسم الدال على معنى لا يقوم بنفسه وجودياً كان كالعلم أو عدمياً كالجهل . وقد يراد باسم المعنى مادلّ على شيء باعتبار معنى صفته سواء كان قائماً بنفسه أو بغيره كالمكتوب والمضمر . والعيني هو المشخص الذي يدل على الظواهر الجزئية مرئية كانت أو مسموعة ، والعيني أيضاً هو الذي يصور المعاني العامة بأمثلة محسوسة . فاذا صورت الفضائل بالأمثلة الحسية كان تعليمك الأخلاق عينياً مشخصاً ، وإذا استخرجت الفضائل من المبادىء العامة كان تعليمك مجرداً .

والعيني مادل على الشاخص ، أي على الموجود بالفعل لا على كيفية من كيفياته فقط ، وهو ضد المجرد ، وفيما يلي أمثلة من أسماء العين والأسماء المجردة .

أسماء العين	الأسماء المجردة
الموجود	الوجود
الإنسان	الإنسانية
الحكيم	الحكمة
الأبيض	البياض

والوجود في الأعيان مقابل الوجود في الأذهان .

(يتبع) جميل صليبا

الثقافة الإسلاميه بالمغرب

بين المرابطين والموحدين

كان الشرق الإسلامي في عنفوان ازدهاره ، وريعان إشراقه ، بالحكمة الدينية الطيبة الثرى ، الراسخة الأعراق ، الملتفّة الأغصان ، التي أثمر في روضتها اليانعة : المنطق ، والكلام ، وأصول الفقه ، والجـــدل ، والفقه ، والتصوف .

وكان العقل الإسلامي قد اقتدى بالإمام الغزالي وسار على محجة التطور البعيدة المراحل ، وراء تلك الشعلة الوضاءة من المعرفة والرشاد .

لما كانت بلاد المغرب العربي ، من أقصى الأندلس إلى افريقية ، قد وقعت في أزمة خانقة من أزمات العقل والمعرفة ، بظهور قوة ناشئة خرجت من وسط افريقية ، مندفعة بحرارة إيمانها ، تقطع رمال الصحراء الكبرى إلى ضفة وادي درعة ، وواحات سجلماسة ، فاذا وهاد المغرب ونجاده تقبل بأعناق المهاري الصهب ، قد تمكنت من غواربها أجسام بشرية ملتحفة الأثواب الزرق ، ومتلثمة بها ، يلين الحديد ولا تلين ، وتخبو النار ولا تنطفئ حرارة تلك النظرات المتقدة بين أطباق اللثام .

أولئك هم المرابطون الذين انبعثوا ينشئون عاصمة المغرب الجديدة : مدينة مراكش ، ويمدون رواق سلطانها على طول العدوة الافريقية ببلاد المغرب ، ثم يرمون بحبل النجاة إلى العدوة الأندلسية ، في يوم الزلاقة العظيم ، لتقوم الشوكة وتحيي الدولة تحت ظل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

كانت هذه الحركة رشيدة في الحكم ، سديدة في السياسة ، منقذة للاسلام من الخطر الذي داهمه في بلاد الأندلس ، ولكنها كانت سلطة قوية ، وإيماناً نقياً ، يشد السواعد ، ويقوي النفوس ، من قوم بعداء عن الحضارة والعلم ، متجافين عن النظر الحكمي العميق ، متمسكين بالفطر الأولى ، مقتنعين بنتائج الأنظار الساذجة .

فكان من أثر ذلك انهم لما وجدوا في أقطار المغرب العربي التي انتظمت في سلطانهم ، وجدوا تبايناً في الأنظار ، وتخالفاً في المذاهب بين الجانحين إلى شواهق الحكمة النظرية ، والمخلدين إلى بسائط الظاهر المأثور ، ووجدوا آثار ذلك الاختلاف بادية في طرائق الدرس والتأليف ، ومناهج التربية والتعلم .

فكان من الضروري أن ميلهم يتجه إلى مساندة أبسط المناهج وأقربها من متناول إدراكهم ، وانهم إذا وجدوا الاختلاف راجعاً إلى الدين وطرائق فهمه ، بادروا ببساطتهم إلى الإسراع بالحكم بأن الذي انشرحت إليه صدورهم من ذلك هو الدين فقط ، وبادروا - بما هم عليه من حرارة الإيمان - بأن ما خالف ذلك جدير بالدحض والمقاومة ، وان ينزل بمن يقول به ما هو أهله من مقت وعذاب .

وعلى ذلك وجد المرابطون في مدينة قرطبة نزعة تقليدية التزامية ضيقة ، طالما ناءت بكلكلها على أهل البحث والنظر ، وأحرقت مواهب العلم الحق ، والفقه الصحيح ، إذ سارت على طريقة التقليد ، بحيث أصبح عمل المقلدين حجة لا يلتفت بعدها إلى كلام أيمتهم الأوّلين ، وهذه هي النزعة التي شكا منها القاضي أبو بكر ابن العربي في كتاب العواصم بثّه وحزنه مما لقي نبغاء العلم بالأندلس من عنت أهل قرطبة ، قال : « صار التقليد ديدنهم والاقتداء بغيتهم فكلّما جاء أحدهم بعلم حقّروا أمره ودفعوا في صدره الا" أن يستتر عنهم بالمالكية ، ويجعل ما عنده من علوم على وسم التبعية ، فان

جاءهم بفائدة في الدين وطريقة من سلف الصالحين وسرد لهم البراهين عرفوا جوانبه وتنجّوا عجائبه ، وعيبوا حقه استكباراً وعتواً ، وجحدوا علمه وقد استيقنته أنفسهم ظلماً وعلواً ، وقد زاد في تأصيل هذه الحالة وإحكامها العملية الكبرى التي كان قام بها ، منذ القرن السابع ، الحاجب المنصور ابن أبي عامر بقرطبة عند موت الخليفة المستنصر الحكم بن عبد الرحمان الأموي وولاية ابنه هشام المؤيَّد ، فانه عمد إلى خزائن المستنصر وأخرج منها كل ما كان استجلبه من المشرق من عيون التآليف في العلوم الحكمية ، قديمة وحديثة ، فأمر بإحراقها وإهلاكها ، وقد وصف صورة ذلك القاضي صاعد في كتاب طبقات الأمم وقال : إن المنصور إنما فعل ذلك تحبباً إلى عوام الأندلس وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم .

وقد استمرت هذه النزعة الغريبة المستولية على مدينة قرطبة تزداد ضيقاً وحدة وعنفاً ، وتعصف فتنها على التوالي بأعلام بارزين في غزارة العلم ومتانة الدين ، حتى دخل يوسف بن تاشفين إلى قرطبة ، فتجانست نزعته الشخصية مع تلك النزعة ، واشتد تأثره بها ، وعظمت نقمته على الذين لا يتولونها ، ولا يسلكون سبيلها ، فأصبح سلطانه ناراً مسعرة على أهل البحث والاجتهاد في الفقه ، وسيفاً قاطعاً للمشتغلين بالكلام والحكمة ، فهجر بذلك النظر في الأصول ، وتمسّك الناس بظواهر العقيدة السلفية ، والتزموا في الفقه النصوص الفرعية ، وتجافوا عن طرق التخريج في الفقه والتأويل في العقيدة .

وتفاقم أمر هذا التضييق بعد وفاة يوسف بن تاشفين في عهد ابنه علي الذي ولي عرش مراكش في نهاية القرن الخامس فكان في عهده الضغط الذي تعدّى إلى درجة النفي ، والاعتدال ، ونهب المنازل ، وإثارة المظاهرات الصاخبة ، ومصادرة الكتب ، وإحراقها ، وتمزيقها .

ولقد أحس علي بن يوسف والذين تظاهروا معه على ماكان يضطلع به من قتل للنبوغ العلمي : ان تلك الحركة التي ظهرت بالمشرق فألفت بين الحكمة والدين حتى أخرجت شطأها في كتب حجة الإسلام الغزالي هي التي تمد روح التحرر الفكري بالأندلس بمادة انتعاشه ، وترش من ماء العلم على تلك القلوب الميتة ، كما قال ابن العربي ، فعرفوا أن في كتب الغزالي حجة لا تدحض على ما كانوا يغالبون في سبيل دحضه من الجمع بين الحكمة والشريعة والحقيقة لمن أخذ بمعاقد العلوم من أعلاها ، فتآمروا على أن يحولوا بين كتب الغزالي وبين الناس ، إذ لا يمكن أن يدفع تأثيرها غير ذلك كما قال البحتري :

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واع

حتى بلغ الأمر إلى أن أقيم مجمع بقرطبة لإحراق كتاب الإحياء للغزالي ، وصدرت الأوامر إلى أطراف السلطنة المرابطية بإحراقه ، واعتقل في مراكش من كان يتوسّم فيه إنكار تلك الفعلة من أنصار العقيدة الأشعرية ، وأتباع الطريقة الغزالية القشيرية : مثل ابن العريف الذي مات أسيراً في مراكش ، كان هذا الضغط البالغ القاسي يجد في وجهه إنكاراً أبلغ ، وتحدياً أقسى ، إذ كانت المدارك العلمية الواسعة والأفكار النيّرة قد تشربت عقيدة الأشعريّ ودرجت على نهجها ، واتّخذت كتب الغزالي دليلها على ذلك المنهج ، وطار صيت الغزالي إلى المغرب ، فارتفع وعشش ووجد نابغة البلاد التونسية ومجتهد المذهب المالكي ومجدّده الإمام أبا عبد الله محمداً المازري يحميه مقامه تحت الحكم الصنهاجي بتونس ، من طائلة المرابطين وغائلتهم فوجدوا فيه أخاً معاوناً على خدمة الأشعرية ، ومشاركاً في الارتواء من منهل إمام الحرمين ، فقد أقبل المازري على كتب إمام الحرمين والغزالي في أصول الفقه ، يقرّرها ويعلّق عليها بما هي أهله ، وكتب على كتاب البرهان لإمام الحرمين شرحين

أحدهما بتتبع النصّ والآخر بمسايرة المعنى ، يذكر فيها الغزالي ذكراً مردداً مع ذكر القاضي أبي بكر الباقلاني والأستاذ أبي اسحاق الاسفرايني ، ويكثر من قرن الغزالي بإمام الحرمين معبراً عنه بكنيته « أبو حامد » ومخصصاً إمام الحرمين بلقب « الإمام » ومنتصباً لتعزيز كلام الغزالي وتوجيهه ، كانتصابه لتقرير كلام إمام الحرمين في ما يختلف فيه إمام الحرمين عن الغزالي من تفاريق المسالك ، وبهذه الدراسة الأصولية تمكّن المازري من تحرر واسع في تقرير الأحكام الفقهية على منهج اجتهادي هو منهج الاختيار والترجيح الذي جعل أعلام طريقته فيه شيخيه : أبا الحسن اللخمي ، وعبد الحميد الصائغ ، فكان هذا التجاوب بين الغزالي والمازري من أقوى العوامل في الخروج بمقام الغزالي عن الدائرة المذهبية الضيقة ، إلى دائرة الحكمة الإسلامية المشاعة ، وكان هذا الصيت الذي طار له بالمغرب على لسان الإمام المازري ، قد طار نحو الغزالي بقلوب الشبان النابغين من أبناء المغرب الكبير المتطلعين إلى أرواح الحكمة السامية المنبعثة من بين أردانه فهجروا أوطانهم وشدوا الرحلة للقيا حجّة الإسلام .

وكان في مقدمة هؤلاء النوابغ الإمام الشهير الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي الذي كانت رحلته مبدأ فتح فكري ، والإمام المهدي محمد بن تومرت التي كانت رحلته مبدأ فتح سياسي .

كان أبو بكر ابن العربي برماً بالوضع الذي عليه العلوم الدينية في الأندلس ، متطلعاً إلى منبع الحكمة الأشعرية ، مشوقاً إلى لقيا الغزالي ، فسافر مع والده سنة ٤٨٥ هـ . في مقتبل شبابه وقصد المدرسة النظامية ببغــــداد ، إلاّ أنه وجد الغزالي قد انقطع عن الدرس والعلم وأقبل على طريقة الرياضة الصوفية والخلوة والسياحة ، وخرج من بغداد إلى الحَجّ ، ثمّ إلى الشام ومصر ، فأقام ابن العربي في بغداد خمس سنين متحرّقاً على أنه لم يظفر

بطلبه في لقاء الغزالي ، مستوحشاً من ذلك الفراغ الذي خلفه وراءه في بغداد ، والحسرة التي سادت بسبب ذلك ساحات المدرسة النظامية وعامة أوساط العلم في بغداد حتى كان من عجائب الأقدار أن الغزالي دخل إلى بغداد في سنة ٤٩٠ ه . في طريق عودته من الشام إلى إيران ، فأقبل عليه ابن العربي إقبال المشوق اللهفان ، وتلقاه الغزالي بقبول طيّب ، وتفرغ له بصفة خاصة ، فقرأ عليه محاورة ومناقشة ، وتمكّنت منزلته العلمية من نفسه ، واطمأن إلى طريقته الحكمية الدينية ، وكان يلقّبه تودّداً وتحبباً بلقب تعظيم فارسي هو لقب « دانشمند » .

وعاد ابن العربي إلى الأندلس يهاجم ويناظر ويفيض غيوث الأنظار العالمية محاضرة ، وتدريسا ، وتحريراً ، وينقح الفقه المالكي بتحقيقه لمناط الأحكام ، ونظره في أدلتها ، ونقضه على الفقهاء ما كان يفتون به تقليداً أو عن ضعف دليل ، فملأ كتبه النفيسة العجيبة بذكر الغزالي ، والتعلق بمتين محبّته ، وجليل إعظامه ، والتلذذ باعادة محاوراته ، وتجديد مطارحاته ، ومقابساته ، مع أن ما تشربه من حرية البحث وكرامة المعرفة ، كان يدفع به إلى مناقشة أستاذه وحبيبه دانشمند في كثير من أقواله وآرائه ، مثل بحوثه المستفيضة معه في كتاب « العواصم من القواصم » حول مسألة إدراك النفوس بذاتها للحقائق بطريق الانكشاف وتأثيرها في الغير عند التجرّد ، ولم يسلم ابن العربي ممّا أصاب أسلافه من فحول العلماء من المحن ، فقد استهدف فتناً كثيرة ، وثورات عليه هوجاء ، نهب فيها منزله ، وأحرقت كتبه ، حتى انتهى أمر المرابطين بظهور الدعوة الموحدية التي أسسها المهدي ابن تومرت ثاني الاثنين اللذين جعلناهما على رأس الراحلين من المغرب للقاء الغزالي ، وكأن الأقدار أرجعت المهدي إلى المغرب ليثأر للغزالي من الذين أرادوا إنكار فضله ، وغمط حقّه ، بإحراق كتاب الإحياء ، وهم المرابطون ،

فكانت دعوة المهدي بن تومرت عاملاً في إقامة دولة الموحّدين التي أسقطت دولة المرابطين وورثت عاصمتها ، فأقامت على مبادئ الأشعري وطرائق الغزالي ، أقوى دولة عرفها تاريخ الإسلام في المغرب على يد عبد المؤمن بن علي ، ولم تنته حياة ابن العربي حتى اشترك في إقامة تلك الدعوة ، وقصد من إشبيلية إلى مراكش ليقف بين يدي عبد المؤمن خطيباً بلسان أهل إشبيلية ، وكأنه قنع من الدنيا ببلوغ ذلك الموقف فكانت وفاته في طريق عودته من مراكش قرب مدينة فاس التي دفن أمام سورها .

كان المجتمع الإسلامي بالمغرب العربي قد أحس بوطأة الضغط الشديد الذي ضيّق عليه الأنفاس في ما أحاطت به من هيكل جسمه قبضة حكم المرابطين .

وكانت الأعضاء التي خرجت عن تلك القبضة الحديدية الخانقة وهي البلاد الشرقية في الشمال الإفريقي تتداعى ألماً وغماً من ألم الضغط النازل على سائر الأعضاء التي كانت يد المرابطين تمصها عصب السلمة وكان هذا الألم يقوى ويشتدّ عندما تشعر المناطق الغربية من هذا الشمال الإفريقي بأن حكم أهل اللثام قد أقام بينهم وبين بقية بلاد المغرب العربي سدوداً حاجزة ، فكّكت الأوصال ، وقطعت الأرحام ، وجعلت الفرقة سارية في روح الوحدة القومية الكبرى ، لما تجاوزت بها حدود الفواصل السياسية وأوضاع الدول ، إلى مفاوز الفروق الاعتقادية والمنازعات الدينية .

على أن ما كان للمرابطين من عمل سياسي مجيد في إنقاذ الأندلس وتوحيدها وضمها إلى مملكة الإسلام في المغرب الإفريقي ، وإن أكسب تلك الدولة قوّة نفوذ وحسن قبول ، فقد زاد في الحسرة التي امتلكت القلوب من جراء الفتنة الاعتقادية التي أبعدت المجتمع عن تحقيق مثله العليا على نسبة ما قربت آماله في تحقيق تلك المثل بانضمام الأندلس .

فالحركة الفكرية الناشطة في البلاد التونسية ، بتواصلها مع مراكز الثقافة الإسلامية في الشرق ، وبعد صيت محورها الإمام المازري وخصب نتاجه العلمي المنافي لاتجاهات الحكم المرابطي ، كانت بذلك كله مدداً مغذياً لروح الصلابة في التجافي عن طرائق العقائد المرابطيـــة وجمْراً مذكياً لروح التمرّد عليهم والثورة في وجوههم ، فكانت حلق العلم منابع فياضة بالتوجيه إلى العمل الإيجابي في سبيل حماية الحرية الدينية والحفاظ على شعلة الحكمة الكلامية العالية التي كادت حركة المرابطين أن تطفئ نورهـا ، عمّ ذلك جميع البلاد التي انتظمت في حكم المرابطين بالأندلس والمغرب الأقصى والبلاد الجزائرية ، فكان الناس يشدّون الرحلة من تلك الأقطار مترامين على مجالس دروس الإمام المازري بالمهدية ، مثل ما جاء أبو بكر ابن العربي ، وعبد المنعم ابن الفرس ، وأعلام من نبغاء الفكر والأدب ، علاوة على الذين لم يتمكنوا من الرحلة فقنعوا بالاتصال بالامام المازري بطريق المراسلة ، يستجيزونه ، ويطلبون كتبه ، ويستمطرون من فوائده ، ويطارحونه المسائل ، كما فعل ذلك القاضي عياض وابن رشد الحفيد ، وبمثل ذلك علا نجم المازري في أفق المغرب كله بين عدوتيه الافريقية والأوربية حتى عرف « الإمام » لقباً غالباً عليه فكان اسمـــه واسم الغزالي اسمين مقترنين تتعلق بهما أنظار المستهدين على طريق الحكمة الإسلامية ، كما يهتدى بالفرقدين .

وكان من عجيب القرانات إن إشراق هذين الكوكبين في سماء الفكر يقابله أفول طامس اعترى نجم الحكم المرابطي بدخول الدولة في دور الوجود الأجدب ، لما فارقت نشأتها الساذجة ، وطلمتها الحادة ، وأخلدت إلى النعمة والترف ، والبذخ واللذة ، فأضاعت شبابها لما أضاعت عصبيتها الدينية الصلبة الطاهرة ، وأقبلت على الهرم المضني ، والشيخوخة الفانية ، وتجرّدت عن محاسنها ، وتمحضت لمساويها ، وتشرب منها المجتمع روح الانحلال فانتشرت فيه المفاسد وسادت الشهوات وسيطرت الأنانية .

وكان هذا القران العجيب ، بين نجم صاعد ونجم آفل ، قراناً لا يدرك بالتنجيم والحزاء ، بل يدرك بالذكاء والدهاء ، والفطرة السليمة ، والسياسة القوية ، وذلك هو ما أعطيه شاب من قبائل المصامدة ، سكّان الأطلس الكبير ، كان يشرف من صياصي الجبال الشم على مدينة مراكش فيتوسم فيها ما حدّثته به النفس التوّاقة من أن يوماً قريباً سيأتي على المدينة الحمراء تبكي فيه من بناها ذلك هو محمد بن تومرت ، نشأ في بيت بربري من بيوت الرباط والنسك ، فشبّ قارئاً ، محباً للعلم ، متشرباً بروح الثقافة العربية الإسلامية ، وكان هذا العنصر البربري الجبلي الذي ينتسب إليه ابن تومرت يشعر بمكانته العظيمة من الأرض التي استقرت فيها دولة المرابطين ، ويدرك شأنه العظيم في إسناد تلك الدولة بمسالمتها وتأمينها ، ويعلم ، إلى جنب ذلك ، أن دولة الملثمين لا تؤتى إلاّ من جهة ذلك التيار الديني القوي الذي تريد أن تدافع سيوله ، تيار العقيدة السنيّة التي عليها الخلف من أجيال المسلمين الصالحين ، وحيك في نفسه هذا التوقع لقرب مصرع الدولة اللمتونية ، فأصبح مرتبطاً بذاتيته حتّى اقترن بها وتقمّصها ، وأصبح محمد ابن تومرت في نظر نفسه هو روح الفناء المنبعثة على دولة المرابطين ، وأحسّ بأن كل عمل في سبيل تكوين شخصيته وإنمائها ، وتربية كيانها الأدبي ، هو سلوك لطريق القضاء على الملثمين ، واستشرف بنظره إلى الجهة التي كان يتنسم منها أنفاس المقاومة المستمدة من توجيه الحركة الإسلامية الجديدة ، فخرج من وطنه وليس أمام عينيه إلاّ المازري والغزالي ، ودخل البلاد التونسية ، ثمّ قصد مصر ، والحرمين الشريفين ، والعراق ، وكانت العراق يومئذٍ مركز الحركة الحكمية التي اتجه بها الإسلام وجهته الجديدة ويذكر الكثيرون ممّن ترجموا ابن تومرت : أنه لقي الإمام المازري بالمهدية ، ولقي الإمام الغزالي في بغداد ، وقد ذهب الزاعمون في اجتماعه بالغزالي إلى أبعد

من ذلك ، إغراقاً في الوهم ، فجعلوا الغــزالي يخبره من مستقبل أمره بعلم خفي ، ويخبره بالدولة التي سيقيمها ، وكلّ هذه أخبار واهية لا دليل عليها ، بل الذي يقتضيه ما ذكره المؤرخون ، من تاريخ دخول ابن تومرت إلى العراق : أنه لم يلق الغزالي أبداً ، لأن الغزالي لم يكن يومئذ بالعراق بل انّ أكثر مدّة إقامة ابن تومرت بالمشرق كانت بعد وفاة الغزالي .

ولكن الأمر الثابت : أن هذا العبقري البربري قد تشرب في رحلته المشرقية الحكمة الأشعرية ، وتعلّق بها ، لما كان لها من الانسجام مع تطلعه إلى قوّة تؤثر في تقويض ملك المرابطين ، فجعل التعلق بالأشعرية والانتصار لها درعاً استلأم فيها لمهاجمة قرنه وجعل المهدوية السيف الذي يحمل به ، وسواء أصحّ لقاء ابن تومرت للغزالي أم لم يصحّ فما من شكّ في أن ابن تومرت كان على منهج الغزالي وأنه قد وجه دعوته وعمله على ذلك المنهج .

إلاّ أن الذي يرجّح في نظرنا أن الأشعرية والغزالية لم يكونا عنده غاية مقصودة بالخدمة والنصرة وإنّما كانتا وسيلة لتحقيق مقصد سياسي ، إنه قد انتحل ، إلى جنب أشعريته ، عقيدة ينكرها الأشاعرة ويدحضونها ، كما ينكرها أهل السنّة قاطبة وهي عقيدة الإمام المعصوم ، التي يقول بها الشيعة الإمامية ، وتلك هي التي قال فيها ابن خلدون : إنه لم تحفظ عنه فلتة في البدعة غيرها .

ومن هنا نستطيع أن نتتبع مراحل الحرب الفكرية الاعتقادية التي شنّها محمد بن تومرت على دولة المرابطين ، حتى انتهت إلى حرب دامية ، قضت على المرابطين ، وعفت آثارهم في ميداني الحكم والعلم .

فقد ابتدأ ابن تومرت ظهوره في البلاد المغربية من ليبيا ، وكان ظهوره ذلك في صورة عالم سنّي أشعري ينتصر للعقائد السلفية بالحجج العقليـة ، ويأخذ بطريقة تأويل المتشابه ، ويعتني بإبراز هذه الطريقة وإظهار النكير على الذين عدلوا عنها ، ويجنح مع ذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويقدم على تغيير المنكرات التي كانت متفشية يومئذ في المجتمع المغربي ، فكان بهذا العمل يثير الثائرات ويتعرّض للأذى . وتنقل على هـذا المسلك من طرابلس إلى المهدية ، إلى بجاية إلى جبال الونشريس ، إلى تلمسان ، إلى فاس ، إلى مكناس ، إلى مراكش ، عاصمة الدولة ، وكان ملكها يومئذ علي بن يوسف ، وفي هذه الرحلة لقي ببجاية أول أتباعه عبد المؤمن بن علي الكومي ، فلازمه في بقيتها إلى مراكش ، وفي مراكش ابتدأت مقارعات ابن تومرت ومناظراته ، وفيها تهجّم لأول مرّة على الأمير علي بن يوسف ابن تاشفين بوعظ في جامع المرابطين ، يوم الجمعة ، أغلظ له فيه القول ، ثم خرج إلى أغمات وجرت له فيها مناظرات خرج بعدها مختفياً في خفارة القبائل البربرية في جبال الأطلس ، ثمّ قصد بلاد السوس فنزل في قبيلته هرغة سنة ٥١٥ وبنى هنالك رباطاً للعبادة والتعليم ، وألف مختصراً في العقيدة سماه « المرشدة » جعله باللسانين العربي والبربري ، وأخذ يعلّمه الناس عامة وخاصة : من طلبة رباطه ، وعامة القبائل في أرض السوس ، ولقّب أتباعه الموحّدين ، وتلقّب بينهم بـ « الإمام » وسار في تأليف تلك الجماعة وتوجيهها على التدرج في الدعوة والتعليم للوصول إلى الغاية المقصودة ، على نحو ما هو مسلوك عند دعاة الشيعة الباطنية من ترتيب الدعوة ومنازلها .

ولمّا لاحظ ابن تومرت أن الدعوة المرابطية السلفية قد أقنعت الناس بوجوب اتباع السنة وتحصيل الأحكام الفقهية منها ، فقد بنى ترتيب دعوته على بيان طريق تحصيل الفقه في السنة فبسط في ذلك كلاماً أوله « أعزّ

ما يطلب وأفضل ما يكتسب وأنفس ما يدّخر وأحسن ما يعمل العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كلّ خير »، وقد اشتهر هذا الكتاب باسم مفتتحه وهو قوله « أعزّ ما يطلب » فصار لقباً عليه ، وقد بني هذا الكتاب على مباحث : ترجع إلى الأخبار ، وطرق النقل، والفرق بين التواتر وأخبار الآحاد ، بصورة عليها سمة من طرائق الأصوليين من الأشاعرة ، في الفكرة والعرض والمصطلح ، ثم عقد كتاباً خاصاً للصلاة والطهارة جعل مداره على استخراج الفقه من الأحاديث وتنزيل نصوص القرآن ، ثم كتاباً في الدليل على أن الشريعة لا تثبت بالعقل بيّن فيه معنى القياس باعتباره راجعاً إلى دلالة اللفظ ، ثم يأتي كتاب آخر للكلام على مباحث الألفاظ ، من العموم والخصوص ، والمطلق والمقيد ، والناسخ والنسوخ ، والحقيقة والمجاز ، وغيرها ، على طريقة علماء الأصول ، فعندما يطمئن أنه قد ربط المتلقين بتوجيهات علم أصول الفقه ، يبتدئ كتاباً للكلام على العلم وطرق تحصيله ، ثم آخر للكلام على المعلومات وأقسامها ، وآخر للكلام على الوجود وتقسيمه ، لإثبات واجب الوجود على طريقة علماء الكلام حيث يتدرج من السنة الأثرية إلى الكلام المنطقي بصورة غير مشعور بها ، ثمّ يختم ببيان معنى العبادة وشروطها وكيفية ربط التكاليف العملية بالأصول الاعتقادية ، وتعليم من هم مظنّة السؤال عن ذلك طرق الإرشاد واختلاف أحوال المسترشدين ، ومن هذا كلّه ينتظم كتاب الدعوة الموحّدية المشهور باسم « أعزّ ما يطلب » ، وإن كان مفصّلاً على كتب مفتتح ومختوم كلّ كتاب منها بما يوهم أنه تأليف مستقلّ ، على طريقة المتقدمين في تقسيم التأليف الواحد إلى كتب يستقلّ بعضها عن بعض ، ويعتبر هذا التأليف وهو « أعزّ ما يطلب » ثاني تآليف ابن تومرت بعد « المرشدة ».

وله كتاب ثالث هو كتاب العقيدة وهو سالك مسلك كتب العقائد الأشعرية المتأثرة نهج كتاب التمهيد لأبي بكر الباقلاني ، مع اختصار وجنوح إلى الرواية ، ويتبع كتاب العقيدة تسابيح للتذكير بقواعد التوحيد والتنزيه ، وبعد ذلك يأتي كتاب رابع هو بيت القصيد ، وهو كتاب الإمامة ، فيبتدئه بتقرير عقيدة لزوم الإمام المعصوم وسوق علاماته ، التي يشير بها إلى نفسه ، ثمّ ينتقل إلى بيان ما عليه طوائف أهل الباطل الذين يسمّيهم بالمثمين ويطبق عليهم أخباراً نبوية عن سوء مصيرهم في الآخرة ، ويصف ما أحدثوه من المناكر حتّى ينتهي إلى وجوب مخالفتهم وتحريم سوتهم ، ثمّ إلى وجوب جهادهم وفضل الصبر على ذلك الجهـــاد ، وتبشير الذين يجاهدونهم بأنهم الموعودون بما وعد به القائمون على الحقّ ، وبيان أركان الإيمان التي يجب أن يتمسّك بها أتباع تلك الطائفة الموعودة بالنصر ، حتى ينتهي إلى تقرير أحكام الجهاد ، شاملاً الجهاد بالنفس والجهاد بالمال .

وقد جمع هذه المقالات وأملاها تلميذه الأول ومؤسس دولته عبد المؤمن ابن علي فأملاها ونسخت من إملاءاته وأسند سماعها إلى مجالس سنة ٥١٩ في رباط هرغة ، فكانت دستور دولة الموحدين والدول التي قامت على أسسها في شمالي افريقيا والأندلس ، وكانت إلى جنب ذلك مكوّنة لحاصل عظيم الأهمية في تاريخ الفكر هو إعداد الجوّ الفكري في المغرب العربي لحياة الحكمة الأشعرية وبعث حركتها ناشطة من عقالها ، لإبراز النتائج المبنية على المؤاخاة بين فروع الثقافة الإسلامية : مؤاخاة تغذي الدين بالحكمة ، فلقد كانت الصدمة العنيفة التي اصطدم بها تيار النظر الحرّ ، الجامع بين الدين والحكمة ، من طرف المنصور بن أبي عامر ، ثمّ من طرف المرابطين ، صدمة ذات أثر بعيد في وقف حركة التقدّم الفكري ، وقطع ما بين الدين والحكمة من عوامل التلاقح ، التي ازدهرت بها الحكمة الدينية في المشرق .

وكما حكى ابن العربي أن أصحاب الحكمة الدينية العليا كانوا يستترون بالتقليد المذهبي في الفقه ، ويجعلون نظرتهم في علم الكلام تابعاً خفيّاً ، فكذلك كان الحكماء المتفلسفون يتظاهرون بالاقتصار على علم الطب والعلوم الحسابية ، ويكتمون ما عندهم من الحكمة ، مستترين بما يظهرونه مما تجوز لهم فيه مثل الحساب والفرائض والطب ، كما حكى ذلك القاضي صاعد في كتاب طبقات الأمم .

ولقد كادت الحكمة أن تعاود عهد ازدهارها بالأندلس ، عند سقوط قرطبة وقيام ملوك الطوائف ، لولا أن الخطر الاسباني ، ثمّ الحكم المرابطي ، قد قطعا دونها ذلك الأمل ، فانكفأ الحكماء إلى بيوتهم عاكفين على كتبهم منطوين على أنفسهم وما منهم إلاّ متمثّل بالبيتين القديمين لابن عبد ربه الحفيد :

لما عدمت مؤانساً وجليساً نادمت بقراطاً وجالينوسا

وجعلت كتبهما شفاء تفرّدي وهما الشفاء لكل جرح يوسى

فلمّا انتصرت الحكمة الدينية متمثلة في المهدي ابن تومرت على المرابطين ، وأدالت دولتهم ، كان ذلك الانتصار رافعاً لحاجز كان قائماً في طريق تقدّم الحكمتين ، وحائلاً دون تواصلها ، فاندفعت بارتفاع الحاجز القوّة المكبوتة واستأنفت سيرها من حيث وقفت ، بما بقي مكنوناً فيها من فاعلية تيار السير المقطوع .

هنالك أبرز العلماء ما كانوا يضنون بابرازه : من كتب الحكمة والكلام وأصول الفقه والجدل والتصوف ، وأظهروا نظرهم فيها ، وتدارسهم لها ، وصدعوا بالتنويه بها وتمجيدها ، وصرحوا بما بين ما كانوا يظهرون ، وما كانوا يخفون ، من وحدة لا ترضى بتفكّك أوصالها .

وبهذا الاندفاع الجديد أصبحت طائفة العلماء ، من أهل الحكمة الدينية ، وأهل الحكمة الفلسفية ، ظهيراً للدولة القائمة دولة الموحّدين ، لا في سلبية

النوارد على كراهية الحكم المرابطي فحسب ، بل في إجابة المثل الأعلى من توجيه الدين بالحكمة ، وتحليله بالمنطق ، وهو المثل الذي بدا في مذهب الإمام المهدي ، وما يقوم عليه ذلك المذهب من قواعد الحكمة الإسلامية ، التي أسسها الأشعري ، وأسندها الغزالي .

وبذلك أصبحت لابن تومرت منزلة مشاعة بين عصبيتين متظاهرتين : عصبية سياسية تمثلها دولة عبد المؤمن بن علي وأشياعها ، وعصبية مذهبية يمثلها المتطلعون إلى نصرة الحكمة الدينية المحجوزون طويلاً في ما مضى من دولة المرابطين على مواصلة سبيلهم نحو ما تحرّقوا عليه من إعلاء شأن الحكمة ، وارتبطت ثانية العصبيتين بأولاهما حين بادر المتمسكون بالأشعرية والمازرية ، في الكلام المدلل والفقه المعلل ، إلى الاتصال بمهد الدولة الموحدية ، كما سافر القاضي أبو بكر ابن العربي إلى لقيا عبد المؤمن بمراكش .

ومن جهة أخرى بادر المتمسكون بالتعاليم الفلسفية والأنظار الحكمية إلى هذه الدولة يؤازرون المتكلمين والفقهاء في تأييدها ونصرها ، والدخول تحت طاعتها ، كما فعل ذلك الفيلسوف الكبير أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجّة ، والحكيم الاشراقي الأعظم القاضي أبو بكر بن الطفيل صاحب القصة الفلسفية الخالدة « حيّ بن يقظان » .

وكان هذان الحكيمان الجليلان : ابن باجّه ، وابن الطفيل ، متمايشين في القطر والعصر ، متقاربين في المذاهب والأنظار ، على ما بينهما من فروق دقيقة في آراء ترجع إلى كليات أصول الحكمة ، وجزئيات من مسائلها ، زيادة على أن واحداً منهما لم يلق الآخر ، وكان أهم ما يتلاقيان فيه شعورهما بأن الحكمة التي أقامت نهضة العلوم الدينية وألفت فيما بينها ، وهي حكمة الغزالي ، قد كان يبدو عليها شيء من التضارب ، باختلاف المباني ، وتفاوت المقامات ، وتباعد الغايات ، إذ يجنح تارة إلى الوقف بمراحل الحكمة عند

حدّ البرهان ، ويسمو تارة أخرى إلى التجاوز بها إلى غاية الاشراق ، وذلك عين ما كان أخذه أبو بكر ابن العربي على الغزالي من الناحية الكلامية ، وشجبه عليه ، في كتاب العواصم من القواصم .

وكان ابن باجّه متصلّباً في نقد الغزالي متمسكاً بطريقة التعاليم الأرسطوطاليسية ، واثقاً بأن إدراك أهل النظر لما بعد الطبيعة إنّما يكون بالبحث الفكري ، فجاء ابن الطفيل ، على إعجابه بابن باجّه وطريقته ، يكشف أن مذاهب الحكمة ، على ما بينها من اختلاف الأساليب والطرائق ، هي متلاقية متكاملة وليست متباينة ، ولا متنافرة ، وإن الحكمة النظرية تنتهي بمتّبعها إلى موقف تبتدئ من ورائه مراحل الحكمة الإشراقية ، وبذلك يأخذ على الغزالي أنه قرّر المذاهب متخالفة ، ولم يسلم من الوقوع في أحدها بعد الآخر ، على طول البحث ويمثل لذلك بكتاب « تهافت الفلاسفة » ، مع اعترافه بأن الغزالي قد سعد السعادة القصوى ، وأنه رجل أدبته المعارف ، وحذّقته العلوم ، ثمّ ينتقد فلسفة ابن باجّة بأنها قصرت عن غاية الحكمة ، ولم يفض إلى حقيقة الكمال ، ثمّ يصعد إلى الفارابي وابن سينا ، فيأخذ على الفارابي تمطّيه في الاغترار بالفلسفة ، اغتراراً نبا به عن حكمة الدين ، ويأخذ على ابن سينا أنه جرى على مذهب أرسطوطاليس فلم يستطع أن يصل به إلى الكمال ، فعدل إلى الحكمة المشرقية .

وكذلك كانت الحكمة في نظر ابن الطفيل ملتئمة من المبادئ المشائية والغايات الإشراقية ، وليست كاملة ، لا بالفلسفة التعليمية ولا الافلاطونية الحديثة ، وإنّما هي متكاملة لاجتماعها كلّها على صورة يحقّق بها كلّ مذهب ناحية من نواحي الكمال هي النواحي التي لا تتلاقى جهاتها إلاّ باجتماع الدين والحكمة ومعرفة ما بينهما من ارتباط .

وذلك هو الذي كانت الحكمة الأندلسية في تيه عنه ، وكانت الحكمة الإسلامية الرائجة بالمشرق ، بعد ابن سينا ، قد أدركته أو قربت فيه ، بما ظهر من خلاصة الأسرار الحكمية التي صرّح بها الشيخ الرئيس في كتاب الإشارات ، وكنّى عنها بضرب المثل في قصة حي بن يقظان ، وما ظهر في كتب ابن مسكويه «الفوز الأصغر ، والفوز الأكبر» من استناد يساعد العقيدة بالعلل الفلسفية . وعلى هذا الاطمئنان العجيب إلى اتصال حقيقة الحكمة العقلية بحقيقة الحكمة الدينية أقبل ابن طفيل على الدولة التي جعلت شعارها إمامة المهدي في الجمع بين الحقيقتين ، فانتقل من العدوة الأندلسية إلى العدوة المغربية ، حتى اتصل بالسلطان يوسف بن عبد المؤمن ، وطارحه حكمته وحبّب إليه مبادئه وربط سلطة الموحّدين بخطّ مذهبه الفلسفي ، ولم يزل نصب عين ابن الطفيل ، منذ استقرّ بمرّاكش في قصر الموحّدين ، ذلك الشاب الناشئ تحت دوحتي الحكمة ، المتضلع من درّي الشريعة والفلسفة : أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي المعروف بابن رشد الحفيد .

نشأ هذا الشاب في بيت الفقه والقضاء ، وتطلع إلى أسمى مراقي النظر العلمي ؛ فاتصل في حداثة أمره بالإمام أبي عبد الله المازري : شدّ الرحلة إليه في افريقية ، وتخرّج به في تحقيق النظر الفقهي على مدارك الشريعة وأصولها ، وتلقّن منه أصول الطريقة الكلامية الأشعرية التي كان المازري يخوض لججها مع إمام الحرمين الغزالي .

وفتح ابن رشد عينيه على روض العلوم الحكمية بالأندلس ، وقد زكا نبته ، وأينع زهره ، بتقلّص سلطان المرابطين ، فأقبل على فلسفة القدماء وأتقن اللغة اليونانية واللغة اللاتينية ، واستخرج كنوز الحكمة المجهولة ،

فتعاطف على رأسه غصنان من علوم الإسلام وعلوم الأوائل ، فلم يجد خريتاً يهديه سبيل الحكمة المأمون ، غير القاضي ابن الطفيل ، فكان هو الذي أوقفه على ما يزكي الحكمة من الدين ، ويزكي الدين من الحكمة ، على النحو الذي عرضه في قصة حي بن يقظان .

وكان [illegible] ابن رشد في الوسط السنّي الفقهي ، الذي نشأ فيه بقرطبة ، متّصلاً اتصالاً محكماً بآثار أبي بكر ابن العربي وأخباره ، فقد أخذ عن تلاميذه : مثل الحافظ ابن بشكوال ، ووقف بذلك على ما كان للغزالي من أثر في ابن العربي وفقهه ، ووقف على آثار الخلافات الفقهية والاعتقادية التي ثارت بين مالكية الأندلس وابن حزم ، وما تركت من دويّ متجاوب الأصداء في قرطبة ، ووقف على كتب ابن حزم ، واعتمد عليها في تآليفه ، فحقّق ما يشهد به المنصفون لابن حزم ، وإن خالفوه ، من سعة العلم ، وحدّة الذهن ، وقوة المعارضة ، حتى انه على ظاهريته اعتنى بالحكمة العقلية وألف كتاب التقريب لحدود المنطق الذي قال القاضي صاعد « انّه بسط فيه القول على تبيين [illegible] المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية ، وجوامع شرعية ، وخالف أرسطوطاليس في بعض أصوله » . فكانت هذه المثل من استعمال الحكمة العقلية لتقويم الفقه موجّهة لابن رشد إلى مجاراة أربابها ، باستعمال الحكمة المثلى التي كان يشعر ، تبعاً لأستاذه ابن الطفيل ، بأنّ الناس من قبل لم يتوصّلوا إلى صحيحها .

على هذا التأثير الذي بطرت به روح الحكمة المجددة على نفس الحفيد ، ترك ابن الطفيل صاحبه ابن رشد بقرطبة لما استقرّ هو في مراكش .

فلم تزل بوارق الأمل في تلك العبقرية تلمع بين عينيه حتّى لحق ابن رشد بمراكش سنة ٥٤٨ وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، ولقي الخليفة الموحّدي يوسف بن عبد المؤمن بواسطة أستاذه ابن الطفيل ، وحاوره

حواراً فلسفياً راقياً ، أثبت له رسوخ قدم الخليفة الموحدي في الحكمة بصورة يندر وجودها عند أمثاله ، وبسبب ذلك رغب ابن الطفيل من ابن رشد ، بما له من التمكن في اللغة اليونانية ، أن يتولّى دراسة كتب أرسطوطاليس وشرحها وتلخيصها حتى يخرج بها عن دائرة الغموض التي كانت محيطة بها .

انتدب إلى ذلك ابن رشد وبذل نفيس عمره في خدمة الفلسفة وتحقيقها وبسطها واعتمد على مذهب أرسطو فجعله قطب النظر ، وقارنه وناظره بالمذاهب ، وعلّق عليه بالنقد والتصويب ، وبيّن منزلة بعض المواضيع من بعض ، ونسبة بعض المذاهب من بعض ، واحتفل خاصة بقسم مابعد الطبيعة وهو مجال معترك الأنظار ، فحقّق نواحي التفارق والتلاقي بين سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيين ، مناقشاً ابن سينا آراءه الخاصة أو تخاريجه لكلام أرسطو ، كما يناقش تخاريج المتقدمين من شرّاح أرسطو اليونانيين ، ومن المشهور أن ابن رشد بهذا العمل قد كان مؤسساً للفلسفة تأسيساً جديداً ، ومشيعاً لها إشاعة أضاءت ظلمات القرون الوسطى ، في أروبا ، بفجر عصر النهضة ، ولكن الأهم وراء ذلك هو ما كان لابن رشد من أثر مباشر في العلوم الدينية ، فقد تأثر ابن رشد خطى الغزالي في الحكمة وأصول الفقه والفقه ، فتناول كتاب تهافت الفلاسفة ، وكتاب المستصفى ، وكتاب الوجيز ، فجعل تتبّعه لكتاب التهافت تتبعاً تحليلياً حرفياً يتناول تحقيق مذاهب الفلاسفة بطريقته العميقة في شرح الحكمة ، ونقد ردود الغزالي بأنها ليست واردة مورد البرهان الناقض على محلّ النزاع ، حتّى انتهى بذلك إلى العقدة التي جعلها ابن طفيل أقوى مأخذ على فلسفة الغزالي ، فجعلها مقطع الحقّ ومنقطع المناقشة وطوى بذلك كتاب تهافت التهافت ،

ثم لخّص تلك المناقشة في صورة منهجية في كتاب « فصل المقال في ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » .

أما كتاب المستصفى فقد لخّصه تلخيصاً ، ذكره في ترجمته الشيخ أحمد بابا في ذيل الديباج ، وتعرّض إلى الإمام بآراء الغزالي الأصولية في كتاب مناهج الأدلة بما دلّ على أنه لا خلاف يذكر بينهما في مسائل أصول الفقه .

وأما كتاب الوجيز فهو الكتاب الذي اختصر فيه الإمام الغزالي مذهب الشافعي ، ملخّصاً فيه كتابيه الوسيط والبسيط ، وقد جعل اختصار الفقه مبنياً على الاقتصار على قول الشافعي والإشارة إلى خلاف المذهبين المالكي والحنفي إشارة ردّ واستبعاد ، وكذلك فعل بالأقوال التي تخالف قول الشافعي داخل المذهب ، وخاصة أقوال المزني ، فجاء هذا الصنيع متأثراً بالأصول الجدلية التي تنظر في مدارك الأحكام لقصد الانتصار إلى مذهب معيّن ، لا لقصد استيلاء الحقيقة لذاتها ، وكان ذلك تضييقاً لدائرة التقليد ، فجاء القاضي ابن رشد يساير صنيع الغزالي في الاختصار وإيراد الأقوال المخالفة ، ولكنه يجنح إلى الاقتداء بابن العربي في التخفيف من التزام التقليد ، فيتوسع في الخلاف ، ويشير إلى الأدلّة التي كانت منشأه ولا يلتزم الانتصار لتقليد مذهب معيّن ، ولكنه يفتح باب النظر في الأدلة حتى لا يغلق باب الاجتهاد أصلاً ، ويبقى ولو في حدود النظر المذهبي ، فكان إيراد المذاهب عنده لتربية ملكة الاجتهاد عليها ، لا لدحضها ، ونصر مذهب معيّن وبذلك استطاع ابن رشد أن يفتح في المذهب المالكي طريقاً سدّه الغزالي في المذهب الشافعي ، هو الطريق الوسط بين الاجتهاد والتقليد ، الذي يشير إليه اسم الكتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وقد ذكر فيه أنه عازم على وضع كتاب آخر في المذهب المالكي ، يتجنّب فيه إحصاء الروايات لأن ذلك شيء ينقطع العمر دونه ، ولكنه رتّبه ترتيباً

صناعياً حتّى يكون القارىء مجتهداً في مذهب مالك ، ويظهر أنه لم يتمكن من إنجاز عزمه هذا فلم يكن له ، في ما عُدّ من جريدة كتبه الكثيرة ، كتاب في الفروع المذهبية ، وقد وهم صاحب معجم المطبوعات ، فنسب إلى الحفيد ابن رشد كتاب المقدمات الممهدات ، والصواب أنه لجـدّه الحافظ ابن رشد الجدّ صاحب البيان والتحصيل ، وحافظ المذهب .

وكفى حفيده يداً على الفقه المالـكي أنه بوضعه كتاب بداية المجتهد قد لقّح حياة الاجتهاد ، بما بعث في المذهب المالـكي حركة التفقه التي ظهر بها الإمام ابن عرفة في القرن الثامن ، ثمّ التصرف الاجتهادي في جريان العمل الذي شاع من عهد تلاميذ ابن عرفة : البرزلي ، وابن ناجي ، فأصبح أصلاً للتطور الفقهي في ما بعد القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، فـكان كتاب بداية المجتهد لمحة من لمحات الحكمة العقلية التي امتاز بها ابن رشد الحفيد تركت أثراً في تطور الفقه المالـكي بالتفقه والعمل ، وأثراً في الإبقاء على رمق من روح الاجتهاد مردد بين المذاهب .

كان هذا العمل الذي قام به ابن رشد الحفيد في القرن السادس بكتاب بداية المجتهد ، عملاً تصرفياً في الفقه . ناقض به العمل الالتزامي الذي قام به الغزالي في كتاب الوجيز ، فبقدر ما كان الغزالي يضيق الدائرة ويحصر الأقوال كان ابن رشد يوسع دائرة النظر ويكثر من إيراد المذاهب والأقوال ومقابلتها وإيراد حججها وأدلتها بحيث يجنح الغزالي إلى إبراز المذهب الفقهي الذي يتقلده في صورة الأمر الضروري ، كما هو عند المقلد ، في حال أن ابن رشد يجنح إلى إبرازه في صورته النظرية التي هي محلّ بحث ومجال اجتهاد ، كما هو عند الفقيه ، وإنه لمن المنتظر أن طريقة ابن رشد يكون لها أثر في المذهب المالـكي ، وان طريقة الغزالي يكون لها أثر في المذهب الشافعي ، حتى يبدو كلّ من المذهبين مبايناً لمظهر الآخر ، ولـكن ما بين المذهبين من

تواصل في المجال الأصولي ، وما بينها من تفاعل في البلاد الشرقية بصفة خاصة ، حيث يعيشان متجاورين في الحجاز والعراق والشام ومصر ، كان قاضياً بأن كلّ أثر يبدو في أحد المذهبين تحدث له صورة في المذهب الآخر ، فلمّا برز كتاب الوجيز للغزالي ولقي ما لقي عند الشافعية من احتفال وإقبال ، واحتلّ منزلة الإعجاب بحسن تنسيقه ، وجميل تبويبه ، ومحكم ربطه بين المسائل ، وإتقان تفريعها ، أحسّ الفقهاء من أتباع المذهب المالكي في المشرق بأن هذا المظهر الذي بدا به المذهب الشافعي قد أناله امتيازاً في حسن الضبط وسهولة المراجعة يجعله أيسر إلى تناول المقلدين ، فاغتبطوا بذلك واستشعروا خلو التآليف الفقهية في المذهب المالكي من تلك الميزة ، فحرصوا على تكميله باقتباس تلك الطريقة التي سهلت تناول المذهب من طالبيه ، وهم حين نظروا إلى الميزة الصناعية في التآليف لم يلتفتوا إلى ناحية التضييق والاقتصار ، التي انحاز إليها مذهب الشافعي بتأليف الغزالي ، لأن تشابه الأوضاع واستقرارها لم يكن من شأنه أن يبرز الاحتياج إلى ما اعتبر مهجوراً من الأقوال الفقهية ، حيث إن جريان الفتوى على الأقوال المشهورة المدوّنة ، وما لتلك الأقوال التي جرت عليها الفتوى من تطابق مع مقتضيات الأحوال كان مزيلاً لاعتبار الأهمية من تلك الأقوال ، قاضياً عليها بالجدارة بالهجر والإهمال . بمثل هذه العوامل تأثر المالكية بمصر أثناء القرن السادس لما طار كتاب الغزالي إلى إخوانهم وأجوارهم الشافعية ، فأقبلوا عليه بما تقدّم وصفه من إعجاب ، وأحسّ المالكية بأن مذهبهم في حاجة إلى مثل ذلك التهذيب والترتيب ، ولم يلاحظوا ما لاحظ أحد أئمتهم العظام وهو قاضي قرطبة أبو الوليد ابن رشد من أنه يشتمل على تضييق دائرة النظر الاجتهادي ويلزّ المذهب في حيز التقليد ، وإن امتاز بما زانه من حسن الترتيب ، فكان تطلع هؤلاء الفقهاء إلى أن يسلكوا بالمذهب المالكي المسلك الذي انتهجه الغزالي بالمذهب الشافعي موافقاً للوقت الذي كان فيه

فقيه قرطبة وحكيمها يحاول أن يبرز أثراً مرتباً مهذباً يصدّ به تيار المذهب المالكي عن الاندفاع في ذلك السبيل . ففي العصر الذي كان فيه ابن رشد منكبّاً على تصنيف بداية المجتهد ، كان الفقيه المصري أبو محمد بن شاش منكباً على تصنيف مختصر جامع لفروع المذهب المالكي ، على ترتيب يساير صنيع الإمام الغزالي في الوجيز ، وهو مختصره البديع الذي سمّاه « الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة » وقد قال في خطبته : لمّا رأيت كتاب الوجيز لأبي حامد الغزالي رحمه الله من أحسن ما حرّر فيما حرّره غيره من متقدّمي الأئمة ومتأخريهم ، فكان غاية منتهى التحرير ، لخصت المذهب في هذا الموضوع على القرب من محاذاته .

وسرعان ما ظهر هذا الكتاب حتى عكف عليه المالكية بمصر واستحسنوه وأعجبوا به ، كما ذكر ذلك ابن خلّكان في وفيات الأعيان ، وسارت طريقة دراسة الفقه على منهج كتاب ابن شاش : في الحرص على التفريع والجمع والإيجاز ، والإعراض عن الخلاف والمدارك ، وبقي كتاب ابن رشد خامل الذكر محدود الانتشار إذ لم يشاركه في نظره الحكمي البعيد إلا القلاقل : فلم ينتبه الأكثرون إلى أن ما خيّل لهم الاستغناء عنه من الأقوال سيحتاجون إليه في تقليب الأنظار عند اختلاف الأحوال .

ومضى القرن السابع على هذه الطريقة الالتزامية التي التحق فيها المذهب المالكي بالمذهب الشافعي ، متنكباً محاولة ابن رشد في الحفاظ على اتساع النظر الاجتهادي ، وازدان ذلك القرن السابع بظهور علم من أعلام الثقافة الإسلامية ، الجامعين بين مختلف فنونها في معرض الصناعة التعليمية ، التي تفرّعت من مناهج أصول الفقه ، فجمعت بين أسلوب تعليمي واحد علوم اللغة العربية والدين والحكمة من علم القراءات إلى علم العروض ، ذلك العلم الذي ظهرت عظمته في القرن السابع ، هو الإمام جمال الدين ابن الحاجب ،

صاحب المختصرات المعتبرة في النحو والصرف والعروض والمنطق والأصول والفقه والقراءات ، فانصرف إلى تأليف مختصره العظيم في الفقه المالكي الذي سمّاه « جامع الأمهات » ، وأفرط فيه في اتباع طريقة الجمع مع الاختصار ، حتى كان وهو جزء صغير جامعاً لمضمون ستين ديواناً من دواوين الفقه المالكي ، ومشتملاً على صغر حجمه على ستّ وستين ألف مسألة ، فعظم الإعجاب به ، وعمّ الإقبال عليه ، وملأت سمعته وسط القرن السابع ، وحلّقت في آفاق المشرق والمغرب مع أن ابن خلدون يعرض بنقده بقوله : إنّه جاء كالبرنامج للمذهب .

وبانتشار مختصر ابن الحاجب وعكوف الناس عليه هجر دارسو الفقه طريقة المدوّنة وتهاذيبها وشروحها ، بما عليها من مسحة النظر والاستدلال ، وتوجّهوا إلى دراسة ابن الحاجب بالاستكثار على طريقته من المسائل والفروع .

وكان طريق اتّصال مختصر ابن الحاجب الفرعي ببلاد المغرب العربي أن الشيخ ناصر الدين الزواوي ، من فقهاء بجاية ، ارتحل إلى المشرق في أواخر القرن السابع ، فلقي تلاميذ ابن الحاجب بمصر ، وتخرّج عليهم ، فجاء معه بمختصر ابن الحاجب ونشره في تلاميذه ببجاية ، ومن هنالك انتقل إلى عامّة أقطار المغرب العربي ، فعكف الفقهاء على دراسته وشرحه واعتنى به كبار فقهاء تونس : مثل ابن عبد السلام ، وابن هارون ، وابن راشد ، وفقهاء تلمسان : مثل ابني الإمام .

ولكنّ نزعة ابن رشد إلى الطريقة المخالفة للمنهج الالتزامي الاقتصادي ، الذي درج عليه ابن الحاجب ، لم تزل تغذّي حركة ردّ فعل تعديلي تجنح باتباعها إلى طريقة اتساع النظر الاجتهادي بين المذاهب الفقهية ، وقد تجلّت تلك النزعة واضحة في كتاب القوانين الفقهية للإمام أبي القاسم ابن جزي الغرناطي ، شهيد واقعة طريف سنة ٧٤١ ، فانّ ذلك الكتاب النفيس ،

على إحكامه ودقة ترتيبه ، لم يقتصر على المذهب المالكي ، بل أورد المذاهب الأربعة ومذاهب كثير من أهل الاجتهاد المنقطعي الأتباع ، فجمع ، كما قال هو عن نفسه ، بين تمهيد المذهب وذكر الخلاف العالي .

على أن منهجاً جديداً في الدراسة العلمية قد ظهر بالبلاد التونسية في رحاب الجامعة الزيتونية أثناء القرن السابع كان قاضياً أيضاً بتعديل الغلو في الطريقة الفقهية الالتزامية ، وذلك هو منهج القاضي أبي القاسم ابن زيتون ، الذي تخرّج في المشرق على تلامذة الإمام فخر الدين الرازي ، ودرج على طريقته في الجمع بين العقليات والنقليات على الأسلوب التعليمي الراقي ، وقد تأيدت هذه الطريقة واستحكمت أساسها في القرن الثامن ، بنبوغ الحكيم الكبير إمام التعاليم والرياضيات أبي عبد الله الابلي ، المتكون في حكمته التجريبية على طريقة ابن رشد ، فتواصلت طرق التخرج على منهج النظر الحكمي في التكاليف الدينية بين أقطار المغرب في شمالي إفريقيا والأندلس ، فظهر من أعلام تلك الطريقة أعلام درسوا الفقه بالتعقيد والمقارنة وربط الفروع بالأصول مثل الإمام أبي عبد الله المقري التلمساني ثمّ الفاسي ، والإمام أبي اسحاق الشاطبي الغرناطي ، والإمام العلاّمة أبي عبد الله العلويني الشهير بالشريف التلمساني ، الذي عدّ من أهل الاجتهاد ، وقد أنجبت الجامعة الزيتونية بتونس في هذا القرن الثامن فذّاً من الأفذاذ الجامعين بين الحكمة والفقه تخرّج بطريقة الابلي وبرز في العلوم الحكمية أولاً ، ثم اشتغل بالفقه فأتى فيه بالعجب العجاب ، ذلك هو شيخ الإسلام محمد بن عرفة .

ابتدأ ابن عرفة تخرجه العلمي بالاختصاص في الكلام والحكمة والمنطق وأصول الفقه ، ثمّ انصرف إلى الفقه متأثراً بتكوّنه الحكمي ، فاتّجه إلى الضبط والجمع والتنظير ، واهتمّ بصفة خاصة بالتحديد ، وشرح مواهي الأبواب الفقهية ، بتمييز بعضها عن بعض ، وأكثر من البحث والنظر والاستشكال ،

فنقد كثيراً من الأقوال واستبعدها ، مبيناً وجه ذلك بتصوير الوقائع ، وملاحظة ما يتحقق فيها من المصالح المقصورة للشرع ، وما لا يتحقق ، ففتح بذلك في الفقه المالكي طريقة البحث النظري المعبر عنه « بالتفقه » الذي هو منهج الدراسات القانونية الجامعية اليوم .

وبهذه الدراسات النظرية المحصة للأقوال الفقهية : نقداً ، وتحريراً ، ومشاركة في المباني والمدارك ، اقترنت أحداث خارجية في حياة البلاد المغربية عامة والقطر التونسي خاصة ، ختم بها القرن الثامن : من دخول سلطنة الإسلام بالأندلس في الدور الأخير ، وإيواء اللاجئين من المناطق المفتكة إلى الرقعة الباقية والعدوة الافريقية ، وتضارب الدول المرينية والزيانية والحفصية في سبيل توحيد المغرب ، ودخول قبائل الأعراب في دور الاستقرار والتحضر ، واستفحال الأزمة الاقتصادية بسبب سقوط منزلة البلاد في التجارة العالمية بفتح طريق الهند البحري ، زيادة على ما مر ببلاد المغرب من الأحداث الإسلامية التي توالت بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد : من تجدد محمة المغول بقيادة تيمورلنك ، وإشراق نجم العثمانيين ، فكان من أثر هذا المجموع من الأحداث أن ما كان يسود الدراسات الفقهية من الاطمئنان إلى الاختيارات والترجيحات التي استقر عليها الفقه المذهبي ، قد بدأ يتزعزع بما أسفرت عنه الأحداث الهائلة من انقلاب الأوضاع الاجتماعية انقلاباً فتح مبدأ الشعور بمشكلة قصور كثير من الأقوال الفقهية عن تحقيق المصلحة التي نظر بها إليها من قبل بسبب اختلاف الوضع عن الوضع ، فكان هذا الشعور أقوى سند للأنظار التفقهية التي ابتدأ الإمام ابن عرفة أثناء القرن الثامن يلحق بها تعاليق النقد والبحث على بعض الأقوال الفقهية ، واتخذ تلاميذه من ذلك معياراً للاختبار التجريبي لنفاذ الرأي الاجتهادي الذي يحلل به ابن عرفة الأحكام .

وبذلك كان القرن التاسع قرناً وضع فيه الفقه المالكي من جديد على بساط النقد والتمحيص حيث دخل في مقاييس الاختيار والترجيح مقياس جديد : هو مقياس الفتوى والعمل ، فانّ طبقة من تلامذة ابن عرفة أخذت على عاتقها تطبيق الأحكامَ الشرعية على الوقائع بمراعاة ما فرضت فيه تلك الأحكام من الظروف الزمانية والمكانية ، فاذا رأوا أن بعض تلك الظروف تبدل ، مالوا إلى العدول عن القول المشهور إلى قول غيره اجتهاداً منهم ، واستحساناً ، واعتباراً للمصالح الشرعية ، بحسب الوقائع والنوازل والأشخاص ، بمراعاة الأعراف والعوائد ، فأصبحت الفتاوى في كثير من الوقائع مختلفة عمّا اشتهر في أمثالها بسبب اختلاف جزئي في صور الوقائع ناشئ من اختلاف الأوضاع ، وكان البروز في هذا المجال الفقهي التجديدي لثلة من تلاميذ ابن عرفة ، فيهم من التونسيين : البرزلي ، وابن ناجي ، ومن الجزائريين : الحفيد ابن مرزوق ، وأبو الفضل العقباني ، حتى تقرّر بصنيعهم هذا منهج العمل الذي أصبح تعديلاً ضرورياً لما سبق من الرجحان واشتهر ، وكان الذين تولّوا القضاء من هؤلاء أتمّ تمكّناً من ملاحظة تلك الدواعي فساروا على منهج التصرّف الاجتهادي في التأويل ، وأسسوا لجريان العمل مادة جديدة للفقه ، فأظهر القاضي ابن ناجي في كتبه من حسن التحقيق لمناط الفتاوى والأحكام ، والبراعة في تنزيل القواعد والمقاصد على الصور الحادثة ، ما جعل صورة الفقه المالكي من بعده مصطبغة بآرائه صبغة خاصة . كما أبدى البرزالي في مجموع فتاويه المسمى « جامع مسائل الأحكام لما ينزل بالمفتين والحكّام » نظراً بعيداً سديداً ، في التصور والتطبيق والتنزيل ، تناول أكثر مسائل الفقه بصورة كشفت في تطبيق الأحكام ، عن أوجه لم يكشف عنها من قبله لثام . ومثل ذلك المسلك سلك العقباني في أجوبته التي ضمن الكثير منها تلميذه الشيخ يحيى المغيلي المازوني في كتابه « الدرر

المكنونة في نوازل مازونة » أما العلامة ابن مرزوق الحفيد فقد سما في فقهه إلى أفق تحرير الأفكار وابتكار الأنظار ، حتى شهد له ببلوغ درجة الاجتهاد المطلق ، ولقد كان حريصاً على تعرف المذاهب وحسن دراستها لتوسيع نظره الاجتهادي ، فدرس الفقه الشافعي في تلمسان بكتاب التنبيه لأبي اسحاق الشيرازي والوجيز للغزالي ، مع أنه لم يكن هو ولا واحد من طلبته ولا من أهل مدينته شافعياً .

وبهذه النزعة التفقهية التطبيقية انتهج الفقه نحو التطور منهجاً جديداً سلك من القيروان إلى الأندلس ثمّ رجع واستقرّ بفاس فأبرز اختلافاً واضحاً بين ما تقرّر من الأحكام في الدواوين والمختصرات ، وما طبق في مجاميع الفتاوى والنوازل ، على نحو ما نجده في لامية الزقاق من القواعد والمثل ، وما نجده في ما ضمنه الشيخ أبو العباس الونشريسي في مجموعه العجيب « المعيار المغرب والجامع المقرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب » وهو كتاب في أسفار ضخمة يتبيّن لمتصفّحه عندما يقابله بجواهر ابن شاش أو بمختصر ابن الحاجب كم استطاع النظر الفقهي في هذا المغرب أن ينتج من تطور ويظهر من حيوية ، لما عدل عن المنهج الالتزامي وسار على المنهج التصرفي الذي فتحه ابن رشد ، ومهّده ابن عرفة وتلاميذه ، وأقام أعلامه الونشريسي في المعيار .

محمد الفاضل ابن عاشور

نظرة عيان وتبيان

في مقالة

(أسماء أعضاء الإنسان)

أضاف إليها ما يقابل الأسماء بالفرنسية والانكليزية مع شرح موجز

الدكتور صلاح الدين الكواكبي

- ٨ -

٢١٥) البَطْن

ف Abdomen, ventre (m.)

ز Abdomen ; belly

في الأصل . — ليس له تعريف .

في (ق) . — البطن خلاف الظهر مذكر . ج أبطن ، وبطون ، وبُطنان . . . ودون القبيلة . . . وجوف كل شيء .

في (ل) ولاروس ذي المجلدين . — هو الناحية السفلى والأمامية من الجذع (يرادف Ventre) . البطن منفصل عن الزور بالحاجز وتحده من الأسفل الحوضة . يحتوي البطن على الأنبوب الهضمي وملاحقه ، والجهاز البولي ، وغدد شتى وعلى جزء هام من الجهاز الوُدي .

أم ما أضفته :

١ً — بطن ذو بَرْزَتَين

ف Ventre à double saillie

ز Abdomen presenting tow inguinal prominences

٢ً — بطن بشكل الخُرْج

ف Ventre en besace
ز Pot belly

٣ً — بطن مدلّى

ف Ventre pendant
ز Pendulous belly

٤ً — بطن كالمَرْكَب

ف Ventre en bateau
ز Scaphoid abdomen; boat scaphed, carinate, navicular abdomen

٥ً — بطن مستدقّ

ف Ventre en pointe
ز Pointed belly

٦ً — بطني

ف ، ز Abdominal, ventral

قلت :

و (البُطَين) على التصغير وبالإضافة إلى القلب يُطلق خصوصاً على الجُويف الذي يدفع الدم إلى الشرايين . وبالإضافة إلى الدماغ يُطلق على كلٍ من الجويفات الأربعة المحتوية على المائع الدماغي الشوكي .

وأضفت :

١ً — بُطين القلب

ف Ventricule du cœur
ز Ventricle of the heart

٢ً — بطين الدماغ

ف Ventricule cérébral
ز Cerebral ventricle

٣ً — بطين الحنجرة

ف Ventricule du larynx

ز Ventricle of the larynx

٤ً — بطين الدماغ الجانبي

ف Ventricule latéral (du cerveau)

ز Lateral ventricle of the brain

٥ً — بطين الدماغ المتوسط

ف Ventricule moyen (du cerveau)

ز Third ventricle of the brain

٦ً — بطين رابع

ف Quatrième ventricule

ز Fourth ventricle

٧ً — بطين انتهائي

ف Ventricule terminal

ز Terminal ventricle

٨ً — بُطيني

ف Ventriculaire

ز Ventricular

٩ً — رسم البُطين

ف Ventriculographie

ز Ventriculography

★ ★ ★

٣١٥ مكرر) الشاكلتان

ف Flanc , côté (m.)

ز Flank ; side

في الأصل . — هما الطفطفتان .

في (ق) . — الطفطفة الخاصرة ، أو أطراف الجنب المتصلة بالأضلاع .

والشاكلة ، في (ق) : ما بين الحرقفة والقُصَيْرى وهي الخاصرة .

في (ل) . — القسم من جسم الإنسان والحيوان من الأضلاع حتى الورك . وعلى التوسع الجنبُ من الجسم .

(انظر أيضاً الرقم — ٢٠٧) .

★ ★ ★

٢١٦) الثُّنَّة

ف Hypogastre ; bas - ventre

ز Hypogastrium

في الأصل . — الثَّفنة : ما بين السرة إلى العانة .

قلت : قوله (ما بين السرة إلى العانة) ينطبق على الخَثْلَة ، والمُرَيْطاء لا الثفنة ، بالفاء ، وهما ما يقابل الكلمتين الافرنجيتين ، كالثُّنَّة تماماً ـ بدون فاء ـ كما سيأتيك في ملاحظتي .

في (ق) . — الثفنة من البعير ، الركبة . ومنك الركبة ومجتمع الساق والفخذ .

في معجم المتن . — من البعير الركبة . . الخ ومن الخيل موصل الفخذين في الساقين من باطنها . ومن الناس الجماعة منهم ، ومن الجُلَّة حافتا أسفلها من التمر (مجازاً) . ومن النوق ، التي تضرب بثفناتها عند الحلب . ومن الإنسان : الركبة ، ومجتمع الساق والفخذ .

في (ل) . — القسم الأسفل من البطن .

ملاحظتي . — في المعاجم التي بين يديّ لم أجد للثفنة من المعاني ما يصح إطلاقه ـ ولو مجازاً ـ على الشرح المذكور في الأصل المطبوع : (ما بين السرة إلى العانة) . فالثفنة إذن خطأ عن النسخ من المخطوط . فما الصحيح ؟ رحتُ أقلّب وجوه التصحيف أو أخطاء الخط وبمواصلة البحث وجدتُ ـ بعد جُهد ـ الصحيح وهو (الثُّنَّة) فوضعتها مصححةً في الرقم (٢١٦) . فالثُّنَّة ، بالضم وبدون الفاء ، مشدّدة النون : (العانة ، أو مريطاء ما بينها وبين السُّرة) وهو شرح ينطبق تمام الانطباق على ما جاء في شرح الأصل . ولم ينتبه إليه المحقق .

★ ★ ★

٢١٧) السُّرَّة

ف Ombilic (m.)

ز Navel

في الأصل . — ليس لها تعريف (إذ لم تأت مستقلة) .

قلت : جاء ذكرها في معرض شرح الثُّنَّة مما أفادني لتحديدها ووضع الكلمتين الافرنجيتين مقابلاً لها .

في (ق) . — ما تقطعه القابلة من الصبيّ .

في معجم متن اللغة . — السُّرّ سِرّ الكف والوجه . وما تقطعه القابلة من سُرّة الصبيّ ج أسِرَّة (نادر) . والسَّرَر (*) : ما تقطعه القابلة من السُّرّة (ويكسر) . السُّرّة موضع السُّرّ الذي تقطعهُ القابلة وهو الوقبة في وسط البطن ج سُرَر ، وسُرّات .

(*) قلت ؛ هو ما يسمى بالحبل المُرّي :

ف Cordon ombilical ; tige funiculaire

ز Umbilical cord or funicle

قلت : لاحظت في شرح (ق) والمتن قولها (من الصبيّ) ولا شك عندي أن هذا عن ذهول فالصحيح أن يقال (من الولد) ليشمل الأنثى (الصبية) والصبي دون حصر في (الصبيّ) فالقابلة تقطع سرر الصبي والصبية (الولد ذكراً أو أنثى) [لأن الصبي : الطفل من لدن أن يولد إلى أن يفطم ، والذى لم يفطم بعد ، والمؤنث صبيّة ، انظر ما جاء في المتن مادة (ص ب ي) ج ٣ صفحة ٤٢٠] .

في (ل) . — ثقبة البطن في الجنين يمر منها الحبل السّرّي .

قلت : من مرادفات الافرنجيتين :

نقير ، سُرّة

ف Hile (m.)
ز Hilus ; hilum

(وهي ناحية منهبطة ، بوساطتها تنفذ العروق الدموية والمجاري الأخرى في أحد الأحشاء) .

ما أضفته :

١ً — سرة داخلية

ف Chalaze
ز Chalaza

٢ً — سرة الرئة (نقير الرئة)

ف Hile du poumon
ز Hilus of the lung

٣ً — سرة الطحال (نقير الطحال)

ف Hile de la rate
ز Hilus of the spleen

٤ً — سرة الكبد (نقير الكبد)

ف Hile du foie

ز Hilus, s. porta hepatis

٥ً — سرة الكلية (نقير الكلية)

ف Hile du rein

ز Hilus of the kidney

٦ً — استسرار

ف Ombilication

ز Umbilication ; navel - like depression

٧ً — استسرار الأسحم (حلمة الثدي)

ف Ombilication du mamelon

ز Retracted, inverted nipple

٨ً — استسرار الجلد (في السرطان)

ف Ombilication de la peau (dans le cancer)

ز Umbilication of skin (in cancer)

٩ً — أسَرّ

ف Ombiliqué

ز Umbilicate(d.) ; navel - shaped

١٠ً — سُرّي

ف ، ز Ombilical

١١ً — حَبْل سُرّي

ف Cordon ombilical

ز Umbilical cord

يرادفها : ساق سَرَّرِية

ف Tige funiculaire

ز Umbilical funicle

١٢ً — نقيري

ف Hilaire

ز Pertaining to the hilus

★ ★ ★

٢١٨) العانة

ف Pubis (m.); penil; mont de Venus

ز Pubic eminence; mons veneris

في الأصل . — ليس لها تعريف (إذ لم تأت مستقله) .

قلت : جاء ذكرها في معرض شرح الثّنّة فرأيت ذكرها في رقم خاص معها يقابلها في اللغتين والشرح اللازم ، لعلاقتها بالموضوع .

في (ق) . — العانة ، الأتان والقطيع من حُمُر الوحش . ج عون بالضم . وشعر الرَّكَب (والركب محركة العانة أو منبتها أو الفرج أو ظاهره . أو الرَكَبان أصلا الفخذين عليها لحم الفرج أو خاص بهن ج أركاب وأراكيب) .

في معجم المتن . — . . . ومنبت الشعر في قُبُل المرأة والرجل . ويقال للشعر هذا إسْب ، وشِعْرة [انظر الرقم — ٢ الشَّعر ومنه (١٧ً)] .

في لاروس ذي المجلدين . — برزة مثلثة الشكل في النهاية السفلى من البطن ؛ والقسم الأمامي من عظمَي الحرقفة .

ما أضفته :

آ) — الطِّبْق (*)

ف Pénil

ز Pubic eminence

(*) في (ق) : الطبق ، عظم رقيق يفصل بين كل فقارين ؛ وظهر فرج المرأة .

ب) — قُنَّةُ الزُّهَرَة (*) (جبل الزهرة)

ف Mont de Venus

ز Mons veneris

١ — عانيّ

ف Pubien

ز Pubic

٢ — عظم العانة

ف Os du pubis

ز Pubic bone

٣ — خزع العانة

ف Pubiotomie ; hébotomie ; hébostéotomie

ز Pubiotomy ; hebotomy ; hebosteotomy

٤ — قَمْل العانة (قُمَّل)

ف Morpion ; pou du pubis

ز Pubic crab louse

★ ★ ★

٢١٩) الأعفاج (= المصارين)

ف Intestins (m.)

ز Intestine ; gut

في الأصل . — الأعفاج والمصارين ، الأمعاء .

في (ق) . — العفج محركةً ، ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة . ج أعفاج . . . والمصير كأمير ، المعاء ج أمْصِرة ومُصْران جج مصارين .

في متن اللغة . — العفج ج أعفاج وعِفَجَة ، المعى أو ما سفل منه . أو مكان الكَرِش لما لا كرش له ، وما ينتقل إليه الطعام بعد المعدة وهو من الإنسان كالمصارين لذوات الخُفّ والظلف التي تؤدي إليها الكرش ما دفعته .

(*) في (ق) : القُنَّة الجبل الصغير ، وقُلَّة الجبل .

قلت : لقد أطلق المؤلف الأعفاج (وهي جمع عفج) توسعاً على الأمعاء عامةً مع أن شرح (ق) و (المتن) فيه تخصيص ولذا فقد أطلقتْ لجنة المصطلحات الطبية كلمة العفج على ما كان يسمى قبلاً (اثنا عشر) لطوله قدر اثنتي عشرة أصبعاً ترجمة للكلمة اللاتينية (Duodenum) ومعناها (قدر اثنتي عشرة اصبعاً) المستعملة بالفرنسية لذلك القسم من الأمعاء الذي يلي المعدة وينصب فيه ما تجيء به قناة المشكلة والقناة الصفراوية من المفرزات الخاصة بكل من المعثكلة والصفراء .

أما الأمعاء وواحدها مِعىً كإلىً فهي (الرُّبَض = الأمعاء أو ما في البطن سوى القلب والرئة) .

في (ل) . — الأمعاء ، أحشاء بطنية تبدأ من لدن المعدة حتى الشرج . وبحسب قطرها جعلت قسمين : الأول) معى دقيق ، بطول ٦ — ٨ أمتار في الإنسان وهي على أجزاء : عفج ، وصائم ، ولفائفي . الثاني) معى غليظ ، بطول ١،٤٠ — ١،٧٠ متراً يلي المعى الدقيق وهو أيضاً على أجزاء : ممرغة أو أعور ، وقولون ، ومستقيم .

وفيما يلي ما يقابل كل هذه المصطلحات العربية ، باللغتين الفرنسية والانكليزية معها أضفته ، زيادةً .

ما أضفته ، على وجه خاص ، في المضغة :

١ً — معى ابتدائي = مُعَيْدة

ف Intestin primitif ; gastrula

ز Primitive gut ; gastrula

أقسام المعيدة :

آ) جوف فوهي

ف Cavité gastruléenne ; archenteron

ز Archenteron ; cœlenteron

ب) سدادة مُحّينيَّة

ف Bouchon vitellin

ز Ecker's plug

ج) مَنْتِج الجرثومة ، فم ابتدائي

ف Blastopore ; bouche primitive

ز Blastopore ; protostoma

د — عُقْدة هَنْسِين

ف Nœud de Hensen

ز Hensen's knot

٢ً — معى أمام الفم

ف Intestin préoral

ز Fore - gut ; head - gut

٣ً — معى خَلْفي

ف Intestin postérieur

ز Hind - gut

٤ً — معى متوسط

ف Intestin moyen

ز Midgut

وعلى وجه عام ، أضفت :

١ً) معى دقيق

ف Intestin grêle

ز Small intestine

٢ً) معى غليظ

ف Intestin (gros)

ز Large intestine

٣ً) عفَج (= اثنا عشر)

ف Duodénum
ز Duodenum ; dodecadactylon

٤ً) صائم

ف ، ز Jejunum

٥ً) لفائفي

ف Iléon
ز Ileum

٦ً) مِمْرَغة = أعْوَر

ف Cœcum
ز Cœcum ; blind - gut ; cecum

٧ً) قُولُون

ف Côlon
ز (Intestinum) colon

٨ً) مستقيم

ف ، ز Rectum

وأقسام القولون :

آ — قولون صاعد

ف Côlon ascendant
ز Ascending colon

ب — قولون نازل

ف Côlon descendant
ز Descending colon

ج – قولون حُرْقُفي حوضي

ف Côlon ilio - pelvien

ز Sigmoid colon

د – قولون معترض

ف Côlon transverse

ز Transverse colon

٩ً) مِعَوي

ف Intestinal ; entérique

ز Intestinal ; enteric

★ ★ ★

٢٢٠) المَعِدة

ف Estomac (m.)

ز Stomach

في الأصل . – موضع الطعام للإنسان .

في (ق) . – المعدة ككلمة ، وبالكسر ، موضع الطعام قبل انحداره إلى الأمعاء، وهو لنا ، بمنزلة الكرش للأظلاف . ج مِعَدَة ومِعَد كعنب .

في (ل) ولاروس ذي المجلدين . – المعدة ، قسم من الأنبوب الهضمي وهي جيب واسع منتبر (منتفخ) تحت الحاجز بين المريء والمفج . تجتمع فيه الأطعمة وتتكتل بعد الانهضام . شكلها يحاكي المزمار ذي القِرْبة (*) . يوصف لها وجهان : أمامي ، وخلفي (أي حافتين) . أحد الوجهين في الأيمن والأعلى ويسمى (انحناء صغير) ، والآخر في الأيسر والأسفل ويسمى (انحناء كبير) . الفتحة العليا التي تصل المعدة بالمريء ، هي (سُدفة المعدة) ؛ والفتحة السفلى التي تتصل بالمفج هي (بواب المعدة) . تتألف المعدة من

(*) Cornemuse

أربع طبقات (مصلية ، عضلية ، خلوية ، مخاطية) . الطبقة المخاطية منهن مؤلّفة من انثنا آت عديدة جداً تحتوي على غُدد تفرز الخميرة (هضمين(*)) ، والمخاطية (**) ، والمصارة المعدية .

في المعدة تمتزج الأطعمة وتتعرك عدة ساعات حتى تصبح كحَريرةٍ مَثُول (***) فتُدفع إلى الأمعـــاء . [المصارة المعدية تخثر الحليب ، وتُحَلْمِه (****) (= تحلل) الهيوليات] .

أهم ما أضفت :

١ً — انحناء صغير

ف	Petite courbure
ز	Lesser curvature

٢ً — انحناء كبير

ف	Grande courbure
ز	Greater curvature

٣ً — بَوّاب (المعدة)

ف	Pylore
ز	Pylorus

٤ً — جسم (المعدة)

ف	Corps
ز	Body

(*) Pepsine

(**) Mucus

(***) Assimilabale

(****) حلْمهة Hydrolyse

٥ً ـــ حَدَبة كبيرة (قَعْر)

ف Grosse tubérosité ; fond ; fundus

ز Fundus

٦ً ـــ حُدَيْبة (غار البواب)

ف Petite tubérosité ; antre du pylore

ز Pyloric antrum

٧ً ـــ سُدفة

ف Cardia

ز Cardia ; œsophageal orifice

وعن نسج المعدة ، أضفت :

٨ً ـــ خلايا محيطة ، ظاهرة الشكل

ف Cellules bordantes , délomorphes

ز Border , delomorphous cells

٩ً ـــ خلايا رئيسة ، مركزية ، غير ظاهرة الشكل

ف Cellules principales , adélomorphes

ز Principal , adelomorphous cells

وعلى وجه عام ، أضفت :

١) معدة حَجْناء (أشعة)

ف Estomac crochet (rad.)

ز Fish - hook , hook shaped

٢) معدة كالساعة الرملية (أشعة)

ف Estomac biloculaire , en sablier

ز Bilocular , hour - glass stomach

٣) معدة متمدِّدة

ف Estomac dilaté
ز Dilated stomach

٤) معدة هابطة

ف Estomac ptosique
ز Ptotic stomach ; dropped stomach

٥) مَعِدي

ف Stomacal ; gastrique
ز Stomacal ; gastric ; gastro -

٦) مَعِدي ثَرْبي

ف Gastro - épiploïque
ز Gastro - epiploic

٧) معدي عفَجي

ف ، ز Gastro - duodénal

٨) مَعِدي مِعَوي

ف ، ز Gastro - intestinal

٩) مَعِدِيّات ، مَهْضِمات ، هاضومات

ف Stomachiques ; stomacaux
ز Stomachics

١٠) تشنج المعدة

ف Gastrospasme
ز Gastropasme ; cramp ; spasm in the stomach

١١) تنظير المعدة

ف Gastroscopie
ز Gastroscopy

١٢) منظار المعدة

ف ، ز Gastroscope

١٣) هُبُوط المعدة

ف Gastroptose

ز Castroptosis

★ ★ ★

٢٢١) المَثانة

ف Vessie (f.)

ز Urinary bladder

في الأصل . — مجتمع البول .

في (ق) . — موضع الولد ، أو موضع البول . (قلت : ما أعجب هذا ، من تناقض) !

في (ل) ولاروس ذي المجلدين . — المثانة كيس غشائي يجتمع فيه البول آتياً عن طريق الحالبين . توجد في القسم الأمامي العلوي من جوفِ الحوضة وأمام المستقيم في الرجل ، وأمام الرحم في المرأة . شكلها فارغةً ، شكل مثلث . من الخلف يتصل بها (الحالبان)(١) ومن الأمام والأسفل تنفتح إلى (الإحليل)(٢) بقسم دقيق هو (العنق)(٣) الذي تحيط به المُوثة(٤) (بروستات) في الرجل .

١) Urétère
٢) Urètre
٣) Col
٤) Prostate

ما أضفته :

١ً — مثانة مَخْرومة كالعُمُد

ف Vessie en colonnes ou columnaire

ز Fasciculated , trabeculated bladder

٢ً — مثانة مستثارة

ف Vessie irritable
ز Irritable bladder

٣ً — مثاني

ف Cystique , vésical
ز Cystic , vesical

٤ً — التهاب المثانة

ف Cystite
ز Cystitis

٥ً — خَزْع المثانة ؛ نَحْت

ف Cystotomie ; taille ; lithotomie
ز Cystotomy ; lithotomy

٦ً — منظار المثانة

ف ، ز Cystoscope

وعلى وجه عام :

آ) إحليل

ف Urètre
ز Urethra

ب) مَوْثة

ف Prostate
ز Prostate , prostata

ج) مَوْثي

ف Prostatique
ز Prostatic

د) التهاب المَوْثة

ف Prostatite
ز Prostatitis

هـ) خَرْت المَوْثة

ف Forage
ز « Forage » of prostata

★ ★ ★

٢٢٢) المَطَا

ف Dos (m.)
ز Back; dorsum

في الأصل . — المطا ، الظهر .

في (ق) . — مطا : جدّ في السير وأسرع وأكَلَ الرُّطَب من الكِباسة . وتمطى النهار وغيره امتد وطال . والمطَى : التَّمَطّي والظهر ج أمطاء .... والظَّهر خلاف البطن .

في معجم متن اللغة . — مطا مَطْواً .... وأكل الرُّطب من المَطْو وهي الكِباسة (*) . والمطا ، الظهر أو حبل المتن من عصب أو عقب أو لحم ج أمطاء .

في (ل) . — الظهر ، في الفقريات : الجزء الخلفي في الجسم من لدن الكتفين حتى الحوضة .

(*) قلت : الكِباسة بالكسر هي العِذْق .

ما أضفته :

١ً — ظهر السَّرج التُّركي

ف Dos de la selle turcique
ز Dorsum sellæ

٢ً — ظهر مدوَّر

ف Dos rond
ز Round back

٣ً — ظَهْري

ف Dorsal
ز Dorsal ; posterium

٤ً — سُهام ظهري تشنجي

ف Tabès dorsal spasmodique
ز Spasmodic tabes

★ ★ ★

٢٢٣) الصُّلْب

ف Colonne vertébrale
ز Vertebral column

في الأصل . — الصلب ، هو عَظْمٌ في وسط الظهر وهي ٢٤ فقرة .

في (ق) . — الصلب بالضم وبالتحريك عظمٌ من لدن الكاهل إلى العجب كالصالب . ج أصْلُب وأصلاب وصِلَبَة .

قلت : هذا التعريف ينطبق على (العمود الفِقَري) فوضعت ما يقابله بالافرنجيتين (في الرقم ٢٢٣ هذا) .

في (ل) ٠ — العمود الفقاري ، ساق عظمية تمتد من لدن قاعدة الجمجمة حتى مبدأ الفخذين في الحيوانات الفقرية . أما في الإنسان فيتألف العمود الفقري من تراكب ٣٣ فقرة وهو ذو أربع انحناآت (٧ فقرات عنقية (١) ـ ١٢ فقرة ظهرية (٢) ـ ٥ فقراتَ قَطَنية (٣) ـ فالعَجُز (٤) ـ فالعُصْعُص (٥) .

١) Vert . cervricales　　٢) Vert . dorsales
٣) Vert . lombaires　　٤) Sacrum
٥) Coccyx

هـذا وبالفرنسية يرادف العمود الفقاري كلمة Rachis أي السيساء . وكلمة Échine الشوك الظهري . و Épine dorsale السّنسنة . وفيما يلي (في الرقم ٢٢٤ — الفقرة) ذكر بعض أقسام الفقرة وما يقابلها .



(يتبع)　　الدكتور صلاح الدين الكواكبي

صفحات من تاريخ الاستشراق

- ٦ -

(ويليام موير) :

كان السير (ويليام موير William Muir) [١٨١٩ — ١٩٠٥] من كبار الموظفين الإنكليز في الهند . وقد نشر اعتباراً من سنة ١٨٥٣ سلسلة من المقالات في (مجلة كلكوتا Calcutta Review) ، جمعها آخر الأمر في كتاب ضخم من أربع مجلدات بعنوان (حياة محمد)(١) .

والكتاب في فصوله المتعلقة بالحوادث التاريخية لايتضمن شيئاً جديداً ، ولذلك كان من الأفضل اختصاره . وأكثرُ المعلومات في المجلد الأول الذي يبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام مقتبس من كتاب (دو برسفال) .

إلا أن هناك بعض الفصول على جانب كبير من الأهمية مثل : الفصل الأول من المقدمة الذي يبحث في مصادر السيرة ودرجاتها المختلفة من الصحة ثم الفصل الثالث من السيرة الذي يتكلم فيه على « إيمان محمد بإلهامه » ثم الفصل السابع عن علاقة الإسلام بالمسيحية ، والفصل السابع والثلاثين عن « شخصية الرسول وأخلاقه » . .

(١) William Muir. Life of Mahomet , London 1858 — 1861.

إن طريقة العرض واضحة ، رزينة ، ولكنها تنم عن تعصب ديـــني متطرف ، يبعد المؤلف عن الروح العلمية والنظرة الموضوعيـــة في كثير من أحكامه ...

(شبرنجر) :

كذلك نلاحظ سعة الإطلاع وقوة النقد مع التحيز والتهجم في كتاب المستشرق النمساوي (ألويس شبرنجر Alois Sprenger) [١٨١٣ – ١٨٩٣] عن « حياة محمد وتعاليمه » (١) .

كان (شبرنجر) طبيباً ، رحل إلى لندن ودخل في خدمة الإنكليز الذين أرسلوه إلى الهند وعهدوا إليه بادارة مدرسة (دلهي) ومطبعة (كلكوتا) .

ثم انتقل إلى ألمانيا ، وتولى تدريس العربية في برلين ، وانقطـع بعد ذلك إلى التأليف .

يبدأ (شبرنجر) دراسته باستعراض النظريات المختلفة التي أبداها قبـله المستشرقون في شخصية الرسول (ﷺ) . وهو يقول : « إن الباحثين في ألمانيا قد جردوا كلمة (نبي) من كل معنى ودلالة ، ثم ادعوا أن محمداً كان نبياً . » وقد اعتقد (موير) أن الرسول كان آلة في يد الشيطان بينما رأى فيه (قارلايل) شخصية خارقة للعادة وبطلاً فذاً . أما نتائج دراسات (شبرنجر) فقد أدت به إلى اليقين بأن الإسلام لم ينبثق عن إرادة رجل بل عن حاجات العصر . وإذا كان (قارلايل) قد تطوع ليقول كل شيء حسن عن الرسول فإن (شبرنجر) يريد اتباع الطريق المعاكس . إنه تطوع

(١) Alois Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammed, Berlin 1861.

للقيام بدور (محامي الشيطان) الذي يستنبط من مدائح أنصار الرسول الجوانب التي يراها مظلمة في شخصية الرسول ! كما أنه يلفت الأنظار في كل مناسبة إلى النقاط التي يعتقد أنها دليل على الضعف البشري .

ويجب الاعتراف بأن (شبرنجر) أتقن التمثيل في دور (محامي الشيطان) . وليس المسلمون وحدهم ، بل إن أكثر المستشرقين أيضاً لم يقبلوا حكم (شبرنجر) الذي أراد أن ينسب إلى الرسول (ﷺ) مرض الهستريا . وقد لاحظ المستشرق الهولاندي المشهور (سنوك هورغرونيه) أنه ليس هناك أي دليل أو شاهد يؤيد هذا التشخيص . وعدا ذلك فإن (شبرنجر) لايقدم لنا سوى كلمة مجردة ولا يفسر لنا شيئاً من شخصية الرسول وسر عظمته .

ولكن على الرغم من رفض الفكرة الأساسية في كتاب (شبرنجر) ورغم الإسهاب في مناقشة الموضوعات وكثرة الاستطرادات ، فإن المستشرقين عامة يعتبرونه من أهم الدراسات عن حياة الرسول لأنه اتخذ القرآن مصدراً أساسياً لهذه الدراسة ، واستشهد بما يقارب الثلثين من سور القرآن التي تولى (شبرنجر) ترجمتها بنفسه . يقول (ولهاوزن) « إن كتاب (شبرنجر) كنز ثمين من المعلومات والأفكار .. فإن المؤلف لم ينظر إلى الآداب العربية على أنها مجموعة من الشواهد لتوضيح قواعد النحو بل اهتم بمحتواها ، وما تضمنته من أفكار وتيارات .... » . ولا شك في أن (شبرنجر) قد تقدم خطوات هامة في دراسة المصادر عن حياة الرسول ، واستطاع أن يبرهن على أن الكتب العربية التي ألفت بعد القرن الخامس الهجري لا يمكن الاعتماد عليها لأنها منسوخة بصورة غير انتقادية عن المؤلفين السابقين الذين يجب الرجوع إليهم والأخذ عنهم مباشرة ...

(نولدكة) :

أما المستشرق الألماني (تيودور نولدكه Theodor Nœldeke) [١٨٣٦ — ١٩٣٠] فالآراء متفقة على أنه من أكبر المستشرقين وأوسعهم علماً ، وأكثرهم تحقيقاً ، وأقربهم إلى الإنصاف والعدل والحقيقة . وهو على الرغم من ميله الطبيعي إلى الآداب اليونانية قد دفعته الأقدار إلى الاستشراق ، كما أن جهوده في الدراسات الشرقية قد تمركزت حول المسائل اللغوية ، رغم أن اهتمامه كان متجهاً في الأصل إلى الناحية التاريخية .

وعلى كل حال فإن كتابه « تاريخ القرآن » قد أصبح دعامة لا يستغني عنها كل من يريد دراسة الإسلام وشخصية الرسول . وهو قد استند إلى هذه الدراسة في تأليف كتاب مختصر عن « حياة محمد » موجه إلى جمهور كبير . ونراه يشير في المقدمة إلى أن الدراسات التاريخية — الانتقادية التي بدأها أمثال (وايل) و (موير) و (شبرنجر) لم تبلغ مداها بعد . إلا أنه كانت هناك ، كما يقول ، حاجة إلى نظرة إجمالية تلخص نتائج البحوث العلمية الحديثة . ويصرح (نولدكه) بأنه قد استفاد من دراسات المستشرقين المتأخرين الذين مر ذكرهم ، ولكنه اعتمد أيضاً على بحوثه الذاتية . وهو يخالف (شبرنجر) في أحكامه وينتقد اندفاعه وطريقته الشخصية ؛ وفي الحقيقة يمتاز كتاب (نولدكه) بالنظرة الموضوعية . وقد اعتقد المؤلف أنه ، لأجل إصدار حكم عادل على محمد (ﷺ) ، لا يكفي أن نستعرض حياته كنبي وواعظ وحاكم ، بل ينبغي أن ننظر أيضاً إلى سلوكه مع أتباعه وأصدقائه وفي شؤونه اليومية . فإن صفاته التي نعرفها بالتأكيد تكشف عن سمو الخلق وكرم النفس . أما أخطاؤه فإنها ترجع ، في رأي (نولدكه) ،

إلى عادات عصره وطبائع شعبه . وينتهي (نولدكه) إلى القول « بأن ليس هناك أدنى شك في أن محمداً كان مؤمناً برسالته التي تتلخص في هداية قومه إلى العقيدة الصحيحة ، وإنقاذهم من العقاب الأبدي ...

نظرية (جريمي) في رسالة محمد ﷺ :

مضت فترة طويلة بعد مؤلفات (وايل) و (موير) و (شبرنجر) و (نولدكه) قبل أن يظهر كتاب جديد عن الرسول ، له قيمة خاصة ، يتصف بالاستقلال في الرأي ويكشف عن نواح غير معروفة ، ونقصد بذلك كتاب « محمد » [1] للمستشرق الألماني (هوبرت جريمي Hubert Grimme) الذي يتضمن المجلد الأول منه حياة الرسول ، والمجلد الثاني المدخل إلى القرآن .

إن المصادر التي يستند إليها (جريمي) قد سبق نشرها جميعاً ، ولكنه يتبع طريقة جديدة في استخدامها تختلف عن المؤلفين الذين سبقوه . فهو ، قبل كل شيء ، يلتزم الحذر الشديد تجاه روايات رجال الحديث والسيرة ، ويقول : « رغم الاعتراف بأن مجموعات الحديث القديمة تشتمل على كثير من الأخبار الصحيحة إلا أنه من المؤكد أيضاً أن التزوير المقصود قد شاع في هذا الموضوع أكثر من غيره ، ولم يتوصل الباحثون بعد إلى وسيلة مضمونة للتمييز بين الصحيح والمزيف . ثم إن مجموعات الحديث تعبر ، في نظر (جريمي) ، عن الروح التي كانت سائدة في المدينة ، ولكنها لا تعطينا صورة دقيقة عن الحالة في مكة . إنما لدينا ، لحسن الحظ ، مصدر غني تتدفق منه الحقائق التاريخية هو القرآن . وقد سعى (جريمي) إلى الاستفادة من هذا النبع إلى أقصى حد ممكن . والصعوبة الكبيرة هنا إنما ترجع

(١) Hubert Grimme : Mohammed . Muenster 1892 — 1895.

إلى الاختلاف في تحديد الوقت الذي نزلت فيه بعض الآيات . لذلك حاول (جريمي) أن يعالج هذا الموضوع في الجزء الثاني من كتابه .

على أن الطرافة في كتاب (جريمي) هي دعواه بأن محمداً (ﷺ) لم يكن ، في بادئ الأمر ، يبشر بدين جديد ، بل إنما كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية . يقول (جريمي) : « إن الإسلام ، في صورته الأولى الأصلية ، لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه . ذلك لأننا ، إذا نظرنا إليه عن كثب ، نراه لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية ، بل إنما كمحاولة للإصلاح الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة ، وعلى الأخص إلى إزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين .... لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين . وهو إنما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخـــر كوسيلة للضغط المعنوي وتأييد دعوته ... »

ويعترف (جريمي) بأن فكرة الإصلاح الاجتماعي — الاشتراكي قد اصطدمت بعقبات لا يمكن اجتيازها ، وتحطمت على صخرة العصبية القبلية والمصالح الطبقية ، وتطورت الدعوة الإسلامية فانقلبت إلى ديانة ذات أهداف ما وراء الطبيعة .

وقد رد المستشرق الهولاندي (سنوك هورجرونيه) على هذه النظرية في بحث طويل نشره في « مجلة تاريخ الأديان » (المجلد ٣٠ لسنة ١٨٩٤) ، وبيَّن أن الفكرة الأساسية في الدعوة المحمدية هي فكرة يوم الحساب . أمَّا الحض على الإحسان ومساعدة المحتاجين فتلك فضيلة شائعة في الشرق ، ويتفق فيها الإسلام مع اليهودية والمسيحية ، ولا يجوز أن نبني عليها فرضية كالتي وضعها (جريمي) والتي تجعل من الرسول داعية اشتراكياً ...

موقف الاستشراق من سيرة الرسول في العصر الحاضر :

تابع المستشرقون في أوائل القرن العشرين نشر المصادر العربية عن تاريخ العرب والإسلام ، وتوسعوا في دراسة هذه المصادر ونقدها . فقد تم في سنة ١٨٩٨ طبع تاريخ الطبري في (١٣) مجلداً ، وهو يجمع معظم الروايات القديمة عن حياة الرسول . وكان من أهم المصادر القديمة التي نشرت أيضاً كتاب « الطبقات الكبير » لابن سعد . وقد عهد المجمع العلمي في (بروسيا) بتحقيق الكتاب إلى لجنة من كبار المستشرقين تحت إشراف الأستاذ (أدوار ساخاو Eduard Sachau) فصدر في (١٥) مجلداً في (ليدن) بين سنة ١٩٠٤ و ١٩٢٨ . والمجلد الأول يروي سيرة الرسول في مكة ، والمجلد الثاني أخباره في المدينة ، والمجلد الثالث يصف غزواته ، بينما تشتمل المجلدات الأخرى تراجم أحوال الصحابة والتابعين .

وقد نشر المستشرق الطلياني الأمير (ليون قايتاني Leone Caetani) بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩٢٦ عشر مجلدات من مؤلفه الضخم (حوليات الإسلام Annali dell' Islam) الذي جمع فيه كل الأخبار والروايات عن الحوادث التاريخية منذ الهجرة مرتبة حسب الزمن سنة بعد أخرى ، وقد اشتملت المجلدات العشر على حوادث الفترة من السنة الأولى إلى السنة الأربعين للهجرة . وتولى (قايتاني) مناقشة كل الروايات ونقدها والتعليق عليها ...

ولكن على الرغم من كثرة المصادر وتراكم الوثائق لا يمكن القول بأنه قد ظهرت مؤلفات جديدة للمستشرقين ترسم شخصية الرسول (ﷺ) بصورة واضحة ، وتكشف عن سر عظمته وحقيقة تعاليمه وأهميتها في تاريخ البشرية . وقد ازداد الموضوع تشعباً واتسع نطاقه بعد أن صار المستشرقون لا يكتفون بالبحث في سيرة الرسول كما كانت في الواقع ، بل يحاولون أيضاً

معرفة الصورة التي تكونت عنه لدى المسلمين ، وكيف تطورت هذه الصورة مع تعاقب العصور . ولعل وفرة المواد هي التي أدت إلى تشتت الدراسات ، وتوقف الباحثين عند بعض المسائل الجزئية . أضف إلى ذلك أن بعض الباحثين في هذا العصر لم يستطيعوا التجرد عن التعصب الديني ، فأخذوا يثيرون الشكوك ويشوهون الحقائق .

يتجلى لنا ذلك في كتاب المستشرق الانكليزي (مارجليوث D. S. Margoliouth) عن « محمد وقيام الإسلام »[١] . وقد استفاد المؤلف من عدة مصادر جديدة لم يستخدمها الذين سبقوه ، وأظهر مهارة في الوصف ، ولكنه اندفع مع أهوائه ! ونسب إلى الرسول (ﷺ) الخداع والتضليل . كذلك نلاحظ تأثير التعصب الديني عند الأمير (قايتاني) الذي يبالغ في نقد الروايات الإسلامية ، ويتحامل في حكمه على الرسول في كتابه « دراسات عن التاريخ الشرقي Studi di storia orientale » الذي خصص المجلد الثالث منه لترجمة « حياة محمد الرسول ورجل الدولة » .

وليس غريباً أن يلجأ مبشر يسوعي مثل الأب (هنري لامنس) إلى تحريف النصوص وتشويهها والتلاعب بالعبارات للطعن في العرب والمسلمين ، فهو لم يقصد الكشف عن الحقيقة بل الدس والتضليل والتشنيع في جميع مؤلفاته التي يحوم بعضها حول سيرة الرسول ، مثل مقاله عن (عمر محمد) في المجلة الآسيوية سنة ١٩١١ حيث يرجع تاريخ ولادة الرسول إلى سنة ٥٨٠ خلافاً لجميع الآراء التي تتفق على أن ذلك كان حوالي سنة (٥٧٠) ؛ ومثل كتابه « فاطمة وبنات الرسول »[٢] الذي حاول فيه أن يرسم صورة مشوهة عن فاطمة الزهراء دون أي مستند تاريخي موثوق ؛ ثم كتبه الأخرى عن (مكة) و (الطائف) و (مهد الإسلام) وغيرها .

---

(١) D. S. Margoliouth, Mohammed and the Rise of Islam . London 1905

(٢) Henri Lammens : Fatima et les Filles de Mahomet. Rome 1912

وأكثر المستشرقين ، رغم إعجابهم بكثرة معلومات (لامنس) وسعة اطلاعه وطلاوة أسلوبه لم يستطيعوا إلا انتقاده وفضح مغالطاته ، والتحذير من الاعتماد عليه .

يمتدح جمهور المستشرقين كتاب « حياة محمد »[١] للمستشرق الدانماركي (فرانتس بول Frants Buhl) الذي صدر في (قوبنهاجن) سنة ١٩٠٣ ثم ترجم إلى الألمانية في سنة ١٩٣٠ بعد تنقيحه وتوسيعه بالاتفاق بين المؤلف والمترجم المستشرق المعروف (شيدر H. H. Schaeder) والكتاب يتحاشى الفرضيات البراقة ، ويمتاز بالدقة في دراسة كل التفصيلات ، ويقتصر على الأخبار الموثوقة ، ويعترف بوجود ثغرات في معلوماتنا . وقد رجع المؤلف إلى جميع المصادر المعروفة ، فدرسها دراسة انتقادية ، مستقلة ، وأضاف إليها قصائد الشعراء المعاصرين للرسول التي أهملها الكتّاب الذين سبقوه .

ومع الاعتراف بأن المؤلف قد حاول التزام الحياد والتمسك بالنظرة الموضوعية المجردة ، فإنه لم يتحرر من الأحكام السابقة المادية بالنسبة إلى شخصية الرسول وصفاته الأخلاقية .

ولعل المؤلف الوحيد بين الباحثين الحديثين الذي بذل جهوداً صادقة لفهم شخصية محمد (ﷺ) وإدراك حقيقة رسالته هو المستشرق السويدي (تور آندريه Tor Andrae) .

نشر (تور آندريه) في سنة ١٩١٨ كتابه عن « شخصية محمد في تعاليم جماعته وعقيدتهم »[٢] الذي استطاع أن يصف لنا فيه شخصية الرسول

---

(٢) Frants Buhl, Das Leben Muhammeds. Leipzig 1930

(٢) Tor Andrae, Die Person Muhammeds in Lehre und Glauben seiner Gemeinde. Stockholm 1918

كما تصورها المسلمون في مختلف العصور ، وأن يستعرض ما نشأ لديهم من أساطير حوله ، وأن يشرح آراء المتكلمين والمتصوفين في معجزات الرسول وعصمته وتمجيده .

ثم أصدر (تور آندريه) في سنة ١٩٣٠ كتاباً ثانياً عن « محمد : حياته وعقيدته » تُرجم إلى الألمانية والانكليزية والطليانية والفرنسية. وهذا الكتاب صغير الحجم لا يتجاوز (١٥٠) صفحة ولكنه يمتاز بالطرافة والاستقلال في الرأي والرزانة في الأسلوب ، والمؤلف لا يريد التوسع في ذكر الحوادث المعروفة ، ومناقشة الروايات المختلفة ، كما اعتاد غيره من المستشرقين ، ولكنه يسعى إلى إيضاح مفهوم الوحي عند الرسول وشرح مضمون الرسالة التي كان يبشر بها ، والبرهان على صدق عقيدته ، ووصف ما كان يتحلى به من مكارم الأخلاق كالإخلاص والتواضع والبساطة والوداعة والتقى .

ومثال (تور آندريه) يثبت لنا أن إخلاص المسيحي لعقيدته الدينية ، لا يمنعه من أن يحاول النفوذ إلى روح ديانة أخرى ، وأن يقوم بالمقارنة بين مختلف العقائد في سبيل إدراك جوهر الفكرة الدينية .

وأخيراً نستطيع القول بأن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد (ﷺ) بسبب تعصبهم الديني . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فشلهم في فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم في النظرة التاريخية . فقد انصرفت جهود الباحثين منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى هذه الأيام إلى الكشف عن المنابع والأصول التي اقتبست منها الديانة الإسلامية . ألم يبلغ الأمر ببعض المستشرقين إلى محاولة إرجاع كل شيء في القرآن ـ سواء أكان فكرة دينية أو حكمة أخلاقية أو نصاً قانونياً ،

أو قصة أدبية – إلى نموذج قديم في كتب اليهود أو المسيحيين أو الفرس أو في تقاليد العرب الجاهليين ؟ وقد عارض (تور آندريه) هذه الطريقة في البحث ، وأشار إلى أن جوهر النبوة لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية . ومهمة الباحث ، في رأيه ، هي أن يدرك كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة ، أصيلة تنبض بالحياة . فالإسلام لا ينكر صلاته بالديانة اليهودية والمسيحية وعقائد الحنيفية ، وتقاليد العرب القدماء ، ولكن ذلك لا يعني أنه مجرد مجموعة من هذه العناصر ...

الدكتور محمد كامل عياد

فوات الوفيات في طبعته الجديدة

(الجزء الثاني)

— ٥ —

٣٨ — وجاء في الصفحة ٣٩٣ « محمد بن الحسن بن عبد الله بن الشبلي أبو علي الشاعر الحكيم البغدادي » . صوابه « ابن الشبل » لا ابن الشبلي » ، بذلك اشتُهر وفي الكتب ذُكر ، فمن الكتب التي ذكرته المتداولة المطبوعة معجم الأدباء لياقوت وقد سماه الحسين قال : « الحسين بن عبد الله بن يوسف ابن أحمد بن شبل أبو علي البغدادي ، ولد في بغداد وبها نشأ وبها توفي سنة ٤٧٤ كان متميزاً بالحكمة والفلسفة .... (١) » . وتاريخ أبي الفرج ابن الجوزي الكبير قال في وفيات سنة ٤٧٣ : « محمد بن الحسين بن عبد الله ابن أحمد بن يوسف ابن الشبل أبو علي ، من أهل شارع دار الرقيق ، سمع الحديث (٢) ... » . وعز الدين بن الأثير في تاريخه الكامل في وفيات سنة ٤٧٣ قال : « وفيها توفي أبو على بن شبل الشاعر المشهور ومن شعره في الزهد ... » وذكر له أبياتاً . وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ، قال مؤلفه : « ابن الشبل البغدادي هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن يوسف ، مولده ومنشؤه ببغداد وكان حكيماً فيلسوفاً ومتكلماً فاضلاً .. (٣) » . ودمية

---

(١) معجم الأدباء « ٤ : ٣٨ » طبعة مرغوليوث .

(٢) المنتظم « ٨ : ٣٢٨ » .

(٣) ج ١ ص ٢٤٧ طبعة مل « امرىء القيس بن الطحان » .

القصر وعصرة أهل العصر قال الباخرزي مؤلفها : « أبو علي بن شبل البغدادي ، رأيته ببغداد فوجدته وقد شدّ على الأدب الجزل أزرار ثيابه وجمع أقسام الفضل ملء إهابه ... [١] » . والنجوم الزاهرة ، قال ابن تغري بردي في وفيات سنة ٤٧٣ ، « وفيها توفي محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن يوسف ابن الشبلي (كذا) أبو علي الشاعر البغدادي ، كان شاعراً مجيداً [٢] ... » . وقد وقع فيه الوهم الذي وقع في فوات الوفيات ، وذكره قبله الصفدي في تاريخه للرجال قال : « محمد بن الحسين ابن عبد الله بن أحمد بن يوسف ابن الشبل أبو علي الشاعر الحكيم البغدادي ، توفي في المحرم سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة [٣] ... » .

٣٩ — وجاء في الصفحة ٤٠٠ في ترجمة أبي اليمن محمد بن الخضر بن أبي المهزول التنوخي المعروف بالسابق « دخل بغداد وجالس ابن باقيا والأبيوردي والخطيب التبريزي » ، وصوابه « ابن ناقيا » بالنون ، وقد مرّ الشيخ بضبطه إلا أنه لم يضبطه بالحفظ ، قال ابن خلكان في ترجمته : « وناقيا بفتح النون وبعد الألف قاف مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها مفتوحة وبعدها ألف [٤] .

٤٠ — وورد في الصفحة ٤٠٢ « محمد بن خليفة بن حسين أبو عبد الله النميري العراقي الشاعر المعروف بالسنبستي ، أصله من هيت ، أقام بالحلة عند سيف الدولة صدقة بن مزيد ... » . قلت : الذي علمناه وحفظناه « السِّنْبِسيّ » على وزن « الزِّبْرِجيْ » . قال الصفدي : « محمد بن خليفة ابن حسين أبو عبد الله النُميريّ العراقي الشاعر المعروف بالسِّنبِسيّ (اسم

---

(١) دمية القصر « ص ٨٣ طبعة المطبعة العلمية بحلب » .
(٢) النجوم الزاهرة « ٥ : ١١١ » .
(٣) الوافي بالوفيات « ٣ : ١١ » .
(٤) وفيات الأعيان « ١ : ٢٨٨ طبعة إيران » قلت ذلك لأنه أعاد طبع الوفيات قبل فوات الوفيات وأحال عليه في الحواشي مرّات .

أمه سنبسة) أصله من هيت أقام بالحِلَّة [١] عند سيف الدولة . . . » . وهو شاعر مشهور ، ترجم له العماد الاصفهاني الكاتب في الخريدة وابن الفوطيّ في تلخيص معجم الألقاب في الملقبين بالقائد [٢] ، واستطرد إلى ذكره ابن الأثير في تاريخه الكامل وياقوت في معجم البلدان غير مرّة . وترجم له القفطي في كتابه « المحمدون » من الشعراء .

كانت دمُوعي حُمراً قبل بينهم   فمذ نأوا قصرتها اوعة الحرق

و « حمراً » جمع أحمر هنا وهي منصوبة بكونها خبر كانت ، ولكن الشيخ الفاضل ضبطها « حَمرا » بالفتح والقصر ، والصواب ما ذكرنا لأنه القاعدة العربيّة المطردة ، قال تعالى في سورة طـٰه : « يوم يُنفخ في الصُّور ونحشر المجرمين يومئذ زُرقاً » . فهذا للعاقل ، وقال تعالى في سورة الكهف : « ويلبسون ثياباً خُضراً من سُندس واستبرق » . وهذا لغير العاقل كالدموع .

٤٢ — وجاء في الصفحة ٤٤٤ « محمد بن عبد الرحمن بن عمر الباجريقي الجزري » وجاء في الحاشية من تعليق الشيخ « الباجريقي » نقلاً من الشذرات « ٦ : ٦٤ » كما قال الشيخ الفاضل في تعليقة [٣] ، وفي الصفحة ٤٤٥ « فطلب الباجريقي » . والذي علمناه وحفظناه « الباجُربَقي » بالباء بعد الراء نسبة إلى « باجُربَق » [٤] ، قال الصفدي : « محمد بن عبد الرحيم بن عُمر الباجُربَقي الجزري الشيخ الزاهد محمد ابن المفتي الكبير جمال الدين الشافعيّ [٥] ... » .

---

(١) كذا ورد في الوافي بالوفيات « ٣ : ٤٨ » طبعة س . ديدرينغ المستشرق والصواب « الحلة » كما في فوات الوفيات .

(٢) تلخيص مجمع الآداب « ج ٤ القسم٢ ص٥٦٥ نشروزارةالثقافةوالإرشادالسوريةبتحقيقي » .

(٣) الذي في الشذرات « الباجربقي » لا الباجريقي .

(٤) قال ياقوت : « باجُربق بضم الجيم وسكون الراء وفتح الباء الموحدة وقاف : قرية من قرى بين النهرين : كورة بين البقعاء ونصيبين » .

(٥) الوافي بالوفيات « ٣ : ٢٤٩ » .

وقال ابن حجر العسقلاني : « محمد بن عبد الرحيم بن عمير الجزري جمال الدين [١] الباجُربقي . . . » [٢] .

٤٣ — وجاء في الصفحة ٤٤٦ « محمد بن عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني العدل شمس الدين المحدث » . والذي علمناه وحفظناه « ابن عبد الرازق » بتقديم الألف على الراء ، قال الذهبي في وفيات سنة (٦٩٠) من العبر : « وابن المحدث ، العدلُ شمس الدين محمد بن عبد الرازق بن رزق الله الرسعني الحنبلي نزيل دمشق . . . [٣] » . وقد وهم الصفدي قبل ابن شاكر الكتبي وذكره باسم « عبد الرزاق » قال : « محمد بن عبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر العدل العالم شمس الدين الرسعني [٤] » . وليس ذلك من الغلط الطبعي لأنه ذكره بين « محمد بن عبد الرزاق الساوي » و « محمد بن عبد الرشيد الاصبهاني » . فابن شاكر الكتبي نقل ترجمة الرجل من الوافي واحتمل عهدة الغلط ، ووقع في الغلط نفسه ابن العماد في وفيات سنة ٦٨٩ قال : « وفيها شمس الدين أبو الفضائل محمد بن عبد الرزاق الرسعني — نسبة إلى رأس عين بلد — الحنبلي [٥] . . . » . وكذلك ورد في ذيل طبقات الحنابلة المطبوع باعتناء الشيخ محمد حامد الفقي فقد جاء فيه « محمد بن عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني وقد سبق ذكر أبيه [٦] . . . » . ووقع الغلط في اسم أبيه هناك أيضاً [٧] .

---

(١) في نسخة « كمال الدين » .

(٢) الدرر الكامنة « ٣ : ١٢ » .

(٣) العبر في خبر من غَبَر « ٥ : ٣٦٤ » .

(٤) الوافي بالوفيات « ٣ : ٢٥١ » .

(٥) الشذرات « ٥ : ٤١٠ » .

(٦) ذيل طبقات الحنابلة « ٢ : ٣٢٤ طبعة مطبعة السنة المحمدية » .

(٧) المرجع المذكور « ص ٢٧٤ » .

٤٤ — وورد في الصفحة ٥٧ : في ترجمة تاج الدين ابن شقير الدمشقي « وكان تاج الدين يلقب بالهُدهد ، فأعطاه الملك الناصر ضيعة على نهر نورا ، فحسده جماعة ... » . ولم يُسائل الشيخ نفسه أين نهر نورا هـــذا ؟ فالصواب « نهر ثورا » قال ياقوت بالفتح والقصر اسم نهر عظيم بدمشق وقد وُصفَ في برَدَى وقد جاء في شعر بعضهم (ثورة) بالهاء وهو ضرورة » .

٤٥ - وورد في الصفحة ٥٨ : « محمد بن عبد المنعم بن محمد بن شهاب الدين الخيمي الأنصاري اليمني الأصل المصري الدار » . فعلّق الشيخ محقق الكتاب في الحاشية باسمه ما نصه « له ترجمة في شذرات الذهب لابن العماد وقال : « ابن الخيمي شهاب الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد ، فلعل كلمة بن الواقعة بين محمد وشهاب الدين زائدة في أصول الكتاب » . قلت : إنه لم يرجع إلى المرجع الأصلي لابن شاكر الكتبي وهو الوافي بالوفيات فقد جاء فيه « محمد بن عبد المنعم بن محمد شهاب الدين ابن الخيمي الأنصاري الأصل المصري الدار (١) ... » . فابن المذكورة زائدة بالتحقيق .

٤٦ — وجاء في ترجمة أبي سعد محمد بن علي ابن المطلب الكرماني الكاتب الشاعر « وكان كاتباً سديداً مليح الشعر إلا أنه كان قليله كثير الهجاء دقيق الفكر فيه ... » . والجملة مطردة التركيب واضحة المعنى إلا أن مقابلتها بالأصول التاريخية الأدبية تظهر تصحيفاً فيها ، ففي الوافي بالوفيات ٤ : ١٥٠ « وكان كاتباً سديداً مليح الشعر إلا أنه كان ثُلَـبَةً كثير الهجاء دقيق الفكر فيه » . ومن المعلوم أن القول المقبول للصفدي لأن كتابه مرجع ابن شاكر الكتبي ولولا وجود الوافي بالوفيات ما استطاع ابن شاكر أن يؤلف فوات الوفيات . ويؤيّد كلمة « ثلبة » ما ورد في معناها ومن

(١) الوافي بالوفيات « ٤ : ٥٠ » .

أصلها في كتب أخرى ، قال العماد الأصفهاني الكاتب : «وكان هجّاماً على الهجاء وثلب الكبراء»[1] .

٤٧ — وورد في الصفحة ٤٧٧ قول أبي سعد ابن المطلب المذكور :

فهــذا يدل على أنّ مَن تولّى ويعزل لا يعقــل

وفي الخريدة المذكورة «يُولّي ويعزل» وهو الصواب .

٤٨ — وجاء في الصفحة ٤٨٢ قول الشيخ محيي الدين ابن عربيّ :

حتى إذا صاح الغراب ببينهم فضح الفراق صبابة المحزونِ (؟)

وقد وضع الشيخ علامة الاستفهام في آخر البيت ، ولو علّق عليه أن فيه إقواءً لكان ذلك أحسن فالقافية مضمومة .

٤٩ — وجاء في الصفحة ٥٠٢ في ترجمة صدر الدين محمد بن عمر ابن المرحل ، ابن الوكيل «وعمل مجلدة في السؤال الذي حضر من عند استدمر نائب طرابلس» . هكذا ورد «استدمر» بالتاء والذي علمناه وحفظناه «أسندمر» بالنون . قال ابن تغري بردي في حوادث سنة ٦٩٤ : «ثم في يوم الخميس سابع عشر المحرم أمسك السلطان الأمير أسَنْدَمُر وقيَّده وحبسه بالقلعة[2]» . فقال محقق الكتاب في الحاشية : «هو أسندمر بن عبد الله الكُرجي سيف الدين ، توفي سنة ٧٢١ كما في الدرر الكامنة وفي هامشها والمنهل الصافي أنه توفي سنة ٧١١» ، وكرّرُوا أكثر هذه الحاشية عند تكرار اسمه في حوادث سنة ٦٩٨ وفي ذكره ما يدل على أنه كان إذ ذاك

---

(١) خريدة القصر «قسم العراق ١ : ١٨٣ نشر المجمع العلمي العراقي بتحقيق الأستاذ الأديب الشهير محمد بهجة الأثري» .

(٢) النجوم الزاهرة «٨ : ٦٢» .

نائب طرابلس [١] ثم كرَّر اسمه مرات في الكتاب ، وفي الذي ذكرناه مجزأة عن الإطالة .

٥٠ — وورد في الصفحة ٤٣١ في ترجمة محمـــد الأمين «ثمَّ جهَّز عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في أربعين ألف فارس» . والذي علمناه وحفظناه «الأبناوي» بتقديم الباء على النون نسبة إلى أبناء فارس الذين وُلدُوا في البلاد العربيَّة في الجاهليه أو الإسلام ، قال تاج الإسلام في «الأبناء» من الأنساب : «يقال في التعريف : فلان من الأبناء والنسبة إليه أبناويّ وكل من ولد باليمن من أبناء الفرس وليس من العرب يسمونه الأبناوي ، هكذا ذكره أبو حاتم بن حبان البستي ، وقال أبو علي الغساني : الأبناوي منسوب إلى الأبناء وهم قوم يكونون باليمن من ولد الفرس وجههم كسرى مع سيف بن ذي يزن إلى ملك الحبشة باليمن فغلبُوا الحبشة وأقامُوا باليمن ، فلولدهم يقال الأبناء ...» .

وقال ابن خلكان في ترجمة وهب بن منبه اليماني : «وهو معدود في جملة الأبناء ، ومعنى قولهم : فلان من الأبناء أن أبا مرَّة سيف بن ذي يزن الحميري صاحب اليمن لما استولت الحبشة على ملكه توجه إلى كسرى أنو شروان ملك الفرس يستنجده عليهم ... وخلاصة الأمر أنه سيَّر معه سبعة آلاف فارس من الفرس وجعل مقدمهم وهرز وهكذا قال ابن قتيبة» إلى أن قال : «والمقصود من كل هذا كله أنَّ جيش الفرس لما استوطن اليمن تأهلُوا ورزقُوا الأولاد فصار أولادهم وأولاد أولادهم يدعون (الأبناء) لأنهم من أبناء أولئك الفرس ...» .

قلت : الصواب ما ذكره السمعاني أولاً قال أحمد بن أبي طاهر عن المأمون أنه قال : «ما في الدنيا أشجع من عجم أهل خراسان ولا أشد شوكة

---

(١) المرجع المذكور «ص ١٥٨» .

ولا أثقل وطأة على عدو ... فقال القائد : ما في الدنيا قوم أشجع من أبناء خراسان المولدين ولا أفتك منهم ... وقال نصر بن شبث ... وأما الأبناء فلم أر مثلهم لا يكلّون ولا يملون ولا ينهزمون[١] ... » . فالصواب « الأبناوي » .

٥٠ — وورد في الصفحة ٥٧٦ « شمس الدين محمود الكوفي الحنفي الواعظ » وأورد له شعراً ، وقد وهم مؤلف فوات الوفيات في اسمه فان اسمه « محمد » لا محمود ، قال مؤلف الحوادث في وفيات سنة (٣٩٠) ه : « وفيها توفي شمس الدين محمد بن عبيد الله الهاشمي الكوفي الواعظ وكان أديباً فاضلاً عالماً شاعراً ، ولي التدريس بالمدرسة التُتُشيّة وخطب في جامع السلطان ووعظ في باب بدر وكان عمره نحو اثنتين وخمسين سنة وكان له شعر حسن[٢] ... » وأورد له شعراً ، وقد كان ذكرَه مرات ، وذكره ابن الفوطيّ في تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب مرّات كذلك ، وذكره غيرهما وهو في كل ذلك « محمد » لا محمود .

٥١ — وورد في الصفحة ٥٩١ « التاج الصرخدي رحمه الله تعالى » . ولم يذكر المحقق أسمه ولم يجد مرجعاً يرجع إليه في ذلك ، وهو على ما ذكره جمال الدين ابن الصابوني « الفقيه العلامة أبو الثناء محمود بن عابدين الحسن بن محمد بن علي التميمي الصرخدي الحنفي » قال : « أحد الفضلاء المتميزين والعلماء الصالحين ، جمع بين الفقر والأدب[٣] ... » وأطنب في مدحه ونعته ، وذكره محيي الدين القرشي وذكر أن لقبه « تاج الدين » وأنه ولد سنة

(١) تاريخ بغداد « ص ١٤٣ ، ١٤٤ » طبعة أوربة .
(٢) المسمى الحوادث الجامعة وهماً « ص ٣٩٠ » .
(٣) تكملة إكمال الإكمال « ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ طبعة المجمع العلمي العراقي بتحقيقي » .

٥٨٢ وتوفي سنة ٦٧٤ وذكر مقطوعة من شعره [١] . وله ترجمة في النجوم الزاهرة « ٧ : ٢٤٩ ، ٢٥٠ » والسلوك « ١ : ٦٢٤ » والشذرات « ٥ : ٣٤٤ » .

٥٢ — ووردت في الصفحة ٥٩٧ ترجمة « فخر القضاة ابن بصاقة » . وقد تركه الشيخ الفاضل على هذه التسمية المجردة من غير تعليق ، وهو « نصر الله بن هبة الله بن محمد بن عبد الباقي الغفاري أبو الفتح « ٥٧٧ — ٦٥٠ » وقد ترجم له محيي الدين القرشي وذكر أنه فقيه شاعر ماهر ، كان خصيصاً بالملك المعظم عيسى ابن الملك العادل الأيوبي ثم بابنه الملك الناصر داود ، وذكر له شعراً [٢] ثم ذكره في باب الأبناء بصورة « ابن بصانة نصر الله بن هبة الله بن محمد بن عبد الباقي فخر القضاة أبو الفتح الصفاري (كذا) [٣] » . وترجم له المقريزي في وفيات سنة (٦٥٠) قال : « وتوفي فخر القضاة أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي بن هبة الله ابن الحسين بن يحي ابن بصاقة الكناني الكاتب الوزير للناصر داود ، الأديب المنشيء [٤] ... » وذكره ابن العماد في وفيات (سنة ٦٥٠) قال : « وفيها فخر القضاة نصر اللهبن هبة الله بن بصاقة الحنفي الكاتب ، من شعره [٥] ... » وذكر له أبياتاً .

٥٣ — وورد في الصفحة ٦١٥ ما هذا نصه « هكذا وجدت البيتين في زينة الدهر تأليف أبي المعالي الخَطيري » ، هكذا بتقديم الخاء المعجمة

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية « ٢ : ١٥٨ » .
(٢) الجواهر المذكورة « ٢ : ١٩٩ » وقد تصحف فيه بصاقة إلى رصافة ، والغفاري إلى الصفاري » .
(٣) المرجع المتقدم « ص ٣٩٢ » .
(٤) السلوك « ١ : ٣٨٥ » .
(٥) الشذرات « ٥ : ٢٥٢ » .

على الطاء ، والصواب « الحظيري » بالظاء المعجمة أخت الطاء المهملة ، وهو « أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم بن علي بن القاسم بن علي بن القاسم الأنصاري الخزرجي الوراق الحظيري المعروف بدلال الكتب ، قال ابن خلكان : « كانت لديه معرفة وله نظم جيد وألّف مجاميع ما قصَّر فيها ، منها كتاب (زينة الدهر وعصرة أهل العصر وذكر ألطاف شعر العصر) الذي ذيله على دمية القصر لأبي الحسن الباخرزي[1] . . . » وذكر أنه توفي سنة ٥٦٨ ، ثم قال : « والحَظيري بفتح الحاء المهملة وكسر الظاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء . وهذه النسبة إلى موضع فوق بغداد يقال له الحظيرة ، ينسب إليه كثير من العلماء ، والثياب الحظيرية منسوبة إليها أيضاً » ، وله ترجمة في كتب أخرى .

٥٤ — وجاء في الصفحة ٦١٦ في ترجمة أبي القاسم هبة الله بن الحسين الملقب بالبديع الاسطرلابي « وتوفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة بعلّة الفالج ودفن بمقبرة الوردية » . فعلق الشيخ على هذا التاريخ ما نصه « في معجم الأدباء : أربع وثلاثين ومائة . تحريف » . ولم يذكر الطبعة التي وقع فيها التحريف من معجم الأدباء ، ففي طبعة مرغوليوث « مات ببغداد بعلة الفالج سنة ٥٣٤ [2] » ، ولا تحريف فيها .

٥٥ — وورد في الصفحة ٦١٧ في ترجمة هارون الرشيد « وخرج عطاف ابن الوليد السامري بالموصل والوليد بن طريف ، وخرج الخزر من باب الأبواب وخرج عمر الشاذي من شهرزور » . فالسامري والشاذي تصحيف « الشاري » وهو من أسماء الخوارج ويجمع على الشُراة ، كما هو مشهور معلوم عند المختصين بالتاريخ والفقهاء والأدباء .

---

(١) الوفيات « ١ : ٢٢٠ من طبعة إيران » .

(٢) معجم الأدباء « مختصر الجزء السابع ص ٢٤٢ من الطبعة المشار إليها في الأعلى » .

٥٦ — وجاء في الصفحة ٦١٨ في ترجمة أبي القاسم هبة الله بن الفضل ابن القطان البغدادي الشاعر « وسمع الحديث من جماعة منهم أبوه وأبو طاهر محمد بن الحسن الباقلاني وأبو الفضل أحمد بن الحسن ابن جيرون الأمين » . هكذا ورد « جيرون » بالجيم ، والذي علمناه وحفظناه « خيرون » بالخاء المعجمة قال الذهبي في المشتبه — ص ١٩٤ — « خَيْرُوْن : أحمد بن خَيْرُوْن المصري ... والحافظ أبو بكر(١) أحمد بن الحسن بن خيرون وأخوه عبد الملك ، سمع البرقاني ، وابن أخيه مقرئ بغداد مع سبط الخياط ، أبو منصور محمد بن عبد الملك » . والأول هو المُراد قال ابن الجوزي في وفيات سنة ٤٨٨ : « أحمد بن الحسن بن أحمد بن خيرون أبو الفضل الباقلاوي ، ولد لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ست وأربعمائة وسمع الحديث الكبير وكتبه ، وله به معرفة حسنة ، روى عنه أبو بكر الخطيب وحدثنا عنه أشياخنا وكان من الثقات وشهد عند أبي عبد الله الدامغاني ثم صار أميناً(٢) ثم ولي إشراف خزانة الغلات وتوفي ضحوة يوم الخميس رابع عشر رجب هذه السنة ودفن بمقبرة باب حرب(٣) » .

هذا آخر ما استوجب التعقيب مما اعتددته أوهاماً ، تبقى فطنة لإيهام القارئ الشادي ، والباحث المبتدئ البادي ، ومع ذلك فينبغي لي أن أشكر للأستاذ الشيخ الفاضل محمد محيي الدين عبد الحميد مجهوده الأدبي للتاريخ المجيد ، فقد أجاد وأفاد ، ولكنه لو كان أشرك معه باحثاً آخر أو باحثين لتفادى من هذه الأوهام الكثيرة المُزلقة وأخرج الكتاب بهيأة(٤) مشرقة ،

(١) جاء في حاشيته المثبتة « كذا بخط المؤلف وصوابه أبو الفضل » . وقد صدق المعلق .
(٢) أي أميناً على أموال الأيتام .
(٣) المنتظم « ٩ : ٨٧ » .
(٤) هذه طريقة سلكناها في كتابة كل همزة مفتوحة في داخل الكلمة .

لأن الاختصاص اليوم شرط من شروط نشر التراث الأدبي فالمصري المحقق يعرف المصريين أكثر من غيره ممن هم ليسوا بمصريين ، والعراقي المدقق أعلم بالعراقيين ممن سواه وكذلك الشامي البارع أدرى بالشاميين ، وكتاب فوات الوفيات يترجم لرجال من مختلف العصور ومختلف الأصقاع والأقطار ، ومختلف صنوف الرجال . وقد وقعت في الكتاب غلطات مطبعية ومنها ما ليست بمطبعية فحشرناها معها ، وهي :

الصفحة	الغلط	الصواب
٣٨	ابن شانيل	ابن شاتيل
١٣٤	هيهات إنّ	هيهات أنّ
١٣٥	أيا هجري	أيا هاجري
١٧٩	هب الهوى	هب الهواء
١٨٠	وللأزاهر	وللأزاهير
٢٠١	رفع الظلم	دفع الظلم
٢٠٤	عسكسته	عكسته
٢١٨	فقاري	(مصحف)
٢٧٤	يسمى مُنازل	. . . مُنازلاً
٣٦٠	مَعنىً	مَغنىً
٣٦١	تأنى أهلها	تأتّى . . .
٣٨١	حوبر	جوبر
٣٩٠	أوزاري	أزواري
٣٩٦	درنا	درتا
٤٠٤	عاش تسعة	. . . تسعاً (لأنها سنة)
٤٣١	السكون	الكون

الصفحة	الغلط	الصواب
٤٤٣	زُهر	زَهْر
٤٧٠	كيف تلقى	(غير موزون)
٤٧٥	فهوّ	فهوٌ
٤٨٣	كتب	كتبتُ
٥١٧	والبمّ	والبَمْ (لأنه في قافية)
٥٥١	يا خليليّ	يا خليلي
٥٨٠	ومات التي	ومَات الذي
٥٨٠	لطيف	كطيف
٦٢٢	الحيص	الحيص بيص
٦٣٦	حملتُ	حمّلتَ

(بغداد) مصطفى جواد

***

شعر

الوقوف على الأطلال

من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

- ٥ -

٥ — حال الشاعر حين الوقوف على الديار

يختلف هذا المعنى عن المعاني الأخرى في شعر الوقوف على الأطلال . فالمعاني التي درسناها سابقاً تتعلق جميعاً بالديار وبقاياها ، على حين يدور هذا المعنى الجديد على أنفس الشعراء وأحوالهم حين الوقوف على الأطلال . وهو مع ذلك نتيجة لتأثير المعاني السابقة في أنفس الشعراء ، فهو لذلك يتعلق بهذه المعاني ، ويرتبط بها بهذا الرباط الوثيق .

والشعراء مشغوفون بأطلال الديار ، وقلوبهم متعلقة بها . وهذا الشغف هو الذي يشدهم إلى الأطلال ، ويحبسهم للوقوف عليها . وهو بذلك بدء أحوالهم النفسية ومشاعرهم ، ومنطلقها الأول حين وقوفهم على الأطلال .

قال امرؤ القيس[1] :

لمن طللٌ درستْ آيُه   وغيَّره سالفُ الأحرُسِ[2]
تَنَكَّرُه العينُ من حادث   ويعرفه شغفُ الأنفسِ

---

(١) زهر الآداب ٢٤٠ .
(٢) آيه : أي علاماته وآثاره ، واحدها آية . والأحرس : جمع حَرْس ، وهو الدهر والزمن .

وقال طريح بن إسماعيل الثقفي [١] :

تستخبر الدمنَ القفارَ ، ولم تكن لتردَّ أخباراً على مستخبرِ
فظللتَ تحكم بين قلبٍ عارفٍ مغنى أحبَّته وطرفٍ منكرِ

والحالات النفسية التي كانت تعتري الشعراء جميعاً ، والمشاعر التي كانوا يحسون بها حين وقوفهم على أطلال الديار كثيرة متعددة . وهي على كثرتها وتعددها تتصف دائماً بالحزن والكآبة . والسر في ذلك أن هذه الأحوال النفسية تنشأ عن الذكرى ، ذكرى الأيام الماضية السعيدة التي قضاها الشاعر ناعماً سعيداً مع أحبائه . ومن طبيعة الذكرى أن تثير الحزن والأسى . وقد ذكر الشعراء هذه الأحوال والمشاعر ، ووصفوها في شعر الوقوف على الأطلال وصفاً حزيناً كئيباً ، يشجي النفوس ، ويثير في أعماقها تعطفاً وتحناناً على هؤلاء الشعراء .

وكأننا بالشاعر حين يقف بالديار ، ويجيل نظراته في أنحائها ، ويرى بقاياها البالية المهجورة تغالب الفناء ، وتظل قائمة ، تثور في نفسه الذكرى ، فيعود بخياله إلى أيام حياته السعيدة التي قضاها في هذه الربوع على وصال مع أحبته . فتثير هـذه الذكرى في نفس الشاعر الألم والحزن ، « ولا يبعث الأحزان مثل التذكر » كما قالت ليلى الأخيلية [٢] ، وتهيـج فيها الشوق والصبابة . وقد تذهله الذكرى عن نفسه ، فيذهب به الخيال بعيداً ، ويبلغ به الحزن مبلغاً ، فيبكي ويذرف الدموع كالأطفال . وبعد فراغ شحنة الحزن والصبابة التي تذهب وتنقضي مع سيلان الدموع يفيق الشاعر من ذهوله ، وتثوب إليه نفسه ، ويرى أن لا طائل في الوقوف والبكاء ، فيتسلى عن

(١) زهر الآداب ٢٤٠ .
(٢) الأغاني ١٠/٧٢ ـ ٧٣ .

حزنه وهمه، وذكري أيامه الماضية بمتابعة طريقه في السفر، ويحث مطيته على السير في مجاهل الصحراء .

وهكذا فانبعاث ذكرى الأيام الماضية أولاً ، ثم ثورة الحزن والألم في نفس الشاعر ثانياً ، وهياج الشوق والصبابة ثالثاً ، وذهول الشاعر عن نفسه رابعاً ، والبكاء وذرف الدموع خامساً ، ثم التسلي والتعزي سادساً ، هي أهم الحالات النفسية التي كانت تعتري الشعراء حين وقوفهم على أطلال الديار .

وهذه الحالات النفسية التي ذكرناها نراها تتردد كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال . على أن أشهر هذه الحالات التي تعتري الشعراء ، وأكثرها دوراناً في الشعر هي حالة البكاء وذرف الدموع . وقلما يخلو شعر في الوقوف على الأطلال من البكاء والدموع . فقد بكى الشعراء طويلاً على ديار أحبائهم ، وتمللوا بوصف الديار ، وتسلوا بنعت الأطلال ، ولا سيما الغزلون البداة منهم . والشعراء يتصفون برقة الطباع ، ورهافة الإحساس ، فلا نعجب منهم إذا ما بكوا في ديار الأحبة ، وأطالوا في هذا البكاء . على أن بعضهم قد بالغوا في البكاء ، وأوغلوا في سفح الدموع حتى سالت على خدودهم ، وبللت ثيابهم . وأبيات امرئ القيس في معلقته معروفة مشهورة في هذا الميدان . قال (١) .

كأني غداةَ البين يوم تحمَّلوا لدى سَمُرات الحي ناقفُ حنظلِ (٢)
وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم يقولون : لاتهلك أسىً ، وتجمَّلِ (٣)
ففاضت دموعُ العين مني صبابةً على النحر حتى بلَّ دمعيَ مِحْمَلي (٤)

---

(١) ديوانه ٩ .

(٢) السمرة : شجرة الصمغ العربي . وناقف الحنظل : الذي يستخرج حبه ، والحنظل له حرارة تدمع منها العين .

(٣) المطي : الإبل ، واحدتها مطية .

(٤) المحمل : أي محمل السيف .

وكان هذا البكاء يشفي هموم الشعراء ، ويطفىء غلة صدورهم ، ويمسح عن نفوسهم آلام الذكرى ، ويغسل عنها آثار الحرمان ، ويريحهم من حرقة الوجد . قال ذو الرمة (١) :

خليليَّ ، عوجا من صدور الرواحلِ ... بِبرقة حُزْوى ، فابكيا في المنازلِ
لعل انحدارَ الدمع يعقب راحـــةً ... من الوجد ، أو يشفي نجيَّ البلابل(٢)

* * *

وقد عمد الشعراء في وصف بكائهم وانحدار الدموع من عيونهم إلى التصوير . فصوروا ذلك في صور طريفة ، تستوقف نظرنا منها صورتان اثنتان شهيرتان ، تردان كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال . الصورة الأولى هي تشبيه انبجاس الدموع من العينين وانحداره بتسرب الماء من شقوق القربة البالية وانحداره إلى الأرض . قال امرؤ القيس (٣) .

ذكرت بها الحيَّ الجميعَ ، فهيجتْ ... عقابيلَ سقمٍ من ضميرٍ وأشجانِ (٤)
فسحَّتْ دموعي في الرداء كأنها ... كُلًى من شَعيبٍ ذاتِ سَحٍّ وتَهتانِ (٥)

فنحن نرى امرأ القيس قد تذكر حين وقف بالديار أحباءه ، وهم مجتمعون في الماضي ، فهيجت هذه الذكرى داءه القديم . فبكى لذلك بكاء غزيراً ، وسحَّت دموعه ، حتى بلل الدمع رداءه . ثم ذكر في تصوير

(١) ديوانه ٤٩١ ـ ٤٩٢ .
(٢) النجي : ما يحدث به الإنسان نفسه . والبلابل : الهموم التي تتردد في الصدور .
(٣) ديوانه ٨٩ ـ ٩٠ .
(٤) الجميع : المجتمعون النازلون في موضع واحد . وعقابيل السقم : بقاياه . ويريد بالسقم هواه وحبه .
(٥) الشعيب : مزادة الماء البالية . والكلى : جمع كلية ، وهي رقعة تكون في أصل عروة المزادة ، وأكثر ما يسيل الماء منها .

انحدار دموعه أنها تشبه قطر الماء وسيلانه من خرز قربة الماء . وقد اعتاد الشعراء أن يذكروا قربة الماء البالية في هذا المجال . والسر في ذكر القربة البالية خاصة في أمثال هذه الصورة هو المبالغة في الوصف ، وذلك أن خرز هذه القربة تكون أوسع من خرز القربة الجديدة ، وشقوقها أكثر ، وهذا أدعى لتسرب الماء وسيلانه .

والصورة بعد مأخوذة من صميم حياة الأعراب في البادية ، فاستقاء الماء من الآبار والغدران ، ونقله في الروايا والقرب شيء مألوف في حياة الأعراب اليومية ، وهو منظر يكثر وقوع أعين الناس عليه . فلهذا أكثر الشعراء من إيراد هذه الصورة في شعر الوقوف على الأطلال في موضوع وصف بكائهم وسفحان دموعهم .

* * *

والصورة الثانية هي تشبيه انحدار الدموع من العينين أثناء البكاء بسيلان الماء من جوانب الدلو حين تنزع من البئر مليئة ، والماء يفيض من جوانبها ، ويتحدر رشاشاً أبيض نحو الأرض . قال الحطيئة في ذلك (١) :

أمن رسم دارٍ مربعٌ ومصيفُ ... لعينيكَ من ماء الشؤون وكيفُ (٢)

رشاش كغربيْ هاجريٍّ ، كلاهما ... له داجنٌ بالكرّتين عليفُ (٣)

تذكرتُ فيها الجهلَ حتى تبادرتْ ... دموعي ، وأصحابي عليَّ وقوف (٤)

---

(١) ديوانه ٢٥٣ .

(٢) معنى البيت : أمن رَسْمِ المربع والمصيف هذه الدار تبكي عيناك .

(٣) الغرب : الدلو العظيمة من جلد ثور ، يجرها بعير . والهاجري : الساقي الماهر . والداجن : البعير الذي ألف السقي . والكرتان : كرة بالذهاب حين نزع الدلو من البئر ، وكرة بالعودة لإنزال الدلو في البئر .

(٤) الجهل : جهل الشباب وطيشه .

لقد وقف الحطيئة على دار أحبته ، فرأى أن مرور الربيع والصيف قد غيّرا آثارها ودرساها ، فبكى لذلك ، وذرف الدمع من عينيه غزيراً سخيناً ، حتى كانت عيناه كدلوين ترشان بالماء رشاً !

وهذه الصورة شبيهة بالصورة الأولى في الأصل ، قريبة منها في الشكل والعناصر الأخرى . وهي أيضاً مثلها مستمدة من حياة الأعراب في البادية ، لأن استقاء الماء بالدلاء من الآبار للشرب وسقي الأغنام والأنعام ضرورة لازمة لهذه الحياة ، وعمل أساسي من أعمال الأعراب اليومية .

* * *

وللشعراء صور أخرى جيدة طريفة في وصف سيلان دموعهم من عيونهم حين وقوفهم على ديار الأحبة . منها تشبيه الدموع الجارية بالجمان المنتثر من النظام . قال ذو الرمة في ذلك [1] :

قف العيسَ في أطلال مية ، واسألِ رسوماً كأخلاق الرداء المسلسلِ [2]

أظن الذي يجدي عليك سؤالُها دموعاً كتبديد الجمان المفصَّلِ

ومنها تشبيه ذرف الدموع بسقوط قطرات ماء المطر من أغصان الشجر . قال جران العود في ذلك [3] :

فبتُّ كأن العينَ أفنانُ سِدرةٍ عليها سَقيطٌ من ندى الليل ينطفُ [4]

---

(١) ديوانه ٥٠١ .

(٢) العيس : الإبل البيض . وأخلاق الرداء : قطعه البالية .

(٣) ديوانه ١٣ .

(٤) أفنان السدرة : أغصانها . والسقيط : الثلج .

وقد أتى إبراهيم بن هَرْمَة بالصورتين معاً في شعر له ، قال[١] :

كأن عينيَّ إذ والَّت حمولهمُ مني جناحا حمام صادف مطرا

أو لؤلؤٌ سليسٌ في عقد جارية ورهاءَ نازعها الولدانُ فانتثرا[٢]

ووصف امرؤ القيس بكاءه في الديار مرة ، وصوّر دموعه ، فشبهها في معرض التصوير بأشياء عديدة مختلفة دفعة واحدة ، فقال[٣] :

عيناكَ دمعُها سِجالُ كأن شأنيها أوشالُ[٤]

أو جدولٌ في ظلال نخل للماء من تحته مَجالُ

هذه عدة صور أتى بها امرؤ القيس في مبالغة وإغراق . ولكنها مبالغة شيقة مستحبة ، لأنها من صنع شاعر مجيد . والشاعر يضفي على صوره ومعانيه أشياء من عواطفه ومشاعره ، فيخفف بذلك من وقع المبالغة في نفوسنا . والشعراء بعدُ أصحاب أخيلة مجنحة تطير بهم بعيداً في أجواء الفن ، فنغفر لهم ، ولا نحاسبهم لذلك حساباً عسيراً .

وتابع عبيد بن الأبرص امرأ القيس في وصف بكائه وتشبيه دموعه بعدة أشياء في صور متوالية ، مبتدئاً بقربة الماء البالية ، ومنتهياً بجدول ماء

(١) التشبيهات ٨٠ .
(٢) ورهاء : أي حمقاء .
(٣) ديوانه ١٨٩ .
(٤) السجال : جمع سَجْل ، وهو الدلو . والأوشال جمع وَشَل ، وهو الماء القليل الجاري .

يجري خلال النخيل . قال عبيد (١) :

عيناكَ دمعهما سروبُ كأن شأنيهما شعيبُ (٢)

أو فَلَجٌ ما ببطن وادٍ للماء من تحته قسيبُ (٣)

أو جدول في ظلال نخل للماء من بينه سكوبُ

هذه صور طريفة ، سريعة الحركات ، متلاحقة النغمات ، نرى فيها رقة ومرحاً ، ولا نسمع رنة الحزن ولا ترجيعات البكاء ، فهي تغيب وتختفي وراء أمواج النغم التي يوقعها الشاعر .

* * *

ولقد أفصح الشعراء عن حزنهم وألمهم في شعر الوقوف على الأطلال بمعان كثيرة وعبارات مختلفة . ولكن المعنى الذي تداولوه جميعاً ، وعبروا عنه بعبارة واحدة هو معنى الشجو ، أي الحزن الدائم العميق في سكون ، حتى إنهم كثيراً ما كانوا يبدؤون أشعارهم بلفظ (الشجو) نفسه ، كما قال طرفة ابن العبد (٤) :

أشجاكَ الربعُ أم قِدمُه أم رمادٌ دارسٌ حُمَمُه (٥)

فهو يتساءل عن هذا الحزن أو الشجو الذي ثار في نفسه من وقوفه على الديار ، وعبَّر عن هذا الحزن بلفظ مأخوذ من الشجو ، فقال : أشجاك .

---

(١) ديوانه ١٢ .

(٢) سروب : كثير الجريان . والشعيب : قربة الماء البالية .

(٣) الفلج : الماء الجاري . والقسيب : صوت جري الماء .

(٤) ديوانه ١٤٨ .

(٥) حممه : أي فحمه ، واحدتها حُمَمة .

وكذلك أكثر الشعراء من ذكر هياج الشوق والصبابة في هذا المجال ، واعتادوا افتتاح قصائدهم بلفظ (هاج) نفسه . قال الحطيئة [١] :

وهاج لك الصبابةَ من هواها بحنو قراقرٍ طللٌ مُحيلُ [٢]
كما هاج الصبابةَ يوم مرّت عوامدَ نحو واقصةَ الحمُولُ [٣]

وقال زهير بن أبي سلمى [٤] :

هاج الفؤادَ معارفُ الرسمِ قفرٍ بذي الهضبات كالوشمِ

وقال حسان بن ثابت [٥] :

أهاجكَ بالبيداء رسمُ المنازلِ نعم،قد عفاها كلُّ أسحمَ هاطلِ [٦]

والشكوى من دأب الشعراء في وقوفهم على أطلال الديار . فهي حبيبة إلى قلوبهم ، قريبة إلى نفوسهم ، يناجونها ويبثونها آلامهم وأحزانهم ، ويشكون إليها ما يكابدون من شوق إلى أهلها الظاعنين ، ويجدون في هذه الشكوى عزاء وسلوى . وكأن هذه الديار رفيق أمين يسعدهم في بلواهم ، فيأنسون بقربه ، وينعمون بلقائه ، وينسون وحدتهم ووحشتهم عنده ، ولو إلى حين . قال ذو الرمة في الشكوى [٧] :

وقفتُ على ربع لميــة ناقتي فما زلتُ أبكي عنده وأخاطبُهْ
وأُشكيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبُهْ [٨]

---

(١) ديوانه ١٩٧ .
(٢) المحيل : المتغير .
(٣) عوامد : أي قواصد . والحمول : الإبل عليها هوادج النساء .
(٤) ديوانه ٣٨٢ .
(٥) ديوانه ٣١٣ .
(٦) الأسحم : السحاب الأسحم ، وهو الأسود .
(٧) ديوانه ٣٨ ، واللسان (شـكا) .
(٨) أشكيه : أشكو إليه أمري .

وبعد فإن الاستغراق في الذكرى ، والذهول عن النفس من المعاني التي رددها الشعراء كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال ، لشدة حزنهم وفرط صبابتهم وشغفهم ، حتى ما يطيقون مغادرة الديار . قال امرؤ القيس في هذا المعنى (١) :

ظَلِلْتُ ردائي فوق رأسي قاعداً أعد الحصى ، ماتنقضي عبراتي
أعِنّي على التَّهْمام والذِّكَراتِ يبتن على ذي الهم معتكراتِ (٢)

فهو قاعد لايبرح الديار ، ذاهل عن نفسه وعن الدنيا من حوله ، يعد الحصى من الهم حيرانَ آسِفاً ، ويبكي لهفة وشغفاً . وتأخذه الذكرى والهموم من كل جانب ، فيفر منها إلى رفيق الطريق في السفر يطلب العون والعزاء .

وقد شبَّه كثير من الشعراء أنفسهم في ذهولهم واستغراقهم في الذكرى والصبابة بشارب الخمر الذي باكر الشراب فانتشى . قال امرؤ القيس (٣) :

فظَلِلْتُ في دمن الديار كأنني نشوانُ باكره صَبوحُ مدامِ

وقال عبيد بن الأبرص (٤) :

ظَلْتُ بهـــا كأنني شاربٌ صهبـــاءَ مما عتّقتْ بابلُ (٥)

فقد استغرق امرؤ القيس وعبيد في الذكرى ، وغابا في دنيا الذكريات عن نفسيهما وعما يدور حولهما ، كما يغيب النشوان من أثر الخمر .

---

(١) ديوانه ٧٨ .
(٢) معتكرات : أي دائمات متتابعات .
(٣) ديوانه ١١٥ .
(٤) ديوانه ٩٨ .
(٥) ظلت بها : أي ظللت بها .

على أن تشبيه الشاعر نفسه بشارب الخمر النشوان في ذهوله واستغراقه في الذكريات حين وقوفه على أطلال الديار قد انقطع في الإسلام بعد أن كان شائعاً في الجاهلية . وهذا أثر من آثار تعاليم الإسلام التي تحرم شرب الخمر على المسلمين .

وقد انتهى الشعور بالوجد والحزن والصبابة بالحطيئة الشاعر حين وقف على ديار هند ، ورأى بقاياها العافية ، وفعل الزمن والرياح في آثارها ، وبدأ يسائلها عن أهلها الظاعنين ، نقول : انتهى كل ذلك بالحطيئة الشاعر إلى الارتعاش والألم الشديد الذي يعتري من تنهشه أفعى قديمة قاطعة السم . قال الحطيئة (١) :

قد غيَّر الدهرُ من بعدي معارفَها ... والريحُ ، فادَّفنتْ فيها مغانيها
جرَّت عليها بأذيال لها عُصُفٍ ... فأصبحتْ مثلَ سَحْقِ البرد عافيها
كأني ساورتني يوم أسألها ... عَوْدٌ من الرُّقْش، ماتصغي لراقيها(٢)

وشعور الحطيئة هذا وألمه أمام هذه الآثار العافية من ديار هند هو أعلى درجات الانفعال والحزن في شعر الوقوف على الأطلال .

الدكتور عزة حسن

---

(١) ديوانه ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٢) العود : القديم المسن ، وبريد حية قديمة هنا . والرقش : جمع رقشاء ، وهي الحيه المنقطة .

شيء من الفعل في العربية

سأعرض في هذا المبحث لشيء يتصل بالفعل العربي مما له فائدة خاصة وهي دخوله في الأساليب الخاصة . ومن ذلك المادة الفعلية التي تؤلف أسلوبي التعجب وأسلوب المدح والذم .

أقول إن قولهم : « ما أحسن زيداً » و « أحسنْ بزيد » أسلوب للتعجب ، فانه يتوصل بهذا الأسلوب الى التعجب من « حسن زيد » .

ولو درس النحويون هذه المسألة على أنها أسلوب من أساليب الكلام لكانوا في غنى عن الذهاب في متاهات بعيدة عن العلم اللغوي .

فسر النحويون « ما أحسن زيداً » بـ « شيء أحسن زيداً أي جعله حسناً » ، وما أظن ان التعجب حاصل في هذه الجملة المفسرة ، فهي كما قالوا جملة خبرية في حين أن أسلوب التعجب لا يتأتى بهذا فهو « إنشاء » .

ولم يصلوا إلى هذا التفسير إلاّ ليحلوا المشكلة الإعرابية ، فإن « ما » عندهم نكرة تامة بمعنى شيء ، وهي مبتدأ . ولم أستطع أن أهتدي إلى هذه النكرة وإلى تمامها وإلى تأويلها بشيء ، ثم لم أستطع أن اهتدي إلى كونها مبتدأ . ألا ترى أن « ما » هذه لا صلة إسنادٍ لها بما بعدها من جملة التعجب إذ لا يكون الخبر وصفاً للمبتدأ كما زعموا .

وقد بدت حيرتهم في « ما » هذه ، فقال الأخفش : « إنها موصولة وتأويل الكلام « الذي أحسن زيداً شيء عظيم » ومعنى هذا أن الخبر محذوف . وما أظن أن أسلوب التعجب حاصل في هذه الجملة المفسرة .

وذهب بعضهم إلى أنها استفهامية ، والجملة التي بعدها خبر عنها ، والتقدير « أي شيء أحسن زيداً ؟ » وما أظن أن أسلوب الاستفهام مفيد للتعجب ، وهذا لم يقله إلا نحوي أفقده ثقل الموضوع التمييز بين أسلوبين مختلفين كل الاختلاف .

وقد ذهب بعضهم إلى أنها نكرة موصوفة ، والجملة التي بعدها صفة لها ، والخبر محذوف ، والتقدير « شيء أحسن زيداً عظيم » . وهذا قول ضعيف غاية الضعف .

ومن هذا العرض يتبين أنهم لم يحاولوا درس هذا الأسلوب الذي يعبر به عن التعجب ، فقد شغلوا أنفسهم بالإعراب . وكان أصلح للعربية والنحو العربي أن يقولوا في هذا التركيب « إنه أسلوب للتعجب مؤلف من « ما » التعجبية متلوة بـ « فعل » على « أفعَلَ » ، أو « أشـــد ونحوها » متلوة بالمصدر في أحوال أخرى عرض لها النحاة واشترطوا لها شروطاً خاصة .

وإن هذا « الفعل » من الأفعال الخاصة غير المتصرفة التي بنيت على هيئة مخصوصة فأفادت التعجب .

ومثل هذا نقول في « أحبب بزيد » فهو أسلوب للتعجب مؤلف من فعل التعجب الذي جمد على هذه الصورة ليؤدي هذا الغرض متلواً بالبـاء ثم مدخلوها ، وبذلك ليتم هذا الأسلوب المشار إليه .

قلت : إن النحاة كانوا في حيرة في كل جزء من أجزاء هذا الأسلوب ، فقد اختلفوا في فعلية هذه المادة أو اسميتها ولا نريد أن نعرض لأقوال كل من الفريقين ، أما الذي نريد أن نقرره فإن « أفعَلَ » و « أفْعِلْ » من المواد الفعلية التي بنيت على هذه الصورة المخصوصة فجمدت وابتعدت عن قبول علامات الأفعال ، وذلك لانصرافها عن عناصر الفعلية وهي الدلالة على الحدث وترشحها لزمان ما ، وبذلك تؤدي أسلوب التعجب .

وكنا قد رأينا مثل هذه الأفعال التي تحجرت في صورة ما ، لتؤدي معنى خاصاً وهي : عسى وحرى واخلولق وكاد وكرب وغيرها .

ولا بد أن نختم هذا المبحث فنشير إلى قلق النحويين وعدم تثبتهم فيما ذهبوا إليه فقالوا : « ما أجمله و « أَجْمِلْ به » ، والهاء عندهم مفعول به في الجملة الأولى ، وفاعل في الجملة الثانية والباء حرف جر زائد .

ولا ندري ما الفرق بين الجملتين بحيث أدى ذلك إلى الاختلاف في اعتبار المتعجب منه من الناحية النحوية . وهذا من غرائب أقوالهم التي لا يمكن الاطمئنان إليها .

ومن هذه الأساليب أسلوب المدح والذم ويعبر عنه بمادة « نعم » للمدح و « بئس » للذم و « حبذا » للمدح و « لا حبذا » للذم . وهذه المواد من الأفعال التي تفرغت من الدلالة الفعلية وهي الحدث المقترن بالزمان ، للدلالة على المدح أو الذم في أسلوب خاص كما في « نعم الولد زيد » و « بئس المرأة هند أو بئست » .

وقد كان النحويون الأقدمون في حيرة من هذه بسبب إعراب هذه المواد في الجمل التي تقع فيها ، فقد اختلفوا فيها فذهب جمهور النحويين إلى أن « نعم » و « بئس » فعلان بدلالة دخول تاء التأنيث الساكنة عليها . وذهب جماعة من الكوفيين – ومنهم الفراء – إلى أنها اسمان واستدلوا بدخول حرف الجر عليها نحو قولهم : « والله ما هي بنعم الولد » . ورد قول الكوفيين بالتخريج النحوي المثبت في كتب النحو .

ولم يهتم النحاة باستعمال هذين الفعلين وورودهما في النصوص الفصيحة ، وذلك لاهتمامهم بمسألة الفاعل والمرفوع الذي يليه . والفاعل في هذه الجملة إما أن يكون محلىً بالألف واللام ، وإما أن يكون شيئاً آخر .

وقد قالوا في هذه الألف واللام : إنها للجنس حقيقة أو مجـــازاً ، وقالوا : إنها للعهد كما في قوله تعالى : « نعم المولى ونعم النصير » . ويكون الفاعل مضافاً إلى ما فيه « أل » كقوله تعالى : « ولنعم دار المتقين » .

ويكون مضمراً مفسراً بنكرة بعده منصوبة على التمييز نحو : « نعم قوماً معشره » ففي « نعم » ضمير مستتر يفسره « قوماً » و « معشر » مبتدأ وزعم بعضهم أن « معشره » مرفوع بـ « نعم » وهو الفاعل ولا ضمير فيها ، وقال بعض هؤلاء : إن « قوماً » حال ، وقال آخر : إنه تمييز .

وهذا الاختلاف في إعراب « قوماً » و « معشره » دليل على أن هذه المسائل قلقة في مكانها ، بل قل : إنهم لم يهتدوا إليها اهتداءً كافياً ، فهي إما أن تكون كذا وإما أن تكون أشياء أخرى .

وقولهم : إن في « نعم » ضميراً مفسراً بالتمييز شيء ملفق مصطنع ، ذلك أن الضمير لا يستعمل إلا حيث كان مسبوقاً باسم ظاهر ، والطبيعي أن يذكر الظاهر ثم يعود عليه ضميره .

وإذا قالوا : « نعم الولد زيد » فإن « زيد » خبر مبتدؤه محذوف أو أنه خبر الجملة قبله مبتدأ والتقدير « زيد نعم الولد » . أو أنه مبتدأ خبره محذوف والتقدير : « زيد الممدوح » .

وهكذا انصبَّ اهتمام النحويين على إعراب هذه الأجزاء التي وقعت في هذه الجمل التي عبر بها عن أسلوب المدح والذم .

قلت : لم يهتم النحاة بورود هذين الفعلين في النصوص الفصيحة وأكثروا من الاعتماد على الأمثلة التي اصطنعوها هم أنفسهم نحو : « نعم الرجل زيد » و « نعم غلام القوم زيد » و « بئس غلام القوم عمرو » .

ومثل هذه الأمثلة لم نعرفه في لغة التنزيل مثلاً ، وذلك أن « نعم » وردت في ست عشرة آية ، وفي جميع هذه الآيات ورد هذا الفعل مسنداً

إلى مرفوعه ولم يرد ما أسموه بالمخصوص بالمدح وهو « زيد » كما في قولهم ، « نعم الرجل زيد » .

والآيات التي وردت فيها « نعم » هي على النحو الآتي :

الآية	رقمها	السورة
ونعم أجر العاملين	١٣٦	آل عمران
وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل	١٧٣	آل عمران
وإن تولَّوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير	٤٠	الأنفال
سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار	٢٤	الرعد
ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين	٣٠	النحل
نعم الثواب وحسنت مرتفقا	٣١	الكهف
واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير	٧٨	الحج
نعم أجر العاملين	٥٨	العنكبوت
ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون	٧٥	الصافات
ووهبنا لداودَ سليمانَ نعم العبد إنه أوّاب	٣٠	ص
إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب	٤٤	ص
فنعم أجر العاملين	٧٤	الزُّمَر
والأرضَ فرشناها فنعم الماهدون	٤٨	الذاريات
فقَدَرْنا فنعم القادرون	٢٣	المرسَلات

وقد وردت « نِعِمّا » في آيتين هما :

إن تبدو الصدقات فنِعِمّا هي	٢٧١	البقرة
إن الله نِعِمّا يعظكم به	٥٨	النساء

ومثل « نعم » جاءت « بئس » في لغة التنزيل العزيز » ، وليس فيها إلا آيتين على نحو ما استشهد به النحاة . ولنعرض للآيات التي جاءت فيها « بئس » وهي على النحو الآتي :

الآية	رقمها	السورة
ولبئس ما شرَوا به أنفسَهم	١٢٦	البقرة
فحسْبُه جهنم ولبئس المهاد	٢٠٦	البقرة
ستُغلَبون وتُحشَرون إلى جهنمَ وبئس المهاد	١٢	آل عمران
ومأواهم النارُ وبئس مثوى الظالمين	١٥١	آل عمران
ومأواه جهنم وبئس المصير	١٦٢	آل عمران
واشترَوا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون	١٨٧	آل عمران
ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد	١٩٧	آل عمران
لبئس ما كانوا يعملون	٦٢	المائدة
لبئس ما كانوا يصنعون	٦٣	المائدة
لبئس ما كانوا يفعلون	٧٩	المائدة
لبئس ما قدمت لهم أنفسهم	٨٠	المائدة
ومأواه جهنم وبئس المصير	٧٣	التوبة
فأوردهم النارَ وبئس الوردُ المورود	٩٨	هود
بئس الرِّفْدُ المرفود	٩٩	هود
ومأواهم جهنم وبئس المهاد	١٨	الرعد
جهنم يصلَونها وبئس القرار	٢٩	ابراهيم
فلبئس مثوى المتكبرين	٢٩	النحل
بئس الشرابُ وساءتْ مُرتَفَقا	٢٩	الكهف

الآية	رقمها	السورة
بئس للظالمين بدَلا	٥٠	الكهف
لبئس المولى ولبئس العشير	١٣	الحج
وبئس المصير	٧٢	الحج
ومأواهم النار ولبئس المصير	٥٧	النور
جهنمَ يَصلونها وبئس المهاد	٥٦	ص
فبئس القرار	٦٠	ص
ادخُلوا أبوابَ جهنمَ خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين	٧٢	الزمر
فبئس مثوى المتكبرين	٨٦	غافر
فبئس القرين	٣٨	الزخرف
بئس الاسم الفسوقُ بعد الإيمان	١١	الحجرات
مأواكم النارُ هي مولاكم وبئس المصير	١٥	الحديد
حسبُهم جهنمُ يَصلوْنَها وبئسَ المصير	٨	المجادلة
بئس مَثَلُ القومِ الذين كذّبوا بآيات الله	٥	الجمعة
أولئك أصحابُ النارِ خالدين فيها وبئس المصير	١٠	التغابن
ومأواهم جهنمُ وبئس المصير	٩	التحريم
وللذين كفروا بربهم عذابُ جهنم وبئس المصير	٦	الملك

وقد وردت « بئسما » في ثلاث آيات هي :

الآية	رقمها	السورة
بئسما اشترَوْا به أنفسَهم	٩٠	البقرة
قل بئسما يأمركم به إيمانُكم	٩٣	البقرة
بئسما خَلَفْتُمُوني مِن بعدي	١٥٠	الأعراف

ويتبين من عرضنا للآيات التي وردت فيها « نعم » وللآيات التي وردت فيها « بئس » أن النحاة لم يَشغَلوا أنفسَهم بشيء كثُر في لسان العرب ، بل اهتموا بمسائلَ لم ترد إلا قليلاً ، وأقاموا فيها المشكلات الصعبة فاختلفوا وذهبوا مذاهب شتى كما تبين لنا ذلك من أقوالهم . غير أنهم لم يهتموا بالكلام الفصيح الذي يُعَدُّ النموذجَ الصحيح للعربية في هذه الفترة التاريخية .

ونخلُص من ذلك ان « زيداً » المذموم ، و « عمراً » الممدوح لم يكونا في هذه اللغة القويمة على النحو الذي ورد في كتب النحو .

ثم جاء النحاة إلى « حبذا » و « لاحبذا » لإفادة المدح والذمّ فقالوا في المدح : « حبذا زيد » ، وفي الذم : « لاحبذا زيد » .

ومن ذلك قول الشاعر :

ألا حبذا أهل الملا غير أنه   اذا ذكرت ميّ فلا حبذا هيا

وشأنهم في « حبذا » و « لاحبذا » شأنهم في « نعم » و « بئس » فقد اختلفوا في إعرابها كما اختلفوا في « نعم » و « بئس » .

ذهب أبو علي الفارسي وابن برهان وابن خروف ـ وزعموا أنه مذهب سيبويه إلى أن « حَبَّ » فعل ماض و « ذا » فاعله ، وأما المخصوص فجوّز أن يكون مبتدأ والجملة قبله خبره ، وجوّز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير « هو زيد » أي الممدوح أو المذموم زيد .

وذهب المبرّد ، وابن السراج في « الأصول » ، وابن هشام اللخمي ـ واختاره ابن عصفور ـ إلى ان « حبذا » اسم ، وهو مبتدأ ، والمخصوص خبره ، أو خبر مقدم والمخصوص مبتدأ مؤخر فركبت « حب » مع « ذا » وجعلتا اسماً واحداً .

وذهب قوم ـ منهم ابن درستويه ـ إلى أن « حبذا » فعل ماض و « زيد » فاعله فركبت « حب » مع « ذا » وجعلتا فعلاً .

ويبدو من هذا أنهم اختلفوا في حقيقة « حبذا » وفعليتها واسميتها ، وما ذلك إلا للفصل في كل جزء من أجزاء الجملة التي تقع فيها « حبذا » وإيقاعه في موقع إعرابي خاص . واختلافهم هذا في حقيقة هذه الأفراد التي تتكون منها جملة « حبذا » دليل على أنهم قلقون في اعتبار هذه الأساليب الفعلية الخاصة لإفادة غرض خاص هو المدح أو الذم .

أما القول في إسمية « حبذا » و « لا حبذا » فهو شيء مستبعد في جملة « حبذا » ، وذلك لأن هذا المركب جاء لإفادة أسلوب المدح ، وإفادة المدح والذم تحصل في الجملة الفعلية ، وإن لفظ « حب » هو الفعلية ولكن الذي أبعدها عن الفعلية الصريحة تركيبها مع « ذا » ولايعني هذا التركيب أنهـــا انتقلت من فعل إلى اسم . غير أن من المناسب أن نقول : إن هذه الالفاظ أفعال خاصة تحولت من فعليتها الصريحة فتفرعت عن مادة الفعل من حيث الدلالة على الحدث المقترن بزمان ما للإعراب عن أسلوب خاص من أساليب الـكلام ، وهو المدح والذم ، ولذلك فقدت التصرف فجمدت على حالتها المعروفة ، والقول بأنها فعل ماض غير سديد ، وذلك أن الأفعال قصد من تحولها إلى الجمود ، وتركيبها مع « ذا » إفادة للمدح أو الذم وإفادة هــــذا الأسلوب يعني أنه من جملة الأساليب الإنشائية ، ولا تستقيم هذه الأساليب مع الزمن الماضي .

أما القول بأن « ذا » فاعل فليس بسديد أيضاً ، وذلك أن تركيب « حب » مع « ذا » جعلها كلمة واحدة ، ولا يمكن أن تنصرف « حبذا » إلى جملة . ولعل ابن درستويه كان على حق في اعتباره « حبذا » كلمة واحدة . ثم ان « حبَّ » لم يتضح لنا أنها أسندت إلى « ذا » فيؤدي هذا الإسناد إلى حصول فائدة ما .

وبسبب من هذا التركيب وصيرورة هذا المركب (وصيرورة هذا المركب) كلمة واحدة مال المعربون في عصرنا إلى اشتقاق فعل من هذا المركب هو « حبّذ » بمعنى « استحسن » أو « فضّل » واستعملوا من ذاك الأبنية المختلفة كالمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول وسائر الصيغ الاخرى .

وبعد فإنّ هذه الألفاظ قد اتجهت في العربية اتجاهاً خاصاً للتعبير عن فن من فنون القول . ومن المفيد ألاّ تدخل هذه في اختلاف النحويين وجدلهم فتضيع في متاهات الفاعل وضمير الظاهر ، والمبتدأ وخبره المحذوف أو الخبر ومبتدئه المحذوف . وإن محاولتهم في إيجاد هذه المسميات في هذه الجمل التي أفادت التعجب والتي أفادت المدح أوالذم إضاعة للغرض الذي أطلقت من أجله .

ومن المفيد أيضاً ان نكتب نحونا الجديد على شيء من هذا الفهم ، فجنب الناشئين في عصرنا الذهاب في تلك الأوهام التي تبعد اللغة عن كونها حياة يحياها المعربون .

وعلى هذا فإن اللغة ليست وسيلة يعبَّر بها عن الفكر ، بل هي في حركاته وسكناته وهي الفكر مكتوباً أو منطوقاً به .

وأعود فأقول : إن دعوات أصحاب التيسير يجب أن تكون دعوات مفيدة فتيسر وتنبذ ما ليس من طبيعة اللغة ، وأن يكون النحو الجديد مادة تصف اللغة وصفاً بعيداً عن التعليل والتأويل ، وبذلك يتم لأصحابنا القائلين بالتيسير والداعين إليه بمقترحاتهم وآرائهم منهج علمي جديد .

وقد تقول ، إن النحو القديم في مصنفاته الضخمة يؤلف مادة من تراثنا فماذا نحن صانعون به إن أخذنا بآراء أهل التيسير التي تتنكر لكثير من العلم النحوي القديم ؟

ونجيب عن هذا السؤال فنقول : إن النحو القديم وهو من تراثنا الذي نجله ونقدره قدره ينبغي أن يظل في حلقة الدراسات التاريخية ندرسه ونفهمه

بأصوله وفلسفته وعلله وأحكامه ومناهجه التي اخذوا أنفسهم بها ، وأدى بهم ذلك الى اختلافات جوهرية وثانوية . والذي نعرفه أن العلوم كافة تخضع للتطور والتجديد ، فالفلسفة الحديثة غير الفلسفة في القرون الوسطى وغيرها في أيام الإغريق . والعلوم الطبيعية في عصرنا جديدة كل الجدة بحيث انسلخت عن أصولها القديمة وربما انقلبت النظريات ، فالذي كان مقبولاً في العلم منذ قرن من الزمان لم يعد مقبولاً في أيامنا . ومثل هـــذا حدث في العلوم الاجتماعية جميعها كما حدث تطور عظيم في المفاهيم الفنية في الرسم والنحت والموسيقى وغير ذلك .

ثم إن الدراسات النحوية في اللغات الأوربية الحديثة تذهب في هذا السبيل ، فهناك النحو الذي يتعلمه الدارسون ، وهو نحو جديد مبني على الاستقراء والوصف للنصوص الفصيحة الموروثة دون التنكر للغات الحديثة بما جد فيها من التطور في الأصوات ، وفي تركيب الجمل وسائر العناصر النحوية التي تغيرت عما كانت عليه في عصور سابقة . على أن لهذه اللغات نحواً قديماً يقبل عليه الدارسون المعنيون بالدراسات اللغوية التاريخية ليصلوا من ذلك إلى الجديد المتطور الذي يقوله الناس ويكتبونه .

ومن الخير للعربية وأبنائها أن نجري في هذا السبيل لنأخذ بالأسلوب العلمي الذي يقوم على التطور وهو سنة الحياة في مظاهرها المختلفة .

(بغداد) الدكتور ابراهيم السامرائي

مجتمع الهمذاني

من خلال مقاماته

بحث بخلال المقامات ويستشف من ورائها صورة المجتمع الذي أنشئت فيه

— ٥ —

٤ ـــ الكُدْيَة

الكدية مظهر من مظاهر الفقر في المجتمع وعدم التكافل الاجتماعي بين الناس . وربما تكون في بعض الأحيان مظهراً من مظاهر العجز أو الكسل الفرديّ ، وهي قديمة في التاريخ ؛ وجدت منذ وجد العجز والفقر إلى جانب القوة والغنى مهما يختلف تأويل ذلك :

متى ما ير الناس الفقير وجارُه غني يقولوا عاجز وجليد

الكدية في التاريخ : وقد كانت الكدية معروفة منذ القديم ، كما يبدو أنها كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام حتى نهى عنها الإسلام وحاربها النبي ﷺ وحض على العمل والكسب ، وشاعت أقواله في ذلك ، ومنها « لأن يأتي أحدكم الجبل فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ومنها « اليد العليا خير من السفلى » ويرجح أن تكثر الكدية وتنتشر حيث يعمّ الفقر ، وتقل حيث يسود الرخاء . وقد مرّ بنا الحديث عن سوء الوضع الاقتصادي أيام الهمذاني ، وهو في مقاماته إنما يطلعنا على سبيل المكدين في حرفتهم ، ويكشف لنا أساليب

خداعهم ... بل إنه يُعنى بالكدية عناية خاصة حتى كانت المحور الأساسي الذي تدور حوله معظم المقامات .

وليس مانقله إلينا الهمذاني من أخبارهم ، على كثرته وطرافته ، غريباً أو بعيداً عما عرف في ذلك العصر ؛ فلقد ذكروا أن بعض الناس كانوا يحتالون للسلب بحيل شتى ، وأن من الحيل التي يلجأ إليها بعض المكدين لجمع المال تظاهرهم بالغزو والجهاد فيجمعون المال لتجهيز أنفسهم أو فك أسرام !! وكثير من هؤلاء كانوا يركبون الدواب ويطوفون البلاد كالغزاة ليوهموا الناس بصدقهم ، بل إن في أخبار التاريخ أن جيشاً من عشرين ألفاً خرج من خراسان سنة ٣٥٥ هـ بحجة الغزو ثم ظفر بأموال الدولة وانقلب إلى جيش للسلب والنهب[١] .

ولعل من أطرف ماوصف به المكدون وأساليبهم تلك القصيدة الطويلة الرائعة المعروفة بالقصيدة الساسانية والتي نظمها أبو دلف الخزرجي[٢] ومطلعها :

جفون دمعهـا يجري لطول الصدّ والهجر[٣]

وقد وصف فيها الغربة والتنقل ، وذكَر حيلَ المكدّين من كتابة التماويذ والتآمر مع القصّاصين الذين يتصدّرون حلقات القصص ويأمرون المستمعين باعطاء الفقراء ثم يقاسمونهم ماجمعوا بعد انفضاض الحلقة ، كما ذكر كثيراً من أساليب المكر والخداع كتصفير الوجه أو تجريحه ، أو إيهام الناس بقطع اللسان ، أو ارتداء زي الرهبان أو الحجاج ، أو الاحتيال بالتنجيم

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٦٦ .

(٢) هو مسعر بن مهلهل . انظر ترجمته وأخباره في يتيمة الدهر ٣ : ٣٥٦ (ط محي الدين عبد الحميد) .

(٣) انظر القصيدة في اليتيمة ٣ : ٣٥٨ .

أو باصطحاب عدد من الأطفال عليهم آثار الجوع والعري . . أو بترقيص القردة أو الدبة ... ، وهي قصيدة جامعة حتى إن آدم متز يقول « إنها وثيقة اجتماعية عن القرن الرابع . »(١)

الكدية في المقامات : أما الهمذاني فيحدثنا عن الكدية حديثاً طريفاً يتنكر له الأساليب ويعدد المذاهب ، فلا يترك نوعاً من الكدية إلا يأتينا بنموذج منه ويمثله لنا وكأنه أستاذ فيه .

ومما يجلب النظر في أساليب المكدين التي عرضها علينا أنها ليست غريبة عنا ولا عن عصرنا ، وأنها هي نفسها الأساليب المتبعة عند المكدين المعاصرين وكأنهم توارثوها جيلاً عن جيل .

فمن المكدين من كان يجول في الأسواق رافعاً صوته في الإنشاد :

وبلي على كفّين من سويق ... أو شحمة تضرب بالدقيق
أو قصعة تملأ من خرديق ... يفثأ عنا سطوات الريق
يقيمنا عن منهج الطريق ... يارازق الثروة بعد الضيق(٢)

أو يستجدي قائلاً :

ياقوم قد أثقل دَيني ظهري ... وطالبتني طلّتي(٣) بالمهر
أصبحت من بعد غنى ووفر ... ساكن قفر وحليف فقر
ياقوم هل بينكم من حرّ ... يعينني على صروف الدهر(٤)

---

(١) الحضارة الاسلامية ٢ : ١٠٧ .
(٢) المقامة الازاذية : ١٥ .
(٣) الطلّة : الزوجة .
(٤) المقامة المكفوفية : ٨٤ .

فإذا نال ماطلب من أحد المحسنين أتبعه بالدعاء والشكر :

يامن عناني بجميـــل برّه أفضى إلى الله بحسن سرّه
واستحفظ الله جميل ستره ان كان لاطاقة لي بشكره
فالله ربي من وراء أجره (١)

ومن المكدين من يتظاهر بالمرض ويمثل دور المصاب المبتلى فيضمد ساقه أو يشدّ يده إلى عنقه أو يعصب رأسه أو يعمد إلى الارتجاف كلما شعر بدنوّ أحد المارّة منه . . ومنهم من كان يتظاهر بالعمى كالذي حدثنا عنه الهمذاني في المقامة المكفوفية فهو « أعمى مكفوف » ولكنه سرعان مايعرف الدينار من لمسه مما جعل ابن هشام يشك في أمره ويقول « وتبعته فعلمت أنه متعامٍ لسرعة ماعرف الدينار ... ثم فتح عن توأمتي لوز (٢) . . »

ومنهم من كان يكتب حاجته على أوراق يوزعها على الناس ، شأن بعضهم اليوم ، وقد رأى ابن هشام من هؤلاء في أسواق العراق وقال لأحدهم « ألم أرك بالعراق تطوف في الأسواق مكدّيا بالأوراق ؟ (٣) » .

وقد تكون المكدّ طريقة أخرى في سؤاله الناس وذلك بأن يغتنم الفرصة السانحة ويأتي في الوقت الملائم ، وللنفس أحوال تحب أن تصنع فيها الخير كأن يكون الإنسان مقدماً على سفر فإذا هو قبل أن تتحرك مطيّته أمام سائل يتضرع داعياً له بالأمن والسلامة على حين أنه منصرف إلى التفكير في أخطار الطريق ومشاقّ السفر .

---

(١) المقامة الازاذية : ١٦ .
(٢) المقامة المكفوفية : ٨٦ .
(٣) المقامة البلخية : ٢١ .

وكثيراً مانشاهد اليوم أمثال هذه الفئة من المكدّين يقفون في المحطات أو مراكز انطلاق القطر والسيارات يتصيّدون المسافرين حافّين بهم داعين لهم بالأمن والسلامة ، ومن هؤلاء ذلك الذي حدثنا عنه ابن هشام في المقامة البلخية حيث قال : « ولمّا حنى الفراق بنا قوسه أو كاد دخل عليّ شاب في زيّ ملء العين .. ولقيني من البرّ في الثناء ، ثم قال : أظعناً تريد ؟ فقلت : اي والله . فقال : أخصب رائدك ولا ضلّ قائدك . فأين تريد ؟ قلت : الوطن . فقال : بُلّغت الوطن وقضيت الوطر .. ، قال : إذا أرجعك الله سالماً من هذا الطريق فاستصحب لي عدوّاً في بردة صديق من نجار الصُفر يدعو الى الكفر ويرقص على الظفر ، كدارة العين يحطّ ثقل الدين وينافق بوجهين . قال ابن هشام : فعلمت أنه يلتمس ديناراً فقلت : لك ذلك نقداً ومثله وعدا ... » (١)

ومن الأحوال التي يحبب فيها الخير الى النفوس أن يكون الانسان في جوّ ديني تسوده روح البذل والتعاون ، أو أن يكون الإنسان منصرفاً إلى تذكّر الآخرة والزهد في الدنيا ، راغباً في الأجر والثواب ... فهو في مثل هذه الأحوال أقرب الى الاستجابة وأسرع الى السخاء . . وقد عرف المكدون ذلك فرابطوا عند أبواب المساجد أو دخلوا على الناس في المساجد فوعظوهم وذكّروهم حتى امتلأت قلوبهم بحب الآخرة ونعيمها والزهد في الدنيا ومباهجها ثم عرضوا على الناس بؤسهم وفقرهم وطلبوا منهم عونهم ومساعدتهم ؛ إنهم كثيراً مابدأوا واعظين مذكّرين وانتهوا سائلين مستجدين !

والطريف أن بعض هؤلاء الماكرين لايدعون مجالاً يسمح للمصلي بالانصراف، فهم يحرجون الناس ويشدّونهم بأغلظ الأيمان لئلا يخرجوا من المسجد قبل

---

(١) المقامة البلخية : ١٨ .

سماع الشكوى ، وذلك على نحو ماحدث لابن هشام في أحد مساجد أصفهان حين فرغ الإمام من ركعتيه « وأقبل على التشّهد بلحييه ومال الى التحية بأخدعيه ، وقلت : قد سهّل الله المخرج وقرب الفرج . قام رجل فقال : من كان منكم يحب الصحابة والجماعة فليعرني سمعه ساعة ! قال عيسى بن هشام : فلزمت أرضي صيانة لعرضي . فقال : حقيق عليّ ألا أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم لكني لا أؤديها حتى يطهّر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوّته . قال عيسى بن هشام : فربطني بالقيود وشدّني بالحبال السود .... »[1] ، وتابع خطابه حتى ملأ جرابه وانصرف .

ومن المكدين من يستجدي بحجة البيع ؛ يزعمون أنهم يبيعون الأحراز والأوراد وكتابات لها عمل السحر ! في تحبيب الأزواج بزوجاتهم أو إخراج الأفاعي من أوكارها ...

ومنهم من يزعم أنه اهتدى بعد ضلال ، وأن عطاء الناس له وتصدّقهم عليه يعصمه من العودة الى ضلاله ، يقول واحد من هؤلاء « ... والآن لما أسفر صبح المشيب وعلتني أبهة الكبر عمدت لإصلاح أمر المعاد بإعداد الزاد فلم أر طريقاً أهدى الى الرشاد مما أنا سالكه . » ثم يقول « ودُفعت إلى مكاره نذرت معها ألاّ أدّخر عن المسلمين منافعها ولا بدّ لي أن أخلع ربقة هذه الأمانة من عنقي إلى أعناقكم وأعرض دوائي هذا في أسواقكم فليشترِ مني من لا يتقزّز من موقف العبيد ولا يأنف من كلمة التوحيد .. »[2]

---

(١) المقامة الأصفهانية : ٥٨ .

(٢) المقامة السجستانية : ٢٦ .

وقد يزيد في الخداع فيزعم أنه على أهبة الجهاد والغزو وان الجود عليه إعانة له على الجهاد في سبيل الله فيقول :

أدعو الى الله فهل من مجيب الى ذرا رحب ومرعى خصيب
وجنـــة عاليـــة ما تني فطوفهـــا دانيـــة ما تغيب
إن أك آمنت فكم ليلة جحدت ربي وأتيت المريب
ثم هداني الله وانتاشني من ذلّة الكفر اجتهاد المصيب
فظلت أخفي الدين في أسرتي وأعبـــد الله بقلب منيب (١)

يا قوم وطئت داركم بعزم لا المشق شاقه ولا الفقر ساقه ، وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعنابا .. وخرجت خروج الحية من جحره (٢) والطائر من وكره مؤثراً ديني على دنياي .. فلو دفعتم النار بشرارها ورميتم الروم بحجارها وأعنتموني على غزوها مساعدة وإسعادا ومرافدة وإرفادا ، ولا شطط ؛ فكل على حسب قدرته وقدر طاقته ولا أستكثر البدرة وأقبل الذرة ولا أردّ التمرة ، ولكل مني سهمان : سهم أذلقه للقاء وسهم أفوقه بالدعاء ... » (٣)
ولا عجب في أن يزعم الجهاد والغزو لينال المال فقد رأينا جيشاً بكامله يزعم الغزو في سبيل النهب .

ومن المكدين من يطرق عليك الباب ليلاً ليزعم أنه ابن سبيل مقطوع قال ابن هشام « ولما اغتمض جفن الليل وطرّ شاربه قرع علينا الباب ، فقلنا : من القارع المنتاب ؟ فقال : وفد الليل وبريده ، وفلّ الجوع وطريده وحرّ قاده الضرّ والزمن المرّ ، وضيف وطؤه خفيف وضالته رغيف ، وجار يستعدي

(١) المقامة القزوينية : ٩٢ .
(٢) الحية للمؤنث والمذكر ويفرّقون بينهما بالوصف .
(٣) المقامة القزوينية : ٩٤ .

على الجوع . . . . (١) ، ومثله أيضاً ذلك الذي ذكره ابن هشام في المقامة الناجية . (٢)

ومن المكدين من يلجأ الى استدرار عطف الناس باصطحاب أطفاله معه ، وهو لايتحدث إليك عن فقره وجوعه لأن عطف الأبوّة أنساه ذلك ، وإنما يحدثك عن جوع أولاده وعريهم ، وأنت إن لم تتألم للرجولة الذليلة أو الأبوّة الملوّعة في شخصه فلا بدّ أن تتألم للطفولة الجائعة العارية في أطفاله ، إنه يكلمك بلسانه ويكلمونك بعيونهم ، فإن لم تتأثر بلهجته فلن تقوى على صدّ نظراتهم الزائغة الضارعة . ولقد عرف ذلك خبثاء المستجدين في عصرنا فراح بعضهم يستتبع أطفالاً يزعم أنهم بنوه وما هم ببنيه !

وقد ورد ذكر هذا النوع من المكدين غير مرة على لسان الهمذاني فهذا واحد « قد احتضن عياله وتأبط أطفاله (٣)» وهذا آخر « يتلوه صغار في أطمار(٤) » ، وربما قدّم المستجدي طفله ودفعه إلى الكلام فان ذلك أدعى للشفقة وأنفذ في القلب ، وقد دفع بعضهم طفله إلى الكلام فقال : « ماعسى أن أقول وهذا الكلام لو لقي الشعر لحلقه أو الصخر لفلقه ، وإن قلباً لم يُنضجه ما قلت لنيء . وقد سمعتم يا قوم مالم تسمعوا قبل اليوم فليُشغل كل منكم بالجود يده وليذكر غده واقياً بي ولده . واذكروني أذكركم ، واعطوني أشكركم (٥) » .

(١) المقامة الكوفية : ٣٠ .
(٢) المقامة الناجية : ١٩٩ .
(٣) المقامة الازاذية : ١٤ .
(٤) المقامة الجرجانية : ٥١ .
(٥) المقامة النجارية : ٨٩ .

ومنهم من يزعم أنه عزيز ذلّ وغنيّ افتقر ؛ « إنكم لن تأنسوا حادثاً ولن تعدموا وارثاً . فبادروا الخير ما أمكن وأحسنوا مع الدهر ما أحسن ، فقد والله طعمنا السكباج وركبنا الهملاج (١) ولبسنا الديباج وافترشنا الحشايا فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدره وانقلاب المجن لظهره فعاد الهملاج قطوفاً وانقلب الديباج صوفاً وهلمّ جرّا إلى ما تشاهدون من حالي وزيّي (٢) » .

الكدية الجماعية : ومن الطريف أن بعض المكدّين كانوا يؤلفون جماعات يستغنون بها عن الاطفال ويقدّمون واحداً منهم يسيرون وراءه ويقول الجملة فيعيدونها من خلفه .. ؛ والحق أننا نكاد لانعرف هذا النوع من الكدية الجماعية اليوم . إذ نحن نعرف تلازم مكدّيْن أحدهما أعمى مثلاً أو مقعد ، أو تلازم رجل وزوجته ، أو تلازم أسرة بكاملها . أما الكدية الجماعية فقد وصفها لنا الهمذاني في المقامة الساسانية فقال : « فبينا أنا على باب داري إذ طلع علي من بني ساسان كتيبة قد لفّوا رؤوسهم ، وطلوا بالمغرة لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجراً يدق به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاوبونه .. (٣) » .

وهكذا استعرض لنا الهمذاني أنواع الكدية وأساليب المكدين في عصره ، وقدّم لنا صوراً مختلفة عن تلك الطبقة الفقيرة التي كانت تحتال للقوت ، والتي كانت في عددها متناسبة مع ماذكر من فساد الحال وسوء الوضع في تلك الفترة ، وهي فترة قيل إنه مامرّ على الدولة أسوأ منها ، وحسبنا منها أنها بيعت فيها الدور والعقارات بما يمسك الرمق من الخبز .

---

(١) الهمْلاج من البراذين الحسن الانقياد .
(٢) المقامة النجارية : ٨٨ .
(٣) المقامة الساسانية : ٩٧ .

٥ ـ قلّة الأمن وكثرة اللّصوص

السياسة والأمن : رأينا أن الأحوال السياسية لذلك العصر كانت مضطربة وأن أوضاع الحكم فيه كانت غير مستقرة ، ولا شك أن ذلك يؤدي في أغلب الأحيان إلى فقدان الأمن وكثرة الجرائم ، ونحن لانزال إلى اليوم نشاهد الأمثلة الكثيرة على ذلك ؛ إذ لاتلبث أن ترتبك سياسة البلاد وتتزلزل أوضاع الحكم حتى تنشط الجريمة ويكثر الفساد ... وما يزال الأمر كذلك حتى يعود الأمر إلى نصابه وتتولى زمام الحكم يد قوية تعرف كيف تضرب على يد البغي والفساد ..

في التاريخ : وكان طبيعياً أن تكثر الجرائم وحوادث النهب في تلك الفترة التي اضطربت فيها شؤون البلاد وأصبحت المناصب الكبرى نهباً مرزّعاً بين الأقوياء ؛ لقد كان بين الناس لصوص يسطون على القوافل في الطرقات وعلى البيوت والمخازن في المدن ، كما كان بين السياسيين والحكام لصوص يسطون على المناصب وينهبون الوظائف ، والناس على دين ملوكهم ، وإذا كان عمران بن شاهين يغتصب السلطة في أرض البطيحة ويستقل بها أيام معز الدولة ، فقد كان معز الدولة نفسه مغتصباً للسلطة مستأثراً بها . ومما يدل على مبلغ الاضطراب وفقدان الأمن ذلك التعرّض الوقح لقوافل الحجاج والتجار حتى بات الحاج لايأمن على حياته « لقد كان الحج في تلك العصور بسبب ما كان في الطرق العربية من المخافات وقلة الأمن غير ممكن أحياناً أو معرّضاً صاحبه للموت أحياناً أخرى [١] » وفي كتب

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٥٩ .

التاريخ أن الحج تعطل غير مرة نتيجة لما حلّ بقوافل الحجاج من قتل ونهب .

وليس خبر الجيش الذي زعم الغزو وقام بالسلب ببعيد عنا ، وقد ذكروا عن جنوده « المجاهدين » أنهم كانوا يخرجون ليلاً ومعهم آلاتهم من السيوف والحراب والقسيّ والسهام ويزعمون أنهم يأمرون بالمعروف فيسلبون العامة مناديلهم وعمائمهم وإذا تمكنوا من تفتيشهم وأخذ جميع مامعهم لم يقصّروا في ذلك (١) .

وحسبنا أن نقول إن العراق لم يتمتع بالأمن قط في أثناء القرن الرابع الهجري (٢) وهو مركز الدولة وفيه قوّتها ، فما بالك بالمناطق والأقاليم النائية عنه وعن مركز السلطان ؟

في المقامات : يخصّ الهمذاني هؤلاء اللصوص بنصيب من مقاماته ويذكر أنواعاً منهم متعددة ؛ فيحدثنا عمن يتعرض منهم للمسافرين في الطرقات كذلك الذي خرج على ابن هشام وصحبه في طريق حمص « ثم اندمج بهم وخدمهم وعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوّق سهماً فرماه في السماء وأتبعه بآخر فشقه في الهواء . وقال : سأريكم نوعاً آخر ، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها ، وإلى فرسي فعلاه ورمى أحدنا بسهم أثبته في صدره ، وآخر طيّره من ظهره . فقلت ويحك ما تصنع ؟ قال : اسكت يا لكع ، والله ليشدنّ كل منكم يد رفيقه أو لأغصنّه بريقه ... (٣) » ثم نزع عنهم ثيابهم

(١) الحضارة الإسلامية : ٦٦ .
(٢) المرجع السابق : ٢٩٤ .
(٣) المقامة الأسدية : ٣٧ .

وكاد يذهب بها لولا أن عاجله بعضهم بطعنة قضت عليه ، ومثله الذي خرج على ابن هشام وصاحبه الاسكندري وهما عائدان من الموصل فملك عليهما القافلة وأخذ منهما الرحل والراحلة ...[1] » .

وأما اللصوص الذين يسطون على البيوت والمحال التجارية ، والنشالون الذين يسرقون من الناس في الطرقات فقد تحدث الهمذاني عنهم طويلاً في المقامة الرصافية حيث قال على لسان ابن هشام : « خرجت من الرصافة أريد دار الخلافة وحمّارة القيظ تغلي بنار الغيظ ، فلما نصفت الطريق اشتد الحرّ وأعوزني الصبر ، فملت إلى مسجد قد أخذ من كل حسن سرّه وفيه قوم يتأملون سقوفه ويتذاكرون وقوفه ، وأداهم عجز الحديث إلى ذكر اللصوص وحيلهم والطرّارين وعملهم ...[2] » ثم يتابع ذكر أسمائهم وتعداد أنواعهم حتى زاد على السبعين نوعاً ، مما جعل هذه المقامة مصدراً « دسماً » للصوص والنشالين أو لمن يريد أن يعرف شرّهم ويدفع عنه أذاهم ، كما جعلها ، من ناحية ثانية ، صورة من صور الأخلاق الفاسدة والبؤس المنتشر ...

(يتبع) الدكتور مازن المبارك

---

(١) المقامة الموصلية : ١٠٣ .
(٢) المقامة الرصافية : ١٦٥ .

دراسات في العربية[1] والألسنية[2]

ليس بين كل البلاد التي تضاهي جزيرة العرب حجماً ، أو بين كل الشعوب التي تناهز العرب في الأهمية التاريخية والمكانة العالمية بلد أو شعب ناله من إهمال الباحثين في العصور الحديثة ما نال الجزيرة العربيـــة والشعب العربي[3] » .

بهذه العبارة الصريحة المريرة صدر زميلنا الكبير الدكتور فيليب حتي كتابه القيم (تاريخ العرب) « مَكْميلانْ ، لندن ونيويورك » منذ نيف وثلاثين سنة .

والواقع أن الباحثين لم يهملوا جزيرة العرب والشعب العربي حضـارة وعمراناً فحسب ، بل أهملوهما لغة وأدباً أيضاً ، وربما كان لإهمال اللغة العربية سبب وجيه كصعوبة البحث فيها مثلاً من قبل بحاثين لم يقضوا في دراستها أكثر من ثلاث إلى خمس سنوات ، في معاهد أوروبية أو أمريكيـة . ويذكر عن لسان مستشرق أمريكي شغل كرسي الدراسات العربية في جامعة هارفارد أنه كان يقول : « إن صعوبة دراسة اللغة العربية لا تتجاوز سني

---

(١) المقصود بهذا الاصطلاح « اللغة العربية الفصحى أصواتاً وكلاماً وصرفاً ونحواً » .

(٢) أي علم اللغة التحليلي — التطبيقي ، لِنْجْوِيسْتِكْس .

(٣) فيليب حتي وادورد جرجي وجبرائيل جبور : (تاريخ العرب) ، « مطول » ، بيروت ، دار الكشاف ، الجزء الأول ، الصفحة الأولى ، هذا الكتاب هو ترجمة كتاب الدكتور فيليب كي هِتّي : هِستْري أُفْ ذي أَرَبْز الذي نشرته دار مَكْميلانْ للمرة الأولى في عام ١٩٣٧ .

الدراسة الخمسين الأولى . » ولا يخفى أن لتصريح كهذا أثره في نفس الطالب الغربي ؛ إنه ، بالرغم من فكاهته ، تصريح من النوع الذي يعلق في ذهن سامعه فيترك أثراً سلبياً هائلاً لا يلبث أن يفعل فعله في ميول الطالب العملية فيحوله عن العربية والأدب ويدفعه إلى سواها من الدراسات . . .

ولقد كان من نتائج إهمال البحث في اللغة العربية أن أغمط حق علماء الألسنية العرب فلم يذكر تاريخ العلوم الألسنية لهم فضلاً في تطور هذا العلم الحديث وبناء صرحه . فالطالب العربي والأجنبي على السواء يجد أبحاثاً متعددة تتناول العرب ديناً وشرعاً ، أمةً ودولاً ، وجغرافية وتاريخاً ؛ ولكنه ، إذا ما تصدى للتحري عن مصادر رئيسية في لغة أجنبية ، تبحث في لغة العرب ومساهمة علمائها العرب والمستعربين في بناء صرح العلوم الألسنية والنهوض بها وعزلها عن الخرافات والأوهام ، وجد أن دون غرضه خرط القتاد . والقليل القليل المتوفر من هذه الدراسات اللغوية النادرة لا وجود له إلا في خزانات كبار المستشرقين [١] ، وعلى رفوف مكتبات أمهات الجامعات الغربية [٢] ، ولذلك نجد النبيه من خريجي الجامعات الغربية ، في العلوم الألسنية ، لا يزال يعتقد بأن هذه العلوم الحديثة ولدت في

---

(١) علماء الساميات خاصة من أمثال : دي ساسي ، فْلايْشِر ، فْرايْتاغ ، فولِّرْس ، فِشِر ، رابين ، بْلوخ ، يُشْمانوف ، فْليش ، بِرْكْلانْد ، شْبيتالِر ، الخ .

(٢) كمكتبات جامعات هارْفَرْد ، وكولومبيا ، وبْرِنْسْتُن في الولايات المتحدة الأمريكية ، مثلاً .

بور رويّال [١] وبدأت نموها العلمي الحديث بفضل السِرْ وِلْيَمْ جونْز [٢] ... بينما الحقيقة العلمية تقرر بأن العرب، تسعة قرون قبل بور رويّال، ونيف وألف سنة قبل وليم جونز ، أنجبوا علماء كان لهم في ميدان العلوم الألسنية شؤون . ففي القرن الثامن الميلادي - وربما قبل ذلك بقرنين أو أكثر [٣] - كان علماء الألسنية من العرب والمستعربين يتجادلون في ماهية الصوت وكيفية حدوثه ، وفي ذاتية الحرف ، وكيفية حرفه ؛ وكان منهم من يخرج إلى المناطق المعزولة في الصحراوات العربية للاستماع إلى اللغات واللهجات المتحدث بها هناك وللاستماع إلى لغة من هو في عروبته عريق من الذين إذا تكلموا أجادوا وما لحنوا .

أين هذه الحقائق التاريخية المثبتة مما يقوله مستشرقو الغرب وعلماؤه من أمثال هُلْجِر بِدِرْسونْ الذي يقرر ، بحق :

---

(١) بور رُوَيّالْ دِي شانْ ، دير يبعد ثمانية أميال تقريباً عن فِرْساي بالقرب من باريس ، أسست فيه مدرسة دينية عام ١٦٤٣ م درّس فيها لأول مرة غراماطيق لاتيني (١٦٤٤ م) وآخــر غريقي (١٦٥٥ م) من تأليف لانْسِلو — رَجي ، إي سانْدِزْ ؛ إي هِسْتْري أفْ كْلاسِكالْ سْكالَرْشِيپْ . نيويورك ١٩٥٨ ، المجلد ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) السر وليم جونز ، ١٧٤٦ — ١٧٩٤ ، مستشرق انكليزي زائع الصيت وأول من لفت نظر علماء الغرب إلى صلة القرابة اللغوية بين اللغة السنسكريتية الهندية واللغات الأندو - أوروبية المنتشرة في أوروبا الغربية ، وخاصة اللغتين الإغريقية واللاتينية الكلاسيكيتين .

(٣) هناك من يقول بأن المبشرين المسيحيين قد ترجموا التوراة والأناجيل إلى العربية قبل نزول الوحي على الرسول العربي . فاذا صح هذا القول - وهو لا يزال بحاجة إلى إثبات - كان علماء الألسنية من العرب والمستعربين قد بدأوا وأتموا دراسة العربية في العصر الجاهلي .

« أورث العالم القديم (يعني بذلك الإغريق والرومان) أوروبا ميراثاً مثقلاً بالأوهام في تاريخ اللغة ... »

« وكان انتشار المسيحية مطلع المرحلة الأولى في تاريخ العلوم الألسنية في أوروبا . فلقد جلبت معها أولى الانبساطات في أفق العلوم الألسنية ... »

« وكذلك تدين العلوم الألسنية الحديثة للبوذية بدين كبير ... »(١)

ولكنه يختتم قوله بتصريح لا يمتّ إلى الحقيقة العلمية بصلة ، فيقول :

« ليس هنالك من سبب قط لشكر المحمدية (يعني الإسلام) في هذا المضمار . » (٢) أو العلامة يِسْپِرسِنْ الذي يتجاهل في أبحاثه مساهمة العرب والمسلمين في تصعيد العلوم الألسنية والارتقاء بها إلى مصاف العلوم الحديثة في الغرب ، فيقرر بأن هذه العلوم ولدت عندما بدأ الناس يتساءلون لماذا لا يتكلم البشر جميعاً لغة واحدة ؟ كيف خلقت الكلمة ؟ ما هي الصلة بين اسم الشيء الحقيقي وذاتيته ؟ ولماذا يسمى هذا الشيء كذا عوضاً عن كيت ؟ الخ . ثم يتابع يسپرسن عرضه التاريخي هذا فيقول بأن اليهود هم سبب الفوضى في العلوم الألسنية إذ علّم أنبياؤهم بأن اللغة هي من وضع

---

(١) إنْشْ پدِرْسونْ ، سبْروغتيدِنْسْكابِإيدِتْ نيتْنَنْدي آرْهنْدْرِدي: ميتودِرْ اوغْ ريزِلْتاتِرْ كوبنهاغن ١٩٢٤ وقد ترجمه إلى الانجليزية جون وِبْسْتِرْ سْبراغو ونشر في كامبريدج ، ماس ، عام ١٩٣١ بعنوان لِنْجْويسْتِك ساينْس إنْ ذي نايْنْتينْ سِنْتْشري : ميتُدْزْ إنْد رِزَلْتْزْ رَ الصحيفة التاسعة حيث الاشارة إلى البوذية تهدف المدرسة اللغوية الهندية التي تبلورت أسسها العلمية وظهرت في أبحاث پانيني .

(٢) المصدر ذاته ، التعليق والهوامش ستأتي فيما بعد .

الإله ، خالق كل شيء . ويزيد فيقول بأن الاغريق القدماء أيضاً سببوا تشويشاً في هذا المضمار إذ عالجوا موضوع الألسنيات معالجة فلسفية موضوعية فقال قسم من فلاسفتهم بأن اللغة وجدت وتطورت بصورة طبيعية (فوزيي) وقال آخرون بأنها وضع متوافق عليه (ثوذيي) . ثم يشير هـــذا العالم الغربي إلى أهمية ترجمة التوراة والأناجيل إلى اللغة القوطية في القرن الرابع الميلادي [١] متجاهلاً تمام التجاهل الترجمة الروسية للكتاب المقدس التي وضعها كيريلّس ومِتوديوس في القرن التاسع [٢] والتي لا تقل أهمية عن الترجمة القوطية . أما القرون الوسيطة فإن يسپرسن يؤكد بأنها لم تنتج السنيّا ما يستحق الذكر وبأن هذا الحال المعتم الكالح لم يزُل إلا بفضل السر وليم جونز [٣] ...

وهكذا نجد الطالب المتخرج في العلوم الألسنية من جامعات الغرب ما زال كسلفه يظن بأن القرون الوسيطة وحتى القرون السبعة التي سبقتها كانت قروناً جرداء خالية لم ينتج خلالها في العلوم الألسنية إلا ما سجله پانيني وخلفاؤه من علماء الهنود . هذا الوهم هو المسؤول الوحيـــد عن تصريحات علماء الغرب الذين يقولون بأن العلوم الألسنية لم تتقدم خطوة واحدة خلال الزمن الواقع بين عهد پانيني الهندي وپور رويّال الفرنسي .

---

(١) الترجمة المعروفة باسم « ترجمة وُلْفيلا أو وُلْفيلاس » التي يتفق المؤرخون على أن تاريخها هو ٣٨٣ ميلادية .

(٢) آ . لِسْكين : « سْلافيشِه إيبَرْستْزونْغ » في سلسلة تِكْسْت اونْدْ ايبَرْسِتْزونْغ دِرْ بيبِلْ المنشورة في لايبزيغ عام ١٨٩٧ ص ٢١١ .

(٣) انظر المقال المعنون « غْرامَرْ إنْدْ غْرامارْ يَنْزْ » في اوكسفُرْد كْلاسّكالْ ديكْشَنَري المطبوع في أكسفورد عام ١٩٤٩ .

وإذاً ، فالهدف من هذه الدراسة (وما سيليها من دراسات في العربية والألسنية) هو تعريف القسم الأكبر من المتخرجين وذوي الاختصاص في العلوم الألسنية بفضل العرب والإسلام في تطور هذه العلوم وعرض حقائقها التاريخية عرضاً يستند إلى وثائق لا مجال للشك فيها لا تاريخاً ولا نصاً ، وثائق نشرت لا في القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد فحسب ، بل وأيضاً في لندن وأكسفورد واوسلو ولايبزغ وبرلين وباريس . ولسوف نبدأ هذه الدراسات بالتحري عن فضل الإسلام والمسلمين من عرب ومستعربين في الأبحاث الصوتية (فُنيتيكْس) .

بدءُ اهتمام العرب بالعلوم الألسنية

ليس من السهل تحديد تاريخ اهتمام العرب بالعلوم الألسنية . إن أول دليل على هذا الاهتمام هو الدليل الكتابي المتوفر لنا من خلال الآثار والنقوش التي عثر عليها حتى تاريخ تحرير هذا البحث . وربما عثر فيما بعد على نقوش وآثار كتابية أقدم من المراجع التي اطلعنا عليها حتى هذا التاريخ ؛ في هذه الحال ، يجب إعادة كتابة هذه المقدمة الموجزة وإبدال ما نعتبره اليوم كمطلع فجر العلوم الألسنية العربية ، ورده إلى تاريخه الصحيح الذي نعتقد بأن علماء الآثار سوف يوفّقون إلى اكتشافه . وإذاً ، فان هذه المقدمة ليست سوى حجرة مسافة موقتة نضعها على مفرق طريق طويل لا نعرف حتى الآن أين مبدأه وإن كانت لدينا فكرة واضحة عن منتهاه .

إن الآثار والنقوش التي اكتشفت حتى الآن هي كل ما لدينا اليوم من مصادر في دراسة الألسنية العربية القديمة . ومن أقدم وأوثق هذه الآثار آثار سيناء والنقوش المصرية القديمة التي يعود تاريخها إلى أولى السلالات الفرعونية ،

والتي تحتوي على ذكر وصور لأعراب عملوا في المناجم المصرية في شبه الجزيرة المذكورة (١) . وليس هنالك من شك في أن تلك الصور المصرية القديمة هي لعرب البادية ، إذ يؤيد هذا الرأي وجود صور مشابهة لها لأقوام دُعوا في اللغة الأشورية أربي ، أي أعراب / عرب ، اكتُشفت في العراق الحديث . فإذا ما اعتبرنا أولئك « الأَربي » عربا — وهذا افتراض منطقي — تمكّنا من التقرير بأن الفكر الألسني العربي بدأ في التاريخ القديم البعيد ، وتبلور خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أي قبل الاغريق واليهود والهنود بقرون . فأعرابنا هؤلاء اهتموا بلغتهم اهتماماً علمياً دفعهم إلى محاولة إبداع صور للكلام العربي ، أي إلى كتابة لغتهم القومية . ومعلوم أن فن الكتابة هو الدليل الأول على نضوج الفكر الألسني .

أما إذا وجد من يعارض هذا القول مشيراً إلى أن الدلائل على اعتبار « الأَربي » المشار إليهم عرباً هي غير وافية — وهذا من حق العلماء ، طبعاً — فإننا في هذه الحال نملك حق الإشارة الى نقوش الجزيرة العربية — وهذا حق لا يمكن الاعتراض عليه . ففي جنوبي جزيرتنا الكبرى اكتشفت حتى اليوم نقوش يعود تاريخ أقدمها إلى حوالي عام ٩٥٠ قبل المسيح ، نقوش تدل بوضوح على نضوج التفكير الألسني لدى العرب القدماء نضوجاً تاماً لا يقبل الريب ، وصل إلى ذروته أربعة قرون قبل ولادة ارسطـــاطيس

(١) رَ فْلانْدِرْزْ پِيتْرى : رِيسِرْشِزْ إنْ سايْناي . لندن ، ١٩٠٦ ؛ وانظر مثلاً البحث الذي نشره غارْدْنَرْ في جِرْنال أفْهاجِيشْانْ أرْكيولَجي ، ٣ ، ١٩١٦ ، ص ١ — ١٦ ، وأيضاً المصادر المذكورة في هوامش الصفحة السادسة من كتابنا لِنْجَوِسْتِكْس إنْ ذى مِدْل آجْزْ : فونيتيك ستَدي إنْ إرْلي إسْلامْ ، لايدن ، ١٩٦٨ .

فيلسوف الاغريق الذي ندين له بفكرة تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف . . . .

وإن في النقوش التي اكتشفت لعرب الجنوب لأوفى دليل على أن العرب سبقوا الغرب بقرون في العلوم الألسنية وخاصة في علوم الصوت (فونتيكْسْ) الذي يعتبر حجر الزاوية في الدراسات الألسنية . هؤلاء العرب القدماء درسوا لغتهم أصواتاً وكلاماً فأبدعوا في أبحاثهم وارتقوا بها إلى درجة من الكمال قلَّما بُلِغَت حتى في عصرنا الحاضر (١) فلقد ميزوا بين أصوات لغتهم بين حروف لم يتمكن علماء (٢) الغرب من معرفة وتحقيق مخارجها بالضبط حتى اليوم فمرقوها بِـ (س١ ، س٢ ، س٣) ، أي حروف السين والشين والصاد وحرف ربما كان بين السين والصاد (؟) والزاي والظاء .

إننا لعلى حق عندما نقرر ونقول بأن العرب أسْدَوا أكبر الفضل وساهموا أكبر المساهمة في تطوير وتصعيد المعارف الألسنية . أين هذه الحقيقة مما يقرره علماء الغرب ويقولونه كتابة ومحاضرات بأن العرب والمسلمين لم يساهموا قط في تطوير العلوم الألسنية ؟

* * *

(١) انظر كتاب « ألتْسودْ أرابيشه غرامّاتيكْ لماريّا هيفْنَرْ المطبوع في لايبْزيغ عام ١٩٤٣ وكتـاب كْرِسْتوماثيا أرابيـكا مِريديوناليسْ إيغْرافيـكا لِكونتي روسّيني المطبوع في روما عام ١٩٣١ .

(٢) هكذا عبر عن هذه الأصوات وْلفْ ليسْلو في كتابه « لِكْسيكْ سوكوتْري » باريس ١٩٣٨ » (؟) .

كان عرب الجنوب أصحاب تجارة ، وكانت قوافلهم تجوب الشرق العربي من أقصاه إلى أقصاه ، طلباً للكسب عن طريق التبادل التجاري المنتج . وكانت لهذه القوافل خانات تحط فيها طلباً للراحة بين كل مرحلة وأخرى . ونمت تلك الخانات حتى أصبحت جاليات مستقلة استوطنت طوال الطريق من الجنوب إلى الشمال ، ومن الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي . وإن لدينا من المعلومات العلمية الصحيحة المستندة إلى وثائق صحيحة الكثير مما تضمنته كتب وأبحاث كثيرة يسرنا أن نشير إلى أهمها ألا وهو الكتاب القيم الذي ألفه السيد الدكتور جواد علي في تاريخ العرب قبل الإسلام والذي طبع ، في أجزاء لدينا منها ثمانية ، بإشراف المجمع العلمي العراقي ، فليرجع إلى هذا المصدر الوثيق .

وكان من جرّاء الاتصال الحضاري بين عرب الجنوب وعرب الشمال أن توحدت الكثير من العادات الماشية والحضارية بين القومين . ومن جملة ما تعلمه عرب الشمال من إخوانهم الجنوبيين فنّ الكتابة مما تدلنا عليه النقوش التي عثر عليها في جنوبي الجزيرة وشمالها ، والتي يعود تاريخ بعضها إلى القرن السادس قبل المسيح ، صاعداً بعد ذلك إلى حوالي القرن الرابع الميلادي (١) ! هذه

---

(١) انظر كتاب ونِّيتْ المطبوع في كندا عام ١٩٣٧ بعنوان (إي صنْتَدي أفْ لِهْينايْتْ إنْدْ تَمودِكْ إنسْكْرِپْشَنْز) وكتاب كاسْكِل المطبوع في كولونية بألمانية الغربية عام ١٩٥٤ تحت عنوان لِحْيانْ أونْدْ لِحْيا نِشْ وكتابي لِتْمانْ المطبوع أولها في برلين بعنــــوان تْسور إنْتْسيفِرونْغ دِرْ ثاموديشِنْ إنْشْرِفْتِنْ والآخر في لايبزيغ عام ١٩٤٠ بعنوان تامودْ أونْد صَفا . وراجع أيضاً كتاب فانْ دِرْ بْرانْدِنْ المطبوع في لوفين ، بالبلجيك تحت عنوان ليزانسْكْروپسيون ثاموديّنْ . وأيضاً الباب الأول القسم الأول آ من كتابنا اِنْجْويسْتِكْسْ إنْ ذِي مِدْلْ آجزْ . فونيتِكْ صْتَدِيزْ إن إرْلي إسْلام المطبوع في لايدن عام ١٩٦٨ ومصادره والوثائق المستند إليها فيه .

النقوش تدل على وجود ألفباء عربية مؤلفة من ثمانية وعشرين حرفاً تشبه شبهاً كبيراً الألفباء التي استعملها عرب الجنوب . وأقرب هذه النقوش الألفبائية شبهاً بحروف العربية النقش النبطي . ومعلوم أن النبط أقوام عرب استعملوا اللغة العربية في حياتهم اليومية بينما كتبوا باللغة والقلم الآرامي المؤلف من اثنين وعشرين حرفاً (١) . وربما كانت النقوش النبطية هذه أصل الخط العربي الذي تطور فأصبح الخط الذي نستعمله اليوم . وسيكون لنا في هذا المجال شوط آخر ....

أما بصدد ما يظنه العلماء من أن المبشرين المسيحيين القدماء قد تركوا أثراً في هذا المضمار فإن العلماء هؤلاء لا يزالون في حيرة من أمرهم اذ لم يُعثر حتى الآن على أثر كتابي مسيحي بحت تركه المبشرون القدماء خلال عملهم الديني في شبه الجزيرة العربية ، قبل مجيء الرسول برسالته الخالدة التي كان من جملة ما أسدته للعالم من قيم ونعم لغة رفيعة معبرة خلاقة وأدباً عالياً إنسانياً نبيلاً ، خُلِّدَ بخط جميل لم يعرف البشر مثيلاً لكماله الصوتي حتى تطور العلوم الصوتية في الغرب ، الذي أدى إلى وجود الخط المعروف بالخط الصوتي العالمي في عصرنا الحاضر .

★ ★ ★

(١) انظر الأبواب الخامس والسادس والسابع من كتاب الدكتور فيليب حتي (فِليب كي هِتّي) هِسْتْري أفْ ذي أَرَبْز ، الطبعة التاسعة ، ١٩٦٧ ، والباب الثاني من كتابنا المذكور في الحاشية السابقة .

كان فن الكتابة معروفاً في الجاهلية ، وقد استعمله المكيون في معاملاتهم التجارية كما استعملوه وغيرهم من العرب في بعض الأحوال غير الاقتصادية في العصر الجاهلي[1] . وهنالك على الأقل دلائل ثلاث تؤيد هذا الرأي :

أولاً : كلام الله في قرآنه العربي حيث وردت كلمات عديدة تشير إلى هذا الفنّ ودقائقه ومفرداته كـ : كتاب ، قلم ، صحيفة ، قرطاس ، سفر ، قطّ ، رقّ ، دواة ، سطر ، حبر ، مجلة ، نسخة ، سجل ، قمطر ، جرسيس ، ختم ، الخ .

ثانياً : إشارات عديدة إلى فنّ الكتابة في القرآن الكريم وفي سيرة رسول الله (ﷺ) ، مثلاً :

آ : القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجَل مسمّى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتّق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فان كان الذي عليه الحقّ سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليّه بالعدل ،

(١) انظر مثلاً مارْكْ لِدْزْبارْسْكي : هانْدْبوخ دِرْ نوْرْدْسِميتِيشِنْ إبِغْرافيكْ نيبسْتْ أوْسْغيفِلْتِينْ إنْشْرِفْتِينْ (فايْمارْ ، ١٨٩٨) ، خليل نامي (أصل الخط العربي وتاريخ تطوره قبل الإسلام) (القاهرة ، ١٩٣٥) . وج . كانْتينو لي ناباتيينْ (باريس ، ١٩٣٠ — ١٩٣٢) .

واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين ، فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألاّ تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضارّ كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ويعلّمكم الله والله بكل شيء عليم » . وأيضاً سورة النور ، الآية ٣٣ : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » ... إلى نهاية الآية . » .

ب — سيرة سيدنا محمد رسول الله ، ﷺ (تحقيق ف . فوستينفلد ، غوتنغن ، ١٨٥٨ ، ص ٣٣٢) وسواها [1] حيث نجد الرسول يأمر كتبته بالكتابة ، مثلاً ، السيرة : « أنا سراقة بن جشعم انظروني أكلمكم فو الله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه قال فقال رسول الله (ﷺ) لأبي بكر قل ما تبتغي منا ، قال فقال لي ذلك أبو بكر ، قال فقلت تكتب لي كتابا يكون آية بيني وبينك ، قال اكتب له يا أبا بكر ، قال فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزفة ثم ألقاه إلى ... »

(١) مثل الكامل للمبرد ، وأسد الغابة لابن الأثير ، وتاريخ اليعقوبي وخميس الديار بكري ، حيث يجد الباحث كثيراً من الاشارات الدالة على معرفة العرب القدماء بفنّ الكتابة .

ثالثاً : في الشعر الجاهلي حيث نجد عدداً كبيرا من الأبيات التي تحتوى على إشارة الى فنّ الكتابة العربية ، مثل :

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

من شعر امرئ القيس في ديوانه الذي حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ونشرته دار المعارف بمصر في سلسلة ذخائر العرب رقم ٢٤ — ص ٨٩ (١) .

ولكن هذا الفن العقلي — العملي المهم لم يتقدم تقدماً محسوساً حتى بزوغ فجر الاسلام وشمسه على العالم في شبه الجزيرة العربية . فالإسلام هو دين سماوي أساسه « الكتاب » والكتاب كتاب الله أنزله على رسوله في أوانه ، معجزة ما زال البحث في ماهيتها أمراً غير مستحب ، كما هو الحال في جميع الأمور الروحانية التي هي من الله وله . وعليه فإننا في ذكرنا لكتاب الله لن نحاول أكثر من النظر فيه شكلا ووصفا لغويا من حيث انه ، علاوة على كونه وحدة روحانية تامة ، هو أيضا ، في شكله المادي ، وحدة لغوية تامة ، كتاب في صحائف معدودة يحتوي على مادة لغوية معينة غير قابلة للتصحيف والتغيير . ففي هذا الصدد ، نجد آيات القرآن الكريم إنما كتبت اول ما كتبت بخط قريب الشبه بالخط النبطي ، متحذر منه بلا شك . ومعلوم ان الأنباط كانوا عربا .. وبظننا أنه لو لم يمن الله على العرب برسول منهم تلقى « الكتاب » وحياً أنزل عليه بلسانهم لما تطورت العربية لسانا وكتابة وأدبا وعلوما ، ولما وصلت إلى ما وصلت إليه من الكمال بتلك السرعة الهائلة ، التي لا نجد في تاريخ الأمم وتاريخ الألسنية ما يماثلها ويضاهيها .

---

(١) جمع ج فيدَرْكُرْن الكثير من هذه الشواهد ونشرها في العدد العاشر من اوبْسالا اونيفيرْسيتيتسْ اورْسْكْرِفْتْ عام ١٩٤٨ ، وانظر أيضاً بحثاً لنا في مجلة (ذى مسلم ورلد) الأمريكية ، العدد ٣/٥٦ لعام ١٩٦٦ بعنوان « اذْجوكيشَنْ إنْ إسْلامْ فْرَمْ ذي جاهلية تو ابن خلدون » ص ١٨٨ — ١٩٨ .

هذا ما نراه على أساس معرفتنا الشخصية التي وصلنا إليها عن طريق الدرس والتمحيص . وطبعاً ليس هنالك ما يمنع الغير من مخالفة رأينا هذا ومعارضتنا فيه معارضة علمية رصينة . والواقع أن هنالك البعض ، من عربي أديب ، ومستشرق عالم ، ممن لا يرون رأينا هذا ... والفرق بيننا ان الرأى الذي نبديه تدعمه دلائل وشواهد نظرية ومادية ، بينما لا يدعم رأي معارضينا سوى نظريات احتمالية لا قيمة علمية لها .

أما وقد قررنا بأن الدين الحنيف هو المسؤول الأول عن تطور العربية وعلومها ، فانه ليجدر بنا الآن أن نبين بايجاز كيفية ذلك ونتائجه .

في القرآن الكريم ، سورة المزمل ، الآية الرابعة ، نجد الأمر بترتيل « القرآن ترتيلا » . برأينا أن هذا الأمر الصريح هو نقطة الانطلاق في تطور العربية وعلومها . معلوم أن العـــرب القدماء « أنشدوا » الشعر إنشاداً ولم يلقوه إلقاء كما هي العادة في النثر من خطاب وخطابة وقصة . ومعلوم أن إنشاد الشعر لم تكن له قواعد يعرفها الإخصائيون بذلك ، ويتبعونها بدقة وإخلاص . فلقد كان كل شاعر وراوية إنما ينشد الشعر انشاداً على سليقة فردية . أما « ترتيل » القرآن — والفرق بين القرآن والشعر هو فرق أساسي واضح — فما كان ليجوز فيه التحرر من تقليد أقرّه الرسول ووجب التقيّد به . وطبيعي أن يجري هذا التقليد النبوي مجرى القانون على كل من آمن بالله ورسوله . وهنا ظهرت عوامل ثلاثة :

اولاً : لم تكن لغة سكان الجزيرة العربية واحدة موحدة في القرن السابع الميلادي ، إذ كان هنالك لغات قبلية تختلف واحدتها عن الأخرى أصواتا ومفردات وتركيباً . ومعلوم أن الرسول كان قرشياً ، وان قريش كانت قمة

الهرم الاجتماعي العربي ، وإذاً ، مرجعه في جميع الأمور الحضارية ، بما في ذلك اللغة . ونزل القرآن على محمد بن عبد الله بلسان لا يمكن ان يكون فيه أي اختلاف عن لسان الرسول . ويؤيد هذا ما نقرأه عن أوائل المسلمين ، وإصرارهم على تدوين كلام الله بلغته الأصلية ، لغة قريش ، مقرّين عن علم ومعرفة بأن ذلك الكلام إنما أنزل على رسولهم بلغة قريش نفسها [١] .

ثانيا : عندما توسعت رقعة الاسلام وامتدت عبر حدود الجزيرة العربية ، ابتدأ الناس ، من غير العرب ، يدخلون في الدين الحديث زرافات . ومعلوم أن المسلم ، مهما كانت جنسيته ومهما كان لسانه ، يدين لربه بواجب الصلاة وقراءة ماتيسر من « الكتاب » بلغة « الكتاب » .

وإذاً ، فلقد كان على كل مسلم ، عربياً كان أم أجنبياً تعلّم قراءة العربية تعلمًا صحيحا يمكّنه من تأدية واجباته الدينية على سنّة الله ورسوله .

ثالثاً : كان المسلمون الذين اعتنقوا الإسلام في الشام ومصر وفي العراق وفارس أقدم عهداً بالحضارة من عرب الجزيرة ، وكان جلهم من المسيحيين وبعضهم يهود . وهؤلاء كانوا على معرفة بتقاليد الشريعتين : المسيحية والموسوية ، فيما يتعلق بكتبهم الدينية من توراة وأناجيل ، وكذلك كان بعض العرب ممن تنصّر وتهوّد ، أو عاشر أهل الكتاب ، أو على الأقل ، رأى رهبان وكهنة المسيحية يمارسون طقوسهم الدينية ويعنون بكتبهم المقدسة [٢] ، فكان من

(١) انظر المقنع للداني والإتقان للسيوطي واو. بْرِتْزِلْ اورتوغْرافي اونْدْ بونْكتيرونْغْ دِسْ كُرانْ (اسطنبول ، ١٩٣٢) و آ . جِفْري مَتيرْيَلْزْ فورْ ذي هِسْتْري أفْ ذي تِكْسْتْ أفْ ذي قُرآنْ لايْدِن ، ١٩٣٧) وأيضاً ح . رابين آنْشِيِنْتْ وَسْتْ أرابْيَنْ (لندن ، ١٩٥١) وحوده (القراءات واللهجات) (القاهرة ، ١٩٤٨) .

(٢) أتت حجج بعدي عليه فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

وقد تقدم ذكر هذا البيت في حاشية سابقة .

الطبيعي أن ينظر هؤلاء المسلمون الجدد إلى كتاب الله ، ويقرءونه بكثير من التقوى والخشوع . والقرآن الكريم ، كان ولا يزال في نظر المسلمين ، اعظم شأناً من الكتب السماوية الأخرى ، ولذلك كانت هنالك حاجة ماسة لحفظه تاما كاملا لا يشوبه نقص لا في كلامه وتركيبه ولا في تجويده : وكانت هنالك ضرورة لتعليم الناس قراءة آياته البينات قراءة صحيحة لا لحن فيها ، خاصة وقد وقف بعض الصحابة على ما كان المستعربون يرتكبونه من الخطأ في قراءة « الكتاب » إذ كانوا يجوّدونه دون إلمام علمي باعرابه فيقعون في أخطاء شنيعة (١) .

وهنا بدأت المصاعب تظهر للعيان . فالخطّ العربي الذي رُسم به المصحف في عهد عثمان ، والذي أرسلت نسخ منه إلى كل من مكة المكرمة والبصرة والكوفة والشام ، كان خطّا لم يصل بعد إلى الكمال ، مثلا :

آ . كان الحرف غير منقوط ، وكانت بعض الحروف . تمثل عددا من الأصوات فالباء ، والتاء ، والثاء والنون في مطلع الكلمة ووسطها ، كانت تكتب سواء ، وكذلك الجيم والحاء والخاء ، والدال ، والذال ، والراء والزاي ، والسين والشين ، والصاد والضاد ، الخ .

ب . وكانت الكلمة غير معجمة ، غير محركة او منقوطة بالشكل ، فكانت آنذاك تمثل عدداً من الكلم : وكلم ، مثلا ، كان يمكن ان تُقرأ : كَلَمَ ، كُلِمَ ، كُلْمٌ ، كَلِمٌ ، الخ .

ج . ولم يكن هنالك ما يعبر عن الألف الطويلة وما يشير إلى الإدغام ، فكانت كلمة كلم يمكن ان تقرأ كلّمَ ، كَلامٌ ، كالَمَ ، كِلامٌ ، الخ .

واذا ، كانت المشكلة الأولى التي وجب التغلب عليها هي تمييز حروف العربية التي شابه أحدها الآخر . ولم يمكن تمييز الحرف بالنقط غريبا عن ثقافات

(١) سوف نتعرض لهذه الناحية اللغوية بالبحث مطولاً في القسم الثالث من هذا المقال .

الشرق الأوسط ، فاللغة السريانية مثلا ، وقد تشابه في البدء بعض حروفها ، استعملت النقط بنجاح لتمييز حرف عن شبيهه (١) . وطبيعي أن يكون أول ماخطر لذهن العالم العربي آنذاك ، استعمال النقط لتمييز حروف العربية . وطبيعي أيضاً أن تكون هذه الطريقة وتطبيقها قد استغرقت أمداً من الزمن قبل استقرارها على حال نهائي ، يدلنا على ذلك :

أولاً : ان تمييز حرف الفاء عن القاف كان بنقطة فوق الأولى وأخرى مثلها تحت الثانية (ولا يزال هذا التقليد شائعاً في المغرب العربي حتى اليوم) ثم تطور فأصبح تمييز هذين الحرفين بنقطة فوق الفاء واثنتين فوق القاف .

ثانياً : ان حرف الشين ميّز أول الأمر عن السين بنقط ثلاث متوازية (أفقية لا هرمية كما هي الحال الآن) ، ويظهر أن هذا الحال قد أدّى إلى الخلط بين الشين وبين التاء والنون أو النون والتاء فنجم عن ذلك إبدال نقط الشين بالشكل الهرمي المعروف .

ثالثاً : ان نقط التاء المربوطة لم يصبح تقليداً مفعولاً به إلا بعد انصرام مدة من الزمن كتبت التاء المربوطة خلالها كالهاء .

أما هذه الطريقة في تمييز حروف العربية المتشابهة فقد عرفت منذ البدء بالإعجام أو التنقيط أو النقط (٢) . ويظهر أن النقط قد دخل العربية بالتدريج كما تدلنا على ذلك مخطوطات عربية قديمة . ولم يرق هذا التجديد في نظر

---

(١) انظر كتابنا لِنغْويستِكْز إنْ ذي مِدْلْ آجْزْ : فونِتيكْ سْتَدِيزْ إنْ إرْلي إسْلامْ (لايدن ، ١٩٥٨) ص ١٣ .

(٢) انظر (كتاب النقط) للداني ، ص ١٣٢ — ١٣٣ ، وأيضاً (العقد الفريد) ج ٣ ص ١٥٤ .

رجال العلم والدين والأدب فعارضوه معارضة شديدة ، واعتبروا استعماله في الخط حطّاً من كرامة العلم والعلماء ، وأيضاً ، تجديداً مكروهاً في رسم المصحف الكريم (١) .

أما المشكلة الثانية فكانت مشكلة الحركات . وهذه العقبة اللغوية ، كسابقتها ، لم تكن غريبة عن ثقافات الشرق العربي القديم ، وقد اعترضت الكتابة السريانية فقررها علماء اللغة السريان باستعمال النقط وباستعارة الحركات من اللغة الإغريقية (٢) . أما العربية ، فلم تلجأ إلى الإستعارة بل عملت على خلق طريقة عربية أصيلة وفت بالحاجة . وإننا لنرى آثار تطور النقط والإعجام واضحة في الكثير من أوراق المصاحف القديمة ، حيث نجد نقطة واحدة فوق الحرف تقوم مقام الفتحة وتحته للكسرة وبجانبه للضمّه ، كما نجد الألف والواو والياء تعبّر عن حركات المدّ . وبعض هذه النقط التي نلاحظ وجودها خاصة في ما لدينا من أوراق مصاحف قديمة وضعت بألوان مختلفة لتمييزها عن سواها . وهكذا ، وبالتدريج ، وأبدعت الثقافة العربية الحركات الثلاث ، الفتحة والكسرة والضمّة (٣) .

وكما جرى الحال في نقط حروف العربية عارض رجال الثقافة العرب

---

(١) الاتقان للسيوطي ج ٢ ، ص ١٧١ ، حيث يذكر عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « جوّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء » ؛ وأيضاً (كشف الظنون) ج ٣ ، ص ١٥٥ .

(٢) كتابنا المذكور في الحاشية الأولى ، ص ١٤ ؛ وأيضاً ت . نولدِكِه : كومبَنْديوسْ سيرياكْ غْرامَرْ (لندن ، ١٩٠٤) ، ص ٦ — ١٤ .

(٣) انظر كتاب النقط للداني ص ١٣٢ .

هذا التجديد معارضة قوية أدّت إلى تأخر استعماله بعض الوقت ، وإلى حين [١] .

وبالرغم من هذا كله ، بقي لفظ العربية معقداً بعض التعقيد إذ لم يكن هنالك من الأشياء ما يمكن القارئ من تمييز الحروف المدغمة والمنوّنة والمهموزة ، ولم يكن من السهل تمييز هذه الحروف في الكلام المكتوب . وعليه فقد كان على علماء العربية إيجاد أشكال تفي بالغرض وتؤمن إجادة قراءة الكلام العربي المكتوب . ونجح علماؤنا في إيجاد الحلول المناسبة إذ قرروا إدخال نقطتين على الحرف إبانة للتنوين ، تطورتا تدريجياً فأصبحتا ما يعرف اليوم بالفتحتين والكسرتين والضمتين . ثم ابتدع علماؤنا الأوائل السكون فالشدة فالهمزة كما فصّل ذلك الداني في كلامه عن الإدغام والإشمام والإمالة والإشباع والاختلاس [٢] ، وأبو داوود في « المصاحف » [٣] والسيرافي في « الأخبار » [٤] ، الخ .

الدكتور خليل سمعان
جامعة ولاية نيويورك في بنغمتن

(١) النقط ، ص ١٣٣ وكتاب المصاحف لابن أبي داوود ص ١٤١ ، والرسالة العذراء لابن المدبر ، ص ٢٥ ، والعقد الفريد ، ج ٣ ، ص ١٢ ، والاتقان للسيوطي ج ٢ ، ص ٢٧١ ، وكتابنا المذكور آنفاً ، ص ١٥ وحواشيها .

(٢) النقط ، ص ١٣٥ — ١٣٧ و ١٤٤ — ١٤٧ .

(٣) ص ١٤٤ — ١٤٧ وكتاب النقط ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٠ .

(٤) ص ١٦ وأيضاً كتاب النقط ، ص ١٣٣ والفهرست ، ص ٤٠ .

بين كاتب وشاعر

في التاريخ الأدبي مصادفاتٌ عجيبة ومفارقات غريبة توحي إليك بأن القدر يهيء أشخاصاً لأشخاص ، ويخلق أناساً من أجل أناس ، لخيرهم أو لشرهم ، هذا يكسب وذاك يخسر ، ولكن هذا الكسب وذاك الخسار ، كليهما ، يظلان خالدَيْن في بطون الكتب ، باقيين في أثناء التاريخ على مر العصور والأيام

لقد وجد النابغة والنعمان ، وخلق جرير والفرزدق والأخطل ، وعرف الزمن أبا تمام والبحتري ، ورأينا المتنبي إلى جانب سيف الدولة ، لولا هذا لما عرف ذاك ، ولولا ذلك لكانت شهرة هذا أقصر أمداً وأخصر مدىً .

من هذه اللقاءات العجيبة في الفن والأدب اللقاء الذي جمع الشريف الرضي الشاعر الكبير ، وأبا إسحق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب الألمعي والمتفنن اللوذعي ، لقد جمعتهما صحبة خالدة ، ولافت بينهما علاقة وشيجة من الفن في الشعر والنثر أوحت إليهما بالكثير من القصائد والمراسلات والعبارات التي ذهبت مذهب الأمثال ، يستشهد بها الناس ويرون فيها آثاراً عريقة الأصالة ، بعيدة الأثر في النثر والشعر العربيين .

أما الصابي ، فهو أبو إسحق الحرّانيّ (١) ، واسمه إبراهيم بن هلال الصابي ، ولد سنة ثلاثَ عشرة وثلاثمائة للهجرة وتوفي يوم الخميس ، لاثنتي عَشْرَةَ ليلة خلت من شوال سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (٢) .

---

(١) بلدة بينها وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم (معجم البلدان — ياقوت) .

(٢) معجم الأدباء (الجزء الثاني ص ٢٠) .

وأسرة الصابي أسرة حفل التاريخ بذكرها لما عرف من رجالها الكثر الذين خدموا الأدب والعلم ، وكانوا من مذهب يعرف أهله بالصابئة أو الصابئين ، وصَبَأ وصَبُؤَ ، صَبْأً وصُبُوءاً ، خرج من دين إلى آخر ، وصبأ فلان في دينه ، صار صابئاً ، وصبأ النجم : خرج من مطلعه وظهر ، وصبأ فلان عليهم : طلَع (١) .

والصابئة والصابئون ، يزعمون أنهم على ملة نوح ، ويعرفون في العراق باسم : الصبَّة ، واحدهم : صابيء . وما زال منهم جماعة حتى الآن . ويقال إن دينهم عبادة الكواكب ، ومذهبهم أن للعالم صانعاً حكيماً مقدساً عن سمات الحدثان وهم عاجزون عن الوصول إلى جلاله (٢) .

كان الصابي في عصر بني بويه ، وقد عاش مدة القرن الرابع للهجرة ، وهو العصر الذي تكشفت عبقرية الأدب العربي والفكر الإسلامي ، وبلغ الشعر فيه أوجه ، كما وصل النثر فيه إلى المحل الأعلى ، وبحسبك أن تعلم بأن من رجال هذا العصر : المتنبي وابن العميد والصاحب بن عباد وأبو اسحق الصابي ، وعضد الدولة وسيف الدولة وأبو فراس الحمداني وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت كتب التاريخ بذكر مآثرهم وتدوين أخبارهم .

كان صديقاً لعز الدولة بختيار (٣) بن معز الدولة بن بويه ، وقد أراد له هذا الصديق الحاكم كل خير وحاول أن يسلمه الوزارة لديه شريطة أن يعتنق الإسلام ، ولكن الصابيء امتنع من ذلك ، ويروي الصفدي أن

---

(١) معجم متن اللغة .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني .

(٣) بختيار : لفظ فارسي مركب من بخت وهو الحظ ويار بمعنى صاحب ، أي صاحب الحظ وكان هذا لقب عز الدولة .

عز الدولة بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فأبى ، لأن الصابئة تحرم أكل الفول .

وصفه مؤرخوه بالعفة وحسن المعاشرة ، ولكنه ، على مايبدو ، كان متعصباً لمذهبه لايهادن فيه ولا يداهن ، من ذلك رفضه للأعطيات والمناصب التي عرضت عليه حين اشترط عليه الإسلام أو مخالفته اعتقاد من معتقداته ومع ذلك فقد وصل إلى المراكز العليا في الدولة فقد عمل نائباً للوزير أبي محمد المهلبي في ديوان الإنشاء وأمور الوزارة (١) .

ولكن الأمور لم تسر على مايشتهي فقد اعترضت حياته مشاكل عديدة وصعاب كثيرة كادت أن تودي بحياته ، إذ كان العصر قد بلغ المرحلة الدنيا من الناحية السياسية ، وإن كان متقدماً ، كما أسلفنا ، من الناحية الأدبية والعلمية والثقافية ، وقد نَقَمَ عضد الدولة عليه أموراً لم تكن للصابىء يد فيها وأساء الظن به حين قدم بغداد ، وذلك بسبب بعض الرسائل التي كتبها عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار ، فحبس من أجل ذلك ، ولكن الناس ، من المعجبين بالكاتب الأديب ، توسطوا لدى عضد الدولة وعرفوه مكانة الرجل وفضله ، وأوضحوا له عذر الموظف في وظيفته ، والعامل في عمله ، فاستجاب للوساطة ، ورضي بأن يخلي سبيله على أن يعمل كتاباً يضمنه أخبار بني بويه وتاريخهم ومآثرهم وهو الكتاب الذي أسماه « التاجيّ » (٢) .

ولكن الصابي لم يسلم من التعرض لخطر الموت حين صرّح لأحد زائريه في السجن أنه غير راضٍ عن تأليف هذا الكتاب وأنه إنما حمل

(١) معجم الأدباء (جزء ٢) .
(٢) أخذ الاسم من : تاج الملة ، وهو من ألقاب عضد الدولة .

على تأليفه حملاً ، وربما كانت الكلمة التي نقلت إلى عضد الدولة ، ملفقة تلفيقاً ، أو مدسوسة دساً ، فان مثل الصابي ، وهو من عرف بفضله ورزانته وفهمه ، لايقدم على البوح برأيه والإدلاء بذات نفسه لكل زائر أو عابر ، فقد روت الأخبار أن أحد أصحابه زاره في السجن ، وكان الصابي متهماً في كتابة كتابه ، فسأله عما يعمله ، فقال : أباطيل أنمقها ، وأكاذيب الفقها ، ووصلت العبارة بنصها إلى عضد الدولة ، فأمر بإلقاء الصابي تحت أرجل الفيلة ، ولكن إخوان الرجل ، شفعوا إلى عضد الدولة في أمره ، ويروى أنهم قبلوا الأرض بين يديه (١) فرضي أن يبقيه حياً ، ولكنه أخذ أمواله ، وأبقاه بالسجن بضع سنين ، إلى أن أفرج عنه في أيام صمصام الدولة ابن عضد الدولة (٢) .

كان أبو أسحق يمثل الرجل « المحترم » هذه الأيام ، فقد كان الوزراء يقدرونه ويثقون بقدرته وعلمه وادبه ، كالوزير المهلبي وسيف الدولة وآل بويه والصاحب بن عباد .

ولا أدل على قيمة أبي أسحق الصابي الأدبية من هذه القصة يرويها عنه ابنه أبو عليّ المُحسِّن بن إبراهيم بن هلال أن أبا أسحق قال : راسلت أبا الطيب المتنبي - رحمه الله — في أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ، ووسطت بني وبينه رجلاً من وجوه التجار ، فقال له (٣) قل له : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدحَ غيرك ، ولا أوجبَ علي في هذه البلاد واحدٌ من الحق ما أوجبتَ ، وإن أنا مدحتك ، تنكّر لك الوزير ، يعني — أبا محمد المهلّبي — وتغير عليك لأنني لم أمدحه ،

---

(١) معجم الأدباء (جزء ٢) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) أي المتنبي .

فإنْ كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمستَ ، وما أريد منك مالاً ، ولا عن شعري عوضاً ؛ قال والدي ، فتنبهت على موضع الغلط ، وعلمتُ أنه قد نصح ، فلم أعاوده (١) .

ولكن أبرز حدث في حياة هذا الرجل يتلخص في الصداقة الأدبية التي كانت بينه وبين الشاعر الكبير الشريف الرضي ، والشريف هذا هو أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي ، وقد كان شاعراً مرموقاً وشريفاً منظوراً ، ونقيباً للطالبيين في عهده كما كان أبوه نقيباً ، وأخوه هو الشريف المرتضى صاحب الأمالي .

كانت الصداقة ، والعلاقة الأدبية بين الصابي والشريف ، موضع تساؤل واستفهام ، فالصابي رجل يدين بغير الإسلام ، وهو حرّاني الأصل بعيد عن الوسط العربي في تفكيره وعقليته ، وإن كان يحترم رجال المسلمين ويسايرهم ، إذ كان يصوم شهر رمضان ، كما يقال ، ولو أنه لا يؤمن بهذا الصيام ، ولكن الشريف رجل من آل البيت ، ومن بيت النبوة ، ونقابة الطالبيين لم تكن بالمكان الهيّن في مقامها ومحلها ، لأن هذه النقابة كانت تنافس الخلافة في نظر المسلمين ، وكانت الشيعة العلوية ترى في النقيب الطالبي ممثلاً للفكرة العلوية التي كانت ترمي في أهدافها البعيدة إلى استرداد الحق العلوي في الخلافة فإن العلويين كانوا وما زالوا يرون بأن سيدنا عليّاً ﷺ أحق رجل بالخلافة بعد النبي ، لأسباب كثيرة لا مجال لسردها الآن ، وقد كانت نقابة هؤلاء الطالبيين بالحق الضائع تمثل الحق الذي لا يموت ، والأمل الذي لا يعبث به الزمن ، ولقد رأى الشريف الرضيّ الطالبيين بالخلافة من أبناء عمومته يذهبون قتلاً أو تشريداً أو تعذيباً منذ الحسين إلى عبد الله

(١) معجم الأدباء (جزء ٢) .

ابن الحسن ، إلى زيد بن علي وغيرهم لأنهم أقدموا على المطالبة بالحق الطالبي علناً وصراحة ، ولأنهم لجأوا إلى القتال بدلا من السعي إلى غايتهم عن طريق السياسة وتكثير الأعوان ، والتقرب من الناس ، وخاصة الأدباء وأصحاب المواهب والناقمين على الدولة العباسية .

ولقد أخذ الشريف الرضي يلمح إلى حقه شعراً وحديثاً ، ثم اشتد صراحة وتعريضاً حين رأى قيام الدولة الفاطمية في مصر ، ويروى أن الخليفة — وهو القادر بالله يومئذ — قد استدعاه اليه وسأله عن معنى قوله حين افتخر بالخليفة العلوي في مصر ، ويُروى أن الشريف أنكر هذا القول ، وإن كان الأسلوب الشعري يدل عليه دلالة واضحة ، وهذه الأبيات من قصيدة يقول فيها :

كم مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وانف حميٌّ
وإباء محلق بي عن الضيم كما راع طائر وحشيٌّ
أي عذر له إلى المجد إن ذلّ غلام في غمده مشرفي
ألبسَ الذلّ في ديار الأعادي وبمصر الخليفة العلويُّ
من أبوه أبي ، ومولاه مولاي اذا ضامني البعيد القصيُّ
لفّ عرقي بعرقه سيدا النا س جميعاً محمد وعليُّ

إنها مطالبة صريحة بالحق الطالبي ، واستنجاد صارخ بالخليفة الفاطمي العلوي في مصر واعتراف بتحمل الضيم في ظل الخليفة العباسي ، وألم نفسي من هؤلاء البويهيين الديلم ممن استولوا على الخلافة وأعمالها ، واضطلعوا بشئونها رغم الإرادة العربية هاتيك الأيام .

كان الشريف إذن يلجأ إلى الصراحة في طلب حقه بأن يكون خليفة ، لأنه من أولاد علي بن أبي طالب صاحب الحق الأول ، ولقد غرر به شعره مرة فعرض نفسه لخطر محقق يوم خاطب الخليفة العباسي القادر بالله

بهذه الأبيات الصريحة التي تجعل من الشريف منافساً قوياً ونداً علوياً لا يسكت عن حق ولا يهادن في طلب .

عطفاً أمير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كلانا في المعالي معرق
إلاّ الخلافة ، ميزتك فانني أنا عاطل منها وأنت مطوّق

لقد قامت الخلافة العباسية على الفكرة العلوية ، فالطالبيون هم أساس الدعوة التي استند اليها أبو مسلم الخرساني وابراهيم الإمام وأبو عبد الله السفاح ، ولكن العادة محكمة ، كما يقول الفقه ، فإن العباسيين حين وصلوا إلى الخلافة استأثروا به ونسوا أبناء عمومتهم وشركاءهم في الدعوة إلى الحق الهاشمي ضد الأمويين — بل لقد صار الطالبيون الأعداء الألداء للعباسين وخاصة في زمن أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد .

ولكن العلويين لم ينسوا حقهم هذا ، وظلوا يطالبون به إلى أن سكنت ريحهم وذهبت الخلافة الاسلامية عنهم وعن خصومهم الهاشميين إلى الأتراك والديلم والسلاجقة وغيرهم ، ممن تسلقوا إلى الحكم عن طريق هذه الفكرة الهاشمية ، ثم نسوا أهلها حين وصلوا إلي غايتهم .

لذلك لجأ الشريف الرضى إلى الطريقة المعقولة ، لجأ إلى الأصحاب وأكثر من الدعاية ، والأدباء من الكتاب والشعراء هم أولى الناس بأن يتقرب إليهم صاحب الهدف السياسي ، لأن هؤلاء هم وسيلة الدعاية الأولى هاتيك الأيام .

ولقد لام أناس الشريف الرضي يوم رثى الصابي ، فما يحق لرجل مسلم

شريف ونقيب للأشراف أن يبكي رجلاً غير مسلم ، ولكن الشريف أجاب اللائمين بقوله : إني رثيت علمه وفضله (١) .

وقد اتهم المؤرخون الشريف الرضي بأنه انما سمح لنفسه برثاء الصابي لأنه كان يطمح إلى الخلافة وأن الصابي كان يرشحه لها — وأنه كان من أكبر أعوانه (٢) .

ولا بد من الوقوف قليلاً قبل الاقتناع بهـذا الرأى ، لأن الصابي لم يكن في ذلك الزمن إلا شخصاً ينتمي للعلم والفضل الأدبي ، فلم يكن له أنصار ولا قوم ، لقد قضى ردحاً من حياته يتنقل بين الاضطهاد ، والسجن واستصفاء الأموال ، وليت شعري ما عسى أن يستطيعه رجل مثل هـذا لا يأمن على نفسه غائلة الظلم ولا عادية الاضطهاد ، أمثل هـذا يمكن أن يعتمد عليـه الشريف الرضي في أكبر مطمح يخطر على بال عربي هاتيك الأيام وهو الخلافة الإسلامية .

الذي اعتقده أن الشريف لم يعتمد على الصابي في سعيه للخلافة ، بل اتخذ الرجل الأدب وسيلة للدعاية ، بدلاً من أن يكون وسيلة للمعارضة ، وأرجح أن العلاقة بين الرجلين الأديبين لم تتعد الحدود الأدبية إلا قليلاً — ولهذا فقد كان الشريف صادقاً في رثائه متفجعاً في بكائه ، ولعلك تحس صدق العاطفة وأثر الحزن في قوله :

يا ليت أني ما اقتنيتك صاحباً ... كم قنية جلبت اسى لفؤادي

ويرجح لدينا قوة هذه العلاقة الأدبية قوله :

العقل ناسب بيننا إذ لم يكن ... شرفي منـــاسبه ولا ميلادي
إن لا تكن من أسرتي وعشيرتي ... فلأنت أعلقهم يداً بودادي

(١) معجم الأدباء .
(٢) معجم الأدباء (جزء ٢ الصفحة ٢٦ رفاعي) .

تلك الصداقة ، ما نظن إلا أنها بريئة ، وإن شابها الزمن بشوب من السياسة لم يكن منه بد في ذلك الزمن فلم تزل صداقـــة الأدباء أقوى الصداقات كما قال أبو تمام قبل الشريف :

إن يختلف نسب يؤلف بيننـا أدب أقمناه مقـــام الوالد

ولقد عرف الشريف بالوفاء لإخوانه والإخلاص لأخدانه من الأدباء والشعراء ، ويكفي تأييداً لهذه الفكرة ، أن تعلم عطفه وحدبه على مهيار الديلمي ، تلميذه وربيبه ، فلولا أدب مهيار وموهبته الفنية لما كانت علاقته بالشريف متسمة بهذه القوة التي ذهبت مضرب الأمثال .

لقد كان الزمن الذي عاش فيه الأديبان الكبيران — الصابي والشريف — زمن اضطراب في السياسة والمفهوم الأخلاقي بحيث تغيرت الأفكار وساءت الظنون . ومن هنا جاء هذا الرأي الذي لم يستطع قبول الصداقة البريئة حتى رماها بالقصد المادي والغاية الدنيوية . وإن رجلاً مثل الشريف ، في أخلاقه وفنه وثقافته وكرم محتده ، لأبعـــد ما يكون عن سوء القصد وزيغ النية .

أحمد الجندي

❖❖❖

الكلمات التركية

في اللهجات العربية الحديثة

لما ذهبت إلى القاهرة في سنة ١٩٦٤ واستمعت إلى لهجتها شد انتباهي بعض الكلمات فيها مثل سادة ، وطازه ، وخانه وبقشيش وبهلوان وترزي وجنزير ، وعشرات أخرى من هذا القبيل شدت هذه الكلمات انتباهي لأنني استعمل الكلمات نفسها في لغتي — الأردية — وتفيد نفس المعاني أو معاني متقاربة — فما سر وجود هذه الكلمات في هاتين اللغتين : اللغة الأردية وبعض اللهجات العربية الحديثة . لم تدم دهشتي طويلاً فبعد بحث يسير تبين لي أن هذه الكلمات فارسية الأصل دخلت اللغة الأردية مباشرة بينما دخلت اللهجات العربية الحديثة عن طريق التركية والمعروف أن اللغة التركية غنية بالكلمات الفارسية . فلما تأثرت اللهجات العربية الحديثة باللغة التركية . وأخذت بعض كلماتها كانت من ضمنها هذه الكلمات الفارسية « المتترّكة » .

لقد دفعني حبي لدراسة الكلمات وتاريخها إلى جمع هذه الكلمات الفارسية ثم توسعت وجمعت الكلمات التركية المستعملة في اللهجة المصرية بغض النظر عن أصلها . ولما اتسع المامي بلهجات عربية أخرى أضفت إلى هذه الكلمات كلمات أخرى تركية تستعمل في بعض اللهجات العربية الأخرى مثل اللهجات السودانية والأردنية واللبنانية .

لقد دخلت اللهجات العربية الحديثة — لاسيما اللهجة المصرية — مئات من الألفاظ التركية طوال حكم المماليك والأتراك غير أن معظم هذه الكلمات

انقرضت وما بقي منها إلا قدر يسير — ولقد استقر بعض هذه الكلمات في اللغة العربية وارتقى عن مستوى الكلام العامي إلى مستوى اللغة الأدبية مثل بشرف وبصمه ، وبوغاز وجمرك وطابور وطاقم وقنبلة ونيشان . ومن ثم اكتسبت دراسة هذه الكلمات نوعاً من الأهمية والخطورة .

إني أذكر الكلمات التركية المعربة وأشرحها وإذا كانت الكلمة مستعملة في لهجة غير لهجة مصر فإني أشير إلى ذلك ثم آتي بأصلها التركي مكتوباً بالحروف اللاتينية وفيما يلي بيان نطق بعض الحروف وهما نطق يخالف مثيلاتها في اللغات الأوربية .

★ ★ ★

تكتب اللغة التركية الحديثة بالحروف اللاتينية ، وتنطق معظم هـــذه الحروف كما تنطق في اللغة الانجليزية . أما الحروف التي يختلف نطقهـا فسنذكرها فيما يلي ونشرح نطقها :

C	ينطق مثل j في اللفظ الانجليزي Jam , Judge
ç	ينطق مثل ch في اللفظ الانجليزى Church
ğ	هذا الحرف في الغالب يطول الحركة السابقة .
j	ينطق مثل j في اللغة الفرنسية .
ş	ينطق مثل الشين العربية .
I	(بدون نقطة) صوت الضمة بدون تدوير الشفتين .
ö	صوت e مع تدوير الشفتين .
ü	صوت i مع تدوير الشفتين .
u	صوت u كما في Put في الانجليزية .

★ ★ ★

« أ »

أبلة : كلمة تخاطب بها امرأة صغيرة السن من غير الأقارب
تركي Abla الأخت الكبيرة .

أجزجى : الصيدلي
تركي Eczaci

أجزخانه : الصيدلية
تركي Eczahane ، Eczàne واللفظ مركب من الكلمة العربية « أجزاء » التي تفيد معنى الأدوية بالتركية ، والكلمة الفارسية « خانه » بمعنى البيت أو الدار .

ادبخانه : المرحاض
لا يوجد هذا اللفظ في التركية الحديثة ، وهو مركب من الكلمة العربية « أدب » والكلمة الفارسية « خانه » بمعنى الدار .

اشكره خبر : على المكشوف ، كما في قولهم : فعل كذا أشكره خبر .
لقد انقرض هذا اللفظ في اللهجة المصرية ولكنه لا يزال يستعمل في اللهجة الأردنية .
تركي Aşikàre : علناً ، واضحاً ، واللفظ فارسي الأصل : آشكار .

أفندم : كلمة مفادها (١) (لبيك) (٢) أعد ما قلت من فضلك .
تركي Efendim .

أفندى : لقب كالسيد ؛ المثقف ثقافة غربية والمتزيي بالزي الأوربي .
تركي Efendi؛ واللفظ يوناني الأصل .

الاي : فرقة كبيرة من العسكر ،
تركي Alay .

انجليز : جيل من الناس يقطنون انجلترا .
تركي Ingiliz من الإيطالية Inglese .

أوروبا : القارة المعروفة .
تركي Avrupa من الإيطالية Europa .

أورطه : وحدة من ألف جندي .
تركي Ordu : الجيش ، المعسكر ، والجدير بالذكر أن من هذا اللفظ جاءت كلمة « أردو » وهي اسم إحدى اللغات الهندية وسميت بهذا الاسم لأنها نشأت في المعسكر ، كما جاءت من هذا اللفظ الكلمة الانجليزية Horde بمعنى القبيلة المتنقلة .

اورمان : اسم حديقة في القاهرة .
تركي Orman : الغابة .

أورنيك : الاستمارة ، وجمعه أرانيك . يكثر استعمال هذا اللفظ في السودان .
تركي Örnek العينة ، النموذج .

أوسطى : صاحب صنعة ، ميكانيكي ، سواق السيارة .
تركي : Usta .

اوضه : الحجرة ، جمعها أوَض .
تركي Oda .

أونباشي : رتبة في الجيش والشرطة . ويكتب أيضاً « امباشي » ويجمع على اونباشية .
تركي Onbaşi وأصل معنى الكلمة قائد العشرة وهو مركب من On أي العشرة Baş أي الرئيس [١] .

---

(١) الياء في لفظ « باشي » ضمير الاضافة فاصل معناه : رئيسهم . يقول الأتراك : العشرة رئيسهم بمعنى رئيس العشرة . وهكذا في بكباشي ويوزباشي وحكيمباشي .

« ب »

باش : الرئيس كما في باشكاتب أي رئيس الكتبة ، وباشمهندس أي رئيس المهندسين .
تركي Baş الرأس ، الرئيس .

باشا : لقب شرف تركي .
تركي Paşa .

باشتخته : مكتبه ، سبوره .
تركي Paştahta من الفارسية : پيش تخته ، پيش معناه إمام وتخته معناه لوحة من الخشب ، والجدير بالذكر أن « باش » في هذا اللفظ محرف من پيش ولا صلة له بباش بمعنى الرأس .

باميا : الخضار المعروف .
تركي Bamya .

بخشونجى : مدير الحديقة .
تركي Bahçivan والكاسعة ci .

بدروم : الطابق السفلي من الدار . ويقال له أيضاً « بدرون » .
تركي Bodrum وأصل معناه السرداب .

برتقال : فاكهة معروفة .
تركي Portakal من الإيطالية Portogalle أصل معناه البرتقال .

برجل : أداة من أدوات الرسم الهندسي .
تركي Pergel .

برضه : أيضاً ، مع ذلك .
تركي Pirde . يظن بعض الناس أن الهاء في برضه ضمير الغائب ، ويستبدلونها بالكاف عند الخطاب فيقولون : انت برضك .

برطمان : وعاء من زجاج . ويقال له أيضاً مرطبان وهو الأصل .
فارسي مرتبان .

برنجى : الأول وهو من المصطلحات العسكرية ، واسم سيجارة في السودان .
تركي Birinci الأول .

برواز : الاطار .
تركي Pervaz .

بروجي : من ينفخ في البوق (مصطلح عسكري) .
تركي Boru البوق والكاسعة ci .

بزونج : القواد ، (يستعمل هذا اللفظ في اللهجة الأردنية) .
تركي Pezevenk .

بسطرمه : لحم مملح مجفف .
تركي Pastarma .

بشتى : من يتصل به جنسياً من الرجال (في اللهجة السودانية) .
تركي Puşt .

بشرف : مقدمة اللحن في الموسيقى .
تركي Peşrev من الفارسية وهو مركب من « پيش » أي أمام و « رو » أي الذاهب يعني المتقدم أو المقدمة .

بصمة : خطوط الأصابع .
تركي Basma الختم .

بقسماط : نوع من البسكويت الصلب .
تركي Peksimet .

بقشيش : ما يعطى من نقد لخدم الفنادق والمطاعم وغيرهم .
تركي Bahşiş من الفارسية بخشش أي العطاء والجدير بالذكر أن في هذه الكلمة المعربة أبدلت الخاء قافاً وهذا شاذ .

بك : لقب تركي . وينطق « بيه » ويجمع على بهوات .
تركي Bey .

بقجه : الصرة .
تركي Bokça .

بكباشى : رتبة عسكرية وينطق بمباشى .
تركي Binbaşi وأصل معناه قائد الألف ، وهو مركب من Bin أي الألف و Baş أي الرئيس .

بلكه : يمكن ، لعل . يكثر استعمال هذه الكلمة في اللهجتين الأردنية والفلسطينية .
تركي Belki من الفارسية وهو مركب من « بل » العربية و « كه » الفارسية .

بلطجى : الحارس المسلح بالفأس ويطلق مجازاً على رجل مستبد متشدد .
تركي Baltaci .

بلطة : الفأس .
تركي Balta .

بلوك : فوج أو جماعة (مصطلح عسكري) .
تركي Bölük .

بلياتشو : المهرج .
تركي Balyaço .

بمبه : القنبلة ، نوع من اللعبة المفرقعة .
تركي Bomba من الايطالية .

بنج : خمسة في لعبه الطاولة . بنج وسه : خمسه وثلاثة .
فارسي پنج .

بنجر : خضار معروف .
تركي Pancar .

بهار : التوابل .
تركي Bahar .

بهريز : نوع من الشوربه .
تركي Perhiz ، Pehriz الامتناع ، الحمية ، من الفارسية .

بهلوان : اللاعب على الحبل ومنه أيضاً « الفهلوة » .
تركي Pehlivan : اللاكم ، البطل ، من الفارسية .

بوظة : في اللهجتين السورية واللبنانية الآئس كريم ، وفي للهجة المصرية نوع من الشراب المسكر .
تركي Buz الجليد .

بوغاز : المضيق .
تركي Boğaz .

بوية : الدهان . وفي اللهجة السودانية بوهيه .
تركي Boya .

بياده : المشاة .
تركي Piyade من الفارسية بياده ، وقديماً عرب هذا اللفظ الفارسي « بياذق » واشتق منه بيذق ظناً أن بياذق جمع .

بيره : شراب معروف .
تركي Bira من الإيطالية .

بيش : خمسة في لعبة الطاولة .
تركي Beş .

(يتبع) ⁂ السودان : ف . عبد الرحيم

التعريف والنقد

أمراء البيان

أعادوا طبع كتاب : أمراء البيان ، للأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، أدخله الله في واسع رحمته ، ولقد أعيد طبع هذا الكتاب النفيس في وقت ترامت فيه الشقة بيننا وبين البلغاء من كتّابنا المتقدمين واشتدت فيه الحاجة إلى الاقتباس من خالد بيانهم ، فنحن نعيش في عصر تكاد الصلة بيننا وبين أدبنا القديم تكون منقطعة الأواصر ، لقد انقلب عالمنا كلّ منقلب ، أدبه وثقافته ، ودخلت علينا مذاهب حديثة في كل أفق من آفاق الحياة حتى كاد بياننا يعجز عن الإفصاح عن هذا المنقلب العظيم ، على أن المتقدمين من بلغاء كتّابنا وكبار علمائنا لم يضعفوا عن تمثيل الانقلاب الذي وقع في عصرهم في كل ناحية من نواحي الحياة ، فقد استطاعوا أن يجدوا لغة وأسلوباً لكل ماجرى في أيّامهم ، أما نحن فقد ظهر عجزنا في هذا الأمر حتى كاد بياننا ينفصل عن بيان المتقدمين ولذلك نجد الحاجة ماسّة إلى تذكيرنا ببلاغة أولئك الأئمة والغرف من بحرها ، وهذا ماحملنا على أن ننظر إلى كتاب : أمراء البيان نظرة خاصة ، ونشكر للذي ألّفه والذين أعادوا طبعه .

طبع الكتاب مرتين وأعيد طبعه هذه السنة ، وقد صدّر الدكتور سامي الدهّان ، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، الطبعة الجديدة بمقدمة بليغة لم يبخس فيها الأستاذ الرئيس حقّه كما لم يبخس كتاب أمراء البيان حقّه ، لقد أنزل في مقدمته الأستاذ الرئيس المنزلة الرفيعة التي تليق بمقامه كما أنزل

الكتاب نفسه المنزلة السامية التي يستحقها ، كل هذا في بيان يدلّ على ذوق خالص وبراعة فائقة .

أما الأستاذ الرئيس فان هذه السطور عاجزة عن أن تعطيه حقه أو تصوّر مقامه الجليل في فهم الأدب وقدره حق قدره ، لقد فصّل الكلام في مقدمته على بيان العرب أبلغ تفصيل ، فلم يغفل عن شيء من خصائص الأدب في عصوره بأجمعها ، كما لم يغفل عن شيء من تصوير الأطوار التي تقلّب فيها هذا الأدب ، وكما ظهرت بلاغته في المقدمة فكذلك ظهرت هذه البلاغة في الكلام على كل إمام من أئمة البيان مثل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن هارون وابن مسعدة وابن يوسف الكاتب والصولي والزيات والجاحظ والتوحيدي وابن العميد .

من هذه الطبقة الرفيعة من رجال البلاغة ندرك مقادير هذا النثر الذي انتخبت منه نماذج في كتاب : أمراء البيان ، فاذا كنّا نقدّس هذا النثر فلا يرجع تقديسنا إلى مجرّد الإعجاب ولكنّا نشعر بتقصيرنا عن طبقته وبالجد في ذوق محاسنة حتى نصل إلى درجته على الأقل ، هذا إذا كنّا لانستطيع أن نجاوز هذه الدرجة .

لقد استطاع الأستاذ الرئيس محمد كرد علي أن يبلغ الدرجة الرفيعة من بلاغة المتقدمين ، فما علينا أن نضمّ اسمه الكريم الى أسماء أمراء البيان .

شفيق جبري

حكاية الأيّام الثلاثة

لا نرى الدكتور عمر النص غريباً عن فنّ الرواية ، لقد ظهرت قدرته على هذا النوع من الأدب في روايته الأولى : شهريار ، التي كانت جذّابة من أولها إلى آخرها ، وإذا كان من شروط الرواية محاسن اللغة ، فلغة الدكتور عمر النص لاتفتقر إلى هذه المحاسن ، ويكاد يكون شرط هذا الحسن أبرز شروط الرواية ، ولمّا أثنى « أنا تول فرانس » على « موپاسان » في أحد كتبه الأدبية كانت مسألة اللغة مظهراً من مظاهر هذا الثناء .

وقد يضاف إلى إتقان اللغة في الرواية إتقان الحوار ، فالحوار إنما هو روح الرواية على ما أعتقد ، ولقد نشاهد براعة الحوار ومحاسن اللغة في رواية الدكتور عمر النص الثانية وهي : حكاية الأيّام الثلاثة ، فان أكثر الروايات في أدبنا لاتزال تحتاج الى أشياء كثيرة من قواعدها ، مثل سلامة اللغة وبساطة التعبير ودقة التحليل وحسن الحوار وماشا كل هذه الأمور .

إنّا نجد في رواية : حكاية الأيّام الثلاثة قوة في جذب القارىء إلى تتبع حوادثها ، فالقارىء لايكاد يفرغ من قراءة الفصل الأول من فصولها حتى يشتدّ به الميل إلى الاطلاع على الفصل الثاني .

لقد جرت حوادث حكاية الأيّام الثلاثة في مدينة « جالوق » سنة ١٤٠٢ الميلادية ، خلال غزو التتار لبلاد الشام ، ومن ذكر التتار وبلاد الشام نعرف روح موضوع الرواية ، لقد تجلّت البلاغة في وصف بطولة « جالوق » أي بطولة رجالها ومجدهم وضحاياهم ، ثم تجلّت هذه البلاغة في وصف إهمال المدينة وخضوع رجالها ونومهم عن الدفاع عنها ، وقد نجد في

أعمال « تيمورلنك » صورة لأعمال كل معتدٍ أثيم ، فكل كلمة من كلمات الرواية في وصف هذه الأعمال تعبّر عن حالة كل مغلوب على أمره في أي عصرٍ من العصور ولعلّ بلاغة الصبر على احتمال الأذى والإصرار على دفع هذا الأذى تتمثل في هذه الجملة : ولكن « جالوق » ستظل تضيء . . . » هذه العبـــارة تتضمن الاشارة إلى كل مدينةٍ من المدن التي تحتمل الشر حيناً من الدهر ثم توطن النفس على دفع هذا الشر » .

لسنا نبالغ إذا قلنا ان الدكتور عمر النص خلق للرواية وإتقانها ، وليس هذا بشيء قليل بالنسبة إلى عصرنا الذي استفاض فيه هـــذا النوع من الأدب .

ش . ج

***

اتجاهات النقد الحديث

للدكتور جميل صليبا

عهدُنا بأستاذنا الدكتور جميل صليبا أنه قد نذر نفسه للفلسفة فهو منذ قرابة أربعين عاماً ما انفك يعلّمها ، ويدرُس قديمها وحديثها ، ويحقق بعض ذخائرها وكنوزها ، ويضع معجماً لمفرداتها ، وينقل إلى العربية بعض روائعها الغربية ، بأسلوب عربي مشرق أصيل ، نبتت أصوله في « مكتب عنبر » ، واخضرت غصونه وفروعه مع طول مصاحبة كتب الأمهات . وهو حين علّم وحقق ألف ونقل ، المثال الذى يحتذى ، والأسوة التي تقتفى . فمن استمع إلى دروسه وهي في فجرها المبكر ، رأى عليها مسحة من الأدب ظاهرة ، وطلاوة تنبع من حسن اختيار الألفاظ ، وضم الكلمة إلى أختها ، ومن حسن التوفيق في الجمل والتراكيب . وطلابه الأولون يذكرون أنه لم يعلمهم الفلسفة ليس غير ، ولم يلقنهم مذاهبها وفِرقَها ، شرقيها وغربيها ، وما حفلت به كتب القدامى والمحدثين من مناقشات ومساجلات وردود ليس غير ، وإنما أخذوا عنه كذلك أدباً ولغةً ، ولقد كان يؤكد لطلابه دوماً الصلة الوثقى بين الفلسفة والأدب فيقول : الأدب يتوّج الفلسفة ، ولهذا لم أعجب حينما أهدى إليّ كتابه الأدبي الأول عام ١٩٥٨ الذي سماه (الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث) ، ولم أسأل نفسي : ما لهذا الإخصائي في الفلسفة يغير على الأدب ، فيبحث عن تأثير الاتجاهات الفكرية فيه ؟ فلقد كان جميل صليبا دوماً فيلسوفاً أديباً ، وأديباً فيلسوفاً .

كذلك لم أعجب يوم أهدى إلي كتابه الجديد (اتجاهات النقد الحديث في سورية وهو مجموع محاضراته التي ألقاها في هذا العام (١٩٦٩) على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة ، قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية ، التابع لجامعة الدول العربية . فالنقد من الأدب ، ولم نعرف في أدبنا العربي عصراً من العصور خلا من النقد ، منذ أن قام سوق عكاظ وجلس فيه مقدم من الشعراء ، حكماً بين الشعراء ، إلى يومنا هذا . فمن حق جميل صليبا الأديب الفيلسوف أن يبحث في النقد الحديث واتجاهاته في سورية ، ولا جناح عليه في أن يخوض ميدان الفن الذي يتوج اختصاصه .

قسم أستاذنا المؤلف كتابه إلى اثني عشر فصلاً وخاتمة .

فتناول في الفصل الأول ركود الأدب في سورية خلال العهد العثماني ، وحالة الأدب في سورية خلال الحكم العربي ثم خلال الانتداب الفرنسي ، ثم خلال عهد الاستقلال ، وعوامل الإنتاج الأدبي وتأثيرها في النقد ، والمحافظون والمجددون .

وتناول في الفصل الثاني : رواد النقد الأدبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي الفصل الثالث : النقد اللغوي : المحافظون المتشددون ، وفي الفصل الرابع : المحافظون المتدلون ، وفي الفصل الخامس : طلائع التجديد في النقد ، وفي الفصل السادس : تحرير الأسلوب العربي من العيوب التي علقت به في عصور الانحطاط ، وفي الفصل السابع : الثورة على الأدب التقليدي ، تحطيم الأصنام ، وعقد في الفصل الثامن فصلاً سماه : من النقد البياني إلى النقد التحليلي ، وفي الفصل التاسع فصلاً سماه : بين النقد الذاتي والنقد الموضوعي ، وبحث في الفصل العاشر : نقد

أنواع الأدب ، وفي الفصل الحادي عشر : مذهب الالتزام ، وفي الفصل الثاني عشر : مذهبه في النقد . وأنهى الكتاب بالخاتمة .

ومن العسير أن نبحث في هذه الكلمة مضامين العناوين التي أوردناها فيما سبق ، فالكتاب يقع في (٢٦٦) صفحة من القطع المتوسط وحسبنا أن نلم ببعض المواضيع التي نرى أنها تستحق البحث ، لنعطي صورة قريبة من الوضوح عن هذا الأثر القيم الذي قدمه أستاذنا الدكتور صليبـــا إلى المكتبة العربية .

فالكتاب كما ترى من تعداد فصوله يغلب عليه الترتيب المنطقي ، فهـو يتدرج منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا ، وهو يبدأ بالمحافظين المتشددين ، وينتهي بالمتحررين وبالملتزمين ، وليس بدعاً في التأليف أن يأتي كتاب من علَّم المنطق أربعة عقود منطقيَّ الترتيب .

وعلى الرغم من أن أستاذنا قد غاص في الأدب والنقد واللغة فإنـه لم يستطع التحرر في بعض مواضيع الكتاب من أسلوب الفلاسفـة وتعابيرهم وألفاظهم ، فقد غلبت عليه أحياناً بشكل واضح ، كقوله (ص ٢٥١) :

« قيل ان بين النقد والعلم فرقاً كبيراً ، لأن العلم ينظر في الأشياء للكشف عن القوانين الطبيعية التي تضبطها ، والنقد ينظر في قيم هـــذه الأشياء . وإذا كان النقد مؤلفاً من أحكام إنشائية أو تقديرية تفاضل بين قيم الأشياء ، بحسب قربها من المثل العليا أو بعدها عنها ، فان العلم مؤلف من أحكام خبرية أو وجودية تعبر عما هو كائن بالفعل . وإذا علمت أن مايكتبه الكاتب أو يصوره الفنان أو يقوله العالم أو الفيلسوف يرجع في النهاية إلى أحكام خبرية أو إنشائية ، علمتَ أن حكم الناقد على قيمة هذه الأحكام كلها ليس حكماً بسيطاً ، وإنما هو حكم مركب أي حكم على حكم . »

فإذا كان النقد « حكماً على حكم » كما قرر أستاذنا المؤلف ، فان كتابه لم يخل من هذه القاعدة ، فكثيراً ما أصدر « حكماً على حكم » أو إن شئت « نقداً على نقد » . ولنضرب على ذلك مثالاً واحداً فهو من جهة شديد الإعجاب بالأستاذ الرئيس محمد كرد علي رحمه الله ، يقول عنه بمعرض الرد على أحمد شاكر الكرمي (ص ١٣٧ — ١٣٨) : « فمحمد كرد علي الذي تربع في دست الوظيفة لم تخمد شعلة مواهبه ، بل ترك الكتابة في الجريدة وانصرف إلى الكتابة العلمية والأدبية ، ونشر خطط الشام والإسلام والحضارة العربية ، وأقوالنا وأفعالنا ، وكنوز الأجداد ، والمذكرات وغيرها ، حتى صار — بما قبسه من الثقافة العربية والثقافة الغربية . قائد الحركة الأدبية في بلاد الشام ، ويمد أسلوبه الأدبي من الأساليب البليغة الواضحة في غير تصنع ولا إفراط » . إلا أن قائد الحركة الأدبية ليس في نجوة من نقد أستاذنا المؤلف كقوله عنه : « وبلغ من ضعف ملكته الموسيقية أنه كان يستعين ببعض أصدقائه على ضبط أوزان الأشعار التي يستشهد بها في مقالاته » .

ويشير أستاذنا المؤلف إلى نقد قائد الحركة الأدبية في بلاد الشام لكتاب قواعد التحديث الذي ألفه جمال الدين القاسمي (ص ١١٩) ، وينقل قوله في مؤلفه : « إنه ينقل عن مجلات غاضاً من ذكر أسمائها ترفعاً ، وأنه يقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب إلى آخره ، وأنه من العلماء المشهورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة في الجمع والنقل وأنه آخر من جرى على تلك الطريقة التي ضعفت فيها ملكة التأليف ، فاكتفى في أكثر تآليفه بسط آراء غيره .... » ثم يشير إلى المساجلة التي جرت بين شكيب أرسلان ومحمد كرد علي حول هذا الموضوع ، ويعلق على رأي كرد علي بقوله (ص ١٢٢) :

« وإذا عدنا الآن إلى رأيه في طريقة النقل والجمع ، قلنا : انه لم يسلم هو نفسه من اتباع هذه الطريقة في بعض تآليفه ، فإن تراجم بعض الرجال الذين ذكرهم في كتاب كنوز الأجداد لا تختلف عن تراجم ابن خلكان والبيهقي والقفطي وابن أبي أصيبعة إلا قليلاً » .

ويتضح إنصاف أستاذنا المؤلف ، وغيرته على المجمع ، في رده على سامي الكيالي الذي اتهمه بأنه (ص ١٦٤) : « كان يضم الكثير من الأطباء ولكنهم كانوا يحاولون إنقاذه بطب إبن سينا لا بطب باستور ... ولم يستطع أن يخطو أي خطوة في تطور الأدب » . فيقول : « وفي هذا القول حيدة عن الطريق ، لأن المجامع اللغوية لم تنشأ لتطوير الأدب ، بل أنشئت للحفاظ على سلامة اللغة ونقاوتها وتطوير ألفاظها حتى تصبح صالحة للتعبير عن حاجات العصر ... ويكفي المجمع العلمي شرفاً أن يعمل على صيانة اللغة ، وتطوير ألفاظها ، ونقد أساليبها ... » .

وفي فصل « الثورة على الأدب التقليدي — تحطيم الأصنام » الذي اتخذ له أنموذجاً ماتركه أحمد شاكر الكرمي ، يحلل الأسباب التي دعت إلى هذه الثورة « التي أرادت أن تطور الأدب ، وأن تنهض به ، وأن تبعث الحياة فما ركد منه ، ولكن بشرط المحافظة على الفصحى ، وعلى اللغة وقواعدها ، « لأنها من أهم أركان الأدب » وتتبين نصرة أستاذنا المؤلف لهذه الثورة بما نقل من أقوال الكرمي ، وبالمقتطفات التي اختارها . مثال ذلك قول الكرمي (ص ١٤٦) :

« أول مايجب الشروع به لاحياء الآداب العربية هو القضاء على العجمة الخبيثة ، واجتثاث أصولها ، وإقصاؤها عن الناشئين جهد المستطاع : لكي لا تعلق بأذهانهم فتفسد ملكاتهم . » .

وأحمد شاكر الكرمي يسمي الذي يهملون شأن اللغة بالمتمردين، ويقول عنهم (ص ١٤٧): تعصف في رؤوسهم عاصفة الطموح، وتدب في عروقهم حمى الطمع في الشهرة وبعد الصيت، فيندفعون إلى الكتابة دون تعلم قواعدها، فيشوّهون وجه الأدب بالخبائث التي ينفثونها، والجرائم التي يبثونها..».

ولهذا فإن أستاذنا المؤلف يحكم على الكرمي هذا الحكم المنصف الجميل (ص ١٥١):

«وإذا أضفنا إلى ذلك كل ماعرفناه من حماسته وإخلاصه وصدقه وعدالته أمكننا أن نقول أن ذلك النجم المتوقد كان لايزال في دور التكوين يوم أدركه الاحتراق».

وكما يبدو أن أستاذنا المؤلف كان نصيراً لثورة الكرمي فانه يبدو أيضاً أنه كان رفيقاً بأصحاب المذهب الحر وبدعاة مذهب الالتزام، وعلى الرغم من أنه قد عرض آراء الموافقين والمخالفين، فان عرضه كان مجرداً، ولم يصدر فيه «حكماً على حكم.».

وليس هنا مجال بحث البدعة التي استحدثوها، وزعموا أنها تحرير للشعر من الوزن والقافية ومن كل قواعد «عمود الشعر» التي أشار إليها الأقدمون، منهم المرزوقي في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام. وإنما نكتفي بالإشارة إلى أن هذا المذهب إذا كتب له البقاء، وهذا الحال، فيمكن أن يكون كل شيء إلا الشعر.

وأما ماسموه «الالتزام» فهو أيضاً بدعة جديدة منكرة، لايمكن أن تستقيم في أي زمان أو مكان.

لو عدت إلى أقوال أصحابها لوجدت فيها برقاً خُلَّباً ، وسراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ، ذلك بأن نصرة الأماني الوطنية ، والتحدث عن المآسي الاجتماعية ، والنكبات القومية ، أمور قد التزمها الشعراء والأدباء في سورية ، في جميع العصور ، وفي العصر الحديث خاصة ، من غير إلتزام وإنما دفعهم إليها شعور قومي عميق صادق ، وحس دافق يتألم لأرزاء المجتمع ، وجراح نازفة لما حل بأرض الوطن من النكبات . ولا أدل على ذلك من مجموعة القصائد التي قيلت في الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ — ١٩٢٧) التي جمعها الأستاذ محب الدين الخطيب في كتاب سماه « ديوان الثورة » . هذا الديوان لم يوح به مذهب سياسي معين ، ولا أملاه تسخير لقرائح الشعراء ، ولم يستلهم أصحابه قصائدهم إلا من وحي وجداناتهم . ولا ريب عندي في أن الذين يتحدثون عن « الالتزام » إنما ينظرون من وراء الأفق إلى ردة « باسترناك » فيما زعموا .

وخلاصة القول فإن الكتاب الذي بين أيدينا يمكن أن يوصف بأنه جديد في موضوعه وفي أسلوبه ، وهو من خير الدراسات الملهمة الرصينة التي ينبغي أن يحرص عليها المتأدبون الناشئون ، وأن تزين بها مكتبات العلماء والأدباء والنقاد .

ضهور الشوير (لبنان) ظافر القاسمي

❋❋❋

دراسات في فقه اللغة

تأليف الدكتور صبحي الصالح

طبعة دار العلم للملايين في بيروت سنة ١٩٦٨ (الطبعة الثالثة)

الأستاذ الدكتور صبحي الصالح علم من أعلام التأليف في دنيا العرب . عرفناه أول ما عرفناه في كتابه (مباحث في علوم القرآن) الذي أصدره سنة ١٩٥٨ ، ثم في كتابه (علوم الحديث ومصطلحه) الذي أصدره سنة ١٩٥٩ ، ثم في كتابه (دراسات في فقه اللغة) الذي أصدره سنة ١٩٦٠ . وقد صدرت هذه الكتب جميعاً أول مرة في دمشق حين كان المؤلف أستاذاً في كلية الآداب بجامعتها .

وسرعان ما عرفت هذه الكتب ، ولقيت عناية فائقة من الدارسين والباحثين ، كما طارت شهرتها بين طلبة الجامعات العربية خاصة . ثم تتابعت طبعاتها لذلك ، حتى صدرت الطبعة الثالثة من كتاب (دراسات في فقه اللغة) في السنة الماضية منقحاً ، ومزيداً فيه بحثان جديدان كما يقول المؤلف [1] .

وهذا الكتاب الأخير هو الذي يعنينا في هذه الكلمة العجلى . وهو كتاب قيم قويم ، أقامه المؤلف على أصول الدروس التي كان يلقيها على طلابه في كلية الآداب بجامعة دمشق .

أجاد الدكتور صبحي تأليف هذا الكتاب وتبويبه ، وأحسن فيه دراسة كثير من خصائص العربية ومسائلها وقضاياها التي تدارسها علماؤنا في القديم والحديث ، مثل مسألة اللهجات العربية القديمة وأثرها في تكوين العربية

(١) انظر مقدمة المؤلف للطبعة الثالثة ص ٥ — ٦ .

الفصحى ، ونقل اللغة وتدوينها ، ومثل ظاهرة الإعراب ، ومسألة الاشتقاق وأنواعه المختلفة ، ومسألة الدخيل وتعريب الألفاظ الأجنبية ، ثم المشكلات التي تواجهها العربية في العصر الحديث ولا سيما مشكلة المصطلحات العلمية ، وغيرها من قضايا العربية .

وكلها قضايا معروفة ، بحث فيها العلماء من العرب والمستشرقين ، وأبدؤوا فيها القول وأعادوا في أبحاث ومقـــالات متفرقة في كتب وصحف دورية كثيرة . ولكننا لم نرها مرتبة مجموعة معروضة معاً بين دفتي كتاب قبل أن يصدر الدكتور صبحي كتابه هذا . فهو لذلك يعد فريداً ، لا صنو له في بابه . وهذا إلى بيان عربي أصيل جميل ، ولغة صحيحة فصيحـة ، طبع عليها الدكتور صبحي ، فتجلّت في كتبه جميعاً . ومن وراء هذا البيان الجميل واللغة الفصيحة حماسة ظاهرة للغة الضاد ، وإشادة دائمة بأصالتها وعبقريتها في القديم والحديث . ومنشأ هذه الحماسة حب للعربيـــة خالص ، يتملك نفس الدكتور صبحي ، ويجعله دائماً راضياً عمن يحب ، مستحسناً لأحواله جميعاً . وهو على حق لا ينكر ولا يدفع في حبه الكريم هذا ، والموقف النبيل الذي يؤدي إليه . ولقد أوتينا مثله حظاً وافراً من هذا الحب ملأ ليالي عمرنا ، واستنفد منا طاقة الشباب الغالي .

ولا يمكننا هنا أن نوفي القول في هذا الكتاب القيم . وغايتنا القصوى هو التعريف به والإشارة إلى قيمته وحسب . وقيمة الكتاب الأساسية كائنة ، كما نرى ، في براعة المؤلف في رسم المعالم الكبرى في طريق الباحثين في كثير من قضايا العربية التي ذكرنا طرفاً منها آنفاً ، مثل قوله في كلامـه على قضية اللهجات العربية القديمة : « هذه خلاصة الفوارق الرئيسة بين لهجتي تميم والحجـــاز ، رأينا من خلال عرضها أننا من تميم أمام لهجة

خاصة قائمة بذاتها ، لها خصائصها ومميزاتها . وعسى أن نكون قد استنتجنا من معرفتنا لذلك أن لهجة تميم قد أمدت العربية الفصحى بروافد غنية غزيرة ، ساعدت على استقرار نحوها وصرفها ، وسعة اشتقاقها ، وبعد دلالاتها ، وانبساط مدرجها الصوتي ، وحياة عدد كبير من مفرداتها . فإذا أردنا أن ننتقل إلى دراسة خصائص العربية ومميزاتها كان لزاماً علينا أن نفهم لدى أول خطوة نخطوها حتى آخر نتيجة نعطيها أن تميماً تشارك قريشاً بنصيب كبير من هذه الخصائص ، وأن إغفال دور تميم في هذا إنما هو تهاون بجزء لا يتجزأ من لغتنا العربية الفصحى[١] » .

وهذا حق مبين ، وهو أيضاً تخطيط وجيز دقيق لدراسة لهجة تميم ، وبيان أثرها في تكوين العربية الفصحى . ومثل هذا كثير في الكتاب .

ولنا بعد كلمة أخيرة نحب إسماعها ، وهي أن المؤلف الكريم قد صرف أكبر همه إلى بعض قضايا العربية دون بعضها . فقد أولى الاشتقاق وأنواعه مثلاً عناية خاصة ، وبذل في بحثها جهداً جاهداً ، على حين مرّ مراً سريعاً بقضايا أخرى مثل مسألة الترادف ، والمشترك في اللفظ ، أو ما اتفق لفظه واختلف معناه كما يسميه القدماء ، ومثل مسألة الأضداد . وهي كلها لا تقل أهمية عن مسألة الاشتقاق ، بل تفوق في أهميتها مسألة مناسبة حروف العربية لمعانيها من مباحث الكتاب . وهي في الدراسات اللغوية أقرب إلى مسائل ما وراء الطبيعة في الدراسات الفلسفية .

ونحن في انتظار مزيد من الخير من الدكتور صبحي ، وهو أهل لذلك . قوّاه الله ولقّاه برّاً .

الدكتور عزة حسن

---

(١) انظر ص ١٠٣ — ١٠٤ من الكتاب .

المـــورد

قاموس انكليزي عربي

تأليف منير البعلبكي

كتب منير البعلبكي في صدر مقدّمته لمعجمه المورد[١] أن مؤلّفه كان ثمرة عمل متواصل طوال سبع سنوات أنفقها في تأليفه وطبعه ، وجاء في ثبت المراجع التي اعتُمدت في تأليف هذا المعجم أن معجم وَبْستر الجامعي السابع المطبوع في الولايات المتحدة الأميركية في عام ١٩٦٥ كان في جملة هذه المراجع . وقد تصفحت معجم وبستر المنوه عنه ، وأنا أتصفح هذا المعجم في كل يوم تقريباً منذ صدوره ، فاذا بأصحابه يدوّنون على غلافه أنه نتيجة خبرة تنيف مدتها على القرن . أفلا يحق لنا إذن أن نأخذ من ذلك أن معجم البعلبكي الذي هو وليد معجم وبستر أشهر معاجم العالم الأنكلو أميركي على الإطلاق ، إنما هو ثمرة عمل وجهد وخبرة يزيد أمدها على قرن كامل .

وكم كان إعجابي شديداً بقاموس المورد ، وبرسوخ قدم صاحبه في اللغتين العربية والإنكليزية لدى قراءتي مقدمة القاموس التي سماها المؤلف تصديراً . وكنت قرأت فيما سبق لأحد الكتبة المتأخرين مقالاً كتبه عن اللغوي والمحقق المشهور الشيخ إبراهيم اليازجي ، فقد قال هذا الكاتب في معرض وصفه لشرح ديوان المتنبي الذي وضَعَهُ اليازجي ، وللدراسة المستفيضة التي كتبها اليازجي عن المتنبي وجعلها ذيلا لشرح الديوان « لو لم

---

(١) صدر هذا المعجم عن دار العلم في بيروت وأنجز طبعه على المطابع الأهلية اللبنانية في عام ١٩٦٧ .

يكن لليازجي غير هذه الدراسة لكفى بها دليلاً على علو كعبه في اللغة العربية وآدابهـــا » وأنا أقول ، وأراني على حق فيا أقول ، لو لم يكن لمنير البعلبكي غير هذا التصـدير الذي مهّد به لقاموسه لكفى به شاهداً على بلاغة صاحبه وتمكنه من اللغتين العربية والإنكليزية .

وكم كان إعجابي شديداً أيضاً بقاموس المورد لدى ماعلمته من تصديره أن عدد مفرداته أو مواده entries كما سماها المؤلف ، لا يقل عن مائة ألف مادة . فذكرت بعد علمي بذلك أن المعجم الانكليزي العربي المدرسي الذي وضع بين أيدينا خلال سنوات الدراسة الابتدائية والثـــانوية في المدارس الأميركية في لبنان ، وهو قاموس ابكاريوس(١) ، لم يكن يزيد عدد مفرداته على ٢٥ ألف مفرداً ، وقلت في نفسي ما أوفر حظ المثقف العربي — وقل الطالب العربي على الأقل — في هذا العصر حين يتاح له في دراسته اللغة الإنكليزية أن يستعين بقاموس البعلبكي الكبير ، عوضاً عن قاموس ابكاريوس الصغير ، وكم كنت أشعر بالخيبة في دراستي للجغرافية والتاريخ والعـلوم الطبيعية والرياضية حين اضطراري على مراجعة قاموس ابكاريوس للتفتيش عن المعنى العربي لإحدى الألفاظ الإنكـليزية ، فلا أجد فيه غير المعـاني البعيدة عن المعنى الذي افتش عنه ، أو لا أجد اللفظة المطلوبة بين ألفاظه فلا أرى بدأ إذ ذاك من مراجعة معجم وبستر للتفتيش عن ضالتي المنشودة فاذا وجدت اللفظة المطلوبة وعثرت بين معـانيها على المعنى الذي أريده ، وهذه المعاني قد تكون في بعض الأحيان كثيرة تحتاج في قراءتها وفهمهـا إلى الوقت والدأب ، لرحت بعد ذلك افتش عن اللفظة العربية المقابلة لمعنى اللفظة الإنكليزية الذي وُفّقت في العثور عليه ، وإنما كان التفتيش كما هو واضح ، فيا كانت تعيه حافظتي من المفردات العربية ، وجل هذه المفردات

(١) طبع هذا القاموس لأول مرة في المطبعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٠٣ .

مقتبس من كتابات بعض مشاهير المتأخرين من أمثال جرجي زيدان وفرح أنطون وجبران والريحاني وطانيوس عبده وسواهم .

وعلى ذلك فاني بعد هذا البيان الذي يجاو حقيقة الدراسة للغة الإنكليزية في الحقبة الممتدة من أول الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية لايسعني إلا أن أغبط دارسي اللغة الإنكليزية في هذه الآونة ، وبخاصة الطلاب الجامعيين الذين يدرسون اللغة الإنكليزية وآدابها ، لأن لديهم سفراً مطولاً هو معجم البعلبكي يستطيعون الرجوع إليه لتقصي المعاني العربية لمعظم الألفاظ الإنكليزية التي تعترضهم خلال الدراسة ، بدون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الرجوع إلى المعاجم الأميركية أو الإنكليزية . وإني إذ أغبط المثقفين والطلاب لأن لديهم مرجعاً غزير المادة يستطيعون اعتماده في تعلمهم اللغة الإنكليزية ، لأغتبط أيضاً لأنني في كل يوم تقريباً أقلب صفحات هذا المعجم لاستقصاء المعاني العربية أو للتحقيق في المعاني العربية التي قد أجدني في حاجة إليها خلال الترجمة من الإنكليزية إلى العربية .

غير أنني شأن كل باحث مدقق ، ونزولاً عند رغبة المؤلف بابداء ما يخطر للمراجع من الملاحظات على منهج تأليف المعجم وعلى ما بين دفتيه من الثروة اللغوية استميح المؤلف عذراً إذا أنا أبديت له الملاحظات التالية :

١ — كثيراً ما يلحق المؤلف أل التعريف بالأسماء الموصوفة وربما كان ذلك تمييزاً لها عن الصفات ، فهو في الصفحة الأولى من المورد يورد لفظة « الحِظَار » بأل التعريف لمقابلة لفظة abatis الانكليزية ، وبعدها بلفظة واحدة يذكر لفظتي « مَجْزَر ، مَسْلَخ » بدون أل التعريف المقابلة لفظة abattoir ، فهو إذن في إيراده الأسماء الموصوفة ، يهمل أل التعريف أحياناً ويلحقها بها أحياناً بدون أن يكون لذلك سبب هام يقتضي هذا الإلحاق . وحبذا لو تخلى

عن أل التعريف تخلياً تاماً جرياً على المنهج المتبع في معجم ابكاريوس ومعجم الأب بلو اليسوعي ، وهو معجم فرنسي عربي ، ومعجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات لمؤلفيه الأساتذة خاطر وخياط والكواكبي وهذا أيضاً فرنسي عربي ، إلا في أحوال خاصة يفضل فيها تعريف الاسم بدلاً من بقائه بحالة التنكير . وليس بمنكر أن أل التعريف تلحق دوماً بالأسماء الموصوفة في المعاجم العربية وحتى بالصفات أيضاً ، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي دعت المؤلف إلى هذا الالحاق . ولكن الفرق جسيم بين التأليف في الحالة الواحدة وبينه في الحالة الثانية ، لأن أسلوب التأليف في المعجم العربي يقتضي أن يكون الكلام في سياق واحد وأن تكون فقراته المتتابعة معطوفة إحداها على الأخرى فلا مَحالة من إلحاق أل التعريف حتى بالصفات . قال المعلم بطرس البستاني على الصفحة الأولى من قاموسه محيط المحيط « الأُبابُ الماء والسراب والأُباب معظم السيل والموج » . وقال أيضاً « الآبِدة الداهية يبقى ذكرها أبداً ج أُبَّدٌ وأوابدُ . والأوابد أيضاً الوحوش والقوافي الشُرَّد . الأَبدُ الدهرُ والدائمُ والقديمُ الأزلي والولَد الذي أتت عليه سَنَة ج آباد وأبود » وهكذا إلى آخر صفحة من صفحات معجم البستاني وإلى آخر مفرد من مفرداته .

وعلى نقيض ذلك فإن مؤلفي المعجم الطبي المذكور آنفاً أسقطوا أل التعريف من كل الأسماء الواردة في المعجم فقالوا عضلة لمقابلة كلمة muscle وقالوا عضلة صُدغية في ترجمة muscle temporal بدون أل التعريف ولم يقولوا العضلة الصُدغيّة بأل التعريف مع أن اسم هذه العضلة خاص بها دون سواها من العضلات فهو أحرى باستلحاق أل التعريف من كلمة عضلة ذات المعنى العام أو الدلالة العامة .

٢ — ويصطلح المؤلف في ترجمة الأفعال على صيغة المضارع بدلا من الماضي الذي هو الأصل في بناء الفعل وهو الصيغة الأصلية التي تقابل صيغة الـ infinitive في اللغة الانكليزية وسواها . فهو يقول على الصفحة الأولى في ترجمة كلمة abandon « يتنازل عن ، يهجر ، يترك الخ . . » وربما كان الأفضل ما جرى عليه مؤلفو المعاجم الأخرى الانكليزية العربية والفرنسية العربية من استعمال صيغة الماضي لمقابلة الأفعال ، وربما كان الأفضل من هذا وذاك أيضاً استعمال الماضي والمضارع معاً مع الاهتمام باثبات حركة عين الفعل في كلتا الصيغتين لما لهـــذه الحركة من الشأن في تصويب التلفظ بالأفعال .

٣ — أما بشأن البوادىء التي تدخل على الألفاظ الانكليزية فيمكن أن تقسم قسمين همـا البوادىء بخاصّة prefixes وهذه تكون عادة من الحروف أو الظروف اللاتينيـة أو اليونانية نحـو البوادىء في الكلمات abduct أي أبعَدَ و abscess أي خُرّاج و subcutaneous أي تحتَ الجلد الخ ... والقسم الثاني هو الصيغ التركيبية combining forms وهـــذه تكون عادة من الأسماء اللاتينية أو اليونانيـــة نظير الجزء الأول من الكلمتين oropharynx أي البلعوم الفموي و nasopharynx أي البلعوم الأنفي . غير أن مؤلف المورد لا يفرق بين هذه الصيغ فهو يسميها جميعاً بوادىء (الصفحتان ١٩٤ و ٧١٨ من المورد) وهب أن تسميتها كذلك جائزة ، فما نفعل حين تعترضنا كلمة مركبة من ثلاثة أجزاء مثل sternocleidomastoid أي العضلة القَصِيّة الترْقُوية الخُشّائيّة وماذا نسمي جزأها الثاني أي -cleido- الذي لا يمكن اعتباره بادئة لأنه الجزء المتوسط من الكلمة فلا هو بادئة ولا هو لاحقة . لذلك نرى أن الأفضل في التفريق بين هذه الألفاظ المستعملة في

بناء الكلمات المركبة أن نسمي ما كان منها من قبيل الأسماء بالصيغ التركيبية أي بترجمة اسمها حرفياً عن الانكليزية ، وأن يقتصر في إطلاق كلة البادئة على الأدوات والحروف والظروف وما أشبه .

٤ — وفي المعجم الكثير من الألفاظ المعربة كلفظة اسَّقُوبة التي عربت بها لفظة succubus ولفظة السَّكُتَاش لمقابلة لفظة succotash والصَّنْفَرة أو السَّنْفَرة لمقابلة sandpaper أو emery paper وغير ذلك . وإني أظن أنه لاحاجة إلى أمثال هذه المُعرّبات إذ أن الناس يتعذر عليهم الاقبال على استعمالها فلا ينقضي عليها بعض الوقت حتى تعود من الألفاظ المائتة . وقد عرب المجمع العلمي العربي بدمشق فيما مضى كلة chocolate بكلمة شَكُولاَت على وزن فَعُولات فهل استعمل الناس اللفظة المعربة في الكلام أو الكتابة ، إنهم لايزالون يقولون ويكتبون شوكولا أو شكولاته أو شكولاتا أو ما اقترب من هذه الكلمات في هجائه ولفظه .

٥ — ثم إن في بعض ألفاظ المعجم العربية شيئاً من نقص الايضاح أو عدم التفريق فيما ترمز إليه من المعاني الانكليزية فكلمة solder الفعل ترجمت بكلمة « يَلْحِمُ » ، وكذلك كلة weld ، مع أن هناك فرقاً بين اللفظتين إذ أن الأولى تفيد معنى وصل قطعتي المعدن باللِّحام والثانية تفيد معنى وصلها بالحرارة وبدون وساطة اللحام ، فلا بد إذن من التفريق بين المعنى الانكليزي لكل من اللفظتين فيما يقابله بالعربية .

٦ — وقد يكون في المعجم قليل أو كثير من الأخطاء في اللغة العربية نفسها ، فقد جاء على صفحة ٤٦٠ في ترجمة Indian club ما نصه « أداة خشبية قارورية الشكل يُتَرَيَّضُ بها » والصواب يُتَرَوَّضُ لأن الفعل راض واويّ وليس في صيغة المضارع المجهول يُتروَّض شيء من الاستثقال لقلب الواو ياء . وجاء على صفحة ٢٤٨ في ترجمة كلمة dark « مظلم ، داكن ، قاتم

الخ ... » والصواب أدكن ومؤنثه دكناء لأن لفظة داكن على وزن فاعل لم ترد فيما اطلعت عليه من المعاجم العربية (محيط المحيط للبستاني صفحة ٦٦٩) . ثم إن المؤلف يقول على الصفحة ٦٥ من المعجم في ايضاح التعبير artificial horizon «حين يتعذر عليهم رؤية الأفق الحقيقي» ، والصواب تتعذر لأن الفاعل رؤية مؤنث . ويقول على نفس الصفحة في تعريفه اللغة الآريّة « اللغة التي تَحـدّرت منها معظم اللغات الأوروبيـة .... واشتقت منها معظم اللغات الأوربية » والصواب تَحدَّر واشتُقّ لأن فاعل تَحدَّر مذكر وكذلك نائب فاعل اشتُقّ .

٧ -- وقد يذكر مؤلف المورد القليل أو الكثير من الألفاظ العامية لمقابلة نظائرها الانكليزية مع وجود مايقوم مقامها من الألفاظ الفصيحة فهو يستعمل كلة غامق لمقابلة كلة deep وفاتح لمقابلة كلة light مع أن الكلمتين عاميتان ، وقد استعمل الشيـخ إبراهيم اليازجي كلة مشبع لترجمة كلمـــة deep وكذلك فعل الأب بلو في معجمه الفرنسي العربي فذكر كلة مشبـع لمقابلة كلة foncé التي لها نفس المعنى .

وذكر صاحب المورد كلـة مستديم في ترجـة كلة constant وهي عامية في هذا الاستعمال وفي المحيط استدام اللازم غير ثابت عنـد العرب لأنه مُتَعَدٍّ ومعناه طلب دوامه ولا يعـني دام . لذلك كان الأصوب ترجمة كلة constant بالدائم أو الوجود بصورة دائمة .

على أني فيما يتعلق بالتنبيه على الخطـأ اللازم لاستعمال لفظـة مستديم ، لا أخال أنها ستستعمل على وجهها الصحيـح بل إن استعمالهـا كفعل لازم سيستمر إلى ما شاء الله لأنها كالفعل تَبَقّى الذي تعده كتب متن اللغـة فعلاً متعدياً في حين أن أكثر الناس لايستعملونه إلا فعلاً لازماً فيقولون

ماتَبَقَّى من الشيء أي بقي والشيءُ المُتَبَقِّي أي الباقي حتى أن صاحب المورد نفسه أثبت كلمة مُتَبَقٍ" لمقابلة كلمة residual التي تفضل ترجمتها بالباقي . والغريب في أمر هـذه الألفاظ التي شاع استعمالها الخاطئ حتى طغى على استعمالها الصحيح أنه ما من وسيلة يمكن التوسل بها لحمل الكتّاب وسواهم على اجتناب الخطأ في استعمالها . خذ مثالاً آخر على ذلك لفظة استهدف اللازم فانها تعني أصبح هدفاً أو غرضـــاً يرمى ومنه قولهم من صَنَّفَ فقد استهدف أي أصبح هدفاً للنقد . ومنه قول ابن الفارض :

ولقد أقولُ لمن تحرّشَ بالهوى عرّضت نفسَك للبَلا فاستَهدِفِ

أي اجعل نفسك هدفاً . أما الاستعمال الشائع فيُعدّي هـــذا الفعل ويجعل معناه رمى هدفاً مُعَيّناً أو رمى نحو هدفٍ معيّن فيقولون مثلاً أن هذه الخُطة تستهدفُ إصلاحَ هذا الأمر ، وما إلى ذلك . فاذا نحن نَبَّهنا على هذا الخطأ فلا اخال أننا نستطيع إصلاحه ما دامت إذاعات العالم العربي وغير العربي قاطبة وربما معظم جرائده أيضاً تجعل الفعل استهدفَ فعلاً متعدياً وتستعمله بهذا المعنى الخاطئ .

٨ — ثم إن في تعريفات بعض المصطلحات الطبية والبيولوجية شيئاً من النقص مثال ذلك لفظة antibiosis فقد ورد ما يقابلها بالعربيـة كما يلي « التضادّيّة : تضادٌّ بين مُتَعضّيَيْن يؤدي إلى إتلاف احدِهما» . وقد جاء في معجم دورلند الطبي(١) ما معناه :

«ان antibiosis هي bacterial antagonism أي التضادّ الجراثيمي وهو عبارة عن اجتماع المُتَعضّيَيْن متلفٍ أو مؤذٍ لأحدهما أو لهما معاً» . ومن ناحية

(١) الطبعة الرابعة والعشرون الصادرة عن شركة سوندرز للنشر والطباعة في فيلادلفيا سنة ١٩٦٥ .

ثانية فقد جاء في المورد أن antagonism هي بالمعنى الطبي أو البيولوجي التضادّ ، فلماذا نترجم اللفظة الأولى بالتضادّية بياء النسبة وتاء المصدرية ، ونترجم اللفظة الثانية المرادفة antagonism بالتضادّ بدون الياء والتاء .

وقد اعتبر المورد بعض الألفاظ الطبية أسماء في حين أنها قد تكون أسماء nouns وصفات adjectives في آن واحد مثل anticoagulant أي مانع التخثر فقد جعلها المورد اسماً فحسب مع أن معجم دورلند الطبي يذكر أن اللفظة تعني مانع التخثر أي أنها تكون صفةً وتعني أيضاً المادة مانعة التخثر أي إنها تكون اسماً . والغريب أن صاحب المورد لم يغفل نسبة الإسميّـة والوصفيّة إلى بعض المصطلحات الأخرى الطبية نظير antiseptic أي مانع العفونة و antipyretic أي مانع الحمى فقد اعتبرها أسماء وصفات في آن معاً ، وذلك على حد ما جاء في معجم دورلند الطبي وسواء من المعاجم الطبيـة وعلى حد ما ورد في معاجم متن اللغة الانكليزية .

٩ — وقد يضع مؤلف المورد في بعض الأحايين ألفاظاً عربية جديدة لمُسمَّيات انكليزية لها ما يقابلها بالعربية نظير لفظة مُجتَلَد الموضوعة لمقابلة كلمة arena التي تعني ساحة البراز أو حَوْمة القتال أو حوْمة بدون إضافة . والطريف في هاتين اللفظتين الانكليزية arena والعربية حَوْمة أن لفظة arena عَنَتْ في أصلها اللاتيني الرمل أو المكان المرمل ثم أطلقها الرومان على ساحة البراز لأن هذه كانت تفرش بالرمل ، وكذلك كلمة حومة فإن العرب استعملوها في بعض المركبات الاضافية فقالوا حومة البحر والرمل والقتـال وغيره أي معظمه أو أشد موضع فيه . وهم يسمون موضع القتال حومـة لأن الأقران يحومون حوله (محيط المحيط) .

وذكر صاحب المورد أن كلمة premolar وهي السن التي تلي الناب ، تقابلها كلمة قَبْطَاحِين العربية وهذه الأخيرة كما ترى منحوتة من كلمتين هما قبل وطاحن لمقابلة البادئة pre- المأخوذة من prae- اللاتينية ومعناها قبل ، وكلمة molar أي السن الطاحنة أو الرحى وهذه مأخوذة من mola اللاتينية أي حجر الرحى . غير أن العرب أطلقوا لفظة الضاحكة على السن التي تبدو عند الضحك ، أو السن التي تـلي الناب . وجاء في محيط المحيط الضاحكة مؤنث الضاحك وكل سن تبدو عنـد الضحك أو السن التي بين الأنياب والأضراس وهي أربع ج ضواحك . وقال الأصمعي في الفم الأسنان وهي الثنايا والرَّبَاعِيَات والأنياب والضواحك والطواحن والأرحاء والنواجذ . ويقول الأصمعي ويلي الأنيابَ الضواحكُ وهي أربعة أضراس إلى كل ناب من أسفل الفم وأعلاه ضاحكٌ ثم تـلي الضواحكَ الطواحنُ والأرحاءُ ثم تلي الأرحاءَ النواجذُ . أما نحن في جامعة دمشق فقد اعتبرنا الأسنان التي تلي الأنيـــاب ضواحك أولى first premolars وسمينا طواحن الأصمعي بالضواحك الثانية second premolars وذلك لما بين الضاحكة الأولى والثانية من التشابه في الملامح التشريحية حتى ليتعذر التفريق بينها أحياناً ، وأطلقنا اسم الأرحاء molars على الأسنان الثلاث الباقية وهي التي تلي الضواحك ، وسمينا أولاها بالرحى الأولى first molar وثانيتها بالرحى الثانية second molar وثالثتها بالرحى الثالثة third molar وهذه الأخيرة هي الناجذ الذي ذكره الأصمعي . وقد سميناها رحى لأنها تحاكي أرحاء الأصمعي في أوصافها التشريحية وكل ذلك موافق للتسمية التي اصطلح عليها الفرنجة [1] . غير أننا احتفظنا بلفظة الناجذ لمرادفة ضرس العقـــل

(١) معجم المصطلحات السنّية الذي وضعه اتحاد طب الأسنان الدولي وأصدره عن لاهاي سنة ١٩٦٦ .

wisdom tooth المسمى كذلك عند الكثير من الأمم . وعليه وبعد هذا التفصيل التشريحي لا يبقى ثَمَّةَ وجوب لنحت كلمة جديدة هي القَبْطاحين هذا ناهيك من أن هذه الكلمة المنحوتة ثقيلة يمجها السمع فلا محالة من عدها ميتة من يوم ولدت .

١٠ — وقد يعمد صاحب المورد أحياناً — وهي أحيان قليلة جداً — إلى التعاريف الطويلة لشرح بعض المعاني أو بعض التعابير الاصطلاحية كما في ترجمته للتعبير الاصطلاحي rule out فقد ترجمه بعبارة صحيحة ولكنها طويلة حيث قال « يعلن أنه غير وارد أو لا مجال للبحث فيه » مع أنه قد يمكن الاستغناء عن هذا التعريف الطويل والاكتفاء بالفعل نفى أو استبعد لا سيما وأن وبستر يرى أن التعبير rule out يرادفه الفعلان exclude أي استثنى و eliminate أي أخرج واستبعد .

١١ — ثم إن المؤلف قد أحسن كل الإحسان بإيراده الكثير من المصطلحات الطبية حتى ما استعمل منها في مختلف نواحي الاختصاص كلفظة bitewing الدالة على الفِلْمِ الشُّعاعي المُجَنَّح الذي يستعمل بعد عَضِّ جناحه في تصوير تيجان الأسنان العلوية والسفلية في آن واحد . وقد أحسن المؤلف كل الإحسان أيضاً بإيراده للكثير من الألفاظ مَعانيها المستعملة في البحوث الطبية . وذلك عملٌ جزيل النفع يفيد منه المشتغلون في ترجمة هذه البحوث . فهو يقول مثلاً إن من معاني لفظة invasive معنى طبي هو « توسعي » ، وبخاصة : نَزّاعٌ إلى غزو الأنسجة السليمة » ، ويستشهد على هذا المعنى بقوله invasive cancer cells . ولكنه على العكس من ذلك يسقط بعض المعاني الهامة التي يتوالى استعمالها في الكتابات الطبية مع أنها قد تكون في غاية البساطة مثل كلمة common الكثيرة الاستعمال في وصف درجة تفشي المرض فيقال مثلاً common disease أي مرض شائع ومألوف

أو كثير المصادفة والحدوث . وقـد جاء في وبستر شرح هذا المعنى بقوله occurring or appearing frequently أي كثـير الحدوث او أنه يحدث أو يصادف غالباً وتكراراً . ومع ورود هذا المعنى في وبستر فانه لم يرد بين معاني كلمة common في المورد .

ومن هـــذا القبيل أحد المعاني التي أوردها مؤلف المورد لمقـابلة كلمة dull فقد ذكر أن من معاني هذه اللفظة المعنى « غير واضح » . وبما أن هذه اللفظة صفةٌ يغلب استعمالها في وصف الألم فيقال dull pain فقد كان من المفيد أن يُعَزِّز المؤلفُ معنى عدم الوضوح بهـذا الشاهد الذي يوصف به الألم بكونه مبهماً أو عميقاً وغير واضح . وذلك ما جاء في معجم كلارفيل الفرنسي الكثير اللغات ، وهو المعجم الذي نقله إلى العربية الأساتذة خاطر والخياط والكواكبي والذي سبقت الإشارة إليه ، فقد قال المؤلف الفرنسي douleur sourde بالفرنسية يقابلهـا dull pain بالانكليزية . وكذلك فان معجم لاروس الفرنسي الكثير التداول لم يغفل إيراد هذا الشاهد لوصف الألم مع أنه ليس بالمعجم الطبي فذكر بين معاني كلمة sourde المعنى الذي يوصف به الألم بالعمق والإبهام فقال douleur sourde .

ومن هذا القبيل أيضاً عدم إيضاح المعنى البيولوجي الذي يتضمنه الفعل اللازم break في الاستعمال الاصطلاحي break down فقد ذكر المؤلف أن من معانيه « يَحُلّ » أو « يحَلّل » مركباً كيميائياً » في حين أنه ليس من الضروري أن يكون الجسم المنحل مركباً كيميائياً بل قد يكون أيضاً نسيجاً مرضياً فيقال إذ ذاك في وصف الآفة المنحلة أو المتجـــزأة the lesion breaks down أي أن نسج الآفة يتجزأ أو يتَهَتّم .

ومن المعاني الطبية التي تحسن الإشارة إليها بين معاني الكثير من كلمات المورد المعنى واقع في الجانبين أو مؤثر في الجانبين لمقابلة كلمة bilateral فقد

ذكر المؤلف جميع معاني هذه اللفظة خلا المعنى المتقدم مع أنه شائع الاستعمال في علمي التشريح والأمراض فيقال مثلا bilateral enlargement أي ضخامة واقعـــة في الجانبين . وقد عبر وبستر عن هذا المعنى بقوله affecting reciprocally two sides أي مؤثر في جانبين متقابلين .

ومما سقط ذكره من المورد لفظة stiffness الاسم مع أن الصفة stiff مذكورة وأن من معانيها « جاسِئ أو صُلبٌ » . وعليه كان من الضروري أن تذكر كلمة stiffness التي تفيد من الوجهة الطبية معنى جُسأةِ العُضو أو صلابتِهِ ويُبُوستِهِ . ومما يدعو إلى العجب أن مؤلف المورد أثبت لفظة supraorbital أي فوق الحَجَاج أو فوق المَحْجِر وترجمها باللفظة المنحوتة فَوْمَحْجِري ، ولكنه أسقط من المعجم لفظة infraorbital التي تعني تحت الحَجَاج أو تحت المَحْجِر مع أن هذه اللفظة الثانية لا تقل في كثرة استعمالها عن الأولى .

ومما يشبه هذا السهو في التأليف أن صاحب المورد أثبت لفظـــة polymer ومشتقاتها ، وهي لفظة تطلق على المركب الكيميائي ذي الذرات المتماثرة أو المتضاعفة ، والوزن الذري المرتفع ، ولكنه أغفل اللفظة الشقيقة وهي لفظة monomer التي يسمى بها المركب الكيميائي ذو الذرات البسيطة أو غير المتضاعفة ، والوزن الذري المنخفض ، مع أن أول هذين المركبين يتكوّن عادة من اتحاد أو تماثر (تبلمر كما يقول المؤلف) ذرات المركب الثاني (راجع معجم دورلند الطبي في مادّتي polymer و monomer) .

ومن الألفاظ التي أشار المؤلف إلى معانيها العامة ولكنه أغفل الإشارة إلى معانيها الخاصة لفظة artifact (أصلها اللاتيني artis facta ويعني تأثير العمل الفني في الشيء المصنوع أو في مظهره) . فقد ذكر المؤلف من معاني

هذه اللفظة معنيين هما أولاً الشيء الدال على مهارة صانعه والثاني النتيجة الصنعية الناجمة عن عامل خارجي . غير أنه لم يُشرْ إلى المعنى المألوف في الاستعمال الطبي والدال على الخطأ الحادث في التصنيع المخبري أو على التبدل الطارىء على نتيجة العمل المخبري . مثال ذلك المظهر الكاذب أو الخادع الذي يشاهد أحياناً في الصور الشعاعية أو المُحضَّرات النسجية ، فاذا أعيد التصويرُ الشعاعي أو التصنيع المخبري بعد تعديل طريقة التصنيع أو بعد تغيير المواد المستعملة فيه ، لاختفى المظهر الخاطىء من الصور أو المحضّرات . وعليه فان هذا المظهر الكاذب والطارىء على نتيجة العمل المخبري يشار إليه بالمعنى الخاص للفظة artifact ، وهو المعنى الذي تذكره المعاجم الطبية ويهمله أكثر المعاجم العادية ومنها معجم المورد ومعجم وبستر الجامعي . وإنني اخال أن المؤلف في إغفاله المعنى الطبي لهذه اللفظة ذهب إلى ما ذهب إليه معجم وبستر الجامعي ، وكان الأحرى الاقتداء بمعجم وبستر الدولي الذي جعله المؤلف في عداد المراجع التي اعتمدها في تأليفه ، فقد أثبت هذا المعجم المعنى الطبي الخاص للفظة artifact كما تفعل المعاجم الطبية .

وقد يقال رداً على كل ما جاء في هذه الملاحظة أن معجم المورد ليس بالمعجم الطبي لكي يثبت المعاني الطبية لجميع ما ورد فيه من المفردات ولكن الرد على هذا الرد ما اكّدته في صدر هذه الملاحظة وهو أن المؤلف أورد المعاني الطبية للكثير من مفردات معجمه حتى أنه أورد فيه العدد الكبير من المفردات الطبية كما أشرت إليه في أعلاه ، فكان من المفيد أن تذكر فيه أيضاً بعض المعاني الطبية الأخرى التي أغفل ذكرها مع أنها لاتقل في أهميتها وكثرة استعمالها عن المعاني الواردة في المعجم .

١٢ — وأخيراً فانني لن أترك القلم جانباً قبل أن أقول كلمة عن هذه الألفاظ المنحوتة التي تكثر في قاموس المورد نظير دُوْأحمر أي دُونَ الأحمر التي ترجمت بها لفظة infrared ، وفوْبَنَفْسَجِيّ أي فَوقَ البَنَفْسَجِيّ لترجمة لفظة ultraviolet وفَوْمَحْجِري أي فَوق مَحْجِر العين لترجمة لفظة supraorbital ، وشَمْقَمَري أي شمسيّ قمريّ solunar وحِسِّيْحَرَكيّ أي حِسِّيٌّ حَرَكيٌّ sensorimotor ، وشِرْيَانِيْوَرِيْدِيّ أي شِرياني وريديّ arteriovenous الخ . الخ ...

أنا لا أنكر أن في استحداث هذه الألفاظ جرأة كبيرة من مؤلف المورد ولكني لا أظن أن صدى هذه الجرأة سيكون على النحو أو من القَدْر اللذين يشاؤهما المؤلف ، وذلك لأنني أعتقد بأن الأقلام لا تُقبِلُ على تداول هذه الألفاظ المنحوتة لأنها غريبة الوجه واليد واللسان ، ولأنها تبتعد كل البعد عن أصول تركيب الألفاظ العربية . أجلْ لقد نحت العرب بعض الألفاظ كما هو معروف فقالوا عبشميّ ، وقالوا البسملة والحمدلة والحوقلة ولكن هذه الألفاظ المنحوتة على ما أعلم قليل عديدها فلا يتجاوز أصابع اليدين . وعليه فأنا أرى — وربما رأى سواي هذا الرأي — أن تترك أجزاء هذه الألفاظ المذكورة حرة بدون بترها وحصرها في كلمات منحوتة . وظاهر أن المغالاة في النحت ممكنة وسهلة في اللغات الأجنبية حيث يغترف العلماء والمُنْجَمِيُّون ما شاؤوا من المعين اليوناني اللاتيني لبناء الألفاظ الجديدة ، لا بل ان النحت هو الوسيلة الوحيدة عندهم لبناء الألفاظ المركبة ، خلافاً لما نحن عليه في لغتنا العربية من التقيّد بأحكام لغويّة وبيانيّة لا نستطيع الخروج عليها . وللتمثيل على هذا الرأي الذي أراه أعود فأذكر اللفظة الانكليزية المنحوتة sternocleidomastoid التي تقدم ذكرها في صدر هذا المقال والتي تعني العَضَلَة القَصبيّة التَّرْقُويَّة الخُشَّائيَّة . إن هذه اللفظة

م (١٥)

الإنكليزية مركبة من ثلاثة أجزاء ، فإذا أردنا جمع الألفاظ العربية الثلاثة التي تقابلها في كلمة منحوتة واحدة لقلنا مثـــلاً العضلة القَصْتَرْقُشَائِيَّة على طريقة مؤلف المورد ، وتلك لفظة لا تسر الناظرين كما أن موسيقاها لا تُطرب السامعين . ولذلك فاني أخال أن أكثرنا يعرض عن هذا التكلف الذي يغنينا عنه ما في لغتنا العربية من الليونة والطواعية وما في أسمائها من قابلية الإضافة وبناء صيغ النسبة ، هذه الصيغ التي تحبب إلينا الاحتفاظ بالمصطلحات القديمة وتسهل علينا بناء المصطلحات الجديدة .

وبعد فان هذا ما خطر لي تدوينه من الملاحظات على قاموس المورد . وكنت قد أنعمت النظر فيه وأكثرت من مراجعته في الأسابيع الأخيرة خلال قيامي بترجمة مقال طبي من الانكليزية إلى العربية ، فاجتمع لديَّ من هذه المراجعة الملاحظات التي كشَّفتها وأوجزتُها فيما تقدم ذكره . ومع أنها ليست كل ما يمكن قوله في مجال الملاحظة على مواد المعجم ، فانها مهما كثرت لا تعدُّ شيئاً مذكوراً إذا هي قيست بالحسنات الجُلّى التي يطفح بها معجم المورد ، والتي تجعله خير معجم إنكليزي عربي أخرج للناس . هذا وان المؤلف قد وعد في تصديره لمعجم المورد بأنه سيوالي التحقيق في أصول الألفاظ حين اقتضائها هذا التحقيق لتكون الطبعات القادمة أكثر شمولاً وأغزر مادة من الطبعة الحالية . وإني لموقن بأن تحقيقه سوف لا يقتصر على أصول الألفاظ ، بل سيتناول الألفاظ الجديدة والمعاني الجديدة للألفاظ الراهنة وذلك من شأنه أن يرفع معجم المورد إلى درجة الكمال التي يتَّسم بها معجم وبستر الدولي وسواه من المعاجم الأجنبية المطوّلة .

الدكتور ميشيل الخوري

أستاذ في جامعتي دمشق وبغداد سابقاً

المعجم العربي

نشأته وتطوره

كتاب في جزأين صفحاته ٨٣٥ للدكتور حسين نصار المدرس بكلية الآداب في جامعة القاهرة

منشورات مكتبة مصر ـ دار مصر للطباعة ١٩٦٨

سبق لهذه المجلة أن وصفت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في مجلدها السابع والثلاثين (ص ١١٥) بقلم العالم الجليل الأستاذ عبد الله كنون ، وصفاً وفّى الكتاب ما هو أهل له من التقدير ، ومنح المؤلف « إضافات قيمة أفاد منها » في طبعته الثانية هذه وقد أشار إليها شاكراً في مقدمة الطبع .

لا أعيد شيئاً مما نشر عنه في هذه المجلة ويحسن بالقارىء الرجوع إليه ، لكن لا مندوحة لي عن تذكيره بأن الكتاب دراسة تاريخية نقدية خطوطها العريضة ثلاثة :

١ ـ الرسائل اللغوية على الموضوعات

٢ ـ المعاجم .

٣ ـ المعاجم التي نحتاج إليها

والدراسة متأنية صابرة جاهدة تستحق مع الشكر والتقدير العناية بها وبالنواحي التي أطافت بها ، وكلها ذو خطر من الواجب الاهتمام به ؛ ولم يسعني الاعتذار حين كلفني السيد رئيس المجمع الكتابة عن هذه الطبعة ، فرأيت بعد الإشارة إلى ما كتب عن الطبعة الأولى وبيان نظرتي إلى هذه الدراسة أن أعرض ما بدا لي من ملاحظ بالترتيب :

ص ١٦ — « واعترف القرآن للعرب بهذه القدرة اللغوية قال تعالى : (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصِمون) وقال : (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدّا) ...

... ومثال ذلك الرسول الكريم ... فكان يقول بصـــدد تعليل فصاحته : (أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش وأني نشأت في بني سعد ابن بكر) ...

.. كانوا يدفعون صبيتهم إلى أدبائهم وشعرائهم ليعيشوا معهم وينشؤا على تفوقهم اللغوي . مثال ذلك زهير بن أبي سلمى الذى عاش مع خاله بشامة ابن الغدير الشاعر فخرجه شاعراً » .

هذه النقول من صفحة واحدة ينتظمها ظاهرة واسعة الشيوع في الدراسات الحديثة هي تحميل النصوص فوق ما تحمل ، وتجاوزها في الاستنباط إلى أبعد منها ، فلا يوقف حيث وقفت ؛ فالآيتان ليستا اعترافـــاً بالقدرة اللغوية وشتان مابين اللدد في الخصومة والقدرة اللغوية . ، والحـديث على فرض صحته لا يشهد لقول المؤلف (إذ أرسل [الرسول] الى البادية في طفولته لهذا السبب) وقد ضعفه المحدثون . وليس في ترجمة زهير ما يؤيد (انهم كانوا يدفعون صبيتهم إلى أدبائهم وشعرائهم ليعيشوا معهم وينشؤوا على تفوقهم اللغوي » إنما هي حال زهير الخاصة أن كان خال أبيه سيد غطفان وحكيمها وكان شاعراً .

ص ١٨ — أحكام عدة عن زواج الوالي هي موضوع نظر وتحتاج إلى تمحيص ، ويحسن أن يرجع فيها إلى كتب الفقه والأحكام ، وما كان (الأغاني) و (العقد الفريد) يوماً ما مرجعاً في مثل هذه الأمور .

ص ٢٢ — « بل تعلم بعض العرب أنفسهم الفارسية ونظموا بها شعراً وتشبهوا بالفرس في أزيائهم واحتفالاتهم . نفهم ذلك من خبر الشاعر العربي يزيد بن ربيعة بن مفرغ مع عبيد الله بن زياد » وليس في الخبر المشار إليه ما فهمه ، وكل الذي فيه أن الغلمان الذين خاطبوا يزيد بالفارسيـة أجابهم بها جملة بجملة ، وهو شيء يستفيده عادة من أقام حيث أقام يزيد فلا نظم شعر ولا تشبه في الأزياء والاحتفالات .

ص ٥٩ — في كلامه عن (الفائق) للزمخشري قال : « ولا يعرض المجاز وما إليه ، مما بني عليه الأساس . ولعل سبب ذلك أنه ألف الأساس بعد الفائق . » وهذا تعميم فيه نظر إذ لا نعدم في الفائق تعرضاً للمجاز ، ففي كلامه مثلاً على مادة (ختل) جاء في شرح المراد من الحديث (وأن تتخـذ السيوف مناجل) :

المناجل المجاز ، أي يؤثرون الحرث على الحرب .

ص ١٠٣ — « ومن المؤرخين من سلبه (أي ثعلباً) الكتاب جملة فنسبه إلى الحسن بن داوود الرقي أو يعقوب بن السكيت » .

قلت : يحسن إثبات ما اشتهر عند المطلعين من كثرة نقد القدماء فصيح ثعلب حتى حملوه على إنكار نسبة الكتاب إليه [1] .

ص ١٦٥ — في كلامه على كتاب الفزاري الإسكندري أقحم ثلاثـة أسطر . (وألف محمد بن أبي القاسم بن بايجوك البقالي .. الخ يحسن تأخيرها إلى ما بعد انتهاء كلامه على كتاب الفزاري في الصفحة التالية .

---

(١) في أصول النحو ص ١٩٣ (مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤) .

ص ٢٠٠ — س ١٤ (أبواب السالم) وأعني به هنا ما فيه حرف علة واحد أو همزة واحدة) ، أطلق (السالم) وهو يريد (غير السالم) كما هو ظاهر فلعل كلمة (غير) سقطت في الطبع ، إلا أن ذلك تكرير .

ص ٢٥٦ — في كلامه عن الخليل وكتاب العين : (بل أورد أشياء من لغة المعاصرين له في إقليمه العراق ، أو بلدته البصرة خاصة ولو كانت لا تعرف في البادية مما يدل على تسامحه وتحرره من القواعد المتزمتة) !! ؟

ولغة معاصري الخليل في البصرة عربية وما أثبته منها في العين لا يخالف القواعد ، ومن الذي قال إن على صاحب المعجم ألا يثبت إلا ما كان يعرف في البادية ؟! وأيٌّ كان فكلمة (تسامح) و (تزمت) وأمثال لهما مما تستعمل في عصرنا في غير محلها ، تصان عنه دراسة موضوعية جادة عن (المعجم العربي) .

ص ٢٥٨ — فيها نقل عن ابن الأنباري في قياسية النحو استقاه المؤلف من (الاقتراح) للسيوطي وكان ذلك سائغاً في الطبعة الأولى سنة ١٩٥٦ أما في الطبعة الثانية فلا ، إذ أن (الاقتراح) منتزع انتزاعاً من كتاب لابن الأنباري اسمه (لمع الأدلة) (١) وقد نشرته الجامعة السورية سنة ١٩٥٧ ونقل السيوطي تجد أصله في ص ٩٩ من لمع الأدلة ، ولم يعد (الاقتراح) مصدراً أصيلاً بعد نشر الأصل (لمع الأدلة) .

ص ٢٧٨ — (يكفي أن يذكر أمام المتأخرين كتاب العين حتى تنهال الشتائم والتهم جزافاً ، وأقرب مثال لذلك الأشموني الذي قال عن لفظ انفرد به الخليل : « ... لم يسمع إلا من كتاب العين فلا يلتفت إليه » ومن

(١) في الكتاب (رسالتان لابن الأنباري) الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة) مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٧ بتحقيق سعيد الأفغاني .

الطبيعي أن يشاركه الصبان محشيه في شتائمه قال : « قوله (إلا من كتاب العين) أي المحشو بالخطأ » .

في هذه الأسطر مثال آخر على الظاهرة التي أشرنا اليها في كلامنا على ص ١٦ : المبالغة في تحميل النصوص ما ليس فيها فكلمتا (لا يلتفت إليه) و (المحشو بالخطأ) خطأ ، ولكنها ليستا (شتائم تنهال) ولا تهمـــاً تكال (جزافاً) .

ح ٢ : ص ٤٤٤ في كلامه على ابن فارس في مقاييسه : (فهو يقدم الأصل أو الأصول ثم يبني الفروع عليها ويختم المادة بالشواذ) . ولكن هذه الطريقة اضطربت عليه فمادة (عق) أصلها الشق ولكنها تطورت إلى ثلاثـة فروع واضحة أولها ما زال محتفظاً بمعنى الشق صراحة ، وثانيها ما يـــدور حول الشَعر الذي يولد به المرء ، والثالث ما يدور حول عقوق الوالدين . ومن الطبيعي أن يتناول الإنسان صيغ كل فرع منها على حـدة ولكن ذلك لم يحدث في المقاييس) .

قلت : لا اضطراب ، فقد أشار ابن فارس في أول كلامه على المـادة بقوله : (العين والقاف أصل واحد يدل على الشق وإليه يرجع فروع الباب بلطف نظر ، قال الخليل : أصل العق الشق وإليه يرجـع العقوق وكذلك الشعر ينشق عنه الجلد) . فلا يزال الأصل ملحوظاً في كل الفروع حتى دون لطف نظر ، وإذاً لا اضطراب ...

ص ٥١٦ — (ويبدو أن النسخة المطبوعة من الصحاح نالها شيء من التصحيح ، إذ ورد فيها البيت الأول والثالث ، ورواية (سمعوا من صالح) لا البيت الأول وحده ، ولا الرواية التي ذكرها الصغاني .)

قلت : لعل نسخة الصغاني فيها التصحيف لا أن النسخة المطبوعة من الصحاح صححت .

ص ٧٥٥ — (وكان المعتل من المهموز من أعظم الأمور إثارة لحيرتهم واضطرابهم حتى تخلص كثير منهم بجمع المعتل الواوي والياء والمهموز معاً ... والحق أن هذه مشكلة أخرى ربما تفوق غيرها في الصعوبة ..)

ربما صح هذا الوصف في المراحل الأولى لتأليف المعاجم ، أما اليوم فمن الإسراف إطلاق مشكلة على مثل هذه الأمور وقد تيسر للباحث الفصل في الواوي واليائي ، بل تيسر ذلك لمن قبلنا وفصلوا كلاً عن الآخر ، والخطأ في بعض كلمات ممكن إصلاحه ، فليس مشكلة ما حلوه منـــذ أزمان متطاولة .

ص ٧٥٦ — كان من أثر الدعايات السيئة التي أغرق فيها غيرنا كثيراً منا حتى صار يردد أن لغتنا نحوها وصرفها ومفرداتها وحروفها كلها مشاكل في مشاكل ، أن تسممت ناشئتنا في عقيدتها في لغتها ، ولولا أنهم يعرفون لغة أجنبية يجدون فيها ما هو أبعد مما يعد أولئك في باب المشكلات لأسرع ذلك في إهمالهم لغتهم مرة واحدة ، وليس هنـا موضع بيانه ، وكان من ذلك التيار : الدعاية المريضة في أثر دراسة اللغات السامية الميتة وتصحيح العربية عليها ، وذلك عكس ما يقضي به المنطق وعلم اللغة العام ، أذكرني بذلك قول المؤلف (وحصروا [حروف الزيادة] في عبارة (سألتمونيهـــا) ولكن البحث المقارن بين اللغات السامية جميعاً يهزأ من هذا الحصر ويرى أن الممكن زيادة غيرها من الحروف وقد حدث هذا فعلاً في العربيـــة وأخواتها . وأترك هذا البحث المقـــارن إذ لا أستطيع أن أقوم به لعدم معرفتي بالساميات » !! .

والمؤلف يعرف أن حروف (سألتمونيهـــا) هي الزيادات المطردة في الكلمات لمانٍ خاصة ، وأن الأقدمين من علماء اللغة فرقوا بينها وبين حروف مزيدة سماعاً ، فوصفوا ذلك الواقع اللغوي وقرروه ونبهوا على هذه الألفاظ المعدودة القليلة ، مستغنين كل الاستغناء عما يسمى بـ البحث المقـارن بين اللغات السامية الذي يهزأ) .

ص ٧٨٤ — ارتبـاط العربية بالدين (ارتباطاً شديداً أسبغ عليهـا القداسة فكان في ذلك نفعها وضررها . . أما ضررها فلأن هذه القـداسة جعلت المسلمين والعرب يتمسكون بها بصورة واحدة (؟) منها ، فتأخرت عن حاجيات العصور الحديثة ولم تستطـع أن تجاريها حتى نادى كثيرون بهجرها تماماً) .

لم أفهم المقصود بالصورة الواحدة منها إذ لم يشرحها المؤلف ولا بسط الصور الأخرى التي كان يجب أن يتمسك بهـا العرب والمسلمون . أترك ذلك وأتساءل عن آخر الفقرة : (وتأخرت عن حاجيات [كذا] العصور الحديثة) وهي شبهة يتلقفها ناطق عن آخر : هل كان ينتظر هؤلاء الكثيرون أن يجد الكيميائي والفيزيائي والميكانيكي في القاموس المحيط ولسان العرب مصطلحات لما جدّ في ديار المخترعين بعدها بقرون ؟ ثم من هم كيميائيونا وفيزيائيونا وميكانيكيونا الذين اخترعوا ولم يجد لهم علماء اللغة مسميات لمخترعاتهم وأجهزتهم وأجزائها ؟ ما تأخرت اللغة ولكن أرباب الألسنة الطويلة في غير طائل تأخروا وانحطوا وتكاسلوا إلا عن اللغو . ولا يقال إن اللغة تأخرت حتى يعجز المهندسون منا والعلماء المتخصصون الذين درسوا لغتهم كما يدرس الأجنبي لغتــه ثم تخصصوا وحاولوا وضع المصطلح . أما حين يتصدى المختص المؤهل فسيجد كل شيء ممهداً وقد حصل ذلك فعلاً في آخر المئة الماضية في القاهرة وساحل الشام ، وفي الخمسين سنة الماضية

في دمشق حيث لبت اللغـــة حاجات الإدارة والجيش وكليات الجامعة (في الطب والحقوق والعلوم والتجارة والزراعة)، لبتْ حين بذل المحتاج الجهد ولم يقعد يسوغ كسله بأن الماضين لم يهيئوا له .

إن تأخرنا هو في إعداد أنفسنـا لنكون مؤثرين في عصرنا في العلوم والفنون والابتكار ، ومتى أردنا بجد وصدق هذا الإعداد وجدنا لغتنـا سابقة أمامنا.(١) فما تقديسنا لغتنا أخرنا ، ولكن أخرنا إهمالهـا وقبول الدعايات المغرضة فيها وانسياقنا على أذيال مخططيها ومروجيها .

ص ٧٨٥ — (ووضع ابن سيده في مقدمة محكمه منهجاً يعتـبر ثورة في عالم التأليف اللغوي العربي ... ولو طبقه عليه لأغنانا عن كثير من التخبط والاضطراب وكثير مما نريد أخذه عن الغربيين اليوم ، ولكان معجمـه فذاً بين معجمات العربية) .

قلت : خير من (لو) هذه أن يقوم نفر منا بتطبيقه على (المحـكم) في طبعة علمية ذات نهج سليم محكم ، وحسب ابن سيده أن وضع الخطـة وليكن التطبيق من نصيبنا . وعصرنا ميسر فيه كل شيء .

* * *

لست أرى ما رأى المؤلف من تسمية (منشورات اليسوعيين في بيروت) بالمعـاجم في دراسة علمية من خصائصها تحديد الأسماء والصفات ، وكان حسبه أن يشير إلى هذه الأعمال التجارية التي نظر حين تأليفها إلى ماخطط لمدارس اليسوعيين في حاشية تنوه بأثرها في إفساد اللغـة ، أما أن تسمى

(١) انظر بسط قضية اللغة العربية وما أثير حولها من حرب خفية في عصرنا الحديث في كتابي (حاضر اللغة العربية) — مطبوعات معهد الدراسات العالية بالقاهرة ١٩٦٢ .

مدرسة !! وتقرن بالمعجم الوسيط فهذا ظلم كبير . ولن أستشهد إلا بأقوال المؤلف نفسه في وصفها ، وإنصافه كفيل برفع الحيف في طبعة قادمة إن شاء الله .

في كلامه على (أقرب الوارد) وزياداته على القاموس المحيط قال (ص ٧١٨) :

« وأخذ بعضها الآخر (يعني الزيادات) من معجمي جوليوس Golius وفريتاج Freitag ومحيط المحيط وقطر المحيط للبستاني . وكان جيوليوس وفريتاج قد اعتمدا في معجميهما على بعض كتب الأدب المتأخرة التي لا يستشهد بلغاتها ولا تعنى بالتزام الفصحى ، فأدخلا في معجميهما كثيراً من الألفاظ المولدة والعامية ، فتسربت إلى معاجم بطرس البستاني والشرتوني ، فنقدت هذه المعاجم نقداً مرًّا . وخاصة من الأب انستاس ماري الكرملي الذي كان يقف لها بالمرصاد . » .

وإشارة المؤلف إلى أنها لم يقصد بتأليفها إلا غرض خاص لطائفة معلومة مما يبعدها عن صفة المعجم الذي يكون عاماً عادة ، جاء في ص ٧٣٠ :

« وآخر الظواهر فيها عنايتها بالألفاظ والمعاني المسيحية أو التي لها دلالات خاصة عند المسيحيين . وكان ذلك أمراً طبيعياً لهم لأنهم جميعاً مسيحيون نشؤوا على تربية مسيحية دينية وألفوا معاجمهم لمدارس مسيحية دينية هي مدارس اليسوعيين » .

وعرض المؤلف انقد بعض هذه المنشورات الذي نشره اليازجي فقال :

« .. ونكتفي هنا بالإشارة إلى كتاب تنبيهات اليازجي على محيط البستاني الذي يخرج الباحث من دراسته بأن البستاني وقع في الأخطاء التالية :

التصحيف ، وتفسير الألفاظ بأخرى غير موجودة في موادها ، والخطأ في التفسير ، وعدمه تماماً ، وسوء عبارته ، والخطأ في ضبط الألفاظ ، والإتيان بمعان لم ينص أحد من القدماء عليها وقد استمد كثيراً من هذه المعاني من جوليوس وفريتاغ ، ومن الآثار المسيحية ، وأتاه كثير من هذا الخطأ من سوء فهمه لبعض عبارات الفيروزآبادي وبعض اصطلاحاته وعاداته في قاموسه .

وكل هذه الأخطاء على وجه التقريب نجده عند أفراد مدرسة اليسوعيين جميعاً .. » ا هـ وواحدة مما عدّد المؤلف كافية في إبعاد هـذه المنشورات عن صفة المعجم أو أي صفة علمية .

إذا كان ماتقدم يسمى مدرسة فللمؤلف رأيه ، لكن الذي لايجوز بحال أن تقرن هذه الأعمال بالمعجم الوسيط ويقال في المقابلة إن هذا خير من معاجم اليسوعيين ، بين الفريقين فروق صارخة فأين أعمال هؤلاء الموصوفة آنفاً من أعمال مؤسسة دستورها المحافظة على سلامة العربية وتلبية حاجات العصر في ميادين العلوم والفنون .. الخ وجماعتها علماء أعلام ، أعمالهم خلصت للعلم لا لاستهلاك مدارس خاصة أريد الحيلولة بين تلاميذها وبين معاجم اللغة الصحيحة .

* * *

لئن استطعت تعداد ما وقفت عنده من هذا الكتاب، النافع إن ما راقني منه أكثر ، والأعمال العلمية هي التي تستحق أن يوقف عندها طويلاً ويبذل في سبيل استكمالها كل جهد ، وأرجو أن يطرد نمو هذا البحث واستكماله

في طبعة بعد طبعة والله الموفق (١) .

(١) رأيت ــ خدمة للكتاب ــ أن أشير إلى ما لم يذكر فيه من أخطاء الطبع التي تلفت النظر لغلبة الصحة والجودة عليه :

ص	س	خطأ	صواب
ح	١	جدير بالشكر المشرفين . .	المشرفون
«	«	والعاملين	والعاملون
٢	٤	هذا	هذه
١٦	١٧	وينشئوا	وينشؤوا
١٧	١٧	حدا بالمؤرخين إلى	حدا المؤرخين على
٥٤	٤	لا زال	ما زال
١٠٤	٤	أخطئوا	أخطؤوا
١٢٢	٢٢	الألف بائي	الألفبائي
١٢٤	٢٢	بينهما	بينها
١٦٢	١٥	الجغرافيا	الجغرافية = ١٦٩ الخ
١٧٠	٩	وصفهم	وصفها
٢٠١	٢٣	الباقين	الباقيين
٢١٢	١٩	عقد	عقدوا
٢٢٢	١٤	يعبئون	يعبؤون
٢٢٣	٤	نظام . . بنظام	بنظام . . . نظام
٢٢٩	٩	الرائين	الراءين
٢٣٥	١٤	سمحمح	صمحمح
٢٥٠	٥	هل لا بد	ألا بد
٢٦٢	٦	أقطب	أقب

ص	س	خطأ	صواب
٣١٩	٦	الأقصين	الأقصيين
٣٤٤	١١	ههنـــا	ها هنا = ٣٧٠/٥
٣٧٤	٥	لاضطرادها	لاطرادها
٣٨٦	٥	لا يتعارض ... مع تحريه	لا يتعارض ... هو وتحريه
٤٢٨	٦	اتفق مع الخليل	اتفق هو والخليل
٤٤٦	٢	ثلاث أصول	ثلاثة أصول
٤٤٩	٩	بواسطتها	بوساطتها
٤٥٤	٩	والمزاد	والمزيد = ٥٣٩ .. الخ
٤٧١	٢٠	تميزه عن	تميزه من
٤٨٦	١٩	عربي	غير عربي
٥٠١	٩	اللغويين	اللغويون
٥٤٠	٢٢	فأجفئوا	فأجفؤوا
٥٦٤	٣	على جميع صيغ ومعاني كتابي العين والجمهرة :	على جميع صيغ كتابي العين والجمهرة ومعانيها
٥٨٦	١٧	المعاني الثلاث	المعاني الثلاثة
٦٤١	١٣	الملقات السبعة	الملقات السبع
٦٧٧	٧	حدا به إلى	حداه على

سعيد الأفغاني

الأعلام العربية

(دراسة لغوية اجتماعية) للدكتور ابراهيم السامرائي

٩٤ ص من القطع الوسط — مطبعة أسعد — بغداد ١٩٦٤

ما ضم بلد مختلفين في الجنس أو العقيدة أو الحضارة إلا كان بين فئاته أخذ وعطاء وتأثر وتأثير ، في الأخلاق والعادات والمواضعات ، لا فرق في ذلك بين غالب ومغلوب ووطني ومحتل . واللغة ، هذه الظاهرة الاجتماعية لاتتأبى على الناموس العام ، فما زالت اللغات الأوروبية الغربية مثلاً تحمل طوائف من كلمات أصولها عربية تسربت إليهم من مئات السنين ، وما زالت لهجاتنا الدارجة في البلاد العربية عليها آثار من التركية والكردية والفارسية ، ثم الإنكليزية والفرنسية والإيطالية في عصرنا الحديث .

وهذه الرسالة محاولة من صاحبها ، أثبت فيها عدداً من الأعلام التي يسمّى بها في العراق ، بين طوائفه المختلفة من مسلمين ونصارى ويهود وصابئة ، استقراها الباحث ، وأشار إلى ظاهرة حديثة تسربت فيها أعلام مما يسمي به المسلمون إلى بقية الطوائف ، كما أثبت أعلاماً سجلها من تونس والجزائر ، ثم تطرق إلى ما يشيع في إيران من أعلام عربية الأصل على أكثرها الطابع المذهبي ، وهو يأمل أن تتيسر له مادة أخرى يكمل « بها هذا الاستقراء الذي لا بد منه في الدراسات اللغوية الاجتماعية التاريخية » على حد تعبيره .

ولا ريب أن الخطوة الأولى إلى تلك الغاية هو الاستقراء والتسجيل ، يعقبها خطوة ثانية تميز بها مدلولات الظواهر التي تدرس ، وينظر بعدها ما يمكن أن يستنبط منها من أحكام اجتماعية تاريخية .

هذا وقوله ص ١٥ « وهذه المسألة اللغوية [يعني تعبيرهم في الشمال الإفريقي عن ابن الحاج بـ بلْحاج] عربية قديمة فقد سمع (بلْحارث بن كعب وبلْعنبر وبلْهجيم) وغيرها » موهم ، فلا شك أن الباء في الأعلام الأخيرة مختصرة من (بنو ، بني) على حين باء (بلحاج) مختصرة من ابن .

وأخشى أن يكون خلل في قوله ص ٥٠ « دراسة الأعلام الحديثة ... تؤلف جانباً لغوياً لا بد من الاضطلاع به والتبصر فيه ليكون ذلك معيناً على فهم العربية الفصيحة » فالمتبادر إلى الذهن العكس .

وربما كان شيء من التعميم غير الصحيح في حاشية (٧) ص ٥٣ : (حمد الله) من أعلام الإيرانيين وهو غير معروف عند العرب » !! ففي دمشق مثلاً عدد من البيوت ألقابها آل حمد الله

كما توقفت عند قوله ص ٧٣ « سبتي : من الأعلام الشائعة بين المسلمين في عصرنا هذا » ويحسن أن يحدد المكان ، فما أذكر أني سممت به في الأعلام الشائعة .

وفي بعض أخطاء الطبع ما يحير القارىء كقوله ص ٧٥ : (سمحه) وهي من أعلام اليهود الشائعة الاستعمال ، وهي من مادة عبرانية وهي صفة مؤنثة تعني في العربية (فرحة) . اهـ فهل يريد : تعني في العبرانية (فرحة) العربية ، كما هو الظاهر من القرينة ؟

والعرب ترسم (سورية) بالهاء لا بالألف كما ورد في ص ٨ وكذلك إفريقيـــة المرسومة بالألف خطأ في ص ٢٧ . وصواب (ابن أصيبعة) في ص ٤٠ هو : ابن أبي أصيبعة .

أرجو أن يوفق الله المؤلف الفاضل إلى بلوغ ما يأمل فيما ينفع .

س . أ

***

طب الحبشة ونباتاتها

المؤلفات الطبية الحبشية

تأليف ستيفان ستره لسين

نشرته الأكاديمية البولونية للمؤلفات الشرقية عام ١٩٦٨

هذا الكتاب تبلغ صفحاته نحو (٨٠٠) صفحة مطبوع على ورق جيد بقياس ١٦٫٥ × ٢٤ سم². عالج فيه المؤلف في مقدمة بلغت نحواً من (١٠٠) صفحة ، البحث عن الطب والسحر عند الأحباش ، وتوسع توسعاً كلياً في الكلام عن اللغة الحبشية وكتابتها ولهجاتها ، وذكر المراجع التي اعتمد عليها ، كما تحدث عمن عالج الموضوع من علماء آخرين ، ثم استطرد في الكلام عن بعض المخطوطات الطبية ، فخصص لكل من المخطوطات الست التي كانت ترجماتها الافرنسية تحتل الجزء الأكبر من الكتاب ، صفحات يتحدث فيها عن أوصاف المخطوطة ومكان وجودها ومؤلفها ولمن كتبت ، وتجد المؤلف يصرف جهده لوصف اللهجة التي كتبت بها المخطوطة ، ويستعين بصور الكلمات الحبشية التي لفتت نظره ليتحدث عن تهجيتها وعن موضوع الرسالة ولماذا خصصت ، ويذكر الأمراض بأسمائها الافرنسية ، فإن لم يعرف اسم المرض كتب اسمه بأحرف افرنسية كما يلفظ بالأمهرية أو الغيزية ، وإليك مثالاً لذلك : يقول في وصف مخطوطة (أبا يوحنس) أي (الأب يوحنا) ما يلي :

إن القسم الثاني من هذه المخطوطة (الوريقات ٥١ — ١٠٠) تحمل عنوان « كتاب الكتاب لكل أمراض الجسم » تحوي الكلام عن الجراحة.

م (١٦)

ومعالجـــة الأمراض العامة (الكسور والقطوع والمضات وال ميزه ، والكسلاسينا ، والجرب ، والجروح ، والجذام الخ .....) فنجد هنا كلتي الميزه والكسلاسينا أمهريتين .

ويتحدث عن التكرار في المواصفات وكثيراً ما يستعمل نصوصاً كاملة مكتوبة بالأحرف الأمهرية . ثم يتحدث المؤلف في الفصل الثالث عن مشاكل كتابه ولهجات المخطوطات فيستعرض كل حرف من حروفها فيتوسع في الكلام عن ذلك الحرف وأشكاله المستعملة في كل لهجة من لهجات الحبشة ، مستعيناً بكلمات مرسومة طبق الأصل ، ثم ينصرف إلى تهجية الأحرف فيوزعها إلى أحرف حلقية وشفوية وسنية ، ويمضي طويلاً في التحدث عن ذلك فتبلغ الصفحات التي خصصت لذلك (٦٠) صفحة ، ويتحدث خلالها عن الكلمات المستعارة من لغات أخرى يستهلها بالعربية فيتحدث عن الألفاظ التي اقتبستها الأحباش من العربية وأماكن وجودها في المخطوطات كالمصطكي والصبر والزبيب والسفرجل والهيل والخيار والراوند والنيل ولسان البحر إلخ ......

ثم ينتقل إلى الإغريقية واللاتينية فيستعرض ما اقتبس من هاتين اللغتين من ألفاظ وأسماء ، ثم اللغة التيفرينيا ، ثم لغة الأغاو وخلاف ذلك من لهجات ولغات ، ثم ينهي مقدمته في التحدث عن اللغات الخليطة بين الأمهرية والغيزية ، وملخص القول : إن تلك المقدمة ذات قيمة كبيرة لكل من يحاول الترجمة من اللغات الحبشية كالأمهرية والغيزية ، فقد جمعت فأوفت وتحدثت فأفاضت ، واعتباراً من الصفحة ١٠٣ حتى الصفحة ٥٨٠ يترجم لنا المؤلف المخطوطـات الست التي عثر عليهـا ، فيخصص الصفحة اليسرى لصفحة من صفحات النص المخطوط مصورة بعناية والصفحة اليمنى لترجمة

تلك الصفحة ، وقـــد ذيل كل صفحة من صفحات النص بحاشية تذكر مقابلة بين كلماتها والكلمات المختلفة في النصوص الأخرى .

ويبتدىء بكتاب الحميات حسب المخطوطة (ث) فيستغرق ذلك (٤٤) صفحة ثم يخصص (١٢) صفحة لتصوير المخطوطة (ل) ثم يترجم المخطوطة (ث) وهكذا إلى أن يتم له ترجمة المخطوطـات الست حسب الخطة ذاتها ومنتهجاً النهج ذاته . ثم يخصص ما تبقى من الكتاب لتصوير مخطوطات أخرى غير مترجمة .

والخلاصة إن الكتاب المذكور هو كتاب ترجمة مخطوطات حبشية عن الطب قام بترجمتها إخصائي باللغات واللهجـات الحبشية غير طبيب ، ولذلك فهو لا يعرف النباتات الطبية وأسماءها العلمية ، وكثيراً ما نجـــده يستعمل الكلمات الحبشية للنباتات ، وهذا ما يجعل إمكانية الاستفادة من تلك الترجمة محدودة بالنسبة للأطبـاء والمشتغلين بالطب القـديم . وقد اعترف المؤلف في صدر مقدمته بأن الموضوع يحتاج إلى لجان مؤلفة من أطباء ونباتيين بالاضافة إلى علماء اللغات الحبشية ليكون العمل تاماً .

ولعل الأجزاء الأخرى من هـــذه المجموعة القيمة ستتحفنا بمعلومات أكثر وضوحاً وأكثر فائدة سواء للأطباء أو للنباتيين .

حسن السقا

مجمل تاريخ الأدب التونسي

من فجر الفتح العربي لافريقية إلى العصر الحاضر

تأليف : حسن حسني عبد الوهاب

عدد صفحاته ٣٥٨

طبع بمطبعة المنار بتونس ١٩٦٨ م

ظهر هذا الكتاب لأول مرة بتونس سنة ١٩١٨ م بعنوان المنتخب المدرسي من الأدب التونسي . وبعد مضي نحو ربع قرن على الطبعة الأولى ، طبع طبعة ثانية بالقاهرة سنة ١٩٤٤ م . ثم بعد نفاد الطبعة أعادت طبعه مكتبة المنار بتونس ، بعد أن استبدل اسمه ، وضم مؤلفه اليه طائفة وافرة جديدة من الأدباء ، خلت الأولى والثانية من تراجمهم .

وقد قسم المؤلف تاريخ الأدب التونسي إلى أربعة أدوار رئيسية ، يفصل بين كل واحد منها حادث مهم يحمل في تاريخ البلاد انقلاباً عظيماً في السياسة والاجتماع والعلم والأدب والفن ، وهي :

الدور العربي ٢٧ — ٣٠٠ ﻫ = ٦٤٧ — ٩١٢ م . والدور العربي البربري الأول ٣٠٠ — ٦٠٠ ﻫ = ٩١٢ — ١٢٠٤ م ، وفيه ثلاثة عصور : العصر العبيدي ٢٩٦ — ٣٦٢ = ٩٠٩ — ٩٧٣ م ، والعصر الصنهاجي ٣٦٢ — ٤٥٠ = ٩٧٣ — ١٠٥٨ م . وعصر الطوائف ٤٥٠ — ٦٠٠ ﻫ = ١٠٨٥ — ١٢٠٤ م .

والدور الثالث هو الدور العربي البربري الثاني ٦٠٠ — ٩٥٠ ﻫ = ١٢٠٤ — ١٥٤٣ م . ويبتدىء مع ظهور الدولة الحفصية التي تدخل الأسبان في شؤون البلاد واستيلاء الترك عليها .

والدور الحديث ، وفيه عصران : العصر الحسيني الأول ١١١٧ — ١٣٠٠ هـ = ١٧٠٥ — ١٨٨٢ م ، والعصر الحسيني الثاني وفيه ظهرت النهضة الأدبية الأخيرة وبعدها حتى قيام الجمهورية التونسية .

وقد سعى المؤلف بقدر المستطاع أن يجمع في هذا المجمل عدداً من الأدباء القدامى المحترمين ، فبلغ عددهم ٩٣ أديباً بين ناثر وشاعر ، وهم :

عبد الله بن الزبير ، عقبة بن نافع ، موسى بن نصير ، الحسام بن ضرار ، الأغلب التميمي ، سليمان الغافقي ، عبد الرحمن بن زياد ، ابراهيم ابن الأغلب ، داود القيرواني ، أسد بن الفرات ، الامام سحنون ، أبو العباس بن الأغلب ، عبد الملك المهري ، أحمد بن سوادة الأغلبية ، بكر ابن حماد ، عبيد الله المهدي ، أبو بكر اللؤلؤي ، أبو العرب التميمي ، القائم بأمر الله ، أبو القاسم الفزاري ، ابن الرايس ، محمد بن هاني ، علي بن الأيادي عبد الله بن أبي زيد ، ابن عبدون الوراق ، عبد الكريم النهشلي ، عبد الرحمن الفراسي ، محرز بن خلف . ابراهيم الحصري والكاتب الرقيق ، ابن الربيب ، ابن غانم الكاتب ، علي بن أبي الرجال ، ابن خلوف الحروري ، علي بن حبيب ، عبد الواحد بن فتوح ، ابو طاهر التجيبي ، ابن أبي حديده ، الحسن بن رشيق ، محمد بن شرف ، علي الحصري ، عبد الله الشقراطسي ، أبو الحسن الحداد ، ابن تميم بن المعز ، أبو الفضل بن النحوي ، ابن بشير المهدوي ، جعفر بن شرف ، ابن فرحان القابسي ، أبو زكرياء الأول ، أبو المطرف بن عميرة ، أحمد بن اللياني ، أبو عمرو بن عربية ، محمد بن أبي الحسين ، عنان ابن جابر ، أحمد التيفاشي ، ابن السماط المهدوي ، أبو الفضل التيجاني ، عبد الله التجاني ، ابن حسينية ، محمد الظريف ، عبد الرحمن بن خلدون ، الشهاب بن خلوف ، أبو الفتح ابن عبد السلام ، محمد الرشيد باي ، علي

الغراب ، الشيخ الشافعي ، محمـــد الورغي ، خليفة الشرق ، ابن سعيد الحجري ، حمودة بن عبد العزيز ، محمد ماضور ، محمد الأصرم ، الطاهر بن عاشور ، محمود قابادو ، ابن أبي الضياف الباجي المسعودي ، محمد السنوسي ، أبو القاسم الشابي ، الطاهر الحداد ، عبد الرزاق كرباكة ، مصطفى آغة ، سعيد أبو بكر ، الشاذلي خزندار ، محمد أبو رقيبة ، محمد الخضر بن الحسين ، العربي الكبادي ، والسعيد الخاهي .

وقد ترجم لهؤلاء ، ثم ذكر بعض آثارهم من شعر ونثر ، وذيل كتابه ببعض التعليقات المفيدة أوضح بها ما كان غامضاً ، تغمده الله برحمته وإحسانه ، وجزاه خير جزاء .

عمر رضا كحالة

الأصول العربية للدراسات السودانية

جمع وإعداد وتنسيق : يوسف أسعد داغر

عدد صفحاته ٢٦٢

طبع في مطبعة النجوى ببيروت ١٩٦٨ م

عهدت منظمة اليونسكو إلى واضع هذا الكتاب ، العمل خلال أربعة أشهر تبتدىء في ٨ كانون الثاني ، وتنتهي في ٨ أيار ١٩٦٧ م ، في وزارة التربية والتعليم في السودان ، كخبير للتوثيق التربوي .

وقد أتاح له رئيس العمال أن ينقب في مكتبة جامعة الخرطوم عن المراجع الخاصة بالسودان ، فتجمع لديه مجموعة كبيرة تقرب من ألفي مصدر في الدراسات السودانية ، من كتب وضعها أو ترجمها سودانيون ، أو كتبت

عن السودان في الخارج ، أو نشرت في السودان في الفترة الواقعة بين ١٨٧٤ — ١٩٦٧ م .

كما تضم هذه المجموعة — مئات المقالات والبحوث المنشورة في المجلات العربية الكبرى ، أو في المجلات السودانية التي ظهرت في السنوات الأخيرة ، مما استطاع الوصول اليه ، ولم يتعرض للأبحاث والمقالات التي نشرت في الصحف اليومية أو الأسبوعية .

وأما خطة العمل في هذه المجموعة فقد وضع جامعها تحت كل موضوع معين المصادر التي تعود اليه ، وأثبتها وفقاً للترتيب المعجمي لأسماء مؤلفين أو كاتبيها ، وإلا فبعنوان الكتاب أو المقال ، ان كان غفلاً من اسم المؤلف .

وإذا شاء الباحث أن يتعرف إلى الكتب أو المقالات والأبحاث التي وضعها المؤلف ، فعليه أن يتبع الأرقام المثبتة بعد اسمه مباشرة في الفهرس الخاص بالمؤلفين ، إذ لكل كتاب أو مرجع رقمه المسلسل الذي يميزه ، كما أورد اسم المؤلف تبعاً للشهرة أو الكنية أو اللقب الأشهر في حال غموض اسم الأسرة .

وبالختام نشكر الأستاذ واضع هذه الأصول على ما قدم ويقدم من بحوث أصيلة تعين الباحث والمؤلف في عملهما متمنين له متابعة العمل والبحث .

ع . ك

كتاب الطبقات

عن أبي عمرو خليفة بن خياط

رواية : موسى بن زكريا التستري

لمحمد بن أحمد الأزدي

القسم الثاني : عدد صفحاته ٤٦٧

تحقيق : سهيل زكار

بلغ عدد من ترجم له في هذا القسم ١٤٢٦ مترجماً ، وقد ذكرهم المؤلف على طبقات وهي من قريش ، ثم من المهاجرين من قريش ، ثم من أبناء المهاجرين من قريش ، ثمن سكن مكة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم من أهل الطائف من أصحاب النبي ﷺ ، ثم من أهل اليمن من أصحاب رسول الله ﷺ ، فمن أهل اليمامة من أصحاب رسول الله ﷺ ، فمن أتى مصر من أصحاب الرسول وشهد فتح مصر ، فمن أتى الشامات من أصحاب الرسول ﷺ ، فمن أهل الشام بعد أصحاب الرسول ﷺ ، فمن أهل العواصم ، فمن نزل الجزيرة ، فمن أهل الموصل ، فمن أهل خراسان ، فمن أهل الري ، فالمدائن فواسط ، فمن نزل بغداد وتأهل بها من المحدثين ، فتسمية من حفظ عنه الحديث عن رسول ﷺ من النساء .

وقد وضع للكتاب فهارس للطبقات والمترجمين والأعلام والقبائل والأرهاط والأمم والأماكن والأحاديث النبوية ، مما أماط اللثام عما حواه هذا الكتاب من أبحاث جديرة بالعناية والتقدير .

وقد علق المحقق في صلب صفحات الكتاب تعاليق مفيدة ، ذكر في بعضها المراجع التي اعتمد عليها في تحقيق الكتاب مما يدل على جهد مشكور وفقه الله إلى المزيد من العمل على إحياء تراثنا العربي الجليل .

ع . ك

العصا في حياتنا وتراثنا

تأليف عبد القادر عيّاش

عدد صفحاته ٩٦

طبع : دير الزور ١٩٦٨ م

هذا بحث طريف ومفيد عن العصا قد بحثه مؤلفه بحثاً دقيقاً فشمل نواحي متعددة ، فقدم له توطئة ، ثم ذكر الأسماء القاموسية للعصا التي وردت في اللغة العربية ، منذ عصر الجاهلية فذكر ألفاظاً كثيرة لأشكال وأجناس من العصي ، استمر استعمالها في اللغة ، من قبل الشعراء والكتاب والأدباء والعلماء في كل العصور إلى اليوم في تعابير وتشابيه ومجازات وأمثال وحكم بمفرداتها وجموعها ومشتقاتها وتصاريفها بمختلف المعاني ، وقد رتّب المؤلف هذه الألفاظ على حروف المعجم .

ثم أورد الباحث مراتب العصا وما إليها ، فالأسماء المحلية لها ، فشجر العصي والعيدان ، فتقويمها وتزيينها ، فالاتجار بها ، فالعصا في التاريخ ، فاستعمالاتها ، فالجلد ، فالعصا في عادات العرب ، فجناياتهـــا ، فالعصا في الفكاهة والنوادر والقصص ، فالعصا في الشعر العربي القديم ، ففي الأمثال القديمة ، فضرب الأمثال بهـا في الشعر العربي القديم ، فالعصا في آيات القرآن الكريم ، ففي الحديث النبوي ، فتسمية الأشخاص بأسماء العصا ، فالعصا في الأدب العربي الحديث ، ففي الأمثال الشعبيـة ، فالعصا في ألعاب الكبار ، ففي ألعاب الصبيان ، فالعصا في الفنون والمتاحف ، فالعصا في الاغاني الشعبية في الفرات .

وبالختام نشكر المؤلف على رسالته الصغيرة بعدد صفحاتها ، الكبيرة بما حوته من أبحاث تدل على الجهد الذي بذله في جمع مادة بحثه وتنسيقه ، فجزاه الله كل خير .

ع . ك

ديوان

كمال نصرت

عدد الصفحات (٣٧٦ صفحة من القطع المتوسط طبع في بغداد عام ١٩٦٨)

يضم هذا الديوان شعر أحد الشعراء العراقيين المعاصرين ، وقد قدّم له إبراهيم الوائلي الأستاذ بكلية الآداب من جامعة بغداد . وفي الصفحة الأولى صورة للشاعر تحتها بيتان من نظمه ، وقد أشار صاحب المقدمة إلى تأثر الشاعر نصرت بالرصافي و « طريقته في الأداء » ونحن نؤيد صاحب المقدمة الموفقة في رأيه الناقد ؛ ان شعر الشاعر منصرف إلى الفكرة والموضوع وإنه قليل الالتفات أو الاهتمام (بالموسيقى التعبيرية التي تنسجم في إيقاع رتيب) على حد تعبير الأستاذ الوائلي كما نؤيد رأيه في ملاحظة بعض التناقض عند الشاعر حين يطوّح به اليأس فيتمنى الموت ، وحين تعود إليه قوة ذاته فيصف نفسه بالتحمل ومغالبة الدهر والأيام ، ويلي التقديم مقدمة أخرى للأستاذ عبد القادر البرّاك لم تضف شيئاً إلى الديوان لولا بعض عبارات المديح التي أملاها على الكاتب وفاؤه للشاعر لا نقده العلمي الصحيح ، وبعد هذه المقدمة الثانية ، قصيدة بائنة الطول للشاعر جميل أحمد الكاظمي في تقريظ الديوان ، لم تزدنا تعريفاً ولم تكوّن عندنا رأياً خاصاً ، ثم أبيات أخرى للشاعر عبد الهادي البغدادي ، وهي ذات معنى عام يصح أن توضع بين يدي كل ديوان ، وأخيراً تأتي ترجمة الشاعر بقلم محمد علي حسن وقد تحدث فيها عن أصله ونسبه وحياته ودراسته والوظائف التي شغلها والترجمة تعطينا معلومات مفيدة عن حياة الشاعر حسب السنين .

ثم يأتي شعر الديوان ، وهو موزع على أبواب هي الوطنيات ، السياسيات ، الاجتماعيات ، الإخوانيات ، الوصف ، المراثي ، الهجاء ، الغزل ، ثم عدد من القصائد جعل لها الشاعر عنواناً (ديوان سميّـة) وهي موجهة إلى مغنية عراقية معروفة . ثم مجموعة أخرى عنوانها « السمراء » وهي مغنية عراقية أخرى ألمع إلى اسمها في القصيدة الأولى من هذه المجموعة . ومجموعة شعرية ثالثة عنوانها « عذراء المستشفى » وأخيراً المتفرقات ، ولقد تعددت مقاصد الديوان وفق اختلاف الموضوعات وتباينها ، وشعر الشاعر بسيط في لفظه وفي مضمونه . وهو لا يدلك على ثقافة واسعة ، كما يدل على أن الشاعر اعتمد على فطرته الأدبية وعلى مجالسة الأدباء والإفادة منهم وخاصة الزهاوي والرصافي ، أما الصور الشعرية والمعاني الجديدة والخيال البعيد فألوان تجدها نادرة في هذا الديوان .

أحمد الجندي

ديوان محمد العيد محمد علي خليفة

عدد الصفحات (٦٠٢) من القطع المتوسط

من مطبوعات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
ومن منشورات وزارة التربية الوطنية بالجزائر لعام ١٩٦٧

يشتمل هذا الديوان الشعري الكبير على مقدمة صغيرة بقلم وزير التربية الوطنية الجزائرية وعلى تقديم بقلم (رائد الأدباء ورئيس العلماء الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيم رحمه الله) ، ويلي ذلك كلمة بقلم الأمير شكيب أرسلان ، ثم خاتمة شعرية عنوانها « خاتمة ثناء وابتهال » ثم تبدأ القصائد مبوبة حسب

الموضوعات ، المتسلسلة على الطريقة الآتية (أدبيات وفلسفيات ، إسلاميات وقوميات ، أخلاقيات وحكميات ، اجتماعيات وسياسيات ، اللزوميات ، الإخوانيات الثوريات ، الذكريات ، المتفرقات ، الألغاز ، الأناشيد) .

وينتهي الكتاب إلى جدول كبير يبلغ ثماني صفحات يشير إلى الخطأ المطبعي الذي ورد في الكتاب ، وهو يدل على كثرة الأخطاء ، وفي الصفحة الأخيرة من الغلاف ترجمة لصاحب الديوان مع صورة صغيرة له بلباسه الجزائري الوطني ، ومن الاطلاع على هذه الترجمة ، نتبيّن الطابع الديني العربي الذي التزمه الشاعر وهو الطابع الذي ظهرت آثاره في قصائده الكثيرة التي ملأت الديوان .

أما شعر الديوان ، فمن الشعر العربي الذي أفاد أسلوبه من القراءات الدينية ولا بدع فالشاعر من تلامذة جامع الزيتونة في تونس ، ويلاحظ قارئ الديوان أن القصائد طويلة وأن نفس الشاعر غير قصير ، كما أن أكثر هذه القصائد قيل في مناسبات خاصة وعامة ، كالحفلات والاجتماعات الدينية والوطنية وأبرز مافي هذا الشعر أسلوبه الصحيح ، وإن كان بسيط المعاني غير معتمد على الصور البراقة ، والخيال الشعري الذي يهتم به الشعراء الجدد .

أ٠ج

الأمثال البغدادية المقارنة

الجزء الثاني

عدد الصفحات / ٣٩٠ / من القطع المتوسط

من تأليف العميد المتقاعد عبد الرحمن التكريتي

من مطبوعات مكتبة المثنّى ـ بغداد لعام سنة ١٩٦٧

هذا هو الجزء الثاني من كتاب « الأمثال البغدادية المقارنة » ويعني العنوان أن المؤلف ، أو المحقق ، قد جمع أمثال أحد عشر قطراً عربياً وقارنها بالأمثال العراقية المماثلة ، وهي على حد قوله ، أول محاولة لمقارنة الأمثال العربية ، وقد سبق أن أهدانا المؤلف الجزء الأول من سفره ، ويبدأ هذا الجزء بتنبيه أشار فيه صاحب الأمثال إلى المراجع التي استعان بها على وضع كتابه ، وقد رتب الأمثال على الحروف الأبجدية بادئاً جزءه هـذا بحرف « التاء » وطريقته أنه يأتي بالمثل العراقي فيثبته بالخط العريض الأسود مع وضع رقم لكل مثل ، ثم يشرح بعده لماذا يضرب هذا المثل ، ويلي ذلك تعقيب يبين المثـــل الذي يؤدي معناه في قطر عربي آخر ، ويبدأ هذا الجزء بالرقم (٥٨٣) وينتهي بالمثل ذي الرقم (١١٨٥) وفي الصفحات كلها حواشي تبين المراجع التي يمكن الرجوع إليها استزادة للاطلاع .

والعمل الذي قام به العميد التكريتي عمل شاق ومضن ، وهو يسد ثغرة علمية في الثقافة العربية الحاضرة .

أ.ج

***

ديوان ابن الدهّان الموصلي

حققه عبد الله الجبوري في / ٢٨٠ / صفحة

من القطع المتوسط عام سنة ١٩٦٨ م وطبع في مطبعة المعارف ببغداد

هذا شاعر وُلد في الموصل سنة ٥٢١ هـ على وجه التقريب وتوفي في حمص سنة ٥٨٢ هـ فهو عراقي سوري . وقد قدم المحقق للديوان بمقدمة ذكر فيها تعدد أسماء الذين حملوا هـذا اللقب ، ووصف مخطوطة الديوان وصفاً مسهباً كما تحدث عن أهمية شعر الشاعر . أما اسم الشاعر المفصل فهو : مهذّب الدين عبد الله بن أسعد أبو الفرج الموصلي الشافعي .

لم يلتزم المحقق الترتيب الأبجدي في نشر قصائد الديوان فقـد بدأه بقصيدة عينية . وأكثر الديوان من شعر المديح الذي يتخلله الغزل كما كانت عادة الشعراء في عصر الأيوبيين وهو عصر يعتبر في نظر الناقدين عصر انحطاط للشعر ، ولكن شعر هذا الشاعر على ما تخلله من تكلف وصناعة غير خالٍ من الإحساس الشعري وإن كان التقليد قد أخذ بجانبيه وران عليه . وفي القصيدة العينية التي بدأ بهـا الديوان أبيات مشهورة رددها المغنون وتأنق في تلحينها الملحنون وهي :

قل للبخيـــلة بالسلام تورعاً   كيف استبحت دمي ولم تتورعي

وفي قصائد الديوان المطولات التي تذكرك بعهود الشعر الأولي كالقصيدة اللامية التي وردت في الصفحة (٣٥) فقد بلغ عدد أبياتها (٧٤) بيتاً وكذلك قصيدته الحائية التي وردت في الصفحة (٥٩) وعدد أبياتها (٨١) بيتاً وهما في مديح السلطان صلاح الدين الأيوبي .

ويبدو أن الشاعر كان معجباً بالسلطان مأخوذاً بانتصاراته الرائعة مما أثار شاعريته وحفزها على الإسهاب ، وكان يتعالى عن التكسب بالشعر في زمن كان التكسب فيه مهنة فهو يخاطب القاضي الفاضل ، رجل الأدب في عصره فيقول له :

وفاءً لحق الود لا تابعاً منىً ولا بائعاً شعراً ولا طالباً جدوى

وهي مزية تحفظ له فتشكر .

ولكن التقليد الذي ملك عنان شاعريته قد حجب عنه الآفاق الشعرية الصحيحة فخرج شعره بسيطاً مصنوعاً لا يحرك القارئ إلا في موسيقاه اللفظية وعباراته المنغومة . أما المعاني الجديدة وأما الصور واللمحات الأخاذة فنادرة في هذا الشعر الذي جنى عليه عصره كما جنى على الشعراء غيره .

ويختم المحقق الديوان بستة من الفهارس المفيدة ، ثم قائمة خاصة بالكتب التي حققها الأستاذ الجبوري .

وهذا الديوان مفيد لأنه أحيا شاعراً مغموراً ، ولأنه يعطي صورة من صور عصره الأيوبي كما يذكر القراء بقوة الشعر ومتانته وجزالته .

أ . ج

آراء وأنباء

انتخب مجمع اللغة العربية في الجلسة التي عقدها بتاريخ ١٧ ذي القعدة ١٣٨٧ هـ وفق ١٥ شباط ١٩٦٨ م ، الأستاذ عبد الهادي هاشم عضواً عاملاً فيه ، وقد صدر بذلك المرسوم ذو الرقم (٧٥٤) المؤرخ في ١٣٨٨/١/٨ وفق ١٩٦٨/٤/٦ .

وقد دعا المجمع الأستاذ المنتخب لاحتلال المقعد الشاغر بوفاة المرحوم الأستاذ عز الدين علم الدين التنوخي ، وعقد لاستقباله جلسة علنية بتاريخ ٧ صفر ١٣٨٩ هـ وفق ٢٤ نيسان ١٩٦٩ م .

وفي جلسة الاستقبال ألقى الدكتور عدنان الخطيب عضو المجمع خطاب الترحيب بالعضو الجديد ، الذي أجابه بخطاب تحدث فيه عن حياة سلفه وآثاره .

وفيما يلي نثبت نصّ الخطابين .

خطاب الدكتور عدنان الخطيب

في حفلة استقبال

الأستاذ عبد الهادي هاشم

[في ظهيرة يوم من شتاء سنة ست وأربعين وتسعمئة وألف ، كانت الشمسُ تبدو مثقلة وئيدة الخطى ، حينَ بدأت « عناية الله » ، واسمها بالفرنسية « Providence » ، ترفعُ مراسيَها وهي تتحرك ببطء نحو الغرب ، مبتعدة عن رصيف ميناء بيروت .

كانت الباخرة تحمل على ظهرها ، فيمن تحمل من السفّار ، نفراً من أبناء الشام ، وقفوا على سطحها ، والبشر يطفح من وجوه أكثرهم ، فقد جرى الزمان بما يشتهون بآخرة ، وأبحروا نحو بلاد فيها ما يرغبونه من علم ومعرفة .

كان هؤلاء السَفْر ، يلوحون بمناديلهم كعادة المسافرين ، تحيةً لأهل لهم وصحاب وقفوا على الرصيف ، تنسكب الدموع من عيونهم ، ساخنة هادئة تحمل معنَيَين ، دمعُ فراق لأحبة ينأون ، ودمع إشفاق لهؤلاء الذين ركبوا البحر ولما يطهر ماؤه مما زُرع فيه من صواعق تزهقُ الروح باللمس الرفيق .

لقد كانت « عناية الله » أول سفينة تقصد إلى أوربّة بعد أن أذيع في الناس ، نظافة البحر مما بثّ المتحاربون في دروبه ، خلال حرب ، خمد أوارها ، قبل أن تنفجر . وكانت العناية المبذولة في الكشف عن هذه

الخبايا في البحر ، أضيق من أن تحيط بكل شيء ، وما زال الناس في الفينة بعد الفينة ، يسمعون عن قرابين قدمتها هذه الألغام طعاماً شهيّاً لما ضمّ البحر بين جنباته من أحياء . كان من بين هذه الضحايا براءة ما اجترموا ذنباً ، فاصطلوا بالنار ، بعد أن قدّر لسعيرها الذي أججه الطامعون ، أن يهدأ ، فلا جرم ، تسكبُ الدموع عن حبٍّ ، وتسكبُ الدموعُ من إشفاق .

ما كادت الباخرة تبعد قليلاً ، حتى أخذ جرسٌ فيها يقرع على شكل خاص ، يُشعر المسافر ، بأنه دعوةٌ إليهم كي يجتمعوا على السطح ، وبدأ المسافرون يتحلقون حول الرّبابنـــة وهم يرشدونهم إلى ما يجب عمله ، إذا ما زُلزلت الباخرة بهم من لغم مستّتر ، ويعلمونهم كيف تلبسُ أدوات العوم ، إذا أُهيب بهم : أن ألقوا بأنفسكم إلى الماء .

كان المسافرون يستمعون بقلوبهم إلى هذه الإشارات تُلقى عليهم بالفرنسية ، وتلفتَ الرَّكْب من أبناء الشام أو أكثرهم إلى رجل يحسنُ فهم الفرنسية ينطقُ بها أهلُها ؛ فوجدوه فتىً يكبُرُهم سناً ، سبق له أن أمضى زمناً في فرنسة ، وعاد إلى دمشق ، بعد أن تزود بكثير مما يجهلون ، ثم لما لفت الحربُ الدنيا حالت بينه وبين ما يشتهيه من عودة إلى أوربّة ليعبَّ مما كان نهل ؛ فإذا به حين أتيح له السفر من جديد ، يلقَى رفاقاً كانت الحربُ حجزت أكثرَهم عن متابعة الدراسةِ التي منّى نفسه بها .

أخذَ الفتى يترجمُ لرفاقِه ما كان يلقى عليهم بيُسرٍ وطلاقة وإيجاز ، تركتْ له أثراً طيباً في نفوسِ ركْبٍ تفاوتت أسنانهم واختلفت دراساتهم ، واتفقوا في غاية واحدة ، هي الرغبة الصادقة في أن يكتب لهم أن يَرِدُوا منابعَ للعلم وللثقافة لم تكن سبلُها ميسرةً لهم من قبل .

وأنس الفتى برفاقه وأنسوا به ؛ كان يقصُّ عليهم من أنباء باريس ما تهفو إليه قلوبهم ، وكانوا يستزيدونه شرحاً ، فيجيب كلاً إلى سؤله بتفصيل وافٍ دقيق يلذ للجليس الاستماعُ اليه ، ولو كان لا يعنيه من أمره شيء . كان في أحاديثه يَبينُ عن ثقافةٍ أدبيةٍ واسعة ، وذاكرة قوية تُحسن أن تُلبي ، يزينُه تواضع جَم . فإذا به في مركز الريادةِ بين الركْب ، ساعدَه في ذلك خلقٌ رضيٌ ، وصدرٌ رحْبٌ ، وعقلٌ راجحٌ ، وأريحيَّةٌ كريمةٌ ، وصنعةٌ مارسها فملَكتْ عليه جانباً من طباعه ، كان مدرساً عاني التعليم مذ كان يَفَعاً سنواتٍ طوالاً ، فتعود مصادقةَ طلابه وأهليهم ، في المدينة وفي القرية ، فليس بِدْعاً أن يغدو في هنيهات صديقاً لنفرٍ من الشباب الجامعيين ، كانوا رفاق سَفَرٍ طويل .

كان يقف إلى جانب الفتى المعلم ، فتىً آخر يبدو أصغر منه بسنوات قد لا تجاوز الثلاث ، كانا ابني حيٍّ واحد من أحياء دمشق القديمة ، واتفق أن أمضيا بعض دراستها في مدرسة واحدة ، يوم لم يكن من ثانوية في دمشق إلا « مكتب عنبر » . كانا يلتقيان حيناً في باحة المدرسة ، وفي الدروبِ المؤديةِ إليها حيناً آخرَ ، وكان أقصى مايربطها تحية عابرة يتبادلانها إذا ما التقيا في درب ضيّق .

كان الفتى الأول ، رجلَ أدبٍ واجتماع ، موفداً من وزارةِ المعارف للتعمقِ في دراسةِ اللغاتِ القديمةِ ، وكان الثاني رجلَ قانون وإدراة . يشغَلُ منصباً قضائياً ، إنه موفدٌ من وزارة العدل لدراسة النظم القضائية في البلاد الأوربيّة المختلفة ، وبحكم صنعته هذه ، كان متئداً في خطواته متمهلاً في أحكامه ، لايتكلم إلا بمقدار ، يحب النكْتَة ويحسن الاستماع إليها ، ولكنه يندر أن يلقيها إذا اتسعت حلْقة المستمعين إليها .

وجد الفتى القاضي نفسَه ، إلى جانب رفيق عرف صورته وجهل طويته ، فاذا به يجد رفيقاً عاليَ التهذيب ، عفيف اللسان لين العريكة ، سمحاً في صلاته مع الآخرين ، فحين أُتيح له أن يلتقي به على انفراد يمتع طرفـه بمنظر الشمس وهي تتكوّرُ في البحر ، نابَه شعورٌ أنيس مدَّ الحديثَ بينهما حتى وجدا نفسيهما ينشدان مع شاعر دمشقَ الكبير :

ماله في عِظَمِ الشأنِ قرينْ كلُّ جبّارٍ يدانيه مهينْ
سِمَةٌ ليس لها من غايةٍ حَسُرتْ عنها عيونُ الناظرين
أنا إنْ أوجستُ منه خيفـةً خافه قبلي أمير المؤمنين
يملأُ العينَ فتنضي فرَقاً ويهولُ النفسَ حتى تستكين
كلَّ يومٍ تسجدُ الشمسُ له فكأنَّ الشمسَ بالبحر تدين
ترتمي في حِضنِـه محمرَّةً خجلاً كالوَرْد في حِضن خدين

وكانا إذا نظرا إلى أمواج البحر تتلاحق مرتفعةً منخفضةً ، رددا مع الشاعر قولَه :

أتُرى ، أمواجُه أنفاسُه رُدِّدت بين شهيقٍ وأنين
جحفلٌ يركب منها جحفلاً يتمادى كجنود زاحفين

وكانا إذا اجتمعا ضحى يستمتعان بدفء الشمس ، ويمتعان ناظريهما بجمال حوْم الطيور ، تلتقط ما تخلفه الباخرة من طعام ركابها ، أو إذا ذكرا حنينهما إلى مراتع الصبا ومدارج الطفولة ، أنشدا مع الشاعر :

وطيورُ البحر في أسرابِها تتهادى كشراعاتِ السفين
قلت للسّرب ، وقد أقبلَ من أُفقٍ ؛ قلبي به عانٍ رهين
أيّها القاطعُ عُرْضَ البحر هلْ لكَ عهدٌ بروابي قاسيون

ثمَّ مهوى القلب داراتُ الهوى | منزل الأهلِ ، حمى المستضعفين
بأبي الشامَ وأمي ، إنهـــا | كعبةُ الآملِ والحصنُ الحصين

* * *

وفي يوم غامت شمسه ، وتجمَّعَ السفَّار يصطلون بالقرب والحديث ، انضمَّ إلى السفْر الدماشقـــةِ أحد رجال السلك السياسي في بلدٍ عربيٍ شقيق ، وقد أنس بظَرْفهم وتهذيبهم ، وأنسوا بعلمه وثقافته ، فإذا بـه يدعوهم إلى مائدته عشيّة اليوم التـالي ؛ ولكنّ البحرَ هاج ضحوةً ، وكانت الباخرة تمرُّ في مضيق « مسينا » وصخبَ موجـه ، واضطربت السفينة ، ثم غدت على ضخامتها ، وكأنها طفلٌ عصبت عيناه بغمامة يسعى وراء لِداتِه ، فإذا بالسفّار يُهرعون إلى مضاجعهم مرضى بدوار البحر ، وأخذ أفراد الركْبِ الشامي ، ينسل الواحدُ منهم تلوَ الآخر ، وما كادت ساعةُ الغروب تأزفُ ، حتى كانت قاعة الاستقبال قد أقفرت إلا من ثلاثة ، صاحب الدعوة والصديقين وهما يتساءلان عن الدعوة ، إن كانت ما تزال قائمةً ، فأجاب صاحبها : هي قائمة ما دمنا ثلاثـة على الأقل . ولم تمض بضعَ عشرةَ دقيقة ، حتى اعتـذر المعلم ، فران صمتٌ مطبقٌ ، ثم قام السياسيُّ وقام القاضي ، دون أن ينبسا ببنت شفَـةٍ ، لقد مضى كلٌّ منهما متجلداً نحو مقصورته .

وعندما بدأت السفينة تلقي مراسيَّها في « مرسيليا » ، كان كلُّ رفقة السفَر شعر بأن المُتعَة التي نعِم بها أربت على مشاق السفر الطويل ، وكان أكثر الركْب شعوراً بهذه النُّعمَى ، ابنا الحيّ الدمشقي الواحد ، فقـد شعرا بأن آصرةً ربطت بين رجلين فجعلت منهما صديقين أخوين .

ولا ينسى القاضي يوم نزل من الباخرة ، ليلحق بقطـار باريس ، أن اليابسةَ كانت تميد من تحت قدميه ، فقد حمل معه شيئاً من دوار البحر ، وأن ساعد صديقه المعلم كان عوناً دفع عنه أذىً كثيراً .

وحمل القطار الصديقين إلى باريس حتى إذا بلغاها ، سلك كلٌّ منهما مسلكاً وما اجتمعا بعدئذٍ ، على نَدْرَة ما اجتمعا ، إلا على ودٍّ صافٍ وحبٍّ مقيم] .

★ ★ ★

أيها الزميل العزيز .

هذه صفحةٌ من « ذكريات » كتبتها في يوم غبر ، ثم جاء يوم في سنة أربع وخمسين وتسعمئة وألف ، وكنتُ أتولى منصب « نائب عام في وزارة العدل » فإذا بي أسجل في هامشٍ : [في هذا اليوم زرتُ الصديق الأستاذ عبد الهادي هاشم ، مهنئاً بتوليه منصب الأمانة العامة لوزارة المعارف ، وقد ذكرنا رحلتنا على السفينة « عناية الله » فنعمنا دقائق برجْع الذكرى وانتشينا بالحديث عن أيام لا تنسى] .

وإذا كنتُ يا صديقي ، بدأت حديثي الليلة بذكرياتنا فلأصل الحديثَ بالقول : إني أملْتُ يوماً أن تكون في استقبالي في هذه القاعة ، إذا ما قيض لي الدخولُ إلى هذا الصرحِ العظيم ، فقد كبرتني بسنوات ، وكنتَ ذا سابقةٍ في خدمة العربية ، والعمل على تحقيق أغراض هذا المجمع الذي نفاخرُ العربَ به ، وكان من حقِّ سابقتك ، أن تكون سابقاً في الدخول إليه ، ولكن الرياح كثيراً ما جرت بغير ما تشتهي السفن ، على انها قد تجري أحياناً بأسرعَ مما كان يؤمل ذو حظ من السفّانين ، وما كان الحظ ليغير يوماً من فضل السابقين في علم أو معرفة . لقد حالفت الرّيحُ سفينتي فأرستها مجليةً ، وها هو ذا حظي يجري الليلة بما أشتهي فأمنح من قبل الرصفاء شرف استقبالك باسمهم .

★ ★ ★

سيدي الأستاذ الرئيس

أيها الزّملاء الأعزاء

سادتي المحترمين

يسعدني في هذه الأمسية الزّاهرة بمشاركتكم ، أن أقدم إليكم واحداً من رجال يعتز مجمع دمشق بأن يضمهم إليه ، فيقوى بهم على حمل العبء الذي نهض له خمسين عاماً ما ناء به ، عبء خدمة الضاد أم اللغى لسان الذكر المبين . وبأمثال هذا الزميل الجديد يستمر مجمعنا الغالي مجاهداً في سبيل تحقيق أغراضه ، ملقياً الأضواء على تراثنا المجيد ، خبيء الأقبية المهملة والقاعات المجهولة ، ساعياً لجعل العربية الخالدة ، لغة العصر الحديث تساير علومه وفنونه .

لقد ولد رصيفنا الجديد عبد الهادي هاشم ، في حيّ من أقدم أحياء دمشق ، سنة ثلاثين وثلاثمئة وألف للهجرة ، الموافقة لسنة اثنتي عشرة وتسعمئة وألف للميلاد ، في أسرة شامية عُرف كثير من رجالها بمزاولة التجارة ، كما عُرف بعضهم بالانصراف إلى طلب العلم أو الانقطاع إلى العبادة .

بدأ الزميل تحصيله الأولي ، كما كان يفعل أكثر أبناء الأسر الشاميّة العريقة التي تسكن داخل دمشق وحول جامعها الأموي الكبير ، في « المدرسة الجقمقية » يوم كان على رأسها علامة دمشق وأحد رواد نهضتها المعاصرة وأصحاب الفضل على كثير من شبابها المرحوم الشيخ عيد السفرجلاني .

ومن الجقمقية تحوّل زميلنا إلى مدارس أهلية وأجنبية تلقى فيها تحصيله الثانوي ، إلى أن أنهى هذا التحصيل في « مكتب عنبر » ثانوية دمشق الحكومية الفريدة .

ومن « الجامعة السورية » جامعة دمشق الوحيدة ، حصل الزميل على شهادة « مدرسة الأدب العليا » ، وكان أول متخرجيّ دفعته . وحالت الوظيفة بينه وبين إتمام دراسة « القانون » التي بدأها ، فانتسب إلى « سلك التعليم » واضطر إلى العيش سنوات عديدة بعيداً عن داره في دمشق .

وفي سنة ست وثلاثين وتسعمئة وألف أوفدت وزارة المعارف زميلنا إلى باريس ، فتتلمذ لكبار المستشرقين فيها ، وانعقدت أواصر الصداقة بينه وبين كثير منهم ، وفيها درس شيئاً من علوم الفلسفة والتربية والألسن وألم إلماماً وافياً ببعض اللغات الساميّة ، ومنها اللغة الحبشية القديمة (الجعز) ، ثم عاد إلى دمشق في بداية الحرب العالمية الثانية ، فسُمّي أستاذاً للعربية في المدارس الثانوية ومديراً لدار المعلمين ، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها ، أوفد إلى سويسرة ليتم فيها دراسة اللغات السامية والحامية ، فتمكن من المصرية القديمة ومن العبرية ، ونال في هذه جائزة « باومان » عن دراسة وضعها عن الفيلسوف اللغوي اليهودي ، سعاديا غاوون المعروف عند العرب بـ « سعيد بن يوسف الفيومي » ثم اختارته منظمة « اليونسكو » آنذاك ليكون خبيراً ثقافياً لها في القطر الليبي الشقيق ، بعد إعلان استقلاله سنة ١٩٥٢ م ، فأقام فيه مدة عامين ، كان خلالها خير سفير بين شقيقين ، يحمل الحبّ والودّ بين جنبيه ، كما يحمل رسالة الفكر بين يديه .

ولما عاد الزميل عبد الهادي هاشم إلى دمشق ، تولى فيها وظائف كثيرة علمية وإدارية فكان محاضراً في كلية الآداب بجامعة دمشق ، ومديراً للتعليم الثانوي والتعليم الريفي ، فرئيساً للجنة التربية والتعليم ، فأميناً عاماً لوزارة المعارف ، ثم تولى بعدها مديرية دار الكتب الوطنية بدمشق « المكتبة الظاهرية » ، ثم مديرية إحياء التراث العربي القديم في وزارة الثقافة .

وزميلنا اليوم أمين عام مساعد للشؤون الثقافية في وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، ويتولى تدريس « فقه اللغة » في كلية الآداب بجامعة دمشق ، وهو عضو في اللجنة الوطنية السورية لـ « اليونسكو » وعضو في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

وإلى جانب هذا قام زميلنا الأستاذ عبد الهادي هاشم بتمثيل سورية على خير ما يكون التمثيل ، في كثير من المؤتمرات العلمية والتربوية ، ولا سيما في مؤتمرات « اليونسكو » و « جامعة الدول العربية » و « مكتب التربية الدولي في جنيف » ، كما شارك في تحرير كثير من المجلات الأدبية والتربوية ، وحاضر في أكثر من مدينة عربية ، وحقق بعض المخطوطات من تراثنا ناشراً ذلك في مجلة مجمع دمشق ، كما أعان بعض الباحثين في تحقيقاتهم لمخطوطات عربية قيمة . وقد سبق لمجمعنا أن نشر تحقيق رصيفنا لكتاب فقيد العربية الكبير أستاذ الجيل المغفور له سليم الجندي المسمى « الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره » وهو في ثلاثة أجزاء ضخام .

* * *

سادتي :

هذه المامةٌ سريعة عن الأستاذ عبد الهادي هاشم ، الذي أجمع أعضاءُ مجمع اللغة العربية بدمشق على اختياره رصيفاً لهم ، خلفاً للزميل الراحل فقيد العربية الاستاذ عز الدين علم الدين التنوخي ، يشدّون به أزرَهم ويتابعون معه خدمة العربية وآدابها .

وإني باسم المجمع أدعو الرصيفَ الكريم إلى خطاب مجمعي يحدثنا فيه عن سلفه الراحل أجزل الله ثوابه .

دمشق في ٧/٢/١٣٨٩ هـ
٢٤/٤/١٩٦٩ م

محمد الخطيب

خطاب الأستاذ عبد الهادي هاشم

في حفلة استقباله

سيدي وزير التعليم العالي ، سيدي وزير الثقافة ،

سيدي الأستاذ الرئيس ، سادتي أعضاء المجمع سدنة اللغة وحماتها .

أحسنتم بيّ الظن فارتضيتموني لكم رصيفاً ، وأخذتم بضبْعي ، منْعمين متفضلين ، فأحللتموني في مجمعكم الكريم منزلة سامية تجاوز الأماني وتفوت المطامع ، منزلةً ما كانت عنقي تتطاول إليها ، لمعرفتي بنفسي وشعوري بنقصي ويرحم الله امرءاً عرف حدّه فوقف عنده . وإني لموقن أنه لم يرفعني إلى مزاملتكم إلا عين راضية نظرتم بها إليّ ، ونفسٌ سمحة عالية تجاوزت عن عجزي واحتسبت بمحبتي لهذه اللغة الشريفة وإخلاصي لها واعتدادي بأدبها وحرصي على تراثها ففسحت لي مكاناً بينكم ، وأرجو ألا تكونوا على ذلك فيما بعد من النادمين .

ولئن لم أكن أطمع في أن أغدو في يوم من الأيام من أعضاء المجمع فما ذلك لأنني غريب عنه أو بعيد منه ، فأنا من معينه ارتويت ، وبرجاله اقتديت ، ألِفتُ رحاب المجمع منذ أكثر من أربعين سنة ألزم قاعاتِه وأشهد محاضراته وأتَلمَذ لأعلامه وأتخرّج بمن شرُفتُ بصحبته منهم أو حظيتُ بزمالته فيهم ، وكنتُ أجد في ملازمتي المجمعيين الخالدين شرفاً أزهى به واعتزّ ، وأرى في عشرتهم غذاء الروح ومتعة العقل وراحة النفس ، وما أزال أذكر الفرحة التي غمرتني يوم اختارني الأستاذ الرئيس محمد

كرد علي منذ خمسة وعشرين عاماً لأشارك في التهيئة لمهرجان المعرّي الألفي ، ولأكون في إمرة الرجل النبيل الأمير جعفر الحسني في الإعداد للمهرجان والعمل لإنجاحه .

كما أذكر بالفخر والشكر ذلك اليوم الذي وقف فيه طه حسين منذ أكثر من اثني عشر عاماً في حفل افتتاح مؤتمر المجامع العلمية الأول في دمشق يتوجه على رؤوس الأشهاد إلى رئيس الجمهورية السورية المرحوم شكري القوتلي طيّب الله ثراه بقوله :

« ولا بدّ أن يُرَدّ الحق إلى أهله ، ولا بد من أن استأذن فخامتكم في إشارة موجزة إلى تاريخ التفكير في عقد هذا المؤتمر ، وأولُ تفكير في عقد هذا المؤتمر إنما كان في اجتماع اللجنة الثقافية للجامعة العربية في جُدّة ، وكان الفضل فيه لممثل سورية العظيمة ، في ذلك الوقت كان الزميل عبد الهادي هاشم يمثل سورية في اللجنة الثقافية ، فهو الذي أوحى إلينا بهذه الفكرة ، ولا غرابة في هذا ، فما رأيتُ إلى اليوم أحـــداً كالسوريين لاينسى العروبة ومجد العروبة ومستقبل العروبة ، ما رأيتُ أحـــداً كالسوريين يذكر هذا ويستصحبه في حلّه وترحاله ، يفكر فيه كما يفكر في نفسه ، فالعروبة جزء مقوّم لكل عقل سوري ، وجزء مقوّم لكل قلب سوري ، وجزء مقوم لكل ذوق سوري . كان الذي أوحى إلينا بالتفكير في هذا المؤتمر رجلاً من رجال سورية ، فكان من الطبيعي أن يكون عقد أول مؤتمر للمجامع العلمية في مصدر التفكير فيه : في دمشق مهد العروبة وعاصمتها .... وهناك مزية خاصة لدمشق ، فمجمعها

العلمي الموقر هو أولُ المجامع العربية وجوداً وأشدُّها نشاطاً وأخصبُها إنتاجاً وأعظمُها تأثيراً في حياة اللغة العربية الحبيبة وأقدرُها على إحياء التراث العربي القديم ؛ نتخذه في كل هذه الأشياء مثلاً ونموذجاً ، ونطمع في أن نسير في إثره ونطمع في أن نصنع صنيعه ونقتدي برجالاته من زعماء العروبة وأعلام البيان . »

اعذروني أيها السادة إذا أطلتُ الاستشهاد بشيء من خطاب عميد الأدب العربي في هذا العصر ورئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة اليوم ، فقد فعلتُ ذلك لأعيد إلى الذاكرة رأي كرام زملائكم في مجمعكم وتقديرهم رجاله وإكبارهم جهاده .

ظلتُ لم تنقطع صلتي بالمجمع ، بَعُدْتُ أو قربتُ ، ولكنّ انضرَ أيّام عمري وأعودَها عليّ بالخير واليمن تلك الأعوام التي قضيتُها في حرم المجمع ، على رأس دار الكتب الظـــاهرية ، فقد كنتُ ألقى الأستاذ الرئيس (خليل مردم بك) رحمه الله ، كل يوم ، لا المذاكرة في قضايا الادارة فقد كان أمرها سهلاً ميسوراً ، ولكن للمداولة في مسائل أدبية ولغوية ، وللقاء الأفاضل من الوافدين على المجمع لزيارة رجالاته ، ولما حلّ العلامة الأمير مصطفى الشهابي في نيابة الرياسة خلفاً للمرحوم الأستاذ المغربي كان يخصني بوده ويُشركني في بحوثه ، وقد ذكّرني بلقاءاتنا الماضية يوم زرتُه رحمه الله الزورة الأخيرة قُبيل وفاته بيومين .

★ ★ ★

ولئن أتيح لي شرف لقاء أكثر أعضاء المجمع من قبل ، فإن صلتي بالمرحوم عز الدين التنوخي الذي أحللتموني محله بعد انتقاله الملأ الأعلى كانت أوثق وأقوى ، فقد كنتُ أعرفه وأنا في ريّق الشباب من خلال ما ألّف

وترجم وحقق وحاضر ، فلما سُمّيتُ منذ ثلاثين عاماً أستاذاً للعربيــة في ثانوية حمص خلَفتُ فيها الأستاذ التنوخي وسرتُ على نهجه ، وكنتُ أزوره عند مقدمي إلى دمشق وأستهدي برأيه فيحتفي بي ويصفيني وده وإخاءه ، وكان تواتر اللقاء يزيدني إعجاباً بأبي قيس ومحبة له ، ويكشف لي كرُّ الأيام فضائل وشمائل في نفسه وخلقه وعلمه لا يـكاد يعرفها أخص خلطائه .

ثم ازدادت صلتي به توثقاً أيام كنتُ في المجمع ، فـكانت لجنة المطبوعات تعقد اجتماعاتها في مكتبي ، وكان التنوخي أحد أعضائها ، وكانوا يبيحون لي أن أخوض في الحديث معهم وكأني أحدهم ، ويُشْرِكونني في عملهم وإن لم أكن منهم . ثم لما تحولتُ عن المجمع إلى وزارة الثقافة كان الفقيد يتعاهدني بالزيارة بين الفينة والفينة ، فأرد تحيته وأقصِد إلى مكتبه في المجمع وإلى داره في ضاحية المزة (أو دمشق الجديدة كما كان يحلو له أن يسمّيها) وكنت في الحالين سعيداً مغتبطاً لما كان يفيض فيه من طلّ الحديث وحلو النادرة وبارع الرواية وحاضر النكتة ، ولما كان يلقى به مجالسه من كرم الترحيب ورفع الكلفة والانبساط الوقور دون ما تبذّل ولا إسفاف . ولا أزال أذكر آخر لقاء بيننا وكان قُبَيْل وفاته بلواذ أسبوع وكنا نتحدث فيه عن (معاني الشعر) للاشناندانى وما صنعه في تحقيقه ، وكان يومها مفترّ الثغر منشرح الصدر يتدفق بشراً ونشاطاً ، وما كنتُ أعلم أنها آخر مرة ألقاه فيها في هذه الفانية . على أن صلتي لم تنقطع بالتنوخي بعد وفاته ، فقد عكفتُ على العناية بكتاب الأشنانداني واستكمال تحقيق أصله ولَحَقه وذيله والتقديم له ، وأرجو أن يظهر الكتاب إلى الأسواق بعد أسبوع أو أسبوعين .

★ ★ ★

تقضي سنة المجمع حميدة بأن يتحدث الخلف من أعضائه في حفل استقباله عن سلفه ، وكنتُ أحسب الأمر هيناً يسيراً ، وأن معرفتي بأبي قيس وبجمل آثاره قمينة بأن تجعل الأمر على طرف الثُمام ، وما كنتُ أدري أن شدة القرب حجاب وأن العين لا ترى جارتها ولا تحسن وصفها وأن أجهل ما يكون المرء عندما يحسب نفسه عالماً ، وأن ترجمة مَن بعُد من الغرباء قد تكون أسهل وأيسر من ترجمة مَن دنا من القرباء ، وهـذا عذري إذا لم ترضوا سيداتي وسادتي عما سأسوقه في ترجمة الفقيد ووصف بعض آثاره .

يُنْمَى عز الدين علم الدين التنوخي إلى أسرة يذكر بعض العارفين أنها كانت قد اتخذت العراق سكناً منذ مئات السنوات ، ثم هاجر بعض أبنائها إلى الشام وأقاموا في سواحله وعلى جباله الشم يشتركون مع أهليها في رد عادية الصليبيين عن الثغور الشامية . ثم انتهت تلك الحروب واستقر أبناء هذه الأسرة في لبنان وتكاثر نسلهم وغلبوا على أرجاء واسعة من الجبل . فلما وقعت الواقعة في عين دارة سنة ١٧١١ م / ١١٢٢ هـ بين القيسيين وعلى رأسهم الأمير حيدر الشهابي واليمنيين وأمراؤهم بنو علم الدين وانجلت عن هزيمة اليمنيين وقتلِ الكثيرين منهم نزح مَن سلم من آل علم الدين إلى دمشق واتخذها موطناً له .

وقد ولد الفقيد عز الدين بدمشق حوالي سنة ١٨٨٩ م في أسرة كادحة عاملة تصنع سروج الخيل وتتفوّق في هذه الصناعة فتصير إليها مشيختها ويسمى والده (شيخ السروجية) فإذا لقي الوالد وجه ربه حل محلَّه في المشيخة ابنه وهو أخو عز الدين .

نشأ الفتى عز الدين في هذه البيئة ، ولكن نفسه عزفت صغيراً عن الرضى بأدنى المعيشة ، وتطلعت إلى مجد مؤثل مؤمل . فبعد أن أنهى الدراسة

الابتدائية في المدرسة السباهية والاعدادية في المدرسة الرشدية تحوّل عن دمشق إلى يافا وعنها إلى الأزهر في القاهرة يدرس على شيوخه مجمل معارف عصره ، وقد عاش التنوخي في مصر عيشة شظف وقشف يتبلّغ بالقليل ، وينصب ويتعب من أجل الحصول عليه ، ثم عاد إلى دمشق قبيل إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ولم يبلغ العشرين من العمر ، فتصدّر للتدريس والإقراء في جامع بني أمية ، وأقبل الناس عليه ، ورضُوا عن طريقته في الوعظ والإرشاد ، ودعوته إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد أعانه على امتلاك قلوب طلابه طلاقة لسان وحلاوة حديث وبعدٌ عن الجمود والتطرف ، ودعوة معتدلة لإصلاح في شؤون الدين والدنيا متزن متئد ، وعلم غزير اكتسبه من الأزهر ومن دروس علاّمتي دمشق يومئذ جمال الدين القاسمي وعبد الرزاق البيطار .

وكان جو الشام متلبداً بالغيوم : حكومة تركية غاشمة توجس من بنيه شراً ، وتضمر لهم أذى وضراً ، وتتربص للايقاع بمن أبوا منهم الاقامة على ضيم يراد بهم وببلادهم ، وأنفوا من الاستكانة إلى ظلم أولئك الطورانيين الغاصبين ، فقامت جمعيات سرية عربية تدبّر للخلاص مما تعانيه البلاد وكان التنوخي فيما يبدو ضالعاً معها مشاركاً في بعضها .

وتوفده جمعية أهلية مع بعض الشباب الشاميين إلى فرنسة لدراسة الزراعة في (غرينيون) ، فاذا أتم عز الدين دراسته عرّج في طريق عودته على القسطنطينية يتصل فيها بالجمعيات العربية السريّة ، وينتسب إلى بعضها كالمنتدى الأدبي ، ثم يهبط بيروت لينهض بتعليم الزراعة في مركزها الزراعي سنة واحدة ، وما تلبث أن تنشب الحرب العالمية الأولى ويساق التنوخي إلى مدرسة ضباط الاحتياط في دمشق ، وقبل أن تتم دروسها يفرّق جمال باشا قائد الفيلق الرابع طلاب المدرسة العرب ، ويعيّن التنوخيّ في

حلب ، ولكن الضابط الصغير يتبيّن الغدر في نفوس الأتراك فيفـــارق دمشق خفية إلى جبل الشيخ ومنـه إلى بادية الشام فإلى الجوف (وهي دومة الجندل) ثم ييمم شطر العراق فالحجاز لينضم إلى الشريف حسين عندما أعلن ثورته على الأتراك . وهنالك يسميه الشريف (وزيراً للزراعة في واد غير ذي زرع) كما يقول التنوخي . ثم يلتحق بجيش الأمير فيصل ويدخل دمشق ثانية بعد أن حرّرها الجيش العربي .

وكانت تلك الفترة مباركة على الأمة التي أخذت تنشئ الحياة يومئذ ، وتمدّ لغدٍ باسم مشرق يذكّر بالأمس البعيد الوضّاء .

وشارك التنوخي مع بعض علماء الشام حينئذ في بعث العربية ونشرها وتعليمها ، وتألف من صفوة هؤلاء العلماء المجمع العلمي العربي في حزيران عام ١٩١٩ وكان عز الدين في عِداد هذا الرعيل الأول .

ثم يسهم التنوخي من بعد في تأليف جمعية (الرابطة الأدبية) ويشرف على إصدار مجلتها ، ولكن السلطة الفرنسية — وقد غزت جيوشها البلاد الشامية بالحديد والنار — لم ترُق في عينها الرابطة ولا مجلتها ، فأمرت بحل الجمعية وحجب مجلتها سنة ١٩٢٢ وكمّت الأفواه وكسرت الأقـــلام وبثت في البلاد الهلع والفزع .

ضاقت السبل أمام هذا الشاب التنوخي في بلده ، فلما دعاه ساطـــع الحصري إلى العراق — وكان قد رافق فيصلاً الأول إليه — ولى وجهه شطر بغداد وأخذ يدرّس في دور المعلمين الأولية والعالية وينشر المعرفة ويبصّر الناشئة بلغة الجدود وتراثهم المجيد الخصب ويضع لطلابه كتباً في العلوم واللغة والأدب لايزال الناس يذكرونها ويشكرون مسعاته في تأليفها .

ثم يغالبه الحنين إلى مسقط رأسه فيعود في أوائل العقد الرابع إلى دمشق وينصرف إلى المجمع وعمله فيه ردَحاً من الزمن ، ويشارك في

محاضراته وندواته ، ويسهم في مهرجان المتنبي سنة ١٩٣٦ ، ثم يُسَمَّى بُعيد ذلك مدرساً للعربية في ثانوية حمص ويتقلب بعدها في وظائف كثيرة إدارية وتعليمية في السويداء ودمشق ؛ إلى أن يوكل إليه تدريس علوم الآلة في كلية الآداب ويظل قائماً بها إلى أن يحال إلى التقاعد عام ١٩٥٣ وهو على أتم مايكون نشاطاً وحيوية . فيتفرغ أو يكاد للعمل في المجمع وفي مجلته ، ثم ينتخب عام ١٩٦١ عضواً في المجمع العلمي العراقي ، وأخيراً يسمى نائباً لرئيس المجمع العلمي العربي فى دمشق أواخر العام ١٩٦٤ بعد وفاة العلامة الأستاذ المغربي . فكان يقضي سحابة نهاره في المجمع ويروح أصيلاً إلى مزرعة له في ضواحي دمشق كان قد اقتناها لما عاوده الحنين إلى الزراعة . ومن هذه المزرعة يذهب إلى لقاء وجه ربه راضياً مرضياً فجر يوم الجمعة ٢٤ من حزيران ١٩٦٦ (٦ ربيع الأول ١٣٨٦ هـ) .

★ ★ ★

كان المرحوم التنوخي رضيّ الخلق كريم النفس جمّ التواضع عفّ اللسان قريباً إلى القلب ، وكان متمسكاً بدينه معتزاً بقوميته مجاهداً في سبيل أمته بسيفه وقلمه ، جاهداً في الحفاظ على لغتها وتراثها . وكان وافر النشاط يعمل في المجمع والمزرعة والمشروعات الخيرية والاجتماعية لا يصرفه واحد منها عن غيره .

وكان إلى ذلك قوي الذاكرة حاضر البديهة جميل النكتة .

وقد قضى حياته الطويلة جلداً دءوباً على الدرس والبحث والعلم والعمل حتى غدا حجة في العربية مشاركاً في علوم أخرى كثيرة ، وحتى خلّف لنا ثروة ضخمة من الآثار النافعة والتصانيف القيمة . وقد نُشر في حياته

منها أكثر من عشرين كتاباً ورسالة بين مؤلف ومترجم ومحقق في شتى ضروب المعرفة .

فأول ما ألف رسالة فلسفية سماها (الفتح المبين) في شرح عينية ابن سينا الرئيس :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنّع

وقد طبعت هذه الرسالة في مصر أيام كان التنوخي يدرس في الأزهر ولم تجاوز سنه الخامسة عشرة فيما يبدو .

ثم نشر في العراق كتاباً في مبادىء الفيزياء في جزئين ترجمه عن الفرنسية لفرنان ماير ، ثم ترجم قصة قلب الطفل في جزئين أيضاً ، وأصدر كتاب دروس الإنشاء مقتبساً من كتاب موريس غربغو ثم والى في دمشق تحقيق بعض التآليف الأدبية واللغوية ومنها :

كتاب المنتقى من أخبار الأصمعي للرَّبَعي وكتاب تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي وكتاب بحر العوّام فيما أصابت فيه العوامّ لابن الحنبلي . ثم أخرج لطلابه في الجامعة ثلاثة أجزاء فيها شرح (إيضاح القزويني الدمشقي) في البلاغة وكتاباً سماه (إحياء العروض) وشارك في وضع (المعجم العسكري) الفرنسي العربي والانكليزي العربي ثم نشر تحقيقه المتقن لكتاب الابدال لأبي الطيب اللغوي في جزئين كبيرين وكتاب المثنى وكتاب الإتباع وكلاهما لأبي الطيب نفسه ثم نشر كتاب الابدال للزجاجي وحقق مقدمة النحو لخلف الأحمر كما نشر الجزء الثالث من شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع ابن حبيب الأزدي .

ويتوفاه الله قبل أن يفرغ من تحقيق كتب أخرى كان يعتزم نشرها ، ومنها كتاب (معاني الشعر) للأشناندان في أصله ومَلحَقه وذيله ، وكتاب

(الدلائل في غريب الحديث) لقاسم بن ثابت السرقسطي، وكذلك كتاب (منتهى الطلب) لابن ميمون فيما يذكر صديقه العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي .

هذا إلى عدد جم من الرسائل الصغيرة والمقالات والقصائد التي كان ينشرها في مجلات كثيرة كالمجلة السلفية ومجلة الزهراء ومجلتي التربية والتعليم في بغداد والشام ومجلة الرابطة الأدبية ومجلة الثقافة ومجلة المجمع العلمي العربي ، ومن عجب أن آخر مقالة له نشرت في صدر عدد مجلة المجمع الذي نعاه فيه .

قضى التنوخي ستين سنة كاملة (من ١٩٠٦ إلى ١٩٦٦) يؤلف ويترجم ويحقق في أنواع شتى من المعرفة ، ولوددت أن أتحدث عن خصائص كلٍّ من مؤلفات التنوخي وأن أذكر موضوعه ومنهج التنوخي فيه لو كان الوقت مسعفاً ، ومع ذلك فلا أحب أن يفوتني الحديث ولو موجزاً عن ثلاثة من تصانيف التنوخي هي كتاب الابدال وكتاب تهذيب الإيضاح وكتاب مسند الربيع بن حبيب . ففي هذه النماذج دلالة واضحة على نهج التنوخي رحمه الله في التأليف والتحقيق ، وبيان لطول باعه في علوم كثيرة لا يتاح لغيره الإلمام بها مجتمعة ، بلهَ إتقانها والتمكن منها .

★ ★ ★

فأول هذه التصانيف التي اخترتُ كتاب (الابدال) لأبي الطيب عبد الواحد ابن علي اللغوي الحلبي المتوفى سنة ٣٥١ ، وقد نشره التنوخي في جزئين يقعان في قرابة ألف ومائتي صفحة ، ووطّأ له بحديث ضافٍ عن الإبدال اللغوي والنحوي وحدودهما ، وبسط قواعد الإبدال اللغوي وضرب الأمثلة عليها ، ثم انتقل إلى الكلام على القلب الشعري وعلى تعاقب الفصحى والعامية ، وعلى التعاقب بين العربية واللغات السامية ، وعلى تولد اللغات من اللثغات ، وشرح ذلك كله شرحاً علمياً لا تكاد تقع على مثله عند المعنيين المتفرغين

لمثل هذه البحوث ، وانتقل بعد ذلك إلى بيان أثر قلة الإعجام في التصحيف ، وإلى مباحث شتى تتصل بالترادف والتعاقب . ثم أخذ يقارن بين المتقدمين والمحدثين في هذا العلم ويرجّح المحدثين .... وهو في خلال ذلك يسوق آراءً في هذه الظاهرة اللغوية الصوتية : ظاهرة الإبدال ، يحاول فيها أن يفيد من العلم الوضعي المستحدث اليوم في تعليل ما رواه العرب سماعاً ولم يُحكموا تعليله . ثم عرّف التنوخي بمؤلف (الابدال) أبي الطيب اللغوي وانتقل إلى الحديث عن مخطوطة اشتملت على الكثير من كتب أبي الطيب ، وساق الأدلة على أن عزو الكتاب الذي نشره إلى أبي الطيب عزو صحيح . أما نص الكتاب فقد ضبطه بالشكل الكامل المتقن ، وهذا الضبط في الشكل أمر لا مندوحة عنه في كتب اللغة ، ولم يدع التنوخي كلمة لغوية في هذا السفر الضخم إلا شرحها ، معتمداً أوثق المراجع وأوسع المعاجم ، حتى جاءت حواشي الكتاب أضعاف متنه . ويبدو أن أبا قيس كان يودّ المضيّ في العناية بالكتاب فوق ما فعل ، فهو يقول (في مقدمة الابدال ص ١٢) :

« ولوددتُ مهلة من العمر لأشرح ابدال أبي الطيب اللغوي أو فائت ابداله مما جمعته من كتب اللغة على طريقته ، محمّصاً لها وباحثاً عن أصولها وفروعها وذاكراً آراء فقهاء اللغة فيها من المتقدمين والمحدثين . »

ولا شك أنه لا يقوى على نشر هذا الكتاب وضبطه وتخريجه والتعليق عليه إلا الراسخون في العلم ، فتحقيق كتاب لغوي ليس بالأمر اليسير ولا سيما كتاب لم تصل إلينا منه إلا مخطوطة واحدة . وهذا الكتاب يعالج زاوية عسيرة من اللغة ، وقد وفق المحقق في التعليق على الكتاب بما يستوجب الحمد والثناء . ويكاد المرء يجد في كل صفحة منه ما يحسبه صنيع لجان مجتمعة لا فرد متوحّد . وكان التنوخي يعلم أن عمله هذا مجازفة قد يكبو فيها

جواده فقال في المقدمة : فقلَّما خلا تحقيق كتاب ، من مباينة لوجه الصواب ؛ والتنزه عن الخطأ معوز ، والكمال لغير الله معجز .

★ ★ ★

أما الكتاب الثاني الذي أود التحدث عنه فهو (تهذيب الإيضاح) .

والحق أن التنوخي لم يكن يرضى بالاقتصار على علم واحد من علوم الأوائل ، بل كان يود الإحاطة بها جميعاً ، ويتطلع إلى إتقانها كلها وتجديدها وتيسيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وعلوم البلاغة ، كما صنعها المتقدمون ، عسيرة الطلب وعرة المسلك ، قل العارفون بها ، المتمكنون منها ؛ على أنه لا غُنْية عنها لمن يودّ فهم أساليب عصور طويلة من تاريخ أدبنا ، وأنماط كثيرة من تفكيرنا ، وجوانب عديده من ثقافتنا . وأشهد أن التنوخي كان في هذا الميدان من أبرع مَن عرفنا في علوم البلاغة كلها ، ومن أقدرهم على تبين خصائصها ونقائصها .

ولما نيط به تدريس طلاب جامعة دمشق علوم البلاغة اختار من كتب المتقدمين كتاب (الإيضاح) للقزويني الدمشقي المتوفى عام ٧٣٦ ﻫ فشذبه وهذبه وشرحه وعلق عليه في أجزاء ثلاثة يسَّرت لطلابه معرفة أصول هذه العلوم وأذاقتهم حلاوة درسها وفتحت عيونهم على طريقة في فهم البلاغة ما كانت تتاح لهم لولا كتاب التنوخي هذا .

ولا شك عندي في أن خدمة أبي قيس (لإيضاح) القزويني خدمة جليلة محمودة ، ولا أكتمكم أنني كنتُ قد قرأت منذ سنوات طويلات (مفتاح العلوم) للسكاكي و (تلخيص المفتاح) للقزويني ، و (مختصر تلخيص المفتاح) للتفتازاني ، و (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح) لابن يعقوب المغربي و (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) لبهاء الدين

السبكي و (الايضاح لتلخيص المفتاح) للقزويني ، و (حاشية الدسوقي على شرح السعد التفتازاني لتلخيص المفتـــاح) ، كل هذه المفاتيـح والشروح والحواشي المتعلقة (بإيضاح) القزويني لم تَسْنِ لي أبواب البلاغة ، ولم تُنِرْ لي ظلماتها ، وكنتُ أجد في نفسي انصرافاً عن القزويني وزهـداً عما ألّف ، فلما رأيتُ كتاب التنوخي قلت : وهذا مفتاح آخر لن يزيد الباب إلا إرتاجاً . ولكني مضيت في قراءته فأدركت وهمي ، وعرفتُ أنه كم ترك الأول للآخر وكم فات السابقَ ما أدركه اللاحق ، فقد يسّر التنوخي علومَ البلاغة وأضاء مجاهلها ، بمرهف ذوقه ودقة فهمـــه وسعة حفظه وسلاسة شرحه واستحضاره الشواهد المبينة الواضحة ، واستكثاره من النصوص المحكمة المتخيّرة ، وتَعليقاته المفيدة النافعة . وقد أعانه ذلك على أن يذيّل كل باب بأمثلة كثيرة متخيّرة جميلة يسوقها لتدريب القراء وتمرينهم والأخذ بيدهم لادراك وجوه الجمال في التعبير وضروب البلاغة في الأداء . وليس لنا أن نقتضي التنوخيَّ وضعَ أسس جديدة لعلوم البلاغة واستكمال ما فات القزويني وغيره منها ، ليس لنا ذلك ، لأنه في هـذا المقام شارح للكتاب لا مؤلف . ويبدو أنه كان يود أن يصنع شيئاً من ذلك ، ولكن لم يقيّض له قصر الزمن بلوغ غرضه .

★ ★ ★

كان التنوخي — كما سبق القول — متعدّد جوانب المعرفة ، متّسع آفاقها ، فقد بدأ حياته العلمية بدراسة شيء من اللغات الأجنبية كالفرنسية والتركية والفارسية ، ثم انصرف إلى تعمق العربيـــة والعلوم الدينية في الأزهر ، ثم عكف على دراسة العلوم الزراعية في فرنسة ، ثم اتجه إلى العلوم الوضعية في العراق ، وعاد لتدريس علوم الآلة في دمشق ، واشتغل

بتحقيق عيون تراثنا المجيد في اللغـــة والأدب والنحو . على أن من آخر الكتب التي حقق ونشر كتاباً في الحديث يثق به الاباضية من الخوارج ، عنيتُ به الجزء الثالث من (شرح الجامع الصحيح مُسْنَدِ الإمام الربيع ابن حبيب بن عمرو الفراهيدي الأزدي) وقد طبع بدمشق عام ١٩٦٣ م. وأنتم تعلمون أيها السادة أن هذا الجامع الصحيح هو عمدة الاباضيـــة في الحديث ، لا يعدلون به شيئاً من كتب السنة والشيعة ، وأن لهذا الجامع شأناً ــ وأي شأن ــ عند الباحثين ، لأنه لم يَسْلَم لنا من كتب الخوارج الأولين غيرُه في بابه . وقد توفر التنوخي خرّيج الأزهر على تحقيق متن هذا الجامع وشرحه ، ووطأ له بمقدّمة أرّخ فيهـــا أوّلية تدوين الآثار والأخبار والأحكام عند المسلمين ، ثم أفاض في بدء تدوين الحديث وشرح رتب الصحيح من أحاديث الرسول والأسانيد الثلاثية ورجالها ، ومقـام مسند الربيع بن حبيب ، وجلا ثلاثيات الربيع وكيف أن أحاديثها في مسنده من أصحها رواية وأعلاها سنداً ، وقد ترجم لرجال هذا المسند : أبي عبيدة التميمي وجابر بن زيد الأزدي والبحر عبد الله بن عباس . وجابر هـذا هو ــ كما تعلمون ــ أصل المذهب الاباضي في عُمان والمغرب ومن أصحاب عبد الله بن عباس .

وكأن التنوخي كان يخشى أن يُرمى بنصرة المذهب الاباضي ــ وهو الجاهر بسنّيته المعتزّ بها ــ ، فقال في مقدمة الكتاب : « وما آثرت تخريج أحاديث المسند والشرح ، ولا سيما مارواه الشيخـان ، إلا لتطمئن قلوب اخواني ابناء السنة بأن مسند الربيع الذي بُني عليه المـذهب الاباضي هو صحيح الأحاديث ، وأكثرها مما جاء في الصحيحين ، وجابر بن زيد ممّن روى عنهم البخاري وغيره ، لكيلا يقع الناظر في هذا الكتاب فيما وقع

فيه خصوم الاباضية أو من لم يعرف حقيقة مذهبهم وعقيدتهم فيظنهم من الخوارج الغلاة . »

أما تحقيق التنوخي لهذا الجامع الصحيح فيدلّ على تمكن من علم الحديث قلّ في عصرنا مَن يضارعونه فيه ، فهو يقابل ما جاء فيه بكتب أهل السنة ويشرح وينقد ويترجم للرواة ويعدّل ويجرّح ، وقد يعدل إلى شيء من العربية يعينه على إيضاح الغامض وتقويم المنآد .

ومن الطريف أن آخر تعليقة للتنوخي في هذا الجزء من الكتاب عادتْ به إلى ما اعتاده رفاقه وطلابه منه حين كانوا يسمعون أحاديثه الطلة الحلوة ، وأستميحكم العذر في تلاوة هذه التعليقة الأخيرة عليكم لصلة ما فيها ببعض أعمال مجمعكم ، ولتصويرها جانباً من جوانب العزّ التنوخي رحمه الله . فقد جاء في تعليقه على شرح الحديث الشريف : « مَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة » :

« يقول الشارح : نكّره (نكّر علماً في قوله : يلتمس فيه علماً) ليندرج فيه القليل والكثير ؛ فيضيف التنوخي : كما نكّر العلم في قوله تعالى : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ليكون شاملاً لجميع العلوم النافعة ، فليس مقصوراً على الفقه والنحو والصرف وحدها ، بل يطلق أيضاً على العلوم الرياضية والفيزياء والكيمياء وعلم الحِيَل (الميكانيك) وعلى كل علم يقوى به المسلمون والعرب ويعينهم على اختراع الأسلحة الحديثة الذرّيّة التي يقاتلون بها الأعداء من المستعمرين ، ويدافعون بها عن حوزة الوطن والدين ، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ صدق الله ؛ لا يستوي عالم وجاهل ولا دارع عالم وأعزل غافل ؛ ولو أن شاعرنا العربيّ الشدّاخ عاش في عصر العرب المسلمين هذا لقال :

أبَيْنا فلا نعطي السلاطينَ طاعةً ومستمراً إلا الصّروخَ المضرّما
ولا نتضي هـــذا الحسام مجرّداً ولا نرتضي ذاك الوشيـج المقوّما

ثم يضيف التنوخي الجمعي : الصّروخ وزن فعول هو الصاروخ الذي يصعد بتضريم النار إلى السماء ، وبيتا الشدّاخ بن عوف الكناني هما :

أبَيْنـــا فلا نعطي مليكاً ظلامةً ولا سوقةً إلا الوشيـجَ المقوّما
وإلاّ حساماً يبرُقُ العينَ لَمْحُهُ كصاعقـةٍ في غيث مزنٍ تركّما .»

هذا ولا أعلم أن للتنوخي كتباً أخرى نشرهـا في الحديث النبوي ، ولكنه كان في أواخر أيامه معنيّاً بكتاب (الدلائل في غريب الحديث) لقاسم بن ثابت السرقسطي ، فقد عرّف به في مجلة المجمع في مطلع العـام ١٩٦٦ م في مقالة ضافية جميلة ، واشتغل بتحقيق الكتاب ، ولكن وافاه الأجل قبل الفراغ منه . وقد عزم المجمع على إتمام تحقيقه ونشره .

وصفوة القول كان التنوخي حافظاً للكثير من الأحاديث النبوية ، واقفاً على معانيها المستفادة منها عارفاً بظانّها ورواتها قادراً على تنخّلها وتبيّن صحيحها من موضوعها .

وهذا جانب آخر يدل على فضل الفقيد واتساع آفاق علمه .

★ ★ ★

وبعدُ فما يجمُل بي أن أجتزئ بالإلماع إلى آثار التنوخي وأغفل الحديث عن صاحب هذه الآثار ، ولكن استيفاء هذا الحديث يشغَل من وقتكم فوق ما يتسع له صدركم ، فاسمحوا لي أيها السادة بأن أقتصر على كلمات قليلات أقولها في التنوخي المجدّد والتنوخي الشاعر والتنوخي اللغوي .

★ ★ ★

عُرِف الأكثرون من رجالاتنا في فاتحة عصرنا هذا بالمحافظة والوقوف عند ما وقف عنده المتقدمون فهم لا يميلون للتجديد إلا بقدر، ولا يرضَوْن من الاصلاح إلا بما تشتد الحاجة إليه؛ ولئن غلبت نزعة التجديد — ولو إلى حد — عند بعض رجال السياسة والفلسفة والاجتماع والثقافة والفكر والأدب، فإن نزعة التجديد هذه كانت تطرق على استحياء وخفر أبواب اللغويين ولا تلجها إلا بحذر وتردد، تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى. وكانت دواعي الإصلاح والتجديد في بادئ الأمر وافرة غزيرة، ولكن عوامل البيئة المحافظة، وغلبة الثقافة التقليدية، والخشية من التردّي في مَوامي المنبتّ كانت تدعو إلى القصد في التجديد والتغيير، ومن أجل ذلك كانت صدور رجال اللغة مثلاً تحرج بتقبل الدخيل والمولّد، وتحجم عن مجاراة ما استنّه أبناء اللغات الأخرى في المستحدث من الألفاظ للدلالة على المستجدّ من المعاني. وتفسير ذلك عندي أن الأمة العربية كانت في مطلع هذا القرن في معركة حياة أو موت، وأن مقوّمات النصر في هذه المعركة لضمان بقاء الأمة كادت تنحصر يومئذ في الحفاظ على اللغة، فزوال اللغة مؤذن بزوال الأمة، وبقاء أبنائها ببقاء لغتهم، فكانت صدور علمائنا تضيق بالمولد والدخيل وتود الرجوع إلى المأثور الأصيل. فلما اطمأنّت الأمة إلى وجودها وبقائها (أو لمّا خُيِّل لها ذلك) اتسعت صدور علمائنا، فرضوا بتسنية أبواب اللغة وبالاجتهاد فيها، وغدا علماؤنا أقلّ تزمتاً وتصلباً، وأصبحوا أميل إلى التيسير والتجديد، وقد يختلفون في تعيين الحد الذي ينبغي لهم أن يقفوا عنده، وقد يغلو أحدهم فيجاوزه بأشواط أو يتصلب بعضهم فلا يبلغه إلا من بعد، ومردّ ذلك اختلافهم في التقدير وتباعد نظرتهم في الأصلح والأمثل.

ويروعنا أن نجد التنوخي ـ وقد ولد في القرن الماضي ونشأ نشأة أزهرية في بيئة دينية وتكوّنت ثقافته ونفسيته في هذه الفترة الأولى ـ يروعنا أن

نجده ، عمرَه كله ، منادياً بالتجديد ، راضياً به ، داعياً له ، ما أعانه عليه إعداده الفكري وتفتحه الذهني وتقديره الشخصي ، فهو يقول مثلاً في واحد من أوائل كتبه وقد نشره في العراق عام ١٩٢٧ :

« وما زالت هذه الصناعة (صناعة الإنشاء) تتبع في تهذيبها وترقّيها سير العلوم وتكامل الصنائع حتى أوشكت أن تبلغ بين الفرنجة تمامها ، ونحن لم نزل على تركة أسلافنا جامدين ، وسادّين أبواب الاجتهاد في الفقه بأنواعه : فقه اللغة وفقه البيان والتبيين وفقه الآداب الرفيعة وفقه الصنائع المفيدة وفقه السلم وفقه الحياة بحذافيرها أي فقه الدين والدنيا معاً . »

ويقول في مقدمة كتاب آخر أصدره بعد أكثر من ثلاثين سنة : « ولو توفَّر لسلفنا الصالح من وسائل دراسة الأصوات السمعية والآلية وعلم أمراض الكلام والاطلاع على اللغات السامية ومقارنة اللغات القديمة والحديثة كما توفرت لفقهاء اللغة في ديار الغرب في هذا العصر ، لرأينا من حلّ مشكلات الابدال واستبطان أسرار لغتنا العربية ما هو مقطع الصواب » .

ويقول في موضع آخر (مقدمة الابدال) :

« ثم ماذا كان علينا لو انتفعنا بأبحاث علماء التجويد الحديث Phonologie من الغربيين ، بعد أن نضجت على نار الاختبار مباحثهم الصوتية ...

... إن أساتذة اللغة المحدثين الذين كتب لهم الاطلاع على المباحث الصوتية الحديثة ودرسوا علم الأصوات اللغوية وتطور الأصوات في اللهجات العربية القديمة والحديثة ثم تابعوا سير الدراسات اللغوية في ديار الغرب وتطوّر أصوات الصبيان في مراحل النموّ أو درسوا علم أمراض الكلام ، وأبحاث آفات اللثغات وأسباب حدوثها وطرق معالجتها هم لعمري أصدق نظراً في أحوال الابدال وأصح أحكاماً على نظائره وأقوى على حلّ مشاكله

واستبطان دخائله ممَّن لم يطَّلع على غير فن التجويد أو بحث الفصاحة من كتب البلاغة أو آراء ابن جني وأتباعه وغيرها .... »

ويقول في مقدمة كتاب آخر (مقدمة الإتباع) :

« ولقد آن لنا أن ندرس لغتنا العامية دراسة علمية .. »

كما يقول في مقدمة (الايضاح) :

« إن البلاغة العربية التي تشتمل على هذه الفنون الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) إنما تبحث عن الجملة والصورة وهما شطر من الأسلوب الذي أغفلته بلاغتنا . والأسلوب لا تخلد الكتابة ولغة الأمة إلاّ به ، ولم تَبْحث معه عن الفكرة والعاطفة والخيال وعن قواها وأنواعها ، ولئن كانت الجملة والصورة قوام جسم البلاغة فالفكرة والعاطفة والخيال روح ذلك الجسم السويّ الجميل ، والتعبير المستوفي لشرائط الحسن إذا ما خلا من روحه أشبهَ التمثالَ الذي استوفى نحتُه شرائطَ الإتقان ولكنه يظلّ معها جامداً بارداً لفقده الروح والحياة .

ثم إن لهذه الفنون أو الفصول الثلاثة من البلاغة أنواعاً أدبية أخرى Les genres littéraires لها بها اتصال وثيق ، وبجملتها يتم بيان الإنسان كالوصف والخطابة والقصة والرسالة والبحث والمناظرة ، فلها بلاغات فنية خاصة ، وعسى أن نوفق يوماً لإتمام البحث عنها في رسائل أو كتب مستقلة تدل طالب البلاغة الإنسانية على أصولها وأساليبها وشرائط الإتقان والإحسان فيها . »

والتنوخي في كتابه (إحياء العروض) يشير الى النزعات الانتقادية في العروض وغلبة سلطان التقليد وتحكّمه في أصحاب هذا العلم ، وينعَى عليهم موادعتهم له ورضاهم به ، كما يجاهر بإنكاره على الجامدين جمودهم ويقول :

« والعلماء الاتباعيون لا يعدون ما تستحدثه الحاجة من فروع العلم علماً ، ولذلك لا يعتبرون ما استحدثه الأندلسيون من الموشَّحات شعراً ، على أنها أرق فنون الشعر العربي ، ومن أقوى الدلائل على حيويته وخلوده بتطوره ؛ وأمتنا العربية اليوم في حاجة ماسّة إلى هذه الأوزان الموسيقية ... »

هذه النية الحسنة في التماس الإصلاح ، وهذه الدعوة الصريحة إليه هل وَلِيَتْها عند التنوخي جرأة على العمل تعدل الجرأة على القول ، هل حاول التنوخي أن يلج باب الاجتهاد والتجديد في فقه الدين والدنيا كما دعا أكثر من مرة ؟

الحق أنه حاول التجديد والإصلاح ، وحاوله صادقاً ، ولكن البيئة والنشأة والتربية كبحت جماحه وكبَّلَت يده وحبَسَت قدمه ، فلم يقوَ على السير إلى غاية الأمد وقنع ببلوغ القليل مما كان يدعو إليه . فهو في تجديده العروض مثلاً لايزيد على تغيير ترتيب بحور الشعر ، فيبدأ العروض بالمتدارك والمتقارب ثم الهزج والوافر .. وهكذا دواليْك حتى ينتهي بالمنسرح ؛ وهو يثبت دوائر البحور ولكنه يذكر أقوال من نقدها . وقد يورد في الحين بعد الحين (ألحوظات) و (نظرات) ترجّح رأي ابن الحاجب أو الزجّاج أو الزمخشري على آراء اخرين من أقرانهم ، أو يجلو قرابة الخفيف والمديد إلى الرمل ، أو المجتث إلى البسيط ، أو المضارع إلى المتقارب . وقد يستشهد بما اختاره من شعر المحدثين ولكنه لايمضي في الشوط إلى أبعد من ذلك ، فلا يحاول مثلاً وضع علم جديد للعروض لا يقوم على أسس الخليل ولكن على أسس من الدراسات الموسيقية والصوتية التي تيسرت لنا اليوم ، ولا يدلي برأيه في هذا التحلل من الوزن الذي عاذ به الناشئون من شعرائنا ، ولا يصرفهم عن هذا الذي يسمى (بالشعر الحرّ) بوضع ما يرضيهم من قواعد طريفة مستحدثة سليمة مقبولة .

ويحاول التنوخي التجديد في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) فيقنع بأن يقلب ترتيبها المأثور المألوف فيقدّم علم البديع ثم يثنّي بالبيان ويختم بالمعاني ، ويضيف إلى شواهد (الايضاح) تمرينات اختارها مما حفظ أو مما نظم ؛ أما إنجاز ما وعد به من التأليف في (البلاغات الفنية) وأساليب إتقانها فلم يقيّض له الوفاء به .

والتنوخي يدعو إلى دراسة اللغة العامية دراسة علمية ، وهي دعوة جريئة لايزال الكثيرون يُصمّون آذانهم دونها ، ويرمون دعاتها بخبث النية وسوء الطوية ، كما يدعو التنوخي إلى الانتفاع بما جاء به علماء الصوت ومقارنة الألسن لتجديد البحث في العربية ، ولكنه في هذا المجال لا ينطلق بعيداً ، ولا يزيد على شرح بعض الفصاح بما يقابلها من العامية ، أو مضارعة الألفاظ الدارجة بالألفاظ الصحيحة ، ثم يقف عند هذا لا يعدوه .

والحق أن التنوخي كان فيما يدعو إليه من التجديد حذراً متأنياً ، وكان فيما يأخذ به منه أكثر حذراً وحيطة ، لم يكن يصدر في هذا الحذر والحيطة عن مصانعة أو مداجاة ، وإنما كان يخشى استبهام المحجّة وخفاء نهاية المطاف . وَلَخَيْرٌ ألف مرة أن نسير الهوينى ولكن على بصيرة ويقين من أن نلقي بأنفسنا في مجاهل لا نعرف صيّورنا فيها .

★ ★ ★

إلى جانب التنوخي المجدّد يمكن أن تقال كلمة في التنوخي الشاعر .

وقد أدرك أبناء جيلنا أبا قيس يعلو المنابر ويلقي الشعر بصوته الجهوري الرفيع ، وقرأ الكثيرون شيئاً من النظم الذي كان يطالع به الناس بين الحين والحين . ولكني لا أعلم أن شعره جمع في ديوان برأسه . وقد يجد المتتبّع لآثار فقيدنا في الصحف والمجلات والكتب شعره على ضربين : مقطعات

وقصائد ، أما المقطعات القصيرة فتمتاز بسلاسة أسلوبها وجمال نكتتها وخفتها على اللسان وعلوقها بالحفظ ، فمن ذلك قوله وقد نقل مقر عمله إلى دمشق من السويداء بعد أن ضاق ذرعاً بمقامه فيها :

الحمـــد لله الذي أنقـــذني ولم أصَب
وردّني لبـــلدتي (وسلتي بلا عنب)

ومثال ذلك ما كان يكتبه أو ينشده لإخوانه أو يرتجله لمناسبة عرضت أو نكتة حضرت . وكثيراً ما كان ينثر بعض المقطعات في كتبه ولا سيما في أجزاء تهذيب (الايضاح) و (إحياء العروض) ، فهو يؤلف مقطعة لكل من ضروب الوجوه البديعية والبيانية والأعاريض والأضرب الشعرية .

وإلى جانب هذه المقطعات القصيرة قصائد يحرص التنوخي فيها على قوة الحوك وشدة السبك ومتانة الأسر وسموّ الغرض . ومثال هذه القصائد ما قاله إبان الثورة السورية عام ١٩٢٥ وقد قذف المستعمر المدن والقرى بقنابله المحرقة الفاتكة وقتّل الرجال وسبى النساء ومثّل بالأطفال :

قف في المنازل نادباً أطلالهــــا ماذا يفيدك أن تطيل سؤالهــــا
قد أحْرقت عمداً دمشق فلم تعد تصف الجميلة للورى وجمالهــــا
النــار تمطرهــا العشية وابــلاً والعلج ويل العلج جاس خلالهــا
يا ربّ آمنــة هناك بسربهــا تغدو لتصلــح دارهــا وعيالهــا
برزت تصيح وشعرهــا متفرق سترت به حذر العيون جمالهــا
وهناك نائحة تنوح لبعلهــا الـــــثاوي وتندب بعــده أطفــالها
اللهَ للأطفال كيف غدت لقىً صرعى القنابر بعثَرت أوصالهَا
تشجيك أيدي صبية بُتِرت وأر جلهــا نثرن يمينهــا وشمــــالها

. . .

والتنوخي قصائد وطنية واجتماعية كثيرة كقصيدته التي قالها في الجامع الأموي بدمشق عام ١٩٤٥ يستنهض الهمم لجهاد الغاصب والمحتل ، أو قصيدته في العيد الألفي المتنبي . على أن من أجمل شعره ما كان ينشده في الإشادة بالدروز بني عمه ، ومن ذلك قوله :

سل الوغى عن تنوخ فهي تعرفهم ... من كل أروع في الهيجاء مشهود
تسلسل الملك فيهم قبل ذي يزن ... إلى المناذرة الغرّ الأماجيد
أهل السدير وأصحاب الخورنق والـ ... ـخيل السوابق والمهرية القود
أبناؤهم في ذرى لبنان تملكهم ... صبابة بالعلى لا الخرّدِ الغيد
ولم تزل بحمى الفيحاء هابطة ... بقية السيف منهم والصناديد
عصابة لو رأى حسان طلعتهم ... لقال قول امرئ بالحق معهود
هذي وجوههمُ هذي أنوفهمُ ... البيض والشم ما شيء بمفقود

★ ★ ★

جانب آخر من جوانب حياة التنوخي الخصبة : التنوخي اللغوي .

وقد يعفّي الزمن على تصانيف فقيدنا في الأدب والشعر والنقد ، وقد تتنكر الأجيال القادمة لصنيعه في مضامير البلاغة والحديث والعلوم ، ولكن ستنقضي أعوام وأعوام قبل أن تنسى آثار التنوخي في ميدان اللغة .

لقد أحب علامتنا لغته وافتتن بها وسعى في إحيائها منذ صباه إلى يوم لقي وجه ربه ، حافظ على تراثنا اللغوي وحقق منه ما استطاع وعلق عليه ونشره نشراً علمياً ، ودعا إلى التآزر في بعثه وحثّ على التكاتف في الإفادة منه ، ثم حاول جاهداً أن يحبّب العربية إلى الناشئة فعمل على تقريبها إلى أفهامهم وتيسيرها على أقلامهم وترويض ألسنتهم بها ، وحضّ على اصطناعها في الدار

والمدرسة في الجامع والمجتمع في الجد واللهو في السرّاء والضرّاء ، وكان القدوة الصالحة لهم في هذا كله .

وقد أعانه على ذلك حافظة واعية وذوق مرهف واطلاع واسع وصبر على الدرس لم يؤتَه غيره ، وقد راعني عندما كنتُ في الظاهرية أن التنوخي أشار بخط يده على المخطوطات التي قرأ فوجدتُها تجاوز المئين عدداً وأكثرها عسير القراءة عدا الزمان على ورقه وخطه وحمّل قارئه عناءً وعنتاً لا يحتمله إلا أولو العزم من عشاق العربية المخلصين لها ولأبنائها .

وقد وضع التنوخي لأبناء هذا العصر الكثير من المصطلحات الجديدة شاع بعضها وذاع ، والتزمه الناس في دنيا العروبة كلها قاصيها ودانيها .

نظر يوماً في الدرّاجة وأحصى أسماء أجزائها بالفرنسية ثم وضع لكل من هذه الأجزاء كلمة عربية سائغة ونشرها في مجلة دمشقية وعاش بعض هذه المصطلحات وتناقلها الناس ونسَوْا من وضعها لهم .

وقبل ذلك عندما كان في العراق وترجم كتاب (فرنان ماير) عرّب كلمة Physique بـ (فيزياء) كما صنع أسلافنا عندما وضعوا كلمة (كيمياء) على وزن سيمياء ، وهي ـ كما يقول التنوخي ـ أدق علمياً من كلمة (الطبيعة) التي تشمل علوم الأرض والسماء ، وأخص من (الحكمة) أو (الفلسفة الطبيعية) . وقد انتشرت كلمة (الفيزياء) على ألسنة الناطقين بالضاد في المشرق والمغرب .

وقد شارك أبو قيس في لجنة كان على رأسها الأستاذ المرحوم الأمير مصطفى الشهابي كلفت ترجمة المصطلحات العسكرية بمصطلحات عربية سائغة ، فقامت اللجنة خير قيام بما وكل إليها ، وأخرجت للناس معجمين اثنين قيّمين تستأنس بهما اليوم جميع الجيوش العربية وترضى أكثر ما وضعه التنوخي وصحبه من مصطلحات .

وقد وضع المجمع ـ والتنوخي من أوائل أعضائه ـ في مطلع تأسيسه مصطلحات كثيرات فصيحات عرفناها وأليفناها اليوم، ولولا التنوخي ورفاقه لكانت ألسنتنا ترطُن ـ في أغلب الظن ـ بما جرى على ألسنة آبائنا منها كالجرنال والكزيطة والدركنار واستاتيستيق ورابور وبول وقوجان وماصه وقاصه وقومسيون ودوسيه وغيرها وغيرها .

كان التنوخي رحمه الله يحرص على ألاّ تستبدل العربية الخبيث الأعجمي بالطيب من كلمها أو صيغها، وقد كرر الدعوة في آخر مقالة كتبها قبيل وفاته إلى تغليب (تلفاز) على (تلفزيون) إذ أن إقحام أمثال هذه الكلمة بصيغتها الأعجمية سيضعف شأن اللغة ويُدْخل الضيم على شخصيتها وعبقريتها وسيمحو خصائصها التي انفردت بها ورُكّبت عليها .

وقد وضع التنوخي ألفاظاً كثيرة رشيقة البنية صحيحة التركيب خفيفة على اللسان ، ولكن لم يتح لكلها الذيوع ، فقد اقترح مثلاً (المكيني) لما نعبر عنه اليوم بـ (الميكانيكي) فلم تشع وإن كنا نحار اليوم في التعبير عن معناها ، ووضع كلمة (الأصولي) ترجمة لـ (كلاسيكي) و (مكفّل) لـ (بانسيون) ومصطلحات أخرى كثيرة .

ولم يقنع التنوخي باللفظ الفصيح الصحيح يستعمله ويدعو إليه، وإنما كان ينشر أيضاً الأسلوب الأصيل القويم ، ويدلّ على ما تسرّب إلى آثار كتاب عصره من تراكيب قد تكون مفرداتها ـ متفرقةً ـ سليمة قوية ، ولكنها في مجموعها وتأليفها ضعيفة سقيمة ، كقولهم : رحنا صباحاً .. وفصيحها غدونا صباحاً ، أو : فعابه الأستاذ على كسله ، وصحيحها : فعاب الأستاذ كسله ... والتنوخي في هذا يجاوز دائرة العالم اللغوي إلى حيّز البياني البلاغي فيقول مع صاحب (المثل السائر) : إن أسرار الفصاحة

لا تؤخذ من علماء العربية ، وإنما تؤخذ منهم مسئلة نحوية أو تصريفية أو نقل كلمة لغوية وما هو من هذا المجرى ، أما أسرار الفصاحة والعلم بالموسيقى اللغوي فلها قوم مخصوصون بها .

وبعد فمَراد القول في التنوخي رحب فسيح ، ولكن صبركم على حديثي لن يتسع لأكثر مما قدّمت ، فلأجتزئ به ولأتوجه في الختام بالحمد أصدقه وأصفاه ، والشكر أوفره وأوفاه ، إليكم وإلى الزميل الكريم الدكتور عدنان الخطيب فقد أسبغ عليّ من الثناء حلة زاهرة لا تليق إلا بفضله ، وفوّفها بألوان زاهية أخذها من كريم نبله ، ولعلّي أبلغ في مقبل الأيام بعض ما شام فيّ من كفاية وما توسم من اجتهاد .

« ربِّ هبْ لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين . »

والسلام عليكم ورحمة الله .

٢٤/٤/٦٩ عبد الهادي هاشم

❋❋

حول التأثيل اللغوي

ظاهرة في المعجم العربي

جديرة بالدراسة

(مادة الباء في ترتيب الصحاح ، تشتمل على أكثر مواد المعجم التي يدخل الماء عنصراً في تعريفها)

- ٤ -

ع ز ب عَزب : غابَ ، وأعزب : بَعُد ، وعَزَب بماشيته : بعُـد بها يتتبَّع مساقطَ الغيث . العازبُ من الكلإ : البعيدُ المَطْلب وأرضٌ عَزُوبة : بَجْراء قليلة الكلإ .

ع س ب العَسْبُ : ماءُ الفَحْل .
العَسْقَبةُ : جمودُ العيْن في وقت البكاء .
عَسْنَبْتُ الماءَ : ثوَّرتُه .

ع ش ب العُشْبُ : الكلأُ الرَّطْبُ .
وعَشِبَ الخُبْزُ : يَبِسَ .

ع ص ب العَصْبُ : شدُّ فَخِذَي النَّاقة لِتَدِرَّ اللبنَ كالعِصاب ، وناقةٌ عَصُوب : لاتَدِرُّ إلاّ بالعَصْب .
والعَصْبُ : جفافُ الرِّيق ، وعَصَب الماءَ : لَزِمَه .
والمَعْصُوب : الجائع الذي كادت أمعاؤُه تَيْبَسُ جوعاً .

ع ط ب العَوْطَبُ : لُجَّةُ البحر ، أو أعمق موضع فيه ، أو المطمئن بين الموجتين .

ع ظ ب عَظَب الجلد إذا يَبِس .

ع ق ب العُقَبُ : نُوَبُ الوَارِدَة ، ترد قِطعةٌ فتَشْرب فاذا وردت قطعةٌ بعدها فشربت فذلك عُقْبَتُها ، والعواقبُ الإبلُ تشرب الماءَ ثم تعود إلى المَعْطِن ثم إلى الماء .

وأعْقَبَ مستعيرُ القِدْر : ردَّها وفيها العُقْبَةُ ، وهي مَرَقَةٌ تُرَدُّ في القِدْر .

العُقَاب : مسيلُ الماء إلى الحوض ، والحَجَرُ يقوم عليه السَّاقي ، وحَجَرٌ ناتِئٌ في جوف البئر ، والرجُلُ الذي ينزل في البئر فيرفعُها يسمى المُعَقِّبُ .

التعاقُب الوِرْدُ مَرَّةً بعد مَرَّة .

ع ك ب عَكَبَتْ القِــدْرُ : ثار عُكَابُها . والعُكَابُ : البُخَار وشدَّةُ الغَلَيان .

ع ل ب عَلِبَ النباتُ : جَسَأَ (أي صَلُبَ) . واستعْلَبَتِ الماشِيَةُ البَقْلَ : أجمَتْهُ واستغلظَتْهُ إذا ذَوَى .

عَلَبَ : غَلُظ وصَلُب ولم يكن رخْصاً . والمكان العِلْبُ : الغليظ من الأرض الذي لو مُطِر دهراً لم يُنبِتْ خضراء .

والعَلَبُ : الصَّلابةُ والشدَّة والجُسُوء .

العُلْبَةُ : مِحْلَبٌ من جلد أو خشب يحلبُ فيه ؛ أو هي جِلدةٌ تُؤْخَذُ من جَنْب جِلْد البعير إذا سُلِخَ ، يُعَلِّقها الرَّاعي أو الرَّاكب فيَحْلُبُ فيها أو يَشْرَب بها .

عِلْبِيَةٌ : مُوَيْهةٌ في بلاد أسد .

ع ن ب العُنْبَبُ : كَثْرَةُ الماء ، ومن السَّيْل : مُقَدَّمُه .
العُنَابة : ماءٌ في ديار بني كلاب .
عَنْكَبٌ : ماء بأَجإٍ لبني فَرِير بن عُنَيْن .

ع ي ب عَابَ السِّقَاءُ : خَثُر ما فيه من اللَّبَن . والعائِبُ : الخاثِر .

غ ب ب غَبَّ : شرب غِبّاً كالغُبُوب . والغِبُّ : وِرْدُ يومٍ وظِمْءُ آخر .
الغُبُّ : الضاربُ من البحر حتى يُمْعِنَ في الأرض .
الغَبِيبةُ : الرائبُ من اللَّبن .
المُغَبَّبَةُ : الشاةُ تُحلَب يوماً وتترَكُ يوماً .
ومياهٌ أَغبابٌ : بعيدةٌ . يقال ماءٌ غِبٌّ أي بعيد ، ومنه قولهم : غَبَّ السَّلام .
الغَبيبُ : المسيلُ الصغيرُ الضيّق .
غَثْلَبَ الماءَ إذا جرعَه جَرْعاً شديداً .

غ ر ب الغَرْبُ : الرَّاوية التي يحمل عليها الماء ، والدَّلو العظيمة ، ومَسيل الدَّمع ، وكثرة الرِّيق ، ويوم السَّقْي ، وأعلى الماء أو هو الماء نفسه الذي يقطر من الدَّلو بين البئر والحوض ، وغواربُ الماء أعاليه أو أعالي موجه .
أغْرَبَ الحوض والإناءَ : ملأَهما .
غُرَّبٌ : اسم جبل أو اسم ماء عنده ، وكذلك غُرَّبة .

غ س ب غَسْنَبَ الماء : ثَوَّرَه وهَيَّجَه .

غ ض ب مكانٌ غَضْرَبٌ وغُضارِب : خِصْبٌ ، كثيرُ النَّبْت والماء .

غ ي ب الغَيابة في الأصل : قعر البئر ، ثم نُقِلت لكلِّ غامضٍ خَفِيّ .

ق أ ب قَأَب الماءَ : شَرِبَه ، أو أكثر من شُرْبه أو تَمَلَّأَ منه .
ورجلٌ قَؤُوب : كثيرُ الشُّرْب .
إناءٌ قَوْأَبٌ : كثير الأخذ للماء .

ق ب ب قَبَّ النَّبْتُ يَبِس . وقَبَّت الرُّطَبَةُ : جَفَّت .
القابَّةُ :القَطْرة من المَطر .

ق ر ب قَرِبَ وقَرَب وأقْرَب : سار إلى الماء أو كان بينه وبين الماء ليلة . والقَرَبُ : طلبُ الماءِ ليلاً ، أو أن لايكون بينك وبين الماء إلاّ ليلةٌ ، أو هو اللَّيلة التي تَرِدُ في صبيحَتِها الماء .
القارِب : طالب الماء ليلا ، أو طالب الماء . والحمارُ القاربُ الذي يَقْرَبُ القَرَب ، أي : يُعَجِّلُ ليلةَ الوُرُود ، ومنه السَّفينَةُ الصغيرة .
قَرَبَ : طلَبَ ، والأصل فيه طلب الماء ، ثم اتُّسِعَ فيه ، فقيل فيه : فلانٌ يَقْرُب حاجتَه ، أي يطلبُها . والقُرْبانُ : مايُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى ، أي يطلبون القُرْبَ منه بها .
القَرَبُ : البِئْرُ القَرِيبةُ الماء .
القِرابُ : الدَّلو قارب أن يَمْتلِيءَ ؛ وإناءٌ قَرْبان : قارب الامتلاء .
وأقْرَبْتُ القَدَحَ : إذا قاربَ أن يَمْتلِيءَ .
القَوْرَبُ : الماء لايُطاقُ كثرةً . وظهرتْ تَقَرُّباتُ الماء ، أي : تباشيرُه .
قُرْبَى : ماءٌ قُرْبَ تَبالَةَ .

(يتبع) عبد الله الخطيب

***

الرُّباعيّات والمَثْنَيات

قرأت في الجزء الرابع من المجلد الثالث والأربعين من هذه المجلة البارعة رأياً الأستاذ الدكتور المحقق عمر موسى باشا عنوانه « الرباعيات أو الدوبيتات » استدرك به على الأستاذ الدكتور المحقق علي جواد الطاهري في هذا الفنّ من فنون النظم وتسميته ، وقد رأيت فيه بعض النقصان في البحث فوددت إتمامه :

إن « دوبيت » اسم مركب من كلمتين فارسية هي « دو » بمعنى اثنين ، و « بيت » العربية ، فمعناه « بيتان » فتسمية الدوبيت « الرباعيّة » أو « الرباعيّ » وإن كانت شائعة متداولة ، مخالفة المعنى الأصلي الفارسيّ ومُوافقة للاصطلاح الذي شاع في دنيا العرب الأدبية ، لأنها استندت إلى « الأشطار الأربعة » لا إلى البيتين ، ولا مُشاحّة في الاصطلاح .

والظاهر لي أن الرباعيّة لم تكن تسمّى دائماً في فنون العرب النظمية هذه التسمية بل كانت تسمّى أيضاً « المَثْناة » وتجمع على « المَثْنَيات » وهي التسمية الأصلية الحقيقية ، قال الجوهري في ث ن ى من الصحاح : « وفي الحديث : من أشراط الساعة أن توضع الأخيار ، وتُرفع الأشرار وأن تُقرأ المَثناة على رؤوس الناس فلا تُغيَّر . يُقال هي التي تُسمّى بالفارسية (دوبيتي) وهو الغناء . قال (١) أبو عبيد يذهب في تأويله إلى غير هذا » .
وورد في مختار الصحاح قول مؤلفه : « قلت : ذكر في التهذيب أن الحديث

(١) هكذا ورد الفعل في طبعة بلاد العجم وهو تصحيف « كان » بدلالة ما ورد في طبعة أخرى ومختار الصحاح .

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنها ـ وفسّره لما سُئل عنه بما استُكتب من غير كتاب الله تعالى ، وقال أبو عبيدة : قيل إن الأحبار والرهبان بعد موسى ـ عليه السلام ـ وضعُوا كتاباً فيما بينهم على ما أرادُوا من غير كتاب الله تعالى فهو المثناة [1] ، فكأن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ كره الأخذ عن أهل الكتاب ولم يُرد به النهي عن حديث رسول الله ـ ﷺ ـ وسنته ، وكيف ينهى عن ذلك وهو من أكثر أصحابه حديثاً عنه » ؟ ! وجاء في الفائق للزمخشري « ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ من أشراط الساعة أن توضع الأخيار وترفع الأشرار وأن تقرأ (المثناة) [1] على رؤوس الناس لا تغيّر . قيل : وما المثناة ؟ قال : ما استُكتب من غير كتاب الله . قيل : هو كتاب وضعه أحبار بني إسرائيل بعد موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام على ما أرادوا من غير كتاب الله الذي أنزل عليهم أحلّوا فيه ما شاؤوا وحرّموا ما شاؤوا على خلاف الكتاب وقد وقعت إلى ابن عمر كتب يوم اليرموك فقال ذلك لمعرفته بما فيها [2] » . وذكر المبارك بن الأثير مثل ما ذكر الزمخشريّ وذلك في النهاية وأضاف إليه ما أثر الجوهري في الصحاح من كون « المثناة » الدوبيتي وهو الغناء .

والذي يهمّنا من هذه الأخبار في هذا البحث حاقّ الاهتمام هو أن « المثناة » الدالة على الاثنين تُقابل « الدوبيتي » أي البيتين ، وأنها كانت تُغنّى

---

(١) الصحيح أنها « المشنة أو المشنا » بالشين المعجمة وأشهرها « مشنة يهودا بن شمعون الثاني أو الناسي « ١٣٥ ـ ٢٢٠ م » وهي جمهرة تفاسير التوراة في الزراعة والأعياد والزواج والطلاق والجنايات والمعاملات والعقوبات والمقدسات وغيرهـا من رحلة بنيامين (ص ٧٣) وغيرها . وهي الآن تقرأ على رؤوس الناس بقيام دولة إسرائيل كما جاء في الحديث ، فهل ظهرت أشراط الساعة ؟

(٢) الفائق « ١ : ١٥٩ طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٣٦٤ = ١٩٤٥ » .

ولشيوع الغناء بها سميّت « غناءاً » أما حقيقة الاسم اللغوية فلا تفيد الغناء البتّة ، و « الدوبيتي » تصحّف في لغة العامة إلى « الذوبيت » بالذال المعجمة ، قال المحبي : « وقد اشتهر باعجام داله وهو تصحيف وهو ثلاثة أقسام يكون بأربع قواف كالمواليات وأعرج بثلاث قواف ومردوف بأربع أيضاً وكله على وزن واحد [1] . والدوبيتي أو الدوبيت أو الذوبيت القديم لا يزال يُغنّى عند عوام العراق الجنوبيين ، وقد اعتراه القلب المكاني بعد التصحيف ، فصار الذّوبيت إلى « البُوذيت » ثم صار « البوذيّة » بتشديد الياء ومنهم من يسميه « الأبوذيّة » وقد حارت الظنون واختلفت في أصلها ، وهو ما اهتديتُ إليه ، ولا يصح الالتفات إلى غير هذه الحقيقة ، من مختلقات الأوهام ، و « البوذيّة » من وزن الوافر « مُفاعَلَتُنْ مُفاعلتُنْ فَعولُ » ولحنُها مُحزن يشبه البكاء ، وتحتوي على النُّدبة أو النسيب أو آلام النوى والفراق ، وما أشبه ذلك ، وأقبح الأمور عندنا التغنّي بها في الأفراح .

وقد اخترع الفرس دوبيتاً جديداً على وزن « لا حولَ ولا قوّة الا بالله » ومن أربعة مصاريع أيضاً ، وهو الدوبيت الذي شاع في أوائل القرن السادس للهجرة أو أواخر القرن الخامس في دنيا العرب الأدبيّة ، وذكره المرجوّة له الرحمة الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعيّ في كتابه في تاريخ أدب العرب [2] ، وبعد أن فسر اسمه المركب قال : « وقد أخذه أدباء العرب عن الفرس ويعرف عندهم بالرباعي واختصّ بالاجادة فيه بعض شعرائهم كعمر الخيام ... ولا نعرف أول من استعمل هذا النوع في العربيّة ولكن نشأته كانت في بغداد ... ونحن نُرجّح أنّ هذا النوع لم يكن في

(١) خلاصة الأثر « ٢ : ٢٥١ طبعة القسطنطينية سنة ١٢٩١ » .
(٢) تاريخ آداب العرب « ٣ : ١٧٢ طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٩ = ١٩٤٠ .

العربيَّة قبل القرن السابع لأننا لم نجده في شعر أحـــد قبل ذلك الزمن ولا وجدنا إشارة إليه ، ولم نجد للشعراء ولعاً به إلا في أواخر تلك المائة وما بعدها ، والرباعي يُعد من المخترعات الحديثة في اللغة الفارسيَّة لأن أول من وضعه أبو سعيد بن الخير المتوفَّى سنة ٤٦٥ وبعضهم يقول إنه كان موجوداً قبل ذلك ولا يرجع اختراعه إلى تاريخ معيَّن ، غير أن ممَّن عرفُوا بنظمه أبا جعفر رودكي(١) الشاعر المتوفى سنة ٣٠٢ حتى افتنَّ فيه الخيام وأجاده فاشتهر بما نظمه فيه شهرة بعيدة لأنه ضمَّنه أفـكاراً سامية وانتقادات مرَّة ثم أقبل الأدباء عليه من بعده » وبعد نقط ثلاث جاء قول الرافعي : « وقد عارضها في العربية سديد الدين الأنباري ، كما ذكر صاحب خلاصة الأثر (٤ : ٣٩٠) ولم يقع لنا شيء من رباعيَّاته . وللدوبيت وزن واحد وهو فَعْلُنْ (بسكون العين) مُتَفاعِلُنْ (وتارة يغيَّر إلى متفاعِلن) فَعُولُنْ فَعْلُن (بتحريك العين وسكونها) وأمثلته(٢) كثيرة » .

---

(١) الصحيح « الرودكي » بالتعريف والذال المعجمة المفتوحة بعد الراء المضمومة والواو المسكنة قال السمعاني في الأنساب : « الروذكي ... هذه النسبة إلى روذك ناحية بسمرقند وبها قرية يقال لها بنج (؟) وهذه القرية قطب روذك وهي على فرسخين من سمرقند ، والمشهور منها الشاعر المليح القول بالفارسية السائر ديوانه في بلاد العجم أبو عبد الله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن آدم الروذكي الشاعر السمرقندي كان حسن الشعر متين القول . قيل أول من قال الشعر بالفارسية هو ، قال أبو سعد الادريسي الحافظ : إبو عبد الله الروذكي كان مقدماً في الشعر بالفارسية في زمانه على أقرانه ... وكان أبو الفضل البلعمي وزير إسماعيل بن أحمد والي خراسان يقول : ليس للروذكي في العرب والعجم نظير . ومات بروذك سنة ٣٢٩ » . قلت لا شك في أن أبا الفضل البلعمي كان شعوبياً فقال ما قال .

(٢) قوله « وأمثلته كثيرة » متناقض الـكلمتين لأن « أمثلة » جمع قلة و « كثيرة » تدل على الكثرة فالصواب « ومُثُلُه كثيرة » .

وقد ظهر للقارئ الكريم أن في تاريخ وفاة الروذكي الذي ذكره الرافعي أو ذكره مَن بعده غلَطاً في السنين ، أما المُعارض العربي للرباعيات الفارسيّة فهو « سديد الدولة » لا سديد الدين ، كما جاء في خلاصة الأثر ونقله الرافعيّ ، قال الذهبي : « محمد بن عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم ابن رفاعة الشيباني سديد الدولة ابن الأنباري ، كاتب الانشاء بالديوان العزيز ، له معرفة بالأدب والشعر والترسل ، بقي بديوان الانشاء نحو خمسين سنة وناب في الوزارة ، ونُفِّذ رسولاً إلى الشأم وخراسان وكان محموداً ذا رأي وتدبير ، وكانت بينه وبين أبي محمد القاسم بن علي الحريري رسائل وقد دُوِّنت . سمع عبد الله بن أحمد ابن السمرقندي وهبة الله بن الحُصين وروى عن أحمد بن محمد الخياط وأبي عبد الله محمد بن نصر القيسراني من شعرهما . سمع منه أحمد بن صالح بن شافع وعلي بن أحمد الزيدي والمبارك ابن عبد الله بن النقور وعبد المحسن بن خطلخ الأميري . توفي سنة ثمان وخمسين وخمس مئة وشيعه الوزير والأكابر . عاش نيّفاً وثمانين سنة [١] » . وقال ابن الدبيثي مؤلف أصل المختصر : « وذكر صدقة بن الحسين الناسخ في تاريخه أن سديد الدولة ابن الأنباري توفي ما بين الظهر والعصر من يوم الاثنين تاسع عشر رجب سنة ثمان وخمسين وخمس مئة وصُلّي عليه يوم الثلاثاء بجامع القصر الشريف وحضر الصلاة عليه الوزير يحيى بن هبيرة [الحنبلي] وأرباب المناصب ودُفن بالجانب الغربي بالمشهد - يعني مشهد الإمام موسى [بن جعفر الصادق] - رحمة الله عليه - وكان من مشايخ الدولة القدماء ، وكان سنّه دون التسعين بسنة أو سنتين ، وكان فيه فضل وأدب .

---

(١) المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الدبيثي « ١ : ٧٣ ، ٧٤ » ، طبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٣٧١ = ١٩٥١ .

وقال غيره : مولده يوم الاثنين سادس ذي القعدة سنة سبعين وأربعمائة ـ رحمه الله وإيانا ـ [١] » .

وكنتُ قلتُ في التعليق على ترجمته في « المختصر المحتاج إليه » ما هذا نصه « ترجمه العماد في الخريدة (نسخة باريس ، الورقة ٧) وابن الجوزي في المنتظم ١٠ : ٢٠٦ وابن الأثير في حوادث سنة ٥٥٨ وغيرها لأنه كان من كبار رجال الدولة العباسية وقضى عمره في خدمتها مخلصاً ، وله ذكر كثير في التواريخ والظاهر أن القبور التي كانت في الكاظمية المعروفة بقبور الأنباريين كانت له ولأبنائه على ما نصت عليه التواريخ من موضع دفنهم » [٢] . ثم نشر الجزء الثالث من « الوافي بالوفيات » للصفديّ سنة ١٩٥٣ بدمشق وفيه ترجمته « ص ٢٧٩ » وفي سنة ١٣٧٥ = ١٩٥٥ نشر المجمع العلمي العراقي الجزء الأول من خريدة القصر للعماد الاصبهاني الكاتب بتحقيق الأستاذ الكبير محمد بهجة الأثري ، وفيه ترجمته « ص ١٤٠ — ١٤٤ » قال العماد : « وترددت إليه ببغداد وما كان يتعاطى الشعر تغانياً عنه وكنت أهابه وأكبره من أن أستنشده ، لكنني أثبتُ من شعره البيتين والثلاثة على حسب ما أُنشدتُها فمن ذلك رباعياته الخالبة للخلب ، السالبة للبّ فمنها [٣] :

يا قلبُ إلام لا يُفيد النصحُ دع مزحَكَ كم هَوًى جناه المزحُ ؟ !
ما جارحة منك خـــلاها جرحُ ما تشعر بالخُمار حتى تصحو

---

(١) ذيل تاريخ بغداد « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٩٢١ الورقـــة ٧٤ والورقة ٧٥ » .

(٢) المختصر المحتاج إليه « ١ : ٧٣ » .

(٣) ذكر هذا الرباعي أو هذه الرباعية الصفديّ في الوافي بالوفيات « ٣ : ٢٧٩ ، ٢٨٠ » .

ومنهـا :

الدهر يعوقني عن الإلمـام مع ما(١) أنّي إلى التصابي ظامِ
لا تأخذني بمـا جنت أيامي ما ذنب السهم حين يخطي الرامي؟!

ومنهـا :

يا ريح تحملي من المهجور شكواه إلى المعسكر المنصورِ
قولي لمعذّبي شبيه الحُورِ ما أنت عن الجواب بالمعذور

ثم ذكر له من رباعياته :

الآن وما روّضه العُمر ندِي لا تخلِ من الكؤوس والراح يدي
في باقي العمر فُز بعيشٍ رغدِ إنّ الدنيـا إذا مضت لم تعُدِ

فإن كانت هذه الرباعيات من نظم أيام الشباب أمكننا أن نقول إن سديد الدولة نقل وزن الدوبيت الجديد إلى أدب العرب في أواخر القرن الخامس للهجرة أو أوائل القرن السادس كما ذكرنا آنفاً .

وبقي البحث عن حقيقة الرباعيات التي ذكرها الدكتور المحقق عمر موسى باشا مأثورة في رسالة « آداب العشرة وذكر الصحبة والاخوة » لبدر الدين محمد الغزي ، ومذكورة بلسان الجنيد الصوفي الكبير الشهير أهي الدوبيتي القديم أم الدوبيت الحديث ؟ فورودها مقرونة بالطرب والوجد يدل على أنها من المثناة القديمة لا الحديثة ، قال القاضي أبو علي المحسّن بن علي التنوخي المتوفى

(١) يستعمل كتاب العصر بدلاً من هذا التعبير « بالرغم من كذا وكذا » وهو ترجمة حرفية للعبارة الفرنسية En dépit de ... وباب المجاز مفتوح في العربية استئناسا واقتباساً إلا أن عبارة بالرغم من كذا تأتي أحياناً مناقضة لقول الكاتب ومُراده وذلك عند استعمالها للنفي كقول بعضهم : « بالرغم من أن الأشغال لم تسمح لي فقلت كذا » .

سنة ٣٧٤ : « حضرني أبو أحمد عبد الله بن عمر الحارثي وعندي صوفيّ يترنم بشيء من الرباعيّات ، فلم يستطبه أبو أحمد فقال له على البديهة : يا أخي لا أقطع حديثك إلا بخير[1] » . فالتسمية بالرباعيّة كانت شائعـــة بالعراق في القرن الرابع .

وذكر العماد الكاتب في ذلكم الجزء من الخريدة ترجمة الوزير جلال الدين أبي علي الحسن بن صدقة[2] المتوفى سنة ٥٢٢ هـ وأورد له شعراً قال : « أنشدني له محمود الكاتب المعروف بالمولّد البغدادي بالشام[3] ، وذكر أنه رآه يكتب بخطه إلى المواقف المسترشدية هذه الأبيات ... وتنسب إليه هذه الرباعيّة :

آتيكِ غداً ولو حَماكِ الأهلُ لا أرجع عنكِ أو يتمّ الوصلُ
آتيكِ ولو سُلّ عليّ النصلُ السيفُ أو الفِراقُ كلٌّ قَتْلُ » .

فان صحّ عزو الرباعية إلى الوزير جلال الدين الحسن بن صدقة تأكد شيوع الدوبيت الحديث في الأدب العربي بالقرن الخامس للهجرة ولم يبق مجال تصديق لقول الرافعي بترجيح أنه لم يكن معروفاً عند العرب قبل القرن السابع للهجرة ، وأختم بحثي بتقديمي الشكر الأوفى إلى الدكتور المحقق البارع عمر موسى باشا لاغتنامه إياي فرصـــة الكلام على الرباعيّة والدوبيت والمثناة والمترادفات .

(بغداد) مصطفى جواد

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة « طبعة مطبعة أمين هندية بالقاهرة ١ : ٥٤ » .
(٢) خريدة القصر « ١ : ٩٤ ـ ٩٦ قسم العراق » .
(٣) في هامش نسخة المتحفة البريطانية بلندن « وكان مليح الخط توفي بدمشق سنة سبعين » اهـ. يعني « سنة سبعين وخمس مئة » . (وأرقام النسخة ١٨٥٢٤ والترجمة في الورقة ٣١ منها) .

السلطانة رضية الدين
لا
جلالة الدين

ورد في الصفحة ٨٩٤ من الجزء الرابع من المجلد الثالث والأربعين من هذه المجلّة البارعة في نقد كتاب « النساء الحاكمات في الدول الإسلامية » تأليف الدكتورة التركية بحرية أوچ أوق « السلطانة جلالة الدين رضية بنت السلطان شمس الدين إيلتُتمش التي تولت الحكم سنة ٦٣٤ في دولة المماليك الأتراك في شمالي الهند » ، والذي علمناه وحفظناه أنها « رضية الدين » لا جلالة الدين ، بَلْهَ أن الاسم الثاني غاية في الغرابة ، فلم نعرف إنساناً لقب بجلالة الدين ، جاء في حوادث سنة ٦٣٥ من كتاب الحوادث « وفيها توفي شمس الدين التمش بن قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين محمد بن سام الغوري ملك الهند وملك بعده ولده ركن الدين فيروزشاه فلم يستقم له الأمر ، وتفرق عنه العسكر فقبضت عليه أخته وملكت بعده وأطاعها الجند والرعية وتلقبت (رضية الدنيا والدين) واستقام لها الأمر [1] » . واستطرد الفضل بن أبي الفضائل المؤرخ في حوادث سنة ٧٢٥ هـ إلى ذكرها وذكر أسرتها قال : « ولما قتل السلطان شهاب الدين محمد بن سالم الغوري تولى بعده قطب الدين أيبك [مملوكه] مدة قليلة ، ثم تولى الملك شمس الدين ايتمش وأقام أربعين سنة وخلف جماعة أولاد فتولى الملك بعده علاء الدين

---

(١) كتاب الحوادث الذي سُمي غلطاً الحوادث الجامعة « ص ١٠٤ » .

ثم أخوه ركن الدين تترشاه ومن بعدهما أختهما (رضية خاتون) وأقامت ثلاث سنين وقد ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخ بغداد قال : وصل الخبر إلى بغداد أن ركن الدين تترشاه بن شمس الدين ايتمش ملك الهند ولّي بعد وفاة أبيه وذلك في سنة أربع وثلاثين وستمائة للهجرة وأقام سنة فلم يستقم أمره وتفرقت عنه عساكره فقبضت عليه أخته وملكت بعده وأطاعها الجند والرعية واستقام لها الأمر وتلقبت (برضية الدنيا والدين) قال المؤرخ : وتولى بعد رضية خاتون أخوها ناصر الدين وكان متزهداً ملك أربعاً وعشرين سنة[١] . . . » وفصل تاريخ الأسرة ابن بطوطة قال : « ذكر السلطان شمس الدين للمش : وضبط اسمه بفتح اللام الأولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم ، وهو أول من ولي الملك بمدينة دهلي مستقلاً ، وكان تملكه مملوكاً للأمير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره ونائباً عنه ، فلما مات قطب الدين استبد بالملك . . . وكان عادلاً صالحاً فاضلاً . . . ولما توفي السلطان شمس الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالي بعده ومعز الدين وناصر الدين وبنتاً تسمى (رضية) وهي شقيقة معز الدين منهم فتولّى بعده ركن الدين . . . ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بالتعدّي على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته ، فأنكرت ذلك عليه فأراد قتلها ، فلما كان في بعض أيام الجمع خرج ركن الدين إلى الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم وهو يسمى دوله خانه ، ولبست ثياب المظلومين وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح ، وقالت لهم : إن أخي قتل أخاه وهو يريد قتلي معه . وذكّرتهم أيام أبيها وفعله الخير وإحسانه إليهم ، فثارُوا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو في المسجد فقبضُوا عليه وأتوا به إليها فقالت لهم : القاتل يقتل .

---

(١) النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد للمفضل بن إبي الفضائل ، نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٤٥٢٥ و ٢٠٢ » .

فقتلوه قصاصاً ، وكان أخوه ناصر الدين صغيراً فاتفق الناس على تولية رضية »
ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية اخته (رضية الملك) فولَّوها
واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والتركش والقربان ، كما
يركب الرجال ، ولا تستر وجهها ، ثم إنها اتُّهمت بعبدٍ لها من الحبشة
فاتّفق الناس على خلعها وتزويجها ، فخُلعت وزُوِّجت من بعض أقاربها ،
ووُلِّي الملك أخوها ناصر الدين . . . ولما خُلعت رضية ولي ناصر الدين أخوها
الأصغر واستقل بالملك مدة ، ثم إن رضية وزوجها خالفا عليه وركبا في
مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد ، وتهيأا لقتاله وخرج ناصر الدين ومعه
مملوكه النائب عنه غياث الدين بَلَبَن متولي الملك بعده فوقع اللقاء وانهزم
عسكر رضية وفرَّت بنفسها فأدركها الجوع وأجهدها الإعياء فقصدت حرّاثاً
رأته يحرث الأرض فطلبت منه ما تأكله فأعطاها كسرة خبز فأكلتها ،
وغلب عليها النوم وكانت في زيّ الرجال ، فلما نامت نظر إليها الحراث
وهي نائمة فرأى تحت ثيابها قباءاً مرصَّعاً فعلم أنها امرأة فقتلها وسلبها وطرد
فرسها ودفنها في فدانه وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق يبيعها ، فأنكر
أهل السوق شأنه وأتَوا به الشحنة وهو الحاكم فضربه فأقرَّ بقتلها ودلَّهم
على مدفنها ، فاستخرجوها وكفنوها ودُفنت هنالك وُبني عليها قبَّة وقبرها
الآن يُزار ويتبرك به ، وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجون
على مسافة فرسخٍ واحدٍ من المدينة ، واستقل ناصر الدين بالملك بعدها
واستقام له الأمر عشرون سنة ، وكان ملكاً صالحاً ينسخ نسخاً من الكتاب
العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها (١) » فهذه طراغوذيا (٢) رضية الدين أو رضية الملك .

(بغداد) مصطفى جواد

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار المعروفة برحلة ابن بطوطة ٢ : ٢١ ، ٢٢ طبعة مطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٣٢٢ .

(٢) أي تراجيدي كما جاء في تاريخ مختصر الدُول لابن العبري « ص ٣٤ » .

التقرير السنوي (لدورة ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨ م)

لمجمع اللغة العربية

يتفق تاريخ عقد هذه الجلسة ، وهي جلسة مجلس المجمع الختامية لدورة عام ١٩٦٨ — ١٩٦٩ م مع ذكرى مناسبة عزيزة هامة هي ذكرى مرور خمسين عاماً على مولد المجمع العلمي العربي الذي أصبح فيما بعد مجمع اللغة العربية بدمشق فلقد استقلت سورية العربية عام ١٩١٨ بعد جهاد طويل وولدت مع هذا الاستقلال فكرة إنشاء هيئة علمية رسمية تعنى باللغة العربية التي طغت عليها العجمة خلال العهد التركي الطويل ، وتعمل على حفظها وصيانتها ووضع المصطلحات العلمية والفنية والادارية الجديدة تمشياً مع حاجة عهد الاستقلال الجديد .

وعن هذه الهيئة انبثق المجمع العلمي العربي عام ١٩١٩ م أي قبل خمسين عاماً خلت وضمت إليه دار الكتب الظاهرية وجعل مقره المدرسة العادلية الكبرى بعد أن حررت من واضع اليد عليها ، وبعد أن رممت لتأخذ شكلها الحاضر ، وهذه المدرسة العادلية تعد من أقدم المدارس بدمشق وأشهرها وأجملها ، أنشأها السلطان نور الدين الزنكي وأتمها الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي لتكون تربة له ، والمدرسة العادلية هي الوحيدة بدمشق التي لم ينقطع فيها طلب العلم والتدريس منذ تأسيسها حتى يومنا هذا لقد درس فيها عدد من أئمة العلماء الأعلام منهم ابن خلكان وابن مالك وابن خلدون وغيرهم ، كما أسس المجمع داراً للآثار الإسلامية وعرض في إحدى غرفه ما تيسر له جمعه يومئذ من الآثار المبعثرة جمعها من مختلف جهات سورية ، وكانت هذه المجموعة نواة المتحف الوطني الحالي .

كان من حق المجمع علينا أن نحتفل بعيده الذهبي على نطاق عربي شامل اعترافاً بجميله وخدماته التي أسداها للغة العربية وثقافتها .

إن تأسيس مجمع دمشق مهد السبيل لتأسيس مجامع علمية في أقطار عربية أخرى كالأردن ولبنان ولم يكتب لمجمعي هذين القطرين الحياة الطويلة ، إلا أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أصبح سباقاً إلى العمل من أجل الحفاظ على اللغة العربية كما يقوم مجمع علمي آخر في القطر العراقي الشقيق بما يقوم به مجمع دمشق الذي هو أقدم المجامع في العالم العربي .

ولئن فاتنا تحقيق أمنية التكريم على الوجه الذي كنا نرجوه فلا نعدم وسيلة الدعاء له بالبقاء والاستمرار وأن تكتب له السلامة والازدهار على مر الأيام ليستمر في أداء رسالته حتى يتمها خدمة للغة العربية وثقافتها .

وقد يطول بنا الوقت لو أردنا إحصاء جميع ماحققه هذا المجمع خلال سنواته الماضية وإني لأكتفي باحالة من يرغب في معرفة ذلك إلى مقال الأستاذ الدكتور حسني سبح الذي نشره في عدد مجلة المجمع الخاص الصادر حديثاً ، والذي وزع في حينه ليجد فيه ماينقع الغلة ويطفي الأوار أو أن يعود إلى مجموعة مجلة المجمع التي هي مرآة صادقة وسجل حافل لأعماله منذ تأسيسه .

ولقد صدر من هذه المجلة حتى الآن (٤٤) مجلداً يبلغ مجموع صفحاتها نحوا من (٣٠) ثلاثين ألف صفحة تضم مختلف الأبحاث اللغوية والثقافية والتاريخية والفلسفية والأدبية ، وتعتبر هذه المجلة بحق موسوعة غنية بشتى فروع المعرفة ، كما تعتبر صورة مشرقة اللامح لنشاط المجمع في سبيل دعم النهضة الأدبية واللغوية الحديثة في سائر الأقطار العربية .

إن اللغة العربية شأنها شأن سائر اللغات الأخرى فهي لاتقوم على جهد فرد أو أفراد وإنما هي حصيلة التفاعل العميق بين أفراد أسرتها جميعاً ،

وكذلك خدمتها والسهر على سلامتها فان أمرهما يعود على أفراد أسرتها جميعاً لا إلى فئة معينة من الناس .

وتقوم مجلة مجمع دمشق بنشر ما يصلها من علماء العربية في الأقطار كافة وهي ترحب دائماً بالأبحاث القيمة والمقالات الرصينة ، وكثيراً ما نشرت من هذه البحوث وساعد المجمع على طبع بعض ماحققه العلماء من تراثنا القديم الخالد . ولم يغفل المجمع في بدء عهده ناحية هامة كانت وما تزال من أهم أغراضه وهي بعث الوعي الثقافي في البلاد ، فعمل على إلقاء سلسلة من المحاضرات الثقافية تناوب الاستماع إليها الرجال والنساء ، وقد جمع بعض هذه المحاضرات في ثلاثة مجلدات كبيرة ، كما أخذ المجمع في جملة جهوده ، بمراقبة الأقلام وتتبع هفواتها في باب (عثرات اللسان وعثرات الأقلام) فكان لهذه الناحية أثرها الطيب في تهذيب اللغة وتقويم الأقلام .

وطبع المجمع منذ تأسيسه (١٢٥) كتاباً من عيون تراثنا الأدبي القديم وحقق أكثر هذه الكتب أعضاء المجمع وغيرهم من العلماء المرموقين في سورية وغيرها من الأقطار العربية والأجنبية ، يضاف إلى هذا (٤٤) مجلداً من مجلته ، كما أسلفنا القول ، فيكون بذلك مجموع ماطبعه (١٧٩) مجلداً هي من أمهات كتب المراجعة ، وهذا العمل في مجموعه عمل كبير لا سيما إذا علمنا ضعف قدرة المجمع المادية ووسائله القليلة .

لقد عمل المجمع على أن يختار لعضويته أصحاب الكفايات من المؤمنين برسالة اللغة العربية وآدابها فضم إليه خلال مدة وجوده (٢٥١) عضواً بين عامل ومراسل وجلهم من أعلام العرب والمستشرقين ، وقد توفي منهم إلى رحمة الله (١٦٦) عضوا وبقي منهم (٧٥) عضواً ما زالوا بحمد الله يعملون وينتجون ، مد الله بعمرهم وبارك أعمالهم .

هذا أيها السادة ، لمحة عاجلة من ماضي مجمعنا ، وإليكم ملخصاً مما أنجزه في الدورة السابقة (١٩٦٧ — ١٩٦٨) .

لقد كان المجمع في دورته السابقة هذه ، قرر بعض الأعمال وعهد إلى مكتب المجمع أمر تحقيقها وقد أنجز منها أو كاد المطبوعات التالية :

١ — ديوان الخالديين ، طبع وتحقيق الدكتور سامي الدهان .

٢ — قطب السرور في أوصاف الخمور لأبي أسحق إبراهيم المعروف بالرقيق النديم القيرواني تحقيق الأستاذ أحمد الجندي .

٣ — التنبية على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الأصفهاني ، تحقيق محمد أسعد طلس ومراجعة السيدة أسماء الحمصي والأستاذ عبد المعين الملوحي .

٤ — سابق البربري ، شاعر من المغرب عاش في بلاد الشام ، بقلم الأستاذ عبد الله كنون .

٥ — خريدة القصر وجريدة العصر (بداية شعراء الشام) للعماد الأصفهاني الكاتب تحقيق الدكتور شكري فيصل .

٦ — فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم الحديث) وضع الأستاذ ناصر الدين الألباني .

٧ — فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم الطب) وضع الدكتور سامي خلف حمارنة .

٨ — ديوان ابن هرمة ، جمع وتحقيق الأستاذ محمد النفاخ والدكتور حسين عطوان .

٩ — فهرس المجلدة العاشرة من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر . وضع الآنسة ملك هنانو .

١٠ — مجلة مجمع اللغة العربية المجلد (٤٣) لسنة ١٩٦٨ .

ويوجد تحت الطبع :

١ — كتاب التلخيص في أسماء الأشياء لأبي هلال العسكري ، تحقيق الدكتور عزة حسن .

٢ — نظرة عيان وتبيان في مقاله أسماء أعضاء الإنسان ، للدكتور صلاح الدين الكواكبي .

٣ — كتاب اللامات للزجاجي ، تحقيق الدكتور مازن المبارك .

٤ — ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

المجلة :

صدر من مجلة مجمع اللغة العربية المجلد (٤٤) لعام ١٩٦٩ العددان الأول والثاني في عدد خاص عدد صفحاته (٤٣٨) صفحة اشترك في تحريره أعضاء المجمع العاملون والمراسلون .

الانتخابات :

١ — انتخب اللواء الركن محمود شيت خطاب (العراق) عضواً مراسلاً
٢ — الأستاذ ناصر الدين الأسد (الأردن) عضواً مراسلاً
٣ — الدكتور فيصل دبدوب (العراق) عضواً مراسلاً
٤ — الأستاذ الدكتور ناجي معروف (العراق) عضواً مراسلاً

استقبال أعضاء :

استقبل المجمع بجلستين عامتين زميلين كريمين رشحهما لعضوية المجمع علمهما وفضلهما وإخلاصهما لمبادئ المجمع وهما الأستاذان : وجيه السمان وعبد الهادي هاشم وكلاهما من الصفوة الممتازة من أعلام الفكر والمعرفة والنشاط .

اتصالات المجمع :

قام الأستاذ الرئيس برحلة إلى مصر والعراق واتصل بمجمعي القاهرة وبغداد وبحث معهما أمر تعزيز العلاقات الأخوية فيما بين المجامع الثلاثة والتعاون فيما بينهم عن طريق تبادل المطبوعات وغيرها . وكانت الاتصالات مثمرة ومفيدة تكللت بالنجاح ، وقد تم التبادل في المطبوعات فعلاً .

إهداء مكتبات :

١ — نفذ ورثة المرحوم الرئيس الأمير مصطفى الشهابي وصية مورثهم وسلموا المجمع جميع ما أوصى به المرحوم من كتب وأثاث ومخلفات وتم تسلمها ، وهي الآن قيد التسجيل والإحصاء .

٢ — كذلك نفذ ورثة المرحوم الشيخ حامد التقي وصيته وسلموا المجمع خزانة كتب المرحوم مورثهم ، وذلك بمساعي الأستاذ الزميل الشيخ محمد بهجة البيطار .

٣ — وأهدى الأستاذ خالد خليل مكتبة المرحوم والده الدكتور خليل خالد .

فلأولئك جميعاً شكر المجمع وتقديره .

إنشاءات :

إن مشروع دار الكتب الظاهرية قد بلغ مرحلته النهائية وسيتم المشروع في وقت قريب وسيجد الرواد القاعة الكبيرة من هذا البناء مجهزة بكل أسباب الراحة .

الوفيات :

ولن ينسى المجمع في حديثه عن هذه الدورة أن يذكر بالأسف والرحمة الأعضاء الراحلين ممن وافتهم المنية هـذا العام وهم المغفور لهم : الأساتذة ساطع الحصري وحسن حسني عبد الوهاب ومنير القاضي رحمهم الله رحمة واسعة وأجزل ثوابهم .

المؤتمرات :

وقد دعي المجمع المشاركة في مؤتمرات عدة منها ، المؤتمر الرابع لعلوم الرياضيات في بخارست (رومانيا) والمعرض الدولي للمطبوعات العلميـة الذي سيعقده المجمع العلمي في بولون (ايطاليا) .

وقد لبى المجمع دعوة مؤتمر المصطلحات الطبية الذي عقد في الموصل (العراق) ومثل المجمع فيه الأستاذ الرئيس الدكتور حسني سبح ، كما شارك المجمع بشخص رئيسه وعضوه الدكتور شكري فيصل في الحفل الذي أقامه مجمع اللغة العربية في القاهرة تأبيناً المغفور له الأمير مصطفى الشهابي رئيس مجمع دمشق ، وأحد أعضاء مجمع القاهرة سابقاً .

كما زار المجمع وفود شخصيات علمية كثيرة منها ، وفد المكتب الدائم للتعريب في الرباط ووفد الصداقة الآزربيجانية .

دار الكتب الظاهرية :

وإليكم في النهاية تقرير مديرية دار الكتب الظاهرية السنوي وخلاصة عن نشاطها وأنواع الكتب والمطبوعات فيها :

إلى الأمانة العامة لمجمع اللغة العربية

نرفع إليكم التقرير السنوي لدار الكتب الوطنية الظاهرية عن عام ١٩٦٨ .

آ ــ الكتب المخطوطة :

١ ــ بلغ عدد المخطوطات التي دخلت الدار خلال العام المنصرم (٦٦) مخطوطة .

٢ ــ بلغ عدد الأفلام المصورة لمخطوطات دار الكتب الظاهرية (٢٥٧) فلماً .

ب ــ الكتب المطبوعة :

١ ــ بلغ عدد الكتب التي دخلت الدار (١٤٢٥) كتاباً منها :

آ ــ (٤٩٢) كتاباً مشترى .

ب ــ (٧٤٩) 〃 مهدى .

ج ــ الدوريات :

هناك (٤٩٥) عدداً من مجلات مختلفة سجلت في سجلات الدار .

د ــ الرواد :

بلغ عدد قراء دار الكتب الظاهرية ١٨٩٣٣ مطالعاً .

يرجى التفضل بالاطلاع وأخذ العلم .

١٩٦٩/٤/٢٧

مدير دار الكتب الظاهرية

الدكتور عزة حسن

بيان في مشروعات

دورة المجمع لعام ١٩٦٩ — ١٩٧٠

أرحب بالسادة الزملاء أعضاء المجمع أطيب ترحيب وأتمنى لهم في دورتهم الجديدة نشاطاً موفوراً وجهداً مشكوراً ، كما أتمنى لهم دوام الصحة والعافية ، وآمل أن تكون العطلة الصيفية وما كان فيها من استجمام وراحة حافزاً على الجهد وباعثاً على الدأب في كل مجال من مجالات العمل المجمعي الذي يجتمع مجلسكم الموقر من أجله .

أيها الاخوة الزملاء ، إننا نبدأ في جلستنا هذه مرحلة جديدة ، بعد انقضاء خمسين سنة على تأسيس مجمعنا هذا ، ولقد كانت المرحلة التي مرت بنا مرحلة إنشاء وتأسيس ، وفترة وضعت فيها القواعد العلمية والركائز التي يستند إليها هذا الصرح ، أما المرحلة الجديدة فهي مرحلة نشاط جديد ، يرمي إلى رفع مستوى المجمع وإعلاء شأنه في كل هدف من أهدافه وكل غاية من غاياته العلمية المقدسة .

وأول ما نفتتح به عهد المجمع الجديد هذه المناسبة الكبرى التي هي أسبوع العلم العاشر الذي سيقع في الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني من هذا العام ١٩٦٩ وسيشترك المجمع في هذا العيد الكبير ليحتفل بمرور خمسين عاماً على إنشائه ، وقد خصصت له أيام خاصة يتحدث بها المجمعيون عن تاريخ المجمع ونشاطه والخدمات التي أسداها للغة العربية وثقافتها وآدابها وصراحة على ما قامت به هذه المؤسسة من خدمات كبرى وقد دعا المجمع إلى المشاركة في هـــذا الاحتفال رئيسي ونائبي الرئيسين والأمينين العامين لمجمعي القاهرة وبغداد والأمين العام لمكتب التعريب في الرباط .

المشروعات :

إن لدى المجمع في هذه الدورة الجديدة مشروعات كثيرة نرجو أن يتحقق جلها إن لم تساعد الظروف على تحقيقها كلها ومن أهمها :

١ – ملء الشواغر بانتخاب الأعضاء العاملين والمراسلين في المجمع .

٢ – وألفت نظر السادة الزملاء في هذه المادة إلى ضرورة السعي لتعديل ملاك المجمع ودار الكتب الظاهرية فإن كثرة الأعمال أصبحت تتطلب هذا التعديل ، كما أن وضع المجمع قد أصبح يقضي بتعديل بعض المراتب والدرجات في المديريات المنبثقة عن هذه المؤسسة العلمية الجليلة .

المطبوعات :

١ – سيعمد المجمع إلى إكمال المطبوعات التي بوشر بها سابقاً وهي :

آ – فهرس المجلدة العاشرة من تاريخ ابن عساكر وضع الآنسة ملك هنانو .

ب – فهرس مخطوطات قسم الطب للأستاذ سامي حمارنة .

ج – كتاب «ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب» تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

د – فهرس مخطوطات علوم الحديث من وضع الأستاذ ناصر الدين الألباني .

هـ – طبع الجزء الثاني من كتاب التلخيص في أسماء الأشياء للعسكري . تحقيق الدكتور عزة حسن .

٢ — المباشرة بطبع الكتب الآتية :

آ — ديوان الشاعر ابن أحمر تحقيق الدكتور محمد عطوان الأستاذ في الجامعة الأردنية .

ب — ديوان عرقلة الكلبي تحقيق أحمد الجندي .

ج — طبع ديوان ابن القيسراني تحقيق السيدة أسماء الحمصي .

د — طبع ديوان الغزي تحقيق الدكتور شكري فيصل .

ه — طبع رسائل الصابي تحقيق الدكتور سامي الدهان .

و — طبع « الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز » للشيخ عبد الغني النابلسي وتحقيق الأستاذ عارف النكدي .

ز — طبع فهرس مخطوطات علم الهيئة والفلك عند العرب وضع الأستاذ ابراهيم الخوري .

ح — طبع فهرس مجلة المجمع (الجزء الرابع) من الجزء ٣١ — ٤٠ وضع الأستاذ عمر رضا كحالة .

ط — طبع فهرس مخطوطات قسم الأدب واللغة في دار الكتب وضع السيدة أسماء الحمصي .

ي — طبع القسم الثاني من الجزء الثاني من تاريخ دمشق لابن عساكر تحقيق الآنسة ملك هنانو .

ك — طبع المجلد (٤٥) من مجلة المجمع .

٣ — وقد قرر المجمع إعادة طبع أكبر عدد من مطبوعاته ومن أعداد مجلته التي نفدت وباشر طبع المجلد الأول من المجلة .

أما المشروعات التي تتعلق بدار الكتب الظاهرية خاصة فأهمها :

آ — السعي إلى إنجاز المرحلة الثانية من توسيع بنـاء دار الكتب لتصبح وافية بالغرض الذي أنشئت من أجله .

ب — تصوير ما بقي من مخطوطات دار الكتب .

الوفيات :

فجع المجمع بوفاة عضو بارز من أعضائه المراسلين وهو الدكتور عبد الرحمن الكيالي رحمه الله .

هذا ما أمكن الإشارة إليه في بياننا الجديد لدورة عام ١٩٦٩ — ١٩٧٠ من أعمال ومشروعات راجياً أن تتوفر الأسباب لتحقيقها .

مجمع اللغة العربية
الأمين العام
جعفر الحسني

إهداء كتب

١ ــ نفذ ورثة المرحوم الرئيس الأمير مصطفى الشهابي وصية مورثهم ، وسلموا المجمع جميع ما أوصى به المرحوم من كتب وأثاث ومخلفات وتم تسلمها ، وهي الآن قيد التسجيل والإحصاء .

٢ ــ كذلك ونفذ ورثة المرحوم الشيخ حامد التقي وصيته ، وسلموا المجمع خزانة كتب المرحوم مورثهم ، وذلك بمساعي الأستاذ الزميل الشيخ محمد بهجة البيطار .

٣ ــ وأهدى الأستاذ خالد خليل مكتبة المرحوم والده الدكتور خليل خالد ، فلأولئك جميعاً شكر المجمع وتقديره .

الوفيات

ويذكر المجمع بالأسف والرحمة الأعضاء المجمعيين الراحلين ممن وافتهم منيتهم هذا العام وهم المغفور لهم : الأستاذ الكبير ساطع الحصري من العراق والأستاذ حسن حسني عبد الوهاب من تونس ، والأستاذ منير القاضي من العراق رحمهم الله رحمة واسعة وأجزل ثوابهم .

الكتب المهداة إلى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

خلال عام ١٩٦٩

	العدد
١ — أنشودة لينغراد ترجمة محمد جديد وميشيل كيلو	١
٢ — الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه تيسير شيخ الأرض	١
والدكتور أسعد درقاوي	١
٣ — العالم الثالث ترجمة حسام الخطيب وهيفاء هاشم	٢
٤ — دستور ألمانيا الديموقراطية	١
٥ — سعدي الشيرازي (البستان) ترجمه شعراً محمد الفراتي	٢
٦ — من دفتر الصامت محمد عفيفي مطر	٢
٧ — جرائم الحرب في فيتنام برتراند رسل محمود فلاحة	١
٨ — تاريخ خليفة بن خياط (القسم الثاني)	١
٩ — الحياة الجديدة ذكرى شوقي (عدد ممتاز)	١
١٠ — ديوجين مصباح الفكر (العدد السابع)	١
١١ — ميمونه عبد الله ساجي	١
١٢ — مخطوطات عربية في مكتبة صوفيا البلغارية(المجمع العلمي العراقي)	١
١٣ — داود باشا ونهاية المماليك في العراق (المجمع العلمي العراقي)	١
١٤ — مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ١٦	١
١٥ — في الأدب العربي الحديث يوسف عز الدين	١
١٦ — فهارس مجلة المجمع العلمي العراقي	١

	العدد
١٧ — مع الريح عبد السلام عيون السود	١
١٨ — الأرض والسماء ترجمة أدهم السمان	١
١٩ — بيت الإنسانية أكبر عمار خاتم ترجمة	١
٢٠ — الفن الإسلامي جورج ماسيه عفيف بهنسي	١
٢١ — افلاطون طيماوس ترجمة فؤاد بَربَارة	١
٢٢ — دروس في الكيمياء الفيزيائية (الجزء الأول)	١
٢٣ — مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية (العدد ١٩)	١
٢٤ — ديوان قيس بن الخطيم ناصر الدين الأسد	١
٢٥ — ديوان الطرماح عزة حسن	١
٢٦ — القيان والغناء في العصر الجاهلي ناصر الدين الأسد	١
٢٧ — محاضرات في الشعر الحديث ناصر الدين الأسد	١
٢٨ — محاضرات عن خليل بيدس	١
٢٩ — التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد	١
٣٠ — الكيمياء العامة (الجزء الأول والثاني) التعليم العالي	١
٣١ — مختصر لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية	١
٣٢ — درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة	١
٣٣ — مناقشات مع الدكتور مصطفى جواد رؤوف جمال الدين	١
٣٤ — الاجراءات الادارية للخطيب	١
٣٥ — الأدب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي	١

	العدد
٣٦ ــ الأعلام العربية للسامرائي	١
٣٧ ــ المعجم العربي حسين نصار (جزآن)	١
٣٨ ــ أمراء البيان	١
٣٩ ــ حكاية الأيام الثلاثة	١
٤٠ ــ مجموعة القواعد القانونية التي قررتها محكمة النقض في قضايا العمل	١
٤١ ــ العمل العلمي في البلاد المبتدئة شيث سليمان	١
٤٢ ــ الاسلام والثقافة العربية أنور الجندي	١
٤٣ ــ امارة بهدينان العباسية محفوظ محمد عمر	١
٤٤ ــ نصف العيش الدكتور عادل البكري	١
٤٥ ــ ألوان من الجزائر (شعر) محمد الأخضر عبد القادر السباعي	١
٤٦ ــ مالك حداد رصيف الأزهار	١
٤٧ ــ البحرية الجزائرية	١
٤٨ ــ تاريخ الجزائر في القديم والحديث مبارك محمد الهلالي (٣ أجزاء)	١
٤٩ ــ عيون البصائر محمد البشير الابراهيمي	١
٥٠ ــ الفوائد المهمة وجيه الجباوي	١
٥١ ــ التنين عماد حاتم	٢
٥٢ ــ يا مال الشام سهام ترجمان	١
٥٣ ــ قول على قول حسن سعيد الكرمي	١
٥٤ ــ نساء متفوقات سلمى الحفار الكزبري	١

		العدد
٥٥ — عينان من اشبيلية	سلمى الحفار الكزبري	١
٥٦ — الكيمياء الفيزيائية (الجزء الأول ، المجلد الثالث)		١
٥٧ — رسائل في النحو واللغة		١
٥٨ — سورية الثورة في عامها السادس	وزارة الاعلام السورية	٣
٥٩ — تاريخ فن الحرب	ستروكوف	٢
٦٠ — رسائل في النحو واللغة	الدكتور مصطفى جواد والأستاذ يعقوب مسكوني	١
٦١ — مدخل إلى فلسفة التاريخ عند هيجل	ترجمة أنطون حمصي	١
٦٢ — ليبق فرحي دائماً	جان جيونو ترجمة سعيد القضماني	١
٦٣ — رباب الكاظمي ـ دراسة وشعر	عبد الرحيم محمد علي	١
٦٤ — الكيمياء العامة (الجزء الثاني)	كلية العلوم بجامعة دمشق	١
٦٥ — بطاركة الشرق	أغناطيوس يعقوب الثالث	١
٦٦ — الغابة المنسية	أحمد مخيمر	١
٦٧ — النبوّة	سعدي ليبن	١
٦٨ — اللمعة الدمشقية (الجزء ٧)	محمدجمال الدين مكي العاملي	١
٦٩ — الفيزياء النظرية (الجزء الأول)	وزارة التعليم العالي	١
٧٠ — معجم تاج العروس (الجزء ٥)	الزبيدي	١
٧١ — من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث	ابراهيم الراوي	١
٧٢ — عبر وعبرات	جواد المرابط	١

	العدد
٧٣ — معجم الهندسة الميكانيكية روسي عربي كيفوركمينارجيان	١
٧٤ — المعجم الفني 〃 〃 〃 〃	١
٧٥ — الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق فاضل الخالدي	١
٧٦ — العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٧ أجزاء) أبو الطيب الفاسي	١
٧٧ — المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية تأليف محمد بن أحمد العقيلي (قدّم الكتاب الأستاذ حمد الجاسر) .	١

فهرس المجلد الرابع والأربعين

الجزء الأول والثاني

آراء وأنبـــاء

الجزء الثالث

التعريف والنقد

آراء وأنباء

الجزء الرابع

التعريف والنقد

تابع فهرس الجزء الرابع

آراء وأنباء

صفحة